وصلت هذه الرواية إلى القائمة القصيرة لجائزة مان بوكر ٢٠١٧

بول أوستر

٤٣٢١

ترجمة ومراجعة وتحرير: أحمد م. أحمد
شارك في الترجمة: سوسن سلامة - حسام موصللي



المتوسط



بول أوستر: ولد عام ١٩٤٧، وهو روائي، وناقد، وشاعر، ومترجم، وسينارست ومخرج وممثل ومنتج سينمائي. يعيش حالياً في بروكلين في نيويورك.

أوستر هو من أبرز الشخصيات في الأدب الأمريكي والعالمي المعاصر. يُنسب إلى أدب ما بعد الحداثوية.

اثنا عشر كتاباً لأوستر كانت الكتب الأكثر مبيعاً في العالم، ليكون كتابه هذا هو الثالث عشر. كما أن كتبه تُرجمت لمعظم لغات العالم.

المتوسط



الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

۱ ۲ ۳ ۴

المؤلف: بول أوستر / المترجم: أحمد م. أحمد - سوسن سلامة - حسام موصللي
عنوان الكتاب: ٤ ٣ ٢ ١
الطبعة الأولى: ٢٠١٨.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-85771-72-7



منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

بول أوستر

١٢٣٤

ترجمة ومراجعة وتحرير: أحمد م. أحمد
شارك في الترجمة: سوسن سلامة - حسام موصللي



المتوسط



إلى
سيري هاستفت



1.0

وفقاً لأسطورة العائلة، غادر جَدّ فيرغسون مدينته الأصلية مينسك سيراً على الأقدام، وبحوزته مئة روبل مخيطة في بطانة سترته. توجّه غرباً إلى هامبورغ عبر وارسو وبرلين، ثمّ حجز مكاناً له على سفينة تُدعى *إمبراطورة الصين*، عبرت به الأطلسي في أثناء هبوب عواصف الشتاء القاسية، وأبحرت نحو ميناء نيويورك في اليوم الأوّل من القرن العشرين. وبينما كان ينتظر مقابلة موظّف الهجرة في جزيرة إيليس، استهلّ محادثة مع يهودي روسي يقف خلفه في الصّفّ. قال الرجل له: *انسَ اسم ريزنيك تماماً. فلن يكون لصالحكَ هنا. تحتاج اسماً أميركياً لحياتكَ الجديدة في أمريكا، شيء له رنّة أمريكية جيّدة.* وبما أن الإنكليزية كانت في عام 1900 لا تزال لغة غريبة على إسحاق ريزنيك، طلب من مواطنه الأكبر سنّاً والأوسع خبرة أن يقترح عليه اسماً. *أخبِرْهم أن اسمكَ روكفلر*، قال الرجل. *لن تُخطئ بذلك.* مرّت ساعة، ثمّ ساعة أخرى، وبحلول وقت مقابلة ريزنيك ذي التاسعة عشرة من العمر وجلوسه أمام موظّف الهجرة، كان قد نسي الاسم الذي اقترحه عليه الرجل. *اسمكَ؟* سأل الموظّف. ضرب على رأسه بحسرة، رطن المهاجر المنهَك باليديشية، *إيخ وب فارغسن* (*لقد نسيتُ*)! وهكذا بدأ إسحاق ريزنكوف حياته الجديدة في أمريكا باسم إتشابود فيرغسون.

سبّب له هذا الاسم مشاكل عديدة، خاصّة في البداية، حتّى بعد انقضاء مرحلة البداية، إذ لم يمضِ أي شيء كما تخيّله في بلده الذي تبنّاه. صحيح أنه تمكّن من إيجاد زوجة له بعد عيد ميلاده السادس والعشرين مباشرةً، وصحيح أيضاً أن هذه الزوجة، فاني، المولودة لعائلة غروسمان، أنجبت له ثلاثة أبناء أقوياء وأصحّاء، إلا أن الحياة في أمريكا بقيت صراعاً بالنسبة إلى جَدّ فيرغسون من اليوم الذي غادر فيه السفينة حتّى ليلة 7 آذار 1932، حين لقي حتفه مبكّراً وبشكل غير متوقّع في عمر الثانية والأربعين - مقتولاً بطلق ناري في سطو مسلّح على مستودع البضائع الجلدية في شيكاغو، حيث كان يعمل حارساً ليلياً.

لم يبقَ أثرٌ لصورة له، لكنه، وبالمقياس كله، كان رجلاً ضخماً، بظهر قوي ويدين هائلتين، غير متعلّم، وتعوزه المهارة، غرّاً لا يعرف أي شيء. صادف، في الظهيرة الأولى له في نيويورك،

بائعاً جوّالاً على الطريق، يبيع أكثر تفّاح رآه في حياته حمرةً واستدارةً واكتمالاً. عجز عن مقاومته، اشترى واحدة، وقضمها بنهم. إلا أن الحلاوة المرتقبة، بدت طعماً مرّاً وغريباً. وأسوأ من ذلك، أن التّفّاحة كانت منفّرة الطعم أيضاً، وحالما اخترقت أسنانه قشرتها، اندلق لبّ الفاكهة على مقدّمة معطفه ناضحاً بسائل أحمر شاحب منقّط بأعداد كبيرة من الحبيبات -المشابهة للبذور. وهكذا كان المذاق الأوّل لعالمه الجديد، لقاؤه الأوّل - الذي لم ينسَهُ قطّ - مع بندورة جيرسي.

لم يكن روكفلر حينها، وإنما حمّالاً عريض المنكبين، عملاقاً يهودياً، يحمل اسماً غريباً، ويجرّ قدمين متعبتين، جرّب حظّه في مانهاتن وبروكلن، وبالتيمور وتشارلستون، ودولوث وشيكاغو، متنقّلاً في أشغاله ما بين عامل يدوي، وبحّار مبتدئ على متن ناقلة في البحيرات الكبرى، وسائس حيوانات في سيرك متنقّل، وعامل خطّ تجميع في مصنع لعلب القصدير، وسائق شاحنة، وحفّار خنادق، وحارس ليلي. لم يجنِ مقابل ذلك الكدح كله، سوى بضعة سنتات ونكلات، ولذلك كانت الحكايات التي رواها لزوجته وأبنائه الثلاثة عن مغامرات التّشرّد في شبابه، الشيء الوحيد الذي أورثه إليهم *إيك* فيرغسون المسكين. قد لا تكون القصص، على المدى الطويل، أقلّ قيمة من المال، لكنْ، لها على المدى القصير أمدها المحتوم.

خلصت شركة البضائع الجلدية إلى تسوية صغيرة مع فاني، لتعويضها عن خسارتها، وغادرت بعدئذٍ شيكاغو مع الأولاد، إلى نيوارك، نيوجرسي، بناء على دعوة من أقارب زوجها، الذين منحوها شقّة في الطابق الأعلى من منزلهم في "سنترال وارد" لقاء إيجار شهري رمزي. كان أبناؤها في الرابعة عشرة، والثانية عشرة والتاسعة من أعمارهم. لويس، الأكبر، كان قد أصبح ليو منذ زمن. آرون، الولد الأوسط، أطلق على نفسه اسم أرنولد بعدما أبرح ضرباً في باحة المدرسة في شيكاغو، وستانلي، ذو التسع سنوات، كان قد عُرِف اختصاراً باسم سوني. عملت أمّهم، لتغطية مصاريفهم، في غسيل الملابس ورتقها، لكنْ، قبل فترة طويلة من ذلك، كان الأولاد يساهمون في مصاريف البيت أيضاً، كان لكل منهم عمل بعد المدرسة، وقد درج الجميع على تسليم أمّهم كل سنت كانوا يجنونه. كانت أوقاتاً عصيبة، هيمن نذير الفاقة والعوز على أرجاء الشّقّة، كما ضباب كثيف مخاتل. لم يكن هناك ثمّة مهرب من الخوف، وشيئاً فشيئاً تشرّب الصبيان الثلاثة خلاصات أمّهم الوجودية الداكنة عن غاية الحياة. إمّا العمل أو التّضوّر جوعاً. إمّا العمل أو فقدان السقف الذي يأويكَ. إمّا العمل أو الموت. لم تكن الفكرة الخرقاء القائلة إن الجماعة للفرد والفرد للجماعة موجودة بالنسبة إلى فيرغسون. ففي عالمهم الصغير، كانت الجماعة للجماعة أو لا شيء.

لم يكن فيرغسون قد أتمّ الثانية حين توفّيت جَدّته، ما فسّر غياب الذكريات الواعية عنها،

إلا أن فاني كانت امرأة صعبة ومتقلّبة المزاج وفقاً لحكاية العائلة، عُرضة لنوبات صراخ عنيف، وانفجارات جنونية من النشيج الخارج عن السيطرة، ضربت أبناءها بالمكانس كلّما أساؤوا التّصرّف، ومُنِعت من دخول عدد من متاجر الحيّ بسبب مساومتها الصاخبة على الأسعار. لم يعرف أحد أين وُلدت، لكنْ، شاع أنها وصلت نيويورك وهي يتيمة في الرابعة عشرة من عمرها، وأمضت سنوات عدّة في عليّة بلا نوافذ في "لور ايست سايد"، تصنع القبّعات. نادراً ما تحدّث والد فيرغسون، ستانلي، لابنه عن والديه، مجيباً عن أسئلته، بإجابات متحفّظة وجيزة فقط، ومن تلك الأكثر إبهاماً، وأيّاً كانت المعلومات الشحيحة التي تمكّن الشّابّ فيرغسون من معرفتها عن جَدَّيْه لأبيه، فإنها جاءت حصرياً من أمّه، روز، الأصغر بين كنّات عائلة فيرغسون الثلاثة من الجيل الثاني، والتي بدورها حصلت على معظم معلوماتها من ميلي، زوجة ليو، المرأة الثرثارة المتزوّجة من رجل أقلّ كتماناً بكثير، وأكثر ثرثرة بكثير من ستانلي أو أرنولد. حين كان فيرغسون في الثامنة عشرة من عمره، أخبرتْه أمّه واحدة من قصص ميلي، ومهّدت لها على أنها ليست أكثر من إشاعة، جزء من تخمين غير مؤكّد، قد يكون حقيقياً - وقد لا يكون. وفقاً لما قاله ليو لـ ميلي، أو ما قالت ميلي أنه قد قصَّه عليها، كان هناك طفل رابع لعائلة فيرغسون، فتاة وُلدت بعد ستانلي بثلاث أو أربع سنوات، خلال الفترة التي استقرّت فيها العائلة في دولوث، وكان إيكي يسعى فيها للعمل بحّاراً مبتدئاً على سفينة البحيرات الكبرى. وفي ذلك الحين، كانت العائلة تعيش على مدى أشهر طويلة فقراً مدقعاً، إذ كان إيكي قد توفيّ مع وضع فاني حملها، ولأن المكان ليس إلا مينيسوتا والفصل شتاء، شتاء قارس على نحو خاصّ، في مكان بارد على نحو خاصّ، ولأن تدفئة البيت الذي عاشوا فيه اعتمدت على موقد واحد لحرق الخشب، ولأنه لم يتوفّر إلا القليل من المال، بحيث إن فاني والصبيان خفّضوا وجباتهم إلى واحدة في اليوم، فإن فكرة الاضطرار إلى رعاية طفل آخر ملأتها جزعاً، ما دفعها لأن تُغرق وليدتها في حوض الاستحمام.

إن كان ستانلي قد حدّث ابنه بالقليل عن والديه، فإنه ما كان ليقول الكثير عن نفسه أيضاً. ما جعل من الصعب على فيرغسون تكوين صورة واضحة عن ما كان عليه أبيه طفلاً، أو يافعاً، أو شابّاً، أو أي شيء من هذا القبيل لحين زواجه من روز بعد شهرين على إكماله الثلاثين. تمكّن فيرغسون من خلال التعليقات المرتجلة التي عبرت أحياناً شفَتَي أبيه أن ينتهي إلى هذا القدر من الحقائق: غالباً ما تعرّض ستانلي للمضايقة والركل من أشقّائه الأكبر سنّاً، ولأنه أصغر الثلاثة، فقد كان هو مَنْ أمضى أقلّ فترة من طفولته دون أن يكون يتيم الأب، وكان الأكثر تعلّقاً بفاني، ولأنه كان الطالب المجتهد والرياضي الأفضل من بين أخوته، ودون أن يتكبّد أي عناء، ولأنه لعب في موقع متقدّم مع فريق كرة القدم، وركض ربع الميل الخاصّة بفريق السباق في "سنترال هاي"،

ولأن موهبته في الإلكترونيات قادتْه في الصيف الذي أعقب تخرّجه في المدرسة الثانوية في 1932 إلى افتتاح محلّ صغير لتصليح الراديوهات (*ثقب في الحائط* في *"أكاديمي ستريت" وسط مدينة نيوارك*، كما وصفه، *بالكاد يتجاوز مساحة كشك تلميع أحذية*)، ولأن عينه اليمنى جُرحت إثر إحدى ثورات غضب أمّه الساحقة بالمكنسة عندما كان في الحادية عشرة من عمره (تسبّبت له بعمى جزئي، ما أدّى إلى عَدِّه غير لائق للخدمة العسكرية إبّان الحرب العالمية الثانية)، ولأنه احتقر لقب سوني، وتخلّى عنه ما إن غادر المدرسة، ولأنه أحبّ الرقص ولعب التنس، ولأنه لم ينطق بكلمة واحدة بحقّ أخوَيْه مهما عاملاه بسفاهة وحقارة، ولأنه اشتغل بعد المدرسة في طفولته في توصيل الجرائد، ولأنه فكّر جاداً بدراسة القانون، وإن تخلّى عن الفكرة فيما بعد لأسباب مالية، ولأنه عرف في العشرين من عمره بأنه معشوق النساء، وواعد الكثير من الشّابّات اليهوديات من دون نيّة بالارتباط بأي منهنّ، ولأنه قام في الثّلاثينيّات برحلات قصيرة عديدة إلى كوبا حين كانت هافانا عاصمة الخطيئة بالنسبة إلى النصف الغربي من الكرة الأرضية، ولأن طموحه الأعظم في الحياة كان أن يصبح مليونيراً، بثراء روكفلر.

تزوّج كلّ من ليو وأرنولد في بداية العشرينيات من عمرَيْهما، ووضع كل واحد منهما نصب عينَيْه التّحرّر بأسرع ما يمكن من بيت فاني المعتوهة، والفرار من الملكة الزاعقة التي حكمت أسرة فيرغسون منذ وفاة والدهما عام 1923، لكن ستانلي، الذي كان لا يزال مراهقاً، لم يُترك له من خيار سوى البقاء، حين فرّ شقيقاه. ورغم كل شيء، فإنه أنهى دراسته الثانوية، لتتوالى السنين منذ ذاك الحين، سنة تلو أخرى، إلى أن صارت إحدى عشرة سنة، مواصلاً مكوثه، ومشاركته لأسباب مجهولة شقّة الطابق الأعلى نفسها مع فاني في فترة الكساد الاقتصادي والنصف الأوّل من الحرب. ومن المحتمل أنه علق هناك بسبب الخمول والكسل، أو ربّما بدافع من الواجب أو الذنب تجاه أمّه، أو ربّما بسبب ذلك كلّه، ما جعل من المستحيل عليه تخيّل العيش في أي مكان آخر. رُزق كلّ من ليو وأرنولد أطفالاً، بينما بدا ستانلي مقتنعاً بعلاقاته المتعددة، مُبدِّداً كثيراً من طاقاته على التّوسّع بأعماله الصغيرة، ولأنه لم يُظهِر ميلاً للزواج، حتّى عندما تجاوز منتصف العشرينيات من عمره، واقترب من حافّة الثلاثين، برز شكٌّ طفيف بأنه سيبقى عازباً لبقية حياته. فيما بعد، في شهر تشرين الأوّل عام 1943، بعد أقلّ من أسبوع من انتزاع الجيش الأمريكي الخامس نابولي من الألمان، في منتصف تلك الفترة المفعمة بالأمل حين كانت الحرب قد بدأت في نهاية المطاف بالتّحوّل لصالح الحلفاء، قابل ستانلي روز إدلر ذات الواحد والعشرين عاماً للمرّة الأولى في مدينة نيويورك، وإذا بسحر العزوبية الدائمة يُردى صريعاً وللأبد.

كانت والدة فيرغسون فائقة الجمال، شديدة الفتنة بعينيها رماديَّتَي الخضرة وشَعْرها البنّي

الطويل، وَجِلَة وعفوية وسريعة التّبسّم، تشكّلتْ بجاذبيتها كلها ضمن تكوين من خمس أقدام وستّ بوصات، لدرجة أن ستانلي، حين صافح يدها للمرّة الأولى، ستانلي القَصِيّ المنعزل عادة، ستانلي الذي بلغ التاسعة والعشرين، ولم تلسعه نار الحبّ قطّ، شعر بذاته تتلاشى في حضور روز، كما لو أن الهواء كله قد سُحب من رئتَيْه، ولم يعد بمقدوره التّنفّس.

كانت، هي أيضاً، ابنة لمهاجرَيْن، أب وُلد في وارسو وأمّ وُلدت في أوديسا، كلاهما وصل أمريكا قبل أن يُتمّا الثالثة من عمرَيْهما. وبالتالي كانت عائلة إدلر أكثر اندماجاً من عائلة فيرغسون، ولم تحمل أصوات والدي روز أي أثر للكنة أجنبية. لقد ترعرعا في ديترويت وهدسون في نيويورك، وتراجعت يديشيةُ أهليهما وبولنديّتهما وروسيّتهما مفسحة المجال أمام إنكليزية سليمة طليقة، بينما كافح والد ستانلي لإتقان لغته الثانية حتّى آخر يوم في حياته، وما زالت أمّه إلى الآن، في عام 1943، بعد قرابة نصف قرن على مسح أصولها في أوروبا الشرقية، تقرأ صحيفة "ذا جويش ديلي فورورد" عوضاً عن الصحف الأمريكية، وتعبّر عن نفسها بلغة مهشّمة غريبة، أسماها أبناؤها بالـ "الإيدليزية"، لهجة عاميّة غير مفهومة، تمزج الإيديشية بالإنكليزية في كل جملة، تخرج من فمها تقريباً. شكّل ذلك فرقاً جوهرياً بين أسلاف روز وأسلاف ستانلي، إلا أن الأمر الأكثر أهمّيّة هو مدى تكيّف آبائهم مع الحياة الأمريكية، وارتباط ذلك بالحظّ. فقد أفلح والدا روز وجَدّاها في النجاة من الانعطافات القاسية للمصائر التي ألمّت بعائلة فيرغسون المنحوسة، ولم يحمل تاريخهم جرائم قتل في سطو مسلّح على مستودع، أو فقراً مدقعاً بلغ حدّ الجوع واليأس، أو رضّعاً أُغرقوا في حوض الاستحمام. عمل الجَدّ الديترويتي خيّاطاً، والجَدّ الهدسوني حلاقاً، وفيما لم يكن قصّ الأقمشة والشَّعْر ضرباً من الأعمال التي تقودكَ إلى درب الثروة والنجاح الدنيويَّيْن، إلا أنها وفّرت دخلاً مستقرّاً كافياً لوضع طعام على المائدة وملابس على أجساد الأطفال.

غادر بنجامين، والد روز، المعروف أيضاً بـ بن وبينجي ديترويت، بعد يوم واحد من انتهائه من مرحلة الدراسة الثانوية عام 1911 متّجهاً إلى نيويورك، حيث وفّر له أحد أقربائه البعيدين عملاً بصفة بائع في محلّ ملابس وسط المدينة، لكن الشّابّ إدلر ترك العمل في غضون أسبوعين، مُدركاً أن مصيره لم يُنذَر لتبديد وقته القصير على الأرض، ببيع الجوارب والملابس الداخلية الرجالية، وبعد ذلك باثنتين وثلاثين سنة، بعد أن عمل بائعاً جوّالاً للمنظّفات المنزلية، وموزّع تسجيلات فونوغراف، وجندياً في الحرب العالمية الأولى، وبائع سيّارات، وشريكاً في محلّ بيع سيّارات مستعملة في بروكلن، أصبح يعتاش الآن من كونه شريكاً من بين ثلاثة شركاء محاصصين في مؤسّسة مانهاتن العقارية، ليجني دخلاً كبيراً، ما يكفي لأن ينقل عائلته من "كراون هايتس"

في بروكلن إلى مبنى جديد في غربي الشارع الثامن والخمسين، وذلك عام 1941، أي قبل ستّة أشهر من دخول أمريكا الحرب.

وفقاً لما رُويَ لروز، فإن والديها التقيا في نزهة يوم الأحد في ريف نيويورك، غير بعيد عن بيت والدتها في هدسون، وخلال نصف سنة (تشرين الثاني 1919) عقدا قرانهما. وكما اعترفت روز لاحقاً لابنها، فإن هذا الزواج طالما حيّرها، لأنها نادراً ما رأت شخصين أقلّ توافقاً من والديها، وحقيقة أن هذا الزواج دام لأكثر من أربعة عقود، كانت بلا شكّ واحدة من الأسرار الكبيرة في سجلات الزيجات الإنسانية. كان بنجي إدلر ذكياً ومهذاراً، لمّاحاً وماكراً يخرج من جيوبه مئات الحيل، وصاحب نكتة، ومتسلّقاً يخطف الأضواء، وها هو في نزهة عصر يوم أحد في ريف نيويورك يقع في غرام امرأة خجولة متلعثمة في الثالثة والعشرين من عمرها، اسمها إيما بروموفيتز، لها ثديان كبيران مستديران، وبشرة بيضاء شديدة الشحوب، وتاج من الشَّعْر الأحمر الغزير، عذريّتها شديدة الوضوح، عديمة الخبرة، وحضورها ذو مسحة فيكتورية، لن يكلّف المرء سوى نظرة إليها، ليخلص إلى أن شفَتَيْها لم تلامسا شفَتَي رجل من قبل. لم يكن زواجهما عقلانياً، الدلائل كلها أشارت إلى أنهما سيكونان ملعونين بحياة ملْؤُها الخلافات وسوء الفهم، لكنهما تزوّجا، ورغم مواجهة بنجي صعوبات جمّة في المحافظة على إخلاصه لإيما بعد ولادة ابنتَيْهما (ميلدرد في 1920، روز في 1922)، إلا أنه أبقاها ماثلة في قلبه، وهي، رغم تكرار الأخطاء مراراً، لم تتمكّن قطّ من التّخلّص منه.

أحبّت روز شقيقتها الكبرى، لكن العكس لم يكن صحيحاً، فميلدرد التي وُلدت أوّلاً قبلت بداهةً المكانة التي حباها بها الله كأميرة للعائلة، وترتّب على المنافسة الصغيرة التي ظهرت في المشهد أن تتعلّم - مراراً وتكراراً إذا لزم الأمر - أن هناك عرشاً واحداً في شقّة إدلر في جادّة فرانكلين، عرش واحد وأميرة واحدة، وأن أي محاولة للاستيلاء على ذلك العرش سوف تُقابَل بإعلان الحرب. ليس المقصود بذلك القول إن ميلدرد جاهرت بعدائها لروز، لكنها كالت لها الملاطفة بملاعق القهوة، وما حادت عن مقدار اللطف هذا في كل دقيقة أو ساعة أو شهر، والذي وهبتْه دائماً بلمسة من التنازل المتعجرف، كما يليق بشخص له مكانتها الملكية. ميلدرد الباردة والمتحفّظة؛ روز الدافئة والمتسرّعة. حين كانت الفتاتان في الثانية عشرة والعاشرة، بدا جلياً أن ميلدرد تتحلّى بعقل استثنائي، فلم يكن نجاحها في المدرسة نتيجة لمثابرتها فقط، وإنما لتمتّعها بقدرات فكرية متفوّقة، وفي حين كانت روز متألّقة بما فيه الكفاية، ونالت درجات ممتازة، إلا أنها لم تكن أكثر من متسابقة، لا يحالفها الفوز عند مقارنتها بأختها. وجاء توقّف روز التدريجي عن منافسة مليدرد من دون فهم لدوافعها، ولا التفكير به بوعي، ولو لمرّة واحدة أو

حتّى صياغة خطّة، ذلك أنها أدركت غريزياً أن السير على خطى أختها سيفضي بها إلى الفشل فقط، وبالتالي، إن كان هناك من سعادة بانتظارها، فإن عليها أن تمضي في درب آخر.

وجدت الحلّ في العمل، وفي محاولة تأسيس مساحة لنفسها عبر كسب مال خاصّ بها، وما إن أتمّت الرابعة عشرة من عمرها، وباتت في عمر كافٍ للتّقدّم للحصول على أوراق عمل، حتّى عثرت على عملها الأوّل، والذي قادها سريعاً إلى سلسلة من الأعمال الأخرى، وحين بلغت السادسة عشرة كانت تعمل بدوام كامل نهاراً، وتذهب إلى المدرسة الثانوية ليلاً. ولتنسحب ميلدرد إلى قوقعة عقلها المبطّنة بالكُتُب، لتطير إلى الجامعة، وتقرأ كل كتاب كُتِب خلال السنوات الألفَيْن الماضية، حين كان العالم الحقيقي، ما أرادتْه وانتمت إليه روز، اندفاع وصخب شوارع نيويورك، إحساسها باتّكالها على نفسها، وشقّ طريقها الخاصّ. كما البطلات الجريئات اللمّاحات في الأفلام التي كانت تشاهدها في الأسبوع مرّتين أو ثلاث، وتشاهد، بالإضافة إليها، مجموعة لا متناهية، توزّعت على صور الاستديوهات لنجمات مثل كلوديت كولبيرت، وباربرا ستانويك، وجينجر روجرز، وجوان بلونديل، وروزاليند راسل، وجان آرثر، ولتتّخذ دور الشّابّة المحترفة المليئة بالعزم، معتنِقةً ما يمكن أن يكون فيلمها الأثير. *إنها قصّة روز إدلر*، إنه فيلم بالغ الطول والتعقيد، ما زال في شريطه الأوّل إلا أنه يَعِد بأشياء عظيمة في السنوات المقبلة.

حين قابلت ستانلي في شهر تشرين الأوّل من عام 1943، كانت تعمل منذ سنتين عند مصوّر فوتوغرافي، يُدعى إيمانويل شنايدرمان، وذلك في استوديو يقع غربي الشارع السابع والعشرين قرب الجادّة السادسة. بدأت روز عملها موظّفة استقبال - سكرتيرة - محاسبة، لكنْ، حين التحق المصوّر المساعد لشنايدرمان بالجيش في شهر حزيران عام 1942، حلّت روز مكانه. كان شنايدرمان حينها عجوزاً في منتصف السّتّينيّات من عمره، مهاجراً يهودياً ألمانياً، وصل نيويورك مع زوجته وولديه بعد الحرب العالمية الأولى. كان مزاجياً ومعرَّضاً أبداً لنوبات من التّذمّر واللسان المقذع. ومع مرور الزمن، انصاع مكرهاً لولعه بروز الجميلة. ولأنه كان مدركاً لمدى اهتمامها بمراقبته في العمل منذ أيّامها الأولى في الاستوديو، قرّر أن يقبل بها كمتدرّبة مساعدة، ويعلّمها ما يعرفه عن الكاميرات، والإضاءة، وتظهير الأفلام -أي كل شيء عن فنّه وحرفته. بالنسبة إلى روز التي لم تكن قد تبيّنت وجهَتها تماماً، وقد عملت أعمالاً مكتبية عديدة لقاء أجر تناله من دون بصيص أمل برضى داخلي، بدا لها التصوير فرصة تناديها - ليس كمجرّد عمل جديد، بل كطريقة وجود جديدة في العالم: النظر في وجوه الآخرين، وفي كل يوم المزيد من الوجوه، كل صباح وظهيرة وجوه مختلفة، كل وجه يختلف عن الوجوه الأخرى جميعها، وما استغرقها كثير وقت لتُدرك أنها أحبّت هذا العمل القائم على التحديق بالآخرين، وأنها لن تملّه، أو يكون بمقدورها ذلك قطّ.

كان ستانلي حينها يعمل بالتعاون مع أخويه، وكلاهما استُبعدا من الخدمة العسكرية لأسباب متعلّقة بأقدامهما المسطّحة وضعف البصر، وبعد العديد من محاولات التوسيع والتطوير، تحوّل مشغل تصليح الراديو الصغير الذي افتُتح عام 1932 إلى متجر كبير للمفروشات والتجهيزات المنزلية في جادّة "سبرينغفيلد" محتوياً سائر مغريات تجارة التجزئة الأمريكية العابرة الخدّاعة وحِيَلها: خطط الدفع بالتقسيط طويل الأجل، وعروض *اشترِ قطعتين واحصل على واحدة مجّاناً*، والتنزيلات الجزئية نصف السنوية، وخدمة واستشارات للمتزوّجين الجدد، والعروض الخاصّة بيوم العلم. كان أرنولد أوّل المنضمّين إليه، الشقيق الأوسط الأخرق، محدود الذكاء، الذي أخفق في العديد من وظائف المبيعات، ويعيش أوقاتاً عصيبة في سعيه لإعالة زوجته، جوان، وأولادهما الثلاثة. ولم تمضِ بضع سنوات حتّى انضمّ إليهما ليو، ولم يكن دافعه في ذلك اهتمامه بالأثاث أو الأجهزة المنزلية، بل لأن ستانلي قام للمرّة الثانية خلال خمس سنوات بتسديدِ ديونه المتراكمة عليه بسبب القمار، وأرغمه على الانضمام إلى العمل كإعلان للتوبة وحسن النّيّة، مع إفهامه أن أي ارتداد من طرف ليو سيُقابَل بعدم تلقّيه قرشاً آخر طيلة حياته. هكذا وُلد المشروع الذي عُرِف بمتجر (الأخوة الثلاثة للتجهيزات المنزلية)، والذي أداره، بشكل أساسي، أخ واحد، هو ستانلي، الأخ الأصغر والأكثر طموحاً من بين أبناء فاني، والذي انطلاقاً من قناعة حمقاء، لكنها راسخة، تفوّق لديه الولاء للعائلة على صفاته الإنسانية الأخرى جميعها، ما جعله يتحمّل، عن طيب خاطر، أخويه الفاشلين، اللذين عبّرا عن امتنانهما له مراراً بالتّأخّر عن الدوام، واختلاس عشرات وعشرينات من صندوق النقود، كلّما فرغت جيوبهما، ولعب الغولف بعد الغداء في الأشهر الدافئة. لم يتذمّر ستانلي من أفعالهما قطّ، وإن كان مستاء منها، ذلك أن نواميس الكون حرّمت التّذمّر من الأخوة، متجاهلاً حقيقة أن أرباح "عالم الأخوة الثلاثة" كانت ستزداد من دون راتبي ليو وأرنولد، إذ كانت الأعمال جيّدة في السوق السوداء، وما إن تنتهي الحرب بعد سنة أو سنتين، حتّى تصبح الصورة أكثر إشراقاً، ولاحقاً، سيكون الأخوة أوّل مَنْ سيستفيد من بيعها في الجوار. لم يكن ستانلي قد أصاب الثراء بعد، إلا أن دخله بات يتزايد بثبات، وحين قابل روز في ليلة من ليالي تشرين الأوّل عام 1943، كان على يقين أن أفضل الأيّام لم تأتِ بعد.

كانت روز على غير ما كان عليه ستانلي، مكتوية بنار العشق، ولو لم تنتزع الحرب ذلك الحبّ منها، لما أمكن للاثنين أن يلتقيا، لأنها ستكون متزوّجة من شخص آخر قبل زمن طويل من ليلة تشرين الأوّل تلك، لكن الشّابّ الذي خُطبت له، ديفيد راسكين، المولود في بروكلن، والذي دخل حياتها حين كان بصدد أن يصبح طبيباً، وكانت في السابعة عشرة، قضى في انفجار عجيب، في أثناء تمرينات التدريب الأساسي في قاعدة "فورت بيننغ" العسكرية في جورجيا.

وصلت الأخبار في شهر آب من عام 1942، وعاشت روز لأشهر عديدة في حداد، يتناوب عليها الخدر والغضب، ويسكنها الخواء واليأس، وقد حوّلها الأسى إلى نصف مجنونة، تلعن الحرب فيما يشبه الزعيق، ورأسها مدفون في وسادتها ليلاً، عاجزة عن قبول حقيقة أن ديفيد لن يلمسها بعد الآن أبداً. وكان عملها مع شنايدرمان الشيء الوحيد الذي دفعها لمواصلة الحياة خلال شهور الحرب تلك، حاملاً لها عزاء ما، ومتعة ما، وسبباً ما للنهوض من سريرها صباحاً، لكنْ، من دون شهية للاختلاط والتواصل مع البشر والاهتمام بلقاء رجال آخرين، مقلّصة حياتها، لكي تخلو من كل شيء سوى روتين العمل، والبيت، والذهاب لحضور الأفلام مع صديقتها نانسي فين. بدأت روز شيئاً فشيئاً، وخاصّة في الشهرين أو الثلاثة الماضية، تعود تدريجياً إلى نفسها، مثلاً أن تكتشف من جديد أن للأكل طعماً عند دفعه إلى الفم، وأن المطر لا يهطل عليها فقط في المدينة، وأن على كل رجل وامرأة وطفل القفز لاجتياز البرك نفسها التي قفزت فوقها. لا، إنها لن تتعافى أبداً من وفاة ديفيد، سيبقى على الدوام شبحاً خفيّاً، يرافقها كلّما تعثّرت في المستقبل، لكنْ، سيكون مبكّراً جدّاً أن تدير ظهرها للعالم، وهي في الواحدة والعشرين من عمرها، موقنة بأنها ستنهار وتموت، ما لم تسعَ جاهدة لتعود إلى ذلك العالم.

إنها نانسي فين مَنْ رتّب موعدها الأوّل مع ستانلي، نانسي المتهكّمة، اللعوب ذات الأسنان الكبيرة والذراعين النحيلتين، صديقة روز المفضّلة منذ أيّام طفولتهما معاً في كراون هايتس. التقت نانسي بستانلي في واحدة من حفلات نهاية الأسبوع الصاخبة الراقصة في فندق براون في كاتسكيلز، أو سوق لحوم "الكوشر" كما تصفه فين، حيث يجتمع شباب اليهود غير المرتبطين عاطفياً، والتّوّاقون للتّعرّف إلى شريك من المدينة، وما كان لنانسي أن تعنى بالبحث عن شريك (كانت مخطوبة لجندي متمركز في المحيط الهادئ، وهو في عداد الأحياء وفق آخر ما وصلها)، ولم تفعل إلا أنها رافقت صديقة لتمرح بعض الوقت، وانتهى بها الأمر لأن ترقص أكثر من رقصة مع *رجل من نيوارك، اسمه ستانلي*. قالت نانسي إنه أراد رؤيتها مجدّداً، إلا أنها صارحته بأنها نذرت عذريّتها لرجل آخر. ابتسم ستانلي، وطأطأ رأسه بإيماءة هزلية وجيزة، وبينما كان على وشك الذهاب أخبرتْه عن صديقتها روز، روز إدلر، *أجمل فتاة على سطح هذه الضّفّة من نهر الدانوب، وألطف شخص على سطح أي مكان*. هكذا كانت مشاعر نانسي الحقيقية نحو روز، وحين أدرك ستانلي أنها عنت ما قالتْه، أعلمها برغبته في مقابلة صديقتها. اعتذرت نانسي لروز عن ذِكْر اسمها، بينما تجاهلت روز ذلك، لإدراكها أن نانسي لم تقصد الإساءة، ولتسأل بعدئذٍ: كيف يبدو؟ وحسب توصيف نانسي، فإن طول ستانلي هو ستّة أقدام تقريباً، حسن المظهر، كبير العمر بعض الشيء، فقد كان ابن الثلاثين كبيراً في عينيها البالغتين واحداً وعشرين عاماً،

له عمله الخاصّ، ويبلي فيه بلاء حسناً كما يبدو، ساحر، مهذّب، وراقص جيّد جدّاً. ما إن استوعبت روز هذه المعلومات كلها، حتّى أطرقت صامتة بضع دقائق، متفكّرة فيما إذا كانت جاهزة للقاء عاطفي. ووسط أفكار كثيرة داهمتْها، توارد إلى ذهنها ما يفيد أن عاماً وأكثر مرّ على وفاة ديفيد، وأن عليها إعادة النظر في ما ينتظرها سواء أعجبها أم لم يعجبها ذلك. نظرت إلى نانسي، وقالت: أعتقد أن عليّ أن ألتقي ستانلي فيرغسون هذا، ألا تظنّين ذلك؟

بعد سنوات، حين روت روز لابنها أحداث تلك الليلة، أغفلت اسم المطعم الذي قابلت فيه ستانلي على العشاء. بينما اعتقد فيرغسون، إن لم يخنه ظنّه، أنه كان مكاناً ما وسط مانهاتن، الجانب الشرقي أو الغربي، لكنه كان مكاناً أنيقاً بأغطية طاولات بيضاء، ونُدُل بربطات عنق فراشية وسترات سوداء قصيرة، ما يشير إلى أن ستانلي قصد إبهارها، ليُثبت قدرته على الإسراف في إنفاق المال متى شاء. نعم، لقد وجدتْه جذّاباً، وانشدهت بخفّة حركته، وببهاء جسده وانسيابيته، بحجم يديه وقوّتهما أيضاً. التقطت ذلك في الحال، ولم تتوقّف عيناها الصافيتان، الوادعتان عن التحديق به، عينان عسليتان، لا هما كبيرتان ولا صغيرتان، يعلوهما حاجبان كبيران كثيفان. لم تدرك روز الأثر الكبير الذي أحدثتْه في رفيق العشاء المنبهر، والمصافحة التي فتتتْ كيان ستانلي الداخلي تفتيتاً كلّيّاً، كانت مشتّتة قليلاً بسبب شحّ ما قاله خلال الجزء الأوّل من العشاء، ولذلك عَدّتْه شخصاً مفرط الخجل، ولم يكن ذلك دقيقاً، لأنها هي نفسها كانت متوتّرة، ولأن ستانلي واصل صمته أغلب الوقت وهو جالس أمامها، ولينتهي بها الأمر متحدّثة بالنيابة عن كليهما. تكلّمت أكثر ممّا يجب. وبمرور الدقائق، ازداد هلعها من نفسها أكثر فأكثر، وهي تهذر كثرثارة حمقاء، متباهية بأختها، على سبيل المثال، وهي تخبره كم كانت ميلدرد طالبة متفوّقة، وأنها تخرّجت بامتياز في هنتر في حزيران الماضي، وهي الآن في برنامج الدراسات العليا في جامعة كولومبيا، وهي المرأة الوحيدة في قسم اللغة الإنكليزية، واليهودية من بين ثلاثة طلاب يهود، تخيّل كم كانت العائلة فخورة بها، وما إن ذكرت العائلة حتّى انتقلت للحديث عن عمّها آرتشي، شقيق والدها الأصغر، آرتشي إدلر، عازف الأورغ مع خماسي وسط المدينة، والذي يعزف حالياً في "حانة مو هايدآوت" في الشارع الثاني والخمسين، ومدى الإلهام المرافق لوجود موسيقي في عائلتك، فنّان، متمرّد، فكّر بأشياء أخرى إلى جانب كسب المال، نعم، لقد أحبّت عمّها آرتشي، لقد كان قريبها المفضّل بلا منازع، بعدئذٍ، وبالضرورة، بدأت بالحديث عن عملها مع شنايدرمان، لتُعدِّد الأشياء جميعها التي علّمها إيّاها في السنة ونصف السنة الماضية، شنايدرمان الغاضب سليط اللسان، مَنْ كان يأخذها عصارى أيّام الأحد إلى بويري لمطاردة عجائز سكّيرين ومشرّدين، كائنات منكسرة بلحاها البيضاء وشَعْرها الرمادي الطويل، رؤوس مهيبة،

رؤوس الأنبياء والملوك القدامى، وكان شنايدرمان يعطي هؤلاء الرجال مالاً لقاء قدومهم إلى الاستوديو، ليقفوا أمام كاميرته، مرتدين أغلب الأوقات أزياء تاريخية، عمائم وعباءات وجلابيب مخملية، لبسها هؤلاء الرجال، بالطريقة نفسها التي ألبس بها رامبرانت مهمّشي أمستردام القرن السابع عشر، وباستخدام الإضاءة نفسها معهم، إضاءة رامبرانت، الضوء والعتمة معاً، الظلال العميقة، الظلال جميعها بلمسة طفيفة من الضوء، والآن يثق بها شنايدرمان ما يكفي لأن يسمح لها بتجهيز الإضاءة بنفسها، لقد أنجزت العشرات من هذه البورتريهات بنفسها، ثمّ استخدمت كلمة "تشياروسكو"(*)، وأدركت أنه لم يكن لـ ستانلي أدنى فكرة عن ما تتحدّث به، وأنها كانت لربّما تتحدّث باليابانية وفق المعنى الذي تكوّن لديه، مع ذلك تابع النظر إليها، والاستماع إليها، طرِباً، وصامتاً، ومأخوذاً.

شعرتْ أن أداءها كان مخزياً ومحرجاً. ومن حسن الحظّ أن المونولوج انقطع بوصول الطبق الرئيس، ما أعطاها بضع دقائق، لتستجمع أفكارها، وحين شرعا بتناول طعامهما (أطباق مجهولة)، كانت هادئة كفاية لتُدرك أن هذياناتها غير المعهودة لم تكن سوى حاجز لحمايتها من التّحدّث عن ديفيد، الموضوع الذي لم ولن تشاء الخوض فيه، ولذلك عمدت إلى مطوّلات جسيمة وسخيفة، لتتجنّب كشف جرحها. لا علاقة لستانلي فيرغسون بذلك. بدا رجلاً محترماً، لم يكن خطأه أنه أُعفي من الجيش، ويجلس الآن في هذا المطعم مرتدياً ملابس مدنية مخيطة بأناقة بدلاً من التّخبّط في وحل ساحة معركة بعيدة أو أن يتناثر نتفاً جرّاء انفجار في أثناء تمرينات التدريب الأساسي. لا، لم يكن خطأه، وستكون هي بلا قلب، إن لامتْه على نجاته، لكنْ، كيف لها ألا تُجري مقارنة؟! ألا تتساءل لمَ هذا الرجل حَيٌّ وديفيد ميت؟

ووفقاً لما سلف، كان في النهاية عشاء معقولاً. حالما تعافى ستانلي من صدمته الأولى، والتقط أنفاسه، برهن على أنه من النوع الدمث، لا يسكنه الغرور كما الكثير من الرجال، بل هو مرهف ومهذب، يقترب من كونه متوقّد الذهن، إلا أنه من أولئك الذي يقدّرون النكتة، يضحك حتّى حين تقول ما يشوبه لمسة ظرف طفيفة، وحين تحدّث عن عمله وخططه المستقبلية، بدا جلياً لروز أن الصلابة تعتريه، وهو ممّنْ يُعتمد عليهم. من السّيّئ أن يكون رجل أعمال وغير مهتمّ برامبرانت أو التصوير الفوتوغرافي، لكنه على الأقلّ مؤيّد لروزفلت (مبدئياً)، وبدا صادقاً كفاية للاعتراف بجهله الكثير من الأشياء أو معرفة القليل عنها، بما في ذلك لوحات القرن السابع عشر وفنّ التقاط الصور. أعجبها. أحبّت رفقته اللطيفة، مدركة بأنها لن تؤخذ به بالطريقة التي تتطلّع إليها نانسي، رغم امتلاكه جميع أو أغلب مؤهّلات ما يسمّى بالصيد الثمين. بعد

---

*) تباين الضوء والظلّ في الصور.

عشائهما في المطعم، تمشّيا على أرصفة وسط المدينة لنصف ساعة، وتوقّفا ليشربا في حانة "مو هايدآوت"، حيث لوّحا للعمّ آرتشي بينما كان يعزف على البيانو (أجاب هو بابتسامة كبيرة غامزاً بعينه)، ومن ثمّ أوصلها ستانلي مشياً إلى شقّة والدَيْها غربيّ الشارع الثامن والخمسين. رافقها في المصعد، لكنها لم تدعُهُ للدخول. مدّت يدها للمصافحة الوداعية (متجنّبة بلباقة أيّة فرصة لاستراق قبلة). شكرتْه على الأُمسيّة الجميلة، واستدارت، فتحت الباب، ودخلت الشّقّة، وهي تكاد تكون موقنة من أنها لن تراه ثانية.

طبعاً، كان الأمر مختلفاً بالنسبة إلى ستانلي منذ اللحظة الأولى من ذاك الموعد الأوّل، ولأنه لم يكن يعرف شيئاً عن ديفيد راسكين وقلب روز الحزين، وجد أن عليه التّصرّف بسرعة، ففتاة مثل روز ليست ممّنْ يبقين غير مرتبطات لزمن طويل، والرجال بالتأكيد يحومون حولها، وهي لا تُقاوم، وكل ما هي عليه يضجّ بالنعمة والجمال والخصال الحميدة، وعليه قرّر ستانلي للمرّة الأولى في حياته أن يصنع المستحيل، ويلحق الهزيمة بالحشد المتنامي من الساعين وراء روز، وأن يحظى بها لنفسه، طالما أنها المرأة التي قرّر أنه لا بدّ وأن يتزوّجها، فإمّا هي أو لا أحد.

وخلال الأشهر الأربعة التالية، واظب على الاتّصال بها، وحافظ على وتيرة منتظمة لا تكلّ ولا تملّ، من دون أن يتحوّل إلى لعنة. ركّز بشراسة وعزيمة لا تلينان، على محاصرة منافسيه المتخيّلين بما بدا له مكراً استراتيجياً، وللحقيقة لم يكن هنا من منافسين هامّين في الساحة، فقط رجلان أو ثلاثة أسعفتها نانسي بهم بعد لقائها ستانلي في شهر تشرين الأوّل، ووجدتهم روز واحداً تلو الآخر راغبين بها، لتُحبط دعواتهم في المضي أكثر، ولتُواصل ترقّبها، ما دلّ على أن ستانلي كان فارساً يجوب ساحة معركة خاوية، في حين أنه لا يرى إلا أشباح أعداء في كل ما حوله. لم تتغيّر مشاعر روز نحوه، لكنها فضّلت رفقة ستانلي على وحدة غرفتها أو الاستماع إلى الراديو مع والديها بعد العشاء، ولهذا قلّما رفضت دعواته للخروج مساء، كما قبلت عروضه للذهاب للتّزلّج على الجليد، ولعب البولينغ، والرقص (نعم، كان راقصاً رائعاً)، وحضور حفلة لموسيقا بيتهوفن في قاعة كارنيجي، وحفلتين موسيقيتين في برودواي، والعديد من الأفلام. أدركت سريعاً أن لا تأثير للدراما على ستانلي (غفا لدى مشاهدته فيلمين، هما "أُغنيّة برناديت" و"لمَنْ تُقرع الأجراس")، لكن عينيه بقيتا مفتوحتين بثبات عند مشاهدة الأفلام الكوميدية، مثل فيلم "كلّما زاد العدد زاد المرح"، الفيلم الذي أضحكهما والأشبه بالكريما، وهو يتناول مشكلة السَّكَن في واشنطن إبّان الحرب، وكان من بطولة جول مكراي (الوسيم جدّاً) وجين آرثر (إحدى ممثّلات روز المفضّلات)، إلا أن شيئاً قيل من قِبَل ممثّلين آخرين أحدث أثراً كبيراً عليها، وهي عبارة قالها تشارلز كوبيرن الذي كان يؤدّي دور كيوبيد، لكنْ، متنكّراً بهيئة عجوز أميركي بدين، وراح يردّد تلك العبارة مراراً

في الفيلم: رفعة، وحسن، ولطافة - كما لو كانت تعويذة تسبّح بفضائل الزوج الذي تريده النساء كلهنّ. كان ستانلي فيرغسون يتمتّع بالحسن واللطافة، ولم يفارقه الشباب، وإن كانت الرفعة تعني الاستقامة، والكرم، والالتزام بالقوانين، فإنه جمع ذلك كله أيضاً. لكن روز لم تكن متأكّدة من أن هذه الفضائل هي ما تبحث عنها في الرجل، ليس بعد حبّها لديفيد راسكين الانفعالي والمتقلّب، وقد كان أحياناً حبّاً مرهقاً، إلا أنه متوقّد بشكل لا يمكن للمرء توقّع أشكال تقلّباته الدائمة، بينما بدا ستانلي دمثاً وأفعاله متوقّعة وآمنة جدّاً حتّى إنها تساءلت إن كانت تلك الخصال الثابتة مزية أم نقيصة في الشخصية.

ومن جهة أخرى، لم يلحّ عليها، ويطالبها بقبلات، عرف أن لا رغبة لديها بأن تتبادلها، رغم وضوح هيامه بها في ذلك الحين، وهو يجهد في كل مرّة يكونان فيها معاً في ألا يلمسها، ويقبّلها، ويثب نحوها.

كما أنه خالفها ضاحكاً، حين أخبرته بمدى انبهارها بجمال أنغريد برغمان، وقال وهو يحدّق بعينيها، إن أنغريد برغمان لا شيء مقارنة بها. قالها برصانة مَنْ هو متيقّن تماماً من ذلك.

وفي يوم بارد من أواخر أيّام تشرين الثاني، ظهر فجأة في استوديو شنايدرمان، وطلب أن تأخذ له هي بورتريه، وليس شنايدرمان. ثمّ كانت موافقة والديها عليه، وشنايدرمان أيضاً، وحتّى ميلدرد، دوقة السنوب هول، التي أبدت رأياً مقبولاً به معربة عن أن روز قد تختار مَنْ هو أسوأ.

وكان لديه أيضاً لحظات تجلٍّ، مع نفحات طيش مفاجِئة، كما لو أن شيئاً انفلت منه، ليتحوّل إلى مزوح متهوّر مُطلقاً النكات، فهو، كمثال على ذلك، في الليلة التي أجرى فيها استعراضاً أمامها في مطبخ شقّة أهلها، قام برمي وتلقّف ثلاث بيضات نيئة، وأبهرهم بسرعته ودقته طيلة دقيقتين قبل أن تسقط إحداها على الأرض، وليتبعها برمي البيضتين الآخرتين متعمّداً، ومعتذراً عن الفوضى التي أحدثها مكتفياً بهزّ كتفيه، كما لو أنه ممثّل كوميدي في فيلم صامت، وهو يقول: "ووبس".

كانا يلتقيان مرّة أو اثنتين في الأسبوع خلال تلك الشهور الأربعة، ولم يحُلْ عجز روز عن أن تهبه قلبها كما وهبها قلبه، من شعورها بالامتنان تجاهه لانتشالها من القاع، وإنهاضها على قدميها من جديد. بقيت الأمور على ما هي عليه، وكانت مقتنعة بمواصلة الأمور كما عهدتها لبعض الوقت، لكنها وما إن بدأت تشعر بالارتياح معه، والاستمتاع باللعبة التي يلعبانها معاً، حتّى غيّر ستانلي فجأة قواعد اللعبة. وحصل ذلك في أواخر كانون الثاني 1944.

كان حصار التسعمئة يوم للينينغراد قد انتهى للتوّ في روسيا؛ وحوصر الحلفاء من قِبَل

الألمان في مونت كاسينو في ايطاليا؛ وكانت القوّات الأمريكية تنوي شن هجوم وشيك على جزر مارشال في المحيط الهادي؛ وعلى الجبهة الداخلية، على تخوم سنترال بارك في مدينة نيويورك، طلب ستانلي يد روز للزواج.

كانت شمس شتائية وضّاءة تشعّ في سماء صافية، زرقتها عميقة رقراقة، من ذلك الأزرق الكريستالي الذي يسود سماء نيويورك في أيّام محدّدة فقط من شهر كانون الثاني، في ظهيرة ذلك الأحد المشمس وعلى مبعدة آلاف الأميال من الدماء المراقة ومذابح الحرب التي لا نهاية لها، قال لها ستانلي: إمّا أن يكون الزواج أو فليحلّ العدم، ذلك أنه يعبدها، ولم يحس يوماً بشعور مماثل تجاه أي كان، ذلك أن شكل مستقبله بأكمله يعتمد عليها، وأنها إن رفضته، فلن يراها ثانية، فكرة عدم رؤيتها ثانية ستكون ببساطة أكثر ممّا يحتمله، وبالتالي فإنه سيختفي من حياتها إلى الأبد.

طلبت منه مدّة أسبوع. فكل شيء جاء مفاجئاً جدّاً وغير متوقّع، كما قالت، وإنها تحتاج بعض الوقت للتفكير. بالطبع، أجاب ستانلي، معكِ أسبوع للتفكير، وأنه سيتّصل بها الأحد المقبل، أسبوع واحد من اليوم، وعندها تبادلا القبل للمرّة الأولى، تماماً قبل أن يفترقا، وهما واقفان عند مدخل الحديقة في الشارع التاسع والخمسين، رأت روز للمرّة الأولى منذ أن التقيا، دموعاً تتلألأ في عيني ستانلي.

كانت النتيجة، بطبيعة الحال، مكتوبة منذ فترة طويلة. ليسْ فقط لأنها تبدو كمدخل إلى النسخة المرخّصة الحصرية من كتاب الحياة الدنيوية، وإنما لكونها موجودة في سجلات محكمة مانهاتن، وهي تُعلمنا أن روز إدلر وستانلي فيرغسون قد تزوّجا في 6 نيسان 1944، قبل شهرين بالضبط من غزو الحلفاء للنورماندي.

نعرف القرار الذي توصّلت إليه روز حينها، لكنْ، كيف ولماذا اتّخذته، فقد كان أمراً معقّداً. تضافر العديد من العناصر في ذلك، عمل كل منها في انسجام وتناقض مع الآخر، ولأنها كانت برأيين نحو كل عنصر منها، فالخلاصة أنه كان أسبوعاً مرهقاً ومعذّباً لأمّ فيرغسون. أوّلاً: لمعرفتها أن ستانلي رجل عند كلمته، تراجعت أمام فكرة عدم رؤيته ثانية. للأفضل أو الأسوأ، فإنه الآن صديقها المفضّل بعد نانسي. ثانياً: إنها في الواحدة والعشرين، وهي صغيرة كفاية لتُعدَّ شابّة، ولكنْ، ليست بشباب معظم العرائس حينها، فلم يكن من المستغرب أن ترتدي الفتاة فستان عرسها وهي في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة، وآخر شيء أرادتْه روز لنفسها أن تبقى من دون زواج. ثالثاً: لا، لم تحبّ ستانلي، ولكنْ، من الحقائق المؤكّدة أن النجاح ليس بحليف زيجات الحبّ كلها، ووفقاً لما قرأتْه، فالزيجات المدبّرة في الثقافات التقليدية الأجنبية لم تكن

أكثر أو أقلّ سعادة ممّا هي عليه الزيجات في الغرب. رابعاً: لا، لم تحبّ ستانلي، وللحقيقة لم تعد قادرة على حبّ أحد، كما كان عليه ذاك الحبّ الكبير الذي انتابها تجاه ديفيد، فالحبّ الكبير يأتي مرّة واحدة في حياة الإنسان، وبالتالي عليها التنازل والقبول بما هو أقلّ، إن كانت لا ترغب بتمضية بقية حياتها وحيدة. خامساً: لم يكن في ستانلي ما يُزعجها أو يُقرفها. ولم تنفر من فكرة ممارسة الجنس معه. سادساً: أحبّها هو بجنون، وعاملها بلطف واحترام. سابعاً: في نقاش نظري حول الزواج جرى بينهما قبل أسبوعين فقط، قال لها إن على النساء أن يكن حرّات في تحقيق مصالحهنّ الخاصّة، وألا تدور حياتهنّ في فلك أزواجهنّ حصراً. هل كان يتحدّث عن العمل؟ سألته. نعم، العمل، أجاب - من بين أمور أخرى. وهذا يعني أن الزواج من ستانلي لن يستدعي التّخلّي عن شنايدرمان، وأنها ستتمكّن من متابعة عملها في تعلّم التصوير. ثامناً: لا، لم تحبّ ستانلي. تاسعاً: أعجبتها الكثير من الأشياء فيه، تفوّقت بلا أدنى شكّ خصاله الجيدة بكثير على تلك غير الجيدة، لكنْ، لماذا كان يستسلم للنوم في السينما؟ هل كان، يا ترى، متعباً من العمل لساعات طويلة في متجره، أم أنهما جفناه المتثاقلان يدلان على غياب التواصل مع عالم الأحاسيس والمشاعر؟ عاشراً: نيوارك! هل من الممكن العيش هناك؟ الحادي عشر: هل لـ نيوارك أن تكون مشكلة بالتأكيد؟ الثاني عشر: حَان الوقت لتترك والديها. أمست كبيرة جدّاً على أن تعيش في تلك الشّقّة الآن، وبقدر ما اهتمّت بأمّها وأبيها، إلا أنها ازدرتهما على نفاقهما - أبوها على مطاردته الدؤوبة للنساء، وأمّها على تظاهرها بتجاهل ذلك. وها هي بضعة أيّام تفصلها عن ذاك اليوم الذي كانت تسير فيه لتناول الغداء في مطعم "أوتومات" قرب استوديو شنايدرمان، ورأت والدها بمحض الصدفة يسير شابكاً ذراعه بذراع امرأة، لم ترها من قبل، امرأة أصغر منه بخمسة عشر أو عشرين عاماً، فألمَّ بها القرف والغضب، وأرادت أن تركض نحوه، وتلكمه في وجهه. الثالث عشر: إن هي تزوّجت ستانلي، فإنها وأخيراً ستتفوّق على ميلدرد بشيء ما، حتّى وإن بدت لا تولي الزواج أي اهتمام. كانت أختها حينها سعيدة بالتّنقّل من علاقة قصيرة إلى أخرى. جيّد لميلدرد، أما روز، فلم يكن العيش هكذا من ضمن اهتماماتها. الرابع عشر: جنى ستانلي المال، ووفق ما تمضي عليه الأمور، فإنه سيجني المزيد مع الزمن. إنه أمر مُطمئِن، ومُقلِق أيضاً. فمن أجل كسب المال، عليكَ التفكير به طيلة الوقت. هل من الممكن العيش مع رجل شغله الشاغل حسابه المصرفي؟ الخامس عشر: يراها ستانلي أجمل امرأة في نيويورك. تعرف أن ذلك غير صحيح، لكنها لم تشكّ قطّ بأن ستانلي يؤمن حقّاً بذلك. السادس عشر: ما من شخص آخر يلوح في الأفق. حتّى وإن لم يكن ستانلي هو ديفيد آخر، إلا أنه تفوّق بشكل كبير على الكثير من الشّكّائين المتباكين الذين أرسلتهم نانسي إليها. على

الأقلّ كان ستانلي ناضجاً. ولم يشتكِ ستانلي مطلقاً. السابع عشر: كان ستانلي يهودياً بالطريقة نفسها التي كانت بها يهودية، عضو مخلص في القبيلة، لكنْ، من دون اهتمام بممارسة الشعائر الدينية أو نذر الولاء لله، ما يعني حياة غير مثقلة بالشعائر والخرافات، ولا شيء أكثر من الهدايا في عيد الحانوكا، وخبز المصّة، والأسئلة الأربعة مرّة كل سنة في الربيع، وختان الصبي إن أنجبا صبياً يوماً ما، لكنْ، لا صلوات، ولا معابد، ولا تظاهر بالإيمان بما لا تؤمن به، بما لا يؤمنان به. الثامن عشر: لا، لم تحبّ ستانلي، لكن ستانلي أحبّها. ربمّا هذا كاف، بدايةً، كخطوة أولى.

بعد ذلك كله، مَنْ كان ليقول إنهما أمضيا شهر العسل في منتجع على ضفاف بحيرة في أديرونداكس، وكان بمثابة أسبوع استهلالي على صعيد أسرار الحياة الزوجية، أسبوع قصير إلا أنه بلا نهاية، وقد وهبت كل لحظة فيه وزن ساعة أو يوم ذلك أن كل ما كانا يعيشانه جديد لا عهد لهما به، إنها فترة هيمن عليها التّحفّز والإضافات البهيجة، والانتصارات الصغيرة والمكاشفات الحميمة، وخلالها أعطى ستانلي روز دروسها الأولى في قيادة السّيّارة، وعلّمها أساسيات التنس، ثمّ عادا إلى نيوارك، واستقرّا في الشّقّة التي سيمضيا فيها السنوات الأولى من زواجهما، شقّة من غرفتَي نوم في "فان فيلسور" في قسم ويكواهيك من المدينة.

قدّم لها شنايدرمان إجازة مدفوعة لمدّة شهر كهدية زواج، وأمضت روز الأسابيع الثلاثة التي سبقت عودتها إلى العمل في تعلُّم الطبخ بشكل محموم، معتمدة حصرياً على الدليل القديم الثابت للمطبخ الأمريكي على عَدٍّ أن أمّها أهدتها إيّاه في عيد ميلادها، إنه "The Settlement Cook Book" الذي يحمل العنوان الفرعي: *الطريق إلى قلب الرجل*، وهو مكوّن من ستمئة وثلاثة وعشرين صفحة، جمعتها السّيّدة سيمون كاندر متضمّناً "وصفات مجرّبة من مطابخ مدرسة ميلووكي العامّة، والمدرسة المهنية للبنات، والمدرسة الثانوية الفنّيّة، وأخصائيي التغذية المعتمدين، وربّات البيوت الخبيرات."

حدثت كوارث كثيرة في البداية، لكن روز كانت دائماً سريعة التّعلّم، وكلّما أرادت أن تُنجز شيئاً، فإنها عموماً تقوم به بقدر جيّد من النجاح، ولكنْ، حتّى في تلك الأيّام الأولى من التجربة والخطأ، واللحم المطهو زيادة، والخضار الرخوة، والفطائر اللزجة، والبطاطا المهروسة المليئة بالتّكتّلات، فإن ستانلي لم يتفوّه بكلمة سلبية واحدة. بغضّ النظر عن مدى رداءة الوجبة التي تقدّمها إليه، فقد كان يضع كل لقمة منها في فمه بهدوء، يمضغها بمتعة ظاهرة، وبعدها، في كل ليلة، كل ليلة بلا انقطاع، ينظر إليها، ويخبرها كم كان الطعام لذيذاً. تساءلت روز أحياناً عمّا إذا كان ستانلي يغيظها، أو أنه مشتّت جدّاً حتّى لا يلحظ ما تقدّمه له، لكنْ، وكما بالنسبة إلى الطعام الذي تطهوه، كان الحال مع كل شيء آخر يتعلّق بعلاقتهما معاً، إلى أن خلصت روز،

وهي تعاين حالات الخلافات المحتملة بينهما كلها، إلى استنتاج مروّع، لا يمكن تصوّره، وهو *أن ستانلي لم ينتقدها قطّ*. كانت بالنسبة إليه كائناً مثالياً، امرأة وزوجة مكتملة، وبالتالي، وكما في الطروحات اللاهوتية التي أكّدت حتمية وجود الله، فإن كل شيء فعلته وقالته وفكّرت به كان مثالياً بالضرورة، لا، بل يجب أن يكون كذلك حتماً. بعد تشاركها غرفة النوم مع ميلدرد معظم حياتها، ميلدرد نفسها التي وضعت أقفالاً على أدراجها، لتمنع أختها الصغرى من استعارة ملابسها، وهي نفسها التي وصفتْها بفارغة الرأس لمواظبتها على الذهاب إلى السينما، تتشارك الآن غرفة النوم مع رجل يظنّ بأنها كاملة، وهذا الرجل، أكثر من ذلك، في غرفة النوم نفسها، كان يتعلّم سريعاً كيف يجامعها بالطُّرُق جميعها التي تفضّلها.

كانت نيوارك مُضجِرة، لكن شقّتها أكثر اتّساعاً وإشراقاً من بيت أهلها قرب النهر، وأثاثها جديد (أفضل ما قدّمه "عالم الأخوة الثلاثة"، وربّما لم يكن الأفضل في السوق، إلا أنه يفي بالغرض حالياً)، وحينما عاودت العمل لدى شنايدرمان، ظلّت مدينة نيويورك العزيزة، والقذرة، والمفترسة جزءاً جوهرياً في حياتها، فهي عاصمة الوجوه البشرية، وبابل اللغات الإنسانية الرصينة. تضمّنت رحلتها اليومية إلى العمل أن تستقلّ حافلة بطيئة، تمضي بها إلى القطار، ثمّ 12 دقيقة في رحلتها من محطّة بنسلفانيا إلى المحطّة التالية، والسير بعدئذٍ لمسافة قصيرة إلى استوديو شنايدرمان، لكنها لم تمانع السفر، طالما كان هناك الكثير من الناس تتأمّل في وجوههم، وقد أحبّت بشكل خاصّ اللحظة التي يدبّ فيها القطار إلى نيويورك، ويتوقّف، ليلي ذلك دائماً وقفة قصيرة، وكأنما العالم يحبس أنفاسه في ترقّب صامت، ثمّ تُفتح الأبواب، ويخرج الجمع في الاتّجاه نفسه، وهي ضمنَه، في وسطه، تمضي إلى العمل إلى جانب كل شخص آخر. أشعرها ذلك بالاستقلالية، فتعلّقها بستانلي لم يحدّ من ولعها بنفسها، والذي كان شعوراً جديداً وجيداً، فحينما كانت تعبر الطريق في الهواء الطلق، وتنضمّ إلى حشد آخر من البشر، فقد كانت تتوجّه إلى غربي الشارع السابع والعشرين متخيّلة أناساً مختلفين سيأتون إلى الاستوديو في ذلك اليوم، الأمّهات والآباء مع أطفالهم المولودين حديثاً، والصبية الصغار بملابس البيسبول، والأزواج القدماء الجالسون بجانب بعضهم لصورة عيد زواجهم الأربعين أو الخمسين، والفتيات المتبسّمات في قبّعاتهنّ وفساتينهنّ الطويلة، والنساء من نوادي النساء، والرجال من نوادي الرجال، ورجال الشرطة المبتدئين ببزّاتهم الزرقاء، وبالطبع الجنود، الكثير والكثير من الجنود على الدوام، أحياناً برفقة زوجاتهم أو فتياتهم أو والديهم، لكنْ، غالباً وحدهم، جنود وحيدون في إجازة في نيويورك، أو عائدون إلى الوطن من الجبهة، أو على وشك الذهاب إلى مكان ما، ليَقتلوا أو يُقتَلوا، وهي بدورها صلّت لهم جميعاً، ودعت ربّها كي يعودوا جميعاً بأطرافهم متّصلة بأجساد

لا تزال تتنفّس، رافقتْها الأدعية كل صباح وهي تسير من محطّة بنسلفانيا إلى الشارع الغربي السابع والعشرين، راجية ربّها أن تضع الحرب أوزارها.

لم يطلها ندمٌ جدّيٌّ، ولا مراجعة عقابية لقرارها قبول الزواج بستانلي، رغم بعض هنات الزواج السلبية اللاحقة، التي لا يمكن لوم ستانلي مباشرة على أي منها، فهي بزواجها منه تزوّجت معه عائلته أيضاً، وفي كل مرّة التقت فيها مع ذلك الثلاثي الاعتباطي من المختلّين، تعجّبت كيف استطاع ستانلي أن ينجو بطفولته من دون أن يمسي مجنوناً مثلهم. أمّه فاني فيرغسون، بالغة الحيوية قبل أي شيء آخر، وقد كانت حينها في منتصف أو أواخر السّتّينيّات من عمرها، لا يتجاوز طولها خمسة أقدام وإنشين أو خمسة أقدام وإنشين ونصف، متذمّرة شيباء بسحنة متجهّمة، وتيقّظ متململ، تتمتم لنفسها كلّما جلست وحيدة على الأريكة في لقاءات العائلة، لأن أحداً لا يجرؤ على الاقتراب منها، خاصّة أحفادها الخمسة، بأعمارهم التي تتراوح بين السادسة والحادية عشرة، الذين بدوا يقيناً خائفين منها حتّى الموت، لأن فاني لا تفكّر إلا بخبط رؤوسهم كلّما تعدّوا الحدود (إن كانت مخالفات مثل الضحك، والصراخ، والنط، والارتطام بالمفروشات، والتّجشّؤ بصوت عال، يمكن عَدّها تجاوزاً للحدود)، وحين لا تتمكّن من الاقتراب كفاية لتصيبهم الخبطة، فإنها تصرخ عليهم بصوت مرتفع كافٍ لهزّ المصابيح. حين قابلتها روز للمرّة الأولى، قرصت فاني خدّها (بشدّة كافية لتُؤلمها)، وأعلنت أنها فتاة حسنة المظهر. بعدئذٍ عمدت إلى تجاهلها طوال فترة الزيارة، وواصلت ذلك في كل زيارة، من دون أي تفاعل بينهما، يتجاوز الشكليات الفارغة كالتّلفّظ بـ مرحباً و*إلى اللقاء*، ولم تأخذ روز ذلك على نحو شخصي، كون فاني أبدت التجاهل نفسه لكنّتيها الأخريين، ميلي وجوان. اهتمّت فاني بأبنائها فقط، الأبناء الذين ساندوها، وواظبوا على الحضور طوعاً إلى بيتها مساء كل جمعة لتناول العشاء، لكن النساء اللائي تزوّجنَ بهم لم يكنّ أكثر من ظلال بالنسبة إليها، وواجهت في معظم الأحيان صعوبة في تذكّر أسمائهنّ. لم يُزعج روز على وجه التحديد شيء من ذلك، فتعاملها مع فاني كان قليلاً وغير منتظم، لكن أخوة ستانلي كانوا مسألة أخرى، فقد عملوا عنده، وكان يراهم كل يوم، وما كادت تستوعب الواقع المسبّب للدوار بأنهما من أجمل الرجال الذين رأتهم في حياتها، إلهان مذكّران يشبهان إيرول فلين (ليو) وغاري غرانت (أرنولد)، حتّى بدأت بالشعور بالنفور الشديد منهما. كانا سطحيين ومحتالين، استشعرت أن ليو الأكبر لا يعوزه الذكاء، بل يحدّ من نموّه ميلُه للمقامرة على مباريات السّلّة وكرة القدم بينما كان أرنولد الأصغر مجرّد مغفّل، فهو فاسق بعينين باردتين، يشرب الكثير، ولا يفوّت فرصة للمس ذراعيها وكتفيها، وعصرهما، مَنْ كان يدعوها بـ الدمية و"البيبي" والحلوة، ما ملأها باشمئزاز عميق. لم يعجبها توفير ستانلي لهما عملاً في المتجر، وكرهت كيف كانا

يسخران منه من خلف ظهره، وأحياناً في وجهه، ستانلي الطيّب، الذي يفوقهما رجولة بمئات المرّات، وهو يتظاهر بتغافله عن ذلك، متعاملاً مع دناءتهم وكسلهم واستهزائهم دون أقلّ كلمة احتجاج، مُبدياً مقداراً من الصبر، جعل روز تتساءل إن كانت قد تزوّجت بقدّيس من حيث لا تدري، واحدة من تلك الأرواح النادرة التي لا تسيء الظّنّ بأحد مطلقاً، ولتعلّل ذلك لاحقاً، بأنه لربّما لم يكن أكثر من شخص ضعيف، لم يتعلّم قطّ كيف يدافع عن نفسه ويواجه الآخرين. قاد ستانلي، سواء بمساعدة أخويه المتواضعة أو بدونها، متجر "الأخوة الثلاثة للتجهيزات المنزلية" إلى الربح، متجر كبير بأضواء متلألئة، حيث الكراسي الوثيرة وأجهزة الراديو، وطاولات السفرة والثلاجات، وغرف النوم وخلاطات "وارينغ"، ليصبح استثماراً كبيرة بإدارة متوسّطة المستوى، توفّر احتياجات أصحاب الدخل المتوسّط والمحدود، مؤسّساً لسوق عجيبة واعدة في القرن العشرين، إلا أن عدّة زيارات في الأسابيع التي تلت شهر العسل، كانت كفيلة بعدول روز عن الذهاب إلى المتجر - ليس فقط لأنها عادت إلى عملها، لا بل لأنها شعرت بالضيق والأسى هناك، وأنها لا تنتمي إلى المكان على الإطلاق بوجود أخوَي ستانلي.

ومع ذلك فإن زوجَتَي أخوَي ستانلي وأطفالهما ساهموا بالتخفيف من خيبة أملها بعائلة زوجها بعض الشيء، ولم يكن هذا الجزء من أبناء فيرغسون بالفعل، فهم لم يعرفوا المصائب التي حلّت بـ إيكي وفاني وذرّيّتهما، وسرعان ما وجدت روز نفسها مع صديقتين جديدتين، هما ميلي وجوان. كانت كلا المرأتين أكبر من روز (أربعة وثلاثون واثنان وثلاثون)، لكنهما رحّبتا بها في القبيلة كعضو مساوٍ لهما، منحتاها العضوية الكاملة منذ يوم زفافها، ما يعني، من بين أمور أخرى، أنها قد أُعطيت الحقّ في الاطّلاع على أسرار سلفَتَيْها جميعها. أُعجبت روز بشكل خاصّ بميلي، التي تتحدّث بسرعة، ولا تتوقّف عن التدخين. فهي امرأة نحيلة للغاية، تبدو وكأن أسلاكاً تحت جلدها بدلاً من العظام، وتتحلّى بالذكاء والعناد، بالإضافة إلى فهمها نوعية ليو من بين الرجال، ولكنْ، بغضّ النظر عن مدى ولائها لزوجها السفيه الماكر، فإن ذلك لم يمنعها عن إطلاق سيل مطّرد من العبارات الساخرة حوله، وتعليقات ذكية لاذعة اضطرّت روز أحياناً إلى مغادرة الغرفة خوفاً من الضحك على نحو صاخب جدّاً. كانت جوان، بالمقارنة مع ميلي، امرأة بسيطة كريمة وطيّبة القلب، بحيث لم يتبادر إلى ذهنها بعد بأنها متزوّجة من مغفّل، هذا إلى جانب أنها أم جيّدة، أحسّت روز برقّتها وصبرها وعنايتها، في حين أفضى لسان ميلي السليط غالباً إلى تشابكها مع أطفالها، الذين كانوا أقلّ تهذيباً من أطفال جوان. راق طفلا ميلي لروز: أندرو ذو الأحد عشر عاماً وأليس ذات التسعة أعوام، كذا هم أطفال جوان الثلاثة جاك بأعوامه العشرة، وفرانسي ذات الثماني سنوات، وأصغرهم روث في السادسة من عمرها. اجتذب كل

منهم روز بطريقة مختلفة، باستثناء أندرو ربمّا، الذي اتّخذ على ما يبدو موقفاً خشناً وشرساً، ما أدّى إلى تأنيب ميلي المتواصل له جرّاء ضربه أخته الصغيرة، إلا أن أكثر مَنْ أحبّت روز كانت فرانسي، من دون شكّ فرانسي، انجرفت نحوها بعفوية مطلقة، فقد كانت طفلة جميلة جدّاً، وحيوية بشكل استثنائي، وبدا لقاؤهما أشبه بالوقوع بالحبّ من النظرة الأولى، أسرعت فرانسي بشَعْرها الكستنائي الطويل نحو ذراعَي روز، وقالت خالتي روز، خالتي الجديدة روز، أنتِ جميلة جدّاً، جميلة جدّاً، جميلة جدّاً إلى أقصى الحدود، والآن سنبقى صديقتين للأبد. هكذا بدأت، وهكذا استمرّت بعدئذٍ، افتتنت كلّ بالأخرى، وأحسّت روز بأن بضعة أشياء في هذا العالم تتفوّق على تسلّل فرانسي إلى حضنها حين يجلسون جميعاً حول الطاولة، ويبدؤون بمحادثتها عن المدرسة، أو آخر كتاب قرأتْه، أو الصديقة التي قالت لها شيئاً بغيضاً، أو الفستان الذي ستشتريه أمّها بمناسبة عيد ميلادها. تسترخي الطفلة الصغيرة على الليونة الوثيرة لجسم روز، فتُربّت على رأسها أو وجنتيها أو ظهرها، وقبل أن تستشعر روز بوقت طويل بأنها تطفو في الأثير، تكونان قد فارقتا معاً الغرفة والبيت والشارع محلّقتين في السماء. نعم، يمكن لتلك الاجتماعات العائلية أن تكون أمراً بغيضاً، لكنْ، ثمّة ما يخفّف من وطأتها أيضاً، معجزات صغيرة غير متوقّعة تحدث في لحظات منفلتة، وقد خلصت روز إلى أن الآلهة لا تحتكم إلى منطق، تهب عطاياها وفق مشيئتها التي لا يمكن تحديد متى وأين تكون.

رغبت روز أن تصبح أمّاً، أن تحمل طفلاً، أن تلد طفلاً، أن ينبض قلب ثانٍ في أحشائها. لا شيء يضاهي ذلك، ولا حتّى عملها لدى شنايدرمان، أو خطّتها البعيدة غير الواضحة باعتمادها يوماً ما على نفسها كمصوّرة فوتوغرافية، وافتتاحها استوديو يحمل بابه اسمَها. لم تعن تلك الطموحات كلها أي شيء لها مقابل رغبتها البسيطة بجلب شخص جديد إلى العالم، ابنها أو ابنتها، رضيعها، وأن تكون أمّاً لذلك الشخص لبقية عمرها. قام ستانلي بالجزء المتعلّق به، مارس الحبّ معها من دون وقاية، ولقّح روز ثلاث مرّات في الأشهر الثمانية عشرة الأولى من زواجهما، لكنها أجهضت في المرّات الثلاث، وفي كل مرّة منها، كانت في الشهر الثالث من حملها، وحينما احتفلا بعيد زواجهما الثاني في أبريل 1946، كانا لا يزالان بلا أولاد.

قال الطبيب إنها لا تواجه أيّة مشكلة، وإن صحّتها جيّدة، وستحمل طفلاً في نهاية المطاف متى حان الوقت، لكن هذه الإجهاضات كانت شديدة الوطأة على روز، وكما لو أن جنيناً واحداً يسهّل ولادة الآخر، كذا فإن إجهاضاً واحداً يقود إلى التالي، وأخذت تشعر بأن أنوثتها تُسرَق منها. بكت لأيّام بعد كل نكبة، بكت كما لو أنها لم تبك منذ الأشهر التي تلت وفاة ديفيد، وروز المتفائلة عادة، روز دائمة التكيّف وواضحة الرؤية، سقطت في القنوط والكآبة ورثاء الذات

المرْضيّ. لم يكن ستانلي ولا سواه قادراً على سبر عمق الهوّة التي كانت تتهاوى فيها، إلا أنه حافظ على ثباته ورباطة جأشه، وضبط انفعالاته أمام دموعها، مؤكّداً لها بعد كل جنين مجهض بأنها انتكاسة مؤقّتة، وأن كل شيء سينتهي على خير في النهاية. شعرتْ بالامتنان الشديد للُطفه، وأحسّت بأنها معشوقة، وقريبة جدّاً منه حين كان يكلّمها على هذا النحو. طبعاً، لم تصدّق كلمة واحدة ممّا قاله - وكيف تصدّقه والأدلّة كلها تشير إلى أنه مخطئ؟ لكنْ، كان لما يقوله لها من أكاذيب مريحة فعل المسكّن بالنسبة إليها. كان تقبله بهدوء لكل إجهاض مصدراً لحَيْرتها، وكيف له ألا يعذّبه الانفجار الدموي الوحشي لأطفاله غير المولودين من جسمها؟ تساءلت: هل من الممكن أن يكون ستانلي لا يشاركها الرغبة في الإنجاب؟ لربّما كان يجهل أن ذلك شعوره، لكنْ، ماذا لو أراد في سرّه أن تستمرّ الحال على ما هي عليه، وأن يتملكها كاملة لنفسه، زوجة لا يشاركه أحد في ولائها، لا فصل في عواطفها بين طفل وأبيه؟ لم تتجرّأ قطّ على مصارحة ستانلي بهذه الأفكار، وما كانت في وارد إهانته بشكوك كهذه لا أساس لها، لكنها تواصلت في داخلها، وأصبح يتبادر إلى ذهنها أن الأدوار التي أدّاها ستانلي على أكمل وجه كابن، وأخ، وزوج، حالت دون أن تتّسع دواخله، لأن يكون أباً.

في 5 أيّار 1945، وقبل ثلاثة أيّام من انتهاء الحرب في أوروبا، توفيّ العمّ آرتشي بنوبة قلبية. كان في التاسعة والأربعين من عمره، في سنّ مبكّرة للغاية لأن يموت أي شخص فيها، ولتكون الظروف أكثر بشاعة، أُقيمت الجنازة يوم انتصار الحلفاء في أوروبا، وهو ما يعني أنه بعد أن غادرت عائلة إدلر المصعوقة المقبرة، وعادت إلى شقّة آرتشي في جادّة فلاتبوش في بروكلن، كان الناس يرقصون في شوارع الحيّ، ويطلقون أبواق سيّاراتهم، ويصرخون في بهجة صاخبة محتفلين بانتهاء النصف الأوّل من الحرب. تواصل الصخب لساعات بينما كانت زوجة آرتشي، بيرل، والتوأمان بعمر التاسعة عشرة، بيتي وشارلوت، ووالدا روز وأختها، وروز وستانلي، والأعضاء الأربعة الناجون من وسط كوينتينت، وعشرات من الأصدقاء والأقارب والجيران مجتمعين وقوفاً وجلوساً في الشّقّة الصامتة والستائر مسدَلَة. الأخبار المبهجة التي كانوا جميعاً يترقّبونها منذ زمن طويل بدت كأنما تسخر من مهابة موت آرتشي، والأصوات المغنّية المهلّلة في الخارج أحدثت تدنيساً للمناسبة لا يعرف الرحمة، كما لو أن منطقة بروكلن بأسرها ترقص على قبر آرتشي. لن تنسى روز عصر ذلك اليوم أبداً. ليس لحزنها الخاصّ غير القابل للنسيان، بل لأن ميلدرد اضطربت بشدّة بما دفعها لتجرّع سبعة كؤوس من الويسكي، والارتماء فاقدة للوعي على الأريكة، ولأنها كانت المرّة الأولى في حياتها التي ترى فيها أبوها ينهار باكياً. كان أيضاً عصر اليوم الذي عزمت فيه روز، إن أسعفها الحظّ وأنجبت صبياً، أن تسمّيه آرتشي.

سقطت القنبلتان الكبيرتان على هيروشيما وناغازاكي في آب، ووصل شطر الحرب الثاني إلى نهايته. وفي منتصف 1946، بعد شهرين من عيد زواج روز الثاني، أخبرها شنايدرمان عن عزمه التقاعد قريباً، وأنه يبحث عمّنْ يشتري الاستديو. ونظراً للتّقدّم الذي أحرزتْه خلال سنوات عملهما معاً، كما قال، وقد جعلت من نفسها مصوّرة فوتوغرافية، تتسم بالمهارة والكفاءة الآن، تساءل إن كانت مهتمّة بأن تحلّ مكانه. كان ذلك أكبر إطراء وجّهه لها على الإطلاق. انتشاؤها بذلك، لم يمنع حقيقة إدراكها بأن التوقيت غير مناسب، لأنها وستانلي حرصا العام الماضي على توفير مداخيلهما الإضافية، ليتمكّنا من تشييد بيت في الضواحي، بيت عائلة مع فناء خلفي وأشجار وموقف لسيّارتين، ولم يكن بإمكانهما توفير المال الكافي لشراء كلّ من البيت والاستوديو. أخبرت شنايدرمان بأن عليها سؤال زوجها، وهذا ما فعلتْه سريعاً في تلك الأُمسيّة بعد العشاء، متوقّعة تماماً أن ستانلي سيخبرها أن ذلك غير وارد، لكنه نصب لها فخاً بقوله إنه خيارها هي، فإن كانت مستعدّة للتّخلّي عن فكرة البيت، فبإمكانها الحصول على الاستوديو طالما أن التكلفة بالمتناول. انشدهت روز. فهي تعرف كم يعنيه أمر البيت، وها هو يخبرها بأن الشّقّة تكفيهما، وأنه لن يمانع العيش فيها لبضعة سنين أخرى، وما من شيء من ذلك صحيح، ولأنه كان يكذب عليها، يكذب لأنه يعبدها ويريدها أن تحصل على كل ما تريد، فقد تغيّر شيء ما في روز تلك الأُمسيّة، وفهمت أنها قد بدأت تحبّ ستانلي، تحبّه بحقّ، وإن تواصلت الحياة على هذا النحو، فإنها على الأرجح ستقع في حبّه، وتُردى صريعة حبّ كبير ثانٍ مستحيل.

دعْنا لا نتسرّع، قالت له. أنا أيضاً أحلم بذلك البيت، ولا بدّ أن الانتقال من مساعدة إلى صاحبة عمل خطوة كبيرة. لستُ متأكّدة من أني جاهزة بعد. هل يمكننا التفكير بذلك لبعض الوقت؟

وافق ستانلي على التفكير بالأمر لبعض الوقت. حين قابلت شنايدرمان في العمل صباح اليوم التالي، وافق هو أيضاً على منحها فرصة للتفكير لبعض الوقت، وبعد عشرة أيّام من تفكيرها بالأمر، اكتشفت أنها حامل.

لعدّة شهور مضت، كانت تزور طبيباً جديداً، رجل وثقت به، اسمه سيمور جاكوبس، طبيب جيّد وفطن، أنصتَ إليها باهتمام، ولم يستعجل الاستنتاجات، وبسبب تاريخها المتضمّن ثلاثة إجهاضات تلقائية، حثّها جاكوبس على التّوقّف عن الذهاب إلى نيويورك يومياً، وأن تتوقّف عن العمل طيلة فترة حملها، وأن تلزم شقّتها مع البقاء في الفراش ما أمكن. يعرف أن هذه الإجراءات تبدو تقليدية وقديمة الطراز بعض الشيء، لكنه كان قلقاً عليها، وقد تكون هذه فرصتها الأخيرة للحصول على طفل. فرصتي الأخيرة! قالت روز في سرّها، بينما تستمع إلى الطبيب ذي الثانية والأربعين من العمر بأنفه الكبير وعينيه البنّيّتين العطوفتين وهو يخبرها عن سُبُل نجاحها في أن

تصير أمّاً. التّوقّف عن التدخين والكحول، أضاف. برنامج غذائي صارم غني بالبروتين، مع مكمّلات يومية من الفيتامينات، ونظام من التمرينات الخاصّة. وأنه سيأتي لزيارتها مرّة كل أسبوعين، وأن عليها كلّما شعرت بأي وخز أو ألم، أن ترفع سمّاعة الهاتف وتتّصل به. هل كل شيء واضح؟

نعم، كل شيء واضح. وهكذا انتهت معضلة الاختيار بين شراء البيت أو الاستوديو، وبدورها وضعت نهاية لأيّامها مع شنايدرمان، ما لم نقل إنها قطعت عملها كمصوّرة، وقلبت حياتها رأساً على عقب.

كانت روز مبتهجة ومضطربة على حدّ سواء. مبتهجة بمعرفتها أن الفرصة ما زالت متاحة؛ ومضطربة حيال احتجازها في البيت لما يُقدّر بسبعة أشهر. لم يكن قيامها بعدد لا محدود من التعديلات حكراً عليها، بل طال ذلك ستانلي أيضاً، حيث ترتّب عليه الآن القيام بالتّسوّق والكثير من الطبخ، ستانلي المسكين، الذي واظب على عمله الشّاقّ ولساعات طويلة، بالإضافة إلى النفقات الإضافية التي ترتّبت على توظيفه امرأة، تتولّى التنظيف والغسيل مرّة أو مرّتين في الأسبوع. تبدّلت تقريباً أوجه الحياة كلها، ساعات استيقاظها ستُضبط من الآن فصاعداً بالعديد من المحاذير والقيود، الامتناع عن رفع أشياء ثقيلة، وعدم تحريك المفروشات حولها، وتجنّب أي جهد لفتح نافذة عالقة خلال موجة الحَرّ الصيفية، وكان عليها مراقبة نفسها بحرص كبير، والانتباه إلى آلاف الأشياء الصغيرة والكبيرة التي اعتادت القيام بها من دون تفكير، وبالطبع التّوقّف عن لعب التنس (الذي نشأت على حبّه) ولا مزيد من السباحة (التي أحبّتْها منذ نعومة أظفارها). وبكلمات أخرى، فقد كان على روز الرياضية، المتّقدة، دائمة الحركة، والتي وجدت نفسها في الأنشطة فائقة السرعة والمستنفدة للطاقة، كان عليها أن تتعلّم كيفية الجلوس بلا حركة.

من بين الناس كلهم، كانت ميلدرد منقذتها من إمكانية الملل القاتل، هي مَنْ أتت، وحوّلت شهور السكون تلك إلى ما ستصفه روز لابنها فيما بعد بالمغامرة الكبرى.

لا يمكنكِ الجلوس في الشّقّة طوال اليوم تستمعين إلى الراديو وتشاهدين ذلك الكلام الفارغ على التلفزيون، قالت ميلدرد. لمَ لا تُشغِّلين عقلكِ الآن، وتقومين بشيء؟

أقوم بشيء؟ قالت روز، وهي تجهل ما تقصده ميلدرد بذلك.

لربّما أنتِ لا تدركين ذلك، قالت أختها، لكن طبيبكِ وهبكِ هدية استثنائية. لقد حوّلكِ إلى سجينة، والشيء الوحيد الذي يمتلكه السجناء، ولا يمتلكه الآخرون هو الوقت، مقدار كبير من الوقت. اقرئي الكُتُب، يا روز. ابدئي بتثقيف نفسكِ. هذه فرصتكِ، وإن احتجتِ مساعدتي، فيسعدني أن أقدّمها إليكِ.

جاءت مساعدة ميلدرد على شكل قائمة كُتُب، عدد من قوائم القراءة تغطّي الأشهر المقبلة، وأرضى استبعاد روز المؤقّت لارتياد السينما - جوعها للقصص والروايات للمرّة الأولى، ولم تكن إلا روايات جيّدة، لا مكان فيها لروايات الجريمة والأكثر مبيعاً التي لكانت انجذبت إليها، لو اختارتها بنفسها، لكنها كُتُب ميلدرد، من تلك الكلاسيكية بالتأكيد، وإن كانت قد انتقتْها آخذة بعين الاعتبار ما ستستمع به روز. وهو ما عنى أن *موبي ديك* و*يوليسيس* و*الجبل السحري* لم تكن قطّ على أي من تلك القوائم، لأن من شأن تلك الكُتُب أن تكون شاقّة جدّاً على روز قليلة الخبرة، إلا أن كُتُباً كثيرة أخرى، يمكن الاختيار من بينها. ومع مرور الأشهر وجنينها ينمو بأحشائها، أمضت روز أيّامها سابحة في صفحات الكُتُب، رغم بعض الخيبات التي طالعتها من بين عشرات الكُتُب التي قرأت (صدمتْها *لا تزال الشمس تشرق*، على سبيل المثال، وجدتْها ملفّقة وضحلة)، استهوتْها تقريباً الكُتُب الأخرى جميعها، واستحوذت عليها من الصفحة الأولى إلى الأخيرة، ومن بينها *رقيق هو الليل*، و*كبرياء وتحامل*، و*بيت المرح*، و*مول فلاندرز*، و*سوق الأضاليل*، و*مرتفعات وذرينغ*، و*مدام بوفاري*، و*دير بارما*، و*الحبّ الأوّل*، و*أهالي دبلن*، و*نور في آب*، و*ديفيد كوبرفيلد*، و*ميدلمارش*، و*ميدان واشنطن*، و*الحرف القِرْمِزيّ*، و*الشارع الرئيس*، و*جين إير*، وغيرها الكثير، لكنْ، من بين الكتّاب جميعهم الذين اكتشفتهم في أثناء ملازمتها البيت، كان تولستوي أكثر من أثّر بها، الشيطان تولستوي، الذي فهم كل شيء في الحياة، كما بدا لها، كل شيء عن قلوب البشر وعقولهم، لا فرق إن كان القلب أو العقل لرجل أو امرأة، وتساءلت كيف أمكن لرجل أن يعرف ما عرفه تولستوي عن النساء؟! فمن غير المعقول أن يختصر رجل واحد الرجال والنساء كلهم، ولذلك فقد عكفتْ على معظم ما كتبه تولستوي، ليس الروايات الكبيرة فقط مثل *الحرب والسِّلْم*، و*آنا كارنينا*، و*البعث*، بل وأيضاً أعماله الأقصر، الروايات والقصص القصيرة، لم يضاهِ شيءٌ قوّة *السعادة العائلية* المكوّنة من مئة صفحة، تلك التي تروي حكاية عروس شابّة وخيبة أملها التدريجية، العمل الذي مسّها مسّاً عميقاً، لدرجة أبكتْها في النهاية، وعندما عاد ستانلي إلى الشّقّة في ذلك المساء، ذُعر لرؤيتها في مثل هذه الحالة، فرغم إنهائها قراءة القصّة في الثالثة بعد الظهر، إلا أن عينيها كانتا لا تزالان مبلّلتين بالدموع.

كان موعد ولادة الطفل في 16 آذار 1947، لكنْ، في الساعة العاشرة من صباح الثاني من آذار، وبعد بضع ساعات على ذهاب ستانلي إلى العمل، وبينما كانت روز لا تزال في ملابس النوم مستلقية في سريرها مع *قصّة مدينتين*، وتستند على الطرف الأيسر من بطنها الهائلة، شعرت بضغط مفاجئ في مثانتها. ظنّت أنها تحتاج إلى التبوّل، فانتشلت نفسها ببطء من الأغطية والبطّانيّات، وتقدّمت بجسدها الضخم نحو حافّة السرير، ثمّ وضعت قدميها على

الأرض، ووقفت. قبل أن تتقدّم خطوة واحدة نحو الحمّام، شعرت بتدفّق سائل دافئ نحو الأسفل عبر الجهة الداخلية من فخذيها. جمدت روز في مكانها. كانت تواجه النافذة، وحين نظرت إلى الخارج، رأت ثلجاً خفيفاً ضبابياً يهمي من السماء.

لكم بدا كل شيء ساكناً في تلك اللحظة، حدّثت نفسها، كما لو أن لا شيء يتحرّك في العالم سوى الثلج. جلست على السرير ثانية، واتّصلت بـ "عالم الأخوة الثلاثة"، لكن الذي أجاب على الهاتف أخبرها أنّ ستانلي خرج في عمل، وسيعود بعد الغداء. ثمّ اتّصلت بالطبيب جاكوبس، الذي أخبرتها سكرتيرته أنه قد غادر العيادة للتوّ في زيارة منزلية. بدأ الذعر الآن يتسرّب إلى روز، وطلبت من السكرتيرة أن تخبر الطبيب بأنها في طريقها إلى المستشفى، وبعدها طلبت رَقْم ميلي. ردّت زوجة أخ زوجها عند الرنة الثالثة، وهكذا فإن ميلي هي مَنْ جاء لأخذها. خلال الرحلة القصيرة إلى قسم الولادة في "بيت اسرائيل"، أخبرتها روز أنها وستانلي قد اختارا اسمين للمولود الموشك على الوصول. فإن كانت بنتاً، فسيسمّيانها إستر آن فيرغسون. أما إن كان صبياً، فإنه سيعيش حياته باسم آرتشيبالد إسحاق فيرغسون. نظرت ميلي في مرآة الرؤية الخلفية، وتفحّصت روز، المتمدّدة على المقعد الخلفي، وقالت، آرتشيبالد، هل أنتِ متأكّدة من هذا الاسم؟

نعم، نحن متأكّدان، أجابتها روز. كناية باسم عمّي آرتشي. وإسحاق على اسم والد ستانلي.

دعينا نأمل فقط بأن يكون طفلاً قوياً معافى، قالت ميلي. وكانت على وشك المتابعة، لكنْ، وقبل أن تنبس بكلمة أخرى، كانوا قد وصلوا إلى مدخل المستشفى.

جمعت ميلي أفراد العائلة، وحين ولدت روز ابنها في 2:07 صبيحة اليوم التالي كان الجميع هناك: ستانلي ووالداها، ميلدرد وجوان، وحتّى أمّ ستانلي. وهكذا وُلد فيرغسون، ولبضع ثوان بعد خروجه من جسم أمّه، كان أصغر كائن بشري على وجه الأرض.



1.1

كان اسم أمّه روز، وعندما أصبح كبيراً ما يكفي لأن يربط سيور حذائه، ويتوقّف عن تبليل سريره، كان يريد الزواج منها. عرف فيرغسون أن روز متزوّجة من والده، لكن والده كان عجوزاً، ولن يلبث وقت طويل حتّى يصبح في عداد الموتى. وما إن يحدث ذلك، سيتزوّج فيرغسون من أمّه، وحينها فإن اسم زوجها سيصبح آرتشي، وليس ستانلي. سيُحزنه موت والده، لكنْ، ليس كثيراً، وقد لا يفضي ذلك إلى ذرف أي دموع. الدموع للأطفال، وهو لم يعد طفلاً قطّ. لا تزال تصدر عنه في بعض الأوقات، لكن ذلك حين يقع ويؤذي نفسه، وإيذاء النفس لا يؤخذ بالاعتبار.

الآيس كريم بنكهة الفانيلا أفضل الأشياء في العالم، وكذلك القفز مرّات متوالية على سرير والديه. أسوأ الأشياء في العالم هي آلام المعدة والحمّى.

يعي الآن بأن حبّات الـ "سور بولز" خطرة. مهما بلغت درجة ولعه بها، فقد صار يتفهّم أن عليه ألا يضعها في فمه بعد الآن. إنها شديدة الانزلاق، ولا يقوى على ابتلاعها، ولأنها أكبر من أن تنزل في حلقه، فإنها قد تعلق في قصبته الهوائية ممّا سيعيق التّنفّس. لن ينسى قطّ شعوره المريع حين خنقته، إلا أن أمّه حينها اندفعت إلى الغرفة، مدّدتْه على الأرض، ثمّ قلبتْه بأن صار عاليه أسفله، بيد تمسك قدميه، وبالأخرى تضرب ظهره حتّى لفظ حبّة "السور بولز" من فمه، وتبعثرت على البلاط. قالت أمّه: توقّف عن "السور بولز"، يا آرتشي.

إنها خطيرة جدّاً. بعد ذلك طلبت منه أن يحمل زبدية "السور بولز" إلى المطبخ، وتوالى سقوط الحلوى الحمراء، والصفراء، والخضراء واحدة تلو الأخرى في القمامة. لتردف أمّه في ذلك الحين: مع السلامة. يا لها من عبارة مضحكة: مع السلامة!

حدث ذلك في نيوارك، في أيّام ولّت منذ زمن طويل حين كانوا يقطنون شقّة في الطابق الثالث. وهم يعيشون الآن في بيت يقع في مكان يسمّى مونتكلير. البيت أكبر من الشّقّة، لكنْ، في الواقع كان يصعب عليه تذكّر الكثير عن الشّقّة. عدا واقعة "السور بولز"، والستائر "الفينيسية" المعدنية في غرفته، والتي كانت تُقعقع كلّما فُتحَت النافذة، وفي ذلك اليوم الذي طوت فيه أمّه مهده ونام للمرّة الأولى وحيداً في سرير، لم يعد يتذكّر شيئاً.

يغادر والده البيت في الصباح الباكر، وغالباً قبل أن يستيقظ فيرغسون. أحياناً يأتي والده ليتناول العشاء في البيت، وأحياناً أخرى لا يأتي إلا حين يكون فيرغسون قد أُودَع السرير. والده يعمل. هذا ما يفعله الرجال الكبار. يغادرون البيت كل يوم، ويعملون، ولأنهم يعملون، فإنهم يكسبون المال، ولأنهم يكسبونه، فإن بمقدورهم شراء الأشياء لزوجاتهم وأطفالهم. هذا ما شرحتْه له والدته بينما كان يراقب سيّارة والده الزرقاء تمضي مبتعدة عن البيت. بدا ذلك ترتيباً جيّداً، فكّر فيرغسون، لكن الجزء المتعلّق بالمال كان على قدر من التشويش. المال شيء صغير وقذر، كيف لهذه القطع الصغيرة القذرة من الورق أن تجلب شيئاً كبيراً كسيّارة أو بيت؟

امتلك والداه سيّارتين، ديسوتو زرقاء لوالده، وشيفروليه خضراء لوالدته، لكنْ، لدى فيرغسون ستّة وثلاثين سيّارة، يخرجها من صندوقها في الأيّام المعتمة حين تكون الأمطار قد بلّلت كل شيء في الخارج، ويصفّ أسطوله المصغّر في رتل على أرضية الصالون. هناك سيّارات ببابين وبأربعة، منها ما يكشف سقفها، ومنها شاحنات قلاّبة، وهناك سيّارات شرطة وإسعاف، وسيّارات تاكسي وحافلات، وشاحنات إطفاء وجبّالات إسمنت، وشاحنات توصيل، وسيّارات "ستايشن"، فورد، وكرايسلر، وبونتياك، وستودبيكر، وبيويك، وناش رامبلز، وكلّ منها مختلفة عن الأخرى، ما من شبه بين اثنتين، وحين يبدأ فيرغسون بدفع واحدة منها على البلاط، ليحرّكها، فإنه ينكبّ عليها متأمّلاً مقعد السائق الفارغ، ولأن كل سيّارة بحاجة إلى سائق لكي تتحرّك، فقد كان يتخيّل بأنه الشخص الجالس خلف المقود، شخص فائق الصغر، رجل صغير لدرجة أنه حجمه لا يتجاوز طرف إبهامه.

تدخّن أمّه السجائر، إلا أن والده لا يدخّن شيئاً، ولا غليوناً ولا سيجاراً. "أولد غولدز"، يا لوقع الاسم! فكّر فيرغسون، واستعاد كيف ضحك طويلاً عند نفخت أمّه حلقات الدخان نحوه. وكان والده أحياناً يقول لها، روز، أنت تدخّنين كثيراً، وتومئ أمّه برأسها موافقة، إلا أنها تمضي في إفراطها بالتدخين، كما في السابق. وكلّما ذهبَ رفقة والدته في السّيّارة الخضراء لقضاء الحاجيات، كانا يتوقّفان لتناول الغداء في مطعم صغير اسمه "آلس دينر"، وبمجرّد أن ينتهي من الحليب بالشوكولا وشطيرة الجبنة المشوية، كانت أمّه تعطيه ربع دولار، وتطلب منه أن يشتري لها علبة "أولد غولدز" من آلة السجائر. كان ذلك يُشعِره بأنه كبير طالما أُعطي ربعاً، والذي كان أفضل شعور مُتاح أمامه، وهكذا فإنه كان يمضي نحو الجهة الخلفية من المطعم، حيث تتواجد الآلة بين حمّامين. ومتى وصل هناك، فإنه يقف على رؤوس أصابعه، ليضع العملة المعدنية في الشقّ المخصّص لها ساحباً المقبض من تحت العمود التي تصطف عليه علب "الأولد غولدز"، منصِتاً بعدئذ لصوت العلبة، وهي تسقط من الآلة الضخمة في الحوض الفضي أسفل المقابض.

لم يكن سعر السجائر في تلك الأيّام خمسة وعشرين سنتاً، بل ثلاثة وعشرين، وليعقب كل علبة سجائر بنسين نحاسيين، كانت أمّه تدعه يحتفظ بهما دائماً، فيضعهما في راحة يده المفتوحة، ويتفحّص الصورة الجانبية للرجل على وجه العملتين، بينما هي تدخّن سيجارة ما بعد الغداء، وتحتسي قهوتها. إنه إبراهام لينكولن. أو كما تقول أمّه أحياناً: *إيب الشريف*.

وسوى عائلة فيرغسون الصغيرة ووالديه، كان هناك عائلتان يهتمّ لأمرهما، عائلة والده وعائلة أمّه، آل فيرغسون في نيوجيرسي وآل إدلر في نيويورك، العائلة الكبيرة المؤلّفة من عَمَّيْن وزوجَتَيْهما، وخمسة أولاد عمومة، والعائلة الصغيرة المكونة من جَدَّيه والخالة ميلدرد، بما يشمل أيضاً خالة أمّه الرائعة بيرل، وابنَتَي عمّه التوأمين الكبيرتين بيتي وشارلوت. للعمّ ليو شاربان رفيعان، ويضع نظّارات دقيقة، بينما يدخّن العمّ أرنولد سجائر "الجمل"، وله شَعْر أحمر، والعمّة جوان قصيرة ومكتنزة، والخالة ميلي نهمة أكولة، لكنها نحيفة جدّاً، وأبناء العمومة يتجاهلونه، لأنه صغير جدّاً، بالنسبة إليهم، ما عدا فرانسي، التي تصبح جليسته حين يذهب والداه إلى السينما أو إلى حفلة في بيت أحدهم، وقد كانت، إلى حدّ كبير، الشخص المفضّل لديه في عائلة نيوجرسي. كانت ترسم له رسوماً جميلة وعويصة لقلاع وفرسان على صهوات جيادهم، تسمح له بأن يأكل ما يشاء من آيس كريم الفانيلا، تروي له نكات مضحكة، ويا لها من جميلة، بشَعْرها الطويل الذي يتماوج بين البنّيّ والأحمر معاً. كانت العمّة ميلي جميلة أيضاً، لكن شَعْرها أشقر، لا يشبه شَعْر أمّه البنّيّ الغامق، ورغم أن أمّه تخبره على الدوام بأنهما أختان، إلا أنه كان ينسى، كونهما تبدوان مختلفتين. كان ينادي جَدّه بابا، وجَدّته نانا. بابا يدخّن سجائر "تشسترفيلد"، وقد تساقط معظم شَعْره. ونانا بدينة وتضحك بطريقة لافتة جدّاً، كما لو أن طيوراً وقعت في فخاخ حَنْجَرتها. كان يفضّل زيارة شقّة إدلر في نيويورك على زيارة بيوت آل فيرغسون في "يونين آند ميبلوود"، وبالضبط كان مرور السّيّارة بقناة "هولاند" مصدر متعة، بالنسبة إليه، إنه الإحساس الغريب بالسفر عبر أنبوب، تَوَضَّعَ تحت الماء، ورُصف بملايين البلاطات المربّعة المتماثلة، وكان في كل مرّة يقوم بها برحلته تحت المائية تأخذه الدهشة بالدّقّة التي رُصفت فيها البلاطات معاً متسائلاً عن عدد الرجال الذين تطلّبهم إنجاز أمر جبّار كهذا. الشّقّة أصغر من البيوت في نيوجرسي، لكنها تتميّز بكونها على ارتفاع عال، في الطابق السادس من البناية، ولم يملّ فيرغسون يوماً من النظر عبر نافذة الصالون مراقباً حركة المرور في دوار "كولومبوس"، وكان هناك المزيد من المزايا في عيد الشُّكْر، إذ أتاحت النافذة فرصة مشاهدة الاستعراض السنوي في أثناء مروره قربها، وتتبّع بالونات ميكي ماوس العملاقة وهي تكاد تصفع وجهه. أمر جيّد آخر متعلّق بالذهاب إلى نيويورك، ألا وهو وجود هدايا دائماً بانتظاره حين يصل، علب حلوى من جَدّته، كُتُب وأسطوانات من الخالة

ميلدرد، والأشياء الخاصّة كلها من جَدّه: طائرات "البلازا وود"، لعبة تسمّى "بآرتشيسي" (كلمة ممتازة أخرى)، أكداس من أوراق اللعب، وحيل سحرية، وقبّعة كاوبوي حمراء، ومسدّسان بستّ طلقات في جرابين من الجلد الطبيعي. البيت في نيوجرسي لا يحتوي هكذا خيرات، ولذلك قرّر فيرغسون أن نيويورك هي المكان الذي ينبغي أن يكون فيه، وحين سأل أمّه لماذا لا يستطيعون العيش هناك دائماً، ابتسمت ابتسامة كبيرة، وقالت *اسأل والدكَ*. وعندما سأل والده، قال له والده: *اسأل أمّكَ*. وبدا جليّاً أن بعض الأسئلة ليس لها إجابات.

أراد أن يحظى بأخ، مفضّلاً أن يكون أكبر منه، ولأن ذلك لم يعد ممكناً قطّ، استقرّ على رغبته بأخ أصغر منه، وما لم يكن بالإمكان الحصول على أخ، فإنه سيكتفي بأخت، حتّى وإن كانت أختاً صغرى، فقد كان أغلب الوقت وحيداً، ليس لديه مَنْ يلعب أو يتحدّث معه، وقد علّمتْه التجربة أن لكل طفل أخاً أو أختاً، أو عدداً من الأخوة والأخوات، وكان بمقدوره القول إنه كان الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة في أرجاء العالم جميعها. فلدى فرانسي جاك وروث، وأندرو وأليس لبعضهما البعض، ولدى صديقه في الحيّ بوبي أخ وأختان، وحتّى والداه أمضيا حياتهما رفقة أولاد آخرين، إذ كان لوالده أخوان، ولأمّه أخت واحدة، ولم يكن من العدل أن يكون الشخص الوحيد الذي يمضي حياته وحيداً من بين مليارات البشر. لم يكن على دراية كيف يتمّ إنجاب الأطفال، إلا أنه تعلّم ما يكفي لإدراك أن ذلك يبدأ في أجساد أمّهاتهم، ولهذا فإن الأمّهات أساسيات في هذه العميلة، ما كان يعني بأن عليه الحديث مع أمّه بخصوص تغيير وضعه من ابن وحيد إلى أخ. طُرح هذا الموضوع في صبيحة اليوم التالي سائلاً أمّه بفظاظة أن تتفضّل وتُشغِل نفسها بإنجاب طفل جديد له. وقفت أمّه صامتة لبضع ثوان، وانحنت على مقربة من ركبتيها، وحدّقت في عينيه، ومضت تُربّت على رأسه. تبادر إلى ذهنه أن هذا غريب، وخارج توقّعاته، وبدا الحزن على أمّه لدقيقة أو دقيقتين، حزن شديد لدرجة أنه دفع فيرغسون مباشرة لأن يندم على هكذا طلب. أوه، يا آرتشي، قالت، من الطبيعي أن ترغب بأخ أو أخت، وأنا أحبّ أن تحظى بذلك، لكنْ، يبدو أنني فرغتُ من إنجاب الأطفال، ولم يعد يمكنني أن أحظى بهم. لقد شعرتُ بالأسى تجاهكَ حين أخبرني الطبيب بذلك، ثمّ إنني أحسستُ بأن ذلك قد لا يكون أمراً مزعجاً. هل تعرف لماذا؟ (هزّ فيرغسون رأسه نافياً.) لأنني أحبّ آرتشي كثيراً، فكيف لي أن أحبّ ولداً آخر، طالما أن الحبّ كله الذي في أعماقي لكَ أنتَ وحدكَ؟

لم تكن مشكلة مشكلة عابرة، فقد أيقن الآن، أنها أبدية. ما من أخوة أو أخوات أبد الدهر. ولأن ذلك صدم فيرغسون، وأوصله إلى حالات لا تُطاق، فإنه تحايل على ورطته باختراع أخ متخيّل. كان خياراً يائساً، ربّما، إلا أنه أفضل من لا شيء، حتّى وإن كان عاجزاً عن رؤية أو لمس

أو شمّ ذلك الشيء المتخيّل، فإنه لم يقع على خيار آخر. أطلق على أخيه المولود حديثاً اسم جون، وطالما أن قوانين الواقع لم تعد واردة، فقد كان جون أخاه الأكبر، يكبره بأربعة أعوام، ما يعني بأنه أطول وأقوى وأذكى من فيرغسون، وليس شبيهاً بجاره بوبي جورج، الممتلئ، والكبير الضخم، ومَنْ يتنفّس من فمه، لكون أنفه مسدوداً على الدوام بمخاط أخضر، هو الذي بمقدوره الكتابة والقراءة، والبطل المتوّج في البيسبول وكرة القدم. حرص فيرغسون على ألا يُكلّمه جهراً عند تواجد أشخاص آخرين في الغرفة، فقد كان جون سرّه الخاصّ، ولم يرغب أن يقاسمه إيّاه أحد، ولا حتّى أمّه وأباه. زلّ لسانه مرّة، إلا أنه لم يستدرك، لأن ذلك حدث مع فرانسي. جاءت في تلك الليلة، لتُجالسه في غياب والديه، وحين مضت إلى الفناء الخلفي سمعتْه يخاطب جون بشأن الحصان الذي يودّ الحصول عليه في عيد ميلاده المقبل، فسألته مع مَنْ يتكلّم. وكان فيرغسون يحبّ فرانسي كثيراً، بحيث إنه أخبرها الحقيقة. ظنّ بأنها ستهزأ به، لكن فرانسي أومأت، معبّرة عن موافقتها على فكرة الأخوة المتخيّلين، وبالتالي سمح فيرغسون لها بأن تتحدّث إلى جون، وأصبحت فرانسي في كل مرّة تراه على مدى الأشهر التي تلت، تلقي التّحيّة أوّلاً عليه بصوت مسموع، ثمّ تنحي، وتضع فمها على أذنه، وتهمس: هالو، جون. لم يكن فيرغسون قد تجاوز الخامسة من عمره بعد، إلا أنه أدرك بأن العالم قائم على مملكتين، مرئية وغير مرئية، وأن ما لا يستطيع رؤيته أكثر حقيقة ممّا يراه.

كان مكتب جَدّه في نيويورك ومتجر والده في نيوارك أفضل الأمكنة. أما المكتب في غربيّ الشارع السابع والخمسين، فيبعد مسافة بضعة مبان عن مسكن جَدَّيه، وأوّل الأشياء المميّزة في ذلك المكتب أنه في الطابق الحادي عشر، أي أعلى من الشّقّة في غربيّ الشارع الثامن والخمسين، ما جعل النظر من النافذة أمتع، حيث تسافر نظرته بعيداً وعميقاً فيما حوله لتعاين عدداً أكبر من المباني، هذا عدا إطلالتها على جلّ مساحة "السنترال بارك"، ولتبدو السّيّارات وعربات الأجرة صغيرة بحجم السّيّارات التي يلعب بها في البيت. الشيء الثاني المميّز في المكتب يأتي من الطاولات الكبيرة والآلات الكاتبة والحاسبة. كان صوت الآلات الكاتبة يدفعه للتفكير بالموسيقا، خاصّة حين يرن الجرس مع نهاية السطر، وتذكّره أيضاً بصوت المطر المدرار على سطح البيت في "مونتكلير" وصوت ارتطام الحصى بزجاج النافذة. كانت سكرتيرة جَدّه بارزة العظام، اسمها دوريس، لديها شعيرات سوداء على زنديها، وتفوح من فمها رائحة النعناع، إلا أنها كانت تروق له، لأنها تناديه بالسّيّد فيرغسون، وتسمح له باستخدام الآلة الكاتبة، التي تسمّيها "السير أندروود"، وقد بدأ الآن يتعلّم أحرف الأبجدية، وأصبح معتزاً بنفسه لقدرته على الضغط بأصابعه على مفاتيح تلك الآلة الثقيلة وطباعة سطر كامل من حروف "A" و"S"، وإن لم

تكن دوريس، على سبيل المثال، مشغولة جدّاً، فإنه يطلب منها أن تساعده في كتابة اسمه. كان المتجر في نيوارك أكبر بكثير من المكتب في نيويورك، وكان يحتوي أشياء كثيرة جدّاً، ليس آلات كاتبة وثلاث آلات حاسبة في الغرفة الخلفية فقط، بل صفوفاً من الأجهزة والمعدّات والأدوات المنزلية، ومساحة كبيرة في الطابق الثاني مخصّصة للأسِرّة والطاولات والكراسي، بأعداد كبيرة، لا يمكن عَدّها. لم يكن مسموحاً لـ فيرغسون بلمسها، لكنْ، حين يتوارى عن أنظار أبيه وعمّيه، فإنه قد يتسلّل، ليفتح باب ثلاجة، ليتشمّم الرائحة الخاصّة في داخلها أو يصعد أحد الأسِرّة، ليختبر القفز على فرشتها، وحين ينكشف أمره وهو يفعل ذلك، فإن أحداً لا يغضب، باستثناء عمّه أرنولد الذي يصرخ في وجهه، ويزمجر في بعض الأحيان: أبعدْ يديكَ عن البضائع، *يا بُنَيَّ*. كره مخاطبته على هذا النحو، وساءه كثيراً حين ضربه عمّه على رأسه من الخلف في ظهيرة يوم من أيّام السبت، ولأن الضربة آلمتْه كثيراً، فقد بكى، لكنه لم يعد يبالي به، بعد أن سمع أمّه تقول لأبيه إن عمّه أرنولد عديم الإحساس. على كُلٍّ، لم تبقَ الأسِرَّة والثلاجات محطّ اهتمامه لزمن طويل، وتحديداً بوجود التلفزيونات، تلك الجديدة "فولكس" و"إميرسون" التي تفوّقت على كل ما هو معروض: اثنا عشر أو خمسة عشر موديلاً معروضة تصطفّ إلى جانب بعضها على الحائط يسار الباب، ولم يكن فيرغسون يحبّ شيئاً أكثر من التّنقّل بين قنواتها مستعرضاً سبعة برامج مختلفة تبثّ معاً، حيث للحبيبات المشوّشة أن تمضي في إظهار الصورة، في الشاشة الأولى رسوم متحرّكة، و"وسترن" في الثانية، ومسلسل في الثالثة، وقدّاس كنسي في الرابعة، وإعلان تجاري في الخامسة، ومقدّم أخبار في السادسة، ومباراة كرة قدم في السابعة. يتراكض فيرغسون بين شاشة وأخرى، ومن ثمّ يدور حول نفسه حتّى يدوخ، وحين يبتعد تدريجياً عن الشاشات وهو يواصل دورانه، فإنه يتوقّف في موضع، يتيح له مشاهدة الشاشات السبع معاً، ورؤية أشياء كثيرة مختلفة تحدث في الوقت ذاته، تدفعه للضحك دائماً. ممتع. ممتع جدّاً، ويدع له والده فعل ذلك، لأنه يرى الأمر ممتعاً أيضاً.

لم يكن والده مرحاً. يعمل لساعات طويلة، ستّة أيّام في الأسبوع، وأطول تلك الأيّام يوما الأربعاء والجمعة، إذ لا يُغلق المتجر أبوابه حتّى التاسعة ليلاً، وفي يوم الأحد، يستيقظ في العاشرة أو العاشرة والنصف صباحاً، ويلعب التنس عصراً. كان مطلبه المفضّل: اسمعْ كلام أمّكَ. سؤاله المفضّل: هل كنتَ ولداً صالحاً؟ حاول فيرغسون أن يكون ولداً صالحاً، يسمع كلام أمّه، رغم أنه أحياناً يفشل في ذلك، إلا أن الجيّد في فشله هذا أن والده لم يلحظ ذلك قطّ. كان مشغولاً ربّما عن الملاحظة، وكان فيرغسون ممتنّاً لذلك، طالما أن أمّه نادراً ما تعاقبه، حتّى حين ينسى أن يسمع، وأن يكون صالحاً، ولأن والده لا يوبّخه كما تفعل العمّة ميلي مع أولادها، ولا

يضربه أبداً كما يفعل العمّ أرنولد مع ابن عمّه جاك، فقد خلص فيرغسون إلى أن فرع عائلته هو الأفضل من بين سائر آل فيرغسون رغم قلّتهم. احتفظ بالقدرة على إضحاكه في بعض الأحيان، ولأن تلك الأوقات قليلة ومتباعدة، فقد كان فيرغسون يضحك كثيراً تعويضاً عن شحّ ذلك في الأوقات الأخرى. كان من أمتع الأشياء رمي والده له عالياً، وتحليقه قريباً من السقف، وهو واثق من صلابة وقوّة والده، وليطير أعلى حين يكونان في الفناء الخلفي، من دون أن يتبادر إلى ذهنه يوماً بأن والده سيُوقِعه، ما يعني بأنه كان يشعر بالأمان بما يكفي لأن يفتح فمه قدر استطاعته، ويتنشّق الهواء مع ضحكه الصاخب، وكانت مشاهدته لوالده يتلاعب بالبرتقالات في المطبخ أمراً مضحكاً آخر، بينما كان سماعه يضرط ثالث الأشياء المضحكة، ليس لأن الضراط مضحك بحدّ ذاته فقط، بل لأن والده وفي كل مرّة يضرط في حضوره، كان يقول: ووبس، ها هو هوبي - يقصد هوبالونغ كاسيدي، الكاوبوي في المسلسل التلفزيوني الذي يحبّه فيرغسون كثيراً. لم يعرف لِمَ على أبيه أن يقول ذلك، وليبقى من أعظم الألغاز في العالم، وهو يضحك على الدوام حين يقول والده ذلك. فكرة غريبة ومثيرة للاهتمام راودتْه في هذا الخصوص، ألا وهي تحويل الضرطة إلى كاوبوي اسمه هوبالونغ كاسيدي.

تزوّجت الخالة ميلدرد من هنري روس بعد عيد ميلاد فيرغسون الخامس بفترة قصيرة، كان طويلاً بشَعْر ناعم، وهو بروفيسور مثل ميلدرد، التي أنهت دراساتها لأربع سنوات الأدب الإنكليزي، وصارت تدرس في كلّيّة "فاسار". كان عمّ فيرغسون الجديد يدخّن سجائر "بول مول" (*رائعة وسلسة*)، ويبدو عَصبياً، طالما أنه دخّن في ظهيرة أحد الأيّام أكثر ممّا دخّنته أمّه طيلة اليوم، لكن أكثر ما أثار اهتمام فيرغسون في زوج ميلدرد بأنه يتكلّم بسرعة، ويستخدم كلمات طويلة معقّدة، كان من المستحيل أن يفهم أكثر من شذرة منها. ظلّ فيرغسون مأخوذاً بطيبته واسترساله في الضحك وصخبه وبريق عينيه الصافيتين، وبدا واضحاً أن أمّه كانت سعيدة بخيار ميلدرد، كونها لم تأتِ على ذكر العمّ هنري، من دون استخدام صفات على شاكلة "لمّاح"، مكرّرة بأنه يذكّرها بشخص اسمه ريكس هاريسون. أمل فيرغسون أن تمضي خالته وزوجها في درب الأطفال، وأن ينجبا له سريعاً ابن خالة صغير. للأخوة المتخيّلين أن يأخذوا بكَ بعيداً، وعلى كل، فإن ابن خالة من عائلة إدلر قد يتحوّل إلى ما يشبه الأخ أو الأخت، وهكذا انتظر لشهور عدّة إعلان ذلك، وفي كل صباح يترقّب مجيء أمّه، لتُخبره أن خالته ميلدرد ستُنجب طفلاً، ثمّ حدث شيء، جائحة غير متوقّعة، قلبت مخطّطات فيرغسون الحصيفة كلها. كانت خالته وزوجها بصدد الانتقال إلى بيركلي في كاليفورنيا. سيُدرّسان ويعيشان هناك، ولن يعودا أبداً، ما يعني أنهما حتّى وإن أنجبا له ابن خالة، فإنه لن يتحوّل إلى ما يشبه الأخ، طالما أن على الأخوة وأشباه

الأخوة أن يعيشوا متجاورين، والأفضل في البيت ذاته. وحين أرته أمّه خريطة الولايات المتّحدة، وأين تقع كاليفورنيا، أُصيب بالقنوط، وخبط بقبضته على أوهايو، وكنساس، وأيوا، وكل ولاية ما بين نيوجرسي والمحيط الأطلسي. ثلاثة آلاف ميل، إنها مسافة مستحيلة، بعيدة كما لو أنها في بلد آخر، في عالم آخر.

كانت هذه واحدة من أكثف الذكريات التي حملها من طفولته: رحلته إلى المطار بسيّارة "الشفروليه" الخضراء مع أمّه وخالته ميلدرد يومَ رحيل الأخيرة إلى كاليفورنيا. كان العمّ هنري قد سبقها قبل أسبوعين، وعليه كانت خالته ميلدرد وحيدة برفقتهما في ذلك اليوم الرطب الحارّ من منتصف آب، فيرغسون يجلس في المقعد الخلفي مرتدياً سروالاً قصيراً، شَعْره مرطَّب بالعَرَق، وساقاه العاريتان ملتصقتان بجلد مقعد السّيّارة، وكانت هذه المرّة الأولى التي يذهب فيها إلى المطار، ويرى فيها الطائرات عن كثب، ويتاح له معاينة ضخامة تلك الآلات وجمالها، وقد بقي ذلك الصباح ماثلاً في أعماقه، بسبب المرأتين، أمّه وأختها، واحدة سمراء، والأخرى شقراء، شَعْر الأولى طويل، والثانية قصير، كل منهما مختلفة عن الأخرى إلا أن التّمعّن في وجهيهما لبرهة سيتيح لكَ فهم أنهما نتاج الوالدين نفسيهما، أمّه العاطفية الدافئة، التي تلامسكَ وتعانقكَ، وميلدرد، الحذرة والمتحفّظة، والتي نادراً ما تلامس أحداً، وها هما معاً عند بوّابة رحلة "بان أميريكان" إلى سان فرانسيسكو، تبكيان فجأة بمجرّد الإعلان عن رَقْم الرحلة عبر المكبّر في استجابة لأمر خفي ومحتوم، جعل عينيهما تغرورقان بالدموع، وتنهمران على البلاط، ومن ثمّ أحاطت ذراعا كل منهما بالأخرى، وبدأتا تبكيان وتتعانقان. لم تكن أمّه قد بكت أمامه من قبل، وما لم يرَ بأمّ عينه، فإنه ما كان ليصدّق أن ميلدرد قادرة على البكاء، وها هما أمامه تبكيان في وداعهما، وكلاهما مدركتان بأن شهوراً أو سنوات ستمضي قبل أن تلتقيا مجدّداً، وفيرغسون يشهد ذلك بينما يقف أدنى منهما بجسد ابن الخامسة من عمره، يتطلّع إلى أمّه وخالته في الأعلى، مشدوهاً بفيض العواطف الذي يتدفّق منهما، ثمّ لتُحفَر هذه الصورة عميقاً في نفسه، وتبقى ماثلة في ذاكرته.

في تشرين الثاني العام التالي، وبعد شهرين على التحاق فيرغسون بالصف الأوّل، افتتحت أمّه استديو تصوير وسطَ مدينة مونتكلير. كُتب على لافتة الباب الأمامي "روزلاند فوتو"، وسرعان ما اتّخذت حياة فيرغسون إيقاعاً جديداً متسارعاً، تبدأ بصخب صباحي مرتبط بحرص أحدهما على عن تهيئته للمدرسة، ومن ثمّ يذهب كلٌ منهما بسيّارته إلى عمله، وقد أصبحت أمّه تعمل خمسة أيّام في الأسبوع (من الثلاثاء إلى السبت)، وتولّت أعمال المنزل امرأة اسمها كاسي، تقوم بأعمال التنظيف وترتيب الأسِرّة والتّسوّق، وأحياناً تعدّ العشاء لـ فيرغسون حين يتأخّر

والداه في العمل. أصبح الآن يرى أمّه الآن أقلّ ممّا مضى، وفي واقع الأمر، بات أقلّ حاجة إليها. صار بمقدوره ربط سيور حذائه، ومتى فكّر بمَنْ يريد الزواج منها، فإن خياراته ستنحصر بين اثنتين: كاثي غولد، الفتاة القصيرة ذات العينين الزرقاوين والشَّعْر الأشقر المربوط على هيئة ذيل الحصان، ومارجي فيتزباتريك الشاهقة ذات الشَّعْر الأحمر، القوية والجريئة التي يمكنها رمي صبيين معاً على الأرض. كان أوّل شخص يجلس لتُؤخَذ له صورة في "روزلاند فوتو" هو ابن المالكة. وجّهت أمّ فيرغسون الكاميرا نحوه، كما يتذكّر، وكانت الصور مجموعة لقطات، والكاميرا صغيرة ومحمولة، بينما كانت الكاميرا في الاستديو أكبر بكثير ومثبّتة على حامل ثلاثي الأرجل يُسمّى "تريبود". كان يحبّ كلمة "تريبود"، فهي تدفعه للتفكير بالبازلاء، خضاره المفضّلة، كما هي مقولة "حبّتا بازلاء في البود (القرن)". أعجبتْه الطريقة التي كانت تضبط فيها أمّه الإضاءة بعناية فائقة قبل التقاط الصور، ما يوحي بأنها تسيطر سيطرة كاملة على ما تقوم به، وقد كانت رؤيته لها تعمل بتلك المهارة والثقة تمنحه مشاعر إيجابية تجاه أمّه، والتي لم تعد مجرّد أمّه وحسب، بل شخصاً يقوم بأشياء هامّة في هذا العالم. ألبستْه ثياباً أنيقة للصورة، أي أنه ارتدى سترة "تويد" رياضية وقميصاً أبيض بياقة عريضة مفتوحة، ولأن فيرغسون وجد أنه من الممتع الجلوس هناك بينما أمّه تهتم بأمر اتّخاذ الوضعية المناسبة، لم يجد صعوبة في التبسّم حين طلبت منه أمّه أن يفعل. كانت صديقة أمّه من بروكلن، نانسي سولومون، والتي كان اسمها فيما مضى نانسي فاين، وهي تعيش الآن في "وست أورانج"، نانسي ذات السّنّين الأماميين البارزين والأمّ لولدين، والحضن الدافئ لأمّه، وبالتالي الشخص الذي عرفه طيلة حياته. أشارت أمّه إلى أن الصور وبعد تظهيرها سيجري تكبيرها، ونقلها إلى القماش، وستقوم نانسي بالرسم فوقها، محوّلة الصورة إلى بورتريه ملوّن بالألوان الزيتية. كانت هذه واحدة من الخدمات التي يقدّمها استديو "روزلاند" لزبائنه، ليست البورتريهات بالأبيض والأسود فقط، بل اللوحات الزيتية أيضاً. واجه فيرغسون صعوبة في تخيّل كيفية حصول ذلك، إلا أنه رأى في نانسي فنّانة خارقة لتقوم بهذا النوع من تحويل الصورة. بعد أسبوعين على ذلك، غادر هو وأمّه البيت في الثامنة صباحاً، وتوجّها إلى مركز مدينة مونتكلير. كانت الشوارع شبه مهجورة، ما دلّ على أن هناك مواقف كثيرة لركن السّيّارة مباشرة أمام "روزلاند فوتو"، لكنْ، قبل عشرين أو ثلاثين ياردة من توقّف السّيّارة، طلبت أمّه منه أن يغمض عينيه، أراد أن يسألها عن السبب، وبمجرّد أن فتح فمه ليتكلّم، قالت له: لا تسألْ، يا آرتشي. وبالتالي أغمض عينيه، وحين ركنت السّيّارة أمام الاستديو، ساعدتْه في النزول من السّيّارة، وقادته ممسكة بيده إلى المكان الذي أرادت أن يكون فيه. حسناً، قالت، تستطيع فتحهما الآن. فتح فيرغسون عينيه، ليجد نفسه ينظر إلى واجهة العرض في استديو أمّه،

وكان ما رآه صورتين كبيرتين له، كل واحدة منها بعرض أربع وعشرين بوصة وطول ستّة وثلاثين بوصة، الصورة الأولى بالأبيض والأسود، والثانية نسخة عنها، لكنها ملوّنة، تُظهِر شَعْره الذهبي وعينيه الخضراوين الداكنتين ومعطفه الخمري، وليبدو أقرب إلى ما هو عليه في الحقيقة. كانت ضربات فرشاة نانسي دقيقة، وفائقة الإتقان، بما لا يتيح تمييز اللوحة عن الصورة الفوتوغرافية. مرّت أسابيع، والصورتان في واجهة العرض، وصار الناس يميّزونه، ويُوقِفونه في الطريق سائلين إيّاه إن كان ذلك الفتى في واجهة "روزلاند".

في 29 أيلول من عام 1954، لازم فيرغسون البيت، ولم يذهب إلى المدرسة، وهو يعاني من حمّى تخطّت حرارتها الأربعين درجة، وأمضى الليلة السابقة لذلك اليوم وهو يتقيّأ في قدر من الألمنيوم، وضعته أمّه إلى جانبه على الأرض قرب سريره. حين ذهبت إلى عملها، أخبرته بأن يبقى مرتدياً بيجامته، وينام قدر استطاعته. إن لم يستطع النوم، فإن عليه ملازمة السرير مع كُتُب "الكوميك"، ومتى كان عليه الذهاب إلى الحمّام، فإن عليه أن يتذكّر انتعال خفَّيه. في الواحدة ظهراً، انخفضت حرارته بعض الشيء، ما أتاح له النزول إلى الطابق الأرضي، والطلب من كاسي أن تُحضّر له شيئاً يأكله. أعدّت له بيضاً مقلياً وخبزاً محمّصاً، فتناولهما مع شيء من التّلبّك لمعدته، وهكذا فإنه بدل أن يعود إلى سريره، قام بالتّوجّه إلى الغرفة الصغيرة المجاورة للمطبخ التي يسمّيها والداه "القنّ" والصالون الصغير وشغّل التلفاز. لحقت به كاسي، وجلست إلى جانبه على الأريكة، وأُعلِن عن أن خمس دقائق تفصل قد بقيت لتنطلق أولى مباريات دورة "وورلد سيريس". عرف ما المقصود بذلك، إلا إنه لم يسبق أن شاهد مباراة من المباريات، إلا مرّة أو مرّتين شاهد فيها مباريات من الموسم، ليس لأنه لا يحبّ البيسبول، والتي يتمتّع بلعبها أيّما متعة، بل ببساطة لأنه دائماً بصحبة أصدقائه في الخارج في النهارات التي تقام فيها تلك المباريات، وحين تبدأ المباريات في هذه الليلة، سيكون في السرير. عرف أسماء بعض اللاعبين البارزين - وليامز، وفيلير، وروبنسون، وبيرا، إلا أنه لم يتابع فريقاً بعينه، ولم يقرأ الصفحات الرياضية في "نيوارك ستار ليدجر" أو "نيوارك إيفنينغ"، وليس لديه أدنى فكرة عن ما يعنيه أن تكون مشجّعاً. وعلى العكس منه، كانت كيسي بارتون ذات التسعة والثلاثين عاماً مشجّعة متحمّسة لفريق " بروكلن دودجرز"، وذلك لأن جاكي روبنسون يلعب فيه، ويحمل الرَّقْم 42، وهو لاعب القاعدة الثاني الذي تدعوه بـ جاكي، لكونه أوّل صاحب بشرة غامقة يرتدي لباس فريق أساسي، الحقيقة التي عرفها فيرغسون من أمّه وكيسي، إلا أن كيسي امتلكت الكثير لتقوله، لأنها تحمل البشرة ذاتها، وهي المرأة التي أمضت سنواتها الثمانية عشرة الأولى في جورجيا، وتتكلّم لهجة جنوبية ثقيلة، ووجدها فيرغسون غريبة وساحرة في آن معاً، ذات إيقاع واهن، والتي لم يكن يملّ

سماع كيسي وهي تتحدّثها. لم يكن "الدودجرز" مشاركين في هذا العام، فقد تعرّضوا لهزيمة على أيدي "الجاينتس"، وقد كان هذا الأخير فريقاً محلّيّاً أيضاً، ولهذا كانت تتمنى له الفوز بالدورة. قالت إن لديهم بعض اللاعبين الملوّنين (ملوّن هي الكلمة التي استخدمتْها رغم أن والدة فيرغسون أوصتْه باستخدام كلمة زنجي "نيغرو" حين يتكلّم عن أناس ببشرة سوداء أو بنّيّة، وكم كان غريباً بالنسبة إليه أن الزنجية لا تستخدم كلمة زنجي، بل ملوّن، ما يثبت له – مجدّداً – غرابة ما سيكون عليه هذا العالم)، ورغم تواجد ويلي مايس وهانك ثومبسون ومونتي إيرفين في "جيانتس"، إلا أنهم لم ينالوا الفرصة في مواجهة "كليفلاند إنديانز"، الذي يُعدّ الأكثر فوزاً من بين فِرَق الدوري الأميركي. قالت كيسي، سننظر في الأمر، من دون أن تكون راغبة في الوصول إلى استعراض النتائج، ولتجلس هي وفيرغسون ويشاهدا البثّ من "بولو غراوندز"، إذ بدأت المباراة على نحو سيّئ مع تسجيل "كليفلاند" نقطتين مع افتتاح اللعبة، إلا أن "الجاينتس" استعادوا المبادرة في آخر الثلث الأوّل، لتتحوّل المباراة إلى واحدة من تلك المباريات المشحونة، التي تسودها المنافسة الحامية الوطيس (لمون بمواجهة ماغلي)، والتي لا يمتلك فيها أحد فعل الكثير، وكل شيء معلّق بالمضرب، ما رفع من أهمّيّة المباراة ودراميتها. أربع ضربات متتالية، ولا أحد من الفريقين وصل الخطّ الرابع، وفي الثامنة، وضع "الإنديانز" عدّائين في القاعدة، وتقدّم ڤيك فيرتز، صاحب الضربات القوية، والذي أرسل كرة سريعة من دون *ليدل* رامي الكرات في "جاينتس"، وطيّرها إلى وسط الملعب، لدرجة ظنّ فيرغسون بأنها ستُكمل دورة كاملة، لكنه كان غرّاً في هذا، لا يعلم أن "بولو غروندز" هو ملعب بيسبول مشيّد على نحو غريب، ويختصّ بأعمق مركز من بين الملاعب كلها، يبعد 483 قدماً عن الخطّ الرابع والسياج، ما يعني أن كرة فيرتز الطائرة، ستُحقّق دورة كاملة في أي ملعب غير هذا، ولن تصل المشجّعين، لكنها كانت قوية كالرعد، وطارت من فوق مركز لاعبي "الجاينتس"، وارتطمت بالجدار، ما أعطى "الإنديانز" جولتين أو ثلاث، وليشهد فيرغسون بعدئذٍ عملاً فذّاً لرياضي مقدام قزّم بالنسبة إلى فيرغسون كل منجز إنساني شهده في حياته القصيرة، فقد كان ويلي مايس يركض ملاحقاً الكرة، ومُولياً ظهره لوسط الميدان، يركض كما لم يرَ فيرغسون أحداً يركض على هذا النحو من قبل، ملاحِقاً الكرة الثانية التي ضربها فيرتز، كما لو كان صوت اصطدام الكرة بالمضرب، يخبره تماماً بالوجهة التي تمضي بها الكرة، فلم ينظر إلى أعلى أو إلى الخلف، بل انشدّ نحو الكرة، عالماً بمسارها حتّى وإن لم يكن يراها، كما لو أن له عينين خلف رأسه، ثمّ تصل الكرة ذروة ارتفاعها، وتسقط من على مسافة 440 قدماً من الخطّ الرابع، وهنا مدّ ويلي مايس ذراعيه أمامه، فنزلت من فوق كتفيه إلى قفّازه المفتوح، وفي اللحظة التي تلقّف فيها مايس الكرة، قفزت كيسي من الأريكة، منكمشة وصارخة: يا للهول! يا للهول! يا للهول! لكنْ، كان هناك المزيد من اللعب يتجاوز

هذا الالتقاط، ذلك أن رجال القاعدة بدؤوا بالركض باللحظة التي ضرب فيها فيرتز الكرة، وكلهم عازمون على نَيل النقطة، وأن ليس من لاعب ارتكاز سيتمكّن من التقاط كرة مقذوفة على هذا النحو، إلا أن مايس رمى الكرة بعد إمساكها إلى داخل الميدان، وكانت رمية طويلة وقوية، لدرجة أن القبّعة وقعت عن رأسه، ووقع هو على الأرض، وهذا لم يؤدِّ إلى خروج فيرتز فقط، بل إن الراكضين منعوا من تسجيل نقطة من كرة طائرة. ما زال الفارق ضئيلاً، وبدا يقيناً أن "الجاينتس" سيفوز في نهاية المباراة، إلا أن ذلك لم يحدث، ومُدّدت المباراة وقتاً إضافياً، والبديل الجديد ضمن "الجاينتس" مارف غريسون، منع "الإنديانز" من إحراز الأهداف. دفع مدرّب "الجاينتس" ليو دورتشر بلاعبين في الشوط الثاني من الوقت الإضافي، وجعل من داستي رودس لاعب المضرب. يا له من اسم، قال فيرغسون لنفسه، اسم أشبه بمناداة أحدهم بـ "ويت سايدووك" (رصيف مبتلّ) أو "سنووي ستريتس" (شوارع ثلجية)، وحين رأت كايسي ابن ألاباما ذا الحاجبين الكثّين يقوم بتمارين الإحماء، قالت، انظر إلى هذا الرائع بلحيته الخفيفة. إن كان صاحياً، فأنا ملكة إنجلترا، يا آرتشي. سواء كان سكراناً أم لم يكن، فإن نظر رودس كان ثاقباً، ما إن تلقّى رمية الكرة من بوب ليمون، وتلقّفها بقفّازه، حتّى رمى بها باتّجاه الجدار اليميني. انتهت اللعبة. فاز "الجاينتس" بـ 5 مقابل 2 لـ "الإنديانز"، صرخت كايسي، وصرخ فيرغسون. تعانقا، وتقافزا، ورقصا، ومنذ ذلك اليوم صارت البيسبول لعبة فيرغسون المفضّلة.

واصل "الجاينتس" سلسلة انتصاراته على "الإنديانز"، وتغلّب عليه في المباريات الأربع التي تلت تلك المباراة، ما سبّب فرحاً كبيراً لـ فيرغسون ابن السبع سنوات، لكنْ، ما من فرح كان يفوق فرح عمّه ليو بنتائج دورة "وورلد سيريس" 1954. عانى شقيق والده الأكبر على مرّ السنين من تقلّبات الفِرَق كمراهن، وكان على الدوام يخسر أكثر ممّا يربح، إلا أن ما يكسبه كان يحميه من الغرق، فراهن بكل ماله على "كليفلاند" اتّباعاً للقطيع والدارج، غير أن "الجاينتس" كان فريقه المتأرجح بين موسم جيّد وآخر سيّئ من العشرينيات، ولمرّة واحدة قرّر أن يتجاهل المؤشرات، ويراهن متبعاً قلبه أكثر من عقله. لم يضع ماله على فريق، لا يعوّل عليه فقط، بل راهن بأنه سيفوز بالمباريات الأربع، بحدس شديد الإيهام وواسع المخيّلة، لأن رهانه كان 300 دولار مقابل الدولار الواحد، ما يعني بأن ليو فيرغسون خرج بجرّة ذهب مليئة بـ 60 ألف دولار مقابل مبلغ متواضع، لا يتجاوز المائتي دولار، وهذا المبلغ ثروة هائلة في تلك الأيّام، قفزة رائعة، ومعبر مفاجئ، حيث دعا ليو والعمّة ميلي الجميع إلى حفلة، وعمَّ الابتهاج، وتدفّقت الشمبانيا، وامتلأت المائدة بسلطعون البحر وشرائح لحم العجل مع استعراض معطف فرو الثعلب الذي اشترته ميلي، ثمّ القيام بجولة بسيّارة ليو الكاديلاك البيضاء.

كان فيرغسون متكدّر المزاج في ذلك اليوم (لم تكن فرانسي متواجدة، ومعدته تؤلمه، وأولاد عمومته بالكاد يكلّمونه)، وبدا له أن الجميع مستمتع إلاه. بعد انتهاء الاحتفالات، وبينما كان برفقة والديه عائدين إلى البيت في السّيّارة الزرقاء، فوجئ بالشتائم التي وجّهتها أمّه للعمّ ليو على مَسمع أبيه. لم يتمكّن من فهم كل ما قالته، إلا أن حنقها كان حاداً جدّاً، وكلامها لاذعاً فيما يختص بالكاديلاك البيضاء التي اشتراها عمّه بأموال والده، وتجرّؤه بتبذير المال على الكاديلاك وفرو الثعلب قبل أن يفي بدينه لوالده. تلقّى والده ذلك كله بهدوء في البداية، ثمّ علا صوته، وهذا أمر نادر الحدوث، وفجأة صار يعوي على أمّه، لكي تتوقّف، قائلاً إن ليو لا يدين له بشيء، وإنها أموال أخيه، وله أن يفعل بها ما يشاء. يعلم فيرغسون أن والديه يتشاجران أحياناً (يتناهى إليه صوتهما من غرفة نومهما)، إلا أنها المرّة الأولى التي يتشاجران فيها أمامه، ولأنها المرّة الأولى، لم يجد مفرّاً من الشعور بأن شيئاً مفصلياً قد تغيّر في العالم.

في العام التالي، وبعد عيد الشُّكْر مباشرة، تعرّض مستودع والده للسرقة في جنح الظلام، وأُفرغ تماماً من محتوياته. يتألّف المستودع من طابق واحدة مشيّد بالطوب، ويقع خلف "*عالم الأخوة الثلاثة للتجهيزات المنزلية*"، وقد زاره فيرغسون على مرّ السنوات الماضية، وكان عبارة عن غرفة هائلة الحجم، تفوح منها الرطوبة، وقد احتوت صفوفاً من العلب الكرتونية التي تحتوي التلفزيونات، والثلاجات، والغسّالات، والسِّلَع الأخرى كلها التي يبيعها الأخوة في متجرهم. فالسِّلَع المعروضة في صالة العرض هي لمعاينة الزبائن، لكنْ، متى قرّر أحدهم شراء إحداها، فإنه يُصحَب إلى المستودع من قِبَل رجل ضخم يُدعى إد، يحمل وشم حورية بحر أعلى ذراعه اليمنى، وخدم على متن حاملة طائرات في أثناء الحرب. إن كانت السلعة صغيرة مثل محمصة الخبز أو المصباح الكهربائي أو ركوة القهوة، فإن إد يقوم بتسليمها باليد إلى الزبون، والذي بدوره يستطيع أخذها معه في سيّارته، لكنْ، إن كانت شيئاً كبيراً مثل غسّالة أو ثلاجة، فإن إد ورجلاً ضخماً مفتول العضلات يُدعى فيل يقومان بتحميلها في شاحنة التوصيل، وإيصالها إلى بيت الزبون. هكذا كان يُدار العمل في "*عالم الأخوة الثلاثة للتجهيزات المنزلية*"، وكان فيرغسون على معرفة بهذا النظام، كما كان واعياً بما يكفي لأن يدرك أن المستودع قلب العمل، وهكذا فإنه حين أيقظتْه أمّه صبيحة الأحد الذي أعقب يوم الشُّكْر، وأخبرته بأن المستودع تعرّض للسرقة، التقط على الفور مدى فداحة ما حصل. فمستودع فارغ يعني أن العمل قد توقّف، وتوقُّف العمل يعني انقطاع المال، وانقطاع المال يعني مشاكل من نوع: بيت فقير! وجوع! وموت! إلا أن أمّه أوضحت بأن الأمر ليس ميؤوساً منه تماماً، ذلك أن البضائع جميعها مُؤمَّن عليها، لكنها أيضاً ضربة مؤلمة، خاصّة أنها جاءت مع بدء موسم تسوُّق عيد الميلاد، وسيتطلّب دفع المبلغ

من قِبَل شركة التأمين أسابيعَ أو أشهراً، ولن ينجو المتجر من دون قرض عاجل من البنك. كما أن والده، وفي تلك الأثناء، كان قد أخبر الشرطة في نيوارك، كما قالت، بأن كل سلعة تحمل رَقْماً متسلسلاً، وأن هناك فرصة ما، فرصة ضئيلة، لتعقّب السارقين، وإلقاء القبض عليهم.

مرّ الوقت، ولم يقبض على السارقين، ونجح والده بالحصول على قرض، ما كان يعني بأن فيرغسون وعائلته سينتقلون إلى بيت جديد متواضع. استمرّت الحياة، كما كانت عليه في السنوات الماضية على الأقلّ، إلا أن فيرغسون استشعر وجوماً وتجهّماً وغموضاً يهيمن على الأجواء العائلية، ويخيّم من حوله. استغرق تبيّنُه مصدرَ هذا التّحوّل البارامتريّ الحادّ بعض الوقت، ومن خلال مراقبته أمّه وأبيه، سواء كانا معاً أو كل على حدة، خلص إلى أن أمّه ما زالت على ما هي عليه، مليئة بالقصص عن عملها في الاستديو، وما زال يزوّدها بحصّة يومية من الضحك والابتسامات، وما زالت تنظر مباشرة إلى عينيه حين تكلّمه، وتلعب معه بحماس البينغ بونغ في الشرفة الشتوية الخلفية، وتُنصت إليه باهتمام متى أخبرها بمشكلة يواجهها. إنه والده مَنْ أمسى مختلفاً، والذي كان قليل الكلام عادة، ثمّ أصبح بالكاد يتلفّظ بكلمة على مائدة الفطور، كما لو أنه منفصل عن الواقع، ولا وجود له، كما لو أنه منشغل بشيء مظلم حزين، لا يرغب بمشاركته مع أحد. وبعد رأس السنة، مع انقلاب سنة 1955 إلى 1956، استجمع فيرغسون شجاعته، وسأل أمّه عن ما يحصل، ولماذا يبدو والده حزيناً وبعيداً. قالت إنها عملية السطو، هذا السطو دمّره، وكلّما فكّر فيه أكثر، عجز عن التفكير بأي شيء آخر. لم يفهم فيرغسون. لقد جرى السطو على المستودع منذ ستّة أو سبعة أسابيع، وشركة التأمين ستدفع قيمة المفقودات، والبنك منحه القرض، والمتجر ما زال واقفاً على رجليه، فلمَ هو مشغول البال بينما لا يوجد ما يستدعي أن ينشغل به؟ لاحظ على أمّه التردّد، يتنازعها عَدّه محطّ ثقة، غير متأكّدة ما إذا كان عمره كافياً ليستوعب حقيقة ما حصل، وراح الشكّ يتلامع في عينيها لبرهة، إلا أنها ورغم إدراكها ذلك، وبينما كانت تمسّد شَعْره، وتتحرّى وجهه الذي لم يتجاوز التاسعة من عمره، اتّخذت خطوة جريئة، وفتحت الباب أمامه كما لم تفعل من قبل، ووضعت أمامه السّرّ الذي كان يمزّق والده شرّ تمزيق. قالت، إن تحقيقات الشرطة وشركة التأمين ما زالت متواصلة، وقد توصّلتا إلى أن السرقة حصلت من داخل المتجر، أي أن مَن ارتكبها لم يكن غريباً، بل واحداً ممّنْ يعملون في المتجر. فيرغسون الذي يعرف كل موظّفي "الأخوة الثلاثة للتجهيزات المنزلية"، من *إد* و*فيل* في المستودع إلى المحاسبة *أديل روزين* وعامل الصيانة *تشارلي سايكس* والحارس *بوب دوكينس*، أحسّ بانقباض في معدته، جعلها قبضةً صغيرة من الألم. كان من المستحيل أن يكون أحد من هؤلاء الناس الطّيّبين قد ألحق بوالده هذا الفعل الشّرّير، وليس بينهم مَن كان قادراً على الإقدام

على هكذا خيانة، ولهذا فإن الشرطة وشركة التأمين على خطأ. لا، آرتشي، قالت أمّه، لا أعتقد أنهم مخطئون، لكنّ مَنْ قام بها ليس من أولئك الذين ذكرتهم.

تساءل فيرغسون، ما الذي تعنيه بذلك؟ مَنْ تبقّى من أشخاص ليسا سوى عمّي ليو وعمّي أرنولد، وهما أخوا أبيه، والأخوة لا يسرقون بعضهم البعض، هل قاما بذلك؟ هكذا أشياء لا تحصل بسهولة.

كان أمام والدكَ قرار مريع عليه اتّخاذه، قالت أمّه. إمّا أن يُسقط التهمة ومطالبه من التأمين أو أن يَسجن أرنولد. وماذا برأيكَ فعل؟

لقد أسقط التهمة، ولم يُودع أرنولد السجن.

طبعاً هذا ما كان ليتبادر إلى ذهنه. لكنكَ فهمتَ الآن لمَ هو حانق.

بعد أسبوع على هذا الحديث مع أمّه، أخبرتْه بأن عمّه أرنولد وخالته جوان انتقلا إلى لوس انجلس. وأردفت بأنها ستشتاق إلى جوان، لكن هذا أفضل، طالما أن الضرر غير قابل للإصلاح. بعد شهرين على رحيل أرنولد وجوان إلى كاليفورنيا، تهشّمت سيّارة العمّ ليو الكاديلاك البيضاء جرّاء حادث وقع في "غاردن ستيت باركواي" ومات في سيّارة الإسعاف التي حملته إلى المستشفى، وقبل أن يستوعب أحد السرعة التي تُنجِز فيها الآلهة أفعالها، حين لا تكون بصدد فعل شيء أفضل، كانت عشيرة فيرغسون قد آلت شظايا.



1.2

عندما كان فيرغسون في السادسة، أخبرتْه أمّه كيف أنه كان على وشك أن يضيع منها. ليس بمعنى أنها لم تتبيّن مكانه، بل بمعنى أنه شارف على الموت، وكاد يفارق العالم الحالي ويحلّق إلى الجنّة روحاً بلا جسد. لم يكن قد أتمّ السنة ونصف بعد، قالت له، حين أصابتْه الحمّى في ليلة من الليالي، حمّى بسيطة سرعان ما رفعت حرارته، إذ تخطّت الـ 41 درجة مئوية، حرارة مفزِعة لطفل صغير، وهكذا قامت ووالده بلفّه والتّوجّه به إلى المشفى، حيث أخذ يعاني من اختلاجات، كانت كفيلة بإخماده من الداخل، حتّى إن الطبيب الذي استأصل لوزتيه تلك الليلة قال إنه في وضع حرج، ما يعني بأنه ليس متأكّداً ما إذا كان فيرغسون سيبقى حيّاً أم سيموت، وهو بين يدي الله الآن، وكانت أمّه خائفة جدّاً، كما أخبرتْه، شديدة الخوف من فقدان ابنها الصغير حتّى كادت أن تفقد عقلها.

كانت تلك اللحظة الأسوأ، كما قالت، إنها المرّة الوحيدة التي آمنت فيها أن العالم قد اقترب من نهايته بمعنى الكلمة، لكنْ، كان هناك أوقات صعبة أخرى أيضاً، قائمة كاملة من الهزّات والحوادث المزعجة غير المتوقّعة، وبعدها أخذت تسرد الحوادث المتعددة التي حلّت به وهو طفل صغير، والتي كان للعديد منها أن يقتله أو يشوّهه، ومنها على سبيل المثال، الاختناق بقطعة غير ممضوغة من شريحة لحم، أو قطعة من الزجاج المكسور دخلت أسفل قدمه، وأدّت إلى أربع عشرة قطبة، أو حين تعثّر وسقط على صخرة مزّقت خدّه الأيسر، واحتاج إلى احدى عشرة قطبة، أو عضّة النحلة التي تورّمت حتّى أغلقت عينيه، أو ذلك اليوم في الصيف الماضي في أثناء تعلّمه السباحة حين أوشك على الغرق عندما دفعه ابن عمّه أندرو نحو الماء، وفي كل مرّة، عدّدت فيها أمّه واحداً من هذه الأحداث، كانت تتوقّف للحظة، وتسأل فيرغسون إن كان يتذكّر. والحقيقة أنه لم يتذكّر. هي تذكّرتها جميعها تقريباً، وكأنها حدثت البارحة.

جرى هذا الحديث في منتصف حزيران، بعد ثلاثة أيّام من سقوط فيرغسون عن شجرة البلّوط في باحة البيت الخلفية، وكسر ساقه اليسرى، وما حاولت أمّه أن تشرحه عبر استعراضها هذه السلسلة الطويلة من النكبات الصغيرة هو أنه في كل مرّة آذى نفسه في الماضي كان دائماً

يتحسّن، وأن جسده يؤلمه لفترة، ثمّ يتوقّف عن إيلامه، وهذا بالضبط ما سيحدث مع ساقه. من السّيّئ أن عليه أن يبقى في الجبيرة، بطبيعة الحال، لكنها في النهاية ستزال، وسيعود بحال جيّدة مجدّداً. أراد فيرغسون أن يعرف كم سيستغرق ذلك، فأجابت أمّه إجابة غامضة لم تُرضه، قالت شهر أو أكثر، شهر يعني دورة قمر كاملة، وقد كان لهذا أن يكون محتملاً، لو لم يصبح الطقس حارّاً جدّاً، لكن "أو أكثر" عنت أنه حتّى أطول من ذلك، فترة غير محدّدة من الزمن، وبالتالي غير محتملة. سألته أمّه سؤالاً غريباً، قبل أن يتمرّد على هذا الغبن، لربّما كان السؤال الأكثر غرابة الذي سأله إيّاه أحد على الإطلاق.

هل أنتَ غاضب من نفسكَ، آرتشي، أم غاضب من الشجرة؟

يا له من شيء محيّر ألقته على صبي، لم يكمل بعد الحضانة! غاضب؟ لمَ عليه أن يكون غاضباً من أي شيء؟ لمَ ليس باستطاعته أن يشعر بالحزن فقط؟ ابتسمت أمّه. كانت سعيدة أنه لم يضمر الضغينة للشجرة، كما قالت، لأنها أحبّت تلك الشجرة، كلاهما هي ووالده أحبّا تلك الشجرة، وقد اشتريا هذا البيت في "ويست أورانج" غالباً بسبب هذه الفسحة الكبيرة، وكان أفضل وأجمل ما في الفسحة شجرة البلّوط الباسقة التي تتوسّطها. منذ ثلاث سنوات ونصف مضت، حينما قرّرت ووالده مغادرة الشّقّة في نيوارك، وشراء بيت في الضواحي، بحثا في عدد من البلدات، مونتكلير وميبلوود، وميلبورن، وساوث أورانج، إلا أنهما لم يعثرا في أي من هذه الأماكن على البيت المناسب لهما، شعرا بالإرهاق والإحباط جرّاء معاينة العديد من البيوت غير المناسبة، وعندها جاءا إلى هذا البيت، عرفا بأنه لقيتهما. كانت سعيدة أنه لم يغضب من الشجرة، كما قالت، لأنه لو كان كذلك، فإنها ستُجبر على قطعها. ولماذا تقطعينها؟ سأل فيرغسون، أخذا بالضحك الآن من فكرة أن أمّه تقطع شجرة كبيرة كتلك، أمّه الجميلة التي ترتدي ملابس العمل تنقضّ على البلوطة بفأس هائلة لامعة. قالت له، لأنني أقف معكَ، يا آرتشي، وأيّ عدوّ لكَ هو عدوٌّ لي.

عاد والده في اليوم التالي من "عالم الأخوة الثلاثة" حاملاً مكيّف هواء لغرفة فيرغسون. قال والده، أصبح الجوّ حارّاً، ما يعني أنه يريد لولده أن يكون مرتاحاً بينما يلزم السرير مع جبيرته، كما أنه سيساعده عند الإصابة بحمّى القشّ، أردف والده، لأنه يمنع حبوب الطلع من دخول الغرفة، فأنف فيرغسون حسّاس للغاية للمهيّجات المحمولة مع الهواء المنبعثة من العشب والغبار والأزهار، وكلّما قلّ عطاسه خلال فترة نقاهته، كلّما قلّ ألم عظمه المكسور، ذلك أن العطسة تشكّل قوّة هائلة، ويمكن أن يتردّد صدى عطسة كبيرة في أنحاء جسمكَ كله، من أعلى رأسكَ المرتد إلى أطراف أصابع قدميكَ. راقب فيرغسون ذو السّتّة أعوام والده وهو يعمل على تركيب

مكيّف الهواء في النافذة على يمين المكتب، عملية أكثر تعقيداً بكثير ممّا تخيّل، والتي بدأت بإزالة زجاج النافذة، وإحضار أشياء مثل متر القياس، وقلم رصاص، مثقب، ومسدّس العزل، ولوحين من الخشب غير المطلي، ومفكّ، وعدد من البراغي، أعجب فيرغسون بمدى السرعة، والحرص التي يعمل بها والده، كما لو أن يديه تعرفان ما تفعلان من دون أي إرشادات من عقله، يدان مستقلّتان، وهبتا معرفتهما الخاصّة، وعندها جاءت اللحظة لرفع المكعّب المعدني الكبير عن الأرض، وتركيبه في النافذة، أدرك فيرغسون مدى ثقله، لكن والده تمكّن من ذلك من دون أي جهد يُذكَر، وبينما كان يستكمل العمل باستخدام المفكّ ومسدّس العزل، دمدم والده الأُغنيّة التي يدمدمها دائماً عندما يصلح الأشياء في المنزل، أُغنيّة قديمة لآل جولسون تُدعى "ولدي الصغير" - ما من سبيل لكي أعرف/ ما من طريقة لأعبّر/ كم تعني لي، يا بنيّ. انحنى والده لالتقاط برغي إضافي، كان قد سقط على الأرض، وحين استقام ثانية، أمسك فجأة ظهره بيده اليمنى. وقال "*Och un vai*"، أظنّ أنه شدّ عضلي. علاج العضلات المشدودة هو الاستلقاء على ظهركَ لبضع دقائق، قال والده، ويفضّل على سطح صلب، وحيث إن السطح الأكثر صلابة في الغرفة كان أرضيتها، فقد استلقى والده في الحال على الأرض بجوار سرير فيرغسون. يا لها من إطلالة، أن ينظر للأسفل نحو والده المتمدّد على الأرض تحته! وبينما فيرغسون مستند على حافّة السرير يدرس وجه أبيه المكشّر، قرّر أن يسأله سؤالاً، سؤال فكّر فيه مرّات عدّة الشهر الماضي، لكنه لم يجد اللحظة المناسبة ليسأله: ماذا عمل أباه قبل أن يصبح مدير "الأخوة الثلاثة للتجهيزات المنزلية"؟ رأى عيني والده تجولان السقف، كأنهما تبحثان عن جواب للسؤال، وعندها لاحظ فيرغسون أن العضلات حول فم والده تتدلّى، وهي حركة مألوفة بالنسبة إليه، تدل على أن والده يجاهد ليلجم ابتسامة، ما يعني أن شيئاً غير متوقّع على وشك أن يحدث. كنتُ صيّاد حيوانات بريّة، قال والده بهدوء وثقة، من دون أن تبد أي إشارة تدلّ على وُشُوكه إطلاقَ الشحنة الأكثر فظاعة من المزاح الذي ألقاه على ابنه، وللدقائق العشرين أو الثلاثين التالية غرق في ذكرياته عن الأُسُود، والنمور، والأفيال، والحرارة الخانقة في أفريقيا، وكيف شقَّ طريقه سيراً على الأقدام عبر الأدغال الكثيفة والصحراء، وتسلّق جبل "كليمنجارو"، حيث كان على وشك أن يبتلعه ثعبان عملاق بالكامل، وكيف قبض عليه أكلة لحوم البشر في إحدى المرّات، وأوشك أن يُلقى في قدر، تغلي فيه المياه ، ولكنْ، في اللحظة الأخيرة، تمكّن من التّملّص من أغصان النبات المعرش التي ربطت حول معصميه وكاحليه، ليتجاوز مسرعاً خاطفيه القتلة، ويختفي داخل الغابة، كما حدّثه عن ضياعه في قلب أفريقيا الأكثر حلكة، المعروفة بالقارّة السمراء، في آخر رحلة سفاري له قبل أن يعود إلى الوطن، ليتزوّج أمّ فيرغسون، حينها تجوّل في حقول السافانا

المترامية إلى ما لا نهاية، حيث رأى قطيعاً من الديناصورات ترعى، الديناصورات الأخيرة المتبقّية على سطح الأرض. كان فيرغسون كبيرا كفاية ليعرف أن الديناصورات قد انقرضت قبل ملايين السنين، لكن باقي القصص بدت مقبولة له، ربمّا ليست حقيقية بالضرورة، لكنها حقيقية على الأرجح، ولهذا تستحقّ أن تصدق - ربمّا. عندها دخلت أمّه الغرفة، ورأت والد فيرغسون متمدّداً على الأرض، فسألته ما إذا حلّ شيء بظهره. لا، لا، أجابها، ونهض كما لو أن ظهره على ما يرام، وتوجّه نحو النافذة، وشغّل المكيّف.

نعم، لقد برّد المكيّف الغرفة، ووضع حدّاً للعطاس، ولأنها أصبحت أكثر برودة، فإن ساقه لم تحكّه تحت الجبيرة، ولم يخلُ العيش في غرفة مبرّدة من منغّصات أيضاً. كان أوّلها الضجة، والتي كانت غريبة ومشوّشة، أحياناً يسمعها، وأحياناً لا يسمعها، فقد كانت رتيبة ومزعجة حين يسمعها، لكن الأسوأ من ذلك كانت النوافذ، التي توجب إغلاقها للمحافظة على برودة الهواء في الداخل، ولأنها كانت مغلقة دائماً، والمحرّك يعمل على الدوام، لم يتمكّن من سماع العصافير تغرّد في الخارج، والشيء الوحيد الجيّد في بقائه محتجزاً داخل غرفته بجبيرة على ساقه، كان الإنصات إلى العصافير على الأشجار خلف نافذته مباشرة، العصافير المغرّدة، الصادحة، الشادية التي صاغت ما شعر فيرغسون أنها الأصوات الأكثر جمالاً في العالم. كان لمكيّف الهواء حسناته وسلبياته، ومن ثمّ فوائده ومتاعبه، كما العديد من الأشياء الأخرى في العالم التي توالت عليه خلال حياته، كان كما نظرت إليه أمّه في معظم الأحيان، نعمة ونقمة.

أكثر ما أزعجه في سقوطه عن الشجرة أنه حادث لا جدوى منه. أُتيح لـ فيرغسون تقبّل الألم والمعاناة، كلّما تحسّسَ ضرورةَ ذلك، كأن يتقيّأ عندما يكون مريضاً أو يسمح للطبيب جاستون بوخزه بإبرة في ذراعه، لحقنه بالبنسلين، لكن الألم غير المبرّر انتهك مبادئ الحسّ السليم، ما جعله ألماً غبياً لا يُطاق. كان شيء في داخله يميل إلى إلقاء اللوم على تشاكي برور في تسبّبه بالحادثة، لكن فيرغسون أدرك في نهاية المطاف أن ذلك ليس أكثر من عذر واهٍ، فما الفرق الذي أحدثه تحدّي تشاكي له بأن يتسلّق الشجرة؟ لقد قبل فيرغسون التّحدّي، ما يعني أنه أراد تسلّق الشجرة، قد اختار تسلّقها، وبالتالي فهو بنفسه المسؤول عن ما حدث. ليس مهمّاً أن تشاكي وعد باللحاق بفيرغسون إلى الأعلى، إن صعد أوّلاً، ثمّ تراجع عن وعده، مدّعياً أنه كان خائفاً، لأن الفروع كانت متباعدة جدّاً، وهو لم يكن طويلا كفاية للوصول إليها، ولكن الحقيقة أن عدم لحاق تشاكي به لم يكن أمراً مهمّاً، لأنه حتّى ولو تبعه، فكيف كان له أن يمنع فيرغسون من السقوط؟ سقط فيرغسون إذاً، زلّت قبضته عندما حاول أن يطال فرعاً، كان بعيداً ربع بوصة تقريباً عن النقطة التي تمكّن من إمساكها بشكل آمن، زلّت قبضته وسقط، وها هو يرقد الآن في

سريره بساقه اليسرى المحبوسة داخل جبيرة، ستبقى جزءاً من جسده لمدّة شهر أو نحو ذلك، وهذا يعني أكثر من شهر، وليس هناك أحد يلومه على هذه البلية سوى نفسه.

تقبّل اللوم، وفهم أن حالته الحالية بمجملها حدثت جرّاء خطئه هو حصراً، لكن هذا بعيد كل البُعد عن القول بأن الحادث لم يكن من الممكن تجنّبه. غبي، هذا ما كان عليه، مجرّد غبي صرف، لكونه عجز عن الوصول تماماً إلى الفرع التالي، ولكنْ، لو كان الفرع أقرب إليه بجزء من البوصة، لما كان غبياً. لو أن تشاكي لم يرنّ جرس بابه ذلك الصباح طالباً منه الخروج واللعب، لما كان غبياً. لو أن والديه انتقلا إلى واحدة من البلدات الأخرى، حيث كانوا يبحثون عن منزل مناسب، لما عرف تشاكي براور، لما عرف حتّى أن تشاكي براور موجود، ولما كان غبياً. لو أن الشجرة التي تسلّقها لم توجد في الفناء الخلفي لبيته. أي فكرة مثيرة، حدث فيرغسون نفسه: تخيّل كيف يمكن للأمور أن تختلف بالنسبة إليه رغم أنه هو - هو. الصبي ذاته في منزل مختلف مع شجرة أخرى. الصبي ذاته مع والدين آخرين. الصبي ذاته مع الوالدين نفسيهما اللذين لم يفعلا الأشياء نفسها التي فعلاها الآن. ماذا لو كان أبوه لا يزال صياداً، مثلاً، ولو أنهم جميعاً عاشوا في إفريقيا؟ ماذا لو كانت أمّه ممثّلة سينمائية شهيرة، وعاشوا جميعاً في هوليوود؟ ماذا لو كان عنده أخ أو أخت؟ ماذا لو لم يمتْ عمّ أمّه آرتشي، ولم يُسمَّ باسمه؟ ماذا لو سقط من الشجرة نفسها، وكسر ساقين عوضاً عن واحدة؟ ماذا لو كسر كلا ذراعيه وكلا ساقيه؟ ماذا لو قُتل؟ نعم، إن أي شيء ممكن، ولا يعني إن حصلت الأشياء بشكل معيّن، فإنه من غير الممكن أن تحدث بشكل آخر. بإمكان كل شيء أن يكون مختلفاً. يمكن للعالم أن يكون العالم نفسه، ومع ذلك لو سقط عن الشجرة، ولم يكسر ساقه، وإنما انتهى به الأمر بقتل نفسه، عندها لن يكون العالم مختلفاً فقط بالنسبة إليه، بل لن يكون من عالم لديه يعيش فيه بعدئذٍ، وكم ستحزن أمّه ووالده حين يأخذانه إلى المقبرة، ويدفنان جسده في الأرض، من المحزن جدّاً أنهما سيواصلان البكاء لأربعين يوماً وأربعين ليلة، لأربعين شهراً، لأربعمئة وأربعين سنة.

بقي أسبوع ونصف على نهاية المدرسة، وبداية العطلة الصيفية، ما يعني أنه لم ينقض ما يكفي من الوقت، ليرسب في الحضانة، بسبب غيابه المتكرّر. وهو أمر يستدعي أن يكون ممتنّاً له، كما قالت أمّه، وبالتأكيد كانت على حقّ، إلا أن فيرغسون لم يكن في مزاج الامتنان خلال الأيّام الأولى بعد الحادث، كونه من دون أصدقاء يتحدّث إليهم باستثناء فترة ما قبل المغرب عندما يزوره تشاكي براور مع أخيه الصغير، لإلقاء نظرة على الجبيرة، ومع غياب والده من الصباح حتّى المساء في العمل، وانشغال أمّه بالقيادة لعدد من الساعات في اليوم باحثة عن متجر شاغر مناسب لاستديو التصوير الذي تخطّط لافتتاحه في الخريف، ومع انشغال مدبّرة المنزل

واندا معظم الوقت بالغسيل والتنظيف، باستثناء الوقت الذي تجلب فيه الطعام لفيرغسون في الظهيرة، وتساعده على إفراغ مثانته بإمساك قارورة الحليب التي يفترض به التّبوّل داخلها عوضاً عن فعل ذلك في الحمّام، أيّة مذلّة كان عليها احتمالها - ذلك كله بسبب الخطأ الغبي لسقوطه من الشجرة، وزاد من إحباطه أنه لم يتعلّم القراءة بعد، والتي كانت ستُعينه على تسجية الوقت، وبما أن التلفزيون ضمن غرفة الجلوس في الطابق السفلي، فالوصول إليه غير ممكن، وخارج إمكانياته، أمضى فيرغسون أيّامه متأمّلاً في الأسئلة المحيّرة المتعلّقة بالكون، يرسم صور طائرات ورعاة البقر، ويتمرّن على الكتابة من خلال نسخ صفحة من الأحرف، صنعتْها له أمّه.

بدأت الأشياء تتحسّن بعض الشيء. فقد أنهت ابنة عمّه فرانسي الصّفّ الحادي عشر، ولبضعة أيّام قبل أن تغادر للعمل كمرشدة في مخيّم صيفي في بركشيرز، تردّدت على المنزل، لتُؤنسه، وكانت تمضي أحياناً ساعة فقط، وفي أحيان أخرى، ثلاث أو أربع ساعات، وكان الوقت الذي أمضاه معها الجزء الأكثر إمتاعاً من اليوم، لا شكّ بأنه الجزء الممتع الوحيد، فقد كانت فرانسي أكثر مَنْ أحبّ من أبناء وبنات عمومته، لا، بل أحبّها أكثر من أي شخص آخر في أي من عائلتيه، وكم أصبحت كبيرة الآن، فكّر فيرغسون، صار لديها نهدان وتكوّرات وجسد شبيه بجسد أمّه، ولديها طريقة تتحدّث فيها تشبه تماماً طريقة أمّه، ما سرّب إليه الراحة والسكينة، كما لو أنه ما من مجال لوقوع أي سوء عندما يكون معها، وفي بعض الأحيان، كان البقاء معها أفضل من البقاء مع والدته، بغضّ النظر عن ما تفعله أو تقوله، فهي لم تغضب منه قطّ، حتّى عندما كان يفقد السيطرة على نفسه، ويمسي مشاغباً.

خرجت فرانسي الذكية بفكرة تزيين جبيرته، وهي المهمّة التي استغرقت ثلاث ساعات ونصف، بضربات حذرة من الفرشاة، غطّت الجصّ الأبيض بمجموعة من ألوان الأزرق والأحمر والأصفر الرائعة، لتجعل منها عملاً تجريدياً، يحمل تصميمه شكل الدوّامات الذي جعله يتخيّل امتطاء أحد خيول لعبة الدوامة فائقة السرعة، وعندما أضافت الأكريليك على الجزء الجديد والمقيت من جسده، تحدّثت عن صديقها غاري، غاري الكبير الذي كان يلعب مدافعاً في فريق المدرسة الثانوية لكرة القدم، وقد أصبح في الجامعة الآن، "كلّيّة وليامز" في بركشيرز، ليس بعيداً عن المخيّم، حيث سيذهب كلاهما للعمل معاً ذلك الصيف، وقالت إنها تتطلّع إلى ذلك كثيراً، ولتُعلن بعدئذٍ بأنها شُبكت، المصطلح الذي لم يكن مألوفاً بالنسبة إلى فيرغسون، فشرحت له فرانسي أن غاري قد أعطاها مشبك الرابطة خاصّته، لكن الرابطة كانت مفردة غائبة عن فهم فيرغسون أيضاً، لذلك شرحت له فرانسي ثانية، وعندها افترّ ثغرها عن ابتسامة كبيرة، وقالت لا يهمّ، المهمّ أن شبكها هو الخطوة الأولى نحو الارتباط، وأنها وغاري قد عزما على إعلان ارتباطهما

في الخريف المقبل، وفي الصيف التالي حين تتمّ الثامنة عشرة، وتنهي دراستها الثانوية، فإنها وغاري سيتزوّجان. وقالت إن السبب الذي دفعها لتُخبره ذلك كله، يعود إلى أن لديها مهمّة هامّة تُوكِلها إليه، وتريد أن تعرف إن كان مستعدّاً للقيام بها. أقوم بماذا؟ سأل فيرغسون. أن تكون حامل الخاتم في الزفاف، قالت له. للمرّة الثانية، لم يكن لدى فيرغسون أدنى فكرة عن ما تتحدّث عنه، فشرحت له فرانسي ثانية، وعندما استمع إليها وهي تخبره بأنه سيمشي عبر الممرّ حاملاً خاتم الزواج الموضوع أعلى وسادة من المخمل الأزرق، وأن غاري سيتناوله منه، ويضعه في الأصبع الرابع من يدها اليسرى، ليختتم مراسم الزواج، وافق فيرغسون، فتلك مهمّة هامّة، ولربمّا أهمّ مهمّة أوكلت إليه على الإطلاق. وعد بتوليّ ذلك، بإيماءة مهيبة من رأسه. قد يكون سيره عبر الممرّ والكثير من الناس يحدّقون به أمراً مُربِكاً، بالطبع، مع احتمال كبير بأن ترتعش يداه، ويقع الخاتم على الأرض، لكنْ، عليه القيام بذلك، لأن فرانسي طلبت منه، وهي الشخص الوحيد في العالم الذي لا يمكنه أن يخذله. حين جاءت فرانسي ظهيرة اليوم التالي إلى البيت، أدرك فيرغسون في الحال بأنها كانت تبكي. أنف مُحمرّ، وآثار مغبّشة مخضّبة بالوردي حول قزحيتي عينيها اليسرى واليمنى، إضافة لمنديل متكوّر داخل قبضتها - أمكن حتّى لطفل في السادسة من عمره أن يستنتج الحقيقة من هذه الأدلّة. تساءل فيرغسون إن كانت فرانسي قد تشاجرت مع غاري، ولم تعد مشبوكة فجأة دون سابق إنذار، ما قد يعني أن الزواج صار بحكم الملغى، وأنه لن يتمّ استدعاؤه لحمل الخاتم على الوسادة المخملية، سألها لماذا هي مستاءة؟ لكنْ، وعوضاً عن لفظ اسم غاري، كما تخيّل أنها ستفعل، بدأت فرانسي تتحدّث عن رجل وامرأة اسمهما روزنبرغ، تمّ إعدامهما بالأمس، قُلِيا على الكرسي الكهربائي، قالت تلك الكلمات بشيء من الرعب والقرف معاً، وكان ذلك خاطئاً، خاطئاً، خاطئاً، لأنهما كانا بريئين على الأرجح، لقد قالا دائماً بأنهما بريئان، وكيف لهما أن يتركا نفسيهما للإعدام حين أُتيحت لهما النجاة بحياتهما بالقول إنهما مذنبان. لديهما ابنان، قالت فرانسي، ابنان صغيران، ولمَ يسعَ والدان إلى دفع أولادهما إلى اليتم، برفض الاعتراف بالذنب، إن كانا مذنبين، ما يعني أنهما دون ريب بريئان، وقد ماتا بلا سبب. لم يسمع فيرغسون قطّ مثل هذا الغضب في صوت فرانسي، ولم يعرف قطّ أبداً شخصاً منفعلاً بهذه الشّدّة لظلم ارتُكب بحقّ أناس، يُعدّون غرباء، فقد كان واضحاً له أن فرانسي لم تلتقِ يوماً بعائلة روزنبرغ شخصياً، وبالتالي فقد كان ما تتحدّث عنه شيئاً شديد الخطورة والأهمّيّة، شديد الخطورة، لأن أولئك الناس قد تمّ قليهم بسببه، أي فكرة مروّعة تلك، أن يتمّ قليهم كقطعة من الدجاج المغمور داخل مقلاة بزيت ساخن يغلي. سأل ابنة عمّه ما الذي يفترض أن آل روزنبرغ قد فعلوه ليستحقّوا مثل هذا العقاب؟ وشرحت

فرانسي أنهما اتُّهما بإيصال معلومات سرّيّة إلى الروس، أسرار حيوية تتعلّق ببناء القنبلة الذّرّيّة، وبما أن الروس شيوعيون، فذلك يجعلهم أعداءنا اللدودين، أُدين آل روزنبرغ بتهمة الخيانة، وهي جريمة فظيعة، تعني أنكَ قد خنتَ وطنكَ، ويجب أن تُعدم، ولكنْ، في هذه القضية، فإن أمريكا مَن اقترفت الجريمة، فقد أعدمت الحكومة الأمريكية شخصين بريئين، وعندها، اقتبست من صاحبها وزوجها المستقبلي قائلة: *يظنّ غاري أن أمريكا أُصيبت بالجنون.*

تلقّى فيرغسون هذه المحادثة كضربة في معدته، وشعر بالضياع والخوف مثلما شعر حين انزلقت أصابعه عن الفرع، وبدأ بالسقوط عن الشجرة، إنه الإحساس الرهيب بالعجز، ولا شيء سوى الهواء حوله وحياله، لا أمّ، لا أب، لا إله، لا شيء البتّة غير الفراغ التّامّ للعدم، وجسمه في طريقه نحو الأرض، من دون أي شيء في رأسه سوى الخوف ممّا قد يحدث له حين يصل هناك. لم يحدّثه والداه قطّ عن أشياء مثل إعدام آل روزنبرغ، لقد حموه من القنبلة الذّرّيّة والأعداء اللدودين، والأحكام الزائفة والأطفال الأيتام والبالغين المقليين، وشكّل سماعه لـ فرانسي وهي تخبره عن ذلك كله في دفقة واحدة كبيرة من العاطفة والنقمة صدمة كبرى، لم يكن ذلك كلكمة في معدته، على وجه الدّقّة، بل أشبه بأحد الرسوم المتحرّكة التي شاهدها على التلفزيون: خزنة من الفولاذ تسقط من نافذة الطابق العاشر، وترتطم برأسه. *طج*. المحادثة التي استغرقت خمس دقائق مع ابنة عمّه فرانسي، وكل شيء انتهى بـ طج. كان هناك عالم كبير في الخارج، عالم القنابل والحروب والكراسي الكهربائية، ولم يعرف عنه إلا القليل أو لا شيء عنه. كان مغفّلاً، مغفّلاً تماماً، وميؤوس منه حتّى إنه شعر بالحرج من أن يكون نفسه، طفل أحمق، حاضر، لكنْ، من دون أدنى قيمة، جسم يحتلّ جزءاً من المكان مثلما الكرسي أو السرير، لا شيء أكثر من صفر أخرق، وإن أراد تغيير ذلك، فعليه أن يبدأ الآن. أخبرت الآنسة لندكويست صفّه في الروضة بأنهم سيتعلّمون القراءة والكتابة في الصّفّ الأوّل، فلا معنى للاستعجال، وأنهم سيكونون جميعاً جاهزين ذهنياً للبدء في العام المقبل، لكن فيرغسون لم يستطع الانتظار حتّى السنة المقبلة، توجّب عليه البدء الآن، وإلا فإنه سيستهجن نفسه في صيف آخر من الجهل، لأن القراءة والكتابة ليست إلا الخطوة الأولى، كما خلص، الخطوة الوحيدة التي يمكنه القيام بها كشخص لا قيمة له، وإن كان هناك أيّة عدالة في العالم، الذي قد بدأ بالتشكيك فيه جدّيّاً، فعلى شخص ما أن يأتي لتقديم العون له.

جاء العون في نهاية ذلك الأسبوع، على هيئة جَدّته، التي أتت يوم الأحد إلى "وست أورانج" برفقة جَدّه، واستقرّت في غرفة النوم المجاورة لغرفته، وبقيت لفترة لا بأس بها من شهر تمّوز. كان قد حصل على زوجَي عكّازات قبل يوم من حضورها، ما سمح له بالتّحرّك بحرّيّة في الطابق

الثاني، والتّخلّص من ذلّ التبوّل في قارورة الحليب، لكن النزول إلى الطابق الأوّل بالاعتماد على نفسه كان لا يزال متعذّراً، فرحلة هبوط الدرج كانت خطرة إلى حدّ كبير، وبذلك يجب أن يحمله أحد ما، إهانة أخرى يتحمّلها بصمت ونقمة حارقة، ولأن جَدّته ضعيفة جدّاً، وواندا صغيرة الحجم جدّاً، فحمله كان ممكناً من قِبَل أبيه أو أمّه، ما حتّم أن يكون نزوله في الصباح المبكّر - فأبوه يغادر إلى العمل بعد السابعة صباحاً بقليل، وأمّه لم تزل تبحث عن المكان المناسب لافتتاح استوديو التصوير، لكنْ، ما من مشكلة، فهو لم يهتمّ بالتّأخّر بالنوم، كما فضّل قضاء الصباحات وفترات بعد الظهر في الشرفة المسقوفة بدلاً من الانطواء في القبر البارد في الطابق العلوي، ولأن الطقس كان حارّاً ورطباً في الغالب، عادت العصافير إلى المشهد الآن، وكانت أكثر من تعويض عن أي إزعاج. كانت الشرفة المكان الذي اقتحم منه مجاهل الحروف، والكلمات، وعلامات الترقيم، حيث دأبَ برعاية جَدّته للتّغلّب على أعاجيب التمييز بين الكلمات المتشابهة التي تحمل اللفظ نفسه، وتدلّ على معان مختلفة، *where، wear/ whether، weather/ rough، stuff/ ocean، motion/ to، too، two*. إلا إنه لم يشعر قطّ بقربه الخاصّ من المرأة التي اختارها القدر، لتكون جَدّته، نانا الغامضة من وسط مانهاتن، امرأة لطيفة وحنون، كما افترض، لكنها هادئة ومتحفّظة للغاية حتّى إنه من الصعب تشييد علاقة معها، وكلّما كان مع جديه، استحوذ جَدّه الصاخب، المسلّي بجنون على كامل المكان، فلم يكن يترك جَدّته في الظّلّ، مطموسة كلّيّاً. حيّرت فيرغسون بجسمها البدين المدوّر وساقيها الثخينتين، بملابسها المزرية عتيقة الطراز وأحذيتها الصلبة ذات الكعوب العريضة القصيرة، وبدت دائماً شخصاً ينتمي إلى عالم آخر، يسكن في زمان ومكان آخرين، وبالتالي فإنها لن تشعر قطّ بأنها في بيتها في هذا العالم، إذ يمكنها العيش في الحاضر، لكنْ، كسائحة فقط، كما لو أنها تمرّ به فقط، وتتوق للعودة من حيث أتت. ورغم ذلك، كانت تعرف كل شيء يمكن معرفته عن القراءة والكتابة، وحين سألها فيرغسون إن كانت مستعدّة لمساعدته، ربّتت على كتفه، وقالت بالطبع سأفعل، يشرّفني ذلك. برهنت إيما إدلر، زوجة بينجي، والدة ميلدرد وروز، عن صبرها كمعلّمة كادحة، وعملت على توجيه حفيدها بجهد ممنهج، فابتدأت باختبار مدى معرفة فيرغسون في اليوم الأوّل، لحاجتها سبر ما تعلّمه حتّى الآن بدقّة قبل أن تضع خطّة عمل مناسبة. وقد ارتاحت لحقيقة أن بإمكانه تمييز الأحرف الأبجدية، الأحرف السّتّة والعشرين جميعها، معظم الحروف الصغيرة والحروف الكبيرة جميعها، ولأنه كان متقدّماً جدّاً، كما قالت، فإن ذلك سيجعل عملها أقلّ تعقيداً بكثير ممّا كانت تظنّ.

قسّمت الدروس التي أعطتها له لاحقاً إلى ثلاثة أقسام، الكتابة لتسعين دقيقة في الصباح،

يتبعها استراحة الغداء، القراءة لتسعين دقيقة بعد الظهر، ومن ثمّ، وبعد استراحة ثانية (لتناول الليمونادة والخوخ والكعك)، خمس وأربعون دقيقة تقرأ خلالها على أسماعه بينما يجلسان على أريكة الشرفة مشيرة إلى الكلمات التي تظنّ أنه يصعب عليه فهمها، تنقر بسبابتها اليمنى السمينة على الصفحة تحت الكلمات صعبة التهجئة مثل "دسائس" و"كآبة" و"ثنايا"، وبينما يجلس فيرغسون بجانبها، مستنشقاً روائح جَدّته من مرطّب اليدين وعطر ماء الورد. وهو يتخيّل اليوم الذي سيصبح ذلك كله تلقائياً، بالنسبة إليه، حين يصبح قادراً على القراءة والكتابة مثل أمهر مَنْ هم على قيد هذه الحياة. لم يكن فيرغسون طفلاً حاذقاً، كما أثبت سقوطه عن الشجرة، إن لم نذكر الهفوات والعثرات الأخرى التي لازمت بداية حياته، فكانت الكتابة أكثر صعوبة عليه مقارنة بالقراءة. ستقول جَدّته، آرتشي، راقبْ كيف أقوم بذلك، وعندها ستكتب الحرف ببطء لستٍّ أو سبع مرّات على سطر، حرف (B) كبير على سبيل المثال أو (f) صغير، وبعدها يحاول فيرغسون تقليدها، لينجح في بعض الأحيان من المرّة الأولى، وليُخفق في مرّات أخرى بكتابتها بشكل صحيح، ومع استمراره بالإخفاق بعد المحاولة الخامسة أو السادسة، تضع جَدّته يدها أعلى يده، وتلفّ أصابعها حول أصابعه، وتُوجِّه قلم الرصاص على الصفحة، لتكتب يداهما الحرف بصورة صحيحة. أسهمت طريقة تلامس الأيدي هذه في تقدُّمه، فقد أخرجه التمرين من عالم الأشكال المجرّدة، وجعلها محسوسة ومادية، كما لو كانت عضلات يده قد دُرِّبت لتؤدّي المهمّة المحدّدة المطلوبة برسم شكل كل حرف، وبتكرار التمرين أكثر من مرّة، حيث تجري مراجعة الأحرف التي تعلّمها يومياً، وإضافة أربعة أو خمسة جديدة عليها، تمكّن فيرغسون في النهاية من السيطرة على الوضع، وتوقّف عن ارتكاب الأخطاء. تقدّم بسلاسة في دروس القراءة، دون أن يكون قلم الرصاص جزءاً من الأمر، وتمكّن من التحليق بخطى سريعة، ربمّا واجه بعض المصاعب عند الانتقال من الجمل المؤلّفة من ثلاث أو أربع كلمات إلى الجمل ذات العشر أو الخمس عشرة كلمة في فترة أسبوعين، وكان عازماً على أن يُتقن القراءة بشكل كامل قبل أن تنتهي زيارة جَدّته، بدا الأمر كما لو أنه يُمنّي نفسه على أن يستوعب، مُرغِماً ذهنه على حالة من الاستجابة، تُتيح ترسيخ كل حقيقة جديدة، يتعلّمها، فلا ينساها أبداً. مرّة تلو أخرى، ستطبع جَدّته الجمل لأجله، ومرّة إثر أخرى سيقرؤها لها. ابتداءً من *اسمي آرتشي*، إلى *انظر إلى تيد*، ومن ثمّ *الطقس حارّ جداً هذا الصباح*، إلى *متى ستزيل جبيرتكَ؟* إلى *أظنّ أنها ستمطر غداً*، إلى *كم هو مثير للاهتمام أن الطيور الصغيرة تغرّد أحلى من الطيور الكبيرة*، إلى *أنا امرأة عجوز، ولا أستطيع تذكّر كيف تعلّمت القراءة، لكني أشكّ في أني تعلّمتها بالسرعة التي أتقنتَها فيها*، وبعد ذلك مضى إلى كتابه الأوّل، قصّة فأرين سيّئين، تدور القصّة حول زوج من القوارض المنزلية، اسمهما توم

وهونكا مونكا قاما بتحطيم بيت دمية فتاة صغيرة، لأن الطعام داخله لم يكن حقيقياً، بل صُنع من الجصّ، وكم استمتع فيرغسون بعنف غضبهما المدمّر، الثورة التي أعقبت خيبة أملهما، وجوعهما الذي لم يُسَدّ، وعند قراءته الكتاب بصوت عالٍ لجَدّته، تعثّر ببضع كلمات فقط، كلمات صعبة، غاب معناها عن ذهنه، مثل "المهد"، و"السّجّادة"، و"المشمّع"، و"صانع الجبن"، قال لجَدّته بعد أن انتهى، إنها قصّة جيّدة، ومضحكة جداً أيضاً. نعم، وافقت، قصّة مشوّقة للغاية، وعندها قبّلته أعلى رأسه، أضافت: ما كنتُ لأقرأها أفضل ممّا فعلت.

ساعدته جَدّته في اليوم التالي، على كتابة رسالة إلى الخالة ميلدرد، التي لم يرها منذ عام تقريباً. فهي تعيش الآن في شيكاغو، وتعمل هناك أستاذة جامعية، وتدرس طلاب جامعة كبيرة كما يفعل غاري، رغم أن هذا الأخير كان في كلّيّة مختلفة عن كليتها، "كلّيّة وليامز" في ماساتشوستس، في حين كانت جامعتها تسمّى جامعة شيء ما. حين يفكّر بـ غاري، تتبادر فرانسي بطبيعة الحال إلى ذهنه أيضاً، وصدمته حقيقة أن ابنة عمّه قد تحدّثت عن الزواج في سنّ السابعة عشرة، في حين أن الخالة ميلدرد، التي تكبر والدته بعامين، ما يجعلها أكبر بسنوات عديدة من فرانسي، لم تكن متزوّجة من أحد. سأل جَدّته لماذا لم تتزوّج خالته ميلدرد، وعلى ما يبدو لم يكن ثمّة جواب لهذا السؤال، لأن جَدّته هزّت رأسها، واعترفت بأنها لا تعرف، لتضيف أن ذلك يعود لانشغال ميلدرد الشديد بعملها أو لأنها ببساطة لم تجد الرجل المناسب بعد. عندها ناولته جَدّته قلم رصاص وورقة مسطّرة صغيرة، شارحة أن هذا أفضل نوع من الورق لكتابة الرسائل، قائلة إن عليه التفكير جيّداً بما يريد قوله لخالته قبل أن يشرع بالكتابة، علاوة على الحفاظ على أن تكون جمله قصيرة، ليس لأنه غير قادر على قراءة جمل طويلة، بل لأن الكتابة أمر مختلف، ولأن طباعة الرسائل عملية بطيئة، لم تشأ أن تستنفد طاقته قبل الفروغ منها.

خالتي العزيزة ميلدرد، كتب فيرغسون ما هجّأته له جَدّته بصوتها العالي المتهدّج، راسماً صوت كل حرف كما لو أنه أُغنيّة صغيرة، يتصاعد النغم، وينخفض مع تقدّم يده البطيء على الصفحة. *سقطتُ عن الشجرة، وكسرتُ ساقي. نانا هنا. وهي تعلّمني القراءة والكتابة. لوّنت فرانسي جبيرتي بالأزرق والأحمر والأصفر. إنها غاضبة بخصوص أولئك الناس الذي تمّ قلْيُهم على الكرسي. الطيور تغرّد في الحديقة. أحصيتُ اليوم أحد عشر نوعاً من الطيور. عصافير الشراشير الصفراء هي المفضّلة عندي. قرأت قصّة الفأرين السّيّئين وكلب السيرك بيوي. ما الذي تفضلينه أكثر، بوظة الشوكولاتة أم الفانيلا؟ أتمنّى أن تزورينا قريباً. أحبّكِ، آرتشي.*

دار بعض الجدل حول استخدام كلمة "قَلْي"، فقد عَدَّتها جَدّته طريقة مبتذلة إلى حدّ كبير، للتّحدّث عن حدث مأساوي، لكن فيرغسون أصرّ على انعدام أي خيار، لا يمكن تغيير اللغة،

فهكذا شرحت فرانسي القضية له، وقد وجدها كلمة مناسبة، لأنها وعلى وجه التحديد، كانت فاقعة ومنفّرة جدّاً. على أيّة حال، كانت الرسالة رسالته، أليس كذلك؟ وبإمكانه كتابة أي شيء يريده. هزّت جَدّته رأسها للمرّة الثانية. *أنتَ لا تتراجع أبداً، أليس كذلك، يا آرتشي؟* ليجيب حفيدها: *لمَ عليَّ أن أتراجع، إن كنتُ على حقّ؟*

لم يمضِ وقت طويل بعد أن وضعا الرسالة في المظروف، حتّى جاءت والدة فيرغسون إلى المنزل على نحو مفاجئ، عابرة الشارع في "البونتياك" الحمراء ذات البابين التي اعتادت قيادتها منذ انتقال العائلة إلى "وست أورانج" قبل ثلاث سنوات، السّيّارة التي يدعوها فيرجسون ووالداه باسم "بندورة جيرسي"، وحين فرغت من ركنها في المرأب، اجتازت عشب الحديقة متّجهة إلى الشرفة، بوتيرة أسرع من المعتاد، بخطوات متسارعة ما بين المشي والركض، وحالما اقتربت بما فيه الكفاية، ليتبين فيرغسون معالمها، رآها تبتسم، ابتسامة عريضة، ابتسامة عريضة ومشرقة على نحو استثنائي، ثمّ رفعت ذراعها، ولوحت لأمّها وابنها، بتحية دافئة، ما دلّل على معنوياتها الممتازة، عرف فيرغسون، حتّى قبل أن تصعد الدرجات، وتنضمّ إليهما على الشرفة، ما كانت ستقوله بالضبط، ذلك أنه بدا واضحاً من عودتها المبكّرة والبشاشة الطافية على وجهها أن بحثها الطويل قد انتهى أخيراً، وأنها قد عثرت على موقع استوديو التصوير الفوتوغرافي.

إنه في مونتكلير، أخبرتهم، مجرّد قفزة طفيفة من "وست أورانج"، ولم يكن المكان كبيراً كفاية، ليتسع لكل ما تحتاجه فحسب، بل كان يتوسّط الشارع الرئيس. طبعاً هناك الكثير ممّا يتعين القيام به، ولكن عقد الإيجار لن يبدأ إلا في أوّل أيلول، ما سيهبها وقتا كافياً لوضع الخطط والبدء في البناء من اليوم الأوّل. أي راحة، قالت، أخيراً أخبار جيّدة، ولكنْ، لا تزال هناك مشكلة. عليها أن تخرج باسم للاستديو، ولم تحبّ ما قد خطر في ذهنها من أسماء حتّى الآن. "فيرغسون فوتو" ليس خياراً جيّداً، بسبب تكرار الحرف "ف" مرّتين. كذلك "مونتكلير فوتو" فهو خيار تحيطه الخفّة. و"بورتريهات روز" ادّعاء مبالغ فيه. و"روز فوتو" لا ينفع لتكرار الحرف "و". و"سوبربان بورترايتس" (بورتريهات الضواحي) الذي يدفعها للتفكير بمؤلّفات علم الاجتماع. "مودرن إمِجْ" ليس سيّئاً، ولكنه يجعلها تفكّر بمجلّة متخصّصة بالتصوير الضوئي بدلاً من استوديو حقيقي على أرض الواقع. "فيرغسون بورتيتشر"، و"كاميرا سنترال. إف - ستوب فوتو". و"داركرووم فيلج". و"لايت هاوس سكوير". و"رمبرانت فوتو". و"فيرمير فوتو". و"روبنز فوتو". و"إسكس فوتو". قالت عنها جميعاً: إنها سيّئة، لا، بل عفنة، وتوقّف دماغها عن التفكير.

تدخّل فيرغسون سائلاً عن اسم المكان الذي اصطحبها إليه والده للرقص، كان شيئاً يتضمن

كلمة "روز"، ويقصد بذلك المكان الذي ذهبا إليه قبل الزواج؟ تذكّر أنها أخبرتْه عنه مرّة، لأنهما استمتعا بوقت طيّب هناك، ورقصا بجنون.

"روزلاند"، أجابت أمّه.

عندها التفتت أمّ فيرغسون نحو والدتها، وسألتْها رأيها باسم "روزلاند فوتو".

أعجبني، أجابت أمّها.

وأنتَ، يا آرتشي؟ سألت والدته. ما رأيكَ؟ أعجبني أنا أيضاً، أجاب. وأنا كذلك، قالت أمّه.

قد لا يكون أفضل اسم مبتكَر على الإطلاق، لكنْ، له رنّة لطيفة. دعونا نؤجّل القرار ليوم الغد. إن بقي يستهوينا في الصباح، فلربمّا تكون المشكلة قد حُلَّت.

في تلك الليلة، وبينما كان فيرغسون ووالداه وجدتُه نائمين في أَسِرَّتهم في الطابق الثاني من المنزل، احترق "عالم الأخوة الثلاثة" بالكامل. رنّ الهاتف في الخامسة والربع فجراً، خلال دقائق، كان والد فيرغسون في سيّارته البليموث الخضراء يقود باتّجاه نيوارك، لتفقّد الأضرار. بما أن مكيّف الهواء كان يعمل بكامل طاقته في غرفة فيرغسون، فقد نام خلال المكالمة الهاتفية وهرج اندفاع والده، ومغادرته قبيل الفجر، ولم يعرف ما حدث إلى أن استيقظ في السابعة. بدت أمّه مضطربة، وأكثر ارتباكاً وانفعالاً من أي وقت رآها فيه، لم تعد تتصرّف كصخرة من رباطة الجأش والحكمة، كما كان يظنّها دائماً، بل كانت شخصاً عادياً مثله تماماً، كائن هشّ فريسة للحزن والدموع واليأس، وحين أحاطتْه بذراعها، شعر بالذعر، ليس فقط لأن متجر والده قد احترق، ولن يتوفّر مال يعيلهم، وبالتالي سينتقلون إلى بيت فقير، ويقتاتون على الحساء وقِطَع الخبز اليابس ما تبقّى لهم من أيّام، لا، ليس لهذا السبب، مع أن ذلك سيّئ بما يكفي، فالأمر المخيف حقيقةً كانَ إدراكه أن أمّه ليست أقوى منه، وأن ضربات العالم تؤذيها بقدر ما تؤذيه تماماً، وعليه لم يعد من فرق بينهما، إلا من حقيقة أنها أكبر سنّاً.

قالت أمّه: لقد أمضى أبوكَ المسكين حياته كلها وهو يبني ذلك المتجر، لقد جَدَّ واجتهدَ ثمّ جَدّ واجتهد، والآن ذهب كل شيء. شخص ما أشعل عود ثقاب، سلك كهربائي لامس آخر في الجدار، فإذا بعشرين عاماً من العمل المضني تتحوّل إلى كومة رماد. الله قاس، يا آرتشي، عليه أن يحمي الناس الطّيّبين في هذا العالم، إلا أنه لا يفعل. يجعلهم يعانون بالمقدار نفسه الذي يعانيه الأشرار. يقتل ديفيد راسكين، ويحرق مخزن والدكَ، ويترك الأبرياء يموتون في معسكرات الاعتقال، ويقولون إنه إله رؤوف رحيم. يا لها من مزحة! توقّفت أمّه. ورأى فيرغسون قطرات دمع صغيرة تترقرق من عينيها، ومضت تعضّ على شفتها السفلى، كأنها تحاول كبح

خروج المزيد من الكلمات من فمها، وقد أدركت أنها أوغلت بعيداً جدّاً، وليس من الصواب التعبير عن مرارة كتلك أمام طفل في السادسة من عمره. لا تقلقْ، قالت له. أنا فقط مستاءة، هذا كل شيء. لدى والدكَ تأمين ضدّ الحريق، ولن يصيبنا أيّ مكروه. كل ما في الأمر أنها نثرة حقيرة من الحظّ العاثر، إلا أن هذا مؤقّت، ولنا في النهاية أن نكون جميعاً بخير. أنتَ تعرف هذا، يا آرتشي، أليس كذلك؟ أومأ فيرغسون موافقاً، ذلك أنه لم يردْ لأمّه أن تستاء أكثر. نعم، لربّما سيكونون بخير، مضى يفكّر، ولكنْ، إن كان الإله قاسياً كما قالت، فلعلّهم لن يكونوا كذلك. ما من شيء مؤكّد. كانت هذه المرّة الأولى منذ وصوله إلى العالم منذ ألفين وثلاثمائة وخمسة عشرين يوماً، يواجه صعوبة بالتّكهّن. ليس ذلك فحسب - ومعه أيضاً سؤاله مَنْ يكون ديفيد راسكين، يا ترى؟

1.3

لقيَ ابن عمّه أندرو حتفه. أُردي بالرصاص في مهمّة قتالية، هكذا شرح والد فيرغسون له، وما كانت المهمّة إلا دورية ليلية في الجبال المتجمدة بين كوريا الشمالية والجنوبية، ما هي إلا رصاصة واحدة أُطلقت من جندي شيوعي صيني، قال له والده، اخترقت قلب ابن عمّه أندرو، فأردتْهُ وهو في التاسعة عشرة من عمره. إنه عام 1952، ويفترض أن يشعر فيرغسون ذو الخمس سنوات بالتعاسة نفسها التي يشعر بها كل مَنْ في الغرفة، بدءاً من العمّة ميلي وابنة العمّ أليس، اللتين لم تصمدا لأكثر من عشر دقائق قبل الانهيار أوالبكاء، والحزن مخيّم على العمّ ليو، يدخّن مطرقاً السيجارة تلو أخرى، بينما لم يتمكّن فيرغسون من استحضار الحزن الذي شعر بأنه مطلوب منه، ثمّة ما هو زائف وغير طبيعي في محاولته أن يكون حزيناً، في حين أنه لم يكن كذلك، إذ إنه في الحقيقة لم يحبّ ابن عمّه يوماً، هو الذي دعاه بألقاب مثل الأحمق والقزم والقذر الصغير، مَنْ تآمر عليه في اجتماعات العائلة ومَنْ احتجزه مرّة في خزانة، ليرى إن كان صلباً كفاية لتحمُّل ذلك، وحتّى عندما ترك فيرغسون في حاله، فإنه قال أشياء لأخته أليس، مطلقاً عليها صفات جارحة مثل وجه الخنزير ودماغ الكلب وصاحبة الساقين القلميتين، ما جعل فيرغسون ينكمش باشمئزاز، هذا عدا عن تمتّع أندرو في اعتراض ابن عمّه جاك، ولكمه، وجاك لا يصغره إلا بسنة واحدة، لكنه أقصر منه بقليل، حتّى إن والدي فيرغسون أقرّا بأن أندرو فتى مشاغب، وكما يتذكّر فيرغسون، فإنه قد سمع قصصاً عن سلوكيات ابن عمّه في المدرسة، كمعاندة المدرّسين، وإشعال النيران في سلّة المهملات، وكسر النوافذ، والرسوب في فصوله الدراسية، والعديد من الأفعال الخاطئة، لدرجة أن المدير قام بطرده في منتصف سنته في الصّفّ الحادي عشر، ومن ثمّ، وبعد أن قبض عليه يسرق سيّارة، قدّم له القاضي خياراً، إمّا السجن أو الجيش، وهكذا انضمّ أندرو إلى الجيش، وبعد ستّة أسابيع من إرساله إلى كوريا، مات.

ستمرّ سنوات قبل أن يدرك فيرغسون الأثر الكامل لهذا الموت على عائلته، فقد كان صغيراً للغاية حينها لاستيعاب أي شيء عدا التأثير الأقصى الذي تركه عليه مباشرة، والذي لم يتبيّن له تماماً لحين إتمامه السابعة والنصف من عمره، ولذلك فإن السنتين اللتين تفصلان بين

جنازة أندرو والحادث الذي صدع عالمه الصغير مرّتا مغمورتين بغبش الطفولة الآني، والشؤون اليومية للمدرسة، والرياضات والألعاب، والصداقات، والبرامج التلفزيونية، والكُتُب المصوّرة، وقصص الأطفال، والأمراض، والركب المكشوطة والأطراف المرضوضة، والملاكمات بالأيدي أحياناً، والمعضلات الأخلاقية، وأسئلة لا تُحصى عن الطبيعة والواقع، وخلال ذلك كله، واصل حبّه لوالديه والإحساس بحبهما له بالمقابل، حبّ أمّه الحنون على نحو أكبر، أمّه المقدامة روز فيرغسون، وقد امتلكت وأدارت "روزلاند فوتو" الواقع في الشارع الرئيس في "ميلبورن"، البلدة التي عاشوا فيها، وأحبّ والده، وإن بدرجة أقلّ وتزعزع أكبر من جانب أبيه، ستانلي فيرغسون الغامض، قليل الكلام الذي بدا غالباً بالكاد مدرِكاً لوجود ابنه، إلا أن فيرغسون استوعب أن والده مشغول البال بكثير من الأشياء، فإدارة "عالم الأخوة الثلاثة للتجهيزات المنزلية" عمل متّصل، على مدار الساعة، ما كان يعني بالضرورة أنه مشتّت الذهن، لكنه في تلك اللحظات النادرة حين لا يكون كذلك ينظر إليه، فيشعر فيرغسون بالثقة من أن والده يعرف مَنْ يكون، وأنه لم يخلط بينه وبين شخص آخر.

بكلمات أخرى، عاش فيرغسون على أرض آمنة، يُعتنَى فيها باحتياجاته الماديّة على نحو ثابت واعٍ، فهناك سقف يأويه، ويتناول ثلاث وجبات في اليوم، وتُغسَل ملابسه، وتُكوى أوّلاً بأوّل، ما من مصاعب جسدية يجب تحمُّلها، ولا ضغوطات عاطفية تعيق تقدّمه، وفي تلك السنوات ما بين عمر الخامسة والنصف والسابعة والنصف، ترعرع، على حدّ تعبير التربويين، كطفل طبيعي سليم، بمعدّل ذكاء يفوق المتوسّط، وكان أنموذجاً حسناً للصبي الأمريكي في منتصف القرن. لكنه عالق للغاية في معمعة حياته الشخصية، فلم يولِ انتباهاً لما يحدث خارج دائرة اهتماماته المباشرة، ولأن والديه لم يكونا من النوع الذي يتشارك همومه مع طفل صغير، لم يكن هناك من طريقة ليُجهّز نفسه للمصيبة التي حلّت في 3 تشرين الثاني 1954، والتي طردتْه من جنّة عمره الفتي، وجعلتْ حياته حياةً مغايرة تماماً.

ومن بين أشياء كثيرة لم يعرفها فيرغسون قبل تلك اللحظة المشؤومة ما يلي: 1) مدى حزن ليو وميلي على وفاة ابنيهما، وتناميه جرّاء حقيقة اعتبار نفسيهما أبوين فاشلين، قاما بتربية مَن عُدَّ شخصاً معطوباً، وطفلاً منحرفاً بلا ضمير أو أساس أخلاقي، هازئاً بالقواعد والسلطات، تُبهجه الفوضى التي بثّها أينما حلّ، أفّاق، وغشّاش بكلّ ما أُوتي، وبيضة فاسدة. وشرع ليو وميلي بجَلْد نفسيهما لهذا الفشل، متسائلين إن كانا قاسيين جداً عليه أو ليّنين جداً معه، وما الذي كان يمكنهما القيام به بشكل مختلف لمنعه من سرقة تلك السّيّارة، التي تبين أنها حكم الإعدام عليه، وكم شعرا بالتّمزّق، لأنهما شجّعاه على الانضمام إلى الجيش، الذي اعتقدا أنه قد

يساعد في تقويمه، فأودعه صندوقاً خشبياً تحت الأرض بستّة أقدام عوضاً عن ذلك، وبالتالي شعرا بمسؤوليتهما عن موته أيضاً، وليس فقط عن حياته النكدة، والغاضبة، والمبدّدة، بل عن مصرعه أيضاً على قمّة الجبل المتجمّدة تلك في كوريا البائسة.

2) كان ليو وميلي ذوّاقين في الشراب، إنهما من تلك الأزواج الذين يحتسون الكحول من باب العبث والالتزام، زوجان سكّيران، لا مباليان، لهما خصال الحاوي المسرحية، متى أُتيح لهما التّملّص ضمن حدود قدراتهما، والتي كانت كبيرة، والغريب في الأمر أن ميلي الرقيقة بدت الأكثر ثباتاً، نادراً ما ترنّحت أو تعثّر لسانها، في حين أن زوجها الذي يفوقها حجماً بكثير أوغل في تماديه في بعض الأحيان، ويتذكّر فيرغسون، حتّى قبل وفاة أندرو، حين رأى عمّه ممدّاً على الأريكة يشخر وسط حفلة عائلية صاخبة، ما وجده الجميع مضحكاً جدّاً حينها، إلا أنه وفي أعقاب ذلك الموت، ازداد شُربه، وتجاوز الحفلات، وساعات الكوكتيل، والشراب الليلي بعد العشاء إلى الثمل ظهراً وقت الغداء والخمور السّرّيّة من "البطحات" التي يحملها في جيب سترته الداخلي، ما ساعد، بلا شكّ، على تخدير الألم الذي يعتصر قلبه المنكوب، والمثقل بالذنب، إلا أن المشروبات الكحولية بدأت تؤثّر على عمله في المتجر، وجعلته أحياناً يتحدّث إلى الزبائن بشكل غير مترابط عن المزايا الخاصّة بغسّالات "ويرلبول" و"مايتاغ"، وحين لا يفعل كذلك، فإنه يكون نزقاً أحياناً، حيث سيجد متعته غالباً في إهانة الناس، ما كان مرفوضاً قطعياً في إدارة أعمال "عالم الأخوة الثلاثة"، وتوجّب على والد فيرغسون التّدخّل، وإبعاد ليو عن التعامل مع الزبائن، والطلب منه الذهاب إلى البيت، وأخذ قسط من الراحة.

3) الحقيقة المعروفة عن ليو هي ولعه بالمقامرة. ولولا عمل ميلي وكيلة مشتريات لصالح متجر بامبرغر وسط نيوارك، لكانت العائلة قد أفلست منذ سنوات، فمعظم ما كسبه ليو من "عالم الأخوة الثلاثة " انتهى في جيب راعي المراهنات. وكما خرج شربه عن السيطرة في تلك الأيّام، كذا كان مصير ميله للمراهنة باحتمالات ضئيلة، والحلم المبهر بضربة العمر، ذلك النوع من الرهان الأسطوري الذي يتحدّث عنه المقامرون لعقود من الزمن، وكلّما أخطأ رهانه، ازدادت خسائره. بحلول آب 1954، أصبح مديوناً بستّة وثلاثين ألف دولار، ونفد صبر إيرا برنشتاين، الرجل الذي أدار رهاناته في السنوات العشرة الماضية. احتاج ليو للمال النقدي، ليس أقلّ من عشرة إلى اثني عشر ألفاً، دفعة كبيرة لإثبات حسن نواياه، وإلا فإن الصبيان أصحاب مضارب البيسبول والقبضات الحديدية سيأتون لزيارته، ولأن طلب المال من ستانلي ما كان وارداً، لمعرفته أن أخيه الصغير كان جدّيّاً حين أقسم بألا يكفله ثانية، فقد قام بسرقة المبلغ من ستانلي عوضاً عن ذلك – بإيقاف شيك لصالح مورد "جنرال إليكتريك" من متجر "عالم الأخوة الثلاثة"، وتحويل

قيمة الشيك لنفسه. عرف أن أمره سينكشف في النهاية، لكنه سيتطلّب بعض الوقت حين ظهور الفروق في الحسابات، حيث إن تدفّق المال مقابل البضائع بين المتجر ومورديه يسير وفق نظام مبني على الثقة المتبادلة، ويتبع ضبط دفاتر الحسابات عمليات التبادل الفعلي بشهور، وستمنحه تلك الشهور الوقت الذي يحتاجه لتصحيح الأمور ثانية.

في آخر شهر أيلول، انتهز عمّ فيرغسون فرصته. ما كان يعني إيقافه شيكاً آخر، لكنْ، إن مضى كل شيء على ما يرام، ستتحوّل التسعة آلاف المختلسة إلى غنيمة قيمتها عشرة أضعاف ذلك المبلغ، ما سيكون أكثر من كاف لتغطية الشيكين الموقوفين، ودفع كامل دينه لبرنشتاين، والخروج برزمة مال محترمة لنفسه. كانت بطولة "وورلد سيريس" على وشك أن تبدأ، مع تفضيل كبير لفريق "إنديانز" على فريق "الجاينتس"، من المؤكّد جدّاً أن المراهنة على كليفلاند بالكاد تستحقّ الجهد، لكنْ، عندها فكّر ليو: إن كان "إنديانز" ذلك الفريق القوي، فما الذي منعهم عن الفوز بأربعة على التوالي؟ كانت الاحتمالات في رهان كهذا مغرية أكثر بكثير. عشرة لواحد على الرمية، في حين أن وضع ماله على مباراة واحدة لـ "كليفلاند" في وقت واحد ستُثمر عن بنسات فقط. وهكذا وجد ليو لنفسه عند وكيل مراهنات آخر، شخص آخر اسمه ليس برنشتاين، ووضع التسعة آلاف ومئتي دولار التي سرقها من أخيه على فريق "إنديانز"، مراهناً على أنهم سيديرون اللعبة من دون خسارة واحدة أمام فريق "الجاينتس". لم يعرف أحد أين شاهد عمّ فيرغسون المباراة الأولى، لكن ستانلي وأرنولد وبقية العاملين في "عالم الأخوة الثلاثة" اجتمعوا حول التلفزيون المثبت في المتجر لمتابعة اللعبة مع خمسين أو ستين من الزبائن المارّين، مَنْ لم يكونوا زبائن بالفعل، وإنما مشجّعي فريق جاينتس ممّنْ لا يملكون تلفزيوناً، خرج ليو لمشاهد اللعبة بنفسه، ربّما في حانة أو مكان آخر، بقعة مجهولة، لم يره فيها أحد مباشرة في أثناء هول مشاهدة مايس يجري باتّجاه كرة ويرتز المحلّقة في النصف الأوّل من الجولة الثامنة، والفظاعة التي تلي ذلك، والدمار المحطّم للروح الذي حلّ بعد بضع دقائق حين رأى رودس يحوِّل رمية ليمون، ويرسل الكرة إلى قوائم الملعب الأيمن. تصويبة واحدة من مضرب رجل، حطّمت حياة رجل آخر.

4) في منتصف شهر تشرين الأوّل أبلغ مورد "جنرال الكتريك" ستانلي بأن دفعته الخاصّة بشحنة شهر آب من المجمّدات والثلاجات والمكيّفات لا وجود لها في سجلاته. ودون أن يدري ما الأمر، مضى ستانلي إلى أمينة سجلات "عالم الأخوة الثلاثة"، أديل روزن، وهي أرملة ممتلئة في السادسة والخمسين، وتبقي قلم رصاص أصفر في شَعْرها، وتؤمن بفضائل الكتابة الدقيقة والأعمدة المنسّقة بصرامة، وحالما شرح لها ستانلي المشكلة، سحبت السّيّدة روزن دفتر شيكات الشركة من درج مكتبها، ووجدت أرومة شيك بتاريخ 10 آب، ما يثبت أن الدفعة قد

تمّت بكامل القيمة المستحَقّة، 14،237.16 دولار. هزّ ستانلي كتفيه مستهجِناً. وقال، لا بدّ أن الشيك قد ضاع في البريد، وعندها طلب من السّيّدة روزن أن تضع أمر إيقاف لشيك شهر آب، وتُصدر شيكاً جديداً لمورّد "جنرال الكتريك". في اليوم التالي، نقلت السّيّدة روزن وهي في حيرة عميقة إلى ستانلي أن أمر وقف قد وضع بالفعل على هذا الشيك في تاريخ الحادي عشر من آب. ما الذي يعنيه هذا؟ ولبرهة أقلّ من وجيزة، تساءل ستانلي عن ما إذا كانت السّيّدة روزن مذنبة بالتلاعب بالحسابات، وهي موظّفته المخلصة حتّى الآن، والتي عُرف على نطاق واسع أنها أحبّته سرّاً طوال السنوات الإحدى عشرة الماضية، لكنه عندما نظر إلى عينَي السّيّدة روزن العاشقتين المضطربتين، استبعد ذلك تماماً، وبدا ظنّه محض هراء. دعا أرنولد إلى المكتب الخلفي، وسأله عن ما يعرفه عن الأربعة عشر ألف دولار المفقودة، لكن أرنولد الذي لم يَبدُ أقلّ انشداهاً واضطراباً ممّا بدت عليه السّيّدة روزن عند مواجهته باللغز نفسه، قال إنه ليس بإمكانه حتّى تخيّل أن هذا قد حصل، وصدّقه ستانلي. عندها طلب ليو. أنكر العضو الأكبر سنّاً في العائلة كل شيء بدايةً، لكن ستانلي لم تُعجبه الطريقة التي ظلّ أخوه ينظر فيها إلى الجدار خلف كتفيه بينما يتكلّم، لذلك ضغط عليه، واستجوب ليو في أمر الإيقاف الموضوع على شيك شهر آب، مصرّاً على أنه الشخص الوحيد الذي قد يفعل ذلك، المرشّح المحتمل الوحيد، بما أن السّيّدة روزن لا غبار عليها، وكذلك أرنولد وهو نفسه، فبالتالي يجب أن يكون ليو، ثمّ بدأ ستانلي بنبش مقامرات ليو الأخيرة، والمبالغ الدقيقة التي راهن بها، والحجم الكلّيّ لخساراته، إن في مباريات بيسبول، وتلك التي في مباريات كرة قدم، وفي نزالات ملاكمة، وكلّما ضغط ستانلي بقوّة أكبر، كلّما أظهر جسم ليو ضعفاً، كما لو أن كليهما يلاكمان بعضهما داخل حلبة، وكل كلمة بمثابة لكمة، ضربة أخرى على الأحشاء، على الرأس، وشيئاً فشيئاً، أخذ ليو يترنّح، كما لو أن ركبتيه على وشك التّقصّف، وفجأة أمسى جالساً على الكرسي ووجهه بين يديه، ليقرّ وهو يجهش بالبكاء اعترافه المتقطّع الذي بالكاد كان مسموعاً. ارتاع ستانلي ممّا سمعه، ففي الواقع، لم يكن ليو آسفاً ولو قليلاً على فعلته، وإن شعر بالأسف لشيء، فقد كان فقط، على أن خطّته لم تنجح، خطّته الجميلة، الخالية من العيوب، ولكن فريق "إنديانز" خذله، وخسر اللعبة الأولى في السلسلة، واللعنة على ويلي مايس، قال، اللعنة على داستي رودس، وفهم ستانلي أخيراً من أن لا أمل يُرتجى من شقيقه، فأن يشير رجل بالغ بأصابع الاتهام إلى لاعبين معتقداً أنهما السبب في مشاكله، فهذا يعني أن عقله ليس أكثر تطوّراً من عقل طفل، طفل أحمق، شخص عاجز ومعاق، كما ابن ليو نفسه، الميت والمدفون أندرو فيرغسون. رغب ستانلي أن يطلب من أخيه مغادرة المتجر، وعدم العودة إليه أبداً، لكنه لم يتمكّن من فعل ذلك، لأنه

سيكون مفاجئاً جدّاً، قاسياً جدّاً، وحين فكر بما سيقوله تالياً، عرف بأنه لن يتمكّن من قول أي شيء حتّى ينحسر غضبه، على الأقلّ إلى المستوى الذي لا يجعله نادماً على كلماته، بدأ ليو بالحديث ثانية، وأخبر ستانلي بأنهم جميعاً غارقون بذلك حتّى آذانهم، وأن المتجر قد انتهى. لم يكن عند والد فيرغسون أدنى فكرة عن ما يتحدّث به ليو، لذلك لجم لسانه لمزيد من الوقت، والشعور يتنامى لديه بأن أخاه ربّما فقد عقله، وعندها تحدّث ليو عن برنشتاين، وكم يدين له، والمبلغ المتجاوز لخمسة وعشرين ألفاً الآن، وما هذا إلا غيض من فيض، فقد بدأ برنشتاين باحتساب الفائدة، وفي كل يوم ترتفع قيمة المبلغ، أعلى، فأعلى، وخلال الأسبوعين الماضيين تلقّى عشرات الاتّصالات الهاتفية، وجاء الصوت من الطرف الآخر مهدِّداً له، فإمّا أن يدفع ما عليه من دَيْن أو يتحمّل التبعات، ما يعني بطُرُق مختلفة أن فريقاً من الرجال سيهاجمونه في الظلام، ويكسرون كل عظمة في جسمه، أو يتسبّبون بعماه بالأسيد، أو يشوّهوا وجهي ميلي وأليس. أخبر أخاه كم هو خائف، أخبره بأنه خائف جدّاً، لدرجة لا يستطيع النوم، ومن أين له أن يجمع النقود وبيته رهين قرضين عقاريين، كما أنه قد استلف بالفعل ثلاثة وعشرين ألف دولار من المتجر؟ بدأت ركبتا ستانلي الآن بالتّقصّف أيضاً، شعر بالتّشوّش والدوار، لم يعد هو نفسه، لم يعد محاطاً بجلده، ولذلك جلس على كرسي في الجانب الآخر من المكتب مقابل ليو، متعجّباً كيف تحوّلت الأربعة عشر ألفاً فجأة إلى ثلاثة وعشرين ألف دولار، وحيث نظر الشقيقان كلّ إلى الآخر عبر سطح المكتب المعدني الرمادي، أخبر ليو ستانلي أن برنشتاين قدّم عرضاً، وبمقدار ما يعتريه القلق إزاء ذلك إلا أنه المخرج الوحيد، الحلّ الوحيد الممكن، وسواء أحبّ ستانلي ذلك أم لا، فلا بدّ من القيام به. ما الذي تتحدّث عنه؟ قال ستانلي، متكلّماً للمرّة الأولى منذ السبع دقائق الماضية. سيقومون بحرق المتجر لأجلنا، قال ليو، وحالما نقبض قيمة التأمين، يأخذ كل طرف حصّته. لم يقل ستانلي أي شيء. لم يقل شيئاً، لأنه توجّب ألا يقول شيئاً، لأن الفكرة الوحيدة التي جالت في باله تلك اللحظة كانت رغبته الملحّة بقتل أخيه، ولو تجرّأ يوماً على البوح بتلك الكلمات، لأعلن رغبته الشديدة في أن يُطبق يديه على حَنْجَرَته ويخنقه حتّى الموت، ستلعنه أمّه من قبرها، وتستمرّ في تعذيبه لبقية حياته. نهض ستانلي من كرسيه، وبدأ بالسير باتّجاه الباب، وحين فتحه، توقّف عند العتبة، وقال: أنا لا أصدّقكَ. ثمّ غادر الغرفة، وبينما يدير ظهره لأخيه، سمع ليو يقول: صدّقني، يا ستانلي. لا بدّ من القيام بذلك.

5) أوّل ما راود ستانلي هو التّحدّث إلى روز، أن يفضي بهمومه لزوجته، ويطلب مساعدتها في إيقاف ليو، لكنه جهدَ مراراً وتكراراً ليُخرِج الكلمات من فمه، وأخفق مراراً وتكراراً، وتراجع أكثر من مرّة في اللحظة الأخيرة، لأنه عجز عن تحمُّل فكرة الاستماع إلى ما ستقوله، ولم يعرف ما

الذي ستقوله. لم يتمكّن من الذهاب إلى الشرطة. فما من جريمة ارتُكبت بعد، وأيّ نوع من الرجال هو ذاك الذي يتّهم أخيه بالتخطيط لجريمة محتملة، في حين أن لا دليل دامغ بحوزته يُثبت به المؤامرة؟ ومن جهة أخرى، حتّى لو مضى برنشتاين وأخوه في ذلك، فهل سيمتلك الدليل عندها ليقدّمه للشرطة، ويتمّ اعتقال أخيه؟ كان ليو في خطر. كانوا يهدّدونه بالعمى، وقَتْل زوجته وابنته، وإن تدخّل ستانلي الآن، فإنه سيتحمّل المسؤولية عن ذلك التشويه وتلك الميتات، ما يعني أيضاً بأنه سيكون جزءاً من ذلك، مرغماً على التآمر من حيث لا يدري، وإذا ساءت الأمور وتمّ القبض على برنشتاين وليو، فإن الشّكّ لن يداخله بأن شقيقه لن يتردّد في ذِكْر اسمه كشريك. نعم، لقد احتقر ليو، وشعر بالتّقزّز من مجرّد التفكير به، ومع ذلك، فإنه احتقر نفسه عميقاً للشعور بتلك الضغينة، التي كانت خاطئة وبشعة، وزادت من عجزه فحسب، لأنه بفشله في التّحدّث إلى روز، فهم أنه قد فضّل الماضي على الحاضر، متخلّياً عن مكانه كزوج وأب، ليعود إلى العالم المظلم للابن والأخ، المكان الذي لم يعد راغباً بالبقاء فيه، لكنه غير قادر على الفرار منه، لقد استدرج إليه مرّة مجدّداً، وعلى مدى الأسبوعين التاليين كان يهيم على وجهه مرتاعاً وغاضباً، منعزلاً عن الجميع بصمت منيع، حانقاً حدّ الإحباط، متسائلاً متى ستنفجر تلك القنبلة داخل رأسه؟

6) بدا له أن لا مناص من الانخراط باللعبة - أو التظاهر بذلك. احتاج أن يعرف ما الذي يخطّط له برنشتاين وعصابته، وليبقى مطّلعاً على التفاصيل، وفي سياق معرفة تلك الأشياء، توجّب عليه أن يخدع ليو، ويجعله يصدّق أنه معه، ولهذا فإنه وفي صبيحة اليوم التالي، بعد أربع وعشرين ساعة فقط على محادثتهم الأخيرة، دار حوار يقشعرّ له البدن، وانتهى بكلمات لا بدّ من التّلفّظ بها، أخبر ستانلي ليو بأنه قد غيّر رأيه، وقال إنه يتفهّم عدم وجود حل آخر، بما يتناقض مع حكمه الصائب، ومع ما يملأ قلبه من قرف لا متناهٍ. أدّى هذا الكذب إلى النتائج المَرجوّة منه. فقد ظنّ ليو أن ستانلي معهم الآن، وأخذ ليو المعتوه، والممتن، والرعديد وما يشبه ذلك من الصفات يتعامل مع أخيه كحليفه الحميم وصديقه الموثوق، ولم يَرْتَبْ لمرّة واحدة بأن ستانلي يتصرّف كعميل مزدوج، هدفه الوحيد ترقيع الأعمال وتجنُّب اندلاع الحريق.

7) سيتّولى الأمر رجلان، أخبره ليو، مشعل حرائق خبير، ليس لديه سجل إجرامي، يعمل مع مراقب، يرصد له المكان، وكان الموعد قد تحدّد بيوم الثلاثاء المقبل، ليلة الثاني/ الثالث من تشرين الثاني، طالما أن الليلة تميل لأن تكون غير ممطرة، بحسب الأرصاد الجوّيّة. واقتضى عمل ليو تعطيل الإنذار ضدّ السرقة، وتزويد الرجال بمفاتيح المتجر. سيمضي الليلة في بيته، واقترح على ستانلي القيام بالمثل، لكنْ، كان لدى ستانلي خطط أخرى لتلك الليلة، أو خطّة

واحدة فقط، أن يبقى في المتجر غير المضاء، ويبعد مهووس الحرائق قبل أن يباشر بعمله. أراد ستانلي معرفة إن كان الرجال سيحملون أسلحة، لكن ليو لم يكن متأكّداً، فقد أغفل برنشتاين التّطرّق معه إلى هذه النقطة، وليسأله، وأيّ فرق في ذلك، لمَ القلق بشأن شيء لا يعنيهما؟ أجابه ستانلي، بأن أحدهم قد يختار اللحظة الخطأ، ليسير بجوار المتجر، شرطي، أو رجل يتمشّى مع كلبه، أو امرأة في طريقها إلى البيت عائدة من حفلة ما، وهو لا يريد أن يصاب أحد. إن إحراق مكان عملهما للحصول على مبلغ التأمين البالغ ثلاثمائة ألف دولار فيه من السوء ما يكفي، لكنْ، إن تعرّض بعض المارة الأبرياء لإطلاق نار أو قتل أحدهم في هذه العملية، فلربمّا يمضيان بقية حياتيهما في السجن. لم يفكّر ليو بذلك. ربمّا عليه فتح الموضوع مع برنشتاين، كما قال، لكن ستانلي أخبره بألا يزعج نفسه، طالما أن رجال برنشتاين سيقومون بالضبط بما يرضيهما، بغضّ النظر عن ما يريده ليو. وضع ذلك حدّاً للنقاش، وحين مشى ستانلي مبتعداً عن أخيه، ودخل صالة عرض الطابق السفلي، أدرك أن سؤاله عن وجود أسلحة من عدمه هو المعطى المجهول الأكبر، العامل الذي قد يدمّر خطّته. بدا منطقياً له أن يشتري سلاحاً قبل يوم الثلاثاء، حدّث نفسه، لكن شيئاً ما في داخله أحبط تلك الفكرة، عمرٌ من الثورة ضدّ الأسلحة، إلى حدّ أنه لم يمسك سلاحاً يوماً، ولم يطلق النار منه. قُتل والده بسلاح، ولم ينفعه حمل مسدّسه الخاصّ في ذلك المستودع في شيكاغو منذ واحد وثلاثين سنة مضت، أُصيب بطلق ناري على أيّة حال، قُتل مع مسدّس، لم يطلق من قبل ذي عيار ثمانية وثلاثين في يده اليمنى، ومَنْ يدري إن كان قد قُتل، لأنه سحب مسدّسه أوّلاً، فلم يترك خياراً لقاتله سوى إطلاق النار عليه، لينجو بحياته؟ لا، السلاح أمر معقّد، وحالما تُوجِّهه نحو أحدهم، خاصّة إن كان يحمل سلاحاً، فإن الشيء الذي تعتمد عليه لحمايتكَ يغدو أقرب لأن يجعل منكَ جثّة، إلى جانب أن الرجل الذي عيّنه برنشتاين ليحرق "عالم الأخوة الثلاثة" ليس قاتلاً محترفاً، وإنما مشعل حرائق، رجل إطفاء سابقاً، كان جيّداً في عمله، حسب ما قاله ليو، مَن اعتاش سابقاً على إطفاء الحرائق يشعلها الآن لغرض المتعة والربح، فما حاجته للسلاح لفعل ذلك؟ أما المراقب، فأمر آخر، سيكون بلا شكّ بلطجياً عريض الصدر، وسيأتي إلى المتجر مدجّجاً بالسلاح، لكن ستانلي اعتقد أنه سينتظر في الخارج بينما يذهب رجل الإطفاء السابق للقيام بعمله، وبما أن ستانلي سيكون في الداخل قبل أن يظهر كلاهما، فقد خلص إلى أن السلاح لن يكون ضرورياً. لم يعنِ ذلك بأنه سيذهب إلى هناك خالي اليدين، لكن مضرب بيسبول سيفي بالغرض، مضرب من ماركة "ليوسفيلسلوجر" بقياس ستّة وثلاثين بوصة سيُرهب بالفعالية نفسها لمسدّس عيار اثنين وثلاثين، ولدى تمعّن ستانلي بحالته الذهنية في الأسبوعين السابقين للثاني من تشرين الثاني، التي هيمن عليها

الصخب الشيطاني، والجنون الجزئي الخارج عن السيطرة للأفكار المستعرة في رأسه منذ الصباح الذي شهد اعتراف ليو، فقد وجد فكرة مضرب البيسبول مضحكة بعمق وهبل، مضحكة جدّاً، لدرجة أنه ضحك مقهقهاً حين خطرت الفكرة على باله، ضحكة مقتضبة أشبه بالعواء خرجت من قاع رئتيه، وانفجرت خارجة منه مثل رشقة خردق ارتدّت عن الحائط، إذ بدأت هذه الكوميديا الرهيبة بمضرب بيسبول، المضرب الذي استخدمه داستي رودس في استاد "بولو غراوندس" في التاسع والعشرين من أيلول، وأي طريقة لإنهاء المهزلة أفضل من القبض على مضرب آخر، والتهديد بضرب رأس الرجل الذي أراد أن يحرق متجره؟

8) في ظهيرة الثاني، اتّصل ستانلي بـ روز ليُخبرها بأنه لن يأتي لتناول العشاء في البيت ذلك المساء، وسيتأخّر في العمل مع أديل، لمراجعة السجلات تمهيداً لتدقيق الحسابات المقرّر يوم الجمعة، ومن المحتمل أن يبقوا مشغولين بذلك حتّى منتصف الليل، وليس على روز تتحمّل عناء انتظاره. يغلق المتجر في الخامسة أيّام الثلاثاء، وبحلول الخامسة والنصف، كان الجميع قد رحلوا: ستانلي - أرنولد، السّيّدة روزن، إيد وفيل، تشارلي سايكس، بوب داوكينز، وليو الغائب، الذي كان خائفاً جدّاً من الحضور إلى العمل ذلك الصباح، وأمضى اليوم في البيت مدعياً الإصابة بالحمّى. لن يظهر رجال برنشتاين حتّى الواحدة أو الثانية، ومع عدد من ساعات الفراغ أمامه، قرّر ستانلي الخروج لتناول العشاء، مدلّلاً نفسه بزيارة مطعمه المفضّل في نيوارك، "مويشز"، المختصّ بمطبخ يهود شرق أوروبا، الطعام نفسه الذي كانت أمّ ستانلي تُحضّره له في الأيّام الخوالي، لحم عجل مسلوق مع الفجل الأبيض، وفطائر البطاطا، وهريس السمك، وحساء كرات خبز الفطير، والأطعمة الريفية اللذيذة التي تعود لزمن وعالم آخرين. ولم يكن على ستانلي سوى الدخول إلى غرفة الطعام في "مويشز"، ليعود إلى طفولته الغائبة، فالمطعم نفسه يرجع لزمن قديم، مكان رثّ يفتقر للأناقة بأغطية طاولات بلاستيكية رخيصة، وتجهيزات إضاءة مغبرّة، تتدلّى من السقف، لكن كل طاولة مزيّنة بقارورة مياه غازية ملوّنة بالأزرق أو الأخضر، المنظر الذي ولسبب ما لم يفشل قطّ في إثارة موجة صغيرة من السعادة بداخله، وحين سمع النُّدُلَ الجلفين المتذمّرين يتحدّثون بلكنة يديشية، شعر بالراحة أيضاً، مع أنه سيكون من الصعب عليه شرح السبب. وهكذا تناول ستانلي أطباقاً من أيّام صباه في تلك الليلة، مبتدئاً بحساء الخضار مع القليل من الكريما الحامضة، أتبعه بطبق من سمك الرنجة المخلّل، وبعدها جاء الطبق الرئيس المكوّن من شريحة لحم الخاصرة (مَطهوّة جيّداً) مع الخيار وفطائر البطاطا إلى جانبها، وصبَّ دفقات من المياه الغازية في كأس مضلّع شفّاف، وأكمل وجبته، فكّر بوالديه المتوفّيين وشقيقيه المستحيلين، اللذين سبّبا له الكثير من وجع القلب على امتداد السنوات،

وفكّر أيضاً بروز الجميلة، مَنْ أحبّها أكثر من الجميع، لكنْ، ليس بالقدر الكافي، إذا ما من قدر كاف معها، الحقيقة التي فهمها منذ زمن، والتي آلمتْه لدرجة اعترافه بأن شيئاً ما مكبّلاً ومخنوقاً في داخله، خللاً في تكوينه منعه أن يمنحها من نفسه بقدر ما تستحقّ، ومن ثمّ هناك الصبي الصغير، آرتشي، وهو لغز خالص، إنه بلا شكّ ولد حيوي، ولمّاح، وهو متفوّق على معظم الأولاد الآخرين، لكنه كان طفل أمّه منذ البداية، متعلّق جدّاً بها حتّى إن ستانلي لم يتمكّن أبداً من إيجاد طريق إليه، وبعد سبع سنوات ونصف، كان لا يزال محتاراً بعدم قدرته على قراءة ما يفكّر به الصبي، في حين بدت روز دائماً عارفة، كما لو بواسطة معرفة فطرية، قوّة لا يمكن تفسيرها تتأجّج في النساء، ونادراً ما تُمنح للرجال. لم يكن من المعتاد أن يسهب ستانلي بالتفكير في هكذا أمور، أن يوجّه أفكاره إلى نفسه، ويبحث عن إخفاقاته وأحزانه، والخيوط المهترئة لحياته الزريّة، لكن هذه لم تكن لحظة عادية بالنسبة إليه، وبعد أسبوعين طويلين من الصمت والصراع الداخلي، كان مستنزَفاً، بالكاد يستطيع الوقوف، وحتّى حين تمكّن من الوقوف، كان متهالكاً أكثر من أن يستطيع السير في خطّ مستقيم، وحالما دفع فاتورة عشائه، وقاد سيّارته عائداً إلى "عالم الأخوة الثلاثة"، تساءل إن كان لخطّته جدوى بالمطلق، إن كان يخدع نفسه بالتفكير بأنها ستنجح ببساطة، لأنه على حقّ بينما ليو والآخرون على خطأ، وإن كان الأمر كذلك، فلربّما عليه متابعة القيادة نحو البيت، وترك المخزن يحترق عن آخره. عاد إلى المتجر بعد الثامنة بدقائق. كل شيء مظلم، ما زال كل شيء في العدم الليلي للتلفزيونات الصامتة والثلاجات الغافية، مقبرة من الظلال. انتابه بعض الشّكّ بأنه سيعيش، ليندم على ما يفعله، لأن حساباته ستسوء حتماً، لكنْ، ليس لديه أفكار أخرى، والوقت قد فات الآن على التفكير بفكرة أخرى.

بدأ مهنته بعمر الثامنة عشرة، وللسنوات الاثنين والعشرين الماضية كانت تلك المهنة حياته، حياته الواحدة والوحيدة، ولم يتمكّن من أن يدع ليو وعصبته من المحتالين يمضون في تدميرها، ففي هذا المكان ما يتخطّى الأعمال، إنه حياة رجل، وحياة ذلك الرجل هي المتجر، المتجر والرجل كيان واحد، وإن أشعلوا النار في المتجر، فإنهم يشعلون النار في الرجل أيضاً. بضع دقائق بعد الثامنة؟ كم ساعة لا يزال عليه أن ينتظر؟ على الأقلّ أربع، لربّما خمس أو ستّ، وقت طويل للجلوس هنا وعدم القيام بشيء، تنتظر في غرفة حالكة الظلمة ظهور رجل حاملاً علب البنزين وسجلّ القتلة، لكنْ، ما من خيار غير الانتظار هناك في صمت آملاً أن يكون مضرب البيسبول قوياً كما يبدو. استقرّ في كرسي في المكتب الخلفي، كرسي السّيّدة روسن، كرسي المكتب في الزاوية البعيدة، التي تمتلك أفضل إطلالة عبر النافذ المستطيلة الضّيّقة في الجدار الذي يفصل المكتب عن المعرض، ومن حيث مكان جلوسه، تمكّن من رؤية المشهد كاملاً حتّى المدخل

الأمامي، أو بالأحرى لتمكّن من الرؤية لو لم يكن المتجر غارقاً بالظلام، لكن رجل البنزين لا بدّ وأن يحمل مصباحاً في جيبه، وحالما يسمع ستانلي صوت فتح الباب الأمامي، فسيشعل الضوء ولو لثانية أو اثنتين، وعندها سيعرف أين يقف الرجل. مباشرة بعد ذلك: ستضاء أضواء السقف، ويندفع من الغرفة الخلفية قابضاً على المضرب بيده المرفوعة، صارخاً بأعلى صوته، يأمر الرجل هناك. هكذا كانت الخطّة. تمنَّ لنفسكَ الحظّ، حدّث ستانلي نفسه، فإن لم يحالفكَ الحظّ، فتمنَّ لنفسكَ الموت. في غضون ذلك، واصل الجلوس على كرسي السّيّدة روزن، محدِّثاً نفسه بأن تلك كانت أسوأ لحظة في حياته، فهو لم يشعر مطلقاً بهذه التعاسة والوحدة، وأنه حتّى لو تمكّن من اجتياز هذه الليلة سالماً، فإن كل شيء آخر سيكون قد تحطم، تهشّم إلى غبار بسبب خيانة ليو، وبعد هذه الليلة لن يبقى شيء على حاله، فلأنه يخون ليو الآن، سيعود برنشتاين إلى تهديداته القديمة، التي ستضع ليو وميلي في الخطر مجدّداً، وإن أصابهم أي شيء، فسيقع ذلك على رأس ستانلي، سيترتّب العيش مع هذا الوزر، ثمّ الموت معه، ومع ذلك، كيف له ألا يقوم بما يفعله، كيف له أن يسمح بأن يقبض عليه في احتيال على التأمين والتّعرّض لخطر زجّه في السجن، لا، ليس بمقدوره تركهم يحرقون المتجر، يجب أن يردعوا، وفيما ستانلي يفكّر بهذه الأشياء، الأشياء نفسها التي فكّر بها مراراً طوال الأسبوعين الماضيين، فهم أن ليس بمقدوره تحمُّلها أكثر من ذلك، وأنه وصل الحدّ الأقصى الممكن له، وأنه كان منهَكاً، مضنى بما يتجاوز المقاييس كلها، متعب لدرجة أنه لم يعد يحتمل بقاءه في العالم، وشيئاً فشيئاً، بدأت عيناه تغمضان، وسرعان ما توقّف عن مقاومة إبقائهما مفتوحتين، وأسند رأسه على ذراعيه المطويتين فوق المكتب أمامه، ليأخذه النوم بعد ذلك بدقيقتين أو ثلاثة.

10) نام في أثناء اقتحام المتجر، وغمره باثني عشر غالون من البنزين، ولأنه لم يكن لدى الرجل الذي حضر لإتمام المهمّة أدنى فكرة عن أن ستانلي كان نائماً في الغرفة الخلفية، فقد أشعل عود الثقاب الذي أوقد النار في "عالم الأخوة الثلاثة" من دون شعور بالذنب، بأنه يوشك على ارتكاب جرم التّسبّب بإشعال حريق عمداً، وليس أن يُتّهم لاحقاً بالقتل الخطأ أيضاً. لم تتح لوالد فيرغسون فرصة. فحين فتح عينيه، لم يكن واعياً بما فيه الكفاية، وعجز عن الحراك، بسبب سحب الدخان الكثيف التي كان قد استنشقها، وبينما كافح ليرفع رأسه، ويستجدي بعض الهواء لرئتيه المحترقتين، كانت النيران تنتشر ماضية في طريقها إلى باب الغرفة الخلفية، وحالما بلغت الغرفة، اندفعت نحو المكتب، حيث جلس ستانلي، والتهمتْه حيّاً.

غابت بعض الأشياء عن فيرغسون، أشياء من تلك التي لم يتمكّن من معرفتها خلال السنتين اللتين تفصلان مقتل ابن عمّه في الحرب الكورية عن مصرع أبيه في حريق نيوارك. بحلول ربيع

العام التالي، كان عمّه ليو في السجن برفقة رجل البنزين إيدي سكالتز، وشريكه في الجريمة المراقب جورج لونيللو، والعقل المدبّر للعملية إيرا برنشتاين. لكنْ، في ذلك الحين كان فيرغسون وأمه قد غادرا ضواحي نيوجيرسي، ليعيشا في نيويورك، في شقّة من ثلاث غرف نوم غربيّ السنترال بارك بين الشارع الثالث والثمانين والشارع الرابع والثمانين. تمّ بيع استوديو التصوير الفوتوغرافي في ميلبورن، وبفضل بوليصة التأمين على حياة والده، حصلت أمّه على مئتي ألف دولار معفاة من الضرائب، وهكذا لم تعد هناك أعباء مالية، ما يعني أن ستانلي فيرغسون واصل لعب دور المخلص، والبراغماتي وصاحب المسؤولية وهو ميت، مُتمِّماً دعمه لهما.

بداية، جاءت صدمة الثالث من تشرين الثاني، وحملت معها رؤيته دموع أمّه، ونوبات الحنق، والعناقات المواسية، وحشرجاتها، والجسد المختلج الملتصق بجسده، وبعد ساعات، وصل الجَدّان من نيويورك، وظهرت في اليوم التالي الخالة ميلدرد وزوجها بول ساندلر، ومن ثمّ تدفّق ما لا يُحصى من آل فيرغسون، العمّتان الباكيتان ميلي وجوان، والعمّ أرنولد بوجهه المتحجّر، والعمّ الغدّار ليو الذي لم تكن فعاله قد ظهرت، وعمّت الفوضى وساد الصخب مع احتشاد أناس كُثُر في البيت، بينما انتحى فيرغسون الركن مُراقباً ما حوله، دون أن يعرف ما الذي عليه أن يقوله أو يفكّر به، ذاهلاً فيما حالَ بينه وبين البكاء. بدا صعباً عليه تخيّل أن والده قد مات. فقد كان حيّاً في صبيحة اليوم السابق، جلس إلى طاولة الفطور وجريدة "نيوارك ستار - ليدجر" بين يديه، وأخبر فيرغسون أن اليوم سيكون بارداً، وأنّ عليه ارتداء وشاحه عند ذهابه إلى المدرسة، ولا معنى لأن تكون تلك آخر الكلمات التي قالها والده له. مرّت الأيّام. وقف إلى جانب أمّه تحت المطر بينما كانوا ينزلون والده إلى جوف الأرض والحاخام يرتّل رثاء بعبرية غير مفهومة، كلمات لها وقع فظيع على مسمعه، لدرجة رغب فيها فيرغسون بتغطية أذنيه، وبعد يومين، عاد إلى المدرسة والسّيّدة كوستيلو وصفِّه الثاني، وبدا الجميع خائفين منه، يُحرجهم التّحدّث إليه، كما لو أن علامة وُضعت على جبهته، تُحذّرهم من الاقتراب، رغم أن السّيّدة كوستيلو أبعدتْه عن الدروس، وأتاحت له الجلوس في مكتبها لقراءة أي كتاب يريده، ما جعل الأمور أكثر سوءاً بطريقة أو بأخرى، إذ لاقى صعوبة تركيز في القراءة، التي عادة ما تمنحه الكثير من المتعة، وواصلت أفكاره تسلّلها من الكلمات في الصفحة إلى والده، ليس ذاك الذي دُفن في التراب، بل مَنْ صعد إلى الجنة، هذا إن كان هناك مكان كهذا، حتّى وإن كان متأكّداً من أنه هناك، متسائلاً ما إذا كان يراه الآن، وهو جالس في مقعده متظاهراً بأنه يقرأ؟ من اللطيف الاعتقاد بذلك، حدّث فيرغسون نفسه، متسائلاً في الوقت ذاته، وما المفيد في ذلك؟ سيُسرّ والده برؤيته، نعم، الذي ربّما من شأنه التخفيف من وطأة موته على فيرغسون، لكنْ، كيف لكونه مرئياً أن يساعده، من دون أن يتمكّن

من رؤية الشخص الذي ينظر إليه؟ رغب بسماع حديث والده أكثر من أي شيء آخر. وكان ذلك أكثر ما افتقده، رغم قلّة كلام والده، وتمرّسه بفن الإجابة باقتضاب على الأسئلة الطويلة، إلا أن فيرغسون طالما أحبّ رنّة صوته، صوته الرخيم واللطيف، وملأته فكرة أن ليس بمقدوره سماعه بعد الآن بحزن كبير، وبأسى عميق وشاسع، يتّسع للمحيط الهادئ، أكبر محيطات العالم. سيكون *يوماً بارداً، يا آرتشي. تذكّرْ أن تلبس وشاحكَ عند الذهاب إلى المدرسة.*

لم يعد العالم حقيقياً بعد الآن. كل شيء فيه أصبح نسخة مزيّفة عن ما يجب أن يكون عليه، وما كان لكل ما حدث فيه أن يحصل. عاش فيرغسون بعدئذٍ زمناً طويلاً تحت سطوة هذا الوهم، يسير مسرنماً في النهار، ويصارع لينام في الليل، مرهقاً من العالم الذي توقّف عن الإيمان به، مشكّكاً بكل شيء ظاهر للعيان. طلبت إليه السّيّدة كوستيلو الانتباه، لكنه ما عاد يتوجّب عليها سماعها الآن، فهي ليست سوى ممثّلة تحاول انتحال شخصية معلّمته، وحين بادر صديقه جيف بالسوني بمنح فيرغسون هدية استثنائية دون مبرّر، وهي عبارة عن بطاقة بيسبول تيد ويليامز(*)، البطاقة الأكثر ندرة بين المئات من بطاقات "مجموعة توبس"(**)، شكره فيرغسون على الهدية، ووضع البطاقة في جيبه، وقام بتمزيقها لاحقاً في البيت. أصبح القيام بهذا وارداً بعد أن كان من مستحيلاً قبل الثالث من تشرين الثاني، فالعالم الوهمي أكثر رحابة من الواقعي، وهناك متّسع شاسع يكفي لأن تكون على سجيتكَ أو نقيضها في الوقت نفسه.

ووفقاً لما قالته له أمّه فيما بعد، فإنها لم تخطّط لمغادرة نيو جيرسي بهذه السرعة، لولا سريان الفضيحة، وما عاد من خيار أمامها سوى الرحيل. أعلنت شرطة نيوارك، قبل عيد الميلاد بأحد عشر يوماً، عن حل قضية عالم الأخوة الثلاثة للتجهيزات المنزلية. وفي الصباح التالي، احتلّت التفاصيل الشنيعة أخبار الصفحات الأولى في الصحف جميعها في مقاطعتي إيسكس ويونيون. قاتل أخيه. القبض على كبير المقامرين. مفتعل حرائق خلف القضبان، من دون كفالة. ليوس فيرغسون أُدين بجرائم متعدّدة. لم ترسله أمّه إلى المدرسة ذلك اليوم، ولا في اليوم الذي تلاه، ولا الذي بعده، وهكذا في كل يوم، إلى أن أغلقت المدرسة أبوابها لعطلة الميلاد. قالت له، هذا لصالحكَ، يا آرتشي، ولأنه لم يكن مبالياً بذهابه إلى المدرسة، لم يكلّف نفسه عناء سؤالها عن السبب.

بعدئذٍ، حين بلغ عمراً يتيح له استيعاب كامل الرعب في عبارة "قاتل أخيه"، أدرك بأنها كانت تحاول حمايته من بذاءات الأحاديث المتداولة في أرجاء المدينة، وقد أمسى اسمه

---

*) من مشاهير لاعبي البيسبول.

**) شركة متخصّصة ببطاقات البيسبول ولاعبيه.

ملطّخاً، فأن تحمل كنية فيرغسون يعني الانتماء إلى عائلة ملعونة. لازم فيرغسون البيت مع جَدّته قبيل بلوغه الثامنة من عمره، في حين انشغلت أمّه بطرح بيت العائلة للبيع والبحث عن مصوّر يشتري الاستوديو منها، ولأن الصحف لم تتوقّف عن الاتّصال بها وسؤالها والتّوسّل إليها، ومضايقتها لكشف الجانب المتعلّق بها من القصّة، وبعد اليوم الذي سُمّيت فيه مأساة آل فيرغسون بالدراما اليعقوبية، اكتفت أمّه تماماً بما حلّ بها، وبعد الميلاد بيومين، حزمت بعض الحقائب، وحمّلتها إلى صندوق سيّارتها الشيفروليه الزرقاء، واتّجها إلى نيويورك.

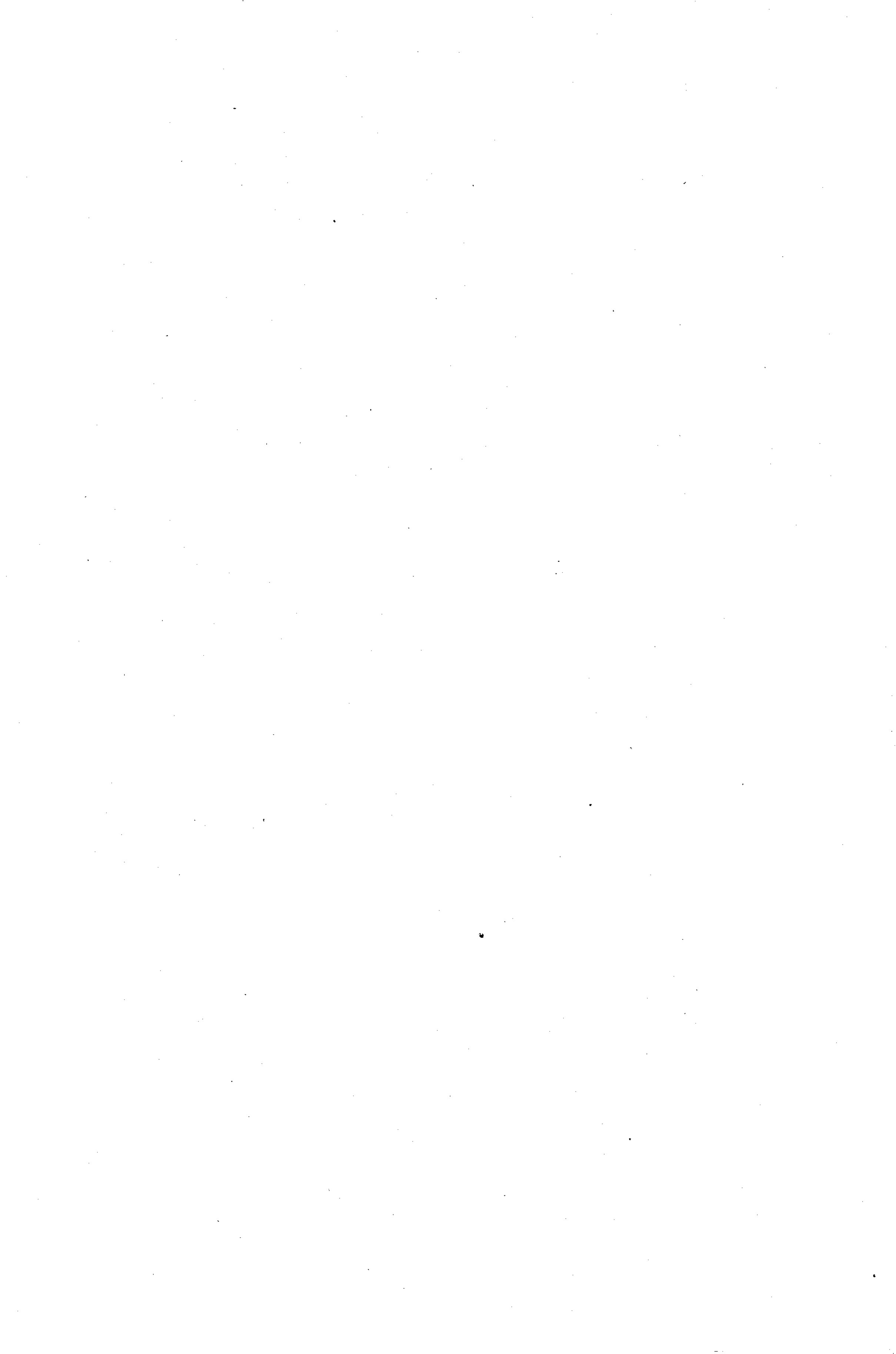
سكن مع أمّه الشهرين التاليين في شقّة جَدَّيه غربيَّ الشارع الثامن والخمسين، عادت أمّه إلى غرفة نومها القديمة التي تشاركتها يوماً مع أختها، ميلدرد، في حين خيّم فيرغسون خارجاً في غرفة المعيشة على سرير صغير قابل للطّيّ. كان الجزء الأكثر إمتاعاً في هذا الترتيب هو عدم ذهابه إلى المدرسة، حرّيّة غير متوقّعة نتجت عن عدم توفّر عنوان ثابت لهما، واستمرّ به الحال إنساناً حرّاً لحين عثورهما على بيتهما. عارضت خالته ميلدرد عدم ذهابه إلى المدرسة، لكن والدة فيرغسون أبعدتْها بهدوء. لا تقلقي، قالت لها، آرتشي طفل لمّاح، ولن يضرّه الانقطاع لبعض الوقت. حالما نعرف أين سنقيم، سنبدأ بالبحث عن مدرسة. ما يشكّل أولوية يبقى الأولوية، يا ميلدرد.

كانت أوقاتاً عصيبة، لا عهد له بمثلها في الماضي، منفصلة تماماً عن الطريقة التي ستسير عليها أمور حياته بعد أن انتقلا إلى شقّتهما، فترة انتقالية غريبة، كما وصفها جَدّه، برهة قصيرة من الزمن الأجوف، أمضى خلالها وقته كله، بصحبة والدته، يجوبان كرفيقين في أرجاء الجانب الغربي باحثين عن شقق معاً، يعاينان إيجابيات وسلبيات كل مكان، ليتّخذا قراراً مشتركاً بأن الشّقّة في "غربيّ السنترال بارك" ستكون مثالية لهما، وعندها فوجئ بإعلان والدته بأن المنزل في ميلبورن تمّ بيعه مع الأثاث، كامل الأثاث، وأنهما سيبدآن مجدّداً من الصفر، وهكذا وبعد أن وجدا الشّقّة أمضيا أيّاماً في شراء المفروشات، باحثين عن الأسّرة والطاولات والمصابيح والسّجّاد، لا يشتريان شيئاً ما لم يوافق كل منهما عليه.

وفي ظهيرة أحد الأيّام، وبينما كانا يتفحّصان الكراسي والأرائك في مايسيز، نظر الموظّف ذو ربطة عنق الفراشة إلى فيرغسون، وسأل والدته، لمَ هذا الصبي الصغير ليس في المدرسة؟ لتردّ والدته محدّقة بقوّة في وجه الرجل الفضولي: *هذا ليس من شأنك*.

كانت تلك أفضل لحظة في هذين الشهرين العصيبين، أو إحدى أفضل اللحظات، لحظة لا تنسى لما اعتراه من شعور مباغت بالسعادة حين تلفّظت أمّه بتلك الكلمات، أسعد من أي وقت مضى خلال أسابيع، ترافق مع الإحساس بالتضامن الذي انطوت عليه هذه الكلمات،

وجاءت عبارة *هذا ليس من شأنكَ* كإعلان مبادئ مشترك لجهديهما، إعلان عن مدى اعتماد كل منهما على الآخر الآن. كانا يقصدان السينما، بعد أن يفرغا من تسوُّق المفروشات، هاربين من شوارع الشتاء الباردة لبضع ساعات في العتمة، يشاهدان ما يصادف عرضه، متّخذين مقاعدهما دائماً في الشرفة، ما يتيح لوالدته التدخين هناك، سيجارة شيسترفيلد تلو الأخرى بينما يتابعان أفلام آلان لاد ومارلين مونرو وكيرك دوغلاس وغاري كوبر وغريس كيلي ووليام هولدن، أفلام ويسترن، وموسيقية، وأفلام خيال علمي، ومهما كان المعروض، فإنهما يمضيان آملين بالأفضل من فيلم *قرع الطبول*، و*فيرا كروز*، و*لا عمل يشبه الاستعراض*، و*عشرون ألف فرسخ تحت الماء*، و*يوم سيّئ في بلاك روك*، و*الجسور في توكو - ري* و*شباب القلب*، وتصادف قبيل حلول نهاية الشهرين العصيبين، بأن سألت المرأة في شبّاك التذاكر الزجاجي التي باعتهما التذكرتين أمّه لمَ هذا الصبي الصغير ليس في المدرسة؟ لتجيب أمّه: *لا تتدخّلي، سيّدتي، بما لا يعنيكِ. فقط أعطِني الفكّة.*



1.4

بدايةً، كانت هناك الشّقّة في نيوارك، التي لا يتذكّر عنها شيئاً، وبعدها كان هناك البيت في ميبلوود الذي اشتراه والداه عندما كان في الثالثة من عمره، وها هم بعد ستّ سنوات، ينتقلون مجدّداً إلى بيت أكبر بكثير على أطراف البلدة. عجز فيرغسون عن فهم ذلك. فالبيت الذي يعيشون فيه كان بيتاً جيّداً بامتياز، أكثر من كافٍ لعائلة مكوّنة من ثلاثة أشخاص فقط، فلِمَ على والديه تكبُّد مشقّة حَزْم أغراضهم جميعهم للانتقال هذه المسافة القصيرة - خاصّة وإن ذلك لم يكن ضرورياً؟ لربّما كان لذلك معنى لو أنهم سيذهبون إلى مدينة أو ولاية أخرى، مثلما فعل العمّ ليو والعمّة ميلي قبل أربع سنوات حين انتقلا إلى لوس أنجلس، أو العمّ أرنولد والعمّة جوان عندما انتقلا إلى كاليفورنيا بعدهما بعام، لكنْ، لمَ يزعجون أنفسهم بتغيير البيت بينما هم لا ينتقلون حتّى إلى بلدة أخرى؟ لأن ذلك متناسب مع وضعنا المالي، هكذا أجابتْه أمّه. كانت أعمال والده تسير بشكل جيّد، وهم في موقع يتيح لهم العيش بمستوى أعلى الآن. قادتْه عبارة "مستوى أعلى" إلى التفكير بقصر أوروبي من القرن الثامن عشر، قاعة رخامية تعجّ بأكثر من دوق ودوقة ذوي شعور مستعارة بيضاء، ورهط من السيدات والسادة النبلاء بأزياء حريرية فخمة يتوزّعون في المكان، وبأيديهم مناديل من الدانتيل، يضحكون على نكات أحدهم. عندها، وبما أنه استطرد في المشهد أكثر، حاول تخيُّل والديه في ذلك الحشد، ولكن الأزياء جعلتهما يبدوان بمظهر سخيف ومضحك ومتنافر. قال: كونه يتناسب مع وضعنا المالي فقط لا يعني أن علينا شراءه. أنا أحبّ بيتنا، وأظنّ أن علينا البقاء فيه. إن كنّا نمتلك من المال أكثر ممّا نحتاج، فلربّما علينا منحه لمَنْ يحتاجه أكثر منّا. لشخص يتضوّر جوعاً، أو لرجل عجوز مُقعَد، أو لمَنْ يفتقر للمال كلّيّاً. إن إنفاقه على أنفسنا ليس بالأمر الصحيح. إنها أنانية. لا تُعقِّد الأمور، يا آرتشي، أجابتْه أمّه. فوالدكَ يعمل بجدّ أكثر من عمل رجلين معاً في هذه البلدة. إنه يستحقّ كل بنس يجنيه، وإن كان يرغب بالتباهي قليلاً بمنزل جديد، فذلك شأنه.

لا أحبّ التباهي، قال فيرغسون. ذلك ليس بالسلوك الجيّد.

حسناً، أحببتَ، يا رجلي الصغير، ذلك أم لا، فإننا سننتقل، وأنا متأكّدة من أنكَ ستفرح بذلك حالما نستقرّ هناك. غرفة أكبر، وحديقة أرحب، وقبو مجهّز، سنضع فيه طاولة بينغ بونغ، وسنرى عندها إن كنتَ ستتحسّن بالقدر الذي يتيح لكَ الفوز عليّ.

لكننا نلعب البينغ بونغ في حديقتنا الحالية.

فقط حينما لا يكون الطقس بارداً جدّاً في الخارج. في البيت الجديد لن تُزعجنا الريح، يا آرتشي.

عرف أن جزءاً من دخل العائلة يأتي من عمل أمّه مصوّرة بورتريهات، لكن معظمه، وبالأحرى كله، كان يأتي من أعمال والده، سلسلة من ثلاثة متاجر باسم فيرغسون، أحدها في يونيون، والآخر في ويستفيلد، والثالث في ليفينغستون.

كان هناك منذ زمن بعيد مضى، متجر "عالم الأخوة الثلاثة للتجهيزات المنزلية" في نيوارك، لكنه اختفى الآن، تمّ بيعه حين كان فيرغسون في الثالثة والنصف أو الرابعة من عمره، ولو لم تكن تلك الصورة بالأبيض والأسود المؤطّرة والمعلّقة على حائط الغرفة، وهي تُظهِر والده عام 1941 يقف مبتسماً بين عمَّيه المبتسمين أيضاً أمام المتجر يوم افتتاحه، لكانت الذكريات المرتبطة بذلك المتجر جميعها قد شُطبت من ذهنه للأبد.

لم يكن واضحاً بالنسبة إليه لماذا لم يعد والده يعمل مع أخويه، وعلاوة على ذلك، كان هناك لغز أكبر متعلّق بأسباب مغادرة عمَّيه نيوجرسي لبدء حياة جديدة في كاليفورنيا (كما قال والده) منذ ستّة أو سبعة شهور مضت، حين كان يتحسّر مشتاقاً لابنة عمّه فرانسي، سأل أمّه أن تشرح أسباب انتقالهم بعيداً جدّاً، لكنها قالت ببساطة، اشترى والدكَ حصّتهما، والذي لم يكن جواباً شافياً، على الأقلّ، ليس الجواب الذي بإمكانه فهمه. الآن، ومع هذا التّطوّر المزعج بخصوص البيت الجديد الأكبر حجماً، بدأ فيرغسون يدرك شيئاً غاب عن انتباهه سابقاً. ألا وهو أن والده غنيّ. إنه يمتلك من المال أكثر ممّا يعرف، وأكثر من أن يكون مدرِكاً لما يفعل به، وممّا هو بادٍ ظاهرياً، ما يعني فقط أنه يغدو أغنى وأغنى بمرور الأيّام.

خلص فيرغسون إلى أن ذلك سيّئ وجيّد. جيّد لأن المال شرٌّ لا بدّ منه، كما أخبرته جَدّته مرّة، ولأن الجميع يحتاج المال للعيش، ومن الأفضل بالتأكيد امتلاك الكثير منه بدلاً عن القليل.

من ناحية أخرى، ولكسب المال الكثير، فإن على المرء تخصيص قدر كبير من الوقت في السعي وراءه، وقت أكثر بكثير من الضروري أو المعقول، وهذا ما كان عليه والده، الذي كان يكدّ ويجهد في إدارة إمبراطوريته من متاجر التجهيزات المنزلية، بما جعل الساعات التي يمضيها في المنزل تنخفض باطّراد لسنوات، لدرجة أن فيرغسون نادراً ما كان يراه، فمنذ أن اِرْتَهَنَ والده لعادة مغادرة المنزل في السادسة والنصف من الصباح الباكر، أي مغادرته حتماً قبل استيقاظ فيرغسون، والإبقاء على كل متجر مفتوحاً لوقت متأخّر مرّتين في الأسبوع، الاثنين والخميس في

يونيون، الثلاثاء والجمعة في ويستفيلد، الأربعاء والسبت في ليفينغستون، فإن والده، وفي ليالٍ عديدة، فاته العشاء في البيت، عائداً في العاشرة أو العاشرة والنصف، أي بعد مضي ساعة على ذهاب فيرغسون إلى النوم.

كان الأحد هو اليوم الوحيد الذي يضمن فيه رؤية والده، إلا أن أيّام الأحد كانت معقّدة بدورها، مع تخصيص عدد من ساعات الصباح المتأخّرة والظهيرة المبكّرة للعب التنس، ما يعني مرافقة والديه إلى ملاعب البلدة والانتظار حتّى انتهائهما من لعب جولة معاً قبل أن يحظى بفرصة لضرب الكرة مع أمّه بينما يلعب والده مباراة أسبوعية مع سام براونشتاين، صديق الصبا في التنس. لم يمقت فيرغسون التنس، لكنه وجدها مملّة مقارنة بالبيسبول وكرة القدم، لعبتاه المفضّلتان، وحتّى "البينغ بونغ" تفوّقت لديه على التنس، إن تعلّق الأمر بالرياضات التي تحتوي الشِّباك والكرات المرتدّة، ولهذا اعترتْه على الدوام مشاعر متداخلة حين كان يتوجّه إلى الملاعب الخارجية في الربيع والصيف والخريف، وفي ليلة كل سبت، كان يأوي إلى فراشه متمنّياً هطول المطر في الصباح.

وحين كان الطقس يميل إلى الصحو، كانت تلي ساعاتِ التنس قيادةُ السّيّارة نحو "ساوث أورانج فيلج" وتناول الغداء في "غرانينغز"، هناك يلتهم فيرغسون هامبرغر متوسّطة الشّواء، وطبقاً من آيس كريم النعناع، الوجبات التي يتوق لتناولها أيّام الأحد، ليس فقط لأنه لدى "غرانينغز" أفضل هامبرغر على امتداد أميال في محيطهم، ولأنهم ينتجون الآيس كريم الخاصّ بهم، وإنما لأن المكان هناك كان يعبق بمزيج روائح زكية من القهوة الدافئة، وشواء اللحم، وعبق السُّكّر في الحلويات المتنوّعة، روائح طيبة تُشرّبها فيرغسون بنوع من النشوة عند تنشُّقها برئتيه. وحال عودتهم بعدئذٍ، بسيّارة والده الأولدزموبيل سيدان بلونيها (الرمادي والأبيض) إلى بيتهم في ميبلوود، كانوا يغتسلون ويُغيّرون ملابسهم. وفي يوم أحد نموذجي، فإن شيئاً من بين أربعة، كان يحدث بعد ذلك.

سيمكثون في المنزل، ويحومون داخله، كما تُسمّي أمّه ذلك، ما يعني عموماً أن يتبع فيرغسون والده من غرفة لأخرى، وهو يصلح الأشياء التي تحتاج إلى إصلاح، شطّافات المراحيض المكسورة، وصلات الكهرباء المتعطّلة، الأبواب التي تُصدر صريراً، بينما تجلس والدته على الأريكة، لتقرأ مجلّة "لايف" أو تذهب إلى القبو، حيث غرفة التحميض المظلمة، لتعمل على تظهير الصور.

الخيار الثاني أن يذهبوا إلى السينما، وهو ما يستمتع به وأمّه أكثر من سائر تسالي الأحد الأخرى، لكن والده غالباً ما عزف عن الانغماس في حماستهم السينمائية، إذ لم تكن الأفلام تثير اهتماماً يُذكَر بالنسبة إليه، كما هي الأشكال الأخرى جميعها، ممّا أسماه بالترفيه جلوساً (كالمسرحيات والحفلات الموسيقية والاستعراضات المنوّعة)، فالبقاء محتجزاً في مقعد لعدد

من الساعات، وتلقّي مجموعة من الادّعاءات السخيفة شكّل عنده أحد أسوأ عذابات الحياة، لكن أمّه اعتادت الفوز في هذا الجدال عبر تهديده بالذهاب من دونه، وهكذا سيعود أفراد عائلة فيرغسون الثلاثة إلى سيّارتهم، ليذهبوا لمشاهدة آخر أعمال الوسترن لجيمي ستيوارت أو الأعمال الكوميدية لمارتن وليوس (جيري ليوس ابن نيوارك!)، وفي كل مرّة، كان فيرغسون يندهش بالسرعة التي يغفو فيها والده في ظلمة القاعة، والسلوان الذي يغمره حتّى بمجرّد المرور الافتتاحي لأسماء طاقم العمل على الشاشة، فتميل رأسه إلى الوراء، وتتباعد شفتاه قليلاً، ويغرق في سبات عميق، لا يوقظه منه رشقات رصاص البنادق، ولا ارتفاع صوت الموسيقى ولا تحطُّم مئات الصحون على الأرض.

وبما أن فيرغسون كان يجلس دائماً بين والديه، فإنه سيُربِّت على ذراع والدته، كلّما همد والده على هذا النحو، وبمجرّد أن يحظى بانتباهها، يشير إلى والده هازّاً إبهامه، كما لو أنه يقول، انظري، إنه يعيد ذلك مرّة أخرى، فإنها، ووفقاً لمزاجها، إمّا أن تومئ برأسها وتبتسم أو تهزّ رأسها وتعبس، وأحياناً تُطلق ضحكة موجزة مكتومة، وأحياناً تزفر مع صوت مممممم. وبحلول الوقت الذي أصبح فيه فيرغسون في الثامنة من عمره، باتت غفوات والده في القاعة المعتمة اعتيادية جدّاً، لدرجة أن أمّه بدأت تشير إلى مشاويرهم إلى السينما يوم الأحد كعلاج يتيح الاستراحة لمدّة ساعتين. ولم تعد تسأل زوجها عن رغبته بالذهاب إلى السينما. وبدلاً عن ذلك، كانت تقول له: ماذا عن الحبوب المنوّمة، ستانلي، ستُتيح لكَ التّنعّم بقسط من النوم؟ ولطالما ضحك فيرغسون لدى تلفّظها بهذه الجملة. وأحياناً شاركه والده الضحك، لكنه، في معظم الأحيان، لم يفعل. وحينما لم يحوموا في البيت أو يذهبوا إلى السينما، فإنهم كانوا يمضون عصر أيّام الأحد في زيارة الآخرين أو استقبالهم. وبما أن بقية عائلة فيرغسون كانت في الجانب الآخر من البلاد الآن، فلم يعد هناك من لقاءات عائلية في نيوجيرسي، بل عدد من زيارات الأصدقاء الذين يعيشون في الجوار، أصدقاء والدي فيرغسون، وبخاصّة صديقة طفولة والدته من بروكلن، نانسي سولومون التي تسكن في "وست أورانج"، وترسم اللوحات الزيتية لاستوديو روزلاند فوتو، وصديق طفولة والده من نيوارك، سام براونشتاين، الذي يلعب التنس مع والده صباح كل أحد، والذي يسكن وزوجته بيغي في ميلوود مع أولادهما الثلاثة، بنت وصبيّان، جميعهم أكبر سنّاً من فيرغسون بأربع سنوات على الأقلّ، وأحياناً تأتي عائلة براونشتاين لزيارتهم بشكل متكرّر، حتّى أمسى البيت بيتهم، وإن لم تكن عائلة براونشتاين، فستكون عائلة سولومون، نانسي وزوجها ماكس، لديهما صبيان، ستيوي ورالف، وكلاهما أصغر سنّاً من فيرغسون بثلاث سنوات على الأقلّ، ما جعل من زيارات نيوجرسي المتبادلة هذه مع عائلة سولومون وبروانشتاين نوعاً من المحنة، بالنسبة

فيرغسون، كونه أكبر من أن يستمتع باللعب مع أبناء العائلة الأولى، وصغيراً جدّاً على الاستمتاع باللعب مع الثانية الذين كانوا، في حقيقة الأمر، أكبر من أن يُعدّوا أطفالاً، وهكذا غالباً ما وجد فيرغسون نفسه محاصراً وسط هذه التّجمّعات، غير مدرك تماماً إلى أين يذهب أو ماذا يفعل، ولأن صبره سرعان ما ينفد من سلوك ستيوي ورالف البالغين من العمر ثلاث وست سنوات، كما يستعصي عليه فهم الحديث الدائر بين ابنَي براونشتاين البالغين من العمر خمسة عشر وسبعة عشر عاماً، لم يبقَ أمامه من خيار آخر، يلجأ إليه عند زيارات براونشتاين غير تمضية الوقت مع آنا براونشتاين البالغة من العمر ثلاثة عشر عاماً، التي علّمتْه كيفية لعب "رومي الجن" ولعبة طاولة تُسمّى "وظائف"، لكن ثدييها كانا قد برزا حينها، وعندها أسياخ مثبّتة على أسنانها، ما جعله يجد صعوبة في النظر إليها، وبقايا الطعام عالقة على الدوام في الشبكة الفضية لمقوّم أسنانها، جزيئات صغيرة من الطماطم غير الممضوغة، وقشور الخبز المبتلة، ونتف متفكّكة من اللحم المفروم، وتظهر جميعاً كلّما ابتسمت، وغالباً ما كان يعتري فيرغسون شعور مفاجئ خارج عن سيطرته بالغثيان، ما يدفعه للإشاحة بوجهه. وبما أنهم الآن في طور الانتقال، فقد أفضى ذلك إلى معلومات مهمّة جديدة عن والده (تتعلّق بمشكلة احتكامه على مال وفير، وتخصيصه الكثير من الوقت لكسبه، وبالتالي تجلّي صورة والده بالنسبة إليه كشخص غائب عنه لستّة أيّام في الأسبوع، فانطوى فهم فيرغسون له الآن على شيء من الاستياء، أو على الأقلّ، عدم الارتياح، أو أنه أحبطه، أو جعله غاضباً، أو (كلمة أخرى لم يفكّر بها بعد)، ومع تقليبه مسألةَ والده في ذهنه، وجد فيرغسون أنه من المفيد إعادة النظر في تلك الزيارات المضجرة لعائلتي براونشتاين وسولومون على أنها طريقة لمعاينة الرجولة عملياً، من خلال مقارنة سلوك أبيه بسلوك سام براونشتاين وماكس سولومون. فإن دلّت أحجام البيوت التي يسكنونها على مقدار المال الذي يجنونه، فإن والده أغنى من كليهما، حتّى بالنظر إلى بيتهم الحالي، بيت فيرغسون، البيت الذي يُفترَض أنه صغير جدّاً، ويجب استبداله آخر أفضل، أكبر حجماً وأكثر جاذبية من بيتَي براونشتاين وسولومون. لدى والده سيّارة أولدزموبيل موديل ١٩٥٥، ويتحدّث عن استبدالها كاديلاك جديدة في أيلول، بينما يقود سام براونشتاين رامبلر ١٩٥٢، وماكس سولومون شيفروليه ١٩٥٠. عمل سولومون موظّفاً في تسوية المطالب في شركة تأمين (لا يهمّ ما يعنيه ذلك، بما أنه ليس لدى فيرغسون أدنى فكرة عن ما يفعله موظّف تسوية المطالب)، وامتلك براونشتاين متجراً للمَعدّات والألبسة الرياضية في وسط مدينة نيوارك، ليس ثلاثة متاجر كوالد فيرغسون، وإنما متجر واحد، ومع ذلك لم يحقّق أرباحاً تكفيه في إعالة زوجته وأطفاله الثلاثة، في حين تعيل متاجر والده الثلاثة طفلاً واحداً وزوجة فقط، التي تعمل بدورها، في حين أن بيغي براونشتاين لا تفعل. يذهب

براونشتاين وسولومون مثل والد فيرغسون، كل يوم من أجل كسب المال، ولكنْ، ما من أحد منهما يغادر المنزل في السادسة والنصف صباحاً أو يعمل حتّى وقت متأخّر من الليل، ويكون أطفاله في السرير وقت عودته إلى بيته. ماكس سولومون الخامل المتبلّد، الذي أُصيب بجروح حين كان جندياً في المحيط الهادئ، أكسبتْه عرجاً خفيفاً، وسام براونشتاين الضخم الصاخب، المتندّر صاحب النكات، والمؤنس الذي يُربّت على الظهر، كل منهما يختلف كثيراً عن الآخر من الخارج، ورغم ذلك، في جوهرهما، يختلفان عن والد فيرغسون بطريقة متماثلة، إلى حدّ كبير، فكلا الرجلين يعمل من أجل العيش، في حين بدا أن والده يعيش من أجل العمل، ما يعني أن صديقَي والديه يتمايزان من خلال حماسهما أكثر من أعبائهما أو مسؤولياتهما، سولومون بشغفه بالموسيقا الكلاسيكية (مجموعة تسجيلات هائلة، ونظام هاي - فاي مصنوع يدوياً)، وبراونشتاين من خلال حبّه للرياضات بأنواعها، من كرة السّلّة إلى ركوب الخيل، من الحلبات والملاعب إلى الملاكمة، في حين أن الشيء الوحيد الذي اهتم به والد فيرغسون خارج العمل كان التنس، والذي يعدّه فيرغسون صنفاً هزيلاً ومحدّداً من الهوايات، يداهمه النعس في كل مرّة شغّل فيها براونشتاين التلفزيون على لعبة بيسبول أو كرة قدم خلال زيارات أيّام الأحد، التي يجتمع فيها الصبيان والرجال من كلا العائلتين في غرفة المعيشة لمشاهدتها، وفي تسع مرّات من إحدى عشرة مرّة، تماماً كما في السينما، يناضل والده لإبقاء عينيه مفتوحتين، يصارع لخمس أو عشر أو خمس عشرة دقيقة، وبعدها يخسر المعركة، ويغطّ بالنوم.

في أيّام الأحد الأخرى، كان هناك تبادل الزيارات العائلية مع عائلة إدلر، في نيويورك وميبلوود على حدّ سواء، والتي وفّرت لفيرغسون مواضيع إضافية، ليدرسها في مختبره عن السلوك الذكوري، ولا سيّما جَدّه وزوج الخالة ميلدرد، دونالد ماركس، رغم أن جَدّه لربّما لا يُؤخَذ بالحسبان، لأنه ينتمي إلى جيل أكبر، ولأنه مختلف جدّاً عن والد فيرغسون، ما جعل من الغريب حتّى إيراد اسميهما في الجملة نفسها. في الثالثة والسّتّين من عمره، ما زال قوياً، ويزاول أعماله في التنمية العقاري، ويكسب المال، ولكنْ، ليس بقدر والده، بحسب ظنّ فيرغسون، ذلك أن الشقّة في غربي الشارع الثامن والخمسين ضيقة نوعاً ما، مع مطبخ صغير وغرفة معيشة فقط بنصف حجم تلك التي في ميبلوود، كما أن سيّارة جَدّه، البلايموث الأرجوانية الغريبة ذات أزرار ضبط مبدّل السرعة، وهي كسيّارة السيرك بالمقارنة مع سيّارة أبيه الأولدزموبيل سيدان الأنيقة. نعم، كان هناك شيء ما من ملامح المهرّج في بنجي إدلر، كما افترض فيرغسون، مع حيله بالبطاقات ومصافحاته الطّنّانة وضحكته العالية التي تصدر صفيراً، لكن حفيده أحبّه كما هو، أحبّه لطريقته في حبّ البقاء على قيد الحياة، ومتى كان مزاجه عالياً يمضي في قصّ الحكايات، ويروي على مسامعه قصصاً بسرعة كبيرة، وبطريقة لاذعة حتّى إن العالم يبدو كما لو أنه يتحوّل إلى دفق نقي من اللغة، قصص مضحكة في الغالب، قصص من الماضي عن عائلة إدلر ومختلف الأقارب القريبين والبعيدين، ابنة عمّ أمّ

جَدّه، على سبيل المثال، امرأة ذات اسم شهي، هي فاجيلا فليجلمان، مَنْ كانت ألمعية جدّاً كما بدا، بحيث أتقنت تسع لغات أجنبية قبل أن تُكمل العشرين من عمرها، وعندما غادرت عائلتها بولندا، ووصلت إلى نيويورك في عام 1891، أُعجب المسؤولون في جزيرة إليس بمهاراتها اللغوية، فوظّفوها على الفور، لتعمل فاجيلا فليجلمان طوال السنوات الثلاثين التي تلت، مترجمة فورية في قسم الهجرة، ولتقابل الآلاف تلو الآلاف من الأمريكيين المستقبليين النازلين للتوّ من القوارب، إلى أن تمّ إغلاق هذا القسم عام ١٩٢٤. وقفة طويلة، تتلوها إحدى تكشيرات جَدّه الغامضة، ومن ثمّ قصّة أخرى عن أزواج فاجيلا فليجمان الأربعة، وكيف عاشت أكثر منهم جميعاً، لينتهي بها الأمر أرملة ثرية في باريس بشقّة في الشانزيليزيه. هل من الممكن أن تكون هذه القصص حقيقية؟ وهل يهمّ أن تكون حقيقية؟

لا، لا يُؤخَذ كلام جَدّه بالاعتبار، لأنه كان خارج المخطّطات البيانية، مستبعَد بسبب اللغو، كما قد يصف الرجل العجوز الأمر في إحدى ألعابه الكلامية العجيبة، لكن العمّ 'دُونْ' يصغر أباه ببضع سنوات فقط، وبالتالي فهو المرشّح المناسب للدراسة، ولربّما أفضل من سام براونشتاين وماكس سولومون، لأن هذين الرجلين مثل أبيهما يعيشان في ضواحي نيوجرسي، وكانا من الطبقة الوسطى المكافحة، غير أن 'دون' ماركس كان مخلوقاً مدينياً، وُلد وترعرع في نيويورك، وتلقّى تعليمه في جامعة كولومبيا، ويا للعجب! لم يكن لديه عمل، على الأقلّ، ليس عملاً عند أحد براتب منتظم، فقد أمضى أيّامه في المنزل مع آلة كاتبة، أنتجت كُتُباً ومقالات للمجلات، رجل مكتفٍ بنفسه، أوّل رجل من هذا القبيل عرفه فيرغسون. كان قد انتقل مع الخالة ميلدرد قبل ثلاث سنوات، وترك زوجته وابنه في شقّته القديمة في "شمال غرب المدينة"، ما شكّل بدوره أمراً آخر، يتعرّف عليه فيرغسون للمرّة الأولى، رجل مطلّق، دخل في زواج ثان منذ عام مضى، بعد أن عاش في الخطيئة مع خالة فيرغسون لسنتين من المساكنة (شيء كان والده وجَدَّيه وعمّته/ خالته الكبرى بيرل يستهجنونه، ولكنه يضحك أمّه)، وقد مُلئتْ الشّقّة الصغيرة التي عاش فيها دون ماركس مع خالته ميلدرد في شارع بيري في غرينتش فيلج بكُتُب أكثر ممّا رأى فيرغسون في حياته في أي مكان غير متاجر الكُتُب أو المكتبات، كُتُب في كل مكان، على الرفوف المعلّقة على جدران الغرف الثلاث، على الطاولات والكراسي، على الأرض، أعلى الخزائن، ولم يكن فيرغسون مسحوراً بهذه الفوضى الخيالية فحسب، بل إن مجرّد واقع وجود شقّة كهذه أثبت أن هناك طُرُقاً أخرى للعيش في هذا العالم غير تلك التي عرفها، وأن طريقة عيش والديه ليست الطريقة الوحيدة. كانت الخالة ميلدرد أستاذا مساعداً في اللغة الإنكليزية في كلّيّة بروكلن، وكان العمّ 'دون' كاتباً، ولا بدّ أنهما قد جنيا المال من تلك الوظائف، ما يكفي من المال للعيش على أيّة حال، كان واضحاً لفيرغسون أنهما عاشا من أجل أشياء أخرى، إلى جانب كسب المال.

لسوء الحظّ، لم ينلْ فرصة الذهاب إلى تلك الشّقّة في كثير من الأحيان، ثلاث مرّات فقط حتّى الآن خلال تلك السنوات الثلاث، مرّة لتناول العشاء مع والديه ومرّتين مع والدته وحدها في زيارات بعد الظهر. حمل فيرغسون مشاعر دافئة لخالته وعمّه الجديد، ولكنْ، لسبب ما، لم تكن والدته وشقيقتها مقرّبتين، والحقيقة المحزنة والأكثر وضوحاً هي أنه لم يكن لدى والده و'دون ماركس' ما يقولانه لبعضهما البعض. وطالما أحسّ أن والده وخالته منسجمان جيّداً، والآن وبما أن خالته لم تعد عزباء، فإنه مقتنع بأن الشيء نفسه ينطبق على والدته وصهرها. كانت المشكلة في العلاقة التي ربطت المرأة بالمرأة والرجل بالرجل، فبالنسبة إلى أمّه، كونها صغرى الأختين، فإنها تطلّعت إلى ميلدرد كَمَثَل أعلى، وميلدرد، كونها كبرى الأختين، دائماً ما نظرت نظرة دونية إلى أمّه، أمّا عن الرجلين، فقد كان هناك الفتور المطلق الذي يُكنّه أحدهما تجاه عمل الآخر ونظرته للحياة، الدولارات من ناحية، الكلمات من الناحية الأخرى، لربّما بشكل مضاعف أكثر من قبل عمّه 'دون'، لكونه خاض الحرب في أوروبا بينما بقي والده في البيت، ربّما هذا افتراض، لا أساس له، حيث إن ماكس سولومون كان جندياً أيضاً، لكنه ووالده تمكّنا دائماً من التّحدّث، على الأقلّ، إلى الحدّ الذي تمكّن فيه أبوه من التّحدّث لأي كان.

ومع ذلك، كانت هناك زيارات متبادلة لشقّة جَدّيه في عيد الشُّكْر والفصح، وبعض من اجتماعات أيّام الأحد المتفرّقة، وأيضاً أيّام الأحد الأخرى حين تستقلّ الخالة ميلدرد والعمّ 'دون' المقعد الخلفي للبلايموث الأرجوانية، ليرافقا جَدّيه في رحلات نهارية إلى نيوجرسي. ولذلك كان لدى فيرغسون فرصة كبيرة لمراقبة عمّه 'دون'، والاستنتاج المذهل الذي وصل إليه أنه على الرغم من الاختلاف الكبير بين والده وعمّه من حيث خلفياتهما وتعليمهما وعملهما ونمط عيشهما، إلا أنهما كانا متشابهين أكثر ممّا هما مختلفان، أشبه لبعضهما ممّا كان عليه والده مع سام براونشتاين أو ماكس سولومون، فسواء كانا يعملان لجَنْي الدولارات أو لصياغة الكلمات، فقد اندفع كلا الرجلين خلف عمله، إلى حدّ استبعاد كل شيء آخر، ممّا جعلهما متوتّرين ومشتّتين حين لا يعملان، كليلين ومنغلقين على نفسيهما، كما لو كانا أعميين. كان العمّ، بلا أدنى شكّ، يتحدّث أكثر من والده، ومسلّياً ومثيراً للاهتمام أكثر، ولكنْ، فقط عندما يريد ذلك، والآن وبما أن فيرغسون قد أصبح يعرفه، فقد رأى أنه غالباً ما بدا كَمَنْ ينظر مباشرة من خلال الخالة ميلدرد عندما تتحدّث إليه، كما لو أنه يبحث عن شيء خلف ظهرها، غير قادر على سماعها، لأنه يفكّر بشيء آخر، الذي لا يختلف عن الطريقة التي ينظر بها والده غالباً إلى أمّه الآن، بوتيرة أعلى وأعلى الآن، نظرة بعينين زجاجيتين لرجل غير قادر على رؤية أي شيء سوى ما يدور في رأسه، لرجل موجود وغير موجود، لرجل غائب.

خلُص فيرغسون إلى أن هذا ما يصنع الاختلاف الحقيقي. ليس القليل من المال أو كثيره، وليس ما فعله شخص ما أو فشل بالقيام به، وليس شراء منزل أكبر أو سيّارة أغلى، وإنما الطموح. هذا ما يفسّر لمَ تمكّن براونشتاين وسولومون من المضي في حياتهما بسلام نسبي، لأنهما لم يلتاثا بلعنة الطموح. على النقيض من ذلك، كان والده وعمّه 'دون' مستهلَكَين بسبب طموحاتهما، الذي، ويا للمفارقة، جعلَ عالميهما أضيق وأقلّ راحة من أولئك الذين لم يُبتَلوا بهذه اللعنة. فالطموح يعني ألا تنعم بالرضا أبداً، أن تتطلّع إلى الأكثر على الدوام، أن تندفع باستمرار إلى الأمام، لأن أي نجاح لن يكون على الإطلاق كبيراً بما يكفي لكبح جماح الحاجة إلى نجاحات جديدة وحتّى أكبر، والاضطرار إلى تحويل متجر واحد إلى متجرين، ومن ثمّ تحويل المتجرين إلى ثلاثة، وصولاً إلى الحديث الآن عن بناء متجر رابع، وحتّى خامس، كما أن كتاباً واحداً هو مجرّد خطوة على الطريق نحو كتاب آخر، عُمْر من المزيد والمزيد من الكُتُب، الأمر الذي يتطلّب المقدار نفسه من التركيز والفردية الذي يتطلّبه رجل الأعمال، ليصبح غنياً. الإسكندر الأكبر يغزو العالم، ومن ثمّ ماذا؟ إنه يبني سفينة فضائية، ويغزو المريخ.

كان فيرغسون في العقد الأوّل من حياته، ما يعني أن الكُتُب التي قرأها اقتصرت على أدب الأطفال، وألغاز هاردي بويز، وروايات المدارس الثانوية عن لاعبي كرة القدم والمسافرين بين المجرّات، ومجموعات من قصص المغامرات، والسِّيَر الذاتية المبسّطة لرجال ونساء شهيرات مثل أبراهام لينكولن وجان دارك، ولكنْ، الآن بعد أن بدأ تحقيقه في أعمال روح العمّ 'دون'، شعر أنه من الجيّد قراءة شيء ممّا كتبه، أو المحاولة، وهكذا سأل أمّه في أحد الأيّام إن كان لديها واحداً من كُتُب عمّه في المنزل. نعم، قالت، لدينا كلاهما.

فيرغسون: كلاهما؟ هل تعنين أنه كتب اثنين فقط؟

والدة فيرغسون: إنها كُتُب كبيرة، آرتشي. احتاج كل منها سنوات لكتابته.

فيرغسون: عن ماذا تدور؟

والدة فيرغسون: إنها سِيَر ذاتية.

فيرغسون: جيّد. أنا أحبّ السِّيَر الذاتية. سِيَر مَنْ؟

والدة فيرغسون: أشخاص من زمن بعيد. كاتب ألماني من بدايات القرن التاسع عشر يُدعى كلايست(*). وفيلسوف وعالم فرنسي من القرن السابع عشر يُدعى باسكال(**).

---

*) بيرنت هاينريش فيلهلم فون كلايست (١٧٧٧- ١٨١١)، كاتب مسرحي وقاصّ وشاعر ألماني.

**) بليز باسكال (1623 - 1662)، فيزيائي ورياضي وفيلسوف فرنسي.

فيرغسون: لم أسمع عنهما مطلقاً.

والدة فيرغسون: في الحقيقة، ولا أنا أيضاً.

فيرغسون: هل هي كُتُب جيّدة؟

والدة فيرغسون: أظنّها كذلك. يقولون إنها جيّدة جدّاً.

فيرغسون: هل تعنين أنكِ لم تقرئيها؟

والدة فيرغسون: بضع صفحات هنا وهناك، لكنْ، ليس بالكامل. أخشى أنها ليست ما أفضّله.

فيرغسون: لكن الآخرين يظنّون أنها جيّدة. هذا يعني أن العمّ 'دون' قد جنى منها الكثير من المال.

والدة فيرغسون: ليس بالفعل. إنها كُتُب للأكاديميين، وليس لها جمهور كبير. لهذا يكتب العمّ 'دون' الكثير من المقالات والقراءات. لزيادة دخله بينما يقوم بالبحوث لأجل كُتُبه.

فيرغسون: أظنّ أن عليّ قراءة أحدها.

والدة فيرغسون (مبتسمة): إذا أردتَ ذلك، يا آرتشي. لكنْ، لا تشعر بالإحباط، إن وجدتَ الأمر صعباً.

وهكذا أعطتْه أمّه الكتابين، كلّ منهما يتجاوز الأربعمائة صفحة، مجلّدان سميكان من القَطْع الصغير، وخاليان من الرسوم التوضيحية، وهما صادران عن جامعة أكسفورد بْرِسْ، ولأن فيرغسون أحبّ غلاف كتاب باسكال أكثر من غلاف كلايست، بصورته الصارخة لقناع الموت الأبيض للرجل الفرنسي وهو يحوم على خلفية سوداء خالصة، قرّر الشروع بقراءته أوّلاً. بعد فقرة واحدة، فهم أنه ليس من الصعب فحسب، بل من المحال المضي فيه. أنا لستُ جاهزاً له بعد، حدّث نفسه. عليّ الانتظار حتّى أصبح أكبر سنّاً.

إن عدم تمكّن فيرغسون من قراءة كُتُب عمّه، لم يمنعه من دراسة كيفية تعامله مع ابنه، ما كان موضوعاً شديد الأهمّيّة لفيرغسون، الموضوع الأساسي لفحصه المنهجي للرجولة الأميركية المعاصرة، كون خيبته المتزايدة مع والده جعلته أكثر انتباهاً لكيفية معاملة الآباء الآخرين لأبنائهم، فكان عليه جمع الأدلّة من أجل البتّ، فيما إذا كانت مشكلته فريدة من نوعها أم مشكلة كونية مشتركة بين الأولاد جميعهم. مع براونشتاين وسولومون، تعرّف على أسلوبين مختلفين من السلوك الأبوي. كان براونشتاين مَرِحاً ودوداً مع أبنائه، بينما كان سولومون متّزناً وعطوفاً. براونشتاين

يدردش ويمدح، سولومون يستمع ويمسح الدموع؛ قد يفقد براونشتاين أعصابه، ويوبّخهم في الأماكن العامّة، في حين يحتفظ سولومون بأفكاره لنفسه، ويدع نانسي تؤدّب الأولاد. مزاجان، فلسفتان، شخصيتان، كلٌّ منهما عكْسَ والد فيرغسون تماماً، سوى أن الآخر يشابهه إلى حدّ ما، لكنْ، مع اختلاف أساسي يتجلّى بأن سولومون لا يغطّ بالنوم فجأة.

لم يغرق العمّ 'دون' في النوم، لأنه لم يعد يعيش مع ابنه ويراه نادراً فحسب، في عطلة نهاية الأسبوع مرّة كل شهر، إضافة إلى أسبوعين في الصيف، ثمانية وثلاثين يوماً فقط في السنة، ولكنْ، عندما أجرى فيرغسون الحسابات في رأسه، أدرك أنه رغم رؤيته لأبيه أكثر من ذلك - بدايةً لاثنين وخمسين يوماً أحد في السنة، إلى جانب عشاء العائلة في الليالي التي لم يتأخّر فيها أبوه بالعودة إلى المنزل من العمل، أكثر أو أقلّ من نصف ليالي الأسبوع، والتي قد تصل إلى حوالي مئة وخمسين عشاء من الاثنين إلى السبت في السنة، أي تواصل أكثر بكثير مقارنة بابن العمّ 'دون' مع والده - ومع ذلك، فإن هناك اختلافاً بسيطاً في أن ابن خالة فيرغسون الجديد من زوج خالته قد رأى والده بمفرده دائماً في تلك اللقاءات السنوية الثمانية والثلاثين، في حين أن فيرغسون لم يكن أبداً بمفرده مع والده، وعندما نبش ذاكرته عن المرّة الأخيرة التي كانا فيها وحيدين معاً في الغرفة أو السّيّارة، كان عليه أن يعود لأكثر من عام ونصف العام، إلى صباح يوم أحدٍ ماطر، أطاح بالطقوس الأسبوعية للتنس ومطعم غرونينغ، عندما استقلّ مع والده سيّارة البويك القديمة، واتّجها لشراء حاجيات الغداء، ووقفا في طابور "تاباتشنيك" مع تذكرة مرقّمة منتظرين دورهما في المتجر المزدحم ذي الرائحة الزكية، لتخزين السمك الأبيض والرنجة واللوكس والخبز، وعلبة جبنة كريمية. كانت ذكرى مميّزة مضيئة -ولكنها كانت المرّة الأخيرة، في أكتوبر 1954، أي سدس عمره الماضي، وبطرح السنوات الثلاث الأولى من حياته، والتي لم يعد بإمكانه أن يتذكّرها، تقترب المدّة من ربع حياته الماضية، أي ما يعادل عشر سنوات لرجل يبلغ من العمر أربعاً وأربعين عاماً، ففي هذه المرحلة من القصّة، كان فيرغسون في التاسعة من عمره.

كان اسم الفتى نوحاً، وكان أصغر من فيرغسون بثلاثة أشهر ونصف الشهر. وممّا أسف فيرغسون عليه، أنه قد تمّ فصلهما عن بعضهما خلال سنوات المساكنة الضّالّة، حيث إن زوجة العمّ 'دون' السابقة، التي يُبرّر غضبُها لكونها هُجرت لصالح الخالة ميلدرد، رفضت السماح لابنها بالاتّصال مع هدّامة البيوت وعائلتها، والتي تمتدّ لتتخطّى عائلة إدلر إلى فيرغسون أيضاً. عندما قرّر العمّ 'دون' والخالة ميلدرد أن يتزوّجا، تمّ نقض الحكم القضائي بحضانة الزوجة السابقة، لأن كل شيء أصبح قانونياً الآن، ولم تعد الزوجة السابقة في وضع يمكّنها من فرض تلك المطالبات على زوجها السابق. وعليه اجتمع فيرغسون ونوح ماركس في حفل الزفاف الذي أُقيم في كانون

الأوّل 1954، وهو عبارة عن حفلة صغيرة أُقيمت في شقّة جَدّي فيرغسون مع ما لا يزيد عن عشرين ضيفاً، أفراد العائلة من كلا الجانبين مع عدد قليل من الأصدقاء الحميمين. كان فيرغسون ونوح الطفلين الوحيدين الحاضرين، وانسجم الصبيان منذ البداية، فكلاهما وحيد طالما تاق لأخ أو أخت، وواقع أنهما في العمر نفسه، وأنهما من الآن فصاعداً أبناء خالة من الدرجة الأولى، أبناء خالة بالنسب، ربّما، ولكنْ، مع ذلك، فهما مرتبطان معاً بالعائلة نفسها، فقد تحوّل ذلك اللقاء الأوّليّ في حفل الزفاف إلى نوع من الزفاف الإضافي، أو التحالف الاحتفالي، أو بداية أخوّة بالدم، لأنهما عرفا أن كلاً منهما سيرتبط بالآخر لبقية حياته.

ولم يلتقيا إلا لماماً بطبيعة الحال، لأن أحدهما عاش في نيويورك، والآخر في نيوجيرسي، ولأن فرصة تواجد نوح كانت فقط لثمانية وثلاثين يوماً في السنة، فقد اجتمعا لست أو سبع مرّات فقط في الثمانية عشر شهراً التي تلت الزفاف. تمنّى فيرغسون لو يلتقيا أكثر، إلا أن ذلك كان كافياً للتوصّل إلى بعض الاستنتاجات حول أداء العمّ ′دون′ كأب، الذي لم يكن يشبه والده في شيء، ومع ذلك مختلف عن براونشتاين وسولومون أيضاً. وكان نوح حالة خاصّة، وغدا هزيلاً بأسنان مسنّنة، لا يشبه أطفال هؤلاء الرجال الآخرين، والتعامل معه تطلّب لمسة خاصّة. وهو أوّل شخصية ساخرة يلتقيها فيرغسون حتّى الآن، محتال، ومخرِّب، وثرثار متحذلق، ذكي، ذكي للغاية، ذكي وخفيف الظّلّ في الوقت نفسه، ألمعي ومفكّر رفيع، يفوق فيرغسون في تلك المرحلة، ورفقته تبعث على البهجة دوماً، إذا كنتَ صديقه، وهذا ما كان عليه فيرغسون بالتأكيد الآن، ولكن نوحاً عاش مع أمّه، ورأى والده لثمانية وثلاثين يوماً في السنة لا أكثر، واختبر بلا نهاية صبر والده خلال الوقت الذي أمضياه معاً، ومع هذا، لمَ لا يكون ضدّ والده، فكّر فيرغسون، بما أن العمّ ′دون′ قد تخلّى عنه أساساً عندما كان في الخامسة والنصف من العمر. أحسّ فيرغسون بولع كبير بنوح، لكنه عرف أيضاً أن بإمكان ابن خالته أن يكون آفة مزعجة شرسة لا تُطاق، وبالتالي فإن عواطفه كانت مقسّمة إلى حدّ ما بين الأب والابن، بين التضامن مع الصبي المهجور وبعض التعاطف مع الأب المغبون. استغرق فيرغسون وقتاً طويلاً، ليَفهم أن العمّ ′دون′ أراده أن يرافقه في مشاويره مع ابنه نوح، ليقوم بدور الوسيط بينهما، كحضور ملطّف، ومصدر إلهاء. وهكذا ذهب ثلاثتهم إلى مجمع "إبتس فيلد" الرياضي لمشاهدة مبارة فريق "دودجرز" ضدّ فريق "فيليز"، وإلى متحف التاريخ الطبيعي للتّعرّف على عظام الديناصورات، وشاهدوا عدداً من أفلام الإخوة ماركس في سينما بالقرب من "صالة كارنيجي"، وكان نوح غالباً ما يبدأ فترة بعد الظهر بسلسلة من الانتقادات المرّة، ساخراً من والده، لأخذه إلى بروكلن، فمن غير المفترض أن يفعل الآباء ذلك، كأن يحشروا أولادهم في عربات مترو الأنفاق الحارّة، ويصحبوهم إلى مباريات البيسبول،

حتّى لو لم يكن لدى الأب أدنى اهتمام بهذه اللعبة، أو: انظر إلى رجل الكهف في المجسّم، يا أبي؟ في البداية، ظننتُ أنني أنظر إليكَ، أو: الإخوة ماركس! هل تظنّ أنهم أقرباؤنا؟ لربّما عليّ أن أراسل غروتشو، وأسأله إن كان والدي الحقيقي.

وفي الحقيقة، كان نوح يحبّ البيسبول، رغم أنه فاشلٌ في لعبها، إلا أنه كان يعرف معدّل ضربات كل لاعب في "دودجرز"، وحمل تذكاراً (أعطاه له والده) يحمل توقيع جاكي روبنسون في جيبه الأمامي، كما كان مأخوذاً بكل ما عُرض في متحف التاريخ الطبيعي، ولم يرغب بمغادرة المبنى عندما قال والده إن الوقت قد حان للذهاب، وللأمانة، فإنه ضحك ملء شدقيه على أفلام "حساء البط" و"عمل القردة"، وغادر المسرح وهو يصرخ، ما أروع هذه العائلة! كارل ماركس! غروتشو ماركس! نوح ماركس! عائلة ماركس تحكم العالم!

خلال هذه المواجهات والمجابهات جميعها، وهذه الهدهدات المفاجئة ودفقات البهجة الهستيرية، وهذا التأرجح بين الضحك والعدوانية، ثابر والد نوح على التّحلّي بهدوء غريب وراسخ حيالها، ولم يردّ أبداً على إهانات ابنه، رافضاً أن يتمّ استفزازه، مواجهاً كل هجوم بالصمت حتّى تُغيِّر الرياح اتّجاهها مرّة أخرى. شكلٌ غامض جديد من السلوك الأبوي، أحسّه فيرغسون، مرتبط برجل، يكبح جماح غضبه أكثر من كونه يسمح لابنه بمعاقبته على الجرائم التي ارتكبها، وإخضاع نفسه لجَلْد الذات كوسيلة للتكفير عن الذنب. أي ثنائي غريب هما - صبي جريح يصرخ بالحبّ مع كل عمل عدائي تجاه والده، وأب جريح يفيض حبّاً بامتناعه عن صفعه، وترك نفسه تتلقّى اللكمات. ومع ذلك، كلّما كانت المياه راكدة، وتوقّفت الصدامات بشكل مؤقّت، وانجرف الأب وابنه في قاربهما معاً، كان هناك شيء واحد رائع لاحظه فيرغسون: أن العمّ ‹دون› يتكلّم مع نوح كما لو أنه بالغ. لا يعطف عليه، وليس هناك تربيت أبوي على الرأس، ولا قواعد محدّدة. وعندما يتحدّث الصبي، يستمع الأب. عندما يسأله الصبي سؤالاً، يجيبه الأب كما لو أنه زميله، وبما أن فيرغسون استمع إليهما وهما يتحادثان، فإنه لم يتمكّن من كبح شعوره ببعض الحسد، لأن والده لم يتحدّث معه في أي وقت مضى بتلك الطريقة، أو بذلك الاحترام والفضول، بتلك النظرة من الاستمتاع في عينيه. ثمّ خلص إلى أن العمّ ‹دون› كان أباً طيّباً، في كل شيء، ووالداً فاضلاً، ربّما، بل قد يكون والداً فاشلاً - لكنه، مع ذلك، أب جيّد. كما أن ابن خالته نوح صديق رائع، رغم أنه قد يكون أحياناً مجنوناً بعض الشيء.

في صباح يوم اثنين من منتصف حزيران، أخبرت والدة فيرغسون ابنها على مائدة الفطور بأنهم سينتقلون إلى المنزل الجديد بنهاية الصيف. كانت ووالده على وشك الانتهاء من "بروتوكول البيع" الأسبوع المقبل، وعندما سألها فيرغسون عن معنى ذلك، أوضحت أنه مصطلح عقاري

يُستخدم عند شراء منزل، وبمجرّد أن يتمّ دفع المال وتوقيع الأوراق، يصبح المنزل الجديد ملكهم. كان ذلك قاتماً بما فيه الكفاية، إلا أنها تابعت بعد ذلك، لتقول شيئاً صعق فيرغسون بشكل فظيع وخاطئ على حدّ سواء. ولحسن الحظّ، أكملت والدته، وجدنا أيضاً مشترياً للبيت القديم. البيت القديم! ما الذي تتحدّث عنه؟ إننا نتناول فطورنا في هذا البيت الآن، وما زلنا نعيش فيه، وإلى أن ينتهوا من حزم أغراضهم ومغادرته إلى الجانب الآخر من المدينة، ليس لها الحقّ في التّحدّث عنه بصيغة الماضي.

لمَ هذا التّجهّم كله، يا آرتشي؟ قالت أمّه. إنها أخبار سارّة، وليست سيّئة. أنتَ تبدو مثل شخص على وشك أن يُقاد إلى الحرب. لم يستطع أن يخبرها بأنه أمل بألا يشتري أحد البيت، وألا يرغب به أحد، وأن يراه الجميع مناسباً لعائلة فيرغسون دون سواها، ولو لم تتمكّن أمّه وأبوه من بيع المنزل، لما كان بإمكانهما توفير ثمن البيت الجديد، ولاستطاع إجبارهم على المكوث حيث هم. لم يستطع أن يخبرها لأن أمّه بدت سعيدة جدّاً، أكثر من المرّة الأخيرة التي رآها سعيدة فيها منذ زمن طويل، لأن بضعة أشياء فقط تُعدّ أفضل من رؤيتها سعيدة، ومع ذلك، فقد تلاشى أمله الأخير الآن، وحصل كل شيء خلف ظهره. مشترٍ! مَنْ كان هذا الشخص المجهول؟ ومن أين جاء؟ لا يشاركه أحد أبداً في أي شيء إلى أن يحدث، كانت الأمور دائماً تجري خلف ظهره، ولم يكن له أي رأي في أيٍّ منها. أراد التصويت! لقد سئم من كونه طفلاً، سئم من عدم الاكتراث به، ومن إخباره بما عليه فعله. من المفترض أن تكون أميركا ديموقراطية، إلا أنه عاش في ظلّ ديكتاتورية، وقد ضاق ذرعاً بها، ضاق ذرعاً، ضاق ذرعاً.

متى حدث ذلك؟ سأل.

بالأمس فقط، أجابت أمّه.

عندما كنتَ في نيويورك مع العمّ ’دون’ ونوح. إنها قصّة مذهلة بالفعل.

كيف ذلك؟

هل تذكر السّيّد شنايدرمان، المصوّر الذي عملتُ عنده عندما كنتُ شابّة؟

أومأ فيرغسون برأسه. بطبيعة الحال، تذكّر السّيّد شنايدرمان، ذلك الرجل الغريب الهرم والغضوب الذي يأتي لتناول العشاء مرّة في السنة تقريباً، الرجل ذو اللحية الصغيرة البيضاء الذي شفط حساءه، وضرط مرّة وهو جالس إلى الطاولة، من دون حتّى أن يلحظ ذلك.

حسناً، للسّيّد شنايدرمان ولدان كبيران، دانيال وجيلبرت، كلاهما بعمر أبيكَ تقريباً، والبارحة جاء دانيال وزوجته هنا لتناول الغداء، واحزرْ ماذا؟

لا داعي لأن تخبريني.

مدهش للغاية، ألا تظنّ ذلك؟

ربمّا.

لديهما ولدان، صبي في الثالثة عشرة وبنت في التاسعة، وتلك البنت إيمي، لها أن تكون ربمّا أجمل بنت صغيرة رأيتُها في حياتي. إنها تذوب في القلب حقّاً، يا آرتشي.

من حسن حظّها.

حسناً، أيّها الكئيب، لكنْ، ماذا لو انتهى الأمر بأن تعيش في غرفتكَ؟ هل ستهتم حينها؟

ستكون غرفتها عندها، لا غرفتي، فلمَ أهتمّ؟

انتهت السنة الدراسية، وفي نهاية الأسبوع التالي، تمّ إرسال فيرغسون إلى مخيّم مبيت في ولاية نيويورك. كانتِ هذه هي المرّة الأولى التي يغادر فيها المنزل، لكنه ذهب من دون وَجَل أو تأنيب ضمير، لأن نوحاً كان برفقته، والحقيقة أنه كان ضجراً من المنزل في ذلك الحين، متعَب جرّاء الأحاديث كلها عن البيت القديم الذي لم يكن قديماً والفتيات الجميلات اللاتي سيسرقنَ غرفته، وثمانية أسابيع في الريف ستكون كفيلة بالتأكيد بإبعاد تفكيره عن هذا التصعيد. أُقيم مخيّم "بارادايس" في الشطر الشمالي الشرقي من مقاطعة كولومبيا، ليس بعيداً عن حدود ماساتشوستس وسفوح بركشيرز، وقد اختار والداه إرساله إلى هناك، لأن نانسي سولومون تعرف شخصاً، كان بدوره يعرف شخصاً آخر، اعتاد أطفاله الذهاب إلى هذا المخيّم لسنوات، وليس لديهم ما يقولونه عنه سوى الأشياء الإيجابية، وحالما تمّ تسجيل فيرغسون، تحدّثت أمّه إلى أختها، التي بدورها تحدّثت إلى زوجها، وتمّ تسجيل نوح أيضاً. غادر فيرغسون وابن خالته من محطّة غراند سنترال مع مجموعة من رفاق المخيّم، ما يقارب المئتين من الفتيان والفتيات الذين تتراوح أعمارهم بين السابعة والخامسة عشرة، وقبل أن يستقلّوا القطار ببضع دقائق، انتحى العمّ 'دون' بـ فيرغسون جانباً، وطلب منه أن ينتبه إلى نوح، أن يبقيه بعيداً عن المشاكل ومضايقات الصبيان الآخرين، ولأن لدى العمّ 'دون' تلك الثقة كلها به، فهذا يعني أنه رأى شيئاً قوياً جديراً بالثقة في فيرغسون، فوعد العمّ 'دون' بأنه سيفعل ما بوسعه للتأكّد من بقاء نوح بخير.

لحسن الحظّ، لم يكن مخيّم "بارادايس" مكاناً قاسياً، ولم يتطلّب الأمر وقتاً طويلاً، ليخلص فيرغسون إلى أن بإمكانه أن يخفّف من تحفّزه. كان الانضباط رخواً، وعلى عكس مخيّمات الصبيان الكشفية أو المعسكرات الدينية، التي كان هدفها بناء الشخصية في الشباب، فقد كان القائمون على مخيّم "بارادايس" ينشدون هدفاً أبسط، يتمثل بجعل الحياة ممتعة قدر الإمكان. في

الأيّام الأولى هناك، وما إن بدأ فيرغسون بالتأقلم مع البيئة الجديدة، حتّى أجرى عدداً من الاستكشافات المثيرة للاهتمام، ومن بينها حقيقة أنه كان الصبي الوحيد في مجموعته الذي يعيش في الضواحي. الآخرون جميعهم أتوا من نيويورك، حيث أُحيط بحشد من أطفال المدينة ممّنْ عاشوا في أحياء مثل فلاتبوش، وميدوود، وبورو بارك، وواشنطن هايتس، وفوريست هيلز، وغراند كونكورس، أولاد بروكلن، وأولاد مانهاتن، وأولاد كوينز، وأولاد برونكس، وأبناء مُدرّسي المدارس، والمحاسبين، وموظّفي الخدمة المدنية، وسُقاة الحانات، والباعة الجوّالين من الطبقة الوسطى والطبقة الوسطى الدنيا. وإلى ذلك الحين، افترض فيرغسون أن المخيّمات الصيفية الخاصّة كانت حكراً على أطفال موظّفي البنوك والمحامين الأغنياء، لكنْ، يبدو أنه كان على خطأ، بذلك، وبمرور الأيّام، عرف أسماء عشرات الصبيان والبنات، كامل أسمائهم الأولى والأخيرة، وفهم أن كل مَنْ في المخيّم كان يهودياً، ابتداءً من الزوج والزوجة اللذين يملكانه (إرفينغ وإدنا كاتز)، إلى المستشار الرئيس (جاك فيلدمان)، إلى المستشار والمستشار المساعد في مقصورته الخاصّة (هارفي رابينويتز وبوب غرينبيرغ)، إلى آخر فرد في المئتين وأربعة وعشرين مقيماً في المخيّم الذين أتوا لتمضية الصيف. كانت المدرسة العامّة التي يقصدها في ميبلوود تحفل بخليط من البروتستانت، والكاثوليك، واليهود، لكن الجميع هنا يهود، ويهود فحسب، وللمرّة الأولى في حياته حُشر فيرغسون في محيط عِرْقي، مع شيء من "الغيتو"، لكنْ، في هذه الحالة "غيتو" في الهواء الطلق، بأشجار وعشب وعصافير تحلّق في السماء الزرقاء فوقه، وبمجرّد أن استوعب جِدّةَ الحالة، لم يعد لها أهمّيّة تُذكَر لديه.

أما أكثر ما كان يعنيه، فهو أن أيّامه قد مضت في جولة من الأنشطة الممتعة، وليس فقط تلك التي كان يعرفها بالفعل، مثل البيسبول والسباحة والبينغ بونغ، ولكنْ، رياضات جديدة شملت الرماية، والكرة الطائرة، وشدّ الحبل، والتجديف، والقفز الطويل، وأفضل من ذلك كله، الإحساس الرائع المرافق لتجديف الزوارق. كان صبياً رياضياً قوياً، يتّجه بطبيعته إلى هذه الهوايات الجسدية، لكن الشيء الجيّد في مخيّم "بارادايس" كان إتاحة الفرصة أمام المرء ليختار بين الأنشطة، ولأولئك الذين لا يميلون للرياضة توفّرت الفنون وصناعة الفخّار والموسيقى والمسرح بدلاً عن المنافسة الخشنة بالمضارب والكرات. النشاط الإلزامي الوحيد كان السباحة، السباحة لثلاثين دقيقة مرّتين في اليوم، مرّة قبل الغداء، وأخرى قبل العشاء، لكن الجميع أحبّ التّخفّف في الماء، فحتّى لو لم تكن سبّاحاً بارعاً، فإنه يمكنكَ رشق الماء حولكَ في الطرف غير العميق للبحيرة. لذلك، حينما كان فيرغسون يسيطر على الملاعب في أحد أطراف المخيّم، كان نوح يرسم في كوخ الفنون في الطرف الآخر للمخيّم، وحين كان فيرغسون يمخر بزورقه المحبّب المياه،

كان نوح مشغولاً بتمارين مسرحية. تعلّقَ نوح الصغير غريب المظهر بفيرغسون في الأسبوع الأوّل، كان عصبياً وغير واثق من نفسه، يتوقّع جازماً أن يقوم شخص ما بجعله يتعثّر أو يناديه بلقب ما، لكن الهجوم لم يحصل أبداً، وسرعان ما بدأ بالاستقرار، ومصادقة بعض الفتيان الآخرين، جاعلاً زملاءه في المقصورة يضحكون بجنون عند تقليده ألفريد إي. نيومان، وحتّى إنه (ما صعق فيرغسون) اكتسب سمرةً من الشمس في أثناء ذلك.

بطبيعة الحال، حصلت خلافات وتصادمات ومشاجرات من حين لآخر، إذ لم يكن مخيّم "باراديس" فردوساً في حدّ ذاته، بل شيئاً لم يخرج عن المألوف، برأي فيرغسون، والمرّة الوحيدة التي اقترب فيها من تبادل الضربات مع صبي آخر، كان سبب الخلاف مضحكاً جدّاً حتّى إنه لم يكفِ لحشد الحماس اللازم للقتال. كانت 1956 سنة، ضمن نسق من سنوات عديدة، احتلّت فيها نيويورك مركز الكون في البيسبول، وذلك بثلاثة فِرَق، سيطرت على هذه الرياضة على مدى عقد من الزمان، والفِرَق هي: اليانكيز، والدودجرز، والجاينتس، وفيما عدا سنة 1948، فإن واحداً على الأقلّ من تلك الفِرَق، وغالباً اثنين منها لعب في بطولة العالم كل عام منذ السنة الأولى من حياة فيرغسون. لم يكن أحد محايداً. تحزّب كل رجل وامرأة وطفل في نيويورك وضواحيها المحيطة لفريق ما، بحماسة وتفانٍ شديدين في معظم الأحيان، واحتقر أنصار اليانكيز، والدودجرز، والجاينتس بعضهم البعض، ممّا أدّى إلى العديد من الشجارات العبثية، وفي بعض الأحيان، إلى لكمات في الوجه، ومرّةً، إلى القتل بإطلاق الرصاص علناً في الحانة. وبالنسبة إلى الفتيان والفتيات من جيل فيرغسون، كان النقاش الأطول يدور حول الفريق الذي لديه أفضل لاعب وسط، فقد كان لاعبو الوسط الثلاثة جميعهم رائعين، الأفضل في هذا المركز في أي مكان في البيسبول، من بين نخبة اللاعبين في تاريخ اللعبة، وليتمّ تبديد ساعات طويلة من قِبَل هؤلاء الشباب في مناقشة فضائل دوك شنايدر (دودجرز)، ميكي مانتل (يانكيز)، ويلي مايس (جاينتس)، يدافع أنصار كل فريق بحماس أعمى عن لاعب الوسط في ناديهم بوفاء خالص لا يتزعزع. شجّع فيرغسون فريق "دودجرز" فقد نشأت والدته في بروكلن مشجّعة لهذا الفريق، وغرست فيه حبّ قضايا المستضعفين واليائسين، إذ إن دودجرز أيّام طفولة والدته كان فريقاً متعثّراً ومثيراً للشفقة في كثير من الأحيان، لكنه الآن من الفِرَق الكبيرة، وهم الأبطال على مستوى العالم، على قدم المساواة مع يانكيز الأقوياء، وانقسم الصبية الثمانية الذين نزلوا معه في مقصورة واحدة ذلك الصيف، فثلاثة منهم يانكيز، واثنين جاينتس، وثلاثة دودجرز، من بينهم فيرغسون، ونوح، وصبي يُدعى مارك دوبنسكي. في ظهيرة أحد الأيّام، وخلال فترة الاستراحة التي تمتدّ لخمس وأربعين دقيقة تلي الغداء، والتي عادة ما تتمّ تمضيتها في قراءة مجلات سوبرمان المصوّرة، وكتابة الرسائل، ودراسة نتائج المباريات

المنشورة منذ يومين في "نيويورك بوست"، سأل دوبنسكي، الذي يقع سريره إلى يسار فيرغسون (ونوح إلى اليمين)، السؤال القديم مرّة أخرى، في حديثه لـ فيرغسون كيف أنه جادل بثبات لصالح شنايدر مقابل مانتل في مناقشة مع اثنين من مشجّعي اليانكيز في ذلك الصباح، متوقّعاً بثقة أن فيرغسون الذي يشجّع دودجرز سيسانده، إلا أن فيرغسون لم يفعل، فقد قال إنه يعبد دوك، وقال إن مانتل أفضل منه، والأهم منه هو مايس الأفضل حتّى من مانتل، بفوارق بسيطة، ربمّا، ولكنْ، لا مجال للشك بتفوّقه، ولماذا لا يزال دوبنسكي يخادع نفسه بشأن الوقائع؟ جاء جواب فيرغسون غير متوقّع بالمرّة، مطمئنّاً جدّاً في تأكيداته، دقيقاً جدّاً في نسف اعتقاد دوبنسكي القائم على الإيمان المفارق للمنطق، فشعر دوبنسكي بالإساءة، بإساءة عنيفة، ليقف بعدها بدقيقة فوق سرير فيرغسون صارخاً بأعلى صوته، ناعتاً فيرغسون بالخائن، والملحد، والشيوعي، والغشّاش لمرّتين، وأنه ربمّا عليه أن يلكمه في أمعائه، ليلقّنه درساً. وعندما كوّر دوبنسكي قبضته، متأهّباً للانقضاض عليه، نهض فيرغسون، وقال له خذ الأمور بروية. يمكنكَ الاعتقاد بما يحلو لكَ، يا مارك، لكنْ، لديّ الحقّ في إبداء رأيي، أيضاً. لا، ليس لديكَ الحقّ، أجابه دوبنسكي، مواصلاً غضبه، ليس إن كنتَ من مشجّعي دودجرز.

لم يرغب فيرغسون بالتعارك مع دوبنسكي، الذي لم يكن من عادته النزوع لمثل هذا السلوك الحاد، إلا أنه في تلك الظهيرة بدا توّاقاً للعراك، لأن شيئاً حيال فيرغسون قد أزعجه ورغب بتحطيم صداقتهما إلى نتف، وبينما جلس فيرغسون على سريره، يتأمّل إن كان عليه قول ما يُخرجه من هذا أو أنه سيكون مضطرّاً للوقوف والعراك، تدخّل نوح فجأة. *شباب، يا شباب*، قال متحدّثاً بصوت أبوي عارف وعميق ومضحك، أوقفوا هذا الشجار في الحال. جميعنا يعرف مَنْ هو أفضل لاعب وسط، أليس كذلك؟ التفت فيرغسون ودوبنسكي، ونظرا إلى نوح، الذي كان مستلقياً في سريره متّكئاً على الوسادة بمرفقه، وسانداً رأسه بيده. قال دوبنسكي: حسناً، هاربو، لنسمع ذلك – لكنْ، من الأفضل أن يكون الجواب الصحيح. الآن وبما أنه حظي بانتباههما، صمت نوح للحظة، وابتسم ابتسامة بلهاء مفرطة الابتهاج، أودعت نفسها في ذاكرة فيرغسون، ولم تُطوَ أبداً، بحيث حضرت مراراً وتكراراً خلال انتقاله من الطفولة إلى المراهقة، فالرشد، كبريق خاطف لنزوة بريئة خالصة، كشفت عن الجوهر الحقيقي لنوح ماركس بسنواته التسع خلال الثانية أو الاثنتين التي استغرقتها، وعندها أنهى نوح المجابهة بقوله: إنه أنا.

في الشهر الأوّل، لم يفكّر فيرغسون أبداً بمدى سعادته في ذلك المكان. فقد انغمس كلّيّاً فيما يفعله حتّى إنه لم يتوقّف للتفكير في مشاعره، وحوصر بشدّة بالحاضر، بما لم يدعه يرى الماضي أو ما خلفه، يعيش لحظته، كما وصف مستشاره هارفي الأداء الجيّد في الألعاب

الرياضية، الذي ربّما كان التعريف الحقيقي للسعادة، أن تغفل عن كونكَ سعيداً، غير آبه لأي شيء إلا أن تكون حيّاً في اللحظة الراهنة. لكنْ، عندها لاح في الأفق فجأة يوم زيارة الآباء والأمّهات، الأحد الذي يمثّل منتصف الدورة الممتدّة لثمانية أسابيع، ابتهج فيرغسون في الأيّام التي سبقت حلول يوم الأحد، لاكتشاف أنه لا يتطلّع إلى رؤية والديه، ولا حتّى والدته، التي اعتقد أنه سوف يفتقدها بشكل رهيب إلا إنه لم يفعل، افتقدها فقط في بعض الوهلات المتقطّعة والمؤلمة، ولم يفتقد والده على وجه الخصوص، الذي غاب عن ذهنه في الشهر الماضي، ولم يعد يبدو مهمّاً بالنسبة إليه. أدرك أن المخيّم أفضل من البيت. والحياة بين الأصدقاء أكثر غنى وثراءً من الحياة مع الوالدين، ما يعني أن الأهل أقلّ أهمّيّة ممّا ظنّ سابقاً، إنها هرطقة، لا، بل فكرة ثورية، منحت فيرغسون الكثير ليفكّر به وهو مستلقٍ على سريره ليلاً، ومن ثمّ حلّ يوم الزيارة، وحين رأى أمّه تترجّل من السّيّارة، وتخطو نحوه، وجد نفسه على عكس ما توقّعه يكافح ليحبس دموعه. يا للسخافة! كم من المحرج التّصرّف بهذا الشكل، فكّر بذلك، لكنْ، ما الذي بوسعه فعله حيال هذا سوى الجري نحو ذراعيها وتركها تُقبّله؟

لاح له أن خطباً ما قد وقع. إذ من المفترض أن يصطحب والدا فيرغسون العمّ ′دون′ معهما في السّيّارة إلى المخيّم، لكنه لم يأتِ، وعندما سأل فيرغسون أمّه عن سبب غيابه، نظرت إليه بتوتّر، وقالت إنها ستشرح ذلك لاحقاً. لاحقاً أي بعد ساعة تقريباً من ذلك، وعندما صحبه والداه بالسّيّارة عبر حدود ماساتشوستس لتناول طعام الغداء في مطعم فريندلي في غريت بارينجتون. بدأت أمّه الحديث كالمعتاد، لكنْ، وللمرّة الأولى بدا والده منتبهاً ومشاركاً، متابعاً كلماتها بحرص، بقدر ما فعل فيرغسون، ونظراً لما ترتّب عليها أن تقوله، وما فرضت الظروف عليها قوله، لم يُفاجَأ فيرغسون، لأنها بدت متوتّرة أكثر من أي وقت في ذاكرته القريبة، وتحشرج صوتها حين تكلّمت، راغبة في تجنيب ابنها أسوأ ما في الأمر، ولكنْ، في الوقت نفسه غير قادرة على تخفيف الصدمة من دون تحريف الحقيقة، فالحقيقة هي ما يهمّ الآن، وحتّى لو لم يتجاوز فيرغسون التاسعة من عمره، يبقى من الضروري أن يسمع القصّة كاملة، من دون اجتزاء. في حقيقة الأمر، يا آرتشي، قالت وهي تُشعل سيجارة "شيسترفيلد" بلا فلتر، وتنفث غيمة رمادية زرقاء من الدخان غمرت طاولة "الفورميكا". دون وميلدرد انفصلا. انتهى زواجهما. أتمنّى لو أستطيع شرح الأسباب لكَ، لكن ميلدرد لم تخبرني. إنها مدمّرة للغاية، لم تتوقّف عن البكاء طوال الأيّام العشرة الأخيرة. لا أعلم إن كان ′دون′ قد وقع في حبّ امرأة أخرى أو أن الأشياء تداعت وحدها، لكن ′دون′ خارج الصورة الآن، وليس من فرصة لعودتهما إلى بعضهما. تحدّثتُ إليه عدّة مرّات، لكنه لم يخبرني أي شيء بدوره. قال إن علاقته وميلدرد قد انتهت وحسب، وإنه ما كان عليهما أن يتزوّجا بالأصل، وإن كل شيء

كان خاطئاً من البداية. لا، لن يعود إلى والدة نوح. ما يخطّط للقيام به هو الانتقال إلى باريس. وبالفعل أخذ أغراضه من شقّة شارع بيري، وعليه أن يغادر قبل نهاية الشهر. الذي ساقني إلى نوح. يريد 'دون' أن يقضي بعض الوقت معه قبل أن يغادر، وهكذا فإن غويندولين، زوجته السابقة، وهنا أعني زوجته الأولى السابقة، جاءت إلى المخيّم اليوم لأخذ نوح واصطحابه إلى نيويورك. هذا صحيح، يا آرتشي، نوح سيرحل. أعرف كم أصبحتما مقرّبين، وأي صديقين جيّدين أنتما، لكنْ، ليس بوسعي فعل شيء حيال ذلك. اتّصلتُ بتلك المرأة، غويندولين ماركس، وأخبرتها أنه بغضّ النظر عن ما حدث بين 'دون' وميلدرد، أردتُ أن يبقى الأولاد على اتّصال، وأنه سيكون من المؤسف أن تتأثّر صداقتهما بسبب ذلك، لكنها شخص صعب، يا آرتشي، خانقة ولاذعة، وقلبها من جليد، وقالت إنها لن تفكّر بذلك. سألتُها: هل سيعود نوح إلى المخيّم بعد أن يغادر والده إلى باريس؟ فقالت إن هذا غير وارد. قلتُ لها، حسناً، على الأقلّ، امنحي الأولاد فرصة لتوديع بعضهما البعض يوم الأحد، فقالت، ما الداعي لذلك؟ كنتُ أحترق حينها، شعرتُ بغضب لم أشعر بمثله في حياتي، وصرختُ بها: كيف يمكنكِ طرح هذا السؤال؟ وأجابتْ بهدوء: أحتاج إلى حماية نوح من المشاهد العاطفية. فحياته صعبة بما فيه الكفاية كما هي. لا أعرف ماذا أقول لكَ، يا آرتشي. لقد فقدت المرأة صوابها. وهناك أختي المخدّرة تماماً بسبب المهدّئات، تبكي بقلب مفطور مَرمية على السرير. وقد تخلّى 'دون' عنها، وانتزع نوحاً منكَ، وبصراحة، يا ولدي، إنه خليط عجيب من الفوضى الجميلة، أليس كذلك؟

كان الشهر الثاني من مخيّم "بارادايس" شهر السرير الخاوي. الفراش العاري على النوابض المعدنية إلى يمين المكان الذي تابع فيرغسون النوم فيه، سرير نوح الغائب حالياً. وفيرغسون يسأل نفسه كل يوم إن كانا سيلتقيان ثانية. أبناء خالة لسنة ونصف، والآن لم يعودا أقارب. خالته تزوّجت رجلاً غدا عمّه، ولم تعد متزوّجة به الآن، وعمّ يعيش على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي، حيث لم يعد بوسعه أن يكون مع ابنه. كل شيء سيكون متجلّداً لبعض الوقت، ثمّ تأتي الشمس في صباح ما، ويبدأ العالم بالذوبان.

عاد فيرغسون إلى منزل ميبلوود في نهاية آب، وودّع غرفته، وطاولة البينغ بونغ في الفناء الخلفي، والباب بزجاجه المكسور في المطبخ، وانتقل مع والديه في الأسبوع التالي إلى منزلهما الجديد في الجانب الآخر من المدينة. لتبدأ مرحلة على نطاق أوسع من الحياة.

2.1

إلى أقصى ما يمكن أن يعود بذاكرته، كان فيرغسون يتطلّع إلى رسم الفتاة على زجاجة الوايت روك White Rock. كانت نوعاً من ماء الصودا الذي اعتادت أمّه شراءه في رحلاتها مرّتين كلّ أسبوع إلى متجر A&P، وحيث إن إيمان والده كان راسخاً بفضائل ماء الصودا، كانت زجاجة من الوايت روك تستقرّ دائماً على طاولة العشاء. بذلك كان فيرغسون يتفحّص الفتاة مئات المرّات، محتفظاً بالزجاجة إلى جواره، كي يتأمّل صورة جسدها نصف العاري المطبوعة بالأبيض والأسود على اللصاقة، تلك الفتاة المغرية وادعة الأناقة بنهديها الصغيرين المكشوفين ومئزرها الأبيض الملتفّ حول وركيها، والذي ينفتح ليكشفَ عن كامل ساقها اليمنى، مقدّمة ساقها التي كانت مثنيّةً تحتها وهي تميل إلى الأمام معتمدة على يديها وركبتيها وتحدِّق في بركة ماء من موقعها على الصخرة الناتئة، التي استحقّتْ بجدارة كلمات *الصخرة البيضاء*، والشيء الغريب، المختلف كلّيّاً فيما يتعلّق بالفتاة، أن جناحين شفّافين كانا يبرزان على ظهرها، ما كان يعني أنها أكثر من مجرّد إنسان، ربّما إلهة أو كائن مسحور من جنس ما، ولأن أعضاء جسدها كانت نحيلة، وأعطت الانطباع بالصِّغَر، بقيتْ في عداد البنات دون أن تبلغ بعدُ مبلغ المرأة مكتملة النضوج، بصرف النظر عن ثدييها، اللذين كانا متبرعمَين وصغيرين لبنت في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها، وبشَعْرها المربوط بأناقة، والذي كشفَ عن بشرة عنقها وكتفها العاريين والمتألّقَين، كانت بالتمام والكمال صنفاً من الفتيات اللاتي يمكن لصبيٍّ أن يستمتع بنسج التّخيّلات حولهنّ، وحين أصبح الصبي أكبر بقليل، ربّما اثني عشر أو ثلاثة عشر عاماً، كان من السهل أن تتحوّل فتاة الوايت روك إلى مصدر فتنة جنسية مكتملة الزهو، وأن تستحضر عالَم الشغف الحسّيّ والرغبات مكتملة التّيقّظ، وحين يحدث ذلك لـ فيرغسون، عليه أن يتأكّد من أن أهله لم يكونوا ينظرون إليه بينما يتمعّن في الزجاجة.

إلى جانب ذلك، كانت البنت الهندية الجاثية على عبوة زبدة الـ لاند أوليكس Land O'Lakes، الجميلة المراهقة بضفيرتيها الطويلتين السوداوين والريشتين الملوّنتين البارزتين من طوق رأسها المرصّع بالخرز، لكن مشكلة المنافِسة المحتملة لحورية الوايت روك أن الملابس

كانت تكسو كامل جسدها، ما قلّصَ من إغرائها بشكل ملحوظ، ناهيكَ عن مشكلة أخرى تمثّلت في مرفقيها، اللذين ابتعدا عن جانبيها بشكل متصنّع، لأنها كانت ممسكة بعبوة الـ لاند أوليكس، المطابقة لتلك التي توضّعت أمام فيرغسون، العبوة ذاتها لكنها أصغر، تحمل صورة البنت الهندية نفسها حاملةً عبوة أخرى أصغر من زبدة الـ لاند أوليكس، التي كانت فكرة مربكة، كما أحسّ فيرغسون، فكرة التصغير اللامتناهي لصور البنت الهندية، وهي تحمل علب الزبدة، الأمر ذاته الذي انطبق على مضمون شعار منتَج علبِ شوفان كويكر Quaker، مع كويكر المبتسم بقبّعته السوداء المنحسرة إلى نقطة ما تتلاشى بعيداً خارج ما تدركه العين البشرية، عالم داخل عالم، الذي هو بدوره داخلَ عالم آخر، والذي أيضاً داخل عالم آخر، ثمّ داخل عالم آخر، إلى أن يتناهى العالم إلى حجم ذرّة واحدة، ومع ذلك لا يزال من الممكن له أن يتضاءل أكثر. ثمّة نوع من الإثارة في طريقة تصميمه، لكن مكوّناته بالكاد تستفزّ الأحلام، لذلك فإن عذراء الزبدة الهندية بقيت في المرتبة الثانية بعد أميرة الوايت روك بفارق كبير. ولم يمضِ وقت طويل على أيّة حال على بلوغ فيرغسون الثانية عشرة حتّى أُوْدع سرّاً، يُبقيه طيّ الكتمان. فقد اتّجه صوب جزءٍ سَكَني مجاور، ليزور صديقه بوبي جورج، وجلس كلاهما في المطبخ يتناولان شطيرة سمك التونا، دخل كارل أخ بوبي ابن الأربعة عشر عاماً، الفارع والمكتنز ذو الوجه المبقّع بالبثور، والمتفوّق في الرياضيات، الذي يُرهِب أخاه الأصغر أحياناً، وأحياناً أخرى يتحدّث إليه وكأنهما زميلان تقريباً، لكن كارل في ظهيرة السبت الماطرة تلك من أواسط آذار كان في مزاج رخيّ، وبينما جلس الصِّبْية إلى الطاولة يتناولون شطائرهم، ويشربون الحليب، أخبرهم أنه قد اجترح كشفاً عظيماً. ودون ذكر ماهية الكشف، فتح البرادَ، وسحبَ علبة من زبدة الـ لاند أوليك، تناول مقصّاً ولفافة لاصق من درجٍ تحت المجلى، وحمل الأشياء الثلاثة إلى الطاولة. انظرا إلى هذه، قال، وراقبه الصبيان وهو يقتطع العلبة ذات الوجوه السّتّة، ويضع جانباً الوجهين الكبيرين اللذين يحملان رسم البنت الهندية. اقتطعَ إحدى الصورتين، مُزيلاً ركبتَيّ البنت وبشرتها المكشوفة أعلى الركبتين مباشرة، اللتين كانتا تبرزان من أسفل حافّة التنورة، ثمّ ألصق الركبتين على علبة الزبدة في الصورة الأخرى، ودون أدنى توقّع، كانت الركبتان قد آلتا ثديين، ثديين عاريين كبيرين، لكلّ منهما بقعة حمراء في وسطه، يمكن لأيّ شخص في العالم أن يرى فيهما حلمتين مكتملتين ناتئتين. تحوّلت الأميركية الهندية الحمراء من جنوب غرب داكوتا إلى دمية جنسية شهية، وفي حين ابتسم كارل، وشقشق بوبي بالضحك، اكتفى فيرغسون بالنظر دون أن ينبس بكلمة. يا له من عمل ذكيّ! جال في خاطره. بعض ضربات من مقصّه، مع قطعة لاصق شفّاف، وتصبح فتاة الزبدة عارية.

كانت هناك صور عاريات في *ناشيونال جيوغرافيك*، المجلّةِ التي اشترك بها والدا بوبي،

ولسبب ما لم يفرّطا بها أبداً، وبين حين وآخر في أثناء صيف 1959، كان فيرغسون وبوبي يعودان من المدرسة، ويتّجهان مباشرة إلى كراج عائلة جورج، حيث يستعرضان أكداس المجلات الصفراء باحثَين عن النساء عاريات الصدور، العيّنات الأنثروبولوجية من قبائل أفريقيا وأميركا الجنوبية، النسوة سوداوات وسمراوات البشرة من بقاع الطقس الدافئ اللواتي يتجوّلنَ بقليل الملابس أو دون ملابس تستر أجسادهنّ دون أن يخجلنَ من أن يُنظَر إليهنّ في مظهرهنّ ذاك، اللواتي يستعرضنَ أثداءهنّ باللامبالاة ذاتها التي تشعر بها نساء أميركا حين يكشفنَ أيديهنّ وآذانهنّ. كانت الصور تفتقر بجلاء إلى الشهوانية، وباستثناء جميلات قليلات من صغيرات السّنّ اللواتي ظهرنَ بين كل سبعة أو عشرة من أعداد المجلّة، لم تبدُ النساء جميعهنّ مثيرات لناظرَيّ فيرغسون، مع ذلك، كان من الممتع والمفيد أن يمعن المرء النظر في تلك الصور، التي لم تتعدَّ كونها تشكيلة لا متناهية من النماذج الأنثوية، وبالتحديد الفروق العديدة التي يمكن الوقوع عليها في حجم وتكوين الثديين، من الكبير إلى الصغير وما بينهما، من الثديين العاصفَين المفعمين بالحياة إلى الثديين المسطّحين والمترهّلين، من الثديين الشامخين إلى الثديين المغلوب على أمرهما، من الثديين متساويي الحجم إلى الثديين الغريبين في عدم تناسقهما، من الثديين الضحوكَين إلى الثديين الباكيين، من الشمطاوات العجفاوات إلى الأمّهات المُرضِعات الشنيعات المنتفخات. كان بوبي يفرط بضحكه المجلجل خلال تصفّحه النهم لأوراق الـ *ناشيونال جيوغرافيك*، ويضحك ليخفي الارتباك الذي اعتراه، بسبب رغبته بتفحّص ما قال إنها صور *قذرة*، لكن فيرغسون لم يرَ الصور قذرةً، ولم يشعر بالارتباك لرغبته في تفحّصها. كانت الأثداء على قدر من الأهمّيّة، لأنها الملمح المرئي الأكثر بروزاً الذي يميّز المرأة من الرجل، والمرأة هي الموضوع ذو الأهمّيّة الأقصى بالنسبة إليه في تلك الآونة. فحتّى لو كان لا يزال مجرّد صبيّ بالغ في عمر الثانية عشرة، إلا إن ما اضطرم في داخله كان كافياً بالنسبة إليه لأن يدرك أن لأيّام صباه أمداً سينقضي.

قد تغيّرتِ الأحوال. كان نهب المستودع في تشرين الثاني 1955، وحادث السّيّارة في شباط 1956 قد أزالا عمّي فيرغسون من دائرة العائلة. وبات عمّه أرنولد الموصوم بالخزي يقيم في كاليفورنيا البعيدة، والعمّ المريض ليو غادر هذه الأرض إلى الأبد، ولم يعد عالم الأخوة الثلاثة للتجهيزات المنزلية قائماً. وعلى مدى الشطر المربح من العام، بذل والده وسْعَه، كي يحافظ على استمرار العمل، لكنْ، لم تفلح الشرطة في استعادة التجهيزات المنهوبة، ولأنه فقَدَ حقه بمبلغ التأمين لرفضه توجيه الاتّهام إلى أخيه، كانت الخسائر التي تكبّدها جرّاء تصرّفه الرحيم أضخم من أن يستطيع تذليلها. ولكي لا يغرق في الديون، عمد إلى تسديد قرض الطوارئ

من المصرف بمعونة من جَدّ فيرغسون، ثمّ بيع المستودع وما يحتويه، ليحرّر نفسه من عبء المبنى، هارباً من شبحَيّ أخويه والعمل المنهار الذي صاغ شكلَ حياته لأكثر من عشرين عاماً. كان البناء لا يزال قائماً بالتأكيد، في بقعته القديمة على شارع سبرينغفيلد، غير أنه يحمل الآن اسمَ مفروشات نيومان المستعملة.

ردَّ والد فيرغسون المبلغ الذي اقترضه من والد زوجته مع عائدات المبيعات، ثمّ افتتح متجراً جديداً أصغر بكثير من سابقه في مونتكلير باسم *ستانلي لتجارة أجهزة التلفاز والراديو*. من وجهة نظر فيرغسون، كان ذلك الإجراء أفضل من سابقه، من حيث إن عمل والده الجديد كان يقع على مسافة كتلة بناء واحدة من استوديو روزلاند، وأصبح من الممكن الآن بالنسبة إليه المرور بأحد مكانيَ عمل الوالدين في أيّ وقت يشاء. صحيح أن متجر ستانلي للتلفاز والراديو كان يغصّ بالبضائع، لكنه يبعث إحساساً مريحاً، وقد استمتع فيرغسون بزيارة أبيه هناك بعد المدرسة، والجلوس إلى جواره وهو منكبّ على طاولة شغله في الغرفة الخلفية في أثناء صيانته لأجهزة التلفاز والراديو والأدوات المنزلية الأخرى المعطّلة كافّة، فكان يفكّك ويعيد تركيب سخّانات الخبز والمراوح والمكيّفات ومصابيح الإنارة ومسجّلات الصوت والفرامات والعصّارات والمكانس الكهربائية التالفة، إذ شاعَ كالنار في الهشيم أن والد فيرغسون كان الرجل الذي يمكنه إصلاح كلّ شيء، وفي حين تكفّل الشّابّ مايك أنطونيللي في صالة المتجر الأمامية يبيع أجهزة الراديو والتلفاز لأهل مونتكلير، سلخَ ستانلي فيرغسون جُلَّ وقته في القسم الخلفيّ، يشتغل بصمتٍ، ويفحص بجَلَدٍ الأجهزة المعطوبة، ويبعث فيها الحياة من جديد. كان فيرغسون يعي حقيقة أن شيئاً ما قد تحطّم في داخل والده نتيجة خيانة أرنولد، ذلك أن إحياء عمله القديم كان بالنسبة إليه نوعاً من الدفاع الذاتي، وكان المستفيدان الرئيسان من ذلك التغيير هما زوجته وابنه. فقد قلّتْ شجارات والدَي فيرغسون عن ما كانت عليه من قبل. انقشعتِ التوتّرات داخل الأسرة، بل في واقع الأمر تلاشتْ بشكل نهائي، ووجد فيرغسون ما يبعث على الطمأنينة في أن أمّه وأباه باتا يتناولان الغداء معاً كل يوم، كلاهما جالس على المقعد الركني في مطعم 'آل'، ومرّة تلو المرّة، بطُرُق شتّى، رغم أن مؤدّاها واحد، ستتوجّه أمّه إليه بملاحظات تعني أساساً: *والدكَ رجل طيّب، يا آرتشي، إنه أفضل رجل في العالم*. الرجل الطيّب، داخَلَ فيرغسون شعورٌ بارتياح أكبر في حضور والده الذي لم يزل الرجل الصامت معظم الوقت، الرجل الذي أقلع الآن عن حلمه القديم بأن يصبح روكفلر الجديد. بات باستطاعتهما الآن تبادل الحديث، وفي معظم الأحيان، أحسّ فيرغسون بثقة لا بأس بها بأن أباه كان يصغي إليه. وحتّى حين لا يتحدّثان، كان فيرغسون يسعد بالجلوس قرب والده إلى منضدة الصيانة بعد المدرسة، وهو يُنجز وظائفه المدرسية على

طرف من الطاولة بينما يتابع الأب عمله على الطرف الآخر، يفكّ ببطء جهازاً عاطلاً جديداً، ثمّ يعيد تركيبه مرّة أخرى.

كان المال أقلّ وفرةً ممّا كان عليه أيّام عالم الأخوة الثلاثة للتجهيزات المنزلية. بدلاً من السّيّارتين، يمتلك والداه سيّارة واحدة - سيّارة أمّه البونتياك الزرقاء الشاحبة صناعة 1954، وشاحنة شيفروليه حمراء مغلقة مخصّصة لإيصال المبيعات طُبِعَ على بابيها الجانبيين اسم متجر والده. في الماضي، درَج والداه على القيام برحلات في عطلة الأسبوع، معظمها إلى جبال كاتسكيلز لمدّة يومين لِلَعب التنس والرقص في غروسينغرز وكونكورد، لكنهما توقّفا عن ذلك بعد افتتاح *ستانلي لتجارة أجهزة التلفاز والراديو* في 1957. وفي 1958، عندما احتاج فيرغسون لقفّاز بيسبول جديد، أقلّه والده مسافة طويلة إلى متجر سام براونشتاين في وسط مدينة نيوارك، لكي يشتريه له بسعر التكلفة بدلَ أن يعطيه المال، فيشتري القفّاز ذاته من متجر غالافر للأدوات الرياضية في مونتكلير. كان فَرْق المبلغ اثني عشر ونصف دولار، أي دفع عشرين تماماً بدل اثنين وثلاثين ونصف دولار، الذي لم يكن ذلك الفرق الهامّ في المنظور الكبير للأشياء، لكنه توفير ملحّ رغم ذلك، ما يكفي لِلَفت انتباه فيرغسون إلى واقع أن الحياة قد تغيّرت، وأن عليه من الآن فصاعداً أن يفكّر بتأنٍّ قبل أن يطلب من والديه كلَّ ما يتجاوز الأساسيات الضرورية. لم يمضِ وقت طويل بعد ذلك، حتّى توقّف كاسي بورتون من العمل لديهم، وإلى حدّ بعيد بالطريقة نفسها التي دفعت كلاً من أمّه والخالة ميلدرد إلى البكاء في حضن الأخرى حين وصلتا المطار سنة 1952، بكى كاسي وأمّه في الصباح الذي أعلنت العائلة أنها لم تعد تستطيع تدبّرَ بدل خدماتها. البارحة توفّرت شرائح اللحم، واليوم ليس إلا الهامبرغر. لقد زلّت العائلة درجة أو اثنتين، لكنْ، مَنْ ذا الذي يتمتّع بقواه العقلية ويجافيه النوم فيما لو اضطرّ إلى بعض التقتير؟ والكتاب من المكتبة العمومية هو الكتاب نفسه الذي يشتريه المرء من متجر الكُتُب، والتنس يبقى التنس إذا مارستَه في الملاعب المحلّيّة أو في النوادي الخاصّة، وشرائح اللحم والهامبرغر قد اقتُطعَت من البقرة ذاتها، وحتّى لو افتُرِض أن الشرائح كانت تدلّ على الحياة المنعمة، تبقى ثمّة حقيقة أن فيرغسون طالما أحبّ الهامبرغر، خصوصاً مع إضافة الكتشب إليها - الكتشب نفسه الذي دهنَ به قطعة من لحوم خاصرة البقر متوسّط العمر النادرة والثخينة التي كان والده يحبّها للغاية.

لم يزل الأحد أفضل أيّام الأسبوع، على الأخصّ حين كان أحداً بلا زيارات مِن أو *إلى* أناس آخرين، واليومَ الذي استطاع فيرغسون أن يمضيه وحيداً مع والديه، والآن وقد أصبح أكبر وأقوى وابن اثني عشر عاماً رشيقاً وعاشقاً للرياضة، فإنه استمتع بمباريات تنس الصباح مع الأهل، ومباريات الفرد ضدّ الفرد مع أبيه، أو مباريات الاثنين ضدّ واحد بين فريق الأمّ والابن، وفريق الأب/

الزوج، ومباريات الثنائي ضدّ براونشتاين وابنه الأصغر، وبعد التنس، كان هناك الغداء في مطعم 'آل'، مع مزيج الشوكولا بالحليب الذي لا مناص من تناوله، وبعد الغداء، كانت السينما، وبعد السينما، كان الطعام الصيني بالانتظار في مطعم غرين دراغون في غلِنْ ريدج أو الدجاج المقليّ في ال ليتل هاوس في ملبورن أو شطائر الديك الرومي الحارّة في بالز كابين في وست أورانج أو شرائح العجل المطبوخة في الوعاء، ثمّ كعك الجبن بالفواكه في مطعم كليرمونت في بلدة مونتكلير، في أماكن الطعام المزدحمة الرخيصة من ضواحي نيوجرسي، ربّما كانت صاخبة وشعبية، لكن الطعام جيّد، والوقت مساء الأحد، والثلاثة معاً، ورغم أن فيرغسون كان قد بدأ يبتعد عن والديه في تلك الأثناء، بقي ذلك اليوم من الأسبوع محافظاً على وَهْمِ أن الآلهة قد تكون رحيمةً حين تشاء ذلك.

فشلت الخالة ميلدرد والعمّ هنري في إنجاب ابن الخالة الذي تاق إليه عندما كان صبياً صغيراً من آل إدلر. كانت الأسباب مجهولة لديه، إن كانت عقماً أو ضعف إخصاب أو رفضاً واعياً لزيادة عدد سكّان العالم، لكنْ، على الرغم من خيبة فيرغسون، عملَ شاغرُ الساحل الغربيّ المتمثّل بعدم وجود ابن خالةٍ لصالحه على أكمل وجه. فالخالة ميلدرد التي يصحّ أنها لم تكن قريبة من أختها، لكنها مع عدم وجود أولاد لها، ولا أبناء وبنات أخ أو أخت آخرين، فإن كلّ ما لديها من دوافع أمومية قد انصبّ على آرتشي الوحيد الذي لا ثاني له. وبعد انتقالها إلى كاليفورنيا عندما كان فيرغسون في الخامسة، رجعت مع العمّ هنري إلى نيويورك بضع مرّات في زيارات صيفية مطوّلة، وحتّى حين كانت تعود إلى بيركلي طيلة ما تبقّى من العام، كانت تبقى على تواصل مع ابن أختها من خلال كتابة الرسائل أو الاتّصال به هاتفياً بين الحين والآخر. وكان فيرغسون يعي أن ثمّة شيئاً ما قارساً يلفّ خالته، ذلك أنها قد تصبح جافّة ومتعنّتة، وحتّى بالغة الفظاظة مع الآخرين، لكنها معه تتصرّف وكأنه 'آرتشيها' الواحد الأحد، وكأنها شخص آخر، مفعمة بالحبور وروح الدعابة والاهتمام بما يفعله ويفكّر به ويقرؤه صبيُّها. منذ طفولته المبكّرة، اعتادت شراء الهدايا له، كثير الهدايا التي كانت تأتي على شكل كُتُب وتسجيلات، ثمّ بعد أن أصبح أكبر عمراً، وازدادت ملكاته الذهنية، ازداد عدد الكُتُب والتسجيلات التي كانت ترسلها إليه من كاليفورنيا أيضاً. ربّما لم تثق بأمّه وأبيه في أن يكونا مرشديه الثقافيين المناسبين، ربّما فكرت بأن والديه كانا نكرتَين بورجوازيين غير متعلّمَين، ربّما اعتقدت أن من واجبها انتشال فيرغسون من قَفْر الجهل الذي يقيم فيه، وفي ظنّها أنها وحدها مَنْ يمكنه تقديم العون الضروري، ليرتقي ذروات التنوير السامي. وممّا لا شكّ فيه أنها (كما سمع أباه مصادفةً يقول لأمّه) كانت مُدّعية *ثقافة*، لكنْ، لم يكن ممكناً دحض حقيقة أنها، سواء كانت مُدّعية أم لا، مثقّفة رفيعة، امرأة ذات إلمام واسع،

تكسب عيشها من عملها كأستاذة جامعية، والأعمال التي أرشدتْ ابن أختها إليها كان لها في واقع الأمر بالغ الأهمّيّة بالنسبة إليه.

ليس من فتى آخر في نطاق معارفه مَن قرأ ما قرأه هو، ولأن الخالة ميلدرد اختارت قراءاته بعناية، بالضبط بالعناية نفسها حين اختارتها لأختها خلال فترة وصايتها عليها في سنيِّها الثلاث عشرة الأولى، قرأ فيرغسون الكُتُب التي أرسلتها إليه بشراهة الجائع جسدياً، إذ إن الخالة ميلدرد فهمتْ نوعية الكُتُب التي تشبع نهمَ الصبي الآخذ بالتّطوّر وهو يكبر من سنته السادسة إلى الثامنة، ومن الثامنة إلى العاشرة، ومن العاشرة إلى الثانية عشرة - ثمّ السنوات التي تلتْ ذلك وصولاً إلى نهاية دراسته الثانوية. بدايةً بحكايات الجنّ، ثمّ بكُتُب الأخوين غريم العديدة والملوّنة، والروايات الخيالية لـ لِويس كارول وجورج ماكدونالد وي. نيسبيت، أُتبِعَتْ بصياغات بولفينش للأساطير اليونانية والرومانية، الإصدار المخصّص للأولاد من الأوديسة، شبكة شارلوت، كتاب مقتطفات من *ألف ليلة وليلة*، قدّم *الرحلات السبع للسندباد البحّار*، ثمّ بعد عدّة أشهر من ذلك، منتخبات بستمائة صفحة من مجمَل *ألف ليلة وليلة*، وفي السنة التالية *الدكتور جيكل والمستر هايد*، قصص الرعب والغموض من تأليف إدغار آلان بو، ثمّ *الأمير والفقير*، *المخطوف*، *ترانيم عيد الميلاد*، *توم سويَر*، *دراسة في القِرْمِزيّ*، وكانت استجابة فيرغسون لكتاب كونان دويل قوية، حيث كانت هدية خالته ميلدرد في عيد ميلاده الحادي عشر دسمة للغاية، طبعة غنية جداً بالرسوم من أعمال *شرلوك هولمز الكاملة*. كانت تلك بعض من الكُتُب، لكنْ، كانت هناك التسجيلات أيضاً، التي لم تقلّ أهمّيّة عن الكُتُب، وخصوصاً في هذه الآونة، السنتين أو الثلاث الأخيرة، مذ بلغ التاسعة أو العاشرة، فقد جاءت في فترات زمنية متقطّعة ومنتظمة، تتراوح بين ثلاثة وأربعة أشهر. ثمّة الجاز والموسيقا الكلاسيكية والموسيقا الشعبية والإيقاع والبلوز، وحتّى الروك أند رول. مرّة أخرى، كما الأمر مع الكُتُب، كان نهج الخالة ميلدرد مُحْكَماً في تربويته، وسارت بـ فيرغسون حسبَ المراحل، مدركة أن لويس أرمسترونغ يجب أن يأتي قبل تشارلي باركر، الذي يجب أن يأتي قبل مايلز ديفيس، أن تشايكوفسكي وريفال وغيرشوين يجب أن يأتوا قبل بتهوفن وموتزارت وباخ، وأنه يجبُ الاستماع إلى الـ ويفرز قبل الـ ليد بيلي، ثمّ إن إيللا فيتزجيرالد وهي تغنّي كول بورتر كانت خطوة أولى ضرورية قبل أن يتدرّج المرء باتّجاه بيلي هوليداي وهو يغنّي *فاكهة غريبة*. وببالغ الأسى، اكتشف فيرغسون افتقاره لأدنى قدر من الموهبة بالعزف على آلة موسيقية. كان قد جرّبَ العزف على البيانو في سنّ السابعة، وأقلعَ خائباً بعد سنة؛ جرّبَ الفلوت في التاسعة، وأقلع؛ جرّب الطبول في العاشرة، وأقلع. لسبب ما، عانى من مشكلة في قراءة النوتة الموسيقية، فلم يستطع أن يستوعب العلامات الموسيقية على الصفحة، والدوائر

الفارغة كما الممتلئة المثبّتة على الخطوط أو المعشّشة بينها، والمفاتيح المسطّحة والمفاتيح الحادّة، ودليل المقام، والدرجات الفاصلة ودرجات الباسّ، لم يجد إلى مجموعة الرموز سبيلاً أو أن يألفها تلقائياً بما احتوته من أحرف وأرقام، ولذلك كان مرغَماً على أن يفكّر بتأنٍّ بكل نوتة قبل أن يعزفها، التي تقوده عبر مفاتيح ومعايير كلّ قطعة بعينها، وبالنتيجة، جعل ذلك من المستحيل عليه أن يعزف أي شيء. كانت هزيمة يلفّها الحزن. لقد شُلَّ ذهنه الذي طالما كان متوقّداً ونشطاً عندما تعلق الأمر بفكّ رموز تلك العلامات المستعصية، وبدلاً من أن يستمرّ في مناطحة الحائط، انسحبَ من المعركة. هزيمة يلفّها الحزن، لأن حبّه للموسيقا كان جامحاً، وكان بوسعه الإصغاء إليها على أكمل وجه حين يعزفها الآخرون، إذ كانت أذناه حسّاستين ومتناغمتين مع رهافة المؤلّف الموسيقي وعزفِه، لكنه عجز عن أن يكون موسيقياً بنفسه، أخفق بشكل مطبق، ما كان يعني أنه الآن قد اتّخذ دور المستمع، المتحمّس الذي تفانى بالاستماع، وكانت الخالة ميلدرد ذكية بما يكفي لأن تعرف كيف تغذّي هذا التفاني، الذي كان إحدى الركائز الأساسية للبقاء على قيد الحياة.

ذلك الصيف، في إحدى زيارات الخالة ميلدرد مع العمّ هنري إلى الساحل الشرقي، أسهمت في أن تلهمَ فيرغسون أمراً ذا أهمّيّة عالية بالنسبة إليه، شيئاً لا ينتمي إلى الكُتُب والموسيقا، لكنه يوازيهما مهابةً في ذهنه، إن لم يكن يفوقهما في ذلك. قدمتْ إلى مونتكلير لقضاء بعض الأيّام مع صبيّها الواحد الأحد ووالديه، وحين جلسا معاً لتناول الغداء في الظهيرة الأولى (كانت والدته ووالده في العمل، أي أن فيرغسون وخالته كانا وحيدين في المنزل)، أشار إلى زجاجة صودا الوايت روك التي استقرّت إلى الطاولة، وسألها عن سبب وجود جناحين على ظهر البنت. قال إنه لم يفهم السبب. فليسا جناحَي ملاك أو جناحَي طائر، اللذين يتوقّع المرء رؤيتهما لدى الكائنات الأسطورية، وإنما جناحان هشّان لحشرة، جناحا يعسوب أو فراشة، وذلك ما وجده محيّراً إلى أبعد الحدود.

ألا تعلم مَنْ هي، يا آرتشي؟ قالت خالته.

لا، أجاب. بالطبع لا أعرف. لو كنتُ أعرف فلماذا أستفسر عن الأمر؟

ظننتُ أنكَ قرأتَ بولفينش الذي أعطيتُكَ إيّاه منذ سنتين.

قرأتُه.

قرأتَه بأكمله؟

أظنّ ذلك. ربّما نسيتُ فصلاً أو اثنين. لا أستطيع أن أتذكّر.

لا بأس. يمكنكَ أن تستخرجها من الكتاب فيما بعد. (ترفع الزجاجة عن الطاولة، تنقر بإصبعها

على رسم البنت.) ليست صورة جيّدة كما ينبغي، لكنْ، يُفترض أنها Psyche. هل تتذكّرها الآن؟

كيوبيد وسايكي. قرأتُ الفصل، لكنهم لم يذكروا شيئاً يتعلّق بأن لـ سايكي جناحين. لـ كيوبيد جناحان، جناحان وجعبة سهام، لكن كيوبيد إله، وسايكي مجرّد آدمية. فتاة جميلة، لكنها تبقى بشرية، إنساناً مثلنا. لا، انتظري. أتذكّر الآن. بعد أن تتزوّج كيوبيد، تصبح خالدة هي الأخرى. هذا صحيح، أليس كذلك؟ لكنني لا أزال أجهل لماذا تمتلك هذين الجناحين.

لكلمة *Psyche* معنيان بالإغريقية، قالت خالته. شيئان مختلفان للغاية، لكنهما لافتان. *فراشة* وروح. لكنكَ حين تقف وتفكّر في الأمر بروية، تجد أن *فراشة وروح* ليستا على هذه الدرجة من الاختلاف، رغم ذلك كلّه، أهما مختلفتان؟ تبدأ الفراشة كيرقة، كنوع بشع من المضغة الأرضية الدودية، وذات يوم تبني اليرقة شرنقة، وبعد وقت محدّد تنفتح الشرنقة، ومنها تخرج الفراشة، الكائن الأجمل على الأرض. ذلك ما يحدث للأرواح أيضاً، يا آرتشي. إنها تكابد في غياهب الظلام والجهل، تعاني التجارب والنوائب، وشيئاً فشيئاً تتطهّر بتلك الآلام، تتماسك بسبب تلك المحن التي ابتُليَت بها، وذات يوم، إذا كانت الروح الواقعة تحت التجربة روحاً مستحقّة، فستتحرّر من شرنقتها، وتحلّق في الهواء كفراشة آسرة الجمال.

ليس موهوباً في الموسيقا، ولا في الرسم أو التصوير الزيتي، ويفتقر إلى الكفاءة بشكل مروّع في الغناء والرقص والتمثيل، لكنه كان موهوباً في شيء واحد، هو ممارسة الألعاب، الألعاب البدنية، الرياضة في أنواعها الموسمية كلها، البيسبول في الطقس الدافئ، كرة القدم في الطقس الثلجي، كرة السّلّة في الطقس معتدل البرودة، وفي الوقت الذي بلغ فيه سنّ الثانية عشرة كان قد انضمّ إلى فريق من هذه الرياضات، وكان يمارسها على مدار العام دون توقّف. منذ ظهيرة أواخر أيلول من سنة 1954، الظهيرة التي لن تُنسَى أبداً التي أمضاها مع كاسي يشاهدان كيف أحبط مايز وردز فريق إنديانز، أصبحت البيسبول الهاجس الدائم، وحين بدأ اللعب بجدّيّة في السنة التالية، أثبت جدارته فيه بشكل مذهل، جدير كأفضل اللاعبين من حوله، قوي في الملعب، قوي باستخدام المضرب، يلازمه شعور فطري بالمتغيّرات الطفيفة في أي موقف خلال فترة المباراة، وحين يكتشف شخص أن بو سعه إنجاز شيء على وجه حسن، يميل إلى المواظبة على إنجازه، طالما يستطيع ذلك. ما لا يُعَدّ من صباحات نهاية الأسبوع، ما لا يُعَدّ من ظهيرات الأيّام الدراسية، ما لا يُعَدّ من ممارسة الألعاب الصغيرة في أيّام الأسبوع مع الأصدقاء في الحدائق العامّة، ناهيكَ عن الفروع المحلّيّة المتعددة، من بينها stickball، wiffleball، roofball، kickball، wall ball، punch ball، stoopball، ومن ثمّ، في التاسعة، دوري

الصغار، مع فرصة للانضمام إلى فريق نظامي، وارتداء الزي الموحّد مع رَقْم على الظهر، رَقْم 9، كان أبداً صاحب الرَّقْم 9 في ذلك الفريق، وفي الفِرَق الأخرى كلّها التي أتاحته له، 9 الذي يدل على تسعة لاعبين وتسعة أشواط، 9 هو الجوهر العدديّ الصرف للّعبة ذاتها، وعلى رأسه القبّعة الزرقاء الداكنة مع الـ G البيضاء التي خيْطَتْ أعلاها، G لمتجر غالافر للمستلزمات الرياضية، راعي الفريق، وهو الفريق ذو المدرّب المتفرّغ، ومتطوّع هو السّيّد بالداساري، الذي كان يدرّب اللاعبين على الأساسيات خلال حلقات التمارين الأسبوعية، وهو يضرب كفاً بكفّ ويصرخ بالشتائم والتوجيهات والتشجيع في أثناء مباراتيَ الأسبوع، الأولى صباح أو ظهيرة السبت والثانية في نهار أو مساء الثلاثاء، وهناك كان فيرغسون يقف في موضعه ضمن الميدان، وينمو من ولد نحيل إلى فتى قوي البنية خلال السنوات الأربع التي أمضاها مع ذلك الفريق، كلاعب قاعدة ثانٍ ورامٍ ثامن ضمن تسعة ولاعب وسط بين القاعدة الثانية والثالثة ورامٍ رَقْم اثنين ضمن عشرة، ورامي وسط وcleanup ضمن 11 و12، وأضفى البهجة باللعب أمام الجمهور، ما يتراوح بين 50 إلى مائة إنسان، من أهالي اللاعبين وأنسبائهم، أصدقاء متنوّعين، أبناء عمومة وأخوال، أجداد وجَدّات، ومتفرّجين عابرين، هتافات استحسان واستهجان، سباب، تصفيق، ضرب بالأقدام من على المدرّجات الذي كان يبدأ مع أوّل رمية تُقذَف وينتهي مع نهاية المباراة، وخلال تلك السنوات الأربع قلّما فوّتت أمّه مباراة، سينظر باحثاً عنها وهو يقوم بتمارين التحمية مع أعضاء الفريق، وفجأة ستظهر بين الجمهور، تلوّح له من مكانها على المدرّجات، وكان يستطيع على الدوام سماع صوتها يشقّ طريقه إليه من بين الآخرين كلّما استعدّ لرمية المضرب، *هيّا بنا، يا آرتشي، فلتكن ضربة حلوة وبسيطة، اقذفها من هنا، يا آرتشي*، ثمّ بعد زوال *عالم الأخوة الثلاثة للتجهيزات المنزلية* ومولد *ستانلي لتجارة أجهزة التلفاز والراديو*، بدأ والده يأتي إلى المباريات بدوره، ورغم أنه لم يكن يصيح كما كانت تفعل أمّ فيرغسون، على الأقلّ، ليس بقوّة تكفي لأن يسمعه من فوق الجمهور، كان هو مَنْ بقي يحصي متوسّط رميات مضرب فيرغسون، التي تصاعدت بثبات بمرور السنوات، لتنتهي بمعدّل مرتفع بشكل غير معقول هو .532 للموسم الأخير، المباراة الأخيرة التي أُجريت قبل أسبوعين من محادثة فيرغسون والخالة ميلدرد عن سايكي، بل كان أفضل لاعب في الفريق حينذاك، أحد أفضل اثنين أو ثلاثة في الدَّوري، وذلك كان مستوىً من النوع الذي يمكن للمرء أن يتوقّعه من أفضل لاعب في عمر الثانية عشرة.

لم يكن الفتية الصغار يلعبون كرة السّلّة في الخمسينيات، لأنهم كانوا يُعدّون أصغر وأضعف من أن يقوموا برميات الكرة إلى إطار سلّة ترتفع عشر أقدام، لذلك لم تبدأ تمارين فيرغسون على الرمي إلى أن بلغ الثانية عشرة، لكنه كان يلعب كرة القدم باستمرار منذ سنّ السادسة وهو يعتمر

الخوذة وواقيات الكتفين والظهر في معظم الأحيان، فقد كان مقدَّراً له دون سواه أن يكون العدّاء الأسرع، لكنْ، ما إن نمتْ يداه ما يكفي للإمساك بالكرة بشكل محكَم حتّى تغيّر مركزه، إذ اكتشف أصدقاء فيرغسون أنه حظي بموهبة مجنونة بإرسال الرميات الطويلة، حتّى إن الطريقة الحلزونية التي كان يقذف بها الكرة بيمناه أصبحت أكثر سرعة ودقّة، ووصلت أبعد بكثير ممّا وصلتْه ضربات الآخرين، خمسين أو خمساً وخمسين ياردةً على أرض الملعب مع بلوغه الرابعة عشرة، وعلى الرغم من أن فيرغسون لم يحبّ اللعبة بالاجتهاد والحماس نفسيهما اللذين أولاهما للبيسبول، إلا أنه ابتهج بأن يلعب كظهير، لأن بعض الإثارة أشعرتْه أن ثمّة لذّة ما وراءَ إتمام الرمية الطويلة إلى متلقٍّ يجري بأقصى طاقته باتّجاه نهاية منطقة اللعب لمسافة ثلاثين أو أربعين ياردةً من خطّ المناوشة، وشعوراً غريباً بالاتّصال اللامرئي عبر الفراغ الأجوف الذي كان أشبه بتجربة تسجيل هدف برميةٍ تعقب قفزة عشرين قدماً، لكن ما يبعث السرور بمعنى ما، هو الاتّصال الذي يتأسّس مع شخص آخر بما هو نقيض للشيء الجامد المصنوع من الحبال المجدولة والفولاذ، ولذلك ثابر على أقلّ ما يمكن من جوانب مراعاة قواعد الرياضة (الاصطدامات العنيفة، الاعتراضات الخطرة، الارتطام المسبّب للكدمات) لكي يستمرّ بتجديد الشعور المثير برمي الكرة إلى زملائه في الفريق. ثمّ، في تشرين الثاني 1961، كطالب في الصّفّ التاسع بعمر الرابعة عشرة ونصف، تلقّى صدمة من قبل لاعب خطّ دفاع يزنُ مائتين وخمسة عشر رطلاً، يُدعى دينيس مورفي، وانتهى به الأمر إلى المشفى لكسر في ذراعه اليسرى. كان يخطط لعضوية فريق الثانوية في الخريف المقبل، لكن المشكلة في كرة القدم تكمن في ضرورة الحصول على موافقة الأهل، لكي يتسنّى للمرء ممارستها، وحين رجع إلى البيت من يوم دوامه الأوّل في الثانوية، وأبرزَ طلب القبول أمام والدته، رفضتِ التوقيعَ. تضرّع إليها، شجَبَ رفْضَها، شتمها لتصرّفها كأمّ هستيرية مفرطة الاهتمام بولدها، لكن روز لن تلين، وتلك كانت نهاية مسيرة فيرغسون في كرة القدم.

أعرف أنكَ تظنّني بلهاء، قالت أمّه، لكنكَ ستشكرني على ذلك ذات يوم، يا آرتشي. أنتَ فتى قوي، لكنكَ لن تكون أبداً قوياً ما يكفي أو كبيراً ما يكفي لأن تصبح أخرقَ، وذلك ما يجب أن تكونه حين تلعب كرة القدم - ستكون أخرقَ غليظ الجسد، مغفّلاً يستمتع بتحطيم الناس الآخرين، حيواناً بشرياً. كنتُ ووالدكَ في منتهى الانزعاج، لأنكَ كسرتَ ذراعكَ في السنة الماضية، لكنني أرى الآن أن الحادثة قد انطوت على نعمة، أو نذير، وأنا لن أسمح لابني أن يهشّم جسده في المدرسة، ليعرج في البيت على ركبتين معطوبتين ما تبقّى له من العمر. ثابرْ على البيسبول، يا آرتشي. إنها رياضة بهيجة، وأنتَ متميّز فيها، متابعتكَ وأنتَ تلعب ممتعة للغاية، ثمّ لماذا المجازفة بخسارة البيسبول بإيذاء نفسكَ في مباراة كرة قدم سخيفة؟ إذا أردتَ متابعة قذف

رمياتكَ الطويلة، فالعبِ التتش فوتبول. أعني، انظر إلى آل كينيدي. ذلك ما يلعبونه، أليس كذلك؟ أعضاء العائلة جميعاً في 'كيب كود' يمرحون ويتقاذفون كرات القدم شمالاً ويميناً، يضحكون حتّى يستلقوا على أقفيتهم. ذلك بالتأكيد ما تبدو السعادة بعينها بالنسبة إليّ.

آل كينيدي. حتّى في هذه الآونة، كفتىً في الخامسة عشرة، مستقلّ، حرّ الفكر، وأحياناً متمرّد، كان يعجَبُ كم استمرّت أمّه في استيعابه، كم لمّاحة في نفاذها إلى قلبه حين تدعو الحاجة، قلبه دائم التّخبّط والتضارب، فعلى الرغم من عدم استعداده للاعتراف بذلك إليها أو إلى أيّ شخص آخر، أدركَ أنها كانت على حقّ فيما يتعلّق بكرة القدم، ذلك أنه من ناحية الطباع لم يكن أهلاً لتقاليد الصراع الدامي وسيكون من الأفضل له أن يصرف انتباهه إلى البيسبول الأثير لديه، بل إنها حرّضتْ ميوله، واستحضرت آل كينيدي، الذين تعرف في قرارة نفسها أنهم محطّ اهتمام عميق لديه، اهتمام يفوق بكثير مسألة كرة القدم أو لا كرة القدم العابرة، وبتحويلها الحديث من الرياضة المدرسية إلى الرئيس الأميركي، أصبح ذلك الحديث حديثاً مختلفاً، وفجأةً لم يعد هناك من شيء إضافي، يمكن أن يُقال.

كان فيرغسون حينذاك يتابع كينيدي على مدى السنتين ونصف الماضيتين، بدءاً من تسميته مرشّحاً عن الحزب الديمقراطي في الثالث من كانون الثاني 1960، وبالتحديد قبل شهرين من عيد ميلاد فيرغسون التاسع عشر، وبعد ثلاثة أيّام من بداية العقد الجديد، الذي كان فيرغسون لسبب ما يرى فيه مؤشّر نهضة مفعمة بالغبطة، فحياته الواعية كلها قد انقضتْ خلال الخمسينيات في ظلّ رجل عجوز، هو الرئيس المهدّد بالنوبة القلبية، الجنرال السابق لاعب الغولف، ثمّ ها قد نحّاه كينيدي، ليفتتح عهداً جديداً مبشِّراً بكل ما في الكلمة من معنى، شابّ ممتلئ بالهمّة، عقد العزم على تغيير العالم، عالمِ الطغيان العنصري المجحف، عالمِ الحرب الباردة المسعور، العالم المحفوف بخطر سباق التّسلّح النووي، عالم القناعة الذي تُشكِّله الماديّة الأميركية اللاعقلانية، وحيث إن لا مرشّح آخر يعالج تلك المشكلات بما يرضي فيرغسون، فقد حسم أمره بأن كينيدي هو رجل المستقبل. كان في تلك المرحلة لا يزال أصغر من أن يفهم أن السياسة هي السياسة دائماً، ولكنْ، في الوقت نفسه، كان ناضجاً ما يكفي لأن يفهم أن هناك شيئاً ما يجب عليه تقديمه، إذ كانت تلك الأيّام من بداية السّتّينيّات حافلة بالأخبار عن اعتصام طاولة الغداء الذي نظّمه أربع طلاب سود في كارولاينا الشمالية كاحتجاج على العَزْل العِرْقِيّ، ومؤتمر نزع السلاح في جنيف، وإسقاط طائرة التّجسّس الـ U-2 على أرض سوفييتية، وأسْرِ الطّيّار غاري باورز، الذي دفعَ خروتشوف إلى مغادرة لقاء القمّة في باريس وإنهاء

محادثات جنيف لنزع السلاح دون إحراز تقدّم في الحَدّ من انتشار الأسلحة النووية، تبعَ ذلك عداء متنامٍ بين كاسترو والولايات المتّحدة، التي أوقفت استيراد السّكّر الكوبي بنسبة خمس وسبعين بالمائة، ومن ثمّ، بعد سبعة أيّام من ذلك، في مساء الخامس عشر من تمّوز، حظي كينيدي بالترشيح بالاقتراع الأوّل لمؤتمر الحزب الديمقراطي في لوس أنجلس. كان ذلك أوّل صيف من ثلاثة أصياف متوالية، قضاها فيرغسون في بلدته الأمّ بنيوجرسي، يلعب بيسبول التّجمّع الأميركي مع مَدْهِنز مونتكلير، أربع مباريات في الأسبوع كرَامي كرة استهلاليٍّ ولاعب قاعدة ثانٍ في تلك السنة، من حيث كان اللاعب الأحدث سنّاً في الفريق آنذاك، وكان يبدأ طريقه من الأدنى مرّة أخرى، وهو الوحيد ذو الثالثة عشرة في فريق من أبناء الرابعة عشرة والخامسة عشرة، وعلى امتداد شهري تمّوز وآب القائظَين، كان فيرغسون يقرأ صحفاً وكُتُباً مثل *مزرعة الحيوانات*، رواية *1984*، و*كانديد*، ويستمع باهتمام إلى سمفونية بتهوفن الثالثة والخامسة والسابعة للمرّة الأولى في حياته، بقي مخلصاً في متابعته لكل عدد جديد من مجلّة 'ماد'، وأعاد الاستماع مرّة تلو المرّة إلى ألبوم *Porgy and Bess* لـ مايلز ديفس، تابع مروره باستديو والدته ومتجر والده بزيارات ارتجالية، ثمّ بعد سلام وكلامٍ مقتضبين يتّجه إلى مقرّ الحزب الديمقراطي على مبعدة كتلة بناء ونصف على الطريق، حيث سيساعد المتطوعين الكبار بلصق الطوابع ومظاريف الرسائل التي يتمّ إعداها كردٍّ على الدعم اللامحدود الذي تلقّاه الحزب من أزرار الصدر ولصاقات واقيات السّيّارات والملصقات الدعائية، التي ثبّت كلاً منها باللاصق الشّفّاف على كلّ بقعة خالية على الجدران الأربعة في غرفة نومه، لذلك تحولتْ غرفته في نهاية الصيف إلى صومعة لـ كينيدي.

بعد سنوات، عندما أصبح ناضجاً بما يكفي لأن يدرك الأشياء أكثر، سيتذكّر فترةَ عبادة البطل والانقياد له في فتوته، لكن ذلك ما كانت تمثّل الأشياء له في 1960، وكيف يتسنّى له أن يلمّ بأفضل من ذلك وهو يعيش هذه الحياة منذ أمد لم يتجاوز الثلاثة عشر عاماً؟! لذلك عملَ فيرغسون لكي يفوز كينيدي، بالطريقة نفسها التي دعمَ فيها الـ جايانتس للفوز ببطولة العالم، إذ أدرك أن لا فرق بين الحملة السياسية والحدث الرياضي، الكلام مقابل ضربات الكرة، ربمّا، سوى أنها ليست أقلّ قسوة من مباراة ملاكمة دامية، وبالنسبة إلى منصب الرئيس، فإن الصراع كان يُخاض على نطاق أوسع وأكثر إثارة، بحيث لم يسبقه استعراضٌ آخر في أي مكان من أميركا. كينيدي المتألّق في مواجهة نيكسون المتشدّد، الملك آرثر في مواجهة غوسْ العابس، الرزانة في مواجهة الضغينة، الأمل في مواجهة المرارة، النهار في مواجهة الليل. أربع مرّات تواجَهَ الرجلان على التلفاز، أربع مرّات شاهد فيرغسون ووالداه المجادلات في غرفة الجلوس، وأربع مرّات باتوا على يقين أن كينيدي قد نال من نيكسون، رغم رأي الناس بأن نيكسون قد تفوّق عليه في

المناظرات الإذاعية، لكن القول الفصل للتلفزة الآن، فالتلفاز في كل مكان، وسرعان ما سيهيمن قريباً على كل شيء، تماماً كما تكهّن والد فيرغسون خلال الحرب، والرئيس المتلفَز الأوّل قد ربح المعركة على الشاشة المحلّيّة.

كان انتصار الثامن من تشرين الثاني، الانتصار بفارق أصوات ضئيل، بلغ مائة ألف صوت، أحد أصغر هوامش الفوز في التاريخ، وأكثر الانتصارات حساسيةً ضمن الهيئة الانتخابية بأربعة وثمانين صوتاً، وحين ذهب فيرغسون إلى المدرسة في صباح اليوم التالي، واحتفل مع أصدقائه مناصريّ كينيدي، بعض أولئك الأشخاص كان لا يزال غير مألوف لديه، وقد تمحور الحديث عن سبب غياب ولاية إلينوي، وسرَتْ شائعات بأن 'دالي' عمدة شيكاغو سطا على آلات الاقتراع من مناطق الجمهوريين، وألقى بها في بحيرة ميشيغان، وحين طرق ذلك الاتهام أذنيّ فيرغسون، وجد صعوبة في تقبّله، كانت الفكرة تبعث على الازدراء الشديد، والغثيان الشديد، فقد كان لمزحة كهذه أن تجعل من الانتخابات نكتة سمجة، صورةً زائفةً من التلاعب والأكاذيب المنحرفة، لكنْ، في تلك اللحظة، بينما يوشك فيرغسون على تنفيس ما اعتمل في داخله من غضب، قَلَبَ فجأةً وجهة أفكاره، مُدركاً أن عليه التّوقّف عن الخوض في سقط متاع فتية الكشافة، ويعترف بأن كلّ شيء قابل للتصديق. الفاسدون في كل مكان، وكلّما قويت شوكة الفاسد، تعاظمت احتمالات الفساد، لكنْ، حتّى لو كانت القصّة صحيحة، فليس ثمّة ما يوحي بأن لـ كينيدي يداً فيها. ربّما كان 'دالي' وفريق زعرانه من مقاطعة كوك هم الفاعلون. لكن كينيدي براء من ذلك، ليس كينيدي أبداً.

مع ذلك، وعلى الرغم من ثقته التي لم تتزعزع برجال المستقبل، أمضى فيرغسون بقية يومه متجوّلاً دون أن تفارق مخيّلته صور آلات الاقتراع الغارقة تلك وهي تستقرّ في قاع بحيرة ميشيغان، وحتّى بعد أن أثبتت الأرقام أن كينيدي قد فاز بالانتخابات مع الأخذ، أو عدم الأخذ، بالاعتبار ولاية إلينوي، لم يكفّ فيرغسون عن التفكير في الآلات، لم يكفّ عن التفكير فيها لسنوات.

في صبيحة العشرين من كانون الثاني، 1961، أخبر والديه أنه متوعّك قليلاً، وسألهما إن كان يمكنه التّغيّب عن المدرسة والبقاء في البيت. ولأن فيرغسون كان فتىً يتصرّف بما يمليه عليه ضميره، ولم يُعهَدْ عنه تلفيق الأمراض المتخيَّلة، حظيتْ رغبته بالموافقة. تلك كانت وسيلته لمشاهدة خطاب تنصيب كينيدي، وهو يجلس أمام جهاز التلفزيون، في حين كانت والدته ووالده على رأس عمليهما في مركز المدينة، وحيداً في غرفة الجلوس الصغيرة الملاصقة للمطبخ، يتابع وقائع الاحتفال في طقس واشنطن البارد والعاصف، شديد الصقيع والريح حتّى إنه عندما وقف روبرت فروست، العريق، بعينيه اللتين أسال دمعهما البرد، ليتلو قصيدةً، طُلب إليه أن يكتبها للمناسبة، روبرت فروست ذاته الذي كان صاحب سطر شِعْري، حفظه فيرغسون عن

ظهر قلب، *دربان يتشعّبان في غابة صفراء*، هبّت الريح بقوّة فجأة بعد وصوله منضدة القراءة، خاطفةً نصَّ القصيدة ذات الصفحة الواحدة من يديه، لتدور بها إلى الأعلى في الجوّ، تاركة الشاعر الكبير الأشيب ضعيفَ الجسد بلا شيء يقرؤه، غير أنه استجمع نفسه بوقار وخفّة يثيران الإعجاب، كما شعر فيرغسون، وألقى قصيدة قديمة يحفظها، بينما كانت القصيدة الجديدة تطير فوق الحشد، وليحوّل ما كان يمكن أن يشكّل كارثة له إلى نوع من نصرٍ عجيب، مؤثّر، لكنه كوميدي بعض الشيء أيضاً، أو، كما وصفه فيرغسون لأهله في ذلك المساء، كلا الحالتين كانتا مضحكتين وغير مضحكتين في الآن نفسه.

ثمّ جاء الرئيس الذي كان قد أدلى بقَسَمه للتوّ، ولحظةَ بدأ يلقي خطابه، بدتْ الملاحظات التي صدرتْ عن ذلك البيان البليغ المحبوك بشكل مُحكَم طبيعيةً بالنسبة إلى فيرغسون، طيّعة في انسجامها مع آماله العميقة، لدرجة أنه وجدَ نفسه يصغي إليها بطريقة إصغائه نفسها إلى مقطوعة موسيقية. ".. الإنسان يحمل بين يديه الفانيتين ... ولندع هذه الكلمة تنطلق ... سندفع أي ثمن، وسنتحمَّل أي عبء ... يكافحون لكسر أغلال البؤس الشامل .. ولندع القوى الأخرى كلها تعلم ... أن جيلاً أمريكيًا جديدًا قد تسلّم الشعلة ... وسنواجه أيّة صعوبات، وسندعم أي صديق، وسنعارض أي عدوّ ... لتغيير ذلك التوازن غير الأكيد للإرهاب الذي من شأنه وقف مسبّبات الحرب النهائية للبشرية ... الآن يدعونا البوق مرّة أخرى ... دعوة لتحمُّل عبء كفاح طويل مستمرّ كل عام منذ أمد طويل ... مبتهجين بالأمل، صبورين في المحن ... إنه نضال في مواجهة أعداء البشرية المشتركين، وهم: الطغيان والفقر والمرض والحرب ذاتها ... لنستكشف معًا النجوم، ونُخضِع الصحراء، ونقضي على الأمراض، ونستفيد من أعماق المحيط، ونشجّع الفنون والتجارة .. دعونا نبدأ من جديد ... لا تسألوا عن ما ستقدّمه أمريكا لكم، بل عن ما يمكننا فعله مجتمعين..".

على مدى الأشهر العشرين التالية، راقب فيرغسون عن كثب رجلَ المستقبل وهو يخطو إلى الأمام، يبدأ فترة حكمه بإنشاء *فيلق السلام*، ثمّ بتدميره بشكل شبه كامل عند هزيمته في خليج الخنازير يومَ السابع عشر من نيسان. بعد ذلك بثلاثة أسابيع، قُذفتْ كرة قدم بحجم بشري، اسمها آلان شيبرد في الفضاء من قِبَل وكالة الفضاء الأميركية ناسا، وأعلن كينيدي أن الأميركيين سيخْطون على القمر قبل نهاية السّتّينيّات، الذي رآه فيرغسون صعب التصديق، لكنه أملَ أن يحدث، لأنه أراد من الرجل الذي يؤمن به أن يفي بعهوده، وكان جاك وجاكي في باريس للقاء ديغول، تلا ذلك يوماً مباحثات مع خروتشوف في فيينا، وفي رفّة جفن لاحقة، بينما يقرأ فيرغسون في السياسة الأميركية المعاصرة، *صناعة الرئيس، 1960*، شيّد جدار برلين وبدأت محاكمة إيخمان

في القدس، ذلك المشهد الكئيب للقاتل نصف الأصلع وهو يرتعش وهو يجلس منفرداً في القفص الزجاجي، الذي كان فيرغسون يشاهده على التلفاز كلّ يوم بعد عودته من المدرسة، مسكوناً بهول الأمر، ومع ذلك يبقي عينيه مسمّرتين إلى الشاشة، عاجزاً عن إشاحة عينيه، وإلى أن انتهت المحاكمة، كان قد شقّ طريقه عبر الصفحات الـ 1245 كلها من صعود *الرايخ الثالث وسقوطه*، المجلد الكبير الذي ألّفه الصحافي السابق المدرج في القائمة السوداء وليام شيرر، الفائز بجائزة الكتاب على مستوى أميركا سنة 1961، وكان أضخم كتاب قرأه فيرغسون حتّى ذلك الحين. استُهلّت السنة التالية بمأثرة بطولية في الفضاء الخارجي: أُرسِلَ جون غلِنْ إلى ما وراء حدود الجزء الأدنى من الغلاف الجوي (تروبوسْفير)، ودار حول الأرض ثلاث مرّات في شباط، الأمر الذي كرّره سْكوت كاربنتر في الربيع، ومن ثمّ، بعد يومين من قبول جيمس ميريديث كأوّل طالب أسود في جامعة مسيسيبي (مشهد آخر تابعه فيرغسون على التلفاز، وهو يتضرّع بأن لا يُرجَم الشّابّ المسكين بالحجارة حتّى الموت)، خطفَ وولي شيرا الأضواء من غلِنْ وكاربنتر بالدوران حول الأرض ستَّ مرّات في أوائل تشرين الأوّل. كان فيرغسون في الصّفّ العاشر في ذلك الحين، سنته الأولى في ثانوية مونتكلير، ولأن والدته رفضت توقيع الطلب في أيلول، بدأ موسم كرة القدم دون وجوده في صفوف الفريق. كان قد تجاوز تلك الخيبة إلى حدّ بعيد مع قيام شيرا برحلته، بل ولمس ميلاً جديداً إلى شخص آن - ماري دومارتان، زميلته في سنة الثانوية الثانية التي قدمتْ من بلجيكا إلى أميركا منذ سنتين، وكانت تحضر معه حصص الهندسة والتاريخ، وكان مستغرقاً في أمر تلك المشاعر المتصاعدة بشكل سريع حتّى لم يُترَك له في تلك الأثناء إلا النذر اليسير من الوقت للتفكير في رجل المستقبل، ولذلك في ليل الثاني والعشرين من تشرين الأوّل، عندما خاطبَ كينيدي الشعب الأميركي، ليخبرهم عن قواعد الصواريخ الروسية في كوبا والحصار الذي سيضعه في حيّز التنفيذ، لم يكن فيرغسون في البيت مع والديه، وهما يتابعان البثّ التلفزيوني. بل كان يجلس في حديقة عامّة مع آن - ماري دومارتان، يطوّقها بذراعيه، ويقبّلها للمرّة الأولى. لمرّة واحدة كان فيرغسون الملاطف ذاهلاً عن ما يحصل، والأزمة الدولية الأعظم منذ الحرب العالمية الثانية، التلويح بصراع نووي والنهاية المحتملة للجنس البشري، لم تجد سبيلها إليه إلا مع مجيء الصباح التالي، الذي بدأ بعده يولي الاهتمام من جديد، لكنْ، في غضون أسبوع، تفوقتْ براعةُ رَجُلِه كينيدي على الروس، وانتهت الأزمة. كان العالم يبدو وكأنه يوشك على النهاية - ثمّ تراجعَ عن ذلك.

مع حلول عيد الشُّكْر، لم يساوره شكٌّ بأن ما يعيشه هو الحبّ. قد مرّ بالعديد من علاقات،

سادها الشغف في الماضي، بدءاً من التّعلّق الطفولي بـ كاثي غولد ومارغي فيتزباتريك عندما كان في سنّ السادسة، تلَتْها دوّامة عاصفة من الغزليات مع كارول وجين ونانسي وسوزان وميمي وليندل وكُوني في الثانية عشرة والثالثة عشرة، حفلات الرقص في نهاية الأسبوع، جلسات القُبَل في الحدائق الخلفية تحت ضوء القمر وخلوات الأقبية، أولى الخطوات المتردّدة باتّجاه التّعرّف إلى الجنس، أسرار الجلد والألسنة المبلّلة باللعاب، مذاق طلاء الشفاه، رائحة العطور، حفيف جوارب النايلون يحتكّ بعضها ببعض، ثمّ الاختراق في الرابعة عشرة، القفزة الفجائية من الصبا إلى المراهقة، ومعها حياة جديدة في جسد مختلف دائم التّغيّر، حالات الانتصاب في غير أوانها، الأحلام المبلّلة، العادة السّرّيّة، التّوق الجنسيّ، منامات الشبق الليلي التي تؤدّيها أشباح في مسرح الجنس المقامِ الآن داخل رأسه، جائحة الفتوّة الجسدية، لكنّ تلك التّغيّرات والتّقلّبات البدنية كلّها كانت في كفّة، وفي كفّة أخرى كان المطلب الأساسي قبل وبعد بداية حياته هو المطلب الروحيّ، الحلم برباط دائم، بحبّ متبادل بين روحين متآلفتين، روحين منذورتين للجسدين، منذورتين بالتأكيد بكلّ حنان للجسدين، لكن الروح تأتي في المقام الأوّل، وأبداً ستأتي في المقام الأوّل، وعلى الرغم من التّغزّل بـ كارول وجين ونانسي وسوزان وميمي وليندل وكُوني، إلا أنه سرعان ما أدرك أن أيّاً من تلك الفتيات لم تحظَ بالروح التي كان ينشدها، ففَقَد اهتمامه بهنّ واحدة إثر أخرى، وتركهنّ يتوارينَ من ساحة مشاعره.

أما بما يتعلّق بـ آن - ماري دومارتان، فكانت القصّة تُعيد نفسها بشكل عكسيّ. فالقصص الأخرى بدأت كنوع من الانجذاب الجسدي الجارف، لكنْ، كلّما وعاها أكثر، شعرَ أنه تحرّر من سحرها أكثر، في حين أنه بالكاد لحظَ آن - ماري في البداية، ولم يتبادل معها سوى كلمات قليلة خلال شهر أيلول، لكن أستاذهما في مادّة التاريخ الأوروبي جمع بينهما بشكل عشوائي، كي يُنجزا معاً مشروعاً مشتركاً. وحين بدأ فيرغسون يعرفها قليلاً، اكتشف أنه يريد معرفتها أكثر، وكلّما عرفها أكثر، أراد أن يعرفها بشكل أعمق، وبات مقامها أعلى لديه، وبعد ثلاثة أسابيع من اللقاءات اليومية حول مسألة هبوط وانهيار نابوليون (موضوع حلقة بحثهما المشتركة)، تحوّلتْ البنت البلجيكية ذات المظهر العادي واللهجة الفرنسية الطفيفة إلى غرائبية الجمال، وامتلأ قلب فيرغسون بها، فاض بها، وقصد إطالة مكوثها معه أطول فترة ممكنة. غزو فجائي غير مُترقَّب. الصبي ذو الخمسة عشر عاماً وقع مع دفاعاته في الأسر، ثمّ أضلّ كيوبيد طريقه، ووجد نفسه دون قصد في مونتكلير، نيوجيرسي، وقبل أن يتمكّن زوج سايكي من شراء تذكرة جديدة، ويتّجه عائداً إلى نيويورك أو أثينا أو الوجهة التي اختارها، أطلق سهمه على سبيل اللهو، وهكذا بدأت أوّل مغامرة عظيمة مكلّلة بالألم في حياة فيرغسون.

كان جسدها صغيراً، لكنْ، ليس ذلك النوع بالغ الصغر، بطول يُنبئ بأقلّ من خمس أقدام وخمس بوصات دون حذاء، شَعْر أسود متوسّط الطول، وجه مدوّر بملامح متناسقة، وأنف مشدود جريء، وشفتين مكتنزتين، وعنق نحيل، وحاجبين داكنين، يُتوِّجان عينين زرقاوين - رماديتين، عينين تطفحان بالحياة، عينين برّاقتين، ذراعين وأصابع رفيعة، ثديين أكثر امتلاء ممّا هو متوقَّع، وركين ضيّقين، ساقين رشيقتين، وكاحلين ناعمين، جمالٍ ليس من النوع الذي يُظهِر نفسه منذ النظرة الأولى، أو حتّى النظرة الثانية، بل من النوع الذي يتبدّى مع تنامي العِشْرة، بالتدريج يفرض نفسه على العينين، وبعد ذلك لن يعود قابلاً للامّحاء، وجه يصعب أن يشيح المرء أنظاره عنه، وجه يحلم به الإنسان. فتاة ذكية وجادّة، وغالباً فتاة منطوية، لا تُلقي بالاً لنوبات الضحك الفجائية، مقتّرة بابتساماتها، لكنها حين تبتسم، يتحوّل كامل جسدها إلى خنجر من الإشعاع، إلى سيف برّاق. وافدة جديدة، وبالتالي قليلة الأصدقاء، تحدوها رغبة صغيرة بالتواصل الواعي أو الالتئام مع المحيط، اعتداد جامح بالنفس، حفّزَ فيرغسون، وجعل منها مختلفة عن أيّة بنت أخرى عرفها من قبل، عن البنات المراهقات الضحوكات من شمال نيوجرسي، بكلّ ما فيهنّ من الطيش الجميل، إذ اعتزمتْ آن - ماري أنْ تبقى بمنأى عن الآخرين، الفتاة التي اجتُثّتْ من منزلها في بروكسل، وأُرغمتْ على العيش في أميركا المبتذَلَة المسكونة بعبادة المال، وسرعان ما تمسّكتْ بطريقة اللباس الأوروبية، البيريه السوداء، المعطف المزنَّر، البلوزة المنقّشة، القميص الأبيض مع ربطة العنق الرجالية، ورغم أنها تعترف أحياناً بأن بلجيكا بلد موحِش، مجرّد قطعة أرض انحشرتْ بين الضفادع والهُوْنيين(*)، إلا أنها تدافع عنها متى تطلّبَ الأمرُ التّحدّي، وستُعلن أن تلك الـ بلجيكا التي لا تكاد تُرى تُنتج أنواع البيرة والشوكولا والأطعمة التي تُباع على عربات جوّالة هي الألذّ في العالم. في بدايات العلاقة، خلال إحدى لقاءاتهما الأولى، قبل أن يحرف زوج سايكي طريقه باتّجاه مونتكلير، ويطلق سهمه على ضحية مسالمة، تناول فيرغسون موضوع الكونغو ومسؤولية بلجيكا عن مذبحة جرت بحقّ مئات الآلاف من السود المضطهَدين، وثبّتت آن - ماري عينيها في عينيه، وهي تهزّ رأسها. أنتَ فتى ذكي، يا آرتشي، قالت. أنتَ تعلم أكثر بعشر مرّات ممّا يعلمه هؤلاء البلهاء الأميركيون مجتمعين. عندما بدأتُ الدوام في هذه المدرسة في الشهر الأخير، قرّرتُ أن أركن إلى نفسي، وألا يكون لديّ أصدقاء. والآن أظنّ أنني كنتُ على خطأ. كلّ شخص يحتاج الصديق، ولكَ أن تكون ذلك الصديق، إذا أردتَ ذلك.

في ليلة الثاني والعشرين من تشرين الأوّل التي تبادلا فيها قبلتهما الأولى، عرف فيرغسون بعض الوقائع البسيطة عن عائلة آن - ماري. عرف أن والدها كان خبيراً اقتصادياً في البعثة

---

*) الضفادع: الفرنسيون. الهُون Huns وهم محاربوّ المغول، ويُقصَد بهم الألمان. (م).

البلجيكية لدى الأمم المتّحدة، وأن والدتها توفّيت عندما كانت آن - ماري في الحادية عشرة، وأن والدها تزوّج مرّة أخرى عندما كانت في الثانية عشرة، وأن أخويها الأكبرين جورج وباتريس كانا طالبين في بروكسل، لكن ذلك كان كلّ ما عرفه، مع التفصيل الضئيل المتعلّق بأنها عاشت في لندن مذ كانت في السابعة وحتّى بلغت التاسعة، الذي يفسّر طلاقتها بالإنكليزية. مع ذلك، قبل حلول تلك الليلة، لم تقلْ كلمة واحدة تتعلّق بزوجة أبيها، لا كلمة عن مسألة موت والدتها، لا كلمة عن الأب، باستثناء عمله الذي كان سبب مجيء عائلة دومارتان إلى أميركا، ولأن فيرغسون أدرك أن آن - ماري كانت تنفر من التّحدّث في تلك المسائل، لم يضغط عليها، لكي تفضي إليه بكل شيء، لكنْ، شيئاً فشيئاً، على مدى الأسابيع والشهور التالية، خرجتْ بمزيد من المعلومات، القصّة الرهيبة عن السرطان الذي أُصيبت به والدتها بدايةَ الأمر، سرطان عنق الرحم، وقد انتشر حتّى بلغَ مراحلَ الألم واليأس، لدرجة أن أمّها انتحرت أخيراً بجرعة زائدة من الحبوب، وتلك كانت الرواية الرسمية بالأحوال كلها، لكن الشكوك ساورت آن - ماري في أن والدها قد بدأ علاقته بزوجة أبيها المستقبلية قبل موت والدتها، ومَنْ يدري إن لم تكن فابيان كوردي، الأرملةُ التي سُمّيَتْ بصديقة العائلة منذ زمن طويل، والزوجة الثانية لأبيها المتيّم والمتهوّر منذ ثلاث سنوات، المرأةُ التي هي الآن أمّها بالتّبنّي، قد دسّتْ تلك الحبوب بالقوّة في بلعوم أمّها الراحلة، لكي تُسرّع عمليةَ الانتقال من طور العلاقة السّرّيّة إلى الزواج المشروع، بحسب الكنيسة الكاثوليكية؟ اتّهام عنيف، لا شكّ بأنه مغلوط بمجمله، لكن آن - ماري لم تستطع كبح نفسها، فإمكانية حدوث ذلك لم تزل تؤرقها، وحتّى لو كانت فابيان بريئة، فلن يعني ذلك أنها أقلّ دناءة، أقلّ استحقاقاً للكراهية والاحتقار اللذين شعرت بهما آن - ماري تجاهها. أصغى فيرغسون إلى هذا البوح بتعاطف متنامٍ تجاه محبوبته. لقد جرحها القدر، وها هي الآن عالقة ضمن أسرة مضطربة، في حرب مع زوجة أبيها البغيضة، تعتريها الخيبة من أبيها الأناني والغافل، ولم تزل في حداد على والدتها، تشعر بالفقد، إذ نُفيَتْ إلى أميركا القاسية والجاحدة، وفي أشدّ حالات النقمة على كلّ شيء، لكنْ، بدل أن تُخيفَ عثراتُ آن - ماري الحياتيةُ فيرغسونَ، جعلَه التّدرّجُ الأوبرالي لهذه العثرات أقرب إليها، فتحوّلت الآن في نظره إلى شخصية تراجيدية، شخصية نبيلة تكابد الآلام، ضحية نوائب الدهر، وبكلّ حماسة الصبي ابن الخامسة عشرة قليل التجربة، أصبحت مهمّته الجديدة في الحياة إنقاذها من براثن البؤس.

لم تخاتله أبداً فكرة أنها ربّما كانت تبالغ، فالأسى الذي كانت تشعر به لفَقْد أمّها قد أعمى بصيرتها، حتّى إنها نبذتْ زوجة أبيها دون أن تمنحها فرصة، وجعلتْ منها عدوّاً دون سبب يتجاوز أنها ليست أمّها، ولن تكون، وأن والدها المُنهَك كان يبذل أقصى طاقته مع ابنته الساخطة

والحرون، وأن هناك، كما أبداً، وجهاً آخر للحكاية. تقتاتُ فترة المراهقة على الدراما، تصبح أكثر جذلاً حين تسكن في *الحالات القصوى*، ولم يكن فيرغسون أكثر حصانةً ضدّ إغواء الانفعالات الحادّة والتّهوّر المفرط من أي فتى آخر في عمره، ما يعني أن ادّعاء بنتٍ مثل آن - ماري كان مشحوناً بشكل خاصّ ببؤسها، وكلّما تعاظمت العواصف الآتية من صوبها، والتي تجتاحه، اشتدّتْ رغبته بها.

كان ترتيب أمر انفراده بها صعباً، فكلاهما أصغر عمراً من أن يقود سيّارة، بذلك تعيّن عليهما الاعتماد على أقدامهما في التّنقّلات، التي حَدّتْ بالضرورة من نطاق حركتهما، غير أن ثمّة جانباً كان يُعتمَد عليه، وهو بيت فيرغسون الخالي بعد نهاية ساعات المدرسة، الساعتان اللتان تسبقان عودة ذويه من عمليهما، وخلالهما يستطيع وآن - ماري الصعود إلى غرفته في الطابق الثاني، وإغلاق الباب عليهما. حيث سينغمس فيرغسون معها بسعادة في ما كان يحلم به، لكنه أدرك أن آن - ماري لم تكن مستعدّة للأمر، ولذلك فإن مسألة افتضاض بكورتهما لم يُناقَش بصراحة أبداً، والتي كانت طريقةَ التعامل مع أمور كهذه في 1962، على الأقلّ من قبل ذوي الخامسة عشرة ممّنْ تلقّوا تربية صحيحة من أبناء الطبقة الوسطى والوسطى العليا في مونتكلير وبروكسل، لكنْ، لم يمتلك أيٌّ منهما الجرأة لأنْ يرفض أعرافَ المرحلة، ذلك لم يعنِ أنهما تجاهلا استخدام الفراش، الذي كان لحسن الحظّ مخصّصاً لشخصين، مع مساحة سطحه الفسيحة التي تتيح لهما الاضطجاع جنباً إلى جنب، والغرق في جنس، لم يكن جنساً كاملاً، لكنْ، مع ذلك كان له طعم وإحساس الحبّ.

حتّى ذلك الحين، كان الأمر يقتصر على تبادل القبلات والنزهات المديدة للألسنة تصول وتجول داخل الأفواه، الشفاه الرطبة، مؤخّرة الأعناق وما وراء الآذان، الأيدي المتشبّثة بالوجوه، الأكفّ تجوس الرؤوس والشَّعْر، الأذرع تُطوّق الجذوع، والأكتاف، والخصور، أذرع تلتفّ على أذرع، ومن ثمّ مع 'كوني' في الربيع المنصرم كانت النقلة الأولى بوضع اليدين على النهدين، النهدين المحروسين بعناية، كي يكونا راسخَين، وقد غُطّيا سالمَين آمنَين بالبلوزة وحمّالة النهدين، لكنه لم يُصَدّ أو يُنَحَّ بعنف، الذي مثّلَ تطوّراً أعمق في تحصيله العاطفي، والآن، مع آن - ماري وقد تجرّدت من البلوزة، ثمّ بعد شهر تجرّدت من حمّالة ثدييها، الذي ترافق مع خلعه قميصه، وحتّى ذلك التّعرّي الجزئي كان متعة، لم يكن ليُحلَم بها تجاوزتْ المتع كلّها، ومع مضيّ الأسابيع، بات الأمر مرهوناً بإرادة فيرغسون وحدها في أن يمسك بيدها، ويقحمها في عانته المنتفخة داخل بنطاله. كانت ظهيرات شديدة الرسوخ في الذاكرة، ليس لما فعلاه فحسب، بل لأن كلّ شيء كان يحدث في وضح النهار، ولأنه كان قابلاً للرؤية من قبلهما، على عكس تحسّس الجسد في

الظلام مع 'كوني' وليندا والأخريات، كانت الشمس حاضرة في الغرفة معهما، وكان باستطاعته مشاهدة جسدها، جسديهما، ما يعني أن كلّ حركةِ جسٍّ كانت صورة لذلك الجسّ، وبالإضافة إلى ذلك، كان هناك الشعور الخفيّ الدائم بالخوف في الغرفة، خوف أن يسهيا عن الوقت، فيدقّ أحد الوالدين الباب بينما لا يزالان مشتبكَين في العناق، أو الأسوأ، أن يندفع إلى الغرفة وقد نسي قرع الباب، ومع أن شيئاً من ذلك لم يحدث أبداً، بقي احتمال حدوثه قائماً، الذي ملأ ساعات الظهيرة تلك بإحساس العجلة والخطر وارتكاب المحرَّم.

كانت الشخص الأوّل الذي سمح له بالدخول إلى حُجرات قصره الموسيقي السّرّيّ، وخلال الأوقات التي لم يتقلّبا فيها على الفراش أو يتحدّثا عن حياتيهما (معظمها عن حياة آن - ماري)، كانا يستمعان إلى أشرطة التسجيل على جهاز صغير ذي مكبّرَي صوت، رُكنَ على منضدة في الركن الشمالي من الغرفة، وكان هدية من والدَي فيرغسون في عيد ميلاده الثاني عشر. والآن، بعد ثلاث سنوات، أصبحت 1962 سنةَ ج. س. باخ، السنة التي استمع فيرغسون خلالها إلى باخ أكثر من أيّ مؤلِّف موسيقي آخر، وعلى الأخصّ أعمال باخ التي عزفها غلِنْ غولد، مع التركيز على *الافتتاحيات والفوغا* و*لازمة غولدبرغ الموسيقية*، ثمّ أداء بابلو كاسال لموسيقى باخ، الذي تضمّن ما لا يُعَدّ من معزوفات الأجزاء السّتّة من دون مرافقة التشيللو، وهيرمان شرشن لـ *Suites for Orchestra* و*Saint Matthew Passion* التي خلص فيرغسون إلى عَدّها أفضل مقطوعة عُزفتْ أبداً من كتابة باخ، وبالتالي أجمل مقطوعة كتبها إنسان على الإطلاق، لكنه وآن - ماري كانا يستمعان أيضاً إلى موتزارت ((*the Mass in C Minor*)، وشوبرت (أعمال بيانو من عزف سفايتوسلاف ريختر)، بتهوفن (السمفونيات والرباعيات والسوناتات)، وآخرين عديدين، وكانت تلك التسجيلات كلّها تقريباً هدايا من ميلدرد خالة فيرغسون، ناهيكَ عن مَدي ووترز، فاتس والر، بيسي سميث، وجون كولترين، فكيف بذكر سائر طبقات الموسيقيين في القرن العشرين، من الأحياء والأموات؟ وكان أفضل ما في الاستماع إلى الموسيقا مع آن - ماري أن يرقب وجهها، ويتمعّن في عينيها، ويطيل النظر إلى فمها حين تتجمع الدموع أو ترتسم الابتسامات، كم كان إحساسها عميقاً برجْع الرنين الوجداني في كلّ مقطوعة استمعا إليها، إذ إنها على عكس فيرغسون قد تعلّمت منذ طفولتها المبكّرة العزف المتقن على البيانو، وتمتّعت بصوت سوبرانو متميّز، متميّز للغاية، لدرجة أنها آلت على نفسها ألا تشارك في نشاطات المدرسة الثانوية، والتحقت بكَوْرَسٍ في منتصف الفصل الدراسي الأوّل، وذلكَ كان رباطهما الأهمّ، الحاجة إلى الموسيقا التي كانت تسري في دمهما، والتي لم تشكّل فرقاً في تلك المرحلة من حياتيهما عن الحاجة إلى خلق طريقة للوجود في هذا العالم.

كان هناك الكثير ممّا يدعو إلى الإعجاب بها كما شعَرَ، الكثير ممّا يحبّه فيها، لكن فيرغسون لم يخدع نفسه في التفكير بأنه سيكون قادراً على التّمسّك بها، على الأقلّ، ليس إلى مدى يتجاوز الأشهر أو الأسابيع أو الأيّام القليلة. منذ البداية، في لحظات تبرعُم شغفه المبكّرة، كان باستطاعته أن يلمس أن مشاعرها لم تكن بقوّة مشاعره، وبقدر ما بدت أنها تحبّه بقدر ما بدت أنها تتمتّع بجسده وألبوماته الموسيقية وطريقته في التّحدّث إليها، كان مُكرّساً لأن يحِبَّ أكثر من أن يُبادَلَ الحبّ، وبعد مضيّ شهر على قبلتهما الأولى، أدرك أن عليه اللعب وفق قواعدها أو المجازفة بألا يكون شريكها على الإطلاق. وكان ما استثار غيظه أكثر من أي شيء آخر هو تقلُّبُها، وكم من مرّة أخلفتْ وعداً، وكم من مرّة نسيتْ الأشياء التي قالها لها، وكم من مرّة تملّصتْ من مواعيدَ في اللحظات الأخيرة، مبرِّرةً له أنها لم تكن على ما يرام أو أن هناك بعض المشاكل في البيت أو أنها ظنّت الموعدَ يومَ السبت، وليس الجمعة. وتساءلَ أحياناً إن كان هناك فتى آخر، أو فتيان آخرون، أو آخر في بلجيكا، لكنْ، كان من المستحيل أن يتأكّد من خلال الملاحظة، فالقاعدة الأولى التي أصرّتْ على التزامه بها كانت في تحذيره من كشف علاقتهما على الملأ، أي أن ثانوية مونتكلير كانت خارج الحدود، وأنهما حتّى عندما يجتازان ممرّات القاعة الدراسية والأروقة والمطعم، فإن عليهما التظاهر بأن لا علاقة تربطهما، أنه بإمكانهما الإيماء، إلقاء التّحيّة، والتّحدّث كصديقين التقيا مصادفةً، لكنْ، لم يُسمَح في أي مناسبة بأن يتبادلا القبَل أو يمسك أحدهما بيد الآخر، وذلك ما كان تصرّفاً طبيعياً لأيّ شريكين مستقرَّين في المدرسة، وإذا كانت تلك هي اللعبة التي أرادت أن تلعبها معه، فَمَنْ يدري ما إذا كانت تلعبها أيضاً مع شخص آخر؟ شعر فيرغسون بالسخف، لأنه وافق على مثل هذه الصفقة العبثية، لكنه كان يعيش في ظلّ نوع مضطرب من الافتتان في ذلك الحين، وفكرة خسارتها كانت أسوأ بكثير من الوقوع في مغبّةِ ادّعاء أنه شخصٌ مختلفٌ، لم يكنْه في الأصل. مع ذلك، استمرّا في التلاقي، وبدا أن الأوقات التي أمضياها معاً قد سارت على أحسن حال، وطالما أحسّ بأنه أسعدَ وأكثر امتلاء بالحياة حين كان برفقتها، بغضّ النظر عن الصراعات والخلافات التي بدا أنها تقع بين فينة وأخرى بينهما على الهاتف، جهاز نقل الأصوات المتحلّلة من الجسد الغريب ذلك، فكلٌّ منهما غير مرئي للآخر بينما يتحدّثان عبر الأسلاك الممدودة بين بيته وبيتها، وكان كلّما حدثَ وأمسكها في موقف محرج لها، ألفى نفسه يصغي إلى صنف نادر من البشر العنيدين غريبي الأطوار، إلى شخص مختلف كلّيّاً عن آن - ماري بصورتها التي ظنّ أنه كان يعرفها. جرتْ أكثر المحادثات إيلاماً وتشويشاً في أواسط آذار. فبعد شهر من اختبارات القبول في فريق الثانوية للبيسبول، ومن معايشة التوتّر مع نشرات الأسماء الأسبوعية على لوحة الإعلانات في غرفة تبديل الملابس، والبحث القلِق

عن اسمه في اللائحة الآخذة بالتّقلّص البطيء التي تضمّنت أسماء اللاعبين الناجين من آخر إسقاط، اتّصل بها، ليُخبرها أن القائمة الأخيرة قد صدرت، وأنه واحد من طالبين اثنين فقط في السنة الثانية ممّنْ رُشّحوا للمنتخب. صمت طويل على الطرف الآخر من الخطّ، قطعه فيرغسون بقوله: أردتُ أن أشاركَكِ أخباري الطّيّبة. فترة صمت أخرى. أعقبتْها استجابتُها، التي تلفّظتْها بصوت بارد، يفتقر إلى الحياة: أخبار طيّبة؟ لماذا يجب أن أرى فيها أخباراً طيّبة؟ أكره الرياضة. على الأخصّ البيسبول، التي لا أشكّ أنها أغبى الألعاب التي ابتكرها الإنسان. فارغة وسخيفة ومملّة، ولماذا تهوى تبديد وقتكَ، وأنتَ الشخص الذكي، في الركض على حلبةٍ مع شلّة من البلهاء؟ انضجْ، يا آرتشي، لم تعد ولداً.

ما لم يدرِ به فيرغسون أنّ آن - ماري كانت ثملة عندما قالت تلك الكلمات، مثلما كانت لمرّات عديدة خلال مكالماتهما الهاتفية الأخيرة، ذلك أنها ومنذ أشهر خلتْ بدأت تُهرِّبُ زجاجات الفودكا إلى غرفتها، وتشرب كلّما خرج أهلها من البيت، مرحٌ مديدٌ منفرد حرّرَ الشياطين في داخلِها، وحوّل لسانها إلى سلاحٍ للقسوة. كانت بنتُ ساعات النهار الرزينةُ والمهذّبةُ والذكيةُ تتوارى كلّما مكثتْ وحيدةً في غرفتها مع حلول الليل، ولأن عينَي فيرغسون لم تريا ذلك الشخصَ الآخر فيها، وإنما اقتصر الأمر على التّحدّث والإصغاء إلى غضبها، إلى تصريحاتها الفجّة، فلم يكن يدري ماذا كان يحدث، لم يدرِ أن الحبيبة الأولى في حياته كانت تتّجه إلى التّصدّع.

جرت المحادثة الأخيرة يومَ الخميس، وكان فيرغسون في أوج غضبه وحَيْرته لتجريحها العدواني بحقّه حتّى إنه ربّما شعر بالسعادة عندما تغيّبت عن المدرسة صباح اليوم التالي. كان يحتاج إلى الوقت، كي يقلّب الأمر على وجوهه، قال في سرّه، وعدم الاضطرار إلى رؤيتها في ذلك اليوم خفّف وطأة التعافي من الأذية التي ألحقتها به. وفي مقاومته دافع الاتّصال بها بعد عودته من المدرسة يومَ الجمعة، غادرَ البيتَ لحظةَ رمى بالكُتُب في البيت، وعبرَ الكتلة السَّكَنيّة لرؤية بوبي جورج، الذي كان طالبَ السنة الثانية الآخر المشارك في فريق المنتخب، بوبي الضخم ثخين العنق، متلقّي الكرة من الدرجة الأولى، والبطل الغرّ الساذج، واحد من شلة البلهاء الذين سرعان ما سيلعب فيرغسون معهم. انتهى مع بوبي جورج إلى قضاء المساء مع بعض بلهاء البيسبول الآخرين، زملاء من السنة الثانية الذين كانوا في منتخب المستجدّين، وحين سار فيرغسون متّجهاً إلى البيت قبل منتصف الليل بدقائق، كان الوقت قد تأخّر على الاتّصال بـ آن - ماري. أرغم نفسه على ذلك يومَي السبت والأحد أيضاً، مقاوماً إغراء لمس قرص الهاتف بالحفاظ على مسافة بعيدة عنه، مصمِّماً على عدم الاستسلام، توّاقاً للاستسلام، مستميتاً لسماع صوتها مرّة أخرى. أفاق صباح الاثنين وهو في تمام العافية، قد تطهّرَ قلبُه من الضغينة،

وبات مهيّاً لأن يغفر لها فورتَها غير المسؤولة يوم الخميس، ثمّ ذهب إلى المدرسة، ومرّة أخرى كانت آن - ماري غائبة. اعتقد أنه زكام أو أنفلونزا، لا شيء يستدعي القلق، وبما أنه منح نفسه حقّ التّحدّث إليها، فقد اتّصل بمنزلها في وقت الغداء من هاتف مأجور عند مدخل الكافتيريا. لا جواب. عشر رنّاتٍ، ولا جواب. وكلّه أملٌ أنه قد أخطأ الرّقْم، علّق السماعة، وأعاد الاتّصال من جديد. عشرون رنةً، ولا جواب.

أعاد الاتّصال المرّة تلو الأخرى على مدى يومين، والخوف يتنامى مع كل محاولة مخفقة للتواصل معها، وكان الأكثر إرباكاً أن المنزل بدا فارغاً لسبب غير واضح، ماذا تراه قد حدث؟ تساءلَ في سرّه، أين ذهب الجميع؟ وفي الصباح الباكر من يوم الخميس، ثمّة ساعة ونصف ساعة تكفي قبل قرع جرس المدرسة الأوّل، اتّجه صوب منزل آل دومارتان في الشطر الآخر من البلدة، بيت فسيح جملونيّ السقف ذو مرجٍ أمامي فسيح على أحد أرقى شوارع مونتكلير، شارع مانجنز، كما أسماه فيرغسون عندما كان صغيراً، ومع أن آن - ماري أصرّتْ على بقائه بعيداً عن البيت، لأنها لم تكن تريده أن يلتقي بعائلتها، لم يكن أمامه من خيار إلا الذهاب إلى هناك الآن، لكي يحلّ لغز الهاتف الذي لم يُجَبْ عليه، الذي بدوره قد يساعده في حلّ لغز ما قد حدث لها.

رنَّ جرسَ الباب وانتظر، انتظر ما يكفي للاستنتاج بأن لا أحد في البيت، ثمّ رنَّ الجرس مرّة أخرى، وحين استدار ليغادر، فُتح الباب. كان رجل يقف أمامه، رجل هو بكل وضوح والد آن ماري - الوجه المدوّر نفسه، الفك نفسه، العينان الزرقاوان المائلتان إلى الرمادي - ورغم أن الساعة كانت السابعة وعشرين دقيقة بالضبط من الصباح، كان بكامل لباس الخروج، ويبدو بالغ الأناقة بطقمه الدبلوماسي الأزرق الداكن وقميصه الأبيض المنشّى وربطة عنقه الحمراء المخطّطة، ووجنتيه الناعمتين بعد الحلاقة الصباحية المبكّرة، أثر كولونيا عالق حول رأسه، الذي كان رأساً فيه شيء من الوسامة، فكّر فيرغسون، لكنْ، ثمّة علائم إرهاق في محيط العينين، أو ربمّا في العينين، مع نوع من النظرة العصبية، الذاهلة، والكئيبة، التي وجدها فيرغسون مؤثّرة بطريقة أو بأخرى، لا، ليست مؤثّرة بالضبط، إنما آسرة، لا شكّ في ذلك، لأنه كان الوجه الذي يخصّ والد آن - ماري.

نعم؟

متأسّف، قال فيرغسون، أعلم أن الوقت مبكّر للغاية، لكنني صديق آن - ماري في المدرسة، وحاولتُ الاتّصال إلى البيت في الأيّام القليلة الماضية، للاطمئنان عليها، لكنْ، لم يجبْ أحد، لذلك قلقتُ ومشيتُ إلى هنا، لأرى ما الأمر.

واسمكَ؟

آرتشي. آرتشي فيرغسون.

هناك تفسير بسيط، يا سيّد فيرغسون. كان الهاتف خارج الخدمة. ذلك ما كان مصدر إزعاج لنا جميعاً، لكنهم أكّدوا لي أن رجال الصيانة سيأتون اليوم.

وآن - ماري؟

لم تكن على ما يرام.

لا شيء خطيراً كما أرجو.

لا، أنا متأكّد أن كل شيء سيكون في أحسن حال، لكنها تحتاج إلى الراحة في هذا الوقت.

هل يمكن أن أزورها؟

آسف. إذا أعطيتني رَقْم هاتفكَ، سأدعها تتّصل بكَ حالما تتحسّن حالتها قليلاً.

أشكركَ. لديها رَقْمي.

جيّد. سأبلغها كي تتّصل بكَ. (صمت وجيز.) فقط قلْ لي اسمكَ مرّة أخرى. يبدو أنني سهوتُ عنه.

فيرغسون. آرتشي فيرغسون.

فيرغسون.

صحيح. ومن فضلكَ، قلْ لـ آن - ماري إنني أفكّر بها.

بذلك اختُتِمَ اللقاء الوحيد والأخير مع والد آن - ماري، وحالما أطبق الباب، وبدأ السير باتّجاه الشارع، تساءلَ إن كان السّيّد دومارتان سينسى الاسم مرّة أخرى، أو ببساطة ينسى إبلاغ آن - ماري أن تتّصل به، أو أن لا يخبرها بأن تتّصل به بشكل متعمَّد، حتّى لو تذكرَ اسمه، حيث إن ذلك كان شغل الآباء في كلّ مكان على وجه الأرض - أن يحموا بناتهم من الفتية *الذين يفكّرون بهنّ.*

بعد ذلك، ثمّة صمت، وأربعة أيّام طويلة من الخواء. شعرَ فيرغسون وكأن أحداً ما قد أوثقه بحبل، وألقى به عن ظهر سفينة، وبعد الغوص إلى قعر بحيرة كانت عميقة بالضرورة، ليست أقلّ اتّساعاً وعمقاً من بحيرة ميشيغان، بقي يحبس أنفاسه تحت الماء، لأربعة أيّام بين أجساد ميتة وآلات اقتراع صدئة دون أن يأخذ شهيقاً، وبحلول ليل الأحد، كادت الرئتان أن تنفجرا، كاد رأسه أن ينفجر، وجد أخيراً لديه الشجاعة لأن يرفع سمّاعة الهاتف، وبعد لحظة من اتّصاله برَقْم عائلة دومارتان، أجابت هي. قالت إنها سعيدة، مبتهجة بأن تسمع صوته، وبدا أنها تعني ما قالت، وأكّدت له أنها اتّصلت به ثلاث مرّات في ذلك الصباح (الذي قد يكون صحيحاً، لأنه

خرج مع والديه للعب التنس)، ثمّ بدأت تحكي له عن الفودكا، أشهر الشرب السّرّيّ في غرفتها، لتصل الذروة في السَّكْرة الأخيرة ليلَ الخميس، آخر خميس تحدّثا هاتفياً، التي انتهت بإغمائها على الأرض، وعندما عاد والدها وزوجته من حفل عشاء نيويوركي في الحادية عشرة ونصف، شاهدا باب غرفة نومها مفتوحاً والضوء غير مطفئ، فدخلا ليجداها في تلك الحالة، ولأنهما لم يُستطيعا إيقاظها، ولأن الزجاجة كانت قد أُفرغتْ، اتّصلا بالإسعاف لنقلها إلى المشفى، وهناك أُجريت عملية غسيل لمعدتها، واستعادت الوعي، لكنْ، بدلاً من إعادتها إلى البيت في الصباح التالي، تمّ تحويلها إلى جناح الطّبّ النفسي، حيث خضعت لبعض الفحوص، واستُجوبتْ من قِبَل الأطبّاء لثلاثة أيّام، والآن وقد شُخّصت حالتها على أنها هوس اكتئابي، يتطلّب علاجاً نفسياً لفترة طويلة، فقد قرّر والدها أن تعود إلى بلجيكا في أسرع وقت، وذلك ما كانت تصبو إليه دائماً، فرصة للهروب من زوجة أبيها البغيضة، لتضع حدّاً لمنفاها في أميركا البغيضة، التي لا شكّ كانت السبب في التجائها إلى الشرب في المقام الأوّل، وأنها ستقيم مع أخت والدتها في بروكسل، حبيبة قلبها الخالة كريستين، الذي يعني أنها ستكون مع أخويها وأبناء عمومتها وأخوالها والأصدقاء القدامى من جديد، كانت تشعر بالسعادة، سعادة تفوق ما شعرت به منذ أمد طويل، طويل.

التقى بها مرّة واحدة بعد ذلك، في موعد وداعيّ يوم الأربعاء، نزهة استثنائية في ليل يوم دراسيّ، سمحت بها والدته، لأنها عرفت مدى أهمّيّتها بالنسبة إليه، بل إنها أعطته بعض المال الإضافي كأجرة سيّارة تاكسي (كانت المرّة الأولى والوحيدة التي حدث فيها ذلك)، وهكذا لم يتوجّب عليه و*فتاته البلجيكية* تحمّل مذلّة الجولة بسيّارة أحد الوالدين، ممّا سيثير الشّكّ في مدى نضجه، ثمّ منذ متى وقع فتى في مثل هذا العمر بالحبّ، وكان جادّاً؟ نعم، صحيح أن والدته استمرّت في استيعابه، على الأقلّ في عدد غير قليل من الأشياء المتعلّقة به، وكان ممتنّاً لها في هذا الأمر، لكنْ، مع ذلك، تحوّل المساء الأخير مع آن - ماري إلى أمر بائس وسخيف بالنسبة إلى فيرغسون، تمرين عقيم في محاولته استعادة كرامته، لجمِ أساه، لدرجة لا تدعوه إلى الالتماس أو القول أو الصراخ بشيء قاسٍ تجاهها تعبيراً عن المرارة والخيبة، لكنْ، كيف لا يتذكّر طوال المساء أن تلك كانت النهاية، المرّة الأخيرة التي سيراها فيها؟ ولكي تزداد الأمور سوءاً على سوء، كانت في أبهى حالاتها، دافئة للغاية، دفّاقة للغاية بكل ما قالته عنه، *يا آرتشي الرائع، يا آرتشي الجميل، يا آرتشي المتألّق*، بدت كلّ كلمة لطيفة وكأنها تصف شخصاً لم يكن حاضراً، شخصاً ميتاً، كانت كلمات تنتمي إلى خطبة في جنازة، والأسوأ من ذلك كله تجلّى في مرحها غير المعتاد، الغبطة التي استطاع أن يلمحها في عينيها حين تحدّثت عن الرحيل، دون

أن تتوقّف لحظةً واحدة لتفكّر في أن الرحيل كان يعني تركَهُ وراءها *في اليوم الذي يلي الغد*، بل إنها كانت تضحك وهي تطلب منه ألا يقلق، فسوف يلتقيان مرّة أخرى في القريب، وباستطاعته الذهاب إلى بروكسل وقضاء الصيف برفقتها، وكأن باستطاعة والديه تأمين تكاليف الرحلة الجوية إلى أوروبا، وهما اللذان لم يذهبا مرّة واحدة إلى كاليفورنيا لزيارة الخالة ميلدرد والعمّ هنري خلال سنواتهما الطويلة هناك، ثمّ لتقول شيئاً أكثر غموضاً وإيذاءً له، وهما يجلسان على مقعد الحديقة، حيث تبادلا القبلة الأولى في تشرين الأوّل، وحيث يتبادلان القبل مرّة أخرى في ليلتهما الأخيرة من شهر آذار، تقول إنه ربّما كان من حسن حظّه أنها ستغادر، أنها مشوّشة إلى أقصى الحدود، وأنه طبيعيّ، ويستحقّ أن يكون برفقة فتاة طبيعية، من السويّات، وليست بنتاً مريضة ومجنونة مثلها، ومنذ تلك اللحظة وحتّى أوصلها إلى بيتها بعد عشرين دقيقة من تلك الكلمات، وهو يشعر بِكَمٍّ من الحزن، يعادل الحزن الذي عاشه في حياته المغثية برتابتها كلّها.

بعد أسبوع، كتبَ إليها رسالة من تسع صفحات، وأرسلها إلى عنوان خالتها في بروكسل. وبعد أسبوع من ذلك، رسالة من ستّ صفحات. بعد ثلاثة أسابيع أخرى، رسالة من صفحتين. ثمّ بعد شهر، بطاقة بريدية. لم تردّ على واحدة منها، وبحلول نهاية الدراسة وعطلة الصيف، أدرك أنه لن يكاتبها مرّة أخرى أبداً.

الحقيقة أن البنات السويات والطبيعيات لم يثرنَ اهتمامه. كانت الحياة في الضواحي مملّة بما فيه الكفاية، والمشكلة في البنات السويات والطبيعيات أنهنّ يذكّرنَه بالضواحي، التي باتَ جديدُها متوقَّعاً إلى أبعد الحدود بحسب ذائقته، وكان آخر ما يريد فتاةً بجديد متوقَّع. مهما تكن عيوبها، مهما يكن الألم الذي سبّبته له، على الأقلّ تبقى آن - ماري مليئة بالمفاجآت، على الأقلّ، أبقتْ قلبَه يدقّ في حالة من التشويق طويل الأمد، أمّا وقد رحلتْ، فإن كلّ شيء قد أصبح باهتاً ومتوقَّعاً من جديد، بل أكثر إرهاقاً ممّا كان قبل أن تدخل حياته. كان يعلم بأن الخلل جاء من جهتها، لكنه لم يستطع مغالبة الشعور بأنه مضلَّلٌ. لقد هجرتْه، ومن الآن فصاعداً عليه إمّا أن يتدبّر حياته مع المغفَّلين أو أن يعيش في حبس انفرادي للسنتين القادمتين، اللتين سيفرّ في نهايتهما من هذا المكان من غير رجعة.

إنه في السادسة عشرة الآن، وقد أمضى الصيف في العمل لدى أبيه ولعِب البيسبول، البيسبول دائماً وأبداً، الذي كان دون شكّ نشاطاً سطحياً، لكنه بقي يُدخل فيه من السرور الوفير ما يجعله يستبعد فكرة هجْر اللعبة، وهذه المرّة في دَوْري لاعبَي المدارس الثانوية والجامعات من أنحاء البلاد كافّة، دَوري شرس ومليء بالتّحدّي، لكنه أبلى بلاء حسناً في سنته الأولى

ضمن منتخب مونتكلير، إذ بدأ كـ third baseman والـ hitter رَقْم خمسة، بمعدّل ضربات مضرب .312 للفريق الجيّد، الفريق الأفضل ضمن اتحاد العشرة الكبار، وكان يهاجم الآن بطاقة أكبر مع استمرار نُمُوّ جسده، إحدى عشر قدماً في آخر قياس للطول، و174 رطلاً في آخر مرّة وقف فيها على الميزان، وهكذا لعِبَ في ذلك الصيف، لكي يحافظ على موهبته، وأمضى الصباحات والظهيرات في العمل لدى والده، وكان معظم وقت العمل ينقضي في قيادة الشاحنة المغلقة لإيصال وتركيب مكيّفات الهواء مع شخص اسمه 'إدْ'، وعندما لا يكون هناك ما يتوجّب إيصاله، يساعد مايك أنطونيللي في قسم المبيعات الأمامي أو يحلّ محلّ مايك كلّما حانت استراحته المعتادة لشرب القهوة في مطعم 'آلْ'، وحين لا يكون هناك زبائن في المتجر، يعود إلى الغرفة الخلفية، ليجلس مع والده، إلى أن يدخل زبون جديد، والده الذي يقارب الخمسين عاماً، الذي لم يزل نحيلاً ولائق البدن، لم يزل مسمّراً إلى طاولة عمله، ليُصلح الأجهزة التالفة، والده الصامت والمستغلَق، الهادئ الآن بعد ستّ سنوات في سكينة غرفته الخلفية، ومع أن فيرغسون يعرض باستمرار مساعدته في عمل الصيانة، إلا أنه لم يزل يفتقر للبراعة والمهارة في كلّ ما يتعلّق بالأجهزة، ولطالما تجاهل والدُه مساعدته قائلاً إنه لا يجب أن يضيع ابنه الوقت على سخّانات الخبز المعطّلة، بل إنه يسير على درب ستوصله إلى أشياء أكثر أهمّيّة من ذلك، وإذا أراد أن يجعل من نفسه مفيداً، فعليه أن يأتي ببعض كُتُب الشِّعْر تلك التي يحتفظ بها في البيت، ويقرأ بصوت مسموع بينما يتكفّل والده كبير العمر بالسّخّانات المعطّلة، وهكذا فعل فيرغسون، الذي كان يلتهم أعداداً هائلة من القصائد خلال السنة ونصف السنة الأخيرة، فقد أمضى شطراً من ذلك الصيف وهو يقرأ في غرفة *ستانلي لتجارة أجهزة التلفاز والراديو* الخلفية على مسامع أبيه من أشعار ديكينسون وهوبكنز وإدغار آلان بو وويتمان وفروست وإليوت وكومينغز وباوند وستيفنز وويليامز وآخرين، لكن القصيدة التي بدا أن والده أحبها أكثر من سواها، القصيدة التي بدا أنها تركتْ الأثر الأكبر فيه، كانت أُغنيّة حبّ ج. *ألفردْ* بروفروك، الأمر الذي فاجأ فيرغسون، ولأنه لم يكن مهيّأً لردّة الفعل تلك، فهِمَ أنه افتقد شيئاً ما، مضى الآن على افتقاده ذلك الشيء زمن طويل، ما يعني أن عليه مراجعة كلّ ما نسجه عن أبيه من افتراضات سابقة، فعندما فرغ من قراءة السطر الأخير، إلى أن تُوقظِنا الأصواتُ الآدمية، ونغرق، التفت الأب إليه، ونظر في عينيه، تفحّصه بلوعةٍ، لم يرَها من قبل خلال السنوات التي عرفه خلالها كلّها، وبعد صمت طويل، قال: آه، يا آرتشي. يا له من شيء جليل! شكراً لكَ. شكراً جزيلاً لكَ. ثمّ هزَّ والده رأسه إلى الأمام والخلف ثلاث مرّات، وردّد الكلمات الأخيرة مرّة أخرى: *إلى أن تُوقظِنا الأصواتُ الآدمية*، ونغرق.

الأسبوع الأخير من الصيف. الثامن والعشرون من آب، والمسيرة على شارع واشنطن، والخطابات في المول، الحشود الهائلة، عشرات الآلاف، مئات الآلاف، ثمّ الخطاب الذي سيتوجّب أن يحفظه تلامذة المدارس الصغار، خطاب الخطابات، المهمّ في ذلك اليوم كأهمّيّة خطاب غيتيسبرغ يومَ أُلقي، لحظة أميركية عظيمة، لحظة شعبية لكل مَنْ يرى ويسمع، بل إنه أكثر كمالاً من الكلمات التي قيلتْ في حفل تنصيب كينيدي منذ اثنين وثلاثين شهراً مضتْ، ووقفَ الجميع في *ستانلي لتجارة أجهزة التلفاز والراديو* في الغرفة الأمامية يشاهدون البثّ المباشر، فيرغسون ووالده، مايك ذو الكرش الكبيرة و'إدْ' الضئيل، ثمّ جاءت والدة فيرغسون أيضاً، بالإضافة إلى خمسة أو ستّة من العابرين الذي صادفَ مرورهم من هناك، لكنْ، قبل الخطاب الكبير كانت هناك خطابات أخرى عديدة، من بينها الخطاب الذي ألقاه رجل من سكّان نيوجيرسي، الحاخام يواكيم برينتز، اليهودي الأكثر جدارة بالاحترام في حيّز فيرغسون من العالم، البطل في نظر أهله، حتّى من قِبَل الذين لم يمارسوا شعائرهم الدينية أو ينتموا إلى كنيس يهودي، لكن الثلاثة من عائلة فيرغسون شاهدوه وسمعوه يتحدّث في مناسبات الزواج والجنازات والبار متسفا في الكنيس الذي يرعاه في نيوارك، يواكيم برينتز الشهير، مَنْ ناصبَ هتلر العداء حين كان حاخاماً شابّاً في برلين حتّى قبل أن يستلم النازيون السلطة في 1933، الذي رأى المستقبل بجلاء أكثر من أي أحد آخر حثَّ اليهود على ترك ألمانيا، ما أدّى إلى اعتقالات متكرّرة على يد الغستابو وترحيله في 1937، وكان فاعلاً بالتأكيد في حركة الحقوق المدنية الأميركية، وبالتأكيد اختير لتمثيل اليهود في ذلك اليوم لفصاحته وجرأته الموثَّقة على نحو كامل، وبالتأكيد كان والدا فيرغسون فخورَين به، هما اللذان صافحاه وتحدّثا إليه، الشخص الذي كان يقف الآن أمام الكاميرا، ويخطب في الأمة، العالم بأكمله، ومن ثمّ تقدّم كينغ من المنصّة، وبعد ثلاثين أو أربعين ثانية من بدء الخطاب، نظر فيرغسون إلى والدته، ورأى عينيها تترقرقان بالدموع، الذي أضحكه جدّاً، ليس لشعوره بأنه من غير اللائق لها أن تستجيب بتلك الطريقة، بل لأنه بالتحديد لم يفعل، لأن هذا كان مثالاً آخرَ لكيفية تعاطيها مع العالم، قراءتها المتهوّرة، وغالباً الانفعالية للأحداث، فيض المشاعر الذي جعلها بالغة الحساسية لأن تدرّ الدمع حيْن مشاهدة الأفلام الهوليوودية الرديئة، التفاؤل النابع عن حسْن الطوية الذي يقود إلى تفكير عكِر وخيبات مدمّرة، ثمّ نظر إلى والده، الرجل اللامبالي كلّيّاً بالسياسة، الذي بدا أنه يَنشد من الحياة أقلَّ بكثير ممّا تنشده والدته، وما رآه في عينَي والده كان مزيجاً من الفضول المبهَم والضجر، الرجل ذاته الذي تأثّرَ للغاية بالتسليم الحزين في آخر قصيدةِ إليوت، يجد الآن صعوبة في تقبّل مثالية مارتن لوثر كينغ المتفائلة، وبينما يستمع فيرغسون إلى العواطف الجيّاشة في صوت القسّ، والتكرار المتعاقب كضربات الطبل لكلمة

حلم، تساءلَ كيف حدثَ لقرينَين متنافرين مثلهما أن تزوّجا وبقيا متزوّجَين طيلة تلك السنوات، وكيف أمكنَ له، هو نفسه فيرغسون، أن يكون نتاج ثنائيّ يتألّف من روز إدلر وستانلي فيرغسون؟ وكم من الغرابة، كم من الغرابة الشديدة أن يكون موجوداً في الحياة؟

في عيد العمّال، قدِمَ ما يقرب من عشرين زائراً إلى المنزل كمَدعوّين إلى حفل شواء آخر الصيف. قلّما نظّم والداه مثل تلك الدعوات الكبيرة، لكنْ، منذ أسبوعين، رسا الاختيار على والدته في مسابقة تصوير ضوئيّ أُجريَتْ تحت رعاية مجلس الفنون الجديد الذي أسّسه حاكم الولاية في ترينتون. وجاءت الجائزة على شكل مبلغ ماليّ لإنجاز كتاب، يحتوي صوراً شخصية لمائة من *مواطنيّ نيوجرسي المرموقين*، المشروع الذي سيرسلها إلى أصقاع الولاية كافّة لالتقاط الصور لرؤساء البلديات ورؤساء الجامعات والعلماء ورجال الأعمال والفنّانين والكتّاب والموسيقيين والرياضيين، ولأن المبلغ الذي رُصد للعمل كان جزيلاً، ولأن والدَي فيرغسون كانا يشعران بالأريحية المالية للمرّة الأولى منذ سنوات عديدة، فقد قرّرا الاحتفال بفورة من اللحوم المشوية في الحديقة الخلفية. كان الحشد الاعتيادي هناك - آل سولومون وبراونشتاين وجورج الذين يسكنون في قطاع الأبنية المجاور، جَدّا فيرغسون وعمّة والده بيرل - لكنّ بعض الأصدقاء الآخرين حضروا أيضاً، من بينهم عائلة من نيويورك، هي عائلة شنايدرمان، تضمّنت دانيال ذا الخمس والأربعين عاماً، فنّان الإعلانات التجارية وابن رئيس والدة فيرغسون السابق في العمل، إيمانويل شنايدرمان، الذي يقيم الآن ضمن دار للمتقاعدين في برونكس، وليز زوجة دانيال، وابنتهما إيمي ذات السّتّة عشر عاماً. في صبيحة حفلة عيد العمّال المقامة في الخلاء، بينما يقطّع فيرغسون ووالداه الخضار، ويُحضّران صلصة الشواء في المطبخ، قالت له والدته إنه وإيمي قد تعارفا حين كانا صغيرين، ولعبا معاً أكثر من مرّة، لكنها، بطريقة أو بأخرى، كفّتْ عن التواصل مع عائلة شنايدرمان، اثنتا عشر سنة قد طارت برفّة جفن من الروزنامة، وبعد ذلك، منذ أسبوعين مضيا، في أثناء زيارتها لوالديها في نيويورك، اصطدمتْ بـ دان وليز جنوبيَّ السنترال بارك. وبالتالي كانت الدعوة. وبالتالي كانت زيارة آل شنايدرمان الأولى إلى مونتكلير.

استطردت والدته: من نظرة عينيكَ، يا آرتشي، أرى أنكَ نسيتَ إيمي، لكنْ، عندما كنتُما في الثالثة والرابعة من عمريكما، كنتَ مأخوذاً بها إلى أبعد الحدود، وحين كنّا نذهب جميعاً إلى شقّة عائلة شنايدرمان آخرَ الظهيرة لعشاء الأحد، كنتَ وإيمي تمضيان إلى غرفتها، تغلقان الباب، وتخلعان ملابسكما كلّها. لن تستطيع أبداً أن تتذكّر ذلك، أتستطيع ذلك؟ كان الكبار لا يزالون جالسين حول الطاولة، لكننا بعد قليل سمعناكَ تضحك هناك، تصيح وأنتَ تضحك،

تُصْدِر تلك الأصوات الجامحة الخارجة عن السيطرة التي يمكن للصغار وحدهم أن يُصدِروها، وهكذا نهضنا جميعاً، لنستطلع سبب هذا الشغب. فتح دان الباب، وكان كلاكما، في عمر ثلاث سنوات ونصف أو أربع سنوات، تتقافزان صعوداً وهبوطاً على السرير، عاريين بكل معنى الكلمة، تصيحان بأعلى ما لديكما من صوت مثل مخبولَين. شعرتْ ليز بالعار، لكنني وجدتُه باعثاً على الفرح. نظرة النشوة تلك في عينيكَ، يا آرتشي، مرأى جسديكما الصغيرين ينطنطان إلى الأعلى والأسفل، والغبطة الطليقة تملأ الغرفة، طفلان آدميان مجنونان يتصرّفان مثل شمبانزي - كان يستحيل ألا ينفجر المرء ضاحكاً. ضحكَ والدكَ ودانيال، هما الآخران، كما أتذكّر، لكن ليز اندفعت إلى داخل الغرفة، وأمرتكَ أنتَ وإيمي أن *'ارتديا ملابسكما، في الحال'*. عرفتَ صوتَ الأمّ الغاضبة. *في الحال!* ولكنْ، قبل أن ترتديا ملابسكما، تلفّظتْ إيمي بأكثر الأشياء التي سمعتُها إثارةً للضحك. *مامي*، سألتْها، بمنتهى الجدّيّة والرصانة، وهي تشير بإصبعها مباشرة إلى عضوكَ، ثمّ إلى عضوها، *مامي، لماذا آرتشي مُزيّن جدّاً، وأنا عادية جدّاً*؟

ضحكت والدة فيرغسون، ضحكت طويلاً وبقوة مع تذكّرها تلك الكلمات، لكن فيرغسون اكتفى بالتّبسّم، مبرّر ضعيف لابتسامة سرعان ما تلاشت عن وجهه، فالقليل من الأشياء تُدخِل إليه البهجة أكثر من سماع الحماقات البلهاء أيّام طفولته المبكّرة. توجّه إلى والدته التي لم تزل تضحك قائلاً: تحبّين أن تغيظيني، أليس كذلك؟

فقط في بعض الأحيان، قالت. ليس دائماً، يا آرتشي، لكنني، في بعض الأحيان، لا أستطيع مقاومة ذلك.

بعد ساعة، خرج فيرغسون إلى الحديقة حاملاً آخر كتاب كان يقرؤه في تلك الفترة، *رحلة في أقاصي الليل*، وجلس في إحدى كراسي أديرونداك الخشبية التي أعاد مع والده طلاءها في بدايات الصيف بأخضر داكن، بأخضر داكن للغاية، لكنه بدلاً من فتح الكتاب ليقرأ المزيد من مغامرات فرديناند داخل مصنع سيّارات في ديترويت، اكتفى بالجلوس هناك والتفكير وهو ينتظر وصول أوّل الضيوف، متعجّباً من حادثة أنه لعبَ ذات مرّة مع بنت عارية على السرير، كان هو ذاته عارياً وهو يلعب مع البنت العارية، وكم كان من المضحك عدم تذكّره أنه فعل ذلك، في حين أنه سيفعل أيّ شيء تقريباً، لكي يكون مع فتاة عارية، وأن يكون عارياً مع فتاة عارية، كان المطمح الأهمّ في حياته الفارغة من الحبّ، لم تكن هناك قبلة واحدة أو عناق واحد خلال فترة تزيد عن الأشهر الخمسة، قال في نفسه، بل ربيع كامل وصيف قارَب أن يكتمل من الحِداد على آن - ماري دومارتان الغائبة، نصف العارية، وكيف أنه يوشك على لقاء إيمي شنايدرمان، العارية الغائبة عن الذاكرة والقادمة من الماضي البعيد، التي لا بدّ نضجتْ، وأصبحت فتاة طبيعية ومكتملة، مملّة ونمطية كحال معظم

الفتيات، كحال معظم الصبيان، معظم الرجال والنساء، لكنْ، لا يستطيع المرء فعل شيء حيال ذلك، وبما أنه لم يلتقِ بها بعدُ، فعليه أن ينتظر ليرى ما سوف يراه.

ما رآه في تلك الظهيرة كان الشخص الذي سيصبح *الحبيب التالي*، وريث تاج رغباته، البنت التي لم تكن طبيعية، ولم تكن لا طبيعية، لكنّ وعيَ ذاتٍ استثنائياً، متوقّداً وغير متوجِّسٍ قد انولدَ معها، ولبعض أسابيع بعد لقائهما الأوّل، والصيفُ يتحلّلُ في الخريف، والعالم من حولهما يتحوّل فجأةً إلى السواد، أصبحتِ *الحبيبَ الأوّل* أيضاً، أي أن تلك العارية إيمي شنايدرمان وذلك العاري آرتشي فيرغسون لم يعودا ينطنطان على السرير، بل يستلقيان على السرير، يتقلّبان تحت الأغطية، ولسنوات أعقبتْ ذلك سوف تستمرّ بإدخال المسرّات الأعلى والعذابات الأقسى إلى حياة فتوّته، لتكون الآخرَ الذي لا غنى عنه، والذي أقام داخلَ جلده.

لكنْ، عوداً على ظهيرة الاثنين من أيلول 1963، حفل الشواء يومَ عيد العمّال في حديقة عائلة فيرغسون الخلفية، لحظة لمحها للمرّة الأولى وهي تخرج من سيّارة أهلها الشيفروليه الزرقاء، رأى رأسها والشَّعْر الأشقر الداكن يرتفع من المقعد الخلفيّ، ثمّ الحقيقةالمذهلة لطولها الفارع، على الأقلّ خمس أقدام وثماني بوصات، وربّما خمس أقدام وتسع بوصات، فتاة ممشوقة القوام، بوجه لافت الوسامة، ليس جميلاً وفاتناً، بل وسيماً، أنف بديع، ذقن دقيقة، عينان واسعتان، لم يتحدّد لونهما، جسدٌ ببنية ليست كبيرة ولا هزيلة، نهدان صغيران تحت البلوزة الزرقاء قصيرة الأكمام، ساقان طويلتان، عجيزة مكوَّرة، كُسيتْ ببنطلون أحمر ملتصق بالجلد، وطريقة مشي متثاقلة غريبة، الجذع مشلوح للأمام بشكل طفيف، كأنه توّاق للتّقدّم، مشية مسترجلة، كما افترضَ، لكنها ساحرة ومتفرّدة، ما يُنذر أنها شخص يُعتدّ به، بنت مختلفة عن معظم بنات السادسة عشرة، لأنها امتلكتْ نفسها دون أدنى أثر من الارتباك. استهلّتْ والدته تقديم الضيوف والمصافحات مع الأمّ (بتوتّر طفيف، ابتسامة مقتضبة)، مصافحة الأب (لطيفة وودّية)، وحتّى قبل أن يصافح إيمي، لحظَ أن ليز شنايدرمان لم تكن تحبّ والدته، لأن شكاً ساوره بأن زوجها يكنّ شيئاً من الحبّ تجاهها، والذي قد يكون صحيحاً، مع الأخذ بالاعتبار السلام المرفق بالمعانقة الطويلة التي أبداها شنايدرمان لـ روز ذات الواحد وأربعين عاماً التي لم تزل جميلة، ثمّ صافح فيرغسون يدَ إيمي، يدها الطويلة النحيلة بشكل لافت، ليفصل نهائياً في مسألة أن عينيها خضراوان داكنتان مع بقع بنّيّة فيهما، وليلمح حين ابتسمت أن أسنانها كبيرة بعض الشيء، بالنسبة إلى فمها، شطر منها كبير للغاية، ولذلك يلفت النظر، وبعد ذلك سمع صوتها للمرّة الأولى، مرحبا، آرتشي، وفي تلك اللحظة أيقن، أيقن دون أدنى شكّ أنهما سيكونان صديقين، الذي كان افتراضاً سخيفاً يتّخذه المرء بالطبع، إذ كيف تسنّى له أن يتأكّد من ذلك

في هذه المرحلة، لكن الأمر كان شعوراً، حدساً، قناعة بأن شيئاً ما هاماً كان يحدث، وذلك ما كان هو وإيمي شنايدرمان يوشكان على استهلاله في رحلة طويلة مشتركة.

كان بوبي جورج حاضراً في ذلك اليوم مع أخيه كارل الذي يستعدّ لبدء سنته المتوسّطة في ثانوية دارتموث، لكنْ، لم تبدر رغبة من فيرغسون بالتّحدّث إلى أيّ منهما، ليس مع كارل سريع البديهة، ولا مع صغير العقل بوبي دائمِ المزاح. كان ما تمنّاه أن يبقى مع إيمي، الشخص الآخر الوحيد في الحفل، ولذلك خلال خمس وأربعين ثانية من مصافحته يدها، وكاستراتيجيةٍ لعدم تقاسمها مع الآخرين، دعاها إلى غرفته. كان ذلك أمراً يتصف بالاندفاع، ربّما، لكنها قبلتْه بإيماءة من رأسها علامة الاستعداد، وهي تقول *فكرة جيّدة، فلنذهب*، وصعدا إلى ملاذ فيرغسون في الطابق الثاني، الملاذ الذي لم يعدْ مزارَ كينيدي، بل مكاناً مكتظّاً بالكُتُب والتسجيلات الموسيقية، الكثير من الكُتُب والتسجيلات غصّتْ بها الرفوف حتّى لم يعدْ يتّسع لتلك المجموعات كلها، التي كانت تتكدّس في أكوام إلى جوار الحائط ولصْقَ السرير، وسرَّهُ أن يرى إيمي تومئ مرّة أخرى حين دخلت الغرفة، وكأنها تقول له إنها استحسنتْ ما رأتْه، مجموعات الأسماء المكرّسة والأعمال ذات المكانة، التي مضتْ تتفحّصها عن كثب، وهي تشير إلى هذا الكتاب قائلة، *يا له من كتاب عظيم!* وتشير إلى ذاك وتقول، *لم أقرأه بعد*، وتشير إلى ثالث قائلة، *لم أسمع باسم كاتبه*، لكنها سرعان ما جلستْ على الأرض قرب طرف السرير، ما دفع فيرغسون للجلوس على الأرض بدوره، ووجهه مقابلَ وجهها على مسافة ثلاث أقدام، مسنداً ظهره على أدراج طاولته، تحدّثا على مدى ساعة ونصف ساعة أخرى، وتوقّف حديثهما عندما نقر أحدهم الباب، وأبلغهما أن الطعام يُقدَّم الآن في الحديقة الخلفية، الذي جعلهما يندفعان نازلَين الأدراج، لينضمّا إلى الآخرين لبعض وقت، تناولا فيه الهامبرغر، واحتسيا البيرة المحظّرة عليهما أمام أهلهما، أمام الأربعة الذين غضّوا الطرف عن تجاوزهما القانون، ثمّ مدّت إيمي يدها إلى حقيبتها، سحبتْ علبة تبغ 'لاكيز' Luckies وأشعلت لفافة أمام ذويها - اللذين غضّا الطرف مرّة أخرى - معلِّلة بأنها لا تدخّن دائماً، لكنها تحبّ طعم التبغ بعد الطعام. وبعد أن انتهى تناول الطعام وتدخين السيجارة، حصل فيرغسون وإيمي على الإذن من نفسيهما، وتنزّها متمهّلَين في الجوار مع بدء غروب الشمس، ليجلسا في نهاية المطاف على مقعد في الحديقة الصغيرة حيث قبّل آن - ماري لآخر مرّة قبل أن تغيب، وبعد قليل من اتّفاق فيرغسون وإيمي على أن يتقابلا مرّة أخرى في نيويورك في سبت لاحق من ذلك الشهر، بدآ بتبادل القبَل، نقلة عفوية دون سابق إنذار أطبقتْ فيها الشفاهُ على الشفاه، لُعاب شهيّ من لسانين يرفرفان وأسنان تصلصل، تيقّظ فوري في المناطق السفلية المتهيّجة من جسديهما حديثيّ البلوغ، تبادلا

القبلات بتهتُّكٍ حتّى كاد أحدهما أن يلتهم الآخر، لو لم تبتعد إيمي عنه فجأةً، وتبدأ بالضحك، نوبة ضحك لاهث، ذاهلٍ سرعان ما أضحك فيرغسون هو الآخر. يا إلهي، يا آرتشي، قالت. إذا لم نتوقّف الآن، فسنتجرّد من ملابسنا في غضون دقيقتين. نهضتْ ومدّت يدها اليمنى إليه. هيّا بنا، أيّها المجنون، ولنعدْ إلى البيت.

كانا في العمر نفسه، أو في عمرين متقاربَين، عمر مائتي شهر مقابل مائة وثمانية وتسعين شهراً، لكنْ، لأن إيمي وُلدتْ في نهاية 1946 (29 كانون الأوّل) وفيرغسون في بداية 1947 (الثالث من آذار)، كانت تسبقه بسنة دراسية، أي أنها كانت تستعدّ لبدء سنة المتقدِّمين من الثانوية في مدرسة هنتر، في حين كان لم يزل عالقاً في دِرْك المبتدئين. لم تكن المرحلة الجامعية بالنسبة إليه إلا مكاناً ضبابياً في تلك الآونة، غايةً بعيدة المنال، لم يُعرف كنهها، بينما كانت تُعدّ المخطّطات تمهيداً لأفضل شطر من السنة، وكانت تتهيّأ للبدء في تحضير حقائبها. سوف تتقدّم إلى كلّيّات مختلفة كما قالت. الكلّ قال لها إنها ستحتاج إلى المساندة، وإلى خيار ثانٍ وثالث، غير أن بارنارد كانت خيارها الأوّل، خيارها الأوحد حقّاً، لأنها كانت أفضل جامعة في نيويورك، التوأمَ الأنثوي لـ كولومبيا الذكورية، بالإضافة إلى أن الهدف الأوّل كان البقاء في نيويورك.

لكنكِ عشتِ حياتكِ بأكملها في نيويورك، قال فيرغسون. ألا ترغبين في تجريب مكان آخر ما؟

زرتُ أماكن أخرى، قالت، وكلّ منها كان يُسمّى مدينة *التثاؤب*. هل زرتَ بوسطن أو شيكاغو من قبل؟

لا.

مدينة التثاؤب رَقْم واحد، ومدينة التثاؤب رَقْم اثنين. وماذا عن لوس أنجلس؟

لا.

مدينة التثاؤب رَقْم ثلاثة.

حسناً، وماذا عن جامعة في الريف؟ كورنيل، أو سميث، أو أحد تلك الأماكن. مروج خضراء وساحات فسيحة، تحصيل المعرفة ضمن محيط ريفي.

جوزيف كورنيل خيار عبقري، الأخوة سميث تقدّم شرابَ سعال ممتازاً، لكن تجميد قفاي لأربع سنوات في جامعةِ برارٍ، لا يمثّل فكرتي في قضاء وقت ممتع. لا، يا آرتشي، نيويورك هي *المكان المنشود*. ولا مكان سواها.

كان قد تعرّف إليها منذ عشر دقائق مضت حين تبادلا ذلك الحديث، وبينما كان فيرغسون يصغي إلى إيمي وهي تدافع عن نيويورك، تجهر بعشقها لـ نيويورك، خطر له أنها هي نفسها

تجسيد لمدينتها بمعنى ما، ليس باعتدادها وحيوية ذهنها، بل أيضاً، وعلى وجه الخصوص بصوتها، الذي كان صوتَ البنات اليهوديات اللمّاحات من بروكلن وكوينز والشطر الشمالي الغربي، صوت الجيل الثالث اليهودي النيويوركي، أي الجيل الثاني لليهود المولودين في أميركا، الذي يمتلك وقعاً صوتياً مختلفاً قليلاً عن وقع الصوت النيويوركي الإيرلندي، مثلاً، أو الصوت النيويوركي الإيطالي، وقع عمليّ وراقٍ ووقح في آن معاً، مع نفور مماثل لأحرف الـ r الجامدة، لكن المضبوطة والموكَّدة في نبرة نطقها، وكلّما اعتاد أكثر على تلك النبرة، أراد أن يستزيد من سماعها، فقد مثّل صوت عائلة شنايدرمان كلّ شيء إلا الضواحي، إلا حياته كما هي الآن، وبالتالي الوعد باللوذ إلى مستقبل معقول، أو على الأقلّ إلى حاضر مسكونٍ بذلك المستقبل المعقول، وحين كان جالساً في الغرفة مع إيمي، ثمّ تمشّى معها في الشوارع، تحدّثا عن العديد من الأمور، معظمها يتعلّق بمتغيّرات الصيف المتسارعة التي بدأت بقتل ميدغر إيفرز، وانتهت بخطاب مارتن لوثر كينغ، تشابك الرعب والأمل الأبدي الذي بدا سمةَ المشهد الأميركي، وأيضاً عن الكُتُب والتسجيلات الموسيقية على الرفوف وأرضية غرفة فيرغسون، ناهيكَ عن الوظائف المدرسية والمذاكرات وحتّى البيسبول، لكن السؤال الأوحد الذي لم يطرحه عليها، كان أمر الامتناع عن قوله محسوماً مهما كلّف الأمر، وهو إن كان هناك حبيب في حياتها، إذ قرّر بطبيعة الحال أن يبذل أقصى طاقته، كي يجعل منها *الحبيبة القادمة*، ولا حاجة لأن يعرف كم من المزاحمين سيعترضون طريقه.

في الخامس عشر من أيلول، بعد أقلّ من أسبوعين على حفل عيد العمّال، والذي كان بالضبط قبل ستّة أيّام من لقائهما التالي المفترض في نيويورك، اتّصلتْ به، ولأنه كان الشخص الذي اتّصلتْ به، وليس أحداً آخر، فهم أن لا حبيب لها في الوقت الراهن، لا مزاحم ممّنْ يخشاهم، وأنها معه الآن بالطريقة نفسها التي كان معها. فهِم ذلك لأنه الشخص الذي اختارت الاتّصال به عندما سمعتْ نبأ إحراق كنيسة للسّود في بيرمنغهام، الاباما، وجريمة قتل أربع فتيات داخلها، رعب أميركي جديد، معركة عِرْقِية جديدة كانت آخذة بالامتداد عبر الجنوب، كأن الثأر والرّدّ على مسيرة واشنطن منذ أسبوعين ونصف كان يجب أن يكون بالتفجير والقتل، وكانت إيمي تبكي على الهاتف، وتجهد في الكفّ عن البكاء، وهي تبلغه النبأ، وشيئاً فشيئاً، وهي تستجمع نفسها ببطء، بدأت تتحدّث عن ما يمكن القيام به، عن ما شعرتْ أنه يتوجّب القيام به، ليس الاكتفاء بالقوانين التي يصدرها السياسيون، بل بجيش بشريّ يتوجّه إلى هناك، ويواجه المتعصّبين، وستكون أوّل مَنْ ينضمّ إليه، وفي اليوم التالي لتخرّجها في الثانوية سوف تقف على الطريق بانتظار رحلة مجّانية إلى ألاباما، وتنذر نفسها لتلك القضية، تستميت من أجل القضية،

تجعل القضية هَمَّ حياتها الشاغل. إنها بلادنا، قالت، ولا يمكننا أن نترك الأوغاد يسلبونها منّا.

تقابلا يوم السبت التالي، ثمّ في كلّ يومَي سبت طيلة فصل الخريف، فيرغسون يستقلّ الحافلة من نيوجرسي إلى محطّة بورت أوثوريتي، ومن ثمّ يأخذ القطار السريع إلى غربي الشارع الثاني والسبعين، حيث يترجّل منه، ويتّجه شمالاً مسافة ثلاث كتلٍ سكنية وكتلتين نحو الغرب إلى شقّة عائلة شنايدرمان على تقاطع جادّة ريفرسايد مع الشارع الخامس والسبعين، الشّقّة رَقْم 4B، التي أصبحت الآن العنوان الأهمّ في مدينة نيويورك. اتّخذ خروجهما معاً أكثر من طريقة، وحيدين في معظم الأوقات تقريباً، وبين حين وآخر مع بعض أصدقاء إيمي، أفلام أجنبية في صالة ثاليا على تقاطع برودواي والشارع الخامس والتسعين، غودارد، كوروساوا، فيلليني، وزيارة صالات عرض 'مِتْ' وفريك ومتحف الفنّ الحديث، ثمّ نيكس في حديقة ساحة ماديسون، باخ في صالة كارنيغي، بيكيت، بنتر، ويونسكو في مسارح صغيرة وسط الـ فيلجْ، كلّ شيء قريب ومتوافر للغاية، وكانت إيمي دائماً على دراية بالمكان الذي تقصده وبما تفعله، كانت أميرة مانهاتن المحارِبة تعلّمه كيف يتجوّل في مدينتها، التي سرعان ما أصبحت مدينته هو أيضاً. وبالرغم من ذلك، كان الشطر الأجمل ممّا فعلاه وشاهداه في أيّام السبت، أن يجلسا في محالّ القهوة، ويتبادلا الحديث، ستتضمّن الجولات الأولى من الحوار المتواصل لسنوات قادمة، مناقشاتٍ، تتحوّل أحياناً إلى مشاحنات ساخطة عندما يختلفان في الآراء، حول الفيلم الجيّد أو الرديء الذي شاهداه لتوّهما، أو فكرتهما السياسية الجيّدة أو الرديئة التي عبّرا عنها منذ وهلة خلَتْ، لكن فيرغسون لم يجد غضاضةً في الجدال معها، لم يكن مَعنياً بالخصوم الضعفاء، بالفتيات العابسات والمغفّلات اللواتي كنّ يبغينَ ما يتخيّلنَ أنها شكليات الحبّ، فذلك كان الحبّ الحقيقي، المعقّد والعميق والطّيّع ما يكفي لأن يتّسع للخلاف المشحون، وكيف لا يحبّ هذه البنت، بنظرتها المتصلّبة المتفحِّصة وضحكتها العالية المجلجلة، إيمي شنايدرمان الجريئة، عصبية المزاج، التي خطر لها ذات يوم أن تكون مراسلة حربية أو ثورية أو طبيبة تعمل لصالح الفقراء. كانت في السادسة عشرة، وتسير قُدُماً نحو السابعة عشرة. لم يعد اللوح الخاوي كليّ الخواء، بل إنها لم تزل فتيّةً بما يكفي لأن تدرك أن باستطاعتها أن تمحو الكلمات التي كتبتْها فيما مضى، أن تمحوها، وتبدأ من جديد كلّما حرّضتْها الروح.

قُبَلٌ، بالطبع، عناق، بالطبع. مع الواقع المزعج بأن والدَي إيمي كانا يميلان إلى البقاء في البيت بعد ظهر ومساء أيّام السبت، الذي حدّ من فرص بقائها وحيدة في الشّقّة، وأدّى إلى مزيد من التقبيل والمعانقة في الطقس البارد على مقاعد حديقة ريفرسايد، شيء من تبديد الرغبة المبتذل في غرف النوم الخلفية خلال الحفلات التي يقيمها أصدقاء إيمي، ومرّتين، مرّتين

فقط، في مناسبتين اثنتين عندما خرج والداها لقضاء أُمسيّة في الخارج، توفّرت فرصة الاستمتاع بالعناق، وهما نصف عاريين على السرير في غرفة إيمي، فرصة كان يلفّها الخوف القديم من أن ينفتح الباب على مصْراعيه في أسوأ لحظة يمكن تخيّلها. كانت الخيبة لعدم قدرتهما على التّحكّم بحياتيهما، والفورات الهرمونية المحبَطة المرّة تلو المرّة بسبب الظروف، ما سرّب إليهما المزيد من اليأس مع مرور الأسابيع. ثمّ، في ليل ثلاثاء من أواسط تشرين الثاني، اتّصلت إيمي لتُبلغه خبراً سارّاً. سيغادر والداها المدينة في نهاية الأسبوع بعدَ القادم، لقضاء ثلاثة أيّام بأكملها في شيكاغو البعيدة، يزوران خلالها والدة أمّها المريضة، وحيث إن أخاها الأكبر جيم لم يخطّط لأن يطير من بوسطن حتّى اليوم الذي يسبق عيد الشُّكْر، فإنها ستستأثر بالشّقّة، ما دام أهلها غائبين. عطلة نهاية أسبوع بكاملها، قالت. فتخيّلْ، يا آرتشي. نهاية أسبوع بكاملها، ولا أحد في الشّقّة سوانا.

أخبر والديه أنه واثنين من أصدقائه قد دُعيا إلى بيت صديق آخر على شاطئ جيرسي، كذبة مفتعلة وسخيفة، لم يتمعّن كلاهما فيها، وحين ذهبَ إلى المدرسة يومَ الجمعة المحدّد للرحلة، بدا من الجدير به أن يأخذ معه حقيبة حاجياته الليلية الضرورية. كانت الخطّة أن يسافر إلى نيويورك لحظةَ تنتهي ساعات المدرسة، وإذا كان محظوظاً ما يكفي لأن يدرك الحافلة الأولى قبل تحرّكها، فسيكون في شقّة إيمي بحدود الرابعة والنصف أو الخامسة إلا ربعاً، وإذا أضاع فرصة اللحاق بالحافلة الأولى، فعليه أن يستقلّ الثانية، في الخامسة والنصف أو السادسة إلا ربعاً. كان يوماً مملاً آخر في أروقة وقاعات مدرسة مونتكلير الثانوية، مُركِّزاً انتباهه على الساعة الجدارية، وكأنه بتكثيف طاقة تفكيره القصوى يريد دفعَ الوقت إلى الأمام، وهو يعدّ الدقائق، يعدّ الساعات، ومن ثمّ، في بداية الظهيرة، الإعلان عبر مكبّرات الصوت العمومية أن طلقات نارية قد أصابت الرئيس كندي في دالاس، أُتبعَ بإعلان آخر في وقت لاحق يفيد بأن الرئيس كينيدي قد مات.

في غضون دقائق، عُلّقت النشاطات كلّها في المدرسة. وشُوهدت المناديل في آلاف الأيادي، سال كحل العيون على وجنات البنات الباكيات، زرع الفتيةُ المكان جيئة وذهاباً وهم يهزّون رؤوسهم أو يلكمون بقبضاتهم الهواء، تعانقتِ البنات، تعانق الصِّبْيةُ والبنات، بكى بعض المدرّسين وهم يتعانقون، وعلّقَ آخرون أبصارهم مشدوهين في الجدران ومقابض الأبواب، ولم يمضِ وقت طويل حتّى احتشد الطلاب في صالة الرياضة والكافتيريا، لا أحد منهم يدري ماذا يفعل، لا أحد يمسك بزمام الأمر، توقّفتْ الضغائن والعداوات كلّها، لم يعد هناك من أعداء، ثمّ بدرَ صوت المدير المسؤول من المكبّرات العمومية مرّة أخرى يعلن توقّفَ المدرسة اليوم، وأنه يمكن للجميع الانصراف.

مات رجلُ المستقبل.

مدينة وهمية.

كان الجميع في طريقهم إلى بيوتهم، غير أن فيرغسون كان يحمل حقيبته الليلية، ويتّجه نحو محطّة حافلات مونتكلير بانتظار حافلة نيويورك. سيتّصل بأهله لاحقاً، لكنه لن يعود إلى المنزل. كان في مساس الحاجة لأن يكون وحيداً لبعض الوقت، ثمّ أن يكون مع إيمي، وسيبقى معها كما هو مخطَّط خلال فترة نهاية الأسبوع.

انشعبتْ طُرُقاتُ المدينة الوهمية، ومات المستقبل.

ينتظر الحافلة، ثمّ يرتقي درجاتها، ويبحث عن مقعد، يجلس في صفّ المقاعد الخامس، ثمّ يصغي إلى نقلات علبة السرعة بينما تتّجه الحافلة إلى نيويورك، ثمّ يعبر القناة بينما تجهش امرأة بالبكاء في المقعد الذي يقع وراء مقعده، وتحدّث السائق إلى مسافر في المقدّمة، لا أستطيع تصديق ما حدث، *لا أستطيع تصديق اللعنة التي حدثت*، غير أن فيرغسون صدّق ما حدث، رغم شعوره بأنه انتُزعَ كلّيّاً من نفسه، ليطفو في مكان ما خارجَ جسده، لكنْ، في الآن نفسه، ثمّة صفاء يسود ذهنه، وضوح كليّ يحوْل دون الانهيار والبكاء، لا، الأمر أجلّ من أن يُحتمَل، فدعِ المرأة تنشج حتّى تُفرغِ مكنون قلبها، لعلّ ذلك يريحها، لكنه لن يرتاح أبداً، ولذلك ليس لديه الحقّ في البكاء، لديه الحقّ في التفكير، في محاولة فهم ما الذي كان يجري، هذا الأمر الجلل الذي لم يماثل شيئاً آخرَ حدث معه من قبلُ أبداً. قال الرجل الذي كان يتحدّث إلى السائق: *يذكّرني الحدث بـ بيرل هاربر. تعلمُ، كلّ شيء ساكن وهادئ، صباح أحد خامل. الناس يتمشّون حول بيوتهم ببيجاماتهم، ثمّ بانغ، ينفجر العالم، ثمّ فجأةً نحن في الحرب*. ليست مقارنة سيّئة، فكّر فيرغسون. الحدث الكبير الذي يتمخّض من قلب الأشياء، ويغيّر حياة الجميع، اللحظة التي لا تُنسى عندما ينتهي شيء، ويبدأ شيء آخر. أتشبه هذه تلك؟ تساءلَ، أهي لحظة شبيهة بلحظة اندلاع الحرب؟ لا، ليس بالضبط. فالحرب تُعلن بدايةَ واقعٍ جديد، لكنْ، لا شيء قد بدأ اليوم، وانتهى الواقع، ذلك كان كلّ ما في الأمر، شيء ما قد طُرِحَ من العالم، والآن ثمّة فجوة، ثمّة 'لاشيء' حلَّ محلّ ما كان 'شيئاً'، كأن كلّ شجرة في العالم قد تلاشت، كأن كلّ فكرةِ شجرةٍ أو جبلٍ أو قمرٍ قد أُزيلت من الدماغ البشريّ.

سماء بلا قمر.

عالم بلا أشجار.

تدخل الحافلة إلى المحطّة على تقاطع الشارع الأربعين مع الجادّة الثامنة. وبدلاً من السير

على المعابر تحت الأرض باتّجاه الجادّة السابعة كما كان يفعل عادةً في رحلاته إلى نيويورك، صعد فيرغسون الأدراج، وخرج ليطالعه شفق أواخر تشرين الثاني، ميمّماً وجهه صوب الشرق على الشارع الثاني والأربعين قاصداً محطّة المترو في ميدان التايمز، جسدٌ آخر وسطَ حشدِ ساعةِ الذروة المبكّرة، وجوه ميتة لبشر منصرفين إلى شؤونهم، كلّ شيء على ما هو عليه، كلّ شيء مختلف عن ما كان عليه، ثمّ وجد نفسه يشقّ طريقه عبرَ كتلٍ من المارّة الجامدين الذين تجمهروا على الرصيف، جميعهم يرفعون أنظارهم إلى سلسلة أحرف مضاءة تحيط مبنىً عالياً أمامهم، ج ف ك يصاب بعيارات نارية، ويقضي نحْبَه في دالاس - جونسون يؤدّي القَسَم الرئاسي، ولحظة بلغ الدرجات المؤدّية إلى نفق المترو، سمع امرأة تخاطب امرأة أخرى، *لا أستطيع أن أصدّق ذلك، يا دوروثي، فقط لا أستطيع أن أصدّق ما تراه عيناي.*

لامعقول.

مدينة بلا أشجار. عالم بلا أشجار.

لم يتّصل بـ إيمي، كي يتأكّد أنها عادت من المدرسة إلى البيت. لعلّها ما زالت مع أصدقائها، وقد اكتسحها شواش اللحظة، مُجهَدة، ترتعش بقوّة، إذ تتذكّر أنه في طريقه إليها، ولذلك حين ضغط جرس الزائر الخاصّ بالشّقّة رَقْم 4B أسفلَ البناء، لم يكن متأكّداً أن أحداً سيجيب. خمس ثوانٍ من الشّكّ، عشر ثوانٍ من الشّكّ، ثمّ سمع صوتها تتحدّث إليه عبر نظام الاتّصال الداخلي، *آرتشي، أهذا أنتَ، يا آرتشي؟*، وفي لحظة فتحت باب البناء، ودخل.

أمضيا ساعاتٍ يتابعان تغطية الاغتيال على التلفاز، ثمّ، وذراعا كلّ منهما تحيطان الآخر بعناق محكَم، ترنّحا باتّجاه غرفة إيمي، ألقيا بنفسيهما على الفراش، ومارسا الجنس للمرّة الأولى.



2.2

صدَرَ العدد الأوّل من صليبيّ الشارع الحجريّ في الثالث عشر من كانون الثاني، 1958. وقد أعلن أ. فيرغسون، مؤسّس وناشر الصحيفة الوليدة، في افتتاحية الصفحة الأولى أن *الصليبيّ* سوف "تروي الوقائع بما أوتينا من إمكانيات، وتقول الحقيقة مهما يكن الثمن." كانت طبعة الخمسين نسخة من العدد الأوّل قد تمّت بإشراف مديرة الإنتاج روز فيرغسون، التي أخذت النموذج الطباعي الأصلي المكتوب بخطّ اليد إلى مطبعة مايرسون في وِسْت أورانج لتنفيذ مهمّة نسخ الوجهين من طبق الورق بعرض أربع وعشرين بوصة وارتفاع ستّ وثلاثين وإنجاز الطباعة على ورق رقيق، ما يكفي لأن يُطوى من المنتصف، وبسبب الطّيّة، دخلتْ *الصليبيّ* العالمَ في حلّة أقرب إلى الجريدة الإخبارية الصميمة (تقريباً) من أن تكون كبعض النشرات المحَضّرة منزلياً، المُنجزَة على الآلة الكاتبة، والمنسوخة على آلة السحب اليدوية. بسعر خمسة سنتات للنسخة. لم تحتوِ على صور ورُسومات، هناك بعض المساحة المريحة في الأعلى لعناوين الرأس المطبوعة على الستينسل، لكنْ، بالإضافة إلى الفراغ وراء المستطيلين الكبيرين المملوءين بثمانية أعمدة من الكلمات المرصوصة المكتوبة باليد، ثمّة الخطّ المتقن لدى الصبي الذي يكاد يبلغ الحادية عشرة، والذي جهدَ لكي يرسم خطَّه بشكل لائق، وعلى الرغم من بعض الميلان والمحاذاة غير الصحيحة، كانت النتائج مقروءة بما فيه الكفاية، بمجمل التصميم الذي صادف أن جاء صادقاً، لو لم يكن نسخة مجنونة عن صحائف القطع الكبير من القرن الثامن عشر.

تراوحت المقالات الإحدى والعشرون بين قفشات الأسطر الأربعة والمقالات ذات العمودين أو الأعمدة الثلاثة، كان أولها القصّة الرئيسة على الصفحة الأولى، بعنوان عريض، تراجيديا بشرية. دودجرز وجايَنْتْس يغادران نيويورك إلى الساحل الغربي، وتضمّن مقتطفات من مقابلات، أجراها فيرغسون مع أفراد عائلات وأصدقاء عديدين، جاءتْ الاستجابة الأكثر دراماتيكيةً من صديقه في الصّفّ الخامس تومي فيوك: "أشعر كأني أقتل نفسي. فالفريق الوحيد الباقي هو الـ يانكيز، وأكره الـ يانكيز. فما يُفترَض أن أفعل؟" أما مقالة الغلاف الأخير، فتحرّتْ فضيحة بدأت تتكشّف معالمها في مدرسته الابتدائية. فللمرّة الرابعة خلال الأسابيع السّتّة الماضية، اصطدم التلاميذ بحائط

قرميدي أو اثنين في صالة التدريب في أثناء لعبهم كرة المناورة، ما نجم عنه انتشار الكدمات السوداء حول الأعين والارتجاج الدماغي والنزيف في فروة الرأس والجبين، وبذلك كان فيرغسون يحرّض على المطالبة بتأمين واقيات حماية، تحول دون المزيد من الإصابات. بعد الحصول على تعليقات الضحايا ("كنتُ في إثر الكرة،" قال أحدهم، "وقبل أن أنتبه، كنتُ أصطدم بالأحجار، وقد أصيبَ رأسي بصدمة كبيرة")، تحدّث فيرغسون إلى المسؤول، السّيّد جيمسون، الذي أكّد أن الوضع خارج السيطرة. "تحدّثتُ إلى مجلس التربية والتعليم،" قال، "وقد تعهّدوا بإضافة بطانات واقية إلى الجدران مع نهاية الشهر. وحتّى ذلك الحين - لا مزيد من كرة المناورة."

غياب فِرَق البيسبول وإصابات رأس يمكن تلافيها، وأيضاً مقالات تتحدّث عن حيوانات منزلية مفقودة، أعمدة كهرباء أتلفتْها العاصفة، حوادث سير، مسابقات سبيتبول، *سبوتنيك*، وحالة الرئيس الصّحّيّة، بالإضافة إلى النشاطات الحالية لعشيرتي فيرغسون وإدلر، مثل *لقلقٌ يقهر الموعد النهائي*! "للمرّة الأولى في تاريخ البشرية، وُلدَ طفلٌ في أجَلِه المسمّى. في الساعة 11:53 قبل ظهر 29 كانون الأوّل، قبل أن تنصرم الدقائق السبع، وضعتْ السّيّدة فرانسيس هولاندر، 22 عاماً، من مدينة نيويورك، مولودها الأوّل، وهو صبي يزن سبعة أرطال وثلاث أوقيات، أسموه ستيفن. مبروك لابنة العمّ فرانسي!" أو، *قفزة نوعية إلى الأعلى*: "تمّ ترفيع ميلدرد إدلر مؤخّراً من بروفيسور مساعد إلى بروفيسور كامل من قبَلِ قسم اللغة الإنكليزية في جامعة شيكاغو. وهي واحدة من المتمكّنين العالميين في نقد الرواية الفيكتورية، والتي نشرت كُتُباً عن جورج إليوت وتشارلز ديكنز." ثمّ، ما لم يمكن تجاهله، هناك مستطيل محاط بخطٍّ على يمين الربع الأسفل من الصفحة الأخيرة، حمل عنوان ركن طرائف آل إدلر، الذي اعتزم فيرغسون تضمينه كمادّة دائمة في أعداد الصليبيّ كلها، إذ كيف يستخفّ بمصدرٍ ثَرٍّ مثل جَدّه، ملك النُّكاتِ البذيئة، الذي حكى لـ فيرغسون الكثير من النكات السّيّئة على مدى السنوات التي سيشعر رئيس التحرير الشّابّ بالتقصير إزاءها، إن لم يضع بعضاً منها قيدَ التداول. كان المثال الأوّل على هذا الشكل: "كان السّيّد والسّيّدة هوبر في طريقهما إلى هاواي. وبالضبط قبل أن تحطّ الطائرة، سأل السّيّد هوبر زوجته إن كانت التهجئة الصحيحة لكلمة *هاواي* هي *هاواي* – بحرف *w* - أو Havaii – بحرف *v*. 'لا أعرف،' قالت السّيّدة هوبر. 'دعنا نسأل أحداً ما حين نصل إلى هناك.' في المطار شاهدا عجوزاً ضئيل الجسم يتمشّى بقميص مزدان بنقوش من هاواي. 'المعذرة، يا سيّدي،' قال السّيّد هوبر. 'هل يمكنكَ أن تقول لنا إن كنّا الآن في *Hawaii* أو *Havaii*؟ وبدون أدنى تردّد، قال الرجل العجوز، '*Havaii*'. 'شكراً لكَ،' قال السّيّد والسّيّدة هوبر. الذي أجاب عليه العجوز قائلاً: '*You're velcome*'."

صدرتْ أعداد لاحقة في نيسان وأيلول من العام نفسه، كلٌّ منها أكثر تطوراً من سابقه، أو هكذا قال أهلُ فيرغسون وأقاربه، لكن القصّة كانت مختلفة من جهة أصدقائه في المدرسة، فبعد نجاح العدد الأوّل، الذي أذهلَ صفّه الدراسي، بدأ بعض الامتعاض والعداء يطفو على السطح. العالم المستغلق لحياة الصَّفَّيْن الخامس والسادس كان محكوماً بحزمة ضوابط ورتَب اجتماعية، وباتّخاذه مبادرة إطلاق *صليبيّ الشارع الحجري*، يكون فيرغسون بإقدامه على خلق شيء من العدم، قد تجاوزَ تلك الحدود دون سابق قصد. وفي داخل تلك الحدود، كان بإمكان الفتية أن يحظوا بمراتبهم بإحدى طريقتين: بالتّفوّق في الرياضة أو بإثبات أنهم سادة التّسبّب في الأذى. كانت الدرجات الجيّدة قليلة الأهمّيّة، وحتّى المواهب الاستثنائية في الفنّ والموسيقا لم يُحسَب لها حساب، من حيث إن أصحاب تلك المواهب عُدُّوا موهوبين فطرياً، سِمات بيولوجيةً شبيهة بلون شَعْر أحدهم أو مقاس قَدَمه، وبذلك ليست لصيقة بالشخص الذي يمتلكها، محض وقائع أنتجتها الطبيعة خارجَ إرادة الإنسان. كان فيرغسون أبداً جيّداً فيما يتعلّق بالألعاب الرياضية، ما أتاح له أن يتكيّف مع الصِّبية الآخرين، ويتجنّب مصيرَ النّبذ المقيت. كان مسبّبو الأذى يُضجِرونه، لكن حسّه الفكاهي الفوضوي ساعده على تكريس سمعته كشخص لطيف، حتّى وإن بقي في منأى عن الصِّبية الشرسين والمتعجرفين الذين كانوا يمضون عطلهم الأسبوعية في إلقاء المفرقعات داخل صناديق البريد، وتحطيم أعمدة الإنارة، وإجراء اتّصالات هاتفية قذرة مع أجمل الفتيات في الصفوف التي تسبقهم. بمعنى آخر، بقي فيرغسون حتّى الآن مطمئنّاً إلى أنه لن يتعرّض لمصاعب زائدة من قبلهم، لم توسَمْ درجاته بعلامة الزائد أو الناقص، كان اتّباعه الأسلوب اللبق، غير العدواني في علاقاته الشخصية قد صقلَ تجربته في مواجهة غضب الأولاد الآخرين، ما يعني أنه كان قاب قوسين من العراك، ثمّ بدا أنه لم يتسبّب بأعداء دائمين، لكنْ، فيما بعد، في الأشهر التي سبقت بلوغه الحادية عشرة، قرّر أنه يريد القيام بشيء مثير، تجلّى على شكل جريدة ذات طبق ورقيّ واحد ينشرها بنفسه، وفجأة فهم زملاء صفه أن ما كان يمتلكه فيرغسون أكبر ممّا يظنّون، أنه كان فتىً ذكياً بكل معنى الكلمة، صبياً متميّزاً لديه من حدّة الذهن ما يكفي لأن يُنجز عملاً عويصاً مثل *الصليبيّ*، وبالتالي دفع الاثنان وعشرون من زملاء فصله الدراسي في الصّفّ الخامس كلهم "نكلاتهم(*)" ثمن العدد الأوّل، وهنّؤوه على إنجازه الجميل، ضاحكين للتحوير الطريف على العبارات الذي شكّلَ به مقالاته، ثمّ جاءت عطلة الأسبوع، وبحلول يوم الاثنين، كان الجميع قد توقّف عن التّحدّث بشأنها. إن أتت نهاية *الصليبيّ* بعد ذلك العدد الأوّل، فليوفّر فيرغسون على نفسه المرارة التي ستنزل عليه في النهاية، لكنْ، كيف يدرك أن هناك فرقاً بين أن يكون المرء ذكياً أو ذكياً للغاية، وأن عدداً ثانياً

(*) Nickel: خمسة سنتات.

في الربيع سيؤلّب بعض تلاميذ صفه ضدّه، إذ سيبرهن أنه كان يعمل بهمّة عالية على عكس عملهم الفاتر، أي أن فيرغسون كان شغّيلاً طموحاً وكادحاً، وهُمْ أكثر بقليل من مغفّلين كسالى لا يصلحون لشيء؟ كانت بنات الصّفّ لا يزلنَ معه، كلّهن واحدة واحدة، لكن البنات لم يكنّ منافساتٍ له، بل الصبيان هم الذين بدؤوا يشعرون بأن اجتهاد فيرغسون يشكّل ثقلاً عليهم، ثلاثة أو أربعة منهم على أيّة حال، لكن فيرغسون كان ممتلئاً للغاية بسعادته الخاصّة لملاحظته ذلك، متورّداً لانتصاره في إكمال عدد آخر، لكي يعرف لماذا رفضَ روني كروليك وعصابته من قطّاع الطُّرُق شراء الإصدار الجديد من الصليبيّ حين جلبه إلى المدرسة في نيسان، وهو يفكّر، إن كان فكّر في الأمر أصلاً، أنهم ببساطة لم يمتلكوا ما يكفي من المال.

برأي فيرغسون، أن الصحف كانت إحدى أعظم ابتكارات الإنسان، وقد عشقها مذ تعلّمَ القراءة. في الصباح الباكر ولسبعة أيّام في الأسبوع، مع نسخة من Newark Star- Ledger ستظهر على درجات البيت الأمامية، صوت رميةٍ محبَّبة تتزامن مع لحظة نزوله عن السرير، يرميها شخص غير مرئيّ مجهول الاسم، لم يخطئ هدفه أبداً، وإلى أن بلغ ستّة سنوات ونصف السنة كان فيرغسون قد بدأ في طقس قراءة الجريدة الصباحيّ وهو يتناول الإفطار، هو الذي آلَ على نفسه أن يقرأ خلال الصيف الذي كُسرت فيه ساقه، الذي شقّ طريقه للخروج من سجن جهله الطفولي، وتحول إلى مواطن شابّ في هذا العالم، والآن قد نمتْ مداركه، لدرجة أنه يستطيع فهم كلّ شيء، أو كلّ شيء تقريباً عدا الأمور شديدة الإبهام في السياسة الاقتصادية وفكرة أن إنشاء المزيد من الأسلحة النووية سيضمن السلام الراسخ، وفي كلّ صباح سيجلس مع والديه إلى طاولة الإفطار، وكلّ منهم يستعرض قسماً مختلفاً من الجريدة، يقرأ بصمت، لأن التّحدّث كان بالغ الصعوبة في ذلك الوقت المبكّر من الصباح، ومن ثمّ تُمرَّرُ الأقسام الكاملة من واحد إلى آخر في المطبخ العابق بروائح القهوة والبيض المخفوق، الخبز بينما يُسخَّن ويصبح أسمرَ في سخّانة الخبز، الزبدة وهي تذوب على شرائح الخبز الساخنة. بالنسبة إلى فيرغسون، كان يبدأ بالرسوم الكاريكاتورية والرياضة، ثمّ غريبَي الجاذبية نانسي وصديقها سلاغو، جيغز وزوجته ماغي، بلوندي وداغوود، بيتل بايلي، وبعد ذلك جديد مانتل وفورد، من كونرلي وغيفورد، ومن ثمّ إلى الأخبار المحلّيّة، والوطنية والعالمية، المقالات حول الأفلام والمسرحيات، وما يسمّى بالمقالات ذات المضمون الإنساني عن الطلاب الجامعيين السبعة عشر الذين حُشروا في مقصورة هاتف أو السّتّ وثلاثين قطعة هوت دوغ التي ازدردها الفائز في مسابقة مقاطعة إسكس لمَنْ يأكل أكثر من غيره، وعندما يفرغ من ذلك كلّه، وتبقى بعض دقائق إضافية قبل الذهاب إلى المدرسة، يستعرض الإعلانات والقضايا الشخصية. حبيبي. *أحبّكَ. أروك، ارجعْ إلى البيت.*

بشكل عامّ، كانت جاذبية الجريدة مختلفة عن جاذبية الكُتُب. فالكُتُب وحدةٌ في ذاتها ودائمة، بينما الصحف رقيقةُ الورق، مطبوعات سريعة الزوال، مصيرها الإتلاف بعد قراءتها، تُستبدَل بها أخرى في الصباح التالي، مع كلّ صباح صحيفة حديثة ليوم جديد. تتقدّم الكُتُب إلى الأمام في خطٍّ مستقيم من البداية وحتّى النهاية، في حين أن الجرائد تحتلّ دائماً أماكن مختلفة في الآن نفسه، خليط من التواقُتِ والتناقض، مع تلك المقالات المتواجدة على الصفحة نفسها، كلّ منها تكشف عن جانب مختلف من العالم، كلّ منها تؤكّد فكرة أو حقيقة لا علاقة تربطها بالأخرى في العمود المجاور لها، حرب على الجهة اليمنى، وفي الجهة اليسرى، أناس يتسابقون حاملين بيضةً في ملعقة، بناء يحترق في أعلى الصفحة، لقاء فتيات الكشّافة في أسفلها، قضايا كبيرة وقضايا صغيرة تختلط فيما بينها، قضايا مأساوية على الصفحة رَقْم 1 وقضايا سخيفة على الصفحة 4، فيضانات شتائية وتحرّيات شرطة، اكتشافات علمية، وطُرُق تحضير أطعمة، وفيّات وولادات، نصائح للمتيّمين بالحبّ، وكلمات متقاطعة، تمريرات كرَةٍ، مداولات في الكونغرس، أعاصير وسمفونيات، إضرابات عمّالية، ورحلات منطاد عبر الأطلسي، وبالضرورة يجب أن تتضمّن صحيفةُ الصباح واحداً من تلك الوقائع في أعمدتها المطبوعة بحبر أسود، يترك اللطَخ، وفي كلّ صباح، يبتهج فيرغسون بفوضاها الشاملة، لأن ذلك ما هو العالم عليه، كما شعر، فوضى كبيرة جيّاشة، بملايين الأشياء المتنافرة التي تحدث فيه في الآن نفسه.

ذلك ما كانت *الصليبيّ* تعني له: الفرصة لخلق فوضى العالم خاصّته ضمن شيء ما يبدو مثل جريدة شرعية. ليست شرعية بمعنى الكلمة، بالتأكيد، لا أكثر من مقاربة نسبية في أحسن الأحوال، لكنّ صيغته من الجريدة الحقيقية التي تعود لصبي صغير هاوٍ كانت قريبة بعض الشيء في جوهرها من أن تترك أثراً لدى أصدقائه. كان فيرغسون يأمل بذلك النوع من الاستجابة، فقد أراد أن يلتفت زملاؤه في الصّفّ، ويلحظون حضوره، أما الآن وقد تحقّقت أُمنيّتُه، فلينغمس في العدد الثاني بإحساس متنامٍ بالثقة، بإيمان متجدّد بطاقة موهبته، وقد أصبح ذلك اليقين شديد التّهوّر حتّى إن المقاطعة المغرضة التي فرضها كروليك ورفاقه لم تترك له أن يرى ما كان يحدث. لم يعِ ذلك، إلى أن جاء الصباح التالي، وبدأتْ عيناه تتفتّحان بعض الشيء. كان مايكل تيمرمان أحد أقرب أصدقائه، صبي ذكي ومحبوب، بل إن درجاته كانت تفوق درجات فيرغسون، يتميّز بجسم كأجسام الأبطال فعلاً، ويتفوق على أقزام مثل روني كروليك كما سنديانة تشمخ فوق رقعة من اللبلاب السّامّ، وعندما انتحى مايكل تيمرمان به جانباً على الملعب أمام المدرسة قائلاً إنه يودّ التّحدّث إليه، فقد كان أكثر من سعيد بأن يصغي إليه. كانت كلماته الأولى عن مدى جودة *الصليبيّ*، ما أدخلَ إلى نفس فيرغسون بالغَ السرور، فرأي الزميل الرياضي الأفضل في الصّفّ

يضاهي أيّ رأي آخر، غير أن تيمرمان استطرد قائلاً إنه يرغب في العمل مع فيرغسون، إنه يودّ الانضمام إلى هيئة تحرير الصليبيّ، ويشارك بمقالات يكتبها بنفسه، الذي سيجعل من مطبوعةٍ جيّدة نشرةً أفضلَ حالاً، كما شعَرَ، إذ مَنْ ذا الذي سمع بجريدة يحرّرها شخص واحد، ثمّة ما هو غريب وغير متقَن في أن يكون هناك صحافي واحد يكتب الموادّ كلّها، وإذا منحه فيرغسون الفرصة، وجرت الأمور كما يجب، فربّما يصبح عدد الصحافيين في النهاية ثلاثة أو أربعة أو خمسة صحافيين، وإذا اشترك الجميع في تقديم بعض المال كمساهمة في تكاليف الطباعة، فربّما يزداد حجم الجريدة إلى أربع صفحات أو ثماني صفحات، مع تنضيد طباعي بدلَ الاعتماد على كتابة فيرغسون اليدوية البشعة، وبتلك الطريقة وحسْب ستبدأ بالظهور مثل صحيفة حقيقية.

لم يكن فيرغسون مهيّأً لأي شيء من هذا. فـ*الصليبيّ* أُعدّتْ كي تكون على الدوام عرضاً يقوم به شخص واحد، عرضه هو، إن تحسّن أداؤه أو ساء يبقى عرضه وحده، وليس عرضَ أحد آخر، وفكرة مشاركته الخشبة مع صبيّ آخر، أقلّ موهبةً من عدّة صبيةٍ آخرين، جعلته رهين البؤس. كان تيمرمان يُضيِّق أنفاسه بما لديه من التعليقات والاقتراحات، محاولاً أن يلوي ذراعه باتّجاه التّخلّي عن التّحكّم برقعته الغريبة وغير المتقنة بكتابتها اليدوية البشعة، لكنْ، ألم يدرك تيمرمان أنه كان بطبيعة الحال يفكّر بهذه المسائل، أنه حتّى لو تعلّم كيف ينضّد الأحرف، فلن يستعمل الآلة الكاتبة لأن المظهر سيبدو رديئاً، بالإضافة إلى أنه لا يستطع تأمين تكاليف التنضيد؟ ونظراً لواقعِ أنه كان في الحادية عشرة، فقد التجأ إلى الكتابة اليدوية بدلاً عن ذلك، وماذا يعرف تيمرمان عن صفقة والدته مع مايرسون بإجرائها تخفيضاتٍ على صور أولاده الثلاثة مقابلَ استخدام تجهيزاته الطباعية للنسخ؟ كذلك سار الأمر، كما أراد أن يخبر تيمرمان، أن فيرغسون قايضَ شيئاً بآخرَ لتخفيض النفقات، وبذل جهده بما لديه من إمكانات، وغضَّ النظر عن الشراكة في إنجاز ما يمكن تسميتها بصحيفة، لا يمكن لخمسة فتيان لملمة ما يكفي من مالٍ يغطّي تكاليفها، ولو لم يكن تيمرمان الصديق الذي يكنّ له أقصى الإعجاب، لطلب منه فيرغسون أن يترك شغله وشأنه، ويبدأ بتأسيس جريدته الخاصّة، إن كان لديه الكثير من الأفكار النّيّرة، لكنه احترم تيمرمان أكثر من أن يستطيع قول ما يفكّر به، لم يشأ أن يتحمّل تبِعةَ إيذاء صديقه، وبذلك اختار الطريقة التي يضمن بها أقلّ قدر من الخسارة بقوله دعني *أفكّر بالأمر* بدلَ الـ نعم أو الـ لا الصريحة، على أملِ أن يُضعِف الوقت من شغف تيمرمان حديث العهد بالصحافة، وعلى أن المسألة سوف تنتهي في غضون يومين.

كسائر الفتية الناجحين، لم يكن تيمرمان من أولئك الذين يستسلمون أو ينسون بسهولة. ففي كلّ صباح من أيّام الأسبوع الباقية، كان يقترب من فيرغسون في الملعب، ويسأله إن كان

توصّل إلى قرار، وفي كلّ صباح، كان فيرغسون يحاول أن يماطل في الرّدّ، قائلاً، ربّما، ربّما هي فكرة جيّدة، لكنه الربيع الآن، ولن يكون هناك ما يكفي من الوقت لإصدار عدد جديد قبل نهاية السنة الدراسية. كلانا منشغل بالدوري المصغّر في هذه الأيّام، ولا يمكنكَ تخيّل حجم العمل الذي يُبذَل في إعدادها. أسبوع من العمل، شهر من العمل. شغل مجهد لستُ حتّى متأكّداً أنني أريد القيام به من جديد. اتركِ الأمرَ لبعض الوقت، وربّما يمكننا التّحدّث بشأنه مرّة أخرى خلال الصيف.

لكن تيمرمان سيكون بعيداً في المعسكر الصيفَ بطوله، ويريد حلّ المسألة الآن. وحتّى لو أن العدد الجديد لن يقيّض له الظهور إلا مع مجيء الخريف، فإنه كان يحتاج إلى معرفة ما إذا كان يمكنه الاعتماد على الأمر أم لا، ولماذا يجد فيرغسون هذه الصعوبة في أن يقرّر ما يفعله؟ ما الذي يجعل منها قضية كبيرة إلى هذه الدرجة؟

أيقن فيرغسون أنه بات محاصراً. أربعة أيّام متوالية من الإلحاح المتواصل، وقد عرف أنه لن يتوقّف ما لم يعطِ الجواب. لكنْ، ما عساه يكون الجواب الصحيح؟ إذا قال لـ تيمرمان إنه لا يريده، فسوف يخسر صديقاً. إذا وافق على انضمام تيمرمان للجريدة، فسوف يحتقر نفسه، لأنه (بَعَجَ) مشروعَه، لأن جزءاً من ذاته قد خُرِقَتْ عجلاتُه بسبب تحمّس تيمرمان لـ *الصليبيّ*، وجزءاً آخر منه يوشك على النفور من صديقه، الذي لم يعد يتصرّف كصديق، بل كبلطجيّ معسول اللسان. لا، ليس كبلطجي بالضبط، بل كمناوِر، ولأن المناوِر كان الشخص الأكثر مقدرة وتأثيراً في الصّفّ، كان فيرغسون مُعرضاً عن القيام بأي شيء يسيء إليه، فلو شعر تيمرمان بإهانة من فيرغسون، لتمكّن من تأليبِ كامل الصّفّ ضدّه، ولأصبحت حياة فيرغسون بؤساً مقيماً ما تبقّى له من سنته الدراسية. وفي النهاية، كان باستطاعته ترك *الصليبيّ* تنهار في سبيل إبقاء السلام. لا يهمّ ما يحدث، سيبقى حبيسَ ذاته، ومن الأفضل أن يصبح منبوذاً على أن يفقد احترامه لنفسه. بالمقابل، من الأفضل بكثير ألا يصبح منبوذاً، فيما لو استطاع إيجاد حلّ للمسألة.

كلا الـ نعم والـ لا غير واردتين. وما كان يحتاجه فيرغسون هو احتمال أن يقدّم عرضاً ما دون أن يُلزمَه بارتباط طويل الأمد، نوعاً من إرجاءٍ تكتيكيّ مقنّع على شكل خطوة للأمام، التي ستكون في حقيقة الأمر خطوة إلى الوراء وفرصةً لكسب مزيد من الوقت. تقدّمَ باقتراح إلى تيمرمان بالقيام بمهمّة اختبارية، ليرى إن كان سيتمتّع بالعمل، وحين يفرغ من كتابة المقال، فسينظران فيه معاً، ويقرّران إن كان يناسب *الصليبيّ*. بدا تيمرمان كَمَنْ أُحبط في البداية، ما يشي بأنه ليس سعيداً للغاية لفكرة أن يكون موضع تقييم من قِبَل فيرغسون، لكن ذلك كان متوقَّعاً من طالب دائم الحصول على درجة الـ A ويتمتع بثقة مطلقة بالنفس فيما يتعلّق بملكاته الذهنية، ولذلك

اضطرّ فيرغسون لشرح أن الاختبار كان ضرورياً، لأن *الصليبيّ* جريدته وليست جريدة تيمرمان، وإذا أراد تيمرمان أن يكون شريكاً في جريدته، فعليه إثبات أن عمله يتّفق وروح المشروع، الذي كان لاذعاً وساخراً وسريعاً. لا يهمّ كم كان ذكياً، قال فيرغسون، مع ذلك يجب أن يكتب مقالة صحفية واحدة، ولا خبرة لديه على الإطلاق، وكيف يتعاونان، ما لم يعرفا كيف ستبدو عليه مقالاته؟ هذا عادل بما فيه الكفاية، قال تيمرمان. سيكتب قطعة تكون بمثابة الأنموذج، ليثبت مدى جدارته، وينقضي الأمر.

هذا ما أفكّر به، قال فيرغسون. *مَنْ هي ممثّلتكم السينمائية المفضّلة؟ - ولماذا؟* خَاطِبْ كلَّ مَن في الصّفّ، كلّ فتاة وكلّ صبيّ، واسألهم السؤال نفسه: مَنْ هي ممثّلتكم السينمائية المفضّلة؟ - ولماذا؟ تأكّد من كتابة كلّ كلمة يقولونها، الإجابات التي يجيبون بها كلمة كلمة، ثمّ عدْ إلى البيت، وصغْ من هذه النتائج مقالةَ عمودٍ، تجعل الناس يضحكون حين يقرؤونها، وإذا لم تجعلهم يضحكون، فعلى الأقلّ اجعلهم يتسمون. اتّفقنا؟

اتّفقنا، قال تيمرمان. لكنْ، لماذا ليس الممثّل المفضّل، أيضاً؟

لأن مسابقات الفائز الواحد أفضل من مسابقات الفائزَين الاثنين. ويمكن للممثّلين الانتظار حتّى العدد القادم.

وهكذا أتاح فيرغسون لنفسه بعض الوقت عن طريق إيفاد تيمرمان في مهمّة عمل عبثيّ يشغله، فكان كل شيء هادئاً على مدى الأيّام العشرة التالية بينما يجمع الصحافيّ المبتدئ بياناته، ويبدأ بكتابة المقالة. وكما ظنّ فيرغسون، نالت مارلين مونرو معظم الأصوات من الفتية، ستّة من أحد عشر، وذهبت الخمسة المتبقّية إلى إليزابيت تايلور (صوتان)، غريس كيلي (صوتان)، وأودري هيبورن (صوت واحد)، لكن الفتيات منحنَ مارلين مونرو صوتين من أصل اثني عشر صوتاً، وتوزعت العشرة المتبقّية بين هيبورن (ثلاثة أصوات)، تايلور (ثلاثة أصوات)، وصوت لكل من كيلي وليسلي كارون وسِيْدْ كاريس وديبورا كير. فيرغسون نفسه لم يكن قادراً على الاختيار بين تايلور وكيلي، لذلك طيّر قطعة العملة في الهواء، وانتهى بأن يصوّت لصالح تايلور، أما تيمرمان، وقد اعترضته المشكلة ذاتها بين كيلي وهيبورن، فطيّر قطعة العملة نفسها، واختار كيلي. هراء مُطبَق طبعاً، لكنْ، كان هناك ما هو مُسلٍّ فيه أيضاً، ولاحظ فيرغسون استغراق تيمرمان بكل ضميره في مهمّة مقابلة الأولاد وتدوين تعليقاتهم على مفكرته الصحفية الصغيرة المجلَّدة بسلك ملفوف. أعلى العلامات كانت للدأب والمثابرة إذاً. لكنْ، تلك كانت البداية فحسب، أساس البيت، إذ كان ولم يزل من غير الواضح أيّ نوع من البنيان سيستطيع تيمرمان النهوض به. لم يكن ثمّة شكّ في أن ذلك الجسد يحتوي دماغاً جيّداً، لكن ذلك لم يكن يعني أنه يُتقن الكتابة الجيّدة.

خلال فترة الأيّام العشرة تلك، فترة المراقبة والانتظار، انزلق فيرغسون بالتدريج إلى حالة غريبة من التناقض، ليصبح أقلّ، ثمّ أقلّ ثقة بشعوره حيال تيمرمان، غير متأكّد إن كان عليه المضيّ في استيائه منه أم الشروع في إبداء امتنانه لعمله الجادّ. فلوهلةٍ يتمنى أن ينجح، متأملاً في مدى صواب فكرة أن يكون إلى جانبه صحافي آخر يشاركه العبء رغم ذلك كلّه، مُدركاً الآن أن هناك ارتياحاً أكيداً في توكيل الآخرين ببعض المهام، ذلك أن كون المرء رئيساً لا يخلو من المسرّات، إذ اتّبعَ تيمرمان أوامره دون تذمّر، وهذا ما بعثَ شعوراً جديداً من نوعه، إحساساً بأنه في موقع المسؤولية، وإذا سار كلّ شيء على ما يرام بما يتعلّق بمقالة تيمرمان، فربّما عليه النظر في إفساح السبيل له، ليس كشريك بالطبع، لا، ليس كذلك، بل ككاتب مساهم، أوّل أولئك الذين قد يكونون كتّاباً مساهمين، الذين سينتهون إلى توسيع *الصليبيّ* من صفحتين إلى أربع. ربّما. ثمّ مرّة أخرى، وقد لا يقيض ذلك، إذ لم يسلِّمْ تيمرمان المقالة بعدُ، رغم أنه أتمّ المقابلات في خمسة أيّام، وها قد مرّت خمسة أيّام أخرى، فإن باستطاعة فيرغسون الاستنتاج أنه يكابد الأمرّين في إعداد المقالة، وإذا كان تيمرمان يتعثّر فيها، فذلك يعني أن النصّ ليس جيّداً، وأيّ شيء دون الجيّد سيكون في حكم المرفوض. سيقول ذلك في وجه تيمرمان. سيتخيّل أنه ينظر في عينَي مايكل تيمرمان الماهر، فكّر في داخله، ويقول له إنه قد أخفق. مع مجيء صباح اليوم العاشر، تداعت آمال فيرغسون إلى أُمنيّة واحدة: أن تيمرمان كان بصدد كتابة تحفة صحفية.

وكما تبيّن، لم تكن المقالة سيّئة. لم تكن سيّئة بشكل فظيع على أيّ حال، لكنها افتقرتْ إلى الحيوية التي كان فيرغسون يأملها، إلى اللمسة المرحة التي كان يمكن أن تحوّل موضوعها السخيف إلى شيء ما يستحقّ القراءة. إن كان هناك ثمّة عزاء في خيبة الأمل هذه، فقد جاءت من واقع أنها بدت سيّئة بالنسبة إلى تيمرمان أيضاً، أو أن فيرغسون خمّنَ من خلال رفع وزمّ الكاتب كتفَيه علامةَ استهجانه لنفسه لحظةَ ناوله المخطوط الجاهز على أرض الملعب في ذلك الصباح، مُرفَقاً بالاعتذار، لأن إنجاز العمل استغرق فترة طويلة، لكن المقالة لم تكن بالسهولة التي توقّعها، قال تيمرمان، فقد أعاد كتابتها أربع مرّات، وإن كان قد تعلّم شيئاً من التجربة، فهو أن *الكتابة عمل شاقّ للغاية*.

جميل. قال فيرغسون في سرّه. قليل من التواضع من السّيّد 'مكتمل'. اعتراف بالشك، بل ربّما اعتراف بالهزيمة، وبذلك فإن المواجهة التي كان يخشاها يُرجَّح ألا تقع، وذلك شيء مستحبّ، الشيء الأكثر روعة وطمأنينة، إذ أمضى فيرغسون الأيّام الماضية وهو يتخيّل القبضات تطير إلى بطنه ونفياً عاجلاً إلى عوالم المُحتقَرين الخارجية. رغم كلّ شيء، أدرك أنه كان يريد الحفاظ على سلامة صداقتهما، وعليه أن يخطو بحذر حول تيمرمان، ويتأكّد من أنه لم يدسْ على أصابع

قدميه. إنها أصابع كبيرة، وصاحب تلك الأصابع صبيّ كبير، وبقدر ما هو ودود، بقدر ما يمتلك أيضاً حدّة الطبع، التي شهدَ فيرغسون أمثلة عليها عدّة مرّات خلال السنوات الماضية، كان آخرها عندما أطاح بـ تومي فيوكس بلكمة، فأوقعه أرضاً، لأنه نعته بـ *الخرية المغرورة*، Tommy Fuchs ذاته الذي كان معروفاً لدى كارهيه باسم Tommy Fucks، ولم يشأ فيرغسون أن يكون Fucke*d* على يديّ تيمرمان كما جرى لـ Tommy Fucks.

طلب من تيمرمان أن يمهله بضع دقائق، وانتحى ركناً في الملعب ليقرأ المقالة وحيداً:

"كان السؤال: مَن هي ممثّلتكَ السينمائية المفضّلة؟ - ولماذا؟ استفتاء شمل ثلاثة وعشرين طالباً من صفّ السّيّدة فان هورن الخامس، كانت نتيجته - مارلين مونرو، التي حظيتْ بثمانية أصوات، لتتفوّق على إليزابيت تايلور، التي جاءت في المرتبة الثانية بخمسة أصوات...".

كان تيمرمان قد أدّى مهمّة توثيق الوقائع على أكمل وجه، غير أن لغته كانت مسطّحةً وجامدة، لدرجة أنها خلت من الحياة، وكان قد كثّف اهتمامه على المسألة الأقلّ شأناً في القصّة، الأرقام، التي كانت باهتة للغاية لدى مقارنتها مع ما قاله الطلاب في اختياراتهم وتعليقاتهم التي نقلها تيمرمان لـ فيرغسون، ومن ثمّ أهمل استخدامها في متن المقالة، ومع حشد فيرغسون لبعض هذه الملاحظات الآن، وجد نفسه يبدأ بإعادة كتابة النص في ذهنه:

"'فا فا فووم(*)،' قال كيفن لاسيتر، ولم يحتَجْ لأكثر من ثلاث كلمات، كي يفسرّ لماذا كانت مارلين مونرو ممثّلته السينمائية المفضّلة.

"'تبدو كأنها شخص ذكي ولطيف، أتمنّى أن أتعرّف إليها، وأصبح صديقاً لها'، قالت بيغي غولدشتاين، وهي تبرّر اختيارها لـ ديبورا كير.

"'أنيقة جدّاً، جميلة جدّاً - حتّى إني لا أستطيع إشاحة أنظاري عنها،' قالت غلوريا دولان عن نجمتها الأولى غريس كيلي.

"'شيء من الإثارة'، قال أليكس بوتيللو، ملمّحاً إلى نجمته السينمائية الأثيرة إليزابيت تايلور: 'أعني، تمعّن في جسدها. إنه يملأ الصبيَّ بالرغبة بالنضوج بأسرع ما يمكن.'"

كان من المستحيل أن يطلب من تيمرمان العودة إلى نقطة البداية وكتابة المقالة للمرّة الخامسة. من غير المجدي أن يقول له إن شغلَه لم يستثرْ لا ضحكةً ولا ابتسامة، وإنه كان من الأفضل له لو ركّز على السبب بدلاً من الشخص. فات الوقت لاستدراك أيّة ملاحظات من تلك، وكان آخر ما أراده فيرغسون أن يمارس سطوته على تيمرمان، ويشرع بإلقاء المحاضرات

---

*) Va va voom: عبارة تختصر صفات الإثارة والحيوية والجاذبية الجنسية لدى الأنثى. (م).

عليه فيما يجب أو لا يجب أن يكتبه. عاد إلى حيث كان السّيّد ذو أصابع القدم الكبيرة واقفاً، وأعاد المقالة إليه.

حسناً؟ قال تيمرمان.

ليست سيّئة، أجاب فيرغسون.

تقصد أنها ليست جيّدة.

لا، ليس أنها *ليست* جيّدة. بل ليست سيّئة. أعني جيّدة للغاية.

وماذا عن العدد التالي؟

لا أعرف. حتّى إني لم أفكّر به بعد.

لكنكَ تنوي إصدار عدد جديد، صحيح؟

ربمّا نعم. ربمّا لا. الأمر مبكّر جدّاً لأنْ يقرّر المرء.

لا تستسلم. لقد أسّستَ شيئاً عظيماً، يا آرتشي، وعليكَ أن تحافظ على استمراريته.

إذا لم أشعر بأنني أهوى هذا العمل، فلن أستمرّ به. بالأحوال كلها، لماذا تهتمّ به؟ لا أزال عاجزاً عن فهم السبب في أن *الصليبيّ* أصبحت فجأة مهمّة بالنسبة إليكَ.

لأنها ملهِمة ومثيرة، هذا هو السبب، وأحبّ أن أكون جزءاً من شيء مثير. أحسبُ أن في ذلك الكثير من المتعة.

حسناً. سأقول لكَ إنني إذّا ما قرّرتُ إصدار عدد جديد، فسأُعْلمُكَ.

وتمنحني فرصة كتابة شيء ما؟

طبعاً، ولمَ لا؟

أتعدني؟

بأن أمنحكَ فرصة، نعم، أعدكَ.

وحتّى وهو ينطق بتلك الكلمات، أدرك فيرغسون أن وعده لم يعنِ شيئاً، إذ قرّر سلفاً إغلاق *الصليبيّ* للأبد. فقد أنهكتْه معركة الأيّام الأربعة عشر مع تيمرمان، وبات يشعر بأنه مُستنفَد وأجوف، مشمئزّ بكلّيّته من نفسه لتقلّبِ مشاعره دون تحكيم العقل، محبَطٌ لعدم رغبته باستنهاض ذاته، والدفاع عن موقعه، الذي تمثّل بجريدةِ رجلٍ واحد أو لا جريدة، والآن وقد نال النجاح والسمعة الحسنة، وأنجز ما كان يصبو إليه، فربمّا يجب أن يختار الـ لاشيء، عليه أن يخرج من حوض السباحة، يجفّف نفسه، ويعلن استقالته. أضف إلى أن موسم البيسبول قد حلّ، وهو منشغل باللعب لصالح فريق Pirates التابع لغرفة التجارة في مقاطعة وِست

أورانج، وحين لا يكون في الملعب سينشغل بقراءة *الكونت دي مونت كريستو*، الرواية الضخمة التي أرسلتها إليه الخالة ميلدرد في الشهر الماضي بمناسبة عيد ميلاده الحادي عشر، التي بدأ أخيراً بقراءتها بعد أن أصبح العدد الثاني من *الصليبيّ* في السبات، والآن وقد استغرق فيها أصبح يزداد استغراقاً، إذ كانت دون أدنى شكّ أكثر الأعمال الروائية إمتاعاً التي وقعت بين يديه، وكم كان مشوقاً متابعة مغامرات إدموند دانتيه كلّ ليلة بعد العشاء بدلاً من عَدِّ كلمات المقالات في الجريدة، لكي تتناسب ومساحة الأعمدة الضّيّقة ضمن ورقة صحيفته ذات القطع الكبير، الكثير من العمل، الكثير من إجهاد العينين حتّى أواخر الليالي تحت مصباحه ذي الضوء الواحد، يصوغ مقالاته في جوّ شبه مظلم بينما يظنّه أهله غارقاً في النوم، ثمّة الكثير من البدايات المفتعلة والتصحيحات، الكثير من الشُّكْر الصامت للرجل الذي اخترع المماحي، مدرِكاً أن جلَّ عمل الكتابة يتمثّل بمحو الكلمات أكثر من إضافتها، ومن ثمّ العمل المضجر بإعادة تعتيم كلّ حرفٍ على حدة بالحبر للتّأكّد من أن الكلمات ستكون سوداء ما يكفي لأن تقبل النسخ، منهك، نعم، ذلك كان ملخّص الحال، بعد مواجهته المديدة والمتعِبة مع تيمرمان، كان منهكاً، وكما يمكن أن يقول له أيّ طبيب، إن الراحة هي الدواء الشافي الوحيد من الإنهاك.

استراح لمدّة شهر، أنهى قراءة ألكسندر دوماس بقلبٍ مفطور، من خشية أن تمرّ السنون قبل أن يجد رواية أخرى بجودتها، ومن ثمّ، في الأيّام الثلاثة الأخيرة من إتمامه الكتاب، وقعت ثلاثة أحداث، غيّرت تفكيره، وأخرجته من العزلة. ببساطة لم يستطع منع نفسه. كلمات عنوان عريض ومضتْ في ذهنه، وكانت تلك الكلمات سارّة للغاية بالنسبة إليه، كان الرنين المقفّى لأحرفها الساكنة المجلجلة مشرقاً للغاية، مخاتلاً للغاية كان في هرائها الظاهري وما هو في الواقع هراءً كلّ المغزى، لدرجة أنه تاق لأن يرى تلك الكلمات مطبوعةً، وهكذا، متنصّلاً من عهده بترك عمل الجريدة، بدأ يحضّر للعدد الثالث من الصليبيّ، الذي سيحمل عنواناً رئيساً واحداً من خبطتين بالخطّ العريض على امتداد الصفحة الأمامية: FRACAS IN CARACAS(*).

بدأ في الثالث عشر من أيّار بعد أن هوجم ريتشارد نيكسون من قبل شلّة من المتظاهرين الفنزويليين في المحطّة الأخيرة من جولة حسْن نوايا في ثلاث من دول أميركا الجنوبية. كان معاون الرئيس قد حطّ في المطار، وفي أثناء عبور موكبه شوارع مركز مدينة كاراكاس، هتفت الحشود المصطفّة على الأرصفة *الموت لـ نيكسون! ارجعْ، يا نيكسون، إلى بلادكَ!* وما لبثت سيّارة نيكسون أن أُحيطت بمجموعة من الناس، معظمهم من الشباب، الذين بدؤوا يبصقون على السّيّارة، ويحاولون تحطيم نوافذها، وبعد لحظات من ذلك، حاولوا قلب السّيّارة من أحد

*) هرج ومرَج في كاراكاس.

جانبيها، ودفعها إلى الخلف والأمام بغضب حتّى بدا أن السّيّارة توشك على أن تنقلب، ولولا الحضور السريع للجنود الفنزويليين، الذين فرّقوا الجمع، وأفسحوا طريقاً لمرور سيّارة نيكسون كي تنطلق من المكان، لانتهت الأمور على نحو مروّع، مروّع للغاية لكل مَنْ يهمه الأمر، خصوصاً لـ نيكسون وزوجته اللذين كانا على وشك الموت.

قرأ فيرغسون الخبر في الجريدة صباح اليوم التالي، شاهد لقطات من الحادثة في الأخبار التلفزيونية في ذلك المساء، وفي أواخر ظهيرة اليوم التالي، زارهم إلى البيت كلّ من ابنة عمّه فرانسي وزوجها غاري وطفلهما ذي الخمسة أشهر. يقيمون الآن في نيويورك، حيث يكاد غاري ينهي سنته الأولى في كلّيّة الحقوق بجامعة كولومبيا، وأبداً منذ دوره كحامل الخواتم في حفل زواجهما منذ أربع سنوات خلتْ، عامل غاري ابنَ عمّ زوجته بنوع من الرعاية، وعلى أنه صبيّ يجول عوالم الأفكار بمساعٍ رجولية، ولا بدّ أن النجاح حليفه، وهذا ما أوصلَ إلى بعض النقاشات الطويلة عن الكُتُب والرياضة، بل والسياسة أيضاً، التي كانت بعضاً من هواجس غاري (الذي كان من المشتركين بـ I. F. Stone's Weekly، Dissent، وthe Partisan Review)، ولأن زوج فرانسي كان شابّاً مثقفاً، لا ريب العقل المفكر الأكبر الذي عرفه فيرغسون، بالإضافة إلى الخالة ميلدرد. كان من الطبيعي أن يسأل غاري دون سواه عن رأيه في الشغب الذي تعرّض له نيكسون مع الجمهور في فنزويلا. كانا معاً في الحديقة الخلفية، يمشيان تحت شجرة بلّوط سقط عنها فيرغسون حين كان في السادسة، وغاري الطويل الممتلئ ينفث دخان لفافة الـ بارلَمنتْ بينما جلست والدة فيرغسون وفرانسي على الشرفة مع الطفل ستيفن، ذلك الكائن البشري الغرّ السمين، الصغير بالنسبة إلى فيرغسون بالقدر الذي كان فيرغسون صغيراً بالنسبة إلى فرانسي فيما مضى، وبينما كانت المرأتان تضحكان وتتبادلان حمل الطفل، كان غاري هولاندر الرسمي جدّاً ذو النبرة التوجيهية يتحدّث إليه عن الحرب الباردة، والقائمة السوداء، والرعب الأحمر، ونزعة مكافحة الشيوعية المشوّشة التي توجِّه السياسة الخارجية الأميركية، والتي دفعت وزارة الخارجية إلى دعم الديكتاتوريات اليمينية المتوحشة في كل أنحاء العالم، خصوصاً في أمريكا الوسطى والجنوبية، ولذلك هوجم نيكسون، قال، ليس لأنه نيكسون، بل لأنه يمثّل حكومة الولايات المتّحدة، وتلك الحكومة محتَقَرة من قبل أعداد هائلة في تلك البلدان، واحتقار هؤلاء البشر مشروع بسبب مساندة الحكومة للطغاة الذين يضطهدونهم.

تمهّل غاري ليشعل لفافة بارلمنت أخرى. ثمّ قال: أتدرك ما أقول، يا آرتشي؟

أومأ فيرغسون. أفهم ما تقول، قال. إننا خائفون من الشيوعية، سوف نفعل أي شيء لإيقافها. حتّى لو كان ذلك يعني دعم مَنْ هم أسوأ من الشيوعيين.

صباحَ اليوم التالي، في أثناء قراءة الصفحات الرياضية على الفطور، وقع فيرغسون على كلمة *fracas* للمرّة الأولى. رامي كرة البيسبول من ديترويت قذف بالكرة إلى رأس حامل المضرب من فريق شيكاغو، ألقى اللاعب مضربَه، جرى نحو الرابية، ولكمَ الرامي، ومن ثمّ اندفع اللاعبون من كلا الفريقين إلى الملعب، وتبادل الجميع اللكمات على مدى الاثنتي عشرة دقيقة التالية. ولدى *إخماد الشجار*، كتب الصحافيّ، *طُردَ ستّة لاعبين من المباراة*.

تطلّع فيرغسون إلى والدته وقال: ماذا تعني كلمة *fracas*؟

الشجار العنيف، أجابت. تعني أيضاً الهرج والمرج.

ذلك ما ظننتُه، قال. أردتُ التّأكّد فحسب.

مرّت أشهرٌ. انتهت السنة الدراسية دون متاعب إضافية من طرف كروليك أو تيمرمان أو أيّ أحد آخر، ومن ثمّ انفضَّ تلاميذ المعلِّمة فان هورن الثلاثة والعشرون لإجازة الصيف. وغادر فيرغسون إلى كامب بارادايس في مهمّة الأسابيع الثماني الثانية له هناك، وعلى الرغم من أن معظم وقته قد ذهب في المرح على ملاعب الكرة والسباحة في البحيرة، فقد حظي هناك ببعض ساعات سكينة ما بعد الغداء وما بعد العشاء، ما يكفيه لأن يكتب مقالاته، ويحضر تصميم العدد الثالث من *الصليبيّ*. أنهى العمل في المنزل خلال فاصل الأسبوعين ما بين نهاية المخيّم وبداية المدرسة، وهو يشتغل كلّ صباح وظهيرة ومعظم المساء، لكي يتقيّد بالموعد النهائي الذي فرضه على نفسه في الأوّل من أيلول، ما سيمنح والدته الوقت الكافي لتشغيل آلة النسخ في مطبعة مايرسون، لكي يكون العدد جاهزاً بحلول اليوم الدراسي الأوّل. سيكون ذلك الطريقة الأفضل لبدء السنة كما شعَر، صدمة طفيفة لدفع الأشياء باتّجاه بداية حثيثة، وبعد ذلك سينظر فيما سيفعله، ويقرّر إن كان هناك المزيد من *الصليبيّ* أو إن كان هذا في الواقع هو العدد الأخير.

كان قد وعد تيمرمان بأنه سيحيطه علماً حين يكون ثمّة عدد جديد في الطريق، لكن المقالات كافّة كُتبتْ قبل أن يجد الفرصة للاتّصال به. اتّصل بمنزل تيمرمان في اليوم التالي لعودته من المخيّم، لكن مدبّرة المنزل أخبرته أن مايكل ووالديه وأخويه خرجوا في رحلة صيد قرب أديروندأكس، ولن يعودوا حتّى اليوم الذي يسبق بداية المدرسة. منذ بداية الصيف، وضع فيرغسون نصبَ عينيه كتابة نصّ الـ va- va- voom الطريف من مقالة ممثّلات السينما، ثمّ إدراجه في العدد الجديد، لكنه استبعد الفكرة احتراماً لمشاعر تيمرمان، واعياً كم سيكون نشرُها قاسياً، وكم سيتأذّى تيمرمان لهذا التحطيم البارع لمحاولته البليدة. لو احتفظ بنسخة تيمرمان من المقالة، لربّما وضع في الاعتبار نشرها على سبيل المجاملة، لكنه أعادها إليه في الملعب في شهر

نيسان، وبذلك لم يعد الأمر ممكناً. هناك عدد جديد من صليبيّ شارع الحجارة على وشك أن يكتسح قاعات الدراسة وصالات الرياضة في مدرسة فيرغسون الابتدائية، دون أن يعرف مايكل تيمرمان شيئاً عنه.

تلك كانت غلطته الأولى.

أما الغلطة الثانية، ففي أنه تذكّر شطراً كبيراً من محادثته مع غاري في الحديقة الخلفية.

كان الشجار في كاراكاس قد بات خبراً قديماً في ذلك الحين، إلا أن فيرغسون لم يترك العبارة تمرّ مرورَ الكرام، فبقيت تضجّ في ذهنه لأشهر، لذلك بدلاً من استخدام العنوان الرئيس لسرد ما حدث لـ نيكسون، حوّلَ النصّ إلى افتتاحية مؤطّرة في منتصف الصفحة الأولى، وعنوان هرج ومرج في كاراكاس يظهر أعلى الطّيّةِ تماماً، وبقية المقال تحتها بالضبط. وبتأثير حديثه مع غاري، ناقشَ فكرة أن على أميركا الكفّ عن قلقها البالغ من الشيوعية، والاستماع إلى ما يجب أن تقوله شعوبُ البلدان الأخرى. "كان من الخطأ محاولة قلب سيّارة نائب الرئيس،" كتبَ، "لكن الرجال الذين قاموا بذلك كانوا ناقمين لسبب ما. فهم لا يحبّون أميركا، لأنهم يشعرون بأن أميركا تقف ضدّهم. وذلك لا يعني أنهم شيوعيون. بل يعني أنهم يريدون أن يكونوا أحراراً وحسْب."

'في البدء' كانت اللكمة، اللكمة الغاضبة إلى بطنه، وتيمرمان يهدر بصوت عالٍ *كذّاب*، ويطرحه أرضاً. تطايرت آخر نسخ *الصليبيّ* الإحدى والعشرين من يديّ فيرغسون، ثمّ بدأتْ بالتبعثر على أرضية باحة المدرسة في ريح الصباح القاسية، والاندفاع باتّجاه الأولاد الآخرين كجيش طائرات ورقية بلا خيوط. نهض فيرغسون، وحاول أن يسدد لكمةً هو الآخر، لكن تيمرمان، الذي بدا أن طوله قد ازداد ثلاثة أو أربعة إنشات خلال الصيف، عاجَلَه بضربة، وأردفها بلكمة أخرى على أمعائه نزلتْ بقوّة تفُوق قوّة الأولى، لكمة لم تودِ بـ فيرغسون إلى الأرض من جديد فحسب، بل إنها قطعت أنفاسه. في تلك الأثناء، كان كروليك وتومي فيوكس وصِبيةٌ آخرون يقفون حول فيرغسون ويضحكون، ساخرين بعبارات مثل *كسّ مصاب بالالتهاب، لوطيّ، مخ شبيه الكسّ*، وحين تمكّن فيرغسون من النهوض مرّة أخرى، دفعه تيمرمان، وألقاه أرضاً للمرّة الثالثة، دفعه بعنف، ما جعل فيرغسون يرتمي على مرفقه الأيسر، وفي غضون ثوانٍ، كان الألم العظميّ الفظيع المرفق بالخدر قد شلّ حركته، الذي منح كروليك وفيوكس ما يكفي من الوقت لإطلاق بذاءاتهم في وجهه. أطبق جفنيه. في مكان ما بعيدٍ سمعَ صوت بنتٍ وهي تصرخ.

ثمّ جاء التوبيخ والعقوبات، الاحتجاز بعد المدرسة، الواجب الثقيل بكتابة كلمات *لن أقاتل في المدرسة* مائتيّ مرّة، مصافحة الصلح مع تيمرمان، الذي رفض النظر في عينَي فيرغسون، الذي لن ينظر في عينيه بعد ذلك، الذي سيستمرّ في كراهية فيرغسون فيما تبقّى له من حياة،

ومن ثمّ، بالضبط حين أوشكوا على الانصراف من صفّهم السادس الجديد الذي عُهِدَ به إلى المدرِّسة السّيّدة بلاسي، دخلَتْ معاونة المدير غرفة الصّفّ، وأبلغت فيرغسون بأنه مطلوب إلى مكتب السّيّد جيمسون بالطابق الأرضي. وماذا عن مايكل؟ تساءلتْ السّيّدة بلاسي. لا، ليس مايكل، أجابت السّيّدة أوهارا. فقط فيرغسون.

وجد فيرغسون السّيّد جيمسون جالساً وراء مكتبه، وبيده نسخة من *صليبيّ الشارع الحجريّ*. كان المسؤول عن المدرسة على مدى السنوات الخمس الأخيرة، ومع كلّ سنة تمرّ كان يلوح أنه يزداد قصراً وتكوّراً وأن شَعْره أقلّ من ذي قبل. شَعْره البنّيّ أوّلاً، كما تذكّر فيرغسون، إلا من خصلاته الدقيقة المتبقّية، وقد أصبحت الآن رمادية. لم يدعُ المديرُ فيرغسونَ للجلوس، فبقي فيرغسون واقفاً.

أتعلم أنكَ في ورطة حقيقة، أليس كذلك؟ قال جيمسون.

ورطة؟ قال فيرغسون. لتوّيَ أنهيتُ عقوبتي. كيف يحدث أني لا أزال في ورطة؟

نلتَ أنت وتيمرمان العقاب بسبب الشجار. أنا أتحدّث عن هذه.

ألقى السّيّد جيمسون بـ*الصليبيّ* على مكتبه.

قلْ لي، يا فيرغسون، استطرد المدير، أأنتَ مسؤول عن كلّ مقالة في هذا العدد؟

نعم، يا سيّدي، عن كلّ كلمة في أيّ مقالة.

ألم يساعدكَ أحد في كتابة أيّ شيء؟

لا أحد.

وماذا عن والدتكَ ووالدكَ. هل قرآها مسبَّقاً؟

قرأتْها أمّي. هي تساعدني بطباعتها، لذلك يمكنها أن تراها قبل أيّ أحد آخر. لم يقرأها والدي إلا البارحة.

وماذا قالا لكَ عنها؟

لم يقولا شيئاً مهمّاً. شغلٌ متقَن، يا آرتشي. تابعْ هذا العمل الجميل. وأشياء من هذا القبيل.

إذاً أنتَ تقول لي إن الافتتاحية على الصفحة الأولى كانت فكرتكَ.

هرج ومرج في كاراكاس. نعم، إنها فكرتي.

قلْ الحقيقة، يا فيرغسون. مَن الذي يسمّم ذهنكَ بالدعاية الشيوعية؟

ماذا؟

اعترفْ، وإلا سيتوجّب عليّ أن أعلّق حضوركَ في المدرسة، بسبب طباعة هذه الأكاذيب.

لم أكذب.

لتوّكَ بدأتَ الصّفّ السادس. هذا يعني أنكَ في الحادية عشرة، أأنا على صواب؟

إحدى عشرة ونصف السنة.

وتتوقّع أن أصدقَ بأن صبياً في عمركَ يمكنه أن يخوض نقاشاً سياسياً كهذا؟ أنت أصغر من أن تكون خائناً، يا فيرغسون. ذلك مستحيل تماماً. لا بدّ أن شخصاً أكبر منكَ يغذّيكَ بتلك الزبالة، وأخمّن بأنها أمّكَ أو أبوكَ.

هما ليسا خائنَين، يا سيّد جيمسون. إنهما يحبّان بلادهما.

فَمَنْ، إذنْ، يحادثكَ بذلك؟

لا أحد.

عندما أقلعتَ بصحيفتكَ في السنة الماضية، وافقتُ عليها، ألم أفعل؟ بل إنني أتحتُ لكَ إجراء مقابلة معي في إحدى مواد جريدتكَ. وجدتُ الأمر ساحراً، لمجرّد أنه نوع من ذلك النشاط الذي يقوم به شابّ صغير. لا منازعات، لا سياسة، ثمّ تذهبُ في إجازة الصيف لتعود شيوعياً. ماذا يفترض بي أن أفعله معكَ؟

إن كانت *الصليبيّ* هي التي تسبّب المشكلة، يا سيّد جيمسون، فليس عليك أن تقلق بشأنها بعد الآن. كانت هناك خمسون نسخة من إصدار العودة إلى المدرسة، ونصفها تطاير في الهواء عندما بدأ العراك. كنتُ متردّداً بشأن الاستمرار في إصدارها، لكنْ، بعد مشاجرة هذا الصباح، بات قراري أكيداً. لقد انتهت *صليبيّ الشارع الحجريّ*.

أهذا وعد، يا فيرغسون؟

على ذلك، فليُعِنّي الله.

اصدقْ في وعدكَ، لعلني أحاول تناسي أنكَ تستحقّ أن تُعلَّق دراستكَ.

لا، لا تتناسَ. أريد تعليق دوامي. فكلّ صِبيةِ الصّفّ السادس ضدّي الآن، وتوشك المدرسة أن تصبح المكان الأخير الذي أرغب في أن أكون فيه بعد الآن. علِّقْ دراستي إلى أمد طويل، يا سيّد جيمسون.

لا تمزح هنا، يا فيرغسون.

أنا لا أمزح. أنا الشخص 'الخارج'، المستبعَد، وكلّما طال ابتعادي عن هذا المكان، كنتُ أفضل حالاً.

كان والده يشقّ طريقه نحو عمل مختلف الآن. لم يعد *عالم الأخوة الثلاثة للتجهيزات المنزلية* قائماً، لكن الفقاعة الصامدة أمام نوائب الدهر الواقعة عند حدود وست أورانج - ساوث أورانج وكانت تسمّى مركز ساوث ماونتن للتنس، بستّة ملاعب داخلية، أتاحت لأبناء المنطقة من هواة التنس إشباع عشقهم للرياضة على امتداد أشهر السنة الاثني عشر، كي يلعبوا خلال العواصف المطرية والثلجية، كي يلعبوا في الليل، كي يلعبوا قبل شروق الشمس في صباحات الشتاء، نصف دزّينة من الملاعب خضراء مستوية السطح، غرفتان لتبديل الملابس مجهّزتان بالمغاسل والمراحيض والحمّامات ومتجر لمحترفي اللعبة لبيع المضارب والكرات والأحذية الرياضية وبدلات التنس للرجال والنساء. عُدَّ حريق 1953 حادثاً، ودفعت شركة التأمين بدلَ الخسائر بالكامل، وبدلاً من إعادة بناء أو افتتاح متجر آخر في موقع جديد، منح والدُ فيرغسون أخويه الموظَّفَين لديه حصّةً من المال (ستون ألف دولار لكلّ منهما)، واستخدم مبلغ المائة وثمانين ألف دولار المتبقّية لإطلاق مشروع التنس الخاصّ به. أما ليو وميلي، فأقلعا باتّجاه جنوبي فلوريدا، حيث أصبح ليو متعهّداً في سباقات الكلاب ومباريات الـ جاي ألاي(*)، وفتح أرنولد في موريستاون متجراً متخصّصاً بحفلات أعياد ميلاد الأولاد، ورصَّ رفوفه بأكياس البالونات ولفافات أشرطة التزيين الملوّنة والشموع والألعاب المثيرة للقرقعة والقبّعات الهزلية والملصقات التي تصوّر حميراً، يختار الطفل أذيالاً لها، لكن نيوجرسي لم تكن مؤهّلة لفكرة جديدة مثل هذه، وحين أوقف المتجرُ أعماله بعد سنتين ونصف، التجأ أرنولد إلى طلب العون من ستانلي، وتسلّمَ عملاً في متجر المحترفين ضمن مركز التنس. أما بالنسبة إلى والد فيرغسون، فكان في كلّ يوم من السنتين ونصف التي استغرقها أرنولد في إدارة متجره باتّجاه الحضيض يرفع من حجم رأسماله، ليزيد ممّا يمتلكه من أموال التي استثمرها لنفسه، بحثاً عن أرض وشراءها في النهاية، ثمّ لينهض بمركز ساوث ماونتن للتنس، الذي فتح أبوابه في آذار 1956، بعد أسبوع من عيد ميلاد ابنه التاسع.

أحبَّ فيرغسون الفقاعة الصامدة أمام نوائب الدهر، وصدى الأصوات الغريب لطابات التنس بينما تتطاير أينما نظر الشخص في ذلك المكان الذي يشبه تصميمه الكهف، وخليط الفرقعة مع اصطدام الكرات بالمضارب عندما تكون عدّة ملاعب قيد الاستخدام في الآن ذاته. زقزقة النعال المطّاطية تنزلق على الأرضيات الصلبة، الهمهمات واللهاث، المطمطة الطويلة حين ليس ثمّة ما يقوله اللاعبون، الوقار الهادئ للناس لابسيّ البزّات البيضاء يضربون طاباتٍ بيضاء على شِبَاك بيضاء، عالم منغلق على ذاته حتّى ليبدو أن لا عالم كبيراً خارج قبّته. شعر أن والده قد فعل الصواب بتغيير عمله، ذلك أنه يمكن لأجهزة التلفاز والبرّادات وفرشات النوابض

(*) jai alai matches

مخاطبتكَ لفترة طويلة، ثمّ تأتي لحظة، يتعيّن عليكَ فيها أن ترمي بكلّ شيء وراءكَ، لتجرب شغلاً آخر، ولأن والده كان شغوفاً بالتنس، فلماذا لا يكسب معيشته من اللعبة التي يحبّ؟

وعودةً إلى 1953، في الأيّام العصيبة التي تلت عالم الأخوة الثلاثة للتجهيزات المنزلية المدمَّر عن بكرة أبيه، عندما كان والده يُعدّ خطّته لمركز ساوث ماونتن، حذّرته والدته من مخاطر التورّط في مجازفة كهذه، من المقامرة التي سيُقدم عليها والده، وفي حقيقة الأمر، كان هناك الكثير من الصَعود والهبوط اللذين رافقا ذلك المسعى، وحتّى بعد أن تمّ بناء المركز، استغرقَ الأمر بعض الوقت ريثما تنامى عدد الأعضاء إلى الحدّ الذي يؤمّن ما يكفي من إيرادات، تتجاوز تكاليف الإدارة لاستثمار كبير كهذا، أي أنه على امتداد معظم السنوات الثلاث الإضافية بين أواخر 1953 ومنتصف 1957 كانت عائلة فيرغسون تعتمد على دخْل روزلاند فوتو، لكي تؤمن المعيشة اليومية. ومنذ ذلك الحين تحسّنت الأحوال، وكان ريع المركز واستديو التصوير آخذاً في الازدياد، يدرّان دخلاً كافياً، ينهض بأعباء الإنفاق المتهوّر كشراء سيّارة بيويك جديدة لوالده، وطلاء جديد للمنزل، ومعطف فرو فاخر لوالدته، وتكاليف مخيّم فيرغسون الصيفي مع المنامة لصيفين على التوالي، لكنْ، على الرغم من أن أوضاعهم أكثر يُسراً الآن، أدرك فيرغسون كم من مجهود بذله والداه لتأمين تلك الأريحية المعيشية، وكم استهلكهما عملاهما، وكم كان الوقت المتبقّي للأشياء الأخرى شحيحاً، خصوصاً لوالده، الذي أبقى المركز مفتوحاً سبعة أيّام في الأسبوع، من السادسة صباحاً وحتّى العاشرة ليلاً، وفي حين كان لديه فريق من الموظّفين يساعده - مثل تشاك أوشي وبيل أبرامافيتش، اللذين استطاعا إلى حدّ معقول تسيير الأمور اعتماداً على نفسيهما، وجون روبنسون، المستخدَم السابق في الحافلات الفخمة الذي تكفّل بالملاعب وغرف تبديل الملابس، والعمّ أرنولد المرهَق بالديون، الذي بدّد ساعات عمله في متجر المحترفين بتدخين سجائر الجمل وتصفّح الجرائد وأنواع السباق المختلفة، والمساعدين الشباب الثلاثة، روجر نايلز ونيد فورتوناتو وريتشي سيغل، الذين تناوبوا في ورديات من ستّ أو سبع ساعات، وستّة من طلاب الثانوية موظّفيّ الدوامِ الجزئيّ - إلا أن والد فيرغسون قلّما حظي بأيّام عطلةٍ خلال أشهر الطقس البارد، وكذلك لم يحظَ بالكثير من الإجازات في الأشهر الدافئة.

لأن والدَيه كانا منشغلَين على الدوام، آثرَ فيرغسون إبقاء همومه في داخله. وفي حالات الضرورة الملحّة، كان يعلم أن باستطاعته الاعتماد على مساندة والدته له، لكنْ، في واقع الأمر، لم تحدث ثمّة ضرورات في السنتين الأخيرتين الماضيتين، على الأقلّ لم تكن إلى درجة من السوء بحيث تجعله يهرع إليها بطلب المساعدة، والآن وهو في الحادية عشرة ونصف، فإن معظم الظروف التي بدت ذات يوم عصيبةً بالنسبة إليه قد تضاءلت إلى مجموعة إشكالاتٍ صغيرة،

استطاع أن يحلّها بنفسه. فلا شكّ أن تلقّيه الضرب في الملعب قبيل بدء اليوم الدراسي الأوّل كان مشكلة كبيرة. اتّهامه من قِبَل المدير بنشر الدعاية الشيوعية كان بلا جدال مشكلة كبيرة أيضاً. لكنْ، هل كانت إحدى الحادثتين خطيرة ما يكفي لأن يعدّها ملحّة؟ بغضّ النظر عن أنه كان يوشك على البكاء بعد الموقف القاسي في مكتب السّيّد جيمسون، بغضّ النظر عن أنه خرج وهو يغالب تلك الدموع طوال طريقه من المدرسة إلى البيت. فقد كان يوماً بائساً، ربّما اليومَ الأسوأ في حياته منذ وقع عن الشجرة، وكسر ساقه، وقد تجمّعت لديه الأسباب كلها التي تدفعه لأن ينهار ويبكي. ضربه صديقه، أهانه أصدقاء آخرون، مع حقيقة أن ليس ثمّة ما يترقّبه إلا مزيدَ الضرب والإهانات، ومن ثمّ الإذلال الأخير حين نُعِتَ بالخائن من قِبَل رعديد أحمق هو المدير، الذي لم يمتلك الجرأة لتعليق دوامه في المدرسة. نعم، كان فيرغسون يشعر بالغمّ، كان فيرغسون يجهد في مغالبة دموعه، كان فيرغسون في وضع لا يُحسد عليه، لكنْ، ما الفائدة التي سيجنيها في أن يخبر والديه عن ذلك؟ ستكون والدته في ذروة تعاطفها بالتأكيد، ستضمّه وتطوّقه بذراعيها، سترجع به ولداً صغيراً من جديد، وتضعه في حضنها بسعادة بينما يولول سارداً مناحاته الدامعة، وستغضب إثر ذلك لما أحاق به، وستهدّد بأن تتّصل بالسّيّد جيمسون، وتعرب عن استيائها الشديد، وسيُرتَّب لقاء، ويتجادل الكبار في أمره، كلاهما سيتصايحان بشأن المخرِّب اليساري ووالديه اليساريين، وما الجدوى في ذلك، كيف يمكن لأي شيء تقوله وتفعله لأجله والدته أن يدفع عنه اللكمة القادمة؟ سيكون والده عمليّاً أكثر في تعاطيه مع الأمّ. سيُخرِج قفّازات الملاكمة، ويعطي فيرغسون درساً آخر في فنّ الاشتباك بالقبضات، *العلم الفاتن*، كما كان والده يحبّ أن يسمّيه، بالتأكيد التسمية الأكثر خطأً في تاريخ البشرية، وعلى مدى عشرين دقيقة سيشرح كيف يُبقي المرء دفاعاته بكامل تيقّظها، ويحمي نفسه من الخصم الأطوَل، لكنْ، ما فائدة قفّازات الملاكمة في الملعب، حيث يقاتل الناس بمفاصل أصابعهم العارية، ولا يتّبعون القواعد، حيث لم يكن القتالُ قتالَ فردٍ ضدّ فرد دائماً، بل غالباً ما كان قتالَ اثنين ضدّ واحد أو ثلاثة ضدّ واحد، وربّما أربعة ضدّ واحد؟ الأمر مُلِحّ. نعم، قد يكون ملِحّاً، لكن الأب والأم لم يكونا الشخصين المناسبين لحلّ المشكلة، ولذلك كان عليه أن يحتفظ بالأمر بينه وبين نفسه. ليس من نداء استنجاد. ليس من كلمة تُقال لأيٍّ منهما. الصمود حتّى النهاية فحسب، البقاء في منأى عن الملعب، مع أمل العيش بسلام إلى أن يحلّ عيد الميلاد.

عاش الجحيمَ طوال السنة الدراسية، غير أن طبيعة ذلك الجحيم، والقوانين التي حكمت ذلك الجحيم، بقيتْ في تبدّلٍ من شهر وآخر. كان يظنّ أن المسألة لن تتجاوز في حدّها الأقصى مسألةَ لكمات، أن يُلكَم، ثمّ يردّ اللكمة بأقصى ما لديه، غير أن المعارك في الهواء الطلق لم تكن

في الحسبان، وعلى الرغم من أنه غالباً ما تلقّى اللكمات خلال الأسابيع الأولى من الدراسة، إلا أنه لم يجد فرصة لردِّها، من حيث إن اللكمات الموجّهة إليه غالباً ما وُجِّهتْ إليه دون سابق إنذار - من صبيّ يهرع نحوه من حيث لا يدري، يسدّد ضربة إلى ذراعه أو ظهره أو كتفه، ومن ثمّ يلوذ بالفرار قبل أن يتمكّن فيرغسون من الرّدّ. كانت ضربات من النوع المؤلم، هجمات غادرة من ضربة واحدة حين يكون الجميع غافلين، وفي كلّ مرّة هناك صبيّ مختلف، تسعة صبيان مختلفين من أحد عشر صبياً في صفّه، وكأنهم اتفقوا على الأمر فيما بينهم، وأوجدوا استراتيجيتهم الدفاعية مقدَّماً، ومع نَيْل فيرغسون تلك اللكمات التسع من الصبية التسعة المختلفين، توقّفت اللكمات. ثمّ حلّ بعدها الجفاء، إعراض التسعة ذاتهم عن التّحدّث إليه، تظاهرهم بعدم سماع فيرغسون كلّما فتح فمه ونطق بكلمة، التّطلّع إليه بنظرات حيادية لامبالية، التّصرّف وكأنه غير مرئيّ، كأنه نقطةُ عدمٍ تتلاشى في المدى المفتوح. ثمّ جاءت مرحلة دفعِه، ليقع على الأرض، خدعة أن يقعي صبيٌّ وراء فيرغسون، فينحني ويتكوّر على نفسه مُطوّقاً ركبتيه بيديه بينما يدفع صبي آخر فيرغسونَ من الأمام، دفعة سريعة تجعله يفقد توازنه، ليجد نفسه وقد تداعى فوق ظهر الصبي المنحني وراءه، وفي أكثر من مناسبة ارتطم رأسه بالأرض أوّلاً، ولم تكن هناك إهانة النَّيْل منه غدراً مرّة أخرى وحسب، بل كان هناك الألم. الكثير من السخرية، الكثير من الضحك حدث على حسابه، وكان الصبيان شديدي المكر والمهارة، لدرجة أن السّيّدة بلاسي لم تلحظ شيئاً من ذلك. الرسومات المشوّهة، الوظائف المدرسية التي خربشوا فوقها، أكياس الغداء المفقودة، القمامة في خزانته، شقّ أكمام سترته، الثلج في حذائه الواقي من الجليد، خراء الكلب في مقعده. كان الشتاء وقتَ المقالب، الفصلَ المريرَ للبذاءة الداخلية واليأسِ بليغِ العمق، ومن ثمّ ذاب الجليد بعد أسبوعين من عيد ميلاده الثاني عشر، وبدأت جولة جديدة من اللكمات.

لولا الفتيات، لكان فيرغسون قد تفتّتَ، فلم تنقلب واحدة من الاثنتي عشرة بنتاً في الصّفّ ضدّه، وبالإضافة إليهنّ، كان هناك صبيّان اثنان رفضا المشاركة في الحملة الهمجية بحقّه، أنطوني ديلوكا السمين والمغفّل بعض الشيء، المعروف تمييزاً بـ (*سمكة الشوب*، و*أبو مخاط*)، و*المخوِّض في الوحل*، الذي طالما نظر بتقدير إلى فيرغسون، وكان فيما مضى ضحيةً لـ كروليك وشلّته، ثمّ هاوارد سمول، الولد الهادئ الذكيّ الذي انتقل من مانهاتن إلى وستْ أورانج خلال الصيف، ولم يزل يتلمّس طريقه كمبتدئ في أطراف الضواحي. في المحصّلة، كانت أغلبية الطلاب في معسكر فيرغسون، ولأنه لم يكن وحيداً، على الأقلّ ليس وحيداً بكل معنى الكلمة، أفلح في الصمود من خلال الالتصاق بثلاثة مبادئ رئيسة: لا تدعهم يرونكَ وأنتَ تبكي، لا تتراجعْ بسبب الخيبة والغضب، ولا تنبسْ بكلمة عن الأمر لأيّ أحد في موقع المسؤولية، خصوصاً للوالدين.

كانت مسألة قاسية ومثبطة بالتأكيد، بما لا يُعَدّ من الدموع التي ذُرفت على وسادته في الليل، مع منامات وحشية، بتفاصيل دقيقة للانتقام، سقطات مديدة في صدوع صخرية من الكآبة السوداء، شرود ذهنيّ متنافر، رأى فيه نفسَه وقد هوى من على مبنى الإمباير ستيت، مواعظ مكتومة ضدّ ظلمٍ ما يتعرّض له، ترافقت بنقرات متناوبة ومسعورة من ازدراء الذات، الاعتراف الباطنيّ بأنه استحقّ العقاب، لأنه جلبَ الرهبة الاشمئزاز على نفسه. إلا أن ذلك كان بينه وبين نفسه. وأما أمام الملأ، فقد أرغم نفسه على التّصلّب، أن يتلقّى اللكمات دون أدنى عواء ناتج عن الألم، أن يتجاهلهم بالطريقة التي يتجاهل بها الإنسان النملَ على الأرض أو أحوال الطقس في الصين، يخرج من كلّ إذلال جديد وكأنه المنتصر في شيء يشبه مناجرةً كونيةً بين الخير والشّرّ، ويلجم أيّ تعبير ينمّ عن الأسى أو الهزيمة، لأنه عرف أن الفتيات كنّ يراقبنَ ما يجري، وكلّما ازدادت الوقفات الشجاعة التي واجه بها مهاجميه، ازداد وقوف البنات إلى جانبه.

أَضِفْ أن الأمر كان بالغ التعقيد. كانوا في الثانية عشرة من العمر الآن، أو على وشك بلوغ الثانية عشرة، وبعض الصبيان والفتيات بدؤوا يشكّلون ثنائياتٍ، وتقلّص الفارق القديم بين الجنسين إلى حدّ وقوف الذكور والإناث على أرضية تكاد تكون مشتركة، ففجأةً بدأ الحديث عن شركاء وشريكات، عن الخروج بشكل منتظم كلّ أسبوع تقريباً، حيث تُقام حفلات الرقص وألعاب تدوير الزجاجات(*)، والفتيان أنفسهم الذين اضطهدوا البنات منذ سنة بشدّ شعورهنّ وعقص أيديهنّ أصبحوا الآن مكرّسين لتقبيلهنّ. حتّى الصبي رَقْم واحد في الصّفّ، تيمرمان قد شكّل تحالفاً رومانسياً مع البنت رَقْم واحد، سوزي كراوس، وتربّع الاثنان على عرش الصّفّ كثنائي ملكيّ، ملك وملكة الحظوة لعام 1959. وممّا ساعد فيرغسون أنه كان وسوزي صديقين منذ أيّام روضة الأطفال، وأنها كانت رئيسة فرقة مكافحة التّحرّش. عندما أصبحت وتيمرمان مقرَّبَين في نهاية آذار، بدأ الجوّ بالتّغيّر الطفيف، وخلال فترة قصيرة شعر فيرغسون بأن بأنه أصبح أقلّ عرضة للاعتداء من ذي قبل، وأن صِبيةً أقلّ باتوا يهاجمونه. لم يقلْ له أحدٌ شيئاً على الإطلاق. خطر لـ فيرغسون أن سوزي قد وجّهت إنذاراً إلى حبيبها - كُفَّ عن تعذيب آرتشي، وإلا سأهجركَ - ولأن تيمرمان كان مَعنياً بمغازلة سوزي أكثر من كراهيته لـ فيرغسون، تراجع عن مضايقته. لم يزل يعامل فيرغسون بازدراء، لكنه توقّف عن استعمال قبضتيه ضدّه، ولم يعد يخرّب أمتعته، ومع انسحاب تيمرمان من عصابة التسعة، انفضَّ عدّة صبيان آخرين بدورهم، إذ كان تيمرمان قائدهم الذي أطاعوه في كل شيء، لذلك في الشهرين ونصف الشهر الأخيرين من المدرسة بقي أربعة

(*) spin- the bottle games، تدوير زجاجة وسط دائرة من كؤوس المَدعوّين، والكأس التي يشير إليها رأس الزجاجة بعد توقّفها عن الدوران هي الكأس الفائزة. (م).

مُتحرّشين فحسب، كروليك وفريق بلهائه، وفي حين كان بالكاد يتقبّل معاملة أولئك الأربعة، يبقى الحال أفضل من أن يضربه تسعة. لن تقول سوزي له إن كانت تحدّثت إلى تيمرمان أم لا (بروتوكول يقضي بأن تبقى متكتّمة حيال الموضوع بمعزل عن إخلاصها لحبيبها)، لكن فيرغسون كان موقناً أنها فعلتْ، وكان ممتنّاً لـ سوزي كراوس وقلبها المكافح النبيل الذي بدأ يتوق إلى يومٍ تتخلّص فيه في نهاية المطاف من تيمرمان، وينفتح الساحُ أمامه لتجربة حظّه معها. فكّر بذلك باستمرار طيلة أسابيع الربيع الأولى، حاسماً أمره بأنه ربمّا سيكون أفضل ما يبدأ به أن يدعوها لتمضية ظهيرة سبتٍ معه في مركز والده للتنس، وهناك يتجوّل برفقتها، ويبرهن لها كم هو واسع الاطّلاع فيما يتعلّق بآليات تشغيل المكان، الذي دون شكّ سيُذهلها ويضعها في المزاج الصالح لتلقّي قبلة، أو ربمّا قُبَلٍ عديدة، وإن لم تكن قبلة، فعلى الأقلّ أن يمسك كلّ يدَ الآخر. ونظراً لتقلّبات علاقات ما قبل المراهقة الرومانسية في ذلك الشطر من ضواحي نيوجرسي، حيث يستمرّ متوسّط التمهيد للعلاقة لأسبوعين أو ثلاثة وشهرين من الارتباط، أي ما يعادل زواجَ عشر سنوات، كان من غير المنطقي لـ فيرغسون ترقُّبَ مجيء فرصته قبل انتهاء الدراسة وبدء عطلة الصيف.

في تلك الأثناء، أولى غلوريا دولان اهتمامه، والتي كانت أجمل من سوزي كراوس، لكنها ليست بتلك الإثارة التي يحلم المرء بأن يكون برفقتها، روح لطيفة، متثاقلة مقارنةً بـ سوزي الوثّابة المتأجّجة، ومع أن فيرغسون أولاها اهتمامه، لأنه اكتشف أن غلوريا كانت تُوليه الاهتمام، وبمعنى أدقّ، كانت تنظر إليه كلّما ظنّتْ أنه لا ينظر إليها، وكم من مرّة خلال الشهر الماضي أمسك بها وهي تتطلّع إليه في الصّفّ، بينما تجلس على مقعدها والسّيّد بلاسي يدير ظهره إلى الطلاب، ويحلّ مسألة رياضية على السّبّورة، فلا تُركّز على متابعة الأرقام التي تتركها قطعة الطباشير، وإنما في تأمّل فيرغسون، كأن فيرغسون أصبح موضع اهتمامها الشديد، والآن وقد أصبح فيرغسون واعياً ذلك الاهتمام، بدأ هو الآخر يدير رأسه عن السّبّورة، لكي ينظر إليها، والآن في أكثر الأحيان، ستتلاقى أعينهما، وكلّما حصل ذلك سيبتسم أحدهما للآخر. في تلك المرحلة من رحلة حياته، كان فيرغسون لا يزال ينتظر قبلته الأولى، قبلته الأولى من فتاة، قبلة حقيقية كنقيض لقبلات المجاملة من الأمّهات والجَدّات، ومن بنات الأعمام والأخوال، قبلة متوقّدة، قبلة شهوانية، قبلة تتجاوز مجرّد ضغط الشفاه على الشفاه، فتوصله إلى التحليق في منطقة، لمّا تُكتشَف حتّى الآن. كان مستعداً لتلك القبلة، ويفكّر بها منذ الوقت الذي سبق عيد ميلاده، ففي الأشهر القليلة الماضية، تحدّث وهاوارد سمول في ذلك الأمر باستفاضة لمرّات ومرّات، والآن وقد بات وغلوريا دولان يتبادلان الابتسامات السّرّيّة داخل الصّفّ، قرّر فيرغسون أن تكون غلوريا البنتَ الأولى في

حياته، إذ أن كلّ مَلمح كان يشير إلى أنها لا محالة ستكون الأولى، وهكذا كان، ففي مساء جمعة من أواخر نيسان، ضمن تجمّعٍ في بيت بيغي غولدشتاين على شارع ميبلوود، صحبَ فيرغسون غلوريا إلى الحديقة الخلفية، وقبّلها، ولأنها بادلتْه القبلة، تابعا التقبيل مدّة ليست بالقصيرة، بل أطول ممّا ظنّ أنه سيفعل، ربّما لعشر أو اثنتي عشرة دقيقة، وحين أرسلتْ غلوريا لسانها في فمه بعد الدقيقة الرابعة أو الخامسة، تغيّر كل شيء فجأةً، وشعر فيرغسون أنه يعيش في عالم جديد، وسوف لن يطأ العالم القديم مرّة أخرى.

وبالإضافة إلى تلك القبلات الانقلابية مع غلوريا دولان، كان الشيء الجميل المتعلّق بالسنة الكئيبة هو صداقته الآخذة بالتّجذّر مع الصبي الجديد هاوارد سمول. كان من حسن الحظّ أن هاوارد قد جاء من مكان آخر، أنه دخل المشهد في الصباح الأوّل المشؤوم من العام الدراسي الجديد دون عصبيات أو مواقف مسبَّقة عن مَنْ يكونُه أحدهم، وما يُفترض أن يفعلَه أحدُهم، أنه اشترى العدد الثالث من *صليبيّ الشارع الحجري* بعد دقائق من وصوله الملعب، وكان يستعرض المحتويات بسعادة عندما شاهد الصبيّ الذي باعه الجريدة للتّوّ يُهاجَم من قِبَل تيمرمان والآخرين، ولأنه كان شخصاً يميّز الصواب عن الخطأ، سارع بالوقوف إلى جانب فيرغسون، ثمّ التزم بصداقة فيرغسون منذ ذلك اليوم وحتّى الآن، ولأنه قلّما وقع ضحية هجوم بجرمِ أنه صديق فيرغسون، أصبح الصديقان مقرّبَين، إذ إن كلاً منهما سيكون وحيداً كلّيّاً دون وجود الآخر. هما منبوذا الصّفّ السادس - وبالتالي صديقان، ثمّ في غضون شهرٍ، أفضل صديقين.

هاوارد، وليس 'هاوِيْ'، بالتشديد على ليس 'هاوي'. Small بالاسم، وليس بالحجم، فهو أقصر من فيرغسون بأقلّ من بوصة، وبطبيعة الحال بدأ بالاكتمال، لم يعد ولداً هزيلاً، بل فتى في الثانية عشرة دائم العافية، متماسكاً وقويّاً، دون وهن بدنيّ، رياضيّ لا يهاب المخاطر، رفعَ قدراته المتوسّطة بحماس ودأبٍ بالغَين. يتمتّع بخفّة الدم والدماثة، كما أنه متلقٍّ سريع، يمتلك موهبة أداء العمل تحت الضغط على أكمل وجه، متجاوزاً حتّى تيمرمان بـ 100% من درجات الاختبار، قارئ كُتُب، مثل فيرغسون، طالب متطوّر في وعيه السياسي، مثل فيرغسون، وصبيّ ذو موهبة مذهلة بالرسم. وقد تمخّضَ القلم الذي حمله في جيبه عن مناظر طبيعية وصور شخصية وطبيعة صامتة بدقّة، تكاد تكون تصويرية، بل أيضاً الكاريكاتور والرسوم الهزلية، التي استمدّتْ طرافتها عموماً من توريات ممكنة الحدوث، وكلمات انتُزعتْ من سياقاتها المألوفة، لأن وقْعها كان منسجماً مع وقْع كلمات أخرى غير ذات صلة، كمثل ذلك الرسم المعنون بـ *الذباب ينتشر في الجوّ*، ولا شيء يعكّر صفوَه، الذي أظهرَ ولداً يغذّ السير في السماء حاملاً بيديه

الممدودتين حرفَ E كبيراً ذا قياس عريض، بينما شقَّ الصبية الآخرون في الخلفية الطريقَ قربَه بصعوبة حاملين حروف الـ e الصغيرة ذات الحجم الضئيل، أو ذلك المفضّل لدى فيرغسون، الرسم الذي حوّلَ هاوارد فيه كلمةَ *toiletries* إلى شكل جديد من النبات، والذي حمل عنوان *مزرعة فواكه بينسكي*، بصفّ من أشجار الكرز في الأعلى، وُسمتْ بعناية *أشجار كرز*، وصفٍّ من أشجار البرتقال في الوسط، وُسمتْ بعناية *أشجار برتقال*، وصفّ من الـ *toilet trees*(*) في الأسفل، وُسمتْ بعناية بـ *toilet trees*. يا لها من فكرة ذكية ومضحكة! قال فيرغسون في سرّه، ويا لها من حاسّة سمع رهيفة أن تُقسم الكلمة الأصلية، وتحوّلها إلى كلمتين! لكنْ، ما كان يتجاوز السمع هي العين التي اتّكل عليها، العين في اقترانها باليد، إذ لن تكون النتيجةُ بنصف الجدوى، لو لم تكن (قعدات) التواليت المتدلّية عن الأغصان قد رُسمتْ بإتقان، فـ (تواليتات) هاوارد لم تكن أقلّ من عظيمة، تواليتات رُسمتْ بدقّة، لم يرَ فيرغسون لها مثيلاً من قبل.

كان والد هاوارد أستاذاً جامعياً في الرياضيات، انتقل مع عائلته إلى نيوجرسي، لأنه تلقّى عرضاً لمنصب جديد كعميد لمعهد مونتكلير المتخصّص بإعداد المدرّسين. وعملتْ والدة هاوارد محرِّرةً في مجلّة للمرأة اسمها *Hearth & Home*، أي أنها كانت تذهب إلى العمل في نيويورك خمسةَ أيّام في الأسبوع، ونادراً ما كانت تعود إلى وستْ أورانج قبل حلول الليل، ولأن لـ هاوارد أخاً في العشرين، وأختاً في الثامنة عشرة (وكلاهما خارج البيت في جامعتيهما)، كانت ظروفه مشابهة لظروف فيرغسون بشكل ملحوظ - فواقعياً هناك ولد واحد فقط، يعود غالباً إلى بيتٍ خالٍ بعد المدرسة. كانت قلّة قليلة من نساء الضواحي قد حظينَ بعمل في 1959، لكنْ، كان لـ فيرغسون وصديقه والدتان هما أكثر من ربّتي بيت، وبالتالي كانا مجبَرين على أن يكونا أكثر استقلالية واعتماداً على النفس من معظم زملاء صفّهما، والآن وقد بلغا الثانية عشرة، ويتهاديان باتّجاه عتبة المراهقة، كانت حقيقة أنهما يتمتّعان بمساحات غير خاضعة للرقابة من وقتهما، تلوح على أنها ميزة لصالحهما، إذ كان الوالدان في تلك المرحلة من العمر أقلّ البشر في العالم إثارة للاهتمام بالتأكيد، وكلّما قلّ تعاملُ المرء مع هذين الوالدين كان أفضل حالاً. وبذلك كان يمكنهما الذهاب إلى بيت فيرغسون بعد المدرسة، وتشغيل التلفاز لمشاهدة *المنصّة الأميركية* وفيلم *المليون دولار* دون خوف أن يوَبَّخا لهدر الساعات الأخيرة الثمينة من النهار بالجلوس داخلَ البيت في *ظهيرة لطيفة كهذه*. بل حتّى إنهما نجحا مرّتين في ذلك الربيع بإقناع غلوريا دولان وبيغي غولدشتاين بالعودة معهما إلى البيت لإقامة حفلة راقصة مؤلّفة من أربعة أشخاص في غرفة الجلوس، ولأن فيرغسون وغلوريا كانا خبيرَين في التقبيل آنذاك، فإن

---

*) مفارقة لفظية بين toiletries وtoilet trees . (م).

أسبقيتهما ألهمتْ هاوارد وبيغي أن يجرّبا طقسهما في فنّ تقبيل اللسانين المعقّد. في ظهيرات أخرى، كانا يقصدان بيت عائلة سمول، يضمنان أن ليس مَنْ يقاطعهما أو يتجسّس عليهما وهما يفتحان الدرْجَ السفليّ في طاولة أخ هاوارد، ويسحبان رزمة المجلات النسائية التي أبقاها مخفيةً هناك تحت تمويهٍ بريء، يتمثّل بكتاب كيمياء يعود للمرحلة الثانوية. وستعقب ذلك محادثات مطوّلة عمّن امتلكت الوجه الأجمل أو الجسد الأكثر إثارة بينهنّ، مقارنات ستُجرى بين الموديلات في *بلايبوي* وبين موديلات أخريات في *غِنت* و*سوانك*، الصور المتقنة المشرقة لنساء الـ بلايبوي التي تبدو بمعنى ما غير واقعية مقابل الصور الفجّة المبرغَلة في المجلات الأرخص ثمناً، جميلات أميركا الفاتنات من الشّابّات والأكبر عمراً من بائعات الهوى الأكثر رخصاً بوجوههنّ الخشنة وشعورهنّ المصبوغة بالشقار، كان موضوع المحادثات يتمحور دائماً حول مَنْ كانت تستثيركَ أكثر وأيّ امرأة تحبّ ممارسة الجنس معها أكثر من سواها عندما يكون جسدكَ مستعدّاً للجنس الحقيقي، الشيء الذي لم يكن في ذلك الوقت ممكناً لأيّ منهما، لكن حدوثه لن يتأخّر، ربمّا بعد ستّة أشهر، ربمّا بعد سنة، وفي النهاية سيأويان إلى الفراش ذات ليلة، ويفيقان في الصباح، ليجدا أنهما أصبحا رجُلَين.

كان فيرغسون يتتبّع تغيّرات جسده مُذْ ظهرتْ علامة الرجولة الوشيكة الأولى على شكل شعرة وحيدة نمتْ تحت إبطه الأيسر في عمر العشر سنوات ونصف. عرف معناها، وكان سعيداً لذلك، إذ إنه جاء مبكّراً، ولم يكن مستعداً في تلك المرحلة لوداع صِباه الذي لازمه منذ مولده. وجد أن الشَّعْر بشعاً ومقرفاً، متطفّلاً، أرسلتْه قدرةٌ دخيلة لتشويه جسده الذي لم تَشُبْه شائبة فيما مضى، ولذلك عمد إلى اقتلاعه. خلال أيّام قليلة، عاد إلى الظهور بكل الأحوال، جنباً إلى جنب مع اثنتين متشابهتين، طلعتا في الأسبوع التالي، ومن ثمّ سرعان ما بدأ الإبط الأيمن ينشط أيضاً، فلم يمضِ وقت طويل حتّىٰ أصبحت حزم الشَّعْر المتباعدة واضحة، والشُّعيراتُ أعشاشاً من الشَّعْر، وإلى أن بلغ الثانية عشرة تحول الشَّعْرُ إلى حقيقة لا مفرّ منها في حياته. وبتوجّسٍ وانشداهٍ راقب فيرغسون التّحوّلاتِ الإضافية في مناطق جسده الأخرى، الشُّعيرات الشقراء التي بالكاد تُرَى على ساقيه وساعديه، وهي تصبح أكثر اسوداداً وثخانةً ووفرةً، ثمّ ظهور شَعْر العانة أسفلَ بطنه الذي كان ناعماً، بعد ذلك، تماماً عقب بلوغه الثالثة عشرة، بدأ ينبت الزغب الأسود الكريه بين أنفه وشفته العليا، مشوّهاً وقبيحاً، لدرجة أنه أزاله ذات صباح بآلة الحلاقة الكهربائية التي تعود لأبيه، وحين أصبح أسودَ بعد أسبوعين، حلَقَه من جديد. تمثّلت الرهبة في أنه لم يكن متحكّماً بما يطرأ عليه، في الإحساس بأن جسده تحوّل إلى بقعةِ تجربةٍ، يُجريها عالِمٌ مجنون دجّال، ومع استمرار نموّ المزيد من الشَّعْر الجديد على مساحات أوسع من

جلده، لم يستطع الكفّ عن التفكير في الرجل الذئب، بطلِ ذلك الفيلم المخيف الذي شاهده على التلفاز مع هاوارد ذات ليلة خريفية، تحوّل رجلٍ طبيعيّ إلى وحشٍ ذي وجهٍ كثِّ الشَّعْر، الذي أدرك فيرغسون الآن أنه محاكاة لفقدان السيطرة الذي يعيشه المرء خلال البلوغ، من حيث إنه محكوم عليكَ بأن تكون ما تمليه جيناتُكَ، وإلى أن تكتمل العملية، لن تعرف ما يخبئه اليوم التالي. وهنا تكمن الرهبة. لكنْ، إلى جانب الرهبة كان هناك الانشداه، وعي أنه مهما تكن الرحلة طويلة وصعبة، فإنها ستؤدّي في نهاية الأمر إلى ملكوت اللّذّة الجنسيّة.

كانت المشكلة أن فيرغسون لم يكن يعلم شيئاً عن طبيعة تلك اللّذّة، وعن التّحدّي الذي عاشه وهو يتخيّل ما الذي سيعتري جسده في نوبات الذروة الجنسية، لكنّ خيالَ فيرغسون خذله باستمرار. كانت بداية سنواته المؤلَّفة من رَقْمين (سنته العاشرة) حافلة بالشائعات والأقاويل، وليس بالحقائق الثابتة، بحكايات الأولاد الغامضة غير المؤكّدة، مع أخوتهم المراهقين الأكبر عمراً التي ألمحتْ إلى تشنّجات، انطوتْ عليها اللّذّة الجنسيّة، الدفقات النابضة من السائل الأبيض الحليبيّ الذي ينقذف خارجَ الأير، مثلاً، والذي يتطاير بضعةَ ياردات في الجوّ، ما يسمّى بالقذف، المترافق أبداً مع إحساسٍ منتَشٍ طال اللهاثُ في سبيله، الذي وصفه أخ هاوارد بأنه أجمل إحساس في العالم، ولكنْ، حين ضغط فيرغسون عليه لكي يكون أكثر دقّةً، ويصفَ ماهية ذلك الإحساس، قال توم إنه لا يعلم كيف يبدأ، فمن الصعب أن يُصاغ في كلمات، وإنه، ببساطة، يتعيّن على فيرغسون الانتظار حتّى يأتي الوقت الذي يعيشه بنفسه، إجابة محبطة، لم تفعل شيئاً، لتخفّف من جهل فيرغسون، وفي حين أن بعض الاصطلاحات التِّقْنِيّة أصبحت معروفة لديه الآن، ككلمة *المنيّ*، وهو الشيء الدبق الذي يندفق منكَ، ويحمل الحيوانات المنوية الضرورية لإنجاب الأطفال، لم يكفّ فيرغسون عن التفكير بما مقداره ملءَ سفينة من البحارة، كلّما ذكر أحدهم الكلمة أمامه، بحّارة تجاريون يلبسون البزّات البيضاء الحليبية، ينزلون إلى الشاطئ قاصدين حاناتٍ رخيصة سيّئة السمعة على طرف حوض رسوّ السفن، ليغازلوا نساءً أنصاف عاريات، وينضمّوا إلى رجال بحرٍ عتيقين في أداء أُغنيّة، تحكي عن البحر، ورجل ذي ساق واحدة يرتدي قميصاً مخطّطاً، ينفخ اللحنَ على آلة الكونسرتينا(*) القديمة. فيرغسون المسكين. كان ذهنه في حالة من التشوش، ولأنه لم يزل عاجزاً عن تصوّر ما كانت تعنيه كلّ كلمة بالضبط، اتّجهت أفكاره إلى التقافز في شتّى الاتّجاهات دفعة واحدة. وسرعان سيصبح رجلُ البحر رجلاً متبصّراً، وفي وهلةٍ أخرى سيتخيّل أنه أعمى، يتلمّس طريقه إلى الحانة الصاخبة، وفي يده عصا بيضاء.

كان من الواضح أن الممثّل الرئيس في الدراما خاصّته هو ما بين فخذيه. أو، عَوداً إلى التراث

*) أكورديون سداسي الأضلاع. (م).

العبراني القديم، *العورة*، أي الأشياء الخصوصية، التي عادةً ما يُشار إليها في الكتابات الطّبّيّة باسم الأعضاء التناسلية. وإلى أقصى ما يمكنه أن يتذكّر حقيقة نفسه، كانت مداعبة نفسه في الأسفل، تُشعره أبداً باللّذّة، أن يتلاعب بقضيبه عندما لا يكون هناك مَنْ يراه، ليلاً في الفراش أو في الصباح الباكر، مثلاً، مناوراً ذلك البروز اللحميّ حتّى ينهض متصلّباً في الهواء، ليصبح أكبر حجماً بمرّتين أو ثلاث أو ربمّا أربع مرّات، وبذلك التّغيّر المذهل يبدأ نوع غير مكتمل من المتعة بالانتشار في جسده، على الأخصّ في النصف الأدنى من جسده، فورة إحساس لا يُعرَف كنهها، لم تكن النعيم، لكنها توحي بأن ذلك النعيم سوف يكتمل يوماً ما بنوع مشابه من التلامس. كان نموّه آخذاً بالازدياد في تلك الآونة، مع كلّ صباح يبدو جسده أكبر قليلاً ممّا كان عليه في اليوم السابق، وكان تضخّم قضيبه متّسقاً مع نموّ جسده، لم يعد فرخَ طائرٍ مزغِباً، بل مُلحَقاً جوهرياً، بدا الآن أنه يمتلك روحاً في ذاته، يستطيل ويتصلّب لدى أقلّ قدر من التحريض، على الأخصّ في تلك الظهيرات التي يتصفّح خلالها مع هاوارد مجلات العراة الخاصّة بـ توم. كانا الآن في السنة الأولى من الثانوية، ومرّةً أفشى نكتةً قالها له أخوه:

يسأل أستاذ العلوم طلابه: ما الجزء من الجسد الذي يمكن أن يتمدّد ستّة أضعاف قياسه العادي؟ يشير بإصبعه إلى الآنسة ماكغيلاكودي، لكنْ، بدلَ أن تجيب عن السؤال، تحمرّ خدود البنت، وتغطّي وجهها بكفّيها. فيشير الأستاذ إلى السّيّد ماكدونالد، الذي يجيب بسرعة: بؤبؤا العينين. صحيح، يقول المعلّم، ثمّ يستدير إلى الآنسة ماكغيلاكودي محمرّة الخدّين، ويخاطبها بسخط مُقارِباً الازدراء. لديّ ثلاثة أشياء، أقولها لكِ، أيّتها الآنسة الشّابّة، يقول. أوّلاً: أنتِ لم تنجزي واجبكِ الدراسي البيتيّ. ثانياً: لديكِ مخّ وسخ وبذيء. وثالثاً: أمامكِ حياة من الخيبة المريرة.

.ليس ستّة أضعاف، في ذلك الحين، ليس حتّى سبعة عندما كان في أوج نموّه. كانت هناك ثمّة حدود لما كان يمكنه أن توقّعه من المستقبل، ولكنْ، مهما كانت المعايير، مهما كانت النِّسَب بين الاسترخاء والجاهزية، فإن النّموّ سيكون ملبّياً لاحتياجات النهار، وليل ذلك النهار، والليالي والنهارات كلها التي أتت بعد ذلك.

دون أدنى شكّ، كانت السنة الأولى من الثانوية أرفع شأناً من مدرسة المبادئ النحوية التي أبقتْه سجيناً على مدى السنوات السبع الماضية، وبوجود ما يزيد عن الألف طالب يندفعون إلى القاعات مع نهاية كلّ استراحة خمسين دقيقة، لم يعد يتوجّب عليه تحمّل أُلفة خانقة بأن يكون محصوراً في غرفة واحدة مع الثلاثة والعشرين أو الأربعة والعشرين إنساناً أنفسهم من الاثنين إلى الجمعة منذ بداية أيلول وحتّى نهاية حزيران. باتت عصابة التسعة شيئاً من الماضي، وحتّى كروليك ومتملّقيه الثلاثة قد اختفوا أساساً من المشهد، إذ نادراً ما حدثت نقاط التقاء بين

فيرغسون وبينهم بعد ذلك. لم يزل تيمرمان موجوداً، كزميل عضو ضمن أربعة يشاركون فيرغسون موادّه الأكاديمية، لكن الصَّبيَّيْن الآخرَيْن تعايشا مع الأمر باذلَيْن وسعَهما في تجاهل كلٍّ منهما الآخرَ، احتراز أقلّ من مُرْضٍ، لكنه لم يكن عَصيّاً عن التّحمّل. وكان أفضل ما حدث أن تيمرمان وسوزي قد انفصلا، بالضبط حين تمنّى فيرغسون حدوث ذلك، ولأن فيرغسون نفسه قد فقَدَ الاتّصال مع غلوريا دولان خلال الصيف، فإن شريكة قبلاته الأولى تصبّ جلّ اهتمامها على الوسيم مارك كونيللي، الأمر الذي أحبط فيرغسون، لكنه لم يقهره كلّيّاً، فالطريق قد انفتحت أمامه للسعي وراء سوزي كراوس، فتاة أحلامه في الصّفّ السادس، وقد سارع لاقتناص فرصته بالاتّصال بها ذات مساء من أسبوع الدراسة الأوّل، الذي أدّى إلى زيارةٍ في ظهيرة السبت إلى مركز والده للتنس، التي أدّت بدورها إلى قبلتهما الأولى في السبت التالي، والعديد من القبلات الأخرى في أيّام جمعة وسبتٍ متفرّقة على مدى الأشهر اللاحقة، ثمّ انفصلا أيضاً، وتحوّلت سوزي إلى أحضان مارك كونيللي سالف الذكر، الذي كان قد خسر غلوريا دولان لصالح صبيّ آخر، اسمه ريك باسيني، وفيرغسون يتلهّف لـ بيغي غولدشتاين الجذّابة أكثر من أي وقت مضى، والتي كانت قد تركتْ هاوارد منذ وقت قريب، لكن صديق فيرغسون الأقرب تعافى مع قلبٍ سليم وهو يقدّم القلبَ ذاته الآن إلى إدي كانتور المشرقة والمفعمة بالحياة.

هكذا مضى الأمر على مدار سنة التّعلّق العاطفي العابر وعلاقات الحبّ المتناوبة، وتلك كانت السنة التي جاء فيها المزيد، ثمّ المزيد من أصدقائه إلى المدرسة وقد رُكّبتْ أجهزة التقويم على أسنانهم، والسنة التي بدأ الجميع فيها يقلقون من تفشّي أمراض الجلد. شعر فيرغسون أنه محظوظ. فحتّى الآن تعرّض وجهه لثلاث أو أربع مرّات من البثور الطفيفة، التي لم يتوانَ عن فقئها في أقرب فرصة، وارتأى والداه أن أسنانه كانت سليمة ما يكفي لأن توفّر عليه عذابات تقويم الأسنان. وأكثر من ذلك، أصرّا على عودته إلى كامب بارادايس لقضاء صيف آخر. كان يحسَب أن عمرَ الثالثة عشرة ربمّا أكبر بقليل من أن يذهب إلى المخيّم، ولذلك سأل والده في عطلة الميلاد إن كان يمكنه قضاء تمّوز وآب في العمل ضمن مركز التنس، لكن أباه ضحكَ، قائلاً سيكون هناك وقت وفير للعمل فيما بعد. تحتاج أن تكون في الهواء الطلق، يا آرتشي، خاطبه والده، وتمرح مع فتيان في عمركَ نفسه. بالإضافة إلى أنكَ لن تحصل على موافقات العمل حتّى تبلغ الرابعة عشرة. لا يمكن ذلك في نيوجرسي، ولستَ تريدني أن أقع في المتاعب لخرقي القانون، أصحيح ما أقول؟

كان فيرغسون سعيداً في المخيّم. كان أبداً سعيداً في ذلك المكان، ومن المفرح أن يلتمّ الشملُ

مع أصدقاء الصيف من نيويورك، نصف دزّينة من فتيان المدينة الذين واظبوا على العودة سنةً بعد أخرى كما فعلَ هو. استمتع بالسخرية والدعابة دائمتَي الحضور في شخصياتهم عالية المعنويات طليقة الحديث، التي ذكّرته بالطريقة التي كان الجنود الأميركيون يتحدّثون بها فيما بينهم في الأفلام التي تدور حول الحرب العالمية الثانية، المزاح، الدعابات البارعة، تطويع النفس على ألا يأخذ المرء شيئاً على محمل الجدّ، بأن يجعل من كل موقف مبرِّراً لطرفة أو سخرية. لا شكّ أنه كان هناك ما يثير العجب بمجابهة الحياة بذلك الصنف من خفّة الدم واللامبالاة، لكنْ، يمكن أن تصبح مضجِرة في بعض الأحيان، وكلّما سمعَ فيرغسون كفايته من الحماقات اللفظية التي يتلفّظ بها أصدقاء مقصورته، وجد أنه يفتقد هاوارد، صديقه المقرّب في السنتين الماضيتين، بل الصديق الأقرب الذي حظي به في حياته، وبوجود هاوارد بعيداً مزرعة الألبان التي تملكها عمّته وعمّه في فيرمونت، حيث يمضي كلّ عطلاته الصيفية، بدأ فيرغسون بكتابة الرسائل إليه خلال ساعة الاستراحة التي تعقب الغداء، رسائل مختلفة بين القصيرة والطويلة، وفيها سجّل كلَّ ما حدثَ وفكرَ به في لحظة الكتابة، إذ كان هاوارد الشخص الوحيد في العالم الذي يستطيع أن يتحلّل أمامه من كلّ ما يثقل كاهله، الشخص الوحيد الذي لا يخشى أن يثق به ويودِعَه سرَّه، الصديق الاستثنائي، الذي لا يدانيه الريب، والذي يمكن للمرء مشاركته كلَّ شيء، من انتقاد الناس الآخرين إلى التعليقات على الكُتُب التي قرأها إلى التأمّلات في ضبط الضراط أمام الملأ إلى الأفكار المتعلّقة بالله.

كان مجموعها ستّ عشرة رسالة، وقد احتفظ بها هاوارد في صندوق خشبي مربع، متمسّكاً بها حتّى بعد أن نضجَ وبدأ حياته كراشد، لأن فيرغسون ابن الثلاثة عشر عاماً، صديقه ذا الأسنان القويمة والملامح المشرقة، مؤسّس *صليبيّ شارع الحجارة* الميتة منذ زمن طويل، والتي لن يطويها النسيان، الصبيّ الذي كسر ساقه في السادسة، وجرح قدمه في الثالثة، وقارَبَ الغرق في الخامسة، الذي صمد أمام اعتداءات عصابة التسعة وجماعة الأربعة، الذي قبّل غلوريا دولان وسوزي كراوس وبيغي غولدشتاين، الذي كان يعدّ الأيّام حتّى يدخل ملكوت النعيم الجنسيّ، الذي افترضَ وتوقّعَ وسلَّمَ بشكل مطلق بأن هناك سنوات عديدة من الحياة لم تزل أمامه، لم يعشْ حتّى نهاية الصيف. ذلك كان سبب احتفاظ هاوارد سمول بالرسائل السّتّ عشرة - لأنها كانت آثارَ وجود فيرغسون الأخيرة على هذه الأرض.

"لم أعدْ أؤمن بالله،" كتبَ في إحداها. "على الأقلّ ليس بإله اليهودية أو المسيحية أو أيّ دين آخر. يقول الكتاب المقدّس إن الله خلق الإنسان على صورته. لكن الإنسان هو مَن خَطَّ الكتاب المقدّس، ألم يفعل ذلك؟ الذي يعني أن الإنسانَ اختلق الله على صورت(ـه). الذي

يعني أيضاً أن الله لا يحيطنا بعنايته، وأنه لا يلقي بالاً لما يفكّر أو يشعر به الإنسان. لو كان يعنى لأمرنا بالحدّ الأدنى، لما خلق عالماً يحفل بالكثير من الأشياء الفظيعة. لما خاض الناس الحروب، وقَتلَ بعضُهم الآخرَ، وبنوا معسكرات الاعتقال. لما كذبوا وغشّوا وسرقوا. لا أقول إن اللهِ لم يخلق العالم (لم يقم بذلك إنسان!)، لكنْ، لحظة أُنجزَت المهمّة تلاشى في ذرّات وجزيئات الكون، وتركنا "نسهرُ جرّاها، ونختصم"."

"أنا سعيد لأنّ كينيدي حظّي بالترشّح للرئاسة،" كتبَ في رسالة أخرى. "أحبه أكثر من سائر المرشَّحين، وأنا على ثقة بأنه سيهزم نيكسون في الخريف. لا أعرف لماذا أنا متأكّد من ذلك، لكنْ، من الصعب تصوّرِ أن الأميركيين يريدون رجلاً اسمه تريكي دِكْ Tricky Dick(*) رئيساً لهم."

"هناك ستّة صبيان آخرون في مقصورتي،" كتب في رسالة جديدة، "وثلاثة منهم كبار ما يكفي لأن 'يمارسوها' الآن. إنهم يستمنون ليلاً في أسِرَّتهم، ويخبرون الباقين منّا كم من اللّذّة تبعثُ لدى المرء. منذ يومين، عقدوا ما يسمّونه 'حلقة قذف'، وسمحوا لنا بالتّفرّج، وهكذا رأيتُ أخيراً ماذا يشبه ذلك الشيء، وكم المدى الذي يبلغه حين القذف. إنه ليس أبيض حليبياً، بل نوعاً من أبيض ذي قوام يشبه القشدة، قريب من المايونيز أو مقوّي الشَّعْر. ثمّ استطاع أحد ملوك الاستمناء الثلاثة، شخص ضخم اسمه أندي، معاودةَ الانتصاب وفعلَ شيئاً أذهلني وأذهل الحاضرين كلّهم. انثنى على نفسه، ومَصَّ قضيبه الخاصّ! لم أعرف أن من القدرة البشرية مُهيَّأة لفعل ذلك. أعني، كيف يمكن لشخص ما أن يكون مرناً ما يكفي لأن يطوي جسده، ليتّخذ تلك الوضعية، حاولتُ أن أقوم بذلك بنفسي صباحَ البارحة في الحمّام، غير أني لم أستطع الوصول بفمي إلى أي موضع قريب من قضيبي. إنه شيء ممتع، كما أظنّ. لن يخطر لي المضيّ في حياتي وأنا أنظر إلى نفسي كمصّاص أير، أتظنّني أفعل؟ مع ذلك، يا له من شيء غرائبيّ ما قد رأيتُه!".

"قرأتُ ثلاثة كُتُبٍ منذ وصلتُ هذا المكان،" أي بدءاً من تاريخ التاسع من آب، "وأظنّ أنها جميعاً رائعة. اثنان منها أُرسلا إليّ من قبَل الخالة ميلدرد، أحدهما صغير لـ فرانز كافكا، هو *التّحوّل* لـ فرانز كافكا، وآخر أكبر حجماً لـ ج. د. ستالينجر، عنوانه *الحارس في حقل الشوفان*. الكتاب الآخر قدّمه لي غاري زوج ابنة عمّي فرانسي - كانديد، لـ فولتير. حتّى الآن أعدّ كتاب كافكا أغرب وأصعب ما يمكن أن يُقرأ، لكنني أحببتُه. رجل يفيق ذات صباح ليجد أنه تحوّلَ إلى حشرة ضخمة! يبدو العمل وكأنه من أدب الخيال العلميّ أو قصّة رغب، لكنه ليس كذلك. إنما يقصد الروح البشرية. رواية *الحارس في حقل الشوفان* تتحدّث عن صبيّ في الثانوية يطوف في أرجاء نيويورك. لا أحداث كثيرة فيها، لكن طريقة حديث هولدن (بطل الرواية)

---

*) (القضيب) المخادع. (م).

واقعية وحقيقية للغاية، ولا يسعكَ إلا أن تحبّه وتتمنّى لو كنتَ صديقه. *كانديد* كتاب قديم من القرن الثامن عشر، لكنه عاصف وطريف، وقد ضحكتُ بصوت عالٍ مع كلّ صفحة فيه تقريباً. أسماه غاري 'هجائيةً سياسيةً'. وأسمّيه 'عملاً عظيماً!'. وعليكَ أن تقرأه - بالإضافة إلى الاثنين الآخرَين أيضاً. ومع انتهائي من قراءتها كلّها، فإن ما يصدمني هو كم مختلفة هذه الكُتُب. كلّها كُتِبت بطريقة متفرّدة، وكلها عالية الجودة، ما يعني أن ليس ثمّة طريقة واحدة فحسب لكتابة كتابٍ جيّد. ففي السنة الماضية، لم يكفّ السّيّد ديمبسي عن القول لي إن هناك طريقة صحيحة وأخرى خاطئة - أتتذكّر؟ ربّما ينطبق ذلك على الرياضيات والعلوم، لكنْ، ليس على الكُتُب. إذ تُنجزُ الكُتُب بطريقتكَ، فإن كانت طريقتكَ جيّدة، يمكنكَ أن تكتب كتاباً جيّداً. الأمر اللافت أنني لا أستطيع أن أقرّر أيّ كتاب منها أحببتُه أكثر. قد تظنُّ أنني أعرف، لكنني لا أعرف. قد أحببتُها جميعها. الذي يعني، كما أظنّ، أن أيّة طريقة جيّدة هي الطريقة الصحيحة. وممّا يبعث لديّ السعادة أن أتخيّل الكُتُب كلَّها التي لم أقرأها بعد - المئات منها، الألوف منها. الكثير ممّا أتطلّع لقراءته!"

بدأ اليوم الأخير من حياة فيرغسون، 10 آب، 1960، بهطول مطريّ وجيز بُعَيْدَ الفجر، انجلت الغيوم باتّجاه الشرق، وبانتْ زرقة السماء. مضى فيرغسون ورفاق مقصورته السّتّة نحو قاعة الطعام في المخيّم مع مرشدهم، بيل كوفمان، الذي كان قد أنهى لتوّه سنته الثانية في كلّيّة بروكلن خلال حزيران، وخلال الثلاثين أو الأربعين دقيقة التي استغرقوها في تناول رقائق الشوفان والبيض المخفوق، عادت الغيوم، وفي أثناء عودة الفتيان إلى المقصورة لإتمام التنظيف والمعاينة، كانت المطر قد بدأ بالهطول من جديد، مطر ناعم وطفيف حتّى لم يبدُ أن ارتداء أحدهم معطفاً أو استعماله مظلّةً يشكّل فرقاً يُذكَر. كانت قمصانهم مغطّاة ببقع رطوبةٍ داكنة، لكنْ، كان هناك الكثير منها - أوهى درجة للرطوبة المعتدلة، الماء بتلك الكمّيّات الصغيرة التي لم تُصبهم بالبلل. ومع شروعهم بطقوس الصباح من تسوية الأسِرَّة ومسح الأرضيات، والسماء آخذة بالإظلام، سرعان ما بدأ المطر يتساقط بشكل حثيث، فينقر سطح المقصورة بقطرات أكبر وأسرع تواتراً. ولدقيقة أو اثنتين تاليتين، حلَّ ما يشبه التّهدّج في تناغم الصوت، كما شعر فيرغسون، لكنْ، بعد ذلك، اشتدّتْ كثافة المطر، وغابَ المؤثّر. ثمّ لم يعد المطر يُصدِر الموسيقى. وتحوّل إلى خليط أصواتٍ كثيفة غير متمايزة، شواش من النقرات. أخبرهم بيل أن تشكيلاً جديداً من الأحوال الجوّيّة يتّجه من الجنوب، ومع الجبهة الباردة القادمة في الوقت نفسه من الشمال، قد ينتظرهم هطول كثيف طويل الأمد. فاسترخوا، يا أولاد، قال. ستكون عاصفة كبيرة، وسنبقى في المقصورة معظمَ ساعات اليوم.

آلتِ السماءُ الداكنة أكثر دكْنةً، وكانت الرؤية داخل المقصورة تمسي أكثر شحّاً. أضاء بيل مصابيح السقف، لكنْ، حتّى بعد أن أُضيء المكان، بقي ثمّة شعور بأن الجوّ لا يزال معتماً، إذ لا يزال مصباحُ الخمسة وسبعين واطاً أكثر عُلُوّاً في موضعه بين عوارض السقف من أن ينيرَ ما تحته. كان فيرغسون في فراشه، يقلّب صفحات آخر عدد من مجلّة Mad التي وُزِّعت ضمن المقصورة، يقرأ مستعيناً بكشّافه الضوئي متسائلاً إن مرّ قبل ذلك صباحٌ أكثر عتمة من هذا الصباح. كان المطر يسفع السقف بكل ما أوتيَ من جبروت، يضرب الألواح الخشبية كأنما قطرات المياه السائلة تحوّلت إلى أحجار، ملايين الأحجار تسّاقط من السماء، فتقع عليهم وقوعَ المطارق، ومن ثمّ، في المدى البعيد، سمع فيرغسون صريراً جهورياً، ضجيجاً ثقيلاً ومشحوناً، جعله يتخيّل شخصاً ما يعدّل من احتقان حَنْجَرَته، رعداً لا بدّ أنه يُبعد عنهم عدّة أميال، في مكان ما من الجبال ربّما، الذي اجتاحَ فيرغسون كعَرَضٍ غريب، فبحسب خبرته تأتي عواصفُ البرق والرعد الصاعقةُ دائماً مرفقة بالأمطار، لكنْ، في نمط العاصفة هذه كانت تمُطر بطبيعة الحال، تمُطر بأقصى ما يمكن من الغزارة، ولم يزل الرعد بعيداً عنهم، ما دفع فيرغسون للتفكير بأنه ربّما هناك عاصفتان تهبّان في الآن نفسه، وليس مجرّد عاصفة وجبهة باردة واحدة، كما قال بيل، بل عاصفتان منفصلتان، إحداهما فوقهم مباشرةً وأخرى في طريقها إليهم من الشمال، وإذا لم تخمد العاصفة الأولى قبل وصول العاصفة الثانية، ستتصادم العاصفتان بعنف وتندمجان، وذلك ما سيولّد جحيماً من عاصفة مهولة، كما قال فيرغسون في سرّه، عاصفة مشهودة الضخامة، العاصفة التي لا عواصف من بعدها.

كان يشغَلُ الفراشَ الواقع إلى يمين فيرغسون صبيٌّ يُدعى هال كراسنر. منذ بداية الصيف، لم يكفّ كلاهما عن إطلاقِ النكاتِ التي شخّصا من خلالها جورج الذكي ليني الغبيّ، التّائهَين من *'عن الرجال والفئران'* رواية جون شتاينبك، الكتاب الذي قرآه في بداية العام، ووجداه قابلاً للتحوير الهزلي. مثّل فيرغسون دور جورج وكراسنر دورَ ليني، وكانا يمضيان كلّ يوم تقريباً عدّة دقائق في ارتجال حوارات غرائبية بين شخصيّتيهما المختارتَين، جولة منتظمة من الهراء الذي يستهلّه ليني بطلبه من جورج ماذا سيبدو عليه الأمر عندما يرتقيان إلى ملكوت السماء، مثلاً، أو يُذكّر جورجُ ليني بألا ينكش أنفه على الملأ، أدوار بلاهةٍ متبادَلة ربّما كانت تدين لـ لوريل وهاردي أكثر ممّا تدين لـ شتاينبك، غير أنها ألهت الصبيَّين، وأرضتْ رغبتهما بهذه الألاعيب الطريفة، ومع وابل المطر المنهمر على المخيّم بينما الجميع حبيسون في الداخل، استيقظ مزاج كراسنر للانخراط بحوارية جديدة.

من فضلكَ، يا جورج، قال. من فضلكَ، أَوقِفْه. لم أعد أطيقه.

أُوقِفُ ماذا، يا ليني؟ أجاب فيرغسون.

المطر، يا جورج. صوت المطر. صاخبٌ للغاية، ويكاد يصيبني بالجنون.

أنتَ دائماً مجنون، يا ليني. تعلم ذلك حقّ العلم.

لستُ مجنوناً، يا جورج. أنا غبيّ وحسب.

غبيّ، نعم. وفوق ذلك مجنون.

لا يمكنني فعل شيء إزاء ذلك، يا جورج. لقد وُلدتُ هكذا.

لم يقل أحدٌ إنها غلطتكَ، يا ليني.

إذاً؟

إذاً ماذا؟

هل ستُوقِف المطر من أجل خاطري؟

الزعيم وحده القادر على ذلك.

لكنكَ الزعيم، يا جورج. دائماً أنتَ الزعيم.

أعني الزعيم الأكبر. الواحد الأحد.

لا أعرف واحداً أحداً. لا أعرف سواكَ، يا جورج.

سيحتاج تحقيق شيء مثل ذلك إلى معجزة.

رائع. أنتَ كلّيّ القدرة.

أيمكنني ذلك؟

الصوت يُتعبني، يا جورج. أظنّني سأموت، إن لم تفعلها.

سدَّ كراسنر أذنيه بيديه، وبدأ يئنّ. أصبح الآن ليني الذي يؤكّد لـ جورج أنه قد بلغَ أقصى طاقته، وفيرغسون، كـ جورج، أومأ بمواساةٍ مجلّلة بالحزن، مدركاً أن لا رجل يمكنه إيقاف المطر عن الهطول، أن المعجزاتِ خارجَ نطاق القدرة الآدمية، لكن فيرغسون، كـ فيرغسون، كان يجد صعوبة في إكمال خاتمته للمشهد، ببساطة كانت أنّاتُ بقرة كراسنر المريضة مضحكةً للغاية، وبعد الإصغاء إليها لثوانٍ أخرى، انفجر فيرغسون ضاحكاً، ما عكّرَ فتنةَ التمثيلية بالنسبة إليه، وليس بالنسبة إلى كراسنر، الذي افترضَ أن فيرغسون كان يضحك بصفته جورج، ولذلك تابع دورَه كـ ليني، أزاحَ كراسنر يديه عن أذنيه، وقال:

لا يجدر أن تضحك على رجل مثلي، يا جورج. قد لا أكون أذكى الناس في البلاد، لكنْ،

تسكنني روحٌ، بالضبط مثلكَ ومثل أيّ أحد آخر، وإذا لم تُزِلْ تلك الابتسامة عن وجهكَ، فسوف أقضم رقبتكَ إلى شقفتين، تماماً كما أفعل مع رقاب الأرانب.

أمّا وقد أدلى كراسنر، كـ ليني، بهذا الخطاب الناجح والفعّال، فلم يكن هناك بدٌّ من أن يُرغِم فيرغسون نفسه على العودة إلى الشخصية، ليصبح جورجَ من جديد إكراماً لـ كراسنر ولبقية الفتيان الذين يستمعون إليهما، لكنْ، بينما أوشك على فتح فمه، ويصيح آمراً المطر بالتّوقّف - *كفاكَ بكاء، أيّها الزعيم!* - دوّت السماء بقصفٍ رعديّ مُلَعْلِعٍ، جلجلة عالية للغاية وانفجارية للغاية، اهتزتْ لها أرضية المقصورة، ورجرجت النوافذ، التي استمرّت بالصفير والاهتزاز حتّى رجّت لدويّ رعد جديد. قفز نصف الفتيةِ، انتفضوا للأمام، ارتعشوا تلقائياً كردٍّ فعل على قصف الرعد، بينما صاح آخرون دون إرادة منهم، والهواء يندفع من رئاتهم بصرخات مروّعة، بدت كلماتٍ، لكنها كانت، في حقيقة الأمر، نخرات غريزية بصيغة كلمات - *واو، ماذا، واو*. كان المطر لا يزال يهطل بعنف، يسوط النوافذ، ويجعل الرؤيةَ متعذّرة من خلالها - لا شيء إلا ظلام مائيّ مائج يُضاء بوميض برق فجائيّ، كان كلّ شيء حالِكاً لوهلة عشر أو عشرين نبضة قلب، ومن ثمّ برهة من الضوء الأبيض المبهر. العاصفة التي تخيّلها فيرغسون، العاصفتان العاتيتان اللتان اندمجتا في عاصفة واحدة عندما اصطدم هواء الشمال بهواء الجنوب، هي الآن فوقهما، وباتت أضخم وأكثر جبروتاً ممّا توقّع فيرغسون. عاصفة مهولة. فأس حَقوْدٌ تُشلِّع السماء. جذَلٌ.

لا تقلقْ، يا ليني، خاطبَ كراسنر. لا داعٍ للخوف. سأضع حدّاً لهذا الصخب الآن.

ودون أن يتردّد ليُخبر الآخرين ما كان ينوي القيام به، قفز فيرغسون عن فراشه، وركض نحو الباب، الذي دفعه حتّى انفتح بقوّة يديه الاثنتين، وعلى الرغم من أنه استطاع سماع صوت بيل يصيح وراءه - *ماذا تفعل بحقّ الجحيم، يا آرتشي؟! أمجنون أنتَ؟!* - إلا أنه لم يتوقّف. كان يدرك أن الشيء الذي يوشك على فعله حينها ضرب من الجنون، وأنه أراد أن يكون في الخارج وسطَ العاصفة، كي يتحسّس العاصفة، كي يكون جزءاً من العاصفة، كي يكون في داخل العاصفة مهما استغرقت العاصفةُ من وقتٍ حتّى تصير هي في داخله.

كان المطر أخّاذاً. لحظةَ اجتاز فيرغسون العتبة، وخرج ليطأ الأرض، أيقن أن لا مطرَ سبقَ وهطل بهذه الغزارة، أن قطرات هذا المطر كانت أكبر أسرعَ من أيّة قطرات عرفها من قبل، أنها تنهمر من السماء بقوّة حُبيبات الرصاص، وأنها ثقيلة ما يكفي لأن تسحنَ جلدَه، وربّما تثقب جمجمته. مطرٌ فاتن، مطر كليّ القدرة، لكنْ، لكي يتذوّقه حدّ الامتلاء، حسبَ أن عليه الجري إلى دغل البلوط الذي يبعد نحوَ عشرين ياردةً أمامه، إذ إنّ الأوراق والأغصان ستقي جسدَه من تلك الرصاصات الهاطلة، ولذلك بدأ فيرغسون الركض باتّجاه الدغل، مندفعاً عبرَ الأرض الزلقة

المتشبّعة بالماء قاصداً الأشجار، مُخوِّضاً في بُريكاتٍ تغمر الكاحل والرعد يقصف فوقه وحوله، ثمّ صواعق البرق ترشق بقعةً تبعد عن قدميه عدّة ياردات. كان مبلّلاً بكليّته عند وصوله إلى هناك، لكنه إحساس جميل أن يكون مبلّلاً، كان أجمل من كلّ أحاسيس التبلّل الشبيهة بهذا الإحساس، وشعر فيرغسون بأنه سعيد، أسعد من أي وقت مضى في هذا الصيف أو أي صيف مضى أو أيّ وقت من حياته، لا مناصَ أن ما فعله كان أعظم ما فعله أبداً.

كانت ثمّة ريح طفيفة أو حتّى لا ريح. لم تكن العاصفةُ إعصاراً أو زوبعة، كانت هطولاً غزيراً ترافق مع رعدٍ، يحرّض عظامه، وبرقٍ يُبهِر عينيه، ولم يداخل فيرغسون أدنى رهبة إزاء ذلك البرق، إذ كان يلبس حذاءً رياضياً، ولم يكن بحوزته أشياء معدنية، لا ساعة يد أو حزام ينتهي بمِشْبَك فضي، وهكذا شعر بالأمان والبهجة في كنف الأشجار، وهو يتطلّع إلى حاجز المياه الرمادي الذي يفصل بينه وبين المقصورة، يتأمّل هيكل بيل المرشِد، البليد، الذي يكاد يضمحل بصورة كلّيّة، الذي كان واقفاً في فتحة الباب، وبدا كأنه يصيح طالباً عودته أو يصرخ وهو يلوّح لـ فيرغسون، كي يعود إلى المقصورة، لكن فيرغسون لم يسمع كلمة ممّا كان يقول، ليس مع ضجيج المطر والرعد، وعلى الأخصّ ليس حين بدأ فيرغسون نفسه بالعواء، لم يعدْ جورج الذي خرج في مهمّة إنقاذ ليني، بل ببساطة فيرغسون نفسه، صبي الثالثة عشرة يعَول إجلالاً لفكرة أنه حيٌّ في عالم كالذي أفاضه ذلك الصباح، وحتّى حين ضربَ سهمُ برقٍ الغصنَ الأعلى من إحدى الأشجار، لم يُولِه فيرغسون الاهتمام، إذ أيقن أنه في مأمن، ثمّ رأى أن بيل قد غادر المقصورة وهو يركض نحوه، لماذا يفعل ذلك؟ تساءلَ فيرغسون في سرّه، ولكنْ، قبل أن يتمكّن فيرغسون من الإجابة، انقصف الفرع الغليظ عن الشجرة، ليهوي على رأس فيرغسون. أحسَّ بالصدمة، أحسَّ بالخشب ينهار فوقه، وكأنَ شخصاً قد هوى عليه بهراوة من الخلف، ثمّ لم يعد يحسّ بشيء، لا شيء على الإطلاق أو يحسّ بشيء بعد ذلك أبداً، وبينما تمدّدت جثّته الهامدة على الأرض المشبعة بالماء، استمرّ المطر بالهطول عليه، واستمرّ الرعد بالدويّ، ومن طرف المعمورة الأوّل إلى طرفها الآخر، لزمتِ الآلهةُ الصمت.

2.3

دعا جَدّه الأمر *فترة انتقالية غريبة*، يقصد الوقت الذي يفصل بين وقتين آخرين، وقت اللاوقت حين القواعد كلها عن كيف يُفترض أن تعيش قد رُميت من النافذة، وحتّى الفتى اليتيم أدرك أن ذلك لا يمكن أن يستمرّ للأبد، تمنى لو استمرّ الأمر أطول من الشهرين اللذين أُعطيا له، شهران فوق الشهرين السابقين، ربّما، أو ستّة أشهر أخرى، أو ربّما سنة. كان العيش في ذلك الوقت من اللامدرسة طيّباً، تلك الفجوة الغريبة بين حياة وأخرى عندما كانت أمّه قربه منذ اللحظة التي يفتح فيها عينيه في الصباح، وحتّى لحظة إغماضهما في المساء، لأنها كانت الشخص الوحيد الذي شعر تجاهه بشعور حقيقي، الشخص الحقيقي الوحيد الباقي في هذا العالم، وكم كانت مشاركة تلك الأيّام والأسابيع معها جميلة، هذان الشهران الغريبان من الأكل في المطاعم وزيارة الشقق الفارغة والذهاب إلى السينما كل ظهيرة تقريباً، حيث شاهدا العديد من الأفلام معاً في ظلام الشرفة، حيث أمكنهما الصراخ متى أرادا دون الحاجة لتبرير نفسيهما لأي أحد. أسمتْ أمّه ذلك نوعاً من *التّمرّغ في الوحل*، وبذلك افترض فيرغسون أنها قصدت وحل تعاستهما، لكن الغوص في التعاسة يمكنه أن يكون مُرضياً بشكل مخيف، كما اكتشف، ما دمتَ تغوص فيها بقدر استطاعتكَ دون أن تخاف من الغرق، ولأن الدموع استمرّت بإرجاعهما إلى الماضي، حمتهما من قلق التفكير بالمستقبل، لكنْ، ذات يوم قالت أمّه إن الوقت قد حان للتفكير به، وانتهى البكاء.

لسوء الحظّ، كان لا بدّ من المدرسة. وكم تمنّى فيرغسون أن تطول حريته، لم يكن بإمكانه التّحكّم بأشياء كهذه، وحالما قرّر وأمّه استئجار الشّقّة في غربي السنترال بارك، كان الأمر التالي تسوية وضعه في مدرسة خاصّة جيّدة. المدرسة العامّة كانت خارج النقاش. كانت الخالة ميلدرد متشدِّدة حيال تلك المسألة، وفي حالة توافق نادرة بين الشقيقتين، اتّبعت والدة فيرغسون نصيحتها، مدرِكة أن ميلدرد كانت أوسع اطّلاعاً منها فيما يتعلّق بشؤون التعليم، فلِمَ يُرمى فيرغسون على الإسفلت القاسي لملعب مدرسة عامّة بينما تستطيع تحمّل نفقة التعليم الخاصّ؟ أرادت ما كان أفضل لولدها فحسب، وقد تحوّلت نيويورك إلى مدينة أكثر

خطراً وسوءاً ممّا كانت عليه حين غادرتها في 1944 بعصابات الشباب تطوف في شوارع الشطر الشمالي الغربي مسلّحة بالأمواس والأسلحة السريعة المميتة، ورغم أن ذلك الشطر يبعد خمسة وعشرين مبنى فقط إلى الشمال من المكان الذي عاش فيه والداها إلا أنه يلوح كعالم آخر، حيّ تحوّل بتدفّق المهاجرين البورتوريكيين في السنوات القليلة الماضية إلى مكان أفقر وأقذر وأكثر حيوية ممّا كان قبل الحرب، الهواء الآن مشحون بالروائح والأصوات غير المألوفة، وبنوع آخر من الطاقة، يُنعش الأرصفة في جادّات كولومبوس وأمستردام، كان على المرء أن يخطو خارج المنزل لا أكثر، ليعتريه شعور بتيّار خفي من التهديد والاضطراب، ووالدة فيرغسون التي طالما شعرت دائماً بالراحة الكاملة في نيويورك في طفولتها وشبابها، أصابها القلق على سلامة ابنها الآن. كان النصف الثاني من الفترة الانتقالية الغريبة مكرّساً باستمرار لأكثر من مجرّد تسوّق الأثاث والذهاب إلى السينما، كان هناك نصف دزّينة من المدارس الخاصّة على قائمة ميلدرد أيضاً، ليُنظر في أمرها، جولات غرف الصّفّ والمرافق، المقابلات مع المشرفين ومديري القبول، اختبارات الذكاء وامتحانات الدخول، وعندما قُبل فيرغسون في خيار ميلدرد رَقْم واحد، مدرسة هيلارد للصبيان، عمّت البهجة العائلة، موجة كبيرة من الدفء والحماس غمره بها جَدّاه وأمّه وخالته وعمّه والخالة بيرل، لدرجة أن الصبي اليتيم ابن الثمانية أعوام تقريباً فهم أن المدرسة ربّما لن تكون طريقة سيّئة لتمضية الوقت، رغم كل شيء، لن يكون التأقلم سهلاً بالتأكيد، ليس والوقت أواخر شباط وقد تغيّب ثلثيّ فترة الدراسة، ولم يكن ممتعاً اضطراره لارتداء سترة وربطة عنق كل يوم، لكنْ، لعلّها لن تكون مشكلة، وربّما سيبدأ الاعتياد على الملابس، لكنْ، حتّى لو كانت مشكلة، ولم يعتد الملابس، فلن يشكّل الأمر أي فرق، لأنه كان في طريقه إلى مدرسة هيلارد للصبيان سواء أحبّ ذلك أم لا.

ذهب إلى هناك، لأن الخالة ميلدرد أقنعت أمّه بأنها واحدة من أفضل المدارس في المدينة، مع سمعة *طويلة الأمد بالتّميّز الدراسي*، ولكنْ، لم يقل أحد لـ فيرغسون أن أقرانه الطلاب سيكونون من بين أغنى الأولاد في أمريكا، سلالة نيويورك الثرية وريثة المال، أو أنه سيكون الولد الوحيد في صفه الذي عاش في وست سايد وواحد من الأحد عشر طالباً غير المسيحيين في مدرسة، تضمّ طلاباً من الحضانة حتّى الثانوية بعدد يبلغ السّتّمائة. في البدء لم يظنّه أحد إلا مشيخياً اسكتلندياً، خطأ طبيعي على ضوء الاسم الذي مُنح لجَدّه بعد فشله في نَيل اسم روكفلر سنة 1900، ولكنْ، بعد ذلك لاحظ أحد معلّميه أن شفَتَي فيرغسون لا تتحرّكان عندما كان يفترض بهِ نطق *ربَّنا* يسوع *المسيح*، في ترتيلة الصباح، وتسرّب خبر أخيراً أنه كان من بين الأحد عشر طالباً، وليس واحداً من الخمس مائة وست وسبعين. أضف إلى ذلك أنه دخل

المدرسة كملتحِق متأخّر، صبي صامت عموماً بدون روابط مع أحد آخر في الصّفّ، وسيتضح أن فترة فيرغسون في هيلارد محكومة بالفشل منذ البداية، محكومة بالفشل قبل أن يخطو إلى داخل المبنى في يومه الأوّل.

لم يكن الأمر أن أحداً كان فظّاً معه، أو ضايقه أحد، أو أنه شعر بأنه غير مرحَّب به. وكما في كل مدرسة أخرى، يوجد صبيان لطفاء ومحايدون وكريهون هناك، ولكنْ، حتّى الأسوأ بينهم لم يهزأ من فيرغسون، لأنه يهودي. ربّما كانت هيلارد مكاناً رسمياً مزدحماً، لكنها، إلى جانب ذلك، رسّختْ التسامح وفضائل التّحلّي بضبط النفس، وأي تصرّف صريح في إجحافه سيُجابَه بالحزم من قِبَل الإدارة. ما كان على فيرغسون أن يتعامل معه بدهاء وحيطة، كان ذلك النوع الساذج من الجهل الذي بدا محقوناً في رفاق صفه منذ الولادة. حتّى دوغ هايز، دوغي هايز الأكثر ودّاً وصاحب القلب الطّيّب، الذي صادق فيرغسون منذ لحظة وصوله إلى هيلارد، والذي كان أوّل صبي يدعوه إلى حفلة عيد ميلاد، ومَنْ طلب منه دائماً الحضور إلى منزل والديه في غربي شارع 78 ما لا يقلّ عن عشر مرّات، كان لا يزال يسأله، وقد عرف فيرغسون منذ تسعة أشهر، ماذا كان يخطّط لفعله في عيد الشُّكْر.

سأتناول ديكاً رومياً، قال فيرغسون. ذلك ما نفعله كل سنة. أمّي وأنا نذهب إلى شقّة جَدّي، ونأكل الديك المحشيّ مع المرق.

أوه، قال دوغي، لم يكن عندي أي فكرة؟

لماذا؟ أجاب فيرغسون. أليس ذلك ما تفعلونه؟

طبعاً. فقط لم أعرف أن جماعتكم يحتفلون بعيد الشُّكْر.

جماعتي؟

أنتَ تعرف. اليهود.

ولماذا لا نحتفل بعيد الشُّكْر؟

لأنه شيء أمريكي، أظنّ. الحجاج، صخرة بليموث. هؤلاء الناس الإنكليز كلهم بقبّعاتهم السوداء المضحكة الذين وصلوا على *ماي فلاور*.

احتار فيرغسون من تعليق دوغي، لدرجة أنه لم يعلم ماذا يقول. حتّى تلك اللحظة، لم يخطر له أبداً أنه يمكن أن يكون إلا أميركياً، أو بشكل أكثر دقّة، أن طريقة كونه أميركياً ليست أقلّ أصالةً من أميركية دوغي والصبيان الآخرين، ولكن ذلك ما كان صديقه يؤكّده: أن هناك فرقاً بينهما، صفة مراوغة غير محدّدة، لها علاقة بالأسلاف الإنكليز بالقبّعات السوداء والزمن الذي قضوه

على هذا الجانب من المحيط والمال للعيش في منازل من أربع طوابق في الجانب الشمالي الشرقي الذي جعل بعض العائلات أكثر أمريكية من الآخرين، وفي النهاية، كان الفرق كبيراً جدّاً، لدرجة أن العائلات الأمريكية الأدنى بالكاد أمكن عَدّها أمريكية على الإطلاق.

لا شكّ أن أمّه اختارت المدرسة الخطأ له، ولكنْ، بالرغم من ذلك الحديث المربك عن عادات العشاء اليهودية في أيّام الاحتفالات الوطنية، ناهيكَ عن لحظات مربِكة أخرى قبل وبعد هذا الحديث مع دوغي هـ.، لم يشعر فيرغسون بأي رغبة بمغادرة هيلارد. حتّى لو فشل في فهم العادات والمعتقدات الغريبة للعالم الذي دخله، بذل ما بوسعه لمسايرتهم، ولم يلمْ أمّه أو الخالة ميلدرد مرّة واحدة لإرساله إلى هناك. كان يجب أن يكون في مكان ما، رغم كل شيء. فالقانون ينصّ أنه يجب على كل طفل تحت سنّ السادسة عشرة الذهاب إلى المدرسة، وطالما هو مَعني، لم تكن هيلارد أفضل أو أسوأ من أي إصلاحية للأحداث. لم تكن غلطة المدرسة أنه أخفق جدّاً هناك. في تلك الأيّام الأولى التي تبعت موت ستانلي فيرغسون، استنتج فيرغسون الصغير أنه عاش في عالم معكوس من القضايا المتقلّبة إلى ما لا نهاية (نهار = ليل، أمل = يأس، قوّة = ضعف)، ما كان يعني أنه عندما نصل إلى مسألة المدرسة كان الفشل سيحالفه بدل النجاح، وآخذاً بالاعتبار كم كان جيّداً شعور اللامبالاة بعد الآن، أن يجعل من الفشل مسألة مبدئية، ويلقي بنفسه مستسلماً بين ذراعَي الخزي والهزيمة، ومن المؤكّد أنه سيُخفق كما هو حاله في أي موضع آخر.

وجده معلّموه *مشتّتاً، عنيداً، غير منضبط بشكل صادم، لغزاً بشرياً*. الصبي الذي أجاب عن كل سؤال في اختبار القبول، والذي استمال مدير القبول بطبيعته الحلوة وأفكاره الذكية، الصبي الإضافي المتأخّر جدّاً الذي افترض أن يعود إلى البيت بأعلى درجات في كل مادّة حصّل درجة ممتاز واحدة في تقريره المدرسي الأوّل، الصادر في نيسان في سنة الصّفّ الثاني. المادّة كانت النادي الرياضي. درجة جيّد للقراءة، الكتابة، وفن الخطّ (جرَّب أن يكون أسوأ، لكنه كان مبتدِئاً في تمويه مواهبه)، درجة مقبول في الموسيقى (لم يتمكّن من مقاومة أداء موسيقى الزنوج الدينية والأغاني الشعبية الإيرلندية التي لقّنهم إيّاها السّيّد باولز، رغم أنه عانى في حفاظه على النغمة)، ودرجة ضعيف في كل شيء آخر، بما في ذلك الرياضيات، العلوم، الفنون، الدراسات الاجتماعية، السلوك، الوطنية، والرأي. التقرير التالي والأخير الذي صدر في حزيران، كان مطابقاً تقريباً للأوّل، الاختلاف الوحيد هو درجته في الرياضيات، التي تدنّت من ضعيف إلى رسوب (أتقن فنّ إعطاء الإجابات الخاطئة للمسائل الحسابية عندها، ثلاث من خمس كمعدّل، لكنه بقي عاجزاً عن إرغام نفسه على الخطأ في تهجئة أكثر من عُشر كلماته). في الظروف العادية،

لن يُطلب من فيرغسون العودة في السنة المقبلة. كان عمله متدنّياً بشكل مخيف، ما يفترض وجود مشكلة نفسية شديدة، ولم تكن مدرسة مثل هيلارد معتادة على حمل العبء الزائد، على الأقلّ ليس عندما يكون الفاشل متحدّراً من عائلة بلا إرث، *إرث* تعني ولد من الجيل الثالث أو الرابع أو الخامس الذي يحرّر والده شيكاً كل عام أو يجلس في مجلس الإدارة. كانوا يرغبون بمنح فيرغسون فرصة أخرى مع ذلك، لأنهم فهموا أن ظروفه لم تكن طبيعية. مات السّيّد فيرغسون الأب في منتصف العام الدراسي، موتاً مفاجِئاً وعنيفاً أودى بالولد إلى الدوران في بقاع الحزن والفقد الشديدين، وبالتأكيد يستحقّ وقتاً إضافياً، ليستعيد زمام نفسه. بالنسبة إليهم، كان يمتلك المؤهلات كلهم، لكي يتخلّوا عنه بعد ثلاثة أشهر ونصف فقط، ومع ذلك، أعلموا والدة فيرغسون أن ابنها سيحظى بسنة أخرى، ليُثبت جدارته. إن تمكّن من تغيير الوضع إلى الأفضل خلال ذلك الوقت، لن يكون في فترة اختبار. وإذا لم يفعل، حسناً، سيكون الأمر بخروجه من المدرسة، وحظّاً جيّداً له أينما حلّ.

كره فيرغسون نفسه لأنه خذل أمّه، التي كانت حياتها شاقّة بما يكفي دون القلق على أدائه السّيّئ في المدرسة، لكنْ، كان هناك أمور أكثر أهمّيّة كي يتكفّل بها، تتجاوز محاولة إرضائها أو العمل الدؤوب، ليترك بصمة في العائلة على شكل تقرير مليء بدرجات الممتاز والجيّد جدّاً. عرف أن الحياة كانت ستصبح أكثر سهولة له وللجميع، لو أنه اشتغل كما يجب، وفعل ما هو متوقّع منه. كم كان سهلاً وبالغ اليُسر التّوقّف عن إعطاء الإجابات الخاطئة عمداً، والبدء بالانتباه ثانية، وجعل الجميع فخوراً به، لأنه صبي نبيه جدّاً، ولكن فيرغسون شرع بتجربة كبيرة، استكشاف سرّيّ للأمور الأساسية والأكثر جوهرية بخصوص الحياة والموت، ولم يستطع العودة الآن، كان يسافر في طريق وعر محفوف بالمخاطر، وحده بين الصخور والطُّرُق الجبلية الملتفّة، محفوف بخطر السقوط عن الجرف في أي لحظة، ولكنْ، حتّى تُجمَع المعلومات الكافية، لتُزوّده بالنتائج النهائية، فإنه سيستمرّ بوضع نفسه في المخاطرة - ولو كان ذلك يعني الفصل من مدرسة هيلارد للصبيان، ولو كان يعني إذلال نفسه.

كان السؤال: لماذا توقّف الرّبّ عن التّكلّم معه؟ وإن كان الرّبّ صامتاً الآن، هل يعني أنه سيكون صامتاً للأبد أم أنه أخيراً سيبدأ الكلام معه من جديد؟ وإن لم يتكلّم ثانيةً، هل يعني ذلك أن فيرغسون نفسه كان واهماً، وأن الرّبّ لم يكن هناك منذ البدء؟

لفترة طويلة بقدر ما يتذكّر، كان الصوت في رأسه، يكلّمه كلّما كان وحده، صوت هادئ معتدل، والذي كان مطمئنّاً وآمراً معاً، همس جهير يحمل فيض روح كبيرة غير مرئية حكمت العالم، وارتاح فيرغسون دائماً لهذا الصوت، كان آمناً مع الصوت، الذي أخبره أنه طالما حافظ

على جهته من الاتّفاق كل شيء سيكون على ما يرام، بالنسبة إليه، فمن طرفه ثمّة وعد أبدي لأن يكون طيّباً، ليعامل الآخرين بلطف وكرم، وليطيع الوصايا المقدّسة، التي تعني عدم الكذب أبداً أو السرقة أو الاستسلام للحسد، التي تعني محبّة والديه والعمل بجدّ في المدرسة، والابتعاد عن المشاكل، وآمن فيرغسون بهذا الصوت، وفعل ما بوسعه ليتبع تعليماته في الأوقات جميعها، وبما أن الرّبّ كان يبدو ملتزماً من طرفه بالاتّفاق بتيسير الأمور أمامه. فقد شعر فيرغسون بالحبّ والسعادة، وركن لإدراكه أن الرّبّ آمن به تماماً، بقدر ما آمن هو بالرّبّ. واستمرّ ذلك حتّى بلغ سبع سنوات ونصف السنة، ثمّ ذات صباح من تشرين الثاني، صباح لم يختلف عن أي صباح آخر، دخلت غرفته، وأخبرته أن أباه مات، وفجأة تغيّر كل شيء. كذب الرّبّ عليه. الروح العظيمة اللامرئية لا يمكن أن يُوثَق بها الآن، ورغم أنه استمرّ بالتّحدّث مع فيرغسون لعدّة أيّام تالية، طالباً فرصة ثانية، ليُثبت نفسه، متوسّلاً أن يبقى الصبي اليتيم معه خلال *وقته المظلم من الموت والحداد*، إلا أن فيرغسون كان غاضباً جدّاً منه، لدرجة أنه رفض الاستماع. ثمّ، أربعة أيّام بعد الجنازة، صمت الصوت فجأة، ومنذ ذلك الوقت، لم يتكلّم ثانية.

ذلك كان التّحدّي الآن: فَهمُ إن كان الرّبّ مازال معه في الصمت أو أنه تلاشى من حياته للأبد. لم يكن لـ فيرغسون الشجاعة لأن يقترف فعلاً قاسياً مقصوداً، لم يتمكّن من أن يكذب، أو يغشّ أو يسرق، لم يكن لديه النيّة لأن يؤذي أو يهين أمّه، ولكنْ، ضمن الحيّز الضّيّق للأفعال السّيّئة التي استطاعها، فهم أن الطريقة الوحيدة لحلّ المسألة هي في الانسحاب من الاتّفاق بقدر ما استطاع، لردّ الإلزام بإتّباع الوصايا المقدّسة، ومن ثمّ انتظار أن يقوم الرّبّ بفعل سيّئ تجاهه، شيء قذر وشخصي، يكون بمثابة إشارة واضحة عن القصاص المبيَّت - ذراع مكسورة، طفح على وجهه، كلب مسعور ينال عضّةً من رجله. إذا فشل الرّبّ بعقابه، سيُثبت ذلك أنه اختفى بالفعل عند توقّف الصوت عن الكلام، وبما أنه يفترض للرّبّ الحضور في كل مكان، في كل شجرة وورقة عشب، في كل هبّة ريح وشعور إنسان، فلا معنى لتمكُّنه من الغياب عن مكان واحد، والتواجد في سائر الأمكنة الأخرى. يجب أن يكون مع فيرغسون بالضرورة، لأنه في الأماكن كلها، بالوقت نفسه، وإن كان غائباً عن مكان، حيث يصادف وجود فيرغسون، فذلك يعني فقط أنه في لا مكان، ولم يكن أبداً في أي مكان إطلاقاً، وأنه لم يوجد أبداً، وأن الصوت الذي سمعه فيرغسون على أنه صوت الرّبّ، إنما كان صوته الخاصّ لا أكثر يخاطبه على سبيل المناجاة الداخلية.

كان أوّل فعل متمرد تمزيق بطاقة بيسبول تيد ويليامز، البطاقة الثمينة التي وضعها في يده جيف بالسوني قبل عدّة أيّام بعد عودته إلى المدرسة كرمز الصداقة الأبدية والمواساة. كان تمزيق

الهدية سيّئاً، وكم كان معيباً إبعاد عينيه عن السّيّدة كوستيلو، والتظاهر أنها لم تكن هناك، والآن ها هو في هيلارد، كم كان مستهجَناً منه المضي في حملته المقصودة للتخريب الذاتي، مُتّكلاً على محاولاته منذ السنة الأولى لإحداث نمط جديد من النتائج المتقلّبة بجنون، استراتيجية أبعدَ وأكثر تأثيراً من الفشل الصرف، قرّر، إحراز مائة بالمائة في اختباري رياضيات متعاقبين، مثلاً، ثمّ خمس وعشرين بالمئة على التوالي، أربعين بالمئة على الذي يليه، ثمّ تسعين بالمئة، يتبعه بـ صفر أخير، كان الجميع في حَيْرة من أمره، معلّموه ورفاق الصّفّ معاً، ناهيكَ عن أمّه المسكينة وباقي عائلته، وبعد .. رغم أن فيرغسون استمرّ بالتّفّ على قواعد سلوك الإنسان المسؤول، لم ينقضّ عليه أي كلب ليعضّه، لا صخرة ارتمت على قدمه، لا باب انطبق، ليحطّم أنفه، وبدا أن الرّبّ لا يهمّه معاقبته، لأن فيرغسون كان منهمكاً في حياة الجريمة لمدّة سنة حتّى الآن، وإلى الآن لا يوجد خدش واحد عليه.

كان ذلك كفيلاً بمعالجة الأمر مرّة وإلى الأبد، لكنْ، لم يحدث. إذا لم يعاقبه الرّبّ، يعني أنه لا يستطيع معاقبته، وبالتالي ليس موجوداً. أو هكذا افترض فيرغسون، ولكنْ، الآن والرّبّ على وشك أن يضيع منه للأبد، سأل نفسه: ماذا لو أنه قد نال من العقاب كفايته؟ ماذا لو كان قتل أبيه عقوبة ذات حجم كبير جدّاً، مأساة بآثار رهيبة دائمة، بحيث إن الرّبّ قرّر أن يُبعده عن أيّة عقوبات أخرى في المستقبل؟ بدا ذلك معقولاً له، ليس مؤكّداً، ولكنْ، معقولاً، ولكنْ، مع الصوت الذي بقي مكتوماً لعدّة أشهر قادمة، لم يكن لدى فيرغسون أدنى طريقة لكي يُثبت حدسه. أخطأ الرّبّ بحقّه، والآن يصارع، ليُعوّض على فيرغسون باللطف الإلهي والرحمة. إن لم يمكن للصوت أن يُبلغه ما يريد أن يعرف، فلعلّ الرّبّ يتمكّن من التواصل معه بطريقة أخرى، بإشارة غير مسموعة ستُثبت أنه لا يزال يصغي إلى أفكاره، وبذلك بدأت المرحلة الأخيرة من تقصّي فيرغسون اللاهوتي الطويل، الأشهر من الصلاة الصامتة التي ابتهل للرّبّ خلالها أن يكشف نفسه له، وإلا فإنه سيفقد الحقّ في حمل اسم الرّبّ. لم يطلب فيرغسون وحياً توراتياً كبيراً، قصف رعد جبّاراً، أو انشقاق بحرين مفاجئاً، لا، كان ليرضى بشيء صغير، معجزة متناهية الصغر، يمكنه وحده دون سواه إدراكها: أن تهبّ ريح بشدّة، تكفي لدفع قصاصة ورق تائهة عبر الشارع قبل أن تغيّر إشارة السير لونها، أن تتوقّف ساعته عن التكتكة لعشر ثوان، ثمّ تبدأ من جديد، أن تسقط قطرة ماء وحيدة من سماء صافية بلا غيوم، وتحطّ على أصبعه، أن تقول له أمّه كلمة *غامض* خلال الثلاثين ثانية التالية، أن يشتغل الراديو بشكل تلقائي، أن يمرّ سبعة عشر شخصاً أمام النافذة خلال الدقيقة والنصف التالية، أن ينتشل عصفور أبو الحنّ على عشب السنترال بارك دودة قبل عبور الطّيّارة التالية فوقه، أن تطلق ثلاث سيّارات أبواقها في الوقت نفسه، أن يقع كتاب في يده مفتوحاً على الصفحة 97، أن يظهر تاريخ

خاطئ على الصفحة الأمامية من صحيفة الصباح، أن يجد ربع دولار ملقىً بجانب قدمه عندما ينظر إلى الرصيف، أن يحقّق الدودجرز ثلاثة أشواط، ويكسب اللعبة، أن ترمش له قطّة الخالة بيرل، أن يتثاءب كل مَنْ في الغرفة في الوقت نفسه، ألا يُصدر أحد في الغرفة صوتاً لمدّة ثلاث وثلاثين وثلث ثانية. واحدة بعد واحدة، تمنّى فيرغسون حدوث هذه الأشياء، هذه الأشياء وعدّة أشياء أخرى أيضاً، وعندما لم يحدث شيء منها خلال الأشهر السّتّة من التّضرّع الصامت، توقّف عن تمنّي أي شيء، ونأى بأفكاره عن الرّبّ.

بعد عدّة سنوات، اعترفت أمّه أن البداية كانت بالنسبة إليها أيضاً أقلّ صعوبة ممّا أتى لاحقاً، فالفترة الانتقالية الغريبة كانت متوقّعة تقريباً، قالت، مع قرارات عملية وطارئة سوف تُتّخذ، أو بيع بيتها ومكان عملها في نيوجرسي، وإيجاد مكان للعيش في نيويورك، وتأثيث ذلك المكان مع السعي لإيداع فيرغسون في مدرسة لائقة، والهجمة المباغتة للواجبات التي وقعت عليها خلال الأيّام الأولى من ترمّلها، لم يكن عبئاً بقدر ما كانت ترحيباً بالوصول، طريقة لعدم التفكير بحريق نيوارك كل دقيقة من حياتها الواعية، وشكراً للرّبّ لهذه الأفلام كلها، أضافت، وعتمة الصالات في أيّام الشتاء الباردة، وفرصة التواري داخل هذه القصص الساذجة، وشكراً للرّبّ لوجودكَ أيضاً، يا آرتشي، يا رجلي الصغير الشجاع، صخرتي، مرساتي، وقد كنتَ لوقتٍ مديدٍ الشخص الحقيقي الوحيد الباقي لي في العالم، ومن دونك ماذا كنتُ سأفعل، يا آرتشي؟ من أجل ماذا عشتُ؟ وكيف كان بمقدوري الاستمرار؟

لا شكّ أنها كانت نصف مجنونة خلال تلك الأشهر قالت، امرأة مجنونة مزوّدة بالسجائر والقهوة، ودفقات منتظمة من الأدرينالين، ولكنْ، حالما يُستجاب لمتطلبات البيت والمدرسة، كانت الزوبعة تهدأ وتتوقّف تماماً، لتغوص في فترة طويلة من التفكير والتّأمّل، أيّام رهيبة، ليالٍ رهيبة، وقت من الخدر والتّردّد عندما كانت تقلّبُ احتمالاً مقابل آخر، وتجهد لتتخيّل إلى أين أرادت أن يأخذها المستقبل. كانت محظوظة بتقليبها ذلك، قالت، محظوظة أن تكون في موقع تختار فيه بين بدائل، ولكن الحقيقة كانت أن لديها المال الآن، مال أكثر ممّا حلمت بامتلاكه، مائتا ألف دولار من تأمين الحياة وحده، بالإضافة إلى المال الذي جمعته من بيع منزل ميلبورن وروزلاند فوتو، وضمْنه المبالغ الإضافية التي نالتها من بيع أثاث المنزل وتجهيزات الاستوديو، وحتّى بعد أن خصمت الآلاف التي أنفقتْها على الأثاث الجديد والقسط السنوي لإرسال فيرغسون إلى مدرسة خاصّة والكلفة الشهرية لإيجار الشّقّة، بقي الناتج أكثر من كافٍ لأن تكتفي بالجلوس للسنوات الاثنتي عشرة أو الخمس عشرة القادمة، والاستمرار بالعيش من موارد زوجها الميت

حتّى يتخرّج ابنها في الجامعة - وسيتعدّى الأمر ذلك لو وجدت لنفسها رجلاً ذكياً، يتعامل بالبورصة، واستثمرت في سوق المال. كان عمرها ثلاثة وثلاثين. لم تعد مبتدئة في الحياة، بل يصعب على المرء أن يقول إن القطار قد فاتها، ورغم أن التّأمّل في نِعَم ثروتها الجديدة أراحها، إذ وثقت بقدرتها على أن تعيش حياة مرفّهة في أعوام شيخوختها، إن أرادت ذلك، تنقضي الأشهر وهي مستمرّة بالتّأمّل دون القيام بشيء آخر، ولتنذر معظم وقتها في الذهاب إلى السنترال بارك أربع مرّات في اليوم على متن حافلة المدينة، تأخذ فيرغسون إلى المدرسة في الصباح، وتعود إلى البيت، تعود بـ فيرغسون في الظهيرة إلى البيت ثانية، وفي الصباحات عندما تعجز عن حجز مكان لها في الحافلة، وتعود إلى وست سايد، كانت تمضي الساعات السّتّ ونصف الساعة التي يلزم خلالها فيرغسون المدرسة وهي تتجوّل في الجانب الشرقي، وحيدة تستعرض المتاجر، وحيدة تتناول الغداء في المطاعم، وحيدة تذهب إلى السينما ، وحيدة تزور المتاحف، وبعد ثلاثة أشهر ونصف من الروتين ذاته، تلاه صيف غريب خاوٍ من السبات في بيتٍ مستأجَر على شاطئ جيرسي مع ابنها، حيث أمضيا معظم الوقت في الداخل، يشاهدان التلفاز معاً، اكتشفت أن قلقها يتنامى، وأنها تتوق للعمل ثانية. استغرقها معظم السنة لتصل تلكِ المرحلة، ولكنْ، حالما توصّلت إلى هذه المرحلة، خرجت كاميرات اللايكا والرولينكس من الخزانة أخيراً، ولم يطل الأمر حتّى أبحرت والدة فيرغسون على سفينة، تتوجّه عائدة إلى أرض التصوير.

مضت بالأمر بشكل مختلف هذه المرّة، ملقية بثقلها في العالم بدلاً من دعوة العالم ليأتي إليها، غير مهتمّة بامتلاك استوديو بعنوان ثابت، إذ شعرت أنه طريقة قديمة الطراز لممارسة التصوير، بطيئة بلا فائدة في وقت التّحوّلات السريعة، وسوق الأفلام السريعة والكاميرات الخفيفة الأكثر كفاءة التي تقتحم الميدان الآن، ما يمكنها من إعادة النظر في أفكارها القديمة عن الضوء والموضوع، وتعيد خلق نفسها، وتتّجه إلى ما وراء حدود البورتريه. وحين بدأ فيرغسون سنته الثانية في هيلارد، كانت أمّه تبحث عن عمل لتوّها، وصادف عملها الأوّل في آخر أيلول أن ارتمى الرجل الذي استُؤجِر لالتقاط صور في عرس قريبتها شارلوت من على السلالم، وكسر رجله، ولأنه بقي هناك أسبوع واحد فقط على يوم الزفاف، تطوّعت لتأخذ مكانه دون أجر. كان الكنيس بعيداً في مكان ما في منطقة فلاتبوش في بروكلن، الحيّ القديم لـ آرتشي الأوّل والخالة الكبيرة بيرل، وبين مراسم الزواج وانتقال حفلة الزفاف إلى صالة أفراح على بعد مَبنيين إلى الجنوب، استخدمت أمّ فيرغسون الحامل الثلاثي لأخذ صور شخصية رسمية بالأبيض والأسود لأعضاء العائلة الحاضرين كلهم، بدءاً بالعروس والعريس، شارلوت ابنة التاسعة والعشرين، التي لاح أن الزواج لن يُكتَب لها أبداً بعد أن قُتل خطيبها في الحرب الكورية، وطبيب الأسنان الأرمل ناثان

بيرنباوم ابن السادسة والثلاثين، ووراءه الخالة الكبيرة بيرل، جَدّ فيرغسون وجَدّته، أخت شارلوت التوأم، بتي، وزوجها المحاسب، سيمور غراف، والخالة ميلدرد (التي تُدرِّس الآن في سارة لورانس) وزوجها، بول ساندلر (الذي عمل كمحرّر في راندوم هاوس)، وأخيراً فيرغسون شخصياً في صورة مع قريبيه الآخرين (ولدي بتي وساندلر)، إريك خمسة أعوام وجودي ثلاثة أعوام. حالما بدأت الحفلة في صالة الاحتفالات، تخلّت أمّ فيرغسون عن حامل الكاميرا، وأمضت الثلاث ساعات ونصف الساعة تتجوّل بين الضيوف، تلتقط مئات الصور لستّة وتسعين شخصاً كانوا هناك، لقطات عفوية، لرجال كبار في حديث هادئ مع بعضهم، لنساء شابّات يضحكنَ في أثناء ارتشاف النبيذ، ودسّ الطعام في أفواههنّ، لأطفال يرقصون مع الراشدين وراشدين يرقصون معاً بعد نهاية الوجبة، وصُوِّرتْ وجوه هؤلاء الناس كلهم في الضوء الطبيعي لذلك المكان الخالي غير المبهج، الموسيقيون جالسون على منصتهم الصغيرة، حيث ضجّوا بأغانيهم السخيفة المتعبة، الخالة بيرل تبتسم حين قبّلت خَدّ حفيدتها، بنجي إدلر تصرخ على حلبة الرقص مع قريب بعيد من كندا، عمره اثنان وعشرون عاماً، فتاة مكفهرّة الوجه في التاسعة تجلس وحيدة على طاولة مع قطعة كعك نصف مأكولة أمامها، وفي وهلة تخلّلت الحفل تقدّم العمّ بول إلى نسيبته، وأشار إلى أنها تبدو مستمتعة، وأنه لم يرها سعيدة وشديدة المرح منذ انتقلت إلى نيويورك، وقالت والدة فيرغسون ببساطة، يجب أن أفعل هذا، يا بول، سأجنّ إن لم أبدأ العمل ثانية، وأجاب زوج ميلدرد: أعتقد أني أستطيع مساعدتكِ، يا روز.

أتت المساعدة على شكل مهمّة للذهاب إلى نيو أورليانز، وتصوير هنري ويلموت من أجل غلاف روايته المقبلة، عمل مرتقب جدّاً من قِبَل الفائز السابق بجائزة بوليتزر، وعندما أخبر ويلموت ابن الثانية والسّتّين محرّره كم كان مسروراً بالنتائج، بكلمات أخرى، اتّصل ببول ساندلر، وأعلمه أنه من الآن فصاعداً لن يُسمَح إلا لتلك *المرأة الجميلة* بالتقاط صورته، أكثر من تكليف لتصوير كتّاب وردَ من راندوم هاوس، ممّا أدّى إلى عمل أوسع مع ناشري نيويورك الآخرين أيضاً، والذي بدوره أوصلَ إلى التكليف بمقالات عن كتّاب، مخرجي أفلام، ممثّلي برودواي، موسيقيين، وفنّانين في تاون وكونتري، فوغ، لووك، لايديز هوم جورنال، مجلّة النيويورك تايمز، ودوريات أسبوعية وشهرية خلال السنوات التي تلت. صوّرت والدة فيرغسون شخصياتها ضمن محيطهم الخاصّ، فسافرت إلى الأماكن التي عاشوا وعملوا فيها مع حامل الضوء النّقّال، والشاشات الملفوفة، والمظلات المطوية، لتُصوِّر الكتّاب في مكاتبهم المليئة بالكُتُب أو وهم جالسون وراء مكاتبهم، الرسّامين في فوضى ودهان محترفاتهم، عازفي البيانو جالسين أو واقفين قرب بيانو ستينويز الأسود اللامع، الممثّلين ينظرون إلى مرايا غرفة الملابس أو جالسين وحدهم على مسارح خاوية، ولسبب ما،

بدت صورها بالأسود والأبيض تُلتقط عن الحيوات الداخلية لهؤلاء الناس أكثر ممّا استطاع جلّ المصورين استخلاصه من تصوير الشخصيات المعروفة نفسها، صفة لا تتعلّق بالمهارة التِّقْنيّة، ربمّا، أكثر ممّا تتعلّق بشيء ما في شخصية أمّ فيرغسون ذاتها، التي حضّرت دائماً لمهامها بقراء الكُتُب والاستماع إلى الأسطوانات، والنظر إلى لوحات مبدعيها، ما أعطاها مادّة تتحدّث بها إليهم خلال جلساتها الطويلة معهم، ولأنها تكلّمت بسلاسة، وكانت دائماً ساحرة وجذّابة، ولم تتحدّث أبداً عن نفسها، وسيجد الفنّانون المغرورون والشائكون أنفسهم يسترخون في حضرتها، ويشعرون أنها مهتمّة بصدق بـ *مَن هم، وماذا يُنجزون*، الذي كان حقيقياً، أو شبه حقيقيّ في معظم الأوقات، وحالما تفعل الفتنة فعلها، ويتلاشى تحفّظهم، تُزاح الأقنعة التي ارتدوها على وجوههم، لينبعث ضوء مختلف من عيونهم.

بالإضافة إلى هذا العمل التجاري للمجلات وناشري الكُتُب، بقيت والدة فيرغسون مشغولة بمشاريعها الخاصّة، ما دعتْه استكشافات عينها الجوّالة، التي أقصتْ التّحكّم شديد الدّقّة المطلوب لإنتاج بورتريهات من الدرجة الأولى *لصالح ضربة حظّ، مهما يكن نوعها تأتي بما ليس متوقَّعَاً*. اكتشفت هذا الحافز المتناقض في نفسها في حفل زفاف قريبتها شارلوت، ذلك العمل غير المأجور الذي تحوّل إلى حفلة ضخمة لثلاث ساعات ونصف من التقاط الصور اللاهث بينما تتجوّل وسط حشد الناس، متحرّرة من أعباء التحضير المجهد، ومنغمسة في دوّامة التقاط الصور المتعاقبة، صورة تلو الأخرى، لحظات عابرة كان لا بدّ من التقاطها في تلك اللحظات بالضبط أو ستتلاشى للأبد، توقّف لنصف ثانية، وستذهب الصورة، وتستحضر شدّة التركيز وفقاً للظروف التي رمت بها في حالة من الحمّى العاطفية، وكأن كل وجه وجسد في الغرفة كان سيندفع إليها فوراً، وكأن كل شخص هناك كان يتنفّس داخل عينيها، وليس على الطرف الآخر من الكاميرا بعد الآن، ولكنْ، داخلها، جزء لا يُجتزأ ممّا تكونُه هي.

بشكل متوقّع إلى حدّ ما، كرهت شارلوت وزوجها هذه الصور. ليس الصور الأخرى كما قالا، ليس الصور التي التُقطت في الكنيس بعد مراسم الزواج، التي كانت رائعة حقّاً، صور سيحتفلان بها لسنوات قادمة، ولكنْ، صور حفل الزفاف كانت غير مفهومة، مظلمة جدّاً وفجّة، وباردة، بدا الجميع حزيناً ومتشائماً، حتّى الناس الضاحكون بدوا أشراراً بطريقة تبعث على الالتباس، ولماذا كانت اللقطات غير متوازنة كما يجب؟ لماذا كان كل شيء معتماً للغاية؟ وقد أزعجها التوبيخ، أرسلت والدة فيرغسون نسخ الصور الشخصية إلى المتزوّجين حديثاً مع ملاحظة قصيرة مرافقة، كُتب عليها، *سعيدة أنكما أحببتُما* هذه المجموعة. أرسلتْ دفعة أخرى إلى الخالة بيرل، ودفعة أخرى إلى والديها، وآخر دفعة كانت إلى ميلدرد وبول. بعد استلامه طرده، اتّصل صهرها ليسأل

لماذا لم تبعث شيئاً من حفل الزفاف. لأن تلك الصور مقرفة، قالت. الفنّانون جميعهم ينفرون من عملهم الخاصّ، أجاب داعمها ومدافعها الجديد، وأخيراً أُقنِعَت أمّ فيرغسون بتحميض ثلاثين نسخة من الصور التي بلغ عددها أكثر من خمسمائة، التقطتها تلك الظهيرة، وأرسلتها بالبريد إلى مكتب بول في راندوم هاوس. بعد ثلاثة أيّام، اتّصل ثانية ليقول إنها ليست فقط غير مقرفة، بل وجدها مميّزة. وأنه، بعد نيل موافقتها، سيعطيها لـ ماينور وايت من مجلّة *آبرتشور*. تستحقّ أن تُنشَر، قال، أن يطّلع عليها الناس المهتمّون بالتصوير الضوئي، وبما أنه عرف وايت قليلاً، لمَ لا نبدأ بالقمّة؟ لم تتأكّد والدة فيرغسون إن كان بول يعني ما يقوله أو أنه شعر بالشفقة عليها فحسب. فكّرت: رجل لطيف يتقدّم لمساعدة قريبة ضائعة وحزينة في وقت الشدّة، رجل بارتباطات يسعى لربط مصوّرة أرملة منقطعة عن العالم بحياة جديدة. ثمّ فكّرت: شفقة أو لا شفقة، كان بول الشخص الذي أرسلها إلى نيو أورليانز، ربّما كان من الممكن أنه يتصرّف بموجب نزوة أو حدس أعمى، أو شعور جوّاني ما بعيد الاحتمال، لكنْ، بعد أن رشّحها ويلموت الكحولي الغاضب للقيام بعمل *جيّد ملعون*، فربّما آمن صهرها أنه راهَنَ على الحصان الرابح.

سواء أثّر بول على قرارهم أم لا، فقد قبلت هيئة التحرير في *آبرتشور* صورها للنشر، مجموعة من إحدى وعشرين صورة ظهرت بعد ستّة أشهر تحت عنوان *الزفاف اليهودي، بروكلن*. ذلك النصر، ودفق الحماس التي اجتاحتها عندما بانت الرسالة من *آبرتشور* بين باقي البريد، قد لفّهما الإحباط، مع ذلك، ثمّ كاد يطيح بهما الغضب، إذ لا يمكنها نشر الصور دون المصادقة على النشر من قِبَل الناس الذين يظهرون فيها، وقد ارتكبت والدة فيرغسون خطأ الاتّصال بشارلوت أوّلاً، التي رفضت بعناد السماح لهذه *اللقطات الغريبة* لها ولـ ناثان أن تنشر في *آبرتشور* أو في أي *مجلّة تافهة* أخرى. خلال الأيّام الثلاثة التالية، تكلّمت أمّ فيرغسون مع المشاركين الآخرين جميعهم، ومن بينهم أمّ شارلوت وأختها التوأم، بتي، وعندما لم يعترض أحد آخر، اتّصلت بشارلوت ثانيةً، وطلبت منها إعادة التفكير. *لا نقاش. اذهبي إلى الجحيم، ماذا تخالين نفسكِ*؟ حاولت الخالة بيرل أن تُقنعها بالمنطق، وبّخها جَدّ فيرغسون لما دعاه *استخفاف أناني بالآخرين*، دعتها بتي بصغيرة العقل والمتعالية، ولكن السّيّدة بيرنباوم الجديدة لن تتزحزح. وهكذا استبعدت الصور الثلاث التي تظهر فيها شارلوت وناثان، واختيرت ثلاث صور أخرى، لتحل مكانها، كما أن قصّة مصوّرة عن العرس نُشرت دون أن يبان أثر لعروس أو عريس في أي مكان في المشهد.

بالرغم من ذلك، تلك كانت بداية، أوّل خطوة باتّجاه العيش في المستقبل الذي لا يعنيها سواه، ومضت أمّ فيرغسون قدماً، فتجرأت على نشر تلك الصور، وأقدمت عليها دون تفويض، إنه *عملها الخاصّ*، كما دعته الذي استمرّ بالظهور في صفحات الـ*آبرتشر*، وأحياناً بين أغلفة

الكُتُب أو على جدران المعارض، وربّما كان أهمّ عامل في ذلك التّحوّل هو قرار اللحظة الأخيرة الذي اتّخذته قبل ظهور *العرس اليهودي*، يعود إلى ربيع 1956، عندما جثت على ركبتيها أمام سريرها، وطلبت من ستانلي أن يسامحها لما كانت ستفعله، ولكنْ، كان يجب أن يكون الأمر على ما كان عليه، قالت، وأي طريقة أخرى تعني إجبارها على الاستمرار بالعيش في رماد حريق نيوارك حتّى تحترق بدورها إلى لا شيء، وهكذا كان، وكذلك استمرّ طوال سنين حياتها المستقبلية، أنها وقّعت عملها باسم روز إدلر.

في البداية، كان فيرغسون ابن الثماني سنوات منتبهاً بإبهام لما كانت تفعله أمّه. وعى أنها كانت مشغولة أكثر ممّا اعتادت من قبل، معظم الأيّام تعمل في عدّة وظائف تصوير في الخارج، أو تُقفل عليها باب ما كانت سابقاً غرفة نوم إضافية، التي حوّلتها إلى مكان لتظهير الصور، والتي كانت مقفلة دائماً، بسبب الأبخرة من الموادّ الكيميائية، ورغم أنه كان من الجيّد رؤيتها تبتسم أكثر، وتضحك أكثر ممّا فعلت خلال الربيع والصيف، إلا أن باقي الأشياء التي حدثت لم تكن جيّدة، لم تكن جيّدة أبداً من الزاوية التي تعنيه. غرفة النوم الإضافية كانت غرفته لأكثر من ثمانية أشهر، وخلوته الخاصّة، حيث يمكنه أن ينظّم بطاقات البيسبول خاصّته، ويضرب العلب اللدائنية بكرة البولينغ البلاستيكية، ويرمي بعلب الحلوى عبر الثقوب في الهدف الخشبي، ويسدد الأسهم إلى الهدف الأحمر، والآن ذهب هذا كله، الذي بالكاد يُدعى أمراً جيّداً، ومن ثمّ، ذات يوم من أواخر تشرين الأوّل، ليس بأمد طويل بعد أن تحوّلت غرفته المضيئة إلى غرفة مظلمة محظور دخولها، حدث شيء آخر غير جيّد عندما أخبرته أمّه أنها لن تستطيع إحضاره من المدرسة بعد الآن، ستستمرّ بأخذه في الصباح، لكنْ، لم يعد يمكن الاعتماد على أنها حرّة فترةَ الظهر بعد الآن، ولذلك ستكون جَدّته مَنْ تقابله عند الدرجات الأمامية، وترافقه إلى الشّقّة.

لم يُحبّ فيرغسون الأمر، بما أنه كان معارضاً لكل تغيير مهما يكن نوعه، كأيّ معتقد أخلاقي صارم، ولكنه لم يكن في موقع يسمح بالاعتراض، توجّب أن يفعل ما طُلب منه، وما كان سابقاً أفضل وقت من اليوم - رؤية أمّه بعد ستّ ساعات ونصف من الملل، والتبكيت، والصراعات المرّة مع الأقوياء - تحوّل إلى المشي بخطى متثاقلة غرباً مع نانا البدينة المتمايلة، المرأة العجوز الخجولة جدّاً والمتحفّظة جدّاً، لدرجة أنها لم تكن تعرف أبداً ماذا تقول له، ما يعني أنهما غالباً ما كانا يعودان إلى البيت صامتَين.

لم يمكنه التّحكّم بذلك. كانت أمّه الشخص الوحيد الذي اهتمّ به أو شعر بالراحة معه، في حين أثار الآخرين جميعهم أعصابه. للناس في عائلته مناقبهم الطّيّبة، كما افترض، من حيث إنهم

بدوا يحبونه جميعاً، لكن جَدّه كان صاخباً جدّاً، جَدّته هادئة جدّاً، الخالة ميلدرد متسلّطة جدّاً. العمّ بول مولَع بالاستماع إلى صوته الخاصّ، الخالة الكبيرة بيرل كانت خانقة بعواطفها، قريبته بتي متهوّرة جدّاً، القريبة شارلوت غبية جدّاً، القريب الصغير إريك نشيط جدّاً، قريبته الصغيرة جودي كانت طفلة بكّاءة، والقريب الوحيد الذي يعطي أي شيء ليراه ثانية، ابنة عمّه فرانسي، كانت طالبة جامعية في كاليفورنيا البعيدة. وبالنسبة إلى رفاق صفه في هيلارد، لم يكن لديه أصدقاء حقيقيون، بل مجرّد معارف، وحتّى دوغي هايز، الولد الذي كان يلتقيه أكثر من أي أحد آخر، ضحك على أشياء لم تكن مضحكة، ولم يفهم أبداً أي نكتة سمعها منه. باستثناء أمّه، كان من الصعب بالنسبة إلى فيرغسون الصغير التواصل مع أحد من الناس الذين عرفهم، إذ لطالما شعر بالوحدة برفقتهم، رغم أن الشعور بالوحدة مع الآخرين ربّما أقلّ سوءاً من الشعور بالوحدة مع نفسه، والذي طالما دفع أفكاره إلى الهواجس القديمة نفسها. كما مع رجائه الدائم من الربّ أن يجترح معجزة تريح عقله أخيراً، أو، حتّى بشكل أكثر إلحاحاً، مع الصورة في *نيوارك ستار لدجر* التي لم يُفترض أن ينظر إليها، ولكنه فعل، متأمّلاً فيها لثلاث أو أربع دقائق عندما غادرت أمّه الغرفة لجلب علبة سجائر، الصورة بالتعليق القائل *البقايا المحترقة لستانلي فيرغسون*، وهناك كان والده الميت في البناء المحترق الذي كان فيما مضى *عالم الأخوة الثلاثة للتجهيزات المنزلية*، جسده متيبّس ومتفحّم، ولم يعد بشرياً بعد الآن. كأن النار حوّلته إلى مومياء، رجل بلا وجه، بلا عينين، وفم فاغر كأن صرخة لا تزال عالقة فيه، وذلك الجثمان المتفحّم المحنّط وُضع في تابوت، ودُفن في الأرض، وكلّما تذكّر فيرغسون أباه الآن، كان أوّل ما يرِد إلى عقله البقايا المحترقة لجسد أسود نصف محترق بفم مفتوح، لم يزل يصرخ من جوف الأرض.

سيكون يوماً بارداً، يا آرتشي، تذكّرْ وَضْعَ وشاحكَ إلى المدرسة.

كان الاجترار المَرَضيّ من بين الأمور السلبية التي وسمتْ تلك السنة القاسية، الأشهر التي كان بها في الثامنة، ثمّ دخل التاسعة، ولكنْ، كان هناك بعض الأشياء الجيدة أيضاً، أشياء منتظمة حدثت كل يوم، مثل البرنامج التلفزيوني بعد المدرسة الذي استمرّ من الرابعة حتّى الخامسة والنصف على القناة11، تسعون دقيقة متواصلة (مع فواصل إعلانية)، من أفلام لوريل وهاردي القديمة، التي اتّضح أنها أجمل وأكثر ما أُنتج من الأفلام مرحاً وقبولاً على الإطلاق. كان عرضاً جديد أُطلق في الخريف، حتّى إن فيرغسون صادفه على التلفاز ذات ظهيرة من تشرين الأوّل، دون أن يعرف شيئاً عن ذلك الفريق الكوميدي القديم. إذ نُسي لوريل وهاردي على الأغلب بحلول 1955، فأفلامهم من العشرينيات والثلاثينيات لم تعد تُعرَض في الصالات، وبسبب التلفاز فحسب سجّلا عودة إلى الصغار في المنطقة الحضرية الكبرى. كيف حدث أن أحبّ فيرغسون

هذين المغفّلين، الرجلين الراشدين بعقليَ ولدين في السادسة، يطفحان بالطيبة والحماس، لكنهما يتشاجران، ويعذّب أحدهما الآخر، يقعان في أكثر المآزق خطراً وغرابة، كأن يوشكا على الغرق، يوشكا على التّمزّق إلى فتات، يوشكا على أن يُضربا على رأسيهما حتّى يفقدا الذاكرة، ومع ذلك يتدبّران أمر نجاتهما، زوجان غير محظوظين، متآمران متلعثمان، فاشلان حتّى النهاية، ولكنْ، على الرغم من اللكم والرفس والقرص المتبادل، كم كانا صديقين جيدين، مرتبطين ببعضهما بشدّة أكثر من أي ثنائي في *كتاب الحياة الدنيوية*، كل منهما نصف لا يُجتزأ من إنسان فردٍ ذي جزأين. السّيّد لوريل والسّيّد هاردي. ولقد أسعد فيرغسون كثيراً أن هذين الاسمين كانا اسمي الرجلين الحقيقيين اللذين مثّلا الشخصيات المزيفة لـ لوريل وهاردي في الأفلام، لأن لوريل وهاردي كانا لوريل وهاردي مهما كانت الظروف التي وجدا نفسيهما فيها، سواء عاشا في أمريكا أو في بلد آخر، إن عاشا في الماضي أو الحاضر، إن كانا حمّالين للأثاث أو تاجري سمك أو بائعين لأشجار عيد الميلاد أو جنديين أو بحّارين أو سجينين أو نجّارين أو عازفين في الشارع أو عاملي إسطبل أو منقّبين عن الذهب في الغرب المتوحّش، وحقيقة أنهما كانا دائماً نفسيهما حتّى عندما كانا مختلفَين جعلهما أكثر واقعية من أي شخصيات أخرى في الأفلام، لأنه إن كان لوريل وهاردي أبداً لوريل وهاردي، فكّر فيرغسون، لا بدّ أن يعني ذلك خلودهما.

كانا الرفيقين الأكثر رسوخاً وثقة خلال تلك السنة والتي تلتها، ستانلي وأوليفر الشهيران كـَ *ستان وأولي*، النحيل والبدين، البريء الغبي والمغفّل المغرور، الذي لم يكن في النهاية أقلّ غباءً من الأوّل، وبينما كان شيء ما يعني لـ لفيرغسون أن اسم لوريل الأوّل كان مثل اسم أبيه، لم يهمّه الأمر كثيراً، وبالتأكيد لا علاقة له تقريباً بولعه المتزايد بصديقيه الجديدين، اللذين سرعان ما أصبحا أفضل أصدقائه، إن لم يكونا صديقيه الوحيدين. أكثر ما أحبّه بخصوصهما كانت العناصر الأساسية التي لم تختلف من فيلم لآخر، بدءاً باللحن الرئيس الذي يمثّل الوقواق في الشارة الافتتاحية، التي أعلنت أن الولدين كانا عائدين إلى مغامرة أخرى، و*ماذا سيفكّران بعدها*؟، حركات الأداء المألوفة التي لم تصبح مملّة له، وعندما تفتل ربطة عنق أولي، وينظر إلى الكاميرا ساخطاً، نظرات ستان المذهولة ودموعه المفاجئة، الخرق التي التفت حول قبّعاتهم المدوّرة، القبّعة الكبيرة جدّاً على رأس لوريل، والقبّعة الصغيرة جدّاً على رأس هاردي، القبّعات المسحوقة والقبّعات المحترقة، القبّعات المسحوبة حتّى الأذنين والقبّعات المداسة تحت الأقدام، قابليتهما للسقوط في الحفر والارتطام بأرضيات مكسورة، للخطو في مستنقعات موحلة وبرك بمياه تصل العنق، حظّهما السّيّئ مع السّيّارات، السلالم، أفران الغاز، ومقابس الكهرباء، رقّة *أولي* المتبجّحة عند التّكلّم مع الغرباء، *هذا صديقي السّيّد لوريل*، موهبة ستان

الغبية بإشعال إبهامه ونفخ غليون غير متواجد، ولكنْ، مشتعل، نوبات ضحكهما الخارجة عن السيطرة، ميلهما للبدء في حركات رقصة عفوية (كلاهما رشيق) إجماعهما في الرأي عند مواجهة خصومهما، المشاحنات والخلافات كلها تُنسى حين يتّحدان لتدمير بيت رجل أو تحطيم سيّارة رجل، ولكنْ، أيضاً التباينات التي تشي بمن كاوا وكيف تداخلت شخصيتاهما، بل اندمجتا، كما عندما سرق *أولي* قدم *ستان*، وفي ظنّه أنها كانت قدمه، وتنهّد بسعادة وارتياح، أو الطُّرُق المبتكرة التي يستنسخان بها نفسيهما، كما عندما يجالس ستانلي الكبير وأوليفر الكبير ابنيهما الصغيرين، ستان الصغير وأولي الصغير، اللذين كانا نسخاً مصغّرة عن والديهما، حيث يلعب لوريل وهاردي مجموعتي الأدوار، أو حين تزوّج ستان من المرأة أولي وأولي من المرأة ستان، أو حين التقيا أخويهما التوأمين الضائعين منذ زمن بعيد، وهما صديقان مقرّبان، كان اسماهما طبعاً لوريل وهاردي، أو، الأجمل من كلّ ما سلف، عندما يفشل نقل دم في نهاية الفيلم، ويظهر ستان بشارب وصوت أولي وهاردي الناعم الوجه ينهار في نوبة بكاء لوريل.

نعم، كانا طريفين ومبتكرين جدّاً، ونعم، تألمت معدة فيرغسون أحياناً من الضحك الشديد على تهريجهما، ولكنْ، لماذا وجدهما مضحكين؟ ولماذا بدأ حبّه لهما يزهر فوق كل منطق؟ كان يتعلّق بطّرائفهما التهريجية أقلّ ممّا يتعلّق بتعنّتهما، في حقيقة أنهما يذكّران فيرغسون بنفسه: فباستثناء المبالغات الهزلية والعنف التمثيلي، لن تختلف صراعات لوريل وهاردي عن صراعاته. هما أيضاً (لوريل وهاردي من جهة، وفيرغسون من جهة) تعثّرا من خطّة سيّئة إلى أخرى، هما، أيضاً، عانيا من الإحباطات والنكسات التي لا تُعدّ ولا تُحصى، وكلّما أوصلهما سوء الطالع إلى نقطة الانفجار، ستصبح فورات غضب هاردي فورات غضبه نفسَها، بلبلة لوريل ستعكس بلبلةً لديه، والجدير ممّا يُقال عن التبعات السّيّئة التي سبّباها لنفسيهما أن ستان وأولي كانا عاجزين حتّى أكثر ممّا كان هو، أكثر غباءً، أكثر هبلاً، أكثر ضعفاً، وذلك كان مسلياً، مسلياً جدّاً، لدرجة أنه لم يكن يستطيع التّوقّف عن الضحك، حتّى حين أشفق عليهما تقبّلهما كأخوة، كروحين متآلفتين تُواجهان أبداً بعنف من قِبَلِ العالم، وتنهضان للمحاولة من جديد أبداً - بتدبير خطّة أخرى من خططهما الرعناء، التي، حتماً، ستطرحهما أرضاً مرّة أخرى.

كان يشاهد الأفلام وحيداً معظم الوقت، جالساً على الأرض في غرفة المعيشة بعيداً عن التلفاز قرابة ثلاث أقدام، ما عَدَّتْه أمّه وجَدّته قريباً جدّاً، حيث إن الأشعة الصادرة من أنبوب الكاثود ستؤذي عينيه، وكلّما أمسكتْ به إحداهما متلبّساً في تلك الوضعية، سينأى بنفسه إلى الأريكة البعيدة. في الأيّام التي كانت أمّه خلالها لم تزل تعمل في الخارج مع وقت عودته من المدرسة، لازمتْه جَدّته في الشّقّة حتّى عودة أمّه من *واجباتها اليومية* (كما قالت الممرّضة

في *The Music Box*، تشتكي للشرطي بعد أن وضع ستان حذاءه على مؤخّرتها: *لقد رفسني تماماً في منتصف واجباتي اليومية*)، ولكنْ، ليس لجَدّة فيرغسون أي اهتمام بـ لوريل وهاردي، كان شغفها التنظيف والترتيب المنزلي، وحالما كانت تعطي حفيدها وجبة ما بعد المدرسة الخفيفة، عادةً قطعتي بسكويت شوكولاتة وكوب حليب وأحياناً خوخة أو برتقالة أو كعكاً مملحاً، كان فيرغسون يغطسه في مربىّ العنب، فسيتّجه إلى غرفة الجلوس، ليُشغِّل برنامجه، وتشْغل نفسها بكشط طاولات المطبخ أو إزالة الأوساخ المترسّبة عن موقد الفرن أو تنظيف المغاسل والحمّامات في غرفتي الحمّام، مدمّرة مخلصة للقذارة والجراثيم، لكنها لم تتذمّر أبداً بسبب تقصير ابنتها كربّة منزل، ومع ذلك كانت عادةً ما تطلق نهدة مديدة، كلّما أنجزت هذه المهام، مغتمّة بلا شكّ أن لحمها ودمها لم تلتزم بمعايير صارمة في الحياة الصّحّيّة. في الأيّام التي تكون فيها أمّ فيرغسون في المنزل حين عودته من المدرسة، كانت جَدّته توصله ببساطة، وتغادر بعد تبادل قبلة وبضع كلمات مع ابنتها، ولكنْ، نادراً ما تتريّث لفترة طويلة، فتخلع معطفها خلالها، وعندما لا تكون أمّه منشغلة بتظهير الأفلام في غرفتها المظلمة أو تحضير العشاء في المطبخ، كانت تنضمّ إلى ابنها على الأريكة أحياناً، وتشاهد لوريل وهاردي معه، وأحياناً تضحك بقوّة كما يفعل (عند جملة *المهامّ اليومية* في *The Music Box*، مثلاً، التي أصبحت نكتة خاصّة بينهما، مصطلح استبدل أخيراً الكلمات القديمة التي استخدماها للإشارة إلى المؤخّرة، قائمة طويلة تضمّنت مصطلحات معتمدة كثيراً مثل ردف، كفل، عجيزة، خلفية، طيز، إلية، كما في السؤال الذي ستسأله أمّه أحياناً عندما كانا في غرف مختلفة، تصيح، *ماذا تفعل، آرتشي*؟ وإن لم يكن واقفاً أو ماشياً أو مستلقياً في مكان ما في الشّقّة سيرد، *أنا جالس على واجباتي اليومية، ماما*)، ولكنْ، غالباً ما كانت تضحك ضحكة مكتومة فقط على قفشات ستان وأُولي وأفعالهما الغبية، أو تبتسم ابتسامة صغيرة، وحين تخرج الأمور عن السيطرة، بالضربات والصفعات القوية واللطمات المؤلمة، تجفل وتهزّ رأسها قائلة، *أوه، آرتشي، ذلك فظيع*، لا تعني أن الفيلم كان فظيعاً، بل المبالغة بالتعامل العنيف. لم يوافق فيرغسون طبعاً، لكنه كان كبيراً كفاية ليفهم أنه من المحتمل ألا يحبّ أحد ما لوريل وهاردي كثيراً كما فعل، وشعر أنها تحلّت بروح رياضية لجلوسها هناك معه، إذ عرف أنها عَدّت ستان وأولي غبيين وطفوليين كثيراً، وأنها لو شاهدتهما كل يوم لمدّة سنة، فلن تصبح معجبة بهما أبداً.

شخص واحد في العائلة شاركه حماسه، راشد واحد كان لديه الفطنة ليفهم عبقرية المعتوهين المحبوبين، وذلك كان جَدّه، بنجي إدلر المراوغ، الذي كان أبداً بالنسبة إلى فيرغسون ضرباً من اللغز، رجلا بدّا بشخصيتين أو ثلاث شخصيات مختلفة، منفتحاً وكريماً في بعض الأيّام، مستغلقاً

ومشتّتاً في أيّام أخرى، أحياناً يبدو عصبياً وحتّى مهتاجاً ومنفعلاً، ثمّ ها هو هادئ وصريح، ومتقلّب المزاج، فحيناً يحدب على حفيده بحرارة، ثمّ بعد هنيهة يكاد يصبح لامبالياً به، ولكنْ، في أيّام صفائه، الأيّام التي يكون فيها مزاجه عالياً، فتفرقع النكات من فمه، ويصبح رفيقاً نادراً وشريكاً متآمراً لما ظنَّه فيرغسون حرب *البور* (تجسيده المشوّش لكلمة حرب *البوير* التي أُسيء سماعها وفهمها)، الذي عَدّها استهزاءً شديد اللهجة في مواجهة تبلّد الحياة. في آخر تشرين الثاني أرسل العمّ بول والدةَ فيرغسون في رحلة أخرى، هذه المرّة مباشرة إلى نيومكسيكو لتصوير ميليسنت كنينغهام. شاعرة في الثمانين كانت على وشك نشر *المقالات الكاملة* في راندوم هاوس، وخلال غيابها اختبأ فيرغسون في شقّة جَدّيه قرب كولومبوس سيركل. وفي ذلك الحين، كان يقيم في أرض لوريل وهاردي لأكثر من شهر، منغمساً كلّيّاً في ولعه الجديد، ثمّ محروماً تقريباً مع توالي نهايات الأسبوع الآن، بما أن البرنامج لم يكن يُبَثّ أيّام السبت والأحد، ولكن أوّل ليلة أمضاها في شارع وست 58 صادف يوم الاثنين، الذي منحه خمس فترات ظهيرة كاملة مع السّيّد سمين والسّيّد نحيل، وعندما عاد جَدّه باكراً من العمل في الظهيرة الأولى، موضحاً *أنه كان يوماً بطيئاً في المكتب*، رمى نفسه على الأريكة بجانب فيرغسون لمشاهدة البرنامج، الذي بدا أنه يؤثّر على عقله بسنواته الاثنتين والسّتّين بالطريقة نفسها التي يؤثّر على عقل فيرغسون بسنواته الثمانية، ولم يطل الأمر حتّى كان يرتجف من الضحك، وفي لحظة بشدّة، إلى أن بدأ باللهاث والسعال، واحمرّ وجهه، وكانت بهجته واضحة، لدرجة أنه أصبح يأتي باكراً من المكتب كل يوم خلال ذلك الأسبوع، كي لا يفوّت مشاهدة البرنامج مع حفيده.

ثمّ أتت المفاجأة، زيارة يوم الأحد في أوائل كانون الأوّل عندما دخل جَدّا فيرغسون إلى الشّقّة في غربي السنترال بارك محمّلين بالعلب، بعضها ثقيل للغاية، لدرجة أن آرثر، مشرف البناء، اضطرّ لنقلها على عربة يدوية بعجلات، ما أكسبه إكراميّة خمسة دولارات من جَدّ فيرغسون (خمسة دولارات!)، وعلبة في صندوق ورق مقوّى طويل جدّاً، حمله جَدّاه معاً، كل واحد يمسك طرفاً بيديه، وكان الصندوق طويلاً جدّاً، لدرجة أنه لم يدخل الشّقّة تقريباً، وعندما رأى جَدّته تبتسم (نادراً ما ابتسمت)، وسمع ضحكة جَدّه، وشعر بيَدَي أمّه تستقران على كتفه الأيمن، علم أن أمراً استثنائياً على وشك الحدوث، لكنْ، لا فكرة لديه عن ما يمكن أن يكون إلى أن فُتحت العلب، واكتشف أنه امتلك الآن آلة عرض سينمائية بقياس ستّة عشر ملم، شاشة أفلام ملفوفة مع قاعدة حامل ثلاثي مطوي، ونسخاً لعشرة أفلام قصيرة لـ لوريل وهاردي: *اللمسة النهائية*، *مخطئ ثانية*، *عمل مهمّ*، *يوم مثالي*، *بلوتو*، *تحت الصفر*، *فوضى جميلة أخرى*، *مساعدون*، *ومقطور إلى حفرة*.

لا يهمّ أن آلة العرض ابتيعت مستعملة - فقد كانت تعمل. لا يهمّ أن النسخ كانت مخدوشة والصوت أحياناً بدا قادماً من عمق حوض الحمّام - فقد كانت الأفلام قابلة للمشاهدة، ومع الأفلام أتت مجموعة جديدة من الكلمات، ليُتقنها - سنّ القرص *sprocket* ، مثلاً، التي أصبحت كلمة أفضل بكثير، لأن يتأمّل بها من محروق *scorched*.

في أيّام نهاية الأسبوع عندما لا تكون أمّه خارج البلدة في مهمّة مهنية - ولا يكون الطقس بارداً جدّاً أو رطباً جدّاً أو عاصفاً جدّاً - كانت تمضي معظم صباحات الآحاد وأوقات بعد الظهر بالطواف في الشوارع في البحث عن صور جيّدة، فيرغسون يهرول إلى جانب أمّه وهي تمشي بسرعة على أرصفة مانهاتن أو ترتقي درجات الأبنية البلدية أو الدرجات الصخرية أو تعبر الجسور في سنترال بارك، وعندها، بلا سبب واضح له، إطلاقاً، نستعود إلى فترة توقّف قصيرة، توجّه كاميرتها إلى شيء ما، وتضغط زر المغلاق، و*كليك، كليك - كليك، كليك – كليك - كليك*، الذي لم يكن النشاط الأكثر سحراً في العالم، ربّما، ولكنه عاد إلى متعة كونه مع أمّه، بامتلاكها لنفسه ثانية، وكيف لا يتمتّع بوجبات الغداء التي تناولوها معاً في المقاهي على امتداد برودواي وسيكس آفينيو في الفيليج، حيث سيطلب عشر مرّات من كلّ عشرة الهمبرغر ومزيج الحليب والشوكولاتة، دائماً الوجبة نفسها في منتصف رحلات الأحد تلك، من فضلكَ، نعم، همبرغر، من فضلكَ، كما لو كان جزءاً من طقس مقدّس، الذي يعني أنه لا يمكن أن تختلف بأي طريقة وصولاً إلى أصغر تفصيل، ومن ثمّ أُمسيّات أيّام السبت و/ أو بعد ظهر الآحاد عندما كانا يذهبان إلى السينما معاً، يجلسان في الشرفة، حيث يمكن لأمّه تدخين سجائرها الشسترفيلد، أفلام لم تكن أبداً أفلام لوريل وهاردي، بل إنتاجاً جديداً من هوليوود مثل *طقس جميل دائماً*، *الرجل الطويل*، *نزهة*، *شبّان ودمى*، *فنّانون وعارضات*، *مهرّج المحكمة*، *غزو قارصي الجسد*، *الباحثون*، *كوكب محظور*، *الرجل في ملابسه الداخلية*، *آنستنا برووكس*، *محطّة بوهاني*، *ترابيز*، *موبي ديك*، *الكاديلاك الذهبية*، *الوصايا العشر*، *حول العالم في ثمانين يوماً*، *وجه مضحك*، *الرجل المتقلّص المذهل*، *الخوف يضرب*، و*12 رجلاً غاضباً*، الأفلام الجيدة والسّيّئة لأعوام 1955، 1956، و1957 التي حملها خلال فترته في هيلارد، وإلى سنته الأولى في المدرسة التالية التي ذهب إليها، ريفرسايد أكاديمي، في جادّة وست إند بين الشارعين الرابع والثمانين والخامس والثمانين، المعهد المختلط الذي يتصف بما يسمّى الميول التّقدّمية، والذي أُحدث منذ تسع وعشرين سنة، بعد إنشاء هيلارد بمئة عام بالضبط.

لا مزيد من السترات وربطات العنق، لا مزيد من التراتيل الصباحية، لا مزيد من رحلات

الحافلة عبر سنترال بارك، لا مزيد من الأيّام، وهو رهين بناء دون فتيات، كلّ ما كان تحديثات أُقِرَّت سلفاً، ولكن أكبر اختلاف بين الصفين الثالث والرابع لم يكن الانتقال إلى مدرسة أخرى، كما نهاية مبارزة فيرغسون مع الرّبّ. هُزم الرّبّ، انكشفَ كَعَدَم، لا حول ولا قوّة له، الذي لا يمكنه العقاب أو بثّ الخوف بعد الآن، ومع إبعاد المراقب السماوي من الصورة، أمكن لفيرغسون التّوقّف عن اللعبة القديمة من الإخفاقات المقصودة، أو، كما دعاها أحياناً في السنوات التالية، *دجاجة وجودية*. نجح جيّداً في الفشل، لدرجة أنه سئمَ موهبته في التحايل والتضحية بالنفس. لا أحد أبداً في هيلارد اشتبه فيما فعله، خدعهم جميعاً، ليس معلّميه ورفاق الصّفّ فحسب، بل أمّه والخالة ميلدرد أيضاً، لم يفهم أحد منهم مطلقاً أنه فعل ذلك قصداً، أن أداءه شديد التّقلّب في الصّفّ الثالث، لم يعُدْ كونه مجرّد تمثيل، جهدَ محتالٍ ومبدع لإثبات أن لا شيء فعلهُ يهمّ إطلاقاً، إن لم تراقبه قوّة إلهية ترعاه. كسب الجدل مع نفسه بطرده من هيلارد - ليس فصله، بالضبط، بما أنه سُمح له البقاء حتّى نهاية العام، ولكنهم رأوا من فيرغسون ما يكفي لأن لا يرغبوا بانتظار المزيد منه بعد ذلك. أخبر المدير أمّه أن آرتشي كان اللغز الأصعب الذي قابله في سنواته كلها في المدرسة. كان من أفضل الطلاب وأسوئهم في صفه، في الآن نفسه، قال، أحياناً لامع، وأحياناً أخرى مغفّل مطلق، ولم يعرفوا ما العمل معه. هل كانوا يواجهون حالة فصام كامنة؟ سأل، أو هل كان آرتشي مجرّد صبي ضائع، سيجد نفسه أخيراً؟ بما أن أمّ فيرغسون عرفت أن ابنها ليس مغفّلاً ولا حالة عقلية مَرَضية مستقبلية، شكرت المدير لوقته، وبدأت البحث عن مدرسة أخرى.

تلقّى تقريره الأوّل من وست سايد أكاديمي يوم الجمعة في منتصف تشرين الثاني.

بعد عام كامل من درجات الضعيف والفشل من هيلارد، كانت والدة فيرغسون تتوقّع نتائج أفضل من المدرسة الجديدة، ولكنْ، لا شيء قريب لـ السبع درجات ممتاز ودرجتي جيّد جدّاً التي أحضرها فيرغسون إلى البيت ذلك اليوم. دخلت غرفة المعيشة، مذهولة من حجم التّحوّل، في الساعة الخامسة والنصف، تماماً عندما كان عرض لوريل وهاردي في نهايته. وجلست إلى جانب ابنها على الأرض.

عمل جيّد، آرتشي، قالت، حاملة مجموعة الدرجات في يدها اليمنى، وربّتت عليها باليسرى، أنا فخورة بكَ.

شكراً، ماما، أجاب فيرغسون.

لا بدّ أنكَ تستمتع في مدرستكَ الجديدة.

إنها جيّدة جدّاً. الأشياء كلها بالحسبان.

ماذا يعني ذلك؟

المدرسة هي المدرسة، أي أنها ليست شيئاً يستمتع به أي شخص كثيراً. تذهبين إليها، لأنكِ يجب أن تذهبي.

ولكن بعض المدارس هي أفضل من الأخرى، أليس كذلك؟

أفترض.

مثلاً، ريفر سايد أفضل من هيلارد.

لم تكن هيلارد سيّئة، كمدرسة أعني.

لكنْ، أنتَ تفضّل عدم القيام برحلة بعيدة كل يوم، أصحيح ما أقول؟ وألا ترتدي بذلة. ووجود فتيات وصبيان معاً بدلاً من الصبيان فقط. ذلك يجعل الحياة أفضل قليلاً، أليس كذلك؟

أفضل بكثير، ولكن المدرسة نفسها ليست مختلفة كثيراً. القراءة، الكتابة، الحساب، الدراسات الاجتماعية، صالة الألعاب، الفنّ، الموسيقى، العلوم. أدرس الأشياء نفسها في ريفرسايد التي درستها في هيلارد.

ماذا عن المعلّمين؟

متشابهون تقريباً.

ظننتُ أنهم أقلّ صرامة في ريفرسايد.

ليس حقّاً. الآنسة دون، معلّمة الموسيقى، تصرخ علينا أحياناً. لكن الأستاذ بولز، معلّم الموسيقى في هيلارد، لم يرفع صوته أبداً. إنه أفضل معلّم صادفتُه في أيّ مكان - إنه الأفضل.

لكنْ، لديكَ أصدقاء أكثر في ريفر سايد، تومي شنايدر، بيتر باسكين، مايك غولدمان، وآلان لويس - الجميع أولاد جيدون جدّاً - وتلك الحلوة اللطيفة، إيزابيل كرافت، وقريبتها آليس أبرامز، أولاد جميلون، ناجحون حقّاً. في شهرين، عقدت صداقات أكثر ممّا كان لديكَ في نيوجرسي.

من الممتع أن أكون معهم. بعض الأولاد الآخرين ليسوا كذلك كثيراً. بيل ناثانسون هو تقريباً الضفدع الأكثر لؤماً الذي قابلته - أسوأ من أي شخص في هيلارد.

لكنْ، لم يكن لكَ أصدقاء في هيلارد، آرتشي.

دوغ هايز اللطيف، أظنّ، ولكنْ، لا أستطيع التفكير بأحد آخر. ذلك كان خطئي. أنا لم أرد أي أصدقاء هناك.

أوه؟ ولماذا كان ذلك؟

من الصعب الشرح. فقط لم أرد أي صديق.

لا أصدقاء ودرجات سيّئة في مدرسة واحدة. الكثير من الأصدقاء ودرجات جيّدة في مدرسة ثانية. لا بدّ من وجود سبب لذلك. هل لديكَ فكرة ما هو؟

نعم.

قلْ؟

لا أستطيع إخبارك.

لا تكن سخيفاً، آرتشي.

ستغضبين منّي، إن قلتُ.

ولماذا سأغضب منكَ حقّاً؟ هيلارد هي الماضي الآن. لا يُشكّل ذلك أي فرق الآن.

ربمّا، ولكنْ، مع ذلك ستغضبين منّي.

وماذا إذا وعدتُ ألا أغضب؟

لن ينفع ذلك.

كان فيرغسون ينظر إلى الأرض حينها متظاهراً بفحص خيط رخو في السّجّادة كطريقة لتفادي عينَي أمّه، لأنه عرف أنه سيضيع إذا تجرّأ ونظر إليهما الآن، كانت عيناها قويتين جدّاً بالنسبة إليه، كانتا محمّلتين بالقوّة التي يمكن أن تُنهي أفكاره، وتستخلص الاعترافات منه، وتسحق إرادته الضعيفة حتّى حين يناضل ليقاومها، والآن، بشكل مرعب ومحتوم، كانت تمتدّ وتلمس ذقنه بأطراف أصابعها، تُلّح عليه برقّة، ليرفع وجهه، وينظر إلى عينيها ثانية، وفي اللحظة التي شعر بيدها تلمس جلده، علم أن كل أمل ذهب، كانت الدموع تتجمّع في عينيه، أوّل دموع كانت هناك منذ أشهر، وكم كان ذلك مذّلاً أن يشعر بالحنفية الخفية تنفتح ثانية دون سابق إنذار، ليس أفضل من ستان الباكي الغبي، قال لنفسه، ولد بعمر التاسعة مع تمديدات خاطئة في دماغه، وفي الوقت الذي وجد الشجاعة ليثبّت عينيه في عينَي أمّه، كان شلالان يسيلان على خدّيه وفمه يتهدّج، كانت الكلمات تنفلت منه، ورُوِيَتْ قصّة هيلارد، المعركة مع الرّبّ، وسبب الدرجات السّيّئة، الصوت الصامت ومقتل أبيه، خرق القواعد لكي يُعاقب، ومن ثمّ كره الرّبّ لعدم معاقبته، كره الرّبّ لأنه لم يكن الرّبّ، ولم يكن لفيرغسون أي فكرة، إن فهمت أمّه ما يخبرها، بدت عيناها متألّمتين ومرتبكتين، وتقريباً مليئتين بالدموع، وبعد أن تكلّم لدقيقتين أو ثلاث أو أربع دقائق، اتكأت، وضعت ذراعيها حوله، وطلبت منه أن يتوقّف، يكفي، آرتشي،

قالت، انسَ الأمر، ومن ثمّ بكى الاثنان معاً، مشهد حزين ماراثوني استمرّ ما يقرب من عشر دقائق، وكانت آخر مرّة انهار كل منهما في حضرة الآخر، بعد سنتين تقريباً من يوم إيداع جسد ستانلي فيرغسون الأرض، وحالما انتهى البكاء ببطء، غسلا وجهيهما، ارتديا معطفيهما، وذهبا إلى السينما، وهناك التهما شطائر الهوت دوغ في الشرفة بدلاً من تناول العشاء، وبعد ذلك تشاركا علبة كبيرة من البوشار، الذي ابتلعوه مصحوباً بكوكا كولا فوّارة. عنوان الفيلم الذي شاهداه تلك الأُمسيّة كان: *الرجل الذي عرف كثيراً.*

مرّت سنوات. كان فيرغسون في العاشرة، الحادية عشرة، والثانية عشرة، كان في الثالثة عشرة والرابعة عشرة، ومن بين مناسبات العائلة التي حدثت خلال هذه السنوات الخمس، والأكثر أهمّيّة بلا شكّ ،كان زواج أمّه من رجل يُدعى غيلبرت شنايدرمان، الذي حصل عندما كان فيرغسون في الثانية عشرة ونصف. قبل سنة من ذلك، خبرتْ عائلة إدلر الطلاق الأوّل فيها، الانفصال غير المبرّر بين الخالة ميلدرد والعمّ بول، الشخصان اللذان لاحا أبداً مناسبين لأحدهما الآخر، دودتا الكُتُب الثرثارتان وقد تزوّجا لتسع سنوات من دون أيّة خلافات ظاهرة أو خيانات، ثمّ انتهى ذلك كله، كانت الخالة ميلدرد بصدد الانتقال إلى كاليفورنيا، لتنضّم إلى قسم اللغة الإنكليزية في ستانفورد والعمّ بول لن يعودّ (عمّو) بول بالنسبة إلى فيرغسون. ثمّ اختفى جَدّه - نوبة قلبية في -1960 وبعد ذلك بفترة ليست طويلة رحلت جَدّته أيضاً - جلطة في 1962 - وخلال شهر من الجنازة الثانية، شُخص لدى الخالة الكبيرة بيرل مرض سرطان في مراحله النهائية. كان آل إدلر يتناقصون. بدوا مثل تلك العائلات التي لا يجب أن يعمّر أحد فيها طويلاً.

كان شنايدرمان الابن البكْر لرئيس أمّه السابق في العمل، الرجل ذي اللكنة الألمانية الذي علّمها التصوير خلال الأيّام الأولى للحرب، وبما أن فيرغسون فهم أن أمّه ستتزوّج ثانية في وقت ما، لم يُعارض خيارها، الذي حدث أنه الخيار الأفضل من بين عدّة خيارات عُرضت عليها. كان شنايدرمان في الخامسة والأربعين، أكبر من أمّ فيرغسون بثمانية أعوام. التقى الاثنان للمرّة الأولى في الصباح الذي بدأت فيه العمل في استوديو والده في تشرين الثاني 1941، ما أراح فيرغسون نوعاً ما، مدركاً أن أمّه التقت زوجها حتّى قبل أن تلتقي والده، 1941 مقابل 1943، تاريخ حدّد سلفاً بداية العالم له، ولكن العالم أصبح الآن أقدم من ذلك، كان مطمئنّاً لمعرفة أن هناك ماضياً متراكماً بينهما، وبالتالي لم تندفع إلى ذلك الزواج بشكل أعمى، ما شكّل الخوف الأكبر لدى فيرغسون، أي مشاهدة أمّه تفقد اتزانها بسبب مهرج معسول الكلام، ومن ثمّ تستيقظ في الصباح، لتكتشف أنها ارتكبت غلطة حياتها. لا، لقد بدا شنايدرمان من النوع الصلب، شخصاً

يمكن الوثوق به. تزوّج من سيّدة لمدّة سبعة عشر عاماً، أب لولدين، ثمّ يستدعيه اتّصال من شرطة الولاية إلى مشرحة دتشس كاونتي للتّعرّف على جثّة امرأة، جثّة زوجته، التي قُتلت في حادث سيّارة، تبعَ ذلك أربعة أعوام من الوحدة، تقريباً كالفترة التي أمضتها أمّه وحيدةً بعد موت أبيه. كان جَدّاه لا يزالان حَيَّين في أيلول 1959، وعقد الزواج في شقّتهما في شارع وست 58، حيث كان فيرغسون البالغ من الطول خمس أقدام وبوصتين هو الإشبين. بين الضيوف كان هناك أختاه الجديدتان، مارغريت إحدى وعشرون سنة، وإيلا تسع عشرة سنة، كلاهما طالبة في الجامعة، إيمانويل شنايدرمان الخرف، العنزة البذيئة اللسان الذي التقاه فيرغسون ثلاث أو أربع مرّات، ولن يعدّه بمثابة الجَدّ أبداً، وحتّى ليس بعد موت جَدّه، أخ جيل، دانيال، زوجة أخيه ليز، ابن أخيه جيم ستّ عشرة سنة وابنة أخيه آيمي اثنتا عشرة سنة (تلك الفتاة الخرقاء، بجهاز التقويم على أسنانها، وصف من حَبّ الشباب على جبهتها)، وبول ساندلر، عمّ فيرغسون السابق، الذي بقي بطلاً لدى أمّه، على الرغم من طلاقه من ميلدرد، محرّر كتابيها الأوّلين، *الزفاف اليهودي* الكامل والمنشور حديثاً *أقوياء*، تسعون صورة شخصية بالأسود والأبيض لأفراد عصابات بورتوريكيين وصديقاتهم، لكن الخالة ميلدرد لم تكن هناك، كتبت أنها أكثر انشغالاً بصفوفها في ستانفورد من أن تقوم بالرحلة، وحين رمق فيرغسون عمّه السابق، وهو ينظر إلى أمّه، تساءل إن لم يكن منافساً ليطلب يد أمّه، ثمّ خسرها لصالح جيل شنايدرمان، ما يشير إلى أن انفصاله عن الخالة ميلدرد ربّما كان مرتبطاً بفهمه المتأخّر أنه أحبّ الفتاة الخطأ. من المستحيل معرفة صحّة الأمر، ولكنْ، ربّما فسّر ذلك لماذا كانت ميلدرد في كاليفورنيا تلك الظهيرة، وليست في نيويورك، والذي ربّما علّل لماذا قطعت التواصل مع أمّ فيرغسون، لم ينبس أحد بكلمة عن غيابها في حفلة الزفاف، على الأقلّ، ليس ضمن مدى أسماع فيرغسون، ولأنه كان في حرج من أن يسأل عمّه السابق بول أو جَدّيه لماذا لم يذكر أحد ذلك، بقيت الأسئلة المتشكّلة في رأسه تلك الظهيرة دون إجابات. إنها قصّة أخرى لن تُحكى أبداً، قال لنفسه، ومن ثمّ أخرج الخاتم من جيبه، وسلّمه إلى الرجل القوي ذي الجبهة العالية والأذنين الكبيرتين الذي كان على وشك أن يصبح زوج أمّه.

دعت أمّه ذلك بداية جديدة، وفي بداية تلك البداية كان هناك العديد من الأشياء ينبغي التّكيّف معها، خليط يشمل عدداً وافراً من الأشياء الكبيرة والصغيرة التي باتت فجأة وإلى الأبد مختلفة الآن، بدءاً من الحقيقة الكبيرة للعيش في منزل مكوّن من ثلاثة أشخاص بدلاً من اثنين، وبدعة أن ذلك الشخص الثالث سيمضي كل ليلة في فراش أمّه، رجل طوله خمس أقدام وعشرة بوصات مع شَعْر يغطّي صدره، والذي يتجوّل في الصباح مرتدياً سروالاً تحتياً قصيراً قديم الطراز، ويتبوّل بصوت عالٍ في المرحاض، ويعانق ويقبّل أمّه كلّما نظرت إليه، صنف ذكوري جديد على

فيرغسون سيكون ندّاً له، عريض الكتفين، لكنه غير رياضي، متأنّق بطريقة قديمة الطراز، بطريقة تنحو إلى الارتباك، ببدلاته التويد الثقيلة وصديرياته، بأحذيته المتينة وشَعْره الأطول من المعتاد، غريب اجتماعياً نوعاً ما، غير ميّال إلى النكات أو الثرثرة المرحة، يشرب الشاي في الصباح بدلاً من القهوة والشنابس والكونياك، وسيجار ليلي، نهج ألماني راسخ لأسلوب الحياة، مع استسلام عَارض للتّجهّم ونوبات سوء المزاج (هبة جينية من أبيه بلا شكّ) ولكنْ، غالباً لطيف: غالباً لطيف جدّاً، زوج أمٍّ لم يُبدِ أدنى طموح لأن يكون أباً بديلاً، بل كان سعيداً بمخاطبته كَ جيل بدلاً من بابا. وللأشهر السّتّة التالية عاش ثلاثتهم معاً في شقّة غربي سنترال بارك، ولكنْ، بعد ذلك انتقلوا إلى مكان أكبر في ريفر سايد درايف بين شارعيّ 88 و89، بغرفة نوم رابعة، حُوِّلت إلى مكتب لـ جيل، تغيير رحّب به فيرغسون لأنه عاش الآن أقرب إلى مدرسته، كما يمكنه أن ينام متأخّراً قليلاً في الصباح، وبالرغم من أنه افتقد إطلالة الطابق الثالث في الشّقّة القديمة على السنترال بارك، إلا أن لديه الآن إطلالة طابق سابع على نهر هدسون، الذي تبيّن أنه أكثر إنعاشاً بسبب الحركة المستمرّة للقوارب والسفن التي كانت تتهادى إلى الأمام والخلف عبر الماء، وما بعد الماء كان هناك البرّ على الجانب الآخر، قرب نيوجرسي، وكلّما نظر فيرغسون إليه سيفكّر بحياته القديمة هناك، ويحاول أن يتذكّر نفسه كصبي صغير، لكن ذلك الوقت أصبح بعيداً الآن، وكاد أن يغيب.

كان شنايدرمان كبير النّقّاد الموسيقيين في طبعة نيويورك من الـ هيرالد تريبون، منصب متطلّب أجبره على البقاء في الخارج معظم الأُمسيّات لحضور الحفلات وعروض العزف المنفرد وعروض الأوبرا، ثمّ إلحاح الموعد النهائي لطباعة المادّة النقدية، وتسليمها إلى محرّر الفنون في الليلة نفسها، ما بدا مهمّة مستحيلة لفيرغسون، ساعتان أو ساعتان ونصف فقط، ليجمع أفكاره عن الأداء الذي رآه وسمعه لتوّه، وليكتب شيئاً ما مُحْكَماً عنه، لكن شنايدرمان كان خبيراً بالعمل تحت الضغط، ففي معظم الليالي أنهى مقالاته دون أن يرفع يده عن لوحة مفاتيح الآلة الكاتبة، وعندما سأله فيرغسون كيف يمكنه ابتداع الكلمات بسرعة كبيرة، أجاب عن سؤال ابن زوجته قائلاً، أنا شخص كسول حقّاً، يا آرتشي، ولو لم أكن مرتبطاً بوقت نهائي يلحّ عليّ، فلن أُنجز شيئاً أبداً، وتأثّر فيرغسون بحقيقة أنه يمكن لزوج أمّه أن يسخر من نفسه بتلك الطريقة، حيث كان واضحاً أن الرجل لم يكن كسولاً البتّة.

كان لدى شنايدرمان قصص ليرويها، بخلاف والد فيرغسون، الذي قلّما روى قصصاً تتجاوز قصص التنقيب عن الذهب الخيالية في جبال الآنديز أو قنص الفيلة في أفريقيا، ولكن هذه كانت قصصاً حقيقية، وحين تحوّلت فترة التّكيّف تدريجياً إلى شيء يشبه الحياة اليومية، بدأ فيرغسون بالشعور بالراحة كفاية، ليضغط على يد زوج أمّه، ليحدّثه عن الماضي، لأن عقل

فيرغسون لم يعد أبداً عقل طفل، استمتع بسماع كيف كانت النشأة في برلين، بالإصغاء إلى أحدٍ ما أمضى أوّل سبع سنوات من حياته في تلك المدينة البعيدة، التي كانت في مخيّلة فيرغسون أوّلاً وآخراً عاصمة جحيم هتلر، المدينة الأكثر شرّاً على وجه الأرض، ولكنْ، ليس في ذلك الحين، كما قال شنايدرمان، ليس لشخص غادر البلد في 1921، وحتّى لو أن حياته بدأت بمجرّد بداية الحرب العالمية الأولى، التي سُمّيت سابقاً *الحرب الكبيرة*، فإنه لا يتذكّر شيئاً عنها، الجائحة بأكملها كانت فراغاً بالنسبة إليه، وأوّل حدث في حياته يستطيع تذكّره بكل تأكيد، كان الجلوس وراء طاولة المطبخ في شقّة عائلته في شارلوتنبرغ مع قطعة من الخبز أمامه وتغطية الخبز بملاعق من مربىّ المشمش الأسود بينما يرقب أخاه الرضيع دانيال في كرسيه العالي، وكان عمره ستّة أو ثمانية أشهر في ذلك الوقت ما يعني أن الحرب كانت على وشك الانتهاء أو انتهت لتوّها، وربّما كان سبب بقاء المشهد حيّاً في ذاكرته أن دانيال كان يتقيّأ كتلة من الحليب المتخثّر فوق صدريّته دون أن يلحظ ذلك، مبتسماً خلال هرجه وهو يخبط بيديه على الطاولة، وتعجّب شنايدرمان من حقيقة أن يكون هناك شخص بلا عقل إلى هذه الدرجة وأحمق ليتقيّأ على نفسه دون الانتباه لما فعل. لم يكن هناك من هتلر في ذلك الحين، ولكنه وقت حرج مع ذلك، بذور الكارثة المستقبلية زُرعت في فرساي، نزاع مسلّح في برلين مع ارتفاع طفيف في وتيرة الانتفاضة السبارتاكوسية لوقت قصير، لتُسحَق فيما بعد، وتليها اعتقالات كلٍّ من روزا لكسمبورغ وكارل ليبكنخت، اللذين وُجدت جثّتاهما المقتولتين لاحقاً في قناة لاندوير، بالإضافة إلى اندلاع الحرب الأهلية الروسية، الحمر ضدّ البيض، البلاشفة ضدّ العالم، ولأن روسيا كانت قريبة جدّاً من ألمانيا، حدث التّدفّق المفاجئ للاجئين والمهاجرين الذين اندفعوا إلى برلين، برلين غير المستقرّة، المقلقلة، قلب جمهورية فايمار المهلهلة، التي سيكلّف فيها رغيف خبز عشرين مليون مارك في نهاية المطاف. كان ضرورياً أن شنايدرمان أعطى الولد درس التاريخ الأوّليّ هذا، ليفهم لماذا غادرت عائلته إلى أمريكا، ولماذا خلص والد شنايدرمان إلى أن ألمانيا كانت مكاناً ميؤوساً منه، فأخرجهم من هناك بأسرع ما استطاع، ما أثبت أنه فعل ذلك في الوقت المناسب تماماً، لأن أمريكا وضعت حدّاً للهجرة في 1924، وأغلقت الأبواب بعد ذلك، ولكنه كان عام 1921 الآن، آخر الصيف، وشنايدرمان سيصبح في السابعة وأخوه في عمر الثلاث سنوات وشهر واحد، وقد أبحرا مع والديهما وصندوق من الكُتُب الألمانية، مغادرين من هامبورغ على سفينة اسمها *S.S. Passage to India*، قاصدة المنطقة الجبلية لمرتفعات واشنطن، أو كذلك افترض شنايدرمان، لكن لغته الإنكليزية كانت أقلّ من جيّدة في تلك الفترة، بل تكاد تكون معدومة، في الواقع، ما الذي يعرفه ولد ذو سبع سنوات عن أي شيء باستثناء

ما علّمه والداه؟ كانت اللغة العائق الأقسى، قال زوج أمّه، صعوبة تحدُّث الإنكليزية دون لكنة ألمانية، ما جعله يبقى كغريب، وأدّى إلى الهزء منه واللكمات الدائمة من قبَل صبيان مدرسته، لأنه لم يكن غريباً فحسب، بل ألمانياً، الأقلّ قدراً، الأكثر عرضة للاحتقار من البشرية في تلك السنوات بعد الحرب، الـ Kraut or Hun or Bosch or Heinie *كروت أو هان أو بوش أو* هيني الذين لا نفع منهم، اختر ما تريد، وحتّى حين وصل فهمه للإنكليزية إلى الإلمام العميق، حتّى حين توسّعت مفرداته، وألمّ بالفروق الدقيقة لقواعد اللغة الإنكليزية وتركيباتها، بقي يتلقّى النقد بسبب تلك اللكنة الخفية. *نَهْنُ نَزْهَبُ لِلشَّبَاهَةِ في الظَّيْفِ*(*) *يا آرتشي*؟ قال شنايدرمان على سبيل الشرح، ولأن شنايدرمان نادراً ما حاول أن يكون مضحكاً، قدّر فيرغسون هذه المحاولة الفكاهية، التي كانت في الحقيقة مضحكة جدّاً، فضحك، وبعد لحظة كانا يضحكان معاً.

واقع الأمر، قال شنايدرمان، معرفة الألمانية ربّما أنقذ حياتي.

عندما طلب منه فيرغسون التوضيح، بدأ زوج أمّه الكلام عن الحرب، عن التّطوّع في الجيش بعد بيرل هاربر، لأنه أراد العودة إلى أوروبا وقتل النازيين، لكنْ، لأنه كان أكبر من معظم الفتيان، ولأنه ذهب إلى الجامعة، وكان طليقاً في الألمانية والفرنسية، استُبعد عن القتال، وزُجَّ في وحدة استخبارات بدلاً من ذلك. وبالتالي، لا رصاص ولا قنابل لتضعه في قبر مبكّر. كان فيرغسون، بالطبع، متشوّقاً لمعرفة ماذا فعل في وحدة المخابرات، لكنْ، مثل معظم الرجال الذين عادوا إلى الوطن من الحرب، لم يرغب شنايدرمان بالكلام عنها. قال ببساطة، استجواب أسرى ألمان، مقابلة موظّفين نازيين، واستخدام لغتي الألمانية بشكل جيّد. عندما طلب فيرغسون منه التفصيل، ابتسم شنايدرمان، ربّت على كتف ابن زوجته، وقال، في وقت آخر، آرتشي.

إن كان هناك ثمّة سلبية في الوضع الجديد، فقد تمثّل في أن شنايدرمان ليس لديه أي اهتمام بالرياضة - لا البيسبول ولا كرة القدم، لا كرة السّلّة أو التنس، لا الغولف أو البولينغ أو الريشة. ليس الأمر أنه لم يلعب إحدى تلك الألعاب بنفسه فحسب، بل إنه لم ينظر أبداً إلى صفحات الرياضة، ما يعني أنه لا ينتبه إلى نجاحات أو إخفاقات أي من الفرَق المحلّيّة المحترفة، ناهيكَ عن فِرَق الجامعة وفِرَق المدارس العليا، وتجاهل إنجازات كل عدّاء سريع، مُحرز لرمية، لاعبِ قفز عالٍ، لاعب قفز طويل، عدّاء مسافات طويلة، لاعب غولف، متزلّج، رامي بولينغ، ولاعب تنس في العالم. واحد من أسباب عدم معارضة فيرغسون لفكرة زواج أمّه ثانية كان افتراضه أن زوجها الثاني سيكون بالضرورة رجلاً رياضياً، بما أنها مولعة بالسباحة والتنس والبينغ بونغ وحتّى البولينغ، وكان يتطلّع لأن يحظى برجل راشد في المنزل يمكنه مشاركته بعض النشاطات

*) يقلّد شنايدرمان لكنته الألمانية القديمة حين يقول: نحن نذهب للسباحة في الصيف.

الرياضية، إما رمي كرة بيسبول أو فوتبول أو كرة السّلّة أو لعبة التنس (لا يهمّ أي واحدة منها)، وحتّى لو اتّضح أن زوج والده الافتراضي ليس من النوع الرياضي، كان هناك فرصة ممتازة لأنْ يكون مشجّعاً لرياضة واحدة على الأقلّ، بما أن الرجال جميعهم كانوا كذلك، كما كان جَدّه مثلاً، الذي كانت رياضته البيسبول، وعندما لم يتحدّث الاثنان عن لوريل وهاردي ويتناقشان إن كانت الأفلام القصيرة أفضل من الأفلام الطويلة أو العكس، فإن معظم أحاديثهما كانت عن تحليل مزايا تتعلّق بـ مانتل، شنايدر، ومايز، ويشرحان موهبة آلفين دارك بضرب الكرة إلى مركز اليمين في الضربات الخاطفة، يناقشان مَنْ لديه الذراع الأقوى، فوريلو أو كليمنت، أو عن صحّة قصّة احتفاظ يوغي بيرا بنصل شفرة في واقي ساقه اليمين من أجل ضرب الكرة قبل أن يرميها ثانية إلى وايتي فورد. كل عام منذ عامه السادس إلى العاشر، حضر فيرغسون على الأقلّ ثلاث مباريات مع جَدّه، ضمن جولتهما السنوية في ملاعب البيسبول لمدينة نيويورك، الـ بولو غراوند في مانهاتن، يانكيز ستاديوم في برونكس، وإيبتس فيلد في بروكلن، حيث شاهدا مباراة وورلد سيريس معاً في 1955، ولكنْ، عدد ثلاثة كان الحدّ الأدنى، وبعد أن مات جَدّ فيرغسون وغادر دودجرز جاينتس البلدة، كان المجموع في الموسم ستّ أو سبع رحلات إلى يانكيز ستاديوم، *البيت الذي* شيّده روث، وكم استمتع فيرغسون بهذه المباريات في فترات ظهيرة تمّوز وآب المشمسة الحارقة، العيون مثبّتة على الملعب بعشبه الأخضر النظيف وتربته البنّيّة الناعمة، حديقة نموذجية محشورة في مدينة حجرية كبيرة ، مُتع ساذجة بين الصرخات الصاخبة وصفير الحشد، ثلاثون ألف صوت تُطلق بانسجام، ويا له من صوت! وخلال ذلك كله، كان جَدّه يُسجّل شيئاً بصبر بقلمه الرصاص القصير والثخين، متوقّعاً إن كان الرامي بالمضرب سينهي جولته حول القاعدة أم لا وفقاً لما دعاه قانون المتوسّطات، يعني أن ضارباً متراخياً كان مضطرّاً أن يسجّل ضربة، لأنه مُلزَم بها، ومهما كان عدد المرّات التي أخطأ فيها، لم يتزحزح جَدّه عن الإيمان بقانونه، قانونه الخاطئ من تنبّؤ الهراء. هذه المباريات كلها مع بابا الغريب والعَصيّ عن الفهم، والذي سيقي نفسه من الشمس في أحرّ الأيّام بنشر منديل أبيض على رأسه الأصلع، لأن الطقس كان حارّاً جداً لارتداء قبّعة، والآن وقد مات فهم فيرغسون أنه لا أحد أبداً سيحل مكانه، وآخر الجميع شنايدرمان، الذي ربّما كان النيويوركي الوحيد في أي من الأقسام الإدارية الخمسة الذي لم ينفطر قلبه عندما رحل الدودجرز والجاينتس إلى كاليفورنيا بعد موسم 1957.

كان عائقاً، إذنْ، وربّما حتّى خيبة أمل أن تتعامل مع شخص لا شعور لديه تجاه مسرّات أو حالات التنافس البدني، ولكنْ، بكل إنصاف مع شنايدرمان ، العكس كان صحيحاً أيضاً، فعدم قدرة فيرغسون العزف على آلة موسيقية أصبحت خيبة لزوج والدته، الذي كان بارعاً في كلّ من

البيانو والكمان، ليس بشكل احترافي، ربّما، ولكنْ، بالنسبة إلى أذن فيرغسون غير المدرّبة كان أداؤه في عزف باخ، موزارت، بيتهوفن، وشوبيرت بمثابة المعجزات العالية من الجمال والانضباط، متقن مثله مثل كلّ ما يُستمَع إليه من مئات الأسطوانات التي أحضرها شنايدرمان معه إلى غربي السنترال بارك. لم يكن الأمر أن فيرغسون لم يحاول، ولكن كفاحه لأن يُتقِن مبادئ العزف الصحيح على البيانو باءت بالفشل، على الأقلّ وفقاً لمعلّمته الآنسة ماغريدج العجوز ذات الشَّعْر المجعّد، التي ربّما عملتْ كساحرة عندما لم تكن تكسّر معنويات الأولاد الصغار المجبرين على تعلّم البيانو. بعد تسعة أشهر من الدروس عندما كان في الصّفّ الأوّل، أخبرت أمّه أنه كان *ولداً ثقيل اليد كالطين*، الذي أوصلها لأن تخلص إلى نتيجة أنها ربّما بدأت معه مبكّرة جداً (فلننس أمر أن موزارت مؤلف السيمفونيات بدأ عندما كان في السادسة والسابعة - ذلك لا يؤخذ بعين الاعتبار)، وعندما اقترحت على عازفها الفاشل الاستراحة لسنة قبل البدء مجدّداً مع معلّمة جديدة، ارتاح فيرغسون أنه لن يرى الآنسة ماغريدج ثانية. سنة الاستراحة كانت طبعاً سنة حريق نيوارك، وحالما انتقلا إلى نيويورك، ومرّا بالفترة الانتقالية الغريبة، كان الصغير في هيلارد، والكبيرة في شواش، والبيانو طيَّ النسيان.

وهكذا خيّب شنايدرمان أملَ فيرغسون، وخيّب فيرغسون أملَ شنايدرمان، ولكنْ، بما أن أحداً منهما لم يتكلّم عن الأمر للآخر، بقي كلاهما غير واعٍ لخيبة الآخر. أخيراً، عندما أصبح فيرغسون مهاجماً أمامياً في فريق كرة السّلّة لليافعين، بدأ شنايدرمان بإظهار بعض الاهتمام بالرياضة، على الأقلّ إلى درجة الذهاب إلى عدّة مباريات مع فيرغسون، حيث شجّع ابن زوجته من المدرّجات، لكن فيرغسون لم يتعلّم أبداً العزف على آلة موسيقية. مع ذلك، يمكن القول بثقة إن فيرغسون استفاد أكثر من انشغال زوج أمّه بالموسيقى أكثر ممّا فعل شنايدرمان من موهبة ابن زوجته برمي الكرات في الحلقات، واعتراض الخصوم لصدِّ الكرة. في سنته الثانية عشرة والنصف، لم يكتسب فيرغسون شيئاً عن الموسيقى باستثناء الروك أند رول، التي عبدها هو ورفاقه جميعاً.

كان رأسه مليئاً بكلمات شاك بيري، بادي هولي، ديل شانون، فاتس دومينو، والعشرات من مغني البوب وألحانهم، ولكنْ، عندما يصل الموسيقى الكلاسيكية يصبح غِرّاً، ناهيكَ عن الجاز، البلوز، إحياء الموسيقى الشعبية الحديثة، التي كان جاهلاً بها بالمطلق أيضاً، باستثناء بعض الأغاني الهزلية لـ كينغسون تريو، الفريق الذي كان ذائع الصيت آنذاك. لقد غيّرت معرفته بـ شنايدرمان كل شيء. بالنسبة إلى الصبي الذي حضر حفلتي موسيقى في حياته كلّها (أداء يسوع *المخلِّص* لـ هاندل في قاعة كارنيغي مع الخالة ميلدرد والعمّ بول، وعرضاً صباحياً لـ بيتر *والذئب*، الذي رآه مع رفاق المدرسة الابتدائية ضمن شهره الأوّل في هيلارد)، كان صبياً لم يمتلك

أسطوانة واحدة لموسيقى كلاسيكية، ولم تمتلك أمّه أسطوانة واحدة من أي نوع، بل كانت تستمع إلى النماذج القديمة وأعمال الفِرَق الكبيرة على الراديو، فبالنسبة إلى صبي مثله افتقر إلى أقلّ لمحة من معرفة الرباعيات الوترية أو السيمفونيات أو المعزوفات القصيرة، يصبح مجرّد الاستماع إلى جَدّه يعزف البيانو أو الكمان بمثابة الإلهام، وأما الإلهام الأقصى، فتجلّى في الاستماع إلى أسطوانات زوج أمّه واكتشاف أنه يمكن للموسيقى في واقع الأمر إعادة ترتيب الذرّات في دماغ الإنسان، وبالإضافة ما كان يحصل في شقق غربي السنترال بارك وجادّة ريفرسايد، كان هناك النزهات مع أمّه وشنايدرمان إلى قاعة كارنيغي وتاون هول ودار أوبرا المتروبوليتان التي أقلعت بعد أسابيع قليلة من استقرار الثلاثة معاً. لم يكن شنايدرمان في مهمّة تربوية، ولم يكن هناك خطّة لإعطاء الصبي أو أمّه دروساً رسمية في الموسيقا، لم يرد أكثر من تعريفهم بأعمال ظنَّ أنهم سيتفاعلون معها، الذي لم يعنِ البدء بـ مالر أو شونبرغ أو ويبيرن، ولكنْ، من خلال أعمال مرحة مبهجة مثل *افتتاحية 1812* (ذهل فيرغسون عندما سمع القانون لأوّل مرّة) أو مقطوعات مسرحية مثل سيمفوني *فانتاستيك* أو برنامج الموسيقى الحيوي صور في معرض، ولكنْ، رويداً رويداً اجتذبهم، ولم يطل الأمر حتّى أصبحوا يرافقونه إلى أعمال أوبرا لـ موزارت وعزف تشيللو منفرد لـ باخ، وبالنسبة إلى فيرغسون ابن الثانية عشرة والثالثة عشرة، الذي استمرّ بعشق الروك أند الرول، وسيعشقها دائماً، لم تكن هذه الليالي في قاعات الحفلات كانت أقلّ من كشف لمكنونات قلبه، لأن الموسيقى كانت القلب كما أيقن، التعبير الأكمل عن القلب الإنساني، والآن وقد سمع ما سمع، بدأ بالاستماع أفضل ممّا سبق، وكلّما سمع أفضل، شعر بعمق أكثر - أحياناً بعمق يبعث في جسده الارتعاش.

***

كان آل إدلر يتناقصون. يقضون واحداً تلو الآخر في ميتات مبكّرة، ويغيبون عن العالم، ومع انتقال الخالة ميلدرد إلى كاليفورنيا وإقصاء العمّ الأسبق بول من العائلة، مصحوباً بالانتقال إلى فلوريدا الجنوبية مع ابنة العمّ بتي وزوجها سيمور (وأبناء عمومة فيرغسون البعيدين إريك وجودي)، والواقع أن شارلوت أخت بتي ما زالت تقاطع قريبتها روز بسبب حرب صور الزفاف في 1955 و1956، كان فيرغسون وأمّه الـ إدلريَين الوحيدين في نيويورك، الوحيدين فوق التراب اللذين لم يهربا أو يحطّما روابطهما بالعشيرة. بالرغم من هذه الخسارات كلها، دخل حياتهما دم جديد على شكل مجموعة أعضاء من عائلة شنايدرمان، مجموعة من الأخوات والأقرباء، والعمّة، والعمّ، وجَدّ لـ فيرغسون من ناحية زوج أمّه، والذي تُرجم لوالدته، كـ ابنتي زوجها، ابنة أخ، وابن

أخ، أخت زوجها، وأخ زوجها، ووالد زوجها، ليشكّل هؤلاء الـ شنايدرمانيون كتلة العائلة التي انتموا إليها الآن، لأن موظّفاً مدنياً وقّع وختم شهادة زواج، تعلن جيل وأمّه زوجاً وزوجة مقترنين قانونياً. كان تغييراً غريباً كما قال جَدّ فيرغسون في واحد من أحاديثهم الأخيرة معاً، وبالفعل كان غريباً أن يحظى المرء بأختين بسبب الزواج، امرأتين مجهولتين أصبحتا فجأة أقرب الأقرباء، لأن رجلاً كان مجهولاً بالقدر نفسه بالنسبة إليه قد وقّع اسمه على قطعة ورق. لا شيء من هذا سيهمّ لو أحبّ فيرغسون مارغريت وإيلا شنايدرمان، ولكنْ، بعد مقابلاته كلها مع أختيه الجديدتين، انتهى إلى أن هاتين الفتاتين السمينتين والدميمتين المتعاليتين لم تستحقّا الحبّ، إذ سرعان ظهر امتعاضهما من أمّه لزواجها بأبيهما واشمئزازهما حيالَ والدهما لخيانته ذكرى والدتهما، التي كانت كائناً مقدّساً بعد موتها المروّع في ذلك الحادث في تاكونيك ستيت باركوي. حسناً، لقد مات والد فيرغسون ميتة مروّعة، أيضاً، الأمر الذي وضعهم جميعاً نظرياً على المركب نفسه، ولكن الأختين شنايدرمان لم تهتما بأخيهما الجديد، بالكاد تكرّمتا بالكلام مع النكرة ابن الثانية عشرة، فتاتا الكلّيّة الكبيرتان من جامعة بوسطن لم تجدا فائدة تُرجَى من ابن المرأة ذات الأصل الوضيع التي سرقت والدهما منهما، ورغم حَيْرة فيرغسون من سلوكهما في الزفاف - الاثنتان تنتحيان ركناً، ولا تتكلّمان مع أحد إلا مع بعضهما، همساً غالباً، وغالباً ما كانتا توليان ظهريهما للعروس والعريس - لم يكد يمضي أسبوعان، عندما دُعيتا إلى العشاء في شقّة نيويورك، حتّى أدرك فيرغسون كم هما لئيمتان ومقرفتان، خصوصاً مارغريت، الكبيرة، بالرغم من أن الصغرى، الأقلّ شناعة، إيلا سارت على خطى أختها بثبات، ما كان أكثر سوءاً، وهناك كان الخمسة في عشاء لن ينسى أبداً، والذي استغرقت أمّه عدّة ساعات لتحضيره، رغبةً منها بإثبات وحدة الحال مع جيل عن بإرهاق نفسها من أجل ابنتيه، الفتاتين الشّرّيرتين الفظّتين اللتين تظاهرتا بعدم سماع أمّه عند سؤالها أسئلة عن حياتهما في بوسطن، وما هي خططهما بعد الجامعة، اللتين ضحكتا بوقاحة على مدى معرفتها بالموسيقى، والتي كانت أقرب للصفر طبعاً، كأنهما تثبتان لأبيهما أنه تزوّج امرأة سطحية غير مثقّفة، وعندما سألت مارغريت زوجة أبيها الجديدة إن كانت تفضّل الاستماع لمعزوفات البيانو لـ باخ على الهاربسكورد كما تعزفها واندا لاندوسكا، مثلاً، أو على البيانوفورت من شخص مثل غلين غولد (ليس بيانو، بيانوفورت)، انفجر جيل أخيراً، وأخبرها أن تخرس، كفّ مفتوحة خبطت على طاولة العشاء، لتهزّ الأواني الفضية، وتقلب إحدى الكؤوس، ثمّ حلّ صمت، صمت ليس من مارغريت فحسب، بل من الجميع في الغرفة.

توقّفي عن ملاحظاتك السّامّة الحادّة، قال شنايدرمان لابنته. لم أعلم أنكِ قادرة على إبداء حدّة لئيمة كهذه، قسوة شرّيرة كهذه، يا مارغريت. عار عليكِ. عار عليكِ. عار عليكِ. روز هي

فنّانة كبيرة وعظيمة، وإذا تدبّرتِ إنجاز عِشر ما فعلته في حياتكِ، ستتجاوزين أكثر آمالكِ جموحاً. لكن الشخص يحتاج إلى روح، ليُنجز حتّى أصغر شيء في هذا العالم، يا عزيزتي، ومن الطريقة التي كنتِ تتصرّفين بها الليلة، بدأتُ أتساءل إن كنتِ تملكين تلك الروح.

كانت أوّل مرّة شهد فيرغسون غضب زوج أمّه، الذي كان نوعاً من الغضب الصارخ المُفحِم، غضب بقوّة عاتية ومدمّرة من النوع الذي يمكن لـ فيرغسون فقط أن يأمل بألا تتوجّه نحوه أبداً، ولكنْ، كم كان مُرضياً رؤية هذه القوّة توجَّه نحو مارغريت تلك الليلة! مارغريت التي استحقّت تماماً ذلك التوبيخ الوحشي من أبيها، وكم كان سعيداً أن يعلم أن شنايدرمان كان راغباً بالدفاع عن زوجته الجديدة في وجه هجوم ابنته، *فنّانة كبيرة وعظيمة*، ما يُبشّر جيّداً بمستقبل مستقرّ للزواج كما شعرَ، وعندما لم تجد مارغريت بدّاً من الانهيار بالبكاء، واعترضت إيلا الدامعة قائلة إنه لا حقّ له بالتّحدّث مع أختها بتلك الطريقة، سمع فيرغسون أمّه تنطق عبارة، تنطق للمرّة الأولى عبارة سيُستمرّ باستخدامها كلّما فقد شنايدرمان السيطرة على مزاجه في الأشهر والسنوات القادمة، *الهدوء يحلّ الأمر، يا جيل*، والتي بطريقة ما نجحت بأن تحمل وزر كلّ من التنبيه والملاطفة، وفوراً بعد سماع أمّه تقول تلك الكلمات للمرّة الأولى، نهضت عن على كرسيها، واتّجهت نحو زوجها، الرجل الذي تزوّجته منذ ستّة عشر يوماً، وقفت خلفه وهو لا يزال جالساً على كرسيه في مقدّمة الطاولة، وضعت يداً على كلّ من كتفيه، وانحنت وقبّلته على رقبته من الخلف. تأثّر فيرغسون بشجاعتها ورباطة جأشها، التي جعلتْه يفكّر بشخص يخطو في قفص فيه أسد، ولكنْ، من الواضح أن أمّه عرفت ما فعلته، لأنه بدلاً من دفعها بعيداً، امتدّ شنايدرمان، ولفّ يده اليمنى حول يدها، وحالما أمسكها بيده، سحبها إلى فمه، وقبّلها. حتّى إنهما لم ينظرا إلى بعضهما، وسكنت نوبة الغضب، في حين بقيت مسألة اعتذار يجب أن يُقدَّم حصل عليه شنايدرمان الصارم الصوت من مارغريت المعارضة الباكية، التي بالكاد أرغمت نفسها على النظر إلى زوجة أبيها، ولكنها نطقتْ بالكلمات، قالت، أنا آسفة، ولكن الانفجار حصل عند تقديم الحلويات (فراولة وكريما!)، كانت الوجبة منتهية بطبيعة الحال، ما سمح للأختين بالقيام بمغادرة مستعجلة لحفظ ماء الوجه، بعذر أن لديهما موعداً في التاسعة لرؤية بعض الأصدقاء من الثانوية، الذي عرف فيرغسون أنه كذب، إذ كان يفترض بالفتيات أن تمضيا الليلة في الشّقّة، وتناما في غرفة نومه بينما ينام هو على الأريكة في غرفة المعيشة، أريكة بسرير قابلة للطّيّ، اشترتها أمّه خصّيصاً لهذا السبب، ولكن ذلك لم يحصل أبداً، لا تلك الليلة ولا أي ليلة أخرى، لأنه في الزيارات المستقبلية كلها إلى نيويورك بقيت الفتاتان مع أخ أمّهما/ خالهما وزوجته في ريفرديل، وإن أراد شنايدرمان رؤيتهما، فعليه الذهاب إلى الشّقّة الأخرى أو

يقابلهما في أماكن عامّة، ولكنْ، لم تعودا مرّة واحدة إلى الشّقّة في غربيّ السنترال بارك، ثمّ مضت سنوات، قبل أن تدوسا عتبة الشّقّة الجديدة المطلّة على النهر.

لم يهتمّ فيرغسون. لم يرد أيّة علاقة مع هاتين الفتاتين، تماماً كما لم يرد أي علاقة مع والد شنايدرمان، الذي أتى لسوء الحظّ للعشاء منذ حوالي شهر، وأطلق أنواع التفاهات كلها عن السياسة الأمريكية، الحرب الباردة، عمّال الصرف الصّحّيّ في نيويورك، الفيزياء الكمّيّة، وحتّى فيرغسون نفسه، انتبهي لولدكِ، عزيزتي - إنه مهووس بالجنس، حتّى إنه لا يدري ذلك بعد، ولكن فيرغسون فعل ما بوسعه ليتجنّبه، تأكّد دائماً من التهام وجبته الرئيسة بسرعة في وقت قياسي، ومن ثمّ الادّعاء بأنه ممتلئ جدّاً ليأكل الحلوى، اللحظة التي سينسحب فيها إلى غرفته، ليدرس من أجل اختبار التاريخ غداً، الذي كان قد أنجزه بطبيعة الحال في تلك الظهيرة. كان (لا جَدّه) الجديد أقلّ سوءاً بقليل من مارغريت وإيلا، ربّما، ولكنْ، ليس كثيراً، ليس ما يكفي لأن يجعل فيرغسون يرغب بالجلوس والاستماع إلى خطبه الغريبة المعتوهة عن معسكرات اعتقال ج. إدغار هوفر السّرّيّة في أريزونا أو الحلف بين تجمّع جون بيرش والحزب الشيوعي لتسميم شبكة المياه لمدينة نيويورك، التي يمكنها أن تكون مضحكة بطريقة غريبة نوعاً ما، لو لم يصرخ العجوز كثيراً، ولكن الدقائق العشرين أو الثلاثين في حضوره كانت كل ما استطاع فيرغسون تحمّله. ذلك جعل من تحمّله ثلاثة أقرباء حديثين مسألة تفوق طاقته، ثلاثة من آل شنايدرمان يمكنه الاستغناء عنهم بسرور، ثمّ هناك أفراد الـ شنايدرمان الآخرون، الأشخاص الذين عاشوا فقط على مبعدة ثلاثة عشرة ونصف كتلة في شارع وست75، وبالرغم من أنه وجد من الصعب التعاطف مع عمّته الجديدة ليز، التي صدمته كامرأة مهتاجة عصبية، أكثر قلقاً بخصوص تفاصيل الحياة اليومية من أن تفهم أن الحياة قد تمضي بكَ قبل أن تبدأ عيشها، وأولع فوراً بأخ شنايدرمان، دانيال، والشّابّين من آل شنايدرمان، قريبيه جيم وإيمي، اللذين رحّبا بفيرغسون من البداية، وظنّا أن العمّ جيل كان *ابن عاهرة محظوظاً* (كلمات جيم)، ليتزوّج امرأة مثل والدة فيرغسون، والتي (بكلمات إيمي) كانت "*كاملة مكمَّلة*".

عمل دانيال كفنّان تجاري، وأحياناً رسّام كُتُب الأطفال، وموظّف مستقلّ ومتعدّد الأعمال الذي أمضى ثمان إلى عشر ساعات يومياً في غرفة صغيرة خلف شقّة العائلة التي حُوّلت إلى استوديو، معرض صغير فوضوي بضوء خافت، حيث أنتج الرسومات واللوحات لبطاقات التهنئة، الإعلانات، التقاويم، الكتيبات الشركات، والرسومات المائية لسلسلة الدّبّ تومي في إطار مشاركاته مع الكاتب فيل كونستانزا، ليجنيَ من المال ما يكفي لطعام عائلة من أربعة أشخاص وكسوتهم وسكنهم، ولكنْ، لم يبقَ شيء يمكن تبذيره مثل تمضية عطل صيفية طويلة أو مدارس خاصّة للأولاد. كان عمله بارعاً ومحترفاً، يحمل لمسة اليد الماهرة والمخيّلة الغريبة، وبالرغم من

عدم خلْقه ما هو مبتكَرٌ جدّاً في ما فعله، إلا أنه لم يكن أبداً أقلّ من ساحر، كلمة استخدمت لتصف دانيال شنايدرمان نفسه، الذي اتضح أنه واحد من أكثر الأشخاص تواضعاً ومرحاً الذين قابلهم فيرغسون أبداً، شخص أحبّ الضحك، ويضحك على الدوام، وبشكل عامّ هو نوع من الناس مختلف عن شقيقه الأكبر، هو الصغير الذي لم يضطرّ لمغالبة اللكنة الألمانية، الوسيم، غير الجدّيّ، *الشخص الذي أحبّ الرياضة*، كما فعل قريبه جيم، جيم الطويل، النحيل، لاعب كرة السّلّة، الذي بدأ لتوّه سنته الأولى في مدرسة هاي برونكس العليا عندما تزوّج جيل ووالدة فيرغسون، وحالما عرفت المجموعة الذكرية الأخرى من آل شنايدرمان أن قريبهم/ ابن أختهم الجديد كان مهتمّاً بكرة السّلّة مثلهم، أصبح الثنائي ثلاثياً، وكلّما ذهب دان وجيم لمشاهدة مباراة في الغاردن، تلك كانت الغاردن القديمة، حديقة ماديسن المهدّمة الآن التي كانت على الجادّة الثامنة بين شارعي الـ 49 و50، وحدث أن اصطُحب فيرغسون لمشاهدة مباراته الأولى لكرة السّلّة خلال موسم 60-1950، ضمن المباريات الجامعية الثلاثية لظهيرة السبت، عروض هارلم غلوبتروتر، وضربات ريشي غورين السّيّئة والمتوسّطة، ويلي نولز، وجوني غرين القافز، ولكنْ، كان هناك ثمانية فِرَق فقط في الـ NBA حينها، ما يعني أن بوسطن سيلتيكس لعبوا في الغاردن على الأقلّ نصف دزّينة في الموسم، وهذه كانت المباريات التي قصد حضورها الثلاثي، وحيث إن أحداً لم يلعب أفضل من فريق كوسي، هينسون وراسل وفتيان جونز، وكانوا عقلاً واحداً من خمسة أجزاء في حركة مستمرّة، وعي واحد، لاعبين غير أنانيين مطلقاً فكرّوا بالفريق فقط، وليس بأنفسهم، *كرة السّلّة كما يجب أن تُلعَب*، كما كان العمّ دان يردّد مراراً حين يشاهدهم، نعم، فمن المذهل مشاهدة كم تفوّقوا على النيكس، الذين بدوا غرباء وكسالى مقارنةً بهم، ولكنْ، بقدر ما أُعجب فيرغسون بالفريق ككل، بقدر ما أسره لاعب واحد متميّز، وسلب انتباهه كله. مفتول العضلات نحيل مثل سلك، بيل راسل، الذي بدا دائماً في لبِّ ما فعله السيلتيكس، الشخص الذي بدا عقله يحمل العقول الأربعة داخلَ رأسه، أو رجل وزّع عقله بطريقة ما على رؤوس الرفاق في فريقه، لأن راسل كان يتحرّك بغرابة، ولم يظهر كرياضي، كان لاعباً محدوداً، نادراً ما سدّد أو سجّل نقاطاً، أو حتّى تدرّج بالكرة، كان يعيق ارتدادات هامّة أخرى، يجعل من وثبة أمراً آخر مستحيل التّحقّق، ويقف حائلاً دون تسديدة أخرى، وبسببه تابع السيلتيكس الفوز بمباراة بعد مباراة وموسماً بعد موسم، ليبقوا أبطالاً أو منافسين لبطولة جديدة كل سنة، وعندما سأل فيرغسون جيم ماذا جعل راسل عظيماً هكذا رغم أنه كان من نواحٍ عديدة أقلّ من الجيّد؟ توقّف جيم لدقيقة ليفكّر، هزّ رأسه وأجاب، لا أعرف، يا آرتشي، ربمّا هو أذكى من الجميع فقط، أو ربمّا لأنه يرى أكثر ممّا يفعل الآخرون، ودائماً يعرف ما سيحدث تالياً.

جيم الطويل النحيل كان الاستجابة لصلوات عمْر فيرغسون، الأُمنيّة بأخ أكبر، أو على الأقلّ بقريب - صديق أكبر يمكن أن يتطلّع إليه، ليستمدّ القوّة منه، ابتهج فيرغسون بعلاقتهما، بطريقة بدا أن جيم ابن السادسة عشرة لن يتوانى عن احتضان قريبه الأصغر كرفيق، فهم قليلاً أن جيم، بوجود أخت وفتاتين قريبتين (ابنتي عمّه)، لا شكّ اشتاق لأخ كما فعل هو. في السنتين اللتين سبقتا تخرّج جيم من الثانوية وذهابه ليدرس في MIT (معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا)، أصبح شخصية أساسية في حياة فيرغسون المتمرّد المضطرب دائماً، الذي كان ينجح في صفوفه في ريفرسايد أكاديمي، ولكنه بقي يعاني من مشكلة *الموقف المسبّق* (الردّ على معلّميه، سرعة الانفعال عندما يُستفَزّ من تافهين مثل بيلي ناثانسون)، لكنْ، كان هناك جيم، الذي تمتّع بالجدّيّة والمعنويات العالية كلها، الصبي الذي يهوى الرياضيات والعلوم، ويحبّ الحديث عن الأرقام غير المنطقية والثقوب السوداء والذكاء الاصطناعي والمعضلات الفيثاغورثية، دونما غضب يعتمل في داخله، ولا حتّى كلمة فظّة أو إيماءة مشاكسة تجاه أي شخص، وبالتأكيد فإن شخصاً مثله قد ساعد بتقليص الحدّة في سلوك فيرغسون نوعاً ما، وهناك أيضاً كان جيم يعطي فيرغسون الحقائق الأساسية عن التشريح الأنثوي، وماذا يتصرّف بخصوص مشكلة *هوس الجنس* الأكثر إلحاحاً (حمّامات باردة، مكعّبات ثلج على الأير، ركض ثلاثة أميال حول الحلبة)، والأجمل أن جيم كان هناك في ملعب كرة السلّة معه وهو طالب السنة الأولى في الثانوية بطول خمس أقدام وأحد عشر بوصة، مع طالب سنة التّخرّج بطول ستّ أقدام وبوصة واحدة الذي كان يتلاقى مع فيرغسون صباحات يوم السبت في منتصف المسافة بين شقّتيهما، ويمشي إلى ريفرسايد بارك برفقته، وهناك وجدا ملعباً فارغاً يتدرّبان فيه معاً لمدّة ثلاث ساعات، السابعة تماماً كل سبت ما دام الطقس مواتياً لهما، رذاذ المطر مقبول، ولكنْ، ليس الزخّات القوية، هبّات الثلج، ولكنْ، ليس المطر الثلجي أو الثلج الثقيل، وليس ثمّة ما يفعله المرء حيال تدنّي درجات الحرارة تحت 25 درجة (أصابع متجمّدة) أو ارتفعت فوق 95 درجة (إنهاك حراري)، أي أنهما كانا هناك معظم أيّام السبت، إلى أن جهّز جيم حقائبه، وغادر إلى الجامعة. لا مزيد من هرولة السّيّد فيرغسون الشّابّ إلى جانب أمّه في رحلات التصوير نهايةَ الأسبوع، تلك الأيّام انتهت للأبد، ومن الآن فصاعداً ستكون كرة السّلّة، التي اكتشفها في الثانية عشرة عندما لم تعد الكرة أكبر وأثقل من أن يتحكّم بها، وفي الوقت الذي بلغ فيه الثانية عشرة ونصفاً أصبحت شغفَ حياته الجديد، أفضل شيء بعد الأفلام وتقبيل الفتيات، ويا له من حظّ أن جيم وصل إلى المشهد في ذلك الوقت بالضبط، والرغبة تملؤه بأن ينذر ثلاث ساعات كل أسبوع ليعطيه التعليمات عن الطريقة التي يلعب بها، يا له من تحوّل عجيب! لقد كان الشخص المناسب في الوقت

المناسب - كيف حصل ذلك؟ - ولأن جيم كان لاعباً متيقّظاً وجيداً، جيّد ما يكفي لأن يشكّل فريقه في المدرسة العليا إذا اختار المضي في الأمر، كان معلّماً بارعاً فيما يتعلّق بالأساسيات، ورويداً رويداً أرشد فيرغسون عبر التمرينات الأساسية إلى كيفية تنفيذ خطّة مناسبة، كيف يحرّك قدمه للدفاع، كيف يمنع الارتدادات، كيف يرمي رمية عابرة، كيف يرمي رميات حرّة، كيف يميل بالكرة عن اللوح الخلفي، كيف يطلق الكرة بارتفاع أعلى عندما يقوم بقفزة تسديد، أشياء كثيرة ليتعلّمها، الجري والكرة بيده اليسرى، تشتيت الانتباه، إبقاء ذراعيه عالياً في الدفاع، ومن ثمّ ألعاب O-U-T وO-R-S-E في نهاية كل جلسة، التي تحوّلت إلى مباراة لاعب مقابلَ لاعب.

في السنة الثانية، حين نما جسم فيرغسون إلى خمسة أقدام - أربع بوصات، خمسة - ستّ، وخمسة - سبع، كان يخسر دائماً مقابل جيم الأطول والأكثر خبرة، ولكنه يبدأ بتدبّر أمره بعد عيد ميلاده الرابع عشر، أحياناً يمتلك من المهارة ما يكفي لإرسال الكرة بخمس أو ستّ قفزات عبر الحواف خاليةِ الشبك لريفرسايد بارك، الحواف العارية نفسها التي توجد في كل منتزه عامّ عبر المدينة، ولأنهما لعبا وفق قاعدة نيويورك للفائزين، كلّما مضى فيرغسون في رمية من رمياته الصاخبة، اقترب بشكل حادّ من عدم الخسارة. كما قال جيم بعد واحدة من آخر مبارياتهما التي لعباها معاً: أعطِ نفسكَ سنة أخرى، يا آرتشي، لتصبح أطول ببوصتين أو ثلاث، وستركل مؤخّرتي عن الملعب. قال هذه الكلمات بفخر المعلّم الذي علّم تلميذه جيّداً. ومن ثمّ كانت بوسطن والوداع، الذي حفرَ ندبةً جديدة في قلب فيرغسون.

خلال سنة ونصف من زواج أمّه بـ جيل، جمع فيرغسون معلومات كافية عن آل شنايدرمان، ليصل إلى بعض استنتاجات قاطعة تخصّ عائلته الجديدة. في العمود الأيسر لسجلّه الوجداني وضع أسماء ثلاث خيبات ونصف خيبة واحدة: البشعات المحظور ذكرهنّ عدد (2)، الأبّ البطريرك المعتوه (1)، وطيّبة النوايا، لكنْ، المتقلّبة والمنفعلة العمّة ليز (½). وفي العمود الأيمن كانت أسماء الأربعة الآخرين: الجدير بالإعجاب جيل، الدمث دان، المتّقد جيم، والجذّابة أكثر فأكثر إيمي. باختصار، احتسب ثلاث سلبيات ونصف مقابل أربع إيجابيات، الذي أثبت رياضياً أنه كان هناك ما يمتنّ له أكثر ممّا يتجهّم بسببه، وبرحيل آل إدلر كلهم عن الحياة، وغياب آل فيرغسون كلّيّاً الآن (العمّ ليو في السجن، العمّة ميلي في مكان ما في فلوريدا، العمّ أرنولد والعمّة جوان في لوس أنجلس، ابنة العمّ فرانسي في سانتا باربارة - متزوّجة وأمّ لولدين - وأما أقرباؤه الآخرون، فمنتشرون على امتداد البلاد، وليسوا على اتّصال بعد الآن)، كان الـ شنايدرمانيون الطّيّبون الأربعة كلَّ ما بقي لفيرغسون بشكل أساسي، ولأن واحداً منهم كان متزوّجاً من أمّه والثلاثة الآخرين يقيمون على بعد عدّة دقائق فقط من ريفر درايف، حيث يعيش، فقد أصبح فيرغسون

أكثر تعلّقاً بهم، لأن الإيجابيات في سجلّ عائلته كانت أكثر إيجابية ممّا كانت السلبيات سلبيةً، وحتّى لو شابَ النقصُ حياتَه ببعض النواحي، إلا أنها تعزّزت في أخرى.

كانت إيمي هبةَ آل شنايدرمان، هدية عيد الميلاد المخبّأة تحت كومة من ورق الهدايا المكدّس التي لا يُعثَر عليها إلا بعد نهاية الحفلة وذهاب الضيوف كلهم إلى بيوتهم. كان خطأ فيرغسون أنه لم يُولِها المزيد من الانتباه، ولكنْ، كان هناك الكثير من الأمور التي توجب أن يتكيّف معها في البداية، ولم يعرف ما العمل مع المخلوقة الخرقاء المكشِّرة التي كانت تهزّ وتلوّح بذراعيها عندما تتكلّم دون أن تتمكّن من الجلوس هادئة. فتاة غريبة المظهر للغاية بجهاز التقويم على أسنانها، وذلك الرأس ذي الشَّعْر الأشقر الداكن المتشابك، ولكنْ، بعد ذلك انتهى التقويم، وقُصَّ الشَّعْر قصّة بوب قصيرة، وفي الوقت الذي بلغ فيرغسون الثلاثة عشرة لاحظ أن نهدين بدءا ينموان داخل حمّالة صدر المراهقات عديمة الجدوى سابقاً بالنسبة إلى آمي، وأنها لم تعد تشبه بعد الآن الفتاة التي كانت في الثانية عشرة. بعد أسبوع من الانتقال من غربي السنترال بارك إلى ريفرسايد درايف، اتّصلت ذات يوم بعد المدرسة، وأعلنت بجرأة أنها قادمة لزيارة فيرغسون. عندما سألها لماذا أرادت رؤيته؟ قالت: لأننا نعرف بعضنا منذ ستّة أشهر، وطوال ذلك الوقت لم تقل لي أكثر من ثلاث كلمات. يُفترَض أننا أقارب الآن، يا آرتشي، وأريد أن أعرف إن كان يستحقّ العناء أن نكون أصدقاء أو لا.

كانت أمّه وزوجها في الخارج خلال فترة بعد الظهر تلك، ولم يكن من وجبة خفيفة في الخزانة سوى علبة نصف فارغة من تين نيوتن المملح، شعر فيرغسون بالارتباك، ولم يدرِ كيف يتعامل مع هذا التّطفّل المفاجئ. بعد أن أغلقت إيمي الهاتف في شقّتها، مضت ثماني عشرة دقيقة بالضبط قبل أن تضغط صفّارة أسفل السّلّم لشقّته، ولكنْ، خلال ذلك الفاصل الذي قلّب فيه فيرغسون الأمر، وصرف عن ذهنه على الأقلّ نصف دزّينة أفكار ممّا يمكنه فعله ليسلّيها (يتفرّجان على التلفاز؟ يشاهدان إلى ألبوم العائلة؟ يريها الأعمال المسرحية والشِّعْرية الكاملة لشكسبير ذات السبع وثلاثين مجلّداً التي أهداها جيل له في عيد ميلاده؟)، ثمّ قرّر سحب عارض الأفلام والشاشة المحمولة من خزانة الأدوات وتركيبهما لمشاهدة واحد من أفلام لوريل وهاردي، ما كان ربّما خطأً فادحاً، كما أدرك، بما أن الفتيات لا يفضّلنَ لوريل وهاردي، على الأقلّ ليس من بين الفتيات اللواتي عرفهنّ، بدءاً من الجميلة إيزابيل كرافت منذ سنتين أو ثلاث مضت، التي كشّرت عندما سألها ما رأيها بهما، وجهة نظر تردّدت مؤخّراً من قبَلِ البنت ذات الأولوية بالنسبة إليه الآن، راشيل مينيتا، التي نعتت الأدوات بـ*ال صبيانية والغبية*، ولكنْ، عندما دخلت إيمي في وقت بعد الظهر البارد في آذار 1960، ترتدي بلوزة بيضاء وتنّورة بِطيّاتٍ رمادية

وحذاء جلدياً ملوّناً وجوارب قطنية بيضاء - جوارب الشرطي الرائجة - وحين أعلن فيرغسون نيّته بعرض *بلوتو* لها، فيلم من بكرتين من 1930، ابتسمت وقالت: عظيم. أحبّ لوريل وهاردي. بعد الأخوين ماركس، إنهما أفضل فريق على الإطلاق. انسَ *المضحكون الثلاث*، انسَ *آبوت وكوستيلو* - ستان وأُولي هما الأهمّ.

لا، لم تكن إيمي واحدة من الفتيات الأخريات اللواتي عرفهنّ، وبينما راقبها فيرغسون تضحك على الفيلم، سمعها تضحك خلال الفيلم لأربع عشرة دقيقة من الدقائق السّتّ والعشرين التي استغرقها العرض، خلص إلى أنه أمر يستحقّ العناء أن يصبح صديقها، لأن ضحكها لم يكن ضجّة طفل صاخبة خارجة عن السيطرة كما لاحظ، بل سلسلة متوالية من القهقهات العميقة الرّنّانة، الطالعة من العمق بالتأكيد، ولكنْ، الرصينة، في الوقت نفسه، كما لو أنها تفهم ما الذي يضحكها، الذي جعل ضحكتها ضحكة ذكية، ضحكة ضحكت على نفسها كما ضحكت على ما كانت تضحك عليه. من سوء الحظّ أنها ارتادت مدرسة عامّة، وليس ريفرسايد أكاديمي، الأمر الذي قلّل احتمال التواصل اليومي، ولكنْ، على الرغم من انشغال كلّ منهما بأصدقائه الخاصّين، وعلى الرغم من نشاطاتهما المتنوّعة بعد المدرسة (بيانو ودروس رقص لإيمي، رياضة لفيرغسون)، فقد تدبّرا أن يكونا معاً مرّة كل عشر أيّام أو نحوها بعد زيارة إيمي المرتجلة في آذار، والتي أصبحت ثلاث أو أربع مرّات في الشهر، دون إحصاء أوقات تلاقيهما الإضافية في النزهات العائلية وعشاء العطلات وزيارات قاعة كارنيغي مع جيل، والمناسبات الخاصّة (حفل تخرّج جيم في المدرسة العليا، عيد ميلاد الأبله العجوز الثمانين)، ولكنْ، أغلب الوقت كان يتقابلان وحدهما، يمشيان عبر منتزه ريفرسايد عندما يكون الطقس مناسباً، ويجلسان في واحدة من شقّتيهما عندما تسوء أحواله، أحياناً يذهبان إلى السينما معاً أو يعملان جنباً إلى جنب على وظائفهما المدرسية على الطاولة نفسها أو يتسكعان معاً في واحدة من شقّتيهما ليلة الجمعة لمشاهدة البرنامج التلفزيوني الجديد الذي تحمّسا له (*منطقة الضوء*)، لكنْ، غالباً عندما يخلوان إلى بعضهما كانا يتكلّمان، أو تتكلّم إيمي ويستمع فيرغسون، لأنه لم يعرف مَن امتلكَ ما يقوله عن العالم أكثر ممّا امتلكت إيمي شنايدرمان، التي كان لديها رأي عن كل موضوع، وألمّتْ بأكثر ممّا فعل عن كل شيء تقريباً. إيمي اللامعة الصاخبة، التي عذّبت أباها، ومازحت شقيقها، وصدّتْ إقلاق أمّها الأبديَّ لها، بردود لاذعة السخرية، إيمي التي تعرف كل شيء، والتي تدبّرت بطريقة ما الهرب دون أن توبَّخ أو تُعاقَب، والسبب الأكبر في ذلك أنها فتاة طالما قالت رأيها وعوّدت الناس في عائلتها على احترامها لذلك، وحتّى فيرغسون، الذي سرعان ما أصبح *صديقها المميّز*، لم يكن في منأى تماماً عن نقدها وسلاطة لسانها. لا يهمّ كم ادعت بصخب

أنها تحبّه وتُعجب به، وعادةً ما وجدتْه ذا رأس خمول، وكانت فزعة دائماً من افتقاره للاهتمام بالسياسة، ومدى قلة اهتمامه بحملة كينيدي الانتخابية وحركة الحقوق المدنية، ولكن فيرغسون لم يمكنه التأثّر، قال، آمل أن يفوز كينيدي، ولكنْ، حتّى لو أصبح الرئيس فعلاً، فلن تتحسّن الأمور عن ما هي عليه الآن، فقط لن تصبح أسوأ لفترة من الزمن، وبالنسبة إلى حركة الحقوق المدنية، طبعاً كان في صفها، كيف يمكن لأي شخص أن يعارض العدالة والمساواة للجميع، لكنه كان في الثالثة عشرة فقط، لأجل السماء، لا أكثر من شذرة غبار تافهة، وبحقّ الجحيم ماذا يمكن أن تفعل شذرة لتغيير العالم؟

لا أعذار، قالت إيمي. لن تبقى في الثالثة عشرة للأبد - ثمّ ماذا سيحصل معكَ؟ لا يمكنكَ إمضاء حياتكَ وأنتَ تفكّر بنفسكَ فقط، يا آرتشي. عليكَ أن تسمح بدخول شيء ما إلى رأسكَ، وإلا فإنكَ ستصبح واحداً من هؤلاء البشر المُفرَغين الذين تكرههم كثيراً - أنتَ تعلم، أحد الأموات الأحياء من Zombieville, U.S.A.

سوف نفوز، قال فيرغسون.

لا، يا رَجُلي الضئيل المضحك. أنتَ ستفوز.

اكتشف فيرغسون أنه من الغريب أن يكون شديد القرب من فتاة، وخصوصاً فتاة لا رغبة لديه بتقبيلها، الذي كان شكلاً غير مسبوق من الصداقة بحسب خبرته، قوية كما أي صداقة أنشأها مع صبي، ورغم واقع أن إيمي كانت فتاة، إلا أن ثمّة تناغماً مختلفاً كان يحيط تفاعلهما، نبض (فتاة - صبي) تحت السطح مباشرة، لم يكن مع ذلك شبيهاً بأي نبض شعره مع راشيل مينيتا، أو آليس أبرامز، أو أي من الفتيات الأخريات اللواتي أُعجب بهنّ أو قبّلهنّ عندما كان في الثالثة عشرة، نبض ضاجٌّ مقابل النبض الناعم الذي شعره مع إيمي، حيث يفترض أنها قريبته، فرد من عائلته، ما يعني أنه لا حقّ له أن يقبّلها أو حتّى يفكّر بتقبيلها، وكان التحريم متشدداً للغاية، لدرجة أنه لم يخطر في بال فيرغسون لمرّة أن يعارضه، مدركاً أن فعلاً كهذا سيكون غير *لائق كثيراً جدّاً*، إن لم يكن *صادماً* بعمق، وحتّى لو أن إيمي أصبحت جذّابة أكثر وأكثر بالنسبة إليه وهو يراقب جسدها يمتدّ إلى التفتح الأقصى لبلوغها المبكّر، ليست جميلة بالطريقة نفسها التي كانت عليها إيزابيل كرافت ربمّا، ولكنها آسرة، عيناها مليئتان بالحياة، كما لم تكن أي فتاة ممّنْ عرف، استمرّ فيرغسون بمقاومة إلحاح كسر عرف الشرف في العائلة. ثمّ بلغا الرابعة عشرة، إيمي أوّلاً في كانون الأوّل، تلاها فيرغسون في آذار، وفجأة وجد نفسه يسكن جسداً جديداً، الذي لم يعد تحت سيطرته بعد الآن، جسد قام بحالات انتصاب غير مطلوبة، والكثير من لهاث الأنفاس، فترة استمناء خلالها لم يكن لفكرةٍ يمكن أن تناسب جمجمته، إذا

لم تكن فكرة شهوانية، هياج التّحوّل إلى رجل دون امتيازات كونه رجلاً، اهتياج، ذعر، فوضى حادّة في داخله، وكلّما نظر إلى إيمي الآن تصبح فكرته الأولى والوحيدة كم يريد أن يقبّلها، الذي لمس أنه بات ينطبق عليها كلّما نظرت إليه. في أُمسيّة يوم جمعة في نيسان، كان جيل وأمّه خارجاً في حفل عشاء ما في المدينة، جلس وإيمي وحدهما في شقّة الطابق السابع يناقشان شرط *تقبيل بين أبناء العمومة*، الذي اعترف فيرغسون أنه لم يفهمه تماماً، حيث استُحضرت صورة أقرباء يقبّلون بعضهم بتهذيب على الخدّ، ما لم يبد صحيحاً، بطريقة ما، بما أن ذلك النوع من التقبيل لا يُصنّف كتقبيل حقيقي، وبذلك لماذا *تقبيل أبناء العمومة* إذا كان الناس في عرفه أقرباء عاديين؟! وعندها ضحكت إيمي، وقالت، لا، يا سخيف، ذلك ما يعنيه *تقبيل أبناء العمومة*، ودون إرداف أي كلمة أخرى مالت نحو فيرغسون على الأريكة، لفّتْ ذراعيها حوله، وزرعت قبلة على فمه، ومنذ تلك اللحظة فصاعداً، قرّر فيرغسون أنهما ليسا أقرباء حقّاً، على الرغم من كل شيء.

2.4

كانت إيمي شنايدرمان تنام في غرفة نومه القديمة على مدى السنوات الأربع الماضية، اختفى نوح ماركس لبعض الوقت، ثمّ ظهر، وفيرغسون ابن الثلاثة عشر عاماً، والذي بدأ لتوّه الصّفّ الثامن أراد المغادرة. ولأنه لم يكن في وضع يسمح له بالهرب من المنزل (أين يذهب؟ وكيف يعيش دون مال؟) طلب من والديه أفضل خيارٍ تالٍ: هل يمكنهم أن يتكرموا بإرساله إلى مدرسة داخلية في أيلول القادم، وأن يسمحوا له أن يمضي سنوات دراسته الثانوية الأربع في مكان بعيد عن ميلوود، في نيوجرسي؟

لم يكن ليطلب ذلك لو لم يعرف أن باستطاعتهم تحمّل الكلفة، لكن العيش بمستوى أعلى استمرّ بالازدهار بدرجات أكثر رفعة منذ انتقلت العائلة إلى البيت الجديد في عام 1956. أُضيف متجران آخران إلى إمبراطورية أبيه (واحد في شورت هيلز، الثاني في بارسيباني)، وبوجود مستهلكين جدد يتباهون بجهازي تلفاز أو ثلاثة في المنزل، بجلاية الصحون، الغسالة ومجففات الملابس التي تُعدّ الآن تجهيزات عادية في كل بيت من بيوت الطبقة المتوسّطة، ونصف السّكّان ينفقون المال على المجمّدات الضخمة لتخزين الأطعمة المجمّدة التي يفضّلون أكلها، أصبح والد فيرغسون رجلاً غنياً - ليس روكفلر، ربمّا، ولكنه ملك بيع التجزئة في الضواحي، نبي الربح المشهور، والذي سحقت أسعاره المخفّضة المنافسة في سبع مقاطعات.

تضمّنت المتع من هذا الدخل المتزايد سيّارة إلدورادو فستقية اللون، وبأربعة أبواب لوالد فيرغسون، وبونتياك حمراء أنيقة بسقف متحرّك لوالدته، عضوية في نادي الوادي الأزرق الريفي، وزوال روزلاند فوتو الذي دلّل على نهاية مهنة أمّه القصيرة كمعيلة وفنّانة (انتهت موضة الصور المرمّمة، ودَخْل الاستوديو بالكاد يكون مقبولاً، فلمَ ستهتمّ، إذنْ، بالمتابعة ومبيعات المتاجر الخمس باتت أقوى من ذي قبل؟)، ومع هذا الإنفاق كله، هذا الترف كله متسارع الإيقاع، فشل فيرغسون بالفهم كيف لمدرسة داخلية أن تكون عبئاً عليهما؟! وإذا حدث واعترضوا على خطّته (يعني إذا اعترض أبوه، بما أن الكلمة الأخيرة كانت له في الأمور التي تتعلّق بالمال كلها)، سيعترض فيرغسون باقتراح التّخلّي عن مخيّم بارادايس، والعمل بأعمال صيفية بالمقابل، ممّا سيقلّل مساهمتهما من التكلفة.

أمضى أشهراً وهو يُجري أبحاثاً عن الأمر كما أخبرهم، وبدا أن أفضل المدارس كانت في نيوانغلاند، غالباً في ماساشوستس ونيوهامبشر، ولكنْ، أيضاً في فيرمونت وكونكتيكت، وبعض المدارس الجيّدة في شمال نيويورك وبنسلفانيا، بل إن هناك اثنتين في نيوجرسي. كانوا لا يزالون في أيلول، وأدرك أن اثني عشر شهراً كاملاً تفصلهم عن بداية العام الدراسي المقبل، ولكن الطلبات يجب أن تُرسل في منتصف كانون الثاني، وإذا لم يباشروا بتقليص قائمة المدارس المرشّحة منذ الآن، فلن يكون هناك وقت كافٍ لاتّخاذ قرار حكيم.

استطاع فيرغسون سماع تهدُّجَ صوته حين تحدّث إليهم، كان ووالداه الفخوران الغامضان يتحلّقون حول طاولة غرفة الطعام في مساء ثلاثاء خلال خريف حملة كينيدي -نيكسون الانتخابية، عشاء عائلي لمرّة نادرة، الأمر الذي بات يحصل أقلّ وأقلّ الآن بسبب إغلاق المحلات المتأخّر وشغف أمّه الجديد بلعبة البريدج، الذي أبقاها خارج المنزل لليلتين أو ثلاث ليال في الأسبوع، وها هم في غرفة الطعام بينما آنجي بلاي تروح وتأتي ما بين المطبخ والطاولة، تجلب الصحون لكل صنف، وتأخذ صحون الطبق السابق، حساء الخضار كبداية، يليه شرائح لحم ثخينة مع بطاطا مهروسة وكومة من الفاصولياء الدسمة، طعام ممتاز كهذا يُطبخ من قِبَل آنجي بلاي القوية والقادرة، التي كانت تنظّف المنزل، وتطبخ الوجبات لخمسة أيّام في الأسبوع طيلة الأعوام الأربعة الماضية، والآن وقد ابتلع فيرغسون مضغته الأخيرة من لحم العجل المحمّر، تكلّم أخيراً، أخيراً وجد الشجاعة ليتكلّم عن الشيء الذي مضت أشهر على اتّقاده في داخله.

تفحّص والديه بحذر حين خرجت الكلمات من فمه، باحثاً في وجهيهما عن علامات يمكن أن تخبره عن ما يريان في خطّته، لكنهما لاحا بلا تعبير تقريباً، فكّر، كما لو أنهما لم يستوعبا ما كان يقوله، فلماذا يرغب بمغادرة العالم المكتمل الذي يعيش فيه، وهو الذي يتفوّق في المدرسة، والذي يستمتع كثيراً باللعب في فريقي كرة السّلّة والبيسبول، والذي يحظى بأصدقاء كثيرين، ويُدعى إلى حفلات العطلة الأسبوعية كلها؟ ماذا يمكن أن يريد صبي عمره ثلاثة عشر عاماً أكثر من ذلك؟ ولأن فيرغسون كان غير راغب بإهانة والديه بالاعتراف أنهما كانا السبب لرغبته في الرحيل، وأن العيش معهما تحت سقف واحد أصبح لا يُطاق، كذبَ وقال إنه كان متعطّشاً للتغيير، ويشعر بالضجر والاختناق بسبب ضيق بلدتهم الصغيرة، ويتوق لمواجهة تحدّيات جديدة، ليختبر نفسه في مكان لم يكن بيته.

فهم كم يُحتمل أنه بدا سخيفاً لهما، وهو يحاول أن يعبّر عن آرائه، ويقنعهم، يقدّم الحجج الذكية بصوته غير المضبوط وغير المتوقّع، بحَنْجَرَته المراهقة (ما قبل الرجولة وبعد الطفولة) ما زالت تتراوح بين العلو والانخفاض مرّة بعد مرّة متلمّسة قبولها النهائي، أداة صوتية افتقرت

إلى كل سلطة وتحكّم، وكم بدا سخيفاً لهما أيضاً، بأظافره المقضومة وحبة الشباب الجديدة إلى يسار فتحة أنفه اليسرى مباشرة، مجرّد نكرة صغيرٍ تنعّمَ بالخيرات الماديّة كلها في الحياة، الطعام والمأوى وألف وسيلة راحة، لكن فيرغسون كان كبيراً كفاية ليعلم كم كان محظوظاً بالعيش في أعلى مستويات الثروة، كبيراً كفاية ليعلم أن تسعة أعشار الإنسانية كانوا جائعين، ويشعرون بالبرد وتحت سطوة الفاقة والخوف الدائم، ثمّ مَن هو ليشتكي من حظّه؟ كيف يجرؤ على التعبير بأدنى ملاحظة عن عدم الرضا؟ ولأنه عرف أين يقف ضمن صورة الألم الإنساني الكبيرة، شعر بالخجل من تعاسته، مشمئزاً من عجزه عن قبول النِّعم التي مُنحت له، ولكن المشاعر كانت مشاعر، ولم يستطع الامتناع عن الشعور بالغضب وخيبة الأمل، لأن ليس هناك أي دور للإرادة في تغيير ما كان يشعر به الإنسان.

المتاعب كانت المتاعب نفسها التي عرفها قبل سنوات، ولكنْ، الآن أسوأ، أسوأ بكثير لدرجة أن فيرغسون خلص إلى أنها كانت فوق الإصلاح. الكاديلاك السخيفة فستقية اللون، باحات نادي الوادي الأزرق الريفي الخالية من الحياة، الحديث عن التصويت لنيكسون في تشرين الثاني - كانت جميعها أعراض مرض قد أصاب أباه، ولكن أباه كان رهاناً خاسراً منذ البداية، وقد شاهد فيرغسون ارتقاءه وسط طبقات محدثي النعمة السوقيين بنوع من التسليم خدر. ثمّ أتت نهاية روزلاند فوتو، الذي رماه في حالة خوف، استمرّت لأشهر، منذ عرف أن الأمر أكثر من مجرّد دولارات وسنتات. إغلاق الاستوديو كان هزيمة، إعلان أن أمّه يئست من نفسها، والآن وقد استسلمت وانتقلت إلى الناحية الأخرى، كم كان محبطاً مشاهدتها تتحوّل إلى واحدة من *تلك النسوة*، زوجة أخرى في نادٍ ريفي، تلعب الغولف والورق، وتشرب العديد من الكؤوس في ساعة الغداء. أحسّ أنها مثله لم تكن سعيدة، ولكنه لم يستطع التكلّم معها عن ذلك، كان يافعاً جدّاً للتدخّل في شؤونها الخاصّة، ومع أنه كان واضحاً لديه أن زواج والديه، الذي جعله دائماً يتخيّل حوض حمّام مليئاً بماء فاتر، قد أصبح الآن بارداً، وتراجع إلى مساكنة ضجرة بلا عاطفة لشخصين، يتابعان شؤونهما الخاصّة، ويتلاقيان فقط عندما يتوجّب ذلك أو يشاءان ذلك، وهذا ما لم يحدث تقريباً.

لا مزيد من صباحات الأحد في ملاعب التنس العامّة، لا مزيد من وجبات غداء الأحد في غرونينغ، لا مزيد من أوقات بعد الظهر في السينما. كان يوم العطلة الوطني يُمضى الآن في نادي الغولف الريفي، نعيم من المساحات الخضراء الساكنة، أصوات رشّ الماء، وأطفال يصرخون ويتدافعون في البركة المكيّفة لكل طقس، لكن فيرغسون نادراً ما رافق والديه في رحلات الأربعين دقيقة هذه إلى الوادي الأزرق، بما أن الأحد كان يوم تدريبه مع فرقه لكرة القاعدة وكرة القدم

وكرة السّلّة - حتّى في أيّام الآحاد حين لم يكن هناك تدريب. وبالتّأمّل عن بُعد، لم يكن هناك شيء ضمني خاطئ بخصوص الغولف كما افترضَ، وبلا شكّ يمكن أن تُثار قضية عن فوائد تناول كوكتيلات القريدس وشطائر الطبقات الثلاث، لكن فيرغسون اشتاق إلى الهمبرغر وأوعية مثلّجات النعنع ورقائق الشوكولا، وكلّما اقترب من العالم الذي يمثّله الغولف، تعلّم أن يحتقر الغولف - ربّما ليس الرياضة ذاتها، ولكنْ، بالتأكيد الناس الذين لعبوها.

فيرغسون المنافق، المتعالي. فيرغسون عدوّ عادات وأخلاق الطبقة المتوسّطة العليا، البليّة الذي يعرف كل شيء، والذي ازدرى النسل الأمريكي الجديد من الباحثين عن المكانة والمستهلكين المفاخرين - الولد الذي أراد الرحيل.

كان أمله الوحيد في أن والده سيظنّ إرساله إلى مدرسة داخلية مشهورة سيعزّز مكانته في النادي. نعم، *ابننا في أندوفر الآن. أفضل* بكثير من *مدرسة عامّة، ألا توافق؟ وتبّاً للكلفة. لا يوجد* هدية يمكن *لوالد تقديمها لولده أكبر* من *تعليم جيّد.*

تسديدة فاشلة، بالتأكيد، أمل خائب انبثق من تفاؤل مخادع لعقل في الثالثة عشرة، في الواقع لم يكن هناك سبب للأمل. ثمّ وقد جلس أبوه قبالته على الطاولة في أمسيّة أيلول الدافئ تلك، وضع شوكته، وقال: أنتَ تتكلّم كمبتدئ، يا آرتشي. ما تطلبه مني هو الدفع مرّتين للشيء نفسه، ليس هناك من شخص بكامل عقله سيُخدَع كذلك. فكِّرْ بالأمر. نحن ندفع الضرائب لهذا المنزل، ألا نفعل؟ ضرائب عالية جدّاً، شيء من أعلى ضرائب الملكية في الولاية. لم أحبّ ذلك، ولكنْ، أنا أرغب بدفع المال، لأنني أتلقّى شيئاً مقابله. مدارس جيّدة، بعضها من أفضل المدارس العامّة في البلد. لذلك السبب انتقلنا إلى هذه البلدة في المقام الأوّل. لأن أمّكَ عرفت أنكَ ستتلقّى تعليماً جيّداً هنا، جيّد بمقدار أي تعليم يمكن أن يقدّموه لكَ في واحدة من مدارسكَ الخاصّة الوهمية. إذنْ، لا فائدة، يا بنيّ. لن أدفع الضعف لشيء حصلتُ عليه مسبّقاً. هل تفهم؟

كما يبدو، لم تكن المدارس الداخلية على لائحة أبيه لنفقات التباهي، ولأن أمّه شاركت وقالت *إنه سيحطّم قلبها* إن غادر البيت في عمر صغير كهذا، لم يحاول فيرغسون حتّى ذكر فكرته عن القيام بأعمال صيفية، ليساعد في تدريسه. كان عالقاً الآن. ليس لما تبقّى من السنة وحسب، بل للسنوات الأربع الإضافية حتّى يتخرّج في المدرسة الثانوية - ما مجموعه خمس سنوات، التي كانت وقتاً أطول ممّا خدم العديد من الناس كعقوبة للسرقة المسلّحة أو القتل.

دخلت أنجي إلى غرفة الطعام مع الحلوى، وحين نظر فيرغسون إلى وعائه من حلوى الشوكولا، تساءل لماذا لم يوجد قانون يسمح للأطفال بتطليق أهلهم؟

لأن لا شيء تغيّر أو في سبيله لأن يتغيّر، لأن النظام القديم لرعاية العائلة كان لا يزال قائماً بعد أن رُفضت جهود فيرغسون لإصلاح العُرف، النظام القديم المعصوم استمرّ بالحكم بغرابة الفعل المنعكس المتأصلة، وبذلك كان مقرّراً أن السخط المهزوم يجب أن يُكافَأ بصيف آخر في مخيّم بارادايس المفضّل لديه، سنته السادسة على التوالي في تلك الجنّة الخالية من الآباء، وبملاعب الكرة ورحلات القوارب والصحبة الفوضوية لرفاق نيويورك. لم يكن فيرغسون على وشك مغادرة أمّه وأبيه لشهرين طويلين من الراحة والحرية، ولكنْ، كان نوح ماركس واقفاً بالقرب منه على رصيف غراند سنترال في صباح مغادرته، والذي كان في طريقه شمالاً لقضاء صيف آخر أيضاً، لأن نوحاً عاد، وبعد تفويت النصف الثاني من موسم 1956 وكل الأسابيع الثمانية لعام 1957، استأنف تواصله مع كامب برادايس، وكان على وشك بدء دورته الرابعة المباشرة هناك برفقة ابن أخ زوجة أبيه، والمعروف أيضاً بقريبه البعيد وصديقه، فيرغسون ابن الأربعة عشر عاماً، والذي يبلغ طوله خمس أقدام وسبع بوصات، ويزيد نوحاً طولاً بمقدار نصف رأس، نوحاً الذي لا يزال يُكنّى في المخيّم باسم *هاربو*.

كانت قصّة غريبة. بقيت خالة فيرغسون ميلدرد زوجة أبي نوح، لأنها والعمّ ′دون′ لم يتجشّما عناء الطلاق أبداً، وحين عاد والد نوح من إقامته في باريس التي امتدّت ثمانية عشر شهراً، حيث بدأ بكتابة سيرة ذاتية عن مونتين، انتقل إلى عنوانه القديم في بيري ستريت ثانيةً. ليس إلى الشّقّة في الطابق الثالث التي شاركها من قبل مع ميلدرد مع ذلك، بل إلى استوديو أصغر في الطابق الثاني كان قد أُخلي خلال غيابه، واستأجرته له ميلدرد قبيل عودته. كان ذلك الترتيب الجديد بعد عام ونصف من الاضطراب والتردّد، تخلّلتها ثلاث رحلات إلى باريس حين كانت ميلدرد في إجازة من التدريس في جامعة بروكلن، خلصا في نهايتها إلى أنهما عاجزان عن العيش بعيداً عن بعضهما. من ناحية أخرى، تفهّما أيضاً أنهما غير قادرين على العيش معاً - على الأقلّ ليس طوال الوقت، ليس كزوجين تقليديين، إلا إذا أتاحا حدوث المقاطعات المتفرّقة للروتين اليومي، كانا سينتهيان إلى افتراس بعضهما البعض في حمّام دم من الغضب مثل أكلة لحوم البشر. من هنا أتت تسوية الشّقّتين، اتّفاق كوة النجاة المزعومة، لأن حبّهما كان واحداً من قصص الحبّ المستحيلة، مزيج مترع من العاطفة والتنابذ، ميدان عاصفة كهربائية من الأيونات المشحونة بالتساوي ما بين السالب والموجب، ولأن ′دون′ وميلدرد كانا أنانيين ومتقلّبين ومخلصين بشكل مطلق لبعضهما، كانت الحروب التي خاضاها لانهائية - إلا من تلك اللحظات التي حلّت مع انتقال دون إلى الشّقّة السفلية، لتبدأ حقبة جديدة من السلام.

برأي فيرغسون، كان ذلك إرباكاً كاملاً، ولكنه لم يحدث أن فكّر بالأمر طويلاً، بما أن الزيجات

جميعها بحسب خبرته كانت ناقصة بطريقة أو أخرى، صراعات دون وميلدرد الوحشية مقارنة باللامبالاة المنهكة لوالديه، ولكن كلا الزواجين تصدّع بالشكل نفسه تماماً، ناهيكَ عن جَدّيه، اللذين بالكاد تبادلا فيما بينهما خمسين كلمة في السنوات العشرة الماضية، وبقدر معرفته، فإن الراشد الوحيد الذي بدا أنه يستمتع بحقيقة كونه حيّاً هو عمّته بيرل التي لا زوج لها حتّى الآن، ولن تحصل أبداً على هذا الزوج. مع هذا، كان فيرغسون سعيداً أن دون وميلدرد اجتمعا ثانية، إن لم يكن من أجلهما، فعلى الأقلّ من أجله، إذ جلبت عودة 'دون' نوح إلى حياته مرّة أخرى، وبعد مدّة ثمانية عشر شهراً، والتي خلالها حُظرا عن رفقة بعضهما، بسبب أمّ نوح شبه المجنونة، كان فيرغسون في دهشة من أمره بكيفية عودة صداقتهما ثانية، وكأن الفراق الطويل استمرّ أياماً لا أكثر.

كان نوح لا يزال مشاكسَ الأيّام الخوالي سريع الكلام، المضطرب والغاضب، ولكنه أقلّ هياجاً في الحادية عشرة ممّا كان عليه في التاسعة، وبما أن الولدين تهاديا من الطفولة المتأخّرة إلى البلوغ المبكّر، وجد كل منها الدعم الذي يُعتقَد أنه بعث القوّة في الآخر. بالنسبة إلى نوح، كان فيرغسون الأمير الوسيم الذي برع في كل ما فعله، الزعيم الذي يصيب أفضل معدّل تسديدات، ويحصل على علامات رائعة في المدرسة، الفتى الذي أحبّته الفتيات، الفتى الذي يتطلّع إليه معظم الفتيان الآخرين، وكونه قريباً، صديقاً، وموضع ثقة شخص كهذا كان قوّة عظيمة في حياته، وسوى ذلك كانت محض حياة معذّبة، الحياة الانتقالية لفتى في الرابعة عشرة الذي ارتبك يومياً من شَعْره المجعّد، ومظهره الأبله، والأسلاك المعدنية المشوّهة التي ثُبّتت على أسنانه خلال السنة الماضية، وافتقاره المفزع للجمال الجسدي. علم فيرغسون كم أُعجب به نوح، ولكنه علم أن هذا الإعجاب قد أُخطِئ تقديره، ولم يكن ثمّة مبرّر له، وأن نوحاً حوّله إلى كائن بطولي ومثالي غير موجود على أرض الواقع، بينما هو، فيرغسون، في المكان الداخلي المظلم حيث عاش فعلاً، فهم أن نوحاً يمتلك ذهناً من الطراز الرفيع، وفيما يخصّ الأشياء المهمّة حقّاً، فإن السّيّد ماركس الشّابّ كان أكثر تطوراً ممّا كان هو عليه، على الأقلّ خطوة أمامه في كل لحظة، بل حتّى خطوتين، وأحياناً أربع خطوات وعشر خطوات. كان نوح دليله، الكشّاف السريع الذي استكشفَ الغابة لـ فيرغسون، وأخبره أين كان أفضل صيد - كُتُب للقراءة، موسيقى للاستماع إليها، نكات للضحك عليها، أفلام للمشاهدة، أفكار للتفكير بها - والآن التهم فيرغسون *كانديد* وبارتلبي، ج. س. باخ ومودي واترز، مودرن *تايمز* وغ*راند إللوجن*/وهم كبير، مناجيات جاين شيبرد الليلية، ورجل عمره ألفا عام لـ مل برووك، ملاحظات ابن محليّ و*اللائحة الشيوعية* (لا، لم يكن كارل ماركس قريباً - ولا غروشو، للأسف)، لم يكن بوسعه إلا تخيّل كم ستكون حياته فقيرة بدون نوح. أدرك أن بإمكان الغضب والخيبة أن يأخذاك بعيداً، ولكنْ، دون الشغف بالمعرفة أنتَ ضائع.

لذلك ها هما في تموز 1961، على وشك الانطلاق إلى كامب بارادايس في مطلع ذلك الصيف الحافل بالأحداث حين بدت الأخبار جميعها من العالم الخارجي سيئة: الجدار يعلو في برلين، إرنست همنغواي يهشّم جمجمته برصاصة في جبال آيداهو، عصابات من العنصريين البيض تهاجم ركاب قافلة الحُرّيّة في أثناء سفرهم على متن حافلاتهم عبر الجنوب. التهديد، اليأس، والكراهية، براهين كبيرة على أن الرجال المنطقيين لم يكونوا في موقع المسؤولية لتولّي إدارة الكون، وحين انتظم فيرغسون في نشاط حياة المخيّم الممتعة والمألوفة، ينطنط كرة السّلّة، ويسرق القواعد في فترات الصباح وبعد الظهر، يستمع إلى ثرثرة الصبيان وانتقاداتهم في مقصورته، ويسعد لفرصة كونه مع نوح ثانية، والذي كان فوق كل شيء يعني القدرة على مشاركته حديثاً يتواصل لشهرين، يرقص في الأُمسيّات مع فتيات أحبهنّ كثيراً من نيويورك، كارول ثالبرغ النشيطة عارمة الصدر، آن برودسكي النحيلة والمفكّرة، وأخيراً المليئة بحَبّ الشباب، ولكنْ، الجميلة بشكل استثنائي دنيس لفينسون، والتي كانت متّفقة معه على الانسلال من ساعات "الاجتماعات" بعد العشاء لصالح تمارين الفم واللسان المكثّفة في المرج الخلفي، والعديد من الأشياء الطّيّبة التي تستحقّ أن يدين لها بالشُّكْر، مع ذلك فهو الآن في الرابعة عشرة ورأسه مليء بالأفكار التي لم تكن لتخطر له منذ ستّة أشهر، كان فيرغسون ينظر إلى نفسه دائماً من خلال ارتباطه بآخرين بعيدين، مجهولين، متسائلاً، مثلاً، إن لم يكن يقبّل دنيس في تلك اللحظة ذاتها التي فجّر فيها همنغواي دماغه هناك في آيداهو أو إذا كان يسدّد مزدوجة في اللعبة بين كامب بارادايس وكامب غريلوك الخميس الماضي في اللحظة التي ضربَتْ قبضة فرد من عصابة الكلان في المسيسيبي فكّ راكب حرّيّة نحيل قصير الشّر من بوسطن. شخص قُبِّلَ، وآخر لُطِم، أو أن شخصاً يشهد جنازة أمّه في الساعة الحادية عشرة صباحاً من يوم العاشر من حزيران، 1857، وفي اللحظة نفسها على الرصيف نفسه في المدينة نفسها، امرأة أخرى تحمل وليدها بين ذراعيها للمرّة الأولى، حُزن أحدهم يحدث متزامناً مع فرحة الآخر، وما لم تكن الرّبّ، الذي يُفترَض أنه في كل مكان، وباستطاعته رؤية كل ما يحدث في أي لحظة، ربّما لا أحد استطاع معرفة أن هذين الحدثين كانا يقعان في الآن نفسه، على الأقلّ الابن الحزين والأمّ الضاحكة. هل اخترع الإنسان الإله لذلك السبب؟ تساءل فيرغسون في سرّه. أذلك من أجل التّغلّب على حدود الفهم البشري بتوكيد وجود ذكاء ربّاني كليّ القوّة، وكليّ الشمول؟

فكِّرْ بالأمر بهذه الطريقة، قال لـ نوح ذات ظهيرة بينما كانا في طريقهما إلى صالة الطعام. عليكَ أن تذهب إلى مكان ما بسيّارتكَ. إنها مهمّة هامّة، ولا يمكنكَ أن تتأخّر. يوجد طريقان

لتصل إلى هناك - عبر الطريق الرئيس أو الطريق الفرعي. يحدث أنها ساعة الازدحام، وبشكل طبيعي يلوح أن ثمّة اختناقاً في الطريق الرئيس في ذلك الوقت من النهار، ولكنْ، إن لم يكن هناك حادث سير أو عطل ما، فإن حركة السير ستستمرّ ببطء وانتظام، والفرص هي أن الرحلة ستستغرقكَ عشرين دقيقة، ممّا سيُوصلكَ إلى موعدكَ في الوقت المحدّد - تماماً، دون إضاعة ثانية. الطريق الفرعي أطول قليلاً من ناحية المسافة، ولكنْ، هناك سيّارات أقلّ لتقلق بشأنها، وإذا جرى كل شيء بشكل جيّد، يمكن الاعتماد على أن الرحلة ستستغرق خمس عشرة دقيقة. من حيث المبدأ، الطريق الفرعي أفضل من الطريق الرئيس، ولكنْ، هناك عقبة أيضاً: يوجد ممرّ واحد لكل اتّجاه، وإذا حصل وواجهتَ حادثاً أو عطلاً، فأنتَ عرضة لتعلق لوقت طويل، ممّا سيجعلكَ متأخّراً على موعدكَ.

تمهّلْ، قال نوح. أحتاج أن أعرف المزيد عن هذا الموعد. إلى أين أذهب؟ ولمَ هو مهمّ بالنسبة إليّ؟

لا يهمّ، أجاب فيرغسون. رحلة السّيّارة هي مثل فقط، اقتراح، طريقة للكلام عن الشيء الذي أريد مناقشته معكَ - والذي لا علاقة له بالطُّرُق أو المواعيد.

ولكنه يهمّ، يا آرتشي. كل شيء يهمّ.

يطلق فيرغسون تنهيدة طويلة، ويقول: حسناً. أنتَ ذاهب إلى مقابلة عمل. إنه العمل الذي كنتَ تحلم به طوال حياتكَ - مراسل في باريس لـ دايلي بلانِت. إذا حصلتَ على العمل، ستكون الشخص الأسعد في العالم. وإذا لم تحصل عليه، ستعود إلى البيت، وتشنق نفسكَ.

إن كان يعني الكثير لي، لماذا سأغادر في اللحظة الأخيرة؟ لما لا أبدأ الرحلة ساعة أبكر، وأتأكّد أني لن أتأخّر؟

لأن ... لأنكَ لا تستطيع. ماتت جَدّتكَ، ووجب عليكَ الذهاب إلى جنازتها.

ذلك معقول كفاية. ذلك ما ندعوه يوم خطير. لقد أمضيتُ ستّ ساعات أبكي جَدّتي، والآن أنا في سيّارتي، متوجّهاً إلى مقابلة عمل. أي طريق تريدني أن أسلكَ؟

مرّة أخرى، ذلك لا يهمّ. هناك خياران فقط، الطريق الرئيس والطريق الفرعي، ولكل منهما نقاطه الجيّدة ونقاطه السّيّئة. قل إنكَ ستختار الطريق الرئيس، وتصل إلى الموعد على الوقت. لن تفكّر بخياركَ، هل ستفعل؟ وإذا ذهبتَ في الطريق الفرعي، ووصلتَ إلى هناك في الوقت المحدّد، مرّة ثانية، لا مشكلة، ولن تفكّر بالأمر مرّة ثانية أبداً لبقية حياتكَ. ولكنْ، هنا حيث يصبح الأمر مهمّاً. تسلك الطريق الرئيس، يوجد تصادم ثلاث سيّارات، السير متوقّف لأكثر

من ساعة، وبينما تجلس هناك في سيّارتكَ، الشيء الوحيد الذي يشغل تفكيركَ سيكون الطريق الفرعي، ولماذا لم تسلك ذلك الاتّجاه بدلاً من هذا؟ ستلعن نفسكَ لاتّخاذكَ القرار الخاطئ، لكنْ، كيف تعلّم حقّاً أنه كان الخيار الخاطئ؟ هل يمكنكَ رؤية الطريق الفرعي؟ هل تعلم ما يحصل في الطريق الفرعي؟هل أخبركَ أحد أن شجرة خشب أحمر ضخمة وقعت عبر الطريق، وسحقت سيّارة عابرة، فأهلكت سائق تلك السّيّارة، وشلّتْ حركة السير لثلاث ساعات ونصف؟ هل نظر أحد إلى ساعته، وأخبركَ أنكَ لو سلكتَ الطريق الفرعي، لكانت سيّارتكَ التي سُحقت وأنتَ مَنْ قُتل؟ أو أمر آخر: لا شجرة وقعت، وسلوك الطريق الرئيس كان الخيار الخاطئ. أو أمر آخر: أنتَ سلكتَ الطريق الفرعي، ووقعت الشجرة على السائق الذي أمامكَ تماماً، وبينما تجلس في سيّارتكَ متمنّياً، لو سلكتَ الطريق الرئيس، لا تعلم أي شيء عن تصادم السّيّارات الثلاثي الذي كان سيجعلكَ تتخلّف عن موعدكَ على أي حال. أو أمر آخر: لم يوجد أي تصادم ثلاثي، وسلوك الطريق الفرعي كان الخيار الخاطئ.

ما الهدف من هذا كله، يا آرتشي؟

أنا أقول إنكَ لن تعلم أبداً إن اتّخذتَ الخيار الخاطئ أم لا. ستحتاج إلى الإلمام بالحقائق جميعها قبل أن تعرف، والطريقة الوحيدة للإلمام بالحقائق كلها هي أن تكون في مكانين بالوقت نفسهـ - وهو الأمر المستحيل.

إذاً؟

ولذلك السبب يؤمن الناس بالرّبّ.

بالتأكيد تمزح، مسيو فولتير.

فقط الرّبّ يمكنه رؤية الطريق العامّ والطريق الفرعي بالوقت نفسه - ما يعني أن الرّبّ وحده مَن يمكنه أن يعلم إن اتّخذت الخيار الصائب أو الخيار الخاطئ.

كيف تعرف أنه يعرف؟

لا أفعل. ولكنْ، هذا هو الادّعاء الذي يدّعيه الناس. لسوء الحظّ، لا يخبرنا الرّبّ أبداً بما يفكّر.

يمكنكَ أن تكتب له رسالة دائماً.

صحيح. ولكنْ، يكون هناك أي فائدة.

ما المشكلة؟ لا يمكنكَ تحمُّل نفقة رسوم البريد الجوّيّ؟

ليس لديّ عنوانه.

كان هناك فتى جديد في المقصورة تلك السنة، المبتدئ الوحيد بين رفاق فيرغسون من عطل الصيف الماضية، فتى ريفي عاش في بلدة وستشستر في نيوروشيل، ما جعله فتى الضواحي الآخر الوحيد في دائرة معارف فيرغسون، أقلّ صخباً وكلاماً عدوانياً من فتيان نيويورك، هادئ بأسلوب فيرغسون نفسه، بل ربّما أكثر، فتى لا يقول شيئاً تقريباً، مع ذلك، عندما يتكلّم، فإن الناس ضمن نطاق السمع كانوا يجدون أنفسهم منشدّين إلى كلماته. كان اسمه فيدرمان، آرتي فيدرمان، المعروف عموماً بـ آرتي، ولأن وقع آرتي فيدرمان كان قريباً جدّاً لـ آرتشي فيرغسون، غالباً ما تندّر الفتيان في الكوخ بأنهما *كانا أخوين ضائعين*، توأمين متشابهين، فُرّقا عند الولادة. وما جعل المزحة مضحكة أنها لم تكن حقيقية، وإنما مزحة معاكسة، نكتة لها معنى فقط، إن فُهمت كـَ مزحة عن المزحة نفسها، بينما فيرغسون وفيدرمان تشاركا صفات جسدية معينة - متشابهين في الحجم والبنية، فلكل منهما يدان كبيرتان، وجسد مرن، يمتلك عضلات لاعبي الكرة صغار السّنّ - حملا تشابهاً طفيفاً بينهما أكثر من الأحرف الابتدائية لاسميهما. فيرغسون كان داكناً، وفيدرمان كان أشقراً، عينا فيرغسون كانتا خضراوين رماديتين، وعينا فيدرمان كانتا بنّيّتين، أنفاهما، آذانهما، وفماهما كانت كلها مختلفة التكوين، ولكنْ، لا أحد سيشكّ بأنهما أخوان عند رؤيتهما معاً للمرّة الأولى - أو حتّى لذلك السبب، قريبان بعيدان. من جهة أخرى، لم يعد الفتيان في المقصورة يرونهما للمرّة الأولى بعد الآن، ومع مرور الأيّام واستمرارهم بمراقبة كلا الـ أ. ف. في حياتهما اليومية، ربّما فهموا أن المزحة التي لم تكن مزحة، كانت شيئاً أكثر من مزحة، لأنه حتّى لو لم تكن مسألة أخوين باللحم والدم، إلا أنها كانت مسألة صديقين، صديقين بالدم، اللذين سرعان ما أصبحا مقرّبين كأخوين.

أحد الأشياء الغريبة تتعلّق به نفسه، التي اكتشفها فيرغسون، أنه يوجد عديدون مختلفون منه، أنه لم يوجد شخص واحد، بل مجموعة من الأنفس المتناقضة، وكلّما كان مع شخص مختلف، كان هو نفسه مختلفاً أيضاً. مع شخص فصيح ومنطلق مثل نوح، شعر بالهدوء والانطواء على نفسه. مع شخص خجول وحذر مثل آن برودسكي، شعر بالحدّة والفظاظة، متكلّماً باستمرار، ليتغلّب على غرابة صمتها الطويل. حوّله الناس ممّنْ فقدوا الدعابة إلى مهرّج. والمهرّجون بالبديهة السريعة أشعروه بالملل والبطء. مع ذلك بدا أن للناس الآخرين القدرة على أن يشدّوه إلى مدارهم، ويجعلوه يتصرّف بطريقتهم نفسها. سيُظهر مارك دوبينسكي المشاكس، بآرائه اللامنتهية في السياسة والرياضة، المحاربَ الشفاهي في شخص فيرغسون. وسيجعله بوب كريمر الحالم يشعر بالهشاشة وعدم الثقة بنفسه. من جهة أخرى، جعله آرتي فيدرمان يشعر بالهدوء، هدوء بطريقة لم يُشعره شخص آخر بها، والتواجد مع الصبي الجديد جلب إحساس الفردية نفسه الذي أحسه عندما كان وحيداً.

لو كان أي من الصبيين (أ. ف.) مختلفاً قليلاً، لانتهيا كعدوّين بسهولة. كان لـ فيرغسون على الأخصّ المبررات كلّها لأن يتكدّر من وصول القادم الجديد إلى المشهد، فقد اتضح أن فيدرمان كان أفضل منه في الرياضة، وخصوصاً البيسبول، يعني أنه لعب دائماً كـ رجل قاعدة، وضرب ضربات رباعية fourth للفريق الجوّال (traveling team)، ولكنْ، حين حضر فيدرمان إلى التدريب في اليوم الأوّل، بدا جلياً بسرعة أن له ذراعاً أقوى وأكثر امتداداً من فيرغسون، وأن ضربته كانت أسرع وأقوى، وفي اليوم التالي، عندما ضرب ضربتين خارج الملعب (home runs) ومزدوجة ضمن اللعب مُبعِداً أي شكّ أن أداءه في يومه الأوّل كان ضربة حظّ، سحب بيل رابابورت، المدرّب بعمر الرابعة والعشرين، فيرغسون جانباً، وأعلن قراره: كان فيدرمان رجل القاعدة والضارب (clean up hitter)، وحوّل فيرغسون إلى القاعدة الثالثة، وسيضرب ضربة واحدة بالترتيب. أنتَ تفهم لماذا يجب أن أفعل هذا، أليس كذلك؟ قال بيل. أومأ فيرغسون. بعد إثباته قوّة البرهان، ماذا يمكنه أن يفعل إلا أن يومئ؟ لا شيء ضدّك، يا آرتشي، تابع بيل، ولكن هذا الولد الجديد استثنائي.

لا يهمّ كيف ينظر الإنسان إلى الأمر، كانت تشكيلة بيل الجديدة استبعاد، وإسقاط في المراتب، وقد آلم فيرغسون خسارة مركزه كقائد أعلى لفريق جيش كامب بارادايس للبيسبول. ولكنْ، كما أن المشاعر كانت دائماً مشاعر، صحيحة في المنظور الشخصي بنسبة مائة بالمائة من الوقت، الحقائق كانت حقائق أيضاً، وفي هذه الحالة الحقيقة الموضوعية غير القابلة للنقاش هي أن بيل اتّخذ القرار المناسب. كان فيرغسون الرجل الثاني الآن. وحلم الصبا القديم بالوصول يوماً ما إلى البطولات الكبرى قد تلاشى إلى بقايا بائسة في أسفل معدته. وترك طعماً مُرّاً لبرهة، ثمّ تغلّب على ذلك. كان فيدرمان ببساطة أكثر براعة من أن يريد التنافس معه. وفي وجه موهبة كهذه، الردّ المناسب الوحيد أن تكون شاكراً أنه في صفكَ.

ما جعل الموهبة غير اعتيادية، كما شعرَ فيرغسون، أن فيدرمان كان غافلاً عنها. مهما لعب بحماس، مهما ربح من الألعاب بضربات داخلية (last-inning) أو اعتراض في العمق (diving stops) ضمن الملعب، فلن يظهر عليه أنه وعى كم تفوّق على الجميع. كان التميز في البيسبول شيئاً يمكنه فعله، وقد تقبّل ذلك بالطريقة نفسها التي تقبّل فيها لون السماء أو كروية الأرض. شغف يُتقنه، نعم، ولكنْ، بالوقت نفسه ثمّة لامبالاة وحتّى مسحة من الملل، وكلّما قال أحد أعضاء الفريق إن عليه التفكير بالاحتراف بعد إنهائه الثانوية، هزّ فيدرمان رأسه وضحك. كانت البيسبول شيئاً مرحاً يقوم به الإنسان، قال، ولكنها ضمنياً بلا معنى، لا أكثر من لعب أولاد، وحين يتخرّج من المدرسة الثانوية، فإن خطّته كانت بالذهاب إلى الجامعة والدراسة، ليصبح عالماً - إما في الفيزياء أو الرياضيات، لم يتأكّد في أي منهما بعد.

كان هناك شيء محبِط ومستسلم في ذلك الرّدّ، فكّر فيرغسون، الذي خطر له كمثال نموذجي عن ما عبّر عن سَمِيِّه، وجعله مختلفاً عن الآخرين، من حيث إنها نتيجة مسلَّم بها أن الأولاد كلهم سيذهبون أخيراً إلى الجامعة، كان ذلك العالم الذي عاشوا فيه، عالم الجيل الثالث من الأمريكيين اليهود، حيث ليس إلا ذوي العقول الأكثر سخافة، يُنتظر منهم الآن الحصول على درجة جامعية، إن لم تكن درجة عالية أو مهنية، ولكن فيدرمان لم يفهم الفروق الدقيقة فيما قاله الآخرون له، فشل في إدراك أنهم لم يخبروه أن عليه *ألا* يذهب إلى الجامعة، ولكنه غير مضطرّ *لذلك*، إن لم يرد، ما دلّ أنهم اعتقدوه في موقع أقوى ممّا كانوا، أكثر تحكّماً بمصيره، ولأنه كان بالفعل طالباً ممتازاً في الرياضيات والعلوم ولديه كامل النيّة بارتياد الكلّيّة (كان منكبّاً على دراسة حساب التكامل والتفاضل ذلك الصيف، كرمى للرّبّ، وكم عدد الأولاد في الرابعة عشرة ممّنْ يمكنهم أن يفهموا مبادئ التفاضل والتكامل؟)، تجاهل الإطراء، وردّ عليهم بجواب صريح من القلب وواضح للغاية، بالإضافة إلى أنه خارج النقاش (الجميع عرفوا أنه يدرس التفاضل والتكامل وملزَم بالكلّيّة لا محال) التي لم يحتج إلى ذكرها أبداً.

ولكن ذلك كان واحداً من جملة أشياء أحبّها فيرغسون كثيراً في أ. ف. الآخر - براءته، ابتعاده الساذج عن سخريات المجتمع وتناقضاته والذي انتمى إليه، الآخرون كلهم بدوا عالقين في سكرات الهياج الدائم، فوضى دوافع مشتبكة ومتناقضات مشاغبة، ولكن فيدرمان كان ساكناً، متأمّلاً، ومتصالحاً مع نفسه بكل وضوح، ومغلقاً للغاية على أفكاره الخاصّة وطريقته الخاصّة بفعل الأشياء، لدرجة أنه قلّما انتبه للضّجّة من حوله، كائناً غير ملوّث، فكّر فيرغسون أحياناً، نقياً جدّاً، وعلى سجيّته إلى أقصى الدرجات حتّى ليصعب فهمه غالباً، ولذلك بلا شكّ خلَفَ هو ونوح انطباعات مختلفة عن رفيق المقصورة الجديد. كان نوح ميّالاً إلى التسليم بأن فيدرمان كان شديد الذكاء ولاعب كرة ممتازاً، لكنه كان مخلصاً جدّاً لذائقته، وكان أكثر قصوراً فيما يتعلّق بالفكاهة من أن يكون بمصافّ الرفقة الطّيّبة، والهمود الذي يرشح منه، والذي له أثر مهدّئ على فيرغسون، كان مثيراً لأعصاب نوح، الذي شعر أن فيدرمان كان شيئاً أقلّ من إنسان مكتمل، فتى - *شبحيّاً غرائبياً*، كما قال مرّة، طيفاً ولِد وأجزاء من دماغه مفقودة. فهم فيرغسون ما كان نوح يحاول التعبير عنه بهذه التعليقات، لكنه لم يوافقه. كان فيدرمان مختلفاً، هذا كل شيء، شخصاً عاش على منبسَطٍ منفصلٍ عن الآخرين، وما رآه نوح ضعفاً للشخصية - خجل فيدرمان مع الفتيات، عدم قدرته على قول نكتة، نفوره من الجدال مع أي شخص - نحا فيرغسون إلى فهمه كنقاط قوىً، لأنه أمضى وقتاً أطول مع فيدرمان ممّا فعل نوح، وفهم ما رآه نوح سطحيةً أو حتّى فراغاً كان، في الحقيقة، عمقاً، اتّساعاً في الروح، لم يكن موجوداً في أي شخص آخر عرفه. المشكلة أن فيدرمان لم ينسجم في

المجموعات، بينما يصبح شخصاً مختلفاً حين يكون وحيداً مع رفيق واحد، والآن وثلاثة أسابيع مضت والرفيقان أ. ف. يمشيان جيئة وذهاباً في ساحة البيسبول عشرات المرّات، عرف فيرغسون ذلك الشخص الآخر، أو على الأقلّ بدأ يتعرّفه، والأمر الذي أثّر فيه أكثر، كم كان فيدرمان سريع الملاحظة، كم كانت حواسّه واعية بشكل ملحوظ للعالم من حوله، وكلّما أشار إلى غيمة تمرّ في الأعلى، أو إلى نحلة تحطّ على سداة زهرة، أو ميّز صوت عصفور غير مرئيٍّ يغرّد من الغابة، شعر فيرغسون أنه يرى ويسمع هذه الأشياء للمرّة الأولى، وأنه من دون صديقه الذي ينبّهه لوجود هذه الأشياء، لم يكن ليعرف أنها هناك، كان التّمشّي مع فيدرمان تمريناً في فنّ الانتباه قبل كل شيء، والانتباه، كما اكتشف فيرغسون، هو الخطوة الأولى في فنّ تعلّم العيش.

ثمّ أتت ظهيرة يوم الخميس شديدة الحرارة مع اقتراب نهاية الشهر، أقرب أو أبعد من منتصف الصيف، يومين فقط قبل نهاية أسبوع الوالدَين، مع مباريتين لـ كرة سلّة - بيسبول على الجدول لصباح وظهيرة السبت ضدّ الخصم المكروه أكثر والمرهوب أكثر كامب سكاتيكو، الذي ستزور فرقه كامب بارادايس اليوم، الألعاب التي ستُشاهَد من آباء وأمّهات صبيان برادايس، النساء الممتلئات بأثوابهنّ القطنية بلا أكمام، الرجال المكتنزين بسراويل البرمودا القصيرة، النساء المتأنّقات الآن، وسابقاً في سراويل قصيرة وكعوب عالية، الرجال بشعورهم الخفيفة وقمصانهم الرسمية البيضاء والأكمام المطوية حتّى المرفق، كان أكبر يوم رياضي في الصيف، الذي سيُتبَع في المساء بأداء مسرحية الأخوين ماركس القديمة جوز *الهند*، التي حُوّلت إلى فلمِهما الأوّل في *1929*، وبشكل غريب، ولكنْ، ملائم جدّاً، هناك نوح، الذي كان معروفاً جدّاً في المخيّم باسم هاربو، وقد مثّل دور غروشو، مشهد كانت مواهبه تظهر فيه على أكمل وجه، لم يترقّب فيرغسون فقط الألعاب التي سيشارك فيها بعد يومين من الآن، بل كان متشوّقاً لرؤية قريبه يمشي مشية غروشو وهو يتبختر على المسرح بسيجار مثبّت بين الأصابع الثانية والثالثة ليده اليمنى وشارب من طلاء ممسوح على الجلد بين أنفه وشفته العليا. الكثير من الترّقّب يمهّد لوقائع ذلك اليوم، ولأن كامب بارادايس كان متأكّداً من خسارة مباراة كرة السّلّة (لقد هزموا بشدّة في زيارتهم إلى كامب سكاتيكو قبل عشرة أيّام)، كان بيل راپابورت مصمّماً على تكرار فوزهم في البيسبول، ولذلك السبب زُجَّ الفتيان في عدّة تدريبات مُنهِكَة خلال الأيّام الماضية، مع تدريبات منضبطة، لا تنتهي في الأساسيات (المناطحة، صدم اللاعب المقاطع، ملازمة اللاعبين للقاعدة) وتمارين جمبازية شاقّة، *لإبقائهم لائقين* (تمارين ضغط، معدة، جري سريع، دورات حول الملعب)، وفي ذلك الخميس المحدّد في آخر تمّوز، الذي كان أكثر يوم حرارة ورطوبة، شهده المخيّم طوال الصيف، غُسل جسد فيرغسون بالعرق طوال التدريب، والآن وقد

انتهت جلسة الساعتين، كان وفيدرمان يمشيان عائدين إلى المقصورة، ليلبسا ثياب السباحة لأجل سباحة قبل العشاء الإلزامية، شعر بالإرهاق من مجهوده في الملعب، *مستنزف الطاقة*، كما قال فيدرمان، كما لو أن كل واحدة من رجليه تزن مئتي رطل، وحتّى صبيّ التفاضل والتكامل من نيوروشيل الذي لا يتعب عادة اعترف أنه، أيضاً، *شعرَ بالإنهاك*. في منتصف الطريق إلى الكوخ تقريباً، بدأ فيرغسون بالكلام عن الكتاب الذي أنهى قراءته خلال استراحة بعد الغداء، *مِس لونلي هارتس*، رواية صغيرة لـ ناثانيل وِست التي أودعتْها عمّته طردها البريدي السنوي الخاصّ بالكُتُب الصيفية، ولحظة بدأ بشرح أن مس لونلي هارتس كانت في الحقيقة رجلاً، صحفياً يكتب مدّعياً بأنه امرأة لعمود نصائح للعشّاق المتيّمين، سمع فيدرمان يُصدر ضجة وجيزة مكتومة، شيئاً بدا مثل *أوه*، وحين أدار رأسه إلى اليمين، ونظر إلى صديقه، رأى فيدرمان يترنّح، كما لو أنه يتغلب على نوبة دوار، وقبل أن يتمكّن فيرغسون من سؤاله ما المشكلة، التوت ركبتا فيدرمان، وسقط ببطء على الأرض.

افترض فيرغسون أنها مزحة، فربمّا بعد الكلام عن مقدار تعبهما خطر لفيدرمان القيام بعرض هزلي عن ما يحصل لجسد بعد تدريب مبالغ به في أيّام الصيف الحارّة والرطبة، ولكن الضحكة التي انتظر فيرغسون سماعها لم تصدر، والحقيقة كانت أن آرتي لم يكن شخصاً يتعامل بالنكات، وحين انحنى فيرغسون ليتفقّد وجه صديقه، كان مذهولاً لرؤية أن عينيه ليستا مفتوحتين ولا مطبقتين، بل نصف مفتوحتين، نصف مطبقتين، ولا شيء مرئي فيهما إلا البياض، كأن عينيه كرجتا إلى رأسه، ما بدا وكأنه مات، لذلك بدأ فيرغسون بالتربيت على خدود فيدرمان بأصابعه، ربّت أوّلاً، ثمّ قرص الخدود، وهو يطلب إليه أن يستيقظ، وكأن بعض التربيت والقرص ستكون كافية لتعيده إلى الوعي، ولكنْ، حين لم يستجب فيدرمان، عندما تدلّى رأسه إلى الوراء والأمام، عندما بدأ فيرغسون يهزّه من كتفيه، ويحرّك أجفانه الهامدة، فأبتْ أن تُفتح أو تُغلق أو حتّى ترفّ بأقلّ إشارة للحياة، أصبح فيرغسون خائفاً، فألصق أذنه من صدر فيدرمان، ليستمع إلى دقات قلبه، ليشعر بقفصه الصدري يرتفع وينخفض حين يدخل الهواء، ويخرج من رئتيه، لكنْ، لم يكن هناك نبض، لا تنفّس، وفي اللحظة التالية، وقف فيرغسون، وبدأ بالعويل: ساعدوني! ساعدوني، أحد ما! أرجوكم -فليأتِ أحد ما - ساعدوني!

أمّ دمّ/ *Brain aneurysm*. ذلك كان السبب الرسمي للوفاة، قال أحدهم، وبما أن الفاحص الطّبّي لمقاطعة كولومبيا قام بالتشريح بنفسه، أُدرجت هذه الكلمات في شهادة وفاة فيدرمان: أنورسما الدماغ.

علم فيرغسون ما كان الدماغ، لكنها المرّة الأولى التي يصادف الكلمة أنورسما، لذلك مشى إلى مكتب المشرف، وبحث عنها في قاموس وبستر الجامعي الممدّد على أعلى رف في علبة الكُتُب: *تمدّد مزمن شاذ مليء بالدم في الشريان، ناتج عن مرض في جدار الوعاء الدموي.*

أُلغيت المباراة مع كامب سكاتيكو حتّى إشعار آخر. كوميديا الأخوين ماركس ستعلّق إلى وقت ما في الشهر القادم. جدول مهرجان الأُغنيّة العائلية لصباح الأحد أزيل من البرنامج.

في اجتماع على مستوى المخيّم أُقيم في المخزن الكبير بعد العشاء يوم الخميس، بكى نصف الأولاد، العديد ممّنْ لم يعرفوا فيدرمان أبداً. أخبر جاك فلدمان، المشرف العام، الصبيان والبنات أن طُرُق الرّبّ كانت غامضة، فوق إدراك الفهم البشري.

لامَ بيل رابابورت نفسه لانهيار فيدرمان. لقد ضغط على الفريق كثيراً، أخبر فيرغسون، لقد عرّض الجميع للخطر بسبب تمارين العقاب في تلك الحرارة والرطوبة القاسيتين. بماذا كان يفكّر اللعنة؟ تذكّر فيرغسون الكلمات من القاموس: *مزمن، شاذ، مليء بالدم* ... *مرض.*

لا، يا بيل، كان ذلك محتوم الوقوع عاجلاً أم آجلاً. كان آرتي يتجوّل بقنبلة في رأسه. فقط لم يكن أحد يعرف بوجودها - لا هو، لا والداه، كما لم يفحصه طبيب واحد أبداً. كان يجب أن يموت قبل أن يكتشف أحد أن القنبلة الموقوتة كانت هناك طوال حياته. خلال ساعة الاستراحة ظهيرة الجمعة، أُعلن اسمه عبر مكبّر الصوت. *آرتشي فيرغسون*، قال صوت أمين المخيّم. *آرتشي فيرغسون، تعال من فضلكَ إلى المكتب الرئيس. لديكَ اتّصال هاتفي.*

كانت أمّه. قالت، يا له من أمر رهيب، آرتشي! أشعر بالأسف لذلك الصبي، لكَ ... للجميع.

أجاب فيرغسون، لم يكن أمراً رهيباً. كان الأمر الأسوأ، أسوأ شيء حدث مطلقاً.

تلتْ ذلك برهة صمت طويلة على الطرف الآخر من الخطّ، ثمّ قالت أمّه إنها قد تلقّت لتوّها اتّصالاً من والدة آرتي. اتّصال غير متوقّع، طبعاً، اتّصال مؤلم، طبعاً، ولكنْ، فقط لدعوة فيرغسون ليحضر الجنازة في نيوروشيل يوم الأحد - إن كان بإمكانه أخذ إذن لمغادرة المخيّم، وإن كان يشعر بالرغبة للذهاب.

لا أفهم، قال فيرغسون. لا أحد آخر مَدعوّ، لماذا أنا؟

أوضحت أمّه أن السّيّدة فيدرمان كانت تقرأ وتعيد قراءة الرسائل التي أرسلها ابنها إلى

البيت من المخيّم، وفي جميعها تقريباً ذكر لـ فيرغسون، وغالباً عدّة مرّات على مدى ثلاث أو أربع مقاطع. *آرتشي هو صديقي المفضّل*، قالت أمّه، تقتبس من مقطع قُرئ لها عبر الهاتف، *أفضل صديق حظيتُ به*. ومن مقطع ثانٍ: *آرتشي شخص طيّب جدّاً، أشعر بالسعادة لمجرّد أني قربه. وأيضاً: آرتشي بالنسبة إليّ أقرب ممّا كنتُ أظنّه الشقيق.*

برهة صمت طويلة أخرى، ثمّ قال فيرغسون، بصوت هادئ جدّاً استطاع بالكاد سماع كلماته الخاصّة، ذلك ما شعرتُ به تجاه آرتي.

كذلك رُتّب الأمر. لن تكون هناك زيارة نهاية الأسبوع من والديه. بدلاً من ذلك، سيستقلّ فيرغسون القطار إلى نيويورك في الصباح، ستقابله أمّه في محطّة غراند سنترال، سيمضيان الليلة في المدينة في شقّة والديها، وفي الصباح التالي سيركبان السّيّارة إلى نيوروشيل معاً. لا أحد يتجاهل لوازم المناسبات العامّة، وعدت أمّه بحمل ثياب له، ليلبسها في الجنازة - قميصه الأبيض، سترة، ربطة عنق، حذاؤه الأسود، وسرواله الرصاصي الداكن.

قالت: هل كبرتَ كثيراً منذ ذهبتَ هناك، يا آرتشي؟

لستُ متأكّداً، أجاب فيرغسون. ربّما قليلاً.

أتساءل هل مازالت هذه الأشياء تناسبكَ؟

هل يهمّ؟

ربّما نعم، ربّما لا، إن انخلعت الأزرار من قميصكَ، يمكننا دائماً شراء بعض الملابس الجديدة غداً.

لم تنخلع الأزرار، لكن القميص كان صغيراً جدّاً عليه الآن، كما كل شيء إلا من ربطة العنق. تذكّر كم كان الخروج للتّسوّق في طقس حرارته 49 ف مثيراً للغثيان، والمشي عبر شوارع مدينة حارّة جدّاً، لأنه كبر أنشين ونصف منذ الربيع، لكنْ، لا يمكنه الذهاب إلى نيوروشيل ببنطال المخيّم الجينز والحذاء الرياضي، ولذلك خرج مع أمّه إلى متجر مايسي، متجوّلاً في قسم الرجال لأكثر من ساعة باحثاً عن شيء لائق يرتديه، وهذا من دون أدنى شكّ أكثر النشاطات إثارة للملل على وجه الأرض حتّى في أفضل الأوقات، والتي لم تكن هذه الأوقات بالتأكيد، وكان حماسه شديد الفتور تجاه ما كانا يقومان به، لدرجة أنه سمح لأمّه باتّخاذ القرارات كلها، اختيار هذا القميص، هذه السترة، وهذا البنطال له، وأيضاً، كما سيدرك حالاً، كم كان ضجر التّسوّق مفضّلاً على

يأس الجلوس وتعاسته داخل الكنيس في اليوم التالي، المعبد الحارّ مزدحم بأكثر من مئتي شخص، والدة آرتي ووالده، أخته ذات الاثني عشر عاماً، أجداده الأربعة، عمّاته وأعمامه، ابن وابنة عمّه، أصدقائه من المدرسة، معلّميه المختلفين وصولاً إلى الحضانة، زملائه ومدرّبيه من الفِرَق الرياضية التي لعب فيها، أصدقاء العائلة، أصدقاء أصدقاء العائلة، جمع من الناس يُخبزون في غرفة لا هواء فيها في حين تدفّقت الدموع من العيون المغمضة، ونشج الرجال والنساء، وانتحب الصبيان والبنات، كان الحاخام عند المنبر يتلو صلوات بالعبرية والإنكليزية، لا شيء من الهراء المسيحي عن الانتقال إلى مكان أفضل، لا حكاية خرافية عن حياة أخرى لفيرغسون وقومه، هؤلاء كانوا اليهود، اليهود المعتوهين المتهوّرين، وبالنسبة إليهم، كان هناك حياة واحدة ومكان واحد، هذه الحياة وهذه الأرض، الطريقة الوحيدة للنظر إلى الموت كانت بتمجيد الرّبّ، تمجيد قوّة الرّبّ حتّى عندما يشمل الموت فتى في الرابعة عشرة، تمجيد ربّهم اللعين fucking God حتّى تُسقط عيونهم من رؤوسهم، وتُسقط خصيهم عن أجسادهم، وتتغضّن قلوبهم في دواخلهم.

***

في المقبرة، حين كان التابوت يُنزل في الأرض، حاول والد آرتي القفز إلى قبر ابنه. احتاج الأمر أربعة رجال، ليرجعوه، وعندما حاول التّحرّر منهم، وفعل ذلك ثانية، أكبر الأربعة، الذي تبيّن أنه شقيقه الأصغر، ثبّته بذراعيه، وصارعه حتّى أقعده على الأرض.

في المنزل بعد الدفن، ألقت والدة آرتي، وهي امرأة طويلة بأرجل ثخينة ووركين عريضين، بذراعيها حول فيرغسون، وقالت إنه سيكون دائماً فرداً من العائلة.

في الساعتين التاليتين، جلس على الأريكة في غرفة المعيشة يتكلّم مع شقيقة آرتي الصغيرة، التي كان اسمها سيليا. أراد أن يخبرها أنه أخوها الآن، أنه سيبقى كذلك طالما عاش، لكنه لم يجد الشجاعة ليُخرِج الكلمات من فمه.

أتى الصيف إلى نهايته، وبدأت سنة دراسية أخرى، وفي منتصف أيلول، بدأ فيرغسون كتابة قصّة قصيرة، التي أصبحت ببطء قصّة طويلة، إلى حين إنهائها في الأيّام التي سبقت عيد

الشُّكْر. ساوره شكّ أنها استلهمت النكتة التي لم تكن نكتة عن الولدين أ. ف. ، لكنه لم يكن متأكّداً تماماً، بما أن القصّة خطرت له من لا شيء كفكرة مسبوكة تماماً، مع ذلك بطريقة أو أخرى، لا بدّ أن فيدرمان كان هناك، أيضاً، بما أن فيدرمان كان معه دائماً الآن، سيكون معه من الآن وصاعداً. لا آرتشي وآرتي، كما خاتله أن يستخدمهما في البداية، بل *هانك وفرانك*، وهما اسما الشخصيتين الرئيستين، زوج مقفّى أكثر ممّا هو مسجوع، ولكنه زوج مدى الحياة، في هذه الحالة، كان زوج أحذية، وهكذا حصلت القصّة على عنوانها *رفاق النعل*.

هانك وفرانك، فردة الحذاء اليسرى والفردة اليمنى، يلتقيان لأوّل مرّة في المعمل، حيث صُنعا، ويُلقيان معاً بشكل اعتباطي عندما يضعهما الشخص الأخير في نظام التجميع ضمن العلبة نفسها. هما زوج من الأحذية المتينة المتقنة الصنع من الجلد البنّيّ ذات الرباط المعروفة عادة بال بروغان، وحيث إن شخصيتيهما مختلفة قليلاً (هانك يميل إلى كونه قلقاً ومتأمّلاً بينما فرانك حادّ ومقدام)، إلا أنهما ليستا مختلفتين على طريقة لوريل وهاردي، مثلاً، أو جيكل وهيكل، أو آبوت وكوستيلو، ولكنْ، مختلفتين، ربّما، بالطريقة التي اختلف فيها فيرغسون عن فيدرمان - حبّتي بازلاء من الثمرة نفسها، ولكنهما غير متطابقتين إطلاقاً.

لا أحد منهما سعيد في العلبة. ما زالا غريبَين في هذه المرحلة، ليست المشكلة في ضيق المكان وعتمته فحسب، بل في أن كلاً منهما مستلقٍ قبالةَ الآخر بالطريقة الأكثر حميمية وفضائحية، التي أدّت إلى بعض المشاحنات غير الوديّة في البدء، لكنْ، ثمّ يطلب فرانك من هانك أن يركن ويسيطر على نفسه، فهما عالقان معاً، إن أحبّا ذلك أم لا، وهانك، متفهّماً أنه لا خيار أمامه سوى إيجاد الأفضل في الموقف السّيّئ، يعتذر، لأنه *بدأ بداية خاطئة*، فيجيب فرانك، *هل يفترض بهذا أن يكون مضحكاً؟*، قاصداً أنه لم يجد الملاحظة مضحكة إطلاقاً، ولذلك يجيبه هانك بخفض صوته متحدّثاً بلهجة جنوبية طليقة: *آه، الحذاء يأمل ذلك، أخي بروغان. أنستطيع عيش هذه الحياة دون ضحك؟ هل يمكننا؟*

توضع العلبة التي تضمّ هانك وفرانك في شاحنة، وتُشحن إلى نيويورك، حيث تنتهي داخل الغرفة الخلفية في متجر فلورشيم للأحذية في جادّة ماديسون، علبة أخرى تُضاف إلى مئات العلب التي تكوّمت على رفوف، وتنتظر أن تُباع. إنه قدرهما - أن يُباعا، أن يخرجا من العلبة إلى شخص بقدم قياسها أحد عشر، ويُقادا من الغرفة الخلفية للمتجر للأبد - وهانك وفرانك لا يصدّقان متى يبدآن حياتهما، ليكونا في الهواء الطلق يمشيان مع سيّدهما. فرانك واثق من حظوظهما في بيع سريع، بما أنهما نوع من الأحذية الدارجة، يخاطب هانك، وليس قطعة غريبة مثل حذاء الجلد اللامع أو خفّي سانتا كلوز أو حذاء ثلج مبطّن بالصوف، وبما أن الأحذية اليومية

هي المطلوبة أكثر، يجب ألا يستغرق الأمر طويلاً قبل أن يقولا وداعاً لعلبتهما النتنة الكئيبة. ربّما كذلك، يقول هانك، لكنْ، إذا أراد فرانك الكلام عن الاحتمالات والإحصاءات، فيجب أن يفكّر بالرَّقْم أحد عشر. قياس أحد عشر يقلقه. أكبر من المعدّل بكثير، ومَنْ يعلم كم عليهما الانتظار قبل أن يأتي السّيّد قدم كبيرة، ويطلب تجريبهما؟ سيكون أسعد بكثير برَقْم ثمانية أو تسعة، يقول. ذلك ما يرتديه معظم الرجال، ومعظم يعني أسرع. كلّما كبر الحذاء، طال الأمر، وقياس أحد عشر هو جحيم لحذاء كبير.

كن سعيداً فقط أنكَ لستَ قياس اثني عشر أو ثلاث عشرة، يقول فرانك.

أنا كذلك، يجيب هانك. أنا سعيد جدّاً أننا لسنا قياس ستّة. لكنني لستُ سعيداً أننا أحد عشر.

بعد ثلاثة أيّام على الرّفّ، فترة قاتمة أطالت شكوكهما وحساباتهما المحمومة عن متى وكيف سيُنقذان، إن أُنقذا أصلاً، يأتي أخيراً موظّف في الصباح التالي، يسحب علبتهما من برج العلب التي أُرسلت إليه، ويحملهما إلى غرفة الأحذية في مقدّمة المتجر. زبون مهتمّ! يزيح الموظّف الغطاء عن العلبة، وفي تلك اللحظة الأولى عندما يشعّ ضوء العالم فوقهما، يمتلئ هانك وفرانك بالفرحة، فرحة غامرة ومسكرة، لدرجة أنها انتشرت على طول المسافة حتّى أطراف أربطتهما. بإمكانهما الرؤية ثانية، الرؤية لأوّل مرّة منذ وضعهما عامل المصنع في علبتهما، والآن يُخرجهما الموظّف من العلبة، ويضعهما على الأرض أمام زبون جالس، يقول فرانك لـ هانك، *أظنّ أننا جاهزان، يا صاحبي*. ويجيب هانك، *بالتأكيد آمل ذلك*.

(ملاحظة: لا يعالج فيرغسون في أي مرحلة من القصّة مسألة كيف لحذاء أن يتكلّم، رغم واقع أن الأحذية برباط جميعها مزوّدة بألسنة. إن كانت ثمّة مشكلة في ذلك، فهو يحل المشكلة بامتناعه عن الخوض فيها. مع ذلك، واضح أن اللغة المستخدَمَة من قِبَل هانك وفرانك غير مسموعة للبشر، بما أنهما يجريان الأحاديث حيث ومتى شاءا، دون خوف من أن يُسمعا - على الأقلّ ليس من الناس الأحياء. وبالأحوال كلها، في حضرة الأحذية الأخرى، عليهما أن يكونا أكثر حذراً، لأن الأحذية كلها في القصّة تتحدّث *اللغة الحذائية*. حين حصل ذلك، لم يعترض أحد من قرّاء فيرغسون الأوائل على استخدامه تلك اللغة اللامعقولة والمتخيَّلة. بدا أن الكلّ انسجموا معها كحالة شرعنة *للامتياز الشِّعْري*، ولكن عدّة أشخاص ظنّوا أنه تمادى بإعطاء هانك وفرانك القدرة على الرؤية. الأحذية عمياء، قال أحدهم، الجميع يعلم ذلك. حقّاً كيف يمكن للأحذية الرؤية؟ توقّف الكاتب ابن الرابعة عشر للحظة، هزّ كتفيه، وقال: *بواسطة ثقوب الرباط طبعاً. كيف غير ذلك*؟).

كان الزبون رجلاً كبيراً، شخصاً ضخماً ذا مقاس عريض مع كاحلين متورّمين وجلد رطب شاحب لشخص قد يعاني أو لا يعاني من السّكّريّ أو من مشكلة قلبية. ليس سيّداً مثالياً، ربّما، ولكنْ، كما قال هانك وفرانك لبعضهما ما لا يُعَدّ من المرّات خلال الأيّام الثلاثة الماضية، *الأحذية لا تختار*. يجب أن تخضع لإرادة الشخص الذي يشتريها، كائناً مَنْ كان، لأن عملها حماية الأقدام، أيّ نوع منها وجميعها وفي الظروف كلها، وسواء كانت تلك الأقدام تعود لرجل مجنون أو قدّيس، يجب أن تؤدّي الأحذية ذلك العمل بتوافق تامّ مع رغبات سيّدها. مع ذلك، إنها لحظة مهمّة لـ البروغان حديث الصنع، فتيّ جدّاً، ولامع في معاندة جزءيه العُلويين المصنوعين من جلد البقر، ونعليهما اللذين لا يعوقهما عائق، وهذه هي اللحظة حيث ستبدأ حياتهما أخيراً كفردَتَي حذاء، تعملان بشكل كامل، وحين يدسّ الموظّفُ قدم الزبون اليسرى في هانك، ثمّ يدس اليمنى في فرانك، يهمهمان بسرور، ثمّ بأعجوبة، يزداد السرور حين تُشدّ الأربطة، وتُربط النهايات في عقدة ثابتة، متموّجة.

يبدو أنها قطعة مناسبة، يقول الموظّف للزبون. هل ترغب بإلقاء نظرة في المرآة؟

وهكذا أمكن لـ هانك وفرانك رؤية نفسيهما معاً للمرّة الأولى - بالنظر إلى المرآة أيضاً. يا لنا من زوج وسيم! يقول فرانك، وهذه المرّة يوافقه هانك. أجمل *بروغانين* صُنعا أبداً، يقول. أو، كما قال الشاعر الملحمي: *ملوك كوبلدوم أنفسهم*.

في حين كان هانك وفرانك يتباهيان بنفسيهما في المرآة، يبدأ الرجل البدين بهزّ رأسه. لستُ متأكّداً، يقول للموظّف، يبدوان لي قاسيين قليلاً.

رجل بحجمكَ يحتاج حذاء قوياً، يجيب الموظّف، ناطقاً كلماته بنبرة أمر واقع، كي لا يهين الزبون.

بالطبع، يتمتم الرجل البدين، ذلك واضح، أليس كذلك؟ لكن ذلك لا يعني أنني يجب أن أمشي في هذا الحذاء الريفي الأخرق.

إنه كلاسيكي، سيّدي. يجيب الموظّف بجفاف.

حذاء شرطة. ذلك ما يبدو لي، يقول البدين. حذاء لشرطي يسير بثياب عادية.

بعد لحظة من التّأنّي، يتنحنح الموظّف، ويقول: هل يمكنني اقتراح معاينة شيء آخر؟ زوج من وينغ تيبس، ربّما؟

نعم، وينغ تيبس، يقول الزبون، مشيراً بموافقة. تلك هي الكلمة التي كنتُ أبحث عنها. لا بروغان - وينغ تيبس.

أُعيدَ هانك وفرانك إلى علبتهما ثانية، وبعد لحظات رُفعا عن الأرض بيدين خفيتين، وحُملا ثانية إلى الغرفة الخلفية، حيث انضمّا مرّة ثانية إلى صفوف البضاعة غير المباعة. يشتعل هانك بالسخط. تعليقات الرجل البدين أغاظته، وحين لفظ الكلمات *قاسٍ وريفي أخرق* للمرّة الثالثة والأربعين خلال الساعة الماضية، يتكلّم فرانك في النهاية طالباً منه التّوقّف. ألا تدرك كم نحن محظوظان؟ يقول. الرجل لم يكن مغفّلاً فقط، بل كان مغفّلاً سميناً، وآخر ما نريده هو أن نرهَق بوزن زائد. ولو السّيّد شنكويتز العجوز لم يزن ثلاثمائة باوند، لا بدّ أنه كان جيّداً في وزن مائتين وستين أو مائتين وسبعين، وتخيّل التآكل ثمّ والتّهتّك اليومي بسبب المشي وفوقنا جبل مثل ذلك. شيئاً فشيئاً سيصيبنا البلى، نُستنزف قبل أواننا، نُهمل حتّى قبل أن نحصل على فرصة للعيش. قد لا يكون هناك كثيرون بوزن الريشة ممّنْ يرتدون قياس أحد عشر، لكنْ، على الأقلّ، يمكن أن نتوقّع أحداً ما لائقاً ونحيلاً، رجلاً بخطوة ثابتة وخفيفة. لا كادحين ولا متبخترين، يا هانك. نستحقّ الأفضل، لأننا *كلاسيك*.

تبعت ذلك مرّتان مخفقتان في الأيّام الثلاثة التالية، أحدهما كاد ألا يكون إخفاقاً (رجل أحبّهما، لكنه اكتشف أنه يحتاج إلى قياس عشرة ونصف)، والآخر فشل منذ البداية (مراهق ضخم متجهّم، سخر من أمّه، لأنها حثّته على أن يجرّب *سفناً حربية بشعة كثيراً*)، ويستمرّ الانتظار محبط للغاية في رتابته الكلّيّلة، لدرجة أن هانك وفرانك بدآ يتساءلان إن لم يكن مقدّراً لهما البقاء على الرّفّ أبداً - مهملين، عتيقي الطراز، مَنسيين. ثمّ، بعد ثلاثة أيّام كاملة من إهانة السفينة الحربية، عندما اختفى كل أمل من قلبيهما، دخل زبون إلى المتجر، رجل في الثلاثين اسمه آبنر كوين، طوله ستّة أقدام، شخص أنيق، يزن مئة وسبعين رطلاً، وقياس أحد عشر الذي لا يبحث عن زوج من البروغان فقط، بل لن يقتنع بأي شيء إلا بزوج من البروغان، وهكذا أُخذ هانك وفرانك من على الرّفّ للمرّة الرابعة، والتي ظهرت أنها الأخيرة، نهاية أسبوعهما المخيف في سجن علبة الحذاء الأسود، وحين يضع آبنر كوين قدميه فيهما، ويتجوّل في المتجر ليجرّبهما، يقول للموظّف، ممتاز، إنهما ما أردتُه تماماً، وها قد وجد رفيقا النعل سيّدهما أخيراً.

هل يشكّل أي فرق إن تبيّن أن كوين شرطي؟ ليس حقّاً، ليس على المدى الطويل، لا يهمّ، ولكن رفض الزبون البدين لـ هانك وفرانك لأنهما مثل *أحذية شرطي*، كان أمراً مؤلماً لهما، وبدلاً من الضحك على المصادفة تألّما واحتارا، فإن كان البروغان هو الحذاء الأساسي للشرطي، فسيبدو كأنه قُدّر لهما أن تلبسهما قدم مسطّحة، الرمز الذي يحظى بسخرية كبيرة في العُرف الشعبي، وأن يكونا الحذاء المفضّل للأقدام المسطّحة في هذا العالم، أي التجسيد الفعلي لتسطيح الأقدام، فهذا يعني أن هناك شيئاً سخيفاً فيهما أيضاً.

لنواجه الأمر، يقول هانك. لم نصنع لأجل البدلات الرسمية والليالي الجامحة في البلدة.

ربمّا لا، يردّ فرانك، ولكننا متينان، ويُعتمَد علينا.

مثل دبّابتين.

حسناً، اللذين يودّان أن يكونا سيّارة رياضية، على أي حال؟

أحذية شرطة، يا فرانك. هذا ما نحن عليه. أسفل سافلين.

لكنْ، انظر إلى شرطينا، يا هانك. يا له من قوام جيّد لرجل! وهو يريدنا. في الأسفل أم لا، يريدنا، وذلك جيّد بما فيه الكفاية بالنسبة إلي.

رُقِّي آبنر كوين الصلب، الذي يمشي بسرعة مؤخّراً إلى رتبة محقّق. استبدل بهراوته وبعدّة رجل الدوريات بذلتي رجل أعمال، واحدة صوفية للشتاء، وأخرى خفيفة لا تتجعّد للصيف، وبذّر على زوج أحذية غالي في متجر فلورشيم (هانك وفرانك!)، الذي ينوي ارتدائهما لعمله كتحرّ كل يوم طوال السنة، بغضّ النظر عن أحوال الطقس. يعيش كوين وحيداً في شقّة بغرفة نوم واحدة في هِلز كيتشن، ليس أفضل الأحياء في عام 1961، لكن الإيجار منخفض ودائرة الشرطة على بُعد أربع كتل أبنية فقط، ورغم أن الشّقّة أقلّ من نظيفة (للتّحرّي قابلية ضئيلة للأشغال المنزلية)، فقد تأثّر هانك وفرانك بكم يعتني بهما. بالرغم من صغر سنّه، سيّدهما من الطراز القديم، يعامل فردَتيَ حذائه باحترام، يفكّ الأربطة بانتظام في الليل، ويتركهما على الأرض قرب سريره بدلاً من ركلهما أو وضعهما في خزانة، بما أن الأحذية يجب أن تكون قرب سيّدها طوال الوقت حتّى عندما لا تكون في الخدمة، وخلع الحذاء دون فكّ الرباط يمكن أن يسبب أذى بنيوياً حادّاً على المدى البعيد. يميل كوين لأن يكون شخصاً مشغولاً ومشتّتاً حين يعمل في قضاياه (السرقات عادةً)، لكنْ، دع أي شيء يقع على أي من الحذاءين، إن كان زرَقَ حمامة أبيض أو نقطة كاتشب حمراء، ليسرع بإزالة المادّة المهينة بقطعة من مناديل كلينكس، يحملها في جيبه الأمامي. أفضل ما في الأمر كانت نزهاته المستمرّة إلى محطّة بِنْ، ليتداول مع مخبره الرئيس، رجل أسود كبير يُدعى موس، يدير منصّة تلميع الأحذية في القاعة الرئيسة، وكلّما ألقى كوين بنفسه على الكرسي، ليحصل على آخر معلومات من موس، كان يطلب تلميع الحذاء، ليُغطّي هدف زيارته الحقيقي، وبذلك يصيب عصفورين بحجر إذا جاز التعبير، القيام بعمله والاهتمام بالبروغان، وهانك وفرانك هما المستفيدان السعيدان من هذه الحيلة، لأن موس خبير، ويمتلك أرشق وأسرع يدين في العمل، وللفرك بقماشته والتدليك بفراشيه متعة لا تُضاهى لأحذية يومية مثل هانك وفرانك، يتلاشيان في لجة من شهوانية الأحذية، وحالما

ينالان حصّتهما من التلميع والاتّصال الشهواني على يدي موس الواثقتين، ينتهيان نظيفين جدّاً ومقاومين للماء أيضاً، أي ظافرَين على الجبهات كلها.

إنها حياة جيّدة، إذنْ، تقريباً أفضل حياة كانا يتطلّعان إليها، ولكنْ، لا ينبغي أن تُخلط الـ*جيّد* بـ الـ*سهل*، بما أن العمل الجادّ مقدّر على الأحذية، حتّى في أفضل الظروف، خصوصاً في مكان مثل نيويورك، حيث يمكن لنعل ألا يطأ على ضمّة عشب واحدة أو أقلّ رقعة من الأرض اللّيّنة لأشهر عديدة، حيث يمكن للنقيضين الحَرّ والبرد إحداث الضرر في صحّة الأجسام الجلدية على المدى الطويل، ناهيكَ عن الأذى الذي يسبّبه هطول المطر وتساقط الثلوج، والتّعثّر الطائش في البرك والجليد، ومن الرّشّ والنقع، صنوف الإذلال كافّة التي تمرّ عليهما عندما يصبح الطقس رطباً وموحلاً، كان يمكن تفادي العديد منها لو أن سيّدهم اليقظ كان أكثر يقظة، لكن كوين لم يكن رجلاً يؤمن بالمطّاط أو الأحذية المطّاطية، وحتّى في أعتى العواصف الثلجية لم يستبدل بحذائه أحذية ثلج، مفضّلاً في الأوقات كلها رفقة حذاءيه المتعبين، المكرّمين بثقته بهما والمتكدّرين من إهماله.

طرق الرصيف: يوم في الداخل ويوم في الخارج، ذلك ما يفعله كوين، وبالتالي ذلك ما يفعله هانك وفرانك أيضاً. إن كان ثمّة عزاء في تآكل كعبيهما ونعليهما نتيجة عوامل الحتّ بين الجلد والإسفلت، فهو أنهما كانا في الأمر معاً، أخوان يتقاسمان قدرهما معاً كواحد. مثل معظم الأخوة، مع ذلك، لهما لحظاتهما من الخلاف والنكد وفورات الغضب والعداوة، وحتّى لو كانا مرتبطين من خلال جسد رجل واحد، إلا أنهما اثنان، علاقة كلٍّ منهما بذلك الجسد مختلفة قليلاً، حيث إن قدم كوين اليسرى وقدمه اليمنى لا تفعلان دائماً الشيء ذاته معاً. الجلوس على الكراسي، مثلاً. وكشخص أعسر، يميل إلى وضع رجله اليسرى فوق رجله اليمنى أكثر من رجله اليمنى فوق اليسرى، وبضعة أحاسيس أكثر متعة من الشعور بنفسكَ مرفوعاً في الهواء، مبتعداً عن الأرض لبرهة، ونعلكَ مكشوفاً للعالم، ولأن هانك هو الحذاء الأيسر، وقادر باستمرار على التّمتّع بهذه التجربة أكثر من فرانك عادةً، يشعر فرانك ببعض الاستياء تجاه هانك أحياناً، يعاني ليكبته عادةً، لكن رفع القدم يترك هانك في مزاج طيّب، لدرجة أنه لا يستطيع منع نفسه من التذكير بها (رشّ الملح على الجرح)، ضاحكاً من مُستَقرّه العالي حين يتدلّى إلى يمين ركبة سيّده اليمنى، وينادي فرانك، *كيف الطقس عندكَ، فرانكي، يا ولد*؟ النقطة التي سيفقد عندها فرانك اتّزانه حتماً، فيطلب من هانك أن يكّف شرّه عنه، ويهتمّ بشؤونه الخاصّة. بالوقت نفسه، يُشفق فرانك على هانك لكونه الحذاء الأيسر لرجل أعسر، لأن كوين يخطو عادة خطوته الأولى بقدمه اليسرى، وكلّما توقّفا لإشارة حمراء في أيّام ماطرة أو مثلجة، فإن أوّل خطوة

عبر الشارع دائماً هي الأخطر، وغالباً الاجتياز كارثي لجدول مائيّ، وكم من مرّة غُطّس هانك في برك، وانغمر في أكوام رطبة من الطين بينما بقي هو نفسه جافّاً؟ مرّات أكثر من أن تُحصى. نادراً ما ضحك فرانك لسقطات أخيه وإشرافه على الغرق، ولكنْ، أحياناً، عندما يكون في مزاج نكد، لا يستطيع منع نفسه قطّ.

مع ذلك، بالرغم من مشاجراتهما المتقطّعة وسوء التفاهم، أصبحا أفضل صديقَين، وكلّما نظرا إلى البروغان التي يلبسها شريك سيّدهما، زوج من جلد رمادي يُدعى إدْ وفرِدْ (أزواج الأحذية كلها في قصّة فيرغسون لها أسماء مقفّاة)، يتأكّد هانك وفرانك كم هما محظوظان في أن يستقرّا مع شخص محترم مثل آبنر كوين بدلاً من البَلْطَجي الوغد الذي يعمل معه، والتر بنتون، والذي يبدو أسعد في عمله عندما يلكم المشتبهين في غرفة التحقيق أو يركلهم بمؤخّرة حذائه. كان إدْ وفرِدْ مَن يؤدّيان له هذا العمل القذر لسنوات تكفي لأن يصبحا بسببه متوحِّشَين، ويتحوّلا إلى زوج مشاكس من الكريهين عديمي القيمة، الساخرين والمشمئزَين من العالم، لدرجة أن أحدهما لم يتكلّم مع الآخر لما يقرب العام - ليس لأنهما لم يعودا متّفقين، ولكنْ، ببساطة لأنهما لا يهتمّان. وفوق ذلك، بدأ إد وفرِد بالانهيار، لأن بنتون سيّدٌ مهمل وغبي أيضاً، ترك كعبَي حذائه يتآكلان دون تبديلهما، ولم يفعل شيئاً بخصوص الخرق الآخذ بالاتّساع في أسفل إد أو الجلد المتشقّق لدى فِرْدْ فوق الأصبع، ولم يحدث طوال الوقت الذي عرف فيه هانك وفرانك هذين *التافهين النزقين* (عبارة هانك عنهما) أن خضعا لعملية تلميع قطّ. على العكس، يُلمّع هانك وفرانك مرّتين في الأسبوع، وخلال السنتين التي أمضياها في خدمة سيّدهما مُنحا أربعة كعوب جديدة ونعلين جديدين. ما زالا يشعران بالشباب بينما إدْ وفرِد، اللذين أمضيا في الخدمة ستّة أشهر قبلهما فقط، أصبحا عجوزين، عجوزين للغاية، وهما الآن في طور النهاية تقريباً، وجاهزان للإتلاف.

لأنهما أحذية عمل، نادراً ما رافقا سيّدهما عندما خرج مع السّيّدات. فاقتفاء الحبّ يتطلّب شيئاً أقلّ بشاعة وأقرب للأرض من البروغان، ولذلك يُقصى هانك وفرانك لصالح حذاء آبنر كوين الرسمي ذي الفتحات الثلاث أو خفّ جلد التمساح الأسود، ما يملؤهما بالخيبة دائماً، ليس لأنهما يخافان من تركهما وحيدين في الظلام، بل لأنهما كانا مع كوين في العديد من نزهاته العاطفية (عندما كان أكثر انشغالاً من أن يعود إلى البيت بعد العمل ليستبدلهما)، ويعلمان كم يمكن لهذه الجولات أن تكون ممتعة، وخصوصاً عندما يمضي سيّدهما الليلة في سرير امرأة، ولأنها شقّة المرأة، فإن أحذية المرأة هناك أيضاً، غالباً إلى جانبهما، وكم كان ذلك فوضوياً ومرحاً في المرّة الأولى، عندما ضحكا وتحدّثا وردّدا الأُغنيّات مع فلورا ونورا، زوج أحذية رائع بكعوب عالية من الساتان الأحمر، وفي المرّات التالية كلها التي تلت ذلك في شقّة امرأة مختلفة، شقراء كبيرة

يدعوها السّيّد إما آليس أو *غاليَتي*، يحتفلان في شقّتها في شارع غرينيتش مع زوج من الأحذية السوداء العالية يسمّيان ليا وميا وزوج من الأحذية المريحة يسمّيان مولي ودولي، وكم ابتهجت تلك الفتيات وقهقهنَ عندما شاهدنَ السّيّد يخلع ملابسه، ويتعرّى تماماً، وكم حدّقنَ ببلاهة حين رأينَ صدر سيّدتهنّ العارم يرتدّ إلى أعلى وأسفل في نشوات الحبّ. يا لها من أوقات رائعة، متألّقة جدّاً عندما تقارن بالعالم الرتيب للمجرمين المتعرّقين والقضاة بالأردية السوداء، والأكثر قيمة لـ هانك وفرانك، لأنها كانت قليلة جدّاً!

تمضي الأشهر، ويبدو جلياً أكثر وأكثر لهما أن آليس هي المنشودة. لم يتوقّف السّيّد عن رؤية نساء أخريات فحسب، بل إنه يمضي جلّ وقت فراغه الآن معها، غاليته المحبوبة، التي حصلت على أسماء أخرى أيضاً، من بينها، ملاك، حبيبة القلب، بهية، ووجه القرد، إشارات لحميمية تتزايد باطراد، فتقود إلى اللحظة التي لا ريب فيها أواخرَ أيّار عندما كان جالساً على مقعد في السنترال بارك مع آليس، ويطرح السؤال المهمّ. لأنه يوم عمل، كان هانك وفرانك هناك ليشهدا طلب يدها للزواج، وهما أكثر من سعيدين بجواب آليس الحنون، *سأفعل كل شيء لأسعدكَ، يا حبّي*، الذي يفترض أنهما سيكونان سعيدين، أيضاً، سعيدين بالترتيب الجديد، كما كانا في القديم.

على الرغم من ذلك، فإن ما فشل هانك وفرانك بفهمه، هو أن الزواج يغيّر كل شيء. ليس الأمر شخصين قرّرا العيش معاً، إنه بداية صراع طويل، تتنافس فيه إرادة شريك ضدّ إرادة الشريك الآخر، وبالرغم من أن الكلمة العليا تبدو للزوج غالباً، إلا أن الزوجة هي التي تتحكّم بشكل مطلق. ترك العرسان شقّتيهما الخاصّتين في غرينيتش فيلِج وهِلز كيتشن، وأقاما في مكان أكبر وأكثر راحة في غربي الشارع الخامس والعشرين. وبما أن آليس تركت عملها المكتبي في مكتب المدّعي العامّ، فهي المسؤولة عن شؤون المنزل الآن، وحين تسأل زوجها عن رأيه بالستائر الجديدة التي تريد شراءها، والبساط الجديد الذي تخطّط لوضعه في غرفة المعيشة، والكراسي الجديدة التي تحلم بها لطاولة الطعام، يكون جواب كوين هو نفسه دائماً - *لكِ ما تريدين، يا حبيبتي، الأمر لكِ* - الذي يعني، بالنتيجة، أن آليس تتّخذ القرارات جميعها. ولكنْ، لا يهمّ، فكّر هانك وفرانك. كان يمكن لـ آليس أن تكون حاكمة العشّ الآن، ولكنْ، مازال عليهما إمضاء أيامهما مع السّيّد، يضربان الرصيف في البحث عن المجرمين، واستجواب المشبوهين في غرفة الاستجواب، والحضور في المحكمة للشهادة في المحاكمات، ومتابعة الأدلّة على الهاتف، وطباعة التقارير، والركض في الأزقّة عندما يكون هناك شخص غبي ما يكفي لأن يهرب، والذهاب إلى محطّة بِنْ من أجل التلميع الأسبوعي الثنائي على يدَي موس، والآن بعد أن رمى

بنتون إد وفْرِد، فإن لديهما الآن زوجاً جديداً من الرفاق للعمل معهما، نِد وتِد، وهما، بالتأكيد، مميّزان، ولكنْ، ليسا بنصف سوء التافهَين النزقين الراحلين مؤخّراً، ما يعني أنه مع وجود الكثير من الأشياء المختلفة الآن، بقيت الأشياء الجوهرية هي نفسها، ربّما أفضل بقليل ممّا كانت من قبل، أو هكذا يقول هانك وفرانك لنفسيهما، لكنْ، ما لا يعرفانه، وما يمنعه عنهما رضاهما عن حالهما من فهمه، أن آليس حلوةَ الصوت في مهمّة، ومساعيها لتحسين حياة السّيّد لن تتوقّف عند الستائر والمفارش. فخلال الأشهر الثلاثة من احتفال الزواج، ها هي تسعى الآن في ميدان ثياب زوجها، وخصوصاً الثياب التي يرتديها إلى العمل، التي تجادله بأنها باهتة جدّاً ورثّة لرجل يُنتظَر أن يصبح نقيباً في الشرطة يوماً ما، وبالرغم من أن كوين أجاب في البداية بنوع من الدفاع. قائلاً إن ثيابه جيّدة ما يكفي، أكثر من مناسبة لنوع العمل الذي يقوم به، تُضعفُ آليس من مقاومته بقولها كم يبدو وسيماً، وكم سيتبدّل إلى شخصية أنيقة مع البدلة الفاخرة. وبين الانزعاج والإطراء لاستحسانها، يلقي السّيّد نكتة سخيفة عن أن *المال لا ينمو على الأشجار*، لكنه يعلم أنه خسر المعركة، وفي يوم إجازته التالي تبع زوجته صاغراً إلى المتجر الرجالي في جادّة ماديسون، حيث أُعيد تجهيز خزانة ثيابه بزوج بدلات جديدة، وأربع قمصان بيضاء، وستّ ربطات عنق رفيعة رائجة الآن. بعد ثلاثة صباحات لاحقاً. حين يرتدي السّيّد واحدة من تلك البدلات الجديدة قبل التّوجّه إلى العمل ستبتسم آليس ابتسامة عريضة فجأة، وتخبره كم يبدو رائعاً، لكنْ، عندئذ، قبل أن يمكنه قول كلمة، تنظر إلى قدميه، وتقول: أخشى أنه علينا فعل شيء بخصوص هذا الحذاء.

ما خطبهما؟ يسأل كوين، مُبدياً بعض الانزعاج.

لا شيء حقّاً، تقول، إنه قديم جدّاً، ذلك كل شيء - ولا يتناسب مع البدلة.

ذلك سخيف. إنه أفضل حذاء امتلكتُه. ابتعتُه من متجر فلورشيم في اليوم التالي لترقيتي، ومنذ ذلك اليوم أرتديه. إنه حذاء الحظّ، يا ملاكي. ثلاث سنوات في الوظيفة، وطوال هذا الوقت لم تُطلَق طلقة واحدة عليّ، ولا لكمة واحدة سُدِّدت إلى وجهي، ولا رضّة واحدة في أي مكان على جسدي.

ذلك هو الأمر، آبنر. ثلاث سنوات هو وقت طويل.

ليس لحذاء بروغان مثل هذا. لا يشوبه ضرر حتّى الآن.

ترمّ آليس شفتيها، تميل برأسها، وتنقر ذقنها على سبيل المداعبة، كأنها تحاول تقييم الحذاء بتجرّد مهيب، كما يفعل الفيلسوف. تقول أخيراً:

قديمة الطراز جدّاً. تُظهِرك البدلة كرجل مهمّ، ولكن الأحذية تُظهِرك كشرطي.

ولكن ذلك ما أنا عليه. شرطي. رجُل لعين مسطّح القدمين.

لأنكَ شرطي فقط، لا يعني أنكَ يجب أن تبدو كشرطي. الحذاء يكشفكَ، يا آبنر. أنتَ تمشي داخل غرفة، والجميع يقولون في سرّهم: هناك شرطي. لكنْ، بحذاء مناسب لن يُخمّنوا أبداً.

ينتظر هانك وفرانك السّيّد ليدافع عنهما، لكن كوين لا يقول شيئاً، مجيباً على ملاحظة آليس الأخيرة بزمجرة غامضة، وبعد لحظات تذهب الفردتان معه حين يتّجه إلى الباب الأمامي للشقّة، ويغادر إلى العمل.

لا يختلف اليوم عن أي يوم آخر، ولا اليوم التالي يختلف عن الذي سبقه، هانك وفرانك يبدآن الأمل أن الحديث مع آليس لم يكن أكثر من إنذار خاطئ، وأن أحكامها القاسية عن مكانتهما لدى السّيّد غير مشتركة من جهة كوين نفسه، وأن الأمر البغيض كله سينجلي مثل غيمة رقيقة عابرة. ثمّ إنه السبت، يوم إجازة آخر من عمل الشرطة، ويخرج كوين مع عدوّتهما الجديدة آليس المتطفّلة، المتعنّتة، خارجاً في خفّيه لنهاية الأسبوع. بينما يقفان في جانب السرير، وينتظران الثنائي ليعود، لم يشكّا لمرّة أنهما على وشك أن يُخدَعا من الرجل الذي خدماه بإخلاص شديد في السنوات الثلاث الماضية، وعندما يعود السّيّد لاحقاً في تلك الظهيرة، ويجرّب زوج الأوكسفورد الجديد، هانك وفرانك يفهمان فجأة أنهما طُردا وانتُبِذا، أُقصيا من قبَل سلطة جائرة تولّت شؤون المنزل، وحيث أن لا ملجأ لديهما، ولا محكمة ليُقدّما شكوى أو روايتهما للقصّة، انتهت حياتهما، وتمَّ الاستغناء عنهما، مسحوقَين بالانقلاب في القصر، الانقلاب الذي يُسمّى في أحوال أخرى مختلفة بـ*الزواج*.

ما رأيكِ؟ يسأل كوين آليس حين ينتهي من ربط الأوكسفورد، ويقف بعيداً عن السرير.

جميل، تقول. أفضل من الأفضل، يا آبنر.

حين يتجوّل كوين في الغرفة، معرِّفاً قدميه بمطواعية وبُنْية رفيقي العمل الجديدين، تشير آليس إلى هانك وفرانك، وتقول، ماذا عليّ أن أفعل بهذين الشيئين القديمين المُملّين؟

لا أعرف. ضعيهما في الخزانة.

ألا تريدني أن أتخلّص منها؟

لا، ضعيهما في الخزانة. لا تعلمين متى يمكن أن أحتاجهما ثانية.

لذا تضع آليس هانك وفرانك في الخزانة، فيما بدت كلمات وداع سيّدهما تعطي بعض الأمل بأنهما سوف يُستدعيان إلى الواجب يوماً ما، تمرّ الأشهر دون تغيّرات، ورويداً رويداً

يستسلمان إلى حقيقة أن سيّدهما لن يضع قدميه فيهما أبداً. كلا الحذاءين يشعران بالمرارة لتقاعدهما القسري، وطوال الأسابيع الأولى في الخزانة تكلّما عن القسوة التي عُوملا بها، رثيا حزنهما طويلاً، ذمّا بشكل مقزع السّيّد وزوجته. بالطبع، لم يحقّق ذلك النواح والعويل لهما فائدة، وحين بدأ الغبار يتوضّع عليهما، بدءا يوقنان أن الخزانة هي عالمهما الآن، الذي لن يغادراه أبداً حتّى اليوم الذي سيُرميان به، تخلّيا عن الشكوى، وأخذا بالكلام عن الماضي، مفضِّلَين إحياء الأيّام الخوالي بدلاً من عيش تعاسة الحاضر، وكم يبعث السرور أن يتذكّرا مغامراتهما مع السّيّد عندما كانا شابَّين قويين، ولديهما مكان في العالم، كم هو ممتع تذكّر الطقس الذي مشيا فيه، الإحساس الوافر بكونهما في الهواء الطلق في الأجواء المتقلّبة لكوكب الأرض، إحساس القيمة الذي أُعطي لهما بالانتماء إلى عظمة الحياة الإنسانية. يمضي المزيد من الأشهر، وانطفأ حنينهما ببطء، لأن من الصعب التّكلّم الآن، ومن الصعب حتّى التّذكّر، لا لأن هانك وفرانك يكبران في السّنّ، بل لأنهما نُبذا جانباً، والأحذية التي لا يُعتنى بها تتهالك بسرعة، تجفّ وتتشقّق وجوهها عندما يتوقّف تلميعها وصقلها، ويزداد داخلها قساوة عندما لا تدخلها القدم الإنسانية، لتعطيها الزيوت والعرق اللازم لإبقائها ليّنة ومرنة، وببطء، ولكنْ، بالتأكيد تبدأ الأحذية المُبعَدة تلوح كقطعة خشب، والخشب هو مادّة غير قادرة على التفكير أو التّذكّر، وبما أن هانك وفرانك أصبحا الآن مثل قطعتي الخشب، فإنهما قد قاربا السُّبات، يعيشان في عالم الظّلّ للثقوب السوداء، وبالكاد يومض لهب شمعة، وأصبح جسداهما بليدين جدّاً خلال الحبس، لدرجة أنهما لم يشعرا بشيء عندما وضع تيموثي طفل كوين ابن الثلاثة أعوام قدميه فيهما ذات ظهيرة، ومشى متثاقلاً في الشّقّة وهو يضحك، وعندما رأت أمّه قدميه الصغيرتين في الحذاءين الجامدين الضخمين، بدأت بالضحك أيضاً. ماذا تفعل، تيمي؟ تسأل. أدّعي أني أبي، يقول، وعندها تهزّ أمّه رأسها، وتعبس، وتقول للصبي إنها ستعطيه حذاءين أجمل، ليلعب بهما، هذان البروغانس وسخان ومستهلكان جدّاً، وإن الوقت حان للتّخلّص منهما. كم كان رحيماً أن هانك وفرانك عاجزان عن سماع شيء أو الشعور بشيء، لأنه حالما أعطت آليس ابنها حذاءي أبيه الرسميَّين، التقطت هانك وفرانك بيدها اليسرى، وضعت اليمنى على رأس تيمي، وثمّ قادته خارجاً إلى الصالة باتّجاه أنبوب المحرقة، الموجود في صندوق صغير في غرفة خلف باب غير مقفل. لقد نسيت تماماً هذه الأحذية القذرة التافهة القديمة، تقول، دافعةً مقبض باب أنبوب المحرقة إلى أسفل، وتسمح لابنها بـ *القيام بالتشريفات*، تعني أن بإمكانه القيام بمهمّة رمي الأحذية، وهكذا أمسك تيمي الصغير بـ هانك، وحين يرميه سبع طوابق إلى أسفل إلى فرن القبو، يقول: *وداعاً، يا حذاء،*

ثمّ يمسك بـ فرانك، ويكرّر العملية، قائلاً: *وداعاً، يا حذاء*، حتّى يتبع فرانك أخيه إلى النار في الأسفل، وقبل أن يحلّ يوم آخر على جزيرة مانهاتن، كان *رفيقا النعل* قد تحوّلا إلى كتلة حمراء مبهمة من الرماد المتوهّج.

كان فيرغسون في الصّفّ التاسع الآن، فعلياً السنة الأولى من المدرسة الثانوية، ولكنها في حالته كانت آخر سنة من مدرسة اليافعين، ومن الموادّ التي درسها في الفصل الأوّل كانت الطباعة، صفّ اختياري أثبت أنه أكثر نفعاً له من أي شيء آخر اتّبعه في تلك السنة. ولأنه كان متحمّساً جدّاً لإتقان هذه المهارة الجديدة، ذهب إلى أبيه، وطلب منه المال، ليشتري لنفسه آلة كاتبة، وأفلح بإقناع نبي الأرباح أن يمنح المال، بحُجّة أنه سيحتاج واحدة في النهاية، والأسعار لن تنخفض أبداً عن ما هي الآن، وبذلك أمّن فيرغسون لعبة جديدة، ليلعب بها، صلبة، مصمّمة بأناقة، آلة سميث - كورونا المحمولة، والتي اكتسبت فوراً حالة *الملكية الأكثر* قيمة. كم حدث وأحبّ تلك الآلة الكاتبة، وكم شعر بضغط أصابعه على المفاتيح المدورة المقعرة ومشاهدة الأحرف تطير على الأشواك الفولاذية وتضرب الورق، تتحرّك الأحرف إلى يمين بينما الحامل يتحرّك يساراً، ثمّ تتداخل رنّة الجرس وصوت المسنّنات، لتنزله إلى السطر التالي بينما كلمة سوداء تتبع كلمة سوداء إلى أسفل الصفحة. كانت أداة ناضجة، أداة جدّيّة جدّاً، ورحّب فيرغسون بالمسؤوليات التي تطلّبتها منه، لأن الحياة كانت جدّيّة الآن، ومع آرتي فيدرمان الذي لا يبعد نصف أنش عنه علم أن الوقت حان، لكي يبدأ بالنضج.

عندما أتمّ فيرغسون أوّل مسوّدة من *رفاق النعل* في بداية تشرين الثاني، كان قد أنجز تقدّماً كبيراً في صفّ الطباعة، ليُنجز النسخة الثانية على الـ سميث - كورونا. وبعد أن صحّح تلك النسخة، وطبع القصّة ثانية، أصبحت المخطوطة النهائية اثنتين وخمسين صفحة مزدوجة الفراغ. لم يصدّق أنه كتب هذا الحجم، فبطريقة أو بأخرى تدبّر استخراج أكثر من خمس عشرة ألف كلمة عن زوج غبي من *الأحذية*، ولكنْ، بعد أن جالت الفكرة بباله، شيء قاد إلى آخر، استمرّ رأسه بالامتلاء بالمواقف الجديدة، ليكتب عنها، ملامح جديدة للشخصيات ليكتشفها ويطوّرها، وحين انتهى أكثر من شهرين من حياته، نُذرت للمشروع، شعر بالرضا عن إنجازه. فالحقيقة الخالصة بشأن تأليف عمل طويل أن هذا المؤلَّف شيء سيفخر به أي ولد في الرابعة عشرة، ولكنْ، حين أعاد قراءتها للمرّة الخامسة، وأجرى مراجعاته النهائية، لم يعرف حينها إن كانت جيّدة أم لا. بما أن أحداً من والديه لم يكن قادراً على تقييم القصّة، بل أي قصّة كُتبت في تاريخ البشرية، وبما أن العمّة ميلدرد والعمّ 'دون' كانا في لندن طيلة فصل الخريف (مُنحت ميلدرد إجازة نصف

سنة مدفوعة) - فهذا يعني أن نوحاً ما زال يقيم كاملَ وقته مع أمّه، وبالتالي غير متوفّر حتّى كانون الثاني - وبما أنه كان خائفاً جدّاً من أن يشاركها مع رفيقة الصّفّ الوحيدة التي يثق برأيها، فقد أعطاها على مضض لمدرّسة اللغة الإنكليزية، السّيّدة بالدوين، التي كانت تقف أمام طلاب الصّفّ التاسع منذ العشرينيات، وكانت ستُحال إلى التقاعد بعد سنة أو سنتين. علم فيرغسون أنه كان يخاطر. برعت السّيّدة بالدوين بشرح كيفية بناء الجملة، وكانت ماهرة بتوضيح النقاط الصعبة في القواعد والإلقاء، ولكن ذوقها في الأدب يعود إلى المدرسة العتيقة للكنوز القديمة، وذلك تجلّى بحماسها لـ بريانت، ويتير، ولونغفيلو، هؤلاء الشخصيات المنمّقة المُملّة التي سيطرت على المنهاج عندما درّست الصّفّ عبر *عجائب الشِّعْر الأمريكي في القرن التاسع عشر*، وبينما صديق فيرغسون إ. آ. بو المتجهّم كان هناك بطيره الأسود الحتمي، لم يكن والت وايتمان هناك - *مبتذل جدّاً!* - ولا إيميلي ديكنسون - *مبهمة جدّاً!* وبالأحوال كلها، يسجَّل لصالح السّيّدة بالدوين أنها كلّفتهم بـ *قصّة مدينتين* كوظيفة منزلية، وتلك كانت تجربته الأولى مع ديكنز على الورق (لقد شاهد مرّة نسخة فيلم *ترنيمة عيد الميلاد* على التلفاز)، وبالرغم من أن فيرغسون انضمّ بسرور إلى رفاقه بالتقليد القديم بالإشارة للرواية كـ *بيع حلمتين*، أُعجب بالكتاب بشدّة، ووجد الجمل حيوية بشكل محموم ومفاجئة، ابتكاراً لا ينضب مزج الرعب والفكاهة بطُرُق، لم يطّلع عليها أبداً في أي كتاب آخر، وكان ممتناً للسّيّدة بالدوين، لأنها عرّفته على ما يعدّه الآن *أفضل رواية قرأها أبداً*. ولذلك قرّر أن يعطيها قصّته - بسبب ديكنز. من المؤسف أنه لا يستطيع الكتابة مثل تشارلز السابق، ولكنه كان مجرّد مبتدئ، كاتباً هاوياً بعمل واحد فقط مسجَّل باسمه حتّى الآن، وقد أمل أن تأخذ ذلك بعين الاعتبار.

لم يكن الأمر سيّئاً كما ظنّ، ولكنْ، من نواحٍ أخرى كان أسوأ بكثير. صحّحت السّيّدة بالدوين أخطاءه الطباعية، أخطاءه الإملائية، وهفوات نحوية، الذي لم يكن مساعدة له وحسب، بقدر ما كان إثباتاً أنها قرأت القصّة بعناية، وعندما اجتمعا بعد المدرسة بستّة أيّام من تاريخ تسليمها المخطوط، أثنت عليه لمثابرته وغِنَى مخيّلته، وبصراحة تامّة، أضافت، أنها ذُهلت كيف أن لفتىً متكيّف ومشرق بطبيعته أفكاراً سوداء ومضطربة كهذه عن العالم. بالنسبة إلى القصّة نفسها، حسناً، كانت هزلية طبعاً، مثالاً صارخاً عن مغالطة مؤسفة جرت بشكل خاطئ، ولكنْ، حتّى بالتسليم أن زوج أحذية يمكن أن يفكّر ويشعر ويتبادل الأحاديث، ماذا حاول فيرغسون تحقيقه باختراع عالم الكتاب الهزلي هذا؟ بلا شكّ كان هناك بعض اللحظات المؤثّرة والممتعة، بعض ومضات الموهبة الأدبية الأصيلة، لكن الكثير من الأشياء في القصّة أزعجتْها، وتساءلت لما اختارها فيرغسون لتكون قارئته الأولى، حيث لا بدّ أنه علم أنها سترتبك من استخدامه للكلمات

رباعية الأحرف/ shit/ (براز حمامة في الصفحة17، *لعنة* في الصفحة 30 - التي أشارت إليها بالنقر إصبعها على الأسطر التي ظهرت فيها هذه الكلمات)، دون تناسي سخريته الدائمة من الشرطة، بادئاً بالمفردات الساخرة قدم مسطّحة *وأحذية شرطي*، ثمّ معمّقاً الإهانة بتصويره الكابتن بنتون كسكّير، وسادي مسيء - ألم يعلم فيرغسون أن أباها كان رئيس قسم الشرطة في ميبلوود عندما كانت صبية، ألم تروِ للصّفّ قصصاً كافية عنه، لتوضح ذلك؟ - لكن الأسوأ، قالت، أسوأ من أي شيء آخر كان النبرة البذيئة للقصّة، ليس فقط أن كوين يقفز إلى ومن السرير مع نساء تافهات عديدات قبل التّقدّم إلى آليس، ولكن آليس نفسها كانت راغبة بالنوم معه قبل زواجهما - الزواج/ المؤسّسة، التي يبدو أن فيرغسون ينظر إليها باحتقار كامل - ومن ثمّ، أسوأ من أسوأ الكل، حقيقة أن التلميحات الجنسية لا تتوقّف عند الشخصيات الإنسانية، بل تتجاوزها إلى الأحذية نفسها، يا له من تعريف أخرق ذلك، الحياة الشهوانية للأحذية، أرجوكَ، وكيف يمكن لـ فيرغسون النظر إلى نفسه في المرآة بعد الكتابة عن المتعة التي يشعرها الحذاء عندما تخطو قدم داخله، أو النشوة التي تأتي من تلميعه أو صقله، وكيف حقّاً فكّر أن الحذاء عربد مع فلورا ونورا، بذلك يكون الكيل قد طفح حقّاً، ثمّ أفلم يشعر فيرغسون بأدنى خجل من نفسه للإسهاب بفحش كهذا؟

لم يعرف كيف يجيبها. حتّى بدأت السّيّدة بالدوين بتقريعه بنقدها، افترض أنهما سيتكلّمان عن تِقْنِيّات كتابة الرواية، أمور تِقْنِيّة مثل البناء، الإيقاع، والحوار، أهمّيّة استخدام كلمة بدلاً من ثلاث أو أربع كلمات، كيف يتجنّب الاستطرادات غير المهمّة ودفع القصّة قُدماً، الأمور الصغيرة ولكنْ، الضرورية التي لا يزال يحاول فهمها بنفسه، ولكنْ، لم يخطر له أبداً أن السّيّدة بالدوين ستهاجمه لما بدا ذا خلفية أخلاقية، لتتساءل عن فحوى ما كتبه وتدين هذا الفحوى، وتَسِمه بـ *غير لائق*. سواء قبلت القصّة أم لا، فذلك كان عمله، وكان حرّاً بكتابة ما أراده، واستخدام كلمة *خراء*، إذا شعر أنها ضرورية، مثلاً، بما أن الناس في العالم الحقيقي يقولون تلك الكلمة مئة مرّة في اليوم، وحتّى لو أنه لم يزل بتولاً، فقد تعلّم كفاية عن الجنس، ليعلم أنه ليس على المرء أن يكون متزوّجاً كي يقوم به، وأن الشبق الإنساني أعطى قليل الاهتمام أو حتّى اللا اهتمام لقوانين الزواج، وبالنسبة إلى الحياة الجنسية للأحذية، كيف لم يمكنها رؤية كم كان الأمر مضحكاً، مضحكاً بطريقة سخيفة وبريئة، لدرجة أن أي شخص يقرأ هذه المقاطع عليه أن يكون نصف ميت، كي لا يبتسم، *وتباً لها*/ fuck her، قال فيرغسون في سرّه، لا تملك أي حقّ يسمح لها بوعظه بتلك الطريقة، ومع ذلك، على الرغم من مقاومته إلا أن كلماتها قامت بالمهمّة التي أرادتها أن تقوم بها، كانت تحرق دواخله، وتُقشّر جلده، كان مشدوهاً بالهجوم، لدرجة أنه لم يملك القدرة ليدافع

عن نفسه، وعندما استطاع الكلام أخيراً، تمكّن من إفلات كلمتين من فمه، كلمتين مع غمغمة، صُنِّفتا دون شكّ كأكثر الكلمات التي تكلّمها في حياته إثارة للشفقة:

أنا آسف.

أنا آسفة، أيضاً، قالت السّيّدة بالدوين. أعلم أنكَ تظنّ أنني أقسو عليكَ، ولكن ذلك لمصلحتكَ، يا آرتشي. أنا لا أقول إن قصّتكَ فاحشة، ليس عندما تقارنها ببعض الكُتُب التي نشروها في الأعوام المنصرمة، ولكنها سوقية ومغثية، وأريد فقط أن أعرف ما كنتَ تفكّر به عندما كتبتَها. هل خطر لكَ شيء؟ أو فقط ببساطة كنتَ تحاول صعق الناس بباقة من النكات السمجة؟

لم يرغب فيرغسون بالبقاء هناك بعد ذلك. أراد الوقوف ومغادرة الغرفة دون أن يضطرّ للنظر إلى وجه السّيّدة بالدوين المجعّد وعينيها الزرقاوين الشاحبتين ثانية. أراد ترك المدرسة والهرب من المنزل وركوب القطارات كأحد متشرّدي أيّام الكساد، يتسوّل الوجبات على أبواب المطابخ، ويكتب كُتُباً قذرة في أوقات فراغه، رجل ممتنّ لـ لا أحد، يضحك كلّما بصق في وجه العالم.

أنا أنتظر، يا آرتشي، قالت السّيّدة بالدوين. أليس عندكَ أي شيء لتقوله لنفسكَ؟

تريدين معرفة ما كان في خاطري، أليس كذلك؟

نعم، بماذا كنتَ تفكّر؟

كنتُ أفكّر بالعبودية، قال فيرغسون. وكيف أن بعض الناس مملوكين من ناس آخرين، وعليهم فعل ما قيل لهم من لحظة ولادتهم حتّى لحظة موتهم. هانك وفرانك هما عبدان، سيّدة بالدوين. جاءا من أفريقيا - مصنع الأحذية - ثمّ وُضعا في الأغلال، وشُحنا إلى أميركا - علبة الأحذية، رحلة الشاحنة إلى جادّة ماديسون - ثمّ بيعا إلى سيّدهما في مزاد عبيد.

لكن الأحذية في قصّتكَ تحبّ كونها أحذية. لن تخبرني أن العبيد تحبّ كونها عبيداً، هل تفعل؟

لا، بالطبع لا. لكن العبودية استمرّت مئات السنين، وكم مرّة انتفض العبيد، وثاروا، كم مرّة قتلوا أسيادهم فعلاً؟ تقريباً ولا مرّة. فعل العبيد أفضل ما يمكنهم فعله في ظروف صعبة. حتّى إنهم ألقوا النكات، وغنّوا الأغاني عندما كانوا قادرين على ذلك. تلك هي قصّة هانك وفرانك. يجب أن يخدما رغبة سيّدهما، ولكن ذلك لا يعني أنهما لا يحاولان الاستفادة ممّا يملكانه.

لا شيء من هذا يظهر في الكتابة، يا آرتشي.

لم أرغب بجعل الأمر واضحاً جدّاً. ربّما تلك مشكلة، أو ربّما أغفلتُهُ، لا أعلم. على أي حال ذلك ما جال في خاطري.

أنا سعيدة أنكَ أخبرتَني ذلك. لا يغيّر ذلك رأيي بالقصّة، ولكنْ، على الأقلّ أعلم أنكَ حاولتَ إنجاز شيء جدّيّ. لم تستهوِني، من صميم قلبي، أنتَ تفهم، معظم ما فيها لم يستهوِني، لأن بعضاً منها جيّد جدّاً، ولأنني امرأة عجوز الآن، أفترض أنه لن يستهويني ما تفعله دائماً - ولكنْ، واصل الكتابة، يا آرتشي، ولا تستمعْ إليّ. أنتَ لا تحتاج نصيحة، أنتَ فقط تحتاج المواظبة. كما قال صديقكَ العزيز إدغار آلان بو مرّة وهو يكتب إلى كاتب طموح: *كنْ جريئاً - اقرأ أكثر - اكتبْ أكثر - انشرِ القليل - ابتعدْ عن العقول الضّيّقة - ولا تخشَ شيئاً.*

لم يخبرها عن الصفحات الأخيرة من القصّة أو ما كان يفكّر عندما تضع آليس هانك وفرانك في الخزانة. إن أغفلت السّيّدة بالدوين الإشارات الضمنية للعبودية، كيف يمكنها فهم أن الخزانة هي معسكر اعتقال، وأن هانك وفرانك ليسا بعد الآن أمريكيين سوداً في تلك النقطة، بل هم أوربيون يهود في الحرب العالمية الثانية، يتلاشون في الأسر، كي يُحرقوا أخيراً حتّى الموت في محرقة الجثث؟ لن يكون من المفيد إخبارها ذلك، ولن يكون هناك أي مبرّر للحديث عن الصداقة، التي كانت الموضوع الحقيقي للقصّة بالقدر الذي يشغله هذا الأمر، لأن ذلك يعني وجوب الحديث عن آرتي فيدرمان، وليس لديه الرغبة بمشاركة حزنه مع السّيّدة بالدوين. قد تكون محقّة، لأنه لم يجعل تلك الأمور مرتّبة ما يكفي لأن يتلمّسها القارئ، ولكنْ، بعد ذلك قُدِّر لها أن تكون عمياء ثانيةً، ولذلك بدلاً من وضع القصّة جانباً والتّوقّف عن التفكير فيها، صحّح الأخطاء التي حدّدتها السّيّدة بالدوين بدوائر على المخطوطة، وطبع نسخة أخرى، هذه المرّة باستخدام ورق كربون، ليحظى بنسخة ثانية، اللتين بعثهما بالبريد الجوّيّ إلى الخالة ميلدرد والعمّ ′دون′ ظهيرة اليوم التالي. بعد اثني عشر يوماً، تلقّى رسالة من لندن، في الحقيقة رسالتين في مغلّف واحد، إجابة منفصلة من كل منهما، كلاهما مستحسن ومتحمّس، لا أحد منهما عمي عن الأشياء التي فشلت المعلّمة بملاحظتها. يا له من لغز! قال لنفسه، حين انسابت دفعة كبيرة من السعادة فيه، حتّى وإن أعلنت خالته وعمّه *رفيقا النعل* كقصّة جيّدة، إلا أن حكمهما لم يفعل شيئاً ليغيّر الحقيقة أن السّيّدة بالدوين مازالت تظنّ أنها قصّة سيّئة. المخطوطة نفسها فُهِمت على نحو مختلف من أزواج مختلفة من العيون، وقلوب مختلفة، وعقول مختلفة. لم يكن أمر شخص يُلكم بينما يُقبَّل الآخر، كان الشخص نفسه يُلكم ويُقبّل بالوقت نفسه، هكذا كانت اللعبة تدور، كما فهم فيرغسون، وإذا شاء مواصلة عرض قصّته على أناس آخرين في المستقبل، فعليه أن يحضّر نفسه، لكي يُلكَم بقدر ما يُقبَّل، أو يُلكَم عشر مرّات مقابل كل قبلة، أو مئة مرّة دون قبلة على الإطلاق.

بدلاً من إعادة القصّة إلى فيرغسون مباشرة، بعثها العمّ 'دون' إلى نوح مع تعليمات بإعادة المخطوطة إلى قريبه عندما ينتهي من قراءتها. وفي وقت مبكّر من صباح يوم سبت، حوالي أسبوع بعد وصول الرسائل من لندن، رنّ الهاتف في المطبخ حين كان فيرغسون يُنهي إفطاره من البيض المخفوق والخبز المحمّص. وها هو نوح على الطرف الثاني من الخطّ، يبصق الكلمات مثل رصاصات مسدّس تومي، قائلاً إن عليه الكلام بسرعة، لأن أمّه خرجت لتقوم ببعض التسّوق، وربمّا ستقتله إن رجعت ووجدته يجري مكالمة خارجية خصوصاً مع فيرغسون، الذي لا يجب أن يُتّصل به في أي ظرف من حرم *شقّتها*، لا لأنه ليس قريب نوح الحقيقي، ولكن لأنه قرابة دم تربطه بالشيطانة - العاهرة (نعم، قال نوح، كانت مجنونة، الجميع عرف ذلك، ولكنه الشخص الذي وجب عليه العيش معها)، وحالما أنهى تلك المقدّمة لاهثة الأنفاس، سرعان ما بدأ نوح يُبطئ وتيرة إرساله، وسرعان ما بدأ بالتّحدّث بإيقاع عادي، كانت محادثة سريعة، ولكنْ، ليست هائجة، وبدا الأمر وكأن شخصاً يمتلك الوقت كله في العالم، فيهدأ من أجل محادثة طويلة وجميلة.

حسناً، يا سكّير، بدأ. لقد فعلتَها هذه المرّة، ألم تفعل؟

فعلتُ ماذا؟ أجاب فيرغسون، مدّعياً الجهل، لأنه لم يكن متأكّداً تقريباً أن نوحاً يشير إلى القصّة.

شيء غريب وصغير يُدعَى *رفاق النعل*.

قرأتَها؟

كل كلمة. ثلاث مرّات.

وما رأيكَ؟

رائعة، يا آرتشي، فقط لعينة، مذهلة تماماً. فلأقلِ الحقيقة، لم أعلم أنكَ تحملها في داخلكَ.

ولأقلِ الحقيقة، ولا أنا أيضاً.

أظنّ يجب أن نحوِّلها إلى فيلم.

مضحك جدّاً. وكيف نفعل ذلك دون كاميرا؟

تفصيل سخيف. سنعالج تلك المشكلة في حينها. على أي حال، لا وقت لدينا لنعمل عليها الآن، بسبب المدرسة من جهة، والمسافة بين نيويورك ونيو جرسي، وعوائق أمومية متنوّعة، لن أخوض فيها اليوم. ولكنْ، هناك الصيف دائماً. أعني، نحن انتهينا من المخيّم، ألم نفعل؟ نحن كبار جدّاً عليه، وبعد ما حصل لـ آرتي، حسناً، لا أعتقد أن بإمكاني العودة إلى هناك ثانية.

أوافق. لا مخيّم بعد الآن.

إذنْ، سنمضي الصيف في إنجاز الفيلم. بما أنكَ تحوّلتَ إلى كاتب الآن، أفترض أنكَ ستُوقِف تفاهة الرياضة تلك كلها.

فقط البيسبول. لكنْ، مازلتُ ألعب كرة السّلّة. أنا عضو في فريق كما تعلم، فريق الصّفّ التاسع برعاية رابطة الشباب في وست أورانج. ونلعب مع فِرَق روابط الشباب الأخرى في مقاطعة إسكس مرّتين في الأسبوع، مرّة مساء الأربعاء، ومرّة صباح السبت.

لا أفهم. إذا كنتَ تريد أن تستمرّ كلاعب، لماذا تترك البيسبول؟ إنها رياضتكَ المفضّلة.

بسبب آرتي؟

ما شأن آرتي بهذا؟

كان أفضل لاعب رأيناه أبداً، ألم يكن؟ وكان صديقي. ليس صديقكَ كثيراً، لكنه صديقي. صديقي الطّيّب. آرتي ميت الآن، وأريد مواصلة التفكير به، من المهمّ أن أبقيه في أفكاري بقدر ما أستطيع، وأفضل طريقة لأحقّق ذلك، كما أيقنتُ، كانت بترك شيء لذكراه، شيء أهتمّ به، شيء هامّ لي، ولذلك اخترتُ البيسبول، لأنها كانت رياضة آرتي المفضّلة، أيضاً، ومن الآن فصاعداً، كلّما رأيتُ أشخاصاً آخرين يلعبون البيسبول، أو كلّما خطر لي سؤالُ لماذا لا ألعب البيسبول بنفسي، سأفكّر بـ آرتي.

أنتَ شخص غريب، هل تعلم ذلك؟

أظنّ، لكنْ، حتّى لو كنتُ، ماذا يمكن أن أفعل؟

لا شيء.

ذلك صحيح، لا شيء.

إذنْ، العبْ كرة سلّة. فلتنضمَّ إلى الدوري الصيفي إن أردتَ، لكنْ، ما دمتَ مهتمّاً بلعبة واحدة، سيكون لديكَ الكثير من الوقت للعمل على الفيلم.

موافق، ذلك بافتراض أننا تدبّرنا أمر الحصول على كاميرا.

سنحصل عليها، لا تقلقْ. الأمر المهمّ أنكَ كتبتَ تحفتكَ الأولى. الباب فُتح، آرتشي، وسيكون هناك الكثير ممّا سيأتي - حياة كاملة من التحف.

دعْنا لا ننجرف. لقد كتبتُ شيئاً واحداً، ذلك كل شيء، ومَنْ يدري إن كنتُ سآتي بفكرة أخرى. بالإضافة إلى أنه مازال لديّ مخطّطي الخاصّ.

ليست *تلك*. ظننتُ أنكَ أهملتَها منذ عصور.

ليس حقّاً.

اسمعني، يا سكّير. لن تكون طبيباً أبداً - وأنا لن أكون رجلاً قوياً في السيرك. ليس لديك مخّ رياضيات وعلوم، وليس لديّ عضلة واحدة في جسدي. بالتالي، لا دكتور فيرغسون - ولا نوح العظيم.

كيف يمكنكَ التّأكّد؟

لأن الفكرة خطرت لكَ من كتاب، ذلك هو السبب. رواية غبية قرأتَها عندما كنتَ في الثانية عشرة، والتي شاء حظّي العاثر أن أقراها بنفسي، لأنكَ ألححتَ على أنها كانت جيّدة جدّاً، وهي ليست كذلك، ولو نظرتَ إليها ثانية، فأنا متأكّد أنك ستفهم أخيراً أنها ليست ما ظننتها عليه، وأنها ليست جيّدة أبداً. طبيب شابّ مثالي يُفجّر نظام تصريف صحّيّ ملوّثاً لتطهير البلدة من وباء، طبيب شابّ مثالي يخسر قيمه لأجل المال ومسكن فخم. طبيب مثالي سابق، وليس شابّاً كثيراً، يستعيد قِيَمه، وبهذا يُنقذ روحه. هراء، يا آرتشي. تماماً التفاهة نفسها التي تشكّل الدافع لصبي مثالي يافع مثلكَ، ولكنكَ لم تعد صبياً يافعاً بعد الآن، أنتَ شابّ ضخم بقضيب رجولي يعوي بين رجليكَ ورأس يمكنه أن يُنتج تحفاً أدبية، والله يعلم ماذا في جعبتكَ أيضاً، وأنتَ تقول لي إنكَ ما زلتَ مستعبداً لكتاب بغيض لا أذكر عنوانه الآن، لأني بذلتُ أقصى جهدي لأنساه؟

القلعة.

هذا هو، بما أنكَ ذكّرتني به، لا تذكره أبداً في حضرتي. لا، يا آرتشي، لا يصبح المرء طبيباً، لأنه قرأ كتاباً. يصبح طبيباً، لأنه يحتاج لأن يصبح طبيباً، وأنتَ لا تحتاج لأن تصبح طبيباً، أنتَ تحتاج لأن تصبح كاتباً.

ظننتُ أن هذه المكالمة ستكون قصيرة. لم تنسَ أمّكَ، هل فعلتَ؟

اللعنة، بالطبع فعلتُ. يجب أن أذهب، يا آرتشي.

سيعود أبوك خلال أسبوعين. سنلتقي عنده، اتّفقنا؟

أكيد. سنتكلّم لغة الـ*حذاء* ما بيننا بلكنة بروغان الغليظة - ونتباحث في كيفية سرقة كاميرا.

في التاسع عشر من كانون أوّل، ثلاثة أيّام بعد حديث فيرغسون مع نوح، ورَدَ في الـ نيويورك تايمز أن جنود المشاة دخلوا منطقة الحرب في فيتنام الجنوبية وهم يشاركون الآن في عمليات تكتيكية مع أوامر بإطلاق النار، إذا أطلقت عليهم. وشحنة من أربعين حوّامة، وأربعمائة مقاتل وصلوا إلى جنوب فيتنام قبل أسبوع. طائرات إضافية، آليات أرضية، وسفن برمائية كانت في

الطريق. إجمالاً، كان هناك ألفا عسكري أمريكي في فيتنام الجنوبية، بدلاً *من الأعضاء الـ 685 المذكورين رسمياً من الفريق الاستشاري الحربي.*

بعد أربعة أيّام، في الثالث والعشرين من كانون أوّل، ذهب والد فيرغسون في رحلة لمدّة أسبوعين إلى جنوب كاليفورنيا لزيارة أخوته وعائلاتهم. كانت أوّل استراحة أخذها من عمله لسنوات، تعود آخر إجازة إلى كانون أوّل 1954، عندما ذهب ووالدة فيرغسون إلى شاطئ ميامي لعشرة أيّام كعطلة شتاء. هذه المرّة، لم تذهب أمّ فيرغسون معه. ولم ترافق والد فيرغسون إلى المطار لتودعه يوم غادر. غالباً ما سمع فيرغسون أمّه تتكلّم بالسوء عن أخوة زوجها بما يكفي لأن يفهم أنها غير مهتمّة برؤيتهم، ولكنْ، لا بدّ أن هناك أكثر من ذلك، فحالما غادر والده، بدت مهتاجة أكثر من العادة، مشغولةً، متجهّمة، ولأوّل مرّة كما يتذكّر عجزت عن تتبّع ما يقوله عندما كان تكلّم معها، وكان تشتّتها عميقاً جدّاً، لدرجة أن فيرغسون تساءل إن لم تكن تمعن التفكير بحالة زواجها، الذي بدا أنه سلك منعطفاً حاسماً بعد مغادرة والده المنفردة إلى لوس أنجلس. ربّما لن يكون حوض الحمّام بارداً فحسب بعد الآن. ربّما سيصبح متجمّداً، في درجة التّجمّد التي تمهّد لتشكُّلِ كتلة جليد.

أُرسلت النسخة الكربونية لقصّته من نوح كما وعد، وبما أنها ظهرت في ميبلوود قبل مغادرة والده إلى كاليفورنيا، فقد أعطاه فيرغسون النسخة باحتمال بعيد أن يقرأها في الرحلة. قرأتها أمّه منذ أسابيع مضت، بالطبع، في السبت بعد عيد الشُّكْر، متكوّرة على الأريكة حافية في غرفة المعيشة، وقد دخّنتْ نصف علبة من سجائر تشسترفيلد بينما شقّت طريقها في الصفحات الاثنتين والخمسين المطبوعة، وستخبره لاحقاً أن القصّة *كانت أكثر من رائعة، واحدة من أفضل الأشياء التي قرأتها أبداً*، ما كان متوقّعاً، كما افترضَ، بما أنها ستعطي الحكم نفسه لو طبع قائمة مشتريات الشهر الماضي، وأعطاها لها *كقصيدة تجريبية*، ولكنْ، من الأفضل بكثير أن تكون أمّكَ إلى جانبكَ على ألا تكون، وخصوصاً بوجود أب ليس على أي جانب إطلاقاً. الآن وقد مرّت *رفاق النعل* تحت يدي الخالة ميلدرد، والعمّ 'دون'، ونوح، فهم أنه حان الوقت لأن يختبر جرأته (عبارة أحبّها لمعناها المزدوج المتناقض)، ويعرضها على إيمي شنايدرمان، الشخص الوحيد في ميبلوود الذي يثق برأيه - وبذلك تكون الشخص الذي خاف الاقترابَ منه بما أن إيمي كانت نزيهة جدّاً، لدرجة أنها ستسدّد اللكمات، وكلمة منها ستطرحه أرضاً.

في بعض الجوانب، إن لم تكن جوانبَ كثيرة، تخيّل فيرغسون إيمي شنايدرمان نسخة أنثوية من نوح ماركس. نسخة أكثر جاذبية، بالتأكيد، من حيث إنها فتاة، وليست صبياً هزيلاً جاحظ العينين، بل ذكية بالطريقة التي كانها نوح، نوع الأشخاص المتقدين مثله، شعلة تتفجّر بالروح،

وعلى مرّ السنين، أدرك فيرغسون كم اعتمد عليهما معاً، كما لو أن الاثنين كانا جناحي فراشة، ارتداهما على ظهره، ليُبقي نفسه عالياً، هو مَنْ يمكن أن يكون ثقيلاً جدّاً أحياناً، وجامداً جدّاً، بل حتّى في حالة إيمي الجذّابة، لم يكن الانجذاب الجسدي كبيراً جدّاً ليزرع أيّة أفكار عاطفية في رأس فيرغسون، وبذلك كانت لا تزال مجرّد صديقة فحسب، وإن كانت صديقة أساسية، أكثر الرفاق أهمّيّة في الحرب المستمرّة أبداً على ملل الضواحي والضحالة، وكم من الحظّ أنها، من بين الناس كلهم في العالم، التي كانت مَنْ تشغل غرفته القديمة، نزوة سردية في قصّة حياتيهما ربّما، ولكنْ، شكّلت رابطاً بينهما، فـ إيمي لا تتنفّس الهواء نفسه الذي تنفّسه في ذلك المنزل، بل أمضت لياليها في السرير نفسه الذي نام هو فيه عندما عاش هناك، سرير رأته أمّه صغيراً جدّاً لغرفته في المنزل الجديد، وبالتالي أعطته لوالدي إيمي الأقلّ من ثريين قبل الانتقال إلى المنزل. ذلك كان منذ ما ينوف عن خمس سنوات مضت الآن، في أواخر صيف 1956، وبرغم أنه كان يفترض بـ إيمي أن تبدأ الصّفّ الخامس في أيلول، إلا أنها وقعت عن حصان في أثناء رحلة ركوب الخيل في محمية الجبل الجنوبي قبل يومين من بدء العام الدراسي، وكسرت وركها، وإلى أن شُفيت الإصابة، كان منتصف تشرين الأوّل قد حلّ، ولذلك قرّر والداها أن تعيد الصّفّ الرابع بدلاً من إقحامها في مدرسة جديدة مع ستّة أسابيع تأخير عن الأولاد الآخرين في صفها. هكذا انتهت وفيرغسون معاً في الصّفّ نفسه، وُلد الاثنان بفارق ثلاثة أشهر، ولكنْ، قُدِّر لهما أن تكون مساراتهما مختلفة قليلاً في المدرسة، لولا أن الورك المكسور تدخّل بعد ذلك، وأصبحت مساراتهما متطابقة، بدايةً في السنة الأولى تلك عندما كانا زميلين مشاركين في صفّ الآنسة مانشيني في الصّفّ الرابع، واستمرّا خلال آخر سنتين لهما في مدرسة جفرسون الابتدائية، ومن ثمّ في بقية السنوات الثلاث في مدرسة ميبلوود الثانوية - دائماً في الصفوف نفسها معاً، دائماً يتنافسان، ولأنه لم يكن هناك أي إرباك رومنسي يفرّق بينهما بسبب سوء الفهم المحتوم وجرح الشعور الذي يأتي مع الرومنسية، فقد بقيا دائماً أصدقاء.

في الصباح بعد أن غادر والد فيرغسون إلى كاليفورنيا، الأحد في الرابع والعشرين من كانون الأوّل، اليوم الذي يسبق العطلة والذي لم يحتفل فيه أحد من عائلتيهما، اتّصل فيرغسون بـ إيمي في العاشرة والنصف، وسألها إن كان يمكنه الذهاب إلى بيتها. وإن لم تكن مشغولة، فلديه شيئاً يسلّمه لها في الحال، أجابت بـ لا، لم تكن مشغولة، إنما تتسكّع مسترخيةً ببيجامتها، تقرأ الصحيفة، وتحاول ألا تفكّر في المقال الذي كان يفترض بهما كتابته خلال عطلة الشتاء. كانت المسافة من بيته إلى بيتها خمس عشرة دقيقة مشياً، رحلة قام بها على القدمين عدّة مرّات في الماضي، ولكن الطقس كان سيّئاً في ذلك الصباح، رذاذ مطر خفيف تساقط بدرجة حرارة واحد

وثلاثين واثنين وثلاثين فهرنهايت، طقس مثلج دون ثلج، ولكنه ضبابي، عاصف ورطب، ولذلك قال فيرغسون إنه سيطلب من أمّه أن توصله بالسّيّارة إلى هناك. في هذه الحالة، قالت إيمي، لما لا يأتيان من أجل إفطار متأخّر؟ تخلّى جيم عنّا هنا منذ حوالي عشر دقائق، لكي يكون مع أصدقائه في نيويورك، وقد حُضِّر الطعام، ويوجد منه ما يكفي لإشباع عشرة جائعين، وسيكون مؤسفاً هدره. انتظر دقيقة، قالت، بينما وضعت الهاتف، ونادت والديها، تسأل إن إن كان يمكن لـ آرتشي وأمّه القدوم و*مشاركتنا طعامنا* (كانت إيمي ضعيفة تجاه المصطلحات الغريبة)، وبعد عشرين ثانية تلت التقطت السماعة ثانية، وقالت: لا مشكلة. تعالا بين الثانية عشرة والواحدة.

وهكذا، فإن نسخة *رفاق النعل* وُضعت بين يدي إيمي أخيراً، وحين جلس فيرغسون في غرفته القديمة مع الفتاة التي أمضت لياليها تنام في سريره القديم، تحدّث الاثنان بينما يحضّر الكبار الوجبة في المطبخ تحتهما مباشرة، قبل كل شيء عن مآسيهما العاطفية الحالية (يتوق فيرغسون لفتاة اسمها ليندا فلاغ، التي رفضته عندما طلب منها الخروج إلى السينما يوم الجمعة، وتعلّق إيمي آمالها على صبي اسمه روجر ساسلو، الذي كان يجب أن يتّصل بها، ولكنه ألمح إلى أنه سيفعل مفترضةً أنها قرأت الإلماحة بشكل صحيح)، ثمّ عن الأخ الأكبر جيم، الطالب المبتدئ في معهد ماساشوستس للتكنولوجيا الذي كان واحداً من أنصار فريق سلّة مدرسة كولومبيا الثانوية في سنواته الإعدادية والعليا، وكم كان منزعجاً. قالت إيمي، بخصوص جاك موليناس وفضيحة مباراة الكلّيّة، عشرات المباريات أُعيدت في المواسم السابقة برشوة اللاعبين بعدّة مئات من الدولارات بينما استفاد مولينز ورفاقه المقامرين كثيراً من عشرات الآلاف أسبوعياً. كل شيء في هذا البلد يُقايَض بالمال، قالت إيمي. مسابقات التلفاز، ألعاب كرة السّلّة الجامعية، سوق البورصة، الانتخابات الرئاسية، لكنْ، كان جيم أكثر نقاءً من أن يفهم ذلك. ربّما كذلك، قال فيرغسون، لكن جيم كان نقياً فقط، لأنه رأى الأفضل في الناس، وتلك صفة حميدة كما يشعر، واحدة من الأشياء التي أُعجب بها بشدّة في أخ إيمي، وحالما قال فيرغسون الكلمة *أُعجب* انتقل الحديث إلى موضوع آخر - المقالات التي وجب عليهما كتابتها لمسابقة المدرسة العامّة في كانون الثاني. كان الموضوع "*شخص أُعجب به كثيراً*"، ويجب على الجميع المشاركة، كل طالب في صفوف السابع، والثامن، والتاسع، مع جوائز لأفضل ثلاث مقالات في كل من الصفوف الثلاثة. سأل فيرغسون إيمي إن اختارت أحداً بعد.

بالطبع فعلتُ. لقد تأخّر الوقت، كما تعلم. يجب أن نسلّمها في الثالث من كانون الثاني.

لا تجعليني أخمّن. سأخطئ.

إيما غولدمان.

يبدو الاسم مألوفاً، ولكنْ، لا أعرف الكثير عنها. تقريباً لا شيء، في الحقيقة.

ولم أكن أعرف أيضاً، لكن العمّ جيل أعطاني سيرة ذاتية كهدية، والآن أنا أحبّها. هي واحدة من أعظم النساء اللواتي عشنَ إطلاقاً. (*وقفة قصيرة.*) وماذا عنكَ، سيّد فيرغسون؟ أيّة أفكار بعد؟

جاكي روبنسون.

آه، قالت إيمي، لاعب البيسبول. ولكنْ، ليس أي لاعب، صح؟

الرجل الذي غيّر أمريكا.

ليس خياراً سيّئاً، يا آرتشي. استمرّ.

هل أحتاج إذنكِ؟

بالطبع تحتاج، يا سخيف.

عندها ضحكا، وعندها قفزت إيمي على قدميها، وقالت: تعال ننزل إلى الأسفل. أنا أتضوّر جوعاً.

يوم الثلاثاء، خرج فيرغسون لجلب البريد، ليجد رسالة أُودِعتْ باليد قابعة في صندوق البريد - لا طوابع، لا عنوان، فقط اسمه مكتوب على الوجه. كانت الرسالة مقتضبة:

عزيزي آرتشي:

أكرهكَ.

مع الحبّ، إيمي.

ملاحظة: سأُرجع المخطوطة غداً. أحتاج رحلة إضافية مع هانك وفرانك قبل أن أُخلي سبيلها.

عاد أبوه إلى ميبلوود في الخامس من كانون الثاني. كان فيرغسون يتوقّعه أن يقول شيئاً عن القصّة، ولو ليعتذر عن عدم قراءتها، لكنه لم يقل شيئاً، وعندما استمرّ في التجاهل خلال الأيّام التالية، افترض فيرغسون أنه أضاعها. وبما أن إيمي أعادت النسخة المطبوعة الأصلية حينها، فإن ضياع النسخة كانت لم يكن ذا أهمّيّة. ما يُؤخَذ بالاعتبار هو كم يبدو أبوه قليل الاهتمام بذلك الأمر قليل الأهمّيّة، ولأن فيرغسون عزم على عدم التّحدّث معه في الأمر إلا إذا تحدّث أبوه عنه أوّلاً، تطوّر إلى أمر له أهمّيّة كبيرة، له أهمّيّة أكبر وأكبر مع مضيّ الوقت.

3.1

كان هناك الألم. كان هناك الخوف. كان هناك الارتباك. متبتّلان يفتض كلّ منهما بكارة الآخر بأقلّ ما تيسّر من وعي ما هما مقدمان عليه، تجهّزا له دون أن يأخذا بعين الاعتبار سوى أن فيرغسون قد تدبّر علبة واقيات ذكرية، وأن إيمي، مستبقةً الدم الذي لا محالة سيسيل منها، قد فرشت منشفة حمّام بنّيّة داكنة فوق الشرشف التّحتيّ لفراشها - حيطة مستوحاة من التأثير المزمن للحكايا القديمة، والتي أُثبت بطلانها على أرض الواقع. البداية تلفّها البهجة، إحساس بنشوة أن يتعرّى كلّ منهما أمام الآخر للمرّة الأولى منذ مرحهما الصاخب المنسي لأمد طويل على الفرشة في صغرهما، إمكانية تلامسِ كل سنتمتر مربّع بين جسديهما، اهتياج الجلد العاري في إطباقه على الجلد العاري، لكنْ، مع بلوغ استثارتهما الذروة، كانت الصعوبة في التّقدّم باتّجاه الخطوة التالية، قلق أن يلجها شخص آخر للمرّة الأولى، أن تُولَج من قبل شخص للمرّة الأولى، تشنّجت إيمي في اللحظات الأولى، لأن الأمر يؤلم للغاية، أحسّ فيرغسون بالعذاب لتسبّبه بذلك الألم، فتأنّى، وسحب قضيبه بأكمله، بعد ذلك ثمّة انتظار لدقائق ثلاث، ثمّ تشبّثت إيمي بفيرغسون، وطلبت منه البدء من جديد، وهي تقول، فقط افعلها، يا آرتشي، لا تقلقْ بشأني، افعلها، وفعلها فيرغسون، مدركاً أنه لا يسعه إلا أن يقلق بشأنها، لكنه مدرِك أيضاً أنه يجب خرق الحدّ الفاصل، تلك هي اللحظة التي نالاها، ورغم الرّضّة الداخلية التي لا بدّ جعلتها تشعر بالتّمزّق، ضحكت إيمي حين فرغا، ضحكت ضحكتها الصاخبة، وقالت: *أنا سعيدة للغاية، أظنّني أكاد أموت من فرط السعادة.*

كم كانت نهاية أسبوع غريبة، لم يغادرا خلالها الشّقّة، ومكثا جالسين على الصوفا يشاهدان جونسون يدلي بالقَسَم بصفته الرئيس الجديد، وشاهدا أوزوالد يُقتاد بسيّارة الشرطة إلى السجن ببلوزته الملطّخة بالدم محتجّاً أمام الكاميرا بأنه لم يكن إلا مجرّد *أبله*، كلمة سيقرنها فيرغسون أبداً بالشّابّ سهل الانقياد الذي اغتال أو لم يغتلْ كينيدي بمفرده، تفرّجا على فاصلٍ قصير تخلّل الأخبار لأداء أوركسترا ترنيمةً جنائزية من *إرويكا* سمفونية بتهوفن الثالثة، شاهدا موكب الجنازة عبر شوارع واشنطن يوم الأحد، وغصّت إيمي لمرأى الجواد دون الفارس، وشاهدا كيف تسلّل

جاك روبي إلى مركز شرطة دالاس، وأطلق النار على بطن أوزوالد. مدينة وهمية. البيت الشِّعْري لـ إليوت ما فتئ يضجّ في رأس فيرغسون طيلة تلك الأيّام الثلاثة التي أتيا خلالها بالتدريج على الطعام في المطبخ، البيض وضلع الخروف وشرائح الديك الرومي وعلب الأجبان ومعلّبات سمك التونا وعلب رقائق الحبوب الخاصّة بالفطور والكعك الصغير، إيمي تدخّن بشراهة لم يعهدها فيها من قبل، ويدخن هو معها للمرّة الأولى مذ تعارفا، يجلسان معاً على الصوفا، ويسحقان أعقاب سجائر اللوكي بانسجام، ثمّ يلقي كل منهما بذراعيه حول الآخر، ويتبادلان القبل، عاجزَين أن يكبحا نفسيهما عن ارتكاب تقبيل ما لا يُقبَّل في لحظة احتفالية، وعن ترك الصوفا كلَّ ثلاث أو أربع ساعات، ليزورا غرفة النوم، ويتجرّدا من ثيابهما، ويصعدا الفراش من جديد، كلاهما متقرّح الآن، ليست إيمي وحدها، بل فيرغسون أيضاً، مع ذلك لن يستطيعا ضبط نفسيهما، كانت المتعة دائماً أقوى من الألم، ومن الشؤم الذي خيّم على نهاية الأسبوع البائسة هذه، التي كانت أعمق وأهمّ ما عاشاه في شبابهما.

كان ممّا يرثى له أن لا مزيد من فرص اللقاء توفّرت لهما طيلة الشهرين التاليين. تابع فيرغسون سفره كل سبت إلى نيويورك، لكن شقّة إيمي لم تعد تخلو ما يكفي لأن يعاودا الحبّ في غرفة النوم. فأحد والديها كان دائماً في الجوار، وغالباً كلا الوالدين، وحيث أن لا مكان آخر يلتجآن إليه، كان الحلّ الوحيد في أن يغادر آل شنايدرمان المدينة من جديد - وهذا ما لم يفعلاه. لذلك قبلَ فيرغسون دعوة ابنة عمّه للذهاب للتزلّج في فيرمونت أواخر كانون الثاني. ليس لأنه كان راغباً بالتزلّج، الذي جرّبه مرّة، وشعر أنه لن يكرّر التجربة، بل لأن فرانسي أخبرته أن البيت الوحيد الذي يمكنهما استئجاره في نهاية الأسبوع كان منزلاً عتيقاً واسع الأرجاء مؤلّفاً من خمس غرف، فكّر فيرغسون بأنه قد يكون هناك أمل ما. الكثير من الغرف، قالت فرانسي، ما فسّرَ سبب تفكيرها بالاتّصال به، وسؤاله فيما إذا كان يرغب باصطحاب صديق معه، وسيكون لذلك الشخص غرفته الخاصّة هو الآخر. هل تُعدّ "الصديقات" أصدقاء؟ سألها فيرغسون. بالتأكيد إنهنّ من ضمن الأصدقاء! قالت فرانسي، ومن طريقة جوابها على السؤال، من حماسها الدّفّاق المرافق لرنّة كلمة (*بالتأكيد*)، افترض فيرغسون بشكل طبيعي أنها فهمت أنه كان يخبرها عن ارتباطه بـ إيمي، وأنهما راغبان بالنوم في غرفة النوم نفسها، لأن فرانسي كانت قد تزوّجت في الثامنة عشرة، أي أنها كانت آنذاك أكبر من عمر إيمي الحالي بسنة واحدة، ولو عرف أحد ما معنى شهوة المراهقة المقموعة، لكانت ابنة عمّه ذات السبعة والعشرين عاماً، التي بقيت ابنة عمّه المقرّبة منذ كان في الحفّاضات. أبدت إيمي تحفّظها إزاء قراءة فيرغسون المتفائلة لـ (بالتأكيد) التي قالتها فرانسي، مُدرِكةً كم انحرف كلٌّ منهما عن القواعد المسلَّم بها للمسلك

الجنسي، التي لم تسمح بالجماع بين الجنسين غير المتزوّجين وحسب، بل عَدّته فضيحة غير قابلة للجدال، لكنْ، قالت في سرّها، لم تذهب إلى فيرمونت من قبل، ولم تمارس التزلّج، وهل أجمل من *نهاية أسبوع تقضيها في الثلج مع آرتشي*؟ وأما عن الشؤون الأخرى، فسيتعيّن عليهما معرفة مَن كان محقّاً، ومَنْ كان مصيباً، وإذا تكشّف أنها كانت محقّةً، فذلك لن يعني أنه لن يكون هناك شيء من التّنقّل بين الغرف آخر الليل بغية انسلال صامت في فراش أحد ما.

انطلقوا في ظهيرة جمعة باردة، وقد حشرت إيمي وفيرغسون نفسيهما في سيّارة الستيشن – واغن الزرقاء المكتظّة بـ فرانسي، وزوجها غاري، وولديّ عائلة هولاندر، الكبرى روزا ابنة السنوات السّتّ والأصغر ديفيد ذي الأربع سنوات، وكان من حسن حظّ الكبار أن الصغار استسلموا للنوم معظم الساعات الخمس التي استغرقوها لبلوغ بلدة ستوو.

أطلقتْ فرانسي على ابنتها اسمَ والدة فيرغسون، رغم أن الاسمين غير متطابقين. كانت التوصية بألا يُسمّى الأولادُ بأسماء الوالدين والجَدّين والأقارب الأحياء بمثابة التشريع الذي لم يزل يتّبعه حتّى اليهود غير الملتزمين دينياً، الذي فسّر فرقَ الحرف الواحد بين روز وروزا، اللفتة الحاذقة التي طلَعَ بها غاري المحامي كي يتحاشى التقليديين في العائلة، لكنْ، مع ذلك وُجدَ الاسمُ لكي يدرك الجميع أن روزا تكريم لـ روز، وبتلك الإشارة كانت فرانسي وغاري يبلغان العالم أنهما أوليا ظهريهما لـ أرنولد فيرغسون، الذي قصم ظهر العائلة بالجريمة التي ارتكبها بحقّ أخيه، ومنذ ذلك الحين تحوّل ولاؤهم إلى ذلك الأخ، الضحية ستانلي وزوجته روز، التي أحبّتها فرانسي منذ اللحظة الأولى التي وقعت عيناها عليها، وهي لا تزال بنتاً صغيرة. لم يكن من السهل على فرانسي القيام بتلك الخطوة، أن تدين والدها بينما لا تزال تشعر بقربها الشديد من والدتها وأخيها وأختها، غير أن ازدراء غاري لوالد زوجته كان عاتياً، وكان اشمئزازه من انحطاط الرجل أخلاقياً وخيانته قاطعاً، بحيث لم يكن لفرانسي إلا خيار الوقوف إلى جانب زوجها. كانا بطبيعة الحال قد تزوّجا قبل سنتين من وقوع السطو، وسكنا في شمال غرب ماساتشوستس مع تخرّج غاري في جامعة ويليامز، كأحد "ثلاثة شركاء" في صفّه، وكانت فرانسي ابنة العشرين عاماً حبلى بطفلها الأوّل، الذي وُلد بعد عدّة أشهر من افتضاح تورّط والدها بنهب المخزن. في تلك الأثناء، انتقل كلُّ مَنْ تبقّى مِنَ العائلة إلى كاليفورنيا، ليس والداها وحسب، بل أيضاً روث الصبية المطيّعة، التي كانت قد أنهت لتوّها المرحلة الثانوية، والتحقت بصف لدراسة السكرتاريا في لوس أنجلوس، وحتّى جاك، الذي هجر الدراسة في روتجرز وهو في سنته الأخيرة لكي ينضمّ إليهم، وهو قرار شجّعته فرانسي وغاري على عدم الإقدام عليه، ما دعا جاك للرّدّ عليهما بـ (*انقلعوا* ..) مرفقاً ذلك بإشارة من إصبعه الوسطى، ومع مولد روزا، لم يتجشّم أحد

السفر إلى الشرق سوى أمّ فرانسي وأخته لاحتضان المولودة الجديدة. قال جاك إن استغراقه في العمل منعه من المجيء، ولم يستطع أرنولد فيرغسون الوضيع المجيء، لأنه لم يعد يستطيع العودة إلى الولايات الشرقية مرّة أخرى أبداً.

لعلّ فرانسي عانت في ذلك الحين القدر نفسه من معاناة أي فرد من أفراد العائلة، لكن كلاً منهم عانى بطريقته أو طريقتها، وفي حين كان باستطاعة فيرغسون البوح، جعلت معاناة فرانسي منها شخصاً أميلَ إلى الهدوء، وأقلّ حماساً ممّا كانت عليه، نسخة أكثر تبلّداً من نفسها السابقة. ومن جهة أخرى، كانت تشعر بالتّقدّم في العمر، وبطبيعة الحال عبَرتْ المرحلة التي كان يطيب لـ فيرغسون تسميتها خلالها بـ *الراشدة مكتملة النضج*، وحتّى لو بدا زواجها ناجحاً، لم يكن ثمّة شكٌّ في أن غاري قد يكون معتدّاً بنفسه ومتغطرساً أحياناً، وشيئاً فشيئاً بات يميل إلى محادثة نفسه بطريقة جوفاء وصاخبة حول انحدار الحضارة الغربية وسقوطها، خصوصاً في تلك الآونة، وقد مضت سنتان على عمله في مكتب المحاماة الخاصّ بأبيه، وبدأ يجني من المال ما يجنيه المحامون الكبار، الذي لا بدّ قد حجّمها وأنهكها إلى حدّ ما، ناهيكَ عن الأمومة، التي تُنهِك الجميع، وعلى الأخصّ أمّاً مهتمّة ومعطاءة مثل فرانسي، التي نذرت نفسها لطفليها بالطريقة نفسها التي عاشتها العمّة جوان لأجل أولادها. لا، قالها فيرغسون لنفسه، بينما الستايشن واغن تتّجه شمالاً وسط الظلام المتكاثف، ليس عليه أن يبالغ. حتّى ولو ابتلَتْها الحياةُ بعض الشيء، فإن فرانسي لم تزل فرانسي القديمة ذاتها، *ابنة العمّ الساحرة* رفيقة صباه، افترَضَ أنها تعيش شيئاً من كبوة الآن، مثقلة كما كانت بذكرى خيانة والدها، لكنْ، كم بدت سعيدة عندما قبِلَ دعوتها لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، وكم نبيلة كانت بأن تشمل إيمي بهذه الـ "*بالتأكيد*!" المدهشة، وها هم جميعاً جالسون معاً في السّيّارة، في الخلف فيرغسون مع الطفلين النائمين وفرانسي في المقعد الأمامي بين غاري وإيمي، استطاع أن يلمح وجه ابنة عمّه الذي لم يزل يحتفظ بنضارته من خلال المرآة الأمامية كلّما أضاءته مصابيحُ سيّارة عابرة، وفي واحدة من تلك اللحظات، عند منتصف الرحلة تقريباً، عندما ألقتْ نظرة خاطفة، ورأته ينظر إليها، استدارت، مدّت ذراعها اليسرى، وقبضت يده، تلك القبضة التي حوّلتها إلى اعتصارة قوية طويلة. أكلّ شيء على ما يرام؟ سألتْه. أنتَ هادئ بطريقة مريعة في مقعدكَ الخلفي.

كانت على حقّ، فلم يتحدّث الكثير في الساعة الأخيرة، لكن ذلك كان لمجرّد أنه لم يشأ إيقاظ الولدين، ولذلك كان ذهنه يجول، ويحوم حول الشؤون القديمة للعائلة، وقد كفَّ عن الإصغاء إلى الحديث الذي كان يدور بين إيمي وغاري في المقعد الأمامي، همدَ جسده لهدير العجلات تحته، عاوده الشعور القديم لراكب السّيّارة بغشاوة الرؤية مع رفع السرعة إلى ستّين

ميلاً في الساعة، لكن الآن وقد اعتُصرت يده، وبدأ يركز انتباهه أكثر، تكثّف في ذهنه أن الأمر يكمن في السياسة، فإلى جانب الاغتيالات كلها، التي حدثت منذ أقلّ من شهرين، وكانت لا تزال الموضوع الذي لا يستطيع أحدٌ الكفّ عن التّحدّث بشأنه، ثمّة النقاشات الملحّة حول مَن ولماذا وكيف، مذ لاح أن قيام أوزوالد بها من تلقاء نفسه أمرٌ معقول، ونظريات أخرى بديلة بدأت تُتداوَل، كاسترو، الغوغاء، المخابرات المركزية الأميركية، وحتّى جونسون ذاته، التكساسي ذو الأنف الكبير الذي خلَف رجلَ المستقبل، ويبقى هناك عامل حاسم كما وضعت إيمي في الاعتبار، لكن غاري، الذي كان متسرّعاً في قراراته، أسماه *الشخصية المتملّصة*، سياسيَّ الغرف الخلفية عتيق الطراز الذي لم يكن على قدر المهمّة، وإيمي، مع اعترافها بأنه قد يكون على حقّ، إلا أنها ردّت باستحضار خطاب جونسون منذ فترة مبكّرة تعود لذلك الشهر، إعلان الحرب ضدّ الفقر، الذي كان أفضل خطاب رئاسي في حياتها، أضافت، وإن عليه الاعتراف بأنه ما من أحد وقف ونطق بمثل ذلك منذ روزفلت، ولا حتّى كينيدي. ابتسم فيرغسون وهو يسمع قبول غاري بهذا الرأي، ثمّ سرح في أفكاره مرّة أخرى وهو يفكّر بـ إيمي، إيمي الاستثنائية التي باتت تشكل علامة فارقة لدى عائلة هولاندرز، وقد استمالتهم منذ المصافحة الأولى، والتّحيّة الأولى، كما استمالته هو في حفل شواء عيد العمّال، والآن وهم يوشكون على حدود فيرمونت، كان بإمكانه فقط أن يبتهل أن يسير كل شيء كما خُطّط له، ألا يمضي وقت طويل قبل أن يتعرّى كلّ منهما تحت الأغطية من جديد في غرفة غريبة داخل بيت غريب وسط خلاءٍ ما في نيو إنغلاند.

كان البيت فسيحاً كما جاء في الإعلان، وفي المدى البعيد لاحت قمّة جبل نهضَ على مسافة عشرة أميال من منتجع التزلّج. ثلاث طبقات بدل الاثنتين المعتادتين، بُنيت أجزاؤه المُعَدّة للتأجير في زمن ما يعود لبدايات القرن التاسع عشر، وكان الصرير يصدر عن كل لوح من ألواح أرضية ذلك المبنى الخشبي المشرع للريح. كان الصرير مشكلة محتملة، حيث تبيّن أن تأويل إيمي لـ "*بالتأكيد*" التي قالتها فرانسي كان التأويل الصحيح، شيء ما جعل فيرغسون مجبرَاً على الاعتراف به عندما قام فريق الأشخاص السّتّة بجولته في أرجاء البيت، فهم ألا يضع ضيفاهما في الاعتبار أن يُسمح لهما بالنوم معاً في غرفة واحدة، وبالتالي عليهما اتّباع خطّتهما الاحتياطية، التي دعاها فيرغسون بـ حلّ *الهزلية الفرنسية*، الدعابات عند منتصف الليل عن فتح الأبواب وإغلاقها بمفاصلها الصدئة، عن عشّاق يزحفون على ممرات معتمة، غير مألوفة، عن أجساد تتسلّل إلى أسرَّة، لا يجدر أن تكون فيها، وصَريف خشب أرضية لن يعينهم في مساعيهم الماكرة. لحسن الحظّ، اقترح غاري وفرانسي أن ينام *الولدان الكبيران* في غرفتَي نوم السقيفة، و*الولدان الصغيران* يمكن أن يمضيا الليل في طابق والديهما، اللذين سيكونان قريبين، إذا

حدث ورأتْ روزا مناماً سيّئاً أو حادثة تبلّل فراش من ديفيد. وذلك سيكون نافعاً بحسب تفكير فيرغسون. سيكون صرير خشب الأرضيات فوق الآخرين بالضبط، بالطبع، تردده سيسري من أسفل السقوف، ثمّ مرّة أخرى، ثمّة الناس الذين يغادرون أسِرّتهم في حلكة الليل متعثّرين في طريقهم إلى الحمّام، وفي بيت قديم كهذا مَنْ يستطيع منع الأرضيات من إصدار هذه المؤثّرات الصوتية كتلك التي في أفلام الرعب؟ بأي نوع من الحظّ، يمكنهما اجتثاث هذا الصرير. وإذا لم يحالفهما الحظّ، ما هو أسوأ ما يمكن أن يحدث معهما؟ لن يحصل شيء بالغ السوء، قال فيرغسون في سرّه، قد لا يحصل شيء على الإطلاق.

للوهلة الأولى الوجيزة، مضى كلّ شيء بسلاسة. رتّبا لقاء الحبّ في الحادية عشرة والنصف، تسعين دقيقة بالتمام والكمال بعد أن يكون الصغيران قد اندسّا في الفراش، وتمنّى لهما والداهما ليلة سعيدة، وفي الساعة المحدّدة كان السكون يعمّ المنزل إلا من هبّات ريح متناوبة تنسرب عبر الجدران المتشقّقة، فيصلصل لها مؤشّرُ اتّجاه الريح المعدني. ومثبّتاً قدميه الحافيتين على الأرضية، نهض فيرغسون عن السرير المعدني، وبدأ الرحلة البطيئة باتّجاه غرفة إيمي، بحذر على رؤوس أصابعه فوق الألواح الخشبية المتفكّكة، متوقّفاً لدى أدنى طقطقة صدرتْ عن الخشب، ثمّ يعدّ خمسَ ثوانٍ قُبيلَ المخاطرة بالخطوة التالية. كان قد ترك الباب موارباً بعض الشيء، كي لا يضطرّ إلى تدوير أُكرَته، ما يُبعد خطر إحداث ضجيج مفاجئ ومرتفع من لسان القفل، ومع أن المفاصل كانت صدئةً قليلاً، إلا أنها برهنت عن هدوء يفوق الريح. يأتي بعدها الممرّ، بالخطوات الأربع عشرة المتبقّية التي تستكمل الرحلة المنشودة، ثمّ الدفع الخفيف لباب إيمي، الذي تُرك موارباً هو الآخر، وأخيراً ها هو في الداخل.

كان السرير ضيقاً للغاية، لكن إيمي كانت عارية في ذلك السرير، ولحظة خلع سرواله القصير، واندسّ إلى جوارها، كان فيرغسون قد أصبح عارياً، أيضاً، في ذلك السرير، وبدا له أن كل شيء على أحسن ما يرام، وبالغ الانسجام مع ما تخيّله وما سيشعر به، وأنها المرّة الأولى في حياته التي يتطابق الحقيقي والمتخيَّل، بكل اكتمالها، وكما لم يحصل من قبل، المرّة الوحيدة والشيء ذاته، ذلك الذي جعل منها اللحظة الأكثر غبطة في حياته حتّى الآن، كما اعتقد، من حيث إن فيرغسون ليس الشخص الذي تقبّل فكرةَ أنّ الرغبةَ المُنجَزة هي الرغبة المحبَطة، على الأقلّ ليس في حالة كهذه، حيث الشغف بـ إيمي لا معنى له من دون أن يحظى بـ إيمي، لا معنى له أيضاً من دون أن يحظى بإيمي الشغوفة به، والمعجزة أنها شُغفتْ به، وبالتالي فإن الرغبة المُنجَزة كانت في الواقع هي الرغبة المُنجَزة، إمكانية أن تمُضي لحظاتٍ شحيحةً في مملكةِ النعيم الأرضيّ سريعةِ الزوال.

لقد اكتسبا الكثيرَ خلال عطلة نهاية الأسبوع الصاخبة تلك، التي أمضياها منذ شهرين، الاضطراب بدايةً لأنهما تعرّفا بعد اللّاشيء على كلّ شيء تقريباً، لكنهما بالتدريج بدآ بتكريس معرفة تشمل ما يحاولان إنجازه، لعلها ليست معرفة متقدّمة، لكنها على الأقلّ معرفة المبادئ في كيفية عمَلِ جسد الآخر، إذ من دون الإلمام بتلك المعرفة لن تكون هناك متعة حقيقية، على الأخصّ بالنسبة إلى إيمي التي حاولت إرشاد فيرغسون الغرّ إلى النواحي المختلفة التي من خلالها تختلف النساء عن الرجال، والآن وقد بدا فيرغسون واعياً إليها، شعر بالهدوء والطمأنينة أكثر ممّا شعر بهما في نيويورك، وذلك ما جعل كلَّ شيء يبدو أفضل أداءً هذه المرّة، أفضل بكثير حتّى إنهما بعد دقائق في ظلام غرفة فيرمونت الدامس كفّا عن التفكير أين كانا.

كان السرير عبارة عن حديد عتيق، وفي أعلاه حَشِيَّة رقيقة توضّعتْ فوق دزّينَتَي نوابض، وكما الأرض الخشبية التي احتملت السرير، كانت بدورها تُصدر الصرير. تصرّ تحت ثقل جسد واحد، لكنْ، عندما بدأ الجسدان يتحرّكان في الوقت نفسه فوق تلك الحشيّة، بات صريرها مُدوّياً. جعلَ ضجيجُها فيرغسون يتخيّل القطار البخاري الذي يسير بسرعة 70 ميلاً في الساعة، بينما وجدت إيمي الضجيجَ شبيهاً بذلك الصادر عن آلة الطباعة التي تتمخّض عن نصف مليون نسخة من صحيفة الصباح الشعبية. في الحالين، كان الضجيج عالياً مقارنةً بالهزليات الفرنسية التي دوّناها في ذهنيهما، وفي الوقت الذي بدآ فيه يسمعان الضجيج، لم يعد في ذهنيهما سوى الصخب، الصياح الجهنّمي لالتحامهما المحموم، والآن كيف يُوقِفان نفسيهما وهما على الحافّة، يتهاديان على شفير الرغبة المُنجَزة؟ لم يستطيعا، وبذلك أوغل كلاهما حتّى تهاويا عن الجرف، وعندما توقّف القطار عن التّقدّم، وبات باستطاعتهما التقاط أصوات غير جلبتهما، سمعا جلبة أخرى آتية من الطبقة السفلى، عويل طفل جافلٍ وخائف، لا شكّ أنه الصغير، ديفيد، وقد عكّرت نومَه الضوضاء التي أحدثاها في الطابق العلوي، وبعد وهلة من ذلك، سمعا صوت خطوات، لا ريب أنها خطوات فرانسي، فرانسي الأمّ في طريقها لتُهدِّئ من روع طفلها بينما غاري غارق في الشخير، وهي اللحظة التي وثب فيها فيرغسون الخائف والمرتبك عن فراش إيمي، وفرَّ عائداً إلى غرفته، وهكذا انسدلت الستارة مُدوّيةً على مغامرتهما الممتعة في غراند بوليفار.

في السابعة والنصف من صباح اليوم التالي، دخل فيرغسون إلى المطبخ، ووجد روزا وديفيد جالسين إلى الطاولة، يلطمان سطحها بالسكاكين والشُّوَك، ويبكيان بشكل متناغم: نريد *فطائر!* نريد *فطائر!* كان غاري يجلس قبالتهما، يرشف القهوة بهدوء من الكوب، ويدخّن لفافته الـ بارلامنت الأولى في هذا النهار. كانت فرانسي، الواقفة قرب الموقد، قد رشقت ابن عمّها بنظرة سخط

خاطفة، وعادت إلى عملها بطهو البيض المخفوق. لم تكن إيمي في المكان، ما يعني أنها ربّما لم تزل نائمة في فراشها الصغير بالطابق العُلويّ.

وضع غاري كوب القهوة، وقال: وعدناهما البارحة بالفطائر، لكننا نسينا بعد ذلك أن نجلب معنا الموادّ الضرورية لتحضيرها. وكما يمكنكَ أن ترى، ليسا سعيدين بفكرة البيض المخفوق.

تابعت روزا ذات الشَّعْر الأحمر وديفيد الأشقر هجومهما ضدّ الطاولة بسكاكينهما وشوكهما، وهما يُوقّتان نقراتهما مع إيقاع ترنيمتهما المفضّلة: *ن ور يد - ال ف ا ط ا ئر!*

لا بدّ أن هناك متجراً في الجوار، قال فيرغسون.

عند المنحدَر، ثمّ إلى اليسار ثلاثةَ أو أربعة إيميال، أجاب غاري، نافثاً نفخة دخان كبيرة دلّت على عدم نيّته القيادة إلى هناك بنفسه. أنا سأذهب، قالت فرانسي، وهي تنقل البيض الذي فرغت من طهوه للتوّ من المقلاة إلى طبق أبيض كبير. سأذهب وآرتشي معاً، ألن تأتي، يا آرتشي؟

لكِ ما تطلبين، أجاب فيرغسون، وقد بوغتَ بصرامة سؤال فرانسي، الذي لم يكن سؤالاً بقدر ما كان أمراً. كانت ناقمة عليه. في البداية كانت النظرة العدوانية حين دخل المطبخ، والآن النبرة الهجومية في صوتها، الذي ربّما يعني أنها لا تزال تفكّر بهيجان غرفة السقيفة الليلةَ الفائتة، سرير القطار اللعين الذي سبّب استيقاظ الصغير في الطابق الثاني، وهي إساءة قابلة للغفران أمِلَ أن تتظاهر بنسيانها بلباقة، كما أدرك فيرغسون أنه يجب أن يعتذر إليها في تلك اللحظة، وفي ذلك المكان، كان أكثر ارتباكاً من أن ينبس بكلمة. لم يكن الخروج لشراء الفطائر ومزيج سائل شجر القيقب بغرض استرضاء الأولاد. كان ذلك مسوّغاً لها، لكن الباعث الحقيقي تمثّل في أن تنفرد به لبرهة من الوقت، لكي تؤنّبه، وتتداول معه في المسألة.

في تلك الأثناء، كان الولدان يصفّقان ويهلّلان، محتفلَين بنصرهما عن طريق بثّ القُبَل لوالدتهما الشجاعة، التي كانت ستواجه البرد والثلج بالنيابة عنهما. أما غاري، الذي بدا غافلاً عن مّا كان يحدث، أو على الأقلّ غير مبال به، فأطفأ لفافته، وشرع بأكل البيض المخفوق. بعد لقمة واحدة، ملأ شوكته من جديد، ومدّها إلى ديفيد، الذي مال للأمام، وتلقّاها بفمه. ثمّ ملأ شوكة لروزا، أتبعها بأخرى لنفسه. إنه جيّد جدّاً، قال، ألا توافقون؟ إنه لذيذ، قالت روزا. لذيذ في البطن العزيز! قال ديفيد، الذي ضحك من نكتته هو، ثمّ فتح فمه للقمة جديدة. ربط فيرغسون سيورَ حذائه، وهو يراقب المشهد، ويرتدي سترته الشتوية، وتخيّل فرخَي طائر لحظة تلقّيهما القوت. سواء كانت ديداناً أو بيضاً مخفوقاً، قال في سرّه، فالجوع هو الجوع ذاته، والأفواه المفتوحة هي الأفواه المفتوحة ذاتها، تمتدّ مفتوحة إلى أقصى ما يمكنها. الفطائر، فليكن، لكنْ، أوّلاً بعض لقيمات صغيرة لإمضاء الصباح بانتظار بداية أكثر لذّة.

كان هناك طيور حقيقية في الخارج، دُوريّ مبقّع بالبنّيّ، وأنثى كاردينال خضراء بلون الزيتون بعُرف قِرمِزيّ باهت، وشحرور أحمر الجناحين تكشّف عن لطخِ لون فجائية يشقّ السماء البيضاء المائلة إلى الرمادية، بعض ملامح من حياة تتنفّس في الصباح الشتائي المتقشّف - ومع عبور فيرغسون وابنة عمّه الفناء المغطّى بالثلج، وصعودهما إلى الستيشن واغن الزرقاء، وجد أنه من المؤسف تعكير نهاية الأسبوع تلك بمجادلة لا طائل لها. لم يحدث أن تشاجر وفرانسي طيلة السنوات التي عرفا بعضهما خلالها، لم تتخلّل معرفتهما حتّى كلمة واحدة قاسية، كان تفانيهما المتبادل دائماً وراسخاً، الصداقةَ الوحيدة والعميقة التي أنشأها هو مع قريب من أقرباء هذا الشطر من عائلته، عشيرة آل فيرغسون الممزّقة والمجنونة، كان هو وفرانسي من بين سائر أبناء العمومة والأخوة والأخوات والعمّات والأعمام القادرَيْن على اجتناب هذه العداوات ضيّقة الأفق، وممّا يؤلمه أن يفكّر بأنها قد تنقلب ضدّه الآن.

كان صباحاً بارداً، لكنه ليس برداً استثنائياً مقارنةً بمثل ذلك الوقت من العام، أربعة أو خمسة خطوط تحت درجة التّجمّد، وسرعان ما انتفض المحرِّك، وبدأ يعمل من أوّل دورة مفتاح. وحين جلسا ينتظران أن ترتفع درجة حرارة السّيّارة، سألها فيرغسون إذا كانت تفضّل أن يقوم هو بالقيادة بدلاً عنها. لن يتمكّن من استصدار ترخيص قيادة قبل بلوغه السابعة عشرة بعد نحو ستّة أسابيع، لكنْ، بحوزته ترخيص السائق المتدرّب، ونظراً لأن لديها ترخيص قيادة يخوّلها لأن تكون مرافقةً له، فإن القانون يتيح لهما تبادل مقعد القيادة. أضاف فيرغسون بأنه سائق جيّد، وأن أهله لأشهر عديدة خلتْ يوكلون إليه مهمّات السياقة أينما ذهب برفقتهم، سواء كان الراكب فرداً واحداً أو العائلة مجتمعة، ولم يحدث أن ندمت أمّه أو أبوه على ترك القيادة له. ندتْ عن فرانسي ابتسامة طفيفة صارمة، وقالت إنها تثق في أنه سائق ممتاز، ولربّما كان أفضل منها، لكنها الآن خلف عجلة القيادة، وهما يوشكان على الانطلاق، وقد يكون النزول من التّلّ صعباً بعض الشيء بالنسبة إلى مَنْ لم يقدْ على طريق ترابية، لذلك ستقوم هي بالقيادة، وشكرَتْه، وحين يصلان المتجر، ويبتاعان الأشياء اللازمة، ربّما يتبادلان مقعد السائق، ليقود في طريق العودة إلى البيت.

ما حدث أنه لم يكن هناك قيادة في طريق العودة إلى البيت. فلم يفلحا بالرجوع من متجر ميلر العمومي، لأنهما لم ينجحا بالوصول إليه أصلاً، وفي ذلك الصباح، الذي سيتذكّره فيرغسون على أنه *صباح الصباحات*، دفعَ ابنا العمّ معاً ثمن تلك الرحلة غير المكتملة في جبال فيرمونت، وخصوصاً فيرغسون، الذي كلّفه تسديد ثمنها سنوات طويلة ستأتي، ورغم أن أحداً لم يحمّله مسؤولية الحادث (كيف يكون المسؤول عنه إذا لم يكن هو سائق السّيّارة؟)،

إلا أنه لام نفسه إذ كان سبب تحويل نظرات فرانسي عن الطريق، فلو لم تنظر إليه بدلاً من الطريق، لما انزلقت على رقعة الجليد تلك، واصطدمت بالشجرة.

المشكلة في إدراكه بأنه لم يكن عليه الانجرار إلى الجدال. كان لـ فرانسي الحقّ كلّه في أن تكون مستاءة منه، وقرّر هو أن أفضل إجراء يتّخذه أن يجيبها بأقلّ ما يمكن من كلام، أن يومئ برأسه ويتقبّل أيّ حكم قاسٍ تنطق به ضدّه، وأن يقاوم إغواء الدفاع عن نفسه. دعها تغضب، فكّرَ، لكنْ، طالما كان باستطاعته أن يمنع هذا الغضب من استثارة غضبه هو، ربّما ستكون المواجهة قصيرة الأمد ومحدودة وسريعة النسيان.

أو لعلّ هذا ما ظنّه فيرغسون. فقد كان خطؤه في افتراض أن المشكلة المركزية كمنتْ في الضجيج، طيشِ ذلك الضجيج أو الأنانية التي ظهرت منه بفرضها على الآخرين، لكن الضجيج لم يكن إلا جزءاً من الأمر، الجزء الأصغر منه، وحالما فهمَ أن الهجوم كان أبعد بكثير ممّا أعدّ نفسه لمواجهته، تداعى مع مقاومته، وعندما انفجرت فرانسي في تهجّمها عليه، انفجر في ردّه المتهجّم عليها.

أفلحت في السيطرة على السّيّارة مسافةَ ميل في طريق النزول من المرتفع دون عناء يُذكَر، لكنْ، حين بلغت أسفلَه، وخفّفت السرعة، انعطفت إلى اليمين بدل اليسار، وحيث إن غاري قال إن المتجر إلى الجهة اليسرى، ذكّرها فيرغسون بذلك، غير أن فرانسي اكتفت بالنقر بأصابعها على عجلة القيادة، وأكّدتْ له أن ليس عليه أن يقلق بهذا الشأن، فليس غاري خبيراً في تحديد الاتّجاهات، إذ تختلط عليه الأشياء، وحين يشير إلى الانعطاف يساراً، فذلك لا بدّ أن يعني وجوب الانعطاف يميناً. كان ما قالتْه طريفاً، فكّر فيرغسون، إلا أن الكلمات لم تشِ بالطرافة حين خرجت من فم فرانسي، بل وشت عن مرارة وشيء من الازدراء، وكأن فرانسي كانت تضمر غضباً ما تجاه غاري في أمر ما، أو غضباً تجاه أحد آخر لأمر ما مختلف، فأخوها جاك، على سبيل المثال، الذي لم يعد يلتقي بها إلا نادراً، أو العبء الذي تحمله بسبب أبيها، بعد أن خسر لتوّه عمله الجديد، وبات يعيش على راتب البطالة مرّة أخرى، أو ربّما بسبب الرجال الثلاثة في الوقت نفسه، الذين انضاف إليهم رجل رابع هو فيرغسون الذي كانت في نهايات علاقتها به ذلك الصباح، وحقيقة أنها كانت قد اتّخذت الوجهة الخطأ، وأوغلت أكثر فأكثر في الابتعاد عن المتجر لم تساعد على تلطيف مزاجها عندما اكتشفت خطأها، الذي كان يعني أن الشطر الثاني من الرحلة المبتورة قد سُلخ على سلسلة من الطُّرُق الفرعية الملتوية بحثاً عن مسلك للعودة إلى الطريق السريعة الخاصّة بالمقاطعة من حيث بدآ، مع تعكّر المزاج والخيبة التي نزلت على ابنة عمّه الأولى التي لم تعد بطبيعة

الحال تحتمل المزيد، على فرانسي التي ركّزت على الغرض الأساسي الذي دعاهما أساساً للخروج من المنزل، فنقلته إليه.

كم كان محزناً، قالت، كم كان محزناً ومخيّباً أن تكتشف التجاء ابن عمّها الغالي إلى الحيلة الكاذبة، وأنه كان مجرّد تافه آخر في خطّ طويل من التافهين! وكيف تجرّأ *واستغلّها* بتلك الطريقة، بجَرِّ صديقته إلى فيرمونت، لكي *يضاجعها* من وراء ظهر الآخرين؟! كان ممّا يبعث على الاشمئزاز، أن ولدين شبقين أحبّهما الكلّ خلال الرحلة سيتسلّلان خلسة إلى غرفة السقيفة في الليل، ويتضاجعان فوق سقف، ينام تحته *طفلان صغيران*، وكيف سوّلت له نفسه أن يفعل ذلك بها، هي التي أحبّته منذ يوم ولادته، هي التي حمّمته، واعتنت به، ورأته يكبر يوماً فيوم؟! وماذا يُفترَض أن تقول لوالدته، التي سمحت له بالذهاب إلى فيرمونت، لأنها تأكّدت بأنه سيكون سالماً مع ابنة عمّه، هناك مسألة ثقة في مجمل الأمر؟! قالت، فكيف استطاع كسرَ هذه الثقة تحت سقف ابنة عمّه، هذا المراهق المنفلت الذي عجز عن ضبط عضوه داخل بنطاله لليلة واحدة؟! والحقيقة أنها لم تعد تريده هناك بعد الآن، وستوْدِعُه وصديقته العاهرة في حافلة بعد ظهيرة هذا اليوم، وتُعيدهما إلى نيويورك، وسيطيب توديعهما كما سيطيب التّخلّص منهما معاً ...

كانت تلك البداية. بعد خمس دقائق، وكانت لا تزال في حديثها، وعندما طلب منها فيرغسون أخيراً أن تخرس وتُوقِف السّيّارة، صارخاً أنه قد تحمّل ما يكفي، ويريد أن يكمل طريق عودته إلى البيت على قدميه، لكي يجلب أغراضه، التفتت إليه فرانسي وقالت، بما يشبه الجنون في عينيها، لا تكن سخيفاً، يا آرتشي، ستتجمّد حتّى الموت في الخارج، ما أكّد له أنها تعاني شيئاً ما غير سَوِيّ، ذلك أن ذهنها كان يميد، على حافّة الانصداع، ولأنها مضت تنظر إليه كأنها لم تعد تتذكّر ما الذي قالته منذ هنيهة، تبسّم لها، وحين استجابت بابتسامة، أدرك أنها سهتْ عن مراقبة الطريق، وفي اللحظة التالية، أطبقتِ السّيّارة بعنف على الشجرة.

لم يكن هناك أحزمة أمان في سنة 1964، ونتيجة لذلك تأذّيا جرّاء الحادث، رغم أن السّيّارة كانت تسير بسرعة معتدلة، في مكان ما تتراوح السرعة فيه بين ثلاثين وخمسة ثلاثين ميلاً في الساعة. فرانسي: ارتجاج دماغي، كسر ترقوة يسرى ناجم عن الصدمة لحظة اندفاعها للأمام إلى عجلة القيادة، ومع خروجها من المشفى في فيرمونت، تُرحّل إلى مشفى في نيوجرسي، لكي تعالَجَ ممّا وصفه الأطبّاء لـ غاري بأنه انهيار عصبي. فيرغسون: فقدان وعي ونزف في الرأس والساعدين والكفّ اليسرى، التي صدمت أوّلاً الزجاج الأمامي، ومع عدم حدوث كسور عظمية (ضربة حظّ نادرة الحدوث أذهلت الفريق الطّبّيّ، ودفعت بعض الممرّضات لتسميتها معجزة

طبّيّة)، بتر إصبعين في تلك الكفّ اليسرى بسبب شظايا الزجاج الأمامي، كلا المفصلين في الإبهام مع مفصلي السّبّابة العُلويين، ولأن الأصابع كانت قد دُفنت في الثلج، ولم تُستَعَد حتّى الربيع، كُتب على فيرغسون أن يُكمل بقية حياته كرجلٍ بثماني أصابع.

لم يتقبّل الأمر بسهولة، أدرك أنه يجب أن يشعر بالسعادة، لأنه لم يمت، لكن هذه النجاة كانت واقعاً، شيئاً لم يعد قابلاً للنقاش، والنقاش الآن في حضوره لم يكن نقاشاً بقدر ما كان صرخة إحباط: ماذا كان ينتظره؟ لقد بات مشوّهاً، وحين نزعوا الضماد وأروه كيف بدت يده، كيف ستبدو عليه دائماً منذ الآن فصاعداً، تقزّز ممّا رأى. يده لم تعدْ يدَه. إنها يدُ شخص آخر، وحين تأمّل في الرّقع المخيطة والمسَوّاة التي كانت إبهامه وسبّابته فيما مضى، شعر بالغثيان، وأشاح بوجهه عنها. بشعة للغاية، أبشع من أن تستطيع النظر إليها - يد *الوحش* هذه. قد انضمّ إلى فرقة الضّالّين، قال في نفسه، ومن الآن فصاعداً سيُنظَر إليه على أنه أحد أولئك الناس المعوقين، المحطّمين الذين لم يعودوا ضمن الأفراد مكتملي الانتماء إلى الجنس البشري، ومن ثمّ سيزداد ألم ذلك الإذلال الغادر، ستكون هناك بلوى وجوب تعلّم مئات الأشياء التي أجادها مذ كان صبياً صغيراً، ما لا يُعَدّ من مناورات يؤدّيها لاشعورياً شخص ذو إبهامين كل يوم، كيف يربط حذاءه؟ كيف يزرّر قميصه؟ كيف يقطّع طعامه؟ كيف يستعمل الآلة الكاتبة؟ وإلى حين تصبح هذه المهامّ تلقائية بالنسبة إليه مرّة أخرى، ما قد يستغرق أشهراً، وربمّا سنوات، سيتذكّر دائماً إلى أي درك قد وصل. لا، فيرغسون لم يكن ميتاً، لكن كلمات أخرى تبدأ بحرف (م) لازمته كعصبة الأولاد الفقراء في الأيّام التي تلتْ الحادث، واستحال عليه تحرير نفسه من لفظ هذه الأحاسيس: محطَّم، مكتئب، مبهوت، مثبط، محزون، مترمِّد المزاج، متهوّر، مُسوِّغ، مقهور، مربَك، مضطرب، مبتئس، مهزوم.

كان خوفه الأكبر أن تتوقّف إيمي عن حبّه. ليس لأنها تريد ذلك، وليس حتّى لأنها ستصبح أكثر وعياً لمشاعرها، بل لأنه ما من أنثى ستتمتع بأن تلمسها تلك اليد البتراء والمشوّهة، التي ستشمئزّ لها النفس، وستقتل الرغبة كلّها، وشيئاً فشيئاً سيتراكم النفور حتّى تبدأ هي بالابتعاد عنه، وتتركه يهجرها بالتدريج، وإذا خسر إيمي لن يتحطّم قلبه فحسب، بل إن حياته ستتداعى للأبد، ما الذي يمكن أن يدفع امرأة بكامل صحّتها العقلية لأن تنجذب إلى رجل مثله، كائن مشوّه مثير للشفقة، يجول الأمكنة بـ *خطّاف* ناتئٍ من ذراعه اليسرى بدلاً من الكفّ؟ أسىً لا يُحَدّ، وحدة لا تُحَدّ، وخيبة لا تُحَدّ - ذلك سيكون قدره - ورغم أن إيمي لازمته في المشفى طيلة نهاية الأسبوع، ثمّ بعدها لم تذهب إلى المدرسة، لكي تبقى إلى جواره أيّام الاثنين والثلاثاء والأربعاء، تداعب وجهه، وتقول له إن كلّ شيء سيكون كما كان بالتمام والكمال، وخسارة إصبعين

كانت صدمة بغيضة، لكنها ليست نهاية العالم، فملايين الناس يعيشون أسوأ من ذلك بكثير، ويواجهون هذا العيش بشجاعة دون أن يمنحوه ثانية تفكير، وحتّى عندما كان فيرغسون يصغي إليها ويتأمّل وجهها حين تخاطبه، تساءل في سرّه إذا كان ما ينظر إليه ليس شبحَ أو بديلَ إيمي الذي كان يؤدّي حركات إيمي الحقيقية، أو إن كانت أطبقتْ عينيه لثانيتين، تساءلَ إن كانت ستتلاشى قبل أن يُتاح له فتحهما من جديد.

بدورهما، غادر والداه مونتكلير، لكي يكونا إلى جانبه، وكانا مفرطي اللطف معه، تماماً كما كانت إيمي مفرطة بلطفها معه، تماماً كما الأطبّاء والممرّضات كانوا مفرطي اللطف معه، ومع ذلك كيف لأيٍّ منهم أن يدرك ما كان يعتمل في داخله؟ كيف يفهمون أن ذلك عكس ما درجوا جميعاً على ترداده أمامه؟ فالحقيقة أنها *نهاية العالم*، على الأقلّ الجزء الضئيل من العالم الذي يتعلّق به، وكيف يبوح لهم بالخراب الذي يشعر به كلّما فكر بالبيسبول، *اللعبة الأكثر غباء التي وُجدت على مرّ الأزمان*، بحسب آن - ماري دومارتان التي رحلت منذ زمن طويل؟ لكنْ، لا يزال يعشق هذه اللعبة، وكم كان يترقّب تدريبات المنتخب الداخلية الأولى، التي رُتّبت على أن تبدأ في أواسط كانون الثاني، والآن قد انتهى أيضاً شطر البيسبول من عالمه، فلن يعود بوسعه إمساك المضرب بكفّه اليسرى ذات الإصبعين المفقودتين، ليس بالطريقة المحكمة، ليس بالطريقة التي كان يلزمه أن يمسك به، فيؤرجحه بقوّة، وكيف يتحكّم بالأصابع الثلاث بقفّاز مصمّم لخمس أصابع؟ سينحدر إلى مرتبة ذوي المقدرة المتوسّطة إذا جرّب اللعب مع المعوقين، وذلك ما لن يكون مقبولاً لديه، خصوصاً الآن، وهو يُحضِّر نفسه لموسم عمره، موسم من النوع الذي يجمع اتحادات اللعبة كلّها، على مستوى البلاد، ومن الولايات كلها، ما يسبّب نوعاً من الإثارة والحركة، إذ سيبدأ مستكشفو اللاعبين المحترفين بالتوافد لمشاهدة *سالب الألباب* في القاعدة الثالثة ذي معدّل 400. من قوّة استخدام المضرب، الذي سيوصل إلى تعاقد نهائي مع نادي الاتّحاد الرئيس، ذلك سيجعل منه أوّل شاعرٍ ولاعبِ بيسبول في سجلات تاريخ الرياضة الأميركية، والحائز على جائزة بوليتزر وحامل لقب أغلى لاعب، ولأنه لم يجرؤ على الجهر بحلم يقظته هذا لأحد أبداً، فلن يستطيع الآن، ليس وهو يجد نفسه على وشك البكاء كلّما فكّر بالعودة إلى مونتكلير، وإبلاغ مدرّبه بأنه لم يعد قادراً على اللعب مع الفريق، قابضاً كفَّه اليسرى البائسة، لكي يثبت أن مسيرته قد انتهت، عند الفاصل الذي سيهزّ فيه سال مارينو المقتضب في كلامه والضّيّق في تعبيره عن التعاطف رأسَه بنوع من المواساة، مدمدماً بكلمات قصيرة شحيحة ستخرج من فمه بما يشبه: *ضربة قاصمة، أيّها الصبيّ. سنفتقدكَ.*

غادرتْ إيمي ووالده صباح الخميس، لكن والدته بقيت معه حتّى تسريحه من المشفى،

اتّخذتْ غرفة في نزل قريب، واستأجرت سيّارة صغيرة لتنقّلاتها. كانت شدّة تعاطفها معه أكثر ممّا يحتمل، العينان الودودتان الأموميّتان اللتان لم تملاّ من التّطلّع إليه، لتقولا له إلى أي مدى تعدّ آلامَه آلاماً لها، مع ذلك، ولأنها فهمت كم يمقت أن تبالغ في الاهتمام والحنوّ، كان ممتنّاً لها لعدم الخوض في الإصابة التي لحقت به، لعدم عرضها أيّة نصيحة، لعدم حثّها له على رفع *المعنويات*، ولعدم ذرفها أيّة دموع. أدرك حجم الدمار المريع الذي أحاق به وكم مؤلم لديها أن تنظر إليه، ليس فقط إلى قطَب المعالجة الجراحية على كفّه اليسرى، التي لم تزل حمراء ومتسلّخة ومتورّمة، بل إلى الضماد الملفوف حول ساعديه، لتحجب الأربعة والسّتّين قطبةً التي لأَمتْ جلده المُقَوَّر، والبقع الغريبة من الشَّعْر الحليق التي تُبقِّع فروة رأسه، حيث أُجري المزيد من القطَب في أسوأ مواضع التشطيب والجروح البليغة، لكنْ، لم يبدُ أن أيّاً من ندوب المستقبل تلك تُقلقها، الأمر الوحيد الذي اهتمّت له أنه خرج من الحادث سليماً معافى، الذي لم تكفّ المرّة تلو الأخرى عن تسميته بالـ نعمة، طور الحظّ الأوحد في حدثٍ لفّه سوءُ الحظّ بأكمله، وفي حين لم يكن فيرغسون في مزاج يصلح لأن يحصي النِّعَمَ حينها، فقد تفهّم رأيها، من حيث إنه كان هناك سُلَّم تراتبية، يُقوَّمُ بموجبه مدى التّشوّه، والعيش بكفّ مشوّهة أقلّ فظاعةً من العيش بوجه مشوَّه.

كان من الصعب أن يعترف في داخله كم أحبّ وجود أمّه معه. كلّما جلست على الكرسي المجاور لسريره، تبدّت له الأمور أفضل حالاً ممّا لو كان بمفرده، وغالباً، أفضل بكثير، ورغم أنه لم يزل متردّداً في ائتمانها على أسراره، إلا أنه لم يستطع منع نفسه من البوح لها كم شعر بالخوف عندما تخيّل مستقبله المعوّق، والذي لا قعر لجحيمه، الوِحشة الخالية من الحبّ التي تنتظره، المخاوف الصبيانية كلّها، المنطوية على ازدراء الذات - المخاوف ربّما ستلوح عقيمة للغاية لو قالها علانية، ولذلك لم يقلْ شيئاً إضافياً عن نفسه، ولم تلحّ أمّه عليه لكي يقول المزيد. ربّما لم يطرأ على المدى البعيد فرقٌ ما، إن تكلّم أم لم يفعل، إذ كانت بأي حال تعلّم كلّ شيء، باستثناء أمور محدّدة، عن ما كان يفكّر به، كانت دائماً على علم بطريقة ما، منذ كان صبياً صغيراً كانت على علم بأحواله، فلماذا سيكون هناك ثمّة فرق الآن، وهو في الثانوية؟ ومع ذلك، كان هناك مسائل أخرى عليه التّحدّث فيها، بالإضافة إلى نفسه، وأوّلها فرانسي ولغز الحادث، الذي استمرّا في التّحدّث بشأنه طيلة أيّامهم الأخيرة في فيرمونت، والآن وقد غادرت فرانسي المشفى، وأُجريت لها فحوص في مشفى آخر في نيوجرسي، ما الذي سيحدث لها؟ لم تكن أمّه متأكّدة. كلّ ما عرفت به كان ما قاله لها غاري، ولم تستطع فهم شيء منه، لم يكن هناك من شيء واضح سوى أن المشاكل كانت كما يبدو تتفاقم لبعض الوقت. المصيبة المتعلّقة

بوالدها - ربمّا. الخلافات الزوجية - ربمّا. الندم على أنها تزوّجت وهي صبية صغيرة - ربمّا. كلّ ما سلف - أو لا شيء منه. الشيء المحيّر كان في أن فرانسي بدت دائماً صحيحة النفس ومتزنة. ألماسة تنبض بالحيوية المبهجة، نور عين الجميع. والآن هذا حالها.

يا للمسكينة فرانسي! قالت والدته. فتاتي الحبيبة في صحّة حرجة. أهلها بعيدون عنها ثلاثة آلاف ميل، وليس هناك مَنْ يعتني بها. الأمر على عاتقي، يا آرتشي. سنعود إلى البيت في غضون يومين، وحين نصبح هناك، سيكون ذلك شغلي الجديد. الاطمئنان بأن فرانسي في طور التّحسّن.

تساءل فيرغسون في سرّه إن كان هناك أحد آخر باستثناء أمّه استطاع أن يدلي بهذا التصريح الفاضح، متجاهلاً عن عمد احتمال أن ثمّة دوراً ما لعبه المعالِجون النفسانيون في شفاء فرانسي، وكأن الحبّ ورسوخ الحبّ كانا العلاج الفعّال الوحيد للقلب المحطّم. كان شيئاً عبثياً وجاهلاً القول إنه لم يستطع ضبط الضحكة، وحين خرجت الضحكة من الحَنْجَرَة، انتبه أنها كانت المرّة الأولى التي يضحك فيها منذ الحادث. مفيد له، فكّر في سرّه. ومفيد لأمّه أيضاً، التي استحقّت ملاحظتها الضحك، حتّى ولو كان خطأ منه أن يضحك، إذ إن الشيء الجميل في كلمات والدته تمثّل في أنها آمنت بها، آمنت بجوارحها كلها حتّى لباتت قوية ما يكفي لأن تحمل العالم على ظهرها.

تمثّلَ الشطر الأجمل في العودة إلى البيت في وجوب العودة إلى المدرسة. لقد كانت المشفى حلقة تعذيب كافية، لكنْ، على الأقلّ شعر بأنه مَحميّ هناك، مسوَّرٌ عن الآخرين في صومعة غرفته، لكنْ، عليه الآن السير باتّجاه عالمه القديم، وفسْح المجال لأن يراه الجميع - وآخر ما كان يريده أن يراه أحد.

إنه شباط، وفي طور التحضير للعودة إلى ثانوية مونتكلير، حاكت له أمّه قفّازين خصوصيين، أحدهما عادي، وآخر بثلاثِ أصابع وثلثِ إصبع، صُمِّما لكي يتناسبا وملامح هذه الكفّ اليسرى حديثة النقص، وكانا القفّازين الأكثر راحة، صُنعا من أكثر أنواع الصوف الكشميري نعومة، بلون بنّيّ متوافق مع الجلد وغير مؤذٍ، مسحة لون محايدة، لم تستثر الأعين وتجذب الانتباه إليها كما يحدث حين يكون اللون فاقعاً، ولذلك فإن القفّازين بالكاد كانا محطّ ملاحظة الآخرين. على مدى بقية أيّام هذا الشهر وحتّى منتصف الشهر التالي، لبس فيرغسون القفّاز الأيسر داخل المدرسة، متذرّعاً بضرورة ذلك بناء على إرشادات الأطبّاء - لحماية الكفّ التي لم تزل قيد العلاج. ذلك أعان بعض الشيء، بالإضافة إلى القبّعة الضّيّقة التي اعتمرها لإخفاء رقع الرأس،

التي كان عليه إبقاءها خارج المدرسة وداخلها بناء على نصائح الأطبّاء. وحين يعود شَعْره إلى نموّه وتتلاشى البقع الجرداء، سيرمي القبّعة جانباً، لكنها أفادته للغاية في المراحل المبكّرة من استعادته العافية، كما أفادته القمصان والكنزات طويلة الأكمام التي كان يرتديها كل يوم، وهي اللباس الاعتيادي في شباط، لكنها أيضاً طريقة لتغطية الندوب المتقاطعة في مقدّمة ساعديه، التي لم تزل أثراً دميماً أحمر، ولأنه أُعفي من صفّ اللياقة حتّى يصرّح الأطبّاء بأنه تعافى، لم يكن يتوجّب عليه خلع ملابسه والاستحمام أمام زملائه في الصّفّ الحادي عشر، وهذا ما يعني أن لا أحد منهم قد رأى الندوب، إلى أن تماثلت للبياض، وأصبحت تقريباً غير مرئية.

كانت تلك بعض الحيَل التي اعتمدها فيرغسون ليجعل المحنة أقلّ وقعاً عليه إلى حدّ ما، لكن الوقع كان صعباً، بالرغم من ذلك، صعب أن يعود كقطعة *بضاعة يشوبها تلَفٌ* (كما عبّر أحد زملائه السابقين في فريق البيسبول، وسمعه فيرغسون بالمصادفة يتحدّث من وراء ظهره)، ورغم أن أصدقاءه وأساتذته جميعاً عبّروا عن أسفهم، وحاولوا تجنّب النظر إلى الكفّ اليسرى داخل قفّازها، لم يكن كل مَن في تلك المدرسة صديقاً له، وأولئك الذين لم يتوانوا عن النفور منه لم يكونوا الأقلّيّة الصغيرة التي جفلتْ لرؤية فيرغسون المتعجرف والمتحفّظ ينال ما يستحقّ من قصاص. كان خطؤه في أن بعض الناس قد انقلبوا ضدّه في الأشهر القليلة الماضية، إذ إنه أقصاهم عنه بعض الشيء مذ بدأ يلتقي بـ إيمي، رافضاً كلّ دعوات السبت، ومُقلاً في ظهوره أيّام الآحاد، كما أن ذلك الصبي الصغير المقرَّب الذي لا تزال صورته المزدوجة معلقة على واجهة (روزلاند فوتو) قد حوّل نفسه إلى غريب. وعن الشيء الوحيد الذي لا يزال يربطه بالمدرسة، وهو فريق البيسبول، والبيسبول الآن صار طيَّ الماضي، فقد كان يشعر بأنه نفسه صار طيَّ الماضي. واظب على الحضور كل يوم، لكنْ، مع كل يوم ثمّة جزء أقلّ منه يغيب عن الحضور.

على الرغم من هذا الاغتراب، لم يزل هناك بعض الأصدقاء، لم يزل هناك بعض الناس الذين يهتمّ لهم، لكنْ، بمعزل عن بوبي جورج الصَّمُوت، زميله في البيسبول ومرافقه السابق في الـ*National Geographic*، لم يكن لديه مَن يهتمّ لأمره بشكل عميق، وكان السبب في أنه لا يزال عليه الاهتمام لأمر بوبي متعذّرَ التفسير بالنسبة إليه - حتّى ليلة عودته من فيرمونت وزيارة بوبي إلى بيته ليرحّب بعودته، وحين شاهد الشّابّ جورج الفتى فيرغسون دون قفّازات ولا طاقية ولا كنزة، بدأ يقول شيئاً ما، ثمّ انفجر بالبكاء، وحين رأى فيرغسون صديقه ينهار تحت ذلك الفيض الدافق من الدموع الطفولية، أيقن أن بوبي أحبّه أكثر من أي أحد آخر في مدينة مونتكلير. أصدقاؤه الآخرون كلهم شعروا بالأسف تجاهه، لكن بوبي كان الوحيد الذي بكى.

من أجل خاطر بوبي، ذهب بعد المدرسة إلى إحدى التدريبات الداخلية، لكي يتفرّج على

تمارين رمي كرة البيسبول وتلقّيها. كان من الصعب عليه المكوث في قاعة النادي الرياضي المُدوّية بالصدى تلك، والكرات تأتي وتروح من قفّازات البيسبول، فترتطم بالأرض الخشبية، لكن بوبي سيكون هذا الموسم البادئ بالرمي من خارج صحن الملعب، وقد طلب من فيرغسون الحضور للتّأكّد من أن قذفه للكرة قد تحسّن عن ما كان عليه في السنة الماضية، وإذا لم يكن قد تحسّن، فليخبره بمكامن الخطأ. كان يُسمح للاعبين فقط بالتواجد في صالة النادي خلال حلقات التدريب التي تمتدّ كلّ منها لساعتين، لكنْ، رغم انتهاء عضوية فيرغسون في الفريق، إلا أنه بقي محتفظاً بامتيازات معيّنة، منحها له المدرب مارتينو، الذي كانت ردّة فعله على إصابات فيرغسون أقلّ اقتضاباً بكثير ممّا كان يتخيّل، ليس بكبح ردّة الفعل، بل بشتم *الـ الشيء اللعين، المدمّر الذي وقع*، مؤكّداً لـ فيرغسون أنه كان أحد أهمّ اللاعبين الذين أشرف على تدريبهم، وأنه كان ينتظر منه إنجازاتٍ عظيمةً في سنوات لعبه مع الشباب، ثمّ مع المحترفين. ثمّ، وبشكل يكاد يكون فورياً، بدأ يتحدّث عن إحالته إلى قاذف كرة. بذراع مثل ذراعه، ربّما سيجترح المعجزات، قال السّيّد مارتينو، وبذلك لن يلقي أحدٌ بالاً لمعدّل رمياته للكرة أو كم شوطاً مكتملاً سينجح فيه. إذا كان من المبكّر البدء الآن، لماذا لا يفكّر بالسنة القادمة؟ وفي أثناء ذلك، خلال هذه السنة، يمكنه البقاء إلى جانب الفريق كنوع من مدرّب مساعد غير رسمي، يرمي الكرات في حقل التدريب، ويرشد اللاعبين خلال تمارينهم وألعابهم الجمبازية، ومناقشة تخطيط الخطوات معه في أثناء المباراة وهما معاً على مقعد المدرّبين في المَلعب. لكن الأمر كان وقفاً عليه، بالطبع، ورغم أن فيرغسون كان تحت إغواء أن يقبل عرضه، إلا أنه أدرك عجزَه، أدرك كم سيقتله أن يكون جزءاً من الفريق، وألا يكون جزءاً من الفريق، تعويذة جريحة يهتف لها الآخرون، وهكذا شكر السّيّد مارتينو وبأدبٍ أجاب بـ "لا"، معلّلاً أنه *ليس جاهزاً كما يجب*، أمّا الرقيب أوّل في الحرب العالمية الثانية، الذي خاض معركة "الثغرة" أو الأردين، والتحق بالوحدة التي حرّرت داكاو، فربّتَ على كتف فيرغسون، وتمنّى له الحظّ الوفير. ثمّ، كخلاصة لما سبق، حين مدّ يده ليصافح يد فيرغسون للمرّة الأخيرة، قال المدرّب مارتينو: الشيء الثابت الوحيد في هذا العالم هو الخراء، يا بني. إننا نغوص فيه حتّى الكاحل كلّ يوم، لكنْ، أحياناً، حين يصل حتّى ركَبنا أو خصورنا، فعلينا أن ننتشل أنفسنا منه، ونستمرّ بالتقدّم. وأنتَ مستمرّ بالتّقدّم، يا آرتشي، وأحترمكَ لأجل ذلك، وإذا حدثَ أن غيّرتَ رأيكَ، فتذكّر أن الباب مفتوح أبداً أمامكَ.

دموع بوبي جورج وكلمات سال مارتينو مفتوحٌ *أبداً أمامكَ* شيئان نبيلان في عالمٍ كلُّ ما سواه حافل بالأشياء البشعة، ونعم، كان فيرغسون مستمراً بالتّقدّم الآن، وقد تقدّم منذ فارق المدرّب في ذلك النهار، وإذا كانت وجهته هي الصحيحة أو كانت الخاطئة، فإن أفضل ما في الاحتمال

الثاني الجيّد كان يتمثّل في أن لا فرق أين يحدثُ ويجد نفسه في المستقبل، فلن ينسى كلمات السّيّد مارتينو البليغة بشأن الهيمنة المتفشّية، كلّيّة الثبات للخراء.

بقي في حالة انطواء على نفسه معظم الوقت حتّى نهاية الشتاء، يعود في الحال إلى البيت بعد المدرسة كلّ يوم، أحياناً يستوقف سيّارات بعض مَنْ يكبرونه عمراً، وأحياناً يقطع رحلة العشرين دقيقة سيراً على الأقدام. كان البيت خالياً معظم الوقت من سكّانه في ذلك الحين، أي أنه كان هادئاً، والهدوء هو أكثر ما تمنّاه بعد قضاء ستّ ساعات في المدرسة، الهدوء المطبق المديد الذي أتاح له الخلاص من بلاء احتكاك جسده بالقفّازات والطاقية أمام ألفَي جسد آخر عجّتْ بهم الممرّات وغرف الصفوف في تلك الساعات السّتّ ونصف الساعة، ولم يكن هناك أجمل من أن يلوذ إلى داخل نفسه من جديد، ثمّ يغيب. كان أهله عادةً ما يرجعون إلى البيت بعد السادسة بقليل، ما ترك له قرابة ساعتين ونصف الساعة يسترخي خلالها في حصنه الخاوي، معظمها في الطابق العلوي داخل غرفته مغلَقَة الباب، حيث كان يستطيع أن يُبقي النافذة مشقوقة، ويدخّن لفافةً أو اثنتين من لفافات أمّه المحظورة، مستمتِعاً بمفارقة كيف أن تقرير الطبيب العامّ تضمّن شيئاً عن أن الاستعداد للتدخين سيترافق مع اهتمامه المتنامي بالمتع التي يجلبها التبغ، وفي أثناء تدخينه سجائر تشسترفيلد التي تهدّد حياة أمّه، يدور فيرغسون في غرفته بسرعة مصغياً إلى التسجيلات، متنقّلاً بين أعمال الكورال الكبير (القدّاس لـ فيردي، وmissa solemnis لـ بيتهوفن) والمعزوفات المنفردة لـ باخ (بابلو كاسلا، غلِنْ غولد)، أو بدلاً من ذلك يستلقي في الفراش، ويقرأ الكُتُب، ويشقّ طريقه في رزمة المطبوعات المرسَلَة إليه مؤخّراً من الخالة ميلدرد، جزيلة العطاء ودليل درب ثقافته الأدبية، التي خطّطت لزيارته الثانية إلى فرنسا في الأشهر التسعة الماضية، وهكذا أمضى فيرغسون الساعات الأخيرة من تلك الظهيرات في قراءة جان جينيه (يوميات لصّ)، وأندريه جيد (المزيفون)، وناتالي ساروت (انتحاءات tropisms)، أندريه بريتون (نادجا)، وصموئيل بيكيت (مُولُوي)، وحين لا يصغي إلى الموسيقا أو يقرأ الكُتُب، كان فيرغسون يشعر بالضياع، عميقاً للغاية في تنافره مع ذاته، لدرجة أنه شعر أحياناً بالتّشظّي إلى أجزاء منفصلة. أراد العودة إلى كتابة الشِّعْر، لكنه لم يستطع التركيز، وكان يشعر أن كل ما طرق ذهنه من أفكار لم يكن ذا قيمة. أوّل شاعرٍ لعب البيسبول في التاريخ لم يعد يستطيع ممارسة البيسبول، وفجأة بدأ يتموّتُ الشاعر الذي في داخله أيضاً. *ساعدني*، كتَبَ يوماً. *ولماذا يتعيّن عليّ أن أساعدكَ؟* واستطردت الرسالة المرسَلة إلى نفسه. *لأني أريد مساعدتكَ*، أجاب الصوت الأوّل. *آسف*، قال الصوت الثاني. وأكملَ، *كلّ ما تحتاجه هو أن تسكتَ عن طلب العون. ابدأ بتخيّل ما أحتاجه للتغيير.*

ومَنْ أنتَ؟

أنا أنتَ، بالتأكيد. مَنْ تظنّني أكون؟

كانت محادثاته الهاتفية الليلية مع إيمي الثابت الوحيد غير المنتمي إلى خراء عالمه. كان سؤالها الأوّل له دائماً *كيف حالكَ، يا آرتشي؟*، وسيردّ بجوابه ذاته: *أفضل. أفضل بقليل من البارحة* - وهذا دقيق في واقع الأمر، ليس لأن حالته الجسدية كانت تتحسّن ببطء مع مرور الوقت، بل لأن التّحدّث مع إيمي بدا على الدوام أنه يُعيد إليه ذاته القديمة، كأن صوتها كان فرقعة أصابع منوّم مغناطيسي، يوعز إليه بالخروج من غيبوبته والاستيقاظ. لم يمتلك أحد ذلك التأثير عليه، وبمرور الأسابيع واستمرار تعافي فيرغسون، بدأ يعتريه شكٌّ بأن ثمّة ريبة ما في قراءة إيمي للحادث، التي لم تشبه قراءة أحد آخر، إذ لم تنظر إليه على أنه تراجيديا، وبذلك، من بين الذين أحبّوا فيرغسون، كانت أقلّ مَن أبدى الأسف تجاهه. في رؤيتها للعالم، فإن التراجيديات ادّخرتْ للموت والإعاقات المدمِّرة - الشلل، التلف الدماغي، التّشوّهات بالغة الشناعة - لكنّ فَقْدَ إصبعين لم يتعدَّ كونه حدثاً طفيفاً، وبالأخذ بالاعتبار أن سيّارة تصدم شجرة ينبغي أن يودي إلى الموت أو إلى تشوّهات خلقية، فإن على المرء أن يبتهج لمجرّد أن فيرغسون قد نجا من الحادث دون أيّة عواقب تراجيدية. الأمر سيّئ بالنسبة إلى لاعب بيسبول، بالتأكيد، لكن ذلك كان دَيْناً هزيلاً مُستحَقّ الدفع مقابل هبة البقاء على قيد الحياة، بخسارة لا تتجاوز إصبعين، وإذا كانت كتابة الشِّعْر في هذه الفترة تستعصي عليه، فليُعطِ الشِّعْر استراحة لوهلة، وليكفّ عن القلق بشأنه، وإذا انتهى الأمر إلى أنه لن يفلح في كتابة قصيدة أخرى، فذلك يعني في المقام الأوّل أنه لم يُخلَق لكتابة الشِّعْر.

توشكين على أن تصبحي مثل د. بانغلوس، قال لها فيرغسون ذات ليلة. أبداً، في كل شيء يحدث ثمّة أمر أفضل - أي، أفضل العوالم الممكنة.

لا، ليس الأمر كذلك، قالت إيمي. بانغلوس تفاؤلي أبله، وأنا تشاؤمية ذكية، أعني التشاؤميّ الذي يمتلك ومضاتٍ تفاؤلية. يكاد كلّ ما يحصل أن ينحوَ إلى الأسوأ، لكنْ، ليس دائماً، كما ترى، لا شيء يتّصف بـ *دائماً* للأبد، لكنني *دائماً* أتوقّع الأسوأ، وحين لا يقع الأسوأ، أصبح جذلةً حتّى لأبدوَ كالتفاؤليّ. كان من الممكن أن أفقدكَ، يا آرتشي، ثمّ لم أفقدكَ. هذا كلّ ما أستطيع أن أتذكّره بعد ذلك - وكم سعيدة أنا إذ لم أفقدكَ!

في الأسابيع الأولى التي تلتْ عودته من فيرمونت، لم يكن قوياً ما يكفي لأن يذهب إلى نيويورك أيّام السبت. فبالكاد كان يمكن تحمّل الذهاب، ثمّ الإياب من المدرسة بين الاثنين والجمعة، لكن مانهاتن ستكون قاسية للغاية على جسده الموجوع المقطّب بالخيوط الجراحية،

والحافلة المكتظّة بدايةً، لكنْ، هناك أيضاً ارتقاء أدراج محطّة المترو، والحشود البشرية المتدفّقة نحوه على رصيف المشاة في الأنفاق، ثمّ استحالة السير لوهلة خاطفة في شوارع الشتاء البارد برفقة إيمي، لذلك عكسا وجهة العملية بدءاً من شهر شباط وحتّى منتصف آذار، ولخمسة أيّام سبت متوالية زارته إيمي في مونتكلير بدلاً من ذهابه إلى نيويورك. اقتصرت الترتيبات الجديدة على التنشيط الخارجي، لكنْ، كان لها فوائد تفوق فوائد الروتين القديم بالدخول والخروج من وإلى المكتبات والمتاحف، وبالجلوس في محالّ القهوة، بحضور الأفلام والعروض المسرحية والحفلات، السبت الأوّل كان الوحيد الذي ذهب فيه والدا فيرغسون إلى العمل، ولأنهما ذهبا إلى العمل كان البيت خالياً، ولأن البيت كان خالياً، استطاع هو وإيمي الصعود إلى غرفته، وإغلاق الباب، والاستلقاء على الفراش دون خوف أن يكتشف أحد ما كان يفعلان. لكنْ، بقي ثمّة خوف، على الأقلّ لدى فيرغسون، الذي كان مقتنعاً أن إيمي لم تعد ترغب بأي جزء منه بعد الآن، وهي المرّة الأولى التي يدخلان هذه الغرفة في منزل مونتكلير، لم يكن خوفه أقلّ هولاً ممّا كان عليه حين دخلا غرفة إيمي للمرّة الأولى في شقّة نيويورك، لكنْ، حين أصبحا على الفراش، وبدأت ملابسهما بالتساقط، فاجأته إيمي بالقبض على يده الجريحة، وتقبيلها، تقبيلها بهدوء عشرين أو ثلاثين مرّة، ثمّ أدنت شفتيها من ضماد ساعده اليسرى، وقبّلته دزّينة قبلات، أتبعتها بدزّينة أخرى على الذراع اليمنى المعصوبة، ثمّ جذبته إلى صدرها، وبدأت بتقبيل الضمادات الصغيرة على رأسه، واحدة إثر أخرى إثر أخرى، وكلّ منها ستّ مرّات، سبع مرّات، ثماني مرّات. وحين سألها فيرغسون لماذا تفعل ذلك؟ قالت لأنها الأجزاء التي أحبّها الآن فيكَ أكثر من سواها. كيف استطاعت أن تقول ذاك؟ أجاب، هذه القروح منفّرة، فكيف يستطيع أحد ما أن يحبّ ما هو منفّر؟ لأن تلك الجروح ذكرى ما حدث له، قال إيمي، ولأنه لا يزال على قيد الحياة، لأنه معها الآن، ما حدث له كان ينطوي أيضاً على ما لم يحدث له، ما يعني أن العلامات على جسده هي دلالات حياة، ولأجل ذلك ليست منفّرة بالنسبة إليها، هذه الجروح جميلة. ضحك فيرغسون. أراد أن يقول: *بانغلوس وقد أُنقذَ من جديد!*، لكنه لم يقل شيئاً، ثمّ وهو يتطلّع في عيني إيمي، تساءل إن كانت مؤمنة بما نطقت به. هل يُحتمَل أنها آمنت بما قالته له للتّو، أم كانت تتظاهر بتصديقه لأجل خاطره هو؟ وإذا لم تكن تؤمن بقولها، كيف يستطيع هو تصديقها؟ لأنه يجب عليه أن يصدّقها، هكذا قرّر، لأن تصديقها هو الخيار الوحيد أمامه، وأمّا الحقيقة، الحقيقة التي يُزعَمُ أنها كلّيّة القدرة، فلم تكن لتعني شيئاً حين الأخذ بالاعتبار ما سيلحقه بهما عدمُ تصديق ما قامت به إيمي.

جنس لخمسة أيّام سبت متوالية، جنس مع مطلع الظهيرة ضَوْءُ شباط الضئيلُ يلفّ نفسَه على

أطراف الستائر، وينسرب في الجوّ حول جسديهما، وغبطة التّنبّه إلى إيمي تعود إلى ملابسها، واعيةً لجسدها العاري داخل تلك الملابس، التي بمعنى ما تطيل حميميةَ الجنس حتّى ولو لم يكونا يمارسان الجنس، الجسد الذي تاقَ إليه، وهما ينزلان الأدراج، ليُعدّا بعض الغداء أو حين استمعا إلى الموسيقا أو شاهدا فيلماً قديماً على التلفاز أو تجوّلا في الجوار أو قرأ هو على أسماعها قصائد من *صور من بروغل* لـ وليام كارلوس وليامز، محبوبه المقدّس، الذي أزاح إليوت عن العرش بعد مشادّة ضارية مع والاس ستيفنز.

جنس لخمسة أيّام سبت متوالية، بالإضافة إلى فرصة التّحدّث وجهاً لوجه بعد المكالمات الهاتفية بعيدة المدى خلال أيّام الدوام في المدرسة، وفي ثلاثة من أيّام السبت تلك كانت إيمي قد تسكّعت بما فيه الكفاية، لكي تكون هناك مع عودة والديه من العمل إلى البيت، الذي نتج عنه ثلاث وجبات مع الاكتفاء بجلوس الأربعة معاً في المطبخ، وسعادة أمّه لا توصف الآن وهو مع إيمي، وليس مع *البنت البلجيكية السّكّيرة* ووالده يضحك لطلاقتها ولتعليقاتها اللاذعة، كمثال أوردته من أواخر شباط، الذي كان شهر غزو البيتلز لأميركا وفوز كاسيوس (محمّد علي) كلاي على سوني ليستون، وهما الموضوعان الكبيران اللذان كان الكل يتحدّث عنهما، أبدت إيمي الملاحظة الغريبة، لكنْ، الثاقبة، بأن جون لينون وبطل الملاكمة من الوزن الثقيل كانا شخصاً واحداً، انقسم إلى جسدين مختلفين، شابّين في بداية العشرين من عمريهما جذبا انتباه العالم بالطريقة نفسها بالضبط، بأنهما لم يأخذا نفسيهما على محمل الجدّ، بامتلاكهما موهبة قول أكثر الأشياء شناعةً بكل جرأةٍ ومسرحةٍ، ما جعل الناس يضحكون، *أنا الأعظم*، *نحن أشهر من يسوع المسيح*، وحين كرّرت إيمي هذين التعبيرين السخيفين، لكنْ، غير القابلين للنسيان، بدأ والد فيرغسون يضحك فجأة، ليس لأن إيمي أدّتْ إيماءاتِ تقليد متقن للفظ الحلقي في لهجة لينون الليفربولية وليِّ شدقَي كلاي على طريقة أهالي كنتاكي، بل لأنها قلّدت تعابير وجهيهما، بالإضافة إلى ذلك، وحين توقّف والد فيرغسون عن الضحك، قال: لقد أجدْتِ، يا إيمي. *الأذكياءُ هم ذوو اللغة المتوقّدة، بل والذهن الأكثر توقّداً*. أحبّ هؤلاء.

لم يدرِ فيرغسون إن كان والداه قد انتبها إلى كيفية قضائه وإيمي صباحات وظهيرات أيّام السبت تلك وحيدَين في البيت. ساوره شكّ في أن أمّه ربّما علمت شيئاً ما (جاءت إلى البيت دون سابق إنذار في السبت الثاني، لكي تبحث عن قميص صوفي، ورأتهما يسوّيان أغطية السرير)، الذي يعني أنها تداولت في الأمر مع أبيه، ولكنْ، حتّى لو كانا قد علما، لم يقل أحدهما شيئاً عن الأمر، إذ كان واضحاً بما لا يقبل الشّكّ أن إيمي شنايدرمان كانت تشكّل دفعاً إيجابياً في حياة ابنهما، فريق طوارئ مؤلّفاً من بنت واحدة كانت ترعاه دون معين خلال تكيّفه الشّاقّ

مع عالم ما بعد الحادث، وبالتالي دفعاهما لأن يكونا معاً طالما استطاعا، ورغم أن الوضع المالي كان عسيراً في تلك الفترة على وجه الخصوص، لم يعترضا أبداً على المكالمات الخارجية عالية التكلفة، التي ضاعفت فاتورتهما الشهرية أكثر من ثلاث مرّات. *تلك البنت "شيء" مذهل، يا آرتشي*، قالت له أمّه ذات يوم، وهي تتأمّل حفيدةَ رئيسها السابق تسهر على أمان ابنها، كانت هي بدورها تسهر على أمان ابنة أختها فرانسي بالذهاب إلى المشفى كلّ ظهيرة في الرابعة، لتزورها لمدّة ساعة، حيث واظبت بلا كلل على مداواتها بالحنان - كلّه - و- لا شيء - إلا - الحنان. أولى فيرغسون اهتماماً بالغاً بالتقارير الليلية عن مدى تحسّن حالة فرانسي، لكنه بقي قلقاً من أن تقول ابنةُ خالته لأمّه شيئاً ما عن *الصرير الذي انبعث من السرير*، وكم كانت حانقة عليه صبيحةَ الحادث، الذي ربّما يؤدّي إلى ما لا يسرّ الخاطر من بعض تساؤلات والدته بأنه اضطرّ للكذب بشأن الأمر تجنُّباً للحرج والارتباك، ولكنه حين امتلك الجرأة وجهر بالموضوع من تلقاء ذاته، مستفسراً من أمّه عن ما قالته فرانسي بشأن الحادث، ادّعتِ الأمّ أن فرانسي لم تذكر أبداً الأمر. أصحيح ذلك؟ تساءل في سرّه. أيعقل أن فرانسي قد عتّمت على الحادث، أم أن أمّه بكل بساطة تتجاهل معرفتها بالمشاجرة لمجرّد أنها لم تشأ إزعاجه؟

وماذا عن يدي؟ تساءل فيرغسون. أتعرف فرانسي عنها شيئاً؟

نعم، قالت والدته، أخبرها غاري بذلك.

لماذا يفعل ذلك؟ ألا تظنّين أن في الأمر نوعاً من القسوة؟

لأنها ستعرف. ستغادر المشفى في القريب، ولا أحد يريدها أن تُصدَمَ عندما تراك من جديد.

سُرِّحتْ بعد ثلاثة أسابيع من الراحة والمعالجة، ورغم ذلك سيبقى هناك انهيارات وإقامات استشفاء إضافية في السنين التي ستأتي، عادت الآن للسير على قدميها، لم تزل حمّالةُ اليد تلفّ ساعدها اليسرى، لأن كسْر الترقوة بطيء الالتئام، لكن وضعها *متألّق إجمالاً* كما عبّرت والدة فيرغسون عقب زيارتها النهائية إلى المشفى، وحين أُزيلت الحمّالة بعد أسبوع ودَعَتْ فرانسي فيرغسون ووالديه إلى فطور وغداء الأحد في بيتها، مقاطعة وستْ أورانج، وجد هو أيضاً مظهرها متألّقاً، بكامل عافيتها، لم تعدْ المرأةَ المتأزّمة، المضطربةَ كما كانت عليه خلال عطلة نهاية الأسبوع الكارثية في فيرمونت. كانت لحظة مشحونة لكليهما، إذ يتواجهان للمرّة الأولى منذ الحادث، وحين نظرت فرانسي إلى يده، ورأت ما فعل الحادث بها، انفجرت باكية، وألقت بيديها لتضمّاه، وتنتحب متلفّظةً بكلمات الاعتذار، ما دفع فيرغسون لأن يعي، للمرّة الأولى منذ وقوع الحادث، كم لامَ فرانسي على ما أصابه، فحتّى لو لم يكن خطأً منها، حتّى لو كانت نظرتها الأخيرة إليه في السّيّارة نظرةَ امرأة ممسوسة، امرأة لم تعد تتحكّم بأفكارها، فإنها

تبقى الشخص الذي صدم السّيّارة بالشجرة، وعلى الرغم من أنه كان يودّ مسامحتها على كل شيء، لم يستطع أن يفعل ذلك على أتمّ وجه، لم تكن المسامحة نابعة من البؤرة العميقة في داخله، ورغم أن فمه كان يتفوّه بالكلمات الصائبة، مؤكّداً لها أنه لم يحمل ضغينةً تجاهها جرّاء ذلك، وأن كلّ شيء قد غُفِر، إلا أنه أدرك كم كان يكذب، وأنه سيحمل هذه الضغينة، فذلك الحادث سيقف حائلاً بينهما فيما تبقّى لهما من الحياة.

في الثالث من آذار، بلغ السابعة عشرة. بعد ذلك بأيّام قليلة مضى، إلى الفرع المحليّ لوزارة المركبات، وخضع لاختبار السياقة العملي على الطُّرُق، لكي يحصل على شهادة سياقة نيوجرسي، وبإثباته الجدارة خلف عجلة القيادة بانعطافاته التي تغلّب عليها بيسر، والضغط المستقرّ على مداس الوقود (*كأنكَ تضع قدمكَ على بيضة نيئة*، كما قال له والده)، وسيطرته على المكابح والقيادة إلى الخلف، وآخرها فهمه للمناورات المتعلّقة بركْن السّيّارة بشكل موازٍ للرصيف والسّيّارات أخرى، العملية العصية التي كانت عثرة الكثيرين ممّنْ يودون الحصول على تراخيص السياقة. أجرى فيرغسون مئات الاختبارات على مدى السنين الفائتة، لكن النجاح في هذا الاختبار كان بالنسبة إليه يفوق في أهمّيّته كلَّ ما أنجزه في المدرسة. لقد تمّ هذا الاختبار فعلياً، وحين تصبح شهادة السياقة في جيبه، ستكون القوّة التي تفتح له الأبواب، وتُطلقه خارج القفص.

كان يعلم أن والديه يعيشان ضائقة، فالعمل في أسوأ حال بالنسبة إلى كليهما وموارد العائلة قد تضاءلت - ربمّا ليس إلى درجة النضوب، لكنها أصبحت قريبة من ذلك، وتصبح أقرب مع كلّ شهر جديد. غطّت مؤسّسة بلو كروس/ بلو شيلد للتأمين الصّحّيّ معظم تكاليف إقامته في مشفى فيرمونت، لكنْ، بالإضافة إلى ذلك، كان هناك بعض النفقاتِ متوجّبة الدفع نقداً، والاقتطاعات التي يجب دفعها من الجيب وأعباء الاتّصالات الهاتفية بعيدة المدى، إلى جانب المبالغ التي دُفعت بدل غرفة النزل وسيّارة والدته المستأجَرة، وذلك ما لم يكن سهلاً بالنسبة إليهما، والخروج في نهارهم الماطر بمظلات ممزّقة، ومن دون نعال، وهكذا حين حلّ الثالث من آذار، وكانت الهدية الوحيدة التي تلقّاها قد جاءته من والديه، وكانت عبارة عن سيّارة دميةٍ - نسخة مصغّرة دقيقة لسيّارة شيفروليه/ إمبالا بيضاء موديل -1958 فهمَها على أنها هدية طريفة، تعويذة فورية لحظ سعيد في فحص السياقة الذي كان موشكاً على خوضه، وعلى أنها اعتراف من الوالدين بأنهما لم يتمكّنا من تحمّل تكلفة شيء أفضل منها. حسناً، قال في سرّه، إنها في الواقع طريفة إلى حدّ ما، ولأن والديه كانا يبتسمان، بادلهما

الابتسام، وقال شكراً لكما، وهو أكثر تشتّتاً من أن ينتبه إلى ما أردفتْ أمّه قائلةً: لا تخف، يا آرتشي. من فسائل بلّوطية صغيرة يطلع السنديانُ الجبار.

بعد ستّة أيّام، ظهرت في الممرّ المؤدّي إلى البيت سنديانة على شكل سيّارة بالحجم الكامل، نسخة عملاقة من البلّوطة المركونة الآن على طاولة فيرغسون كثقّالة ورق متعدّدة الاستعمال، أو شبه نسخة، لأن الشيفروليه/ إمبالا التي رُكنت في الممرّ من إنتاج 1960، وليس 1958، وبابين اثنين بدلاً من الأربعة كما في النموذج، وكان والدا فيرغسون جالسَين معاً في السّيّارة، ويزمّران معاً، يزمّران ويزمّران حتّى نزل ابنهما من غرفته، ليرى ماذا كان السبب في هذا الهياج.

أوضحتْ والدته أنهما كانا يخطّطان لإهدائها له في الثالث من آذار، لكن السّيّارة كانت تحتاج لبعض الصيانة، واستغرق إصلاحها أكثر من المتوقّع بقليل. وقالت إنها تتمنّى أن تُعجبه. فكّرا في أن يتركا له أمر اختيار سيّارة على هواه، لكن ذلك لن يكون مفاجأة، ومتعة تقديم هدية كهذه تمثّلت في المفاجأة.

لم يقلْ فيرغسون شيئاً.

عبس والده، وسأله: حسناً، يا آرتشي، ما رأيكَ؟ هل أحببتَها أم لا؟

نعم، لقد أحببتُها. بالتأكيد أحبّها. كيف يمكنه ألا يحبّها؟ أحبَّ السّيّارة لدرجة أنه يريد الركوع على ركبتيه وتقبيلها.

لكنْ، كيف تدبّرتم أمر المال؟ أخيراً سألهما. لا بدّ أنها غالية الثمن.

أقلّ ممّا تتخيّل، قال الأب. فقط ستمائة وخمسين.

قبل أو بعد الإصلاحات؟

قبل. المبلغ الكليّ بعد الإصلاح ثمانمائة.

هذا كثير، قال فيرغسون. كثير للغاية. لم يكن يجب أن تفعلا ذلك.

لا تكن سخيفاً، قالت والدته. لقد التقطتُ مائة صورة في الأشهر السّتّة الأخيرة، وها هو الكتاب قد انتهى، ماذا تعرف عن قيمة ما هو معلّق على جدران رجالي ونسائي المشهورين؟

آه، أفهم ذلك، قال فيرغسون. ليست المنحة وحسب، بل هناك مال إذاً فوق ذلك أيضاً. كم تطلبين منهم لقاء متعتهم في النظر إلى أنفسهم؟

مائة وخمسين لكلّ (تكّة) عدسة، قالت أمّه.

أصدر فيرغسون صفرة قصيرة، مومئاً برأسه علامةَ الإعجاب.

خمسة عشر قطعة نقدية كبيرة تُثلج الصدر، أضاف والده، في حال كان فيرغسون يجد صعوبة في الحساب.

أرأيتَ؟ قالت والدته. لسنا في طريقنا إلى مأوى الفقراء، يا آرتشي، على الأقلّ ليس اليوم، وربمّا ليس غداً أيضاً. لذلك أَطبِقْ فمكَ، ادخلْ سيّارتكَ، وخذنا إلى مكان ما، اتّفقنا؟

هكذا بدأ فصل السّيّارة. للمرّة الأولى في حياته، يصبح فيرغسون صاحب قرار ذهابه وإيابه، الحاكمَ المستقلّ للفضاء المحيط به، بلا ربّ أمامه الآن إلا المحرِّك ذا الأسطوانات السّتّ المزوّد بنظام الاحتراق الداخلي، الذي لا مطالب له تتجاوز ملء خزان الوقود، وتغيير الزيت كل ثلاثة آلاف ميل. على امتداد الربيع وحتّى مطلع الصيف، كان يقود السّيّارة إلى المدرسة كلّ صباح، غالباً وبوبي جورج إلى جواره في المقعد الأمامي، وأحياناً مع شخص ثالث في المقعد الخلفي، وحين تفتح المدرسة بوّابات الخروج في الثالثة والربع، لم يعد يمضي إلى البيت مباشرة، لينعزل في غرفة نومه الصغيرة، بل يعود ويركب السّيّارة، ويبدأ القيادة، القيادة لساعة أو ساعتين دون غرض أو وجهة، يقود لمجرّد تلبية الرغبة بالقيادة، وبعد فترة حَيْرة دقائق، أو ربع فترة قيادته، عن المكان الذي سيقصده، يجد نفسه وهو يجول محميات الجبل الجنوبي، بقعة البرّيّة الوحيدة في مقاطعة إسكس، مساحات شاسعة من الغابات ودروب المسير، الملاذ الذي آوى البوم وطيور الطنان والصقور، مكان لملايين الفراشات، وحين يصل قمّة الجبل يخرج من السّيّارة، وينظر نحو الأسفل إلى الوادي المهول، بلدة بعد أخرى تكتظّ بالبيوت والمصانع والمدارس والكنائس والمنتزهات، مشهد محاط بأكثر من عشرين مليون إنسان، عشْر سكّان الولايات المتّحدة، إذا يمتدّ باتّجاه نهر هدسون وعبر المدينة، وحتّى أبعد حدّ يستطيع فيرغسون رؤيته من أعلى قمّة في سلسلة الجبل، هناك حيث أبنية نيويورك الشاهقة، ناطحات السحاب في مانهاتن تبرز في الأفق مثل سويقات العشب، ولوهلةٍ، وهو يتطلّع إلى مدينة إيمي، تقفز إلى ذهنه فكرة الذهاب لرؤية إيمي بشحمها ولحمها، وفجأة أصبح في السّيّارة من جديد، يقودها بتهوّر باتّجاه نيويورك وسط ازدحام السير الآخذ بالتزايد في ساعة الذروة، وعندما وصل إلى شقّة عائلة شنايدرمان بعد ساعة وعشرين دقيقة، ذُهلت إيمي، التي كانت في خضمّ إنجاز وظيفتها، وأفلتت صرخة لحظة رأته حين فتحت الباب.

آرتشي! قالت. ماذا تفعل هنا؟

أنا هنا لأقبّلكِ، قال فيرغسون. قبلة واحدة فقط، ثمّ عليّ الانصراف.

قبلة واحدة فقط؟

واحدة فقط.

وفتحت إيمي ذراعيها، وتركته يقبّلها، وهما في أوج قبلتهما الواحدة، دلفت والدة إيمي إلى المدخل، وقالت: يا إلهي، ماذا تفعلين، يا إيمي؟

ماذا ترينها تشبه، يا ماما؟ قالت إيمي، وهي تخطف شفتيها عن فم فيرغسون، وتتطلّع إلى أمّها. أقبّل أروع شخص يسير على قدمين.

كانت تلك لحظةَ فيرغسون الأجمل، الأوجَ الصميمَ لمطامحه اليافعة، الإيماءة الكبرى والساذجة التي طالما حلم بها دون أن يجد الجرأة على الإقدام عليها، ولأنه لم يشأ أن يبدّدها بالتراجع عن وعده، انحنى لـ إيمي ووالدتها، ومضى باتّجاه الدرج. في الشارع، قال في نفسه: لولا السّيّارة، لما كان حدث الأمر. كادت السّيّارة أن تقتله في كانون الثاني، والآن، فقط بعد شهرين، تُعيد إليه السّيّارة الحياة.

الاثنين، الثالث والعشرون من آذار، قرّر ألا يعتمر القبّعة لدى ذهابه إلى المدرسة، ولأن الشَّعْر قد نما من جديد في ذلك الحين، وبدا رأسه شبيهاً بعض الشيء بما كان عليه دائماً قبل تسلّخ فروته في فيرمونت، لم يقل أحد شيئاً عن غياب القبّعة سوى ثلاث أو أربع فتيات في درس اللغة الفرنسية، من بينهنّ مارغريت أومارا، التي كانت قد بعثت إليه رسالة حبّ عندما كانا في الصّفّ السادس. صباحَ الخميس، كان الجوّ دافئاً للغاية مقارنةً بذلك الوقت من السنة، فقرّر الاستغناء عن القفّاز أيضاً. ومرّة أخرى، لم يقلْ أحدٌ شيئاً، ومن بين الجميع في دائرة أصدقائه الآخذة بالتّقلّص، وحده بوبي جورج مَن طلب إلقاء نظرة مقرّبة إليها، الذي استجاب له فيرغسون مُكرَهاً - مُبْرِزاً ذراعه اليسرى تاركاً لـ بوبي جورج أن يراها، ثمّ يدنيها ما يقرب من ستّ بوصات إلى وجهه، ليعاينها بدقّة كجرّاح مخضرم، أو ربمّا كولَدٍ صغير أبله - من الصعب أن يقرّر المرء أيهما ينطبق على بوبي - مقلّباً الكفّ وممرِّراً أصابعه برفق على المواضع المصابة، وحين تركها أخيراً، وأسبلها فيرغسون إلى جانبه، قال بوبي: إنها تبدو على أحسن حال، يا آرتشي. كل شيء قد شُفي الآن، وعاد إلى لونه الأصلي.

منذ أن وقع الحادث، والناس يحكون له عن رجال مشهورين ممّنْ فقدوا هم أيضاً الأصابعَ، ثمّ أكملوا وازدهرت حيواتهم، من بينهم قاذف كرة البيسبول مردخاي براون، المعروف على نطاق واسع باسم *براون ذي الأصابع الثلاث*، الذي فاز بـ 239 لعبة خلال أربعة عشر عاماً من احترافه، وانتُخبَ عضواً في قاعة الشهرة، وكذلك كوميدي الأفلام الصامتة هارولد لويد، الذي فقَدَ إبهامَ

يده اليمنى وسبّابتها في انفجار قنبلة داخل ملكية خاصّة، ورغم ذلك استطاع أن يتدلّى من عقارب الساعة العملاقة في أحد أفلامه، ويؤدّي آلاف الحركات البهلوانية الأخرى المستحيلة. حاول فيرغسون أن يستمدّ القوّة من تلك القصص الملهِمة، أن يرى نفسه عضواً فخوراً ضمن أخوية الرجال ذوي الثماني أصابع، لكنْ، مسائل تتعلّق بحماس واندفاع من هذا النوع كانت تنتهي إلى أن تترك فيه أثراً باهتاً، أو إلى أن تكدّره، أو أن يمتنع عن تقبّلها لما تحتويه من تفاؤل معسول، ورغم ذلك، مع الأخذ أو عدم الأخذ بأمثلة الرجال الآخرين للسير بهديهم، كان ينحو باتّجاه التكيّف البطيء مع الشكل الجديد ليده، *بدأ - يألفُها*، وحين خلع القفّاز في السادس والعشرين من آذار، جال في خلده أن المرحلة الأسوأ قد أصبحت من الماضي. مهما يكن، بقي أن ما لم يضعه في الحسبان هو كم كان القفّاز مريحاً له، وكم اعتمد عليه كواقٍ من المخاوف المربكة التي يخلّفها وعي الذات، والآن وقد باتت يده دون قفّازات مرّة أخرى، الآن وهو يحاول أن يتصرّف كأن *كلّ شيء عاد إلى طبيعته*، وقع أسيراً لعادة دسّ يده اليسرى في جيبه كلّما اجتمع مع أناس آخرين، الذي كان يعني الوقت بطوله تقريباً في المدرسة، والأمر المحبِط في هذه العادة الجديدة أنه لم يكن واعياً ما كان يفعل، كانت تلك الحركة تتمّ بمحض الارتكاس، الخارج كلّيّاً على إرادته، وكان ينتبه إلى أن اليد مدسوسة في الجيب أصلاً فقط كلّما تعيَّن عليه إخراجها لسبب أو لآخر. لم يكن أحد خارج المدرسة واعياً لهذا الفعل اللا إرادي، لا إيمي، لا والداه، ولا أجداده، إذ لم يكن من الصعب إبداء قدر من الجرأة في محيط من الناس الذين يهمّهم أمرُه، لكن فيرغسون تحوّل إلى رعديد في المدرسة، وكان في طريقه إلى ازدراء نفسه بسببها. مع ذلك كيف يُوقِف نفسه عن فعل شيء، لم يعلم حتّى بأنه كان يفعله؟ بدا وكأن لا حلَّ لهذه المشكلة، التي كانت بالإضافة إلى ذلك شاهداً آخر على المشكلة الذهنية – الجسدية المستعصية، ففي هذه الحالة يتصرّف العضو الجسدي الخالي من الذهن وكأنه يمتلك ذهناً خاصّاً به، لكنْ، حينها، بعد شهر من البحث العقيم، أُوحِيَتِ الإجابة إليه، إجابة عملية بمجملها، وواحداً إثر آخر لَمَّ سراويله الأربعة التي كان يرتديها في المدرسة، أعطاها لأمّه، وطلب إليها أن تُغلقَ خِياطةً الجيوبَ اليسرى الأمامية والخلفية في كل بنطال.

في الحادي عشر من نيسان، تلقّت إيمي رسالة قبول من كلّيّة بارنارد. لم يُفاجَأ أحدٌ من معارفها، لكنها وعلى مدى أشهر كانت تتألّم بسبب الـ 81 درجة التي نالتها في مادّة الجبْر، الجزء الثاني، وعلم المثلّثات في السنة الفائتة، الذي هبط بمعدّلها الإجمالي من 95 إلى 93، وتتساءل ما إذا كانت محصّلة درجاتها منخفضة للغاية، كانت 1375 بدلَ الـ 1450 التي كانت تتحيّن اقتناصها، وكلّما حاول فيرغسون طمأنتها خلال أشهر الانتظار الحافلة بالقلق تلك، كانت

تردّ بأن لا شيء مضموناً في هذه الحياة، ذلك أن العالم وزّعَ حصص الخيبات بالسرعة والحماس اللتين يمكن لسياسي أن يصافح فيهما الأيدي، ولأنها لم تردْ أن تصاب بالخيبة، كانت تهيّئ نفسها للخيبة، وبذلك، حين وصلت الأخبار السّارّة أخيراً، لم تكن سعيدة للغاية كما كان يجب أن تكون. غير أن فيرغسون كان سعيداً، ليس من أجل إيمي وحسب، بل من أجل نفسه، من أجل نفسه في المقام الأوّل، حيث توفّر عددٍ من الخيارات البديلة لو خذلتها كلّيّة بارنارد، وكلّ منها في مدينة لا تسمّى نيويورك، وكان فيرغسون يعيش الخوف من أن تستوطن في إحدى تلك الأماكن البعيدة مثل بوسطن أو شيكاغو أو ماديسون أو ويسكونسن التي كانت ستجعل كلَّ شيء بالغ التعقيد والوحشة بالنسبة إليه، فلقاؤها لمرّات قليلة في العام، والعودة من العطلة الخاطفة إلى غربي شارع 75، ثمّ الذهاب من جديد، تسعة أشهر من تواصل شحيح أو لا تواصل، كتابة رسائل إليها بينما هي أكثر انشغالاً من أن تردّ عليها، ورويداً رويداً سوف ينفصلان لا محالة، فلا شيء يمنعها من لقاء أحد آخر، سيكون فتيان الكلّيّة متحلّقين حولها وعاجلاً أم آجلاً ستكون في علاقة مع أحد منهم، فناشط حقوق مدنية/ متخصّص في التاريخ بعمر العشرين أو الواحد والعشرين سيجعلها تنسى كل ما يتعلّق بـ فيرغسون المسكين، الذي لم يتخرّج بعد في الثانوية، ومن ثمّ تصل الرسالة من بارنارد، فلم يعد عليه أن يتفكّر في التفاصيل القاتمة لما كان يمكن أن يحدث. لم يزل فيرغسون فتىً، لكنه كان راشداً ما يكفي لأن يكون قد خبرَ أن أسوأ الكوابيس ربّما تصبح واقعاً في بعض الأحيان - أخوة ينهبون أخوتهم، رؤساء يُقتلون برصاص مغتالين، سيّارات تصطدم بأشجار - وقد لا تصبح أحياناً، كالأزمة منذ سنتين خلَتا، عندما كان يُفترَض أن يأتي العالمُ إلى نهايته، ولم يحدث، أو رحيل إيمي إلى الكلّيّة، الذي كان سيُبعدها عن نيويورك، لكنه لم يحدث، وها هي الآن ستمضي السنوات الأربع القادمة في نيويورك، وقد أيقن فيرغسون أنه عندما يأتي وقتُ ذهابه إلى الكلّيّة، فسوف يُيمّم وجهه شطر نيويورك هو الآخر.

كان موسم البيسبول قد بدأ في ذلك الحين، لكن فيرغسون فعل ما وسعه كي يتناساه. تجنّب حضور المباريات، ووصله كلّ ما عرفه عن الفريق خلال أحاديثه مع بوبي جورج في مشوارهما الصباحي إلى المدرسة. كان أندي مالون، الذي احتلّ مكان فيرغسون ضمن نقطة المركز الثالثة يجد صعوبة في التّكيّف مع موقعه الجديد كما يبدو ممّا كلّف الفريقَ خسارتين بسبب أخطاء في الأشواط الأخيرة. شعر فيرغسون بالحزن لأجله ولأجل أفراد الفريق كلّهم، لكنْ، ليس بالحزن الشديد، ليس بذلك الحزن الذي يمنع عنه الشعور بشيء من السعادة أيضاً، بالقدْر الذي آلمه أن يعترف بالأمر، بأن ثمّة رضى منحرفاً لدى إدراكه أن الفريق بات أقلَّ جدارةً دون وجوده بين أعضائه. بالنسبة إلى بوبي - لا شيء يقلقه، كالمعتاد. لطالما كان مُجيداً، لكنه الآن أفضل لاعب

في الفريق، متلقّي رميات الكرة الذي لا يُشقّ له غبار الذي كان باستطاعته أن يجول الميدان بمرونة، بالإضافة إلى الرمي، وعندما أقنع فيرغسون أخيراً بمرافقته إلى مباراة الإياب ضدّ ثانوية كولومبيا في الأسبوع الثاني من أيّار، دُهشَ فيرغسون من التّطوّر المذهل الذي حقّقه بوبي. اللاعب الذي أحرز الضربة المفردة والمزدوجة والثلاثية - جنباً إلى جنب مع عدّاءين اندفعا في محاولة لانتزاع نقطة المركز الثانية. الفتى الصغير ذو الأنف المسدود بالمفرزات، والذي كان يتنفّس عن طريق فمه، ويمصّ إبهامه قد أصبح الآن مراهقاً طوله ستّ أقدام وبوصتين، بجسد مفتول العضلات، سريع القدمين في الحركة ووزن يتجاوز مائتي رطل، ويشبه رجلاً مكتمل النّموّ في حقل المباراة، يلعب بذكاء لم يعدّه فيرغسون أقلّ من مذهل، لأن بوبي جورج كان جاهلاً في كلّ شأن يتجاوز البيسبول أو كرة القدم أو الضحك أو النكات البذيئة، والسبب الوحيد في أنه لم يكن يرسب في نصف موادّ دراسته، فذلك لأن والديه وظّفا معلّماً من فرع جامعة الولاية في مونتكلير، لكي يساعده في الحفاظ على عدم نزول معدّله تحت الـ C، وهي الحدّ الأدنى المطلوب أكاديمياً للمشاركة في الألعاب الرياضية بين المدارس الثانوية. اتركْه على أرض الملعب، مهما يكن الحال، فسيلعب بذكاء، وأمّا بعد أن شهد فيرغسون كم أصبح بوبي ماهراً، فلن تكون ثمّة حاجة لتعذيب نفسه بالذهاب إلى مباراة جديدة في ذلك الربيع. ربّما السنة القادمة، قال في نفسه، أمّا الآن، فلم يزل الأمر شديد الإيلام.

كان الصيف على الأبواب، ومع إزاحتها أشغال الكلّيّة عن الطاولة أخيراً، بدأت إيمي بالتّحدّث في الشأن السياسي، لتتطارح أفكارَها مع فيرغسون في محادثات طويلة حول لجنة التنسيق الطلابية اللاعنفية وهيئة المساواة بين العروق، وتوجُّه الحركة، والخيبة المريرة التي تعتريها، لأنها كانت أصغر سنّاً من أن تذهب إلى الجنوب للمشاركة في مشروع مسيسيبي الصيفي الذي نُظّم خلال الأشهر الأخيرة من السنة الدراسية، المبادرة ثلاثية المَحاور المقترَحة من جانب لجنة التنسيق الطلابية اللاعنفية التي تضمّنت تجنيد جيش صغير من طلبة الجامعات من الشمال، ألف زوج إضافي من الأكفّ، لتُسهم بـ (1) حملة تسجيل الناخبين السود المحرومين منها في الولاية، (2) انطلاق *مدارس الحُرّيّة* التي سوف تُعَدّ للأولاد السود في عشرات البلدات والمُدُن الصغيرة، و(3) تأسيس الحزب الديمقراطي الحرّ في مسيسيبي، الذي سيختار قائمة مندوبين بديلين، يذهبون لحضور مؤتمر أتلانتيك سيتي في نهاية آب لنزع الشرعيةِ عن وفد الديمقراطيين الاعتيادي العنصري والأبيض بكليّته. ستبذل إيمي جهدها كي تذهب إلى منطقة الخطر تلك، والتي يشوبها العنف والتّعصّب الأعمى، لتنخرط في ميدان القضية، غير أن التاسعة عشرة كانت الحائلَ، ولم تسمح لها بالتّقدّم للمهمّة، الأمر الذي كان بمجمله مقبولاً من وجهة نظر فيرغسون،

ذلك أنه بقدر ما آمن بالقضية، بقدر ما عَدّ أن قضاء الصيف دون إيمي أمرٌ لا يُطاق بالنسبة إليه.

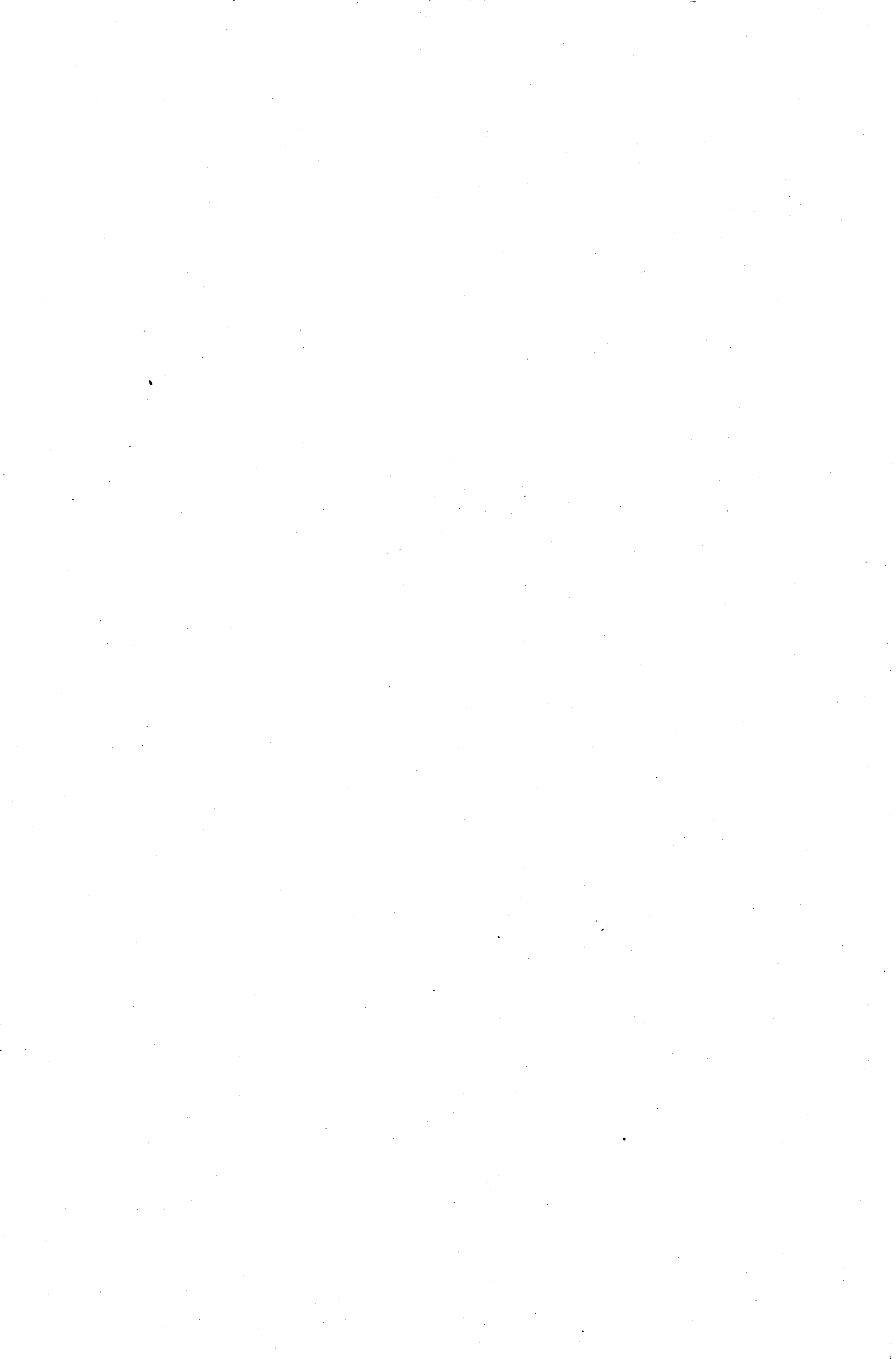
أشياء عديدة لا تُطاق وقعت في الأشهر التي تلت، لكنْ، ليس بالنسبة إليهما، أو ليس بالنسبة إليهما بشكل مباشر، ورغم عمل إيمي الصيفي كموظّفة في متجر الكُتُب في الشارع الثامن، وفيرغسون موظّف ضمن طاقم تلفزيون وإذاعة ستانلي، غالباً ما استطاعا اللقاء، ليس في نهاية الأسبوع وحسب، بل في العديد من ليالي الأسبوع، إذ يقود فيرغسون سيّارته باتّجاه المدينة لحظة خروجه من العمل، مصطحباً إيمي من متجر الكُتُب، ومن ثمّ إلى تناول الهامبرغر في مطعم جو جونيور وحضور فيلم في سينما شارع بليكر أو مشوار في ساحة واشنطن أو التّقلّب عاريين في شقّة أحد أصدقاء إيمي الغائبين، حُرَّين في الذهاب الآن أينما أرادا بسبب سيّارة فيرغسون، *سيّارة الحُرّيّة في صيف الحُرّيّة ذاك*، وعندما كانا يرغبان فإنهما يتوجّهان في أيّام السبت والأحد إلى شاطئ جونز أو يقودان شمالاً باتّجاه الريف أو جنوباً نحو ساحل جيرسي، صيف الأفكار الكبيرة والحبّ العاصف والألم المهول، ذلك الذي كانت بدايته واعدة للغاية عندما تمّ تمرير مشروع قانون الحقوق المدنية من قِبَل مجلس الشيوخ في التاسع عشر من حزيران، ومن ثمّ، عقِبَ ذلك بوقت قصير، بعد اثنتين وسبعين ساعة لا أكثر، بدأت تحدث الأشياء التي لا تُطاق. ففي الثاني والعشرين من حزيران، عُدَّ ثلاثة ممّنْ التحقوا بمشروع مسيسيبي الصيفي في عداد المفقودين. كان أندرو غودمان، ميكي شفيرنر، وجيمس تشيني قد غادروا مركز تدريب أوهايو الملحق بالمشروع قبل الطلبة الآخرين، لكي يحقّقوا في تفجير كنيسة، ثمّ لم يُسمَع لهم صوت منذ مغادرتهم. لم يعد هناك أدنى شكّ في أنهم تعرّضوا للتصفية، ضُربوا وتعرّضوا للتعذيب، ثمّ قُتلوا من قِبَل مجموعة عنصرية بيضاء، لِبَثّ الرعب في الحشد الغازي من راديكاليي اليانكي الذين يخطّطون لتدمير طريقتهم في الحياة، لكنْ، لم يعرف أحد أين ذهبت الجثث، ولم يبدُ أن شخصاً من البيض في مسيسيبي قد اهتمّ للأمر. بكتْ إيمي عندما استمعت إلى الأخبار. في السادس عشر من تمّوز، اليوم الذي حظي فيه بيري غولدووتر بترشيح الحزب الجمهوري له في سان فرانسيسكو لسباق الرئاسة، أطلق شرطي أبيض النار على فتى أسود من هارلم، فقتله، وبكتْ إيمي أيضاً عندما كان الرَّدُّ على موت جيمس باول بستّ ليالٍ متواصلة من الشغب والنهب في هارلم وبيدفورد - ستايفسانت، بينما تُطلق شرطة نيويورك الرصاص الحيّ فوق رؤوس الناس الواقفين على الأسطح وهم يرمونهم بالحجارة والقمامة في الشوارع، لم تُستخدَم خراطيم إطفاء الحريق والكلاب لتفريق الحشود السوداء في الجنوب، وإنما الرصاص الحقيقي، وبكتْ إيمي، ليس فقط لأنها أدركت في نهاية الأمر أن التمييز العنصري متجذّر للغاية في الشمال، كما هو في الجنوب، كما هو في *مدينتها التي تعيش فيها*، بل لأنها أيضاً فهمت

بأن مثاليّتها البريئة كانت فاقدة الحياة، إذ إن حلمها بأميركا عميّة عن التمييز اللوني يقف فيها السود والبيض وقفة واحدة، لم يكن أكثر من تفكير أبله غارق في الأُمنيّات، وحتّى بايارد رستن، الرجل الذي نظّم *المسيرة إلى واشنطن* منذ ما لا يتجاوز أحد عشر شهراً، لم يعد يمتلك أدنى تأثير، وحين وقف أمام الحشد في هارلم، والتمس منهم إيقاف العنف، وبذلك لن يصاب أحد بأذى أو يُقتَل، صاح الحشد مطالباً بسقوطه، ونعتوه بـ*العمّ توم*. المقاومة السلمية فقدت معناها، هكذا قالت أخبار البارحة، والقوّة السوداء قد باتت الإنجيلَ الأسمى، وهكذا كانت تلك القوّة عظيمة حتّى إنه في غضون أشهر أُزيلت كلمة زنجي *Negro* من القاموس الأميركي. في الرابع من آب، عُثر على جثث غودمان وشفيرنر وتشيني عند خزّان مائي أرضي قريب من مدينة فيلادلفيا الصغيرة في مسيسيبي، وكانت صور جثثهم نصف المغمورة، الملقاة في الوحل عند قعر الخزان، مريعة للغاية وأشنع من أن ينظر إليها المرء حتّى إن فيرغسون أشاح بوجهه عنها، وتأوّه بغضب. في اليوم التالي، وردَ نبأ أن مدمِّرتين إيميركيتين تقومان بدورية استطلاع في خليج تونكين قد هوجمتا بالقوارب الطوربيدية الفيتنامية الشمالية، أو هذا ما ذُكر في تقرير الحكومة الرسمي، وفي السابع من آب مرّر الكونغرس *قرار تونكين*، الذي يخوّل جونسون "اتّخاذ الإجراءات المناسبة لردع أي هجوم مسلّح ضدّ قوات الولايات المتّحدة، ولمنع أيّة تعدّيات أخرى." قد اندلعت الحرب، ولم تعد إيمي تبكي. لقد حسمت رأيها الآن تجاه جونسون، وكانت حانقة، سامية في غضبها، لدرجة أن فيرغسون كاد أن يقع تحت إغراء أن يطلق نكتةً، ليرى فيما إذا كانت ستبتسم مرّة أخرى.

ستكون حرباً كبيرة، يا آرتشي، قالت، أكبر من الحرب الكورية، أكبر من أي حرب أخرى منذ الحرب العالمية الثانية، وعليكَ أن تسعدّ لأنكَ لن تكون جزءاً فيها.

ولماذا لن أكون فيها، يا د. بانغلوس؟ سألها فيرغسون.

لأن الرجل ذا الإبهام الواحد لن يكون مؤهّلاً للتجنيد. والحمد لله.



3.2

3.3

لم تعد إيمي تحبّه، على الأقلّ ليس بالطريقة التي أرادها فيرغسون أن تحبّه، وبعد الأيّام الباهرة في الربيع والصيف الأخيرين عندما ترك سليلا العائلتين القريبتين وراءهما قرابتهما كطعنة لحبّ حقيقي، عادا إلى قرابتهما العادية. كانت إيمي مَنْ دعت إلى وقف الحبّ، ولم يكن بوسع فيرغسون فعل شيء لإرجاعها عن قرارها، إذ إنه حين يتّخذ أحد من آل شنايدرمان قراره، فإنه لن يكون قابلاً للتغيير. كانت اعتراضاتها الكبرى على فيرغسون تتمثّل في أنه مستغرق في ذاته للغاية، جلفٌ للغاية في تطلّبه (اعتداءاته المتكرّرة على نهديها، اللذين لم تكن مستعدّة لكشفهما أمامه في سنّ الرابعة عشرة)، منفعل سلبي للغاية في الأمور كلها التي لا تتعلّق بثدييها، فجّ للغاية، محدود للغاية في حسّ التواصل الاجتماعي ممّا لا يترك بينهما أمراً جوهرياً يتحدّثان بشأنه. لم يكن الأمر أنها لم تشعر بشغف عميق وراسخ تجاهه، قالت، أو أنها لم تستمتع بوجودها مع فيرغسون المهووس بالسينما، لاعب كرة السّلّة، الكسول، كواحد من عائلتها الآخذة حديثاً بالاتّساع، لكنه كحبيب لا أمل يُرجى منه.

انتهت محاولات استعادة الحميمية قبل أسبوعين من انقضاء صيف (1961)، وحين فتحت المدرسة أبوابها من جديد بعد عيد العمّال، شعر فيرغسون بالفقد المرير. ليس لأنه لن يعود هناك مزيد من جنون التقبيل مع إيمي، بل لأن صداقتهما الحميمة ما قبل الانفصال قد تهشّمت أيضاً. لا مزيد من زيارات كلّ منهما إلى شقّة الآخر، لكي ينجزا وظيفتيهما المدرسيتين معاً، لا مزيد من حلقات برنامج *منطقة الشفق* التلفزيوني، لا مزيد من ألعاب "الريمية" بورق الشّدّة، لا مزيد من الاستماع إلى التسجيلات، لا مزيد من الخروج لمشاهدة الأفلام، لا مزيد من التّمشّي في المنتزه على ضفّة النهر. لم يزل يراها في اللقاءات العائلية، التي تراوحت بين مرّتين أو ثلاث في الشهر، جلسات العشاء، ثمّ لقاءات الغداء يوم الأحد في شقّتَي شنايدرمان، المشاوير إلى سشوان بالاس على برودواي والـ ستيج ديلي على الشارع السابع، لكنه وجد أنه من مؤلم النظر إليها الآن، مؤلم أن يقترب منها بعد أن نُحِّيَ، رُفِضَ لأنه لم يوافق معاييرها عن ما يعنيه كائن بشري مؤهّل، جدير بالثقة، وبدلاً من الجلوس إلى جوارها في تلك الولائم كما كان يحدث دائماً

في الماضي، اتّخذ مكاناً لنفسه الآن عند الطرف الآخر من الطاولة، وحاول أن يتصرّف وكأنها ليست في المكان. في الأسبوع الأخير من أيلول، في منتصف عشاء في بيت العمّ دان والعمّة ليز، والتيس العجوز يثرثر شيئاً عن الراديوم المسمِّم الذي دسّه الألمان الأشقياء في جدار برلين، نهض فيرغسون اشمئزازاً، دمدم بعذر عن اضطراره للذهاب إلى الحمّام، وترك الطاولة. قصَد الحمّام، لمجرّد أن يتوارى عن الجميع لا أكثر، إذ كان حضورهم يزداد وطأة عليه، كذلك الاضطرار لإبقاء قناع اللطف أمام إيمي في هذه المناسبات العائلية، والجرح الذي لا يزال طرياً، والذي يُنكأ كلّما رآها من جديد، دون أن يدري ماذا يفعل أو يقول في حضورها بعد ذلك، وهكذا أجرى الماء في المغسلة وفتح الماء في التواليت مرّتين، لكي يقنع الآخرين أنه ذهب، لكي يُفرِغ أحشاءه بدل الانغماس في مسرّة بائسة من الشعور بالحزن على نفسه. عندما فتح الباب بعد ثلاث أو أربع دقائق، كانت إيمي واقفة في الردهة ويداها على وركيها، في وضعية جريئة، جاهزة للنزال ما بدا إعلاناً بأن الكيل قد طفح لديها هي الأخرى.

ماذا يحدث بحقّ الجحيم؟ سألته. لم تعد تنظر إليّ. لم تعد تكلّمني. كلّ ما تفعله هو الاستياء فقط، وهذا يثير أعصابي.

أطرق فيرغسون، وقال: قلبي محطَّم.

تجاوزْها، يا آرتشي. أنتَ تعيش خيبةً لا أكثر. وأنا أعيش خيبة أيضاً. لكنْ، على الأقلّ يمكننا العمل على أن نكون أصدقاء. لقد كنّا أبداً أصدقاء، أليس كذلك؟

لم يزل فيرغسون عاجزاً عن إرغام نفسه على النظر في عينيها. لا عودة، قال. ما فاتَ مات.

أنتَ تمزح، أليس كذلك؟ أعني، هذا سيّئ منكَ كما كل ما تفعله، ولم يفتْ كل شيء. بل لم يبدأ شيء بعد. نحن في الرابعة عشرة، يا أهبل.

في عمر يكفي لأن تتحطّم قلوبنا.

تماسَكْ، يا آرتشي. أنتَ تتحدّث كولد صغير بائس، وأنا أكره ذلك. أنا حقّاً أكره ذلك. سنكون أبناء عمّ لعمر طويل، طويل قادم، وأحتاجكَ لأن تكون صديقي، لذلك أرجوكَ لا تسمح لي أن أكرهكَ.

بذل فيرغسون وسعه لكي يتماسك. كان من الصعب الإصغاء إلى إيمي تصبّ توبيخها كلّه عليه، وعى أنه ترك لطويّته طيّعةِ التفكير، المثيرة للشفقة أن تنال منه، وما لم يضع حدّاً لها، فسيتحوّل إلى غريغور سامسا، *ويفيق ذات صباح من منامات، ليجد نفسه، وقد مُسخ إلى خنفساء عملاقة*. إنه في الصّفّ التاسع الآن، السنة الأولى من الثانوية، ورغم أن أداءه الدراسي

في معهد ريفرسايد كان ينال التقدير الدائم، إلا أن درجاته كانت منخفضة بعض الشيء في الصّفّ السابع والثامن، ربمّا بسبب الملل، ربمّا بسبب تعويله المبالَغ به على مقدراته الطبيعية في أن تتيح له النجاح بأقلّ قدر من استنفاد الجهد، لكن العمل بات الآن أكثر تطلّباً، ولن يسعه الإجابة على أسئلة امتحان عن كيفية تصريف أفعال فرنسية غير نظامية في زمن الـ *ماضي المركب* أو يدوّن تواريخَ مثل تصفية المفوّضين في براغ برميهم من النوافذ وحمية الديدان، إذا لم ينكبّ على الشغل في وقت الدراسة، ليتمكّن من هذه التفاصيل العويصة. صمّم فيرغسون على رفع درجاته إلى أعلى مستوى، يمكنه أن يتخيّله - ليس أدنى من درجة A في الإنكليزية، والفرنسية، والتاريخ، وليس أدنى من B+ في العلوم الحيوية والرياضيات - خطّة عمل صارمة، لكنها ممكنة التحقيق، إذ إن درجتَي الـ A في المادّتين الأخيرتين ستكلّفه جهداً إضافياً مضاعفاً ممّا سينحّي كرة السّلّة عن المشهد، وحين بدأت الاختبارات بعد عطلة عيد الشُّكْر، وضع نصبَ عينيه التّفوّق في الصّفّ الأوّل من الثانوية. حقّق ذلك (كانطلاقة إلى الأمام)، بالإضافة إلى أنه وصل في إنجازه الدراسي إلى ما يصبو إليه، رغم أنه لم يكن بالضبط متوافقاً من تنبّؤاته، إذ تحوّلت الـ A بالفرنسية إلى الـ B+ المخيبة، والـ B+ في العلوم الحيوية إلى A- خارقة. لكنْ، لا فرق. لقد استحقّ فيرغسون مرتبة الشرف في ترتيبه ضمن الفصل الأوّل، ولو أن إيمي طالبة في معهد ريفرسايد، لكانت عرفت ما حقّق من إنجاز. لكنها لم تكن فيه، ولذلك لم تعرف، ولإغضابها، سيكون ابن عمّها محطّم القلب فخوراً بإبلاغها أنه *قد تماسَكَ*، لم تدرِ كم سيكون خجلها عميقاً في دأبه لأن يثبت لها كم أخطأتْ بقدراته.

كلّ ما سلف، قيل دون ذكر أنه لم يزل يريدها، ذلك أنه سيفعل أي شيء لكي يحظى بها من جديد، لكنْ، حتّى لو نجح في نهاية المطاف باستعادتها، فإن الأمر سيستغرق بعض الوقت، وفي الوقت الفاصل ما بين الحرمان منها بعد ذلك للأبد وبين احتمال استعادتها مرّة أخرى، عَدّ أن أفضل استراتيجية لتغيير الأشياء نحو الأفضل ستكون في إيجاد حبيبة جديدة له. لن يُظهِر ذلك أنه فقد اهتمامه بها، ووضع انفصالهما وراءه وحسب (والذي كان ضرورياً)، بل سيلهيه عن التفكير بها طوال الوقت، وبقدر ما تضاءل الوقت الذي يفكّر بها، بقدر ما تضاءل وهنُه، وبقدر ما تضاءل وهنُه، بقدر ما لاح أكثر جاذبية بالنسبة إليها. حبيبة جديدة ستجعله شخصاً أسعد، وأكثر إقداماً بسعادته المولودة حديثاً، سيكون أكثر قرباً إلى إيمي في اللقاءات العائلية، أكثر جاذبية، أكثر ضبطاً لمشاعره، وحين تأتي المصادفة من تلقاء ذاتها سيتحدّث إليها عن *الأحداث الراهنة*. كانت تلك واحدة من منغصّاتها تجاهه - لامبالاته بالسياسة، افتقاره للاهتمام بما يحدث في الدنيا الحافلة بالقضايا الوطنية والعالمية - وحتّى

الإصلاح الذي بذله فيرغسون المحدود في متابعة الأخبار عن كثب من الآن فصاعداً. كلّ صباح تصل الشّقّة صحيفتان، الـ *Times* والـ *Herad Tribune*، رغم أن "جيل" ووالدته يقرآن الـ *Times* ويهملان الـ *Herad Tribune* في معظم الأوقات، حتّى لو كانت مكان وظيفة "جيل"، حتّى لو كانت النكتة في أوساط العائلة أن الـ Herad Tribune أكثر ميلاً للجمهوريين من أن تؤخذ على محمل الجدّ من قِبَل كل مَنْ سكن في الجانب الشمالي الغربي، ومع ذلك ظهرت مراجعات ومقالات 'جيل' كل يومين في لسان حال بارك أفينيو الناطق باسم أموال وول ستريت والسلطة الأميركية، وكان عمل فيرغسون الصباحي أن يقتطع الأجزاء التي تضمّ عمود جيل الصحفي، ويرتّب القصاصات في علبة تعود لوالدته، التي كانت تخطّط لجمعها ضمن سجلّ صور، يتضمّن كتابات جيل ذات يوم، وكان جيل أبداً يطلب إليه ألا يزعج نفسه بتلك *النفايات*، لكن فيرغسون، الذي فهم أن جيل كان محرَجاً من الاهتمام ومسروراً به في الآن نفسه، سيهزّ كتفيه ويقول، آسف، هذه أوامر السّيّدة المعلّمة، السّيّدة المعلّمة كان اسماً آخر لحاملة اسمين آخرين، هما روز إدلر/ روز شنايدرمان، وسيومئ جيل بحركة استسلام مفتعلة، ويجيب، *Natürlich، mein Hauptmann* *بطبيعة الحال، يا كابتن*، لا يجب أن تقع في المتاعب بسبب عصيانكَ الأوامر. وهكذا كانت الـ *Times* والـ *Herad Tribune* متاحتين أمامه لقراءتهما في الفترة الصباحية، وكلّما مالت شمس بعد الظهيرة، وعاد إلى البيت من المدرسة، كانت نسخة من New York Post تجد سبيلها أيضاً إلى الشّقّة في معظم الأحيان، وتُوِّجتْ الصحف اليومية بمجلات *Life* ، *Newsweek*، و*Look* (التي كانت أمّه تنشر فيها أحياناً الصور التي التقطتها)، وكذلك *New*، *I. F. Stones Weekly* *Republic*، *Nation*، ومجلات أخرى متنوّعة، وأوغل فيها فيرغسون في تلك الفترة بدلاً من تقليبها فورياً إلى آخر صفحاتها، حيث مراجعات الأفلام والكُتُب، ليقرأ المقالات السياسية، لعلّه يفهم ما كان يدور في الخارج من أحداث، وهكذا يقرّر كيف يصمد في مناقشته مع إيمي. تلك هي التضحيات التي كان مستعدّاً لبذلها في سبيل الحبّ، فحتّى مع تحوّله إلى مواطن أكثر ثقافة، ومراقب أكثر يقظة للمعارك بين الديمقراطيين والجمهوريين، ولتفاعلات أميركا مع الحكومات الأجنبية الصديقة والعدوّة، لم يزل يجد أن السياسة هي حقل أكثر بهوتاً، ومواتاً، ورعباً ممّا كان يتخيّل. الحرب الباردة، تشريع تافت - هارتلي، التجارب النووية تحت الأرض، كينيدي وخروتشوف، دِين راسك وروبرت ماكنمارا - لم يعنِ له أي شيء من ذلك، ورأى أن السياسيين كلهم إما أغبياء أو ملطّخون أو الأمران معاً، وحتّى جون كينيدي الوسيم، الرئيس الجديد الذي حظي بإعجاب كبير، كان مجرّد سياسي آخر غبي أو ملطّخ بالنسبة إلى

فيرغسون، الذي وجد أنه أكثر إنعاشاً للفكر أن يُعجَب برجال مثل بيل راسل وبابلو كاسالز من أن يبدّد مشاعره على ثرثارين متبجّحين، يتزاحمون لكسب أصوات الناخبين. كانت المسائل الثلاث من بين الـ في الخارج التي لفتت انتباهه حقّاً خلال أشهر سنة 1961 الأخيرة والشهر الأوّل من 1962 محاكمة أدولف إيخمان في القدس، الأزمة في برلين - لأن 'جيل' والعمّ 'دان' كانا مستغرقين فيها - وحركة الحقوق المدنية في الداخل - لأن الناس كانوا شجعاناً للغاية، والمظالم التي عاشوها كشفت له إلى أي مدى بلغت فداحتها، ما جعل أميركا تبدو كأحد أكثر البلدان تخلّفاً على وجه الأرض.

بالأحوال كلها، لم يكن التنقيب عن إيمي *بديلة* خالياً من العوائق. ليس الأمر أن فيرغسون كان يأمل باكتشاف إحداهنّ ممّنْ يشبهنها، فإيمي لم تكن ذلك الصنف من الفتيات اللائي صُمّمنَ للإنتاج واسع النطاق، الأمر أنه لم يكن مستعداً لتقبّل بديلٍ أدنى من الصنف ذي الجودة الأعلى- فلا أحد يُقارَن بـ إيمي، ربمّا، لكنه يتقبّل فتاة متألّقة قد تُذهله وتسرّع نبض قلبه. لسوء الحظّ، فإن المرشّحات الأوفر حظّاً كنّ قد منحنَ قلوبهنّ لآخرين، من بينهنّ الأجمل أبداً إيزابيل كرافت، هيدي *لامار* فاتنة الصّفّ الأوّل، التي كانت على علاقة بفتى من السنة الثانية، كذلك كانت ابنة خالتها الجذّابة أليس أبرامز، كذلك كانت شعلةَ فيرغسون السابقة، ذات الصوت المعسول ريتشل مينيتا. تلك هي إحدى الحقائق الرئيسة في حياة الصّفّ التاسع: معظم الفتيات أكثر تقدُّماً من معظم الفتيان، الذي دلّ على أن أكثر الفتيات تميّزاً تجنّبنَ فتيان سنتهنّ الدراسية لصالح الفتيان الأكثر تقدّماً من السنة التالية، وربمّا من السنة ما بعد التالية. فيرغسون، والأمل يحدوه في نتائج أسرع، ونجاح مع حلول منتصف تشرين الأوّل على أبعد تقدير، أي بعد ثلاثة أسابيع من كلمة *تماسَكْ* التي قالتها له إيمي، لم يزل يبحث بجدّيّة حتّى تشرين الثاني، ليس لنقص في السعي من جانبه (أربعة مواعيد لمشاهدة أفلام مع أربع فتيات مختلفات في أربعة أيّام سبت)، لكنْ، ببساطة لم تكن إحدى هؤلاء الفتيات هي الخيار الصائب. مع إغلاق المدرسة أبوابها لعطلة عيد الشُّكْر، بدأ يتساءل إن كان ثمّة فتاة في معهد ريفرسايد يمكن عَدّها الخيار الصائب.

كانت كرة السّلّة خير معين في صرف انتباهه عن خيبات الحبّ، على الأقلّ لخمسة أيّام من الأسبوع، مع نهايات أسبوع بلا حبّ عليه أن يصمد معتمداً على مصادر أخرى تصرف انتباهه بأشياء مثل التّجمّع لبعض الألعاب مع أصدقائه، أو سهرات أماسي السبت بين الحين والآخر، أو حضور فيلم مع أي شخص استطاع مرافقته (مع والدته عادةً)، أو الحفلات الموسيقية مع جيل أو مع كِلا جيل وأمّه، لكنْ، لم يكن ثمّة شكّ في أن لعبَ كرة السّلّة في موسم استمرّ أحد عشر أسبوعاً قد حماه من الوقوع في العديد من قيعان الكآبة، بدأ بفترة أسبوع من الاختبار

والرضا الكامل لتحقيقه النتائج المَرجوّة، تلاه أسبوع مضنٍ من تدريبات ما بعد المدرسة مع التئام شمل الفريق تحت إدارة المدرّب نيم، الذي يسمّى عادة بالمدرّب نمب (أو الخدِر) بسبب مزاجه الهادئ، ومن ثمّ تسعة أسابيع من الألعاب بلغ مجموعها ثمانية عشرة مباراة، واحدة بعد ظهر الثلاثاء، وأخرى مساءَ الجمعة، كان نصف المباريات على أرض ملعبهم ونصفها الآخر على باحات مدارس الخصوم الخاصّة المتناثرة حول المدينة، كانت هناك عروض الستارة الإعلانية التي ركّزت على عروض طلاب الصّفّ الأوّل من مباراة المدرسة، وهناك كان فيرغسون، الفتى غريب الأطوار الذي طلب ارتداء الرَّقْم 13، وهو يجري إلى الباحة مع أعضاء البداية الخمسة، ويتّخذ موضعه لقفزة الوسط.

تلك الصباحات كلها في منتزه ريفرسايد مع ابن العمّ جيم قد ساعدت في تحويل الغِرّ، المبتدئ ابن الاثنتي عشرة سنة فيما بعد إلى لاعب متمكّن، بل مذهل بحلول الوقت الذي أحرز فيه سبع نقاط في مباراته الأولى لصالح فريق ريفرسايد ريبلز في عمر الرابعة عشرة وتسعة أشهر. كان فيرغسون يدرك أن مواهبه محدودة، ذلك أنه افتقر إلى السرعة الاستثنائية المطلوبة لإضفاء التّميّز على فريق كرة السّلّة، ولأن يده اليسرى كانت أقلّ رشاقة من يمناه، فلن يكون أكثر من مساعد ثانوي حين يُحشَر بين منافسين سريعين وأقوياء. لا ومضة ذكية، لا مرح صاخباً، لا ممازحة معهم، لدرجة سلْبهم سراويلهم، لكنْ، بقي ما يكفي من النقاط القوية من مباراة فيرغسون التي ستحفظ مكانه، وتجعله جزءاً لا غنى عنه من الفريق، وأهمّ ما لديه مرونة ساقيه، اللتين أتاحتا له القفز أعلى من أي أحد آخر، وحين تجمع تلك المقدرة مع الحماسة التي تبلغ حدّ المجازفة في أثناء لعبه - تجد أنموذجاً جنونياً من الصخب الذي استحقّ عليه لقب القائد المغوار - والنتيجة كانت الموهبة الفائقة بما يتعلّق بالرشاقة في الاختراق، والوثبات دون عوائق بينما يصخب فوق الألواح الخشبية في مواجهة اللاعبين الأكثر طولاً. نادراً ما أخطأ رمية كرة، وكانت ضرباته الخارجية جيّدة، مع احتمال أن تتطوّر إلى جيّدة جدّاً، لكن الدّقّة التي كان يبديها في أثناء التدريب قلّما تناسبت مع أدائه في المباريات، إذ كان يميل إلى التّسرّع في ضرباته مع احتدام المنافسة، الذي جعل منه لاعباً مشتّتاً ومزعجاً في تلك السنة الأولى، وشخصاً مؤهّلاً لتحقيق عشر أو اثنتي عشرة نقطة حين تكون ضربتُه قيد التسديد أو نقطتين، وربّما لا نقاط بعد أن تُخطئ. هكذا أحرز النقاط السبع في المباراة الأولى، التي أصبحت معدَّلَه لكامل الموسم، لكنْ، للمباريات ذات الاثنتين وثلاثين دقيقة التي يتراوح إجمالي النقاط فيها بين الخمس والثلاثين وبين الخمس والأربعين لكل فريق، وسبعٌ منها في اللعبة الواحدة لم يكن سيّئاً. ربّما ليس مثيراً إلى حدّ كبير، لكنه ليس بهذا السوء.

راه – راه – سيس – كووم - راه! ريبلز! ريبلز! ياه – ياه - ياه!(*)

لم تعنِ له الأرقام إلا قليلاً، بالأحوال كلها، فطالما أن الفريق قد فاز لم يبالِ بعدد النقاط التي أحرزها، لكنْ، تبقى الحقيقة البسيطة الأكثر أهمّيّة من الفوز أو الخسارة، وهي أنه لم يزل ضمن الفريق في المقام الأوّل. لقد أحبّ ارتداء لباس الـ ريبلز الرياضي الأحمر والأصفر الذي حمل الرَّقْم 13، أحبّ الفتيةَ التسعة الذين لعب معهم، أحبّ تكاسل المدرّب نيم، بل أحاديثه المفعمة بالحيوية الثاقبة في غرفة تبديل الملابس بين الشوطين، أحبّ ركوب الحافلة إلى حيث الألعاب البعيدة مع أعضاء فريقه وفتية منتخب المتقدّمين العشرة وهتّافيهم السّتّة مع أربعة من هتّافيّ فريق السنة الأولى، أحبّ جلبة المرح والنكات الصاخبة على متن الحافلة، وعلى الأخصّ حين حُظّرت لعبتان على ييغي غولدبرغ مهرّج فئة الناشئين، لأنه أنزل بنطاله، وألصق قفاه العاري إلى زجاج النافذة كنوع من (التطييز) على الناس في السّيّارات العابرة، أحبّ اللعب بقوّته كلها، لدرجة أنه لن يعودَ واعياً وجودَه داخلَ جسده، لم يعد قلقاً ممّا كانَ عليه من قبل، أحبّ إجهاد نفسه في التمارين حتّى التّعرّق، ثمّ الشعور بماء الحمّام الساخن يشطف العرق عن جلده، أحبَّ أن الفريق قد أقلع ببطء، ثمّ تحسّن أداؤه بمضيّ الموسم، بخسارة معظم المباريات في النصف الأوّل، ثمّ ليعود، فيربح معظمها في النصف الثاني، وليختتمه برَقْم قياسي يقارب 8 و10، وأحبّ أن إحدى مرّات الفوز كانت على فريق هليارد على أرضه وبين جمهوره حين سجّل فقط ثلاث نقاط، لكنه ترأّس الفريق في الوثبات.

هو - هو - تيك - تالك - تو! ريبلز! ريبلز! هيّ - هيّا - هيّا!

كان أفضل جانب فيها أن الناس قد أتوا لمشاهدتها، أنه كان هناك على الدوام حشد كبير في صالة ريفرسايد الرياضية في المباريتين، لم يكونا بالآلاف أو حتّى المئات، لكنْ، كان هناك ما يكفي لأن تُشعِرَ المرء بأن هناك جمهوراً، مع ضربات شوكي شوفالتر على الطبل الكبير لتشجيع الفريق، وقد حضر أفراد عائلة فيرغسون جميعهم بعض المباريات بين حين وآخر لتشجيع قائد المغاوير، أكثرهم كان العمّ 'دان'، الذي لم تفتْهُ مباراة محلّيّة واحدة، ثمّ والدته، التي لم تكن تستطيع الحضور فقط حين تكون خارج المدينة لشأن يخصّ عملها، وهناك بعض المرّات التي حضر فيها السّيّد 'جيل' كاره الرياضة، ومرّة واحدة جاء ابن العمّ جيم من بوسطن في منتصف إجازة منتصف الشتاء في الكلّيّة، ومرّة واحدة، في المباراة ضدّ هيليارد، حضرت الآنسة إيمي شنايدرمان بشحمها ولحمها، والتي رأت فيرغسون يتعثّر مستميتاً في سبيل منع الكرة من تجاوز حدود الملعب، التي رأته يلطم بكتفه لاعباً آخر، ويرميه أرضاً بينما يتصارعان على تمريرة خاطئة،

*) هتاف تشجيعيّ يردّد صوت انطلاق الصاروخ sis، وصوت فرقعة الألعاب النارية boom، ودويّ الحشد yah. (م)

التي رأته يصدّ رمية كرة عن السقوط في السّلّة ضمن الربع الأخير، لكي يُبقي ريفرسايد متقدّماً ثلاث نقاط، وبعد انتهاء المباراة، قالت له: عرض رائع، يا آرتشي. مخيف قليلاً، في بعض الأحيان، لكنها متعة أن تشاهده.

مخيف؟ سألها. ماذا يعني ذلك؟

لا أعرف. حادّ، ربّما. حادّ للغاية. لمْ أدرك من قبل أن كرة السّلّة رياضة تتطلّب الاحتكاك بين اللاعبين.

ليس دائماً. لكنْ، تحت ألواح السّلّة، على المرء أن يكون مشاكساً.

أهذا ما أنتَ الآن، يا آرتشي - مشاكس؟

ألا تتذكّرين؟

عمَّ تتحدّث؟

قلتِ لي *تماسَك*. ألا تتذكّرين؟

ابتسمت إيمي، وهزّت رأسها. رآها فيرغسون فائقة الجمال في تلك اللحظة، أوشك أن يحيطها بذراعيه، ويداهم فمها بالقبلات، لكنْ، قبل أن يستطيع القيام بحركة، تقدّم منه ذلك العمّ 'دان' المغفّل والمنفّر، وقال: شغلٌ عظيم، يا آرتشي. ربّما كانت رمية القفزة مائلة قليلاً، لكني أظنّ أنكَ بذلتَ أفضل ما لديكَ حتّى الآن في المباراة.

ثمّ انتهى موسم كرة السّلّة، ورجعت الحال إلى ما كان عليه من الفراغ الناجم عن عدم وجود حبيبة وعدم وجود إيمي أو أيّة امرأة أخرى. الفتاة الوحيدة التي التقاها بشيء من الانتظام كانت ملكة جمال نيسان في عدد نيسان من مجلّة بلايبوي التي مرّرها إليه جيم قبل أن يتّجه إلى المعهد، لكن واندا باورز ابنة بلدة سبوكين، واشنطن، ذات الواحد وعشرين عاماً المبتسمة بنهدين (شمّاميين(*)) يتحدّيان الجاذبية، وجسدٍ بدا كأنه قُدَّ من نموذج مطاطيّ لـ واندا باورز الحقيقية، كانت قد بدأت تفقد هيمنتها على خيال فيرغسون.

لأنه بات نافد الصبر وواهن العزم، محبَطاً أكثر من أي وقت مضى بسبب خفوت حضوره في الحياة، مشدوداً إلى الأسفل بآماله الخائبة وأحلام يقظته المشبوبة التي نحّت تلك الآمال جانباً، والترحال الذهني العقيم والملحّ في عوالمَ من متع حسّيّة، حيث كلّ ما قد حلم به صار حقيقةً، قرّر فيرغسون القيام بمحاولة أخيرة، لكي يرأبَ الصدع بينه وبين إيمي، ويبدأ حبّهما

(*) Cantaloupe : ثمرة الشّمّام، أو البطّيخ الأصفر. (م).

من جديد، لكنه حين هاتفها بعد خمسة أيّام من نهاية الموسم، وطلب إليها مرافقته إلى حفل الفريق الذي سيقام في صالة أليكس نوردستروم مساء السبت، فقالت إنها مشغولة. إذاً، قال، ماذا عن اليوم الذي يليه؟ لا، قالت، إنها مشغولة يوم الأحد أيضاً، ومن ثمّ عرف أنها ستستمرّ بانشغالها طالما بقي *هذا الانشغال*، و*هذا الانشغال* هو علاقة حبّ متبادل، أقامتها مع شخص، رفضت أن تقول اسمه. ذلك هو الأمر، قال فيرغسون في سرّه، لدى إيمي صديق، إيمي لم تعد موجودة، وحقول الأمل الخضراء قد آلت وحولاً.

وقعت بعض الأحداث ليلة ذلك الاتّصال الهاتفي المخيّب. *أوّلاً*: ثملَ للمرّة الأولى في حياته مساء الحفل عندما خلع مع شخص من أعضاء الفريق هو برايان ميتشيفسكي خزانةَ المشروبات المسكرة في صالة نوردستروم، وسرقا زجاجة مختومة من ويسكي كاتي سارك، وأخفياها في جيب معطف فيرغسون الشتوي، وأخذاها إلى شقّة برايان بعد نهاية الحفل. لحسن الحظّ، كان والدا برايان يقضيان عطلة نهاية الأسبوع خارج المدينة (ما يفسر اختيارهما شقّته كحانةٍ لهما)، ولحسن الحظّ تذكّر برايان أن يطلب من فيرغسون الاتّصال بوالديه، ليأذنا له بالغياب هذه الليلة قبل أن يفتحا الزجاجة، ويصبّا ثلثَي ما فيها، ثلثا هذين الثلثين لسعا في أثناء شربهما بلعوم فيرغسون قبل أن يصلا معدته، حيث، للأسف، لم يستقرّا طويلاً، إذ كان فيرغسون قد شرب بالضبط علبة بيرة واحدة وقدحَي نبيذ قبل تلك الليلة، ولم يكن له دراية بالآثار المُسْكِرة للويسكي المقطّر بدرجة السّتّة والثمانين الكحولية، ولم يمضِ وقت طويل حتّى فقد رشده على صوفا غرفة الجلوس، فتقيّأ كاملَ الخليط الكحولي على بساط عائلة ميتشيفسكي الشرقيّ. *ثانياً*: بعد عشرة أيّام تماماً على حفلة السَّكْرة الأليمة التي قاربت الانتحار، اشتبك مع بيل ناثانسون، المعروف سابقاً بـ بيللي، الضفدع الضخم الذي ما فتئ يضايقه منذ سنته الأولى في معهد ريفرسايد، مطلقاً العنان لوابلٍ من اللكمات إلى كرش ناثانسون المكتنزة ووجهه المليء بالبثور عندما نعته القميء بالـ*الأير البليد* في صالة الغداء، ورغم أن فيرغسون عوقب بثلاثة أيّام احتجاز مؤقّت بعد ساعات المدرسة، بالإضافة إلى توبيخ حادّ من 'جيل' ووالدته بأن يرفع من *مستواه*، لم يشعر بالندم لنفاد صبره، وما دام هو الطرف المعتدى عليه، فإن اقتناعه بلكم ناثانسون كان يستحقّ بجدارة الثمن الذي سيدفعه لقاء ذلك. *ثالثاً*:

في ظهيرة ثلاثاء أواخرَ آذار، بعد أقلّ من شهر من عيد ميلاده الخامس عشر، انسلّ من المدرسة فجأة بعد الغداء، مشى من شارع وست إند إلى برودواي، ودخل السينما. كانت النيّة أن يكون ذلك استثناء لمرّة واحدة فقط، كما قال في نفسه، لكنْ، كان لا بدّ من خرق الأوامر ذلك النهار، لأن الفيلم الذي أراد مشاهدته لن يُعرَض في اليوم التالي، أو في أي يوم آخر في

المستقبل القريب، وابن العمّ جيم، الذي شاهد *أولاد الفردوس* في مسرح براتل بكامبردج، أخبر فيرغسون أنه يجب عليه مشاهدته في المرّة القادمة التي يعرض في نيويورك أو فلن يكون له الحقّ في أن يسمّي نفسه كائناً بشرياً. كان من المقرّر أن يبدأ العرض في الواحدة، فاجتاز فيرغسون كتل الأبنية العشر حتّى غربيّ الشارع الخامس والتسعين ومسرح ثاليا بأقصى سرعته، وهو يقول في نفسه إنه لو كان أكبر عمراً بقليل، لما توجّب عليه الالتجاء إلى الهرب، فهناك عرض آخر للفيلم في الساعة الثامنة، لكن جيل ووالدته لن يأذنا له حتّى بالذهاب إلى المدرسة في الليل، فكيف لفيلم يتجاوز طوله ثلاث ساعات. ستكون هناك معضلة اختلاق تبرير لهما، كما افترض، لكنْ، حتّى الآن لم يخطر شيء في البال، ولعلّ التبرير الأفضل والأبسط - أنه شعر بالغثيان بعد الغداء، فعاد إلى البيت ليستريح - لن يكون ذا جدوى في هذه الحالة، لأن 'جيل' ووالدته سيكونان إلى حدّ يقارب اليقين في الشّقّة، 'جيل' في مكتبه وهو منكبّ على كتابه عن بتهوفن، وستكون الوالدة في غرفة التحميض تشتغل على تظهير الصور، وحتّى لو حدث وكانت والدته في الخارج، فهناك احتمال 99% أن يكون 'جيل' في الداخل. كان غياب التبرير مشكلة، لكنْ، كما سائر المشكلات التي سبّبها لنفسه، كان يعمد إلى القفز أوّلاً، ويقلق على العواقب لاحقاً، لأنه كان فتى أراد تحقيق ما أراده لحظةَ أراده، والويل لمَنْ يعترض طريقه. بالمقابل، سوّغ فيرغسون لنفسه، وهو يشقّ طريقه ما بين السير والهرولة على الرصيف المزدحم في هواء آذار البارد، فإنه لم يكن يبدّد الكثير من أي شيء بتقليصه حصصه لظهيرة الثلاثاء الدراسية، التي تضمّنت درس الرياضة وقاعة الدراسة، وحيث إن السّيّد ماكنولتي والآنسة وولرز قلّما يتجشّمان مشقّة التّفقّد، فربّما يتملّص من مشكلة التّغيّب. وإذا لم يستطع، وإذا بقي عاجزاً عن اختلاق تفسير كاذب إلى حين يرى 'جيل' وأمّه مرّة أخرى، فسيلجأ إلى قول الحقيقة. لم يكن يرتكب جريمة أو فعلاً شائناً في نهاية الأمر. لقد ذهب إلى السينما، والقليل من الأمور في هذا العالم كانت أفضل من الذهاب إلى السينما.

كانت صالة ثاليا مسرحاً ضيّقاً، مصمّماً بشكل غرائبي، بالكاد يتسع لمائتي مقعد وأعمدة سميكة تعيق الرؤية وأرض مائلة تلتصق بأسفل النعلين، بسبب كمّيّات الصودا التي اندلقت عليها عبر السنوات الماضية. مكان خانق ووضيع، ويكاد مدى إقلاقه الراحة يثير الضحك، مع وجود النوابض العتيقة في المقاعد التي تخز مؤخّرة المرء ورائحة البوشار المحروق النّفّاذة في الأنف، في الآن نفسه، كان أفضل مكان في الجزء الشمالي الغربي لمشاهدة الأفلام القديمة، التي قدّمتها صالة ثاليا بمعدّل فيلمين في اليوم، ففي كل يوم، عرضان اثنان لفيلمين مختلفين، فيلمان فرنسيان اليوم، فيلمان روسيان غداً، فيلمان يابانيان في اليوم الذي يليه، الذي فسّر

لماذا كان *أولاد الفردوس* ضمن برنامج ثاليا في تلك الظهيرة دون أن يُعرَض في مكان سواه من المدينة، وربّما في أي مكان آخر من البلاد. حتّى ذلك الحين، كان فيرغسون قد أمَّ هذا المكان ما لا يقل عن خمس وعشرين مرّة، مع 'جيل' وأمّه، مع إيمي، مع جيم، مع جيم وإيمي معاً، مع أصدقاء من المدرسة، لكنه لحظة أبرز هويته الشخصية، ودفع الأربعين سنتاً قيمة تذكرة الطالب المخفّضة، انتبه إلى أنه لم يكن قد ذهب إلى هناك وحيداً من قبل، وبعد ذلك، حين وجد مقعداً في منتصف الصّفّ الخامس، انتبه أكثر إلى أنه لم يحضر بمفرده فيلماً، ليس في ثاليا وحسب، بل في كل مكان آخر، لم يحدث أن جلس في دار سينما وحيداً في حياته، فالذهاب إلى السينما كان يتوخى متعة الرفقة بقدر متعة المشاهدة نفسه، وبينما حضر أفلام لوريل وهاردي المحببة لديه في طفولته، فلأنه كان وحيداً في الغرفة، حيث كان يشاهدها، لكنْ، الآن ثمّة أناس آخرون إلى جانبه في الصالة، خمسة وعشرون أو ثلاثون على الأقلّ، ومع ذلك، كان لا يزال يشعر بأنه وحيد. لم يستطع أن يحدّد ما إذا كان ذلك الشعور جيّداً أو سيّئاً - أو أنه ببساطة مجرّد شعور جديد.

ثمّ بدأ الفيلم، ولم يعد يهمّه إن كان وحيداً أو لم يكن. كان جيم مصيباً في هذه النقطة، فكّرَ فيرغسون، وطوال الساعات الثلاث وعشرة دقائق التي استغرقها ذلك الـ*أولاد الفردوس* الذي كان يُعرَض أمامه على الشاشة، لم يكفّ عن التفكير كم كان يستحقّ المجاذفة بنَيل العقوبة أن يحضر فيلماً، والذي كان صنفاً من الأفلام التي تراعي حساسية فيرغسون ابن الخمسة عشر عاماً، قصّة حبّ رومانسي رفيعة، متوهّجة، تتخلّلها فواصل من المرح والعنف والخسّة الماكرة، فيلم منسجم متكامل، كلُّ شخصية فيه جزءٌ لا يُجتزأ من القصّة، غارانس (الممثّلة آرليتي)، الجميلة، الغامضة والرجال الأربعة الواقعون في غرامها، المهرّج الذي لعب دوره جان - لوي بارو، الحالم المنفعل، المفعم بالمشاعر الذي كُتب له التّعثّر في حياة من التوق واللوعة، الممثّل الجزل، القوّال الطّنّان، الممتع إلى أبعد الحدود، قام بدوره بيير براسور، ولعبَ دور الكونت بارد القلب، بالغ السخاء الممثّل لويس سالو، وأُسند إلى مارسيل هيراند دور الوحش المنحرف لاسينير، الشاعر - القاتل الذي يعمد إلى طعن الكونت حتّى الموت، وحين انتهى الفيلم باختفاء غارانس وسط حشد باريسي بينما يلاحقها المهرّج محطّم القلب، سرعان ما استعاد فيرغسون كلمات جيم (*إنه أفضل فيلم فرنسي أُنتجَ على الإطلاق، يا آرتشي. إنه 'ذهبَ مع الريح' الفرنسيّ* - مع فرق *أنه أفضل بعشر مرّات*)، ورغم أن فيرغسون لم يشاهد حتّى تلك المرحلة من حياته إلا حفنة من الأفلامُ الفرنسية، إلا أنه اتّفق معه بأن *أولاد الفردوس* أفضل بكثير من *ذهب مع الريح*، أفضل بكثير، لدرجة لا تجوز حتّى المقارنة بينهما.

أُضيئت أنوار الصالة، ولحظة نهض فيرغسون وهو يمطّط ذراعيه لحظَ أحدهَم يجلس على مسافة ثلاثة مقاعد منه، صبياً طويلاً أسود الشَّعْر ربّما كان يكبره بسنتين، الاحتمالات كلها تشير إلى أنه فارّ آخر من المدرسة شغوفٌ بالسينما، وحين ألقى نظرة على زميله المارق، ابتسم له الصبي.

فيلم هامّ، قال الغريب.

فيلم هامّ، أيّده فيرغسون، لقد أحببتُه.

قدّم الصبيُ نفسه باسم أندي كوهن، ثمّ وهما يخرجان معاً من دار السينما، قال أندي إنها كانت المرّة الثالثة التي يشاهد فيها *أولاد الفردوس*، وهل يعلم فيرغسون أن المجرم لاسينير، والمهرج دوبورو، والممثّل ليميتر كانوا جميعاً أشخاصاً حقيقيين من سكّان فرنسا سنة 1820؟ لا، اعترف فيرغسون بأنه لم يكن يعلم ذلك. كما لم يعلم بأن الفيلم صُوِّرَ في باريس إبّان الاحتلال الألماني، ولا أن آرليتي قد أوقعت نفسها في كومة متاعب عند نهاية الحرب، بسبب علاقتها بضابط ألماني، ولا أن الكاتب جاك بريفير والمخرج مارسيل كارني قد تعاونا في إنجاز العديد من الأفلام في الثلاثينيات والأربعينيات، وأنهما مبتكرا ما يسمّيه النّقّاد *الواقعية الشِّعْرية*. لا بدّ أن هذا الصبي أندي كان فتى واسع الاطّلاع، قال فيرغسون في سرّه، وحتّى لو كان يمارس شيئاً من الاستعراض، في محاولة منه الهيمنة على الشّابّ الحَييّ المبتدئ من خلال معرفته العالية بتاريخ الفيلم، فإنه إنما يفعل ذلك بطريقة ودودة، بمعنى ما، هي أقرب إلى الاسترسال في الحماسة من أن تكون نوعاً من الادّعاء أو الحطّ من قدر السامع.

كانا قد أصبحا في الشارع حينها، يسيران باتّجاه جنوب شارع برودواي، وفي ما لا يتجاوز مسافة أربع كتلِ أبنية عرف فيرغسون أن أندي كان في الثامنة عشرة، وليس في السابعة عشرة، وأنه لم يمتنع عن حضور الدرس، لكي يذهب إلى السينما، لأنه كان طالب سنة أولى في الـ سيتي كوليج، ولم يكن لديه دروس ما بعد الظهيرة في ذلك الوقت. كان والده قد توفيّ (بنوبة قلبية منذ ستّ سنوات) وأندي يعيش مع والدته في شقّة على تقاطع طريق أمستردام والشارع 107، ولأنه لم يكن في نيّته القيام بشيء آخر فيما تبقّى من اليوم، تساءل إن كان يمكنه وفيرغسون أن يقصدا مقهى في مكان ما ليتناولا وجبة صغيرة؟ أجاب فيرغسون بالنفي، فعليه أن يكون في البيت الساعة الرابعة والنصف، وإلا فستكون العواقب وخيمة، لكنْ، قد يلتقيان مرّة أخرى، بعد ظهر السبت، مثلاً، إذ علم بأنه سيكون حرّاً، ولحظةَ تلفّظ فيرغسون بـ *السبت*، مدّ أندي يده إلى جيب معطفه، وأخرج منها برُنامج صالة ثاليا لشهر آذار. *المدرّعة باتومكين*، قال. سيُعرَض في الواحدة.

صالة ثاليا في الساعة الواحدة يومَ السبت، ردّ فيرغسون بالإيجاب. سألقاكَ هناك.

مدّ يمناه، صافح يدَ كوهن، وافترق الصاحبان، الأوّل تابع سيره باتّجاه جادّة ريفرسايد بين شارعيّ 88 و89 والآخر استدار واتّجه شمالاً باتّجاه ما قد يكون بيته أو مكان آخر سواه.

كما هو متوقَّع، كان ′جيل′ ووالدته في الشّقّة لحظة دخول فيرغسون، لكنْ، كما لم يكن من المتوقّع، كانت المدرسة قد اتّصلت لتُبلغ عن غيابه دون إذن. ارتسمت على وجه جيل ووالدته تلك النظرات القلقة التي طالما أحزنتْ فيرغسون، وجعلته يدرك كم عسير عليهما أن يكونا المسؤولَين عن رعاية مراهقِين، فكيف بواحد مثله، إذ تضمن اتّصال المدرسة عدم معرفتها بمكان وجوده بين الثانية عشرة والنصف وحتّى الرابعة والنصف، الذي كان بالنسبة إلى والدين وجدانيين وقتاً أكثر من كافٍ، لأن ينهشهما القلق على مراهقهما المفقود. ذلك كان السبب في أن أمّه وضعت قانون الرابعة والنصف: أن يكون في البيت في ذلك الوقت أو فليتّصل بالبيت ليقول أين يكون. كانت فسحة الوقت قد مُدِّدتْ حتّى السادسة في موسم مباريات كرة السّلّة بسبب التدريب بعد ساعات المدرسة، لكن موسم كرة السّلّة قد انقضى الآن، وعاد الموعد النهائي في الرابعة والنصف إلى مفعوله. دخل فيرغسون الشّقّة في الرابعة وسبع وعشرين دقيقة، الذي كان سيُبقيه في أي يوم آخر بريئاً، لكنه لم يضع في حسبانه أن تتّصل المدرسة بهذه السرعة، وبسبب إغفاله الغبي ذلك، شعر بالأسف، ليس لأنه زرع الخوف في جيل وأمّه فحسب، بل لأن الأمر جعله يشعر وكأنه مجرّد أبله.

تمّ بتر نصف التسامح الممنوح له على مدى الأسبوع التالي، وخلال الأيّام المدرسية الثلاثة المتبقّية من الأسبوع الحالي احتُفِظ به بعد انصراف الطلاب، ليعمل في مسح أرضية قاعة الغداء، وفرك الأواني، وتنظيف المواقد الكبيرة ذات رؤوس الاشتعال الثمانية. كان معهد ريفرسايد مؤسّسة تنويرية متطلّعة إلى الأمام، لكنها لم تزل تؤمن بالمزايا التأديبية لخدمات المطبخ.

يوم السبت، يوم فكّ الحظر والحُرّيّة المشروطة، أعلن فيرغسون على مائدة الإفطار أنه سيذهب إلى السينما بعد ظهيرة هذا اليوم، وحيث إن جيل وأمّه كانا طيّبين على العموم فيما يتعلّق بالأسئلة الكثيرة الهامشية (لا يهمّ كم كانا يتوقان لمعرفة الأجوبة)، لم يبحْ فيرغسون باسم الفيلم أو الصديق، وغادر الشّقّة قبل الوقت الذي يستغرقه وصوله إلى ثاليا في الواحدة إلا عشر دقائق. لم يكن يتوقّع وجود أندي كوهن هناك، ليس حين بدا أنه من غير المرجّح أن يتذكّر موعدهما الذي أُجريَ على عجل عند باب الصالة، لكنْ، ما دام فيرغسون قد خبِرَ متعة مشاهدة الأفلام وحيداً، فإن احتمال أن يكون وحيداً لن يزعجه. ومع ذلك، تذكّر أندي كوهن الموعد، وبينما تصافحا وابتاعا تذكرَتيَ الأربعين سنتاً، كان فتى الكلّيّة يوغل في محاضرة عن

إرنشتين ومبادئ المونتاج، والتكنيك الذي يُفترَض أنه أحدثَ ثورة في صناعة الفيلم السينمائي.
كان قد طُلبَ من فيرغسون أن يولي انتباهاً خاصّاً لمشهد أدراج أوديسا، التي كانت من أشهر السياقات في تاريخ السينما، وأكّد فيرغسون أنه سيفعل، رغم أنه كان لكلمة أوديسا تأثير مربِك لديه، من حيث إن جَدّته وُلدت في أوديسا، وماتت في نيويورك منذ ما لا يزيد عن سبعة أشهر، وأسِفَ فيرغسون للاهتمام القليل الذي أبداه تجاهها في حياتها، لم يكن من شكّ أنها ستعمر وسيتوفّر ما يكفي من الوقت لمعرفتها أكثر في المستقبل، وذلك ما لم يُكتَب له أن يحدث، وتفكيره في جدَته جعله يتذكّر جَدّه، الذي لم يزل مَنسياً بشكل مريع، وفي حين احتلّ فيرغسون وأندي كوهن مقعديهما في الصّفّ الخامس - الذي اتّفقا على أنه أفضل صفّ في دار السينما - تبدّلت تعابير وجه فيرغسون كلّيّاً، لدرجة أن أندي سأله إن كان شيء ما قد ألمّ به.

أتذكّر جَدَّيَّ، قال. وأبي أيضاً، والموتى كلهم ممّنْ عرفتهم. (مشيراً إلى صدغه الأيسر.) يسود الظلام الدامس هذه البقعة في بعض الأحيان.

أعلم، قال أندي. لا أستطيع الكفّ عن التفكير بأبي - وقد مضى على موته ستّ سنوات.

إنه نوع من العزاء أن والد أندي متوفّىً هو الآخر، فكّر فيرغسون، فكلاهما ابنان لرجلين غير موجودين، ويمضيان أيّامهما برفقة الأشباح، على الأقلّ، في الأيّام السّيّئة، الأيّام الأكثر سوءاً، ولأن وهج العالم طالما تبدّى أكثر سطوعاً في الأيّام السّيّئة، فلعلّ ذلك ما فسّر سبب سعيهما وراء ظلام دور السينما، وسبب شعورهما بالسعادة حين الجلوس في العتمة.

قال أندي شيئاً عن اقتطاع مئات اللقطات التي أُجريت على المشهد الكبير، لكنْ، قبل أن يستطيع القول كم كان عددها (وهو رَقْم يحفظه بالتأكيد عن ظهر قلب)، خفتت الأضواء، شُغّلت آلة العرض، وركّز فيرغسون انتباهه إلى الشاشة، يعتريه الفضول لمعرفة سبب هذا اللغط كلّه الذي دار حوله.

أهالي أوديسا يلوّحون للبحّارة المضربين من أعلى الأدراج. امرأة موسِرة تفتح مظلّتها البيضاء، صبي فاقد الساقين يرفع قبّعته، ثمّ كلمة فجأةً، ووجه امرأة مذعورة يملأ الشاشة. حشد من البشر يتدافعون باتّجاه أسفل الأدراج، وبينهم الصبي فاقد الساقين، والمظلة البيضاء تندفع في الطليعة. موسيقا متسارعة، موسيقا محمومة، موسيقا تسبق في تسارعها أسرعَ قلب خفاق. الصبي فاقد الساقين في الوسط والسيل البشري يندفع من جهتيه. لقطة من الخلف للجنود في بزّاتهم العسكرية البيضاء وهم يطاردون الناس الفارّين باتّجاه الدرجات الدنيا. لقطة مقرّبة لامرأة تنهض عن الأرض. تلتوي ركبتا رجل. يسقط رجل جديد، ويسقط بعده آخر. إطلاق نار مفتوح المدى باتّجاه الحشود المتراكضة بينما يطاردهم الجنودُ مع نزولهم الدرجات. لقطات

مقرّبة لأناس يختبئون في الظلال. يسدّد الجنود بنادقهم. المزيد من البشر المحتشدين. لقطات جانبية للحشد، لقطات أمامية للحشد، ثمّ تبدأ الكاميرا بالتّحرّك، بالركض مع جمهرة البشر الراكضين. تنطلق نيران البنادق من الأعلى. تلوذ امرأة مع ابنها الصغير بالفرار إلى أن يقع الصبي ذو القميص الأبيض منكبّاً على وجهه. تتابع المرأة الفرار، يتابع الحشدُ الفرار. يبكي الصبي في القميص الأبيض، يقطر الدم من رأسه، القميص الأبيض ملطّخ بالدم. يتابع الحشد الفرار، لكن المرأة تنتبه الآن إلى أن الصبي لم يعد إلى جانبها، فتتوقّف. تتلفّت المرأة باحثة عن ابنها. لقطة مقرّبة لوجهها المعذّب. يُغمَى على الصبي الباكي في القميص المدمّى. تفتح المرأة فمها رعباً، تُمسك شَعْرها بيديها. لقطة محكَمة للصبي فاقد الوعي بينما تعبره المزيد من الأرجل السريعة الهاربة. تستمرّ الموسيقا في خفقانها. لقطة مقرّبة لوجه الأمّ المروّع. الحشود اللامتناهية تستمرّ بالتّدفّق وهي تهبط الأدراج. يدوس بوط على يد الصبي الممدودة. لقطة أقرب إلى الحشد المتدفّق نحو الدرجات السفلى. بوط آخر يدوس الصبيَّ. الصبي النازف ينقلب على ظهره. لقطة قريبة للغاية لعينَي الأمّ المليئتين بالهول. تبدأ تقدّمها للأمام، الفم مفتوح، واليدان في الشَّعْر. يتدفّق الحشد نحو الأسفل. تدنو الأمّ من ابنها الذي سقط على الأرض. تنحني لكي تحمله. لقطة شاملة للحشد المهتاج المتدافع. لقطة من الخلف للأمّ وهي تحمل الصبي صاعدة الدرج باتّجاه الجنود. فمها يتهدّج، عبارات غاضبة تندّ عنها. لقطة عريضة للحشد الكثيف. لقطة أقرب لبعض الناس المختبئين وراء جدار، وبينهم المرأة ذات النّظّارة الأنفية ...

هكذا بدأ، وبينما كان فيرغسون يشاهد الفيلم وفق تسلسل مشاهده، وجد أن المجزرة مروّعة للغاية، لدرجة أن عينيه اغرورقتا بالدمع في نهاية الأمر. لم يكن ممكناً تحمّل مشاهدة المرأة وهي تُرمَى بنيران جنود القيصر، لم يكن ممكناً تحمّل مشاهدة قتل الأمّ الثانية، ثمّ الرحلة المروّعة لعربة الطفل من أعلى الأدراج، لم يكن ممكناً تحمّل مشاهدة المرأة ذات النّظّارة الأنفية بفمها الفاغر، وإحدى العدستين قد تناثرت، فانبجس الدم من عينها اليمنى، لم يكن ممكناً تحمّل مشاهدة القوزاق وهم يُخرِجون سيوفهم من أغمادها، ويقطعون الطفل في العربة إلى أشلاء - صور لا تُنسى، وبذلك هي صور تستثير الكوابيس لخمسين سنة قادمة - مع ذلك، رغم أن فيرغسون أصيب بالانقباض لما شاهده، إلا أنه افتتن به، دُهش كيف أمكن لشيء مهيب ومعقّد كمثل ذلك السياق أن يُدمَج ضمن فيلم، مقدار الطاقة الصافية التي تحرّرت عبر تلك الدقائق من اللقطات التي شطرته إلى نصفين، وإلى أن انتهى الفيلم، كان مرهقاً للغاية، مبتهجاً للغاية، مشوّشاً للغاية بمزيج من الأسى والجذل، ما دفعه للتساؤل إن كان فيلم سيؤثّر فيه بتلك الطريقة مرّة أخرى.

كان هناك عرض آخر لـ إيزنشتين ضمن البرنامج - *تشرين الأوّل*، المعروف بالإنكليزية بـ *عشرة أيّام هزّت العالم* - لكنْ، حين سأل أندي فيرغسون إذا كان يرغب بحضوره، أجاب فيرغسون بالنفي، قائلاً إنه منهَك، ويحتاج لبعض الهواء. لذلك خرجا إلى الهواء، دون أن يكونا متأكّدين ممّا سيفعلانه بعد ذلك. اقترح أندي أن يرجعا إلى شقّته، وبذلك يمكنه أن يعير فيرغسون نسختيه من كتابيَ إيزنشتين *تكوين الفيلم* و*وعي الفيلم*، وربّما يصيبان بعض الطعام بالإضافة إلى ذلك، فأجاب فيرغسون، الذي لم يكن لديه أيّة خطط لقضاء بقية اليوم، *ولمَ لا؟* وخلال سيرهما باتّجاه غربي الشارع 107 وجادة أمستردام، أفشى أندي كوهن الغامض بالمزيد من الحقائق عن حياته، على رأسها أن أمّه كانت ممرضة مُجازة في مشفى سانت لوك، وكانت تعمل في وردية الـ 12- 8 في ذلك اليوم، ولن تكون في البيت (الشُّكْر لله) حين يصلان إلى هناك، وحقيقة أنه تمّ قبوله في جامعة كولومبيا، لكنه قرّر الدراسة في سيتي كوليج، لأن التعليم مجّاني هناك، ولم تستطع والدته التّكفّل بمصاريف كولومبيا (ويا لها من مفاجأة أن يعلم بأن لديه إمكانية تأسيس نادٍ جامعيّ!)، والحقيقة التي تشبه ولعه بالسينما أنه كان يحبّ الكُتُب أكثر، وإذا سار كل شيء على ما يرام، فإنه سينال درجة الدكتوراه، ويصبح أستاذَ الآداب في مكان ما، قد يكون - مَن يدري؟ - في كولومبيا. بينما مضى أندي في حديثه وفيرغسون في إصغائه، صُدم الثاني بالهوة الشاسعة التي تفصل ما بينهما من الناحية الثقافية، كأن فرق السنوات الثلاث في عمريهما تبدّى رحلةً بضعة آلاف ميل، يجب على فيرغسون أن يبدأ خوضها، ولأنه أحسّ بأنه شديد الجهل مقارنةً بطالب الجامعة واسع الاطلاع الذي يسير إلى جانبه، تساءل فيرغسون عن سبب سعي أندي الحثيث لأن يكون صديقه. أكان أحد أولئك البشر المنعزلين الذين لا يجدون مَنْ يتحدّثون إليه، فكّر فيرغسون في سرّه، أكان شخصاً نهماً للرفقة التي يستقرّ بوجودها، والتي يُسقط لأجلها أيّ اعتبار آخر يقف أمامه، حتّى ولو تجلّت بصورة طالب مدرسة لا يعرف شيئاً؟ إذا كان الأمر كذلك، فإنه لا يحمل معنى بالغ الأهمّيّة. هناك صدوع في بعض الناس، صدوع في الطبيعة الشخصية أو صدوع مادّيّة أو صدوع عقلية تنحو لعَزلهم عن الآخرين، لكن أندي لا يبدو أنه واحد منهم. كان وسيماً إلى حدّ ما ودمثاً، لم يفتقر إلى الظرافة، وكان كريماً (كما حين أعار فيرغسون الكتاب) - باختصار، كان شخصاً ممّنْ يُدرَجون في مرتبة شخص مثل ابن العمّ جيم، الذي كان يكبر أندي بعام واحد، ولديه الكثير من الأصدقاء، أكثر من أن يستطيع تعدادهم على أصابع اثنتي عشرة يد. في الواقع، وقد تمعّن فيرغسون بالأمر الآن، أن الأثر الذي تُخلّفه رفقة أندي لم يكن بعيد الشبه عن ما كان يشعر به حين يكون مع جيم - إحساس الارتياح بأن ليس هناك من ينظر إليكَ باستعلاء من قِبَل شخص أكبر، بل الإحساسُ بأن كبيراً وصغيراً

يتمشّيان معاً في الشارع بالخطو نفسه. لكن جيم ابن عمّه، ومن الطبيعي أن يُعامَل المرء بهذه الطريقة من قبل شخص ينتمي إلى عائلته، في حين أن أندي كوهن، حتّى الآن على الأقلّ، لم يتجاوز إلا قليلاً منزلة الغريب بالنسبة إليه.

يسكن بروفيسور المستقبل في شقّة صغيرة من غرفتين في الطابق الثالث من مبنى متهالك ذي إحدى عشرة طبقة، واحد من أبراج شمال غرب نيويورك السَّكَنيّة التي كانت آيلة للسقوط منذ نهاية الحرب، وكانت فيما مضى مكاناً لسكن متوسّطي الحال من أبناء الطبقة الوسطى، لكنْ، يسكنها الآن خليط متنوّع من الناس الفقراء الذين يتحدّثون لغات عديدة مختلفة وراء أبواب شققهم الموصدة. وبينما كان أندي يجول مع فيرغسون في الغرف المفروشة بأثاث قليل حسن الترتيب، فسّر له ذلك بأنه ووالدته سكنا الشقّة منذ النوبة القلبية الثالثة والأخيرة التي أصابت والده، وفهم فيرغسون أنها نوع من الأمكنة التي ربّما استأجره ووالدته بسبب عدم وجود تأمين ماليّ على الحياة، يعينهما في السنوات العجاف التي تلت موت والده. أمّا وقد تزوّجت أمّه مرّة أخرى، وباتت تكسب دخلاً لائقاً من عملها كمصوّرة فوتوغرافية، كذلك الأمر بالنسبة إلى جيل الذي كان وضعه المالي جيّداً من خلال الكتابة عن الموسيقى، فإنهم أفضل حالاً من أندي ووالدته الممرّضة الفقيرة لدرجة أن فيرغسون شعر بالخجل من يُسره المالي الذي لم يكن له يد فيه، كذلك أندي الذي لم يفعل شيئاً ليُسهم في الخروج من العوز إلى اليُسر. ذلك لم يكن يعني أن آل كوهن فقراء بمعنى الكلمة (كان البرّاد مَحشواً بالأطعمة، ومخدع أندي متخم بالكُتُب ذات الأغلفة العادية)، لكنْ، عندما جلس فيرغسون في المطبخ الصغير ليأكل واحدة من شطائر السجق التي أعدها أندي، لحظ أنها أسرة تجمع الطوابع الخضراء، وتقتطع قسائم التخفيضات من الـ *جورنال - أميريكان* والـ *ديلي نيوز*. كان جيل وأمّه يعدّان الدولارات، ويحاولان ألا يسرفا في المصاريف، لكن والدة أندي كانت تعدّ السنتات، وتُنفق ما تمتلك.

بعد الوجبة الخفيفة في المطبخ، انتقلا إلى غرفة الجلوس، وتحدّثا قليلاً عن رواية *مدام بوفاري* (التي لم يكن فيرغسون قد قرأها)، وفيلم الساموراي السبعة (الذي لم يكن فيرغسون قد شاهده)، وأفلام أخرى على جدول عروض ثاليا للشهر القادم. ثمّ حدث شيء غريب، أو شيء ممتع، أو شيء ممتع حدّ الغرابة، الذي لم يكن متوقَّعاً في أي حال من الأحوال، أو على الأقلّ هكذا لاح بادئ الأمر، لكنْ، بعد ذلك، بينما بدأ فيرغسون يفكّر به قليلاً، ليس كأمر غير متوقَّع إلى هذه الدرجة الصاعقة، فلحظة سأل أندي السؤال، فهم فيرغسون لماذا دُعي إلى هذا المكان.

كان يجلس على الصوفا في مواجهة أندي، الذي كان يجلس على كنبة قرب النافذة، وبعد وهلة صمت تخلّلت الحديث، مال أندي للأمام عن كنبته، تمعّن في فيرغسون للحظة طويلة، ومن ثمّ سأله سؤالاً لا علاقة له بالسياق: هل تمارس العادة السّرّيّة، يا آرتشي؟

فيرغسون، الذي مضى على ممارسته العادة السّرّيّة ما يقرب عاماً ونصف العام، ردَّ على السؤال دون تردّد. بالتأكيد، قال. ألا يفعلها الجميع؟

ربّما ليس الجميع، أجاب أندي، لكنْ، تقريباً الجميع. إنها أمر طبيعي للغاية، *n'est-ce pas*؟/ أليس كذلك؟

إذا كنتَ لا تزال أصغر عمراً من ممارسة الجنس الحقيقي، ماذا يمكنكَ أن تفعله سواها؟

وما الذي تفكّر به، يا آرتشي؟ أعني، ما الذي يدور في خيالكَ في أثناء ممارستكَ العادة السّرّيّة؟

أفكّر بامرأة عارية، وكم سيكون جميلاً أن يكون المرء عارياً مع امرأة عارية بدلاً من مجرّد العادة السّرّيّة في التواليت!

محزن.

نعم، محزن قليلاً. لكنها أفضل من لا شيء.

وهل حدث أن مارسها لكَ، داعَب عضوكَ، أحد آخر؟ إحدى صديقاتكَ في الثانوية، مثلاً؟

لا، لا أستطيع القول إني حظيتُ بتلك المتعة.

حدث ذلك ـ مرّات قليلة.

حسناً، أنتَ أكبر مني عمراً. يبدو الأمر معقولاً لأن لديكَ تجارب أكثر ممّا لديّ.

ليس الكثير من التجارب. في الحقيقة لا تزيد عن ثلاث. لكنْ، يمكنني أن أؤكّد لكَ أنها ستكون أجمل بكثير عندما يفعلها لكَ شخص آخر من أن تفعلها بنفسكَ.

أصدّق ذلك. على الأخصّ حين تعرف البنت ماذا تفعله.

ليس من الضروري أن تكون بنتاً، يا آرتشي.

ماذا يُفترَض أن يعني ذلك؟ هل تعني أنكَ لا تفضّل البنات؟

أفضّل البنات جدّاً، لكنْ، لا يبدو أنهنّ يفضّلنني. لا أعرف السبب، غير أني لم أكن محظوظاً معهنّ.

إذاً، كان الصبيان يقومون بعادتكَ السّرّيّة؟

فقط صبي واحد. جورج، صديقي من مدرسة ستويفسانت، الذي لم يكن له حظٌّ مع البنات هو الآخر. لذلك قرّرنا في السنة الماضية أن نجرّبها - لمجرّد أن نعرف كيف يحسّ المرء.

ثمّ؟

كانت مذهلة. فعلها كلٌّ منّا للآخَر في تلك المرّات الثلاث، وخرج كلانا بنتيجة أنه لا فرق مَن يفعلها لكَ. بنت أو صبي - فالإحساس هو ذاته، ومَن يبالي إن كانت اليدُ التي تلفُّ قضيبك يدَ بنت أو صبي؟

لم أنظر أبداً إلى الأمر بهذه الطريقة.

لا، ولم أفعل بدوري. إنه ما أحبّ تسميته بـ*الاكتشاف العظيم*.

فلماذا إذاً اقتصر الأمر على ثلاث مرّات؟ إذا كنتَ وجورج أحببتُما الأمر إلى درجة كبيرة، لماذا توقّفتما؟

لأن جورج طالب الآن في جامعة شيكاغو، ومؤخّراً وجد حبيبة له.

هذا أمرٌ أزعجكَ للغاية.

أظنّ ذلك، لكن جورج ليس الشخص الوحيد في العالم. لديّ أنتَ، يا آرتشي، وإذا أحببتَ أن أفعلها لكَ، فسأكون سعيداً بأن أستمنيَكَ. حينها ستدرك ما كنتُ أتحدّث عنه.

ولكنْ، ماذا إذا لم أرغب بأن أستمنيَكَ؟ ربّما كان جورج يحبّ القيام بذلك، لكنْ، لا أظنّني سأكون راغباً بالأمر. لا أقصد الإساءة إليكَ، يا أندي، لكنني حقّاً أهوى الفتيات.

لن أطلب منكَ أبداً أن تفعل ما لا تريد. فهذا سيكون خطأ، إذ لا أحبّ ممارسة الضغط على الناس. الأمر أنكَ صبي رائع، يا آرتشي. أحبّ أن أكون بقربكَ، أحبّ النظر إليكَ، وأتمنّى لو أتمكّن من ملامستكَ.

طلب فيرغسون إليه أن يتقدّم. فسّر الأمر أنه كان في حالة فضول، ويمكن لـ أندي أن يستمنيه إذا شاء، ولكنْ، لهذه المرّة فحسب، أضاف، وفي حال أطفآ الأنوار، وأسدلا الستائر، إذ إن شيئاً كهذا ينبغي أن يتمّ في العتمة، فنهض أندي من كنبته، وأطفأ الأضواء واحداً إثر آخر، وأنزل الستائر، وحين أنجز هذه المهام، جلس إلى الصوفا قرب فيرغسون القلق، الوَجِل بعض الشيء، أنزل سحّاب بنطالِ الصبي الأصغر، وانكبّ على عضوه.

كان الإحساس مشجّعاً، إذ ندا الأنين عن فيرغسون، وفي غضون ثوانٍ، بدأ عضوه اللّيّن والمتوتّر بالتّصلّب والاستطالة بشكل متنامٍ مع كل حركة تمسيد من يد الصبي الأكبر، التي كانت يداً بالغة المهارة والخبرة، فكّر فيرغسون، اليد التي بدا أنها تعرف بالضبط ما يحتاجه ويرغبه

العضو في رحلته من الهجوع إلى النهوض، وما يتجاوز ذلك، التلاعب مرهف الحساسية ذهاباً وإياباً بين اشتداد القبضة وارتخائها، جميل للغاية، قال، حين سأله أندي كيف يشعر بالأمر، ثمّ فكّ فيرغسون حزامه، وأنزل بنطاله وسرواله الداخلي حتّى ركبتيه، مفسحاً لأداء اليد المدهشة حيّزاً أكبر، وفجأة انضمّت يده الأخرى إليه بدورها، لتداعب خصيتيه بينما عملت الأولى على ما بات الآن مكتمل الانتصاب، أيرِ فيرغسون ذي الخمسة عشر عاماً في أقصى الحدود التي يمكنه بلوغها، ومن جديد سأله أندي كيف يبدو الأمر؟ لكنْ، هذه المرّة لم يجب فيرغسون إلا بنخرة، لم تتضمّن كلاماً والمتعة تسري صاعدة من فخذيه إلى عضوه، لتكتمل الرحلة إلى ما وراء ذلك.

ها قد عرفتَ الآن، قال أندي.

نعم، لقد عرف فيرغسون.

استغرق الأمر دقيقتين ونصف الدقيقة فقط، قال أندي.

فكّر فيرغسون، أجمل دقيقتين ونصف في حياته، ثمّ ألقى نظرة إلى قميصه، الذي كان يمكن رؤيته الآن، وقد ألِفَتْ عيناه الظلام، ورأى أنه مبقّع ببقع من سائله المنوي.

أيّها اللعين، قال. انظر إلى قميصي.

ابتسم أندي، ربّت على رأس فيرغسون، ثمّ انحنى وهمس في أذنه: يصل د. هـ. لورانس ذروتَه على شكل سيول عندما يكون بلزاكُه في أوج الرغبة.

فيرغسون، الذي لم يكن قد سمع بتلك الأهزوجة المدرسية العتيقة، أفلتَ صيحة طويلة من الضحك الفجائي. ثمّ تلا أندي الخماسية الفكاهية الماجنة عن ذلك الشّابّ من كِنتْ، القصيدة التي لم تكن معروفة لدى فيرغسون من قبل، فانفجر الفتى البريء، الذي كان يفقد براءته بسرعة، ضاحكاً من جديد.

عندما استعاد هدوءه، رفع فيرغسون بنطاله، ونهض عن الصوفا. حسناً، قال، أظنّ أنه عليّ غسل هذا القميص، وحين بدأ أولى خطواته من غرفة الجلوس إلى المطبخ، وهو يفكّ الأزرار نهض أندي ولحق به، شرح له أن هذا القميص جديد، هدية عيد ميلاده من أمّه وزوجها، وأن البقع يجب أن تزول، وإلا سيجد نفسه في وضع لا يُحسَد عليه من الأسئلة التي لا يودّ الإجابة عليها. أدركها بسرعة، قال، أزلِ البقع قبل أن تتغلغل في النسيج، *وأتلفِ الدليل*.

وهما واقفان معاً قرب المغسلة، سأل أندي فيرغسونَ إن كان شخصاً من ذوي المرّة الواحدة أو من أولئك الذين يمتلكون طاقة متجدّدة، تتيح لهم جولة إضافية أو اثنتين. فيرغسون، الذي نسي كل شيء عن الـ فقط *لمرّة واحدة*، سأله عن ما يجول في خاطره. شيء جميل، قال أندي،

دون أن يكون في نيّته كشف السّرّ، لكنه أكّد لـ فيرغسون بأن الأمر سيفوق متعَ الصوفا في غرفة الجلوس، ويجعله أفضل ممّا هو عليه الآن.

كانت البقع شديدة الكثافة على الجزء الأدنى من القميص، من منتصف طرفيه السفليين وصولاً إلى منطقة الزّرّ الثاني والثالث، وقد أزالها أندي بسرعة كبيرة كما حين حدث القذف، مع الاضطرار لبعض الفرك، وحين فرغ من الغسل، حمل أندي القميص المبلّل إلى غرفة نومه، ونشره على علّاقة ملابس، شبكها بمقبض باب الخزانة. كل شيء على ما يرام، قال. في أحسن حالاته وكأنه جديد.

تأثّر فيرغسون بتلك البادرة الصغيرة النبيلة، التي برهنت كم كان أندي رصيناً وحريصاً، وقد تمتّع فيرغسون بأن يكون محطّ مودّة بالغة بهذه الطريقة، واهتمام من قِبل شخص يمتلك من الدماثة ما يكفي لأن يغسل قميصه، وينشره على علاقة ثياب، ناهيكَ عن ذكر استمنائه له دون أن يطلب منه أن يستمنيه بالمقابل. التبكيت والتّردّد كلاهما اللذان شعر بهما فيرغسون بادئ الأمر قد زالا الآن، وحين اقترح أندي أن يخلع ملابسه، ويستلقي على السرير، نزع فيرغسون ملابسه برضا، واستلقى على السرير، متعجِّلاً الشيء الجميل الآتي الذي يكاد يُمارَس معه. كان يعي أن معظم الناس قد تكفهرّ وجوههم لما كان يفعله، إذ دخل منطقةَ الدوافع المحظورة والمنحرفة، أرضَ اللوطيين(*) بكل تألّقها الفاسد والداعر، وأنه لو اكتشف أحدهم بأنه قد سافر إلى تلك البلاد الخبيثة، فلسوف يهزأ منه ويمقته، ولربّما يتعرّض للضرب بسبب ذلك، لكنْ، لن يكتشف أحد ذلك أبداً، لأنه لن يُقال لأحدٍ شيء عن ذلك، وحتّى لو توجّب إبقاء الأمر سرّاً، فلن يكون سرّاً قذراً، إذ إن ما كان يمارسه مع أندي لم يُشعِره بالقذارة، وما يشعرُ به في داخله هو الذي كان يأخذه بعين الاعتبار.

انتصبَ أيره مرّة أخرى مع تمرير أندي راحةَ كفّه على جلد فيرغسون العاري، ولحظة أدخلَ أندي ذلك الأير المتصلّب في فمه، ومنح فيرغسون أوّل واقعة مَصٍّ قضيب في حياته، كان فيرغسون يعجب ما إذا كان مَنْ يمنحها له بنت أم فتى.

لم يكن واثقاً بشكل كامل ممّا يفكّر به. ما لم يمكن إنكاره، أن الذروتين اللتين اجتاحتاه وفاضتا منه ذلك اليوم في شقّة أندي كانتا أكثر متعتين جسديتين قوّة وإشباعاً عاشهما في حياته، لكنْ، في الوقت نفسه، فإن الوسائل الموصلة إلى الغاية كانت ميكانيكية بحتة، أداءً من طرف واحد خلاله مارسَ أندي معه ما لم يرغب بأن يمارسه مع أندي. ما فعلاه إذاً، لم يكن الجنسَ

*) استخدمَ أوستر كلمة Faggot الشارعية. (م).

بالمعنى الصميم للكلمة، على الأقلّ ليس الجنس كما يفهمه فيرغسون، من حيث إن الجنس بالنسبة إليه كان دائماً يجري بين شخصين بدلاً من واحد، التّجلّي الجسدي لحالة عاطفية مشبوبة، التوق للشخص الآخر، وفي هذا النموذج لم يكن ثمّة توق، لا عاطفة، لا شيء يتجاوز رغبات أيره، ما يعني أن ما حصل مع أندي لم يكن جنساً بقدر ما كان ضرباً من العادة السّرّيّة الأعلى والأكثر إمتاعاً.

أكان منجذباً إلى الفتيان؟ حتّى ذلك الحين، لم يكن قد سأل نفسه السؤال، لكنه مذ سمح لـ أندي بأن يستمنيه ويمصّ عضوه ويمرّر يده على جسده العاري، بدأ يبدي الانتباه أكثر إلى فتيان المدرسة، خصوصاً الذين عرفهم أكثر، وأحبّ رفقتهم أكثر من سواهم، وهم الذين شكّلوا فريق كرة السّلّة للمبتدئين، كلّ مَنْ رآهم عراة في مقصورات الاستحمام وغرف تبديل الملابس عشرات المرّات دون أن يُلقي للأمر بالاً، لكنه الآن بات يشغل باله، حاول أن يتخيّل كيف سيكون الإحساس لدى تقبيل شفاه أليكس نوردستروم المتأنّق، قبلة حقيقية ولسان كل منهما يُوغِل في فم الآخر، أو أن يستمني برايان ميشيفسكي مفتول العضلات حتّى يقذف على كامل بطنه العارية، لكن أيّاً من هذه المشاهد المختلَقة لم تُنتج ردّة فعل لدى فيرغسون، ليس لأنه كان سيُصَدّ من قِبَلهم أو أنه خشي فكرة التّورّط في الجنس الحقيقي المتبادل بين صبيّ وصبيّ، إذ لو تكشّف له أنه كان لديه نزوع صبيّ لوطي دون أن يدرك ذلك حتّى اللحظة، فعليه أن يتأكّد من ذلك، دون أدنى شكّ أو احتمال خطأ، لكن الواقع كان أن فكرة تقبّل الفتيان لم تستثرْ فيه شيئاً، لم تجعل أيره ينتصب، لم تملأه بالأخيلة الشبقة النابعة من آبار التوق الأكثر عمقاً. لكن إيمي أثارته، وحتّى الآن لم تزل فكرة أنه لن يُلمَس ويُقبَّل مرّة أخرى من قبَلِ حبيبته الأولى التي فقدها تملؤه بالتوق الأعمق، كما أثارته إيزابيل كرافت، على الأخصّ حين شاهدها تتمشّى في الجوار بالبكيني الأحمر في الثامن والعشرين من حزيران الفائت في نزهة مجموعة الأشخاص العشرة إلى فار روكاواي، وحين تأمّل في أجساد أصدقائه العارية، وقارن بينها وبين جسد إيزابيل كرافت شبه العاري، أدرك أن الفتيات، وليس الفتيان، هنّ اللواتي يبعثنَ فيه الإثارة.

فكّر في أنه ربمّا يضلّل نفسه، ربمّا كان على خطأ في ظنّه أن العواطف جزء أساسي من الجنس، ربمّا عليه أن يراعي الصيغ المختلفة للجنس بلا حبّ الذي يأتي بالانعتاق الجسدي، لكنْ، من دون حضور أي نوع من المشاعر، فالعادة السّرّيّة، مثلاً، أو مضاجعة الرجال للعاهرات، والذي لا بدّ شبيه العلاقةِ التي كانت بينه وبين أندي، جنس دون قبلات أو مشاعر، جنس لغاية وحيدة هي نَيل المتعة الجسدية، وربمّا ليس للحبّ علاقة بالأمر، ربمّا كان *الحبّ* مجرّد كلمة عالية تغطّي الحاجات الظلماء متعذّرة الضبط للشهوة الحيوانية، وإذا حدث وكنتَ في الظلام

ولم تستطع رؤية الشخص الذي يلمسكَ، ماذا يكون الفرق الذي يُحْدِثه ذلك في كيفية تدبّركَ أمرَ وصولكَ إلى المتعة الجنسية القصوى؟

سؤال عَصيّ على الإجابة. عَصيّ على الإجابة، لأن فيرغسون لم يزل في الخامسة عشرة من عمره، وفيما إذا كان الزمن سيحوّله إلى رجل يسعى إلى معاشرة النساء، أو رجل يسعى إلى معاشرة الرجال، أو رجل يسعى إلى معاشرة كل من النساء والرجال، فإنه من المبكّر جدّاً بالنسبة إليه معرفة مَنْ يكون وماذا يريد حين يتعلّق الأمر بأمور الجنس، إذ حتّى تلك المرحلة من عمره، التي كانت تلك المرحلة من التاريخ، تلك اللحظة الاستثنائية في ذلك المكان الاستثنائي، أميركا في النصف الأوّل من 1962، كان لا يزال محروماً من ممارسة العلاقة الجسدية مع أفراد ممّنْ يعدّهم الجنس السّويّ، فحتّى لو نجح في أن يستعيد ميوله نحو إيمي شنايدرمان أو أن يحقّق فتحاً مبِيْناً بأن يحظى بإيزابيل كرافت، فلن تسمح إحدى هاتين الفتاتين لنفسها بأن تقدّم له ما سبق وقدّمه أندي كوهن، والآن وجسده قد تطوّر إلى جسد رجل، لم يزل يجد نفسه رهينَ التّبتّل المفروض على عالمِ صباه، حتّى حين بلغ لحظة بدأ فيها يرغب بالجنس المشبوب بالشغف الذي لن يُضاهَى في أيّة لحظة أخرى طوال الحياة، ولأن الممارسة الجنسية الوحيدة المتاحة أمامه في لحظة الرغبة المحبطة تلك هي ممارستها مع فرد من الجنس الخطأ، مضى إلى مسرح ثاليا ظهيرةَ السبت التالي، ليحضر فيلم *راشومون* مع أندي كوهن، ليس لأنه أسّس نوعاً من رابط خاصّ مع فتى الـ سيتي كوليج الذي يعيش وأمّه على تقاطع جادّة أمستردام بالشارع 107، بل لأن الأشياء التي فعلها ذلك الفتى تجاهه كانت طيّبة للغاية، مفرطة واستثنائية بطيبها، حتّى إن الإحساس كان شديد الإغواء، لدرجة أنه لا يُقاوَم.

في المرّة الثانية، انهمكا فيه بشكل أسرع، دون حاجة لأية مقدّمات على صوفا غرفة الجلوس متّجهين رأساً إلى غرفة نوم أندي، هناك تجرّدا من ملابسهما كلّها، وفي حين لم يستطع إرغام نفسه على ملامسة أندي، حيث أحبَّ أن يُلمَس، أن يستمنيَه بالطريقة نفسها التي كان أندي يستمنيه بها، وراقب كيف يقوم بها أندي لنفسه، ولم يمانع عندما نزل المنيُّ على صدره، الذي أشعره بمتعة إضافية، وفي الواقع، كان دفء السائل، فجائية انقذافه، ثمّ تراخي يدِ أندي التي تحرّكت بكسل وهي تمسح المنيّ على جلد فيرغسون. يتحوّل الأمر إلى ممارسة مرتبطة باثنين الآن أكثر، أقلّ من أن تكون حكراً على طرف واحد، وأكثر تجاوزاً لأن تخلف وراءها الجميلَ في الاستمناء لصالح شيء ما يقترب من الجنس الحقيقي، ولثلاثة أيّام سبت متوالية مجتمعةٍ، تبعت المرّة الثانية، أيّام سبت عروض أفلام *الملاك الأزرق*، *الأزمنة الحديثة*، و*الليل*، وبالتدريج لطّفَ فيرغسون أسلوبه في إقصائه لإغواءات أندي المتصاعدة، لم يعد ينقبض لحظةَ يستسلم

لتحريض لسان أندي، إذ يتحرّك صعوداً ونزولاً على امتداد جسده، لم يعد خائفاً من أن يُقبِّلَ أو يردّ القبلة، لم يعد يتردّد في أن يقبض أيرَ أندي المتصلّب، ويضعه في فمه، فالتناوبُ كان أساسياً، كما أدرك فيرغسون، فالثنائي كان بلا حدود أكثر إشباعاً من الفرديّ، وبالافتتان وحده يمكن للمُفتَتَن أن يغمره بالعرفان لمتعةِ أنه عاش ذلك الافتتان.

كان أندي أكثر طراوة ولِيناً من فيرغسون، نحيلاً وممشوقاً، لكنْ، بجسد دون عضلات لشخص لا يلعب أيّ نوع من الرياضة، ولا يمارس التمارين، وكان مأخوذاً بتصلّب عضلات فيرغسون، جسدِ لاعب كرة السّلّة الذي بناه فيرغسون بنفسه برفع الأثقال والقيام بمائة تمرين كل ليلة، تتضمّن الانبطاح، ثمّ الارتفاع اعتماداً على اليدين ومائة تمرين من الاستلقاء على الظهر، ثمّ طيّ الفخذين حتّى يلامسا البطن، ومراراً وتكراراً سيقول أندي لفيرغسون كم هو جميل، ممرِّراً راحته على بطن فيرغسون المشدودة ومشدوهاً من استقامة سطحه، يخبره أن وجهه جميل، أن ردفيه جميلان، أن أيره جميل، أن ساقيه جميلتان، الكثير من الجميلات قد قيلتْ، لدرجة أن فيرغسون في السبت الثاني من أيّام السبت الثلاثة الأخيرة التي أمضياها معاً بدأ يداخله السأم إزاءها، كأن أندي كان يتحدّث عنه بالطريقة التي قد يتحدّث هو (فيرغسون) بها عن فتاة، الذي شكّل موضوعاً إضافياً من مواضيع كانت الشكوك قد بدأت تساور فيرغسون إزاءها، مسألة الفتيات، حيث إنه كلّما ذكر نظرات إيزابيل كرافت المذهلة أو قال شيئاً ما يشي كم لا يزال يحبّ إيمي شنايدرمان، فإن أندي سوف يكشّر ويخرج بنوع من اللغو المسيء للفتيات بشكل عامّ، قائلاً إن أدمغتهنّ من الناحية الجينية أدنى من أدمغة الرجال، على سبيل المثال، أو أن أكساسهنّ بالوعات من الالتهاب والمرض - مقولات بشعة، مغثية، وشتّ بأن أندي لم يكن يقول الحقيقة في آذار حين عبّر عن حبّه للبنات، وحتّى أمّه هي الأخرى لم تكن مستثناة من إداناته اللاذعة، وحين سمعه فيرغسون ينعتها بـ *البقرة المغفّلة الحزينة*، ثمّ في مرّة لاحقة دعاها بـ *حوض خراء مقرّز*، ردّ فيرغسون قائلاً إنه يحبّ والدته أكثر من أي أحد في العالم، ما أجاب عليه أندي: لا يمكن *أن تكون كذلك، أيّها الولد،* فقط لا يمكن *أن تكون كذلك*.

فيما بعد، أدرك فيرغسون كم كان مخطئاً في قراءة الحالة منذ البداية. فقد افترض أن أندي فتى آخر يتمتّع بشهوانية عالية مثله، غير محظوظ مع الفتيات، ولذلك يرغب بأن يقضي وطره مع صبي، والصبيّان الاثنان يتسكّعان معاً لمجرّد التّسكّع، يمارسان مجونهما مع المراهقات العذراوات، لكنْ، لم يجل في باله أن شيئاً جدّيّاً قد يتمخّض عن ذلك. ثمّ، في السبت الأخير الذي أمضياه معاً، قبل أن يغادر فيرغسون الشّقّة بدقائق، وهما مستلقيان على الفراش جنباً إلى جنب، لا يزالان عاريين، لا يزالان متعرّقَين لاهثين، وقد استُنزفَ كلّ منهما للمجهود الذي

بذلاه في ربع الساعة الأخير، احتوى أندي فيرغسونَ بين ذراعيه، وقال إنه يحبّه، إن فيرغسون هو حبُّ حياته، وإنه لن يكفّ عن حبّه، حتّى بعد أن يموت.

لم ينبس فيرغسون بكلمة. أي كلمة قد تكون الكلمة الخاطئة في تلك اللحظة، فبقي صامتاً، ممسِكاً عن قول أي شيء. محزن، فكّر في داخله، محزن للغاية ومحبِط، لأن هذه الورطة قد خُلقت، لكنه لم يشأ جرح مشاعر أندي بأن يبوح له بمشاعره هو، وهي أنه لم يبادله الحبّ، وأنه لن يحبّه ما تبقّى له من الحياة، وأن ما جرى اليوم هو بمثابة الوداع، ويسوؤه أن ينتهي الأمر بهذه الطريقة، لأن المرح كان مرحاً حقيقياً. لكنْ، اللعنة على ذلك كلّه، لم يكن يجب أن يقول ذلك، *كيف يمكن أن يكون أحمقَ لهذه الدرجة*؟

قبّل أندي على وجنته، وابتسم. عليّ الذهاب، قال.

وثبَ فيرغسون عن الفرشة، وبدأ يلملم ثيابه عن الأرض.

قال أندي: التوقيت نفسه في الأسبوع القادم؟

ما العرض القادم؟ سأله فيرغسون، وهو يرتدي بنطال الجينز، ويُحكم حزامه.

فيلمان لـ بيرغمان. *التوت البرّيّ والختم السابع*.

يا للأسف!

يا للأسف؟ ما المؤسف؟

لقد تذكّرتُ للتّوّ. عليّ الذهاب إلى رينيبِك مع أهلي السبتَ القادم.

لكنكَ لم تشاهد بعدُ فيلماً لـ بيرغمان. إنه أهمّ من قضاء يوم مع الأمّهات والآباء، أأنا على خطأ؟

ربّما. لكنْ، عليّ الذهاب معهما.

الأسبوع الذي يليه إذاً؟

غمغم فيرغسون، الذي كان يلبس حذاءه في تلك اللحظة، بكلمة آه - هـه التي لم تكد تُسمَع.

لا تنوي المجيء، أليس كذلك؟

استقام أندي جالساً في الفراش، وردّد الكلمات بأعلى صوته:

لا تنوي المجيء، أليس كذلك؟

عمَّ تتحدّث؟

أيّها العاهر! صرخ أندي. ذرفتُ قلبي في سبيلكَ، ولا تقول حتّى كلمة عاهرة واحدة!

ماذا تريدني أن أقول؟

رفع فيرغسون سحّاب سترته الربيعية، واتّجه صوب الباب.

انقلعْ من هنا، يا آرتشي. آمل أن تسقط من على السلالم وتموت.

غادر فيرغسون الشّقّة، ونزل السلالم.

لم يمت.

بدلاً من ذلك، سار باتّجاه البيت، دخل غرفته، وتمدّد على السرير، حيث أمضى الساعتين التاليتين معلّقاً أنظاره في السقف.

3.4

في السبت الأوّل من 1962، بعد ثلاثة أيّام من تسليم مقالته المؤلّفة من تسعمائة كلمة عن جاكي روبنسون، سافر وستّة من اللاعبين في فريق كرة السّلّة التابع لجمعية الشباب اليهودي من مقرهم المحليّ في وست أورانج إلى نادٍ رياضي في نيوارك لخوض مباراة صباحية ضدّ فريق جمعية الشباب المسيحي من سنترال وارْد، قلب مدينة نيوارك. كان البرنامج يتضمن إجراء مبارتين اثنتين بعد ذلك مباشرةً في الصالة نفسها، وكانت المدرّجات الأمامية تغصّ بأعضاء تلك الفِرَق الأربعة الأخرى جنباً إلى جنب مع أصدقاء وأقرباء اللاعبين من تلك الفِرَق، بالإضافة إلى الفريق الذي كان فيرغسون ورفاقه على وشك مواجهته في الجزء الأوّل من المباريات الثلاثية، التي أُعِدّت لحشد يتراوح بين ثمانين وتسعين فرداً. باستثناء الفتية السبعة البيض من لاعبي فريق شباب اليهود ومدرّبهم، مدرّس الرياضيات في الثانوية الذي يُدعى ليني ميلشتاين، كان كلّ مَنْ في النادي ذلك الصباح من السود. لم يكن في ذلك شيء غير اعتيادي، حيث إن فتيان وِسْت أورانج غالباً ما يلعبون ضدّ فِرَقٍ كلّ لاعبيها من السود ضمن دَوري الشباب في مقاطعتهم إسّكس، لكنْ، ما لم يكن عادياً في ذلك الصباح في نيوارك هو حجم الحشد الذي يقارب المائة بدل العشرة أو الاثني عشر فرداً الذين شكّلوا الجمهور الاعتيادي. في البداية، لم يبدُ أن أحداً كان منتبهاً كما ينبغي لما كان يجري على أرض الملعب، لكنْ، حين انتهت اللعبة بالتعادل، وكان لا بدّ من اللعب في الوقت الإضافيّ، بدأ التململ يتصاعد لدى الجمهور الذي جاء لحضور المباراتين الأخريين. وكما استطاع فيرغسون أن يتبيّن، لم يعبأ الجمهور بمَنْ يفوز أو يخسر من الفريقين - كانوا يريدون انتهاء هذه المباراة، كي تبدأ اللعبتان التاليتان - لكن وقت الدقائق الخمس الإضافية انتهى بالتعادل، وتفاقم مزاج الجمهور من التململ إلى البلبلة. *أخرجُوا هؤلاء المهرّجين من الملعب*، نعم، لكنْ، إن كان لا بدّ لأحد هذين الفريقين من الفوز في نهاية الأمر، إذاً فعلى المتفرّجين أن يشجّعوا فتيان نيوارك ضدّ فتيان الضواحي، الفتيان المسيحيين ضدّ الفتيان اليهود، الفتيان السود ضدّ الفتيان البيض. ذلك عادل بما فيه الكفاية، قال فيرغسون في سرّه، وقد بدأ الوقت

الإضافي الثاني، فقط كان من الطبيعي للناس أن يشجعوا الفريق المحليّ، فقط من الطبيعي أن يصيح الناس من على المنصّات خلال مباراة متقاربة النتائج، فقط من الطبيعي أن يشتم الناسُ اللاعبين الزائرين، غير أن الوقت الإضافي الثاني انتهى بتعادل آخر، وفجأة بدا أن النار قد سرَتْ في الهشيم: كان النادي الصغير، الخرِب وسطَ نيوارك يغلي بالضجيج، ولعبة لا وزن لها في كرة السّلّة بين فتية ذوي أربعة عشر عاماً قد تحوّلت إلى مباراة ذات دلالة دموية بين الـ *نحن* والـ *هُمْ*.

كان كلا الفريقين يلعب بأداء منخفض، كلا الفريقين خسر تسعاً من عشرٍ من رمياته وثلثاً من تمريراته، كلا الفريقين كان منهَكاً ومشتّتاً بسبب ضجيج الجمهور، كلا الفريقين كان يبذل قصارى جهده كي يفوز مع أنه يؤدّي كَمَنْ يريد الخسارة. كان الجمهور مُتّفقاً في تشجيعه فريقاً على الآخر، يهتف ويهدر بشكل مدوٍّ باستحسانه كلّما جهد لاعب من نيوارك بوثبةٍ أو تمريرة معترَضة، ويصيح ساخراً كلّما قعقعَ لاعبٌ من وِسْت أورانج برمية مع قفزة أو صدمَتْ قدمه الكرة، يعوي بنشوة صاخبة كلّما سجّل نيوارك هدفاً، يخبط الأرض بأقدامه بانفجارات مديدة من الغضب والاشمئزاز عندما يردّ وسْت أورانج بهدف لصالحه. مع عشر ثوان متبقّية على الساعة الكبيرة، تقدّم نيوارك بنقطة. طلب ليني ميلشتاين تعليقاً مؤقّتاً للعبة، ولحظة تحلّق لاعبو وِست أورانج حول مدرّبهم، كان الصخب على المنصّات مرتفعاً للغاية حتّى إنه اضطرّ للصياح كي يُسمعَ، ليني ميلشتاين الحكيم، الذي لم يكن لاعبَ كرة سلّة متميزاً، بل رجلاً متميزاً أيضاً، الذي عرف كيف يوجّه صبيةَ الأربعة عشر عاماً، لأنه فهم أن الرابعة عشرة هي أسوأ سنّ في تقويم حياة الإنسان، وبالتالي كان فتية الأربعة عشر كلهم كائنات مشوّشة وممزّقة، لم يعد بينهم مَنْ هو صبي، ولم يصبح أيّ منهم راشداً، ليس بينهم مَن امتلك السكينة التّامّة، إن في ذهنه أو داخل البيت ضمن جسده غير المكتمل، وفي فرن تلك الحلبة المكتظّة بمناصرين مولعين بالشجار والخوار، فإن الرجل الفطين ذا الشَّعْر الأشقر المجعّد والميّال إلى المزاح، الذي لا يمتلك أسلوباً أخرقَ يؤهّله لإدارة فريق كان يصرخ وهو يكيل تُهَمَه، ويذكّرهم بكيفية اختراق هيمنة الخصم على كامل الملعب، وقبل أن يضع الفتيةُ أياديهم اليمنى على يد ليني اليمنى كعلامة *هيّا بنا!* أخيرة، أشار الزوج ذو الأربعة وثلاثين عاماً والوالد لطفلين إلى بوّابة الخروج في الجدار الجانبي للنادي، وقال للصِّبْيةِ إنه لا يهمّ ما يحدث في الثواني العشر الأخيرة، إن فازوا بالمباراة أو خسروها، في اللحظة التي يسمعون فيها صوت الصّفّارة عليهم جميعاً أن يهرعوا باتّجاه ذلك الباب، ويقفزوا إلى سيّارته الستايشن واغن المركونة عند المنعطف لأنه، حسب تعبيره، *قد تتحوّل الأشياء هنا إلى السعار قليلاً*، ولا يريد أن يُجرح أحدُنا

أو يُقتَل في الشجار الذي لا بدّ سيعقب المباراة. ثمّ اتّحدت الأيدي الخمس واليد الواحدة معاً، ونبح ليني آخِر *هيّا بنا!*، فهرول فيرغسون وبقية المبتدئين عائدين إلى أرض الملعب.

كانت أطول عشر ثوانٍ في حياة فيرغسون، رقصة باليه، عبثية، عالية السرعة بدت تتكشف للعيان بتحريك بطيء، لأنه كان اللاعب الوحيد على الأرض الذي لم يكن يتحرّك، ثابتاً في موقعه عند رأس الدائرة القصوى ليتلقّى تمريرةً يائسة طويلة، إذا حدث وأخفق أي مسعى آخر، كان الخيار الأخير من بين خيارات يائسة، ولهذا السبب استطاع أن يراها بأكملها من حيث كان يقف، الرقصة الكاملة التي انطبعت في الفضاء، زاهية ومتعذّرة المحو، تيقّظتِ المرّة تلو الأخرى على مدى الأشهر والسنين القادمة، لم تغب ذكراها في أيّة مرحلة من مراحل حياته، تمريرات مايك نادلر المرتدّة إلى ميتش غودمان بُعَيدَ التظاهر بقفزة، تذبذب ذراعٍ لمُدافع نيوارك، تمريرة غودمان غير المدحرجة والملتقّة إلى آلان شيفر عند خطّ المنتصف، ثمّ رمية شيفر المتهوّرة البعيدة وتكّة الساعة لثوانٍ ثلاث متبقّية، اثنتين، واحدة، انتهت بالذهول على قسمات وجه شيفر المنتفخ لحظةَ شقّتِ الكرةُ الهواء بمحاذاة اللوح، وحطّت في السّلّة دون أن تمسّ الإطار، الرمية الأطول في الوقت الأقصر المتبقّي للنهاية في تاريخ دوري شباب مقاطعة إسّكس، التي ستنتهي إلى إعلان الفوز في النهايات كلها لما تبقّى من الوقت.

رأى ليني يهرول باتّجاه الباب الجانبي. وفي حين كان لاعب وست أورانج يقف في الموضع الأبعد من الباب، بدأ فيرغسون بالجري قبل أيّ أحد آخر، بدأ بالجري في الثانية التي رأى فيها الكرةَ تنفذ عبر السّلّة دون أن يتأنّى ليُهنّئ شيفر أو يحتفل بالفوز، إذ إن ليني كان على حقّ، إذ ساوره في أن مشكلة ستحدث، والآن وقد سُلِبَ نيوارك فرصة الفوز، فإن جمهور النادي كان في أوج سخطه. الولولة للصدمة الجماعية كانت البداية، ثمانون أو تسعون دماغاً صُدم لرؤية تلك السّلّة المحظوظة السهلة، وبعد وهلة كان نصف الحشد يندفع بقوّة إلى الملعب، صارخين بغضب وعدم تصديق، جيش من أولاد بعمر الثلاثة عشر- الأربعة عشر -، والخمسة عشر عاماً، أربع دزّينات من الصِّبْية السود انهالوا بالضرب على نصف دزّينة من الصبية البيض، بسبب الهزيمة التي ألحقوها بهم، ولعدّة لحظات وهو يناور لعبور الملعب أحسّ فيرغسون بأنه في خطر حقيقي، في خوف من أن يلحق به الرعاع ويضربوه حتّى يقع أرضاً، لكنه نجح في الاندفاع عبر متاهة الأجساد المزدحمة مع لكمة عشوائية واحدة لا أكثر أصابت ذراعه اليمنى، لكمة آلمته، واستمرّت تؤلمه على مدى الساعتين التاليتين، وبعدها أصبح خارج الباب، وأكمل جريه نحو سيّارة ليني الستايشن واغن في الهواء البارد لذلك الصباح الكئيب من كانون الثاني.

هكذا انتهى الشغب العِرْقِي المصغَّر الذي كاد يحدث، لكنه لم يحدث. الجميع الآن في

رحلة العودة، هلّلَ الفتيان الآخرون في السّيّارة بصخب شديد، يغمره الابتهاج الجنوني، ومرّة تلو المرّة يستعيدون الثواني العشر الأخيرة من اللعبة، مهنّئين أنفسهم على تملّصهم من غضب الحشد المنتقم، مؤدّين مقابلات مفتعلة مع شيفر دائم الابتسام الذي لم يزل غير مصدِّق، يضحكون، ثمّ يضحكون، الكثير من الضحك حتّى إن الجوّ من حولهم بات مفعماً بالغبطة، إلا أن فيرغسون لم يشارك به، لم يستطع المشاركة، لأنه لم تكن لديه رغبة بالضحك، رغم أن رمية شيفر في الثانية الأخيرة كانت إحدى أكثر الأشياء المضحكة والمتفرّدة التي شهدها في حياته، لكن المباراة بالنسبة إليه قد دُمّرت بسبب ما حدث بعد انتهاء اللعبة، واللكمة لا تزال تؤلمه، كذلك آلمه سببُ توجيه اللكمة إليه أكثر من الألم الذي لم يزل ينبض في ذراعه.

كان ليني الشخص الثاني الوحيد الذي لم يضحك، أحد الاثنين اللذين بدا أنهما يفهمان فداحة آثار ما حدث في النادي، وللمرّة الأولى على امتداد المواسم وبّخ الفتيةَ لعدم كفاءة لعبهم وللّيونة التي أبدوها خلال المباراة، مستثنياً رمية الخمسين قدماً التي أدّاها شيفر على أنها مصادفة وسائلاً اللاعبين عن سبب عدم هزمهم ذلك الفريق المتوسّط بعشرين نقطة. تلقّى الآخرون هذه الكلمات على أنها تعبير عن الغضب، لكن فيرغسون أدرك أنه لم يكن غاضباً، بل مستاءً، أو جزِعاً، أو خائباً أو الثلاثة في الآن نفسه، وأن المباراة لم تعنِ شيئاً على ضوء المشهد البشع الذي تلا المباراة.

كانت المرّة الأولى التي شهد فيها فيرغسون جمهوراً يتحوّل إلى غوغاء، يسودهم الاضطراب، وكان من الصعب استيعابه، فالدرس غير القابل للجدال الذي تعلّمه في ذلك الصباح يفيد أنه يمكن لجمهور ما التعبير عن حقيقة دفينة، قد لا يجرؤ فردٌ من أفراده على التعبير عنها على مسؤوليته الخاصّة. في هذه الحالة، فإن الحقيقة بشأن الضغينة، بل وحتّى الكراهية التي يشعر بها العديد من الناس السود تجاه البيض، أنها لم تكن أقلّ حدّةً من الضغينة بل وحتّى الكراهية التي يشعر العديد من الناس البيض تجاه السود، وفيرغسون، الذي أمضى للتّوّ الأيّام الثلاثة الأخيرة من عطلة عيد الميلاد في كتابة مقالة عن جرأة جاكي روبنسون، والحاجة إلى الاندماج الكامل في جوانب الحياة الأميركية كلها، لم يستطع ضبط شعور الاستياء، والجزع، والخيبة ممّا حدث في نيوارك ذلك الصباح، بعد خمسة عشر عاماً من لعبِ جاكي روبنسون مباراته الأولى ضمن فريق بروكلن دودجرز.

بعد مرور يومين من أيّام الاثنين على سبت نيوارك، وقفت السّيّدة بولدوين أمام فيرغسون وبقية طلاب الصّفّ التاسع، وأعلنت أنه فاز بالجائزة الأولى في مسابقة المقالة. ومُنحَت الجائزة الثانية لـ إيمي شنايدرمان لـ *تقريظها المؤثّر لحياة إيما غولدمان*، وكم شعرت بالفخر بهما، قال

السّيّدة بولدوين، إذ جاءت أفضل مقالتين من الصّفّ نفسه، *صفّها*، الذي كان واحداً من ثلاثة عشر صفّ لغة إنكليزية في المدرسة، وبأنه لم يحدث مرّة في كلّ سِني ممارستها التدريس ضمن ثانوية ميبلوود جونيور أن *حظيتْ بشرف فوز اثنين من طلاب صفّها في المسابقة السنوية للكتابة*.

أمر رائع بالنسبة إلى السّيّدة بولدوين، فكّر فيرغسون، وهو ينظر إلى ثأره الأدبي بحبور للظفر الثنائي على السبورة، وكأنها هي التي كتبت المقالتين بنفسها، وسعيدة أن فيرغسون كان الفائز من بين ثلاثمائة وخمسين طالباً في فئته الدراسية، أدرك أن هذا النصر كان بلا جدوى، ليس فقط لأن ما كانت السّيّدة بولدوين تعدّه جيّداً يعني بالضرورة أنه سيّئ، بل لأنه هو ذاته قد تراجع عن ما تضمنته مقالته منذ خيبته لما حدث في نادي نيوارك، مُدركاً أن ما كتبه في مقالته كان أكثر تفاؤلاً وسذاجةً من أن يُحدِث أدنى تغيير في العالم الحقيقي، فرغم أن جاكي روبنسون استحقّ الثناء الذي أسبغه عليه فيرغسون، إلا أن إلغاء التمييز العنصري من لعبة البيسبول كان مجرّد خطوة ضئيلة في نضال مديد ومرير قد يستمرّ لسنوات عديدة قادمةً، يستمرّ دون شكّ لسنوات تتجاوز أقصى ما يمكن أن يعيشه فيرغسون، ربّما لقرن أو قرنين آخرين، وأن ترتيبها جاء بعد لوحته المثالية العقيمة لـ أمريكا الممسوخة، إلا أن مقالة إيمي عن إيما غولدمان كانت أفضل بكثير، ليس لأنها كُتبت ودُرستْ بشكل أفضل وحسب، بل لأنها في الآن نفسه أكثر حماسة وإتقاناً، والسبب الوحيد في أنها لم تُمنَح المرتبة الأولى أن المدرسة ليست مخوّلة بمنح وشاح الفوز الأزرق لمقالة تتحدّث عن امرأة فوضوية ثورية، التي عُدّتْ حسب التعريف الشائع أنها أميركيةٌ بالغةُ اللاأميركية، الشخصَ الراديكاليّ الذي كان يشكّل خطراً على نمط الحياة الأميركية، لدرجة أنها نُبذتْ من بلادها.

كانت السّيّدة بولدوين لا تزال مستمرّة في حديثها الرتيب أمام الصّفّ، تشرح أن الثلاثة الفائزين من كلّ فئة سيقرؤون مقالاتهم على الملأ بحضور جمهور يشمل كاملَ هيئة المدرسة في موعدٍ عُيِّن بعد ظهيرة الجمعة، وحين ألقى فيرغسون نظرة خاطفة على إيمي - التي كانت تجلس قبله بصفّ واحد على بُعد مقعدين إلى الجهة اليمنى - آنسَه أنه لحظةَ تركّزَ ناظراه على ظهرها، تماماً في النقطة التي تتوسّط ما بين دفّتَي كتفيها، استدارت على الفور، كي تنظر إليه، كأنها شعرت بعينيه تلامسانها، والأكثر إيناساً، حين تلاقت أعينهما، أنها اعتصرتْ وجهها إلى الداخل، وأبرزت لسانها نحوه بطريقة طريفة، كأنها تقول، أُفٍّ منكَ، يا آرتشي فيرغسون، كان يجب أن أكون الفائزة، وأنتَ تعرف ذلك، وحين ابتسم لها فيرغسون، وهزّ كتفيه بلامبالاة، وكأنه يقول، أنتِ على حقّ، لكنْ، ماذا يمكنني أن أفعل؟، تحوّلت عصرة وجهها إلى ابتسامة، وبعد وهلة، وقد عجزت عن ضبط ضحكتها التي تجمّعت في حَنْجَرَتها، أطلقت واحدة من نخراتها

الضاحكة الغريبة، صوتاً عالياً مباغتاً دفعَ السّيّدة بولدوين إلى قطع ما كانت تقوله لتسأل، أكلُّ شيء على ما يرام، يا إيمي؟

أنا بخير، يا سيّدة بولدوين، قالت إيمي. تجشّأتُ. أعرف أنه ليس من التهذيب أن أفعل، لكنني لم أستطع منعها. آسفة.

لطالما قيل لـ فيرغسون إن الحياة تمثّل كتاباً، تبدأ من الصفحة رَقْم 1، وتندفع إلى الأمام حتّى يموت البطل في الصفحة 204 أو 926، أمّا وقد تبيّن أن حقيقة أن المستقبل الذي تخيّله لنفسه في تغيّر، وكذلك فَهْمه للزمن كان أيضاً في تغيّر. أدركَ أن الزمن يسير في كلا الاتّجاهين، إلى الأمام وإلى الوراء، ولأنه لا يمكن للقصص التي تتضمنها الكُتُب إلا أن تسير إلى الأمام، فإن المجاز الذي تتضمنه الكُتُب لا يشكّل فرقاً يُذكَر. مهما يكن، والحياةُ تشبه إلى حدّ بعيد بنية الصحيفة ذات القياس الشعبي (التابلويد)، ومع الأخذ بالاعتبار أن الأحداث الجسيمة كاندلاع حرب أو جرائم عالم العصابات تُنشَر على غلافها، والأخبار الأقلّ شأناً تأتي على الصفحات اللاحقة، فإن الغلاف الأخير يحمل عنواناً بدوره، خبر اليوم الرئيس من عالم الرياضة المبتذل، لكنْ، المفروض بالقوّة، والمقالات الرياضية كانت تُقرأ على الدوام تقريباً من الوراء، وأنتَ تقلّب الصفحات من اليسار إلى اليمين بدلاً من اليمين إلى اليسار كما تفعل مع المقالات في الصفحة الأولى، تمضي بالقراءة العكسية، وكأنكَ تحفر درباً عبر نصّ بالعبرية أو اليابانية، متوغّلاً باطّراد باتّجاه منتصف الجريدة، وحين تصل الحدّ الفاصل المحرَّمَ الذي يحتوي الإعلانات المبوّبة، التي لم تكن لتستحقّ القراءة ما لم تكن تبحث عن سوق لدروس الترومبون أو درّاجة مستعملة، ستتخطّى تلك الصفحات إلى أن تصل المساحةَ المخصّصة لإعلانات السينما والعروض المسرحية وعمود الاستشارة الذي تكتبه آن لاندرز، والافتتاحيات، التي لو بدأتَ بالقراءة في أي منها، من الآخر (كما كان يفعل عادةً فيرغسون الشغوف بالرياضة)، فستتابع القراءة حتّى البداية. يسير الزمن باتّجاهين، لأن كلّ خطوة متوجّهة نحو المستقبل، تحمل ذاكرة الماضي، ورغم أن فيرغسون لم يبلغ الخامسة عشرة بعد، إلا أنه كان قد راكَم ما يكفي من الذكريات، ليدرك بأن العالم الذي يحيطه كان يُصاغ باستمرار وفق العالم الذي في داخله، كما صيغت تجربة سائر البشر عن العالم وفق ذاكراتهم، وفي حين أن الناس كلّهم محكومون بالفضاء المشاع الذي يتشاركونه، فإن رحلاتهم جميعاً عبر الزمن كانت مختلفة، ما يعني أن كلّ شخص يعيش في عالم يختلف بشكل طفيف عن العالم الذي يعيش فيه شخص آخر. والسؤال هو: ما العالم الذي يسكنه فيرغسون الآن؟ وكيف يتغاير ذلك العالم بالنسبة إليه؟

من جانب ما، لم يعد في نيّته أن يصبح طبيباً. لقد أمضى السنتين الأخيرتين مقيماً في مستقبل بعيد من التضحية النبيلة بالنفس والأعمال الطّيّبة غير المحدودة، كرجل مختلف كلّيّاً عن والده، يعمل لا من أجل المال وامتلاك الكاديلاك الخضراء الليمونية، بل لصالح الإنسانية، كطبيب يعالج الفقراء والمسحوقين بإنشاء عيادات مجّانية في أسوأ الأحياء البائسة ضمن المدينة، الذي سيسافر إلى أفريقيا، ليعمل في مشافي الخيام حين تحلّ جائحات الكوليرا والحروب الأهلية الطاحنة، ليكون الرمز النبيل لمَن اعتمد عليه، رجلَ الشرف، قدّيس الرحمة والإقدام، لكنْ، فيما بعد ظهرَ نُوح ماركس صاحب الرؤية الواضحة ليفكّك مكوّنات مشهد هذه الهلوسات الغرائبية، التي كانت في الواقع بضاعة أفلام الأطبّاء الهوليوودية الساذجة، وروايات عن الأطبّاء المغفّلين العاطفيين، رؤيا مستقبلية كافية لأن تشي بأن فيرغسون لم يوجد داخلَ نفسه، وإنما لم يزل مرئياً من الخارج، كأنه يشاهد ممثّلاً في أحد أفلام الأبيض والأسود من الثلاثينيات، مع زوجة جميلة هي ممرضة، ومُرافقة يحومان عند طرف الصورة السينمائية، وفي الخلفية موسيقا تثير الأشجان، لم يكن أبداً فيرغسون الحقيقي بما لديه من حياة جوّانية معقّدة يشوبها الاضطراب، بل بطلاً دُمية، هو نتاج الرغبة بتلفيق مآلٍ بطولي لنفسه، ما يدل على أنه، الواحد الأحد، كان أفضل من أيّ رجل على وجه الأرض، وها قد كشف له إلى أي درجة من السوء وصل ضلاله، شعر فيرغسون بالخجل من نفسه، لأنه أهرق الكثير من الطاقة في تلك الأحلام الصبيانية.

في الوقت نفسه، كان نوح مخطئاً في ظنّه أن لديه مَيلاً لأن يكون كاتباً. صحيح أن قراءة الروايات كانت من المتع الأساسية التي كان على الحياة أن تهبَها، وصحيح أيضاً أن أحداً ما كان عليه أن يكتب تلك الروايات، ليعطي الناس فرصة اختبار تلك المتعة، ولكنْ، بقدر ما كان فيرغسون مَعنياً، لم يقيّض لا للقراءة ولا للكتابة أن تُبْنيا كفعالية بطولية، وخلال تلك المرحلة في رحلته نحو الرشد كان طموح فيرغسون الأوحد للمستقبل، على حدّ تعبير الكاتب الأوّل لديه، أن يكون *بطلَ حياته الخاصّة به*. كان فيرغسون حينذاك قد قرأ رواية ديكنز الثانية، الصفحات الـ 814 كلّها من ذلك الكدح المديد، الموارب عبر الحياة المتخيّلة للصبيّ الأثير لدى المؤلّف، والتي التهمها حتّى آخر سطر خلال أسبوعَي عطلة عيد الميلاد، وها قد أوشكت نشوة ماراثون قراءته على نهايتها، وجد فيرغسون نفسه على خلافٍ مع رفيقه الطيفي من السنة الماضية، هولدن كولفيلد، الذي كان قد انتقد ديكنز بطريقة لاذعة بتعليقه عن *ذلك النوع كله من الفضلات الـ ديفيد كوبرفيلدية* على الصفحة الأولى من *الحارس في حقل الشوفان*، لأن الكُتب باتت تحاور الكُتُب في ذهن فيرغسون الآن، وبالقدر نفسه من الجدارة التي ربمّا ميّزت جي. دي. سالينغر، لم يكن مستعداً لتلميع حذاء تشارلز ديكنز، على الأقلّ حين لا يتزيّن المعلّم العجوز بفردَتَي جزمة

تُسمّيان هانك وفرانك. لا، لن يكون هناك ثمّة شكّ حيال الأمر: قراءة الرواية متعة عظيمة، وكتابة الرواية متعة عظيمة أيضاً (متعة ممزوجة بالمعاناة والصراع والهزيمة، لكن المتعة تتحقّق في ذلك كله، إذ إن السرور الذي تحققه كتابة جملة بارعة - خصوصاً حين تبدأ كجملة هزيلة، ثمّ تتطور ببطء بعد إعادة صياغتها أربع مرّات - متعة لا نظير لها في حولياتِ المُنجَزِ الإنسانيّ)، وكلّ ما كان بهذا القدر من الإمتاع، وأدخلَ كثيرَ السرور لن يُؤخَذ، بالمعنى الحرْفي، على أنه بطوليّ. وإذ نغضّ الطرْفَ عن الرتابة المقدّسة لحياة الطبيب، يبقى هناك ما لا يُعَدّ من البدائل البطولية التي يمكن لـ فيرغسون أن يتخيّلها لنفسه، من بينها، على سبيل المثال، مهنة المحاماة، ونظراً لأن حلم اليقظة كان الموهبة التي استمرّت في التّفوّق على ما سِواها، خصوصاً حلم اليقظة بالمستقبل، فقد أمضى الأسابيع العديدة التالية في الظهور ضمن قاعات المحاكم، لعلّ فصاحته تنقذ الرجال المتّهمين ظلماً من الذهاب إلى الكرسي الكهربائي، فسبّبَ الانهيار العصبي لدى أعضاء هيئة المحلفين كافّة، واستدرَّ دموعهم عقبَ كلٍّ من مرافعاته الختامية.

ثمّ بلغ الخامسة عشرة، وكان عشاء عيد ميلاده التكريمي في 'ويفرلي إِنْ' بمانهاتن، وضمَّ الاحتفال والديه وجَدّيه والخالة ميلدرد والعمّ 'دون' ونوحاً، هناك تلقّى فيرغسون هدية أو هدايا من كلّ أسرة تصلها قِرابة بعائلته، تلقّى شيكاً بمائة دولار من أمّه وأبيه، وشيكاً آخر بمائة دولار من جَدّته وجَدّه، وثلاثة رزَم منفصلة من آل ماركس، علبة تضمّ تشكيلة لأواخر رباعيات بتهوفن الوترية من الخالة ميلدرد، مجلَّداً من نوح بعنوان *أطرف النُّكات في العالم*، وأربعة كُتُب بأغلفة عادية لمؤلّفين روس في القرن التاسع عشر من العمّ 'دون'، سمع فيرغسون مدى أهمّيّتها، لكنه لم يكن قد تجشّم قراءتها: *الآباء والبنون* لـ تورغينيف، *النفوس الميتة* لـ غوغول، *ثلاث روايات قصيرة* لـ تولستوي (*السّيّد والعبد*)، (*سوناتا كروتزر*)، (*موت إيفان إيليتش*)، و*الجريمة والعقاب* لـ دوستويفسكي. كانت آخر تلك العناوين هي التي وضعت حدّاً لأوهام فيرغسون في أن يصبح كلارنس دارو القادم، فقد كانت قراءته *الجريمة والعقاب* الصاعقة التي نزلت من السماء، وفتّتته إلى ألف قطعة، وفي الوقت الذي كان فيرغسون يعيد فيه لملمة نفسه من جديد، لم يعد يساوره الشّكّ حيال المستقبل، فإذا كان '*هذا*' ما يمكن للمرء أن يقوله إنه كتاب، إذا كان 'هذا' ما يمكن أن تفعله الرواية في قلب الشخص وعقله ومشاعره الأكثر عمقاً تجاه العالم، فكتابة الروايات إذاً كانت بالتأكيد أفضل ما يقوم به المرء في حياته، إذ علّمه دوستويفسكي أن القصص المؤلَّفة قد تنجح إلى حدّ بعيد في الترفيه واللهو البسيطين وحسب، قد تطرح ما اختزنتَه في داخلك إلى الخارج، وتنتزع خلاصة ما اكتنزته في ذهنكَ، قد تسفعكَ وتجمّدكَ وتُعرّيكَ وتدفعكَ في وجه رياح العالم الهوجاء، ومنذ اليوم فصاعداً، بعد أن أمضى جلَّ صباه خبطَ عشواء، تائهاً في

بخارٍ عفِن دائم التكاثف من الارتباك، عرف فيرغسون إلى أين هو ذاهب، أو على الأقلّ إلى أين أراد الذهاب، ولم يحدث لمرّة واحدة في السنوات اللاحقة أنه تراجع عن قراره، ولا حتّى في السنوات الأكثر عتياً، التي أحسّ خلالها بأنه موشك على السقوط عن شفير الأرض. لم يكن يتجاوز الخامسة عشرة، لكنه زوّجَ نفسه إلى فكرة، وفي السّرّاء والضّرّاء، في الغنى والفقر، في الصّحّة والمرض، كان الفتى فيرغسون إنما يقطع عهداً إلى تلك الفكرة طيلة ما بقي أمامه من حياة.

كان برنامج الأفلام الصيفي قد انتهى. ومات جَدّا نوح لأمّه في تشرين الثاني، وبوراثتها لبعض المال الزائد عن الحاجة، عزمت على إنفاق شيء منه لصالح رفع المستوى الدراسي لابنها. ودون الرجوع إلى نوح، أدرجتْ اسمه ضمن برنامج صيفي طويل لطلاب الثانوية الأجانب في مونبلييه، فرنسا - ثمانية أسابيع من *الانغماس الكلّيّ* باللغة الفرنسية، والتي في نهايتها، إن صدَقَ كُتيّبُ البرنامج، سيعود إلى نيويورك وهو يتحدّثها بطلاقة ابن البلد، *الفرنسيّ الضفدع*، آكل الحلازين. بعد ثلاثة أيّام من إنهاء فيرغسون قراءة الجريمة والعقاب، اتّصل نوح، ليعلن أن تغييراً طرأ على الخطط، شاتماً أمّه، لأنها نجحت بزجّه في أمر لا يريده، ولكنْ، ماذا بوسعه أن يفعل؟ قال، إذ إنه أصغر من أن يكون سيّدَ حياته، وحتّى الآن لا تزال الملكة المعتوهة تفرض عليّ قراراتها. غطّى فيرغسون خيبته بقوله لـ نوح كم هو محظوظ، ذلك أنه لو كان مكانه، فسوف يسارع إلى فرصة السفر، وبالنسبة إلى كونهما في وضعين مختلفين، حسناً، الأمر لا نُحسَد عليه، لكن الواقع أنهما لا يزالان دون كاميرا، بل حتّى إنهما لم يبدآ بعدُ الخطوط العريضة للنص، بذلك لم تحدث خسارة، وحثّه على التفكير في ما ينتظره خلال إقامته في فرنسا - فتيات ألمانيات، فتيات دانمركيات، فتيات إيطاليات، حريم من جميلات المدارس الثانوية ملك يمينه، إذ لا يرغب الكثير من الفتيان بالذهاب إلى هذا النوع من البرامج، وبالقليل من المنافسة التي تعترض طريقه، فإنه على ثقة بأنه سيجد وقتاً، يتمتّع به في الحياة.

لا شكّ أن فيرغسون سيفتقد نوحاً، يفتقده بعمق، فالصيف كان دائماً الفصل الذي يمضيان كلّ يوم من أيّامه معاً، طوال النهار كلّ يوم لثمانية أسابيع كاملة، وصيف من دون صديقه - ابن العمّ عازف القيثارة العابس بالكاد سيبدو شبيهاً بالصيف - ليس أكثر من امتداد طويل للوقت، يميّزه طقس حارّ ونوع جديد من الوحدة.

لحسن الحظّ، لم يكن شيك المائة دولار هدية أهله الوحيدة في عيد ميلاده الخامس عشر. فقد حظي، بالإضافة إلى ذلك، بحقّ السفر إلى نيويورك بنفسه، انعتاق جديد كان يطلبه بقصد المران أنىّ تسنّى له ذلك، إذ إن بلدة ميبلوود جميلة، لكنها موحشة، وقد بُنيت لغرض وحيد

هو أن تجعل الناس يرغبون بمغادرتها، ومع عالم آخر وأكبر توفّر له فجأة، أصبح فيرغسون يخرج منها كل سبت تقريباً طوال ذلك الربيع. كان هناك طريقتان للسفر إلى مانهاتن من حيث يقيم: بحافلة الـ 107، التي تنطلق كل ساعة من محطّة إيرفينغتون، وتقلّكَ إلى مبنى بورت أوثوريتي على تقاطع الجادّة الثامنة مع الشارع الأربعين، أو بقطار العربات الأربع التابع لشركة خطوط إريْ لاكاوانا، الذي يغادر المركز في ميبلوود، ويصل محطّته الأخيرة في هوبوكِن، حيث يتوافر خياران إضافيان لإنهاء الرحلة إلى المدينة: تحت الأرض عبر نفق الهدسون أو فوق الأرض على عبّارة تمخر مياه الهدسون. كان فيرغسون يفضل حَلَّ العبارة حاملة القطار، ليس لأنه يمكنه السير إلى المحطّة في غضون عشر دقائق وحسب (في حين أن الذهاب إلى محطّة إيرفينغتون كان يتطلّب أن يقلّه أحد ما)، بل لأنه أحبّ القطار، الذي كان واحداً من أعتق القطارات الباقية قيد الاستخدام في أي مكان آخر داخل إيميركا، بالعربات المصنَّعة سنة 1908، هياكل معدنية داكنة الاخضرار، استدعت إلى البال البدايات المبكّرة للثورة الصناعية، وفي داخل العربة هناك مقاعد الخيزران المجدول العتيقة ومساندها التي يمكن أن تنثني كيفما اتّفق، القطار المقاوم للسرعة بطيء الحركة الذي قعقعَ وترنّح وأصدر بادئ الأمر جلبة من الزعيق بينما العجلات ترجرج السّكّتين الصدئتين، ويا لها من سعادة أن تجلس وحيداً في واحدة من تلك العربات، وأنتَ تنظر خارج النافذة إلى المنظر البشع الآخذ بالسوء لمنطقة شمال نيو جرسي، المستنقعات والأنهر والجسور الحديدية المتحرّكة قبالة أبنية قرميدية متداعية، خرائب الرأسمالية القديمة، بعضها لا يزال قيد الاستخدام، وبعضها أنقاض، كانت بشعة لدرجة أن فيرغسون وجدها مُلهمة بالطريقة نفسها التي ألهمت بها أطلالُ التلال الإغريقية والرومانية شعراءَ القرن التاسع عشر، وحين لا يتأمل ما خارج النافذة من عالم متداعٍ حوله، يلجأ بدلاً من ذلك إلى قراءة كتابه الحالي، الروايات الروسية التي لم يكتبها دوستويفسكي، بل كافكا للمرّة الأولى، جويس للمرّة الأولى، فيتزجيرالد للمرّة الأولى، ومن ثمّ يقف على سطح العبّارة، إذا كان الطقس ينحو إلى الاعتدال، الهواء يلفح وجهه، المحرّك يرتجّ تحت نعليه، النوارس تحوم فوقه، إنها رحلة عادية بكل ما يقال ويُفعَل خلالها، رحلة يقوم بها آلاف الرّكّاب كل صباح من الاثنين وحتّى الجمعة، لكنْ، اليوم هو السبت، وبالنسبة إلى فيرغسون ابن الخمسة عشر عاماً كان شيئاً من الرومانسية الصافية أن يسافر إلى جنوب مانهاتن بهذه الطريقة، أفضل الأشياء الجميلة التي قد يقوم بها - ليس فقط مغادرة بلدته، بل هذه الرحلة، *كلّ ما في هذه الرحلة*.

لقاء نوح. محادثة نوح. مجادلة نوح. الضحك مع نوح. الذهاب إلى السينما مع نوح. أيّام السبت في شارع بيري، الغداء في الشّقّة مع الخالة ميلدرد والعمّ ′دون′، ثمّ الخروج برفقة نوح،

والمضيّ إلى حيث شاءا المضيّ، وغالباً ما كان إلى لا مكان، متسكّعَين في شوارع وِست فيلج وهما يتفحّصان بكلّ بلاهة الفتيات الجميلات، ويناقشان مصير العالم. لقد تقرّر كل شيء الآن. سيشرع فيرغسون بكتابة الكُتُب، وسيشرع نوح بإخراج الأفلام، ولذلك غالباً ما تحدّثا عن الكُتُب والأفلام والمشاريع العديدة التي سيعملان عليها معاً في السنوات القادمة. كان نوح مختلفاً عن نوح الذي التقاه فيرغسون وهو صبي صغير، لكنه بقي محتفظاً بذلك الجانب المُحتدّ تجاهه، ما ظنَّ فيرغسون أنه جانبه المتغطرس اللصيق بالأخوة ماركس، استعراضاته الهوجاء لفوضوية متدفّقة، التي قد تتفجّر فيما بعد على شكل تعاملٍ أخرق مع بائع الخضار (مرحبا، *يا معلِّم، ما مشكلة بضاعة الباذنجان هذه؟ - لا أرى فيها شيئاً من البيض*(*)) أو مع النادلات في المقاهي (*حبيبةَ القلب، قبل أن تناولينا إيصال الدفع، من فضلك مزّقيه، وهكذا لا يتحتّم علينا الدفع*) أو مع المحاسبين في دار السينما الواقفين في قمراتهم الزجاجية (*أخبرني شيئاً واحداً عن الفيلم الذي سيُعرض، وإلا فإني سوف أسقطكَ من وصيّتي*)، ثرثرة استفزازية كشفتْ إلى أيّ مدى يمكن أن يكون شخصاً مزعجاً، لكنه الثمن الذي كان عليكَ أن تدفعه لكي تكون صديق نوح، فتشعر بالمتعة والإحراج في الوقت نفسه، وكأنكَ تتنزّه برفقة طفل صغير مشاكس، ثمّ، ومن دون سابق إنذار، سيغيّر معالم وجهه بشكل مفاجئ، ويبدأ بالتّحدّث عن *المقصلة* لـ ألبير كامو، وبعد أن تقول له إنكَ لم تقرأ بعد كلمة ممّا كتب كامو، سيندفع إلى أقرب متجر كُتُب، ويسرق من أجلكَ إحدى رواياته، وهذا بالتأكيد ما لا تستطيع أن تتقبّله، وباستمرار ستكون في وضع محرج، يملي عليكَ أن تطلب منه العودة إلى المتجر وإعادة الكتاب إلى الرّفّ، وهذا بالتأكيد أيضاً يدفعكَ للشعور وكأنكَ منافق يدّعي التهذيب، لكنه يبقى صديقاً لكَ، الصديق الأفضل الذي حظيتَ به أبداً، وأحببتَه.

لم يكن كلّ سبتٍ يوماً منذوراً لشارع بيري على أيّة حال. ففي نهايات الأسبوع التي كان نوح يمضيها مع أمّه في شمال الشطر الغربي، لم يكن من الممكن لـ فيرغسون أن يلتقي به، لذلك كان يُجري بعض الترتيبات لأيّام السبت المعتمة تلك، السفر مرّتين إلى نيويورك مع صديق من ميبلوود، اسمه بوب سميث (نعم، كان في البلدة شخص يعتدّ به مثل بوب سميث)، مرّة وحيداً لزيارة جَدّيه، ومرّات عديدة برفقة إيمي، وكما لدى إيمي روث شنايدرمان، التي كانت شغوفة برؤية اللوحات الفنّيّة، ولأن فيرغسون اكتشف مؤخّراً كم كان هو الآخر يستمتع بمشاهدة اللوحات الفنّيّة، فقد أمضيا أيّام السبت تلك في التّنقّل بين المتاحف وصالات العرض، ليس الكبيرة منها التي تُرتاد من قِبَل الجميع وحسب، مثل مِتْ، مودرن، غوغنهايم، بل الأصغر منها

(*) الباذنجان eggplant ، والبيضة egg .

كصالات فِرْكْ (المفضّلة لدى فيرغسون) ومركز قلب المدينة للتصوير الضوئي، التي أبقتهما يتحدّثان عن فنّانيها لساعات ستأتي، غيوتو، ميكيل أنجلو، رامبرانت، فيرمير، شاردان، مانيه، كاندينسكي، دوشامب، الكثير ممّا على الإنسان أن يستوعبه ويفكّر فيه، إذ يشاهدان كلّ شيء لـ *المرّة الأولى*، مراراً وتكراراً صدمة *المرّة الأولى* المزعزعة، لكن التجربة الأكثر رسوخاً في الذاكرة التي تشاركاها معاً لم تحدث في متحف، بل في حيّز أكثر ضيقاً داخل صالة عرض، غاليري بيير ماتيس في مبنى فولر شرقي الشارع السابع والخمسين، هناك شاهدا معرضاً لآخر المنحوتات واللوحات والرسومات التي أنجزها ألبرتو جياموميتي، كانا مأخوذَين للغاية بهذه الأعمال العَصيّة، الحسّيّة، المتفرّدة لدرجة أنهما مكثا لساعتين، وعندما بدأت القاعات تخلو من الزوّار، لحظَ بيير ماتيس، (أهو ابن هنري ماتيس!) الشخصين الفتيين في صالته، فتقدّم منهما، وبمنتهى الكياسة والابتسام، والسعادة تغمره لرؤية أن مُعتنقَين جديدين قد انتميا إلى الفنّ في تلك الظهيرة، وليضاف المزيد إلى دهشة فيرغسون، وقف قربهما، وتحدّث لربع ساعة، وحكى لهما قصصاً عن جياكوميتي ومرسمه في باريس، عن *انتقاله وإعادة* زرعه في أميركا في 1924 وتأسيس صالة عرضه في 1931، عن سنوات الحرب المريرة حين أصاب العوز العديد من الفنّانين الأوروبيين، فنّانين عظماء مثل ميرو، وآخرين لا يُعدّون، ولم يكن بإمكانهم البقاء على قيد الحياة لولا العون الذي تلقّوه من أصدقائهم في أميركا، وبعدها، وشيء داخليّ يدفعه، تقدّمهما بيير ماتيس إلى غرفة خلفية في الغاليري، مكتب يحتوي طاولات وآلاتٍ كاتبةً ومكتبات، وواحداً إثر آخر أنزل عن رفوف تلك المكتبات ما يزيد على عشرة من ألبومات المعارض لـ جياكوميتي وميرو وشاغال وبالتوس ودوبوفيه وناولها للمراهقَين المشدوهين، قائلاً، أنتما المستقبل، أيّها الفتيّان، ولعلّها تساعدكما في دراستكما.

خرجا من هناك فاغري الأفواه دون أن ينبسا بكلمة، حاملَين هداياهما من ابن هنري ماتيس وهما يندفعان في الشارع السابع والخمسين، يسرعان الخطى، *لأنهما المستقبل*، لأن جسديهما كانا يتطلّبان أن يسرعا الخطى بعد لقاء كهذا، بعد أن مُنحا نعمة هذه الدماثة غير المتوقَّعة، لذلك سارا في الشارع المزدحم الذي يغمره ضوء الشمس بأسرع ما يمكن لاثنين أن يسيرا دون أن يتحوّل سيرهما إلى ركض، وبعد مائتي ياردة، خرجت إيمي عن صمتها أخيراً، وأعلنت أنها جائعة، كانت "*أعيش المجاعة*" هي العبارة التي استخدمتْها، كما تفعل في العادة، إذ لم تعتد إيمي الجوع الكامل كسائر البشر، كانت تتضوّر أو تشعر بنهم المفترِس، وباستطاعتها التهام فيل أو سرب بطاريق، وحيث إنها كانت تتحدّث عن ملء بطنها بـ *بعض الطعام الطّيّب*، أدرك فيرغسون أنه يستطيع أن يحظى بطعام له، وبما أنهما كانا يسيران على الشارع السابع والخمسين،

اقترح التّوجّه إلى مطعم 'هورن وهاردارت' الآلي بين الجادّتين السادسة والسابعة، ليس لأنه قريب وحسب، بل لأنه وإيمي في مشوار سابق إلى المدينة عَدّا أن مطعم 'هورن وهاردارت' الآلي هو مكان الطعام الأفخر في نيويورك كلها.

ليس الطعام الخفيف الرخيص الذي يُقدّم هناك ما يمكن تصنيفه كـ فاخر، بل طاسات حساء حبوب اليانكي وشرائح سالزبوري مع البطاطا المهروسة المغمورة بالصلصة وشطائر التوت البرّيّ، لم يكن ذلك هو السبب، بل كان المكان بحدّ ذاته هو ما جذبهما، جوّ حديقة التسالي بذلك المتجر الضخم المكوّن من الكْروم والزجاج، طرافة وإبداع فكرة تناول الطعام *المطهو آلياً*، كفاءة أميركا القرن العشرين في تجسّدها الأكثر جنوناً وإمتاعاً، أطباق صحّيّة ومفيدة لجموع الزبائن الجائعين، وكم يبعث على السرور أن تمضي إلى صندوق الدفع حاملاً حفنة نكلات(*)، ثمّ تتجوّل وأنتَ تتطلّع إلى عشرات الخيارات من صنوف الطعام في أوعيتها المغطّاة بالزجاج، نوافذ تفصل بين أحواض الطعام، كلّ منها يشكل وجبة منفصلة *أُعدّتْ خصّيصاً لكَ*، وحين يستقر اختيارك على شطيرة لحم الخنزير مع الجبنة أو قطعة من كعك الباوند، تدسّ العدد الكافي من النكلات في الشقّ، وستنفتح النافذة، وهكذا تكون الشطيرة لكَ، شطيرة متماسكة، موثوقة، وطازجة، لكنْ، قبل أن تنصرف لتبدأ البحث عن طاولة ستكون هناك متعة أخرى هي مدى سرعة تعبئة الوعاء الفارغ بشطيرة جديدة، شطيرة مطابقة لتلك التي اشتريتَها لنفسكَ، فهناك أناس في القسم الخلفي، رجال ونساء بلباس عملهم الأبيض يتولّون أمر النيكلات، ويملؤون الصحاف التي تفرغ بمزيد من الطعام، كيف تجري آلية العمل، كان فيرغسون يتساءل في سرّه، ثمّ يأتي دور البحث عن طاولة شاغرة، حاملاً طعامكَ أو وجبتكَ الخفيفة حولَ ووسطَ الحشد متعدّد النسيج من النيويوركيين المنهمكين في تناول طعامهم وشرابهم المؤتمت، والعديد منهم رجال عجائز يجلسون هناك لساعات كل يوم، يستهلكون كوباً إثر آخر من القهوة بطيئة الارتشاف، الرجال العجائز من اليسار الآفل الذين لا يزالون يتناقشون بعد أربعين عاماً أين كان مكمنُ الخطأ في الثورة، الثورة المُجهَضة التي بدت ذات يوم وشيكة الحدوث، والآن لا تعدو كونها مجرّد ذكرى عن ما لم يحدث أبداً.

وهكذا دخل فيرغسون وإيمي مطعم 'هورن وهاردارت' الآليّ مع انحسار تلك الظهيرة المتألّقة لتناول ما يسدّ الرمق، ليتصفّحا الألبومات الرقيقة والحافلة بصور تمثّل المعارض الماضية في غاليري بيير ماتيس، وليتحدّثا بشأن ما شعرا أنه كان يوماً جميلاً، بكلّ ما فيه كان يوماً جميلاً للغاية. كان ينقصه أيّام كهذا اليوم، قال فيرغسون في سرّه، أيّام أخرى جميلة لإبطال آثار أيّام

*) Nickel : عملة الخمس سنتات في إيميركا.

قاسية للغاية مرّ بها خلال الأشهر القليلة الماضية، الأيّام التي توقّف فيها عن لعب البيسبول لسبب ما، القرار الذي كان محيّراً جدّاً لأصدقائه، لدرجة أنه امتنع عن محاولة شرح ما في داخله أمامهم، فالمضيّ في نكران الذات كان يصبح أشدّ صعوبة ممّا ظنّ لأن يلتزم به، بإقلاعه عن ممارسة شيء كان يحبّه للغاية على مدى سنوات عديدة، شيء بالغ الالتصاق به حتّى إن جسده ليؤلمه أحياناً حين يمسك بيديه مضرباً مرّة أخرى، حين يرتدي قفّازه، ويتبادل رمية كُرةٍ مع أحدهم، حين يشعر بنتوءات حذائه الرياضي تنغرز في التراب وهو يجري نحو نقطة المركز الأولى، لكنه لا يستطيع العودة الآن، فسيكون عليه الالتزام بالعهد الذي قطعه على نفسه أو أن يعترف لنفسه بأن موت آرتي لم يعنِ له شيئاً، لم يعلّمْه شيئاً، الذي سيحيله إلى امرئ ضعيف ومهزوم للغاية، الذي سيجعله عرضة لأن يتحوّل إلى كلب، جسمٍ، كلب هجين يتذلّل من أجل الفتات، ويلعق قيئه الخاصّ عن الأرض، وإذا لم يكن من أجل ملاذاته الأسبوعية إلى المدينة، التي كانت تبقيه بعيداً عن ملاعب الكرة، حيث كان يلعب أصدقاؤه كل سبت، فَمَنْ يدري أنه لن يسلّم بالأمر، ويسمح لنفسه بأن يكون ذلك الكلب؟

مع ذلك هناك الأسوأ، الربيع من دون بيسبول كان أيضاً ربيعاً من دون حبّ. كان في ظنّ فيرغسون أنه مفتون بـ ليندا فلاغ، لكنْ، بعد السعي وراءها طوال الخريف والشتاء، مصمّماً على الفوز بمشاعر حبيبة ميلوود الأكثر إغراء وغموضاً، التي كانت بدورها قد حرّضته، ثمّ صدّته، قد سمحت له بتقبيلها، ثمّ لم تسمح له بتقبيلها، قد أعطته الأمل، ثمّ سحبت هذا الأمل منه، خلصَ فيرغسون إلى أنها ليست ليندا فلاغ مَنْ لم تحبّه من طرفها، بل إلى أنه هو الذي لم يحبّها. حدثت لحظة المكاشفة يوم السبت في بدايات نيسان. بعد أسابيع من البذل، أقنعها فيرغسون بمرافقته في إحدى رحلاته إلى مانهاتن، كانت الخطّة بسيطة: غداء في المطعم الآلي، مشوار في المدينة إلى الجادّة الثالثة، ومن ثمّ ساعتان في الظلام بينما يشاهدان *وحدة عدّاء المسافات الطويلة*، الفيلم الذي لم يكفّ جيم شنايدرمان عن دفعه لمشاهدته، وكلّما استطاع فيرغسون، خلال عرض الفيلم، أن يمسك بيد ليندا، أو تقبيل فم ليندا، أو تمرير يده جيئة وذهاباً على ساق ليندا، كان ذلك أفضل. تبيّن أنه كان يوماً موحِشاً، رطّبه الرذاذ ووابل المطر المتقطّع، أكثر برودة ممّا تمنّيا، أكثر دكنةً ممّا ينبغي أن يكون عليه في الوقت نفسه من العام، لكنْ، لم يكن ثمّة شيء عادي يشي بربيع مبكّر، قال فيرغسون، وهما يمشيان باتّجاه المحطّة تحت المظلّتين المفتوحتين، ويتجنّبان برك الماء التي تشكّلت على الرصيف، وعبّر عن أسفه للمطر، وأردف قائلاً إنها لم تكن حقّاً غلطته، إذ كان قد خَطَّ رسالةً إلى زيوس في الأسبوع الفائت، يلتمس فيها طقساً مشمساً، وكيف له أن يعلم أنهم كانوا في خضمّ إضراب شهرٍ لعمّال البريد في جبل الأولمب؟ ضحكت

ليندا للتعليق السخيف، أو لعلّها ضحكت لأنها لم تكن تشعر بالعصبية والترّقّب أقلّ ممّا كان يشعر، ما بدا أنه مؤشّر على أنهما كانا أمام بداية واعدة، ثمّ صعدا على متن إرِي لاكاوانا باتّجاه هوبوكِن، وأدرك فيرغسون أن لا شيء سيسير كما يجب ذلك اليوم. كان القطار قذراً ومزعجاً، قالت ليندا، المشهد كان يسرّب الكآبة إلى النفس، الجوّ كان أكثر رطوبة من أن يستقلا العبّارة (رغم أن الجوّ كان قد بدأ بالصحو)، قناة الهدسون كانت أكثر قذارة وأكثر إزعاجاً من القطار، المطعم الآلي كان ممتعاً، لكنه مخيف، ماذا دهاهم أولئك المنبوذون المتثاقلون في الدخول والخروج، المرأة السوداء ذات الثلاثمائة رطلاً التي تجلس وحدها إلى الطاولة هناك، وتتحدّث عن يسوع الطفل ونهاية العالم، العجوز نصف الأعمى ذو الشاربين الذي يقرأ صحيفة مجعّدة صدرت منذ ثلاثة أيّام باستخدام عدسة مكبّرة، الزوجان اللذان يجلسان بعده مباشرة يغطّسان كيسَي شاي قديمين مستخدَمين في كأسَي ماء ساخن، كلّ مَنْ دخل إلى هنا إمّا كان فقيراً أو مجنوناً، وأية مدينة هذه تلك التي تسمح للناس المجانين بالتّجوّل في الطُّرُقات، قالت، وأنتَ، يا آرتشي، ما الذي يجعلكَ تظنّ أن نيويورك أفضل بكثير من أي مكان آخر بينما هي في واقع الأمر مقرفة للغاية؟

ليس ذنبها، قال فيرغسون في سرّه. كانت فتاة بارعة الجمال، جذّابة نشأت في قبّة مغلقة بإحكام تجاه المؤثّرات الخارجية في أوساط من كياسة ورفاهِ صفوة الطبقة الوسطى، عالم عقلاني ذي لون واحد مكوّن من مرج عشبي أمامي وغرف مكيَّفة، واحتكاكها ببؤس وجلبة حياة مدينة كبيرة ربّما ملأها بالنفور الغريزي، استجابة مادّيّة لشعورها بفقدان القدرة على التّحكّم، كأنها كانت تتنفّس داخلَ جوّ مفعم بالرائحة الخانقة، ثمّ فجأة شعرت بألم في معدتها. لم تستطع ضبط نفسها، أعاد فيرغسون القول في داخله، ولذلك لا لوم عليها، لكنْ، يا لها من خيبة أن يكتشف المرء كم كانت تفتقد إلى حسّ المغامرة، كم هشّة وسريعة الغثيان، كم تنتبذُ نفسَها ممّا ليس مألوفاً لديها. صعبة. كانت الكلمة التي غالباً ما ردّدها بينه وبين نفسه في وصف البنت، وبالتأكيد كانت ليندا فلاغ المتحمّسة حيناً والباردة حيناً آخر قد جعلت الحياة صعبة بالنسبة إليه على مدى الأشهر السّتّة الماضية، لكنها لم تكن بأي معنى من المعاني فتاة غبية وجوفاء - فقط خائفة، هذا كلّ ما في الأمر، خائفة من لا عقلانية المُدُن الضخمة والمنفّرة، ولا شكّ أيضاً أنها خائفة من الفتيان بالإضافة إلى ذلك، رغم وجهها الجميل الذي كان شركاً مغرياً، لم يستطع مقاومته إلا شبّان قلائل. غير أنها ليست مبتذلة، لا تخلو من الفطنة واللباقة، فقد امتلكت عقلاً نيّراً، وطالما تحدّثت بعمق عن الكُتُب التي قرؤوها في دروس اللغة الإنكليزية، والآن وقد طوّق مرفقها بيده، وقادها شرقاً على الشارع السابع والخمسين، تساءل إن كانت

معنوياتها سترتفع بدخولهما الصالة ومشاهدة فيلم. كان مكان العرض يقع على الطرف الآخر من بارك أفينيو، في إحدى ضواحي مانهاتن الأغنى، *الأقلّ قذارة*، وكان يُفترَض أن يكون الفيلم رفيع المستوى، وحيث إن ليندا تمتلك ذائقة للكُتُب رفيعة المستوى وأنفاً يشتمّ الفنّ الرفيع، فلعلّ فيلماً رفيعاً يجعلها في مزاج أفضل وشيء رفيع قد يكون بمثابة الخلاص من النهار الكريه الذي لا يزالان يعيشانه.

كان الفيلم رفيعاً بما لا يقبل الشّك، رفيعاً للغاية، وممتعاً للغاية، لدرجة أن فيرغسون نسي تمسيد ساق ليندا أو محاولة تقبيلها على الفم، لكن فيلم *وحدة عدّاء المسافات الطويلة* كان قصّة حياة شابّ، وليس شابّة، الذي كان يعني أنه موجَّه إلى فيرغسون أكثر ممّا هو موجَّه إلى ليندا، ورغم أنها منحته صفة *فيلم ممتاز*، إلا أنها لم تكن مأخوذة به كما كان فيرغسون، الذي شعر بأنه أفضل فيلم أُنتج حتّى الآن، *عمل فنّيّ عالٍ*. بعد أن أُضيئت الصالة، خرجا قاصدَين مقهى بيكفورد على جادّة ليكزينغتون، وطلبا قهوة وكعكاً من النادل على طرف الطاولة الآخر (كانت القهوة قد بدأت تشكّل متعة جديدة في حياة فيرغسون، وكان يحتسيها كلّما أُتيحت له الفرصة، ليس لأنه أحبّ طعمها وحسب، بل لأن شربها جعله يشعر بأنه أكثر نضجاً - كأن كل رشفة تناولها من هذا السائل البنّيّ الساخن كانت تأخذه أبعدَ فأبعد خارجَ سجن الطفولة)، وهما يجلسان هناك وسط الناس الأقلّ بدانة، الأقلّ فقراً، الأقلّ جنوناً من أولئك الذين كانوا يتردّدون إلى 'هورن وهاردارت'، وتابعا مناقشة الفيلم، على الأخصّ سلسلة المشاهد النهائية، سباق بطولة المسافات الطويلة في المدرسة الإصلاحية، حيث كان يُفترَض على البطل (الذي لعب دوره ممثّل بريطاني اسمه توم كورتني) أن يفوز بالكأس من أجل مدير مدرسته المغرور (قام بالدور مايكل ريدغريف) لكنه يغيّر رأيه في اللحظة الأخيرة ويتوقّف، تاركاً الصبي الوسيم الغنيّ من المدرسة الخاصّة بالموسرين (الدور لـ جيمس فوكس) أن يفوز بدلاً منه. بالنسبة إلى فيرغسون، كان قرار الخسارة عن *سبق إصرار* تصرّفاً أخّاذاً من التّحدّي، إشارةً فاتنة للثورة ضدّ السلطة، وقد أجّجت قلبه الهامد والمليء بالغضب أن تُكتَب تلك الـ *fuck you* الوقحة على الشاشة، فبشتم مدير المدرسة بهذه الطريقة، يكون البطل قد باح برفضه للفساد وللعالم المستَغِلّ الذي مثّله مدير المدرسة، المنظومة البريطانية المقوَّضة بمكافآتها الفارغة وعقوباتها الاستبدادية وحواجزها الطبقية الجائرة، وبفعلٍ كهذا استعاد البطل كرامته وقوّته، *ورجولته*. أشاحت ليندا ببؤبؤي عينيها. كلام لا معنى له، قالت. فبرأيها أن التّخلّي عن السباق كان حركة حمقاء، وأسوأ ما أقدم عليه البطل، من حيث إن الجريَ لمسافة طويلة كان تذكرةَ خروجه من حفرة جحيم المدرسة الإصلاحية، وأما الآن، فسيُلقى به إلى أسفل سافلين مرّة أخرى، ولن

يحظى ببداية جديدة من الصفر، وتساءلتْ، ما المعنى في أنه حقّق انتصاره الأخلاقي، ولكنْ، في الوقت نفسه حطّم حياته؟ وكيف يمكن للإنسان أن يصفه بال*أخّاذ*؟

ليس الأمر أن ليندا كانت على خطأ، قال فيرغسون في سرّه، بل إنها كانت تجادل في ترجيحها المكاسبَ النفعية على الجرأة في المواجهة، وقد ساءه هذا النوع من الجدال، استخدام المنظومة للتّغلّب على المنظومة، اللعب وفق ضوابط، عفا عليها الزمن، لأنه ليس من ضوابط جديدة في المتناول، في حين أنه يتعيّن هدم هذه الضوابط، وإعادة خلقها، ولأن ليندا تؤمن بضوابط عالمهم، فإن عالم ضواحيهم الصغير الذي ينطوي على المضيّ قُدُماً والارتقاء إلى الأعلى والاستقرار في عمل جيّد والزواج من أحد يفكّر بالطريقة ذاتها التي تفكّر بها، شخص يجزّ العشب، ويقود سيّارة جديدة، ويدفع الضرائب، وينجب ولدين أو أربعة، ولا يؤمن إلا بسلطة المال، أدرك فيرغسون كم ستكون عقيمة إطالة النقاش. بكلّ تأكيد، كانت على حقّ. لكنه كانْ أيضاً على حقّ، وفجأة قرّر أنه لم يعد يريدها.

منذ اللحظة فصاعداً، لم تعد ليندا ضمن قائمة المرشّحات للعلاقة، وحيث أن لا مرشّحات أخريات في الأفق، استغرق فيرغسون في التفكير بالنهاية الحزينة والموحِشة لسنة حزينة وموحِشة. لعديد من السنوات التي تلَت تلك السنة، حين أصبح في ذروة رشْده، كان يعود بذاكرته إلى فترة مراهقته تلك، ويقول في سرّه: *منفى في غرفِ البيت.*

كانت والدة فيرغسون قلقة بشأنه. ليس فقط بسبب عدوانيته المتنامية تجاه والده (الذي كفّ عن تبادل الكلام معه إلا نادراً، رافضاً أن يكون المبادر في المحادثات معه، ومُجيباً على أسئلة ستانلي ببرود من كلمة أو كلمتين مستفزّتين)، ليس فقط لأن ابنها واظبَ على رحلاته إلى نيو روتشيل لعشاء نصف شهريّ مع آل فيدرمان (الذين لم يقل شيئاً عنهم بعد عودته إلى البيت، متذرّعاً بأنه محبِط للغاية أن يتحدّث الإنسان عن *أولئك الناس الحزانى والمحطّمين*)، ليس فقط لأنه أقلع عن البيسبول بشكل فجائي دون سبب واضح (محاججاً بأن كرة السّلّة كانت كافية بالنسبة إليه الآن، وأن لعبة البيسبول أصبحت مملّة، وهذا ما لا يمكن أن يكون صحيحاً، كما شعرت روز، بعد أن بدأ الموسم في نيسان، وشاهدتْ كم قرأ باهتمام ترتيب تصنيف اللاعبين في صحيفة الصباح، مُدقِّقاً في الأرقام بالشراهة نفسها التي كان يبديها فيما مضى)، وليس لأن ابنها الذي كان محطّ الأنظار قد بدا الآن أنه بات بلا صديقة، وأنه كان يحضر أقلّ عدد من حفلات نهاية الأسبوع، بل بسبب هذه الأشياء مجتمعة كلّها، وعلى الأخصّ، لأن هناك شيئاً جديداً في عينَي فيرغسون، نظرةَ استبطان وانسلاخاً عن المحيط، لم تكن لديه طيلة السنوات

التي عرفته خلالها، وعلى رأس ما سلف كان قلقها تجاه حالة ابنها من ناحية الصّحّة العاطفية، كان هناك شطر أخبار عليها أن تتشاركه معه، شطر أخبار سيّئة، وبذلك اضطرّهما الأمر لأن يجلسا ويتحدّثا معاً في الأمر.

رتّبت الجلسة على أن تكون يوم الخميس، الذي توافق مع يوم عطلة أنجي بلاي، ومع توقّع عدم عودة أبيه إلى البيت بحدود العاشرة أو العاشرة والنصف، هكذا سيكون هناك متسع من الوقت لتناول عشاء مشترك وجهاً لوجه تليه محادثة طويلة. تراعي روز الاحتراس الشديد بعد العشاء لدى مواجهة فيرغسون ضمن محادثتهما المشتركة بأسئلة متطفّلة عن شؤونه، التي يُحتمَل أن تسبّب له التّحفّظ، فيغادر المائدة، لكن روز أبقتْه بأن أذاعت أوّلاً الخبر العاجل السّيّئ، الخبر المحزن السّيّئ عن والدة إيمي، ليز، التي شُخّصتْ للتّوّ إصابتها بالسرطان الذي سيُنهي حياتها في غضون أشهر، وربّما أسابيع، سرطان البنكرياس، لا أمل، لا علاج، لا شيء سوى الألم والموت المحتوم الذي ينتظرها، في البداية كان من العسير على فيرغسون استيعاب ما تقوله والدته، إذ لم تند عن إيمي لفظة واحدة أمامه عن حالة أمّها، الأمر الذي كان بمجمله غريباً، بما أن إيمي كانت صديقته المقرّبة التي وثقت به في حالات الضّيّق والخوف ومجاهل القلق كلّها، لذلك قبل أن يستطيع فيرغسون البحث في *سرطان البنكرياس*، كان عليه أن يعرف كيف اطّلعت أمّه هذه المعلومات، التي بدا أن ابنة السّيّدة شنايدرمان لا تعلم شيئاً عنها. *أخبرني دان*، قالت والدته، ذلك ما عمّق من تشوّش ابنها، إذ كيف لرجل أن يشارك هذا الخبر مع صديق ما قبل أن يقوله لولده، لكنْ، لم تلبث والدة فيرغسون أن فسّرت أن في نيّة دان إبلاغ ولديه الاثنين في الوقت نفسه، شعوراً منه أن تواجد جيم وإيمي معاً قد يسهم في تخفيف وقع الخبر على نحوٍ أفضل ممّا لو وقع عليهما بشكل إفرادي، ولذلك كان ينتظر قدوم جيم من بوسطن ظهيرةَ الغد قبل أن يتحدّث إلى أيٍّ منهما. أمضت ليز عدّة أيّام في المشفى، استطردت أمّه، لكنْ، كان قد قيل لكلٍّ من الولدين إنها كانت تزور أمّها في شيكاغو.

يا لإيمي المسكينة! قال فيرغسون في سرّه. كانت في صراع مع أمّها لسنوات، والآن وأمّها توشك على الموت، فلن يُكتَب للقضايا العالقة بينهما أن تُحلّ. كم سيكون الأمر قاسياً عليها، أقسى تكيّفاً بكثير من التّكيّف مع شخص كنتَ دائمَ التصالح معه، شخصٍ أحببتَه بلا تحفُّظ، على الأقلّ يمكنكَ في هذه الحالة حفظ ذكرى ذلك الشخص في داخلكَ بشفافية دائمة، بل بسعادة، نوع من السعادة المهيبة والمؤلمة، في حين أن إيمي لن تعود قادرة على تذكّر أمّها دون الشعور بالندم. السّيّدة شنايدرمان، كم هي امرأة مربِكة! كم حضورها غريب بالنسبة إلى فيرغسون منذ التقاها للمرّة الأولى وهو صبي صغير! خليط من ملامح القوّة والضعف الذي شمل فضائل

الذهن النيّر وإدارة الأسرة الناجحة، والآراء الثاقبة فيما يختصّ بالشؤون السياسية (نالت شهادة في التاريخ من جامعة بيمبروك)، والحبّ منقطع النظير لزوجها وولديها، لكنْ، في الوقت نفسه كان ثمّة شيء ما متوتّر ومخيّب ملازم للسّيّدة شنايدرمان، الإحساس بأنها فوّتت عليها ما كان يجب أن تُنجزه في حياتها (مهنة من نوع ما، ربّما، عملاً قد يكون من الأهمّيّة بحيث يجعل منها *شخصاً ذا تأثير*)، ولأنها اكتفت بالعمل الأقلّ رفعة وهو ربّة البيت، بدت مصمّمة على البرهنة للعالم أنها كانت أذكى من أيّ أحد آخر، وتعرف أكثر ممّا يعرفه أيّ أحد آخر، ليس فيما يخصّ بعض الأشياء، بل الأشياء كلها، والحقيقة أنها ألمّتْ بقدر مذهل في مجالٍ واسع من المواضيع، كانت دون ريب الإنسان الأعمق اطّلاعاً الذي التقاه فيرغسون أبداً، غير أن المشكلة مع وجود تشكيلة المرء كليّ العلم المتوتّرة والمخيبة أنكَ تجد من المستحيل تصويب مسار بشر يقولون شيئاً أنتَ موقن بخطئه، الذي حدث مراراً وتكراراً مع السّيّدة شنايدرمان، فقد كانت الشخص الوحيد في المجلس الذي عرف كم مللغراماً من فيتامين (أ) في جزرة من الحجم العادي، كانت الشخص الوحيد الذي عرف كم تصويتاً انتخابياً ناله روزفلت في انتخابات 1936 الرئاسية، كانت الشخص الوحيد الذي عرف فرقَ قوّة الأحصنة بين سيّارتَي الشيفروليه إمبالا 1960 والبيويك سكايلارك 1961، وحتّى لو كانت على حقّ، فقد يبعث على الجنون أن تكون قريباً منها لفترة مهما بلغت من القِصَر، فأولى نقاط ضعف ومسالب السّيّدة شنايدرمان أنها كانت تتحدّث أكثر ممّا يجب، ولطالما تعجّب فيرغسون كيف استطاع زوجها وولداها تحمّل العيش تحت القصف المتواصل لتلك الكلمات كلها، الثرثرة المتواصلة التي فشلت في التمييز بين الشؤون الهامّة والشؤون غير الهامّة، حديث قد يبقى ماثلاً في ذهنكَ، بسبب ذكاء تحليله وتنوّره أو قد يبعث فيكَ السأم حتّى لتوشكَ على الموت بسبب خراقته المطبقة، كما حين كان فيرغسون وإيمي جالسين في مقعد سيّارة عائلة شنايدرمان الخلفي ذات ليلة في الطريق لحضور فيلم وسلختْ السّيّدة شنايدرمان *نصف ساعة*، وهي تصف لزوجها كيف أعادت ترتيب ملابسه في أدراج خزانته، بكلّ أناةٍ أخذت بيديه في كل خطوة خطتْها عبر السلسلة المكتملة للقرارات التي اتّخذتْها، لكي تُنجز نظامها الجديد، لماذا أفردتْ مكاناً محدّداً للقمصان ذات الأكمام الطويلة، كمثال، وللقمصان ذات الأكمام القصيرة مكاناً آخر؟ لماذا توجّب فصل الجوارب السوداء عن الزرقاء، الذي بدوره أوصل إلى ضرورة فصل الجوارب البيضاء التي يلبسها عندما يلعب التنس؟ لماذا توجّب أن توضع قمصانه الداخلية الكثيرة عديمة الأكمام فوقَ وليس تحتَ قمصانه الداخلية التي تتميز بقبّة الـ V؟ لماذا كان يجب أن توضع سراويله الداخلية القصيرة إلى يمين سراويله الداخلية الطويلة وليس إلى يسارها؟ وهكذا استفاضت واستطردت في الحديث، تفصيل خارج

السياق تكوّمَ فوق تفصيل آخر خارج السياق، ومع وصولهم دار السينما، بعد أن عاشوا في أدراج الخزانة لـ نصف ساعة، نصفاً من ساعةٍ من الأربع وعشرين ساعة الثمينة التي يتكوّن منها اليوم الواحد، كانت إيمي تغرز أصابعها في ذراع فيرغسون - غير قادرة على الصراخ، وهكذا تجلّى الصراخ رمزياً بأصابعها المتشبّثة المغروزة. لم يعنِ ذلك أن والدتها كانت أمّاً غير مؤهّلة أو مهملة، قال فيرغسون في سرّه، بأي حال من الأحوال، لقد أبدتْ أكثر ممّا يجب من العناية، أكثر ممّا يجب من الحبّ، امتلكت أكثر ممّا يجب من الإيمان بمستقبل ذهبي لابنتها، والأثر الطريف لتلك الـ *أكثر ممّا يجب*، كما أدرك فيرغسون، تمثّل في أنه أتاح توليد الاستياء نفسه لدـ *أقلّ ممّا يجب*، خصوصاً عندما تكون الـ *أكثر ممّا يجب* بالغة الإحكام، لدرجة أنها تُضبِّبُ الحدود ما بين الوالد والابن، وتصبح ستاراً للتّدخّل الفضوليّ، ولأن أوّل ما نشدته إيمي قبل أي شيء آخر كان أن تحظى بـ *فسحة للتّنفّس*، صُدّتْ بقوّة عندما بدأت تشعر بالاختناق، بسبب تدخّل أمّها الدائم في أبسط مظاهر حياتها - من الأسئلة عن ما كُلّفتْ به من الوظائف المدرسية في البيت إلى المحاضرات عن الطريقة الأكثر صحّة لتنظيف أسنانها، من استجوابات جسّ النبض حول مغازلات أصدقائها في المدرسة إلى انتقاداتها لطريقة تصفيف شَعْرها، من التحذيرات حول مخاطر الكحول إلى المواعظ بالغة الرتابة عن عدم إغواء الفتيان بزيادة أحمر شفاهها. *ستودي بي إلى مشفى الأمراض العقلية*، تقول إيمي لـ فيرغسون، أو: *تظنّ نفسها ضابطَ شرطةِ العقل، ولها الحقّ في الدخول إلى رأسي*، أو: *ربّما عليَّ أن أحبلَ، وبذلك ستجد شيئاً ما حقيقياً يُقلقها*، وردّت إيمي الهجوم باتهام أمّها بالإيمان الأخرق، بأنها تحمله لأجلها حين تدّعي أنها إلى جانبها، ولماذا لا تستطيع تركها على هواها لها كما تركت جيم على هواه؟ وتتناوشان المرّة تلو الأخرى، ولولا أبيها الودود، معتدلِ المزاج - أبيها المحبّ للمرح - الذي لم يألُ جهداً في محاولاته إحلال السلام بينهما، لكانت فورات الغضب الحادّة بين إيمي وأمها ستتصعّد إلى حرب شاملة وطويلة الأمد. المسكينة السّيّدة شنايدرمان. لقد فقدت حبَّ ابنتها لها، لأنها أحبّتها بطريقة تفتقر إلى الحكمة. ثمّ، موغلاً في تلك الفكرة خطوةً أخرى، قال فيرغسون في سرّه: يُرثى لمآل الوالدين اللذين لم يحبّهما أولادهما بعد أن يوارَيا الثرى - ويُرثى لحال أولادهما أيضاً.

مع ذلك، كان من الصعب على فيرغسون أن يفهم لماذا كانت والدته تحدّثه عن مرض السّيّدة شنايدرمان، مرضها القاتل الذي لم يعلم عنه كلٌّ من جيم وإيمي شيئاً حتّى الآن، ومع تلفّظه بالكلمات التي يقولها المرء في لحظة كهذه، *كم مريع! كم ظالمٌ! كم قاسٍ أن تُقصَم حياة المرء وهو في منتصف العمر!* سألَ أمّه لماذا كانت تبوح له بهذا النذير المسبّق؟ ثمّة شيء ما مُدَّعٍ وماكر وراءه، قال، جعله الأمرُ يشعر أنهما يغتابان آل شنايدرمان، لكنْ، لا، أجابت والدته،

ليس كذلك أبداً، إنما كانت تخبره الآن كي لا يُصدَم حين تبلغه إيمي بالخبر، وسيكون مهيَّأً للضربة، فيتلقّاها بهدوء، الذي سيجعل منه صديقاً أقربَ لـ إيمي، التي بدورها ستكون بحاجة إلى صداقته الآن أكثر من أي وقت مضى، والآن أعني الآن بالضبط، لكنني موقنة أن ذلك سيكون لزمن طويل سيأتي. في ذلك شيء من المعنى، افترضَ فيرغسون، لكنْ، ليس الكثير من المعنى، ليس ما يكفي من المعنى على الإطلاق، لأن والدته عادةً ما تكون حسّاسةً حين تتحدّث حول المواقف المعقّدة كهذا الموقف، تساءل إن كان ثمّة ما تُخفيه عنه، بحجبها جزءاً من القصّة حتّى وإن أفشت الأجزاء الأخرى منها، وعلى رأسها الاعتبار الجدير بالتصديق الذي قد يفسّر كلمات *أخبرني دان*، لماذا اختارها دان شنايدرمان ليفضي إليها بنبأ سرطان زوجته في المقام الأوّل؟ نعم، كانا صديقين قديمين، كما يمكن لـ فيرغسون أن يتنبّأ، ليسا مقرّبَين بالطريقة ذاتها التي كان وإيمي قد أصبحا مقرّبين، ومع أن والد إيمي قصد والدة فيرغسون في ساعة شؤمه الأكبر، وأفضى إليها بهمّه، الذي كان تصرّفاً يتطلّب قبل كل شيء المستوى العميق من الثقة المتبادلة، لكنْ، أيضاً النوعَ من الحميمية التي يمكن أن تنشأ بين أقرب المقرّبين من الأصدقاء.

استطردا في حديثهما عن السّيّدة شنايدرمان لدقائق قليلة إضافية، دون أن يعمدا إلى قول ما يسيء إليها، لكن كليهما متفقان على أنها لم تجد النهج الصحيح كي تكسب ابنتها، وأن مشكلتها الكبرى كانت في عدم إدراكها متى *تتراجع* (حسب تعبير روز) أو *تُدير ظهرها وتكفّ عن التّدخّل* (حسب تعبير فيرغسون)، ومن ثمّ، بشكل يكاد تدريجياً، تحوّل شأنُ العلاقة المتوتّرة بين إيمي وأمّها إلى نقاش في العوائق التي تقف بين فيرغسون ووالده، ومع وصولهما إلى هذا الموضوع، وهو المحور الذي كانت روز منذ البداية تدفع الحديث باتّجاهه، باغتت ابنها بأن طرحت عليه سؤالاً حاداًّ غير متوقّع بفظاظته - *قلْ لي، يا آرتشي، لماذا انقلبتَ ضدّ أبيكَ؟*- الذي أربكه أيّما إرباك، لدرجة أنه لم يسعفه الوقت لأن يبتكر جواباً ملفَّقاً. ثمّ، وقد بات مكشوفاً وأعزلَ وفاقداً الإرادة في أن يتملّص من الحقيقة أكثر من ذلك، أفشى من دون تفكير بكل الأمر ضئيل الأهمّيّة المتعلّق بالنسخة المفقودة من الـ Sole Mates وكم كانت النار تعتمل فيه إذ انصرمت ستّة أشهر تقريباً، ورغم ذلك لم يقلْ له والده كلمة بهذا الشأن.

إنه مُحرَج للغاية، قالت والدته.

مُحرَج؟ أيّ نوع من الأعذار هذا؟ إنه رجل، أليس رجلاً؟ كلّ ما عليه أن يفعله هو الجهر بسؤالي ماذا حدث.

لماذا لا تسأله؟

ليس شغلي أن أسأله. إنه شغله هو أن يخبرني.

تزيد قسوتكَ إلى أبعد الحدود، أليس كذلك؟

هو القاسي، وليس أنا، هو قاسٍ للغاية ومُنطوٍ على نفسه حتّى إنه جعل من عائلته كابوساً.
آرتشي ...

حسناً، ربّما ليس كابوساً. منطقة منكوبة. وذلك البيت - العيش فيه كالعيش في إحدى مجمِّدات الأب العميقة اللعينة.

أذلك ما يعنيه البيت لكَ؟

باردٌ، يا ماما، بارد للغاية، خصوصاً ما بينك وبينه، وأتمنّى من صميم الجحيم لو أنكِ لم تسمحي له بإقناعكِ بإغلاق الاستوديو الخاصّ بكِ. كان عليكِ التقاط الصور، وليس تبديد وقتكِ على الجسر.

مهما تكن المشاكل التي يمرّ بها والدكَ وأنا، فإنها تبقى بعيدة كلّ البعد عن ما يحدث بينكَ *أنتَ* وبين والدك. عليه أن تمنحه فرصة أخرى، يا آرتشي.

لا أظنّ ذلك.

حسناً، أعرف أن ذلك سيحصل، وإذا صعدتَ معي إلى الطابق الثاني، سأُبرهن لكَ لماذا.

بذلك المطلب الغامض، نهض فيرغسون ووالدته عن الطاولة، وغادرا غرفة الطعام، وبما أن فيرغسون لم يكن يدري إلى أين كانت تنوي أمّه الذهاب، تبعَها، وصعدا الدرجات إلى الطابق الثاني، انعطفا إلى اليسار، ودخلا غرفة نوم والديه، الغرفة التي قلّما كان يدخلها في الآونة الأخيرة، وراقب أمّه وهي تفتح باب الخزانة، حيث كان أبوه يحتفظ بملابسه، غابت في داخلها، وظهرت من جديد بعد لحظات وهي تمسك بعلبة كرتونية كبيرة بين ذراعيها، حملتها إلى وسط الغرفة، ووضعتها على السرير.

افتحْها، قالت بلهجة آمرة.

ثنى فيرغسون طيّات الغطاء، ولحظةَ تمكّن من رؤية ما احتوته العلبة، أحسّ بالارتباك، لدرجة أنه لم يدرِ إذا كان عليه أن ينفجر بالضحك أو يزحف تحت السرير من فرط الخجل.

كان هناك ثلاث رزمٍ من الكرّاسات رُصّتْ بعناية في داخلها، يبلغ عددها الإجماليّ السّتّين أو السبعين، كرّاسات مدبَّسة بخرزات، جمعتْ ثمان وأربعين صفحة، وكلّ منها ضمن غلاف أبيض مع هذه الكلمات التالية المطبوعة على وجه الكراسة بأحرف سوداء عريضة:

شريكا الروح (Soul Mates)

تأليف: آرتشي فيرغسون

حين أمسك فيرغسون بإحدى الكرّاسات، ومضى يقلّب الصفحات، مذهولاً أن كلمات قصّته تردّ نظراته إليها بأحرف طباعية ذات القياس 11، قالت والدته: أراد أن يفاجئكَ، لكن المنضّدَ أتلف العمل، إذ أخطأ تهجئة العنوان، وشعر والدكَ بالانزعاج من جرّاء ذلك، بأنه من الغباء بمكان عدم التدقيق، كي يتأكّد من أن كل شيء قد أُنجِز على أكمل وجه، ولم يستطع المبادرة إلى إخبارِك بالأمر.

كان عليه أن يخبرني، قال فيرغسون، متحدّثاً بصوت خفيض للغاية حتّى إن أمّه بالكاد سمعتْه. مَن يبالي بالعنوان؟

إنه فخور بكَ، يا آرتشي، قالت والدته. هو فقط لا يعرف ماذا عليه أن يقول أو كيف يقول ذلك. إنه رجل لم يتعلّم قطّ كيف يتكلّم.

ما لم يعلم به فيرغسون حينذاك، وما بقي مجهولاً لديه إلى أن باحت به والدته بعد سبع سنوات، أنها ودان شنايدرمان كانا يقيمان علاقة في السّرّ للثمانية عشر شهراً الماضية. فالليلتان أو الليالي الثلاث الأسبوعية على الجسر كانت في واقع الأمر ليلةً واحدة، وليالي البوكر لدى دان مع ليالي البولينغ لم تعد مخصّصة للبوكر أو البولينغ، وأن زواج والدَي فيرغسون لم يكن التمثيلية المصطنعة الجليدية الخالية من الأحاسيس التي اتّصف بها وحسب، بل كان ميتاً، أكثر مواتاً من الجثّة الأكثر تموّتاً في مشرحة المقاطعة، وإن استمرّا بالبقاء معاً في زواجهما التافه، فلأن الطلاق كان يُنظَر إليه كأمرٍ مُخزٍ في ذلك الشطر من العالم، إذ كان لزاماً عليهما صون ابنهما من وصمة أنه تحدّر من *أسرة محطَّمة*، الذي كان بشتّى المعاني أسوأ من أن يكون ابنَ مختلِسٍ أو بائع مكانس كهربائية يطرق الباب تلو الباب. كان الطلاق لنجوم السينما والأغنياء الذين يعيشون في منازل نيويورك الفخمة، ويقضون الصيف في الجنوب الفرنسي، وأما ضمن ضواحي نيوجرسي في الخمسينيات ومطلع السّتّينيّات، فكان على الزوجين قضاء العمر معاً، الذي كان ما ينوي أهل فيرغسون فعله ريثما يتخرّج ابنهما الذي أنجباه في الثانوية، ويغادر ميبلوود إلى الأبد، وهي العتبة التي سيسمّيانها إبراء الذمة والذهاب كلٌّ في طريق، ومن المستحسن أن يمضيا إلى بلدتين مختلفتين، تفصل ما بينهما أبعد ما أمكن من مسافة عن ميبلوود. في تلك الأثناء، كان والده قد بدأ يمضي لياليه في غرفة الضيوف، ربّما لأن شخيره بات أعلى من ذي قبل حتّى

إن والدة فيرغسون كانت تجد صعوبة في الاستسلام للنوم، ولم يحدث لمرّة واحدة أن ساور الشّكّ فيرغسون في أن والديه لا يقولان الحقيقة.

كان والد فيرغسون الوحيدَ الذي عرف عن علاقة روز بـ دان شنايدرمان، وكانت والدة فيرغسون الوحيدة التي عرفت أن ستانلي قد ارتبط بعلاقة صداقة مع أرملة من ليفينغستون تُدعى إيثيل بلومنثال. كان كبيرا العمر يتقافزان مَرَحاً بتهوّر أبناء الخامسة عشرة وطيشهم، لكنهما استغرقا في الأمر بنوع من السّرّيّة والتّعقّل، لدرجة أن لا أحد في ميبلوود أو أي مكان آخر ساوره أدنى شكّ عن ما كانا يقومان به. لم تدرِ بذلك ليز شنايدرمان، لا جيم أو إيمي، لا جَدّا فيرغسون، لا الخالة ميلدرد أو العمّ 'دون'، ولا فيرغسون نفسه - رغم أن كلمَتَي *دان أخبرني*، التي قالتها والدته في تلك الليلة عقب العشاء قد فتحت الباب مسافةَ بوصة أو اثنتين، دون أن يكون ذلك كافياً بالنسبة إليه لأن يرى ما في داخل الحجرة وراء ذلك الباب، إذ كانت الظلمة لا تزال مهيمنة، ولم يعرف كيف يجد مفتاح الضوء.

لم يكن والداه عنيفَين، ولم يبغض أحدهما الآخر، ولم يتمنَّ أيٌّ منهما المرض للآخَر، وفي الوقت الراهن كانا يحاولان التّكيّف مع الوضع المرير بالمحافظة على الزيارات المشتركة. كانت ثمانية عشر عاماً قد انسحقت وآلتْ ملءَ كشتبان من الغبار، رفاتاً ناعماً، ليس أثقل من رماد لفافة واحدة محترقة، ولكنْ، بقي شيء واحد رغم ذلك، التماسك غير المزعزَع حيال رفاه ابنهما، ومن أجل ذلك الغرض، كانت روز تبذل قصارى جهدها لترأبَ الصدعَ الذي تنامى بين ستانلي وآرتشي، فرغم أن ستانلي كان أقلّ من أن يكون أباً مقبولاً، إلا أنه لم يكن الوغدَ الذي تخيّلَ فيرغسون أنه سيكونه، وبعد زمن طويل من تشتّت أسرتهم الصغيرة، سيستمرّ ستانلي في أن يكون أباً لـ فيرغسون، ولن يشكّل ذلك جدوى تُذكَر في مسيرة آرتشي البقيةَ الباقية من حياته التي سيعيشها مثقلاً بالنقمة عليه. لحسن الحظّ، كان هناك تلك الكرّاسات غير المتقنة. تلك المحاولة المثيرة للشفقة في استخدام براعته للتّزلّف إلى ابنه، الذي، بالتأكيد، لم يكن يعرف عنه شيئاً تقريباً، وكم كان ستانلي خاملاً عندما طُبعت الكرّاسات حاملةً الخطأ (لماذا لم يعد إلى المنضّد، ليعيد إنجازها من جديد؟)، لكنها على الأقلّ كانت شيئاً ما، على الأقلّ نمّت عن شيء ما، ولسوف يأخذ آرتشي ذلك بالاعتبار كلّما فكّر بأبيه في الشهور والسنين التي ستأتي.

كان ثمّة ما يشي بأن دانيال شنايدرمان قد وقع في غرام روز في 1941، بعد الأيّام التي تلت بداية عملها في استوديو والده الكائن غربيَّ الشارع السابع والعشرين، غير أن روز كانت مخطوبة لـ ديفيد راسكين في ذلك الوقت، وحين قُتل راسكين في فورت بينينغ أواسطَ شهر آب الذي حلّ بعد عملها، كان شنايدرمان قد صار خطيبَ إليزابيت مايكلز، ويستعدّ للالتحاق بالجيش

هو الآخر. كما اعترف لروز بعد سنوات، كان سيفسخ تلك الخطبة لو داخَلَه أنه سيحصل حتّى على أدنى أمل منها، لكن روز كانت في فترة الحداد آنذاك، معزولة عن العالم في حجرة ظلماء من مواتٍ ويأس، غير واثقة من أنها كانت تريد أن تستمرّ في الحياة أو أن تموت، وكان آخر ما يخطر لها هو أن تضع نفسها مرّة أخرى قيد التداول على الألسن، إذ لا مصلحة لها في لقاء رجال آخرين أو الوقوع في حبّ رجل آخر، وعلى الأخصّ الرجل الذي يوشك على الزواج من امرأة أخرى، ولذلك لم يحدث شيء، أي أن دان تزوّج ليز، روز تزوّجت ستانلي، ولم تعلم روز أبداً أن دان كان يتمنّى في سرّه لو أنها تزوّجته.

كان فيرغسون على علم بالعلاقة، لكنْ، دون تفاصيل محدّدة تتعلّق بها - كيف بدأت؟ أين تلاقيا في المساءات التي أمضياها معاً؟ ماذا كانا يخطّطان أو لا يخطّطان للمستقبل - سوى أنها بدأت بعد يومين من تولّي كينيدي الرئاسة، وأن أمّه دخلتها بضمير صافٍ، لأن زواجها من أبيه كان قد انتهى بطبيعة الحال؟ كان هناك قرار متبادَل تمّ التّوصّل إليه قبل ستّة أشهر، حرّر كليهما من العهود التي اتفقا عليها في 1944، وواقع أنه لم يبقَ ثمّة ما يُناقش بينهما إلا شكليات الطلاق القادم، وما الذي يجب أن يقال لـ آرتشي حول انتقال ستانلي إلى فراش آخر. كان دان في وضع أكثر إحراجاً، لكنه، إذ لم يحدث بينه وبين ليز ذلك النوع من مناقشة إعلان الاستسلام، وأنهما لا يزالان زوجين، سيبقيان زوجين على الدوام، كما خشيَ، لأنه لم يمتلك الجرأة على التّخلّي عنها بعد عقدين من الرباط الزوجي الصارم، والمكابر، لكنْ، ليس ذلك البائس بمجمله، وعلى عكس والدة فيرغسون، تحمّل جيم وإيمي حرَجَ خياناته الداعرة. ثمّ جاء حرجٌ آخر، حرجهما معاً الآن، حرج سرطان ليز الآكل والمتلف للأمعاء، فكم مرّة فكّر كلّ منهما بحياة أكثر سعادة كانا سيحظيان بها معاً لو لم يكن دان زوجاً لـ ليز، والآن توشك الآلهة على إزاحة ليز من الحكاية، والشيء المستحبّ الذي تشكّلَ حلمُ يقظتهما حوله دون أن يجرآ على التعبير عنه علانيةً قد انقلب إلى شيء بالغ السوء، أسوأ ما يمكن لكل منهما أن يتخيّل، فكيف لم يشعرا بأن أفكارهما كانت تدفع بتلك المرأة المنحوسة المحتضرة إلى قبرها؟

كان ذلك كلّ ما توصّل إليه فيرغسون ابن الخامسة عشر في ذلك الحين - أن مصير السّيّدة شنايدرمان هو الموت - وعندما اتّصلت به إيمي ليلة الأحد، بعد ثلاثة أيّام من تحذير أمّه له للكارثة التي توشك أن تحيق بأولاد شنايدرمان، كان مهيّأً لدموع إيمي ومؤهّلاً لقول بعض العبارات الشافية كاستجابة للأشياء المتنافرة التي كانت تسردها له على الهاتف، زيارات المشفى يومَي السبت والأحد، حيث كانت والدتها ممدّدة في غيبوبة من التّفكّك والاضطراب الناجمَين عن المورفين، ثمّ نوبة ألم يليها ألم أخفّ، ثمّ ألم متعاظم مرفق بتراجع بطيء ينزح باتّجاه منطقة النوم،

وجهها الآن أعجف وشاحب، *كأنها لم تعد هي نفسها*، ممدّدة وحيدة في الفراش بينما تمضي أحشاؤها البالية المضطرمة في الاشتغال على قتلها، ولماذا كذب والدها بهذا الشأن؟ قالت وهي تئنّ، لماذا أخفى الأمر عنها وعن جيم بتلك القصّة الغبية عن الذهاب إلى شيكاغو، لكي تكون مع جدتي 'لِيْلْ'؟ كم شنيعٌ منه أن يفعل ذلك! وكم شنيع أنها كانت تفكّر بشراء *طلاء شفاه أسود*، لكي تصدم أمّها لحظةَ كانت أمّها تُنقَل إلى المشفى! بسبب ذلك تشعر ببالغ الحزن الآن، بالغ الحزن لأشياء كثيرة، وفعل فيرغسون ما بوسعه ليهدّئها، قائلاً إن والدها قد فعل الصواب بانتظاره عودة جيم من الجامعة، وبذلك يستطيع نقل الخبر إليهما معاً، ولتبقي في البال أنه، فيرغسون، سيكون إلى جانبها دائماً، وحين تحتاج كتفاً تبكي عليه، فإنه يريدها أن تفكّر بالاعتماد على كتفه قبل أي أحد آخر.

صمدت السّيّدة شنايدرمان لأربعة أسابيع أخرى، وفي أواخر حزيران، والسنة الدراسية توشك على نهايتها، حضر فيرغسون المأتم الثاني في الأحد عشر شهراً الماضية، كان أهدأ وأصغر شأناً من مراسم التشييع الهائلة التي أُقيمت لـ آرتي فيدرمان، لا فورات عويل أو نحيب عصية عن السيطرة هذه المرّة، بل بدلاً من ذلك حلّ السكون والصدمة، ووداع مكتوم للمرأة التي ماتت صبيحة عيد ميلادها الثاني والأربعين، وبينما كان فيرغسون يصغي إلى الحاخام برينتز يتلو الصلوات المعتادة، ويتلفّظ بالكلمات المعتادة، جال بنظره في المكان، ورأى أن القلائل ممّنْ ترقرقت الدموع في أعينهم هم فقط الذين لم يكونوا من الأقارب اللصيقين بعائلة شنايدرمان، من بينهم والدته، التي بكت طوال الصلاة، بل حتّى جيم لم يكن يبكي، إنما اكتفى بالجلوس ممسكاً بيد إيمي، ومطرقاً بنظراته إلى الأرض، وبعد قليل، في الفترة الفاصلة بين الصلاة ومسير الموكب إلى المقبرة، تأثّر بمرأى والدته الباكية وهي تُلقي بذراعيها حول دان شنايدرمان الباكي، وتشدّه إليها بمعانقة طويلة قوية، متفهّماً بعض الشيء الدلالة الكاملة لتلك المعانقة أو لماذا شدّ كلّ منهما الآخر طويلاً، ومن ثمّ كان يُلقي بذراعيه حول إيمي الباكية متورّمة العينين، التي أجهشت على كتفه ما لا يُعدّ من المرّات في الشهر الفائت، ولأنه شعر بالأسى تجاهها، ولأن إحساساً عذباً داخَلَه حين احتوى جسدها بين ذراعيه، قرّر فيرغسون أنه ينبغي ويجب وبمنتهى السرعة اللازمة أنه سيقع في حبّها. كانت حالتها زرية للغاية في هذه الآونة، وتحتاج شيئاً آخر أكثر من صداقتها له، شيئاً أكثر من روتين *آرتشي* - و- *إيمي*' القديم الذي أحسنا أداءه على مدى سنوات، لكنْ، لم تسنح الفرصة لـ فيرغسون بأن يبوح لها بالتّغيّر الفجائي في قلبه، فقد كانت المرّة الأخيرة التي رأى فيها إيمي خلال الشهرين التاليين. بعد يوم مأتم والدتها، سمح لها والدها بالتّغيّب من المدرسة للأيّام الأربعة الأخيرة من الفصل الدراسي نصف السنوي، وفي

اليوم الخامس، الذي كان يوم تخرّج صفّهما في ثانوية ميبلوود، قام الثلاثة من آل شنايدرمان برحلة إلى إنكلترة وفرنسا وإيطاليا، التي رأتْ والدته أنها فكرة صائبة، أفضل دواء لعائلة عانت وذاقت الأمرَّين.

كان والد فيرغسون ملتزماً بإنجاز عمل في صباح تخرّجه، وهكذا حضرت والدته الحفل بمفردها. بعد ذلك، ركبا السّيّارة باتّجاه ساوث أورانج فيلج، وتوقّفا للغداء في غرانينغز، مكان العديد من أصناف الهامبرغر اللذيذة في السنوات التي سبقت تدمير نادي الوادي الأزرق الريفي لطقوس يوم الأحد، ولبضع دقائق بعد عثورهما على طاولة في القسم الخلفي، تحدّثا عن خطط فيرغسون الصيفية، التي تضمّنت عملاً في متجر والده في ليفينغستون (وظيفة من وظائف الحدّ الأدنى للأجور، متعدّدة المهامّ، تتطلّب منه القيام بأشغال مسح الأرضيات، ورَشّ منظّف الزجاج على شاشات التلفاز في صالة العروض، تنظيف البرّادات وبقية التجهيزات المُعدّة للعرض، وتركيب مكيّفات الهواء مع الموزِّع جو بنتلي)، مباراتَي كرة سلّة أسبوعياً ضمن دوري تويلايت ميبلوود - ساوث أورانج، وما أمكنه من ساعات يقضيها في مكتبه: وقد خطرت له أفكار لقصّتين قصيرتين جديدتين، وكان يأمل بإنجازهما قبل أن تبدأ المدرسة. دون التّطرّق إلى الكُتُب، بالتأكيد، هذه الرزَم من الكُتُب كلّها التي كان يريد قراءتها، ومن ثمّ، فيما يتبقّى من الوقت، سيكتب إلى إيمي ما استطاع من الرسائل، وسيأمل أن تكون في الأماكن التي سيرسلها إلى عناوينها.

أصغتْ أمّه، أومأت أمّه برأسها، ابتسمت أمّه تلك الابتسامة الباردة والعميقة، وقبل أن يستطيع فيرغسون التفكير بما يضيفه، قاطعتْه قائلة: أبوكَ وأنا قيد الانفصال، يا آرتشي.

كان فيرغسون يريد التّأكّد من أنه سمعها بشكل دقيق، لذلك أعاد الكلمات على أسماعها: الانفصال. كما في *الطلاق*؟

هذا صحيح. كما في *لأمد طويل، كان من حسن الحظّ أني عرفتكَ*(*).

ومتى قرّرتما ذلك؟

منذ عهود. كنّا نخطط للانتظار حتّى تذهب إلى الجامعة، أو أي مكان تريد الذهاب إليه بعد أن تنهي المرحلة الثانوية، لكن ثلاث سنوات تشكّل زمناً طويلاً، وما فائدة الانتظار؟ ما دمتَ موافقاً، بالطبع.

أنا؟ وما علاقتي بذلك؟

---

*) أُغنيّة لـ وودي غوثري.

الناس سيُثرثرون. الناس سيُشيرون بأصابعهم. لا أريدكَ أن تشعر بالانزعاج.

لا يعنيني ما يفكّر به الناس. هذا ليس شأناً يخصّهم.

إذاً؟

بالسُّبُل كلها. مهما تكن السُّبُل. بما أني مَعنيٌّ، أعدّه أفضل خبر سمعتُه منذ زمن بعيد.

أتعني ما تقول؟

طبعاً أعنيه. لا مزيد من الأكاذيب، لا مزيد من الادّعاء. فليبدأ الآن عهد الصدق!

مضى الوقت، ومرّة بعد المرّة خلال الأشهر التي تلت، كان فيرغسون يتوقّف، يلقي نظرة متأنّية إلى الأشياء من حوله، ويقول في سرّه إن الحياة في طور التّحسّن. ليس لأنه انتهى من المرحلة الثانوية الأولى، الذي يعني أن لا شيء أبداً ممّا سيكتبه ستقرّر السّيّدة بولدوين مدى صلاحيته مرّة أخرى، بل إن وضع حدّ لزواج والديه بدا أنه فضلاً عن ذلك يضع حدّاً لأشياء أخرى، وحيث إن الأمور الروتينية القديمة المتوقَّعة لم تعد موجودة، كان من الصعب معرفة ما سيحدث بين يوم وضحاه. استمتع بإحساس عدم الاستقرار الجديد ذلك. ربّما كانت الأشياء في مجراها، مالت أحياناً إلى الفوضى المطبقة، لكنْ، قلّما كانت ثقيلة الوطأة.

في الوقت الحالي، قرّر ووالدته الاستمرار بالعيش في منزل ميبلوود الكبير. كان والده قد استأجر بيتاً أصغر في ليفينغستون، غير بعيد عن بيت صديقته السّيّدة إيثيل بلومينثال، التي كانت لا تزال طَيّ الكتمان في تلك الأثناء، وبذلك مجهولة لدى فيرغسون، لكن النّيّة على المدى الطويل انعقدت على بيع المنزل الكبير في غضون عدد محدّد من الأشهر التي تلي استكمال إجراءات الطلاق، وينتقل كلّ من والديه إلى مكان مختلف. مضى الأمر دون التّطرّق إلى أن فيرغسون سيستمرّ بالسَّكَن مع والدته. سيكون حرّاً في أن يلتقي والده متى أراد، ولكنْ، إذا انتهى به الأمر إلى أنه لا يريد لقاء أبيه، عندئذٍ سيكون للأب الحقّ في رؤيته على العشاء مرّتين في الشهر. وذلك كان الحدّ الأدنى. ولم يكن هناك من حدّ أعلى. وقد بدا أنه اتّفاق عادل، وتبادل الجميع المصافحة لدى المصادقة عليه.

كان والده يحرّر شيكاً شهرياً لوالدته لقاء ما وُصف بـ *مصاريف متنوّعة وتكاليف معيشة أساسية*، كان لكل منهما محامٍ، والانفصال السِّلْمي الذي كان يُفترض أن يُختَم في غضون أسابيع امتدّ لأشهر مرفقاً بأقلّ قدر من المنازعات السِّلْمية المتعلّقة بدفعات النفقة المالية للزوجة المطلّقة، واقتسام الملكية المشتركة، والموعد النهائي لإدراج المنزل في سوق بيع العقارات.

من وجهة نظر فيرغسون، بدا أن أباه هو مَن كان يعيق تقدّم سير القضية، فثمّة شيء لاإراديّ، لكنه نشِطٌ في داخله كان يقاوم الطلاق، مع أنه شعر بالخيبة تجاه الجانب الذي يخصّ والدته (التي كانت تريد إنهاء الأمر وفضّه بأقصى ما أمكن من سرعة)، وفي الأيّام الأولى من مشاحنات والديه، شعر فيرغسون بأن عرقلة أبيه المتعَمّدة للإجراءات قد أثلجت صدره بطريقة غريبة، كأنما أوحت بأن نذير المكاسب تمكّن من التّغلّب على المشاعر البشرية السوية رغم كلّ شيء، الذي لم يكن جلياً لابنه على مدى سنوات عديدة، وسواء كان ذلك لأن حبّاً راسخاً لم يزل يستوطن ستانلي فيرغسون تجاه المرأة التي تزوّجها طيلةَ ما يقرب عقدين مضيا (السبب العاطفي) أو لأن خزيَ الطلاق قد رمَزَ بنظر الآخرين إلى الإخفاق والإذلال (السبب الاجتماعي) أو ببساطة لأنه كان يرفض بشدّة رؤية والدة فيرغسون وهي تغادره بنصف أموال مبيعات متجره (السبب الماليّ) فإنها تبقى أقلّ أهمّيّة من حقيقة أنه كان يشعر بشيء *ما*، ورغم أنه، في نهاية الأمر، تنازل ووقّع وثيقة الطلاق في كانون الأوّل بعد أن صرّحت والدة فيرغسون بأن في نيّتها التّخلّي عن حصّتها من المنزل، فإن ذلك لم يعنِ أنه كان للمال وحده الكلمة الفصل، بما لمسه فيرغسون من أن السببين العاطفي والاجتماعي كانا الباعث الحقيقي للخلاف، وأما الحَجْر على المال، فكان مجرّد محاولة للحفاظ على ماء الوجه.

وفي الوقت نفسه، فإن استخدام هذا المال كوسيلة للضغط في المفاوضات صدمتْ فيرغسون بما هي سلوك لا يُغتفَر. كان المنزل أكبر الأصول التي امتلكها والداه بشكل مشترك، المنزل الكبير الذي طالما كرهه فيرغسون، منزل المزارع الكبيرة بمعماره التيودوريّ المترف الذي لن يريد أبداً الانتقال إليه في المقام الأوّل، وبحرمان مَن ستصبح زوجتَه السابقة من حصّتها من عائدات الأصول الأعلى قيمة، كان والد فيرغسون في واقع الأمر يُفقِرُ والدته، إلى درجة يستحيل عليها شراء بيت، يكون ملكاً لها، وهكذا يودي بها *وبابنه هو* إلى حياةِ شُحٍّ ضمن شقّة رخيصة ضيّقة في مكان ما قرب خطّ السّكّة الحديدية. كان يعاقبها لأنها لم تعد تحبّه، وحقيقةُ أن والدة فيرغسون قد وافقت على شرط مجحف كهذا إنما برهنت كم كانت مستميتة للتّحرّر من الزواج، حتّى لو عمد إلى تدميرها مالياً، ولذلك تابَعَ والد فيرغسون الضربَ بمطرقةِ مطلبه الجائر، ولن يتنازل. إن كان هناك من أملٍ في نصّ الاتّفاقيّة النهائي، فإنه يتجلّى بعدم الإلزام بإدراج البيت في سوق العقارات قبل مضي سنتين من التاريخ الذي يُعدّ فيه الطلاق نافذاً، الذي قد يغطّي ما يزيد أو يقلّ عن السنوات الثلاث المتبقّية لدى فيرغسون لإنهاء الثانوية، مع ذلك، بعد محاولته منح والده فرصة إثبات حسن نواياه منذ الشّكّ الذي لحق به في مسألة Sole- Soul المؤسفة وغير المتوقَّعة، بعد أن بذل جهده في أن يعامل والده بتحبّب واحترام على امتداد الصيف

الطويل، المضجر من العمل في متجر ليفينغستون، انقلب فيرغسون ضدّه الآن بشيء يقترب من الكراهية، وقرّر ألا يقبل بنساً واحداً من أبيه فيما تبقّى له من حياة، ليس من أجل مصاريفه، ليس من أجل الملابس أو السّيّارة المستعملة، ليس من أجل محاضرات الجامعة، ليس من أجل أي شيء آخر بعد الآن، وحتّى بعد أن يصبح فيرغسون رجلاً مكتملاً، ويفشل في نشر كتاب من كُتُبه، ويعيش مثل سكّير عاطل في الدرك الأدنى من مأوى مشرّدي مانهاتن، فسيرفض أن يُرخي من إحكام قبضته حين يحاول أبوه أن يدسّ قطعة الخمسين سنتاً في يده، وأخيراً حين يغادر العجوزُ هذا العالمَ، ويرث عنه فيرغسون ثمانين مليون دولار وملكية مخازن تضمّ أربعمائة وثلاث وسبعين من الآلات الكهربائية المنزلية، فإنه سيُغلق المخازن، ويوزّع الأموال بشكل عادل بين المتشرّدين الذين عرفهم خلال الأيّام التي عاشها كرجلٍ مَنسيٍّ على أرصفة الطُّرُق الخلفية.

ومع ذلك، كانت الحياة تسير نحو الأفضل، حين انتقل أبوه من البيت في الثاني من تمّوز، دُهش فيرغسون للسرعة التي تكيّفت بها والدته مع أوضاعهم الجديدة. فجأةً بات كلّ شيء مختلفاً، وأرغمها تقييد المصاريف الشهرية على استبعاد معظم وسائل الراحة والكماليات التي جاءت لكونها متزوّجة من رجل يملك المال: خدمات أنجي بلاي مثلاً (التي كانت تريحها من الأعمال المنزلية الداخلية المتعبة مثل الطبخ وتنظيف المنزل)، استبدال نادي الوادي الأزرق الريفي بنادٍ آخر (لم يعد ممكناً تحت وطأة الظروف، التي وضعتْ حدّاً للاستمتاع بالغولف بشكل مفاجئ)، لكن الأهمّ من ذلك كلّه الإنفاق السهل والمجّاني على الألبسة والأحذية، مواعيد قصّ الشَّعْر لمرّتين في الأسبوع، العناية بما يتعلّق بالأقدام وجلسات التدليك، الأساور والأطواق التي كانت تُشترى باندفاع، ثمّ قلّما تُلبَس بعد ذلك، كل زخارف ما يسمّى بالحياة الهانئة التي كانت تسيّرها في السنوات العشر الماضية والتي أقلعت عنها - أو هكذا بدا لـ فيرغسون - دون أسفٍ للحظة واحدة. أمضت الصيف الذي سبق انفصالَ الطلاق تعمل في الحديقة الخلفية، وتهتمّ بشؤون المنزل، وتطهو الطعام في المطبخ، تطهو بسرعة إعصار في المطبخ، الذي نتج عنه وجبات عشاء عامرة ولذيذة لابنها بعد عودته إلى البيت من الشغل، ذلك أنه أمضى الشطر الأجمل من أيّامه في متجر أبيه وهو يفكّر بما ستقدّمه له أمّه من طعام في البيت تلك الليلة. قلّما كانت تخرج من البيت، وقلّما كانت تتحدّث هاتفياً مع أحد، باستثناء والدتها في نيويورك، لكنْ، كانت هناك زيارات عديدة قامت بها صديقتها نانسي سولومون، رفيقتها المخلصة منذ طفولتها المبكّرة، التي بدأت تذكّر فيرغسون بأحد أولئك الجيران في تمثيلية هزلية تلفزيونية، عن الزوجة ذات المظهر الفكاهي التي كانت جاهزة على الدوام لأن تُطبقَ على الجيران بزيارتها لشرب القهوة والثرثرة الطويلة، وبعد أن يصعد فيرغسون إلى الطابق الثاني ليقرأ أو يعمل على قصّته

الجديدة أو يكتب رسالة جديدة إلى إيمي، لم يكن يُدخِل إليه السرور أكثر من سماعه المرأتين تضحكان في المطبخ تحت غرفته. أمّه تعود إلى الضحك. الدائرتان الداكنتان تحت عينيها تزولان شيئاً فشيئاً بشكل تلقائي، ورويداً رويداً بدأت تشبه ذاتها القديمة - أو ربّما ذاتها الجديدة، إذ إن القديمة قد تلاشت منذ زمن بعيد للغاية حتّى إن فيرغسون بالكاد يستطيع أن يتذكّرها.

عاد دان شنايدرمان وولداه من أوروبا في نهاية آب. خلال الاثنين وستين يوماً التي مضت على مغادرتهم، كتب فيرغسون لـ إيمي أربع عشرة رسالة، نصفها وجد السبيل إلى عنوانها الصحيح في الوقت الصحيح، بينما استمرّ النصف الآخر في اضمحلاله بوسمِ *غير مطلوب* في مكاتب بريد مختلفة للأميريكان إكسبرس في إيطاليا وفرنسا. لم يجرؤ على التّحدّث في الحبّ في تلك الرسائل، إذ سيكون من الوقاحة والإجحاف منه أن يُحرجها، بأن يطرح عليها سؤالاً لن تستطيع الإجابة عليه بحضوره، لكن الرسائل كانت تحفل بالتصريحات المؤثّرة، وأحياناً عالية المشاعر عن الصداقة الأبدية، وأخبرها مراراً وتكراراً أنه افتقدها، أنه اشتاق لرؤيتها من جديد، وأن العالم الصغير الذي يعيش فيه كان مكاناً خاوياً بشكل غير معهود، لأنها لم تكن فيه. من جهتها، ردّت إيمي بخمس رسائل وإحدى عشرة بطاقة بريدية، وصلت جميعاً دون تلف أو ضياع إلى نيوجيرسي، وفي حين أن البطاقات التي جاءت من لندن وباريس وفلورنسا وروما كان لا بدّ أن تكون قصيرة (ومثقّبة بعلامات التّعجّب!!)، كانت الرسائل طويلة، وغالباً ما وصفتْ كيف أنها عاشت في طور التّكيّف مع وفاة والدتها، الذي بدا أنه اختلف من يوم إلى يوم، بل أحياناً من ساعة إلى ساعة، بحلول لحظات معتدلة، لحظات مؤلمة، ولحظات غريبة طيبة بكلّيّتها عندما لا تتذكّر أمر الوفاة إطلاقاً، ولكنها كلّما تذكّرت أمّها صعُبَ عليها ألا تشعر بالذنب، كما كتبتْ، ذلك الشيء الذي كان أكثر عسراً من أن تستطيع تقبّله، الذنب الذي لا ينتهي، لأن جزءاً منها وعى حقيقةَ أنها ستكون في حال أفضل بعيدة دون تدخّل أمّها في حياتها، وأن اعترافها بهذا الشعور *إنما هو اعتراف مريعٌ بحقارتها هي*. ردَّ فيرغسون على تلك الرسالة المحبطة بما فيها من جَلْد الذات بأخبار إضافية عن انفصال والديه والطلاق الوشيك، مؤكِّداً لها بأنه ليس سعيداً وحسب لما سيحدث، بل إنه في أشدّ التّوق لخبرِ أنه لن يمضي ليلاً آخر تحت سقف واحد مع أبيه، وأنه يشعر بأقلّ قدر ممكن بالذنب تجاه الأمر. *نشعرُ بما نشعرُ به*، كتَبَ، *ولسنا مسؤولين عن مشاعرنا. عن أفعالنا*، نعم، مسؤولون، *لكنْ، ليس عن ما نشعر به. لم ترتكبي شيئاً بحقّ والدتك. تجادلتِ معها أحياناً، لكنكِ كنتِ بنتاً طيّبة*، ولا يجب *أن تضطهدي نفسكِ بما تشعرين به الآن. أنتِ بريئة، يا إيمي*، وليس *لديكِ الحقّ في أن تشعري بالذنب بسبب أشياء لم تفعليها*.

في اليوم التالي لعودتهم، حضر آل شنايدرمان إلى البيت للعشاء. كان العشاء الأوّل من بين

دعوات عشاء كثيرة ستقوم والدة فيرغسون بإعداد أطباقها لهم خلال السنة الأولى من المرحلة الثانوية، العشاءان والثلاثة وأحياناً الأربعة في الأسبوع كانت غالباً بحضور دان وإيمي فقط بعد أن عاد جيم إلى الجامعة من جديد، ولأن فيرغسون كان لا يزال يجهل أن أمّه ووالد إيمي ليسا بالنسبة إلى بعضهما البعض أكثر من الصديقين المقرّبين منذ محادثة الـ*أخبرني دان* في الربيع المنصرم، هو علّلَ هذه الدعوات على أنها لفتات طيّبةٍ وحسْن نيّة، تواصلٌ ودّيّ مع عائلة تعيشُ الحِداد، بينما لم يزل الأب وابنته ذاهلَين في حزنهما عن القيام بأعمال التّسوّق والطبخ، بالإضافة إلى وضع المنزل الداخلي من الفوضى والأسِرَّة غير المُسوّاة والصحون المتّسخة، إذ إن ليزاً لم تعد موجودة لكي تصلح من شأن البيت، لكنْ، بالإضافة إلى السخاء كان هناك دوافع شخصية أيضاً، كما أدرك فيرغسون، فأمه باتت وحيدة الآن، بل كانت وحيدة منذ بداية الصيف، حياتها معلّقة بين ماضٍ ميت ومستقبل محايد ومجهول، ولماذا لا ترحّب برفقة دان شنايدرمان الطّيّبة وابنته إيمي، التي جلبت الكلام العذب والمشاعر والوجدان إلى البيت؟! وبالتأكيد كانت دعوات العشاء تلك مناسبة للجميع خلال تلك الفترة الانتقالية التي تلت أحزان ما بعد الدفن والطلاق الوشيك، إذا لم يكن على الأقلّ من أجل فيرغسون ذاته، الذي وجد أنه في تلك الجلسات حول طاولة المطبخ حدثت أقوى الجدالات العالية التي تكرّس نظريته في أن الحياة تسير نحو الأفضل.

الأفضل، بالتأكيد لم تعنِ *الجيّد*، ولعلّها ليست حتّى قريبة من *الجيّد*. إنها ببساطة تعني أن الأمور كانت أقلّ سوءاً ممّا كانت عليه، إذ تحسّنت حالته على العموم، لكنْ، مع الأخذ بالاعتبار ما حدث في العشاء الأوّل مع آل شنايدرمان في أواخر آب، لم تتحسّن الأوضاع بالقدر الذي أملَه فيرغسون. قد مضى أكثر من شهرين على غياب إيمي، ولذلك تصبح أُلفةُ ملامح وجهها أقلّ فأقلّ بالنسبة إليه، وحين تفحّصها عبر الطاولة والخمسة منهمكون بتناول لحم العجل المحمّر الذي طبختْه والدته، اكتشف أن لجمال عينَي إيمي علاقة بأجفانها، إذ إن الطّيّات في أجفانها كانت مختلفة عن طيّات أجفان معظم الناس، وبسبب ذلك، بدت عيناها مؤثّرتين وبريئتين، تركيبة نادرة لم يرها في أحد آخر، عينان فتيّتان وستبقيان فتيّتين حتّى بعد أن تتقدّم هي في العمر، ولذلك هام بها، كما شعر، وحلّتْ وهلةُ وحيٍ مع رؤيته عينيها تنبجسان بالدموع في مأتم والدتها، تأثّر بهاتين العينين الباكيتين، لدرجة أنه لم يعد يفكّر فيها كـ *مجرّد صديقة*، بل فجأةً حلَّ الحبّ، صنف الحبّ المسمّى الـ الغرق - في الحبّ الذي تجاوز صيَغ الحبّ الأخرى كلها، وأرادها أن تُبادله الحبّ بالطريقة نفسها التي يحبّها بها الآن. بعد الفاكهة والحلويات، صَحِبَها إلى الحديقة الخلفية لحديث خاصّ بينهما، في حين تابع الثلاثة الآخرون كلامهم على الطاولة. كانت إحدى ليالي أواخر الصيف في نيوجرسي الدافئة والرطبة، الجوّ العابق منقّط

بالومض الخاطف لمئات اليراعات المضيئة، الكائنات نفسها التي كان وإيمي يمسكانها في ليالي صباهما الصيفية، ويضعانها في زجاجات شفّافة، ويتجوّلان ومقامات الضوء تلك في أيديهما، وها هما الآن يتمشّيان في الحديقة الخلفية ذاتها يتحدّثان عن رحلة إيمي إلى أوروبا ونهاية زواج والدَي فيرغسون والرسائل التي تبادلاها في شهرَي تمّوز وآب. سألها فيرغسون إن كانت قد تلقّت الأخيرة، التي بعث بها إلى لندن قبل عشرة أيّام، وعندما ردّت بالإيجاب، سأل إن كانت قد فهمت ماذا كان يحاول قوله لها. أظنّ ذلك، قالت إيمي. لستُ متأكّدة من أنها ستجدي، لكنْ، لعلّها تبدأ بأن تكون مجدية في مرحلة ما، مسألة أننا لسنا مسؤولين عن مشاعرنا، يساورني أنه عليّ التّأنّي في ذلك لبعض الوقت، يا آرتشي، إذ لم أزل أشعر عاجزة عن الحدّ من شعوري بمسؤوليتي تجاه ما أشعر به.

كان ذلك حين وضع فيرغسون يده اليمنى على كتفها، وقال: أحبّكِ، يا إيمي. تعرفين أني أحبّكِ، أليس كذلك؟

نعم، يا آرتشي، أعرف ذلك. وأحبّكَ أيضاً.

توقّف فيرغسون عن المشي، التفت إليها، ثمّ أحاطها بيسراه أيضاً. وهي تتملّص بجسدها منه، قال: أنا أتحدّث عن حبّ حقيقي، يا ابنة شنايدرمان، الحبّ الكامل الأبديّ، الحبّ الأكبر على مرّ الأزمنة.

ابتسمت إيمي. بعد هنيهة، طوّقته بذراعيها، وحين مسّت ذراعاها الطويلتان العاريتان ذراعيه، بدأت ركبتا فيرغسون بالانثناء.

أمضيتُ أشهراً وأنا أفكّر بذلك، قالت. ما إذا كان يجب أن نحاول أم لا. ما إذا كنّا نعني أن نكون في علاقة حبّ أم لا. أشعرُ بانجذاب شديد، يا آرتشي، لكنني خائفة. إذا حاولنا ولم ننجح بالأمر، فقد لا نعود أصدقاء بعد ذلك، على الأقلّ ليس كما حالة صداقتنا الآن، حالة أننا أفضل صديقين في العالم، قريبان كحالة أقرب ما يمكن للأشقّاء والشقيقات أن يبلغوا، كذلك كنتُ أفكّر بنا، كأخ وأخت، وكلّما حاولتُ تخيّل تقبيلكَ، يلوح لي كسِفاح المحارم، كشيء خطأ، كشيء سأندم عليه، ولا أريد أن أخسر ما بيننا، سيقتلني ألا أعود أختكَ بعد ذلك، وهل يستحقّ تبادل بعض القبلات في الظلام خسارة الأشياء الطّيّبة كلها التي تجمعنا؟

كان فيرغسون في منتهى القهر لما قالته حتّى إنه أفلت يديه من يديها، وتراجع خطوتين إلى الوراء. أخ وأخت، قال، والغضب يحتدم في صوته، يا له من هراء!

لكنه لم يكن هراءً، وعندما تزوّج والد إيمي من والدة فيرغسون بعد أحد عشر شهراً وأربعة

أيّام من سهرة العشاء الأوّل، أصبح الصديقان عرفياً بمثابة الأخ والأخت، ورغم أن كلمة ***step*** كانت قد انتهت إلى أن تُحتسَب تسميةً، إلا أنهما الآن أعضاء في العائلة نفسها، وغرفتا النوم اللتان كانا ينامان فيهما حتّى نهاية المرحلة الثانوية كانتا متجاورتين في رواق الطابق الثاني من منزل عائلتهما الجديد.

4.1

كانت وثيقة السَّكَن التي وردتْ في مقدّمة دليل الطالب إلى كلّيّة بارنارد تنصّ على أن المستجدّين كلّهم من خارج المدينة مُطالبون بالإقامة في أحد مساكن الطلبة ضمن حرم الجامعة، بينما يمكن للمستجدّين من نيويورك الاختيار بين العيش في مساكن الطلبة أو في البيت مع ذويهم. إيمي المستقلّة، التي لم تكن لديها رغبة بالبقاء مع أهلها ولا رغبة بمشاركة الغرفة مع أحد في سكن متشدّد في تقيّده بالتعليمات، احتالت على المنظومة بمطالبة أهلها بالانتقال من غربي الشارع الخامس والسبعين إلى شقّة أكبر على الشارع 111، وهي شقّة أكبر بكثير، كان يقيم فيها أربعة طلاب من غير المستجدّين، طالب سنة ثانية آخر جديد من بارنارد وطالب جديد مع طالب في سنة التّخرّج في جامعة كولومبيا. وعندما انتقلت إيمي إلى ذلك المكان الفسيح بأروقته الطويلة وتمديداته الصّحّيّة القديمة ومقابض أبوابه الزجاجية المشطوفة، أصبحت نزيلةَ الغرفة الخامسة الوحيدةَ. انطلتِ الحيلة على أهلها، لأن إيمي عرضتْ أمامهما الأرقام التي برهنت أن دفْعَ خمْسِ مائتي وسبعين دولاراً كإيجار للشّقّة أكثر توفيراً من الإقامة في السَّكَن الجامعيّ، ولأنهما، خصوصاً *لأنهما*، أدركا أن الوقت قد حان كي تغادر ابنتهما العنيدة البيتَ. مضى ما يزيد عن السنة بقليل منذ حفل الطبخ الخارجي في حديقة آل فيرغسون الخلفية، والآن ها هي ابنة عائلة شنايدرمان وابن عائلة فيرغسون قد نالا أُمنيّتهما الأكثر توقّداً: غرفة بقفل على بابها، وفرصة النوم معاً في الفراش نفسه كلّما أرادا ذلك.

المشكلة في أن تلك الـ*كلّما* قد تكشّفتْ عن أنها مفهوم شائك، أقرب إلى الاحتمال المثالي من أن يكون عرضاً عمليّاً، وفي واقعِ أن أحدهما لا يزال مرتبطاً بـ مونتكلير، والآخر عالق في دوّامة من الارتباك والتنسيقات التي ترافق بداية الحياة الجامعية، انتهيا إلى تشارك الفراش أقلّ ممّا كانا يتوقّعان. كانت هناك عطلات نهاية الأسبوع، وبالتأكيد، استغلاها بقدر ما استطاعا، والتي كانت معظمَ نهايات أسابيع أيلول وتشرين الأوّل وبدايات تشرين الثاني، لكن فلتات الصيف قد تقلّصتْ، وطيلة هذا الفصل كان باستطاعة فيرغسون القيام بواحدة من طلعات ليالي أسبوعه إلى المدينة. استمرّا في التّحدّث عن الأشياء التي طالما تحدّثا حولها، التي تضمّنت

في ذلك الخريف قضايا مثل تقرير لجنة وارن (أصحيح أم مُلفَّق؟) حركة حرّيّة التعبير في بيركلي (عاشَ عاشَ ماريو سافيو!)، وفوز السّيّئ جونسون على غولدووتر الأسوأ بما لا يُقارَن (لم تكن ثلاثة هتافات، بل اثنين، وربّما واحداً)، ثمّ حدث أنَ دُعِيت إيمي إلى سفرٍ في نهاية الأسبوع إلى كونكتيكت، فكان لزاماً عليهما إلغاء مخطّطاتهما، الذي تلاه إلغاء آخر في الأسبوع التالي (إنفلونزا خفيفة، قالت، رغم أنها لم تكن في الشّقّة عندما اتّصلَ بها ليلَ السبت ثمّ مرّة أخرى ظهيرةَ الأحد)، وشيئاً فشيئاً أحسّ فيرغسون أنها تتملّص منه. تجدّدت مخاوفه القديمة، الاجترار الأسوَد للشتاء الأخير عندما فكّر بأنه ربّما يتعيّن عليها مغادرة نيويورك، مستحضِراً أخيلة أناس آخرين ستتعرّف إليهم في تلك الأماكن المتخيّلة الأخرى، الفتية الآخرين، العشّاق الآخرين، ولماذا سيشكّل ذلك فرقاً في مدينتها الأصلية؟ إنها تعيش في عالم جديد الآن، بينما ينتمي هو إلى العالم القديم الذي تركته وراءها. ستٌّ وثلاثون كتلة بناءٍ فقط باتّجاه الشمال، وتتغيّر رغم ذلك القربِ العاداتُ بشكل جذريّ، ويتحدّث الناس لغةً أخرى.

لم يكن السبب أنها بدتْ ملولةً من وجوده أو حبَّها له قد تقلّص، لم يكن السبب أن جسدها كان يتصلّب كلّما لامسها أو أنها لم تسعد معه على الفراش الجديد في الشّقّة الجديدة، كان الأمر ببساطة أنها بدت مشتّتة الآن، عاجزة عن تكثيف انتباهها عليه كما كانت في الماضي. بعد عطلتَي نهاية الأسبوع المضيَّعتَين هاتين، نجح بترتيب زيارة إلى الشّقّة الفارغة يوم السبت التالي لعيد الشُّكْر (كان شركاؤها كلّهم في السَّكَن قد غادروا إلى مُدُنهم لقضاء العطلة)، وبينما كانا جالسَين في المطبخ معاً يشربان النبيذ ويدخّنان السجائر، لحِظَ أن إيمي كانت تنظر عبر النافذة إلى الخارج عوضاً عن النظر إليه، وبدلاً من أن يتجاهل الأمر ويكمل ما كان يقوله، توقّف في منتصف العبارة، وسألها إن كان كل شيء على ما يرام، وكان ذلك لحظةَ حدث الأمر، كان ذلك لحظةَ أدارت إيمي رأسها إليه، نظرتْ في عينيه، وتلفّظتْ بالكلمات السبع الصغيرة التي كانت تدور في خلدها لما يقارب الشهر: *أظنّ أني محتاجة إلى مهلة، يا آرتشي.*

قالت إنهما لم يتجاوزا السابعة عشرة من العمر بعد، وبدأت علاقتهما تلوح كعلاقة زوجين، كأنهما بلا مستقبل يتجاوز أن يكونا معاً، وحتّى لو رجعا حبيبين على المدى الطويل، سيكون من المبكّر للغاية أن يكونا رهينَي ذلك الالتزام الآن، سيشعران بأنهما مخنوقان، حبيسا وعودٍ قد لا يستطيعان الوفاء بها، وقبل أن يأتي وقت يستاء فيه أحدهما من الآخر، *لماذا لا نأخذ نَفَساً عميقاً فقط*، ونسترخي *لفترة قصيرة*؟

أدرك فيرغسون أنه كان يتحوّل إلى مغفّل، لكنْ، كان هناك سؤال واحد وحسبْ استطاع قلبُه المغفّل أن يفكّر بطرحه: أتعنين أنكِ لم تعودي تحبّينني؟

أنتَ لم تكن تصغي إليّ، يا آرتشي، قالت إيمي. كلّ ما أقوله هو أننا نحتاج إلى مزيد من الهواء في الغرفة. وأريدنا أن نُبقيَ الأبوابَ والنوافذ مفتوحة.

ما يعني أنكِ انجذبتِ إلى شخص آخر.

ما يعني أن شخصاً آخر مهتمّ بي، وأني تبادلتُ الغزل معه مرّة أو اثنتين. ليس هناك ما هو جدّيّ في الأمر، صدّقني. وفي الحقيقة لستُ متأكّدة من أني أميل إليه. لكن المسألة هي أنني لا أريد الشعور بالذنب حيال الأمر، وكنتُ أشعر بالذنب لأنني لم أشأ أن أؤذيكَ، ثمّ تساءلتُ في سرّي: ماذا دهاكِ، يا إيمي؟ أنتِ لستِ زوجة آرتشي. حتّى إنكِ لم تبلغي بعد منتصف سنتكِ الجامعية الأولى، فلماذا لا تمنحي نفسكِ فرصة لاكتشاف بعض الأشياء، أن تُقبّلي فتى آخر إذا أردتِ ذلك، وربّما أن تضاجعي فتى آخر، إذا شعرتِ أنكِ تحبّين ذلك، أن تفعلي سائر الأشياء التي يفترض أن الناس يفعلونها في شبابهم؟

لأن ذلك سيقتلني، ذلك هو السبب.

لن يدوم ذلك، يا آرتشي. كلّ ما أطلبه هو فترة للاستراحة.

استمرّا في الحديث لأكثر من ساعة، غادر بعدها فيرغسون الشقّة، وقاد سيّارته عائداً إلى مونتكلير. أربعة أشهر ونصف الشهر ستمضي قبل أن يرى إيمي مرّة أخرى، أربعة أشهر ونصف الشهر من الكآبة، ومن دون تقبيل، دون لمس، دون حديث مع الشخص الذي أراد أكثر من أي شيء آخر أن يقبّلها ويلمسها ويتحدّث إليها، لكن فيرغسون نجح في أن ينجو بنفسه في تلك المرّة من التّفتّت، لأنه كان مقتنعاً أنه وإيمي لم يصلا بعدُ النهايةَ، وأن الرحلة الطويلة والمعقّدة التي بدآ بها معاً قد وصلت إلى مجرّد منعَطَفٍ أوّل لها، انزلاق صخريّ وقع على دربهما، فأجبرهما على تحويل الوجهة إلى الغابات، حيث لم يعد يتبيّن أحدهما مكانَ الآخر، لكنْ، عاجلاً أم آجلاً سيعثران على الوجهة مرّة أخرى، ويعاودان السير في طريقهما. كان على يقين من الأمر، لأنه أخذ كلمة إيمي على محمل الجدّ، فقد كانت إيمي الشخص الوحيد المعروف بأنه لم يكذب قطّ، الذي لم يستطع أن يكذِب، الذي طالما نطق بالحقيقة مهما كانت الظروف، وحين قالت إنها لم تكن ترمي به أو تُرسله إلى منفى أبديّ، فجلّ ما كانت تطلبه مُهلةً، استراحةً لتفتح النوافذ، وتُهوّي الغرفة، وقد آمَنَ فيرغسون بما قالت.

أعانه زخَمُ هذا الإيمان على اجتياز تلك الأشهر الجوفاء من دون إيمي، تكوّر وانكفأ وبذلَ وسعه في أن يتقبّلها، رافضاً الرضوخ لإغواء رثاء النفس، الذي كان بالغ الجاذبية بالنسبة إليه في

مراحل مبكّرة من مراهقته (فقْد آن - ماري دومارتان، الإصابة في يده)، جاهداً في سبيل مقاربة أقوى وأكثر حزماً في مواجهة ألغاز الألم (ألم الخيبة، ألم العيش في *عالم الخراء* حسب تعبير السّيّد مارتينو)، مُطوِّقاً نفسه، كي يمتصّ الصدمات الآن بدلَ الانسحاق تحت وطأتها، متشبّثاً بالأرض بدلَ الفرار، منقِّباً في ما فهمَ الآن أنه سيكون حصاراً طويل الأمد في حرب خنادق. منذ أواخر تشرين الثاني 1964 وحتّى أواسط نيسان 1965: فترة انعدام الجنس والحبّ، فترة التّبصّر في الجوهر والوحدة الروحية، فترة قهره لنفسه، بعد طول انتظار، كي يشتدَّ عودُه، ليضع حدّاً لكلّ شيء لا يزال يربطه بطفولته.

كانت سنته الأخيرة في الثانوية، السنة الأخيرة التي سيمضيها في مونتكلير، نيوجيرسي، السنة الأخيرة التي سيمضيها مع أهله تحت سقف واحد، السنة الأخيرة من فصل حياته الأوّل. والآن وقد عاد وحيداً من جديد، تنبّه فيرغسون إلى عالمه القديم، المألوف بتركيز وحِدّةٍ متجدّدين، فحتّى لو أبقى أنظاره معلّقة بالبشر والأماكن التي عرفها خلال الأعوام الأربعة عشر الماضية، لشعر بأنها كانت بطبيعة الحال في طريق التّبدّد أمام ناظريه، تتحلّل ببطء كصورة كاميرا بولارويد تتحرّك بشكل عكسي، تُغيّبُ معالم نفسها، إذ تتلاشى حدود الأبنية، وتصبح ملامح وجوه أصدقائه أقلّ قابلية للتمييز، وتبهت الألوان الزاهية إلى مستطيلاتٍ من عدَم. كان وسطَ زملاء صفه من جديد، بطريقة لم يعهدها منذ ما يزيد عن السنة، لم يعد ينسلّ خفيةً إلى نيويورك في عطلات نهاية الأسبوع، لم يعد الشخصَ ذا الحياة السّرّيّة، بل مجرّد شبح بإبهام واحد دُسَّ مرّة أخرى بين فتيةٍ أعمارهم بين السابعة عشرة والثامنة عشرة، عرفهم مذ كان في الثالثة والرابعة والخامسة من عمره، وها قد بدؤوا الآن بالتلاشي، اكتشف أنه ينظر إليهم بطريقة أقرب ما تكون إلى الرّقّة والشفافية، *شلّة الضواحي المملّة* ذاتها التي أدار لها ظهرَه بشكل مباغت للغاية بعدما صعدت إيمي معه إلى الطابق الثاني في أثناء الطهو في الحديقة ظهيرةَ عيد العمّال، هم مرّة أخرى أصدقاؤه المقرّبون، الذين بذل ما بوسعه ليعاملهم بتسامح واحترام، بمَنْ فيهم الأكثر سخفاً وغباء، إذ لم يعد في موقع الحكم على أحد، وأقلع عن تهافته لتصيُّد النواقص ومكامن الضعف في الآخرين، فقد علم الآن أنه ناقص وضعيف كما هم بالضبط، وإذا شاء أن يصبح شخصاً من الصنف الذي يتوقّع لنفسه أن يكونَه، فعليه أن يُبقيَ فمَه مطبقاً وعينيه مفتوحتين، وألا ينظر باحتقار إلى أي امرئٍ مرّة أخرى.

لا إيمي الآن، لا إيمي فيما يتهدّدُ بأنه سيصبح حيّزاً طويلاً لا يُطاق من الزمن، لكن إيمان فيرغسون الراسخ بأنهما خُلقا كي يكونا معاً مرّة أخرى في مرحلة ما من المستقبل دفعه إلى إعداد الخطط لذلك المستقبل عندما جاءت اللحظة لإرسال طلبات القبول إلى الجامعة. كان

ذلك أحد الأشياء النادرة التي يتفرّد بها طالب السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية، حقيقة أنكَ أمضيتَ معظم وقتكَ وأنتَ تفكّر بالسنة التالية، مُدرِكاً أن جزءاً منكَ قد مضى حتّى لو بقيتَ حيث كنتَ، كأنكَ تسكن مكانين في الآن نفسه، الحاضر الباهت والمستقبل المبهم، سالقاً وجودكَ في قِدْر من الأرقام التي تتضمّن معدّلَ الدرجات التراكمي وعلامات الاختبار الأكاديمي للطالب، متقرّباً إلى المدرّسين ملتمِساً منهم كتابة رسائل تزكية لكَ، صائغاً المقال العبثي، المستحيل عن نفسكَ التي تلتمس فيها إقناعَ لجنة من الغرباء المجهولين بإتاحة الفرصة لكَ كي تدرس في مؤسّستهم التعليمية، ثمّ ارتداء السترة وربطة العنق والسفر إلى تلك المؤسّسة، كي تخضع لمقابلة مع أحد ما يُنظَر إلى تقريره بعين الاعتبار سواء تمّ قبولكَ أم لا، وفجأة بدأ فيرغسون بالقلق بشأن يده من جديد، للمرّة الأولى منذ أشهر شعر بالهمّ لأصابعه المفقودة عندما جلس قبالة الرجل الذي قد يساعد في تقرير مستقبله، ويتساءل إن كان الرجل يعامله على أنه شخص معوق أو مجرّد شخص تعرّض لحادث، ثمّ، حتّى وهو يجيب عن أسئلة الرجل، تذكّر آخر مرّة تحدّث فيها مع إيمي بخصوص يده، في الصيف الماضي حين تأمّلها لسبب ما، وقال كم تسبّبُ له الاشمئزاز! الأمر الذي سبّبَ كثير الإزعاج لـ إيمي، لدرجة أنها صرخت في وجهه، قائلة إنه إذا ذكَرَ يده مرّة أخرى، فستتناول ساطوراً، وتبتر إبهامها الأيسر، وتقدّمه إليه كهدية، وكان لغضبها فعل السِّحْر حتّى إنه وعدها بألا يثير هذا الموضوع مرّة أخرى، ثمّ وهو في حديثه مع الرجل الذي يجري المقابلة معه، أدرك أن ليس عليه تجاهل التّحدّث في أمر يده وحسب، بل عليه ألا يتذكّرها، وشيئاً فشيئاً أرغم نفسه على تناسيها، وركن إلى حديثه مع الرجل، الذي كان بروفيسور موسيقى في جامعة كولومبيا، التي لا حاجة للقول إنها كانت خياره الأوّل، المكان الجامعي الوحيد الذي كان يتوق لدخوله، وحين اكتشفَ مؤلّفُ الاثنتي عشرة أوبرا كوميدية، الودود، الظريف، الحسّاس إلى أقصى الدرجات أن فيرغسون كان مَعنياً بالشِّعْر، ويأمل في أن يكون كاتباً ذات يوم، مضى نحو رفّ الكُتُب في مكتبه، وجذب منه آخر أربعة أعداد من Culombia Review، المجلّة الأدبية لطلبة الجامعة، وناولها للمتقدّم إلى الجامعة الذي يعاني الآن من التّوتّر، الواعي لذاته والقادم من الجهة الأخرى لنهر الهدسون. ربّما عليكَ أن تلقي نظرة عليها، قال البروفيسور، ثمّ تصافحا، وودّع كلٌّ الآخر، وبينما غادر فيرغسون المبنى، ومشى في الحرم الجامعي، الذي كان بطبيعة الحال مألوفاً لديه نتيجة لقاءاته العاطفية في ستٍّ من نهايات الأسبوع مع الليدي شنايدرمان خلال الخريف الماضي، تساءل إن كان عليه أن يهرع إليها في تلك الظهيرة (ولم يفعل) أو يمضي إلى شقّتها غربيَّ الشارع 111 ويرنّ الجرس (ولم يفعل، ولم يكن يريد أن يفعل، ولم يكن باستطاعته)، وبدلاً من تعذيب نفسه بأفكاره عن حبيبته الغائبة،

غير المتاحة، فتح أحد أعداد مجلّة Culombia Review ووقع خلال قراءة قصيدة على أكثر لازمةٍ مسلّية ومبتذلة، بيتٍ شِعْري صادم بما فيه من المباشَرة حتّى إن فيرغسون ضحك بصخب حين قرأه: في *النَّيكِ المستقرّ راحةُ بالٍ لكَ*. ربّما لم يكن فيها شيء من الشِّعْر، لكن فيرغسون لم يستطع إلا الاتّفاق مع هذا الرأي، الذي انطوى على حقيقة لم تعبّر عنه قصيدة أخرى بهذه الصراحة، أو من بين القصائد الأخرى التي قرأها على الأقلّ. بالإضافة إلى ذلك اكتشف كم من المشجِّع معرفة أن كولومبيا كانت مكاناً يتيح لطلابه نشر أفكار كهذه دون خوف من مساءلة الرقيب، ما يعني أنه كان يمكن للمرء أن يكون حرّاً كطالب هناك، ولو أن طالباً ما كتب ذلك السطر الشِّعْري لمجلّة مدرسة مونتكلير الأدبية، لطُرد في الحال، ولربّما أُودعَ السجن.

كان والداه غير مباليين. فلم يذهب أحد منهما إلى الجامعة، لم يعرف أحد منهما الفروق بين معهد وآخر، ولذلك سيكونان سعيدين بابنهما أينما ذهب، سواء إلى جامعة الولاية في نيو برونزويك (روتجرز) أو جامعة هارفارد في كامبريدج، ماساتشوسيتس، إذ كانا أكثر جهلاً من أن يتطوّرا إلى متفاخرَين بمظهر مؤسّسة علمية مقابل أخرى، وكانا ببساطة فخورَين بـ فيرغسون كطالب جيّد طوال حياته. كان للخالة ميلدرد، على أيّة حال، التي رُقّيتْ مؤخّراً إلى منصب بروفيسور في بيركلي، آراء أخرى حول الوجهة الأكاديمية لابن أختها الأوّل والوحيد، وفي اتّصال هاتفي طويل من الساحل الغربي إلى الشرقي في أوائل كانون الأوّل حاولت أن توجّه ابن أختها بما يلائم طريقة تفكيرها. كولومبيا كانت الخيار الأوّل الممتاز، قالت، لا مشكلة في ذلك، برنامج الدراسة من أقوى البرامج في البلاد، لكنها تريده إلى جانب ذلك أن يضع في الاعتبار خياراتٍ أخرى، إمرست وأوبرلين، مثلاً، جامعتان صغيرتان منعزلتان، حيث الجوّ أهدأ وأقلّ تشتّتاً ممّا هو في نيويورك، أكثر وصولاً إلى الصرامة في الدراسة المركّزة، لكن، إذا كان هواه يميل إلى جامعة كبيرة، فلماذا لم يفكّر بـ ستانفورد وبيركلي؟! كم سيكون عزيزاً على قلبها أن تحظى بوجوده معها في كاليفورنيا للسنوات الأربع القادمة، وكلٌّ من المكانين هناك كان بتفاصيله كلها يتميّز عن كولومبيا، إن لم يكن أفضل، لكن فيرغسون أبلغها أنه اتّخذ القرار، إمّا نيويورك أو لا مكان آخر، وإذا خذلتْه كولومبيا، فسيذهب إلى جامعة نيويورك الحكومية التي تقبل تقريباً كلّ مَنْ يتقدّم إليها، وإذا حدث عائق ما، فإن دبلوم مدرسته الثانوية يؤهّله لإدراج اسمه ضمن محاضرات الكلّيّة الجديدة، التي لم ترفض أحداً، وذلك كان مشروعه، قال، ثلاثة احتمالات فقط، كلّها في نيويورك، وحين سألته عمّته لماذا يجب أن تكون كلها في نيويورك بوجود العديد من الأماكن الأكثر جاذبية التي يمكنكَ اختيار ما شئتَ بينها، عاد إلى مخزون ذاكرته، واستحضر الكلمات التي قالتها له إيمي في اليوم الأوّل من لقائهما - لأن نيويورك - قال، هي الهدف.

حالة ذهول، ربّما، غير أنها في الشّقّ الواقع بين الـ لا هنا والـ لا هناك من الراهن الباهت، شيء ما حدث لـ فيرغسون، فغيَّرَ تفكيره بشأن ما سيحدث لاحقاً. في مطلع كانون الأوّل، رسا على عمل في صحيفة مونتكلير، الذي كان أدقّ ما يُقال فيه إنه العمل الذي رسا عليه، إذ اعترض طريقه بشكل غير متوقَّع، ودون جهد يُذكَر من طرفه، هدية من المصادفة، ولكنْ، مع شروعه بممارسته اكتشف أنه يريد الاستمرار بممارسته، ليس بسبب متعة العمل وحسب، بل لأنه كان لتأثير هذه المتعة أن يضيّق من فجوات المستقبل في *كل مكان* إلى مجرّد *مكان ما* محدّد، ومع هذا التضييق تحوّلتْ كثرةٌ من الـ*أي شيء* فجأةً إلى *شيء ما* واحد. بمعنى آخر، كانت ثلاثة أشهر تفصله عن عيد ميلاده الثامن عشر، عثر فيرغسون بالمصادفة على هدف في الحياة، شيء يمارسه على المدى الطويل، والمربك في الأمر أنه ما كان ليخطر له أن يمارسه، لو لم يكن مدفوعاً لممارسته في الأساس.

كانت صحيفة مونتكلير تصدر بشكل أسبوعي، وتغطّي الأحداث المحلّيّة منذ 1877، وحيث إن مونتكلير كانت أكبر من سائر البلدات في المنطقة (عدد سكّانها 44000)، كانت الصحيفة أكثر غنىً، أكثر عمقاً، واحتكرت مساحة إعلانات فاقت صحفَ مقاطعة إِسّكس الأسبوعية، حتّى لو كانت الوقائع التي تنشرها تشبه إلى حدّ ما تلك التي يجدها المرء في الصحف الأصغر: اجتماعات مجلس التعليم، لقاءات سيّدات نادي الحديقة، ولائم الأولاد الكشّافة، حوادث السير، خطوبات وزيجات، اقتحامات، حوادث سلب، وتخريب متعمّد للممتلكات من قِبَل المراهقين، كما سُجّلت في المحاضر اليومية للشرطة، تقارير المعارض في متحف مونتكلير للفنّ، المحاضرات في معهد مونتكلير الحكومي لإعداد المدرّسين، والرياضة بأحداثها المحلّيّة كلها: دَوْري البيسبول المصغّر، بطولة بوب وارنر لكرة القدم، وتغطية مطوّلة لمباريات منتخبات المدارس الثانوية، فريق Montclair Mounties، الذي اختتم أفراده للتّوّ أكثر المواسم نجاحاً في تاريخه، رَقْم قياسي0-9، بطولة الولاية، والمصنّف ثالثاً على مستوى البلاد، الذي يعني أنه من بين آلاف فِرَق القدم للمدارس الثانوية المنتشرة في أصقاع الولايات المتّحدة، كان هناك فريقان وحسب أَفضل من فريق مونتكلير. كان فيرغسون يشعر بالحنين إلى كل مباراة سبت، لكنْ، الآن، بعد عشرة أيّام من محادثته الكئيبة التالية لعيد الشُّكْر مع إيمي، أخبرته والدته عن فرصة عمل في *الجريدة* - وقد افترضتْ أنه مَعنيّ بالأمر. بدا أن ريك فوغل، الشّابّ الذي كان يجري التحقيقات حول رياضة المدارس للجريدة، والذي ختم مثل هذا العمل المؤثّر في توثيق موسم فريق كرة القدم الظافر بأن عُيِّن لدى جريدة *أخبار نيوارك المسائية* اليومية التي يفوق عدد نسخها المطبوعةِ صحيفةَ مونكلير الأسبوعية بعشرين ضعفاً وميزانية كبيرة ما يكفي لدفع

راتب يعادل عشرين ضعفاً ممّا تدفعه الثانية، ووجد رئيس تحرير صحيفة مونتكلير نفسه في ما أسمته والدة فيرغسون *مأزقاً حرجاً للغاية*: فقد تقرَّرَ بدء موسم منتخبات كرة السّلّة الثلاثاء القادم، وليس لديه مَنْ يكتب حول المباريات.

حتّى ذلك الحين، لم تكن فكرة العمل لدى جريدة قد خاتلت فيرغسون. فقد رأى في نفسه رجلَ آداب، رجلاً سينذر مستقبله لكتابة الكُتُب، وإذا انتهى إلىٰ أن يصبح روائياً أو كاتباً مسرحياً أو وريث والت ويتمان ووليام كارلوس وليامز النيوجرسيين، فإنه كان سيتّجه نحو الفنّ، ومهما بلغت أهمّيّة الصحف، إلا أنه ليس للكتابة فيها علاقة بالفن. بالمقابل، إنها فرصة جاءت بنفسها إليه، كان في موقف لا يُحسد عليه، من القلق وانعدام الرضا بما يتعلّق بجوانب الحياة كلها تقريباً، ولعلّ مهمّة الصحيفة ستحقن الواقع الباهتَ بشيء من اللون، وتنتشله من الاستغراق في ظروفه البائسة. والأهمّ من ذلك، كان الأمر بعض المال - البدل الرمزي بقيمة عشرة دولارات للمقالة - لكنْ، ما كان يتجاوز المالَ واقعُ أن *صحيفة* مونتكلير كانت صحيفة مرخّصة وقانونية، وليست نشرة فكاهية مثل الـ *ماونتنير* الصادرة عن ثانوية مونتكلير، وإذا نجح فيرغسون بانتزاع عمل هناك، فسيكون بذلك في طبقة عالم الكبار - لا مجرّد مراهق مدرسة ثانوية في سنّ لم تبلغ الثامنة عشرة، أو - وهذا أمر جيّد إذا لم يكن الأكثر إرضاءً لأسماعه، *فتى العجائب*، الذي يعني أنه صبيّ يُنجز عملاً منوطاً برجل.

ثمّ لا يغيبنّ عن البال أن ويتمان بدأ صحافياً لدى *بروكلن إيغل*، وأن هيميغواي قد كتب لـ *كانساس سيتي ستار*، وأن ستيفن كرين المولود في نيوارك كان مراسلاً لصالح *نيويورك هيرالد*، ولذلك سألته والدته إن كان مَعنياً بأخذ موقع فوغل الذي ترك مكانه بتهوّر، لم يحتجْ فيرغسون لأكثر من نصف دقيقة كي يوافق. لن يكون الأمر بهذه السهولة، أضافت والدته، لكن إدوارد إمهوف، النَّكِد السمين الذي يحرّر *الصحيفة*، قد يكون في حال مَنْ تقطّعت به السُّبُل، لدرجة أنه قد يعطي فرصة لصبي لم يُختبَر بعد، على الأقلّ في مباراة واحدة، ممّا يتيح له بعض الوقت، إذا لم يوفّق فيرغسون، ولكن كما يعرف كلاهما، قالت أمّه *إنه* سوف يُوفّق، ولأنها كانت تنشر الصور في صحيفة إمهوف لأكثر من اثنتي عشرة سنة، وأدخلتْ صورته ضمن صور الأعيان في كتابها الولاية الحديقة(*) (لفتة كريمة لا مبرّر لها، إن كان حقّاً واحداً منهم)، كان الدَّعيُّ مديناً لها، قالت، ودون إضاعة ثانية أخرى رفعت سمّاعة الهاتف، واتّصلت به. هكذا كانت الطريقة التي كانت تتصرّف بها والدة فيرغسون من تلقاء نفسها حين كان ينبغي إنجاز شأنٍ ما - وعتِ اللحظةَ، وفعلت الأمر، غير هيّابة ودونما عائق، وكم استمتع فيرغسون ببراعتها الجسورة وهو

---

*) وهو الاسم/ الشعار لولاية نيوجرسي.

يصغي إلى المحادثة من طرفها مع إمهوف. ولم يحدث لوهلة خلال مكالمة الدقائق السبع أنها بدت كأمٍّ تلتمس حسَنةً لصالح ابنها. كانت شخصاً ذكياً وموهوباً أنهى لتوه حَلَّ معضلةً، واجهت صديقاً قديماً له، وعلى إمهوف أن يخرَّ جاثياً، ويشكرها لأنها أنقذتْ مؤخّرته الحمقاء.

بفعل قوّة تلك المكالمة، حظي فيرغسون بمقابلة مع رئيس التحرير المزاجيّ والمتخَم، ورغم أنه جاء مسلَّحاً بنموذجين من كتابته، كي يبرهن أنه ليس مغفّلاً أمّيّاً (بحث مدرسي عن *الملك لير*، وقصيدة مزاحٍ قصيرة خُتمتْ بالسطرين *إذا كانت الحياةُ حلماً،/ فماذا يحدث حين أفيق؟*)، بالكاد ألقى إمهوف المنفوخ كبصلة، والآخذ بالصلع نظرةً عليهما. أفترض أنكَ تعرف شيئاً ما عن كرة السّلّة، قال، وأفترضُ أنكَ تُحسن كتابة جملة حسنة الصياغة، لكنْ، ماذا عن الصحف - هل تزعج نفسكَ بقراءتها؟ بالتأكيد كان يقرؤها، أجاب فيرغسون، ثلاثة صحف كل يوم. الـ Star-Ledger للأخبار المحلّيّة، الـ New York Times للأخبار العالمية والوطنية، والـ Herald Tribune لأن أفضل الكتّاب يظهرون على صفحاتها.

أفضل؟ قال إمهوف. ومَنْ هم الأفضل برأيكَ؟

جيمي برِسلين في السياسة أوّلاً، ريد سميث في الرياضة ثانياً. وفي الموسيقا الناقد جلبرت شنايدرمان، الذي صادف أنه عمّ صديق مقرّب لي.

ممتاز، أحييكَ. وكم مقالة صحفية كتبتَ، يا سيّد *شاطر*؟

أظنّكَ تعرف سلفاً الجواب عن ذلك السؤال.

لم يبالِ فيرغسون. ليس بشأن ما فكّر به إمهوف حياله، وليس حتّى إذا ردّه إمهوف خائباً. فجرأةُ أمّه قد جرّأته على أن يكون في موضع الحياد المطبق، وللحياد سطوة، كما أدرك فيرغسون، ولا يهمّ ما قد تثمر عنه المقابلة، فلن يسمح لنفسه بأن يكون منفِّذ أوامر ذلك الكيس الصفراوي المليء بالغطرسة والطباع السّيّئة.

أعطني سبباً وجيهاً واحداً يدفعني إلى قبولكَ، قال إمهوف.

لأنكَ تحتاج إلى أحد ما يغطّي مباراة ليل الثلاثاء، ولأنني أرغب بأن أقوم بذلك. إذا لم تكن تريدني أن أفعل ذلك، فلماذا تبدّد وقتكَ الثمين في الحديث معي الآن؟

ستمائة كلمة، قال إمهوف، وخبطَ بكفّيه سطحَ طاولة المكتب. اللعنة عليكَ، لقد أرضيتَني، نجحتَ، استعدّ للأيّام التالية.

ستكون كتابة المقالة الصحفية أكثر صعوبة من أي صنف آخر من الكتابة التي مارسها فيرغسون

فيما مضى. ليست كتابة القصائد والقصص القصيرة وحسب، المختلفة كلّيّاً عن الصحافة بما لا يقبل الجدال. بل أيضاً أشكال الكتابة الأخرى غير التّخيّليّة التي استغرق فيها طوال حياته: الرسائل الشخصية (التي كُتبت أحياناً بناءً على أحداث واقعية، لكنها كانت في معظمها حافلة بآراء تتعلّق به وبالآخرين: أحبّك، أكرهك، أنا حزين، أنا سعيد، يتكشّف صديقنا القديم عن كذّاب وضيع) ومواضيع الإنشاء المدرسية، مثل مقالته الأخيرة عن *الملك لير*، التي كانت في الأساس مجموعة كلماتٍ تستجيب إلى مجموعة كلمات أخرى، كما كان حال الإسهامات المدرسية كلها تقريباً: كلمات تستجيب إلى كلمات. على العكس من ذلك، كانت المقالة الصحفية مجموعة كلمات تستجيب إلى العالم، مسعى لتحويل العالم اللامكتوب إلى كلمات، ولكي تحكي قصّة حدَثٍ وقعَ في العالم الواقعي عليكَ أن تبدأ، على عكس ما هو شائع، من الشيء الأخير الذي حدث بدلاً من الأوّل، النتيجة بدلاً من السبب، ليس *أفاق جورج بليفل صباح البارحة على آلام في معدته، بل توفيّ جورج بليفل الليلة الفائتة عن عمر سبعة وسبعين عاماً*، مع التّطرّق إلى شيء من آلام المعدة بعد فقرتين أو ثلاث لاحقة. الوقائع قبل أي شيء آخر، والواقعة الأكثر أهمّيّة تأتي قبل الوقائع الأخرى كلها، لكنْ، لمجرّد أنه توجّب عليكَ الالتزام بالوقائع لم يعنِ أنه فُرضَ عليكَ الكفّ عن التفكير أو حظر عليكَ فتح باب خيالكَ، كما فعل ريد سميث في بدايات هذا العام في عنوان تحقيقه عن هزيمة سوني ليستون في ملاكمة الوزن الثقيل: "شقَّ كاسيوس مارسيلوس كلاي طريقه وسطَ الحشد الذي هاجَ وماجَ وتصايح حول حلبة الملاكمة، قفز كسنجاب فوق حبال المخمل الأحمر ولوّح مهدِّداً بيده المرفوعة التي لم تزل في القفّاز. 'امضغوا كلماتكم'، زمجرَ في صفوف المشتغلين بالصحافة. 'امضغوا كلماتكم'". مجرّد كونكَ رهينَ العالم الواقعيّ لا يجعل منكَ كاتباً أقلّ شأناً، إذا قرّرتَ في داخلكَ أن تكتبَه على أكمل وجه.

كان فيرغسون يعلم أن ليس للرياضة من نتائج مؤثّرة على المدى البعيد، سوى أنها أعارت نفسها للكلمة المكتوبة بيُسر أكثر ممّا فعلته الموضوعات الأخرى، لأن لكلّ لعبةٍ بِنائية سردية مدمجة، صراعاً من أجل الفوز الذي أنتج بالضرورة فوز فريق وهزيمة آخر، وكان عمل فيرغسون أن يحكي القصّة عن كيفية فوز الفائز وخسارة الخاسر، إن كان بفارق نقطة أو عشرين نقطة، وحين حضرَ لمشاهدة المباراة الأولى في الموسم مساءَ ذلك الثلاثاء من أواسط كانون الأوّل، كان قد تصوّر مسبّقاً كيف سيصوغ قصّته، من حيث إن الدراما المركزية لفريق سلّة مونتكلير في تلك السنة كانت حداثة سنّ لاعبيه ونقص خبرتهم، لم يكن أحد المبتدئين الخمسة مبتدئاً في الموسم الماضي، كان ثمانية من طلاب السنة الأخيرة قد تخرّجوا في حزيران مع فرق واحد هو أن المجموعة الحاليّة كانت مؤلّفة من طلاب السنة الثانية والأولى. ذلك سيكون الخيط

الذي سيتخلّل تغطيته للفريق من لعبة إلى أخرى، كما قرّر فيرغسون، متتبّعاً المسارَ إن كانت شرذمة مبتدئين قليلة الخبرة ستتطوّر لتشكّل وحدة متماسكة حتّى نهاية الموسم أو أنها ببساطة ستترنّح من هزيمة إلى أخرى، ورغم أن إمهوف أنذره بأنه سيركله خارجاً إذا فشلت المقالة الأولى في *توصيل الأغراض*، لم يكن فيرغسون يخطّط ليفشل، كان الأكثر تأكيداً أنه لن يفشل، ولذلك نظر إلى المقالة الأولى على أنها الفصل الافتتاحي في ملحمة طويلة سيمضي في كتابتها حتّى يختتم الموسم بعد المباراة الثامنة عشرة في أواسط شباط.

ما لم يكن يتوقّعه كم كان مفرطاً شعوره بالحياة حين دخل نادي المدرسة، وجلس على مقعده قرب مسجِّل الأهداف الرسمي إلى الطاولة التي انفرجت أرجلها بمحاذاة خطّ المنتصف. فجأة أصبح كل شيء مختلفاً. لا يهمّ كم مباراة تابَع في ذلك النادي على مدى السنين، لا يهمّ كم من دروس الصّحّة البدنية التي حضرها هناك منذ دخول المرحلة الثانوية، لا يهمّ كم من تجمّعات التدريب التي شارك فيها كلاعب في منتخب البيسبول، لم يعد النادي هو النادي ذاته في ذلك المساء. لقد تحوّل إلى موقع للكلمات المرتقَبة، الكلمات التي سيكتبها حول المباراة التي بدأت للتّوّ، ولأنه كان من صلب عمله أن يكتب هذه الكلمات، كان عليه النظر إلى ما يجري بصورة أقرب ممّا لو كان ينظر إلى أي شيء آخر، والتّيقّظ الصرف وتوحيد غاية نوع النظر المطلوب بدا أنه يكاد يرفعه من موضعه، ويملأ دمه بذبذبات تيّار كهربائي. كان شعر رأسه يئزّ، وعيناه مفتوحتين على اتّساعهما، ويشعر بحيوية فاقت ما شعر به منذ أسابيع، أنه حيّ ومتيقّظ، كلّ ما فيه مضطرم ومتحفّز في اللحظة الراهنة. كان بحوزته دفتر ملاحظات بحجم الجيب، ومضى طوال المباراة يدوّن على عجل ما كان يراه على خشب الملعب، وعلى مساحات طويلة، وجد نفسه يراقب ويدوّن في الآن نفسه، كان اعتصار نفسه لترجمة العالم غير المكتوب إلى كلمات مكتوبة مستنبطاً الكلمات بسرعة مذهلة، كانت النقيض الجذري للمعاناة البطيئة والسكونية التي رافقت كتابة قصيدة، كل شيء يسرع الآن، كل شيء هو السرعة بعينها، وتقريباً دون تفكير في ما كان يكتبه، فإن كلمات مثل *مُناوِل كرةٍ قصير*، *بنّيّ الشعر بسرعة الجرذ* و*آلة ارتداد* بمرفقين مهلكَين *كقلمي رصاص مسنّنين ورمية رديئة رفرفتْ داخلَ وحَول الإطار كطائر طنّان متردّد*، ومن ثمّ، بعد أن خسرَ فريق مونتكلير أمام فريق بلومفيلد بخسارة 51-54 في أداء متقارب، ختمَ فيرغسون القصّة بـ: *أما أوفياء مونتكلير، غير المعتادين على الخسارة بعد خريف من كرة القدم بلغت حدّ الكمال، فجرجروا أقدامهم خارجين من النادي بصمت.*

كان تسليم المقالة متوجّباً في الصباح التالي، لذلك أسرع فيرغسون إلى البيت في سيّارة الـ إمبالا البيضاء، وصعد إلى غرفته، هناك أمضى الساعات الثلاث التالية يكتب، ثمّ يعيد

كتابة المقال، ينجِّر مسوّدة المقال الأوّل ذات الثمانمائة كلمة إلى ستمائة وخمسين كلمة، ثمّ إلى خمسمائة وسبع وتسعين، تحت العدد الذي طلبه إمهوف بقليل، الذي نضّده بنسخته النهائية الخالية من الأخطاء الطباعية على آلة أوليمبيا الكاتبة، المحمولة، الألمانية الصنع التي لا تُقهَر، والتي كانت هدية والديه له في عيد ميلاده الخامس عشر. وبافتراض أن إمهوف قبِلَ المقال، فستكون أوّل قطعة تُنشر من كتابة فيرغسون خارج مجلات المدرسة، وبينما كان يواجه الخسارة الوشيكة لعذريته التأليفية، تردّدَ بين إقدام وإحجامِ الاسم الذي سيستخدمه لتوقيع عمله. كِلا الاسمين *آرتشي* و*أرشيبالد* قد سبّبا الإرباك له، *آرتشي* بسبب ذلك الأبله الملعون في كُتُب الرسوم الهزلية، آرتشي أندروز، صديق جاغهيد وموس، المراهق الغبي الذي لم يستطع أبداً أن يقرّر إن كان يحبّ بِتي ذات الشَّعْر الأشقر أكثر ممّا يحبّ فيرونيكا ذات الشَّعْر الأسود أو العكس، و*أرشيبالد* لأنه ارتباك رجعيّ، عتيق الطراز وميت الآن، ورجل الأدب الوحيد المعروف بـ أرشيبالد في أي مكان من العالم كان بالنسبة إلى فيرغسون أقلّ الشعراء الأميركيين قرباً من فيرغسون، وهو أرشيبالد ماكليش، الذي حصد الجوائز كلّها، وعُدّ *ثروة وطنية*، لكنه كان في واقع الأمر شخصاً مملاً وفاشلاً وعديم الموهبة. باستثناء عمّه الأكبر الذي مات منذ زمن طويل، والذي لم يلتقِ به فيرغسون، فإن الـ آرتشي - أرشيبالد الوحيد الذي شعر إزاءه بالقربى كان كيري غرانت، الذي وُلد في إنكلترة باسم أرشيبالد ليش، لكنْ، لم يكد رجل الاستعراض - البهلوان يصل إلى أميركا حتّى غيّر اسمه وتحوّل إلى نجم سينمائي هوليووديّ، الذي لم يكن ليحدث لو التزم باسم *أرشيبالد*. أحبّ فيرغسون أن يُنادى بـ*آرتشي* بين أصدقائه وأهله، لم يكن ثمّة ما يُعيب *آرتشي* حين سمعه في محادثات الرغبة والحبّ، لكنْ، هناك شيء ما صبياني بل مضحك حول *آرتشي* في السياق العامّ، خصوصاً بالنسبة إلى كاتب، ولأن أرشيبالد فيرغسون لن يُقدّر كما يجب مهما تكن الظروف، فإن رجل الصحيفة الناشئ الذي يكاد يكمل الثامنة عشرة من عمره قرّر أن يكتم اسمه كاملاً، ويكمل بالأحرف الأولى، بطريقة استخدام ت. س. إليوت وهـ. ل. مينكن لاسميهما، وهكذا بدأت سيرة أ. ي. فيرغسون. A.I.- المعروف لدى البعض بأنه حقل من الدراسات يسمّى بالذكاء الصناعي Artificial Intelligence- لكنْ، بالمقابل هناك أكثر من إلماحة في تضاعيف هذا الاسم أيضاً، من بينها Anonymous Insider الدخيل الخفي، التي آثَرَ فيرغسون التفكير بها كلّما رأى اسمه مطبوعاً.

لأنه كان عليه الذهاب إلى المدرسة في الصباح الباكر، وافقت أمّه على المرور بمكتب إمهوف، وتسليمه المقالة بنفسها، حيث إن الاستديو كان يبعد مسافة كتلتين سكنيتين عن مبنى الصحيفة في مركز المدينة. تبعَ ذلك نهار من الزفرات التي يشوبها القلق - هل سيسمح

لـ فيرغسون بالدخول أم سيُغلَق الباب دونَه؟ هل سيُطلَب إليه تغطية مباراة مساء الجمعة أم أن عمله كمراسل مختصّ بكرة السّلّة قد انتهى منذ المباراة الأولى؟ - أما وقد أنجزَ الآن العمل الحاسم، دون أن يكون مبالياً، أو ها هو يتظاهر بأنه لا يبالي، فتلك كذبة. ستّ ساعات ونصف الساعة في المدرسة، ثمّ قيادة السّيّارة قاصداً استوديو روزلاند فوتو لمعرفة الحكم، الذي أوصلته والدته إليه بجرعة معيّنة من التّهكّم المريك:

كل شيء على ما يرام، يا آرتشي، قالت، فلنركّز على الحقيقة الأهمّ أوّلاً، سيُنشر تحقيقكَ في عدد الغد من الصحيفة، وأنتَ تعمل لديهم حتّى نهاية موسم كرة السّلّة، وموسم البيسبول أيضاً، إذا أردتَ ذلك، لكنْ، يا إلهي، أي نموذج مهنيّ ذلك الرجل! يتأفف وينخر وأنا واقفة إلى جواره أراقبه وهو يقرأ مقالتكَ، قافزاً إلى اسمكَ المستعار قبل أي شيء - الذي أحببتَه للغاية بالمناسبة - لكنه لم يستطع أن يتخطّى ما أسماه بـ *ادّعاء* الاسم، A.I.، A.I.، A.I..، وبقي يردّده المرّة تلو المرّة، ثمّ يضيف، طيز مثقّفة، أبله متغطرس، جاهل مطلق، لم يستطع منع نفسه من شتمكَ، لأنه أدرك أن ما كتبتَه.كان جيّداً، يا آرتشي، جيّد بشكل مفاجيء، ورجل مثله لا يحبّ تشجيع الشباب، يريد سحقهم، لذلك وقع على شيئين لمجرّد أن يُظهِر للآخرين كم هو متفوّق، الملاحظة حول الطائر الرّنّان المتردّد، شعر بالكره تجاهها فقط، فشطبها بقلمه الأزرق، وهناك شيئان آخران جعلاه يشخر أو يسبّ همساً، لكنْ، في المحصّلة أنتَ عضو فاعل في الصحافة المحلّيّة الآن، أو حسب تعبير إدْ إمهوف، حين سألتُه إن كان يريدكَ أم لا، سيؤدّي الصبيُّ الغرضَ. *سيؤدّي الصبيُّ الغرضَ!* انفجرتُ بالضحك حين سمعتُ ذلك، ثمّ سألتُه، أهذا كل ما تريد قوله، يا إدْ؟ الذي ردّ عليه، أليس كافياً؟ حسناً، ربّما تريد أن تشكرني لأنني وجدتُ لكَ مراسلاً جديداً، قلتُ. شكراً *لكِ*، مثلاً؟ قال: لا، يا عزيزتي روز، أنتِ من يجب أن يتقدّم *إليَّ* بالشكر.

بشكل أو بآخر، أصبح فيرغسون في الداخل، والشيء الجيّد حول التدبير أنه قلّما سيضطرّ إلى رؤية إمهوف أو التّحدّث إليه، حيث كان لزاماً عليه أن يكون في المدرسة يومَي الأربعاء والاثنين صباحاً، كما عليه التّقيّد بتوقيت تسليم المقالات حول مباراتَي مساءي الثلاثاء والجمعة، اللتين ستنشران معاً لدى صدور الصحيفة بعد ظهر الخميس. بذلك واظبت والدة فيرغسون على تسليم إمهوف المقالات باليد، ورغم أن فيرغسون جاء مرّتين لحضور لقاءات السبت مع السمكة الكبيرة (في بركة صغيرة) كي يتلقّى التوبيخ لخطيئة الـ *تكلّف بالكتابة* (إذ إن عبارات مثل *اليأس الوجودي* وحركة *الباليه التي تحدّتْ الفيزياء النيوتنية* يمكن أن تُعدّ تكلّفاً)، كانت معظم محادثاته مع إمهوف على الهاتف، كما عندما طلب منه الزعيم إعداد لمحة جانبية وافية عن مدرّب كرة السّلّة جاك ماكنولتي، بعد أن ربح الفريقُ ستَّ مباريات على التوالي، ليرفع سجلّه

إلى 9 و7، أو حين وجّه فيرغسون إلى أن يبدأ ارتداء السترة وربطة العنق حين حضوره المباريات، لأنه *ممثّل عن الـ* مونتكلير تايمز، *وأنه يحتاج إلى أن يتصرّف كجنتلمان حين قيامه بمهامّه*، وكأن لارتداء السترة وربطة العنق علاقة بالكتابة عن مباريات كرة السّلّة، لكنها كانت الأيّام التي بدأت بها المطالبة باللباس والشَّعْر تفصل ما بين العجوز والشّابّ، وكمثل العديد من الفتية في مدرسته ترك فيرغسون شَعْره ينمو أكثر في تلك السنة، إذ كان قصّ الشَّعْر عام 1950 على طريقة (الطاقم) قد بطل الآن، وكانت التّغيّرات تحدث في عالم البنات أيضاً، فالمزيد ثمّ المزيد منهنّ توقّفنَ عن نفش شعورهنّ ككريات الحلوى الشبيهة بالقطن وخلايا النحل كما في الأيّام الخوالي، وبدأنَ ببساطة يمشّطنه بالفرشاة، ويتركنه مرخياً على أكتافهنّ، الذي وجده فيرغسون أكثر فتنةً وجاذبية، وبينما يتمعّن في المشهد البشري في تلك الأسابيع الأولى من 1965، شعر أن الجميع قد بدؤوا يلُوْحون أفضل حالاً، وكان ثمّة شيء ما آتٍ سيبعث لديه السرور.

في السابع من شباط، قُتل ثمانية أميركيين وجُرحَ 126 في هجوم لـ الفييتكونغ على قاعدة عسكرية في بليكو - وبدأ قصف فييتنام الشمالية. بعد أسبوعين، في الحادي والعشرين من شباط، بعد أيّام قليلة من نهاية موسم كرة السّلّة للمدارس الثانوية، أُردي مالكولم إكس على أيدي قتَلة من أمّة الإسلام وهو يلقي خطاباً داخل قاعة أودوبون في واشنطن هايتس. كانا الموضوعين الوحيدين اللذين بدا أنهما سيبقيان ماثلين أبداً، كما كتب فيرغسون في رسالة إلى عمّته وعمّه في كاليفورنيا، سفك الدم الآخذ بالاتّساع في فييتنام وحركة الحقوق المدنية في الداخل الأميركي، أميركا البيضاء في حرب ضدّ شعوب جنوب شرق آسيا الصفراء، أميركا البيضاء في صراع مع مواطنيها السود، الذين كان الصراع ما بينهم يتفاقم، لأن الحركة التي تجزّأت إلى شظايا بطبيعة الحال كانت ماضية في التّجزّؤ إلى شظايا الشظايا، وربّما إلى شظايا شظايا الشظايا، الكلّ في صراع مع الآخر، رُسمت الخطوط بحدّة، لدرجة أن قلة قليلة تجرأت على تخطّيها فيما بعد، كان العالم قد أصبح منقسماً للغاية، ذلك أن فيرغسون طلب ببراءة من روندا وليامز الخروج معه في وقت ما من كانون الثاني، ثمّ اكتشف أن تلك الخطوط قد تكللت بالأسلاك الشائكة. كانت روندا وليامز ذاتها التي عرفها خلال السنوات العشر الماضية، البنت النحيلة زلقة اللسان التي كانت ضمن معظم صفوفه الدراسية، والتي لم تكن إنساناً أبيض، بل إنساناً أسود، كما الكثير من الطلاب في ثانوية مونتكلير، وهي أكثر المدارس الموحّدة عِرْقياً في المنطقة، قطعة من شمال نيوجيرسي كانت المدارس الأخرى كلها على امتدادها إما بيضاء كلّيّاً أو سوداء كلّيّاً، وروندا وليامز التي كانت عائلتها أغنى من عائلة فيرغسون، والتي صادف أن

بشرتها سوداء، وفي الحقيقة بشرة بنّيّة شاحبة، أكثر من قتامة بشرة فيرغسون بدرجة أو درجتين، روندا وليامز المرحة، ابنة رئيس قسم الطّبّ الداخلي في مشفى تابع لوزارة شؤون المحاربين القدامى في مدينة أورانج القريبة، والتي كان أخوها الأصغر حارساً احتياطياً في فريق مونتكلير لكرة السّلّة، روندا وليامز الطموحة المتألقة للجامعة، التي طالما كانت صديقة فيرغسون، وشاركته حبّه للموسيقا، وهكذا كانت أبداً الشخص الأوّل الذي يخطر في البال كلّما قرأ أن سياتوسلاف ريختر سيؤدّي عزفاً ضمن برنامج، يقتصر على أعمال شوبرت في مسرح مسجد نيوارك يومَ السبت الذي يلي السبت القادم، ولذلك سأل روندا إن كانت تودّ الذهاب برفقته، ليس لأنه ظنّ أنها ستستمتع بالحفل، بل لأن شهرين قد مضيا منذ التقى إيمي للمرّة الأخيرة، وكان يتوق لرفقة أنثى، يحنّ لأن يكون مع أحد ما ليس لاعب كرة سلّة وليس بوبي جورج أو إدوارد إمهوف الكريه، ومن بين فتيات المدرسة كلها، كانت روندا هي التي أحبّها أكثر من الجميع. كان هناك احتمال وجبة سبت ليلية في مطعم كليرمونت، ثمّ مقطوعات شوبرت التي يؤدّيها أعظم عازفي البيانو في العالم الذي بُهر به فيرغسون كحدثٍ لن يفوّته عاشق للموسيقا، لكنها فعلت ما لا يُصدَّق، فقد خذلتْه، وعندما سألها فيرغسون لماذا؟ أجابت روندا:

فقط لا أستطيع، يا آرتشي.

هل يعني ذلك أن لديكِ حبيباً، لا أعرف عنه؟

لا، لا حبيب في حياتي. أنا فقط لا أستطيع.

لكنْ، لماذا؟ إذا لم تكوني مشغولة ليلاً، ما الأمر؟

أفضّل ألا أقول.

هيّا، قولي، يا روندا، ليس في ذلك شيء من العدل. هذا أنا، أتتذكّرين؟ صديقكِ القديم آرتشي.

أنتَ ذكي ما يكفي لأن تعرف بنفسكَ.

لا، لستُ كذلك. حتّى إني لا أستطيع تخمين ما تتحدّثين عنه.

لأنكَ أبيض، هذا هو السبب. لأنكَ أبيض، ولأنني سوداء.

أهذا سبب؟

أظنّه كذلك.

لا أريدكِ أن تتزوّجيني. أطلب فقط الذهاب برفقتكِ لحضور حفل موسيقي.

أعلم، وممتنّة لأنكَ تطلب مني ذلك، غير أني لا أستطيع.

أرجوكِ قولي لي إن السبب هو أنكِ لا تحبّين صداقتي. ذلك أستطيع تقبّله.

لكنني أحبّ صداقتكَ، يا آرتشي، وأنتَ تعلم ذلك. وأحببتُكَ دائماً.

أتدركين معنى ما تقولينه؟

بالتأكيد أدرك.

إنها نهاية العالم، يا روندا.

لا، ليست نهايته. إنها البداية - بداية عالم جديد - وعليكَ فقط أن تتقبّله.

سواء كانت نهاية العالم أو بداية العالم الجديد، فلن يجبر نفسه على تقبّله، وانسحب من تلك المكالمة وهو يشعر بالغدر والغضب، مروّعاً من أن مكالمة كهذه لم تزل ممكنة بعد مائة سنة من نهاية الحرب الأهلية. أراد التّحدّث عنها مع أحد ما، كي يُفرغ ألف سبب لانزعاجه ممّا حدث، لكن الشخص الوحيد الذي كان بإمكانه الإفضاء إليه بأمور كهذه كانت إيمي، وكانت إيمي الشخص الوحيد الذي لا يمكنه التّحدّث إليه الآن، وبالنسبة إلى أصدقائه في المدرسة، لم يعد هناك مَن يمكن الوثوق به بما يكفي من العمق كي تفضي إليه بما يعتمل داخلكَ، وحتّى بوبي، الذي لم يزل يرافقه في سيّارته كل صباح إلى المدرسة، وبقي يرى في نفسه صديقَ فيرغسون الأكثر إخلاصاً، لن يكون مَعنياً بأن يشارك في نقاش من هذا النوع، بالإضافة إلى ذلك كان بوبي يعاني من مشاكل تخصّه في ذلك الحين، مشاكل عاطفية مدمّرة مثل مشاكل معظم أطياف المراهقين، حبّ صامت من طرف واحد تجاه مارغريت أومارا، التي كانت تميل عاطفياً إلى فيرغسون في السنوات السّتّ الماضية، الذي كان يسبّب ما لا حصر له من التعب والذعر لدى فيرغسون، فعقِبَ حديثه مع إيمي في عطلة عيد الشُّكْر خاتلته فكرة أن يطلب لقاءً غرامياً مع مارغريت، ليس لأن لديه أيّة رغبة متأجّجة في الدخول بعلاقة مع مارغريت، التي كانت بنتاً بليدة وودودةً، ذات وجه استثنائي في جاذبيته، لكنْ، بعد أن أفصحت إيمي عن رغبتها بتقبيل فتيان آخرين تساءل فيرغسون، ليس دون بعض المرارة، إن كان عليه أن يردّ على ذلك بالخروج والبحث عن فتيات أخريات كي يقبّلهنّ، وكانت مارغريت أومارا مرشّحة رئيسة، لأنه شعر بما يشبه اليقين بأنها تريد أن يقبّلها، لكنْ، فيما بعد، وبينما يهيّئ نفسه لمكالمتها، اعترف بوبي كم هو متيّم بـ مارغريت أومارا نفسها، التي كانت أوّل حبّ كبير في حياته، لكنْ، بدا أنها لا ترغب به، حتّى إنها بالكاد أصغت عندما تحدّث إليها، وسيتوسّط فيرغسون بمبادرة نبيلة منه، ويشرح لـ مارغريت كم هو شخص طيّب ويستحقّ الاهتمام (تلميح من *سيرانو دي برجراك*، فيلم شاهده فيرغسون

ومارغريت معاً في حصّة اللغة الفرنسية، الصّفّ العاشر)، ولذلك عندما مضى فيرغسون إلى مارغريت وحاول تزكيةَ بوبي (بدل أن يطلب منها الخروج معه هو)، ضحكتْ منه، ووصفته بـ *سيرانو*. كانت الضحكة نهايةَ الأمر - الذي نتج عنه فشل مزدوج، إخفاق على الجبهتين معاً. كان بوبي لا يزال متلهّفاً لها، ورغم أن مارغريت كانت ستستغلّ أيّة فرصة للخروج مع فيرغسون، إلا أن فيرغسون عقد النيّة على ألا يطلب منها الخروج برفقته، لأنه لم يستطع فعل ذلك إكراماً لصديقه. ذلك ما أوصله إلى عدم الخروج مع أحد للشهرين التاليين، ومن ثمّ، حين طلب من إحداهنّ مرافقته، كانت روندا وليامز، التي ركلته في وجهه بأدب، وعلّمته أن أميركا التي يريد العيش فيها لم تُخلَق - وربمّا لن يُقيّض لها أن تُخلَق.

تحت تأثير ظروف مختلفة، كان سيمضي إلى والدته، ويناقشها في إحباطاته، لكنه بدأ يشعر بأنه أنضج من أن يفعل ذلك الآن، ولم يشأ أن يسرّب الكآبة إليها بتخريفه العاطفي الطويل حول المستقبل الباهت الذي تراءى له بما يتعلّق بـ *الجمهورية*. كان مستقبل والديه كئيباً ما يكفي بطبيعة الحال، وبالأخذ بالاعتبار الدخل الآخذ بالتضاؤل من كلا العملين *روزلاند* فوتو و*ستانلي لتجارة أجهزة التلفاز والراديو*، والخمسة عشر ألف دولار الاحتياطية التي استُنفدت الآن، ثمّة تغيّرات قاسية قريبة الحدوث، فقد كانت مسألة وقت قبل أن تضطرّ العائلة إلى إعادة التفكير بكيفية العيش والعمل، وربمّا يطال الأمرُ مكان السَّكَن ومكان العمل. شعر فيرغسون بالأسى تجاه والده على وجه الخصوص، الذي كان عمله الصغير بتجارة المفرّق والذي لم يعد يستطيع منافسة متاجر التخفيضات الكبرى التي بدأت تنبق في بلداتٍ مثل ليفينغستون ووست أورانج وشورت هِلْز، فلماذا يقصد أحد الذين يريدون شراء تلفازٍ متجرَ والد فيرغسون في حين يمكنه أن يجد الجهاز ذاته بسعر مخفَّض بنسبة أربعين بالمائة لدى إي. جي. كورفيتس على بُعد ميل واحد؟! وعندما سُرِّح مايك أنطونيللي في الأسبوع الثاني من شهر كانون الثاني، أدرك فيرغسون أن المتجر يوشك على الانهيار، لكن والده لم يزل مصرّاً على اتّباع الروتين القديم بالوصول في التاسعة تماماً كلّ صباح، ليجلس أمام طاولة عمله في الغرفة الخلفية، حيث يتابع إصلاح سخّانات الخبز المعطّلة والمكانس الكهربائية سيّئة الأداء، ليذكّر فيرغسون أكثر فأكثر بالدكتور مانيت إحدى شخصيات قصّة مدينتين، سجين الباستيل نصف المختلّ الذي جلس إلى طاولة زنزانته يرقّع الأحذية، وسنة بعد سنة يمضي في إصلاح التجهيزات المنزلية التالفة، وأكثر فأكثر توصّل فيرغسون إلى الاعتراف بالحقيقة التي لا تقبل الجدل بأن والده لم يتعافَ كلّيّاً من خيانة أرنولد، بأن إيمانه بالعائلة قد تحطّم، ومن ثمّ، في خرائب إيماناته المهشّمة، كان الشخص الوحيد الذي لم يزل يحبّه هي المرأة التي صدمت سيّارتها بشجرة، وشوّهت يدَ ابنه للأبد، ورغم أنه لم

بنبس بكلمة بشأن الحادث، إلا أن كلاً من فيرغسون ووالدته يعرفان أنه قلّما كفَّ عن التفكير فيه.

كانت فرصُ استمرار روزلاند فوتو تسير إلى الاضمحلال أيضاً، ليس بسرعة اضمحلال فرصِ ستانلي لتجارة أجهزة التلفاز والراديو ربمّا، غير أن والدة فيرغسون أدركت أن أيّام استديو التصوير الضوئي تكاد تنقضي، وفي بعض الأحيان، كانت تقلّص عدد ساعات دوام الاستديو، من عشر ساعات في خمسة أيّام سنة 1953 إلى ثماني ساعات في خمسة أيّام سنةَ 1956 إلى ثماني ساعات في أربعة أيّام سنةَ 1959 إلى ستّ ساعات في أربعة أيّام سنةَ 1961 إلى ستّ ساعات في ثلاثة أيّام سنةَ 1962 إلى أربع ساعات في ثلاثة أيّام سنةَ 1963، مكرِّسة طاقاتها أكثر فأكثر لعمل التصوير لصالح إمهوف في صحيفة مونتكلير، حيث خُصّص لها راتب بصفتها رئيسة قسم التصوير في الجريدة، ثمّ نُشر كتابُها عن أعيان *الولاية الحديقةِ* في شباط 1965، وفي غضون شهرين، كان الكتاب قد حَطّ في غرف الانتظار ضمن معظم مكاتب الأطبّاء، ومكاتب أطبّاء الأسنان، ومكاتب المحامين، ومكاتب البلديات في أنحاء الولاية كافّة، ولم تعد روز فيرغسون "*لا أحد*" مغموراً، بل "*أحداً*" مشهوراً، وبتأثير النجاح الذي حقّقه كتابها، قرّرت أن تزور رئيس تحرير Newark Star-Ledger (الذي كانت صورته ضمن الكتاب)، وتطلب منه عملاً ضمن طاقم المصوّرين، ورغم أن والدة فيرغسون كانت في الثالثة والأربعين حينها (كبيرة العمر، ربمّا؟)، إلا أنها برأي معظم الناس بدت أصغر من ذلك بستّ أو ثماني سنوات، وبينما كان رئيس التحرير يتفحّص مكوّنات ملفّها الثخين ويتذكّر الصورة المتملّقة التي التقطتها له، والتي كانت معلّقة على جدار عرينِه في البيت، مدّ يده فجأة، وصافحها، إذ كانوا في الواقع قد فتحوا باب التوظيف، وروز فيرغسون تمتلك الكفاءة لملء هذا الشاغر كأي أحد آخر. لم يكن الراتب كبيراً، ما يقارب المبلغ الذي كانت تنجح في لملمته كمتوسّط سنوي ما بين صور الاستديو وشغلها مع إمهوف، الذي لن يؤخّر أو يقدّم في الوضع المالي الإجمالي للأسرة. ثمّ طلع والد فيرغسون بفكرة الإغلاق النيّرة لـ *ستانلي لتجارة أجهزة التلفاز والراديو* الذي كان لا يزال مستمرّاً تحت العجز المالي للسنوات الثلاث الماضية، ثمّ كان أن انقلب السلبي إلى إيجابي عندما أقنعه سام براونشتاين بقبول العمل في متجره الخاصّ بالأدوات الرياضية في نيوارك (أو، كما عبّر والد فيرغسون، في إحدى لحظات مزاحه النادرة، استبدال أجهزة التكييف بالقفّازات الرياضية)، وهكذا، في ربيع 1965، أُغلقت أبواب كلّ من روزلاند فوتو وستانلي لتجارة أجهزة التلفاز والراديو إلى الأبد، ومع قرب مغادرة فيرغسون إلى الجامعة في الخريف، ارتأى والداه أن الوقت قد حان للتفكير ببيع المنزل واستئجار مسكن أصغر أقرب إلى عمليهما، ممّا سيوفر بعض المال لتغطية تكاليف فيرغسون الجامعية، فلسبب ما كان والد فيرغسون معارضاً لفكرة

التّقدّم إلى منحة دراسية (كبرياء غبي أو غباء مكابر؟) أو تخفيف الحمل بالمشاركة في برنامج العمل في أثناء الدراسة، لأنه، كما فسّر والده، لا يريد لابنه *أن يعمل بينما يدرس، ليعمل على دراسته*، وحين اعترض فيرغسون قائلاً إن والده كان لامعقولاً، تقدّمت والدته نحو أبيه، وقبّلته على وجنته، وقالت: لا، يا آرتشي، أنتَ اللامعقول.

حلّ عيد ميلاد فيرغسون يوم الأربعاء في هذا العام. إنه في الثامنة عشرة الآن، الذي أعطاه الحقّ في شرب الكحول داخل أي بار أو مطعم في مدينة نيوارك، أن يتزوّج دون موافقة والديه، أن يموت من أجل بلاده، أن يمْثلَ كرجل أمام محكمة القانون، لكنْ، ليس في أن يصوّتَ في الانتخابات البلدية أو الخاصّة بالولاية أو الفيدرالية. في الظهيرة التالية، الرابع من آذار، عاد من المدرسة إلى البيت، ليجد رسالة من إيمي تستقرّ في علبة البريد. قبلة كبيرة لكَ في عيد ميلادكَ. بسرعة، يا أحلى الأحبّة، بل أسرع وأسرع ما يمكن - إن كنتَ لا تزال مهتمّاً. لقد بذلتُ ما بوسعي، كي لا أتذكّركَ، لكن الأمر لم يُجْدِ. يا له من شتاء قارس، أن أعيش في هذه الغرفة والنوافذ مفتوحة! إني أتجمّد! الحبّ كلّه، إيمي.

دون أن يعرف ماذا كانت الـ'*بسرعة*' تعني، بقدر ما عرف *أسرع وأسرع*، لم يستطع فيرغسون أن يستوعب بالضبط ما كتبته إيمي، رغم أن نبرة الرسالة بدت مشجِّعة. خاتله أن يردّ برسالة دفّاقة من طرفه، لكنه قرّر الانتظار ريثما يُفصَل في أمر الطلب المقدّم إلى الجامعة، الذي لن يحدث حتّى منتصف الشهر القادم. من جهة أخرى، إذا أرسلت إيمي رسالة أخرى قبل ذلك الموعد، فسيكتب إليها في الحال - لكنها لم تفعل، واستمرّ التّحفّظ. تخيّل فيرغسون أنه بذلك سيكون قوياً، لكنْ، فيما بعد، حين راجع تصرّفاته من منظور ذاته المستقبلية، أدرك أنه كان مجرّد متعنّتٍ. مكابر متعنّت، الذي كان في نهاية المطاف مرادفاً دقيقاً لمفردة أخرى هي غبيّ.

في السابع من نيسان، هاجم مائتان من جنود ولاية آلاباما 525 متظاهراً في سيلما بينما كانوا على وشك عبور جسر إدموند بيتوس، لبدء مسيرة باتّجاه مونتغومري للاعتراض على التفرقة العنصرية بما يتعلّق بحقّ الاقتراع. بعد ذلك وللأبد، سيُذكَر هذا التاريخ تحت اسم *الأحد الدامي*.

وفي صبيحة اليوم التالي، نزل مشاة البحرية الأميركية على الأرض الفييتنامية. كانت الكتيبتان اللتان أُرسلتا لحماية القاعدة الجويّة في دا نانغ، أوّل القوّات المقاتلة التي تنتشر في البلاد. كان ملاك القوّات الأميركية في فييتنام قد بلغ 23000 جندي. وفي أواخر تمّوز سيرتفع إلى 125000، وستتضاعف معدّلات التجنيد.

في الحادي عشر من آذار، تعرّض الكاهن جيمس ج. ريب من بوسطن، ماساتشوستس للضرب حتّى الموت في سيلما. وأُصيبَ في الهجوم قسّان موحِّدان أبيضان.

بعد ستّة أيّام، حكمَ قاضٍ محليّ بأنه يُسمَح بإكمال المسيرة من سيلما إلى مونتغومري. قام الرئيس جونسون بتوحيد الحرس الوطني الخاصّ بالولاية، وبعد أن أرسل 2200 جندي لحماية المتظاهرين، بدأ المسير في الحادي والعشرين من آذار. وفي مساء اليوم نفسه، فيولا ليوزو، الأمّ لخمسة أولاد من ديترويت، التي كانت تقود سيّارتها باتّجاه ألاباما، كي تشارك في النشاط، تُقتَل بنيران أعضاء من الـ كو كلوكس كلان، لأن رجلاً أسود كان يجلس إلى جوارها في المقعد الأمامي.

وفي يوم الاثنين (الثاني والعشرين من آذار)، بدأ فيرغسون المضطرب، الذاهل، العملَ من جديد لدى صحيفة مونتكلير تايمز. كان قد مضى شهر على انتهاء موسم مباريات كرة السّلّة، والآن جاء دور البيسبول، البيسبول الرهيب والجميل، الذي سيكون عرْضاً مختلفاً كلّيّاً عن تغطية كرة السّلّة، لدرجة أن فيرغسون فكّر بادئ الأمر بأنه لن يكون مهيّأً للقيام به، لكنْ، ليس لأن الكتابة للصحيفة شاقّة بالنسبة إليه، إنما اشتاق لكتابة التحقيقات على المباريات بالطريقة ذاتها التي يشتاق بها المدخّنُ اللفافةَ بعد أن تفرغَ العلبة، والوقت الإضافي الذي كان يوليه للعمل على قصائده لم يثمر عن قصائد تستحقّ الذكر، لا أكثر من سلسلة من القصائد الهابطة التي أحبطته، لدرجة أنه بدأ يتساءل إن كان قد امتلك أصلاً موهبةَ الشِّعْر، والآن وقد مضى أربعة عشر شهراً وهو مُقصىً عن الحادث، وموسمٌ وهو مُقصىً عن أي علاقة بالبيسبول، وربّما حانت لحظة اختباره لنفسه، ليرى إن كان يستطيع العودة إلى ملعب الكرة دون أن يتداعى كتلةً من الأحزان والحسرات التافهة. ستكون هناك متعة الكتابة الكهربائية السريعة، قال في سرّه، ستكون هناك طرافة مشاهدة بوبي جورج يقذف الكراتِ بعنف فوق السياج، والتّحدّث إلى مستكشفيّ الدّوري الكبار الذين سيأتون طبعاً، ليراقبوا بوبي، وما دام يستطيع تحمُّلَ أنه لم يعد ضمن الفريق، ستكون هناك الأحاسيس القديمة بشمّ العشب المجزوز وملاحقة الكرات البيضاء بينما تندفع في السماء الزرقاء، وسماع ضجيج الكرات وهي تصطدم بالمضارب والقفّازات الجلدية، وهذه الأشياء سيتلقّاها برحابة، كان يفكّر، سيتلقّاها برحابة، لأنه كان في غاية الحنين إليها، ولذلك، دون أن يشارك إمهوف هواجسَه، بقي على العقد الذي اتفقا عليه في كانون الأوّل، وقصَد مكتب سال مارتينو في الثاني والعشرين من آذار، ليُجريَ لقاء مع المدرّب حول الموسم الوشيك، الذي كان المقالة الأولى من أصل إحدى وعشرين مقالة كتبها في ذلك الربيع عن فريق منتخب ثانوية مونتكلير للبيسبول.

لم تكن بالصعوبة التي تخيّلها، في واقع الأمر، لم تكن صعبة على الإطلاق، وحين افتُتح الموسم بمباراة بعيدة في ثانوية كولومبيا أوائلَ نيسان، ذهب فيرغسون بسيّارته إلى هناك دون أن يكون تفكيره منصبّاً على المباراة التي ستجري، بقدر ما كان على الكلمات التي سيستخدمها في الكتابة عنها. شعر بأنه أكبر عمراً بما لا يضاهى مع شعوره في السنة الماضية، أكبر عمراً بكثير من أي أحد آخر في سنّه نفسه، على الأخصّ، فتيان الفريق، الذين سيكونون فريقه أيضاً لولا الحادث، ولإثبات مدى تغيّر الأحوال المهول بالنسبة إليه، حين ترك سيّارته الـ إمبالا في مَرأب كروليك، من أجل الصيانة للأسبوع القادم، واستقلّ حافلة الفريق إلى مباراة أخرى في شرق أورانج، جلس في المقدّمة مع سال مارتينو بدل الجلوس مع زملاء صفّه في الخلف، إذ إن التعليقات اللّمّاحة الصاخبة والضحكات العالية الصادرة عن الفتية قد فقدت الجاذبية بالنسبة إليه، وفجأة حدث شيء صبياني آخر في الوراء، وكان غريباً أن يشعر بأنه صار أكبر، قال في نفسه، غريب لأنه جعله يشعر بالحزن والسعادة في الآن نفسه، والذي شكّل انفعالاً جديداً بالنسبة إليه، شيئاً لم يعهده في تاريخ حياته الانفعالية، حزن وسعادة يندمجان في جبلٍ من المشاعر، ولحظةً خطرت له تلك الصورة، وجد نفسه يفكّر بفتاة الـ وايت روك على زجاجة ماء الصودا ومحادثته مع الخالة ميلدرد عن *الروح* منذ ستّ سنوات عندما ناقشا تحوُّلَ اليرقات إلى فراشات، فالشيء المحيّر في انقلاب شيء إلى آخر أنه من المرجّح أن اليرقات كانت في أتمّ الرضا عن كونها يرقات، تدبّ على الأرض دون أن يخطر لها لوهلة أنها توشك على أن تصير شيئاً آخر، ومن المحزن لها أن عليها التّوقّف عن كونها يرقات، لا شكّ أنه كان من الأفضل ومن المذهل بكل معنى الكلمة أن تبدأ من جديد على هيئة فراشات، حتّى لو كانت حياة الفراشة أسرع عبوراً، وأحياناً قد لا تدوم لأكثر من يوم واحد.

في المباريات الخمس الأولى من الموسم، تفوّقَ صريعُ الحبّ بوبي جورج بأربع نقاط مزدوجة، وثلاث جولات، عودة سالمة، وأحرز معدّلَ 632. بخمس مرّات مسير إلى القاعدة وثماني نقاط بضرب الكرة بمضربه. مهما يكن الذي ألحقته مارغريت أومارا بقلب الصبي المسكين، إلا أنها لم تؤثّر على مقدرته في لعب البيسبول. *وتأمّل فقط*، خاطبَ أحد روّاد مينيسوتا توينز فيرغسون وهو يشاهد بوبي يطيح بأحد الراكضين في القاعدة الثانية، *لن يبلغ هذا الصبي الثامنة عشرة حتّى منتصف الصيف*.

في السادس عشر من نيسان، جلس فيرغسون أخيراً، وكتب رسالة قصيرة إلى إيمي. أنا بين يديكِ، هكذا بدأها. *تمّ قبولي في جامعة كولومبيا لـ 69- رَقْم مذكّر بشكل لذيذ*، *والذي يبدو*

أنه يوحي بصنوف النشاطات المثيرة كلها في المستقبل. على العكس منكِ، لم أقم بأي مسعى كي أكفَّ عن التفكير فيكِ، بل أبقيتُك في البال بشكل دائم، وبالحبّ كله (وأحياناً باليأس كله) على مدى الأشهر الأربعة ونصف الشهر الماضية. لذلك نعم، جواباً على سؤالكِ البلاغيّ، لا أزال شغوفاً، وسأكون دائماً شغوفاً، وسوف لن يحدث ألا أكون شغوفاً، لأنني أحبّكِ بجنون، ولا أتحمّل التفكير في أن أعيش حياتي دون وجودكِ فيها. من فضلكِ، أخبريني متى يمكن أن ألقاكِ مرّة أخرى. ملْكُ يمينكِ: آرتشي.

لم تتعبْ نفسها بالردّ هذه المرّة، بل اتّصلتْ. اتّصلت به إلى المنزل بعد ساعات من استلامها الرسالة، وكانت الغبطة أوّل ما اعتراه حين سمع صوتها من جديد، صوتها النيويوركي مع الـ r الملطّفة التي أحالت اسمه إلى شيء ما رنَّ بوقع يشبه *Ahchie*، وبعد وهلة أخرى، كانت تُعيد عبارةً من رسالته، التي تقول متى يمكن *أن ألقاكِ مرّة أخرى؟*، والتي أجاب عنها، *هذا صحيح*، متى؟، ومن فمها خرج الجواب الذي كان يحلم بأن تقوله له: *في أي وقت تشاء. أيّ وقت ابتداءً من الآن.*

وهكذا وجد فيرغسون المَنفيّ نفسه مرّة أخرى في النِّعَم الطّيّبات لمليكته رهيفة الإحساس، ولأنها حاكَمَته لمسلكه النبيل خلال منفاه، دون رسائل التماس أو اتّصالات هاتفية، دون تضرّع مرفق بالبكاء ابتغاءً لعودته إلى مركزه السابق في البلاط الملكي، كانت الكلمات الأولى التي قالتها له حين قاد سيّارته إلى نيويورك، ليلتقي بها في الليلة التالية أنتَ الوحيد بالنسبة إليّ، وليس هناك سواكَ، يا آرتشي، الوحيد بالنسبة إليّ بين مليون، وليس هناك سواكَ، وحين أخذت بالبكاء لحظة أحاطها بذراعيه، ساور فيرغسون أن الحياة ربّما كانت قاسية عليها خلال الأشهر الأربعة ونصف التي مضت، ذلك أن بعض الأشياء قد جعلتها تشعر بالعار ممّا فعلته، لا شكّ أنها أشياء تتعلّق بالجنس، ولذلك السبب قرّر ألا يسألها أيّ سؤال، لا الآن، ولا إلى الأبد، إذ لم يكن يريد أن يسمع عن أولئك الناس الذين ضاجعتهم، ويتخيّل جسدها العاري في الفراش مع جسد آخر، يتباهى بانتصاب طويل متضخّم، كان يوغل في الشّقّ ما بين ساقيها المنفرجتين، لا أسماء ولا صفات، رجاءً، حتّى إنه لا يريد تفصيلاً واحداً من أي نوع، وحيث إنه لم يسألها سؤالاً واحداً من الأسئلة التي كانت تتوقّعه أن يطرحها، تشبّثتْ به بأقصى ما يمكنها من إحكام لأجل ذلك.

كان الربيع الأبهى في حياته، ربيع أن يكون مع إيمي من جديد، أن لديه إيمي كي يتحدّث إليها من جديد، أن يعانق إيمي العارية بذراعيه من جديد، أن يصغي إلى إيمي تنفجر وهي تنتقد جونسون والمخابرات المركزية الأميركية لنقل عشرين ألف جندي إلى جمهورية الدومينيكان لمنع

المؤرِّخ - الكاتب خوان بوش المنتخَب بنزاهة من المطالبة باستعادة رئاسته، لأنه ربّما كان تحت النفوذ الشيوعي، والذي لم يكن صحيحاً، ولماذا تتدخّل أميركا في شؤون ذلك البلد الصغير، وهي بطبيعة الحال تعيث فساداً هائلاً في أجزاء أخرى من العالم؟ كم أُعجب فيرغسون بها لبراءة سخطها، وكم يُغْنيه أن يمضي نهايات الأسبوع برفقتها في نيويورك من جديد، التي ستكون خلال أشهر قصيرة قليلة المكان الذي يعيش فيه هو الآخر، وسوى إيمي كان هناك الربيع العذب، لأن همومه فيما يتعلّق بالسنة القادمة باتت وراءه، أي أنه سيمكنه التّخفّف من أعبائه الزائدة للمرّة الأولى في السنوات كلها التي قضاها في المدرسة، تماماً كما يتخفّف شخص آخر في صفّ الطلاب المتقدّمين خلال هذين الشهرين الـ *dolce far poco الحلوَين قليلاً*، اللذين يخفّفان من وقع الصراعات القديمة والضغائن، فيبدوان كأنهما يقوّيان الأواصرَ ما بين الناس وكأن نهاية حيواتهم جميعاً توشك على القدوم، وبعد ذلك، حين يصبح الطقس أكثر دفئاً، ستكون هناك الطقوس الجديدة التي كان يقيمها مع والده، يستيقظ الاثنان في السادسة من صباح نهاية الأسبوع، ويغادران المنزل في السادسة والنصف لساعة أو ساعة ونصف من التنس على الملاعب العامّة الخاوية، كان والده ذو الواحد والخمسين عاماً لا يزال قادراً على التّفوّق عليه في كل شوط بفارق نقاط 2-6 و3-6، لكن التدريب كان يعيد فيرغسون مفعماً بالحيوية، وبعد طول استرخاء دون رياضة منذ يوم الانفصال، أصبح التنس يلبّي الحاجة القديمة والمتجدّدة فيه، وكان سعيداً في رؤية والده يفوز، سعيداً كم أشاح من ألم رجل كبير السّنّ أنهى متجره، وباع مخزون أجهزة التلفاز والراديو وأجهزة التكييف المتبقّية بتخفيض ثلث قيمتها، نصف قيمتها، ثلثي قيمتها، الكفاح قد انتهى الآن، لم يعد والده يبالي بأي شيء، طموحاته السابقة كلّها تبدّدت إلى هواء رقيق، ومع مسعى والدته في إنهاء عملها هي الأخرى، خطّط كل منهما لإخلاء المكانين في الثلاثين من أيّار، ومباشرة عمليهما الجديدين في منتصف حزيران، كان هناك شيء ما طائش يحيق بهما في ذلك الربيع، طائش كالذي يصيب الأولاد الصغار الجذلين حين يقبض أحد ما على كواحلهم، ويقلبهم رأساً على عقِب، كما حدث بالضرورة له ولـ إيمي عندما حدث وتقافزا مع ارتداد نوابض السرير عاريين في لحظات الظلام الدامس تلك من الماضي البعيد، وكم كان من حسن الطالع أنه حتّى بعد أن سلمتْ أمّه إشعارَ مغادرتها صحيفة مونتكلير تايمز، لم يعمد إنهوف إلى طرده انتقاماً، بذلك يكمل فيرغسون تغطية مباريات منتخب مونتكلير في البيسبول مرّتين في الأسبوع، ومع حقيقة أن بوبي جورج في طريقه إلى موسم يكون فيه ضمن الفريق الأوّل على مستوى الولاية، ومن المرجّح جداً أن يحدث ثمّة تواصل ما مع نادي الدوري الرئيس، كان فيرغسون متأثّراً بالطريقة العالية التي كان بوبي يتعامل بها مع نجوميته المكتشفة

حديثاً، التي جعلت منه الشغل الشاغر للمدرسة، ورغم أنه لم يزل يكابد الأمرّين في دراسته، ولم يستطع مقاومة الضحك للنكات غير المضحكة عن بنات المزارعين والباعة الجوّالين، كان هناك هالة عظمة تحيط به، هالة كانت تنزُّ ببطء على بوبي، وتغيّر كيفية تعامله مع نفسه، أما الآن وقد بدأت مارغريت أومارا بالتّحدّث إليه، بات من النادر رؤية بوبي يتجوّل في المحيط دون ابتسامة تطفو على وجهه، الابتسامة العذبة ذاتها التي تذكّرها منذ كانا معاً كأولاد في سنّ الرابعة والخامسة من عمريهما.

أحد أفضل الأشياء عن ذلك الربيع الجميل كان استباق الصيف، وإعداد الخطط مع إيمي للرحلة للذهاب إلى فرنسا، في رحلة تمتدّ شهراً من أواسط تمّوز وحتّى أواسط آب/ أغسطس، شهر واحد لأن ذلك كان كل ما بوسعهما تأمينه بعد لملمة المال الذي وفّراه من أعمال الصيف الفائت، دَخْل فيرغسون من مقالاته في مونتكلير تايمز الذي لم ينفَق على الوقود لسيّارته والهامبرغر لمعدته، وهدية تخرّج عظيمة من جدّيّ فيرغسون (خمسمائة دولار)، مساهمة أصغر من جدّ إيمي لوالدها، ومبالغ اقتُطعت من كلا عائلتيهما، التي ستغطّي تكاليف الحياة الأساسية لأربعة أسابيع ونصف بعد إسقاط ثمن تذاكر الطيران، لذلك بدل حشوِ جولة أوروبية كبيرة في وقت محدود الأجل، اختارا الالتزام ببلد واحد، والانغماس فيه بالقدر الذي يستطيعان. كانت فرنسا الخيار الحتميّ، لأنهما كانا يدرسان الفرنسية، ويرغبان بأن يصبحا أكثر طلاقة بتلك اللغة، ولأن فرنسا كانت مركز الأشياء كلّها التي لم تكن أميركية، هناك أفضل الشعراء، أفضل الروائيين، أفضل السينمائيين، أفضل الفلاسفة، أفضل المتاحف وأفضل الأطعمة، ومن دون أمتعة تتجاوز حقيبة على ظهر كلّ منهما غادرا الأرض الأميركية من مطار كينيدي في الثامنة والنصف من مساء الخامس عشر من تمّوز، بعد يوم واحد من الاحتفال السنوي بتحرير الباستيل في فرنسا. كانت تلك رحلتهما الأولى إلى الخارج. بالنسبة إلى فيرغسون، كانت المرّة الأولى التي يستقلّ فيها طائرة، ما يعني أنه للمرّة الأولى في حياته يقطع التّماس بالأرض.

لباريس الشطر الأكبر، باريس لاثنين وعشرين يوماً من الواحد والثلاثين التي أمضياها في فرنسا، مع رحلة بالقطار إلى الشمال (نورماندي وبريتاني)، وجولات على شاطئ أوماها، جبل سان ميشيل، ومعقل عائلة شاتوبريان في سان - مالو)، ورحلة إلى الجنوب (مرسيليا، آرل، أفينيون ونيم). أخذا عهداً على نفسيهما بأن يتحدّثا بالفرنسية فيما بينهما معظمَ ما أمكنهما من الوقت، وأن يتجنّبا السّيّاح الأميركيين، وأن يشرعا بفتح الأحاديث مع أبناء البلاد للتّدرّب على لغتهما الفرنسية، أن يقرآ الكُتُب والصحف الفرنسية فحسب، أن يشاهدا الأفلام الفرنسية فحسب، وأن يرسلا إلى الوطن بطاقات بريدية مكتوبة بالفرنسية. كان النُّزُل الباريسي الذي أقاما

فيه مغموراً للغاية حتّى إنه لم يحمل اسماً. فقط عُلّقتْ لافتة فوق الباب حملتْ كلمة فندق، والغرفة البسيطة التي احتلاها تطلّ على شارع كليمينت في الدائرة السادسة، تماماً قبالةَ سوق سان - جيرمان، الغرفة الصغيرة، لكنْ، المتسعة ما يكفي *chambre dix-huit الغرفة الثامنة عشرة*، التي لم تحتوِ هاتفاً أو تلفازاً أو مذياعاً، وكانت مجهّزة بمغسلة للماء البارد، لكنْ، دون تواليت، بتكلفة عشرة فرنكات لليلة، ما يعادل دولارين، أي دولار لكل شخص، والفرق الذي نجم عن وجود التواليت في الردهة السفلى تجلّى في أنه لم يكن خالياً دائماً حين تريد استعماله، أو أن حجرة الاستحمام كانت صندوقاً معدنياً ضيّقاً حُشر في الجدار الذي يعلو الأدراج، ولم يكن شاغراً بشكل دائم حين تحتاج إلى الاستحمام، الأمر الأهمّ أن الغرفة كانت نظيفة ومضاءة، وأن السرير كان كبيراً ما يكفي، لأن ينام شخصان براحة عليه، والأكثر أهمّيّة واقع أن مالك الفندق، وهو رجل بدين ذو شاربين يُدعى أنطوان، قد لا يكون اهتمّ لأمر أن فيرغسون وإيمي كانا يتشاركان السرير، رغم وضوح أنهما ليسا متزوّجين، وأنهما صغيران، لدرجة يبدوان كأولاد أنطوان.

كان ذلك الأمر الأوّل الذي زاد من حبّهما لفرنسا (اللامبالاة المباركة بحياة الآخرين الخاصّة)، لكن أموراً أخرى سرعان ما انضافت، مثل الحقيقة صعبة الفهم بأن كلّ شيء في باريس بدا أنه يضوع برائحة أجمل من روائح نيويورك، ليس فقط المخابز والمطاعم والمقاهي بل حتّى أدنى تفصيل داخلَ المترو، حيث كان المنظِّف المستخدَم لغسيل الأرضيات ينشر رائحة، تكاد تُماثل العطر، في حين أن أنفاق قطارات نيويورك كان يسودها العفن، وغالباً لا تصلح لأن يتنفّس المرء داخلها، والتّغيّر الدائم في السماء، بالغيوم التي تتكاثف في الأعلى باستمرار، ثمّ تتفرّق، الذي خلق نوعاً وامضاً ومتغايراً من الضوء الذي كان ناعماً وممتلئاً بالدهشة، وشمال خطّ العرض الذي أبقى سماء منتصف الصيف متوهّجة لعدّة ساعات، تزيد على ساعات توهّجها في أميركا، لم يكن يحلّ الظلام قبل العاشرة والنصف أو الحادية عشرة إلا ربعاً في الليل، ومتعة التّجوّل ببساطة في الشوارع، أن تكون ضائعاً، ورغم ذلك لستَ ضائعاً كلّيّاً، كما في شوارع الـ فِلجْ في نيويورك، لكنْ، أمامكَ الآن مدينة بكاملها تشبه الـ فِلجْ، من دون شبكات معدنية فاصلة، وبوجود القليل من الزوايا القائمة في الأحياء التي زاراها كأنها ممرّ واحد متعرّج، مرصوف يلتفّ ويصبّ في آخر، وبالطبع كانت هناك المأكولات، *la cuisine française المطبخ الفرنسي*، التي يلتهم المرء بنشوةٍ وجبة المطعم التي كانا يتناولانها كل ليلة بعد إفطار من الخبز بالزبدة والقهوة (*tartine beurre and café crème*) وغداء شطائر لحم الخنزير المدخّن محليّ الصنع (jambon de Paris) أو شطائر الجبنة محلّيّة الصنع (gruyère، camembert، emmental)، والعشاء الليلي في المطاعم الجيّدة، ولكنْ، الرخيصة الشهيرة باسم *أوروبا*

بخمسة دولارات *في اليوم*، وفي أماكن مثل Le Restaurant des Beaux Arts وWadja في مونبارناس وLa Crèmerie Polidor (يُفترَض أنه من الأماكن التي كان جيمس جويس يتناول طعامه فيها)، غاصا في الأطعمة والأطباق التي لم يصادفاها في نيويورك أو أي مكان آخر، poireaux vinaigrette، rillettes، escargots، celeri remoulade، coq au vin، pot au feu، quenelles، bavette، cassoulet، fraises au creme chantilly، وعبوة السّكّر الخدّاع المعروفة باسم baba au rhum. خلال أسبوع من الوصول إلى باريس، تحوّلا إلى مناصرَين سريعَين للتقاليد الفرنسية، ترافق ذلك مع جهر إيمي الفجائي بقرارها بأن تختصّ بالأدب الفرنسي، إذ كانت منهمكة بقراءة روايات فلوبير وستاندال، كذلك بدأ فيرغسون أولى محاولاته المؤجّلة في ترجمة الشِّعْر الفرنسي في أثناء مكوثه في الـ*chambre dix-huit* أو المقصورة الخلفية في الـ La Palette ويقرأ للمرّة الأولى أبولينير وإيلوار وديسنوس، والشعراء الفرنسيين الآخرين في فترة ما قبل الحرب.

من نافل القول إن لحظاتٍ مرّت وتشاجرا خلالها، واستثار كلٌّ منهما أعصاب الآخر، فقد كانا معاً في كل ثانية من ثواني الواحد والثلاثين نهاراً وليلاً، وإيمي كانت من نوع الأشخاص المعرّضين لهبّاتٍ متناوبة وحَرَنٍ مع لسان سليط، ولدى فيرغسون قابلية للوقوع في شرود استبطاني كالح و/أو صمت عَصيّ عن التفسير، لكن أيّاً من خلافاتهما لم تدم أكثر من ساعة أو اثنتين، ومعظمها إن لم نقل كلّها وقعت وهما في الشارع، تحت تأثير السفر أو ليالي استعصاء النوم في القطارات. ومن نافل القول أيضاً، إن أميركا كانت ماثلة على الدوام في ذهنيهما خلال الرحلة، حتّى وإن كانا سعيدين خارجها في ذلك الوقت، وتحدّثا مطوّلاً بشأن الأمرين الاثنين المشجعَين اللذين حصلا حين غادرا - والأمران هما: مصادقة جونسون على مشروع قانون الضمان الصّحّيّ لكبار السّنّ في الثلاثين من تمّوز، ومن ثمّ مرسوم حقّق الاقتراع في السادس من آب - وأيضاً بشأن الأمر المفجع الذي حدث في الحادي عشر من آب، قبل خمسة أيّام فقط من طيرانهما عائدَين إلى الوطن: الشغب العِرْقي في لوس أنجلوس، شغب السّكّان السود المحتدم في ضاحية اسمها واطس. التي عقبت عليها إيمي قائلة: انسَ أمر دراسة الفرنسية. هاجسي الأوّل هو *عدالة واحدة إلى الأبد*. التاريخ والعلوم السياسية. وإجلالاً لهذا الاقتراح، رفع فيرغسون نظّارتين متخيّلتين، وقال: لا تسألْ ماذا يمكن أن تقدّمه لكَ بلادكَ. اسأل إيمي شنايدرمان أن ترأسَ بلادكَ.

في اليوم الذي سبق موعد عودتهما إلى نيويورك، أجريا جولتين استطلاعيتين مربِكتين: 1) اشتريا الكثير من الكُتُب كي ينقلاها بالطائرة؛ 2) كان ما لديهما من مال قد انخفض حتّى الشّحّ - والسبب دون شكّ أن شراء الكُتُب لم يكن مُدرَجاً ضمن ميزانيتهما. وانخفض وزن كليهما

خلال شهرهما الذي أمضياه في الخارج (فيرغسون سبعة أرطال، إيمي خمسة أرطال)، لكن ذلك كان متوقَّعاً من شخصين قرّرا العيش على وجبة كاملة واحدة في اليوم، ورغم هذا التقتير إلا أنهما أفرطا في الإنفاق بزياراتهما المتكرّرة إلى متاجر الكُتُب، وأغلبها إلى مكتبة غاليمار على الجهة المقابلة لكنيسة سان - جرمان وإلى متجر يديره الناشر اليساري فرانسوا ماسبيرو مقابلَ كنيسة سان سيفيرين، وبالإضافة إلى الواحد والعشرين مجلداً من الشِّعْر التي اشتراها فيرغسون والإحدى عشرة رواية سميكة التي ابتاعتها إيمي، لم يستطيعا مقاومة شراء عدد من الكُتُب السياسية لـ فرانتز فانون (*المعذَّبون في الأرض Les Damnés de la terre*)، بول نيزان (*عدن العربية Aden Arabie*)، وجان بول سارتر (*مواقف* بأجزائه الثلاثة *situations I، II،III*)، ممّا رفع الإجماليّ إلى سبعة وثلاثين كتاباً. وبسبب ذلك تبدّدتْ بضع ساعات من يومهما الأخير في باريس في ترتيب الكُتُب ضمن صناديق كرتونية، ثمّ جرّها إلى مكتب البريد، كي تُشحَن إلى شقّة إيمي على غربي الشارع 111 (كلّها إلى شقّة إيمي، بما فيها التي تعود لـ فيرغسون، لأن والديه قد قبضا الدفعة الأولى من ثمن منزلهما في أوائل حزيران، ولم يكن واضحاً أنهما لا يزالان يعيشان في مونتكلير أو انتقلا إلى مكان آخر الآن)، وبإضافة تكلفة الطوابع المطلوبة لإرسال هذه الصناديق عبر المحيط بواسطة سفينة بطيئة - مع توصيل متوقّع مع حلول عيد الميلاد - استنزف ما تبقّى لديهما من مال احتفظا به عند الظهيرة إلى أربعة عشر دولاراً، سيذهب ثمانية منها أجرة للحافلة التي تقلّهما إلى المطار في الصباح. أما مشروعهما بوجبة وداعية كبيرة في Restaurant des Beaux Arts ذلك المساء، فقد فشل بسبب ذلك، واختصراه إلى هامبرغر كاسد وجاف في ويمبيز على بوليفار سان - ميشيل. لحسن الحظّ، كلاهما وجد الأمر مضحكاً، فتخطيط سيّئ بهذا المستوى أثبت أنهما كانا في الواقع أكثر البشر سخفاً على الأرض.

هكذا عاد ابنا الثامنة عشرة النحيلان، الرثيثان من مغامراتهما في بلاد الغال، يجرجران أقدامهما نحو مركز مطار نيويورك الأخير بحقيبتي ظهريهما المتخمتين، وشعر رأسيهما الأشعث، ولحظة عبرا نقطة فحص الجوازات والجمارك، فتح والدا كلّ منهما أيديهما مرحباً بعودتهما، يسلّمان عليهما بالحماسة والحرارة اللتين عادةً ما يُحتَفَظ بهما للأبطال العائدين من الحرب ومستكشفي القارات. إيمي وفيرغسون، اللذان رتّبا مسبّقاً للقاء في غضون يومين، قبّل كلّ منهما الآخر على سبيل الوداع، ثمّ مشوا كَمَنْ في (مارشٍ عسكري) برفقة عائلتيهما الموقّرتين، كي يستقلّ الجميع سيّاراتهم متّجهين إلى البيت للاستحمام، وقصّ الشَّعْر، وزيارات قصيرة مع الأهل والأجداد والعمّات والأعمام.

وكما علم فيرغسون بشكل سريع وهم في طريقهم إلى السّيّارة، لم يعد بيتُهم منزلَ مونتكلير،

بل شقّة ضمن حيّ وِكوايك في نيوارك. لم يبد أحدٌ من والديه مستاءً من هذه النقلة إلى الوراء باتّجاه الضواحي، هذا الانحدار الواضح في الوضع الاجتماعي، أو الوضع الاقتصادي، أو الوضع العالمي، أو ضمن أيّ معيار لما يسمّى نجاحاً أو هبوطاً في الحياة الأميركية، الذي أعفاه من واجب الشعور بالاستياء بالنيابة عنهما، رغم أنه في الحقيقة لم يبالِ بشكل أو بآخر.

كانت أمّه تضحك. ليس لأننا عدنا إلى نيوارك، قالت، بل لأننا في البناء نفسه الذي كنّا نسكنه في بداية زواجنا - Van Velsor Place 25. ليست الشّقّة ذاتها، بل أخرى في الطابق نفسه، الطابق الثالث، تماماً قبالة الردهة، حيث قضيتَ أوّل ثلاث سنوات من حياتكَ. شيء غريب للغاية، ألا تظنّ ذلك؟ أتساءلُ إن كنتَ تتذكّر شيئاً منها. هي شقّة مطابقة لهذه، يا آرتشي. ليست هي ذاتها، بل مثلها بالضبط.

بعد ساعة، عندما جال فيرغسون شقّة الغرفتين في الطابق الثالث من Van Velsor 25 Place، غلبه التّأثّر كيف سرّبَتْ الدفء والحميمية بعد وقت قصير كهذا. كان والداه قد نجحا في التّوصّل إلى الاستقرار خلال ثلاثة أسابيع فقط، ومقارنةً بالحدود الخانقة لـ *chambre dix-huit*، فاجأه اتّساع حجمها. لا شيء مثل المنزل في مونتكلير، بالتأكيد، لكنها كبيرة ما يكفي.

حسناً، يا آرتشي؟ قالت والدته، بينما كان يدخل ويخرج من الغرف، هل استعدتَ شيئاً من الذكريات؟

تمنّى فيرغسون لو أنه استطاع تذكُّرَ ملاحظة لمّاحة، ليردّد صدى الأمل في صوت أمّه، لكنْ، كان كلّ ما استطاع فعله، أن يهزّ رأسه، ويبتسم.

لمْ يتذكّر شيئاً.

4.2

4.3

استُهلَّ صيف 1962 بسفر إلى مكان بعيد، وانتهى بسفر ثانٍ إلى مكان أبعد، أربع رحلات ذهاب وإياب بالطائرة، قادت فيرغسون إلى كاليفورنيا (بمفرده)، وإلى باريس (مع أمّه و'جيل')، حيث أمضى ما يُقدَّر بأسبوعين ونصف دون أن يقلق بشأن اللوذ بـ أندي كوهن. ما بين رحلتيه، مكث في بيت جادّة ريفرسايد، متجنّباً صالة ثاليا، لكنه ذهب لحضور ما استطاع من الأفلام القديمة والجديدة، وشارك في دَورِيَي كرة سلّة خارجيين، وبناء على اقتراح 'جيل'، قرأ للمرّة الأولى الأدب الأميركي في القرن العشرين (بابيت، تحويلة مانهاتن، ضوء في آب، في زماننا، غاتسبي العظيم)، لكنْ، بالنسبة إلى فيرغسون ابن الخمسة عشر عاماً، الذي لم يحدث أن وقعت عينه على أندي كوهن خلال الأشهر الفاصلة بين سنته الأولى وبين الثانية، كان شطرُ الصيف الجدير بأن يبقى في الذاكرة هو السفر بالطائرة للمرّة الأولى ومشاهدته ما شاهد وقيامه بما قام به في كاليفورنيا وباريس. جدير *بأن يبقى في الذاكرة*، بالتأكيد، لم يعنِ أن ذكرياته كلّها كانت جيّدة، لكنْ، حتّى الأسوأ بينها، الذكرى التي استمرّت باستثارة أشدّ الألم فيه، قد نتجت عن تجربة ثبتَ أنها ذات أثر توجيهي له، أما وقد تعلّمَ درسَه الآن، فإنه يأمل بألا يرتكب الخطأ ذاته مرّة أخرى.

كانت رحلة كاليفورنيا هديةَ الخالة ميلدرد له، القريبة المراوغة والغامضة القديمة التي قاطعت زفاف أختها في 1959، ولاحَ أنها لم تعد تريد شيئاً آخر يربطها بالعائلة، لكنها عادت إلى نيويورك مرّتين منذ لقاء الازدراء الكريه ذلك، غير المفهوم، مرّة في مأتم أبيها سنة 1960 ومرّة أخرى في مأتم والدتها سنة 1961، وها هي الآن تعود إلى جذورها، بشروط جيّدة في إنصافها مع أختها مرّة أخرى، وبشروط ممتازة مع صهرها الجديد، وكان سلوكها مختلفاً جدّاً، إذ إنها في زيارتها الثانية جاءت بإرادة مسبّقة إلى العشاء في شقّة ريفرسايد، حيث كان أحد المَدعوّين زوجها الأوّل، بول ساندلر، عمّ فيرغسون السابق، الذي بقي صديقاً وفياً لعائلتي إدلر - شنايدرمان، كان بول ساندلر برفقة زوجته الثانية، رسّامة صريحة، طلقة اللسان تُدعى جوديث بوغات، وكان فيرغسون مذهولاً لرؤية كم كانت خالته تشعر بالارتياح في ذلك العشاء، تتبادل المزاح مع زوجها السابق، وكأنه لم يكن بينهما سجلّ حافل، تحدّث جيل عن التّقدّم في مشروع مركز لينكولن الذي

لم يكتمل بعد، تتنازل وبشكل صادق، فتشكر أختها على بعض صورها الأخيرة، وتسأل فيرغسون أنواع الأسئلة اللطيفة والعسيرة كلها عن الأفلام وكرة السّلّة ومتاعب المراهقة، الذي انتهى إلى دعوة فجائية دفّاقة لزيارتها في بالو ألتو - *على نفقتها* - وهكذا رُتّب أمر سفر ابن أختها لقضاء أسبوع معها بعد نهاية السنة الدراسية. بعد ساعتين، وقد خرج ضيوف العشاء في الليل، سأل فيرغسون والدته لماذا بدت الخالة ميلدرد مختلفة الآن عن ما سبق، سعيدة للغاية؟

أظنّ أنها تعيش قصّة حبّ، أجابت والدته. لا أعرف شيئاً عن التفاصيل، لكنها ذكرت شخصاً اسمه سيدني مرّتين، ولديّ شعور بأنهما ربّما يسكنان معاً الآن. لا تستطيع التّكهّن بما لدى ميلدرد، لكنْ، ليس ثمّة شكّ بأن مزاجها رائق هذه الأيّام.

كان يتوقّع أن تنتظره الخالة ميلدرد في المطار، لكن شخصاً آخر كان بانتظاره في مركز الخروج نهارَ وصل سان فرانسيسكو، شابّة قد تكون في الخامسة والعشرين أو السادسة والعشرين، وقفتْ قرب بوّابة الخروج، وهي تحمل نسخة من كتاب ميلدرد عن جورج إليوت، ضئيلة الحجم، ذات مظهر مفعم بالحياة، فتاة بمسحة جمال وشَعْر قصير بنّيّ، ترتدي جينزاً أزرق مَطوِيّاً من الأسفل، وقميصاً مزيّناً بمربّعات حمراء وسوداء، وبوطاً برأسين مدبّبين، يحاكي جلد التمساح، ومنديلاً أصفر حول عنقها - ابنة الغرب الأولى التي يلتقيها فيرغسون، راعية بقر أصيلة!

كان الـ Sidney الذي تحدّثتْ أمّه عنه في الواقع Sydney، سيدني تحمل اسماً أخيراً هو ميلبانكس، وهكذا صحبتْ الشّابّة المسافِرَ المرهَق إلى خارج المركز، وقادته إلى سيّارتها في ساحة رَكْن السّيّارات، وشرحت له أن ميلدرد كانت تُدرِّس حصصاً صيفية في ذلك الربع من العام، وأنها استُبقيَتْ لحضور اجتماعٍ للقسم في الجامعة، لكنها ستنضمّ إليهما على العشاء في البيت خلال ساعتين.

تنشّقَ فيرغسون أوّل أنفاسه من هواء كاليفورنيا، وقال: أأنتِ الطّبّاخة؟

طبّاخة، مدبّرة منزل، مدلّكة ظَهْر، شريكة فراش، أجابت سيدني. أرجو ألا تكون قد صُدمت بذلك.

الحقيقة أن فيرغسون صُدِم بعض الشيء، أو على الأقلّ فوجئ، أو ربّما ارتبك، فهذه أوّل مرّة يسمع باثنين من الجنس نفسه يعيشان معاً، ولم يقل له أحد أو أفلتَ أوهى تلميح أن هذه الخالة كانت في السّرّ تفضل أجساد النساء على أجساد الرجال. وللطلاق من العمّ بول تفسير الآن، أو بدا أن له تفسيراً، لكن الأكثر إثارة للانتباه أن راعية البقر سيدني لم ترَ مشكلة في إخفاء الحقيقة عنه، وكان في صراحتها ما يدعو إلى الإعجاب، كما جال في خلده، إنه شيء جميل ألا

تشعر بالخجل لأنكَ مختلف، ولذلك بدلاً من الاعتراف بأنه صُدم أو ارتبك قليلاً بهذه المجاهرة غير المتوقَّعة، ابتسم فيرغسون، وقال: لا، على الإطلاق. أنا فقط سعيد أن الخالة ميلدرد لم تعد وحيدة.

استغرقت الرحلة من مطار سان فرانسيسكو إلى المنزل في بالو ألتو نحو أربعين دقيقة، وبينما كانت سيدني تنحرف عن الطريق السريعة بسيّارتها الـ ساب الخضراء المصفرّة، أخبرت فيرغسون بأنها تعرّفت إلى ميلدرد منذ سنوات عندما كانت تبحث عن مكان جديد، تسكن فيه، واستأجرت شقّة الكراج الملحقة بالبيت. بمعنى آخر، كان تعارُفَ مصادفة، شيئاً لم يكن ليحدث لو أنها لم تتعثّر بأربعة سطور طُبعت بالأحرف الصغيرة في إحدى الصحف، ولم يمضِ إلا وقت قصير على إقامتها حتّى أصبحتا صديقتين، وبعد شهرين من ذلك، وقعتا في الحبّ. لم تعاشرْ أيّ منهما امرأةً من قبل، لكننا على أحسن ما يرام، قالت سيدني، أستاذة جامعية ومعلّمة مدْرسة للصّفّ الثالث، امرأة في بدايات أربعينها، وامرأة في منتصف عشرينها، يهودية من نيويورك، ومسيحية ميثودية من ساندانسكي، أوهايو، اجتاحهما أعظم رومانس في حياتيهما. كان الأمر الأكثر إرباكاً، استطردت سيدني، أنها لم تفكّر بامرأة في الماضي، كانت أبداً البنت الشغوفة بالفتيان، وحتّى الآن، بعد أن *ساكنتْ* امرأةً قرابة سنوات ثلاث، لم تزل تُنكر أنها سحاقية، كانت ببساطة شخصاً يحبّ شخصاً آخر، ولأن ذلك الشخص الآخر كان جميلاً وسالباً للّبّ ولا يشبه أحداً سواه في العالم، ماذا سيكون الفرق حين يكون الحبيب رجلاً أو امرأة؟

ربمّا لم يكن من المستحسن أن تتحدّث إليه بتلك الطريقة. لا شكّ أن شيئاً ما كان مريباً، ولعله لا يليق بامرأة ناضجة أن تشارك فتى في الخامسة عشرة هذه الخصوصيات، غير أن فيرغسون ابنَ الخمس عشرة سنة طربَ لانفتاحها، فلم يحدث في أي مرحلة من مراهقته أن كان راشدٌ ما شديدَ الأمانة معه فيما يختصّ بالتّشوّش والغموض اللذين يحيقان بالحياة الجنسية، ورغم أن فيرغسون للتّوّ تعرّف إلى سيدني ميلبانكس، أقرَّ بأنه شعر بالأُلفة تجاهها، بأنه شعر بالألفة بشكل مهول، ولأنه هو نفسه كان في صراع مع المسائل ذاتها خلال الأشهر العديدة الماضية، جاهداً لأن يتبيّن أين موطئ قدمه على سلّم رغبةِ الفتى - الفتاة، وفيما إذا كان ينتمي إلى منطقة الفِتيان والفتيات أو الفتيان والفتيان أو الفتيات والفتيان بشكل متناوب، فقد شعر بأن هذه الكاليفورنية راعية البقر، هذه العاشقة للنساء والرجال، هذه (الشخص) التي دخلت حياته منذ لحظات، والتي كانت تُقلّه إلى منزل خالته في بالو ألتو، قد تكون *الشخص* الذي يستطيع التّحدّث إليه دون خوف من أن يُهزأ به أو يُهانَ أو يّساءَ فهمُه.

أتّفق معكِ، قال فيرغسون. لا يهمّ إن كان الشريك رجلاً أو امرأة.

العديد من الناس لا يفكّرون بهذه الطريقة، يا آرتشي. أنتَ تعلم بالأمر، أليس كذلك؟

نعم، أعلم، لكنني لستُ 'العديد من الناس'، أنا نفسيَ فقط، والشيء العجيب عنّي حتّى الآن أن الجنس الوحيدَ الذي مارستُه كان مع فتىً آخر.

هذا شائع للغاية لمَنْ هم في مثل سنّكَ. شائع جدّاً، لدرجة أنه لا يجب عليكَ أن تقلق حياله - إن كنتَ أصلاً تعاني القلق. ما الذي يمكن للصبي فعله، صحيح؟

ضحك فيرغسون.

آمل أنكَ استمتعتَ بالأمر على الأقلّ، قالت سيدني.

استمتعتُ بِ*الأمر*، لكنْ، بعد فترة لم أعد أستمتع معه، لذلك وضعتُ حدّاً للأمر.

وأنتَ الآن تتساءل: ما التالي؟

إلى أنْ أحظى بفرصة ممارسته مع بنت، فلن أعلم حقّاً ما التالي.

ليس هناك الكثير من المرح في أن تكون في الخامسة عشرة، هل ذلك صحيح؟

لهذا العمر لحظاته الطّيّبة، كما أظنّ.

حقّاً؟ سَمِّ لي إحداها.

أغمض فيرغسون عينيه، تردّد لوهلة طويلة، ثمّ التفتَ إليها، وقال: أجمل شيء في أن تكون في الخامسة عشرة أنه لن يتعيّن عليكَ أن تكون في الخامسة عشرة بعد سنة.

لم يكن في كاليفورنيا ذباب ولا بعوض، والجوّ في بالو ألتو كان يفوح برائحة علبة من أقراص السعال، حبّاتِ الحَنْجَرَة لاذعة الحلاوة بنكهة الكينا، وقد تبيّن أن أشجار الكينا تنتشر في كل مكان، لتضفي عطراً نفّاذاً، بدا أنه يطهّر قنواتك الشميّة كلّما تنشّقتَه. إنه Vicks VapoRub يوزَّع بالمجّان في أجواء شمال كاليفورنيا لصحّة السّكّان من البشر وسعادتهم!

بالمقابل، أوحت البلدة لـ فيرغسون بالغرابة، مكان أقلّ واقعية من فكرة المكان، مركز استيطاني شبه – مدينيّ – شبه - ريفيّ رسم خطوطه مصمّمٌ فنّان، لا يحتمل التراب والنقص، الذي جعل البلدة تبدو مملّة وصنعية، مثل مدينة سبوكفيل/ الدّمْية الطريفة الصغيرة المسكونة بأناس بقصّات الشَّعْر المشذّبة والأسنان القويمة البيضاء، والكل يرتدي الملابس الجميلة العادية حديثة الموضة. لحسن الحظّ، لم يمضِ فيرغسون وقتاً طويلاً هناك، وخلال إقامته خرجَ مرّة واحدة مع سيدني لتسوّق الخضراوات وسواها في أكبر وأنظف وأجمل متجر زاره في حياته، ومرّة

لملء الوقود في سيّارتها الـ ساب البدائية، بمحرّكها الذي يشبه محرّك آلة جزّ العشب (مقدار واحد من الزيت لكلّ سبعة مقادير بنزين، تُدلَق معاً في خزان الوقود)، ومرّتين إلى مسرح دار فنون محلّيّة لمشاهدة الأفلام خلال أسبوع مهرجان كارول لومبارد (صديقي غودفراي، أن نكون أو لا نكون)، في المقام الأوّل، لأن سيدني اعتقدت أن ميلدرد تشبه إلى حدّ كبير كارول لومبارد، الأمر الذي، بعد تفكير، وافق عليه فيرغسون على أنه يكاد يكون صحيحاً، لكنْ، ما أروع هذين الفيلمين الكوميديين، والآن بعد أن شاهدهما، لم يحظ فيرغسون بممثّلة جديدة يُعجب بها، بل بالتبصّر في دخيلة الخالة ميلدرد، التي أضحكها الفيلمان أكثر ممّا أضحكَ أيَّ أحد آخر، وحيث إن والدة فيرغسون طالما أخبرته كم كانت أختها الكبرى تقلّدها ساخرةً في الأيّام الخوالي بسبب التّعلّق المفرط بالسينما، تساءل إن كان الحبّ قد لطّفَ من موقف خالته تجاه ما أسمته يوماً *ترفيهاً منحطّاً وقمامة* أو أنها أبداً منافقة، تتحكّم بأختها بفرض ذائقتها وذكائها المترفّعين في سائر الأشياء بينما تخوض سرّاً في القمامة ذاتها كما فعل الجميع.

لمرّتين، غادر الثلاثة بالو ألتو وأمضوا اليوم كاملاً بالتّنزّه في سيّارة ميلدرد البيجو السوداء، في البداية إلى جبل تامالبيس يوم الأربعاء، برحلة عودة على امتداد الشاطئ، تضمنت وقفةَ ساعتين في خليج بودوغا، حيث تناولوا العشاء في مطعم يطل على المياه، ويوم السبت قصدوا سان فرانسيسكو التي استثارت عشرات الصرخات السياحية من فيرغسون المذهول وهم يصعدون ثمّ ينحدرون عن التلال بالغة الميلان قبل أن يتوقّفوا للغداء في مطعم صيني، حيث أكلَ الـ دِمْ سَمْ للمرّة الأولى (طعام لذيذ للغاية حتّى إن عينيه امتلأتا بالدموع وهو يُتخم نفسه بالتهام ثلاثة أصناف من الزلابية - دموعِ الشُّكْر، دموع المتعة، دموع الصلصة الحارّة التي اندفعت بقوّة من فتحتَي أنفه)، غير أن ميلدرد كانت في معظم الأوقات ضمن ذلك الأسبوع مشغولة بتدريس صفوفها وبالمؤتمرات الطلابية، الذي كان يعني أنه وحتّى عودتها للعشاء في السادسة أو السادسة والنصف سيبقى فيرغسون وحيداً أو مع سيدني، مع أنه أقلّ وحدة بكثير ممّا لو كان مع سيدني، التي كانت في إجازة عشرة أسابيع من مدرستها، بالضبط كما كان هو، ولأن سيدني تفوّقت في أن تكون *الشخص الأكثر كسلاً في العالم*، اللقب الذي طالما ظنّه فيرغسون ينطبق عليه حصرياً، فقد أمضيا جلَّ وقتهما معاً منبطحَين على الملاءات في الحديقة وراء البيت، الذي كان عبارة عن فيلا بطابق من الجصّ ذات سقف من الطين المشوي، أو في داخل البيت، الذي تناثرت فيه الكُتُب والتسجيلات على نحو لطيف، وكان البيت الأوّل الخالي من التلفاز الذي دخله فيرغسون أبداً، وحين مرّت أيّام، وأحبَّ أن يتعرف أكثر إلى سيدني، كان أسيرَ فكرة بأن راعية البقر متوسّطة الجمال تتحوّل إلى راعية البقر الجميلة، ثمّ إلى راعية

البقر الجميلة للغاية، فأنفها الطويل قليلاً الذي نظر إليه في البداية على أنه عيبٌ صدمه الآن على أنه مغوٍ ومميّز، وعيناها الرماديتان المائلتان إلى الزرقة اللتان لاحتا عاديتين تبدوان الآن مفعمتين بالحياة ومليئتين بالإحساس. تعرّفَ إليها منذ أيّام قليلة خلَتْ، لكنه شعر الآن بأنهما صديقان - إلى درجة كبيرة بالطريقة ذاتها، كما تخيّلَ، التي كان وابنة عمّه فرانسي يعيشانها في دنيا الماضي الموغل في البعد قبل حريق نيوارك.

ومضى الأمر على هذا المنوال طيلة الأيّام الخمسة الأولى من زيارته، هذا يعني أن الأيّام الثلاثة التي لم تُنذَر للتجّول في المحيط بسيّارة ملدرد، الأيّام اللطيفة والهادئة حين كان فيرغسون وسيدني يستلقيان في الحديقة الخلفية، ويتحدّثان عن كل ما يخطر لهما، ليس فقط مَنْ ضاجعَ مَنْ؟ ولماذا؟ بل أيضاً عن أيّام صِبا سيدني في أوهايو وفتوة فيرغسون المخاتلة في كل من نيوجرسي ونيويورك، عن السُّبُل المختلفة التي سُردتْ بها القصص في الكُتُب والأفلام المتع والخيبات في تدريس الفتية، عن ملدرد وكيف اعتراها الانفعال والتّوتّر لبقاء ابن أختها في البيت، الانفعال الناجم عن الأسباب الواضحة كلها، لكن التّوتّر كان بسبب أنها تردّدت في أن تفشي لابن أختها بطريقة الحياة التي تعيشها الآن، ما فسّر سبب طلبها من سيدني أن تنام في شقّة الكراج طيلة مكوث فيرغسون معهما، *كي نوفّر على الصبيّ أي نوع من الارتباك*، وكأنها قد حدّدته، أي ارتباكها هي، وحين سأل فيرغسون سيدني لماذا سارعت بإطلاعه على القصّة بعد دقائق من ركوبه سيّارتها في المطار، قالت راعية البقر الجميلة: أكره مسألة إخفاء المشاعر، ذلك كان السبب. فهذا يعني أنكَ لا تؤمن بحياتكَ الخاصّة بكَ، أو أنكَ تخاف حياتكَ الخاصّة بكَ، وأنا أؤمن بحياتي الخاصّة بي، يا آرتشي، ولا أريد أن أخاف منها.

قرابة الساعة الرابعة، سينسحبان متثاقلَين إلى المطبخ، كي يبدآ إعداد العشاء، متابعين الحديث وهما يفرمان البصل ويقطّعان البطاطا، كان الفرق بينهما في العمر اثني عشر عاماً، الذي كان بصورة عكسية أكبر من الخمس عشرة سنة التي تفصل بين سيدني وميلدرد، لكنْ، رغم ذلك كانا أقرب روحياً من قرب سيدني إلى ميلدرد، كما شعر فيرغسون، هجينتان متناقضتان مقارنةً بالأصلاء من جامعة ستانفورد، مشكلة طباع أكثر ممّا هي مشكلة عمر، كما افترضَ، لكنْ، حين عادت ميلدرد إلى البيت في السادسة أو السادسة والنصف، سيبدي فيرغسون انتباهاً مركّزاً إلى كيفية تعامل المرأتين قربه، واعياً إلى أن ميلدرد كانت تتظاهر بأنها غير مرتبطة بـ سيدني بالطريقة التي عرفَها أنها كانت عليها لحظةَ تجاهلت سيدني بعناد التوصيةَ بالتظاهر، لتُغدق كلمات الغزل على خالته ما بدا أنه جعل ميلدرد تشعر أكثر فأكثر بالإحراج بمرور الأيّام، فكلمات حبيبتي وملاكي وكعكة سُكَّري التي، دون شكّ، لن تسرّها إذ كان هو جالساً معهما إلى الطاولة،

وبعد خمسة أيّام، أحسّ فيرغسون بأنهما باتتا رهينتي الشقاق الصامت الذي أحدثَه حضوره، وفي مساء اليوم السادس، الذي كان قبل الأخير من انتهاء زيارته، شربتْ ميلدرد منحرفة الأهواء، والتي كان توتّرها يتصاعد على العشاء، الكثيرَ من النبيذ، وفي النهاية فقدت اتّزانها - فقدتْه لأنها أرادت أن تفقده، وكانت تحتاج إلى النبيذ كي يدفعها عن الحافّة - وكان المفاجئ في فورتها أنها لم تجلد سيدني، بل ابن أختها، وكأنه هو سبب متاعبها، ولحظة بدأتِ الإساءة، فهم فيرغسون أن سيدني قد كانت تتحدّث من وراء ظهره، أن راعية البقر قد غرّرتْ به.

منذ متى وأنتَ بلغاريّ، يا آرتشي؟ قالت ميلدرد.

بلغاريّ؟ أجاب فيرغسون. عمَّ تتحدّثين؟

قد قرأتَ *كانديد*، ألم تفعل؟ ألا تتذكّر البلغار؟

لا أدرك ما تعنين.

أعني البلغار اللوطيين buggering Bulgarians. من هنا تأتي الكلمة، كما تعلم. Bul-gar، bug-gar. *Bugger*.

وماذا يفترَض أن يعني ذلك؟

يعني رجالاً يمارسون الجنس مع رجال آخرين في الطيز.

لا أزال أجهل عمَّ تتحدثين.

عصفورة صغيرة أسرّتْ إليّ بأنكَ كنتَ تمارس اللواط مع صِبيةٍ آخرين. أو ربّما صِبية آخرون كانوا يمارسون اللواط معكَ.

عصفورة صغيرة؟

عند تلك الفاصلة، ألقت سيدني بنفسها في الحديث، وقالت: اتركيه وشأنه، يا ميلدرد. أنتِ سكرانة.

لا، لستُ سكرانة، قالت ميلدرد. أنا ثملة قليلاً، وذلك يخوّلني لقول الحقيقة، وحقيقة الأمر، يا عزيزي آرتشي، هي حقيقة أنكَ لا تزال أصغر من أن تخرج إلى الشارع الآن، وإذا لم تسيطر على نفسكَ، فستنقلب إلى شاذّ قبل أن تنتبه، وحينها لن تكون ثمّة فرصة عودة للوراء. هناك ما يكفي من الشّواذّ في هذه العائلة بطبيعة الحال، كما أخشى، وآخر ما نحتاجه أن يُضافَ شخص جديد.

دون أن ينبس بكلمة، نهض فيرغسون عن الطاولة، وبدأ خطوَه خارجاً من الغرفة.

إلى أين أنتَ ذاهب؟ سألتْ ميلدرد.

بعيداً عنكِ، أجاب فيرغسون. أنتِ لا تعرفين ما الذي تتحدّثين عنه، ولستُ مجبراً على الجلوس هنا، لأصغي إلى تخريفكِ.

آه، آرتشي، قالت ميلدرد، هيّا ارجعْ. من الضروري أن نتحدّث.

لا، ليس من الضروري. لقد اكتفيتُ من التّحدّث إليكِ.

انسحب فيرغسون بخطىً وئيدة، جاهداً أن يحبس الدموع التي ترقرقت في عينيه، وحين بلغ الرواق في مقدّمة المنزل، انعطف يساراً، ومشى على الردهة المكسوّة بالآجرّ حتّى بلغ غرفة نوم الضيوف في الطرف الأقصى. من البعيد، استطاع أن يسمع ميلدرد وسيدني تتجادلان بشأنه، لكنه لم يصغِ إلى ما كانتا تقولان، وإلى أن دخل الغرفة، وأغلق الباب، كانت أصواتهما تصله أكثر خفوتاً من أن يفهمها.

جلس على السرير، غطّى وجهه بكفّيه، وأجهش بالبكاء.

لا مزيد من تبادل الأسرار، قال في سرّه، لا مزيد من الاعترافات المعرّضة للإفشاء، لا مزيد من الثقة بمَنْ لا يستحقّون أن يُوثَق بهم. وإذا لم يكن بوسعه قول ما يعتمل في داخله أمام جميع مَنْ في العالم، فسيُبقي فمه مطبَقاً، ويُحجم عن قوله لأيّ امرئ في الوجود.

أدركَ الآن لماذا كانت أمّه دائماً ترهَبُ جانب أختها الكبرى - ولماذا أُحبطتْ دائماً من قبَلها. هناك الكثير من البصيرة، قال في نفسه، الكثير من المرح عندما تقصد أن تكون مرحة، الكثير من الكرم عندما تقصد أن تكون كريمة، لكن ميلدرد قد تكون خسيسة، أخسَّ من أيّ آدميٍّ على سطح الأرض، والآن وقد أُحرِقَ في أتون هذه الخِسّة، لم يعد يريد منها شيئاً ومن الآن فصاعداً سوف أن يحذفها من فهرس معارفه. لا خالة اسمها ميلدرد بعد الآن، لا سيدني ميلبانكس بعد الآن، سيدني التي أبدتْ ما يشبه الوعد بأنها صديقة - لكنْ، كيف يمكن أن يكون المرء صديقاً مع أحدٍ يُبدي لكَ أنه صديقكَ، لكنه ليس كذلك؟

بعد برهة، كانت سيدني تدقّ على الباب. عرف أنها سيدني لأنها كانت تنادي باسمه، تسأله إن كان على ما يرام، تسأله إن كان يمكنها الدخول والتّحدّث إليه، لكن فيرغسون أجاب بالنفي، وبأنه لا يريد رؤيتها أو التّحدّث إليها، يريد أن تتركه وشأنه، لكنْ، لسوء الحظّ لم يكن للباب قفلٌ، ودخلت سيدني بالأحوال كلها، انشقَّ الباب حتّى استطاع رؤية وجهها والدموع التي جرت على وجنتيها، ثمّ أصبحت داخل الغرفة، تعتذر بسبب ما فعلتْه، وهي تردّد آسفة، آسفة، آسفة.

انقلعي، يا عصفورة صغيرة، قال فيرغسون. لا يهمّني إذا كنتِ آسفة أم لا. فقط اتركيني وشأني.

أنا ثرثارة حمقاء، قالت سيدني. بمجرّد أن أبدأ الكلام، لن أعرف متى يجب أن أتوقّف. لم أقصد ذلك، يا آرتشي، أقسم بأنني لم أقصد.

بالتأكيد قصدتِه. في إفشاء السرّ ما يكفي من السوء، غير أن الكذب أسوأ. لذلك لا تبدئي بالكذب أيضاً، اتفقنا؟

ماذا يمكنني أن أفعله من أجلكَ، يا آرتشي؟

لا شيء. فقط اذهبي.

من فضلكَ، يا آرتشي، دعني أقم بأمر طيّب لكَ.

بالإضافة إلى إخراجكَ من هذه الغرفة، أريد شيئاً آخر.

قل لي ما هو وسيكون بين يديكَ.

زجاجة ويسكي.

لستَ جادّاً.

زجاجة ويسكي، ويفضّل ألا تكون مفتوحة، وإذا كانت مفتوحة، فلتكن مملوءة بأكثر ما يمكن من الويسكي.

ستمرض بسببها.

أصغي إليّ، يا سيدني، إمّا أن تجلبيها لي أو سأخرج لإحضارها بنفسي. لكنني لا أفضّل الخروج الآن، لأن خالتي في الغرفة الأخرى، ولا أريد رؤيتها.

فليكن، يا آرتشي. أمهلني بضع دقائق.

وهكذا حظي فيرغسون بالويسكي الذي طلبه. زجاجة جوني ووكر أحمر نصف فارغة، أُوصلتْ بيدِ سيدني ميلبانكس إليه، الزجاجة نصف الفارغة التي اختار فيرغسون أن يراها نصف ممتلئة، وحين غادرت سيدني الغرفة من جديد، بدأ بشرب الويسكي، وتابع الشرب بجرعات صغيرة، بطيئة حتّى تسرّبت رقائق الفجر الأولى من خلال شرائح الستائر الفينيسية. فرغتْ الزجاجة، وللمرّة الثانية في تلك السنة، تقيّأ فيرغسون ما أفرط بتعاطيه على أرضية بيتِ أحد آخر، وغاب عن الوعي.

لم تكن باريس تشبه سِواها. تجلّتْ باريس بكليّتها في إحساسه الغامر أنه فيها يجول طرقاتها مع والدته وجيل، في حضور افتتاح معرض أمّه الفردي الأوّل في غاليري فانتي على شارع بونابرت،

في قضاء مساءين مع صديقة قديمة لـ جيل اسمها فيفيان شريبر، في اكتشاف أنه رغم درجتي الـ B's والـ B+'s في أكاديمية ريفرسايد قد تعلّم ما يكفي من الفرنسية لأنْ يعتدَّ بهذه اللغة، في تصميمه أن باريس كانت المدينة التي أراد أن يسكنها في النهاية. بعد صيف من مشاهدة الأفلام الفرنسية القديمة والجديدة، كان من الصعب السير في شوارع مونمارتر دون التفكير بأنه قد يهرع إلى أنطوان دوانيل الشّابّ في فيلم *الضربات الـ 400*، أن يمشي في الشانزليزيه دون أمل في أن يمرّ بشكل خاطف قرب جين سيبيرغ الفاتنة وهي تروح جيئة وذهاباً ببلوزتها البيضاء، وتبيع نسخاً من الـ *هيرالد تريبيون* - الجريدة نفسها التي كان زوج أمّه يعمل لديها! - أو أن ينسلّ في نزهة على ضفّتي نهر السّين، ويتطلّع إلى أكشاك الكُتُب دون أن يتذكّر صاحب متجر الكُتُب القصير ممتلئ الجسم الذي يغوص في الماء، لينقذ المتشرّد ميشيل سيمون في فيلم *بودو نجا من الغرق*. كانت باريسُ فيلمَ باريس، كتلةَ أفلام باريس التي شاهدها فيرغسون كلِّها، وكم كان مثيراً أن يجد نفسه في المكان الواقعي الآن، الواقعي بكل جلالِ وإثارة واقعيته، بل أن يتجوّل وشعور يداخله بأنه مكان متخيَّل أيضاً، مكان في ذهنه وفي الجوّ الخارجي الذي أحاط بجسده، تزامُنُ الـ *هنا* والـ *هناك*، ماضٍ بالأبيض والأسود وحاضر بالألوان كلها، وقد حظي فيرغسون بمتعة التّرحّل ما بينهما، فتتدفّق أفكاره بسرعة عالية في الأوقات التي ينطمس الاثنان في واحد.

لم يكن من المعتاد أن يُفتَتح معرضٌ في نهاية آب، عندما يكون نصف سكّان باريس قد غادروا المدينة، لكنها كانت الفسحة الوحيدة المتاحة في برنامج الغاليري - من العشرين من آب وحتّى العشرين من أيلول - وقد قبلتْ والدة فيرغسون ذلك بسعادة، مدركةً أن المدير قد فعل ما بوسعه لـ *تخصيص وقت لها*. عُرضتْ ثمان وأربعون صورة معاً، كانت قُرابةُ نصفها أعمالاً سبق أن نُشرت، ونصفها من كتاب جديد سيصدر في السنة القادمة، تحت عنوان *المدينة الصامتة*. وكان فيرغسون قد علم بأنه موضوعُ إحدى الصور، رغم ذلك، وجد أنه ممّا يزعزعه أن يرى نفسه معلّقاً على الجدار القَصيّ حين دخل الغاليري، الصورة القديمة المألوفة التي التقطتها أمّه له منذ سبع سنوات، أيّام ما قبلَ - 'جيل' عندما كانا يسكنان معاً في شقّة غربيّ السنترال بارك، لقطة طولانية له من الخلف وهو جالس على أرضية غرفة الجلوس يشاهد لوريل وهاردي في التلفاز، وجسد الصبي ذي السنوات الثماني مَكسوّ بقميص مخطّط قصير الأكمام، والشيء المحرّك للمشاعر في الصورة التي حملت عنواناً من كلمة واحدة *آرتشي*، كان انحناءَ ظهره النحيل، وكلّ فقرة من عموده الفقري تنتأ من داخل القميص، لتخلق انطباعَ الـ *ناتئ* - ثمّ - مجوّف في هشاشة الطفولة، صورة كائن مكشوف للخطر، صبي صغير عالق في حَجْرٍ مطبق أمام المهرّجَين اللذين يعتمران قبّعة لاعب البولينغ على الشاشة، وبذلك يكون ذاهلاً عن كلّ ما يحيط به، وكم كان

فيرغسون فخوراً بأمّه، لأنها أبدعتْ صورة كهذه، الصورة التي كان يمكن ألا تكون أكثر من مجرّد لقطة عادية، لكنها لم تكن كذلك، كما كان حال بقية الصور السبعة والأربعين المعروضة في ذلك المساء، وحين نظر فيرغسون إلى نفسه الطفولية ضائعة الملامح قاعداً على أرض شقّة لم يعودوا يسكنون فيها، لم يستطع إلا أن يعود إلى الأشهر الانتقالية النادرة وكارثة مدرسة هيليارد، ويتذكّر كيف استبدلت أمّه كليّاً بالله في ذهنه ككائنٍ عُلْويّ التجسّد البشري للروح الإلهية، إله فانٍ مصدوع معرَّض للجماجم والاضطرابات المضنية التي آلمت البشر، لكنه اعتنق أمّه، لأنها كانت الشخص الوحيد الذي لم *يخذله أبداً*، ولا يهمّ كم مرّة خيّبَ ظنّها أو برهن على أنه أقلّ جدارة ممّا كان يجب أن يكون، لكنها لم تكفّ عن حبّها له ولن تكفّ حتّى نهاية الحياة.

جميلة وعصبيّة، قال فيرغسون في سرّه، وهو يرقب أمّه تبتسم وتومئ وتصافح أيدي الزّوّار في صالة الـ *فيرنيساج*، التي جذبت نحو مائة من الجمهور رغم عطلة آب، جمع كُبير صاخب، لأن العشرات ممّنْ أتوا إلى هناك كانوا كما يبدو راغبين في المزيد من التّحدّث فيما بينهم أكثر من الاكتفاء بالنظر إلى الصور على الجدران، لكنه كان الافتتاح الأوّل لأي نوع من المعارض كان فيرغسون قد شهده، لم يكن معتاداً على مراسم مثل هذه التّجمّعات، والمنافقين المتمرّسين ممّنْ يُفترَض أنهم محبّو فنّ يأتون إلى معرض فنّيّ، ليتجاهلوا الأعمال الفنّيّة المعروضة، ولو لم يكن عاملُ البار الشّابّ الذي يقدّم الشراب وراء طاولة في ركن الصالة لطيفاً ما يكفي لأن يصبّ لـ فيرغسون كأس نبيذ أبيض، ويُتبعه بثانٍ بعد عشرين دقيقة، لربمّا كان فيرغسون سيقوم بوقفة احتجاجية، إذ إنها اللحظة الكبيرة في حياة أمّه، وكان يريد من الجميع إبقاء أنظارهم معلّقة بأعمال روز إدلر، أن تنفذ فيهم إلى درجة أن الجميع سوف يَعَوْن ويدخلون حالة المهابةِ الخرساء، ولمّا لم يحدث شيء من ذلك، وقف فيرغسون في الركن وهو يشعر بانزعاج وخذلان بالغَبن، فقد كان أقلّ خبرة من أن يفهم بأن النقاط الحمراء الملصَقة إلى الأطُر التي تعلّقت على الجدران كانت تعني أن هذه الصور قد صارت بحكم المباعة، وأن معنويات أمّه كانت عالية في ذلك المساء، دون أدنى إحباط بسبب ثرثرة وضوضاء أولئك الناس الأجلاف والجهلة.

كان فيرغسون قد ارتشف نصف كأس النبيذ الأبيض الثانية، حين لمح جيل يشقّ طريقه وسط روّاد الصالة وذراعه على كتف امرأة. كانا يتّجهان صوبه، يتقدّمان بهدوء نحو طاولة المشروبات رغم الأجساد المتكاثفة، وحين باتا قريبين ما يكفي لـ فيرغسون رؤية أن كليهما كان يبتسم، خطر له أن تلك المرأة لا بدّ كانت صديقة جيل القديمة فيفيان شريبر. كان جيل قد أخبره شيئاً ما عنها، غير أن فيرغسون لم يكن يولي الأمر كثير الاهتمام، واحتفظ في ذاكرته بالقليل من الحكاية، التي كانت حكاية معقّدة إلى حدّ ما، كما تذكّرَ، تتعلّق بالحرب وأخ فيفيان الأكبر، دوغلاس

غانت أو غرانت، الذي خدم في وحدة استخبارات الحرب، وكان أقرب أصدقائه، وبطريقة أو بأخرى *استخدم نفوذه* ممّا سمح لـ فيفيان، الأخت الأصغر لرفيقه في الجيش الأصغر عمراً بكثير، بدخول فرنسا في أيلول 1944، بعد شهر فقط من تحرير باريس وثلاثة أشهر من تخرّجها في إحدى جامعات الولايات المتّحدة. أمّا لماذا اضطرّت فيفيان للذهاب إلى فرنسا، فهذا ما لم يكن واضحاً بالنسبة إلى فيرغسون، لكنْ، لم يمض وقت طويل على وصولها حتّى تزوّجت من جان - بيير شريبر، مواطن فرنسي وُلد لأب وأمّ يهوديين - ألمانيين في 1903 (أي أنه يكبر فيفيان بعشرين عاماً)، والذي نجح بتجنّب الاعتقال من قِبَل الألمان و/ أو شرطة فيشي بالسفر إلى سويسرا المحايدة قبل أيّام قليلة من هزيمة فرنسا، ووفق ما قاله 'جيل' لـ فيرغسون، صار شريبر غنياً، أو كان في الأصل غنياً، أو سرعان ما عاد إلى غناه من جديد، لأن عائلته أعادت إحياء عملِ تصدير النبيذ، أو عمل إنتاج النبيذ، أو عمل تصنيع زجاجات النبيذ، أو مصلحة تجارية لا تتضمّن جنيَ وبيعَ العنب. ليس لديهما أولاد، قال 'جيل'، لكنهما عاشا زواجاً ناجحاً استمرّ حتّى نهاية 1958، إلى أن وقع شريبر الشّابّ الأنيق ميتاً وهو يسرع كي لا تفوته رحلة طيران في مطار أورلي، الذي جعل من فيفيان أرملة شابّة، أمّا وقد باعت حصّة زوجها من العمل إلى أبناء أخوته، فهي الآن أرملة شابّة موسرة، وأضاف، *المرأة الأكثر فتنة وذكاء في باريس كلّها، والصديقة العظيمة.*

تلك الوقائع أو الوقائع الجزئية أو ربمّا عكس - الوقائع، كلّها كانت تدور في ذهن فيرغسون لحظة دنا كل من جيل وفيفيان شريبر من مكان وقوفه. كان انطباعه الأوّل عن الصديقة العظيمة في أنها صُنّفتْ بين النساء الثلاث أو الأربع اللائي عرفهنّ في حياته. ثمّ، حين باتت أقرب، واستطاع جلاء ملامحها بمزيد من الدّقّة، وجد أنها ليست بارعة الجمال بقدر ما هي جذّابة، امرأة في الثامنة والثلاثين من عمرها، تنشر هالةً متألّقة من الثقة والسكينة، التي كانت زينة وجهها ولباسها وشَعْرها قد سُوّيتْ بمنتهى الأناقة، ودون أيّ تكلّف حتّى بدا أنه ليس هناك من حاجة إلى كبير جهد من طرفها كي تتمّم الأثر الذي حقّقته تلك الإضافات، امرأة ببساطة لا تحتلّ مساحة في المكان، حيث كان يقف الجميع، بل بدا كأنها تُهيمن على المكان، كأنها تمتلك المكان، كما ملكتْ دون شكّ أيّ مكان حدثَ أن دخلتْه في كل موضع من العالم. بعد لحظة، كان فيرغسون يصافحها، وينظر في عينيها الواسعتين البنّيّتين ويشمّ عبير العطور الذي انتشر حول جسدها بينما أصغى إلى صوتها غريبِ العمق وهي تقول كم تتشرّف بمعرفته (تتشرّف!)، وفجأة بدأ كلّ شيء يتألّق بمزيد من الزهو في داخل فيرغسون، فمن دون ريب، كانت فيفيان شريبر شخصاً استثنائياً، شخصاً من نوع نجوم السينما المكتملين، والتّعرّف إليها كان طفرة لإحداث فَرْق في حياة ابن الخامسة عشرة الرتيبة والمتّشحة بالحزن.

كانت فيفيان حاضرة في العشاء الذي تلا الافتتاح، لكنْ، كان هناك اثنا عشر شخصاً يجلسون إلى المائدة في المطعم، وكانَ فيرغسون أكثر بعداً عنها من أن يتمكّنا من الحديث، لذلك أرضى نفسه بالنظر إليها طوال الوقت الذي استغرقه الطعام، منتبهاً كم من الاهتمام أبداه المحيطون بها في أثناء إصغائهم لما أدلتْ به في أي مفصل من الحديث، ومرّة أو مرّتين نظرت إليه، فرأته ينظر إليها، وابتسمت، وباستثناء ذلك، وباستثناء الكلمة التي تُفشى عند جهته من الطاولة بأن فيفيان قد اشترت ستّةً من صور أمّه (من بينها *آرتشي*)، لم يكن هناك أي نوع من التواصل بينهما في تلك الليلة. بعد ثلاث ليالٍ، عندما التقى فيرغسون ووالدته و'جيل' بـ فيفيان على العشاء في La Coupole، لم يكن ثمّة ما يعيق الأخذ والردّ بينهما في التّحدّث والإصغاء، لكنْ، لسبب ما شعر فيرغسون بالخجل والارتباك بحضور فيفيان، فلم يقل الكثير، مفضّلاً الإصغاء إلى حديث الراشدين الثلاثة، الذين كان لديهم الكثير ممّا يقولونه في شؤون لا حصر لها، من بينها صور أمّه، التي مدحتْها فيفيان قائلة إنها *إنسانيةٌ متسامية وصريحة بشكل خارق للطبيعة*، وأخ فيفيان الأكبر، دوغلاس غانت أو غرانت، الذي كان يعمل كخبير أحياء بحرية في لاهولا، كاليفورنيا، وعن التّقدّم الذي أحرزه 'جيل' في كتابه حول رباعيات بتهوفن الوترية، واشتغال فيفيان على كتاب تؤلّفه عن رسّام من القرن الثامن عشر، اسمه شاردان (الذي لم يكن معروفاً لدى فيرغسون في تلك المرحلة، لكنه إلى حين مغادرته باريس بعد أربعة أيّام كان قد جعل شغلَه الشاغل أن يتأمّل أعمال شاردان كلّها في اللوفر، ويستوعب الحقيقة المبهمة أن النظر إلى كأس ماء أو إبريق خزفيّ على قطعة قماش يمكن أن يكون أكثر تأثيراً ووقعاً في الروح من النظر إلى ابن الله المصلوب على مستطيل مرسوم مشابه)، لكنْ، رغم أن فيرغسون بقي صامتاً معظم الوقت على العشاء، إلا أنه كان متيقّظاً وسعيداً، ومشدود بكلّيّته إلى ما كان يقوله الآخرون، وكم استمتع بالجلوس في La Coupole، ذلك المطعم الفسيح كهفيّ الشكل بأغطية طاولاته البيضاء والنُّدُل المفعمين بالحياة بزيّهم الأبيض والأسود، والناس من حوله يتحدّثون دفعة واحدة، الكثير من الناس يتحدّثون، وينظر كل منهم إلى الآخر في الآن نفسه، النساء بطلاء شفاههنّ الكثيف مع كلابهن الصغيرة والرجال الكئيبين يدخّنون سجائر الجيتان واحدة تلو الأخرى والأزواج المتأنّقين بطريقة تثير الاستغراب، والذين بدوا وكأنهم يتهيّؤون لأداء مسرحية، هم فيها الشخصيات الرئيسة، مشهد *مونبارناس*، كما وصفته فيفيان، الـ*jeu du regard*، وكان هناك جياكوميتي، قالت، وكان هناك الممثّل الذي مثّل مسرحيات بيكيت كلها، وكان هناك فنّان آخر لم يعنِ اسمه شيئاً لـ فيرغسون، لكنْ، لا بدّ أن كان شخصية مشهورة يعرفها كلّ مَن في باريس، ولأنهم في باريس سمحت له أمّه وجيل بشرب النبيذ على العشاء، وإنه لترف أن تكون

في مكان، حيث لا أحد يبالي كم عمركَ، ولعدّة مرّات خلال ساعتي العشاء اللتين أمضوهما جالسين إلى طاولتهم الركنية في المطعم قعد فيرغسون وتمعّن في أمّه وجيل وفيفيان شريبر المتألّقة، وشعر بأنه تمنّى لو يبقى الأربعة جالسين هناك إلى الأبد.

بعد قليل، وبينما كان جيل ووالدته على وشك إيداع فيفيان في سيّارة أجرة، أمسكت الأرملة الشّابّة بوجه فيرغسون بين يديها، قبّلته قبلةً واحدة على كلّ خدّ، وقالت: عدْ إلى هنا كي تراني عندما تصبح أكبر عمراً بقليل، يا آرتشي. أظنّنا سنكون صديقين عظيمين.

بين رحلتي كاليفورنيا وباريس كان هناك الصيف الحارّ في نيويورك، مباريات كرة السّلّة في ريفرسايد بارك، أربع أو خمس ليالٍ في الأسبوع أُمضيتْ في صالات السينما المكيّفة، الروايات الأميركية الكبيرة والصغيرة التي استمرّ 'جيل' في تركها على الطاولة الملاصقة لسريره، والتخطيط القاصر الذي أبقاه رهين المدينة، في حين ذهب كلٌّ من زملاء مدرسته إلى وجهة مختلفة هروباً من شهري تمّوز وآب، ناهيك عن جيم ذي التسعة عشر عاماً، الذي كان يعمل مرشداً لدى معسكر صيفي في ماساتشوستس، وإيمي المذهلة، العَصيّة أبداً، التي نجحت في الإبحار إلى فيرمونت، لتشارك في برنامج للغة الفرنسية يستغرق شهرين كاملين، الذي كان بالضبط ما يجب عليه أن يفعله هو ودون ريب كان سيشارك فيه لو أنه لم يفتقد إلى موهبة الإرادة لأن يقترحه على أمّه وجيل، اللذين سيكونان قادرين بالتأكيد على تأمين تكاليف التدريس، الذي لم يستطعه العمّ دان والعمّة ليز، إلا أن إيمي سريعة الكلام قد تدبّرت ما أمكنها من مال من جَدّها في شيكاغو، ومن التيس العجوز في برونكس، هناك كانت ترسل إليه بطاقات بريدية طريفة وغليظة من غابات نيو إنغلاند (*cher cousin، ابن عمّي العزيز. إن كلمة "con" بالفرنسية لا تعني ما ظننتُ أنها تعنيه. والمرادف الإنكليزي سيكون "jerk" أو "asshole"- ليس ما – هو - بالكَ أنتَ. بينما "queue"، التي تعني "الذيل"، تعني أيضاً ما – هو - بالكَ في الفرنسية. الذي يذكّرني: كيف أحوال رجلي المفضّل المخروطي في نيويورك هذه الأيّام؟ أهي حارّة للغاية بالنسبة إليكَ، يا آرتشي، أو هل ذلك تعرق مفتعل ما أراه ينقط من جبينكَ؟ Baisers a mon bien- aime، Amy قبلات لحبيبتي إيمي*)، بينما فترت همّة فيرغسون عند الباب الحامي لمهرجان يوم الكلب في مانهاتن، علق في فترة بلا حبٍّ، تجلّت بالاستغراق بالعادة السّرّيّة والأحلام المتواصلة، المبلّلة والكئيبة.

كان أكبر موضوع بين أهل البيت في ذلك الصيف هو مركز لينكولن، وخلاف جيل طويل الأمد مع زملائه حول قاعة محبّي الموسيقا الكلاسيكية، التي ستُفتتح أخيراً في الثالث والعشرين من

أيلول. *قذى العين الطافي فوق الصديد* (كما استخدمه جَدّ فيرغسون في تسميتها) كان جزءاً من المشهد الطبيعي لـ ويست سيكتيز طوال الفترة التي عاشها فيرغسون وأمّه في نيويورك - مشروعاً عملاقاً لإزالة ثلاثين فداناً من الأحياء الفقيرة تمّ تأمين اعتماداته من أموال روكفلر التي كشطت مئات المباني، وطردت آلاف السّكّان من شققهم لتمهيد الطريق أمام ما كان يسمّى بـ *محور الثقافة الجديدة*. هذه الجبال كلّها من الحصى والآجر، الحفّارات الميكانيكية هذه وجرّافات الركام والحفَر في الأرض كلها، هذا الضجيج المندلع كله من الجوار طوال تلك السنوات، ثمّ ها قد أوشك المبنى الأوّل ضمن مجمع مركز لينكولن المؤلّف من ستّة عشر فدّاناً على الاكتمال، وأوشك الجدال على أن ينفجر في أحد اللقاءات على شكل صراخ علني هو الأكثر غضباً في تاريخ المدينة. البناء مخالف لمدى توازن الصوت، ثمّة تباهٍ وعجرفة مخالفان للرياضيات والمنطق، وكان جيل في خضمّ الأمر، لأن العداء قد أُثير من خلال الـ *هيرالد تريبيون*، وبالتحديد من قِبَل اثنين يعمل معهما عن قرب في الجريدة، محرّر الفنون فيكتور لوري وزميله الناقد الموسيقي بارتون كروسيتّي، اللذان كانا قد تزعّما حملة لا هوادة فيها لزيادة عدد المقاعد في المخطّطات الأصلية للقاعة، والسبب، كما أصرّا، أن عاصمة عظيمة مثل نيويورك كانت تستحقّ شيئاً ما أكبر وأفضل. أكبر، نعم، جادلهما جيل قائلاً، لكنْ، ليست أفضل، لأن التصميم الصوتي قد تمّت معايرته بحسب قاعة تتسع لألفين وأربعمائة مقعد، وليس لألفين وستمائة، وحتّى المهندسين المدنيين والمعماريين المسؤولين عن المخطّط قالوا إن نوعية الصوت ستكون *مختلفة*، الذي كان طريقة أخرى في القول إنها *أسوأ* أو مرفوضة، أذعنت بلدية المدينة لمطالب الـ *هيرالد تريبيون*، وزادت مساحة القاعة. رأى جيل في ذلك الإذعان هزيمةً لمستقبل الموسيقا الأوركسترالية في مدينة نيويورك، أما وقد أوشكت النسخة الأكبر من البناء على الانتهاء، فما الذي يمكنه فعله سوى الأمل بأن تكون النتائج أقلّ كارثيةً ممّا كان يخشاه؟ وإذا لم تكن أقلّ، أي إذا كانت مجمل النتائج سيّئة بالطريقة التي تخيّل أن تكون عليها، فسيثير حينها حملة علنية من جانبه، قال، ويلقي بنفسه في مسعى لصون قاعة كارنيغي، التي كانت بلدية المدينة تنوي هدمها.

كانت النكتة في العائلة ذلك الصيف: كيف تتهجّى كلمة محور ***hub***؟ الجواب: f-l-u-b، خ-ط-أ.

كان باستطاعة جيل أن يتناول الأمر بالسخرية، لأن الخيار الآخر الأوحد كان الشعور بالغضب، والتجوال في المكان والغيظ يعتمل في داخلكَ كان طريقة سيّئة في العيش، كما قال لـ فيرغسون، نوعاً من العبث وتدمير الذات وقسوة تجاه الناس الذين يعتمدون عليكَ بـ *أن لا* تكون غاضباً، خصوصاً عندما يكون سبب غضبكَ شيء لم تستطع التّحكّم به.

أتفهم ما أعنيه، يا آرتشي؟ سأله جيل.

لستُ متأكّداً، قال فيرغسون. أظنّ ذلك.

(لستُ متأكّداً: إشارة ماكرة إلى فورة جيل البركانية على مارغريت في الشّقّة القديمة على غربيّ سنترال بارك. *أظنّ ذلك*: اعتراف بأنه لم يشهد زوجَ أمّه وقد ثارتْ ثائرته مرّة أخرى إلى مستوى مرتفع كهذا منذ تلك الليلة. يمكن أن يكون هناك سببان لتفسير التّغيّر الذي طرأ على جيل: (1) أن تحسّناً طرأ على شخصيته بمرور الزمن أو (2) أن زواجه بأمّ فيرغسون قد جعل منه رجلاً أفضل وأهدأ وأسعدَ. اختار فيرغسون أن يؤمن بالاحتمال الثاني - ليس لمجرّد أنه يريد أن يؤمن بذلك، بل لأنه أيقن أنه الجواب الصحيح).

ليست المشكلة أن الأمر ليس هاماً بالنسبة إليّ، استطرد جيل. حياتي بأكملها تتلخّص بالموسيقا. حياتي هي الكتابة عن الموسيقا التي تُعزَف في هذه المدينة، وإذا كان الأداء سيصبح أقلّ جودة الآن بسبب قرارات طائشة اتّخذها مُعاندون حمقى، باستثناء أناسٍ من ذوي النوايا الحسنة - بعضهم أصدقائي، ويحزنني قولُ ذلك - إذاً فبالتأكيد سأشعر بالغضب، الغضب الشديد، لدرجة أنني فكّرتُ بترك الجريدة، فقط لكي أجعلهم يدركون مدى الجدّيّة التي تناولتُ بها هذا الشأن. لكنْ، ما الذي سيقدّمه ذلك لي- أو لكَ، أو لأمّكَ، أو لأي أحد آخر؟ أعتقد أن بإمكاننا تدبّر معيشتنا من دون راتبي، إذا اقتضى الأمر، لكن الحقيقة أنني أحبّ عملي، ولا أريد أن أستقيل منه.

ينبغي أن لا تستقيل. ربمّا توجد منغّصات كثيرة هناك، لكنْ، يجب أن لا تستقيل.

لن يطول وجودي هناك بالأحوال كلها. الـ *هيرالد* تريبيون تغرق مالياً، وأشك في أنها ستقاوم أكثر من سنتين أخريين أو ثلاث. لذلك سأهبط إلى القاع مع السفينة، كأحد أعضاء طاقمها الأوفياء حتّى النهاية، واقفاً إلى جانب القبطان النزق الذي يدير الدّفّة، ويقودنا إلى المياه المُهلكة.

أنتَ تمزح، أليس كذلك؟

منذ متى عرفتَني محبّاً للمزاح، يا آرتشي؟

نهاية الـ *هيرالد تريبيون*. أتذكّر المرّة الأولى التي أخذتَني فيها إلى هناك - وكم أحببتُها، كم لا أزال أحبّها كلّما ذهبنا إلى المبنى معاً. يصعب تصديق أنها لن تكون موجودة بعد الآن. حتّى إني فكّرتُ ... حسناً، لا بأس ...

فكّرتَ بماذا؟

لا أعرف .. أنه ذات يوم ... قد يبدو ما أقوله أحمقَ للغاية الآن ... أنني ربمّا ينتهي بي المطاف في العمل هناك أيضاً.

يا لها من فكرة جميلة! لقد تأثّرتُ، يا آرتشي - تأثّرتُ في العمق - لكنْ، لماذا يريد صبي بمواهبكَ أن يكون صحافياً في جريدة؟

لن أكون صحافياً، بل ناقداً سينمائياً. بالطريقة نفسها التي تكتب أنتَ بها عن الحفلات الموسيقية، قد أكتب عن الأفلام.

لطالما تخيّلتُ أنكَ ستصل إلى أن تُنجز أفلاماً لكَ.

لا أظنّ ذلك.

لكنكَ تحبّ الأفلام للغاية ...

أحبّ مشاهدتها، لكنني لستُ واثقاً من أني سأتمتّع بصناعتها. يستغرق إنجاز الفيلم زمناً طويلاً، وخلال ذلك الزمن لن يتسنّى لكَ فيما تبقّى من وقت لأن تتابع الأفلام. أتفهم ما أحاول قوله؟ إذا كان الشيء الذي أتمتّع به إلى أقصى الحدود هو مشاهدة الأفلام، إذاً فالعمل الأفضل لي سيكون في أن أشاهد ما استطعتُ إليه سبيلاً من الأفلام.

كانت الدراسة قد بدأت منذ ما يقرب من شهر عندما افتتحت القاعة نشاطاتها بحفل موسيقي، أدّته أوركسترا نيويورك التي يديرها ليونارد برنشتاين، وعُدّ الحدث بالغ الأهمّيّة حتّى إنه بُثَّ تلفزيونياً من قِبَل شبكة CBS - على الهواء مباشرة، وغطّى كامل البلاد حتّى وصل إلى كل بيت في أميركا. وفي الأيّام التي تلتْ، أُدِّيَتْ حفلات أخرى من قِبَل أكثر الفِرَق السمفونية احتراماً في أميركا (بوسطن، فيلادلفيا، كليفلاند)، ومع حلول نهاية الأسبوع نطق كلّ من الصحافة والجمهور بحكمهما في نوعية الأداء الصوتي لمسرح مركز لينكولن الرائد. نقرأ في أحد العناوين الرئيسة فشلٌ فيلهارمونيّ، في آخَر فقاعة فيلهارمونية، وفي ثالث فجيعة فيلهارمونية. كان من الواضح أن رنين الـ - ف - المزدوجة(*) مغرية لمحرّري الصحف، نظراً للأناقة التي تطير بها عن ألسنة الساخطين من عشّاق الموسيقا، والمحلّلين المحترفين، ومهرّجي الحانات على السواء. مهما يكن من أمر، فقد اختلف بعض الناس في الرأي، بدعوى أن النتائج لم تكن بهذا السوء، وهكذا بدأ السجال المرفق بالصياح بين جماعة الـ (مع) وجماعة الـ (ضدّ)، الجدال الخشن الذي سيستمرّ في شَحن جوّ نيويورك لأشهر وسنوات قادمة.

تابع فيرغسون هذه المجريات من خلال ولائه لـ جيل، وسرّه أن زوج والدته كان على الجانب

---

*) تعمّدتُ إيراد الكلمات العربية التي تبدأ بحرف الفاء، التزاماً بالنّصّ الأصلي للرواية، دون أن يؤثّر ذلك على المعنى العربي. (م).

الرابح من النزاع، لا يهمّ ما الأذى الذي ستُلحقه القاعة سيّئة التنفيذ بطبلات آذان جمهور الموسيقا الكلاسيكية، بل إنه في ظهيرة يوم من أيّام الأحد، وقف وجيل ووالدته أمام قاعة كارنيغي حاملين لافتة، كُتب عليها أنقذوني من فضلكم، لكنْ، بشكل عامّ، لم يبال فيرغسون، وبشكل عامّ، ركّز على حاجاته المدرسية وسعيه المستمرّ في سبيل الحبّ، حتّى حين أغلقت جرائد نيويورك كلّها أبوابها خلال إضراب عمّال المطابع الذي امتدّ من بدايات كانون الأوّل وحتّى آخر يوم من آذار - الذي اختار تأويله بكل سخاء، على أنه استراحة مستحقّة مديدة لـ جيل.

كانت إيمي قد انفصلت عن حبيب السنة الفائتة، الشخص الذي لم يلتقِ به فيرغسون، ولم يعرف اسمه، لكنها وجدت *صديقاً* حميماً خلال صيفها الناطق بالفرنسية في فيرمونت، شابّ من سكّان نيويورك، ولذلك *كان متاحاً للقاءات نهاية الأسبوع*، الذي نحّى فيرغسون خارج السباق مرّة أخرى، مجرِّداً إيّاه حتّى من التفكير باعتداء جديد على قلعة قلب إيمي. كان الأمر ذاته ينطبق على الفتيات الجذّابات في أكاديمية ريفرسايد - كلّهن مرتبطات والدخول ممنوع، كما كنَّ في السنة الفائتة، ما يعني أن إيزابيل كرافت كانت لم تزل مجرّد حورية من وهمٍ تركض في غابات خياله، من أنثى أخرى ملفَّقَةٍ تتلوّى على ضوء جسدٍ ليليّ - أكثر واقعية من ملكة جمال أيلول، ربمّا، لكنْ، ليس إلى حدّ كبير.

ليت أن أندي كوهن لم يتلفّظ بتلك الكلمات في الربيع الماضي، فكّر فيرغسون أحياناً، ليت أن الترتيب البسيط بينهما لم يصبح مشوّشاً ومستحيلاً للغاية. لم يكن الأمر أنه حتّى شعر بالودّ تجاه أندي كوهن بعد ذلك، بل الطريقة التي كانت تتطوّر بها الأشياء مع مجيء سنته الثانية، كانت عربدات ظهيرة السبت تلك على غربي الشارع 107 قد بدأت تلوح معقولة مرّة أخرى، على الأقلّ حين تأخذ بالاعتبار بأنها أفضل بوجود أحد ما من أن تكون بلا أحد. بالمقابل، لم يصل النشوة في استمنائه التّأمّليّ اليدوي عبر خيال جسد ذكوري. كانت دائماً أنثى مَنْ تندسّ معه تحت الأغطية، فحين لا تكون إيزابيل كرافت هي مَنْ تخلع البيكيني الأحمر، ويلتحم جسدها بجسده، فستكون إيمي، أو قد تكون - وهذا ما وجده غريباً - سيدني ميلبانكس، راعية البقر المنافقة التي طعنتْه في الظهر، أو فيفيان شريبر، التي قالت له سبعة وأربعين كلمة تقريباً، وكان في عمر يكفي لأن تكون أمّه، لكن المسألة تكمن فيهما، المرأتين اللتين قابلهما في رحلتيه عبر القارّات والمحيطات في تموز وآب، ولم يكن بيده حيلة في أن يمنع كلّ منهما من دخول أفكاره في الليل.

بدا التباين جليّاً تماماً، ثمّة خطّ فاصل متصلّب بين ما كان يريده وبين ما سمحت له الظروفُ بِنَيله، جسد المرأة الطّريّ الذي سيكون بالضرورة مختلفاً بعد سنة أو اثنتين وأعضاء

الفتيان المنتصبة التي قد تكون ذات نكهة الآن، إذا بدرتْ الفرصة مرّة أخرى، المستحيل كعكسٍ للمكن، الأحلام الليلية كعكسٍ لوقائع الحياة النهارية، الحبّ في يد وشهوة المراهَقة في الأخرى، كلاهما خليٌّ من الوهم وناعم للغاية، لكنه اكتشف أن الخطّ مرسوم بحدّة أقلّ ممّا افترض، فقد ينشأ الحبّ على أيّ طرف من طرفي تلك الحدود الذهنية وقد يعطيه ما قالت راعية البقر إنه أعطاها، ولكي يعي ذلك في نفسه بعد أن أشاح حبّ أندي كوهن غير المرغوب فيه، والذي جاء كصدمة بالنسبة إلى فيرغسون - وقد أخافَه، أخافه للغاية لدرجة أنه قلّما لاح له أنه عرف مَن كان بعد ذلك.

في أواخر أيلول، غادر نيويورك مرّة أخرى إلى مكان بعيد جديد، إلى كامبردج، ماساتشوستس، لقضاء عطلة الأسبوع مع ابن عمّه جيم. هذه المرّة ليس بواسطة الطائرة، بل برّاً لخمس ساعات ونصف في حافلتين الأولى إلى بوسطن، ثمّ تغييرها إلى أخرى في سبرينغفيلد، وتلك كانت رحلة الحافلة طويلة المدى الأولى في أي مكان، ثمّ نوم ليلتين في حجرة ضمن مهجع جيم التابع لمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا MIT، خيَّمَ خلالهما على سرير شريكه في الحجرة، الذي غادر المخيّم صباح الجمعة، ولن يعود حتّى ليل السبت. كان مخطّط الزيارة غير واضح المعالم. حدِّقْ بناظريكَ، العب كرة سلّة فردية في النادي صباح السبت، قم بزيارة عدّة مخابر في MIT، ألقِ نظرة على مخيّم هارفارد، تجوّلْ حول باك باي وساحة كوبلي في بوسطن، تناول الغداء/ أو العشاء في ساحة هارفارد، أحضِرْ فيلماً في مسرح براتل - نوع من عطلة أسبوع ارتجالية غير منظّمة، قال جيم، من حيث إن غرض الزيارة كان أن *نتسكّع ونمضي بعض الوقت معاً*، وما يُكملونه من عمل قليلُ الأهمّيّة. كان فيرغسون يشعر بسعادة غامرة. لا، بل أكثر من السعادة الغامرة - يكاد يخرج من جلده بالترّقّب، ومجرّد فكرة أنه يمضي نهاية الأسبوع مع جيم سرعان ما فرّقتْ الغيوم التي كانت تحتشد فوقه، وأحالت السماء زرقاء ساطعة متلألئة. لا أحد أفضل من جيم، لا أحد ألطف من جيم أو أكرم، لا أحد يستحقّ الإعجاب أكثر من جيم، وطوال رحلة الحافلة إلى بوسطن كان فيرغسون يفكّر كم محظوظ هو أن يُلقَى في عائلة كعائلة ابن عمّه نفسها. أحبَّه، خاطبَ نفسه، *إنه يحبّه إلى أقصى الحدود*، ويدرك أن جيم بادله الحبّ، بسبب صباحات السبت تلك كلّها في ريفرسايد بارك، وهو يعلّم الصغيرَ ابن الاثني عشر عاماً كيف يلعب الراوندبول، في حين أنه كان يمكنه القيام بمائة شيء آخر، أحبَّه لأنه اتّصل ودعاه للمجيء إلى كامبردج، من دون أي سبب سوى أن نتسكّع ونمضي بعض الوقت معاً، وبما أن فيرغسون قد تذوّق متعَ العلاقة الحميمية بين صبي وصبي، فلن يوفّر جهداً في سبيل أن يجد نفسه عارياً بين ذراعي جيم، أن يقبّله جيم، أن يلاطفه جيم، نعم، أن *يُلاطَ* به من قِبَل جيم، والذي كان شيئاً

لم يحدث أبداً مع الصبي من سيتي كوليج في الربيع الماضي، فكلّ ما يريده جيم أن يفعله فسيفعله، إذ إنه الحبّ، الحبّ الكبير المتّقد الذي سيدوم متّقداً حتّى نهاية حياته، لو تبيّن أن جيم صبيّ من النوع الذي يتقن استخدام كلتا يديه كما يشعر هو نفسه بأنه أصبح كذلك، ذلك الذي كان بعيد الاحتمال تماماً، بالتأكيد، ثمّ إن قبلة من جيم ستأخذ به إلى بوّابات النعيم، نعم، فتلك كانت الكلمات التي قالها فيرغسون في داخله عندما خطرت له الفكرة في منتصف رحلته إلى بوسطن: *بوّابات النعيم*.

كانت أسعد عطلة نهاية أسبوع في حياته - والأكثر حزناً أيضاً. سعيدة لأن وجوده مع جيم جعله يشعر بأنه مَحميّ، آمن للغاية في الهالة المريحة الناجمة عن هدوء الفتى الأكبر عمراً، وفي كلّ لحظة استطاع الاعتماد على أن هناك مَنْ يصغي إليه كما يصغي هو إلى جيم، الذي لم يترك له فرصة الشعور بأنه أصغر أو أدنى أو مُهمَل. طاولات الفطور العامرة في المطعم الصغير على الجهة الأخرى من شارع تشارلز، الحديث عن برنامج الفضاء وألغاز الرياضيات والكمبيوترات الجبّارة التي ستصبح يوماً ما صغيرة بحجم راحة كفّكَ، العرض المزدوج لفيلمي بوغارت *كازابلانكا*، و*أن تملك وأن لا تملك* في مسرح براتل ليلة السبت، كثيرة الأشياء التي يجب شكره عليها خلال الساعات الطويلة التي أمضياها معاً منذ ليل الجمعة وحتّى بعد ظهر الأحد، لكنْ، خلالها كان ثمّة الألم المبرح لإدراكه أن القبلة التي تمنّاها لن تُمنَح له، أن امتلاك جيم كان أيضاً عدم امتلاكه، أن تملك وأن لا تملك لم تعنِ أبداً عدم إفصاحه بحقيقة مشاعره دون إثارة خطر الهلاك في نار الاحتقار. الأسوأ من ذلك كلّه: النظر إلى جسد ابن عمّه العاري في غرفة تبديل الملابس بعد لعبة سلّة فردية، واقفين معاً عاريين دون أن يُتاح له مدّ ذراعه ووضع أصابعه على جسد حبيبه المحرَّم النحيل مفتول العضلات، وبعد ذلك، صباح الأحد، حيلة فيرغسون القذرة بأن يتفحّص المياه بالتّجوّل في غرفة السَّكَن دون ملابس لأكثر من ساعة، تحت إغواء أن يسأل جيم إن كان يرغب بجولة تدليك، لكنْ، دون أن يتجرّأ، تحت إغواء الجلوس على سريره والاستمناء أمام جيم، لكنْ، دون أن يتجرّأ، آملاً بأن عريه قد يحرّض بعضَ استجابة من ابن عمّه المحبّ للجنسِ الآخرِ حدّ الهيام، الذي من نافل القول التأكيد بأنه لم يحدث، إذ إن جيم كان بطبيعة الحال في علاقة مع أحد آخر، فتاة من ماونت هوليوك اسمها نانسي هامرشتاين، التي جاءت بسيّارتها يوم الأحد لتناول الغداء معهما، فتاة مكتملة اللطف والذكاء رأت في جيم ما رآه فيرغسون فيه بالضبط، ولذلك، حتّى في سعادته عانى أسى لا حدود له في نهاية الأسبوع تلك، تاق إلى القبلة التي لن تُعطى له، وأدرك كم كان مضلَّلاً لمجرّد أنه أرادها، وحالما جلس في الحافلة التي أقلّته إلى نيويورك يوم الأحد، بكى قليلاً، ثمّ بكى أكثر والشمس تغرب والظلام

يلفّ الحافلة. كان يبكي أكثر وغالباً في هذه الأيّام، أيقن ... ومَنْ هو؟ بقي يسأل نفسه ... وماذا هو؟ ... ولماذا من بين العالمين يصرّ على أن يجعل حياته قاسية عليه؟

عليه أن يتجاوزها أو فليمت، ولأن فيرغسون لم يشعر بالاستعداد للموت في عمر الخامسة عشرة ونصف السنة، بذل ما بوسعه كي يتجاوزها، ملقياً نفسه بحماس يغلبه التّشتّت في دوّامة من المساعي والأشغال المتضاربة. وخلال الفترة ما بين بداية أزمة الصواريخ الكوبية ثمّ نهايتها بعد أسبوعين، دون إلقاء قنابل أو إعلان حروب، دون أن تترك في المدى المنظور شبح حرب، باستثناء تلك الحرب الباردة طويلة الأمد الحاضرة أبداً. نشر فيرغسون أوّل عرض نقدي سينمائي له، دخّن أوّل سجائره، وفقد بكورته مع مومس عمرها 20 عاماً في دار دعارة غربيّ الشارع الثاني والثمانين. في الشهر التالي، تهيّأ لأن يكون في فريق منتخب أكاديمية ريفرسايد، لكنْ، كواحد من ثلاثة في السنة الثانية فقط ضمن مجموعة عشرة الرجال، كان يجلس على المقعد، ونادراً ما تابع أكثر من دقيقة أو دقيقتين من الأداء في المباراة الواحدة.

قد نُشِرتْ. لم تكن المقالة عرضاً نقدياً، بل نظرة شاملة، مناقشة المزايا المتساوية، لكنْ، المتضاربة لفيلمين، كان فيرغسون يفكّر بهما لأشهر عديدة خلت. صدرت في الصحيفة المدرسية نصف الشهرية المطبوعة بدون اهتمام، وبشكل يبعث على الانقباض اسمها متمرّد *ريفرسايد*، بثماني صفحات من القطع الكبير، ونشرت موادَّ إخباريةً، فات أوانها عن النشاطات الرياضية بين المدارس، وعجالاتٍ عن مشاكل المدرسة (نوعية الطعام الرديئة في كافتيريا المدرسة، وقرار المدير بمنع تشغيل أجهزة الراديو في القاعات بين الحصص)، وقصائد، وقصصاً قصيرة، ورسوماً متفرّقة لطلاب يتخيّلون أنفسهم شعراء وكتّاب قصّة قصيرة وفنّانين. كان السّيّد دونبار، مدرّس فيرغسون للغة الإنكليزية في تلك السنة مستشارَ هيئة التدريس المسؤول عن *المتمرّد*، وشجّع عاشق السينما المبتدئ على المساهمة بما استطاع من مقالات، بما أنه مهتمّ بالكتابة، شاكياً أن الصحيفة في عوز بالغ إلى دمٍ جديد، وأن أعمدة ثابتة عن الأفلام والكُتُب والفنّ والموسيقى والمسرح ستكون *خطوةً في الاتّجاه الصحيح*. تحت تأثير الفتنة والإطراء اللذين ترافقا مع مطلب السّيّد دونبار، جلس فيرغسون يشتغل على مقالة حول *الضربات الـ 400* و*اللاهث*، فيلميه الفرنسيين المفضّلَين في الصيف السابق، ثمّ إنه بذهابه إلى فرنسا، بدا من الطبيعي في النهاية أن يبدأ عمله كناقد سينمائي بالكتابة عن الموجة الفرنسية الجديدة.

باستثناء حقيقة أن الفيلمين قد صُوِّرا بالأبيض والأسود، وأُخرجا في باريس المعاصرة، بحسب ما جاء في مناقشة فيرغسون، لا شيء مشترك بينهما. فالعملان مختلفان في الإيقاع،

والحساسية، والتكنيك الحكائي بشكل جذري، مختلفان، لدرجة أنه من العبث المقارنة بينهما، بل ومن العبث أن يبدّد المرء لحظة واحدة في التساؤل أيّهما كان الفيلم الأفضل. وعن تروفو كتبَ: *غنائية واقعية فجائعية، ناعمة، لكنها عويصة ذهنياً، عميقة الإنسانية، صارمة بنزاهتها*. وكتبَ عن غودار: *ثورويةٌ هادرة ومدمِّرة، مثيرة، عنيفة حدّ الإقلاق، مرحة وقاسية، تحفل بالتلميحات الساخرة الدائمة عن الأفلام الأميركية*. لا، كتب فيرغسون في الفقرة الختامية، لن ينحاز إلى فيلم دون الآخر، لأنه أحبّ كلا الفيلمين، بالطريقة نفسها التي أحبَّ فيها كلاً من أفلام الغرب لـ جيمي ستيوارت وأفلام باسبي بيركلي الموسيقية، أحبّ كوميديات الأخوين ماركس وأفلام العصابات التي أنجزها جيمس كوغني. فلماذا يتعيّن علينا الاختيار؟ كتبَ متسائلاً. نرغب أحياناً بأن نستغرق في تناول شطيرة هامبرغر طيّبة، وأحياناً ليس هناك ألذّ من بيضة مسلوقة أو قطعة بسكويت مملَّح. *الفنّ مأدبةٌ عامرة*، خلصَ إلى القول، *وكلّ طبق على الطاولة ينادينا - يطلب إلينا أن نأكله*، ونستمتع به.

مدخِّنٌ. صباح السبت، بعد مرور أسبوع واحد على رحلة فيرغسون إلى كامبريدج، حُشرَ أعضاء عائلتي شنايدرمان السّتّة في سيّارة ستيشن واغُن مستأجَرة، وأقلعوا شمالاً باتّجاه مقاطعة دتشس، حيث توقّفوا للغداء في بيكمان آرمز في رينبيك، ومن ثمّ تفرّقوا إلى جهات شتّى ضمن المدينة. كالمعتاد، اختفت والدة فيرغسون مع كاميرتها، ولم تظهر من جديد إلى أن حان وقت العودة إلى نيويورك. توجّهت العمّة ليزا إلى الشارع الرئيس، لتتفرّج على متاجر التحف العتيقة، وجيل والعمّ دان عادا إلى السّيّارة، قائلَين إنهما يريدان إلقاء نظرة على أوراق الخريف المتناثرة بينما كانا في واقع الأمر بصدد مناقشة ما يجب القيام به تجاه أبيهما الذي يتداعى جسده وهو في منتصف الثمانينيات من عمره الآن، وباتت الحاجة ملحّة لرعاية صحّيّة على مدى الأربع والعشرين ساعة. لم يكن لدى فيرغسون وإيمي أدنى رغبة بالبحث في متاجر المفروشات المستعملة أو بالتّفرّج على الألوان المتحوّلة للأوراق المتساقطة، لذلك استدارا إلى اليمين عندما شاهدا والدة إيمي تنعطف يساراً، وتابعا السير حتّى وصلا طرفَ البلدة، وهناك صادفا رابيةً صغيرة، لم تزل مَكسوّة بالعشب الأخضر، أجمة متكاثفة لطيفة بأرض ناعمة، بدت أنها تلتمس منهما الجلوس عليها، الذي فعلاه بلا تردّد، وبعد ثوان مدّت إيمي يدها إلى جيبها، وتناولت علبة من سجائر الجمل بلا فلتر، وعرضت سيجارة على فيرغسون. ولم يتردّد بقبولها.

كان الوقت الأنسب لتجريب واحد من تلك العيدان المسرطِنة، قال في سرّه، السّيّد هو – الرجل - الرياضي الذي لن يدخّن أبداً، لأنه يضرّ بأنفاسه، وبالطبع سعل بعد كلّ نَفَسٍ من الأنفاس الثلاثة الأولى التي سحبها، وبالطبع شعر بدوار للحظة، وبالطبع ضحكت إيمي، لأنه

كان مضحِكاً أن تراه يفعل الأشياء التي فعلها لا محالة المدخّنون المبتدئون كلهم، ثمّ اعتدلت في جلوسها، وبدأتْ تستجلي الأمر، فمنذ أمد طويل، كان وإيمي يتحادثان، يتحادثان بالطريقة التي لم تكن متاحة لهما خلال أكثر من سنة، دون محاورات ذكية أو إساءات أو اتهامات، وقد تلاشت الضغائن والاستياء الدفين مثل الدخان الذي يندفع من فم كلّ منهما، ويتبدّد في هواء الخريف، ثمّ توقّفا عن الكلام، وجلسا على العشب، يبتسم أحدهما للآخر، سعيدَين أن يعودا أصدقاء من جديد، وليسا على خلاف، لا خلاف مرّة أخرى، وهنا أحاط فيرغسون رأسها بذراعه، وهمس في أذنها بهدوء: سيجارة أخرى من فضلكِ.

ضائع. كان هناك صبيٌّ خبيث ومثير في صفّ المتقدّمين اسمه تيري ميلز، شخص ذكي لا يجيد شيئاً غير أنه يعرف عن ما لا يفترض أن يعرفه المراهق أكثر من أيّ أحد آخر في المدرسة. كان مُموِّنَ الويسكي لحفلات نهاية الأسبوع، مُزوِّدَ حبوب المنشّطات لأولئك الذين ابتغوا التحليق السريع والبقاء يقظين طوال الليل، آلةَ بيع الماريوانا لمَنْ كانوا يفضّلون مقاربة الثمل بصورة أكثر كتماناً، والقوّادَ الذي كان باستطاعته مساعدتكَ على فقد بكارتكَ باقتيادكَ إلى بيت الدعارة على غربيّ الشارع الثاني والثمانين. واحد من أغنى فتيان أكاديمية ريفرسايد، تيري ميلز البدين الساخر المقيم مع أمّه المطلقة، وبين حين وآخر تكون الأمّ الغائبة في منزل بين جادّة كولومبوس وغربي سنترال بارك، ورغم أن ثمّة الكثير ممّا أحاط بسلوكه الذي وجده فيرغسون كريهاً، وجد إلى جانب ذلك أنه من الصعب ألا يحبّه. ووفقاً لـ تيري، فإن جحافلَ من صِبيةِ أكاديمية ريفرسايد الماضين منهم والحاضرين تركوا صباهم وراءهم في غرف ماخور الشارع الثاني والثمانين، كان تقليداً مكرّساً، قال، تقليداً تبنّيتُه منذ سنتين حين كنتُ متقدّماً، والآن وقد ترفّع فيرغسون إلى مرتبة متقدّم هو الآخر، هل يمكن أن يكون مَعنياً بالقيام بزيارة إلى تلك المملكة السِّحْرية بما فيها من ملذّات حسّيّة؟ نعم، قال فيرغسون، بالطبع يريد، بكلّ تأكيد يريد، متى يستطيعان الذهاب؟

جرت تلك المحادثة على الغداء ذات ظهيرة من أيّام الاثنين، الاثنين التالي ليوم الأحد الذي أمضاه فيرغسون في رينبيك وهو يدخّن لفائف التبغ مع إيمي، وفي الصباح التالي أبلغه تيري أن كلّ شيء قد رُتّب ليوم الجمعة بعد الظهر، بحدود الساعة الرابعة، والذي لن يخلق مشكلة لـ فيرغسون، لأن بدء حظر التّجوّل قد مُدِّدَ له في تلك السنة حتّى السادسة، ولحسن الحظّ بحوزته خمسة وعشرون دولاراً ستدعو الحاجة إليها، كي تجعلَ منه رجلاً، مع أن تيري كان لا يزال يأمل أنه يمكن مطالبة السّيّدة M.، مديرة تلك المؤسّسة بإعطاء فيرغسون تخفيضاً للطلاب. دون أن يعرف ماذا ينتظره، إذ لم يكن لديه تجربة ببيوت الدعارة خارج ما شاهده في أفلام الغرب المبهرجة، أحادية اللون التي أنتجتها هوليوود، دخل فيرغسون الشّقّة على الشارع

الثاني والثمانين دون تصوّر مسبّق لما سيكون - لا شيء إلا فراغ من شكّ، لَغْوٌ من أزيز زائد صفر ناقص. وجد نفسه في واحدة من تلك الشقق شمالي *الطرف الغربي* مهشّمة الجصّ مصفرّة الحيطان، مكان كان فيما مضى راقياً، ولا شكّ أنه آوى مواطناً نيويوركياً مع عائلته الكبيرة، لكنْ، مَنْ سيتوقّف ليتفحّص الجصّ والحيطان عندما تكون الغرفة الأولى التي يدخلها المرء هي غرفة جلوس واسعة، وفي داخلها ستّ فتيات، نصف دزّينةٍ من ممارسات الحبّ المحترفات جلسنَ على كراسٍ ودواوين بأشكال مختلفة من العري، بل إن اثنتين منهنّ كنّ في الواقع عاريات كلّيّاً، وهكذا كنَّ أوّل النساء العاريات اللاتي يراهنّ فيرغسون في حياته.

كان عليه الاختيار. وتلك كانت مشكلة، لأنه لم يكن يعلم مَنْ مِنهنّ ستكون مُمارسة الحبّ الأفضل بالنسبة إلى فتىً - فتاة بكرٍ غير مجرِّب اقتصر تاريخه الجنسي حتّى اللحظة على شريك واحد ذكر، وينبغي عليه الإسراع بالاختيار، لأن تفحّصه الفتيات وكأنهنّ رزَمُ لحمٍ مخصّص للجنس دون عقول وأرواح جعله يشعر بعدم الارتياح، ولذلك استبعد الأربع المكتسيات جزئياً، وقلّص الاختيار إلى واحدة من الاثنتين العاريتين، متخيّلاً أنه لن يكون هناك من مفاجآت بتلك الطريقة حين يبدأ الحبّ، وفجأة لم يعد الأمر صعباً على الإطلاق، إذ كانت إحداهما امرأة بورتوريكية بدينة، كبيرة الصدر، جاوزت الثلاثين بكثير، والثانية كانت بنتاً سوداء جميلة، لم تتعدَّ عمر فيرغسون إلا قليلاً - جنّيّة نحيلة، صغيرة النهدين قصيرة الشَّعْر وطويلة العنق، وما لاح لافتاً كان جلدها البضّ، الجلد الذي بشّر بأنه سيكون أفضل من أي جلد، لامستْه يداه في حياته.

كان اسمها جولي.

كان قد دفع الخمسة والعشرين دولاراً للبدينة، السّيّدة M. متواصلةِ التدخين (لا تخفيضات للمبتدئين الفتيّين)، ولأن تيري أعلن بصوت جهير وبفجاجة أن *أيرَ فيرغسون لم يرَ داخلَ كسٍّ أبداً*، فلم يعد ثمّة جدوى من الادّعاء بأنه خَبِرَ ذلك الطريق من قبل، والطريق في الحالة الراهنة هذه ممرّ يفضي إلى غرفة ضيّقة، بلا نوافذ بسرير ومغسلة وكرسي، وبينما مشى فيرغسون في هذا الممرّ وراء المؤخّرة المتمايلة لـ جولي الصبية الصغيرة، كان الانتفاخ في مقدّمة بنطاله يتزايد باطراد، لدرجة أنهما حين دخلا الغرفة، وأشارت إليه جولي أن يخلع ملابسه، نظرتْ إلى عضوه، وقالت، لديكَ انتصاب سريع بالتأكيد، أليس كذلك، يا ولَد؟، وذلك بعثَ السرور الكبير لدى فيرغسون، لإدراكه أنه فحل ما يكفي لأن يحقّق حالاتِ انتصاب أسرع من معظم زبائنها الراشدين، وشعر بالبهجة فجأة، دون أدنى توتّر أو خوف، حتّى ولو لم يفهم بشكل كامل القواعدَ الأساسية للّقاء، كما حين حاول تقبيل شفتيها، وأبعدتْ رأسها عنه بقوّة، وهي تقول، لا نفعل ذلك، يا حبيب القلب - عليكَ أن توفّرها لصديقتكَ، لكنها لم تمانع حين وضع يديه

على ثدييها الصغيرين أو قبّلَ كتفيها، وكم شعر بالمتعة حين غسلتْ عضوه بالصابون والماء الساخن عند المغسلة، وكم شعر بمتعة أكبر حين وافقَ على شيء اسمه *نصف - و- نصف* دون أن يعلم ماذا كان يعني ذلك (بالفم + في المهبل)، واستلقيا على السرير معاً، وظهَر أن النصف الأوّل من الـ نصف - و- نصف كان شديد الإمتاع، لدرجة أنه خشي من عدم قدرته على ضبط نفسه حتّى يأتي النصف الثاني، لكنه بطريقة ما فعل، وذلك كان النصف الأجمل في المغامرة كلّها، الدخول الذي طال التوق إليه، طال الحلم به، طال إرجاؤه - الدخول في جسد شخص، *فعل المضاجعة*، وعاتيةً كانت الأحاسيس بأن يكون المرء في داخلها حتّى إن فيرغسون لم يعد يستطيع كبحَ نفسه، وقذَفَ على الفور - سريعاً للغاية، لدرجة أنه أسفَ على افتقاره السيطرة على نفسه، أسفَ أنه لم يكن بمقدوره أن يؤخّر نشوتَه، ولو لثوانٍ.

أيمكننا أن نفعل ذلك مرّة أخرى؟ سألها.

انفجرت جولي ضاحكة - بنبحةِ مرَحٍ عالية غليظة خارجة من العمق، ردّدت صداها حيطان الغرفة الصغيرة. ثمّ قالت: قذفتَ، انتهيتَ، أيّها الرجل المضحك - إلا إذا كان لديكَ خمسة وعشرون دولاراً أخرى.

بالكاد لديّ خمسة وعشرون سنتاً، قال فيرغسون.

ومرّة أخرى، ضحكت جولي. أنا معجبة بكَ، يا آرتشي، قالت. أنتَ فتى وسيم، وتمتلك أيراً جميلاً.

وأظنّ أنكِ أجمل فتاة في نيويورك.

تقصد، الأكثر نحولاً.

لا، الأكثر جمالاً.

نهضت جولي، وقبّلت فيرغسون على الجبين. عدْ كي نرى بعضنا بين فينة وأخرى، قالت. تعرف العنوان، وصديقكَ الصاخبَ ذلك لديه رَقْم الهاتف. اتّصل مسبّقاً لتحديد موعد. لا تريد أن تأتي إلى هنا وأنا غائبة، هل تفعل ذلك؟

لا، يا سيّدتي. ليس وأنتِ على قيد الحياة.

السبت. عكَسَ وصولُه إلى فريق المنتخَب وهو في السنة الثانية من الثانوية كم تحسّن أداؤه في اللعبة خلال الصيف. كانت الدّوريات الخارجية منافِسةً بقوّة، غصّتِ القوائمُ بأسماء فتية هارلم السود الذين أخذوا لعِبَهم كرةَ السّلّة على محمل الجدّ، الذين أيقنوا أن الجدارة بكرة السّلّة كانت تعني الانتساب إلى فريق مدرسة ثانوية، الذي كان يعني اللعب مع فريق

الجامعة، وبالتالي الفرصة للخروج من هارلم إلى الأبد، وعمِلَ فيرغسون بدأب على تطوير رمياته الخارجية والمناورة بالكرة، فرضَ على نفسه ساعات طويلة من التدريب الإضافي برفقة أحد الفتية المتحمّسين من شارع لينوكس يُدعى دلبرت ستروغان، الزميل الذي يمضي قدماً بالتّقدّم على أقوى من في الفريقين اللذين لعب لصالحهما، والآن وقد طالت قامته بوصتين أخريين، وبلغ طول جسمه الرشيق خمس أقدام وتسع بوصات ونصف البوصة، فقد تطوّر من مجرّد البراعة إلى ما يقارب الامتياز، بقفزة ساقيه القديرة التي قد تصل إلى ما يعادل طوله كان باستطاعته إيداع الكرة في السّلّة مرّة من كلّ اثنتين أو ثلاث محاولات. في الأحوال كلّها، كانت المشكلة في الانضمام إلى المنتخب كطالب سنة ثانية، في أن المرء سيُحال تلقائياً إلى فريق الدرجة الثانية، الذي سيحكم على اللاعب بأن يمضي الموسمَ كلاعبٍ بديلٍ، يبدّد الوقت كمدفّئٍ للمقاعد. وعى فيرغسون أهمّيّة المراتب، وسيكون راضياً بدوره كمرؤوس، لو لم يكن يشعر بأنه كلاعبٍ بات أفضل من المتقدّم الصغير المصنّف من الممتازين، طالب السنة الأخيرة الذي يُدعى دونكان نايلز، والذي يُطلق عليه أحياناً نو - دانك(*) نايلز - إذ إنه في واقع الأمر لم يكن فقط أفضل من نايلز بقليل، بل كان أفضل منه بكثير. ولو كان فيرغسون هو الوحيد الذي شعر بهذه الطريقة، لما حزَّ ذلك في نفسه إلى هذه الدرجة، لكن اللاعبين كلّهم تقريباً كانوا يوافقونه الرأي، ليس ثمّة مَنْ هم أكثر هَرَجاً من بروليتاريي فِرَقِ الدرجة الثانية، من بينهم أصدقاؤه القدامى في فريق مبتدئي السنة الماضية، أليكس نوردستروم وبرايان ميشيفسكي، الذين اشمأزّوا بشكل لا يقبل المهادنة من قرار المدرّب بإبقاء فيرغسون على المقعد، ولم يكفّوا عن تذكيره بمدى الجور الذي عُومل به، من حيث إن الدليل ماثلٌ أمام الجميع كي يروه: كلّما تأهّب الفريق الأوّل والفريق الثاني لمشاجرة في أثناء التدريب، كان فيرغسون يهتف بصوت أعلى وأسرع مع وثبٍ أعلى نو - دانك نايلز.

كان المدرّب شخصاً محيِّراً - نصف عبقري ونصف أبله - ولم يفلح فيرغسون في تبيّن أين موقعه بالنسبة إليه. نجم منطقة خلفية سابق في فريق كلّيّة سانت فرانسيس ببروكلن، إحدى أصغر المؤسّسات التعليمية في المحيط الكاثوليكي ضمن منطقة المتروبوليتان، تعلّمَ هوراس "السعيد" فينيغان اللعبة على أكمل وجه، وعلّمَها كما يجب، لكنه في سائر الأمور الأخرى بدا وكأن عوزاً عضوياً أحاله إلى كتلة لزجة من أسلاك الفكر المنصهرة وصمّامات اللغة المحترقة. *تجمّعوا ثلاثاً ثلاثاً*، كان يخاطب الفتيةَ في أثناء التدريب، أو *شكِّلوا دائرة، يا رجال، من ثلاثمائة وخمسة وستين درجة*، وبالإضافة إلى سوء استخدام الألفاظ كانت هناك الأسئلة التي يتوجّه بها

(*) No-Dunk تلاعب لفظي في الاسم الحقيقي للاعب Duncan، والأول يعني: لا - رمية كرة في السّلّة. (م).

الصِّبية إليه لمجرّد الاستمتاع برؤيته وهو يهرش رأسه، مثل، *أيّها المدرّب، أتمشي إلى المدرسة أو تحمل معكَ وجبة غدائكَ؟* أو *أيّهما أكثر حَرّاً المدينة أم الصيف؟* لحظات متَع سخيفة، لم تفشل في أن تستثير الهرشَ المرغوب، هزّ الكتفين المرغوب، وعبارة *قد نلتَ منّي، يا ولد* المرغوبة. من جهة أخرى، كان فينيغان السعيد ممّنْ يتوخّون الكمال عندما يتعلّق الأمر بأدقّ مسائل كرة السّلّة، وقد دهش فيرغسون كم كان غضبه يحتدم كلّما أخطأ لاعبٌ رميةً حرّة (الأمر الأسهل في المباراة اللعينة كلّها) أو رأى لاعباً يسهو عن تمريرة سريعة (*أبقِ عينيكَ مفتوحتين، يا مغفّل، أو سأشمطكَ من الملعب*). كان يلحّ على لعبٍ فعّال وحاذق، وحتّى لو سخر منه الجميع من وراء ظهره، إلا أن الفريق ربح معظم مبارياته، باذلاً ما فوق وما وراء إمكانياته الهزيلة. مع ذلك، بقي نوردستروم وميشيفسكي في إلحاحهما على أصدقائهما أن يعقدوا جلسة خاصّة مع المدرّب، قد لا يغيّر ذلك شيئاً في الأمر بالضرورة، قالا، لكنهما يريدان معرفة سبب إطلاق اللاعب الخطأ في منطقة اللاعب الصغير الأمامية. نعم، كان الفريق يربح معظم مبارياته، لكنْ، ألا يريد فينيغان أن يربح المباريات *كلّها*؟

سؤال في محلِّه، قال المدرّب، عندما قرع فيرغسون بابه أخيراً في بدايات كانون الثاني. سؤال في محلّه تماماً، وأنا سعيد أنكَ طرحتَ سؤالاً كهذا. نعم، يمكن لأيّ أبله أن يكتشف أنكَ أفضل من نايلز. يمكن أن يواجه أحدكما الآخر بلعبة منفردة، ولن يبقى منه إلا حمّالة أعضائه التناسلية وبقعة عَرَق على أرض النادي. نايلز مجرّد كتلة. وأنتَ مكسيكي، يا فيرغسون، حبّة فاصولياء بشرية نطّاطة لعينة، وتلعب بالجهد الذي بذله أفضل من عرفتُ، لكنني أريد ذلك الكتلة هناك على أرض الملعب. كيمياء، فليكن الأمر كذلك. خمسة مقابل خمسة، وليس واحد مقابل واحد - أتفهم ما أقول؟ مع هؤلاء الأربعة الآخرين المتقافزين مثل تلك النقاط والخطوط الضوئية النشطة في حفلات الجاز، يجب أن يكون الخامس كيس بطاطا، كتلة لحم بحذاء رياضي يحيط قدميه، 'لا أحدَ' كبيراً يملأ الفراغ ويفكّر بهضم طعامه. أتفهم ما أعنيه، يا فيرغسون؟ أنتَ رائع إلى أبعد الحدود. كلّ شيء سيتغيّر إذا وضعتُكَ هناك. الخطوة ستكون سريعة للغاية، سريعة جدّاً جدّاً. ستصابون جميعاً بأزمات قلبية ونوبات صرْع، وسنبدأ بالخسارة. سنكون فريقاً أفضل، لكننا سنكون أسوأ. سيأتي يومكَ، يا ولد. لديّ مشاريع لكَ - لكنْ، ليس قبل السنة القادمة. ستكون الكيمياء مختلفة بعد أن تطير النقاط والخطوط خارج القفص، وحينها سأحتاجكَ. تَحَلَّ بالصبر، يا فيرغسون. أجهِدْ قفاكَ بالتدريب، اتلُ صلواتكَ في الليل، أبقِ يديكَ بعيدتين عن أيركَ، وكلّ شيء سيكون كما نريد بالضبط.

كان تحت إغواء مغادرة الفريق في تلك اللحظة، وفي ذلك المكان، فما بدا أن فينيغان يعرضه

عليه لم يكن فرصةَ لعبٍ فيما تبقّى من الموسم مهما يكن الأمر - ما لم تتكشّف تلك التي تُسمّى كيمياء عن خطأ، ويتوقّف الفريق عن الفوز. لكنْ، بأي ضمير مرتاح يستطيع ترك الفريق للخسارة، ويستمرّ هو في وصف نفسه بأنه عضو وفيّ للفريق؟ مع ذلك، فينيغان وعده تقريباً بانطلاقة في السنة القادمة، وبناء على قوّة هذا الوعد عضّ فيرغسون مكرَهاً على جرحه، واستمرّ مع الفريق، يشتغل بجدّ كي يترك أثراً لدى فينيغان بأنه يجهد *قفاه* كلّ يوم بالتدريب، على الرغم من أنه لم يتلُ صلواته في الليل، ولم يستطع إبقاء يديه بعيدتين عن عضوه.

ومع ذلك، عندما بدأ الموسم، وجد نفسه على المقعد مرّة أخرى، والمؤلم في ذلك أنه لم يكن هناك مَنْ يُلام - حتّى فينيغان، بل فينيغان على وجه الخصوص لا يُلام. ظهر الفتى الجديد من حيث لا يدري، طالب سنة ثانية بقامةٍ تبلغ ستَّ أقدام وبوصتين، انتقلت عائلته إلى مانهاتن من تير هاوت، إنديانا، كان مارتي ولكنسون الهوسير(*) - الظاهرة رائعاً للغاية، أفضل بكثير من فيرغسون، ومن أيّ أحد آخر في الفريق، حتّى لم يعدْ أمام المدرّب إلا إطلاقه كلاعب هجوم، وبوجود لاعبي الهجوم من السنة الماضية، توم ليرنر المتمكّن والجدير بالثقة، الذي انتُخبَ قائداً للفريق، لم يعد هناك متّسع لـ فيرغسون، كي يشقَّ صفَّ المتميّزين. بذل فينيغان بعض المساعي لزيادة عدد ساعات لعبه، لكن خمس أو ستّ دقائق في المباراة لم تكن تكفي، وشعر فيرغسون بنفسه تذوي على المقعد. كان قد تحوّل إلى فكرةٍ مستَدرَكة، مركَّب من القاتل المحترف - المدنيّ على جبهة القتال الذي بدت مهاراته في طور التآكل، وكان إحباطُه المتنامي، كما اعترف لأمّه وزوجها على العشاء ذات ليلة، كان *يقتل روحَه*، وكذلك كانت تلك المباريات الأربع ضمن الموسم، التي حدث أنها بدأت بعد أربعة أسابيع من اغتيال كينيدي، بعد شهر إلا يومين من تلك الجمعة الغريبة عندما وصل الأمر حتّى بـ فيرغسون الشَّكوك وغير المصدِّق إلى ذرف الدموع المدرارة مع الآخرين، تاركاً لنفسه الاستسلام للمزاج العامّ الذي ساد البلاد دون أن يعي أن مقتل الرئيس كان تجديدَ بَيعةٍ لمقتل أبيه منذ تسع سنوات، وها قد انزاحتْ الرهبة المطبقة لحزنه الخاصّ مع انزياحها على النطاق الشعبي الواسع، وفي العشرين من كانون الأوّل 1963، بعد دقائق من نهاية مباراة ريفرسايد الرابعة، قصد فيرغسون مكتب المدرّب، وأبلغه بتركه الفريق. لا أُضمر أيّة مشاعر قاسية، قال، سوى أنه لم يعدْ بوسعه التّحمّل أكثر من ذلك. قال فينيغان إنه يتفهّم الأمر، الذي يرجّح أنه كان صحيحاً، ثمّ تصافحا، وذلك ما كان.

انتهى به المطاف إلى اللعب ضمن دوريٍّ يُجرى تحت رعاية مدرسة وست سايد للشباب بالنيابة. كانت لا تزال كرة السّلّة، ولم يزل يتمتّع بها، ولكنْ، على الرغم من أنه عُرف باللاعب

(*) Hoosier، أيّ مواطن من ولاية إنديانا.

الأقوى في فريقه، لم يكن الأمر مشابهاً، لا يمكن أن يكون مشابهاً، ولن يكون أبداً مشابهاً من جديد. لم يعد هناك اللباس الأحمر والأصفر. لا مزيد من ركوب الحافلات. لا مزيد من المتمرّدين المتعصّبين يهلّلون من على المنصّات. ولم يعد هناك تشاكي شوالتر يضرب على طبله الكبير.

مع مجيء سنة 1964، كان الصبي فيرغسون الذي يكاد يبلغ السبعة عشرة عاماً قد نشر اثنتي عشرة مقالة سينمائية أخرى تحت إشراف السّيّد دونبار، غالباً بمساعدة جيل بمسائل الأسلوب النثري والسبك والمشكلة المثبطة الدائمة المتمثّلة في استخلاص ما كان يعنيه بالقول بالضبط، ومن ثمّ قوله بأقصى ما يمكن من الوضوح. مالت مقالاته إلى التنويع بين المواضيع الأميركية والأجنبية، على سبيل المثال، استنطاق اللغة في كوميديات و. ك. فيلدز، ثمّ شيء عن *الساموراي السبعة* أو *باثر بانشالي*، *نزهة تحت الشمس*، ثمّ *الأطلنطي*، *أنا طريد العصابة المتسلسلة*، ثمّ *La Dolce Vita* – نوع أساسي من النقد كان أقلّ اهتماماً بتكوين رأي بالفيلمين من الاهتمام بمحاولة التقاط تجربة مشاهدتها. وشيئاً فشيئاً، كان عمله يتطوّر، شيئاً فشيئاً تعمّقت صداقته بزوج أمّه، وكلّما أكثرَ من الذهاب إلى السينما، رغب أكثر بالذهاب إليها، فحضور الأفلام لم يكن توقاً بقدر ما كان إدماناً، وكلّما التهَم أفلاماً أكثر، انفتحتْ شهيته إليها أكثر. من بين دُور العرض التي اعتاد ارتيادها في معظم الأحيان كانت نيويوركر على شارع برودواي (تبعد عن شقّته كتلتين سكنيتين فقط)، سيمفوني، وأوليمبيا، وبيكون شماليّ وست سايد، إلجِن في تشيلسي، بليكر ستريت وسينما فيلج في مركز المدينة، صالة باريس المجاورة لفندق بلازا، كارنيغي الملاصقة لقاعة كارنيغي، بارونيه، كورنيه، وسينماز I وII في إيست سيكتيز، ولاحقاً، بعد انقطاع لعدّة أشهر، صالة ثاليا من جديد، حيث لم يعد يهرع لملاقاة أندي كوهن بعد اثنتي عشرة زيارة. بالإضافة إلى دُور العرض التجارية، كان هناك متحف الفنّ الحديث، مصْدر للأفلام الكلاسيكية لا يمكن الاستغناء عنه، والآن وقد أصبح فيرغسون عضواً (هدية من جيل وأمّه عندما بلغ السادسة عشرة)، فإن باستطاعته حضور أحد أو الأفلام كلّها بمجرّد إبراز بطاقته عند الباب. كم من الأفلام شاهدَ في ذلك الوقت الذي امتدّ من تشرين الأوّل 1962 وكانون الثاني 1964؟ ما معدّلُه فيلمان كلّ سبت وأحد وآخر يوم الجمعة، ما كان مجموعها أكثر من ثلاثمائة فيلم - ستّمائة ساعة ممتعة من الجلوس في الظلام، أو عدد تكّات الساعة المتكرّرة في سياق من خمسة وعشرين نهاراً وليلاً، ومع طرح الدقائق المخصّصة للنوم وغيبوبات الثّمل المختلفة، نجد أن ما يزيد عن الشهر في حياة يقظته قد (تَكَّ) إلى الماضي خلال الأشهر الخمسة عشرة الفائتة.

كما أنه دخّنَ ألف سيجارة إضافية (بوجود إيمي وبغيابها)، وواصَلَ علاقاته الغراميّة بأمزجة عالية، من خلال شرب ثلاثمائة كأس من أفخر منتجات الويسكي الاسكوتلندي في حفلات نهاية الأسبوع التي أُقيمت من قِبَل تيري ميلز وخلفائه في السنة التالية، لم يعد يتقيّأ على السّجّاد حين يفرط في الشرب، بل يستسلم للنوم بهدوء ورضا في ركن الغرفة، متعقّباً عن سابق قصْد هذا السلوان، كي يطهِّرَ الميتَ والمرجومَ من أفكاره، متوصّلاً إلى خلاصة تفيد بأن الحياة دون أواصر قربى أقسى من أن يتحمّلها، وأن تجرُّعَ المشروبات المخصّص لبعث الوهن في الأحاسيس يمكن أن يجلب بعض الراحة للقلب المتعَب، لكنْ، كان من الأهمّيّة بمكان اتّباع الحيطة وعدم الإفراط، الذي يفسّر سبب إرجاء حفلات المرح حتّى عطَل نهاية الأسبوع، ليس كلّ نهاية أسبوع، بل بمعدّل كلّ نهايتي أسبوع، ووجد غرابةً في أنه لم يتطلّبْ هذه الأشياء إلا حين يحدث أن تكون أمامه، وحتّى حينها اكتشف أن بإمكانه مقاومة إغرائها، لكنْ، متى تناولَ أوّل مشروب، فلن يتوقّف حتّى يصل أشدّ درجات السُّكْر.

كانت المشروبات الكحولية تصبح متوفّرة أكثر فأكثر في حفلات نهاية الأسبوع تلك، لكن فيرغسون قرّر أنها ليست لأجله. بعد ثلاث أو أربع نفثات من اللفافة، تبدأ الأشياء الأكثر شؤماً في التّحوّل إلى مرِحة بالنسبة إليه، وسوف يتبدّد إلى نوبات من الضحك. ثمّ يبدأ الشعور بالخفّة، كلّ ما هو سخيف وغبي في الداخل، الذي كان له تأثير غير محبّب، تجلى في دفعه للوراء إلى شيء من تجسّده الطفولي الخاصّ، فرغم أن فيرغسون كان في ذلك الحين يكافح كي يكبر، يقع بقدر ما يقف على قدميه، لم يعد يريد أن يتذكّر نفسه كطفل، لذلك تجنّبَ الحشيش، وبقي على عادته في الشرب، مفضّلاً أن يكون سكراناً على أن يكون تحت تأثير عشبةٍ مخدِّرة، وبذلك يشعر بأنه يتصرّف كراشد.

أخيراً وليس آخراً، كما سلف، أوّلاً وقبل كلّ شيء، كان قد عاد إلى شقّة السّيّدة M. ستَّ مرّات في الخمسة عشر شهراً التي مضتْ. ولو كان الأمر بيده لذهب إلى هناك أكثر من ذلك، لكن الخمسة والعشرين دولاراً كانت العائق، إذ حُدِّدَ مصروفه بخمسة عشر دولاراً في الأسبوع، ولم يكن لديه عمل ولا فرصة بأن يحظى بعمل (أراده أهله أن يركّز على أشغاله المدرسية)، وحيث إنه أنفق الخمسة والعشرين دولاراً الأولى في تشرين الأوّل (1962) بقي حسابه المصرفيّ دون رصيد حتّى مجيء عيد ميلاده في آذار (1963)، عندما حرّرت له والدته شيكاً بمائة دولار، تُضاف إلى هدية بطاقة عضويته في المتحف، التي غطّت تكاليف أربع جلسات مع جولي في شقّة غربيّ الشارع الثاني والثمانين، لكنْ، دُفعَ بدلُ الزيارتين الباقيتين عن طريق الاستيلاء على أشياء لا تخصّه، ثمّ تحويلها إلى مال سائل، تصرّفات إجرامية عذّبت فيرغسون، وتأكّلتْ ضميرَه

الآخذ بالتّفتّت، لكن الجنس كان بالغ الأهمّيّة بالنسبة إليه، أساسيّاً للغاية في حياته السّويّة، وبشكل مؤكّد هو الأمر الوحيد الذي كان يقيه من التشظي، ذلك أنه لم يستطع إيقاف نفسه عن مقايضة روحه لقاءَ لحظات قليلة بين ذراعي جولي. كان الله قد مات منذ سنوات، لكن الشيطان عاد إلى مانهاتن، ويؤسّس لعودة قوية في الشطر الشمالي من البلدة.

كانت جولي هي الفتاة الدائمة، لأنها الأجمل والأكثر جاذبية بين مَن عملنَ لدى السّيّدة M.، أما الآن وقد أدركت كم كان فيرغسون صغيراً (ظنّتْ أنه في السابعة عشرة عندما جاء في المرّة الأولى، وليس خمس عشرة)، كان تحفّظها إزاءه قد بات أكثر لطفاً، ليتحوّل إلى نوع من صداقة حميمة طريفة، وهي تراقب ساعديه كيف تنموان بين لقاء وآخر. ليس الأمر أنها عاملتْه بأي شيء ممّا يمكن تسميته بالطراوة أو العاطفة، بل كانت ودودةً ما يكفي لأن تلوي القواعد الآن، وتتركه يقبّلها على شفتيها متى شاء، بل أن يرسل لسانه في فمها أحياناً. والأمر الجميل في أن يكون المرء مع جولي أنها لم تتحدّث قطّ عن نفسها، ولم تسأله أيّ سؤال (بخلاف سؤاله عن عمره)، وباستثناء واقع أنها تعمل لدى السّيّدة M. كلّ ثلاثاء وجمعة، لم يعرف فيرغسون شيئاً عن حياة جولي، فيما إذا كانت تعمل كمومس في بيوت أخرى ضمن المدينة، مثلاً، فيما إذا كان اليومان مع السّيّدة M. يعيناها في تكاليف دراستها الجامعية، التي ربّما كانت في سيتي كوليج، لأنها الجامعة الوحيدة التي كان يعرف اسمها، حيث ربّما جلست قربَ أندي كوهن في حلقتهما الدراسية عن الأدب الروسيّ، أو فيما إذا كان في حياتها صديق أو زوج أو طفل صغير أو ثلاثة وعشرون أخاً وأختاً، أو فيما إذا كانت تخطّط للسطو على مصرف أو للسفر إلى كاليفورنيا أو لتناول عشاء من فطائر الدجاج. شعَر أنه من الأفضل ألا يعرف، الأفضل أن تبقى المسألة مقصورة على الجنس، الذي وجد أنه جنس الإرواء العميق حتّى إن فيرغسون عقَدَ النّيّةَ مرّتين خلال تلك الأشهر الخمسة عشرة على خرق القانون بالدخول إلى متاجر الكُتُب شمالي وِستْ سايد مرتدياً معطفاً صوفياً فوق سترته الشتائية متعدّدة الجيوب، ليحشو جيوب السترة والمعطف بالكُتُب ذات الأغلفة العادية، التي ثنى العديد من الصفحات منها بطيّاتٍ تشبه أذن الكلب وخطوط تحت الأسطر، وباعها لمتجر كُتُب مستعملة قبالة كولومبيا بربع سعر الغلاف، يسرق ويبيع دزّيناتٍ من الروايات الكلاسيكية، ليلمَّ المال الإضافي الذي احتاجه لمزيد من ممارسة الجنس مع جولي.

تمنّى لو كانت ستين مرّة بدل المرّات السّتّ، لكنّ مجرّد علمه أن جولي ستكون تحت الطلب كلّما خنقته الرغبة كان كافياً لأن يئِدَ حاجته لملاحقة فتيات مدرسته، بنات الخمس عشرة والسّتّ عشرة اللواتي سينفضنَ عنهنّ يديه الشغوفتينَ وهو يلهث في نزع بلوزاتهنّ وحمّالات

نهودهنّ وسراويلهنّ التّحتيّة، ليس بينهنّ مَن تمشي أمامه تستعْرض عريها كما فعلت جولي، ليس بينهنّ مَنْ تسمح له بالتغلغل في قدس الأقداس الباطني للأنوثة التّقيّة، وحتّى الافتراض أن معجزة كهذه قد تحدث، كم من جهد سيحتاجه كي يبلغ ما بلغه مع جولي بطبيعة الحال، ومع جولي لن يكون هناك الأسى الذي لا محالة يأتي حين يقع المرء في حبّ واحدةٍ من هاتِه *الفتيات الجميلات*، لم يقع في هوى بنت منهنّ بالأحوال كلها، كانت هناك معبودته إيمي، التي لم تذهب إلى أكاديمية ريفرسايد، بل إلى ثانوية هنتر في شطر آخر من البلدة، ابنة عمّه المضيَّعة، والتي عُثر عليها والمُقبِّلة الأفضل ذات السجائر غير المفلترة والضحكة الاستثنائية، كانت الوحيدة التي تستحقّ المجاذفة وبذل الغالي والرخيص، الفتاة الوحيدة التي كان الجنسُ معها يعني الحبّ أيضاً، ذلك أن كل شيء قد تغيّر في الخمسة عشر شهراً الماضية، فقد انقلب عالم رغباته رأساً على عقب، وواحدة إثر أخرى تلاشت إيزابيل كرافت وسيدني ميلبانكس وفيفيان شريير من أفكاره في الليل، والوحيدان اللذان زاراه كانا صبيّ آل شنايدرمان وصبيّة آل شنايدرمان، جيم وإيمي المرغوبان بشكل ضارٍ، وكلّ ليلة كان الأوّل أو الثانية مَنْ تسلّل إلى الفراش معه، في بعض الليالي، كان الأوّل، ثمّ تليه الثانية، وذلك كان منطقياً، كما افترضَ، منطقياً بالنسبة إلى شخص قُدَّ من المنتصف، ولم يستطع أن يتبيّنَ مَنْ هو، أرشيبالد إسحاق فيرغسون الذي سيبلغ السابعة عشرة سنة في القريب، المعروف تمييزاً بـ المهووس الجنسي عشيرِ العاهرات والمجرم التافه، لاعب السّلّة السابق في الثانوية، وأحياناً الناقد السينمائي، العاشق المخذول مرّتين من قِبَلِ ولَدين، ذكر وأنثى، لزوج أمّه والابن بالتّبنّي لـ روز وجيل - اللذين سيقعان أرضاً ميّتَين، لو اكتشفا الفعال التي كان يقدِم عليها.

عندما مات شنايدرمان العجوز في نهاية شباط، التأم جمعٌ في شقّة جادّة ريفرسايد، جمْع صغير، لأن والد جيل الأرمل لم يؤسّس صداقاتٍ جديدة في السنوات العشرين التي مضت، وكان معظم معارفه من كبار السّنّ قد وجدوا مُستَقَرّاً أبدياً لهم في مكان آخر، مجموعة ربّما لم تتجاوز الخمسة والعشرين شخصاً، من بينهم ابنتا جيل مارغريت وإيلا، في ظهورهما الأوّل وسط العائلة منذ خريف 1959، وبرفقتهما زوجاهما المكتسَبان حديثاً، السمينان والآخذان بالصلع، أحدهما قام بتحبيل مارغريت، وبغضّ النظر عن موقفه تجاههما، كان على فيرغسون الاعتراف بأن أختيه بالتّبنّي لم تُبديا أيّة علائم عداء تجاه أمّه، الذي كان من حسن حظّهما، فلن يبعث السرور لدى فيرغسون أكثر من تعكير صفو المكان وركلهما خارج البيت، اندفاعة عنيفة لم تكن مطلوبة في هذه الظروف، لكنْ، بعد الوقوف خارج الشّقّة في طقس شباط البارد لمدّة تقرب

الساعة، أسلمتْ خلالها العائلةُ التيسَ العجوزَ إلى الراحة الأبدية، كان فيرغسون يشعر بالهيجان، *أسرع - أسرع*، كما سيطيب لـ فينيغان السعيد أن يقولها، ربّما لأنه كان يفكّر بطباع جَدّه غير الحادّة والمجادلة الصريحة، أو ربّما لأن كلّ وفاةٍ تُذكّره بوفاة أبيه، لذلك ريثما عاد المشيِّعون المجتمعون إلى الشّقّة، كان فيرغسون يشعر بأنه في حالة مزرية ما يكفي لأن يدلق كأسيّ ويسكي سريعين في معدته الفارغة، الذي ربّما أسهم في الأحداث التي تلَتْ، فلحظة بدأ تجمّعُ ما بعد الدفن، انتهى إلى التّصرّف بشكل أحمق بسلوك وقح للغاية وغير لائق بشكل فاضح حتّى لم يعدْ جلياً إن كان فقَد صوابه أو أنه من دون قصد حلَّ لغزاً من ألغاز الكون.

ذلك ما حدث. *أوّلاً*: كان كلّ من الحاضرين إمّا واقفاً أو جالساً في الصالة، كان الطعام يؤكَل، والمشروبات تُشرَب، والمحادثات تدور أخذاً وردّاً بين كلّ اثنين ووسط كل مجموعة من الناس. وقعتْ عينا فيرغسون على جيم الواقف في الركن قرب النافذة الأمامية، وهو يتحدّث إلى أبيه، ناوَرَ وهو يشقّ طريقه باتّجاه الركن بنفسه، وسأل جيم إن كان باستطاعته التّحدّث إليه على انفراد. ردّ جيم بالإيجاب، وسار الاثنان نحو الردهة، ومضيا إلى مخدعِ فيرغسون، وهناك، دون أيّ كلمة أو تمهيد من أي نوع، أحاط فيرغسون جيم بذراعيه، وقال له إنه يحبّه، يحبّه أكثر من أي شخص في العالم، يحبّه جدّاً لدرجة أنه مستعدّ للموت من أجله، وقبل أن يستطيع جيم الاستجابة، غمرَ فيرغسون ذو السّتّ أقدام حينها وجهَ جيم ذي الأقدام السّتّ وبوصة واحدة بالقبلات. لم يكن جيم الطّيّب غاضباً أو مصدوماً. وضع في الحسبان أن فيرغسون إمّا سكران أو مبتئس إلى درجة كبيرة لسبب ما، أحاط بذراعيه ابن عمّه الأصغر، شدّه بعناق طويل يغلب عليه التّأثّر، وقال: أحبّكَ أيضاً، يا آرتشي. نحن أصدقاء حتّى آخر العمر. *ثانياً*: بعد نصف ساعة، كان كلّ من الحاضرين لا يزال إما واقفاً أو جالساً في الصالة، كان الطعام لا يزال يُؤكَل، والمشروبات لا تزال تُشرَب، والمحادثات لا تزال تدور أخذاً وردّاً بين كلّ اثنين ووسط كل مجموعة من الناس. وقعت عينا فيرغسون على إيمي واقفة في الركن قرب النافذة الأمامية تتحدّثِ مع ابنة عمّها إيلا، ناوَرَ وهو يشقّ طريقه باتّجاه الركن بنفسه، وسأل إيمي إن كان باستطاعته التّحدّث إليها على انفراد. ردّت إيمي بالإيجاب، وسار الاثنان نحو الردهة، ومضيا إلى مخدع فيرغسون، وهناك، دون أيّ كلمة أو تمهيد من أي نوع، أحاط فيرغسون إيمي بذراعيه، وقال لها إنه يحبّها، يحبّها أكثر من أي شخص في العالم، يحبّها جدّاً لدرجة أنه مستعدّ للموت من أجلها، وقبل أن تستطيع إيمي الاستجابة، قبّلها فيرغسون على الفم، وإيمي، التي كانت معتادة على فم فيرغسون، بسبب ما لا يُحصى من قبلاته لها في الأيّام الخوالي من قذفهما المحتلم، فتحت فمها، وتركت فيرغسون يوغل بلسانه، ولم يمضِ إلا قليلاً طوّقتْ ابن عمّها بذراعيها، وارتمى الاثنان على السرير، حيث

مدّ فيرغسون يده تحت تنّورة إيمي، وبدأ يجول بيده ساقها المغطّاة بجوارب نسائية، ومدّت إيمي يدها إلى بنطال فيرغسون، وقبضت بشدّة على عضوه المتصلّب، وحين فرغ كلّ من الآخر، ابتسمت إيمي لـ فيرغسون، وقالت: كان جميلاً، يا آرتشي. كنّا في حاجة لفعل ذلك منذ مدّة طويلة.

بعد ذلك تحسّن كل شيء. السلوكات فاضحة وغير اللائقة لم تكن واضحة أو غير مقبولة، ليس لأن فيرغسون استطاع أن يفتح قلبه، ويعلن حبّه أمام الاثنين من آل شنايدرمان، لكن صداقته لـ جيم تعمّقت أكثر بسبب ذلك، وهو وإيمي قد رجعا حبيبَين من جديد. في أسبوع المأتم، أعطته أمّه وجيل مائتي دولار لعيد ميلاده، لكنه لن يحتاج إلى النقود من أجل جولي بعد ذلك، بوسعه أن ينفقها على إيمي، ويشتري لها ثياباً داخلية مخرّمة مخصّصة لليالي التي يخرج فيها جيل ووالدته، ولهما شقّتهما الخاصّة بهما، أو لليالي التي يخرج فيها أهلها، أو لليالي التي يخرج فيها أهل صديق لهما أفسح لهما غرفة يلتجآن إليها بضع ساعات، وكم من أشياء أجمل بينهما الآن وهو يكتب مقالاته السينمائية، وكان باستطاعة إيمي رؤية أنه لم يكن ذلك الأبله الذي ظنّت، فجأة شعرتْ بالاحترام تجاهه، فجأة لم يعد مهمّاً إن كانت السياسة شاغله أم لا، إنه فتى السينما، فتى الفنّ، *فتى حسّاس*، وذلك كان كافياً بالنسبة إليها، ويا لها من صدمة سرور أن لا أحد منهما بكر، أن لا أحد منهما خائف، أن كلاً منهما قد اكتسب ما يكفي حتّى ذلك الحين من خبرة في إرضاء الآخر، بالتأكيد إن ذلك كان يشكّل الفرق كلّه، أن تكون سعيداً في السرير مع الشخص الذي تحبّه ويبادلكَ الحبّ، ولوهلة قصيرة مشى فيرغسون في المكان وهو يشعر بأنه .. نعم، كان ذلك صحيحاً - بمعانقته جيم وإيمي *حَلَّ لغز الكون*.

لم يقيّض له الاستمرار، بالتأكيد، فالحبّ الكبير يجب أن يُنحّى جانباً، وربّما أن يُنسَى لأن إيمي كانت تسبقه بعام في المدرسة، وستكون في جامعة وسكونسن مع مجيء الخريف، وليس في بارنارد القريبة كما اعتزمت في الأصل، بل إلى السهوب الأميركية البعيدة، ذلك أن إيمي قرّرت، بعد *أسابيع من بحثٍ مضنٍ في داخل الروح*، أن تبتعد قدر المستطاع عن أمّها. توسّل إليها فيرغسون بألا تذهب إلى هناك، في الواقع جثا على ركبتيه، وتوسّل، لكن إيمي الباكية قالت إنه ما من خيار أمامها، لأنها ستكون محجَّمةً ومخنوقة في نيويورك من قِبَل أمّها التي تتدخّل في كل شيء بلا هوادة، وأنها بقدر ما أحبّت حبيب قلبها آرتشي، بقدر ما شعرت أنها *تصارع من أجل حياتها*، وأنها مضطرّة للمغادرة، المغادرة ببساطة دون أن تتيح فرصة التّحدّث إليها بهذا الشأن. كانت المحادثة بداية النهاية، الخطوة الأولى من التفكيك البطيء للعالم المكتمل الذي أنجزاه لكليهما، ولأن اليوم التالي كان بداية عطلة الأسبوع التي يفترض أن تبدأ خلالها رحلتها المخطّط

لها منذ فترة بعيدة إلى كامبردج لزيارة أخيها، ألفى فيرغسون نفسه وحيداً في نيويورك في ليلة جمعة نيسانية، وهو الذي لم يشرب قطرة كحول منذ ظهيرة مأتم العجوز، ولم يحضر واحدة من حفلات أصدقائه سيّئة السمعة، ذهبَ إلى إحدى هذه الحفلات سيّئة السمعة، وأترع نفسه بالشرب إلى درجة الغيبوبة، ذلك أنه أطال النوم صباحَ اليوم التالي، وأضاع فرصة الذهاب إلى المدرسة، كي يقدّم اختبار الكفاءة المدرسية الذي حُدّد وقته في تمام التاسعة.

ستكون هناك فرصة أخرى لتقديم الاختبار في الخريف، لكن أمّه وجيل انزعجا منه بسبب عدم شعوره *بالمسؤولية*، ورغم أنه لم يستطع لومهما، لأنهما تكدرا لفشله في حضور الامتحان، مع ذلك فإن غضبهما لاسع، لاسعٌ أكثر ممّا يجب أن يكون، وللمرّة الأولى في حياته كان فيرغسون يبدأ وعي حقيقة كم هشٌّ هو، كم من الصعب عليه أن يشق طريقه عبر أوهى الصراعات، على الأخصّ الصراعات الآتية كنتيجة لعيوبه وحماقاته، فالمشكلة كانت أنه في عوز لأنْ يُحَبّ، يُحبّ أكثر من سائر البشر المحتاجين للحبّ، أن يُحَبّ كلّياً دون تردّد في كلّ دقيقة من دقائق اليقظة طوال حياته، يُحَبّ حتّى حين يرتكب ما يجعله مكروهاً، خصوصاً بوجود سبب يستدعي ألا يكون محبوباً، وعلى عكس إيمي، التي كانت تُقصي أمّها عنها، لم يسع فيرغسون أن يستغني عن أمّه، أمّه الأريحية التي كان حبّها منبع الحياة كلّها، ومجرّد أن يراها عابسة في وجهه وتلك النظرة الحزينة في عينيها كان كفيلاً بأن يشعر بالدمار، برصاصة في القلب.

جاءت النهاية مع مجيء الصيف، وليس الخريف، مع انتقال إيمي إلى وسكونسن، بل بدايات تمّوز، عندما سافرت لشهرين في رحلة حقيبة ظهر عبر أوروبا مع إحدى صديقاتها، صيّادة أخرى للأطفال النوابغ، اسمها مولي ديفين. بعد ذلك في الأسبوع نفسه، سافر فيرغسون إلى فيرمونت. فقد لبّى كل من أمّه وزوجها أُمنيّته بأن يحذو حذو إيمي، ويشارك في اندماج مكثّف بالفرنسية في جامعة هامبتون. كان برنامجاً ناجحاً، وتطوّرت فرنسيةُ فيرغسون بشكل هائل خلال الأسابيع التي أمضاها هناك، لكنه كان صيفاً خالياً من الجنس، ومليئاً بالخوف ممّا ينتظره عندما يعود إلى نيويورك: قبلة أخيرة واحدة مع إيمي - وبعدها الوداع، لا شكّ الوداع النهائي.

كذلك كان فيرغسون بعد سفر إيمي إلى ماديسون، وسكونسن، الطالب المتقدِّم في الثانوية *والحياة كلّها لا تزال أمامه*، كما قال له مدرِّسوه وأقاربه وكلّ راشد صادف أن التقى به، لكنه للتّوّ خسر حبيبة عمره، وكلمة *مستقبل* قد أُزيلت من قواميس العالم كافّة. وبشكل كاد أن يكون حتمياً، تحوّل تفكيره إلى جولي مرّة أخرى. لم يكن الحبّ، بالطبع، بل على الأقلّ الجنس، والجنس بلا حبّ أفضل من عدم الجنس بالمطلق، خصوصاً حين لا يكون هناك كُتُبٌ يجب أن تُسرَق، كي تُدفع مقابل هذا الجنس. كان الجزء الأكبر من نقود عيد ميلاده قد تبدّد في ذلك الوقت. قد

أنفقه على الملابس الداخلية النسائية والعطور وعشاء المعكرونة الإيطالية مع إيمي طوال الربيع، لكنْ، لم يزل يحتفظ بثمانية وثلاثين دولاراً، التي كانت أكثر من كافية لسقطةٍ أخرى في شقّة الشارع الثاني والثمانين. كذلك كانت تناقضات الرجولة، كما اكتشف فيرغسون. قد يتحطّم قلب المرء، لكن غدده التناسلية لا تكفّ عن الإلحاح عليه بأن ينسى قلبه.

اتّصل بالسّيّدة M.، آملاً بموعد بعد ظهر الجمعة للقاء جولي، ورغم أن السّيّدة M. وجدت بعض الصعوبة في تذكّره (كانت أشهر قد مضت على زيارته الأخيرة)، ذكّرها بأنه الصبي الذي كان ينتظر في غرفة الجلوس، ويتحدّث إلى الفتيات عندما دخل ذلك الشرطي، ليُحصّل مظروفه الأسبوعي، ثمّ كَشَّهُ إلى الخارج. نعم، نعم، قالت السّيّدة M.. أتذكّركَ الآن. تشارلي صبيّ المدرسة، هكذا اعتدنا أن نناديكَ.

وماذا عن جولي؟ سألها فيرغسون. هل أستطيع لقاءها يوم الجمعة؟

جولي لن تكون هنا، قالت السّيّدة M..

أين هي؟

لا أعلم. هناك إشاعة تقول إنها مدمنة على الهيروويين، يا حبيبي. أشكّ في أنكَ ستراها مرّة أخرى.

مريعٌ هذا.

نعم، مريع، لكنْ ماذا بوسعنا أن نفعل في هذا الشأن؟ لدينا بنت سوداء أخرى الآن. أجمل بكثير من جولي. أكثر لحماً على عظامها، وشخصيتها أكثر حضوراً. اسمها سينثيا. هل تريدني أن أسجّل اسمكَ؟

بنت سوداء - ما علاقة اللون بذلك؟

ظننتكَ تميل إلى البنات السوداوات.

أميل إلى البنات كلّهنّ. فقط حدثَ أن استهوتْني جولي.

حسناً، إذا كنتَ تميل إلى البنات كلهنّ، فلا مشكلة، هل من مشكلة؟ المأوى حافل هذه الأيّام.

سأفكّر بالأمر، قال فيرغسون. سأتّصل بكِ مرّة أخرى.

أغلق الهاتف، وللثلاثين أو الأربعين ثانية التالية كرّر كلمة مريع في سرّه ثلاثين أو أربعين مرّة، جاهداً ألا يتخيّل جسد جولي النحيل وهي تتداعى للسقوط في مكان ما وسطَ غشاوة مخدِّرة،

آملاً أن تكون معلومات السّيّدة M. مغلوطة، وأن جولي لم تعد تعمل هناك، لأنها تخرجت في الـ سيتي كوليج بمرتبة الشرف في الفلسفة، وهي تحضّر للدكتوراه في هارفارد، ثمّ دمعتْ عيناه للحظةٍ مع ارتسام صورة في ذهنه: جولي ترقد ميتة على فرشة دون غطاء، عاريةً ومتيبّسة الملامح داخل حجرة في Auberge Saint Hell *نزل القدّيس* جحيم.

بعد أسبوع، كان جاهزاً للقيام بتجربة مع سينثيا أو أي امرأة أخرى في شقّة السّيّدة M. ممّنْ لها ذراعان وساقان وشيء آخر يمثّل جسد المرأة. لسوء الحظّ، كان قد أنفق آخر ما تبقّى من نقود عيد ميلاده في فورة شراء التسجيلات من متجر سام غوديز، واضطرّ لأن يلتجئ إلى أقلّ الوسائل قبولاً في كسب المال، لذلك وفي ظهيرة جمعة دافئة من بدايات تشرين الثاني، قبل يوم واحد من موعده الذي أُعيد تعيينه للتقدّم إلى اختبار اختبار الكفاءة المدرسية، ارتدى عدّة اللصوص المؤلّفة من معطف صوفي وسترة شتوية متعدّدة الجيوب، ثمّ دخل متجر الكُتُب المواجه لحرم جامعة كولومبيا الذي يسمّى 'عالم الكتاب'، الذي بدا أقرب ما يكون إلى المتجر المحترق الذي حمل فيما مضى اسم 'عالم البيت' والذي تردّد بادئ الأمر في دخوله، لكنه صار في داخله رغم تبكيت ضميره، ثمّ وهو يقف قرب قسم الرواية ذي التجليد العادي على امتداد الحائط الجنوبي من المتجر، يدسّ روايات ديكنز ودوستويفسكي في جيوبه، شعر بيد تخبط بقوّة كتفه من الخلف، ثمّ صوت يهدر في أذنه، *قد أمسكتُ بكَ، أيّها اللعين - لا تتحرّكْ!*، وهكذا، بكلّ سهولة، وصلت عملية فيرغسون في سرقة الكُتُب إلى نهايتها المؤسفة والغبية، إذ لماذا يرتدي شخص بكامل قواه العقلية معطفاً صوفياً في النهار، حيث كانت الحرارة تتجاوز الـ (*)62 درجة في الخارج؟

صبّوا جام نقمتهم عليه، وعاملوه بكل خشونة. كان وباء سرقة الكُتُب الذي اجتاح المدينة يقود باعة الكُتُب إلى حافّة الانهيار، وكانت الشرطة تحتاج لأن تجعل من أحدهم عبرة لمَنْ يعتبر، وحيث إن الكيل قد طفح لدى مالك 'عالم الكُتُب'، وبلغ به السخط أشُدَّه للضرر الذي كان قد لحق بعمله، اتّصل بالشرطة، وأبلغهم أنه يريد توجيه الاتهام. لا يعنيه أن الأمر لم يتعدَّ كتابين صغيرين في جيوب فيرغسون - *أوليفر تويست والإنسان الصرصار* - غير أن الصبيَّ لصٌّ، ويجب أن يُعاقَب. وبناء على ذلك أصبح فيرغسون المشدوه والذليل في الأصفاد، اعتُقِلَ، واقتيدَ في سيّارة الدورية إلى مبنى الشرطة المحليّ، حيث أُدرج اسمه في السجلات، أُخذت بصماته، والتُقطَت له صور من ثلاث جهات بينما يمسك بلوح صغير يحمل اسمه. ثمّ أودعوه

---

*) تختلف وحدات الحرارة والقياس والأوزان في أميركا (الفهرنهايت، البوصة والقدم والميل، الرطل) عمّا هي عليه في العالم، و ٦٢ درجة فهرنهايت = ١٧ درجة مئوية. (م)

غرفة الاحتجاز مع قوّاد وتاجر مخدّرات ورجل طعن زوجته، وعلى مدى الساعات الثلاث التالية جلس فيرغسون هناك منتظراً أن يعود رجال الشرطة ويستدعوه للمثول أمام القاضي. ذلك القاضي، صموئيل ج. واسرمان، الذي يمتلك حقّ إعفائه من التهم، وتركه ليعود إلى البيت، لكنه لم يفعل، لأنه شعر هو أيضاً بضرورة أن يكون أحدٌ ما عبرةً للآخرين، ومَن المرشّح الأفضل من فيرغسون، الصبيّ الثريّ ذي الأنف المليء بالمخاط الآتي ممّا تُسمّى مدرسة خاصّة تقدّمية، والذي خرق القانون دونما سبب وجيه يتجاوز العبث المحض؟! خبطت المطرقة الطاولة. تحدّد موعد المحاكمة في الأسبوع الثاني من تشرين الثاني، وأُخلي سبيل فيرغسون دون كفالة - شرطَ بقائه تحت وصاية والديه.

والداه. كانا قد استُدعيا، وكان كلاهما واقفَين في قاعة المحكمة عندما حدّد واسرمان تاريخ المحاكمة. بكت أمّه، دون أن تُصدر صوتاً وهي تهزّ رأسها ببطء إلى الوراء والأمام، كأنها لم تستطع بعد استيعاب فعلتِه. لم يبك ’جيل‘، لكنه كان بدوره يهزّ رأسه إلى الوراء والأمام، ومن التعبير الذي أطلّ من عينيه، تكوّن لدى فيرغسون شعور بأنه كان يريد أن يصفعه.

كُتُب، قال جيل ساخطاً، بينما كان الثلاثة عند حافّة الرصيف ينتظرون سيّارة أجرة، بأي شيء لعين كنتَ تفكّر؟ أعطيكَ كُتُباً باستمرار، ألا أفعل؟ أعطيكَ الكُتُب كلّها التي قد تحتاجها. فلماذا بحقّ الشيطان تسرقها؟

لم يستطع فيرغسون أن يخبره بشأن السّيّدة M. والشّقّة غربيَّ الشارع الثاني والثمانين، لم يستطع أن يُخبره عن النقود التي كان يحاول أن يجمعها، لأنه كان ينوي نيكَ عاهرة، لم يستطع أن يُخبره عن المرّات السبع التي ناكَ فيها عاهرة مدمنة غائبة اسمها جولي أو عن الكُتُب الأخرى التي سرقها في الماضي، لذلك كَذِبَ، وقال: الأمر يتعلّق بما يجري مع بعض الأصدقاء - سرقة الكُتُب كامتحان للشجاعة. إنه نوع من المنافسة.

بعض الأصدقاء! قال جيل. بعض المنافسة!

استقرّ الثلاثة في مقعد سيّارة الأجرة الخلفيّ، وفجأة شعر فيرغسون أن كل شيء يترهّل في داخله، كأنه لم يعد ثمّة عظام تحت جلده. مال برأسه على كتف والدته، وبدأ بالبكاء.

أحتاج أن تحبّيني، يا ماما، قال. لا أعرف ماذا سأفعل، إذا لم تحبّيني.

أحبّكَ، يا آرتشي، قالت والدته. سأحبّكَ دائماً. أنا فقط لم أعد أفهمكَ.

في خضمّ هذا الارتباك كلّه، غاب عن ذهنه اختبار الكفاءة المدرسية الذي كان عليه أن يخضع

له في الصباح - وكذلك غاب عن ذهن أمّه وجيل. ليس ذلك بالأمر الجلل، كان يقول في نفسه مع تعاقب الأيّام، ففي حقيقة الأمر، كانت فكرة الجامعة قد فقدت جاذبيتها بالنسبة إليه، ومع الأخذ بالاعتبار كم كان يكره المدرسة، فإن احتمال عدم ذهابه إلى المدرسة بعد هذه السنة شيء يجب أن يحظى بالاهتمام الشديد.

***

في الأسبوع القادم، حين صدر الحكم في مخالفة فيرغسون للقانون، أخذت أكاديمية ريفرسايد على عاتقها حرمانه من الدوام لمدّة شهر، كإجراء مسموح به بموجب لوائح التشريع التي تحكم سلوك الطلاب. ويتوجّب عليه متابعة وظائفه المدرسية خلال تلك الفترة وإلا سيتمّ فصله حين العودة، قال المدير، ويجب عليه أن يجد عملاً. سأله فيرغسون، أيّ عمل؟ تعبئة مشتريات البقالة في أكياس لدى متجر غريستيدز على شارع كولومبوس، قال المدير. ولماذا هناك؟ سأله فيرغسون. لأن أحد الوالدين يملكه، قال المدير، وهو مستعدٌّ لتشغيلكَ هناك في أثناء فترة حرمانكَ من الدراسة. هل سيدفعون لي؟ سأله فيرغسون. نعم، سيدفعون لكَ، قال المدير، لكنْ، لا يُسمح لكَ بالاحتفاظ بالمال. يجب أن يذهب لصالح الأعمال الخيرية. كنّا نفكّر بأن جمعية باعة الكُتُب الأميركية ربّما تكون مستفيداً مؤهّلاً. كيف وقَعَ ذلك الخبر عليكَ؟

مستعدٌّ تماماً لها. أظنّها فكرة عظيمة.

وجدَ القاضي روفوس ب. نولان، رئيس الجلسة في محاكمة تشرين الثاني، أن فيرغسون مذنب بما أُدينَ وحكَمَ عليه بستّة أشهر في مركز احتجاز الأحداث. علَقَتْ قسوة القرار في الجوّ لثلاث أو أربع ثوانٍ (ثوان طويلة كساعات، كسنين) ثمّ أضاف القاضي: *الحكم مُعلَّق*.

قدّم وكيل فيرغسون القانوني، وهو محام جنائي شابٌّ يُدعى ديزموند كاتز، التماساً إلى القاضي بشطب وصمة القرار من سجلّ موكّله، لكن نولان رفض. لقد أبدى ليناً ملحوظاً في تعليق الحكم، قال، ويجدر بالمحامي الجيّد أن يمتنع عن المجاذفة بما ناله من الحظّ عن طريق طلب المزيد. شعرَ بالاشمئزاز من الجريمة. وفيرغسون كابنِ حظوةٍ، بدا أنه يظنّ نفسه فوق القانون، وأن سرقة الكُتُب لا تعدو كونها مزحة، في حين أن استهتاره الهمجيّ بالأملاك الخاصّة ولامبالاته الوحشية بحقوق الآخرين كشفت عن تصلّب روحيّ، ينبغي علاجه بعناد، كي نكفل *خنق ميوله الإجرامية في المهد*. كمُدان دون سوابق، استحقّ فرصة أخرى. لكنه استحقّ أيضاً تلك الوصمة في سجلّه - لتجعله يفكّر مرّتين قبل أن يُقدِم على هفوة رخيصة وخطيرة كهذه مرّة أخرى.

***

بعد أسبوعين، كتبت له إيمي أنها وقعت في الحبّ مع شخص آخر، شخص ما في سنته الثانوية الأخيرة اسمه ريك، ولذلك لن تأتي إلى نيويورك لقضاء عطلة عيد الميلاد، لأن ريك قد دعاها لقضاء ذلك الوقت معه في بيت أسرته في ميلووكي. قالت إنها آسفة لموافاته بخبر سيّئ عاجل كهذا، لكن شيئاً مثل هذا الخبر كان محتوم الحدوث عاجلاً أم آجلاً، وكم كان ذلك رائعاً خلال هذه الأسابيع الجميلة من الربيع، وكم لا تزال تحبّه، وكم ستكون سعيدة بأنهما سيبقيان أبداً *أفضل أبناء عمومة - أصدقاء على وجه الأرض.*

أضافت حاشيةً أسفل الرسالة أنها ارتاحت حين علمت بأنه لن يذهب إلى السجن. يا له من عمل أحمق! كتبتْ. *الكلّ يسرق الكُتُب، لكنْ، كان عليكَ أن تكون مَنْ يُقبَض عليه.*

كان فيرغسون يتفكّك.

أدرك أنه يجب أن يتمالك نفسه - وإلا فإن ذراعيه وساقيه ستيبدؤون بالتساقط، وسوف يمضي بقيةَ العام يدبّ على الأرض مثل دودة.

في السبت التالي لتمزيقه رسالة إيمي وحرقها في مجلى المطبخ، جلس حتّى فرغ من مشاهدة أربعة أفلام في ثلاث صالات مختلفة بين ساعات الظهيرة والعاشرة - عرض مزدوج في صالة ثاليا وفيلم واحد في كلّ من نيويوركر وإلجين. ويوم الأحد، جلس حتّى فرغ من أربعة أخرى. كانت الأفلام الثمانية مختلطة للغاية في ذهنه حتّى إنه لم يعد يتذكّر هذا من ذاك، إلى أن غطّ في النوم ليلَ الأحد. قرّر أنه منذ ذلك الحين فصاعداً سيكتب وصفاً من صفحة واحدة لكل فيلم يشاهده، ويحتفظ بهذه الصفحات ضمن مصنّف خاصّ ذي ثلاث حلقات معدنية على طاولته. تلك ستكون إحدى طُرُق تمسّكه بحياته بدلاً من خسارتها. يغوص في العتمة، نعم، لكنْ، أبداً بشمعة في يده، وعلبة ثقاب في الجيب.

في كانون الأوّل، نشر مقالين آخرين في جريدة السّيّد دونبار، أحدهما طويل عن ثلاثة أفلام لا تنتمي إلى الوسترن لـ جون فورد (*مستر لينكولن الشّاب*، *كم أخضر كان واديَّ*، *عناقيد الغضب*) والمقال الآخر قصير عن *البعض يحبّها حارّة*، الذي تجاهل القصّة عموماً، وركّز على الرجلين المتنكّرين بهيئة امرأتين وجسد مارلين مونرو نصف العاري يتدفّق عبر فستانها الشّفّاف.

كانت المفارقة في أن حرمانه من الدوام في المدرسة لم يحوّله إلى منبوذ. بل على العكس تماماً، فقد بدا أنه رفع مقامه بين أصدقائه الذكور، الذين باتوا يرون فيه متمرّداً جريئاً، رجلاً قوياً،

وحتّى الفتيات صِرنَ يرينَ أنه أكثر جاذبية الآن وقد تحوّل رسمياً إلى شخص خطير. كان اهتمامه بهنّ قد انتهى منذ كان في الخامسة عشرة، لكنه دعا القليلات منهنّ للخروج برفقته، ليرى إن كان باستطاعتهنّ منعه عن التفكير بـ إيمي. لم يستطعنَ. ليس حتّى عندما طوّقَ إيزابيل كرافت بذراعيه، وقبّلها - ما أشار إلى أن الأمر سيستغرق وقتاً، وقتاً طويلاً قبل أن يكون مستعدّاً لبدء التّنفّس من جديد.

لا جامعة. ذلك كان قراره النهائيّ، وحين أبلغ أمّه وجيل أنه لن يسجّل لإجراء اختبار الكفاءة المدرسية في مطلع كانون الثاني، إذ لن يرسل طلبات قبول إلى أمرست أو كورنيل أو برينستون أو أيّة جامعات تمحّص في السنة السابقة، نظر أهله إليه وكأنه للتّوّ أعلن عزمه على الانتحار.

أنتَ لا تعرف ماذا تقول، قال جيل. لا تستطيع إيقاف دراستكَ الآن.

لن أوقفِها بذلك، قال فيرغسون. أنا فقط سأدرّس نفسي بطريقة مختلفة.

لكنْ، أين، يا آرتشي؟ سألته والدته. أنتَ لا تخطّط للبقاء مسترخياً في هذه الشّقّة طوال حياتكَ، أهذا صحيح؟

ضحك فيرغسون. يا لها من فكرة! قال. لا، لن أبقى هنا. بالتأكيد لن أبقى هنا. أحبّ أن أذهب إلى باريس - مفترِضاً أني تدبّرت أمر نجاحي في الثانوية، ومفترِضاً أنكِ مستعدّة لأن تقدّمي لي هدية التّخرّج التي ستغطّي ثمن تذكرة ذهاب دون عودة.

أنتَ تتناسى الحرب، قال جيل. لحظة تتخرّج في الثانوية، سيقتادونكَ إلى الجيش، ويرسلونكَ إلى فييتنام.

لا، لن يفعلوا، قال فيرغسون. لن يتجرّؤوا على ذلك.

لمرّةٍ واحدة، كان فيرغسون على صواب. بعد ستّة أسابيع من التّعثّر في طريقه لإنهاء الثانوية، أنجز السلام مع إيمي، وبارك جيم لخطوبته من نانسي هامرشتاين، وعاش علاقة ربيعية دافئة وهانئة مع صديقه الطّيّب برايان ميشيفسكي، الذي أقنع فيرغسون وقد بلغ الآن الثامنة عشرة أنه كان في حقيقة الأمر شخصاً مهيّأً لحبّ الرجال والنساء، وأن حياته ستكون أكثر تعقيداً من سائر الحيوات الأخرى، بسبب هذه الازدواجية، لكنها في الوقت ذاته أكثر غنىً وأكثر نشاطاً، بعد أن أنجز كتابة مقال جديد لجريدة السّيّد دونبار كلّ أسبوعين حتّى ختام الفصل النهائي، بعد أن أضاف ما يقرب مائة صفحة إلى مصنَّف أوراقه ذي الحلقات المعدنية الثلاث، بعد أن

عمل مع جيل في إعداد قائمة قراءات شاملة لسنته الدراسية الأولى كطالب ملتحق بـ لا كلّيّة ولا جامعة، وبعد أن عاد إلى غريستيديس على شارع كولومبوس ليصافح زملاء عمله السابقين، وبعد أن عاد إلى 'عالم الكُتُب' ليعتذر من المالك جورج تيلور لأنه سرق الكُتُب، وقد فهم كم كان محظوظاً أنه أُمسك متلبّساً، ولم يعاقَب بقسوة، بعد أن تعهّد بأن لا يسرق شيئاً من أحد بعد ذلك أبداً، بعد ذلك تلقّى فيرغسون رسالة *التهاني* من حكومة الولايات المتّحدة، وكان قد أُبلغَ بأن يقدّم تقريراً إلى لجنة السحب على شارع وايتهول لفحص أهليّته البدنية للخدمة العسكرية، التي من نافل القول إنه اجتازها لأنه شابٌ لائق جسدياً خال من المشاكل الصّحّيّة أو العيوب، لكنْ، لأن لديه سجلّ سوابق جنائية، ولأنه اعترف أمام فريق الأطبّاء بأنه كان منجذباً إلى الرجال بالإضافة إلى النساء، فقد أُصدرتْ له بطاقة سحب جديدة فيما بعد إبّانَ ذلك الصيف، تحمل تصنيفه الجديد المطبوع على الوجه: 4-F.

رخْو – مهترئ – محطَّم - وحُرّ

4.4

خلال سنواته الثلاث كطالب مدرسة ثانوية في ضواحي نيوجرسي، شرع فيرغسون ذو السادسة عشرة، ثمّ السابعة عشرة، ثمّ الثامنة عشرة بكتابة سبع وعشرين قصّة قصيرة، أنهى تسع عشرة منها، وخصّص ما لا يقلّ عن ساعة في اليوم لما أسماه *دفاتر ملاحظاته*، التي ملأها بتمارين مختلفة على الكتابة، ابتكرها لنفسه كي *يبقى حادّ الذهن، منقّباً في العمق، في محاولة تحسين أحواله* (كما عبّر عن ذلك مرّة لـ إيمي): وصْف الأجسام المحسوسة، المشاهد الطبيعية، سماء الصباح، وجوه البشر، الحيوانات، أثر الضوء على الثلج، صوت المطر على العشب، رائحة الخشب المحروق، الإحساس الذي يرافق المرء في أثناء السير في الضباب أو الإصغاء إلى لريح تهبّ عبر غصون الأشجار؛ والمناجاة في تضاعيف أصوات الناس الآخرين كي يتمثّلَ هؤلاء الناس الآخرين أو على الأقلّ أن يحاول فهمهم على نحو أفضل (والده، والدته، زوج والدته، إيمي، نوح، أساتذته، أصدقاؤه في المدرسة، والسّيّد والسّيّدة فيدرمان)، بالإضافة إلى ذلك ثمّة أيضاً آخرون مجهولون وأكثر بُعداً مثل ج. س. باخ، فرانز كافكا، فتاة المحاسبة في المتجر القريب، جامع التذاكر على خطّ قطار إريْ لاكاوانا، الشحاذ الملتحي الذي تسوّل منه دولاراً في محطّة غراند سنترال؛ محاكاة مَنْ يعجب المرء بهم، كتّاب الماضي المُحرِّضين، غير القابلين للمحاكاة (خذي فقرة من هاوثورن، مثلاً، وانسجي شيئاً مبنياً على أسلوبه النحويّ، باستعمال فعل حيثما استخدم فعلاً، اسماً حيثما استخدم اسماً، صفةً حيثما استخدم صفة - كي تشعري بالإيقاع يسري في عظامكِ، كي تشعري كيف صيغت الموسيقا)؛ تعاقب غريب من المقولات المقتضبة تولّدت من توريات، وجناسات، واستبدال حرف ضمن مفردات: ail/ ale ، lust/ lost، soul/ soil، birth/ berth؛ والنشوة الطافحة للكتابة التلقائية بغرَض تفريغ ذهنه عندما كان يحسّ بامتلائه، كما في أربع صفحات من خربشةِ فيضٍ أوحته كلمة بدويّ *nomad* التي تبدأ: *لستُ غاضباً. حتّى إني لستُ متكدّراً، لكنْ، أعطني فرصة لتشويشكَ، وسوف أنبش جيوبكَ*. كما كتَب مسرحية واحدة من فصل واحد، وأحرقها باشمئزاز بعد أسبوع من إنهائه كتابتها، واثنتي وعشرين قصيدة هي الأكثر نتانة في الرائحة من بين القصائد التي كتبها مواطن يعيش في العالم

الجديد، والتي مزّقها بعد أن قطع على نفسه عهداً بألا يكتب قصيدة مرّة أخرى. بصورة عامّة كان ينفر ممّا يكتب. بصورة عامّة كان يظنّ أنه غبي وبلا موهبة ولن يصل إلى شيء في الكتابة، لكنه ركب رأسَه، مُجبراً نفسه على ممارستها كل يوم، على الرغم من النتائج المخيبة في معظم الأحيان، واعياً بأنه لن يكون ثمّة أمل له إلا إذا ثابر عليها، ذلك أن بلوغه مرحلة الكاتب الذي يريد أن يكونَه لا بدّ سيستغرق سنوات، أكثر من السنوات التي سيستغرقها جسده حتّى يتوقّف عن النمو، وكلّما كتبَ شيئاً بدا أقلَّ سوءاً من سابقه بقليل، ثمّ شعر أنه يحقّق تقدّماً، حتّى لو تبيّن أن المقطوعة الجديدة عملٌ بغيض، ففي واقع الأمر لم يكن لديه خيار، إذ نذَر نفسه لتحقيق ذلك أو فليمتْ، فعلى الرغم من صراعاته واستيائه من الأشياء الباهتة التي كتبها، كان مجرّد قيامه بممارستها يدفعه للإحساس بأنه حيٌّ أكثر ممّا دفعه أي شيء آخر فعله في حياته، وحين بدأت الكمات تطنّ في أذنيه، وجلس إلى طاولته، وأمسك قلمه أو لامس بأصابعه مفاتيحَ آلته الكاتبة، شعر بأنه عارٍ، عارٍ ومكشوف أمام العالم الكبير المندفع نحوه، لا شيء لاح أجمل من ذلك، لا شيء كان له أن يوازي الإحساس بالغياب عن نفسه وولوج العالم الكبير الذي يطنّ داخل كلمات كانت بدورها تطنّ داخل رأسه.

جامح. هي أفضل كلمة تصف أحواله خلال تلك السنوات - وكلّ سنة أكثر جموحاً من التي سبقتها، أكثر انكفاءً على ذاته، أكثر رفضاً للانزياح عندما يدفعه شيء ما. نشأ فيرغسون متصلّباً - متصلّباً في عصيانه لأبيه، متصلّباً في الزهد الذي استمرّ بفرضه على نفسه بعد سنوات من موت آرتي فيدرمان، متصلّباً في معارضته لمجتمع الضواحي الذي فرض عليه السجن منذ بداية حياته الواعية. وإذا لم يكن فيرغسون قد تحوّل حتّى الآن إلى السليط الذي لا يُطاق، والذي يجعل الناس يفرّون من أمامه لحظة يدخل مكاناً ما، فلأنه لم يكن يبحث عن المعارك، ويحتفظ بشكل عامّ بأفكاره لنفسه. كان جلُّ زملائه من طلاب الثانوية ينظرون إليه على أنه نوع مقبول من الأشخاص - متجهّم قليلاً أحياناً، *سارح قليلاً في أفكاره*، لكنه لم يكن شخصاً مناكفاً، وبالتأكيد لم يكن مصدر إزعاج، إذ لم يقف فيرغسون موقف الضّدّ تجاه الناس كلّهم، بل بعض الناس، والناس الذين لم يكن ضدّهم مال إلى محبّتهم، والناس الذين أحبّهم عاملهم بمودّة متحفّظة، لكنها رصينة، والناس الذين أحبّهم إنما أحبّهم بالطريقة التي يحبّ بها الكلبُ، بكل ذرّة منه، لا أحكام بحقّ الآخرين، لا إدانة، لا تفكير مريض، ببساطة كان يعبدهم ويغتبط بوجودهم، إذ أدرك أنه يعوّل على الحلقة الضّيّقة من الناس الذين أحبّوه، وبادلهم الحبّ، وأن مآله من دونهم سيكون الضياع، صورة أخرى لـ 'هانْك وفرانك' المتدحرجَين في فتحة موقد إبادة النفايات، رقاقةَ رماد تطوف سماء الليل.

لم يعد الصبي الذي كتب Sole Mates كنكرة أحمق ابن أربعة عشر عاماً، لكنه لم يزل يحمل الصبيَّ في داخله، ويلمس أن الاثنين سيُكملان الدرب معاً لأمد طويل سيأتي. بأن يدمج الغرائبيّ مع المألوف: ذلك كان ما يصبو إليه فيرغسون، أن يراقب العالم عن كثب كما يفعل أكثر الواقعيين إخلاصاً، ثمّ يبتدع طريقة في رؤية العالم من خلال عدسات مختلفة، منحرفة قليلا، فقراءة الكُتُب التي أقامتْ في المألوف فحسبْ قد علّمتكَ لا محالة أشياء تعرفها بطبيعة الحال، وقراءة الكُتُب التي أقامت في الغرائبيّ فحسب قد علّمتكَ لا محالة أشياء لم تشأ أن تعرفها بعدُ، وما صبا إليه فيرغسون قبل كل شيء آخر أن يكتب القصص التي تتيح حيّزاً ليس للعالم المرئي من الكائنات الواعية والأشياء الجامدة، بل أيضاً للقوى اللامرئية الهائلة والغامضة التي كانت خبيئة في ثنايا المرئيّ. كان يريد أن يبعث الإقلاق والبلبلة، كي يجعل الناس يُجلجلون بالضحك، ويرتجفون في أحذيتهم، ليفتّت القلوب، ويُتلف العقول، ويرقص رقصةَ معتوهِ الأولاد الدائخين وهم يتمايلون في دويتو شبح مزدوج التّجلّي. نعم، كان تولستوي دائماً محفِّزاً، ونعم أيضاً، كتب فلوبير أبهى العبارات في الخليقة، لكنْ، بالقدر الذي تمتّع به فيرغسون لاحقاً بالانعطافات الدراماتيكية، متصاعدة العنف، في حياتيَ آنا كارنينا وإيما بوفاري، كانت الشخصيات التي نطقت بأقصى قوّة في تلك المرحلة من حياته، كما يرى هي شخصية *ك.* لـ كافكا، *غوليفر* لـ سويفت، بيم لـ إدغار آلان بو، بروسبيرو لـ شكسبير، *بارتلبي* لـ ميلفل، *كوفاليوف* لـ غوغول، و*الوحش* لـ م. شيللي.

هناك تلك المحاولات التي تعود إلى أيّام سنته الثانية: قصّة عن رجل يستيقظ في الصباح الباكر، ليكتشف أن لديه الآن وجهاً مختلفاً؛ قصّة عن رجل يفقد محفظة نقوده وجواز سفره في مدينة أجنبية، ويبيع دمه كي يستمرّ بالحياة؛ قصّة عن فتاة صغيرة تغيّر اسمها في اليوم الأوّل من كل شهر؛ قصّة عن صديقين، فصما عرى صداقتهما بسبب مناظرة، كان جدال كليهما خاطئاً خلالها؛ قصّة عن رجل يقتل زوجته دون قصد، ثمّ يقرّر أن يدهن كل بيت في الجوار بمسحة من أحمر قانئ؛ قصّة عن امرأة تفقد مقدرتها على النطق، وتجد أنها تصبح أكثر سعادة بالتدريج مع تعاقب السنوات؛ قصّة عن صبي مراهق يهرب من البيت، ثمّ، حين يقرّر العودة، يكتشف أن والديه قد تلاشيا؛ قصّة عن شابّ يكتب قصّة عن شابّ يكتب قصّة عن شابّ يكتب قصّة عن شابّ ...

علّمه همنغواي أن ينظر إلى عباراته بتأنٍّ، وكيف يحتسب وزن كلّ كلمة ومقطع صوتي يدخل في بناء الفقرة، لكنْ، على أن تكون فاتنة ككتابة همنغواي عندما كتب وهو في أفضل حالاته، لم تُوحِ أعماله بالكثير لـ فيرغسون، فذلك الاستعراض الرجولي والرواقية الكتومة كلاهما بدوا

سخيفين إلى حدّ ما بالنسبة إليه، لذلك استغنى عن همنغواي، واتّجه إلى الأكثر عمقاً، جويس الذي يتطلّب كثير الجهد، ومن ثمّ، حين بلغ السادسة عشرة، أعطاه العمّ 'دونْ' رزمة كُتُب ذات أغلفة عادية، من بينها كُتُب من تأليف المغمور حتّى اليوم إسحاق بابل، الذي سرعان ما أصبح كاتب القصّة القصيرة الأوّل في العالم، وهاينريش فون كلايست (موضوع السيرة الذاتية الأولى التي يكتبها 'دونْ')، الذي سرعان ما أصبح كاتب القصّة القصيرة الثاني، لكنْ، كانت أكثرها قيمة بالنسبة إليه، إذا لم نقل الـ *الأثيرة* والـ *أبديّة الأصالة* ، هي طبعة سيغنيت بسعر الخمسة والأربعين سنتاً من *والدن والعصيان المدنيّ* الذي أُقحمَ بين كُتُب الرواية والشِّعْر، فحتّى لو لم يكن ثورو كاتب رواية أو قصّة قصيرة، إلا أنه كان كاتب الوضوح والإحكام الباذخين، مبدعَ الجمَل المبنية على نحو أخّاذ التي أحسّ فيرغسون بجمالها كمَن يحسّ بضربة على الذقن أو بحمّى في الدماغ. مكتمل هو. كلّ كلمة تحتلّ مكانها بالضبط، وكلّ جملة تبدو وكأنها عملٌ صغير بحدّ ذاته، ووحدة مستقلّة من الروح والعقل، أضف أن التشويق في قراءة نثر كهذا تمثَّلَ في عجز المرء عن التّكهّن بمدى البُعد الذي ستكون عليه طفرة ثورو من جملة إلى الأخرى - أحياناً تكون مسألة بوصات، أحياناً بضع أقدام وياردات، أحياناً الأميال التي تفصل طرفي البلاد - وعامل الخلخلة في تلك المسافات المتفاوتة علّم فيرغسون كيف ينظر إلى محاولاته بطريقة جديدة، إذ إن ما فعله ثورو كان دمجَ دفقتين متنافرتين واستثنائيتين في تبادل تأثيرهما ضمن كلّ فقرة كتبها، ما بدأ فيرغسون يسمّيه بدفقة أن *تتحكّم*، ودفقة أن *تخوض المجاذفة*. ذلك كان السّرّ، كما أحسّ. التّحكّم الكليّ يؤدّي إلى نتيجة سكونية خانقة. المجاذفة الكلّيّة ستؤدّي إلى الفوضى والإبهام. لكنْ، ضعِ الاثنين معاً، فربّما توشك على كشفِ ما ذي أهمّيّة، وربّما ترنّ على الصفحةِ الكلماتُ التي كانت ترنّ في رأسكَ، وستنفجر القنابل، وستنهار المباني، وسيبدو العالمُ كعالم مختلف عن ما كان عليه.

لكنْ، كان هناك ما يتجاوز مجرّد الأسلوب بالنسبة إلى ثورو. كانت هناك الحاجة الوحشية لأن يكون نفسَه، ولا أحد سوى نفسِه حتّى لو اقتضى الأمر الإساءةَ إلى جيرانه، جموح الروح الذي كان جاذباً لـ فيرغسون ذي الطبع الأكثر جموحاً على الإطلاق، فيرغسون *المراهق*، الذي رأى في ثورو رجلاً نجح بالاحتفاظ بمراهقته على مدى حياته الكاملة، أي الرجل الذي لم يفرّط بمبادئه، الذي لم يتحوّل إلى فاسد خائن، نشأ شجاعاً، لكنه مضى إلى النهاية المريرة، الذي كان بالضبط ما أراد فيرغسون تخيّله عن مستقبله. لكنْ، وراء المطلب الروحي لتحويل نفسه إلى كائن جريء، معتمدٍ على ذاته، كانت هناك مراجعة ثورو النقدية للفرضية الأميركية بأن المال يحكم كلّ شيء، معارضة الحكومة الأميركية، ثمّ استعداده للذهاب إلى السجن حتّى يعترض

على إجراءات الحكومة الأميركية، ومن ثمّ، بالتأكيد، كانت الفكرة التي غيّرت العالم، الفكرة التي ساعدت على تحويل الهند إلى بلاد مستقلّة بعد خمسة أشهر من ولادة فيرغسون، التي كانت الفكرة ذاتها المنتشرة على امتداد الجنوب الأميركي، وربّما كانت ستسهم في تغيير أميركا أيضاً، العصيان المدني، المقاومة اللاعنفية لعنف القوانين الجائرة، وكمْ بلغَ هذا التّغيُّر من الضآلة في مائة واثنتي عشرة سنة منذ *والدن*، فالحرب المكسيكية الأميركية أوصلتْ إلى حرب فيتنامية، استعباد السود أوصلَ إلى اضطهاد جيم كراو، ثمّ إلى حكومات الولايات التي تديرها جماعة الـ كلان، وكما تزامن إنهاء ثورو كتابَه مع السنوات التمهيدية للحرب الأهلية، كان فيرغسون يشعر هو الآخر بأنه يكتب في وقت يوشك فيه العالم على أن ينفجر مرّة أخرى، ولثلاث مرّات في الأسبوعين، السابق واللاحق لزواج أمّه من والد جيم وإيمي، بينما يتابع الصور المتلفزة، ويطّلع على صور الجريدة لرهبان بوذيين في الجنوب الفيتنامي *يحرقون أنفسهم حتّى الموت* احتجاجاً على سياسات نظام نْغو دِنْه دِيمْ المدعوم من قِبَل أميركا، يدرك فيرغسون أن أيّام صباه المطمئنّة قد انتهت، أن رهبة تلك الأضاحي برهنت أنه إذا كان الرجال مستعدّين للموت في سبيل السلام، فإن الحرب المتفاقمة باطّراد في بلادهم ستصبح أخيراً كبيرة، لدرجة أنها ستُضفي العتمة على كل شيء، وتنتهي إلى دفع الجميع للعمى.

***

كانت ساوث أورانج مكانَ المنزل الجديد، وليست ميبلوود، لكنْ، من حيث إن كلا البلدتين مرتبطتان بمجلس تعليم موحّد، التزم فيرغسون وإيمي بمكانهما كطالبين في مدرسة كولومبيا الثانوية، التي كانت المدرسة الثانوية العامّة الوحيدة في المنطقة. كانا قد أنهيا سنتهما الثانية عندما تزوّج والداهما في الثاني من آب، 1963، وباتت المحادثة المثبطة للمعنويات التي جرت في الحديقة الخلفية لمنزل فيرغسون القديم قبل ذلك بأحد عشر شهراً طيَّ النسيان الآن. قد وجدت إيمي لها حبيباً، ووجد فيرغسون له حبيبة، وصداقتهما كأخ وأخت قد صيغت كما شاءت لها إيمي أن تكون، مع أنهما الآن في الواقع أخ وأخت، فربّما تحوّل المجاز إلى حشوٍ لا طائل له.

استأثر والد فيرغسون بأموال بيع البيت القديم كلها، لكن دان شنايدرمان كان لا يزال يملك المنزل الأقدم من القديم، منزل ميبلوود الأوّل، الذي لم يردْ فيرغسون الفتى أن يغادره أبداً، وببيع ذلك المنزل بتسعة وعشرين ألف دولار، تمكّن بمبلغ ستّة وثلاثين ألف دولار من شراء منزل أكبر بقليل في ساوث أورانج، بالرغم من أن والدة فيرغسون كانت مفلسة تقريباً، لأن شيكات والده الشهرية قد توقّفت عن الوصول بعد زواجها من دان، دان نفسه الذي لم يعد مفلساً، حيث

كان وليز قد اشتريا وثائق تأمين على الحياة بقيمة مائة وخمسين ألف دولار في بدايات زواجهما، والآن وقد حُصِّلَ المبلغُ نهارَ وفاة ليز الفظيع السابق لأوانه، عاشت العائلة التي تشكّلت حديثاً من آل إدلر، وفيرغسون، وشنايدرمان أريحيةً مالية في ذلك الحين. كان من الصعب ألا يتساءل المرء من أين جاء المال، الترجمة الرهيبة للسرطان المزمن إلى دولارات، لكن ليز كانت ميتة، والحياة تسير، وما الخيار أمام أيٍّ منهم سوى أن يسير معها؟

أحبّ الجميع المنزل الجديد. حتّى فيرغسون، الذي كان معارضاً بقوّة لفكرة العيش في بلدة صغيرة، والذي كان سيبذل أيّ شيء تقريباً، كي ينتقل إلى نيويورك أو أيّة مدينة كبيرة في أي مكان من العالم، اعترف بأنه كان خياراً لائقاً، وأن المنزل المحاط بالألواح الخشبية ذا الطبقتين المبني في 1903 والقائم على زقاق منعزل يسمّى وودهول كريسنت كان، كمكان ترقد فيه عظامكَ، أفضل من *قلعة الصمت* القارسة التي أُجبر على العيش فيها خلال السنوات السبع الفائتة. كان يمكنهم استخدام غرفة نوم أخرى بالإضافة إلى الأربع التي لديهم، حيث إن الغرفة التي ستُخصّص لـ جيم قد تحوّلت إلى استديو لـ دان، لكنْ، لم يشعر أحد أن في الأمر أذى، وأقلّهم شعوراً بذلك كان جيم الفاتر، الذي قلّما جاء في زيارة، وبدا أنه راضٍ بالنوم على صوفا غرفة الجلوس، وإذا لم يكن لديه مانع، ولماذا يجب أن يمانع أحد ما؟ الشيء المهمّ أنهم كانوا فيه معاً، ولأن فيرغسون موافَقٌ عليه من قِبَل دان، وإيمي وجيم موافَقٌ عليهما من قِبَل والدة فيرغسون، ودان موافَقٌ عليه من قِبَل فيرغسون، ووالدة فيرغسون موافَقٌ عليها من قِبَل إيمي وجيم، فقد استقرّ الجميع سالمين معاً دون أن يلقوا انتباهاً إلى الشائعات في البلدتين اللتين أحسّ أهلهما بأنه مع كلّ منعطفات واضطرابات السنة الماضية - وفاة، طلاق، زواجٌ ثانٍ، منزل جديد، ومراهقين شبقين يسكنان جنباً إلى جنب في الطابق نفسه في ذلك المنزل - شيء ما غريب أو غير *طبيعي* أو *ليس أخلاقياً تماماً* لا بدّ ويحدث هناك في 7 وودهول كريسنت. لم يكن الرجل إلا مجرّد *فنّان مكافح*، ويا للأسف لحاله، أي luftmensch رجل هوائيّ (كما يقول لسان حال اليهود) لبق، رثّ الملابس، أو منشقّ طويل الشَّعْر بميول سياسية مريبة (كما يقول لسان حال غير اليهود)، وكيف تستطيع زوجة ستانلي فيرغسون أن تتخلّى عن زواجها والمال الذي بحوزته، لتعيش مع شخصية كهذه؟

لم يكن للتّغيّر الكبير في حياة فيرغسون علاقة بزواج أمّه من دان شنايدرمان. فقد كانت متزوّجة من قبل بطبيعة الحال، وفي مسألة الزواج، فإن 'دانْ' زوج أفضل وأكثر انسجاماً معها ممّا كان والده، أيّد فيرغسون الارتباط، ولم يفكّر كثيراً به، لأنه لم يشعر بضرورة ذلك. ما كان يفكّر به، على أيّة حال، وما كان يمثّل أكثر بكثير من انقلاب خطير في الظروف الأساسية من حياته،

هو أنه لن يعود الابن الوحيد. فلطالما ابتهل حين كان صبياً صغيراً من أجل أخ أو أخت، تضرّع المرّة تلو المرّة إلى أمّه كي تُنجب طفلاً من أجله، وبذلك لن يبقى وحيداً بعد ذلك، لكنها في ذلك الحين أخبرته بأن هذا الأمر لم يعد ممكناً، إذ لم يعد لديها أطفال في داخلها، ما كان يعني أنه سيكون *آرتشيها* الوحيد حتّى نهاية الحياة، وشيئاً فشيئاً سلّم فيرغسون بِقَدَر عزلته، وتحوّل تدريجياً إلى الشخص المتأمّل، الحالم الذي يريد الآن أن يمضي فترة رشده وحيداً في غرفته يكتب الكُتُب، ويفتقد الخروج إلى المتع المتقلّبة والصداقة الحميمة المبهجة التي يمرّ بها معظم الأولاد مع أقربائهم، لكنْ، أيضاً يتجنّب الخلافات والأحقاد التي يمكن أن تحوِّل الطفولة إلى ضوضاء جهنمية لا ترحم، والتي تودي بالمرء إلى عمرٍ بأكمله من المرارة و/ أو الذهان المزمن، والآن، في عمر السادسة عشرة، تملّص من محاسن ومساوئ أنه لم يعد وحيداً طوال حياته، واستُجيبتْ أُمنيّة طفولة فيرغسون على هيئة أخت في السادسة عشرة، وأخ في العشرين - لكن ذلك جاء متأخّراً للغاية، عهدٌ تأجّل فترةً أطول من أن تسمح له بالاعتياد على هذا العهد الجديد ما يكفي، وحتّى لو اعتاد، يبقى أن جيم غائب في معظم الأوقات وإيمي رجعتْ صديقة مقرّبة إليه (بعد فترة طويلة من استيائه منها، لأنها خذلته في الصيف الماضي)، مع ذلك، ستأتي أيّام، لا يستطيع خلالها مقاومة حنينه إلى حياته القديمة كولد وحيد، حتّى لو كانت تلك الحياة أسوأ بكثير من هذه التي يعيشها الآن.

كان الأمر سيختلف لو أن إيمي أحبّته بالطريقة التي أحبّها فيها، لو استغلا ظروفهما الجديدة في إشباع الرغبة بشتّى ضروب الشيطنة الحسّيّة، وجلسات الشعوذة المرتجلة حين يدير أهلهما أقفيتهم، في دعابات الشهوة السّرّيّة واللقاءات الغرامية الليلية في واحدة من غرفتيهما المتجاورتين، ليبلغا الأوج من خلال التضحية المتبادلة بتولتهما في سبيل الحبّ والصّحّة الذهنية الأمثل، لكن إيمي لم تكن مستعدّة، فهي حقّاً وبصدق تريد أن تكون أخته، وأما فيرغسون الممسوس بالجنس، الذي كان هدفه الأساسي في الحياة أن يُولِج قضيبه في جسد بنت عارية، ويرمي بتولته وراءه للأبد، فكان عليه الانصياع للأمر، وإلا فإنه سينفجر من الإثارة المتواصلة لنَيل ما لم يتمكّن من نَيله، فالرغبة المحبطة سُمّ يتسرّب إلى كل جزء منكَ، ولحظة تتشبّع أوردتكَ وأعضاؤكَ الداخلية بهذا الشيء، فإنه يسري إلى الأعلى باتّجاه دماغكَ، وينفجر في أعلى جمجمتكَ.

كانت الأسابيع الأولى في المنزل الجديد عسيرة للغاية بالنسبة إليه. ليس لأنه كبتَ إلحاح الإمساك بـ إيمي وغمر وجهها بالقبل كلّما اختليا ببعضهما فحسب، وليس لأنه أُرغم على إخماد التّخيّلات المرافقة للانتصاب الليلي بالاندساس معها في الفراش داخل الغرفة المجاورة فحسبْ،

بل لأن ثمّة تعديلات عملية، كان لا بدّ من تسويتها بالإضافة إلى ذلك، التي تمحورت عموماً حول مسألة عدم انتهاك كلّ منهما خصوصية الآخر، وإلى أن يسنّا حزمة قوانين سريعة ومُلزمة، تتعلّق بكيفية التعايش ضمن المساحات التي يتشاركانها (اقرع الباب أوّلاً، نظّف الحمّام قبل مغادرته، اغسل الصحون التي استخدمتها، لا تتلصّصْ على وظيفة الآخر المدرسية ما لم تُعطَ الإذن الصريحَ، ولا نبش في غرفة الآخر، ما كان يعني أن ليس بوسع فيرغسون أن يختلس نظرة إلى مفكّرة إيمي، وليس بوسع إيمي أن تختلس نظرة إلى مسوّدات أعمال فيرغسون وقصصه)، وكانت هناك لحظات عسرٍ مختلفة وحدثان تخلّلتهما مواجهات مباشرة، كما حين فتحت إيمي باب الحمّام، ورأت فيرغسون الذي أنهى للتوّ استحمامه قاعداً على كرسي التواليت وهو يمارس العادة السّرّيّة - *لم أرَ ذلك!* قالت بصوت نابح وهي تصفق الباب وراءها - أو حين نبَقَ فيرغسون من غرفته في الوهلة الحرجة لحظة عبرت إيمي الردهة وهي تحاول تعديل المنشفة التي تلفّ جسدها، ثمّ حين وقعت المنشفة، كاشفة بياض جلدها العاري أمام فيرغسون المصعوق، الذي كان ينظر إلى النهدين وحلمتيهما الصغيرتين وشَعْر العانة البنيّ المتجعّد في جسد أخته/ ابنة زوج أمّه للمرّة الأولى، أفلتت إيمي الـ*fuck*! بصوت عالٍ، والتي ردّ عليها فيرغسون بالطريقة الحاسمة الذكية نفسها تقريباً - *لطالما شككتُ بأنكِ تمتلكين جسداً*، قال. *الآن أنا متأكّد من ذلك* - وضحكت إيمي، ثمّ رفعت يديها مُحاكيةً بازدراء وضعية الـ cheesecake الساخرة، وقالت، *والآن نحن متعادلان، يا مستر Dick*(*)، الذي لم يلمِّحْ إلى شخصية طريفة في روايتهما الأثيرة ديفيد كوبرفيلد وحسب، بل أيضاً إلى ما شاهدته في الحمّام منذ أيّام خلتْ.

كان صحيحاً أنّ لـ فيرغسون حبيبة، وكان صحيحاً أيضاً أنه سيتخلّى عنها في لحظة لو كان *بآرتشيز*(**) إيمي قد عقد النيّة، لكنْ، لم يحدث، والآن وقد رأى الجسد الذي لم يُوهَبْ له، لم يعد يتعيّن عليه أن يعذّب نفسه بمحاولته أن يتخيّل كيف يبدو، وتلك كانت خطوة صغيرة للأمام كما شعَر، طريقة لأن يبدأ معالجة نفسه من وسواس غير سَويّ، لن يقوده إلى أي مكان باستثناء *البئر بلا قرار* التي حفلت بـ*الحزن الأبديّ*، وعلى سبيل التعويض حاول تركيز أفكاره على جسد صديقته، الذي رآه عارياً فقط من الخصر إلى الأعلى، لكن استكشافاتهما كانت تصبح أوقح وأكثر طيشاً، وقد عادا إلى اللقاء مع بداية سنتهما الثانوية الأولى، ما يعني أنه كان ثمّة سبب للأمل، وبعد صيف مضنٍ من جهله أين موقعه بالنسبة إلى إيمي أو كيف يتصرّف معها، قرّر فيرغسون أن يذعن، أن يحرق ترسانة أسلحته، ويوقّع اتّفاقيّة ذهنية، تعلن استسلامه

---

*) العضو الذكريّ.

**) السّيّد بآرتشيز، من شخصيات رواية ديكنز (ديفيد كوبرفيلد).

المطبق، ومنذ تلك اللحظة فصاعداً بدأ يركن إلى دوره بالتّصرّف كأخٍ لـ أختِ إيمي، مدرِكاً أنها كانت الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها الاستمرار في حبّها مع بقائه محبوباً بالمقابل.

حدثَ أن تشاجرا أحياناً، وأحياناً صرختْ إيمي، وصفقت الأبواب، ونعتته بصفات بذيئة، أحياناً توارى فيرغسون في غرفته، ورفض التّحدّث إليها لأُمسيّات بأكملها، لحزَمٍ زمنية امتدّتْ عشر أو اثنتي عشرة ساعة بأكملها، لكنْ، غالباً ما سعيا للمصالحة، وغالباً ما تصالحا. في الواقع، عادت صداقتهما إلى ما كانت عليه قبل أن يصمّم فيرغسون على أنهما يجب أن يكونا أكثر من مجرّد صديقين، لكنْ، كان هناك عسر مُضاف إلى الصداقة، وقد أصبحا يعيشان مع والديهما المتزوّجين حديثاً في منزل وودهول كريسنت، مع المحادثات بمزيد من الإسهاب، مزيد من الحميمية التي استغرقت أحياناً ثلاث أو أربع ساعات، وفي مرحلة ما من الحديث تمكّنا من التّطرّق إلى موت والدة إيمي وموت أرتي فيدرمان، مع مزيد من ساعات الدراسة والتحضير للاختبارات معاً (الذي رفع من درجات فيرغسون من B+ وA- العارضة إلى مستوى درجات إيمي من كلّ الـ A والـ A-)، مزيد من السجائر التي دخّناها معاً، مزيد من سكرات الكحول معاً (كلها بيرة تقريباً، من الـ رولينغ روك الرخيصة في الزجاجات الخضراء الطويلة أو حتّى الـ أولد ميلووكي الأرخص في الزجاجات البنّيّة القصيرة والعريضة)، مزيد من الأفلام التي تابعاها على التلفاز معاً، مزيد من التسجيلات التي استمعا إليها معاً، مزيد من ألعاب جِنْ رومّي التي لعباها معاً، مزيد من الرحلات إلى نيويورك معاً، مزيد من المزاح ، مزيد من الإغاظة ، مزيد من الجدال السياسي، مزيد من الضحك ، ولا مزيد من الحياء بما يتعلّق بنكش الأنوف والضراط وهما جالسان جنباً إلى جنب.

ضمّتْ قاعات المدرسة أكثر من ألفي ومائة طالب، أكثر من سبعمائة لكل صفّ، وفي مصنع التعليم الثانوي العام ذلك الذي خدّم بلدتي ميبلوود وساوث أورانج، كان هناك خليط من البروتستانت والكاثوليك واليهود، قطاع سكّاني من الطبقة المتوسّطة الكبيرة مع كتلة من طبقة *الياقات الزرقاء* العاملة الصناعية وكتلة أخرى من طبقة أعلى هي أثرياء *الياقات البيضاء*، الفتيان والبنات الذين جاءت عائلاتهم إلى أميركا من إنكلترا وسكوتلندة وإيطاليا وإيرلندة وبولونيا وروسيا وألمانيا وتشيكوسلوفاكيا واليونان وهنغاريا، لكنْ، لم يكن هناك عائلة آسيويّة واحدة، وما لا يزيد عن أربعة وعشرين طالباً ملوّناً في المدرسة بأكملها، ما جعلها واحدة من المدارس الثانوية ذات اللون الواحد بين مدارس عديدة في مقاطعة إسّكس، وحتّى في ذلك التاريخ المتأخّر، تسعة عشر أو عشرين عاماً بعد تحرير معسكرات الموت في نهاية الحرب العالمية الثانية، فإن آثاراً من

معاداة السامية لا تزال ماثلة في البلدتين، غالباً على شكل وشوشات، فواصل صمت، وإقصاءات غير مكتوبة في أماكن مثل نادي أورانج للتنس، لكنْ، كان أحياناً ما هو أسوأ من ذلك، ولم ينس كلّ من فيرغسون وإيمي أبداً الصليبَ الذي أُحرقَ في الحديقة الأمامية لبيت أحد أصدقائهم اليهود من ميبلوود في السنة التي بلغا فيها العاشرة.

أكثر من ثلثي ما يزيد عن السبعمائة طالب في الصّفّ يذهبون إلى الجامعات، بعضهم إلى أفضل الجامعات في البلاد، بعضهم إلى المعاهد المتوسّطة الخاصّة على امتداد الساحل الشرقي، بعضهم في كلّيّات، تديرها حكومة ولاية نيوجرسي، وبالنسبة إلى الفتيان الذين لم يدخلوا الجامعة، كان هناك الجيش وفييتنام، وبعد ذلك، إن بقي *'بعد ذلك'* يعملون كميكانيكيين ومالئيّ وقود في المرائب ومحطّات الوقود، ومهن أخرى كخبّازين وسائقي شاحنات للمسافات الطويلة، وعمل متقطّع أو دائم كشغّيلة تمديدات صحّيّة، كهربائيين، نجّارين، موظّفين في مهمّات الحدّ الأدنى بعقود لعشرين عاماً في قسم الشرطة، قسم الإطفاء وقسم الصرف الصّحّيّ، وإلا فالسعي من أجل الفوز بكسبٍ ما في أعمال شديدة الخطورة كالمقامرة والابتزاز والسطو المسلّح. وبالنسبة إلى الفتيات اللواتي لم يذهبنَ إلى الجامعة، كان هناك الزواج والأمومة، معاهد السكرتارية، معاهد التمريض، معاهد التجميل، معاهد تِقْنيّي طبّ الأسنان، العمل في المكاتب والمطاعم ووكالات السفر، والفرصة بأن يمضينَ بقية حياتهنّ ضمن دائرة عشرة أميال من البلدات التي وُلدن فيها.

مع ذلك، هناك بعض الاستثناءات، بعض مَنْ لم يُردنَ الذهاب إلى الجامعات، وأيضاً لم يشأنَ الاستسلام لأوضاعهنّ، بعض الفتيات من ذوات الماضي والمستقبل المختلفين كلّيّاً من بنات نيوجرسي الأصليات اللواتي كان فيرغسون يتأمّل في أوضاعهنّ طوال حياته، وحدث أن كانت إحداهنّ طالبة في حصّته للغة الإنكليزية في اليوم الأوّل من سنته الثانوية الأولى، بنت ذات شَعْر أسود، وبشرة سمراء، ولم تكن جميلة كما لم تكن *'غير جميلة'*، لكنها أسرت انتباه فيرغسون بشكل ملحوظ، منطوية على نفسها بشكل كليّ كحيوان مطمئنّ حُبس في حديقة الحيوان، يتطلّع إلى المتطلّعين عليه بهدوء من خلال القضبان، متسائلاً عن الشجاع بينهم الذي سيطعمه، وحين بدأت السّيّدة مونرو الدرس بتوجيه إصبعها نحو كلّ من الطلاب العشرين، ومطالبتهم بأسمائهم وتقديم أنفسهم لطلاب الصّفّ، سمع فتاة الشَّعْر الأسود تتحدّث بما عرفَ أنها لهجة بريطانية، ودون التّردّد للتفكير في الأمر قرّر فيرغسون أن يتابعها، ليس فقط لأن الفتاة القادمة من مكان آخر كانت بشكل تلقائي أكثر جاذبية من بنت البلد الآتية من ضواحي جرسي، بل لأن سبعة أيّام بالضبط قد مرّت منذ أن صدّته إيمي في الحديقة الخلفية وهو الآن حرّ، حرّ

بشكل يثير الغثيان في أن يلاحق أيّة فتاة يصادفها أمامه. لحسن الحظّ، لم تكن إيمي في صفّه للغة الإنكليزية في ذلك العام، الذي كان يعني أن أنظارها لن تقع عليه بينما يصوّب أنظاره إلى فتاة الشَّعْر الأسود ويخطّط لطريقة الاقتراب منها، والتّودّد إليها، والحظيان بها، وحيث إن إيمي ليست هنا كي تتجسّس على نواياه، فإن بإمكانه أن يجعل هذه النوايا شفّافةً بالقدر الذي يشاء.

دانا روزنبلوم. ليست بريطانية، بل جنوب أفريقية. البنت الثانية بين أربعٍ وُلدنَ لـ موريس وغلاديس روزنبلوم في جوهانسبرغ، يقيمون الآن في الولايات المتّحدة، لأن والد دانا الثريّ، مالك المصانع لم يكن مجرّد رجل أعمال رأسماليّ، بل كان اشتراكياً، رجلاً عارض بقوّة حكومة التمييز العنصريّ التي كانت تحكم البلاد منذ 1948 حتّى إنه عمِلَ بنشاط ضدّها، ولانخراطه في تلك النشاطات المخرِّبة أُدين من قِبَل السلطات القانونية الجنوب أفريقية إلى حدّ أنهم أرادوا إيداعه السجن، المكان الذي لن يكون ملائماً لصحّة موريس روزنبلوم أو لروح عائلته المعنوية، لذلك أقلع السّتّة من البلاد، منسحبين من جنوب أفريقيا إلى لندن، تاركين وراءهم مصنعهم، منزلهم في جوهانسبرغ، سيّاراتهم، قططهم، حصانهم، بيتهم الريفي، قاربهم، والقسم الأكبر من أموالهم. من كلّ شيء، إلى ما يقرب اللاشيء، ولأن عمره قارَبَ الاثنين وستّين عاماً سيكون والد دانا أكثر ضعفاً من أن يتحمّل العمل، لذلك فإن أمّها الأصغر عمراً بكثير، التي قدّر فيرغسون بأنها في منتصف الأربعينيات، قد أخذت على عاتقها إعالة الأسرة في لندن، مهمّة أنجزتها بتسلّمها مركزاً ذا أهمّيّة كبيرة في متجر هارودز في غضون ثلاث سنوات، ومع بلوغها أقصى ما أمكنها في مركز في هارودز ، قبلتْ مركزاً وظيفياً أعلى بضعف الراتب في متجر ساكس فيفث آفينيو، نيويورك. هكذا وطئت عائلة روزنبلوم التراب الأميركي في ربيع 1962، وهكذا وجدوا طريقهم إلى منزل كبير يصدر الصرير على جادّة مايهوو في ساوث أورانج، نيو جرسي، وهكذا تنتهي دانا روزنبلوم جالسة على بُعد مقعدين من فيرغسون في حصّة السّيّدة مونرو للصّفّ العاشر، اللغة الإنكليزية في مدرسة كولومبيا الثانوية.

جنوبُ أفريقيةٍ بيضاء ببشرة ملوّحة بسمرة شمال أفريقية، أصول شرق أوروبية فوق أصول أعمق من صحارى الشرق الأوسط، اليهودية الآتية من الأدب الجرماني والشمالي، بنت الأوبرا الغجرية وأفلام التكنيكولور، إزميرالدا وبَتشْبَعْ وديزديمونة وقد اجتمعنَ في واحدة، نار الشَّعْر المتلوّية الجامحة السوداء كتاج على رأسها، قَدّ نحيل وشفاه رقيقة، انحناء طفيف فوق الكتفين وأعلى العنق، وهي تدوّن ملاحظات الدرس، نقلات واهنة، أبداً لا عجلة ولا إنهاك، وادعة، بل لطيفة ووادعة، ليست الفاتنة الشرقية التي يخيّل إلى المرء أنها نسخة عنها، بل فتاة مكتملة بنبضات دافئة وحنونة، كانت بشتّى المعاني البنت الأكثر عاديةً التي انجذب إليها فيرغسون،

لم تكن جميلة بطريقة جمال ليندا فلاغ نفسه، لم تكن متألّقة بطريقة تألّق إيمي نفسها، لكنها أكبر وأكثر اتزاناً منهما، بسبب ما مرّت به هي وعائلتها، أكبر من فيرغسون نفسه، حِسّيّة غير مثقَلة بكل ما لديها من التجارب وجريئة في أن تستقبل مبادراته الأولى، وخلال وقت قصير وعى حقيقة أنها كانت شغوفة به، ولن تُفتّته كما فعلت إيمي أحياناً، ابنة شنايدرمان المماحِكة التي انفجرت ضاحكة عندما أخرج فيرغسون غليوناً، وأشعله بعد الغداء ذات مساء خلال سنة *العشاءات المتكرّرة* قبل أن يتزوّج والداهما، الغليون الذي اشتراه ليدخّن في أثناء الكتابة، لأنه ظنّ أن الكتّاب كلّهم مهيّؤون لتدخين الغلايين حين يجلسون إلى طاولاتهم، ويبدؤون الكتابة، وكم أسهبت بالسخرية منه لذلك السبب، ناعتةً إيّاه بـ*الأخرق المدّعي*، والـ*أكثر من عاش من الصِّبية سخفاً*، كلمات لن تقولها دانا روزنبلوم له أو لأي أحد آخر أبداً، ولذلك تقرّب من الوافدة الجديدة ذات العينين السوداوين ابنة جوهانسبرغ ولندن، وحظي بها، ليس لأنه عرف ماذا كان يفعله عندما تعلّق الأمر بالإغواء، بل لأنها أحبّته، وأرادت أن تُغوى.

لم يكن يحبّها، لن يحبّها أبداً، صحيح أنه فهم منذ البداية بأن دانا لن تكون الشغف العظيم الذي يبحث عنه، لكن جسده كان يحتاج الملامسة، تاق إلى الحميمية مع أحد ما، ودانا لامسته وقبّلته جيّداً، أفضل وأكثر ممّا تطلّبته متعته الحسّيّة بمداعباتها التي فعلتْ فعلها في طمس الحاجة إلى الشغف الكبير في تلك المرحلة من حياته. شغف صغير بكثير الملامسة والتقبيل كان كافياً في تلك الآونة، وحين التحما بكلّ معنى الكلمة، عاشا الجنس الأقصى في شتاء سنتهما الثانوية الأولى، كان ذلك أكثر من كافٍ لإشباعه.

جنس حيوانيّ دون كلام مع البنت الغجرية التي أحبّته، تواصلٌ بالنظرات والإيماءات واللمس، تبادلٌ شفاهيّ قليل حول أيّ شيء باستثناء الشؤون المبتذلة، لا لقاء ذهنين كما مع إيمي أو فتاة أحلامه المستقبلية، بل لقاء جسدين، تفاهم بين جسدين، نقص تثبيطٍ كان طارئاً للغاية على فيرغسون حتّى إنه ارتعش كلّما تذكّر ما فعله أحدهما للآخر في الغرف الخاوية عندما كانا يتدبّران خلوتهما، الجلد المحترق سعادةً، العرق المنسرب من مساميهما بينما يغمر أحدهما الآخر بالقُبل، وكم كانت رقيقة معه، كم استقبلتْ كآباته وحالات يأسه الموغلة في ذاتيتها، كم لم تلقِ بالاً أنه أحبّها أقلّ ممّا أحبّته، لكنهما عرفا أن علاقتهما لم تكن إلا شأناً عابراً، أن أميركا مكانه، وليست مكانها، وأما الآن، فإنها تتريّث حتّى التّخرّج وبلوغها الثامنة عشرة، عندما ستيمّم وجهها شطرَ (إسرائيل(*)) لتعيش في مزرعة جماعية بين البحر (والجليل ومرتفعات الجولان(**)).

*) تصويب تاريخي وجغرافي: اسمها فلسطين. (م).

**) تصويب جغرافي وتاريخي: هذه أجزاء محتلّة من فلسطين وسوريا. (م).

ذلك كان كلّ ما أرادته، لا جامعة، لا كُتُب، لا أفكار كبيرة، فقط أن تزرع نفسها في مكان ما مع النفوس الأخرى، وتفعل ما تشاء فعله، كي تنتمي إلى (بلد لن يطردها خارجه[*]).

بالتأكيد، حدث أن شعرَ بالملل والعزلة معها في بعض الأوقات، لأنها كانت تهتمّ قليلاً بالأشياء الأكثر أهمّيّة بالنسبة إليه، وعلى مدى السنوات التي أمضياها معاً في المدرسة تذبذبَ وانحرف، رغبَ بفتيات أُخريات، صادقَ فتيات أخريات خلال فصول الصيف عندما كانت دانا تزور أقرباءها في تل أبيب[**]، لكنه لم يستطع قطع علاقته بها بشكل كلّيٍّ، بقيتْ عذوبتها تستعيده بإغرائها، كانت عذوبة قلبها الطّيّب لا تقاوَم، والجنس حاجة، الشيء الأساسي الذي كان يمحو الأشياء الأخرى كلّها خلال الدقائق أو الساعات التي استغرقها، وبدا أنه يجعله يعي لماذا وُلِدَ، وماذا يعني الانتماء للعالم، بداية الحياة الجنسية، بداية الحياة الحقيقية، ولم يتسنَّ أن يكون أيٌّ منها ممكناً مع فتاة أخرى في المدرسة، كانت كلٌّ من ليندا فلاغ ونورا ماكغينتي وديبي كلاينمان عذراوات شرسات، متبتلات محترفات حبيسات أحزمة العفّة الحديدية، وبالتالي، حتّى لو اضطربت عواطفه بين الحين والآخر، إلا أنه كان يدرك مدى الحظّ الذي أصابه بوقوعه على دانا روزنبلوم، ولن يفرط بها ما لم يُجبَر على ذلك، فما يتجاوز منح دانا نفسَها له هو أنها منحته عائلتها، وأحبّ فيرغسون تلك العائلة. أحبّ بالضبط فكرةَ أنه كُتب لعائلة كهذه أن تُوجَد، وكان كلّما دخل بيتهم وهو مغمور بالهالة الروزنبلومية، شعرَ بالسعادة الطافحة، لأنه في بيتهم حتّى إنه لم يكن ليرغب بالمغادرة.

تلك الهالة التي بدت عَصيةً عن أيّ تعريفٍ دقيق، رغم أن فيرغسون قام في تلك السنوات بمحاولات عديدة لفهم ما الذي جعلها مميّزة، لا تشبه أيّ أسرة دخل بيتها من قبل. مزيج الأنيقِ والرتيب، كما فكّر أحياناً، لكنه مزيج لم تتلطّخ فيه الأناقة بالرتابة، ولم يتأثر الرتيبُ بالأنيق. العادات البريطانية الراقية المحكومة بالكياسة من قِبَل الوالدين تزهو جنباً إلى جنب مع ميول الأولاد الفوضوية، بل أنه ليس ثمّة تكلّف يزعج الآخر، وبدت نفحة السلام تحوم حول البيت طوال الوقت، حتّى حين تتصايح البنتان الصغريان في غرفة الجلوس. لقطة: السّيّدة روزنبلوم ممشوقة القوام، النحيفة الأرستقراطية في إحدى بذّاتِ *شانيل* وديور التي ترتديها في مكتبها لدى ساكس فيفث آفينيو تتحدّث بأناة عن تحديد النسل مع ابنتها الكبرى بيلا، التي اتّجهتْ إلى ثقافة جيل البِيتْ منذ وصولها إلى أميركا، وكانت تصغي بأناة إلى أمّها وهي تسوّي كنزة الياقة المدوّرة، وتكحّل عينيها بالأسود، ما أحالها ببطء إلى راكون. لقطة

*) تصويب يقتضيه الواقع والأخلاق: طردَ الإسرائيليون شعباً كاملاً من أرضه.

**) الاسم العربي الأصلي للمدينة: تلّ الربيع.

ثانية: السّيّد روزنبلوم المائل إلى الصغر، النحيل بعض الشيء، بربطة عنقه الحريرية العريضة ولحية التيس الشائبة يحاضر في مزايا الخطّ الكتابيّ الجيّد أمام ابنته الصغرى ليزلي، ابنة التسع سنوات، النحيلة بركبتيها المبقّعتين وحيوان الهمستر الصغير المسمّى رودولفو النائم في جيب فستانها. هكذا كانت الهالة الروزنبلومية، أو واحدة أو اثنتين من تجلّياتها اللحظية، وحين أخذ فيرغسون بعين الاعتبار الاضطراب الذي مرّ هؤلاء الناس به معاً، حين فكّر كيف سيكون الحال عليه عندما يخسر المرء كل شيء، وعليه أن يبدأ من جديد في مكان آخر من العالم، ثمّ عليه أن يبدأ من جديد للمرّة الثانية في مكان ثالث من العالم، تساءلَ إن كان قد صادف أبداً عائلة أكثر شجاعة ومرونة من هذه العائلة. تلك كانت الهالة، أيضاً: نحن على قيد الحياة، والشعار منذ اللحظة فصاعداً عشْ ودعْ غيركَ يعشْ، ونسأل الآلهة أن تولينا ظهورها، وأن تكفَّ عن التّدخّل في شؤوننا إلى الأبد.

كان هناك الكثير ممّا يتعلّمه المرء من السّيّد روزنبلوم، كما حكَم فيرغسْون، ولأن والد دانا ذا السّتّة وستين عاماً لم يعد يعمل ويمضي معظم أيّامه في البيت وهو يقرأ الكُتُب ويدخّن السجائر، بدأ فيرغسون بزيارتهم بين حين وآخر، وغالباً بعد الانتهاء من المدرسة مباشرةً عندما يغمر ضوء آخر الظهيرةِ غرفةَ الجلوس، ويطرح ظلالاً متشابكة ومتقاطعة على الأرضية والأثاث، وهناك سيجلسان، الشّابّ والعجوز في تلك الغرفة نصف المعتمة ونصف المضاءة، لا يتحدّثان عن شيء محدّد، يجولان ما بين السياسة وخصوصيات الحياة الأميركية، من حين لآخر يتناقشان في كتاب أو فيلم أو لوحة زيتية، لكن الجزء الأكبر كان للسّيّد روزنبلوم وهو يحكي قصصاً من النوادر القديمة والمعابثة والساحرة عن الرحلات البحرية إلى أوروبا على سفن بخارية، قذفت بها العواصف، عن التعليقات الذكية التي تلفّظ بها في شبابه، صدمة البهجة التي سرَتْ في داخله عندما أخذ الرشفة الأولى من المارتيني، توصيات بالرجوع إلى *تسجيلات الغراموفون، اللاسلكية*، والجرابات النسائية المَطوِيّة والمنزلقة عن سيقان النساء، ليس من ترابط بين شيء وآخر، لا شيء عميقاً، لكنْ، من السِّحْر بمكان أن تصغي إليه، وكم كان حديثه شحيحاً عن مشاكله في جنوب أفريقيا، كما لاحظ فيرغسون، وإن قال شيئاً، فلن يبدو أي سخط في صوته، لا غضب أو نقمة ربّما كانت متوقّعة من رجل في المنفى، وذلك كان سبب انجذاب فيرغسون الشديد إلى السّيّد روزنبلوم واستمتاعه برفقته - ليس لأنه الرجل الذي عانى الأمرّين، بل لأنه الرجل الذي عانى الأمرّين، ولم يزل قادراً على إطلاق النُّكات.

لم يقرأ السّيّد روزنبلوم أيّة قصّة من قصص فيرغسون، بل لم يلمح كلمة واحدة ممّا كتب فيرغسون، لكنْ، من بين الناس كلّهم كان الوحيد الذي طلعَ بحلٍّ لمشكلة كانت قد أرّقتْ فيرغسون لأشهر عديدة، ولا شكّ أنها كانت في طريقها لأن تُزعجه لسنوات.

آرتشي، قال الرجل العجوز ذات ظهيرة. اسم جميل للتداول اليومي، لكنه ليس اسماً صالحاً لروائي، أليس كذلك؟

لا، قال فيرغسون، إنه غير مناسب إلى درجة تراجيدية.

و*أرشيبالد* ليس أفضل بكثير، أليس كذلك؟

لا، ليس أفضل على الإطلاق. بل أسوأ.

إذاً ماذا ستفعل عندما تبدأ بنشر أعمالكَ؟

تقصدُ، إذا قرّرتُ النشر.

حسناً، فلنفترض أنكَ سوف تنشرها. هل في ذهنكَ بدائل؟

ليس بمعنى الكلمة.

ليس بمعنى الكلمة، أو ليس على الإطلاق؟

ليس على الإطلاق.

ممم، قال السّيّد روزنبلوم وهو يُشعل سيجارة مشيحاً بنظره إلى الظلال. بعد وهلة صمت طويلة، سألَ: ماذا عن اسمكَ الأوسط؟ ألديكَ اسم أوسط.

إسحاق.

زفر السّيّد روزنبلوم الدخان، وردّد المقطعين الصوتيين اللذين سمعهما للتّوّ: إسـحاق.

كان اسمَ جَدّي.

إسحاق فيرغسون.

إسحاق فيرغسون. كما إسحاق بابل وإسحاق باشيفيز سنغر.

اسم يهودي جميل، ألا تظنّ ذلك؟

ليس كثيراً بالنسبة إلى جزء فيرغسون، لكنْ، أؤكّد ذلك بالنسبة إلى جزء إسحاق.

الروائي إسحاق فيرغسون.

آرتشي فيرغسون الإنسان، إسحاق فيرغسون الكاتب.

سأقول إنه ليس سيّئاً. ماذا تقول؟

ليس سيّئاً على الإطلاق.

شخصان في شخص.

أو شخص في شخصين. في كلا الحالين، جميل، ذلك هو الاسم الذي سأستخدمه لتوقيع أعمالي: إسحاق فيرغسون. إذا تسنّى لي نشر نتاجي بالطبع.

لا تكن متواضعاً. عندما يتسنّى لكَ نشر نتاجكَ.

بعد ستّة أشهر من المحادثة، وبينما جلسا في البيت يناقشان الفروق بين ضوء ظهيرات جنوب أفريقيا وضوء ظهيرات نيو جيرسي، نهض السّيّد روزنبلوم عن كرسيه، سار حتّى آخر الغرفة، وعاد وبيده كتاب.

ربّما يجدر بكَ أن تقرأ هذا، قال، وهو يترك الكتاب ليرتمي بلطف في يد فيرغسون.

كان كتاب آلان باتون *ابكِ البلاد الحبيبة: قصّة عزاء في الخراب*. منشورات جوناثان كيب، 30 بيدفورد، لندن.

شكر فيرغسون السّيّد روزنبلوم، ووعده بإعادة الكتاب في الأيّام الثلاثة أو الأربعة المقبلة.

لستَ مضطرّاً لإعادته، قال روزنبلوم، وهو يعود للجلوس على كرسيّه. إنه لكَ، يا آرتشي. لن أحتاجه فيما بعد.

فتح فيرغسون الكتاب، ورأى أن هناك إهداء على الصفحة الأولى جاء فيه: 23 أيلول1948. عيد ميلاد سعيد *أبداً لكَ، يا موريس - تيلي وبِنْ*. وتحت التوقيعين، كُتِبَ بأحرف كبيرة ثخينة: تماسَكْ.

إذا لم يكن في نيّته قبول المال من أبيه، فلا جدال في أنه سيمضي صيفاً آخر في العمل ضمن أحد متاجره. في الوقت نفسه، إذا لم يأخذ فيرغسون المال من أبيه، فعليه أن يبدأ بكسب المال بطريقته، لكنْ، من الصعب أن تتوفّر أعمال خلال شهري الصيف في ذلك الجزء من العالم، ولا يعرف أين يبحث عن أحد هذه الأعمال. والآن وقد بلغ السادسة عشرة، كان من المفترض أن يتمكّن من العودة إلى مخيّم بارادايس، ويعمل نادلاً هناك، لكنه لن يكسب شيئاً إلا الإكراميات التي يتبرّع بها الأهالي في آخر أيّام الصيف، التي قد تصل إلى مبلغ تافه، يقارب المائتي دولار، أضف إلى أن فيرغسون كان قد نفض يده من المخيّم، ولم يردْ العودة إلى هناك، مجرّد فكرة وضع قدمه على الأرض، حيث شاهد آرتي فيدرمان وهو يموت كانت كافية لأن تجعله يرى الموت مرّة أخرى، يراه مرّة أخرى وأخرى حتّى لَيصبح فيرغسون نفسه مَن كان يُصدر الـ أوه الصغيرة الواهنة التي ندت عن فم آرتي، فيرغسون نفسه الذي يتهاوى فوق العشب، فيرغسون نفسه الذي كان ميتاً، وهكذا ببساطة لن يكون من المحتمل أن يذهب إلى هناك، ولو كان أجرُ نادل المخيّم أربعمائة دولار للوجبة.

في ربيع سنته الثانية، وقد أُعلن مُسبّقاً أن حفل زواج أمّه سيكون في بدايات آب دون أن يبدوَ ثمّة حلّ في الأفق، بقي جيم على اتّصال بـ فيرغسون عبرَ صديقه القديم في الثانوية، لاعب الهجوم في كرة القدم الأميركية ذي المائتين وثلاثين رطلاً، واسمه آرني فرايزر، الذي طُرد من روتجرز في سنته الثانوية الأولى، وكان يدير عملاً لخدمات النقل في ميبلوود وساوث أورانج. كان الأسطول مؤلّفاً من عربة شيفروليه مغلقة (فان) واحدة، على أن يُدفع بدل الشغل نقداً (من تحت الطاولة[*])، بلا تأمين، لا ضمان للتسريح، لا صيغة رسمية للعمل، ولا ضريبة تُدفع، إذ لن يتمّ الإعلان عن الدَّخل. ورغم أن فيرغسون لن يصبح بعمر يخوّله القيادة حتّى آذار القادم، وقد قام فرايزر بتوظيفه كخيار سريع، استبدله صاحبه الحالي، الذي طُلب للخدمة في الجيش، وسيتوجّه إلى فورت ديكس في نهاية حزيران. كان صديق جيم يفضّل عاملاً على مدار السنة بدوام كامل، لكن جيم كان صديق فرايزر، لأنه حدثَ وأنقذ أختَه التوأم من وضعٍ بالغ الحساسية في حفلة المدرسة الثانوية (حين طرَحَ أرضاً لاعبَ كرة لاكروس مخموراً تحرّش بها بشكل فظّ في ركن الصالة)، وشعرَ فرايزر أنه مَدين لـ جيم، ولم يستطع الرفض. هكذا وضع فيرغسون قدمه في أوّل الطريق، وباشر عمله كرجل نقليات، العمل الذي واظب عليه في كل صيف من سنوات دراسته الثانوية الثلاث بين 1963 و1965، إذ طُلبتْ خدماته مرّة أخرى في السنة التالية عندما اضطرّ موظّفٌ آخر حديث العهد لترك العمل بسبب ديسك في أسفل الظهر، وكذلك في السنة الثالثة عندما توسّع الأسطول إلى سيّارتين، وكان فرايزر بمساس الحاجة إلى سائق ثانٍ. كان من المجهد العمل في تلك الأوقات، وفي كل عام عندما كان فيرغسون يباشر عمله من جديد كانت نصف عضلات جسده تؤلمه بشكل مبرح في الأيّام السّتّة أو السبعة الأولى، لكنه وجد العمل اليدوي جيّداً مقارنةً بعمل الكتابة الذهني، ليس لأنه أبقاه في حالة بدنية صحيحة، ولبّى متطلّبات الناس المحقّة (نقل أغراض الناس من مكان إلى آخر)، بل لأنه أتاح له أن يستنبط أفكاره بدلاً من أن يعطي أفكاره للآخرين، الذي كان حال معظم الأعمال غير اليدوية، مساعدة الآخرين بمراكمة المال عن طريق أذهانكم بينما تنالون لقاءها بالمقابل أقلّ ما يمكن، وحتّى لو كان راتب فيرغسون هزيلاً، إلا أن أيّ نقلةٍ انتهت بخمسة أو عشرة وأحياناً بعشرين دولاراً تُدَسّ في يده، ولأن العمل كان وفيراً خلال تلك السنوات قبل أن تُحرَق الملايين في فييتنام، فتدمّر الاقتصاد الوطني، انتهى به الأمر إلى كسب ما يقرب من مائتي دولار بلا ضرائب كلّ أسبوع. هكذا أمضى فيرغسون الأصياف الثلاثة تلك في عتل الأسرّة والأرائك صاعداً ونازلاً السلالم الضّيّقة، وإيصال المرايا القديمة

---

*) الدفع النقدي under the table في أميركا بدون شيك، للتهرّب من دفع ضريبة الراتب.

ومناضد الكتابة التي تعود إلى زمن لويس الخامس عشر إلى مصمّمي الداخل في نيويورك، ونقل أشياء طلبة الجامعة إلى ومن غرفهم الجامعية في بنسلفانيا وكونتيكيت وماساتشوستس، وتحميل البرّادات القديمة والمكيّفات التالفة إلى مكبّ البلدة، وخلال عمله التقى بالعديد من الناس الذين لم يكن ليَتسنّى لهم الاحتكاك بحياته، لو كان جالساً في مكتب أو يشكّل مخاريط البوظة للأولاد الصاخبين في غرانينغز. وفوق ذلك، عامله آرني بمودّة، وبدا أنه يكنّ الاحترام له، وفي حين كان من الصحيح أن ربَّ عمل فيرغسون الذي كان في الواحدة والعشرين قد صوّتَ لصالح غولدووتر في انتخابات 1964 وأراد إلقاء قنبلة نووية على هانوي، إلا أنه كان من الصحيح أيضاً أن الـ آرني فرايزر نفسه قد وظّف رجلين أسودين حين اشترى العربة الثانية، وارتفع الطاقم إلى أربعة، وجلب الصيف الأخير الذي اشتغل فيه فيرغسون العلاوة التي لا تُقدّر بثمن، وهي قيادة السّيّارة كلّ يوم مع أحد هذين الرجلين الأسودين، ريتشارد برينكرستاف، العملاق الغليظ كبير الكرش الذي سينظر من خلال زجاج سيّارة النقل بينما يمضي فيرغسون بالاثنين إلى وجهتهما التالية، مستغرقاً باهتمام بالمشاهد العابرة لطُرُق الضواحي الخالية وشوارع المدينة المخدّدة والطُّرُق السريعة الصناعية المزدحمة، ومرّة تلو المرّة وبنبرة الصوت نفسها، سواء كان يتحدّث عن شيء أفرحه أو أحزنه أو أوقعَ الاشمئزاز في نفسه، سيشير بإصبعه إلى البنت الصغيرة التي تلعب مع الكلب الضخم في حديقة بيتها الأمامية أو إلى المشرّد الأشعث الذي يجرجر قدميه عبر تقاطع باوَري وكانال، ويقول: *ما أحلى ذلك، يا آرتشي! ما أحلاه!*

أدرك فيرغسون أن الحيلة قد أعيتْ والدَه فيما يجب أن يتصرّف حياله. ليس لأنه اكتشف استحالة أن يفهم لماذا يلجأ امرؤٌ إلى حقلٍ غير موثوق ككتابة الكُتُب، التي عصفت به مثل فكرة حمقاء وهمية، وهي ليست إلا انحداراً إلى الدرك الأسفل من الإفقار والفشل والخيبة التي تهشّم الذهن، بل لأن ابنه الذي رُبّيَ بطريقة لائقة، الذي كان قد تفتّح على منافع المؤسّسة كاملةِ الأميركية التقليدية منذ يوم ولادته، يتهرّب الآن من الفرص التي تُقدَّم له للتطوّر والنجاح في الحياة، فيبدّد الصيف تلوَ الصيف في الشغل كعامل عادي، يكدح تحت إمرة شخص أُقصي عن الدراسة، ويخدع دائرة الضرائب. لا مشكلة في أن يحصّل بعض المال، لكن المشكلة في أنه لن يكون هناك المزيد من المال، لأن عملاً من الدرجة الدنيا من هذا النوع سيبقيه في الدرجة الدنيا، وحين كان ابنه يتحدّث عن الاعتماد على نفسه في المستقبل كعامل في مصنع أو بحّار على السفن التجارية، فإن الأب سينكمش للتفكير عن ما ستكون أحواله عليه. ماذا حدث للصبي الصغير الذي أراد أن يكون طبيباً؟ لماذا سار كلّ شيء على نحو خاطئ؟

تلك كانت الطريقة التي تخيّل فيرغسون أن أباه لا بدّ فكّر بها تجاهه، إن كان قد فكّر به أصلاً، وفي المونولوجَين الداخليين المؤلّفين من صفحتين، ثمّ من ثلاث صفحات على لسان أبيه، حاول جاهداً أن يفهم طريقة تفكير والده، منقّباً ومحاولاً أن يستخرج الأشياء القليلة التي عرفها عن حياة ستانلي فيرغسون المبكّرة، سنوات شحّ المال العجاف عندما قُتل جَدّه والصراخ الذي صدر عنه، واستلمت جَدّته شبه الهستيرية مسؤولية الجماعة، ثمّ السفر الغامض لأخويّ والده الكبيرين إلى كاليفورنيا، الذي لم ينجلِ أبداً، لم يُفهَم أبداً، وبعد ذلك ثمّة الحافز لأن يصبح أغنى رجل على سطح الأرض، نبيَّ الأرباح الذي آمنَ بالمال كما آمن الناس بالله أو بالجنس أو بالعمل الصالح، المال كخلاص ووفاء، المال كمعيار أقصى للأشياء، وكلّ مَنْ يقف في وجه هذا الاعتقاد إمّا أحمق أو جبان، كما كانت زوجته السابقة وابنه بالتأكيد أحمقين، ودماغاهما محشوين بالهراء الرومانسي الذي قدّمته أطباق الروايات وأفلام هوليوود الرخيصة، وزوجته السابقة هي الملومة لما حصل، روز التي كانت حبيبته، التي أدارت رأس الصبي عن والده، ودلّلته بكلّ سفاسف الذهن المتراخي تلك عن اكتشافه لـ *نفسه الحقيقية* وتقرير مصيره *الفذّ* الخاصّ به، وقد تأخّر الوقت الآن للتراجع عن الخسارة، إذ ضاع الصبيّ.

مع ذلك، فإن ما سلف لم يفسّر لماذا استمرّ والده يكبو أمام شاشة التلفاز والسينما، أو لماذا، وقد تضخّمت ثروته، أصبح أكثر بخلاً وشُحّاً، وصحبَ ابنه فقط إلى المطاعم الرخيصة والحقيرة للعشاء نصف الشهريّ، أو لماذا غيّر رأيه في مسألة بيع البيت في ميبلوود ورجع ليسكن فيه بعد أن غادره فيرغسون ووالدته، أو لماذا، بعد أن تجشّم مشقّة طباعةِ *Sole Mates*، لم يطلب رؤية واحدة من قصص فيرغسون الجديدة، لم يستفسر أبداً كيف كانت أحواله تسير مع زوج أمّه وولدي الزوج في منزل وودهول كريسنت، لم يسأل أبداً عن الكلّيّة التي يزمع الذهاب إليه، لم ينبس بكلمة عن اغتيال كينيدي أو بدا أنه اهتمّ بأن الرئيس أُردي بالرصاص، وكلّما بذل فيرغسون المزيد لتجسير المسافة بينه وبين روح أبيه، باحثاً عن شيء ما لم يكن ميتاً أو منفصلاً عن الناس الآخرين، وجَدَ أن هذا أبسط ما استطاع أن يجده. حتّى إن الشخص المركّب السّيّد روزنبلوم، الذي لا ريب أخفى الكثير إذا لم يكن الأكثر من حياته الداخلية عن العالم، بدا أكثر منطقية بالنسبة إلى فيرغسون ممّا بدا عليه والده. لا الفروقات بينهما يمكن إجمالها بواقع أن والده كان يعمل، وأن السّيّد روزنبلوم لم يعمل. دان شنايدرمان كان يعمل. ليس الأيّام ذات الاثنتي عشرة أو الأربع عشرة ساعة التي كان يشتغلها والده، بل الساعات الاعتيادية من سبع إلى ثماني ساعات لخمسة أو ستّة أيّام في الأسبوع، وحتّى إنه لم يكن الفنّان الأكثر إبهاراً في العالم، إلا أنه وعى حدود موهبته المتواضعة، واستمتع بعمله، الذي أنجزه بشكل مقبول، ما يكفي لأن

يتدبّر أمر العيش بسرعة كـ *حِرَفيٍّ لمساتٍ سريعة، يمتلك عمله الخاصّ*، كما كان يعبّر أحياناً، ليس الدخل الكبير الذي ربحه بسرعة، بالطبع، بل على الرغم من ذلك القلب الأكثر سخاءً، كما أظهره بشرائه سيّارة جديدة لزوجته الجديدة، التي حوّلت فيرغسون وإيمي إلى مالكَين مشتركين لسيّارتها البونتياك القديمة بعد نجاحهما في فحص شهادة السياقة، بنقلاته الذكية والتماثيل الميكانيكية الدوّارة التي صمّمها كهدايا في أعياد ميلاد الجميع، بدعوات العشاء المفاجئة إلى المطاعم والحفلات الموسيقية والأفلام، بالبدل المالي الذي أصرّ عليه مانحاً فيرغسون المبلغ ذاته الذي أعطاه لابنته - دُفعَ أسبوعياً لكل منهما، لأنه أحبَّ أن تُودَع إيراداتهما الصيفية في مصرف، وألا تُمس بينما لا يزالان في الثانوية - لكن الأهمّ إلى جانب كرم شخصه، معنوياته العالية واهتمامه المفرط بمَنْ يحبّ، صبيانيته، غرابته، شغفه بالبوكر وألعاب الحظّ كلها، استخفافه المتهوّر بالغد لصالح اليوم، الصفات التي انضافت إلى ما يمتلكه رجل مختلف كلّيّاً عن والد فيرغسون حتّى إن الابن/ الابن بالتّبنّي وجد صعوبة في تطويع صورتيهما كعضوين من النوع البشري نفسه. ثمّ كان أخ دان الأكبر، غيلبرت شنايدرمان، عمّ فيرغسون الجديد، الذكي حدّ الإدهاش، الذي اشتغل بهمّة كغيره، لدوام كامل في تدريس تاريخ الموسيقا لدى جيليارد وكتابة المادّة تلو المادّة حول المؤلّفين الكلاسيكيين للموسوعة الموسيقية وشبكة النشر، كذلك كان يعمل العمّ 'دون'، نوح الحادّ، سريع الغضب أحياناً ومن أصدقاء الأب المقرّبين لم يتوقّف عن العمل بينما كان يجهد في كتابة سيرة حياة مونتين، بل ويفيض بمراجعتين أو ثلاثة للكُتُب في الشهر، وحتّى آرني فرايزر كان يشتغل، الفاشل، المتلاعب على دائرة الضرائب ولاعب كرة القدم السابق قد أنهك قفاه بالعمل، كما علم فيرغسون حقّ العلم، لكن ذلك لم يمنعه من شرب ستّة زجاجات من بيرة لوفينبروي كلّ ليلة والاحتفاظ بعلاقات غرامية مع ثلاث فتيات من ثلاث بلدات مختلفة في الآن نفسه.

حاول فيرغسون أن يكظم غضبه عندما كان يعيش مع أبيه، ورغم أنه كان مصدوماً من قبول ملك التجهيزات المنزلية أن يعطيه دان شنايدرمان مصروفه، الذي كان يجب أن يُدفع له بموجب القانون والأخلاق من قِبَل أبيه، لكن الشّكّ ساور فيرغسون في أن يكون أبوه غاضباً هو الآخر، ليس عليه، بل على أمّه، التي لم تلحّ على الطلاق وحسب، بل تزوّجت من جديد بعد ذلك بقليل، وبتنازله عن مسؤوليته تجاه ولده، نال والد فيرغسون مكافأة البخيل بألا يفرق ماله حين لا يريد (الذي كاد يكون دائم الحدوث الآن) عدا عن الرضا الإضافي من عدم دسّه في يد الزوج الجديد لزوجته السابقة. لهو ولَعِبٌ في سيرك براغيث من عداوات وتنكيل معنوي، قال فيرغسون في سرّه، وقد انقبض قلبه أكثر بين ضلوعه، لكنْ، ربمّا كان الأمر لا يتجاوز أن والده بدوره تراجع عن

التزامه بالمصاريف، من حيث إن فيرغسون سيرفض المال فيما لو أُرسل إليه، ولم يشأ أن يواجه أباه بالقرار الذي اتّخذه بعدم قبول مالِه، الذي سيُنظَر إليه على أنه فعل عدواني، شيء ما قريب إلى إعلان حالة الحرب، وفيرغسون لم يكن يتطلّع لأنْ يتسبّب بقتال مع أبيه، هو فقط يريد أن يبقي على تواصلهما بأكبر قدر من الهدوء، وألا يقعَ ما يسبّب الألم لأحد منهما.

لا مال من والده - ولا بيسبول لأن شبح آرتي فيدرمان لم يزل يجوس محيطَه، كما أن فيرغسون لن ينكث بوعده. كان مسموحاً بالرياضات الأخرى، لكنْ، لم يكن بينها ما يُعتدّ به كالبيسبول، وبعد البدء كلاعب هجوم لدى فريق J.V. لكرة السّلّة في سنته الثانوية الأولى، قرّر فيرغسون عدم المضي مع منتخب المدرسة في السنة القادمة، الذي شكّل نهاية حادّة وحاسمة لمشاركته في الألعاب الرياضية المنتظمة. كانت ذات يوم تعني له كل شيء، لكن ذلك كان قبل قراءة *الجريمة والعقاب*، قبل اكتشافه الجنس مع دانا روزنبلوم، قبل أن يدخّن سيجارته الأولى، ويتجرّع مشروبه الأوّل، قبل أن يصبح كاتب المستقبل الذي أمضى مساءاته وحيداً في غرفته وهو يملأ دفاتر ملاحظاته الغالية بالكلمات، في حين لم يزل عاشقاً للرياضة، ولن يفكّر أبداً بالاستغناء عنها، لولا أنها انحدرتْ إلى مرتبة التسلية الفارغة - كرة القدم، مباريات كرة السّلّة، كرة الطاولة في قبو البيت الجديد، وتنس متقطّع صباح الأحد مع دان وأمّه وإيمي، وفي معظم الأحيان في مباراة مزدوجة، أولاد الطرفين ضدّ الوالدين أو الوالد والبنت ضدّ الأمّ والابن. تسليات بقصد الترويح عن النفس، كنقيض لمعارك الـ افعلها – أو - 'راحتْ عليك' في صباه. العبْ بقوّة، اشتغل حتّى التّعرّق، اربح المباراة أو اخسر المباراة، ثمّ عدْ إلى البيت لتستحمّ وتدخّن. لكنها لم تزل جميلة بالنسبة إليه، خصوصاً الرياضة التي أحبّها للغاية، البيسبول المحرّمة، التي لن يلعبها مرّة أخرى، وبقي يشجّع على تأسيس فريق من أقوى الشباب، بالرغم من ذلك لم يعد مصير العالم *الغربي* مقلقَلاً لحظة تقدّم تشوو تشوو كولمان إلى مربع حامل المضرب واثنان في الخارج ورجلان في آخر البقعة التاسعة. كان زوج أمّه وابنته سيتذمّران عندما يؤذَن بالضربة الثالثة التي لا مفرّ منها، لكن فيرغسون سيكتفي بأن يومئ أو يهزّ رأسه، ثمّ ينهض بهدوء، ويُطفئ التلفاز. لقد وُلدَ 'تشوو تشوو كولمانات' هذا العالم كي يحقّقوا الضربة الثالثة، وإلا فإن الـ Mets لن يكونوا الـ Mets(*) إذا لم يفعلها.

عشاءان في الشهر مع أبيه، وعشاء واحد كلّ شهرين مع عائلة فيدرمان في نيو روتشيل، طقس اعتنقه فيرغسون، على الرغم من شكوكه، من حيث إنه لم يكن واضحاً بالنسبة إليه لماذا

*) فريق نيويورك للبيسبول.

بقي والدا آرتي يكرّران سؤالَه، ولو بشكل أقلّ صراحة لماذا وجدَ في نفسه الاستعداد للقيام بالرحلة الشّاقّة إلى هناك للقائهم بينما لم يكن في حقيقة الأمر مستعدّاً، بل وفي حقيقة الأمر ملأته كلُّ واحدة من دعوات العشاء بتلك بالرهبة. *العتمة*. لم تخطر دوافعهما على باله، إذ لم يفهم هو ولا آل فيدرمان ما الذي كانا يفعلانه أو لماذا استمرّا بفعله، بل لقد كان الحافز موجوداً منذ البداية: السّيّدة فيدرمان تعانقه بعد المأتم، وتقول له إنه سيبقى دائماً جزءاً من العائلة؛ فيرغسون يجلس قرب سيليا ابنة الاثني عشر عاماً لمدّة ساعتين في غرفة الجلوس، يبذل وسعه لإيجاد كلمات، يعبّر من خلالها بأنه أخوها الآن، وسيهتمّ لأمرها. لماذا قالا هذه الأشياء وفكّرا بهذه الأشياء - وإلى ماذا كان يرمي كلٌّ منها؟

كان عمر صداقته بـ آرتي شهراً واحداً فقط. طويلة ما يكفي لأن تتحوّل إلى توأمة، طويلة ما يكفي لأن توحي بأنهما في بداية ما سيكون صداقة حميمة، لكنْ، لم تكن طويلة ما يكفي لأيّ منهما، كي يصبح *جزءاً من عائلة الآخر*. وإلى حين وفاة صديقه، لم تكن عينا فيرغسون قد وقعتا على رالف وشيرلي فيدرمان بعد. لم يكن قد عرف اسميهما بعد، لكنهما كانا قد عرفا شيئاً عنه عبر الرسائل التي كتبها ابنهما من مخيّم بارادايس. كانت تلك الرسائل حاسمة. كان آرتي الخجول، الصموت قد أفضى إليهما بما يكنّه تجاه صديقه الجديد والرائع، وبناء على ذلك كان والداه مقتنعين مسبّقاً بأن فيرغسون رائع قبل أن يلتقيا به. ثمّ مات آرتي، وبعد ثلاثة أيّام، ظهر الصديق الرائع في المأتم، ليست الصورة طبق الأصل عن ابنهما، بل فتىً بالغ الشبه به، الأصل اليهودي نفسه، العلامات الجيّدة نفسها في المدرسة، وأمّا أن يدخل صبيٌّ مثله حياتهما في الفترة الدقيقة التي فقدا خلالها ابنهما، الصبيّ بشحمه ولحمه الذي قال عنه ابنهما إنه *أخٌ*، الفترة التي لا بدّ وأن تُحدِثَ أثراً طاغياً عليهما، فذلك ما دفع فيرغسون إلى فهمه على أنه أثر خارق للعادة، وكأن ابنهما الذي تلاشى قد فاق بدهائه الآلهةَ، فأرسلَ إليهما صبياً آخر يحلّ مكانَه، ابناً مقداماً من عالم الأحياء بديلاً للصبي الذي مات، وبإبقاء التواصل مع فيرغسون، استطاعا أن يشهدا ما سوف يحدث لصبيّهما وهو يكبر ببطء، ويصبح رجلاً، النقلات التدريجية التي جعلت ابن الخمسة عشر عاماً مختلفاً عن ابن الأربعة عشر عاماً، ابن السّتّة عشر عاماً مختلفاً عن ابن الخمسة عشرة عاماً، ابن السبعة عشر عاماً مختلفاً عن ابن السّتّة عشر عاماً، وابن الثامنة عشر عاماً مختلفاً عن ابن السبعة عشرِ عاماً. كان نوعاً من التشخيص التمثيليّ، كما أدرك فيرغسون، وكلّما سافر إلى نيو روتشيل للعشاء مساء الأحد، توجّبَ عليه أن يلتزمَ بالادّعاء بأنه ذاتُه - بأن يكونَ ذاتَه، بتمثيل ذاته بأكبر قدر من الامتلاء والحقيقية اللتين استطاع إليهما سبيلا، إذ إنهما عرفا بأنهما يلعبان لعبة، حتّى لو لم يكونا واعيين لها، وآرتشي لن يتحوّل

أبداً إلى آرتي، ليس لمجرّد أنه لا يريد ذلك، بل لأن الحيّ لا يمكن أن يكون بديلَ الميت.

كانا شخصين رائعَين، شخصين دمثَين، شخصين عاديَّين، سكنا منزلاً صغراً أبيض على طريق تحفّ به الأشجار إلى جوار بيوت صغيرة بيضاء أخرى، تملكها عائلات من الطبقة المتوسّطة ممّنْ لديها ولدان أو ثلاثة وسيّارة أو اثنتان في الكراج الخشبي الأبيض، ويعمل أفرادها بالاجتهاد كله. كان رالف فيدرمان رجلاً طويلاً نحيلاً في أواخر الأربعينيات، تخصّص بالصيدلة، وامتلك أصغر صيدلية بين ثلاث على الشارع الرئيس في منطقة التّسوّق ضمن نيو روتشيل. شيرلي فيدرمان، طويلة، لكنها غير نحيلة، أصغر ببضع سنوات من زوجها. خرّيجة كلّيّة هنتر، عملتْ بدوام جزئي في المكتبة المحلّيّة، التمست إدراجها ضمن قائمة المرشّحين الديمقراطيين خلال الانتخابات على مستوى الولاية والمستوى الوطني، ولديها إسهام في مسرحيات برودواي الغنائية. كلاهما عامَل فيرغسون بنوع من التفاوت الطفيف، ربّما كانا مصدومَين قليلاً، وممتنّين أيضاً له على دوام قبوله دعواتهما، بغضّ النظر عن وفائه لابنهما، ولأنهما لم يرغبا بخسارته، كان ينحوان إلى الجلوس ساكنَين في أثناء العشاء، ويتركان فيرغسون يتكفّل بمعظم الحديث. أما فيما يتعلّق بـ سيليا، فقلّما نبست بكلمة، لكنها كانت تصغي إليه، تصغي أكثر ممّا فعل والداها، وإذ راقبها فيرغسون تتطوّر تدريجياً من الطفلة الصغيرة الحَيِيّة، الحزينة إلى بنت السادسة عشرة المتّزنة، خطر له أنها كانت سبب مواظبته على العودة إلى هناك، وإذ تجلّى له دائماً كم أصبحت متألّقة، لكنها كانت الآن تتحوّل إلى جميلة أيضاً، إلى ذلك النوع من الجمال الأهيف كما البجعة، والأطراف الطويلة، ورغم أنها كانت لا تزال صغيرة بالنسبة إليه، إلا أنها خلال سنة أو سنتين لن تكون كذلك، وتسكن مكاناً ما ضمن شطرٍ عَصيٍّ وعميق من دماغ فيرغسون، فقد كانت الفكرة غير المتشكّلة بعدُ بأن يقرّر الزواج من سيليا فيدرمان، ذلك أن سرديةَ حياته تتطلّب الزواج منها، كي يُبطلَ مَظْلَمةَ موتِ شقيقها المبكّر.

كان من الأساسيّ أن يتحدّث، لا أن يجلس ويدخل في نقاش رفيع، بل أن يتحدّث، يخبرهم بكل ما يستطيع عن نفسه، وبذلك سيفهمون مَن هو، وأكثر ثمّ أكثر، وبعد زياراته الأولى القليلة كان ذلك ما فعله، تحدّث إليهم عن نفسه والأشياء التي تقع في حياته، لأنه كان هناك القليل القليل ممّا يقال عن آرتي في ذلك الوقت، كان من الرهبة أن تُراوح في المكان ذاته دائماً وأبداً، واستطاع أن يلمس بشكل عياني كيف أنه في غضون تسعة أشهر قد تغيّر لون شَعْر السّيّد فيدرمان من البنّيّ الداكن إلى مزيج من البنّيّ والرمادي، ثمّ إلى الرمادي في معظمه، وانتهى إلى أن يصبح أشيبَ بالكامل، كيف آلَ والد آرتي أكثر هزالاً، في وقتٍ كانت والدة فيرغسون خلاله تزداد سمنة، عشرة أرطال إضافية لغاية تشرين الأوّل 1961، خمسة عشر رطلاً إضافيةً في

آذار 1962، عشرين رطلاً أخرى في أيلول، كانت أجسادهم تشي لـ فيرغسون عن ما كان يعتمل في أرواحهم وهم ماضون في العيش على ذكرى آرتي الراحل، وليس من حاجة لأن يناقش المرء في مآثر ابنهما كبطل دَوري الأغرار ابن العشر سنوات بعد الآن، لا حاجة لذكر علامته الـ A+ في العلوم والرياضيات مرّة أخرى، وهكذا طلَع فيرغسون باستراتيجية جديدة للتعامل في مناسبات العشاء تلك، وهي أن يدفع آرتي إلى خارج الغرفة، ويرغمهم على التفكير بشيء آخر.

لم ينبس بكلمة عن تركه البيسبول، بسبب ابنهما، لا كلمة عن أخيلته المحمومة تجاه إيمي شنايدرمان، لا كلمة عن ممارسته الجنس مع دانا روزنبلوم، لا كلمة عن الليلة التي أفرط بالشرب فيها مع مايك لويب حبيب إيمي، وانتهى إلى التّقيّؤ على بنطاله وحذائه، لكنْ، بالإضافة إلى إخفاء هذه الأسرار وطيش الصبيان، قرّر فيرغسون ألا يستمرئ إخضاع نفسه للرقابة، إنها مهمّة عسيرة بالنسبة إلى شخص كتوم مثله، لكنه درّب نفسه على أن يكون صادقاً معهم، أن يؤدّي *دوراً لصالحهم*، وفي درّينتي مناسبات العشاء في نيو روتشيل كان قد شهد ما ينوف على السنوات الأربع ما بين موت آرتي وتخرّجه في الثانوية، تحدّثَ عن أشياء عديدة، من ضمنها الاضطرابات المختلفة التي وقعت في عائلته (طلاق والديه، زواج أمّه الثاني، علاقته الفاترة بأبيه) والتجربة الرائعة أنه حظي بتشكيلة من الأقارب، ليس بزوج أمّه وولديه وحسب، بل بـ جيل، أخ دان وهو رجل واسع الثقافة وودودٌ للغاية، أبدى اهتماماً بتطلّعات ابنُ زوجة أخيه المتعلّقة بالكتابة (*عليكَ الإلمام بكل ما تستطيع، يا آرتشي، كما قال له ذات يوم، ومن ثمّ عليك نسيان ما ألممتَ به، وما لا تستطيع نسيانه سيخلق الأساس لعملكَ*) وزوجة جيل الصارمة آنا، وابنتيه البدينتين المتكلّفتين مارغريت وإيلا، مع والد دان العجوز ذي الطباع الغريبة، الذي احتلّ غرفة في الطابق الثالث من دار العجزة في واشنطن هايتس، وكان إما مخبولاً أو في المراحل المبكّرة من الجنون، رغم ذلك، بدرت عنه بين وقت وآخر بعض الملاحظات التي لا تُنسى، والتي قالها بنبرة، قلّد بها سيغ رومان: أريد من الجميع أن يخرسوا الآن، كي أتمكّن من التبوّل! كان أحد أهمّ النتائج من زواج أمّه، قال لهم، إن ذلك تمّ بنوع من خفّة اليد الخفية، التي جمعت عدّة عائلات مختلفة وأنساب متنوّعة، فقد أصبح نوح ماركس صديقُه الأعزّ وابن عمّه بعد الزواج يمتّ أيضاً بصِلة قرابة لابنة وابن زوج أمّه، أبناء عمومة بزواج، تمّ فسخ عراه مرّة أو مرّتين (لا أحد يدري أيهما كان)، حقيقة جعلته يدوخ كلّما فكّر بها - نوح وإيمي وهو تربطهم العشيرة المختلطة نفسها! - ويا لهذا التحسّن الذي طرأ أن يرى المرء مدى السرعة التي أصبح بها العمّ دان شنايدرمان ودونالد ماركس صديقين، الذي لم يكن الحال مع أبيه، وقد شعر بالنفور من العمّ 'دون' Don ونعته ذات مرّة بـ*الأحمق المغرور*، وذلك كان أفضل ما نعته به، قال فيرغسون، حتّى لو كانت علاقات

أمّه بأختها لم تصب التّحسّن، ولن يقيّض لها ذلك، لكنْ، على الأقلّ الآن صار من الممكن أن تجلس إلى العشاء مع آل ماركس دون أن تصيح وتشرع البندقية، لتطلق النار على أحدٍ ما.

استطاع أن يخبرهم أشياء لم يقلها لأحد آخر، ما جعل منه شخصاً مختلفاً بحضورهم، شخصاً أكثر صراحة وإمتاعاً ممّا لو كان في البيت أو المدرسة، *الشخص الذي استطاع إضحاك الآخرين*، وربّما لأنه أصبح شخصاً مختلفاً كان يعود إلى هناك، لأنه عرف أنهم أحبّوا الاستماع إلى القصص التي كان يحكيها، الطرائف المسلّية عن نوح، مثلاً، الذي لم يملّ من إقحام نفسه في الحديث، رفيقه المسافر الوفيّ عبر أجمات الحياة ألذي نال منحة كاملة في مدرسة فيلدستون في ريفرديل، إحدى أهمّ المدارس الخاصّة في المدينة، نوح الفارع الطول كعمود أسلاك ناتئ الذي وجد لنفسه حبيبة، وكان يقوم بإخراج المسرحيات في فيلدستون، أعمال معاصرة مثل *الكراسي والمغنّية الصلعاء* لـ يونسكو، وأعمال أقدم مثل *الشيطان الأبيض* لـ جون وبستر (يا لحمّام الدم!)، وإنتاج أفلام قصيرة بكاميرته الـ Bell & Howell الـ 8 مم. لم يزل أحد أكثر المخرّبين مكراً في العالم، فقد رافق فيرغسون في الزيارة الثانية من لقاءاته نصف الشهرية بأبيه في مايو 1964، ليس إلى مطعم رخيص هذه المرّة، بل إلى *نادي الوادي الأزرق الريفي* الرهيب، الدعوة التي قبلها فيرغسون بتهوّر بعد إلحاحه أن يكون نوح في الحفل، التماس افترض أن أباه سيرفضه، لكن أباه فاجأه بالموافقة على طلبه، وهكذا خرج ملك التجهيزات المنزلية مع الصبيين في ظهيرة أحد للغداء في النادي، ولأن نوحاً كان يعرف كل شيء عن صراع فيرغسون مع والده، وإلى أيّ حدّ كان يكره ذلك النادي، سخر من المكان والناس الذين ساندوه باعتمار قبّعات مربّعة النقوش وطاباتها البيضاء أعلاها المخصّصة للمناسبة، يا لها من خوذة مضحكة مبالَغ بحجمها حتّى إن فيرغسون وأباه ضحكا عندما شاهداها، وربّما كانت المرّة الأولى التي ضحكا بانسجام منذ أكثر من عقد، لكن نوحاً تصنّعَ التّجهّمَ لها، ولم تنفرج شفتاه عن ابتسامة، الذي كان الموقف الأكثر إضحاكاً، بالطبع، مضيفاً لهم أنها كانت أوّل زيارة إلى نادي غولف، وأنه أراد أن *ينظر يميناً*، من حيث إن الغولف كانت لعبة اسكوتلندية، ولذلك فإن لاعبيّ الغولف كلّهم يجب أن "يحتاج" (*في الواقع قال يجب أن "يحتاج"*) إلى بهرجة أنفسهم بالقبّعات الاسكوتلندية وهم يمشون ببطء حول تلال الملعب الصغيرة. صحيح أن نوحاً كان يكنّ شيئاً من التحامل تجاه الأب، ولكنْ، لحظة وصلوا النادي، ربّما لأنه لم يشعر بالارتياح في أن يحتكّ بمَن يسمّى بالـ*الثريّ القذر*، أو ربّما لأنه أراد أن يُظهِر معاضدته لـ فيرغسون بالجهر بما يكنّه فيرغسون في داخله، ولا يجرؤ على قوله، كما حين تبختر رجل بدين قربهم، أشار إلى القبّعة، وصاح، *قبّعة جميلة!* - ما ردَّ نوح عليه (بتكشيرة مهولة، انقبض لها وجهه)، شكراً، *يا* سمين - لكن والد فيرغسون كان يتمشّى على مسافة عشر

أو اثني عشر قدماً أمامهما، ولم يسمع الإهانة، موفّراً بذلك على الصبيين مغبّةَ التوبيخ الذي سيتلقيانه لو أنه سمعها، ولمرّة واحدة، نجح فيرغسون بالنفاذ من النهار في نادي الوادي الأزرق الريفي دون أن يتمنّى لو كان في مكان آخر.

ذلك كان جانباً من شخصية نوح، قال لآل فيدرمان، *العامل المحرّض التمثيلي المضحك* والمهرّج الشيطاني، لكنْ، في العمق كان شخصاً رصيناً وجادّاً، ولم يكن هناك ما يبرهن على ذلك أكثر من كيفية تصرّفه خلال عطلة نهاية الأسبوع التي قُتل فيها كينيدي. بمحض المصادفة، كان نوح مَدعوّاً للقدوم إلى نيوجيرسي لقضاء نهارين وليلتين مع فيرغسون وإيمي في المنزل الجديد على وودهول كريسنت. كان المخطّط أن يُنجزوا فيلماً بكاميرا الـ 8 مم كتطويع صامت لقصّة فيرغسون *ماذا* حدث؟، التي تدور حول الولد الذي يهرب من البيت، ثمّ يعود ليجد أن والديه قد فُقدا، على أن يقوم نوح بدور الصبي وفيرغسون وإيمي بدور الوالدَين. ثمّ، يومَ الجمعة، الثاني والعشرين من تشرين الثاني، قبيل ساعات من مغادرة نوح المفترضة نيويورك من محطّة بورت أوثوريتي لانطلاق الحافلات، أُطلقتِ النار على كينيدي، وقُتل في دالاس. كان من المنطقي له أن يلغي زيارته، لكن نوحاً لم يشأ ذلك، واتّصل ليطلب منهم أن يقلّوه من محطّة إرفينغتون للحافلات، كما اتُّفق عليه. تابع الجميع مشاهدة التلفاز طوال نهاية الأسبوع، فيرغسون وزوج أمّه يجلسان معاً على طرف من الصوفا الطويلة في غرفة الجلوس، وإيمي وزوجة أبيها تكوّرتا على الطرف الآخر، روز تحيط إيمي بذراعيها، وإيمي تسند رأسها على كتف روز، وكان لـ نوح من الفطنة ما جعله يُخرِج الكاميرا، ويصوّرهم، الأربعة جميعاً على مدى اللحظات الأهمّ من اليومين، متنقّلاً جيئة وذهاباً بين وجوههم وصور الأبيض والأسود على شاشة التلفاز، وجه والتر كرونكايت، جونسون وجاكي كينيدي على الطائرة بينما يؤدّي نائب الرئيس القسَمَ كرئيس جديد، جاك روبي يطلق النار على أوزوالد في رواق مركز شرطة دالاس، الحصان بلا فارس والتّحيّة العسكرية من جون الصغير ابن جون الراحل في يوم موكب التشييع، تلك الأحداث العامّة كلّها تتعاقب أمام الأشخاص الأربعة على الصوفا، دان شنايدرمان متجهّم الوجه، ابن زوجته الهامد المترمّد، المرأتان دامعتا الأعين، الجميع يشاهدون مجريات الأحداث على الشاشة وهم صامتون بالتأكيد، لأنه لم يكن للكاميرا خاصّيّة تسجيل الصوت، كَمّ من اللقطات التي لا بدّ أن مجموعها بلغ عشر أو اثنتي عشرة ساعة، طول مفرط لن يستطيع أن يتابعه من البداية وحتّى النهاية، لكنْ، فيما بعد أخذ نوح بكَراتِ الفيلم إلى نيويورك، وجد محرّراً محترفاً يساعده، وقلّصَ تلك الساعات إلى سبع وعشرين دقيقة، لتكون النتيجة مذهلة، قال فيرغسون، كارثة وطنية مكتوبة على وجوه أولئك الأربعة والتلفاز أمامهم، عبر الفيلم الواقعيّ المُنتَج من قِبَل فتى في السادسة

عشرة، الفيلم الذي تجاوز كونه مجرّد وثيقة تاريخية، ليصبح عملاً فنّياً، بالإضافة إلى ذلك، أو كما عبّر فيرغسون عنه مستخدماً الكلمة التي طالما استعملها في وصف شيء ما يحبّه، *تحفة*.

كان هناك العديد من القصص عن نوح، وأيضاً عن إيمي وجيم، عن والدته وأجداده، عن آرني فرايزر والتّصدّعات القريبة منهم على طريق نيوجرسي السريعة، عن دانا روزنبلوم وعائلتها، عن أحاديثه مع السّيّد روزنبلوم، عن صداقته بـ مايك لويب حبيب إيمي، ثمّ حبيبها السابق، ثمّ حبيبها المُستَعاد، الذي لم يعلم مَن كانت إيما غولدمان، ثمّ قرأ سيرة حياتها بقلمها، *أعيش حياتي*، وحسب، بل كان الشخص الوحيد في المدرسة الذي قرأ كتاب ألكسندر بركمان *مذكرات فوضويّ في السجن*. المكتنز مايك لويب، المعارض المتطرّف الناشئ للماركسية السوفييتية، الذي آمن بالحركة، بالتنظيم، بالعمل الجماهيري، وبناء على ذلك تلقّى انطباعاً قاتماً، بسبب اهتمام فيرغسون بـ ثورو، الذي كان رجل الضمير الفرداني المنعزل الذي يمثّل الجوهر الأخلاقي دون أساس نظري يدحض المنظومة، بهدف إعادة بناء المجتمع من الأسفل إلى الأعلى، ومن الأعلى إلى الأسفل، كاتب ممتاز، نعم، لكنْ، أيّ ضيّق وطهراني كان، وفي خشيته من المرأة مضى إلى قبره متبتّلاً (سيليا، كانت في الرابعة عشرة حينها، ضحكتْ عندما تلفّظ فيرغسون بتلك الكلمات)، وعلى الرغم من أن فكرته عن العصيان المدني كانت مستقاة من غاندي وكينغ وآخرين في حركة الحقوق المدنية، إلا أن المقاومة السلبية لم تكن كافية، وعاجلاً أم آجلاً ستنزلق إلى صراع مسلّح، ولذلك فضّل مايك كلاً من مالكولم إكس ومارتن لوثر كينغ ووضع ملصقاً لـ ماو تسي تونغ على جدار غرفة نومه.

لا، أجاب فيرغسون، عندما سأله والدا آرتي إن كان يتّفق مع ذلك الصبي، لكن ذلك جعل مناقشاتهما تنويرية للغاية. قال، لأنه كلّما تحدّاه مايك، فكّر بجدّيّة أكثر بما آمن به في داخله، وكيف يمكنكَ تعلّم أي شيء، إذا اكتفيتَ بالتّحدّث إلى الناس الذين يفكّرون طريقتكَ نفسها؟

ثمّ كانت هناك السّيّدة مونرو، موضوعه المفضّل من بين سائر الموضوعات، الإنسانة الوحيدة التي جعلتْ حياةً كحياة طالب الثانوية قابلة للتّحمّل، والحظّ الحسن في أن تكون مدرّسته للغة الإنكليزية لسنتيه الأولى والثانية، الشّابّة والملهمة إيفلين مونرو، التي كانت لا تتجاوز الثامنة والعشرين حين دخل فيرغسون صفّه للمرّة الأولى، الترياق النابض بالحياة ومقارنةً بالسّيّدة بولدوين رثّة المظهر، الرجعية، اللاحداثية، كانت مونرو المولودة تحت اسم عائلة فيرانتي، الفتاة الإيطالية القوية من برونكس التي كانت تقود سيّارتها إلى كلّيّة فاسار طوال منحتها الجامعية، المتزوّجة سابقاً من عازف الساكسوفون بوبي مونرو، الذي كان يتردّد على أماكن العروض في الـ فيلِج، صديقة الموسيقيين والرّسّامين والممثّلين والشعراء، هي المدرّسة التي كانت تزيّن

قاعات مدرسة كولومبيا الثانوية، وما فرّقها عن بقية المدرّسين الذين عرفهم فيرغسون أنها كانت ترى أنّ طلابها بشرٌ مستقلّون ومتشكّلون بصورة مكتملة، شباب ناضجون بدلاً من أولاد كبار، الذي كان له الأثر في بعث الشعور بالرضا من أنفسهم عندما كانوا يجلسون في حصّتها الدراسية، ويصغون إليها وهي تتحدّث عن الكُتُب التي نسبَتْها إلى السّيّد جويس، السّيّد شكسبير، السّيّد ملفل، السّيّدة ديكينسون، السّيّد إليوت، السّيّدة إليوت، السّيّدة وارتون، السّيّد فيتزجيرالد، السّيّدة كاثر، والباقين جميعاً، ولم يكن هناك من طالب واحد في أيٍّ من صفّيها اللذين حضرهما فيرغسون لم يجلّ السّيّدة مونرو، لكنْ، لا أحد أكثر من فيرغسون نفسه، الذي أطلعَها على كلّ قصّة من القصص التي كتبها خلال المرحلة الثانوية، حتّى في السنة الأخيرة حين لم تعدْ مدرّستَه، ذلك لا يعني أنها كانت في تقييمها أفضل ممّا كان العمّ Don أو الخالة ميلدرد، كما افترضَ، لكنه شعرَ بأنها كانت أكثر صدقاً معه ممّا كانا، أكثر تفصيلاً في نقدها، وفي الوقت نفسه أكثر تشجيعاً، وكأن الأمر كان نتيجة محتومة أنه وُلد كي يسير في هذا الخيار، وليس هناك من خيار ممكن سواه.

كانت تُبقي لافتة أعلى السبورة، جملة من الشاعر الأميركي كينيث ريكسروث نسخَتْها بأحرف كبيرة، ما يكفي لأن تُقرأ من قِبَل جالس في صفّ المقاعد الأخير، ولأن فيرغسون غالباً ما وجد نفسه يتطلّع إلى اللافتة خلال الدرس، خلصَ إلى أنه لا بدّ قد قرأها آلاف المرّات خلال السنتين اللتين درسهما معها: في مواجهة خرائب العالم، ثمّة دفاع واحد وحسب: الفعل الخلاق.

قالت السّيّدة فيدرمان: كلّ شابّ يحتاج إلى السّيّدة مونرو، يا آرتشي، لكنْ، لن يقيّض للكلّ أن يحظى بواحدة.

يا لها من فكرة مخيفة! قال فيرغسون. لستُ أدري ماذا أفعل دون وجودها.

بقيتْ نيويورك تلحّ عليه بقوّة، واستمرّ فيرغسون بالذهاب إلى هناك كلّما سنحت له الفرصة في أيّام السبت، أحياناً وحيداً، أحياناً برفقة دانا روزنبلوم، أحياناً برفقة إيمي، أحياناً برفقة إيمي ومايك لويب، أحياناً مع مايك لويب فقط، وأحياناً مع الثلاثة مجتمعين، حيث يلتحق (وهم أيضاً) بـ نوح في نهايات الأسبوع عندما يكون غراوتشو الشّابّ في مخيّم الهواء الطلق وسط الـ فيلج مع أبيه وملدرد، أو فقط مع أبيه إذا حدث، وكان العمّ دان والخالة ميلدرد يعيشان منفصلين من جديد. *كثافة، ضخامة، تعقيد*، كما لخّص فيرغسون الأمر حين سُئلَ لماذا فضل المدينة على الضواحي، هوىً مشترك بين الأعضاء الخمسة كافّة الذين يؤلّفون شلّته الصغيرة، وباستثناء دانا، التي قرّرت المكان الذي ستذهب إليه بعد الثانوية، فإن الأربعة قرّروا البقاء في نيويورك

للدراسة الجامعية. ذلك كان يعني جامعة كولومبيا للفتيان الثلاثة وبارنارد لـ إيمي، فيما لو تمّ قبولها هناك، الذي بدا مرجّحاً أو أكثر من مجرّد ضربة حظٍّ، بسبب سجلاتهم القوية، لكنْ، حتّى لو أفلح ثلاثتهم بالدخول، فسوف ينتهي الأمر بواحد منهم إلى الانتقال إلى مورنينغسايد هايتس بحلول أيلول القادم. نوح، المتقدّم المرفوض، جلب الإخفاق لنفسه بتكريسه عادة جديدة في الصيف بعد سنته الأولى، إذ أصبح مغرماً بتدخين الحشيش حتّى فقد اهتمامه بالمدرسة، الذي نجم عنه هبوط درجاته ومعدّله في الفصل الأوّل من سنته الأخيرة، وجامعة كولومبيا، التي كانت جامعة أبيه الأمّ، المكان الذي أملَ له كلّ من في عائلته أن يمضي سنواته الأربع القادمة، قد ردّته خائباً. ضحك نوح لذلك الأمر. سيذهب إلى جامعة نيويورك الحكومية بدلاً من كولومبيا، التي ستتيح له البقاء في نيويورك كما خُطّط له، ورغم أنها معروفة على المستوى العامّ بأنها أسوأ من كولومبيا، ببرنامجها المتواضع للسنوات الأولى للطلبة فاتريّ الهمة، ستمنحه جامعة نيويورك الحكومية فرصة دراسة إنتاج الفيلم السينمائي، وهو حقل غير متوفّر لطلبة المرحلة الأولى ضمن كولومبيا، بالإضافة إلى ذلك، قال، سيعيش في مركز المدينة قرب أجمل شطر منها بدلاً من ذلك الحيّ الفقير الشبيه بحفرة الخراء والمنزرع بين هارلم ونهر الهدسون.

نوح إلى واشنطن سكوير، مايك إلى تفرّعات شمالي المدينة في غربي الشارع 116 بين برودواي وشارع أمستردام، وفيرغسون مع أخته غير الشقيقة إلى جامعات خارج حدود المدينة. كان قرار إيمي مرتبطاً بـ مايك. كانا قد انفصلا مرّة قبل ذلك، عندما خانها مع فتاة تُدعى مويرا أوبنهايم في منتصف سنتهما الأولى، لكنْ، بعد فراق طويل الأمد انتهى بملامح ندم متذلّل من قِبَل مايك، منحته إيمي فرصة أخرى، والآن، بعد أربعة أشهر فقط، سقط وفعلها من جديد، خانها مع مويرا أوبنهايم ذاتها، *المومس الفأريّة الصغيرة التي لن تجعل أحداً يرفض بضاعتها*، وكان الكيل قد طفح لدى إيمي، أُصيبت بالسعار، وقطعت كلّ صلة بـ مايك إلى الأبد. أُودعت الرسائل من الكلّيّات التي تقدّمت إليها في صندوق بريد وودهول كريسنت في الأسبوع التالي. قبول من بارنارد وقبول من برانديز، خياريها الأوّل والثاني، ولأنها أرادت ألا تكون في مكان قريب من مايك لويب أو تضطرّ لأن ترى وجهه الممتلئ وجسده المنتفخ مرّة أخرى أبداً، رفضت نيويورك، وقبلتْ بـ والثام، ماساتشوستس، وهي مقتنعة بأنها الجامعة التي ستكون بجودة الأخرى، وأعفت نفسها من أيّة أفكار أخرى تتعلّق بقرارها. لقد أذلّها الخنزير وحطّم قلبها، واتّفق فيرغسون معها بفكرة أنها ستكون أفضل بالابتعاد إلى مكان آخر، ولكي يبرهن على مدى وقوفه إلى جانبها، عرض عليها أن تأخذ سيّارة البونتياك التي اشترياها معاً عندما تذهب إلى ماساتشوستس في الخريف، وأن يفصم عرى صداقته بـ مايك لويب الآن، *بدءاً من هذه الدقيقة*.

كان ظرف فيرغسون أكثر تعقيداً من ظرفها. فقد تمّ قبوله في كولومبيا، وأراد الذهاب إلى كولومبيا، وحتّى لو أُجبر على مشاركة السَّكَن مع مايك لويب، فسيبقى راغباً بالذهاب إلى كولومبيا، لكنْ، كان هناك سؤال المال الذي يجب أن يأخذه بعين الاعتبار، السؤال غير القابل للإجابة عن مَنْ سيدفع للجامعة. كان بإمكانه التراجع والعودة إلى أبيه، الذي لا بدّ سيهبّ لنجدته، مهما كان حجم ممانعته للأمر، مدركاً في نهاية الأمر أن من ضمن مسؤولياته دفع قليل المال لتعليم ابنه، غير أن فيرغسون رفض مجرّد اعتبار الأمر واحداً من الخيارات. كانت أمّه ودان على علمٍ أين يقف في تلك المرحلة، علما منذ البداية، ورغم أنهما رأيا أن موقفه كان *نوعاً من التّعنّت وهزم الذات*، إلا أنهما احترماه لذلك، ولم يحاولا ثنيه، إذ إن أمّه انسحبت من المعركة، فأيّام السعي لترقيع ما تهتّك بين فيرغسون وأبيه قد ولّتْ، وبعد خدعة بيع البيت القديم الخسيسة التي قام بها والده بحقّها، أدركت روز أن قرار ابنها بعدم قبول أي مال من ستانلي كان طريقة في الدفاع عنها - طريقة عاطفية وغير منطقية إلى أبعد الحدود، ربّما، لكنه ضربٌ من الحبّ.

جلس فيرغسون مع والدته وزوجها لمناقشة هذه المسائل في شهر تشرين الثاني من سنته الأخيرة في الثانوية. كان موعد إرسال طلبات التّقدّم للجامعة يدنو، وفي حين طلب منه دان ألا يقلق، فسيكون المال متوفّراً له مهما تكن التكلفة، ساورتْ فيرغسون الشكوك. فقد تخيّل أن السنة الجامعية ستكلّف حوالي خمسة أو ستّة آلاف دولار (تدريس، غرفة ووجبة، كُتُب، ملابس، تجهيزات، أجور سفر، وحصّة شهرية للمصاريف النثرية)، الذي سيبلغ مجموعه عشرين أو خمسة وعشرين ألف دولار إلى أن يُنهي السنوات الأربع. والأمر ذاته ينطبق على إيمي - بين عشرين وخمسة وعشرين ألفاً على مدى السنوات الأربع القادمة. سيتخرج جيم من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا في الوقت نفسه الذي ستتخرّج فيه إيمي وفيرغسون في الثانوية، الذي سيستبعد دفع المال لدراسة ثالثة، لكن جيم كان يتقدّم لكلّيّة تمنح شهادة في الفيزياء، ورغم أنه كان مصمّماً على الدخول في مكان ما يوفّر له منحة جامعية مع راتب يعينه في تكاليف المعيشة، والراتب لن يكون كافياً لتغطية كل شيء، وبناء على ذلك، سيتوجّب على دان أن يتخلّى عن ألف أو ألف وخمسمائة دولار أخرى لـ جيم في السنة، الذي سيرفع حاصل الإنفاق على دعم شخصين من آل شنايدرمان وشخص من آل فيرغسون في مؤسّسات التعليم العالي إلى ما يقرب الـ 11 أو 12 أو ربّما 13 ألف دولار سنوياً. كان متوسّط دخل دان اثنين وثلاثين ألف دولار في السنة - ما يفسّر لماذا ساورت الشكوك فيرغسون.

كان هناك بعض المال الإضافي من تأمين حياة ليز، لكن المائة والخمسين ألف دولار التي دُفعت لـ دان في صيف 1962 قد هبطت إلى ثمانية وسبعين ألفاً في نهاية تشرين الثاني

1964. عشرون ألف دولار من الاثنين وسبعين ألفاً الأخرى قد ذهبتْ في تسديد القروض العقارية المزدوجة للمنزل الأقدم من القديم، ثمّ بيع المنزل وشراء الجديد لقاء مالٍ نقديّ، الذي وضع أمّه وزوجها في وضع مريح لامتلاكهما منزل الـ 7 وودهول كريسنت ملكية كاملة، من دون مصرفٍ يترصّدهما، من دون مدفوعات تتجاوز ضرائب الملكية وفواتير الماء. عشرة آلاف أخرى من الاثنين وسبعين ألف دولار التي أُنفقتْ بطبيعة الحال قد ذهبتْ في البيت أيضاً، للطلاء والإصلاحات والتحسينات، التي رفعت من ثمن المنزل فيما لو فكرا ببيعه. مع ذلك، ثمّة الثمانية والأربعون ألف دولار التي تبدّدت منذ الزواج على السّيّارات، العشاء في المطاعم، الإجازات، ورسومات لـ جياكوميتي، ميرو، وفيليب غاستون. بقدر ما كره فيرغسون بُخل أبيه فيما يتعلّق بالمال، بقدر ما كان قلقاً من الأريحية التي يبذره بها زوج أمّه، وبما أن دخْلَ دان كان أصغر من أن يغطّي تكاليف التعليم، إذاً فإن الثمانية والسبعين ألف دولار الباقية من أموال التأمين ستكون ملاذهم الوحيد، ووفق حسابات فيرغسون، فإن ذلك المبلغ سيتقلّص إلى ما يزيد أو ينقص قليلاً عن الثلاثين ألفاً حين ينهي هو وإيمي الدراسة الجامعية، وأقلّ من ذلك بكثير، إذا استمرّ دان ووالدته بحجم الإنفاق الذي كانا عليه في السنتين الأخيرتين. لذلك السبب، سيأخذ فيرغسون أقلّ ما أمكنه منهما - بل لا شيء إن استطاع. لم يكن الأمر أنه شعر بأن أحدهما سيتضوّر جوعاً حتّى الموت، لكن بعثَ فيه الخوف أن يتخيّل اليومَ الذي سيأتي في المستقبل غير البعيد، تكون فيه والدته أقلّ من شابّة، وربمّا أقلّ من أن تكون بصحّة جيّدة بعد حياة طويلة من تدخين علبِ الـ شيسترفيلد، وقد تجد هي ودان نفسيهما في عمر الشدائد.

كان قد ادّخرَ ألفين وستمائة دولار في الصيفين اللذين عمل خلالهما لدى آرني فرايزر. إذا توقّف عن شراء الكُتُب والتسجيلات، فقد يتسنّى له إضافة ألف وأربعمائة دولار إلى حسابه المصرفيّ في نهاية الصيف، الذي سيرفع المبلغ إلى أربعة آلاف دولار تماماً. كان جَدّه قد أسرَّ لأمّه بأنه يخطّط لإعطائه ألفي دولار كهدية تخرّج، وإذا استُخدمتْ نقوده وما سيعطيه جَدّه لدفع تكاليف الجامعة، فستتقلّص مساهمة دان حتّى تصل اللاشيء. مبلغ كبير بالنسبة إلى السنة الأولى، لكنْ، ماذا عن السنوات الثلاث الباقية؟ سوف يستمرّ في العمل خلال الصيف بالطبع، لكنْ، ماذا سيعمل؟ وكم سيكسب؟ لم تتعدّ كونها علامات استفهام في الحاضر، ورغم احتمال أن جَدّه قد يرغب بالمساهمة بمبلغ ما، سيكون من الخطأ الاعتماد عليه، خصوصاً أن جَدّته قد تعرّضت لمشاكل قلبية، وتتزايد فواتيرهم الطّبّيّة. سنة واحدة في نيويورك إن كان محظوظاً ما يكفي لدخول جامعة كولومبيا - وبعد ذلك، ما الشيء الذي يمكن لرجل عاقل أن يفعله سوى أن يطير إلى لاس فيغاس، ويضع كلَّ ما يملكه على الرَّقْم ثلاثة عشر؟

كان هناك حلّ واحد غير مستحبّ متاح أمامه، رمية النرد التي ستحلّ مشاكلهم المالية كلّها، إذا كان من نصيبه الرَّقْم الرابح، لكنْ، إذا ربح فيرغسون الرهان، فسيفقد الشيء الذي أراده أكثر من سواه، لأن نيويورك وكولومبيا لن تكونا متاحتين أمامه للأبد. والأسوأ، أنه سيعني الاضطرار لقضاء أربع سنوات أخرى في نيوجرسي، المكان الأخير في العالم الذي يرغب في أن يكون فيه، وليس نيوجرسي وحسب، بل بلدة صغيرة في نيوجرسي ليست أكبر من التي يعيش فيها الآن، الذي قد يضعه في الوضع نفسه الذي كان يحاول الفرار منه طوال حياته. مع ذلك، إذا جاءه الحلّ من تلقاء ذاته (والأسباب كلها تشير إلى أنه لن يفعل)، فسوف يقبل به بسعادة، ويقبّل النردَ الذي رمى به.

في ذلك العام، كانت جامعة برينستون قد بدأت شيئاً جديداً، برنامج والت ويتمان بمنَحٍ للطلاب، الذي مُوِّلَ من قِبَل خرّيج دفعة 1936 اسمه غوردون ديويت، الذي نشأ في إيست رذرفورد ودرس في المدارس العامّة هناك، وستُدفع أموال ديويت لمنَحٍ كاملة لأربعة طلاب من مدارس نيوجرسي الثانوية العامّة كلّ عام. العسر المالي كان أحد الشروط، مع التحصيل الأكاديمي الممتاز والسمعة الحسنة، وكابنٍ لرجل أعمال موسر، قد يفترض المرء أن ليس لـ فيرغسون الحقّ بالتّقدّم إلى المنحة، لكن المسألة لا تكمن هنا، فبالإضافة إلى تنصّله من واجبه بالإنفاق على ابنه، خرق ستانلي فيرغسون اتّفاق الطلاق الذي وقّعه مع زوجته السابقة، والذي نصَّ على الإسهام بنصف المبالغ الضرورية لرعاية الصبي، أي أن يعوّض لوالدة فيرغسون نصف ما دفعته هي وزوجها للطعام الذي أكله فيرغسون والملابس التي لبسها، بالإضافة إلى نصف فواتيره الطّبّيّة والسّنيّة، لكن ستّة أشهر مضت وهي في زواجها الثاني، دون أيّ مال يرد من جهة زوجها السابق، استشارت والدة فيرغسون محامياً، فقام بكتابة رسالة يهدّد فيها بإحالة والد فيرغسون إلى المحكمة لإرغامه على دفع ما هو مدين به، وعندما يواجَه والد فيرغسون بعرضِ تسوية - لا مال مقابلَ مشاركته نصف رعاية الصبيّ، بل منذ اليوم فصاعداً عليه أن يتوقّف عن ادّعاء أنه يعيل ابنه من دخله كي يستفيد من إعادة الضرائب، ثمّ عليه أن يسلّم هذا الشرف إلى دان شنايدرمان - وهكذا تتمّ تسوية المسألة. لم يكن فيرغسون نفسه يعلم شيئاً عن هذا النزاع، لكنه عندما أخبر أمّه وزوج أمّه عن منحة والت ويتمان في برينستون، شارحاً أنه يرغب بإرسال طلب، لكنه لا يظنّ أنه يلبّي المتطلّبات كلها، أكّدا له أنه مناسب، وحتّى لو كان دخْلُ دان جيّداً، إذ إن عبء إرسال ثلاثة أولاد إلى الجامعات في الآن نفسه سيصنف فيرغسون عملياً كحالة تسبّب الضائقة. وبالقدر الذي يهمّ القانون، فإن الصلة بين الوالد والابن مقطوعة. كان فيرغسون قاصراً، ولأن سنده المالي الوحيد الآن يأتي من أمّه وزوج أمّه، في نظر برينستون وأيّ أحد

آخر، فالأمر يبدو وكأن الوالد غير موجود. ذلك كان الخبر الجيّد. والخبر السّيّئ أن فيرغسون قد عرف أخيراً حقيقة أبيه، وكان في أشدّ الانزعاج ممّا فعله الرجل، ناقم عليه للغاية لبخله وخسّته تجاه المرأة التي كان زوجها فيما مضى، لدرجة أن لا شيء يرضي فيرغسون أكثر من لكم أبيه في الوجه. فابن العاهرة قد تبرأ منه، وها هو فيرغسون يريد التّبرّؤ منه بالمقابل.

أعرف أنني وعدتُ بتناول العشاء معه مرّتين في الشهر، قال فيرغسون، لكنْ، لا أظنّ أني أريد رؤيته بعد الآن. أخلف بوعده لي. فلماذا لا أستطيع الإخلاف بوعدي له؟

تكاد تبلغ الثامنة عشرة الآن، قالت والدته، وبوسعكَ أن تفعل ما تشاء. حياتكَ لكَ.

سحقاً له، ابن العاهرة.

هدّئ من روعكَ، يا آرتشي.

لا، بل أعنيها. *سحقاً له، ابن العاهرة.*

تخيّل أنه سيكون هناك آلاف المتقدّمين، أرفع الفتيان من أنحاء الولاية، رياضيو المقاطعة كلّهم في كرة القدم وكرة السّلّة، عرفاء الصفوف وأبطال نوادي المناظرات، عباقرة العلوم بال 800s المزدوجة على ورقة علامات الاختبار الأكاديمي، المرشّحون الواثقون ممّنْ سيبدو هو نفسه أمامهم بلا أمل بالنجاح، لكنه أرسل طلب التّقدّم بالأحوال كلها، مرفقاً باثنتين من قصصه وقائمة بالناس الذين عرضوا كتابة رسائل توصية عنه: السّيّدة مونرو؛ أستاذه للغة الفرنسية السّيّد بولدو؛ وأستاذه الحالي للغة الإنكليزية السّيّد ماكدونالد. أراد أن يكون أسداً، لكنْ، إذا تبيّن أن ذلك القدر قد اختاره لأن يكون نمراً، فسوف يبذل ما بوسعه، كي يلبَسَ خطوطَه باعتزاز. سوداء وبرتقالية بدلاً من مسحوق الأزرق والأبيض. ف. سكوت فيتزجيرالد بدلاً من جون بيريمان وجاك كيرواك. هل حقّاً يشكّل الأمر فرقاً؟ قد لا تكون برينستون نيويورك، لكنها على بُعد ساعة بالقطار، ومزية برينستون الوحيدة التي تتفوّق بها على كولومبيا أن جيم قد تقدّم إلى هناك للدراسات العليا في الفيزياء. كان متأكّداً من أنه سيُقبَل، الذي لم يحدث لدى فيرغسون، لكنْ، يمكن للمرء أن يحلم، وكم من السرور أن يحلم بأنهما سيمضيان السنوات الأربع القادمة معاً في ذلك العالم الحراجي الحافل بالكُتُب والرفقة كما رفرف طيف ألبرت إنشتاين بين الأشجار.

بعد محادثته مع أمّه و'دان' في أواخر تشرين الثاني، كتب فيرغسون رسالة مطوّلة إلى أبيه، شرح فيها لماذا يريد تعليق العشاءين الشهريين. لم يقل بالتحديد إنه لا يريد أن يراه مرّة أخرى، إذ لم يزل من غير الواضح لدى فيرغسون أن كانت تلك منزلته أم لا، رغم أنه شكّ في أنها كذلك، لكنه كان لم يزل في السابعة عشرة، ويفتقر إلى الشجاعة والثقة بالنفس، ليصدر إنذار تغيير

حياتيّ على مدى المستقبل، الذي أملَ أن يكون مستقبلاً مديداً، ومَنْ يدري ما الأطوار التي يمكن أن تشملها علاقته بأبيه في السنين القادمة؟ ما تطرّق إليه، بكل حال، كان ما شكّل لبّ الرسالة، كم ابتأسَ لأن والده أزاله من وضعية القاصر المُعال على ضرائبه المعادة. بدا الأمر وكأنه قد أُزيل، كتبَ، كأن والده كان يحاول نسيان السنوات العشرين الأخيرة من حياته، ويتظاهر كأنها لم تكن، ليس زواجه من أمّ فيرغسون وحسب، بل حقيقة أن له ابناً سُلّمَ الآن أمر العناية به كلّيّاً إلى دان شنايدرمان. لكنْ، أن يركن ذلك كلّه جانباً، تابع فيرغسون، بعد تخصيص صفحتين كاملتين للموضوع، فإن لقاءات العشاء التي اجتمعا خلالها باتت تبعث على الاكتئاب إلى أقى الدرجات بالنسبة إليه، فلماذا يستمرّ في تمثيلية الحزازير المملّة بما تنطوي عليه من افتعال حديثٍ مقتضب خال من الحياة بينهما بينما الحقيقة أن ليس لأحد منهما ما يقوله بعد ذلك، وكم من المحزن أن يجلسا معاً في تلك الأمكنة المحبِطة وهما يتطلّعان إلى الساعة، ويعدّان الدقائق حتّى تحين لحظة انتهاء التعذيب، ثمّ ألن يكون من الأفضل أن يحظيا بفاصل لفترة، ويفكّرا فيما إذا كانا يريدان البدء من جديد في مرحلة ما من المستقبل أم لا؟

ردّ أبوه على رسالته بعد ثلاثة أيّام. لم يكن الرّدّ الذي أراده فيرغسون، لكنه كان شيئاً ما. *فليكن، يا آرتشي، سوف نجرّب نوعاً من الاستراحة في هذه المرحلة. آمل أن تكون بخير. والدكَ.*

لن يمدّ فيرغسون له اليد من جديد. إلى هذه الدرجة كان قد قرّر ذلك، وإذا لم يكن والده مستعدّاً للتّقرّب منه، ومحاولة استعادته، إذاً فلتكن نهاية كل شيء.

أرسل طلبات التقديم إلى كولومبيا وبرينستون وروتجرز في بدايات كانون الثاني. في منتصف شباط، طلب يوم استراحة من المدرسة، وذهب إلى نيويورك، كي يخضع لمقابلة في كولومبيا. كان، بطبيعة الحال، معتاداً على الحرم الجامعيّ، الذي طالما ذكّره بمدينة رومانية مقلَّدة، بالمكتبتين الضخمتين اللتين تواجه إحداهما الأخرى وسط المبنى الصغير، Butler and Low، وكلّ منهما معمار غرانيتي مهول على الطريقة الكلاسيكية، فيلة تحكم الأبنية الآجرية الأصغر المحيطة بهما، وحين عرف طريقه إلى قاعة هاملتون، صعد الدرج إلى الطابق الرابع، وطرق الباب. كان الرجل الذي يجري معه المقابلة بروفيسوراً في الاقتصاد يُدعى جاك شيلتون، وكم كان رجلاً مرحاً، يقصّ النكات خلال المحادثة، بل ويسخر من *كولومبيا الخانقة، المتصلّبة*، وحين عرف عن طموح فيرغسون في أن يصبح كاتباً، انتهى حديثهما بتبادل أعداد مجلّة متقدّمي مدرسة كولومبيا الثانوية بمجلّة جامعة كولومبيا الأدبية. وبعد تقليب صفحاتها لنصف ساعة فيما بعد وهو يستقلّ القطار السريع إلى مركز المدينة، وقع فيرغسون على بعض الشِّعْر الذي أضحكه بشكل منقطع النظير: *في النَّيكِ المستقرّ راحةُ بالٍ لكَ.* ضحكَ بصوت مرتفع عندما

قرأه، سعيداً لمعرفة أن كولومبيا لا يمكن أن تكون خانقة إلى هذه الدرجة، ليس لأن السطر مضحك وحسب، بل لأنها كانت الحقيقة.

في الأسبوع التالي، قام بزيارته الأولى إلى برينستون، حيث ساوره الشّكّ بأنه سيتسنّى للعديد من الطلاب نشر قصائد تحتوي كلمة *نَيك* بين سطورها، لكن الحرم أكثر اتّساعاً وجاذبية ممّا هو في كولومبيا، فخامة ريفية، ينحنى لها لواقع أنها لم تُقَم في نيويورك، بل في بلدة صغيرة من نيوجرسي، عمارة قوطية مقابل عمارة كلاسيكية، متقنة بشكل لافت، منظر طبيعي يقارب الكمال حافل بالشجيرات والأشجار المزدهرة الطويلة المخدَّمة بعناية، لكنها معقّمة بعض الشيء ضدّ العفونة، كأن قطعة الأرض الفسيحة التي أُقيمت عليها برينستون قد انقلبت إلى مأرضة(*) ضخمة، تفوح بالمال على شاكلة نادي الوادي الأزرق الريفي، نسخة هوليوودية للجامعة الأميركية المثالية، جامعة *أقصى الشمال جنوبية الطابع*، كما قال له أحدهم ذات مرّة، لكنْ، مَنْ سيتذمّر حيال شيء ما؟ ولماذا يتذمّر إذا حدث أنْ حظي بإذن الدخول والمشي على هذه الأراضي بصفة طالب منحة والت ويتمان؟

لا بدّ أنهم عرفوا أن ويتمان كان الرجل الذي لم يكن مَعنياً بالنساء، قال في نفسه، وهو يُكمل جولته في الحرم، الرجل الذي آمن بالحبّ بين الرجل والرجل، لكن العجوز والت أمضى آخر تسعة عشر عاماً من عمره متشرّداً على طُرُقات كامدن، التي جعلتْ منه مَعْلَمَ نيوجرسي الوطني الخاصّ، وحتّى لو كانت آثاره تتراوح بين مذهلة الجودة ومذهلة الرداءة، إلا أن أفضلها يُعدّ الشِّعْر الأفضل الذي كُتب في هذا الشطر من العالم، ومرحى لـ غوردون ديويت، لأنه تبنّى اسم والت لمنَحِه الجامعية المخصّصة لفتية نيوجرسي بدلاً من اسمِ سياسيّ ميت ما أو أحد متنفّذي وول ستريت البيروقراطيين، الذين كان ديويت بالذات واحداً منهم طوال السنوات العشرين الماضية.

هذه المرّة كان هناك ثلاثة رجال سيجرون المقابلة، وليس واحداً، ورغم أن فيرغسون ارتدى لباساً أنيقاً للمناسبة (قميصاً أبيض، سترة وربطة عنق)، واستسلم دون حماس لالتماس أمّه وإيمي بقصّ شَعْره قبل الذهاب إلى هناك، إلا أنه شعر بالتّوتّر، وأنه ليس على ما يرام في حضرة هؤلاء الرجال، الذين لم يكونوا أقلّ لطفاً معه من بروفيسور كولومبيا، وسُئل الأسئلة كله التي توقّع أن توجَّه إليه، لكنْ، أخيراً حين انتهى الاستجواب الذي استمرّ ساعة، خرج من الغرفة وهو يشعر بأن أداءه لم يكن كما يجب، لاعناً نفسه لأنه خلط بين عناوين كُتُب وليام جيمز وأخيه هنري أوّلاً، ثمّ الأسوأ، أن اسمَ سانشو بانزا قد حُرِّفَ لديه إلى بانشو سانزا، ورغم تصحيحه الأخطاء لحظة نطقها فمه، إلا أنها كانت أخطاء فادحة، ارتكبها أحمق حقيقي ومزمن، كما أحسّ، ولم

*) أرض بريّة، توضع فيها الأحياء الطبيعية بقصد الدراسة والمراقبة.

يكتف باقتناعه أنه سيكون في الدرك الأسفل من قائمة المرشّحين للمنحة، بل كان متقزّزاً من نفسه، لأنه أجاب بشكل سيّئ وبالإكراه. لسبب ما، أو أسباب، أو لا سبب أنه لو تحدّثَ إليه أيّ شخص آخر سوى الرجال الثلاثة، لكان فهم ما أراد، واللجنة لم تتبادل الآراء معه، وحين طُلب إليه العودة لمقابلة ثانية في الثالث من آذار، كان فيرغسون مرتبكاً - لكنْ، أيضاً، للمرّة الأولى، يبدأ بالتساؤل إن كان هناك ما يبعث الأمل.

كانت طريقة طريفة أن يمضي عيد ميلاده الثامن عشر، وهو يرتدي ثيابه الأنيقة، السترة وربطة العنق مرّة أخرى، ثمّ يسافر إلى برينستون لحوار مباشر مع روبرت نيغل، بروفيسور الآداب الكلاسيكية الذي نشر ترجمته لمسرحيات سوفوكليس ويوريبيدس ودراسة ضمن كتاب عن المرحلة ما قبل السقراطية، رجل في بداية الأربعينيات ذو وجه متطاول عبوس، ومن عينيه تطلّ نظرة مترقّبة بسيطة بلا معنى وراءها، الذهن الأدبي الأهمّ في كلّ برينستون برأي أستاذ فيرغسون للّغة الإنكليزية السيّد ماكدونالد الذي يعرف برينستون، وكان يحفّز فيرغسون بقوّة على العمل للفوز بالمنحة. لم يكن نيغل رجلاً يبدّد طاقته في الثرثرة عن أشياء لا تمتّ بصلة إلى الموضوع. كانت المقابلة الأولى حافلة بالأسئلة عن إنجازات فيرغسون الأكاديمية (جيّدة، لكنها ليست مثيرة)، شغْله كعامل نقليات خلال الصيف، لماذا توقّف عن لعب المباريات الرياضية؟ مشاعره إزاء طلاق والديه وزواج أمّه، وماذا كان يأمل أن ينجزه بالدراسة في برينستون، وليس في مكان آخر؟ لكن نيغل تجاوز هذه المسائل، وبدا مَعنياً بقصتين اثنتين، أضافهما فيرغسون إلى طلب التّقدّم للجامعة، وبمعرفة الكتّاب الذين قرأهم، والذين لم يقرأهم، ومَن هم الذين اهتمّ بهم أكثر من سواهم.

القصّة الأولى، احدى عشرة لحظة من حياة غريغور فْلام، كانت القطعة الأدبية الأطول التي كتبها فيرغسون في السنوات الثلاث الأخيرة، أربع وعشرون صفحة مطبوعة على الآلة الكاتبة كُتبت بين أوائل أيلول وأواسط تشرين الثاني، لشهرين ونصف الشهر من العمل الدؤوب، خلال كتابتها نحّى جانباً دفاتر مسوّداته ومشاريعه الإضافية، كي يكثّف انتباهه على المهمّة التي حملها على عاتقه، وهي أن يقصّ حكاية عن حياة أحدهم دون أن يقصّها كحكاية متواصلة، ببساطة أن ينتقل بسرعة بين لحظات مختلفة غير مترابطة، ليتلمّس حدثاً أو فكرةً أو نبضة، ومَن ثمّ يقفز إلى التالية، ورغم الفجوات والاستراحات المتروكة ما بين الأجزاء المنفردة، كان فيرغسون قد تخيّل أن القارئ سيلمّ شملها معاً في ذهنه، وبذلك تتجمّع المشاهد المتراكمة في شيء يحاكي القصّة، أو شيء ما يتجاوز القصّة - رواية طويلة في ما يشبه المنمنمة. في الحدث الأوّل، ينظر غريغور ذو السنوات السّتّ في المرآة، كي يتفحّص وجهه، ويخلص إلى نتيجة مفادها أنه لا يستطيع التّعرّف

إلى نفسه، إذا رأى نفسه تسير في الشارع، ثمّ ها هو غريغور ذو السبع سنوات في ملعب يانكي برفقة جَدّه، يقفان مع الحشد يهلّلان لضربة مزدوجة من هانك باور، ويشعر بشيء رطب وزلق يقع على مقدّمة ذراعه اليمنى، كتلة من البصاق الآدميّ، معيَّن ثخين من البلغم جعله يحسّ وكأن رتلاً من المحار يدبّ على جلده، وبحسب توقّعه لا بدّ أنها جاءت من أحد ما يجلس في الطبقة الأعلى من المدرّج، وبغضّ النظر عن التّقزّز الذي يشعر به غريغور وهو يمسحها بمنديله، ثمّ يلقي بالمنديل بعيداً، كان هناك مشكلة المحاولة في تبيّن إن كان الشخص الذي بصق عليه قد فعلها عن سابق قصد أم لا، إن كان يصوب على ذراع غريغور ويبصق باتّجاه هدفه أو أنها كانت صدفة ساقت البصقة، كي تقع حيث وقعت، فذلك يشكّل فرقاً هامّاً في ذهن غريغور، إذ إن قذف البصقة عن نيّة مسبّقة يفترِضُ عالماً فيه القرف والشّرّ هما القوّتان الحاكمتان، عالماً فيه رجال لا مرئيون يهاجمون صِبيةً دون سبب سوى إشباع رغباتهم بمتعة إيذاء الآخرين، في حين تفترض صدمةٌ لبصقة عارضة عالماً فيه تحدث الأشياء غير السّارّة. لكنْ، دون أن يقع اللوم على أحد، كذلك هناك غريغور ذو الاثني عشر عاماً يستكشف أوّل شَعْر العانة الذي نما على جسده، غريغور ذو الأربعة عشر عاماً يراقب صديقه وهو يقع صريعاً أمام عينيه، يُقتَل على يد شيء ما يُدعى تمدّد أوعية الدماغ الدموية، غريغور ذو السّتّة عشر عاماً يستلقي عارياً في الفراش مع البنت التي ساعدته على فقد بكورته، ومن ثمّ، في الحدث النهائي، غريغور ذو السبعة عشر عاماً يجلس وحيداً على سفح تلّ، يتأمّل الغيوم وهي تعبر فوقه، متسائلاً فيما إذا كان العالم واقعياً أو ليس إلا إسقاطاً من دماغه، وإذا كان واقعياً، كيف يتسنّى لعقله أن يحيط به؟ وفي القصّة: *ثمّ يبدأ طريق نزوله عن التّلّ، وهو يفكّر بالألم في معدته، وفيما إذا كان تناول الغداء سيجعله يشعر بحالة أفضل أم أسوأ. إنها الواحدة ظهراً. تهبّ الريح من الشمال، والسنونو الذي كان جاثماً على سلك الهاتف قد طار.*

القصّة الأخرى، *يميناً، شمالاً، أو إلى الأمام؟*، كُتبت في كانون الأوّل، وتضمّنت ثلاثة مقاطع، كلّ منها بطول سبع صفحات. رجل يُدعى لازلو فلوت يتمشّى في الريف. يصل إلى تقاطع طُرُق، وعليه أن يختار من بين الاحتمالات الثلاثة الذهاب يساراً أو يميناً أو إلى الأمام. في الفصل الأوّل، يذهب إلى الأمام، ويقع بالمتاعب حين يهاجمه اثنان من قطّاع الطُّرُق. يُضرَب ويُسلَب، ويُترَك كي يموت على جانب الطريق، يستعيد الوعي بالتدريج، يعود سيراً على قدميه، ويترنّح لمسافة ميل حتّى يصل أحد البيوت، يقرع الباب، ويسمح له رجلٌ عجوز بالدخول، ويعتذر من فلوت لسبب مجهول، ويطلب الغفران منه. يقود الرجلُ فلوت إلى مجلى المطبخ، ويساعده في غسل الدم عن وجهه، ولا يزال يهتزّ وهو يدمدم كم آسف هو، وكم فظيع الشيء الذي ارتكبه،

لكنه أحياناً يقول، *لقد فرَّ خيالي منّي، وأنا لا أعرف كيف أتدبّر أمرَ نفسي*. يقصد مع فلوت غرفة أخرى، مكتباً صغيراً في آخر البيت، ويشير إلى رزمة من الأوراق المكتوبة بخطّ اليد على الطاولة. ألقِ نظرة إذا أردتَ، يقول، وحين يلتقط البطل المثخَن المخطوطَ، يكتشف أنها جرْدُ حساب للأشياء التي جرت معه للتّوّ. *يا لها من رموز باطلة!* يقول الرجل العجوز، لا أدري من أين جاءت.

في الجزء الثاني، ينعطف فلوت يميناً بدل الذهاب إلى الأمام. لا ذاكرة له تستجمع ما حدث له في الفصل الأوّل، ولأن الفصل الجديد يبدأ بلوح أردوازيّ خالٍ من الكتابة، تلُوح البداية الجديدةُ واعدةً بأن شيئاً ما أقلّ روعاً سيحدث له هذه المرّة، وفي حقيقة الأمر، بعد أن يسير لميلٍ ونصف الميل على الطريق إلى جهة اليمين، يصل إلى حيث تقف امرأة قرب سيّارتها المعطّلة، أو ما بدا أنها سيّارة معطّلة، وإلا لماذا ستقف وسط الأرياف، إذا كانت سيّارتها صالحة للعمل، لكنْ، مع اقتراب فلوت منها، يلمح أن لا مشكلة في أي إطار من إطارات السّيّارة، غطاء المحرّك ليس مرفوعاً، ومبرّد السّيّارة لا ينفث سحابات بخار في الهواء. مع ذلك، لا بدّ أن هناك مشكلة من نوع ما، وحالما اقترب فلوت غير المتزوّج من المرأة، يكتشف أنها جذّابة بشكل استثنائي، أو على الأقلّ هكذا بدت في عينيه، ولذلك ينبري لمساعدتها، ليس فقط لأنه يريد مساعدتها، بل لأن الفرصة قد جاءت بنفسها إليه، ويريد استغلالها على أكمل وجه. حين يسألها ما المشكلة، تقول إنها تظنّ أن البطّاريّة فارغة. يفتح فلوت غطاء المحرّك، ويكتشف أن أحد الأسلاك قد تحلّل من موضعه، لذلك يعيد وصْل السلك، ويطلب منها دخول السّيّارة، ومحاولة تشغيلها، وهذا ما ستفعله، وحين أقلع محرّك السّيّارة لمجرّد تحريك مفتاح التشغيل، تبتسم المرأة لـ فلوت ابتسامة عريضة، تطيّر قبلةً له، ومن دون سابق إنذار، تقلع بسيّارتها بسرعة مجنونة، تاركة المكان بسرعة حتّى لم يُتح له من الوقت ما يكفي لتدوين رَقْم لوحة سيّارتها. لا اسم، لا عنوان، لا سبيل أبداً لأن يعود للتواصل مع الشبح الفاتن الذي صعق دخوله، ثمّ خروجه حياتَه في غضون دقائق. يتابع فلوت سيره، وغباؤه يبعث فيه الغثيان، متسائلاً لماذا تنفلت حظوظه كلّها في الحياة من بين أصابعه، تغويه بوعود الأشياء الأجمل، ومع ذلك تخذله في نهاية الأمر. بعد ميلين آخرين، يظهر قاطعا الطريق من الفصل الأوّل. يقفزان من وراء سياج شجري، ويحاولان بطح فلوت أرضاً، لكنه هذه المرّة يهاجمهما، يركل أحدهما في عانته، ويلكم الآخر بين عينيه، ويُفلح بالإفلات، راكضاً على الطريق مع غروب الشمس وبدء انسدال الليل، وحين بدأ كل شيء يُنهكه، يوشك على منعطف في الطريق، ويرى سيّارة المرأة مرّة أخرى، مركونة قرب شجرة هذه المرّة، لكن المرأة غير موجودة، وحين يناديها ويسألها أين هي، لا يحظى بأي جواب. ويفرّ فلوت إلى قلب الليل.

في الجزء الثالث، ينعطف يساراً. إنها ظهيرة فائقة الجمال من أواخر الربيع، والحقول على

جانبيه مترعة بالأزهار البرّيّة، مائتا طائر تشدو في الجوّ البلّوريّ، وبينما يتأمّل فلوت في السُّبُل المتنوّعة التي احتوت اللطيفَ معه والمتوحّش، وتوصّل إلى حقيقة أن جلّ عقباته إنما كان هو مسبّبها، ذلك أنه مسؤول، إذ جعل حياته باهتة وخالية من المغامرة، وإذا كان ينشد عيش الحياة حتّى أقصاها، فما عليه إلا أن يمضي وقتاً أطول مع الناس الآخرين، ويتوقّف عن الذهاب في مشاوير منفردة.

لماذا تطلق على شخصياتكَ أسماء غريبة كهذه؟

لا أعرف، قال فيرغسون. ربّما لأن الأسماء تقول للقارئ إن هذه الشخصيات تنتمي إلى قصّة، وليس إلى العالم الحقيقي. أحبّ القصص التي تعترف بأنها قصص، ولا تدّعي الحقيقة، الحقيقة كلّها، ولا شيء إلا الحقيقة، وعلى ذلك، فليعنّي الله.

غريغور. إشارة إلى كافكا، أظنّ.

أو غريغور ميندل.

ابتسامة خفيفة طافت على المحيّا الطويل الحزين. قال نيغل:

لكنكَ قرأت كافكا، ألم تفعل؟

المحاكمة، المسخ، وما يقرب من عشر إلى اثنتي عشرة قصّة. أحاول قراءته ببطء، لأني أحبه للغاية. إذا جلستُ وتجرّعتُ كافكا كلّه دفعة واحدة، سأبقى كأني لم أقرأه، وهكذا لن يبقى كافكا جديد أتطلّع إليه، وذلك سيحزنني جدّاً.

ادّخار متَعِكَ.

ذلك هو الأمر. قد مُنحتَ زجاجة واحدة وحسب، وإذا شربتها كاملة دفعة واحدة، فلن تجد فرصة أخرى للشرب من الزجاجة مرّة أخرى.

في طلبكَ الذي قدّمتَه إلى الجامعة، تقول إنكَ تريد أن تصبح كاتباً. ما رأيكَ بالعمل الذي أنجزتَهُ حتّى الآن؟

معظمه سيّئ، سيّئ حدّ الغثيان. بعض الأشياء القليلة أفضل على العموم، لكن هذا لا يعني أنها جيّدة.

وما رأيكَ بالقصتين اللتين أرسلتَهما لنا؟

ليستا جيدتين أو سيّئتين. (نصف - نصف).

لماذا إذاً ترسلهما إلينا؟

لأنهما آخر قصتين، ولأنهما أطول ما كتبتُ.

ممّا تختزنه في ذاكرتكَ، أعطني أسماء خمسة كتّاب باستثناء كافكا ممّنْ لهم السطوة الأكبر عليكَ.

دوستويفسكي. ثورو. سويفت. كلايست. بابل.

كلايست. القليل من صبية المدارس يقرؤونه في هذه الأيّام.

خالتي متزوّجة من رجل كتب سيرة حياة كلايست. إنه الشخص الذي أعطاني قصصه.

دونالد ماركس.

أتعرفه؟

أعرف عنه.

خمسة عدد صغير. أشعر بأنني نسيتُ بعض أهمّ الأسماء.

متأكّد من ذلك. ديكنز أوّلاً، صحيح؟ وإدغار آلن بو، لا ريب بو، وربّما غوغول، دون أن نذكر المعاصرين. جويس، فوكنر، بروست. لعلّكَ قرأتَهم جميعاً.

لم أقرأ بروست. الباقون قرأتُهم، لكنني لم أجد الوقت لقراءة يوليسيس. أنوي قراءتها في هذا الصيف.

وبيكيت؟

بانتظار غودو، لا شيء آخر حتّى الآن.

وبورخيس؟

ولا كلمة.

كم من الغبطة تنتظركَ، يا فيرغسون.

في هذه المرحلة، بالكاد وصلتُ إلى البداية. باستثناء مسرحيات قليلة لشكسبير، لم أقرأ أي شيء ممّا كُتب قبل القرن الثامن عشر.

ذكرتَ سويفت. ماذا عن فيلدينغ، شتيرن، وأوستن؟

لا، ليس بعد.

وماذا عن كلايست الذي يجذبكَ للغاية؟

رشاقة جمَله، التسارع. إنه يسرد ويسرد، لكنْ، دون أن يُظهِر الكثير، ما يقول الجميع إنها الطريقة

الخطأ. لكنني أحبّ الطريقة الاقتحامية لقصصه. كلّها معقّدة للغاية، لكنها، في الوقت نفسه، تُشعِركَ وكأنكَ تقرأ حكاية خرافية.

تعرف كيف مات، أليس كذلك؟

أطلق النار على نفسه، من الفم، حين كان لا يزال في الرابعة والثلاثين. بعد أن قتل امرأة صديقة ضمن اتّفاقيّة انتحار متبادل.

قل لي، يا فيرغسون، ماذا سيحدث إذا قُبلتَ في برينستون، لكنكَ رُددتَ خائباً بما يتعلّق بالمنحة؟ هل ستأتي إلى هنا بأية حال؟

هذا كلّه وقفٌ على ما ستقوله كولومبيا.

هي خيارك الأوّل.

نعم.

أيمكنني أن أسأل لماذا؟

لأنها في نيويورك.

آه، طبعاً. لكنكَ ستأتي إلى هنا، إذا وافقنا على المنحة.

قطعاً. الأمر كلّه يتوقّف على المال، كما تعلم، وحتّى لو قُبلتُ في كولومبيا، فلستُ متأكّداً أن عائلتي تستطيع تدبّر المال لإرسالي إلى هناك.

حسناً، لا أعرف ماذا سيكون رأي اللجنة، لكنني أريد أن أقول لكَ إني استمتعتُ بقراءة قصّتيكَ، وتذكّر أنهما أفضل بكثير من (نصف - نصف). السّيّد فلوت لا يزال يبحث عن طريقٍ ثانٍ (آخر)، كما أعتقد، لكن غريغور فلامْ مفاجأة سارّة، قطعة أدبية ممتازة من شخص في عمركَ، وبقليل من المراجعة للقسمين الثالث والخامس، أثق في أنكَ ستنشرها في مكان ما. لكنْ، لا تفعل. هذا ما كنتُ أريد أن أقوله لكَ، نصيحتي الوحيدة. اصبرْ لفترة، لا تتسرّع بتوريط نفسكَ في الطباعة، استمرّ في العمل، استمرّ في النّموّ، وخلال وقت لن يطول ستكون جاهزاً.

أشكركَ. لا، ليس 'أشكركَ' - بل نعم، أعني نعم، *أنتَ على حقّ*، رغم أنكَ قد تكون مخطئاً في مسألة أن القصّة ليست نصف - نصف، أعني، لكنها تعني الكثير لـ ... يا يسوع، لم أعد أعرف ماذا أقول بعد.

لا تقلْ أيّ شيء، يا فيرغسون. فقط انهضْ عن الكرسيّ، صافحْني، اذهبْ إلى البيت. سعدتُ للغاية بلقائكَ.

تعاقبت أسابيع ستّة حافلة بالشّكّ. شملت كامل آذار ونصف نيسان، وكلمات روبرت نيغل تتوهّج في ذهن فيرغسون، الـ *قطعة أدبية ممتازة*، والـ *سعدتُ بلقائكَ للغاية*، فتبقيه دافئاً خلال الأيّام الباردة من أواخر الشتاء وبداية الربيع، إذ أدرك أن نيغل كان أوّل غريب، أوّل شخص حياديّ، أوّل دخيل غير متحيّز أبداً يقرأ نتاجه، والآن والـ *الذهن الأدبي الأهمّ في برينستون كلها* قد قيّمَ قصصه على أنها جيّدة، فقد تمنّى المؤلّف الشّابّ لو استطاع التّوقّف عن الذهاب إلى المدرسة، ليمضي عشر ساعات في اليوم جالساً في غرفته مع العمل الجديد الذي كان يتشكّل في ذهنه، ملحمة متعدّدة الأجزاء بعنوان *رحلات موليغان*، التي أيقن أنها ستكون أفضل ما كتبه حتّى الآن، أخيراً القفزة النوعية للأمام.

ذات صباح في منتصف فترة الانتظار الطويلة، بينما جلس فيرغسون في المطبخ يفكّر بالأسود والنمور واحتمالات أن ينتهي به الأمر إلى نملة في مصنع اسمه روتجرز، يقع في العاصمة المشهورة على مستوى العالم نيو برونزويك، نيوجرسي، دخلت أمّه المكان، وبيدها صحيفة ستار - ليدجر لذلك اليوم، فرشتْها على طاولة الإفطار أمامه، وقالت، *تمعّنْ في هذه، يا فيرغسون*. نظر فيرغسون، وما رآه لم يكن متوقّعاً، خارج دنيا ما يلوح ممكناً، كان خطأً ومغثياً بشكل فاضح، حتّى إنه اضطرّ للنظر إليها ثلاث مرّات أخرى قبل أن يتمكّن من استيعاب الخبر. تزوّج والده مرّة أخرى. نبيّ الأرباح تزوّج من إيثيل بلومينثال ذات الواحد والأربعين عاماً، أرملة الراحل إدغار بلومينثال والأمّ لولدين، آلن ابن السّتّة عشر عاماً وستيفاني ابنة الاثني عشر عاماً، وبينما يتأمّل فيرغسون صورة أبيه المبتسم واللا 'غنيّة عن التعريف' السّيّدة فيرغسون الثانية، رأى أنها حملت ملامح معيّنة من أمّه، خصوصاً ما يتعلّق بطولها وقوامها وسواد شَعْرها، وكأن أباه قد خرج ساعياً وراء نسخة عن المثال الأصلي، لكن البديلة كانت في نصف جمالها، وفي عينيها نظرة احتراس، شيء حزين ومستغلق، وربمّا بارد بعض الشيء، في حين كانت عينا والدته الملاذ الآمن لكلّ مَنْ يقترب منها.

كان يظنّ أنه سيثور غيظاً، لأن أباه لم يقدّمه إلى تلك المرأة، التي أصبحت بصورة آلية أمّه بالتّبنّي الآن، وشعر بالإهانة العميقة لأنه لم يُدعَ إلى الزفاف، لكن فيرغسون لم يكن واحداً ممّنْ يهتمّون بأشياء كهذه. قد انزاح الهمّ عنه. انتهت القصّة، وابن ستانلي فيرغسون، الذي لم يعد مضطرّاً للتظاهر بأنه يشعر بأي رابط بنويّ تجاه الرجل الذي أنجبه، نظر إلى أمّه، وصاح، *Adios, papa- vaya con Dios! وداعاً، يا بابا - اذهبْ بأمان الله!*

بعد ذلك بثلاثة أسابيع، في اليوم نفسه، وفي ثلاثة أماكن مختلفة من البلاد - مدينة نيويورك، كامبريدج، ماساتشوستس، وبلدة صغيرة في نيوجرسي - فتحَ الأعضاء الشبابُ في العشيرة الممتزجة والمختلطة صناديق بريدهم، ووجدوا الرسائل التي كانوا ينتظرونها. وباستثناء رسالة

رفض واحدة لنوح، كانت الرسائل كلّها نصراً كاسحاً من القبول للجميع، ظفراً غير مسبوق وضعَ رُباعيَّ آل شنايدرمان - فيرغسون - ماركس في المركز الذي يتيح لهم اختيار المكان الذي يريدون الذهاب إليه للسنوات الأربع القادمة في حياتهم. بالإضافة إلى جامعة نيويورك الحكومية، كان باستطاعة نوح الالتحاق بـ سيتي كوليج أو الأكاديمية الأميركية للفنون المسرحية. وباستطاعة جيم المضيّ غرباً باتّجاه كلتيك، جنوبي برينستون، أو البقاء، حيث كان في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا. بالإضافة إلى بارنارد وبرانديز، تضمّنت خيارات إيمي سميث، بمبروك، وروتجرز. أمّا بالنسبة إلى فيرغسون، فقد شقّ النمل طريقه إليه، كما هو متوقَّع، لكنْ، أيضاً لديه وحشا الغابة، كأمرين متوقَّعَين، وحين نظر إلى إيمي المبتهجة، التي كانت تُلقي برسائلها في أرجاء المطبخ، وتضحك، وقد ثنت رأسها، نهض وقال لها، في أفضل ما قلّد به لهجةَ جَدّها: ve valtz ja liebchen؟ ثمّ مضى إلى حيث كانت واقفة، أحاطها بذراعيه، وطبعَ مسحةَ قبلة على شفتيها.

طالب والت ويتمان.

على الرغم من رسالة كولومبيا المشجّعة، يجب على نيويورك التريّث. جعل المالُ من الذهاب إلى برينستون أمراً لا مفرّ منه، لكنْ، خارج موضوع المال، هناك امتياز الفوز بالمنحة، الذي كان دون جدال أكبر ما يحدث في حياته، ريشة *عملاقة على قبّعته*، كما عبّر دان، وحتّى بالنسبة إلى فيرغسون المتصلّب والمتحفّظ، الذي كان في العادة خجولاً بما يتعلّق بإنجازاته حتّى إنه يفضّل مغادرة الغرفة من أن يفتح فمه، ويتبجّح بنفسه، كانت منحة برينستون مختلفة، شيئاً كبيراً مبهجاً للغاية، لدرجة تمنّى لو يحملها معه، ويعرضها أمام أنظار الآخرين، وحين أُذيع النبأ في المدرسة أنه كان أحد الأربعة الممسوحين المختارين، غمرته التهاني دون أن يشعر بأي إحراج أو يبدي علامة من علامات انتقاد الذات المعتادة لديه، كان في عوز إلى بعض المداهنة، واستمتع بأنه مركز العالم الذي أصبح فجأةً يدور حوله، تحيطه نظرات الإعجاب والحسد، ويُحكى عنه من قِبَل الجميع، ورغم أنه كان يريد الانتقال إلى نيويورك في أيلول، إلا أن فكرة طالب منحة والت ويتمان في برينستون كانت أكثر من كافية لأن يحيا عليها في تلك الآونة.

مضى شهران، وفي اليوم التالي لتخرّجه في الثانوية تلقّى رسالة من أبيه. بالإضافة إلى ملاحظة التهنئة السريعة على منحته (التي كانت قد أعلنت في صحيفة ستار - ليدجر)، تضمّن المظروف شيكاً بألف دولار. كانت ردّة فعل فيرغسون الأولى في أنه أراد تمزيق الشيك وإرسال المزق إلى أبيه، لكنه تمعّن في الأمر، وقرّر إيداع الشيك في حسابه. وحالما يتحوّل الشيك إلى مال نقديّ، فسيحرّر شيكين اثنين، كلّ منهما بخمسمائة دولار، أحدهما لـ SANE (اللجنة الوطنية من أجل سياسة نووية عقلانية)، والآخر لـ SNCC (لجنة التنسيق اللاعنفية الطلابية). لم يكن هناك من

معنى في تمزيق المال عندما يمكن أن يُنذر للاستخدام الخيّر، ولماذا لا يُعطى لأولئك الذين يكافحون ضدّ حماقات هذا العالم الخرب الذي يعيش فيه ومظالمه؟

في المساء نفسه، أقفل فيرغسون عليه غرفته، وبكى للمرّة الأولى منذ انتقل من المنزل الأقدم من القديم. كانت دانا روزنبلوم قد سافرت إلى إسرائيل(*) في وقت مبكّر من ذلك النهار، ولأن أهلها كانوا بصدد العودة إلى لندن من أجل بداية جديدة أخرى، كان من المؤكّد أنه لن يراها من جديد. التمس إليها ألا ترحل، شارحاً أنه كان على خطأ في مسائل عديدة، وأنه أراد فرصة أخرى، ليثبت نفسه أمامها، وبعد أن أخبرته أن قرارها قد تبلور، وأن لا شيء يثنيها عنه، طلبَ إليها بحماس أن تتزوّجه، ولأن دانا فهمت أنها لم تكن مزحة، ذلك أن فيرغسون عنى كلّ كلمة كان يقولها، قالت له إنه كان الحبّ الأكبر في حياتها، الرجل الوحيد الذي تهتمّ لأمره أبداً بجوارحها كلها، ثمّ قبّلته للمرّة الأخيرة، وابتعدت.

في الصباح التالي، بدأ العمل لدى آرني فرايزر من جديد. و*المستر كوليج* قد عاد إلى شغل النقليات، وحين جلس في الشاحنة يصغي إلى حديث ريتشارد برينكرستاف عن طفولته في تكساس وبيت الدعارة في بلدته الصغيرة، حيث كانت صاحبة الماخور بخيلة، لدرجة أنها كانت تعيد تأهيل الواقيات الذكرية المستعمَلة بأن تغمرها بالماء الفاتر، ثمّ تبسطها وتنشرها على عصيّ المكانس حتّى تجفّ تحت الشمس، أدرك فيرغسون أن العالم مكوَّن من القصص، القصص الكثيرة المتنوّعة، لدرجة أنها لو جُمعتْ معاً، وشكّلت كتاباً، لبلغَ طولُ هذا الكتاب تسعمائةَ مليون صفحة. قد بدأ صيف واطس والغزو الأميركي لفييتنام، ولن يقيّض لجَدّة فيرغسون ولا لجَدّ إيمي أن يعيشا، ليُكملا متابعتها حتّى النهاية.

---

*) فلسطين المحتلّة. (م).

5.1

خصّصت غرفة له في الطابق العاشر من كارمان هول، المبنى السَّكَني الأحدث في الحرم الجامعي، وحين أفرغ فيرغسون حقائبه، ورتّب أغراضه، مشى باتّجاه مبنى يبعد بضع ياردات إلى الشمال، فرنارد هول، واستقلّ المصعد إلى الطابق السادس، حيث وقف أمام الغرفة617 للحظات، ثمّ نزل الأدراج، اتّجه شرقاً على الممرّ الآجريّ الذي يمرّ من أمام مكتبة باتلر، وينتهي إلى المبنى السَّكَني الثالث، جون جاي هول، هناك استقلّ المصعد إلى الطابق الثاني عشر، ووقف أمام الغرفة 1231 للحظات. سكن فيدريكو غارثيا لوركا هاتين الغرفتين خلال الأشهر من سنتي 1929 و1930 التي أمضاها في جامعة كولومبيا. كانت الغرفتان رَقْم 617 في فرنالد و1231 في جون جاي المكانين الذي أنجز فيهما كتابة "قصائد العزلة في جامعة كولومبيا،" "العودة إلى المدينة،" "أُغنيّة لوالت ويتمان" (*نيويورك القذارة/ نيويورك الأسلاك والموت*)، ومعظم القصائد الأخرى التي جُمعت في *شاعر في نيويورك*، الكتاب الذي نُشر في النهاية سنةَ 1940، بعد أربع سنوات من ضرب لوركا وقتله، ثمّ إلقائه في قبر جماعيّ من قِبَل رجال فرانكو. مقبرة الشهداء كلّهم.

في الساعات التالية، سار فيرغسون باتّجاه برودواي وغربي الشارع 116 والتقى إيمي في تشوك فول أوناتس، مكان الـ*القهوة الإلهية* التي ذاع صيتها بأنها الأفضل حتّى إنه ليس بإمكان أموال روكفلر أن تشتري صنفاً أفضل منها (بحسب الإعلان التلفزيوني). تشوك فول أوناتس كانت الشركة نفسها التي ضمّت جاكي روبنسون صديق الحاكم روكفلر كنائب للرئيس ومدير شؤون الموظّفين، وبعد أن تسلّت إيمي وفيرغسون بهذه الوقائع الغريبة والمتشابكة لدقيقتين - نلسون روكفلر كليّ الوجود، الذي امتلكت عائلته مزارع قهوة في أميركا الجنوبية، وجاكي روبنسون بعد اعتزال البيسبول، الذي أصبح شَعْره أبيض رغم أنه لم يزل شابّاً، وسلسلة من ثمانين محلّ قهوة يشتغل فيها موظّفون معظمهم من السود - وضعت إيمي يدها على كتف فيرغسون، جذبتْه نحوها، وسألته كيف يبدو له الأمر وهو في الجامعة الآن، كرجل حرّ. مبتهج *للغاية، يا* حبيبتي، مدهش بشكل يدعو *للتفاؤل*، قال، وقبّل عنق إيمي وأذنها وحاجبها - إلا من تفصيل صغير، الذي

كاد أن يسبّب له لكمة على الوجه بعد أن وصل الحرم الجامعيّ. كان يشير إلى تقليد كولومبيا بإرغام الطلاب الجدد على اعتمار قبّعات زرقاء باهتة خلال أسبوع التّعرّف إلى الجامعة (وسنة الالتحاق مشبوكة بمقدّمتها، في حالته كان الرّقْم المضحك 69)، الذي كان برأي فيرغسون عادةً مقزّزة كان يجب إبطالها منذ عقود، ارتداداً إلى الطقوس المذِلّة لحياة الفتيان الأغنياء الجامعية في القرن التاسع عشر، وهنا المسألة، متذكّراً شأنه الخاصّ وهو يمشي متثاقلاً عبر ساحة الجامعة في طريقه من هنا إلى هناك، وبطاقة تعريف بأنه مستجدّ معلّقة على صدره، حين واجهه اثنان من صفوف أعلى، ممّنْ يُدعون بالمراقِبين الذين كانت وظيفتهم مساعدة الطلبة المستجدّين في الوصول إلى وجهتهم ضمن الجامعة، لكن هذين الهيكلين قصيري الشَّعْر في سترتي التويد وربطتي العنق، اللذين لا بدّ كانا خطَّ دفاع في منتخب كرة القدم الجامعي، لم يبديا استعداداً لمساعدة فيرغسون في الاستدلال إلى وجهته، بل أوقفاه يسألانه لماذا لم يكن يعتمر قبّعته، كأقرب إلى شرطيين جامديّ الملامح من أن يكونا طالبين ودودَين، وأجاب فيرغسون بصراحة بأنها في غرفته، وليس في نيّته ارتداءها لا اليوم ولا في أي يوم آخر من الأسبوع، القول الذي دعا أحد الشرطيين إلى نعته بالـ قيء، ثمّ أمره بالعودة إلى غرفته، وإحضارها. آسف، قال فيرغسون، إذا كنتَ بحاجة ماسّة إليها، فعليكَ أن تذهب وتحضرها بنفسكَ، إجابة أغاظت المراقب إلى أبعد حدّ، لدرجة أن فيرغسون تخيّلَ أنه على وشك أن يشدّه ويرديه أرضاً، لكن الشرطي الآخر طلب من صديقه أن يهدأ، وبدلاً من إطالة أمد المواجهة، انسحب فيرغسون ببساطة.

إنه الدرس الأوّل في أنثروبولوجيا جماعات القربى الجامعية - الذكورية، قالت إيمي. العالم الذي تنتمي إليه الآن منقسم إلى ثلاث قبائل. الصبيان النمطيّون والخرقى الرياضيون، وهم يشكّلون ثلث السّكّان، المكافحون، الذين يشكّلون ثلثاً آخر، وجماعة القيء، الذين يشكّلون الثلث الأخير. أنتَ، يا عزيزي آرتشي، أكون سعيدة أن أقول إنكَ قيء. رغم أنكَ طالما كنتَ من الخرقى الرياضيين.

ربّما كنتُ كذلك، قال فيرغسون. لكنْ، أخرق رياضيّ بقلب من قيء. وأيضاً، ربّما - أتساءلُ لا أكثر - بذهن مكافح.

كانت القهوة الإلهية أمامهما على الطاولة، وفي اللحظة التي أوشك فيها فيرغسون على رشفته الأولى، اقترب شابّ، وابتسم لـ إيمي، متوسّط الطول بشَعْر طويل أجعد الذي كان دون أدنى شكّ من جماعة القيء، عضو زميل في القبيلة التي بدا أن فيرغسون ينتمي إليها، فطول الشَّعْر (برأي إيمي) كان أحد العوامل التي تميّز جماعة القيء عن الخرقى الرياضيين وعن المكافحين، والعامل الأقلّ أهمّيّة في القائمة التي ضمّتْ الميول السياسية اليسارية (مناهضو الحرب،

مناصرو الحقوق المدنية)، الإيمان بالفن والأدب، والتشكيك في أشكال القوى المؤسّسية كلّها.

رائع، قالت إيمي. هذا 'لِسْ'. عرفتُ أنه سيأتي.

كان 'لِسْ' طالباً مستجدّاً اسمه الكامل لِسْ غوتسمان، صديق صدفةٍ لـ إيمي، لا أكثر من معرفة شخصية مضجِرة في الحقيقة، لكن الكلّ على جانبي شارع برودواي يعرف من تكون إيمي شنايدرمان، ولِسْ وافق على الحضور إلى تشوك فول أوناتس في تلك الظهيرة كـ هدية ترحيب من إيمي إلى فيرغسون بمناسبة يومه الأوّل في الجامعة، لأن لِسْ غوتسمان كان مؤلِّفَ السطر الذي أضحكَ وأبهج فيرغسون حين زار الجامعة منذ ستّة أشهر: *في النَّيكِ المستقرّ راحةُ بالٍ لك.*

آه، *ذلك السطر*، قال لِسْ، وفيرغسون ينهض عن كرسيه، ويصافح الشاعر. أظنّه كان طريفاً في ذلك الوقت.

لا يزال طريفاً، قال فيرغسون. وشعبيّ وصادم أيضاً، على الأقلّ لدى بعض الناس، ربّما لدى معظم الناس، لكنها في الواقع مقولة غير قابلة للدحض.

ابتسم لِسْ بتواضع، نقّلَ نظراته بين إيمي وفيرغسون لبرهة وجيزة، ثمّ قال: تقول لي إيمي إنكَ تكتب الشِّعْر. لعلّكَ تريد أن تعرض بعضه على *مجلّة كولومبيا*. مرّ بي في وقت ما. فيريس بووث هول، الطابق الثالث. إنه المكتب الذي يتصايح فيه الناس كلّهم.

في السادس عشر من تشرين الأوّل، شارك فيرغسون وإيمي في مظاهرتهما الأولى ضدّ الحرب، مسيرة نظّمتها لجنة الشارع الخامس لموكب السلام الفييتنامي التي جذبت عشرات آلاف الناس بدءاً من نشطاء الطلبة الماويين وصولاً إلى حاخامات اليهود الأرثوذكس، الحشد الأكبر الذي شهده كلّ منهما خارج ستاد البيسبول أو كرة القدم، وفي ظهيرة ذلك السبت المشرق من بدايات الخريف، تحت سماء مكتملة الصفاء في يوم نيويوركي مكتمل، وبينما سار المتظاهرون على الشارع الخامس باتّجاه مركز الأمم المتّحدة، بعضهم يغنّي، بعضهم ينشد، ومعظمهم يمشي بصمت، كذلك بدأ فيرغسون وإيمي التعبير عن رأيهما، يمسك أحدهما بيد الآخر بينما يسيران جنباً إلى جنب دون أن يتفوّها بكلمة، تجمّعات ضخمة من غير المتظاهرين تجمهرت خارج سور السنترال بارك يصفّقون ويهتفون بالتأييد للمسيرة، في حين أن زمرة أخرى، زمرة مؤيّدة للحرب، من هؤلاء الذين غالباً ما فكّر فيهم فيرغسون على أنهم بشرٌ ضدّ – ضدّ - الحرب، تصرخ بالشتائم والإساءة، وفي بعض الأحيان، يلقي أفرادُها بالبيض على المتظاهرين، أو يهرعون إليهم، ويلكمونهم، أو يرشّون فوقهم الطلاء الأحمر.

بعد أسبوعين، نظّم المؤيدون ومعارِضوُّ - مُعارِضي القوّة العسكرية مسيرتهم الخاصّة بهم في مدينة نيويورك فيما أسموه يوم دعمِ المسعى الأميركي في فييتنام بينما يمرّ خمسة وعشرون ألف شخص من أمام المسؤولين المختارين الموكّلين من الحكومة الذين كانوا يشجّعونهم من على منصّات المشاهدة المرتفعة. كان أمريكيون قلائل مستعدّين لاعتراف حكومتهم بأخطائها في الحرب آنذاك، لكنْ، بوجود مائة وثمانين ألف جندي مقاتل منتشر في فييتنام وحملة القصف والتدمير المعروفة بعملية دويّ الرعد التي دخلت شهرها الثامن، والوحدات الأميركية مستمرّة بعدوانها ومعدّل قتلى أفراد الجيش الأميركي إلى ازدياد في معارك تشولاي ويادرانغ، النصر الأكيد السهل الذي كان وعداً من كلّ من جونسون وماكنمارا ووستمورلاند إلى الشعب الأميركي ظهر أنه أقلّ تأكيداً. في أواخر آب، أقرّ الكونغرس قانوناً بعقوبة خمس سنوات سجن وغرامات مالية تصل إلى عشرة آلاف دولار لكل مَنْ يُدان بجرم إتلاف وثائق التجنيد الإلزامي. رغم ذلك، استمرّ الشباب في حرق بطاقات السحب ضمن وقفات احتجاجية شعبية كحركة مقاومة التجنيد التي شملت البلاد. ذات يوم سبقَ اليوم الذي تظاهر فيه فيرغسون وإيمي على الشارع الخامس، تجمّع ثلاثمائة شخص أمام مركز تجنيد القوّات المسلّحة على شارع وايتهول، ليشاهدوا ديفيد ميللر ابن الاثني وعشرين عاماً يشعل بطاقة تجنيده بعود ثقاب في أوّل تحدٍّ علنيّ للقانون الفيدرالي الجديد. حاول أربعة آخرون القيام بالأمر ذاته وسط ساحة فولاي في الثامن والعشرين من تشرين الأوّل، ليتمّ تطويقهم من قِبَل رعاع المقاطعين والشرطة. في الأسبوع الذي تلاه، عندما كان خمسة آخرون على وشك حرق بطاقات تجنيدهم في أثناء مسيرة احتجاجية في يونيون سكوير، قفز أحدُ (ضدّ - الضّدّ) ورشّهم بمحتويات أسطوانة إطفاء الحريق، وحالما تمكّن الفتية الخمسة المبلّلون من إشعال بطاقاتهم، صاح مئات الناس الواقفين خلف متاريس الشرطة، "أفرِحُونا، واقصفُوا هانوي!"

ومن ثمّ صرخوا، "أحرِقوا أنفسَكم، لا بطاقاتكم!،" في إشارة بغيضة إلى أحد أعضاء جمعية *الأصدقاء - الكويكرز* المسيحية الذي أحرق نفسه حتّى الموت قبل أربعة أيّام من ذلك اليوم على أرض متاخمة للبنتاغون. بعد قراءته تقريراً كتبه قسٌّ كاثوليكي فرنسيّ شهدَ أبناء رعيّته الفييتناميين يموتون *حرقاً بالنابالم*، قام نورمان موريسون، الأب لثلاثة أطفال صغار، بقيادة سيّارته من بيته في بالتيمور إلى واشنطن العاصمة، جلس على مسافة لا تتجاوز الخمسين ياردة من نافذة مكتب روبرت ماكنمارا، صَبَّ الكيروسين على جسده، أشعلَ نفسه كقربان احتجاج صامت ضدّ الحرب. قال الشهود إن النار ارتفعت عشر أقدام في الجوّ، وكان هياج النار مساوياً لقوّة النار التي يسبّبها النابالم حين يُلقَى من الطائرة.

أحرِقوا أنفسَكم، لا بطاقاتكم.

كانت إيمي على حقّ. شغبٌ صغير بالكاد يكون مرئياً اسمه "فييتنام" *تضخّمَ إلى صراع أكبر من الحرب الكورية، أكبر من أي شيء منذ الحرب العالمية الثانية*، ولا يزال يكبر يوماً إثر يوم، في كلّ ساعة تُرسَلُ قوّات جديدة إلى بلاد بعيدة مفقَرة في الشطر الآخر من العالم لمحاربة الخطر الشيوعي بمنع الشمال من غزو الجنوب، مائتا ألف، أربعمائة ألف، خمسمائة ألف شابّ من جيل فيرغسون تمّ ترحيلهم إلى أدغال وقرى لم يسمع بها أحد أو يستطع تحديد مكانها على الخريطة، وعلى عكس كوريا والحرب العالمية الثانية، التي تمّ خوضها في أمكنة تبعد آلاف الأميال عن الأرض الأميركية، فإن هذه الحرب تُخاض في فييتنام وفي الوطن الأميركي على السواء. فالمشاحنات ضدّ التّدخّل العسكري كانت واضحة أمام فيرغسون، مقنِعة للغاية في عقلانيتها، بديهية للغاية بعد تفحّص متأنٍّ للوقائع حتّى ليصعب عليه أن يفهم كيف يمكن لأحد أن يساند الحرب، غير أن الملايين تساندها، ملايين عديدة في تلك المرحلة تزيد على الملايين التي عارضتها، وفي رأي أنصارها ومُعارضيّ المُعارِضين لها، أن كلّ مَن اعترضَ على سياسات حكومته عميلٌ لأعدائها، أميركيّ لم يعد له الحقّ في أن يدعو نفسه أميركياً. كلّما رأوا مخالفاً آخرَ لرأيهم يعرض نفسه لخطر خمس سنوات سجن حين إحراقه بطاقة تجنيده، صرخوا بـ*خائن* و*وسَخ شيوعي*، في حين كان فيرغسون يحترم أولئك الفتيان، ويعدّهم من بين الأكثر شجاعة، أكثر الأميركيين مبدئيةً في طول البلاد وعرضها. كان معهم بكلّ ما أوتيَ، وسيتظاهر ضدّ الحرب إلى أن يرجع آخر جندي إلى البلاد، لكنه لا يستطيع أن يكون واحداً منهم، لن يقف إلى جوارهم، بسبب إبهام كفّه اليسرى المقطوع، الذي أعفاه من التهديد الذي سيواجه زملاءه في الدراسة عندما يتخرّجون ويُطلبون للفحص الطّبّيّ العسكري. رفض التجنيد ليس شأنَ المشوّهين أو المعوقين، بل شأن الأصحّاء، الذين سيُصنَّفون كأدوات عسكرية صالحة، ولماذا يجازف ويذهب إلى السجن بسبب بادرة لا جدوى تُرجَى منها؟ إنه بقعة أكثر وحشة من أن تكون فيها، كما شعرَ دائماً، وكأنه مَنفيٌّ قد نُفيَ حتّى من المنافي، وبذلك لا معنى لمتجرّد من ملابسه أن يكون ما كان عليه، ولكنْ، شاء أم أبى، فإن حادث السّيّارة قد أعفاه من معركة المستقبل في أن يقاوم أو يتخفّى، وحيداً وسطَ معارفه، ليسن عليه العيش في الخوف من الخطوة التالية، وذلك ما ساعده بالتأكيد على البقاء واقفاً على قدميه في الوقت الذي فقدوا فيه توازنهم، وتهاووا، إذ إن البلاد قد انشقّت بطبيعة الحال إلى قسمين في أيلول وتشرين الأوّل 1965، منذ تلك المرحلة فصاعداً سوف يتعذّر على المرء أن يقول كلمة أميركا دون أن يتذكّر كلمة جنون.

كان يجب أن ندمّر القرية بغرض إنقاذها.

ثمّ، في التاسع من تشرين الثاني، بعد أسبوع على انتحار نورمان موريسون على أرض تابعة للبنتاغون، بالكاد قبل ستّة أسابيع من إكمال فيرغسون فصله الأوّل في كولومبيا، حين كان لا يزال يتلمّس طريقه للأمام دون أن يتأكّد بعد إن كانت الجامعة هي ذلك الأمر العظيم كلّه الذي يُحكى عنه، انطفأت الكهرباء في نيويورك. كانت الساعة 5:27 مساء، وفي غضون ثلاث عشرة دقيقة، كانت منطقة مساحتها ثمانين ألف ميل مربّع من شمال شرق الولايات المتّحدة قد باتت بلا كهرباء، تاركة أكثر من ثلاثين مليون إنسان في الظلام، من بينهم ثمانمائة ألف من ركّاب قطارات الأنفاق في طريق عودتهم من العمل إلى بيوتهم. فيرغسون سيّئ الحظّ، الذي بدا أنه أتقن فنَّ أن يكون في المكان الخطأ وفي الوقت الخطأ حينذاك، كان وحيداً في المصعد المتّجه إلى الطابق العاشر من كارمان هول. كان عائداً إلى سكنه الجامعي، ليترك بعض الكُتُب، ويرتدي سترة أثقل من التي يلبسها، لكنه لم يشأ البقاء في الغرفة أكثر من دقيقة، إذ كان وإيمي متفقين على طبخ عشاء السباغيتي في شقّتها عند السادسة مساء، وبعدها سيقرأ بحثاً تاريخياً فرغتْ هي منه في تلك الظهيرة، خمس عشرة صفحة حول شغب ساحة هايماركت سنة 1866، بمثابة خدمة تحريرية يقدّمها كلّما كتبتْ بحثاً، لأن ذلك يبعث لديها شعوراً *بثقة أكبر*، قالت، وإذا كان يمكنه الاطّلاع على شغلها قبل أن تناوله الدراسة. ثمّ سيقبيان جالسين معاً على الصوفا في غرفة الجلوس لساعتين، يحضّران دروسهما لصفوف يوم الغد (ثوسيديديس لـ فيرغسون وجون ستيوارت ميل لـ إيمي)، وبعد ذلك، إذا كانا في مزاج رائق، فسوف يتمشّيان على برودواي إلى غربي إند بار لشرب زجاجة بيرة أو اثنتين، وربّما التّحدّث إلى بعض أصدقائهما إذا حدث وكان أحدهم هناك، وحين يكتفيان من الجلوس في البار، سيعودان إلى الشّقّة لقضاء ليلة أخرى في فراش إيمي الصغير، لكنْ، المريح بشكل مذهل.

لم يكن متأكّداً أيهما سبق الآخر، أتوقُّفُ المصعد الفجائي أو انطفاء الأضواء، أم أن كلا الأمرين حدثا معاً، الفرقعة الخاطفة لمصابيح الضوء في الأعلى والتّرنّح العنيف لمقصورة المصعد من الجهات كلها، هسيس تبعته خبطة عنيفة، خبطة عنيفة تبعها هسيس، أو الهسيس مع الخبطة العنيفة معاً، لكنْ، على أي حال حدث ذلك، حدث ذلك بسرعة، وخلال ثانيتين تلاشت الأضواء، وتوقّف المصعد عن الحركة. علقَ فيرغسون في مكان ما بين الطابق السادس والسابع، وهناك سيبقى لثلاث عشرة ساعة ونصف الساعة، وحيداً في الظلام دون أن يفعل شيئاً سوى أن يتفحّص ما في رأسه من أفكار، ويأمل بأن تعود الكهرباء قبل أن تخذله مثانته.

من البداية، أدرك أنها لم تكن مشكلته وحده، بل مشكلة الجميع. كان الجميع يتصايحون في أرجاء المبنى - انقطعت الكهرباء! انقطعت الكهرباء! - وبالقدر الذي استطاع فيرغسون تكهّنه، لم

يكن ثمّة ذعر في أصواتهم، إن كان هناك حدثٌ ما لأصبحت نبرة أصواتهم أكثر ضجيجاً وتلوّناً، رشقة ضحك عاتٍ كانت ترتفع من بئر المصعد، ويتردّد دويّها على جدران المقصورة، الرتابات القديمة المملّة فقدت جدواها، شيء ما جديد غير متوقّع قد هبط من السماء، مذنّب أسود كان يندفع كلمح البصر عبر المدينة، فلنحتفلْ ونصخب بأقصى ما لدينا! ذلك شيء جميل، فكّر فيرغسون، وكلّما طال أمدُ البهجة، أعانته أكثر على إبعاد الهلع عن نفسه، وحيث أن لا أحد خائف، لماذا يجب أن يخاف؟ - حتّى لو كان حبيسَ صندوق معدني، ولا يستطيع رؤية أكثر ممّا يراه أكثر العميان عماءً في ليلة شتائية، لا أنجم فيها في القطب الشمالي، حتّى لو شعر أنه رهين نعش، وقد يموت من الجوع قبل أن يتمكّن من الانسلال خارجه.

خلال دقيقتين أو ثلاث دقائق، بدأ بعض من أكثر الطلاب ضميراً يخبطون أبواب المصعد سائلين إن كان هناك أحد في داخلها. نعم! ردّت بعض الأصوات، واكتشف فيرغسون أنه ليس سيّئ الحظّ الوحيد الذي تقطّعت به السُّبُل في منتصف الهواء، فكلا المصعدين كانا قيد الاستخدام، لكن الصندوق الآخر احتوى ستّة أشخاص بينما كان فيرغسون وحيداً، ليس محبوساً وحسب كما كان الآخرون، بل أُلقي في حبس انفرادي، وحين صاح فيرغسون باسمه ورَقْم غرفته (4B 101)، أجابه صوت: آرتشي! يا لكَ من أبله! الذي ردّ عليه فيرغسون: تيم! كم سيستغرق ذلك؟ كانت إجابة تيم أقلّ من مشجّعة: مَنْ، بحقّ الجحيم، يدري؟

ليس هناك ما يمكن فعله. سيكون عليه الجلوس حيث هو وينتظر الخلاص، السّيّد ميشاب المتلعثم الذي كان في طريقه إلى شقّة صديقته عندما تحوّل بمحض المصادفة إلى التجربة رَقْم 001، الآن حبيسَ خزانِ حرمان حسّيّ معلّق على ارتفاع ستّة طوابق ونصف فوق الأرض، الـ هاري هوديني من رابطة اللبلاب، الـ روبنسون كروزو من مدينة نيويورك ومنطقة العاصمة الكبرى، ولو لم يبدُ مخيفاً إلى درجة كبيرة أمرُ أنه (محفوظ) ضمن تلك الزنزانة حالكة العتمة، لكان سيضحك على نفسه، ويقدّم انحناءة لكونه المغفّل الهزلي رَقْم واحد، المغفّل *الكونيّ* رَقْم واحد.

قرّر أنه سيكون عليه التّبوّل في بنطاله. إذا، وحين، يصبح من الضروري تفريغ مثانته، وسيكون عليه الارتداد إلى تمارين الانغماس بالذات التي تعود لفترة أوّل المشي بدلاً من الانكباب على الأرض، ليجد نفسه - على مدى الساعات التي لم يُعرف عددها - جالساً في بركة بولٍ بارد رجراج.

لا سجائر، ولا ثقاب أيضاً. كان التدخين سيساعد على تزجية الوقت، والثقاب سيمكنه من رؤية شيء ما بين الحين والآخر، لا أن يتحدّث إلى رؤوس السجائر المتوهّجة كلّما عبَّ منها، لكن السجائر والثقاب نفدت لديه قبل حلول ظهيرة اليوم، وكان في نيّته شراء علبة جديدة في

طريقه إلى العشاء في مطعم سباغيتي شنايدرمان على غربي الشارع 111. *في الحلم، أيّها الرجل المضحك.*

كان من المستحيل أن يتأكّد ما إذا كانت الهواتف تعمل، لكنها تعمل في أحوال الحظّ الشحيح، نادى تيم من جديد، يريده أن يطلب من شريكه في الغرفة أن يتّصل بـ إيمي ويخبرها عن ما حدث له، كي لا تقلق عندما لا يأتي في السادسة، لكن تيم لم يعد هناك، وعندما نادى فيرغسون مرّة أخرى، لم يجب أحد. خفتَ الهرج والضحك في الدقائق الأخيرة، تشتّت التّجمّعات في الأروقة، ولا شكّ أن تيم قد صعد على الأعلى، ليدخّن بعض الحشيش مع أصدقائه الحشّاشين في الطابق العاشر.

الظلمة كثيفة في الحجرة، شديدة الانفصال عن كل شيء، بالغة الانتباذ عن العالم أو ما تخيّل فيرغسون دائماً أنه العالم ذلك أنه يفسح ببطء لاحتمال أن يسأل نفسه إن كان لا يزال في داخل جسده الخاصّ.

تذكّر ساعة المعصم التي أهداها له أهله في عيد ميلاده السادس، ساعة طفل صغيرة بطوقها المعدني المرن، وأرقامها التي كانت تتوهّج في الظلام. كم كانت مريحة تلك الأرقام الخضراء المضيئة بالنسبة إليه كلّما استلقى في السرير قبل النوم، وأطبق عينيه، وجذبه أصدقاؤه الفوسفوريون إلى ما تحت الغطاء، ثمّ تواروا في الصباح مع شروق الشمس، أصدقاء في الليل وفي النهار مجرّد أرقام مَطلية، أما وقد كفّ عن استخدام ساعة اليد، فقد تساءل عن ما حدث لهدية عيد الميلاد القديمة تلك؟ وأين يمكن أن تكون الآن؟ ليس هناك ما يمكن رؤيته بعد الآن، ولا إحساس بالزمن بعد الآن أيضاً، لا سبيل لمعرفة أنه قد مضت عشرون أو ثلاثون أو أربعون دقيقة أوساعة على وجوده في المصعد.

غولواز. كانت تلك هي السجائر التي عزم على شرائها في أثناء سيره على برودواي، الصنف الذي بدأ وإيمي يدخّنانه خلال رحلتهما إلى فرنسا في الصيف، سجائرُ التبغ القويّ البنّيّ العريضةُ في علبتها الزرقاء الشاحبة من دون سيلوفان يغلّفها، أرخص السجائر الفرنسية، ومجرّد أن يشعل لفاقة الغولواز في أميركا الآن، فذلك يعني أنه يعود إلى النهارات والليالي التي أمضياها في ذلك العالم الآخر، رائحة دخان الغولواز الشبيهة برائحة السيجار الكبير كانت مختلفة للغاية عن روائح التبغ الأشقر كالذي في سجائر الجمل ولاكي سترايك وتشسترفيلد حتّى إن مجّةً واحدة من الغولواز، زفرة واحدة قد تعيدهما إلى الغرفة 18 في فندقهما الصغير على الجهة المقابلة للسوق، وفجأة سيطوف ذهناهما عبر شوارع باريس من جديد، وهما يعيشان السعادة التي عاشاها معاً هناك، السجائر كرمز لتلك السعادة، للحبّ الجديد والحبّ الأكبر الذي ربط

بينهما خلال الشهر الذي أمضياه في الخارج، ويمكن أن يتجلّى هذا الحبّ الآن بتلك الأفعال كأن تحضّر للقاءات مفاجئة مع شعراء طلاب داعرين كالهدية التي تمثّلت بالعضو الجديد في كتيبة قيء مورننغسايد هايتس، مباركةٌ إيمي وموهبتها للبادرة التي لم يتسنّ التّنبّؤ بها، لبديهيتها السريعة كالبرق، ولقلبها الذكي والسّخيّ.

خاتلَ فيرغسون إغواءُ قبول العرض الذي اقترحه لِسْ فيرسل شيئاً من نتاجه إلى كولومبيا ريفيو، لكن شهراً ونصف الشهر قد مضى على ذلك العرض، ومع ذلك لم يذهب ويقرع بابه. ليس الأمر أنه كان سيعطي لِسْ واحدة من قصائده الجديدة، التي شكّلت بمجملها خيبة بالنسبة إليه، وليست تستحقّ النشر، بل لأن الترجمات التي بدأها في باريس قد باتت الآن مغامرةً أكثر جدّيّة، وبعد الرجوع إلى قواميس مختلفة ساعدتْه في تطوير لغته الفرنسية، وهي بطبيعة الحال تكاد تكون مكتملة (Le Petit Robert Larousse Illustré، French- to- English Harrap's فلم يعد يخطئ قراءة الأبيات وارتكاب الأخطاء الفادحة، وشيئاً فشيئاً بدأت نسختاه المترجمتان من أبولينير وديسنوس تلوحان كقصائد إنكليزية بدل أن تكون قصائد فرنسية، إذ دُفعتْ بقوّة في فرّامة لحم لغوية، فخرجت باللغة (الفرنكليزية)، لكنها لم تصبح جاهزة بعد، هناك جهد يجب أن يُبذَل، كي تصبح في أحسن حال، ولا يريد أن يقرع الباب حتّى يشعر بالاطمئنان إلى كلّ كلمة وكل سطر من هذه المفاخر الشِّعْرية، التي أُعجب بها من أعماقه حتّى إنه لن يضنّ في سبيلها بكل ما يمتلكه، ويعيد التأكيد: بكل ما يمتلكه. لم يكن واضحاً أن المجلّة قد ترضى بنشر الترجمات، لكن الأمر يستحقّ بذل الجهد، كي يعرف ذلك، من حيث إن المجلّة قد جذبت بعض أهمّ المستجدّين المثيرين للاهتمام الذين التقى بهم حتّى الآن، وأن يكون فيرغسون نفسه واحداً من أقلام المجلّة، فسيتيح له ذلك توحيد الجهود مع الشعراء وكتّاب النثر مثل ديفيد زيمر، دانيال كوين، جيم فريمان، آدام ووكر وبيتر آرون، وكلهم في اختصاصات مختلفة في دفعته الدراسية نفسها، وقد قرأ لهم خلال الأسابيع السّتّة الماضية ما يكفي لأن يعرف كم هم أذكياء، ويستحقّون القراءة، كتّاب مبتدئون بدا أنهم امتلكوا الزاد، كي يستمرّوا ويصبحوا شعراء وروائيين حقيقيين ذات يوم، ولم يكونوا لمّاحين وموهوبين بضراوة وحسب، قيء طلاب السنة الأولى، بل إن كلاً منهم قد بدأ الرحلة خلال أسبوع تعريف المستجدّين دون أن يعتمر قبّعة الجامعة.

بالنسبة إلى فيرغسون، لا مزيد من القصائد، على الأقلّ ليس في هذه الآونة وتحت أي ظرف من الظروف، وحتّى لو بدأت المغامرة من جديد في المستقبل، إلا أنه في الوقت الراهن لا يمتلك خياراً إلا بأن يفكّر في نفسه كـ *شاعر في طور التعافي*. كان المرض الذي التقطه في

منتصف مراهقته قد أصابه بحمّى دامت سنتين، أنتج خلالها ما يقارب المائة قصيدة، لكن فرانسي تسبّبت بحادث السّيّارة في فيرمونت، وفجأة توقّفت القصائد عن المجيء، لأسباب تتعلّق بأنه لا يزال عاجزاً عن فهم شعوره بالاحتراس والخوف منذ ذلك الحين، والقصائد القليلة التي نجح في كتابتها، لم تكن جيّدة، أو ليست جيّدة ما يكفي، بل ليست جيّدة كما يريد بأي معيار من المعايير. كانت الكتابة الصحافية قد صانته من الوصول إلى طريق مسدود، لكن جزءاً منه فقد بطءَ الكدح الشِّعْريّ، الإحساس بأنه يُجرَف ويُلقَى به أرضاً، كي يتذوّق التراب بفمه، وبذلك يكون قد اتّبع نصيحة باوند إلى الشعراء الشباب، وجرّب حظّه في الترجمة. في البداية، نظر إلى الأمر على أنه ليس أكثر من تمرين على البقاء في فلك القصيدة واللغة، نشاط يجلب له ما في الكتابة الشِّعْرية من متعٍ خالية من المنغّصات، والآن وقد أصبح في داخلها منذ زمن، أدرك أن الأمر يتجاوز ذلك بكثير. إذا أحببتَ القصيدة التي تترجمها، إذاً فإن تفكيك تلك القصيدة، ثمّ إعادة تكوينها كلاً جديداً بلغتكَ هو فعلُ تفانٍ، طريقة احتفاءٍ بالمعلِّم الذي وهبكَ الشيء الجميل الذي تحمله في يديكَ، والمعلّم الكبير أبولينير والمعلّم الصغير ديسنوس قد كتبا قصائدَ، رآها فيرغسون جميلة وجريئة ومشغولة بطريقة مذهلة، كلّ واحدة منها مشبعة بروح السوداوية والبهجة في الآن نفسه، التركيبة النادرة التي رافقت النبض المتنافر في الحرب داخلَ قلب فيرغسون ابن الثمانية عشر عاماً، لذلك واظب عليها فيما تبقّى له من وقت إضافيّ، استطاع أن يخصّصه لنفسه، ليعيد العمل، يعيد التفكير، ويعيد تهذيب ترجماته حتّى تصبح مُحكَمَةً ما يكفي لأن يأتي ويقرع الباب.

كان البابُ بابَ 303 فيريس بووث هول، مركز النشاطات الطلابية الذي يقع قبالة سكنه الجامعيّ في الجهة الجنوبية الغربية من الحرم الجامعي، المبنى الذي هو رهينه الآن، ومفترضاً أنه لم يفقد صوابه في العتمة أوّلاً، فسيكتب عن تلك التجربة، إذا أُتيح له الخروج سالماً منها، يكتب نوعاً من مقالة ذكية ومستفِزّة بصيغة المتكلّم، تنشرها صحيفة *كولومبيا ديلي سبيكتيتر*، لأنه كان عضواً في الهيئة الآن، واحد من الأربعين طالباً الذين اشتغلوا في صحيفة الطلبة دون تدخّل من إدارة الجامعة أو رقباء الكلّيّات، الذي رغم ذلك لم يمنحه الجرأة لقرع باب الغرفة 303، دخل إلى المكتب الرئيس في نهاية البهو في اليوم الثاني من أسبوع تعريف المستجدّين بالمكان، الغرفة 318، وكان قد أخبر الشخص المسؤول أنه يريد الانضمام. وهذا ما كان في الأمر. لا فترة تدريب، لا مقالات اختبار، لا حاجة لأن يُطلعهم على الموادّ التي كتبها لـ مونتكلير تايمز - فقط امضِ واشتغلْ، وإذا التزم بمواعيده، وأثبت أنه صحفي كفؤ، فسيكون ضمن أسرة الجريدة. *auf wiedersehen، Herr Imhof* وداعاً، *سيّد إمهوف*!

كانت المقالات الصحفية المسموحة للمستجدّين، تتعلّق بالشؤون الأكاديمية، والنشاطات الطلابية، والرياضة، وتغطيات للمجتمع المحيط، وعندما قال فيرغسون، *لا رياضة، من فضلكَ، أي شيء إلا الرياضة*، سلّموه مسؤولية النشاطات الطلابية، التي استلزمت إيداع مقالتين في الأسبوع بشكل وسطي، معظمها قصيرة، بالكاد نصف المقالة التي اعتاد كتابتها عن مباريات كرة السّلّة والبيسبول للمدارس في السنة الماضية. كانت مشاركاته حتّى الآن قد استعرضت عدداً من المسائل السياسية التي شملت قضايا الجناحين اليساري واليميني، خطّة لجنة الثاني من أيّار لتشكيل ائتلاف مناهض للتجنيد على أرض الحرم الجامعي لمجابهة ما أسموه "حرب الإبادة المجحفة،" وأيضاً مقالة عن جماعة من الطلبة الجمهوريين الذين قرّروا دعم ترشيح وليام ف. باكلي لمنصب العمدة، لأن العمدة الحاليّ، جون لينساي، "قد انزاح عن مبادئ الحزب الجمهوريّ." المقالات الأخرى، التي أسماها فيرغسون *أشياء خفيفة وطفيفة*، قد ورّطته في بعض المسائل الجامعية محدودة الأفق، مثل الثلاثة عشر مستجدّاً الذين بقوا دون سكن جامعيّ بعد ثلاثة أسابيع من بداية الفصل الأوّل، أو المسابقة لإطلاق اسم على المقهى في جون جاي هول، الذي كان يقدّم الآن "أطعمة شهية على شاكلة كافتيريا هورن وهاردات،" مسابقة بإشراف خدمات الطعام في الجامعة التي ستُكافِئ الفائز بوجبة مجّانية لشخصين في أي مطعم داخل نيويورك. الآن، في الأيّام التي سبقت انطفاء التّيّار الكهربائي، كان فيرغسون مُنكبّاً على قصّة، تتضمّن مستجدّةً، تواجه تعليق الدراسة، لأنها استقبلت ضيفاً ذكراً في غرفتها في ساعة غير مسموح بها بموجب قانون الجامعة، حيث سمحت سياسة الحرم بزيارة الرجال بعد ظهر الأحد فقط بين الثانية والخامسة، وضيف المتّهمة كان معها في الواحدة فجراً. البنت، التي كان اسمها طَيّ الكتمان ولم يُسمَح بذكره في المقال، شعرت بأن الحكم غير عادل "لأن الآخرين يفعلون ذلك، لكنني الوحيدة التي أُمسك بها." لا عجب أن إيمي قد كذبت وغشّت، كي تجد طريقها للسكن خارج هذه السجون الجامعية عندما كانت مستجدّة. كتبَ الصحفي أ. ي. فيرغسون المادّة بشكل مقالة إخبارية مباشرة، إذ كان مجبرَاً على ذلك، لكن الزميل الطالب في السنة الأولى آرتشي فيرغسون تمنّى لو استطاع الدفاع عن البنت باقتباس اللازمة من قصيدة لِسْ غوتسمان، ووضعها كجملة أولى في مقالته.

دعِ الوقائع تتحاور فيما بينها.

كان عمل الجريدة يتضمّن كِلا الانخراط في العالم والانسحاب من العالم. إذا شاء فيرغسون إنجاز عمله على أكمل وجه، فعليه أن قبول عناصر المفارقة وتعلّم التعايش مع الازدواجية: الحاجة إلى الغوص في السميك من الأشياء، ومع ذلك البقاء على الحدود الجانبية كمراقب

محايد. لم يخذله الغوص في أن يثيره - سواء كان الغوص السرعة العالية أو الكتابة عن كرة السّلّة أو الحاجة إلى تنقيب أبطأ وأعمق لتقصّي القوانين الباطلة والجوانية التي تحكم دراسة المرأة الجامعية - لكن الكبح كان مشكلة كامنة، كما شعرَ، أو على الأقلّ شيئاً ما عليه أن يتكيّف معه، كي يتجاوز الأشهر والسنوات القادمة، إذ إن عهد الصحافيّ المتمثّل في النزاهة والموضوعية لم يكن مثل اتّباع تعاليم الرهبان وقضاء بقية الحياة في دَيْرٍ زجاجي - منسلخاً عن عالم الشؤون البشرية حتّى لو استمرّت بالجريان حول المرء من الاتّجاهات كافّة. أن يكون المرء صحافياً لا يعني أنه باستطاعته قذف الحجارة عبر النافذة التي بدأت الثورة. يمكنه التّفرّج على رجل يُلقي الحجارة، ويمكن للصحافي محاولة فَهْم دوافعه لإلقاء الحجارة، يمكن له أن يشرح للآخرين ما مدلول الحجر في إطلاقه الثورة، لكن الصحافي لا يستطيع إلقاء الحجارة، ولا حتّى الوقوف مع الحشد الذي يهيب بالرجل أن يقذفها. مزاجياً، لم يكن فيرغسون شخصاً ميّالاً إلى قذف الحجارة. كان، كما أملَ، شخصاً يقارب المنطقيةَ، لكن الاستثارة في المرّات، حيث بدأت موجبات عدم إلقاء الحجارة بأن تصبح أقلّ منطقية. وعندما تأتي اللحظة في نهاية الأمر، كي تقذف بالأولى، فإن تعاطف فيرغسون سيكون مع الحجر، وليس مع النافذة.

سرَح بذهنه قليلاً، غاص في عدم الظلام اللامتناهي من حوله، ولحظة خرج من شروده الذهني، وجد نفسه يفكّر بالأسطر الأخيرة من ترجمته لقصيدة قصيرة، كتبها ديسنوس:

في مكان ما من العالم

عند موطئ جبلٍ

يتحدّث *فأرٌ إلى حرّاسٍ*

لا يفهمون *لغتَه.*

ثمّ، بعد أربع ساعات من الاحتجاز في الصندوق الأسود، انفلشت مثانته عليه، وبلّل بنطاله بالطريقة نفسها التي يفعلها طفل صغير مبتسم، دون ذنب، في الحفّاضات. يا له من شيء مخزٍ ما فعلته! قال في نفسه، وقد جرى السائل الدافئ من تحت بنطاله وسرواله القصير - لكنْ، أيضاً، في الوقت نفسه، كم مريح أن تُفرغِ مثانتكَ بدل الامتلاء.

تذكَّرَ التّبوّلَ مع بوبي جورج ذات ظهيرة في حديقة جورج الخلفية عندما كانا في الخامسة من عمرهما وبوبي يلتفت إليه ويسأله: آرتشي، إلى أين يذهب هذا كلّه؟ ملايين البشر وملايين الحيوانات تبوّل منذ ملايين السنين، فلماذا لم تتشكّل المحيطات والأنهار من البول بدلاً من الماء؟

كان سؤالاً لم يستطع فيرغسون الإجابة عنه.

لقد وقّع صديقه القديم عقداً مع أوريولز بالتيمور في اليوم التالي لتخرّجه في الثانوية، وفي آخر مقال كتبه فيرغسون في حياته لـ مونتكلير تايمز علّق على الأربعين ألف دولار التي جاءت ضمن العقد مع قرب مغادرة بوبي إلى أبردين، ميريلاند، حيث سيبدأ كمتَلَقٍّ للكرة في فريق الدرجة الأولى ضمن موسم أوريولز القصير، دَوري نيويورك - بِنّ. كان الولد قد نجح في كسب سبع وعشرين مباراة في ذلك الصيف (والمضرب .291) قبل أن تدعوه لجنة التجنيد للفحص الطّبّيّ، ودون امتلاكه وثيقة تأجيل للطالب تحميه من خدمة بلاده *الآن* بدلاً من أربع سنوات من *الآن*، اقتيد إلى جيش الولايات المتّحدة في أواسط أيلول، ويوشك الآن على إنهاء تدريبه الأساسي في فورت ديكس. ابتهل فيرغسون، لعلّ بوبي يُرسَل إلى ألمانية الغربية، حيث يلبسونه زيَّ البيسبول، ويتركونه يلعب على مدى السنتين القادمتين كطريقة لأداء واجبه الوطنيّ، لأن فكرة تخبّطِ بوبي جورج الصغير في أدغال فييتنام وبندقيته على ظهره كانت منفّرة لـ فيرغسون، وإلى حدّ بعيد، وجد الفكرة غير قابلة للتصديق.

كم من الوقت ستستمرّ الحرب؟

لوركا، صريع فصيل الإعدام الفاشيّ وهو بعمر الثامنة والثلاثين. أبولينير، مات في العمر نفسه بالإنفلونزا الإسبانية قبل ستّ وأربعين ساعة من نهاية الحرب العالمية الأولى. ديسنوس، قتله التيفوئيد في الرابعة والأربعين في ثيريسنشتات بعد أن تحرّر المعتقل بأيّام.

غطّ فيرغسون في النوم، وحلم بـ *'أنه كان يحلم'* بأنه ميت.

عندما تمّ إصلاح عطل الكهرباء في السابعة من صباح اليوم التالي، جرجر أقدامه نحو غرفته في الطابق العاشر، خلع ملابسه المبلّلة، ووقف تحت رشّاش الحمّام لخمس عشرة دقيقة.

في اليوم السابق، بلّل آلن لابورت ابن الاثنين وعشرين عاماً ملابسه بالبنزين، وأشعل النار في نفسه أمام مكتبة داغ همرشولد في الأمم المتّحدة بحروق من الدرجة الثانية والثالثة شملت خمسة وتسعين بالمائة من جسده، وقد أُسعف إلى مشفى بيلفيو، لم يزل واعياً وقادراً على الكلام. كانت كلماته الأخيرة: أنا من حركة العمّال الكاثوليك. أنا ضدّ الحرب، والحروب كلها. فعلتُ ذلك كواجب دينيّ.

مات بعد وقت قصير من نهاية فترة الظلام.

العلوم الإنسانية للمستجدّين (مقرّر). الفصل الدراسي الخريفي: هوميروس، إسخيلوس،

سوفوكليس، يوريبيديس، أرسطوفانيس، هيرودوتوس، ثوسيديديس، أفلاطون (ندوة)، أرسطو، فرجيل، أوفيد. والفصل الدراسي الخريفي: أسفار متنوّعة من العهدين القديم والجديد، أوغسطين (*الاعترافات*)، دانتي، رابيليه، مونتين، سرفانتس، شكسبير، ميلتون، سبينوزا (*علم الأخلاق*)، موليير، سويفت، دوستويفسكي.

(الحضارة المعاصرة - مقرّر) للمستجدّين. الفصل الدراسي الخريفي: أفلاطون (*الجمهورية*)، أرسطو (*الأخلاق النيقوماخية، السياسة*)، أوغسطين (*مدينة الله*)، مكيافيللي، ديكارت، هوبز، لوك. الفصل الدراسي الربيعي: هيوم، روسو، آدم سميث، كانط، هيغل، ميل، ماركس، داروين، فورييه، نيتشه، فرويد.

دراسات في الأدب. الفصل الدراسي الخريفي (بدلاً من مقرَّر مادّة الإنشاء للمستجدّين بسبب علامة الـ F.'s الجيّدة في امتحان الـ A.P.(*)): حلقة بحث تركّز على دراسة كتاب واحد - *تريسترام شاندي*.

الرواية الحديثة. الفصل الدراسي الربيعي: حلقة متعدّدة اللغات مع كُتُبٍ تُقرأ بالتناوب بالإنكليزية والفرنسية - ديكنز، ستاندال، جورج إليوت، فلوبير، هنري جيمز، بروست، جويس.

الشِّعْر الفرنسي. الفصل الدراسي الخريفي - القرن التاسع عشر: لامارتين، فينيه، هوغو، نرفال، موسيه، تيوفيل غوتييه، بودلير، مالارميه، فيرلين، كوربييه، لوترايامون، رامبو، لافورغ. الفصل الدراسي الربيعي - القرن العشرون: بيغي، كلوديل، فاليري، أبولينير، جاكوب، فارغ، لاربو، سنرارس، بيرس، ريفيردي، بريتون، آراغون، ديسنوس، بونج، ميشو.

لم يستغرقْه الأمر طويلاً، ليقرّر أن أفضل ما في كولومبيا هو المقرّرات والأساتذة والزملاء الطلاب. كانت قوائم القراءة فخمة، الصفوف صغيرة يتولّى أمرها أعضاء الكلّيّة لفترة انتقالية ممّنْ يمتلكون الاهتمام والسعادة بتدريس طلاب السنوات الأولى، وكان الطلاب الآخرون أذكياء، جيّديّ الإعداد، ولا يهابون التّحدّث بوضوح في الصّفّ. تحدّث فيرغسون القليل، لكنه تشرّبَ كلَّ ما نُوقش في حصص الساعة والساعتين تلك، يغمره الشعور بأنه وطئ نوعاً من فردوس ثقافيّ، ولأنه سرعان ما فهم أنه على الرغم من الكُتُب العديدة التي قرأها في السنوات العشر أو الاثنتي عشرة الماضية لا تزال معرفته قريبة من اللاشيء، قرأ بجدّ النصوص المطلوبة كلها، مئات الصفحات كلّ أسبوع، أحياناً أكثر من ألف، يتعثّر بين حين وآخر، لكنه على الأقلّ يتصفّح الكُتُب والقصائد التي استعصت عليه (*ميدلمارش*، *مدينة الله*، والتباهي الكئيب من بيغي، كلديل، وبيرس) وفي أوقات معيّنة، كان يُنجز أكثر ممّا يُطلَب منه (الإيغال في دون كيخوته

(* Advanced Placement examinations

عندما تُفضي محصّلة الاختيارات إلى نصف الكُتُب المقرّرة - لكنْ، كيف للمرء أن لا يقرأ كلّ تلك الكُتُب الأفضل والأكثر عظمة من سائر الكُتُب؟). مضى أسبوعان في الفصل الدراسي الخريفي، حضر والداه بسيّارتهما من نيوارك، وصحباه إلى العشاء مع إيمي في الـ غرين تري، المطعم الهنغاري الرخيص على شارع أمستردام الذي كبرَ فيرغسون وهو مولَع به حتّى إنه غيّر اسمه إلى *يامْ سيتي*، وعندما بدأ الحديث عن مدى استمتاعه بدروسه في الجامعة، وكم هي مذهلة ذلك أن شغله الشاغل في الحياة الآن أن يقرأ ويكتب عن الكُتُب (!)، حكتْ له أمّه قصّة *المغامرة الكبرى* خاصّتها خلال الأشهر التي سبقت مولده، سجينة الفراش دون شيء تقوم به سوى القراءة، الكُتُب الممتازة كلها التي اقترحتها ميلدرد، عشرات الكُتُب التي أحضرها لها ستانلي من المكتبة، والتي لا تزال تتذكّرها حتّى اليوم، الكثير منها يلحّ على الذاكرة بشكل جيّد بعد تلك السنين كلها، وحيث إنه ليس بوسع فيرغسون أن يتذكّر أنها قرأت شيئاً باستثناء حفنة من روايات التشويق وبعض الكُتُب حول الفنّ والتصوير الضوئي، إلا أنه تأثّر بتخيّله لأمّه الشّابّة التي تنتظر ولداً، وتتمدّد وحيدة طوال النهار في شقّة نيوارك الأولى مع روايات تكوّمت أمام بطنها الآخذ بالنموّ، الانتفاخ تحت جلدها الذي لم يكن سوى هو *'نفسه' التي لم تُولَد بعد*، ونعم، قالت أمّه وهي تبتسم ابتسامة حنونة، إذ تذكّرت تلك الأيّام البعيدة، كيف لا تحبّ الكُتُب بعد الكُتُب كلها التي قرأتُها حين كنتُ حاملاً بكَ؟

ضحك فيرغسون.

لا تضحك، يا آرتشي، قال والده. ذلك ما يقول عنه البيولوجيون *التنافذ*، *الخاصّيّة الأسموزية* *osmosis*.

نظرت والدة فيرغسون حائرة. Psychosis ذهان؟ قالت. عمَّ تتحدّثان؟

ارتحال الأرواح (التّقمّص)، فسّر فيرغسون.

لكنْ، نعم، قالت والدته. هذا ما كنتُ أحاول أن أقوله لكَ. روحي في روحكَ، يا آرتشي. وستبقى أبداً، حتّى بعد أن يغيب جسدي.

لا تفكّري بذلك أبداً، قال فيرغسون. لقد أجريتُ بعض الترتيبات مع الصِّبيةِ في الأعلى، وقد وعدوني بأنكِ ستعيشين للأبد.

صفوف جيّدة، مدرّسون جيّدون، رفاق دراسة جيّدون، لكنْ، ليست جوانب تجربة كولومبيا كلّها كانت سارّة، ومن بين الأشياء التي لم يحبّها فيرغسون كثيراً فيما يتعلّق بالمكان كانت غطرسة رابطة اللبلاب المملّة، قوانينها ذات المظهر المتخلّف والبروتوكولات المتصلّبة، افتقادها

إلى الاهتمام بسعادة طلابها. السلطة كلّها في يد الإدارة، ومن دون معالجة وافية أو مجلس تحقيق نزيه يُشرف على القضايا الانضباطية، يمكنهم طرد الطالب في أيّة لحظة دون أن يحتاجوا للتبرير. ليس الأمر أن فيرغسون كان يستجدي المتاعب لنفسه، ولكن الزمن سيُبرهن أن الآخرين كانوا يفعلون، وحين قرّرت أعداد كبيرة منهم أن تثير المتاعب في ربيع 1968، دخلت المؤسّسة بأكملها في الهياج.

المزيد عن ذلك يأتي فيما بعد.

كان فيرغسون مسروراً لأنه في نيويورك، مسروراً أن يكون مع إيمي في نيويورك إيمي، أخيراً إقامة بدوام كامل في عاصمة القرن العشرين، لكنْ، رغم أنه ملمّ بمحيط كولومبيا، أو ملمّ بعض الشيء بها، فإنه بعد أن أصبح يعيش هناك، بدأ أخيراً يرى مورنينغسايد هايتس على حقيقتها: منطقة فقرٍ ويأس مجروحةٌ ومحطَّمة، كتلة بعد كتلة من الأبنية الرّثّة التي تؤوي معظم شققها الفئران والجرذان والصراصير جنباً إلى جنب مع الناس الذين يسكنون داخلها. الشوارع القذرة غالباً ما كانت مغطّاة بالقمامة التي لم تُرفَع، ونصف المشاة الذين يسيرون في الشوارع كانوا قد فقدوا صوابهم أو يوشكون على فقد صوابهم، أو يتعافون من انهيارات عصبية عقلية. كان الحيّ هو الكيلو متر زيرو بالنسبة إلى الأرواح النيويوركية التائهة، وفي كلّ يوم، كان فيرغسون يمرّ بعشرات الرجال والنساء الغارقين في حوارات بعيدة غير واضحة مع آخرين لامرئيين، أناس لم يوجدوا. المتشرّد ذو اليد الواحدة بكيس التسوّق المتخم، جسده المحنيّ، وقد كاد يطبق على نفسه، وهو يحدّق في الرصيف، ويتمتم بصلاته بصوت واهن خشن. الأقزام الملتحون المتخفّون في مداخل بيوت عديدة على شوارع تتفرّع من أمستردام آفينيو، يقرؤون نسخاً عمرها شهر من *دايلي فوروارد* مع كسرة مسنّنة من زجاج خادع. المرأة السمينة التي حلّقت في الجوار ببيجامتها. على الرقعة التي يقف عليها رجل المرور وسط برودواي، ثمّة السّكّير، العجوز، والمجانين مجتمعون معاً على مقاعد فوق السواتر الشبكية لأنفاق القطارات، يجلسون كتفاً إلى كتف، وكلّ منهم ساهمٌ بصمت في المدى. *نيويورك القذارة. نيويورك الأسلاك والموت*. ثمّ كان هناك الشخص الذي كان يعرفه الجميع باسم يومكي مان، مدمن الحشيش الهرم الذي وقف على ركن أمام تشوك فول أوناتس يدندن كلمات ياوْفيه يمبكيي، مُحاضر في المدرسة القديمة المعروف تمييزاً بـ الدكتور يومكي وإِمْش، يدّعي أنه ابن نابليون، يدّعي أنه مخلّص، ومواطن أميركي أزرق حقيقيّ، لم يذهب إلى مكان إلا وبيده العَلَم الأميركي، الذي سيلفّه حول كتفيه في أيّام البرد، ويستعمله كشال. وبوبي الولد - الرجل الأصلع كرأس الرصاصة، الذي أمضى أيّامه في مهمّات نقل الرسائل الشفاهية إلى مالكي متجر الآلات الكاتبة على تقاطع برودواي والشارع 113، يركض

على الرصيف بذراعيه المفتوحتين متخيّلاً أنه طائرة، يشقّ طريقه داخل وخارج الزحام البشريّ وهو يحاكي هدير محرّك الـ B-52 في أقصى اندفاعة الطائرة. وسام شتاينبرغ الأمرد، الحاضر أبداً سام أسْ.، الذي يستقلّ ثلاثة قطارات أنفاق مختلفة كلّ صباح من برونكس، كي يبيع الحلوى في شارع برودواي أو أمام هاميلتون هول، لكنْ، أيضاً ليبيع الصور البسيطة لحيواناته المتخيّلة المرسومة بقلمه السِّحْري لقاء دولار واحد، وهي أشغال صغيرة على كرتون مغاسل الثياب الذي يأتي مع القمصان المكويّة، ينادي شخصاً ما، وسيصغي إليه، مرحبا، *يا سايّد، لديّ صور جاديدة هنا، صور جاديدة جميلة هنا، الصور الكثير جمييييلة في العالَم*. ولغز فندق هارموني الأكبر، الفندق المتداعي المخصّص للرجال المفلسين، والذي ينهض على تقاطع برودواي مع الشارع 110، البناء الأعلى بين قطاعات المباني التي تجاوره، وقد كُتِبَ على حائط قرميدي بأحرف كبيرة كفيلة بأن تُقرأ على بُعد ربع ميل شعارُ الفندق الذي يصنَّف على أنه السفسطة الأكثر إدهاشاً على الأرض: فندق هارموني - حيث العيش متعة.

كان العالم المصدوع هناك في أقصى شمال الشطر الغربيّ، وقد احتاج الأمر لبعض التكيّف قبل أن يستطيع شدَّ أزْرِ نفسه، فيتحمّل قذارة وبؤس دَوسِ أراضيه الجديدة، لكنْ، لم يكن كل شيء غارقاً في الكآبة في هايتس، شباب يجولون الطُّرُقات، فتيات جميلات من بارنارد وجويليارد غالباً ما يلحنَ في المشهد، يرفرفنَ في أثناء مرورهنّ به كالخدع البصرية أو الأرواح الآتية من المنامات، هناك متاجر كُتُب يمكن للمرء استعراض عناوينها على برودواي بين الشارعين 114 و116، حتّى إن هناك قبواً يبيع كُتُباً أجنبية عند الناصية وتحت الأدراج على الشارع 115، حيث استطاع فيرغسون قضاء نصف الساعة الغريبة ينقّب في قسم الشِّعْر الفرنسي، ثمّ صالتا ثاليا ونيويوركر اللتان عرضتا أجمل الأفلام القديمة والجديدة فقط على مبعدة خمس وعشرين كتلة سكنية إلى الجنوب، كانت إديث بياف على صندوق الفونوغراف داخل مطعم متّسخ الملاعق، اسمه كوليج إنّ، هناك كان باستطاعته أن يملأ معدته بفطور رخيص، ويتحدّث إلى النادلة الجلفة ذات الشَّعْر الأشقر المائل إلى البياض التي تناديه بـ حبيبي، استراحات القهوة في تشوك فول أوناتس، الهمبرغر الذي يطيل العمر في بريكسيز (*همبرغر مدعوم بتعليم جامعي*)، *حساء لحم البقر* وإسبريسو في آيديال، المتجر الكوبي - الصيني على برودواي بين الشارعين 108 و109، وغولاش وزلابية في يام سيتي الهنغاري، المطعم الذي غالباً ما قصده مع إيمي للعشاء ذلك أن الزوج والزوجة المالكين السمينين بدآ يعرضان عليهما أطباق حلوى مجّانية، لكن الغاية الجوهرية من الالتجاء إلى تلك الأحياء المتهتكة كان بار ومشاوي وست إند، على برودواي بين الشارعين 113 و114، بطاولته الضخمة

بيضوية الشكل المصنوعة من خشب السنديان ناعم الطلاء، والمقاعد المخصّصة لأربعة أو ستّة أشخاص موزّعة لصق الجدارين الشمالي والشرقي، والكراسي والطاولات الكبيرة القابلة للحركة في الصالة الخلفية. كانت إيمي قد قدّمته إلى الوست إند في السنة الفائتة، أمّا وقد أصبح فيرغسون بنفسه مقيماً على مدار العام، فسرعان ما أصبح ذلك الجحر القديم بإضاءته الخافتة الدامعة استراحتَه الرئيسة، وقاعة دراسته في النهار ومكان لقاءاته في الليل، وبيتَه الثاني.

لم يستمتع بالبيرة ولا البوربون وحسب، بل كان الحديث، الفرصة أن يتحدّث إلى أصدقائه من الـ *سبيكتاتور* و*كولومبيا ريفيو*، التّحدّث إلى أصدقاء إيمي السياسيين وبقية المتردّدين الدائمين والمتنوّعين إلى وست إند، بكل بساطة كانت المشروبات الركيزة الأساسية السائلة التي يجب أن يرضَعَ منها دائماً منها، كي يستمرّ على كرسيه، إذ كانت المرّة الأولى في حياة فيرغسون التي يحاط بأناس أحبَّ أن يتحدّث إليهم، ليس إيمي وحسب بعد الآن، التي كانت على مدى السنتين الماضيتين محدِّثتَه الوحيدة، الشخص الوحيد في حياته الذي يستحقّ التّحدّث إليه، الآن هناك مختلف الناس، الآن هناك العديد من الناس، والأحاديث التي اشترك فيها وهم داخل الوست إند كانت بالغة القيمة بالنسبة إليه كما كلّ ما كان يُقال في صفوفه داخلَ هاميلتون هول.

كان شباب الـ سبيكتيتور من مجموعة الجادّين الذين يعملون بدأب، منجِزين أكثر ممّا هم قيء، إذا أخذنا بالاعتبار لباسهم وطريقة قصّ شَعْرهم، لكنهم منجِزون بقلوب جماعة القيء، وزملاء فيرغسون المستجدّون من دفعة الـ 69′ كانوا صحافيين مكرّسين بطبيعة الحال، للتّوّ أنهوا دراستهم الثانوية غير أنهم يرسّخون أنفسهم، ويلتزمون بأعمالهم، وكأنهم يعملون في تلك الأمكنة منذ سنوات. الأعضاء الأكبر عمراً في تحرير الـ *سبيكتاتور* كانوا يميلون إلى ارتياد بار آخر يبعد كتلتين سكنيتين على برودواي، الـ غولد رايل، الذي كان صالةً مميّزة بالنسبة إلى فتيان الأخوية والخرقى الرياضيين، لكن المقرّبين إلى فيرغسون فضّلوا جوَّ وست إند الأكثر عتمة، الأقلّ صخباً، ومن بين الثلاثة الذين كانوا ينضمّون إليه أحياناً لشرب شيء ما، والتّحدّث على أحد المقاعد الجانبية، كان الرصين والعميق روبرت فريدمان، الفتى من لونغ آيلاند الذي كان يغطّي الشؤون الأكاديمية، وفي عمر الثامنة عشرة العبثيّ كان يمكنه الكتابة بمهارة أيّ صحفي واحترافه من الـ *تايمز* أو الـ *هيرالد تريبيون*، وغريغ مولهاوس سريع الكلام الآتي من شيكاغو (رياضة)، والعنيد، المستقصي، الساخر الممتعض آلن برانش من سان فرانسيسكو (قضايا المجتمع)، ووافق الجميع على أن مجلس إدارة الجريدة كان محافظاً للغاية، جباناً للغاية في تعاطيه مع السياسات السّيّئة للجامعة بما يتعلّق بالحرب (إفساح الحرمَ للتجنيد العسكري، الفشل في قطع الروابط مع برنامج

تدريب ضبّاط البحرية الاحتياطيين) بالإضافة إلى تكتيكات (مُرابيهم(*)) بطرد المستأجرين الفقراء من شقق الأبنية المملوكة للجامعة إلى مناطق توسّع بعيدة لـ كولومبيا في الأحياء المجاورة، وأما حين يأتي دورهم لاستلام زمام الأمر في الـ *سبيكتاتور* في ربيع سنتهم الأولى، فسينتخبون فريدمان كرئيس تحرير، ثمّ سرعان ما سيعملون على *تغيير كلّ شيء*. أكّدتْ خطط هذا الانقلاب الحاسم ما خلص إليه فيرغسون بطبيعة الحال عن صفّ المستجدّين في تلك السنة. كانوا مختلفين عن الصفوف التي تسبقهم - أكثر حماساً للمواجهة، أكثر برَماً إزاء ما يحدث، أكثر استعداداً للنهوض ومجابهة الغباء والاستسلام والجور. امتلك أولاد ما بعد الحرب الذين ولدوا في 1947 قواسم مشتركة مع أولاد الحرب الذين وُلدوا منذ سنتين أو ثلاث سنوات، صدع عمْريّ قد انفتح في ذلك المدى القصير من الزمن، إذ أن معظم رجالات الطبقة العليا لا يزالون رهيني الدروس التي تعلّموها في 1950، وقد أدرك فيرغسون وأصدقاؤه أنهم كانوا يعيشون في عالم لا عقلاني، بلاد اغتالت رؤساءها، وسنّت القوانين ضدّ مواطنيها، وأرسلت شبابها، ليموتوا في حروب خرقاء، الذي كان يعني أنهم أكثر تفهّماً لوقائع الحاضر ممّا كان عليه كبارُهم. ثمّة مثال صغير، مثال تافه، لكنه، مع ذلك، ليس مثالاً وثيقَ الصلة بالموضوع: معارك القبّعات خلال أسبوع تعريف المستجدّين بالمكان. رفض فيرغسون بشكل فطري أن يرتدي قبّعته، لكن شباب *كولومبيا ريفيو* و*سبيكتاتور* فعلوا الأمر ذاته، وفعلته أعداد كبيرة من الآخرين، وفي صفّ من ستمائة وثلاثة وتسعين طالباً، أطرقَ ثلثهم في الأيّام التي سبقت بدء الدراسة. لم ينظِّم شيء. كلّ فتى معارض للقبّعة قد تصرّف من تلقاء ذاته، مرتعداً لفكرة أن عليه التظاهر حول الحرم الجامعي كمجنّد إلزامي في سريّةِ تويدليدي وتويدليدوم، وعدوى المقاومة قد استشرت حتّى تحوّلت إلى كتلة حركة في الواقع، مقاطعة جماعية، صراع بين التقليد والمنطق السليم. والنتيجة؟ أعلنت الإدارة أنه سيتمّ الاستغناء عن القبّعات من الآن فصاعداً للمستجدّين كلهم في المستقبل. نصرٌ مجهريّ، نعم، لكنه نذير لأشياء ستأتي. اليوم القبّعات - مَن يدري ماذا يأتي به الغد؟

مع نهاية أسبوع عيد الشُّكْر، كان فيرغسون قد راكم كومةً من نصف دزّينة ترجمات بدتْ بالنسبة إليه موشكة على الاكتمال، وحين اجتازت امتحان إيمي كلّيّةِ الحظوة والاهتمام، جمع الترجمات معاً، وضعها في مظروف كبير أسمر، وأرسلها إلى *كولومبيا ريفيو*. عكس ما كان يتوقّع أن يُقال له، لم يكن المحرّرون نافرين من مبدأ تضمين الترجمات في المجلّة - *ما لم تكن طويلة للغاية*، كواحد منهم قال - وهكذا حدث أن سبْك فيرغسون الإنكليزي لقصيدة ديسنوس عن الفارّ والحرّاس، *في مكان ما من العالم*، قد قُبل لدى المجلّة في عدد الربيع، حتّى لو لم يكن

(*) Slumlord : مالك العقارات في الأحياء الفقيرة.

شاعراً مكتمل الريش، يمكنه المشاركة بكتابة الشِّعْر بترجمة القصائد التي كانت أرفع ممّا يستطيع هو كتابته بنفسه، والشعراء الشباب الذين تربطهم علاقة بالـ *ريفيو*، ممّنْ لديهم طموحات عن أنفسهم، تفوق ما لديه تجاه نفسه، الذين يجازفون بكل شيء عندما يجلسون للكتابة بينما هو لا يجازف بشيء حين يجلس ليترجم، تعرف إلى قيمته لدى المجموعة كشخص يمكنه تقييم جدارة أعمال على أعمال أخرى، الذي أدخل منظوراً أوسع وأكثر شمولية إلى محادثاتهم عن الشِّعْر، لكنهم لم يتقبّلوه عضواً في الدائرة الضّيّقة، الذي كان عادلاً بشكل كليّ، كما فكّر فيرغسون، إذ في النهاية لم يكن حقّاً واحداً منهم، بل مع الأخذ بالاعتبار التّسكّع في وست إند، فإنهم جميعاً أصدقاء مقرّبون، وقد أحبّ فيرغسون التّحدّث إليهم، وخصوصاً ديفيد زيمر، الذي أدهشه كأكثر الجالسين على المقعد تألّقاً ونبوغاً، بالإضافة إلى الصديق غير الكاتب لـ زيمر من شيكاغو، مارغو فوغ، الشّابّ طويل الشَّعْر غريب الأطوار الذي كان يتجول في لباس إيرلندي صوفي، وكان يتمتع بثقافة أدبية عميقة حتّى إنه يستطيع إطلاق نكات باللاتينية، ويجعلكَ تضحك، ولو لم تكن تفهم اللاتينية.

الصحافيون والشعراء هم مَن انجذب إليهم فيرغسون، لأنه وجدهم الأكثر حياة، الذين بدؤوا يتبيّنون مَن وماذا كانوا في العلاقة مع العالم، لكنْ، كان هناك آخرون من دفعة الـ 69 ليس لديهم مفتاح عن أنفسهم أو أي شيء آخر، الصِّبية المراهقون المتخبّطون الذين حصدوا درجات جيّدة في المدرسة، واستطاعوا نيل أرقام عالية في الامتحانات الموحّدة، لكنهم لا يزالون بعقلية الأولاد، حشد الأغرار غير المجرّبين والمتبتلين المُستمنين الذين كبروا في مُدُن ريفية وبيوت مزارع في الضواحي، والذين التزموا بالحرم الجامعي وسكنهم الجامعي، لأن نيويورك كبيرة جدّاً، عنيفة جدّاً، سريعة جدّاً، وهي المكان الذي يهدّدهم ويشوّشهم. كان أحد هؤلاء الأبرياء زميل فيرغسون في الغرفة، شخص ودود من دايتون، أوهايو، اسمه تيم مكارثي، الذي دخل الجامعة غير مهيّأ كما يجب لأن يألف حرّيّة العيش بعيداً عن البيت في بداية الأمر، لكنه بخلاف العديد من الآخرين في ذلك الموقع، لم ينكفئ على نفسه، ويختبئ من المدينة، بل اندفع، وألقى بثقله فيها، وأوشك على أن يخسر نفسه في خضمّ المتعتين التوأمين، وهما الشرب الزائد للبيرة وتدخين الماريوانا بشكل دائم، مع قطعتي حمض مهلوس لقسط أوفر من المتعة. لم يكن فيرغسون يعرف ماذا يمكنه عمله. كان يمضي معظم الليالي مع إيمي في شقّة شارع 111، ويستخدم غرفته في كارمان هول أكثر بقليل من مكتب له، مكاناً يحتفظ فيه بكُتُبه وآلته الكاتبة وملابسه، وكلّما كان في تلك الغرفة كان يميل إلى الجلوس إلى طاولته وأمامه الآلة الكاتبة، ليشتغل على مقالاته الإخبارية لـ *سبيكتاتور*، يصوغ الصفحات المتنوّعة

بين القصيرة والطويلة التي طُلبت منه من أجل مقرّراته الدراسية، أو يتسلّى بمسوّدة أخرى من ترجماته. لم يكن يرى تيم ما يكفي لأن ينشأ تواصلٌ معه، كانت علاقتهما طيّبة، لكنها سطحية بعمق، كما سمع ذات مرّة امرأةً تقول لامرأة أخرى في الحافلة 104، وبينما كان فيرغسون قد بدأ يلمس أن الفتى في طريقه إلى ما يمكن أن يكون متاعب خطيرة، لم يكن مستعدّاً للتّدخّل في شؤون تيم الشخصية. كان قد خبرَ ما يكفي لأن يعرف أنه هو نفسه غير معنيّ بالسخف الذي كان الحشيش أو الجنون الذي كان الحمض المهلوس، لكنْ، بأي حقّ يطلب من تيم مكارثي أن يمتنع عن تعاطي هذه الأشياء؟ ذات ظهيرة من أواسط كانون الأوّل، على أي حال، عندما كان تيم يجرجر نفسه إلى الغرفة وهو يولول ويقهقه بعد آخر جلسة تحشيش مع زمرته في القاعة، تحدّث فيرغسون أخيراً وقال: قد يكون مضحكاً بالنسبة إليكَ، يا تيم، لكنه ليس مضحكاً لأي أحد آخر.

هبط صبي دايتون جالساً على فراشه وابتسم: لا تكن غضوباً، يا آرتشي. قد بدأتَ تلوح مثل أبي.

لا أبالي كم تتعاطى من المخدّرات، لكنْ، لن يكون جميلاً لكَ أن تُطرَد من الجامعة، هل سيكون؟

أنتَ تتحدّث من أنفكَ، يا سيّد نيو جيرسي. درجاتي كلها A وB في هذا الفصل، والـ A أكثر من الـ B، وسأفعل ما عليّ في الامتحانات النهائية الشهرَ القادم، ربمّا أصل قائمة عميد الجامعة. ألن يكون البابا سعيداً؟

هذا لصالحكَ. لكنْ، إذا تابعتَ السُّكْر كل يوم، فإلى أي مدى ستستطيع الاستمرار في نجاحكَ؟

الاستمرار في نجاحي؟ أنا دائماً مستمرّ في النجاح، يا رجل، مستمرّ دائماً وتوّاق للتّقدّم، وأنا الأفضل، وإلى المزيد. عليكَ أن تجرّبها أحياناً، يا آرتشي. أقوى انتصاب تسبّبه بيرة صخرة جبل طارق هذه.

ندت عن فيرغسون نخرة ضحك - ليست مختلفة عن نخرات إيمي - لكنها كانت في هذه الحالة تسليماً بالهزيمة أكثر منها ضحكة حقيقية. لقد بدأ جدالاً حُكِمَ عليه أن يخسر فيه.

لن نكون أكثر فتوةً ممّا نحن فيه الآن، قال تيم، وبعد أن ينقضي شبابكَ، يبدأ كل شيء بالتهاوي السريع. الرشد الباهت. اللغوُ والثرثرات التي لا تنتهي. العمل، الزوجة، الولدان، ثمّ ها أنتَ تمشي متثاقلاً في شحّاطتكَ، تنتظرهم أن يدفعوا كرسي العجلات بكَ إلى معمل

الموادّ اللاصقة[*] - بلا أسنان، بلا أي شيء. فلماذا لا نعيشها ونحظى ببعض المرح، ما دمنا نستطيع ذلك؟

هذا يعتمد على ما تسمّيه مرحاً.

صرف الذهن، أوّلاً.

موافق. لكنْ، ماذا تعني بصرف الذهن.

الانتعاش في الحياة والقفز من جلدي.

قد يناسبكَ ذلك، لكنه لا يناسب الجميع.

ألا تفضّل الطيران على الزحف فوق الأرض؟ ليس الأمر صعباً، يا آرتشي. عليكَ فقط أن تفتح ذراعيكَ، وتُقلع بالطيران.

بعضنا لا يريد ذلك. وحتّى لو ظننا أننا نريد، فلن نستطيع.

لماذا لا نستطيع؟

لأننا لا نستطيع، هذا واقع الأمر. لا نستطيع وحسب.

الأمر ليس عجز فيرغسون عن الطيران أو صرف الذهن أو القفز خارج جلده، بل إنه يحتاج إلى إيمي، كي يكون قادراً على أن يعيش تلك الأشياء، أما بعد أن عاشا انفصالهما الأوّل، وصلحهما الأوّل، وتجربتهما الأولى في النوم معاً كلّ ليلة في فرنسا، فلم يعد بمقدوره إشاحة فكرةِ أنه من الضرورة أن يكون معها. كانت نيويورك الخطوة المتقدّمة، الحياة اليومية مع فرصة تلاقيهما اليومية، أن يكونا جنباً إلى جنب بشكل دائم إذا أرادا، لكن فيرغسون فهم أنه لم يستطع اعتبار هذه الاحتمالات أمراً مفروغاً منه، ذلك أن الانفصال علّمه أن إيمي من الأشخاص الذين يحتاجون مدىً أوسع ممّا يحتاجه الآخرون، أن أمّها التي ضيّقت الخناق عليها قد ولّدت لديها نفوراً تجاه أيّ، وكلّ، صنفٍ من صنوف الضغط العاطفي، وإذا طالبها بأكثر ممّا هي مستعدّة لتقديمه، فستنسحب مرّة أخرى من حياته. تساءل في بعض الأحيان إن كان بالَغَ في حبّها، أو أنه لم يتعلّم بعد كيف يحبّها بالطريقة الصحيحة، لأن الحقيقة أن فيرغسون كان بالسعادة كلها سيتزوّجها غداً، ورغم أنه طالب في الثامنة عشرة في أشهره الجامعية الأولى إلا أنه شعر باستعداده لأن يتابع مسيرة حياته معها دون أن ينظر إلى أيّة امرأة أخرى من جديد. أدرك كم هذه الأفكار متهوّرة، لكنه لم يستطع الكفّ عن التفكير بها. كانت إيمي قد انضفرت بكلّ ما في داخله. كان الرجلَ

*) أي إلى الموت. من المعروف أن الأحصنة وبقية الحيوانات النافقة تُؤخَذ إلى مصانع، وتُحوَّل عظامها إلى مادّة غروية. (م).

الذي هو عليه الآن، لأنها كانت هناك معه الآن، فلماذا يدّعي أنه يمكن أن يكون شيئاً ذا شأن أو حتّى إنساناً بالمعنى البعيد للكلمة دون أن يكون معها؟

لم يسبق أن تحدّث في هذا الأمر. الفكرة ليست أن يخيفها، بل أن يحبّها، وقد بذل فيرغسون ما بوسعه، كي يبقى متنبّهاً لتقلّبات إيمي، ويستجيب للمؤشّرات المتقنة، الصامتة التي ستُخبره إن كانت هذه الليلة ستكون ليلة مناسبة للنوم في سريرها، مثلاً، أو أنها ستفضّل الانتظار حتّى ليلة الغد، أو يثير قضية كبيرة بالسؤال، إن كانت تريد أن يتواعدا على العشاء في ذلك المساء أو يلتقيا في وست إند أو يبقيا في البيت، لأن كلاً منهما لديه واجب مدرسي يكتبه أو يرميا بكل شيء جانباً ويذهبا لحضور فيلم في ثاليا. ترك لها أن تتّخذ هذه القرارات كلها، لأنه علم أنها تشعر بحرّيّة وسعادة أكبر حين تكون هي التي تقرّر، قبل كلّ شيء فإن الـ إيمي التي أرادها كانت البنت المتوحّشة، اللطيفة، اللمّاحة التي أنقذت حياته بعد الحادث، شريكة المؤامرة الجريئة التي سافرت إلى فرنسا معه، وليست الملكة الحرون التي أقصتْه عن بلاطها في الخريف الماضي لمدّة أربعة أشهر من العزلة في ركوده النيوجرسيّ.

في معظم الأحيان، كان الأمر ينتهي بقضاء الليل معها، بمعدّل أربع أو خمس ليالٍ في الأسبوع، وغالباً تصل إلى ستٍّ، مع مرّة أو مرّتين وأحياناً ثلاثة ليالٍ وحيداً في فراشه المفرد، الطابق العاشر من كارمان هول. كان ذلك تدبيراً عملياً، رغم تمنّيه أن تكون الأرقام ثابتة على السبعة وصفر، لكن الشيء الأهمّ أنه بعد سنتين لا تزال النار تشبّ في جسديهما كلّما اندسّا معاً تحت الأغطية، وكانت نادرة الليلة التي نام فيها فيرغسون في فراش إيمي، ولم يمارسا الحبّ قبل النوم. وعكساً لفرضية غوتسمان، أنه ليس الجنس الراسخ وحده كان جيّداً لهما، بل الجنس الجيّد قد رسّخهما وجعلهما أكثر قوّة: اثنان انجدلا إلى واحد بدلاً من واحد إلى واحد يقفان منفصلَين. كانت الحميمية الجسدية التي تطوّرت بينهما شديدة الكثافة الآن حتّى إن فيرغسوم شعر بأنه بات يعرف جسد إيمي أكثر ممّا يعرف جسده. لكنْ، ليس على الدوام، وبناء على ذلك، كان من الأهمّيّة بمكان أن يصغي فيرغسون إليها، ويستجيب لمبادرتها في المسائل الجسدية، بأن يولي *انتباهه المكثّف لما كانت تقوله له بعينيها*، بين الفينة والأخرى قد يسيء فهم الإشارات، فيفعل الشيء الخطأ، كأن يضمّها ويقبّلها حين لا تريده أن يفعل، ورغم ذلك لم تدفعه عنها (الذي زاد من ارتباكه)، كان يمكنه أن يعرف أن قلبها ليس مستغرقاً في الأمر، أن الجنس ليس في بالها في تلك اللحظة بالضبط، كما في باله، كما كان أبداً في باله، لكنها ستبدأ وتتركه يمارس الجنس معها مهما يكن الحال، لأنها لا تريد أن تخذله، مستسلمة لرغباته بنوع بليد من المشاركة، *الجنس الميكانيكي*، الذي كان أسوأ من عدم الجنس على الإطلاق، وفي المرّة

الأولى التي حدث شعر فيرغسون بالخجل من نفسه، وقرّر أن ذلك لن يحدث مرّة أخرى، لكنه حدث مرّة أخرى، وسيحدث مرّتين في الأشهر القليلة القادمة، ما جعله يفهم، أخيراً، أن الرجال والنساء ليسوا سواءً، وإذا قصد أن يفعلَ الصواب مع امرأته، فعليه أن يولي انتباهه المكثّف، ويتعلّم كيف يفكّر ويشعر كما تفكّر هي وتشعر، إذ لم يكن هناك شكّ في ذهنه أن إيمي كانت تعرف تماماً ما كان يشعر ويفكّر به، ممّا فسّر تحمُّلَها لتخبّطه الشهواني وفعالِ الحبّ المتهوّر الناجمة عن الغباء.

ثمّة خطأ آخر ارتكبه بتقديره المبالغ به بمدى ثقة إيمي بنفسها. بدا أن الصخب المرتفع لكونها انبثقت من روح آل شنايدرمان يستبعد أيّة زلّة منها في الشّكّ والريبة، لكنْ، كانت لها لحظاتها السّيّئة كأيّ أحد آخر، لحظات حزنها وضعفها واستبطانها الكئيب، ولأن تلك اللحظات قلّما جاءت، بدت أنها تأخذ فيرغسون على حين غرّة. الشكوك السياسية قبل كل شيء، إن كانت أفكارها السياسية سليمة أم لا، إن كان هناك شيء ممّا فعلته أو قالته سيؤدّي إلى منفعة أحد ما، إن كانت تلك الأفكار جديرة بمحاربة *المنظومة* في حين أن المنظومة لن تتغيّر أبداً، إن كان الكفاح في سبيل أن يجعل الناس أفضل حالاً سيجعلهم أسوأ، لأن الناس كلّهم سيهبّون في وجه الناس الذين يكافحون لجعلهم أفضل، وأيضاً هناك شكوكها في نفسها، *أشياء البنات* الصغيرة التي تعذّبها فجأةً دون سبب واضح، شفتاها رقيقتان جدّاً، عيناها صغيرتان جدّاً، أسنانها كبيرة جدّاً، هناك الكثير جداً من شامات الجلد على الساقين، والنقط البنّيّة الطفيفة نفسها التي هام بها فيرغسون، لكنْ، لا، ستقول، إنها بشعة، ولن تلبس شورتاً بعد ذلك، والآن تصبح سمينة جدّاً، والآن تصبح نحيفة جدّاً، ولماذا نهداها صغيران جدّاً، أنفها اليهودي الكبير اللعين، وماذا يمكن العمل بهذا الشَّعْر المجنون الغريب، من المستحيل، المستحيل أن تجد له حلاً، وكيف أنها لا تزال تريد وضع طلاء الشفاه بعد الآن بينما شركات مستحضرات التجميل تغسل أدمغة النساء بغية التّكيّف مع الرؤية المنحرفة الصّنعية للأنوثة، كي تُغذّي آلة الربح الرأسمالية المهولة التي تسير بإرغام الناس على أن يريدوا ما لا يحتاجون؟ هذا كلّه من فتاة جذّابة ونابضة بالحياة في زهرة صباها، وإذا كان شخص مثل إيمي شنايدرمان يمكن أن يخضع لاستنطاق الجسد الذي يخصّها بتلك الطريقة، فما بالنا بالفتيات السمينات والفتيات متواضعات الجمال والفتيات المشوّهات اللواتي لا يمتلكنَ أدنى فرصة؟ لا يقتصر الأمر على أن الرجال والنساء ليسوا سواءً، برأي فيرغسون، بل إنه لأصعَب بكثير أن يكون الإنسان امرأة من أن يكون رجلاً، وإذا نسي ذلك، قال لنفسه، فستنزل الآلهة من جبالها، وتقتلع عينيه من رأسه.

في ربيع 1966، تأسّس فرع لـ SDS طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي، وكانت منظّمة على

مستوى البلاد في ذلك الحين، وواحدة إثر الأخرى صوّتت معظم مجموعات الطلاب اليسارية في الجامعة للالتحاق بالـ SDS أو لحلّ هيئاتها، ثمّ الاندماج فيها. من بينها كانت لجنة السخرية الاجتماعية، التي تظاهرت حول الجامعة في السنة الماضية، وحمل أفرادها لافتات بلا كتابات كإشارة إلى الاحتجاج العامّ ضدّ كل شيء (كم تمنّى فيرغسون صحفي سبيكتاكل لو شاهدها)، حركة مايو2، التي كانت مدعومة من حزب العمّال التّقدّمي، أعضاء من حزب العمّال التّقدّمي ذاته (ع. ت. الماويّ المتشدّد)، والمجموعة التي انتمت إيمي إليها منذ سنتها بين المستجدّين، الـ ICV (اللجنة المستقلّة حول فييتنام)، التي اصطدمت مع الشرطة في أيّار الماضي عندما عطّل خمسة وعشرون من أعضائها مناسبة جوائز الـ NROTC في بلازا مكتبة لوو. كان شعار الـ SDS دعوا *الناس يقرّرون!*، وقد ساند فيرغسون مواقف المجموعة بحماس، كما فعلت إيمي (ضدّ الحرب، ضدّ التفرقة العِرقية، ضدّ الإمبريالية، ضدّ الفقر - ومن أجل عالم ديموقراطي يعيش فيه المواطنون كلّهم متساوين)، لكن إيمي انضمّت إلى المنظّمة، ولم يفعل فيرغسون. كانت الأسباب واضحة لكليهما، ولم يضيعا كثيراً من الوقت في مناقشة الأمر، كما لم يحدث أبداً في أي مرّة خلال محاولة التّحدّث إلى الآخر بشأن اتّخاذ قرار مغاير، حيث إنه في الواقع قد شجّعها لأن تنضمّ، وفهمت هي لماذا لم يلتحقْ بأي شيء، إذ إن إيمي كانت تستطيع تخيّل نفسها وهي تقذف الحجارة، والتي من دون شكّ ولدت، كي تقذف الحجارة، في حين كان فيرغسون من النوع الذي لم يستطع ولن، وحتّى لو كان أحرق شارة الصحافة خاصّته، واستقال من الـ *سبيكتاتور*، يبقى أنه لن ينضمّ تحت أي ظرف من الظروف. سار معها على الشارع الخامس في السادس والعشرين من آذار في مظاهرة أخرى ضدّ الحرب، وكان ذلك أقصى ما يصله في القيام بدوره تجاه تلك المسألة. لم يزل هناك الكثير من الساعات في اليوم، رغم كلّ شيء، وحين ينهي وظيفته الدراسية وعمل الصحيفة، فإن إمكانية قضاء بعض الوقت مع شعرائه الفرنسيين أكثر جاذبية بكثير من حضور لقاءات سياسية مرتفعة الصوت ومثيرة للخلاف، بهدف التخطيط للتّحرّك القادم الذي ستقوم به الحركة ضدّ المشكلة القادمة على الأجندة.

عندما انتهى الفصل الدراسي الثاني في بدايات أيّار، صافح فيرغسون تيم مكارثي، ودّعَ كارمان هول، وانتقل إلى غرفة مستأجَرة أكثر اتّساعاً خارج الحرم الجامعيّ. كان المستجدّون فقط ملزمين بالإقامة في السَّكَن الطلابيّ، أما وقد أصبحت سنته الأولى وراءه، فإنه بات حرّاً في الذهاب أنّى شاء. على الدوام، كانت لديه الرغبة للانتقال والسَّكَن مع إيمي، ولكنْ، بسبب الكبرياء (وربّما اختباراً للحبّ)، تراجع فيرغسون عن أن يسألها إذا كان يمكنه استئجار إحدى الغرفتين اللتين

من المرجّح أن تكونا متاحتين في شقّتها (كلاهما كان يشغلهما متقدّمان)، منتظراً أن تطلب منه ذلك بنفسها، والذي فعلتْه في نهاية نيسان، بعد ساعات قليلة من معرفتها بأن زميليّ الشّقّة المتخرّجين سيغادران نيويورك في اليوم نفسه الذي يستلمان فيه شهادتيّ تخرّجهما، وكم جميل أن يعيش هناك بناء على دعوتها بدل أن يدعو نفسه، ليعرف أنها أرادته بالقدر الذي كان يريدها.

ومن دون إبطاء، احتلا الغرفتين الخاليتين، اللتين كانت كل منهما أكبر وأكثر إضاءة من جحر إيمي الصغير الضّيّق في آخر الشّقّة، غرفتان متجاورتان على امتداد الممرّ الرئيس، مجهّزتان بسريرين مزدوجين وطاولتين وخزانتي أدراج ومكتبتين تمّ شراؤهما من المقيمَين المغادرَين بمبلغ إجمالي، قدره خمسة وأربعون دولاراً لكل منهما، وأتت خدمة النقل التي اعتمد عليها فيرغسون طوال السنة الماضية إلى نهايتها، لا مزيد من الرحلات المضنية جيئة وذهاباً على برودواي بين سكنه الجامعي وشقّة إيمي، فالآن يقيمان معاً، ينامان معاً في الفراش نفسه لسبع ليال من سبع ليالٍ، وعلى امتداد صيف 1966، كان فيرغسون ابن التاسعة عشرة يتجوّل وإحساس خارق للطبيعة يغمره بأنه دخل عالماً لم يعد من الضروري وهو فيه أن يطلب من العالم أيّ شيء يزيد عن ما قد أُعطيَ له.

لحظة لا مثيل لها من الرضا بالإنجاز الداخليّ المتوازن. قد نال ما صبا إليه. لا أحد، سوى اللا أحد، كان يُفترض أن يكون بتلك السعادة أبداً. تساءل فيرغسون أحياناً إن كان نجح في التلاعب على مؤلّف *كتاب الحياة الأرضية*، الذي كان يقلّب الصفحات على عجل في ذلك العام، وبطريقة ما ترك صفحة تلك الأشهر فارغة.

صيف في نيويورك الحارّة الخانقة، يوم بحرارة 90 درجة بعد آخر والإسفلت المشوي ينصهر تحت الشمس وبلاط الأرصفة الإسمنتية التي ساطتْ بحرارتها نعال أحذيتهما، الهواء عبقٌ بالرطوبة حتّى إن القرميد على واجهات المباني بدا وكأنه ينزّ العرق، وفي كل مكان فاحت رائحة القمامة المتعفّنة على الأرصفة. القنابل الأميركية كانت تتساقط فوق هانوي وهايفونغ، كان بطل الوزن الثقيل يتحدّث إلى الصحافة عن فيتنام (لم يحدث أن الفييتكونغ نعتوني بـ nigger أبداً، قال، وهكذا تجتمع حربان أميركيتان في حرب واحدة)، الشاعر فرانك أوهارا دُهسَ بسيّارة صحراوية على شاطئ فاير آيلاند، ومات عن عمر أربعين عاماً، وعلقَ فيرغسون وإيمي في عملين صيفيين مملّين، هو موظّف في متجر كُتُب، وهي موظّفة على الآلة الكاتبة والتصنيف، عملان براتبين زهيدين، أجبرهما على الاقتصاد بسجائر الغولواز، لكن بوبي جورج كان يلعب البيسبول في ألمانيا، بار الوست إند أضاف أجهزة تكييف، ولحظة يصلان شقّتهما الحارّة غير المهوّاة كان يمكن لـ فيرغسون أن يسارع وينشّف جسد إيمي العاري، ويحلم أنهما في فرنسا. كان صيف

السياسة والأفلام، العشاء في شقّة آل شنايدرمان على غربي الشارع الخامس والسبعين وشقّة آل إدلر على غربي الشارع الثامن والخمسين، والاحتفال بانتقال جيل شنايدرمان إلى *نيويورك تايمز* بعد أن أغلقت الـ *هيرالد تريبيون* مطابعها، وغابت عن المشهد، الذهاب إلى الحفلات الموسيقية في قاعة كارنيغي مع جيل وجيم أخ إيمي، ركوب الحافلة 104 من برودواي إلى ثاليا ونيويوركر هروباً من الحرّ بمشاهدة الأفلام، التي قرّر الاثنان معاً أنها يجب أن تكون كوميدية، حيث إن سواد الراهن يتطلب منهما الضحك متى توفّر أمامهما، ومَنْ يمكنه سَلَّ هذا الضحك أكثر من الأخوين ماركس وأيضاً و. س. فيلدز، أو هزليات المواقف الحمقاء من بطولة غرانت وباول، هيبورن، دونّ، ولومبارد، لم يكتفيا منها، قفزا إلى الحافلة لحظة اكتشفا عرضاً مزدوجاً لفيلمين كوميديين، كان على وشك أن يبدأ، ويا له من ترويح عن النفس أن ينسوا الحرب ورائحة الزبالة الكريهة لبضع ساعات وهما يجلسان في ظلام الصالة المكيّفة، لكنْ، عندما تُشاهَد الأفلام الكوميدية في الأحياء المجاورة أو أيّ مكان آخر كانا يعودان على مضض إلى مشروعهما الصيفي الذي أسمياه *أدبيات الرأي المخالف*، فيقرآ ماركس ولينين، لأنه على المرء أن يقرأهما، وتروتسكي وروزا لكسمبورغ، إيما غولدمان وألكسندر بيركمان، سارتر وكامو، مالكولم إكس وفرانز فانون، سوريل وبوكونين، مآرتشيوز وأدورنو، باحثَين عن أجوبة لتفسير ماذا حدث لبلديهما، الذي بدا أنه يتداعى تحت وطأة تناقضاته الخاصّة به، لكنْ، في حين وجدت إيمي نفسها أقرب إلى القراءة الماركسية للأحداث (حتمية سقوط الرأسمالية)، كان لـ فيرغسون شكوكه، ليس فقط لأن الديالكتيك الهيغلي المقلوب رأساً على عقب صعقه كرؤيا ميكانيكية تبسيطية للعالم، بل لأنه لم يكن هناك وعي *طبقي* بين العمّال الأميركيين، لا تساهل فيما يتعلّق بالفكر الاجتماعي في أي موضع من الحضارة، وبالتالي لا فرصة للثورة العظيمة التي كانت إيمي تتوقّعها. بمعنى آخر، قد اختلفا فيما بينهما، حتّى لو كانا أساساً في الجانب نفسه، لكنْ، لا يبدو أن شيئاً من هذه الخلافات سيشكّل فرقاً، إذ لم يشعر أحد منهما أنه موقن تماماً بشأن أي شيء في تلك المرحلة، وكلّ أدرك أن الآخر قد يكون على حقّ، أو أن كليهما على خطأ، والأفضل لهم تهوية شكوكهم بحرّيّة وانفتاح بدل أن يتظاهروا معاً بإيقاع موحّد (نظام منضمّ) حتّى يقعوا عن حافّة الجرف.

أهمّ ما في الأمر أنه كان صيفَ النظر إلى إيمي، التّطلّع إليها وهي تضع طلاء الشفاه، وتمشّط شَعْرها المستحيل بالفرشاة، التّمعّن في يديها وهي تدعك كفّيها بمرهم ترطيب الجسد، ثمّ تمرّر هاتين الكفّين على ساقيها وذراعيها وثدييها، صيف غسْلِه هو لشَعْرِها المبلّل بالماء الفاتر وهي مطبقة العينين في المغطس، المغطسِ العتيق ذي الأرجل الأربع وبقع الصدأ الظاهرة على البورسلين المشقّق، التّمدّد في الفراش صباحاً، والتّطلّع إليها بينما ترتدي ملابسها في ركن

الغرفة والضوء يأتي عبر النافذة، ويحيط بها، ابتسامتها له وهي تلبس سروالها الداخليّ وحمّالة نهديها والبلوزة القطنية، التفاصيل الصغيرة الأليفة للعيش في مدارها الأنثوي، الفوط النسائية، حبوب منع الحمل، حبوب تشنّج المعدة في أثناء الدورة الشهرية العسيرة، الأعمال المنزلية التي قاما بها معاً، التّموّن بالأطعمة، جلي الصحون، والطريقة التي تعضّ بها شفتها السفلى وهما يقفان في المطبخ يقطّعان ويفرمان البصل والبندورة لمقدار من الصلصة الحارّة التي سيتناولانها في وجبات غداء نهاية الأسبوع ذات الأهمّيّة، التركيز في عينيها وهي تطلي أصابعها أو أصابع قدميها، كي *تترك انطباعاً حسناً في العمل*، إطالة النظر إليها وهي تزيل الشَّعْر عن الساقين وتحت الإبطين وهي تجلس هادئة في الحمّام، ثمّ يدخل معها إلى المغطس، ويدهن بالصابون بطريقة زلقة جلدها الأبيض، نعومة جلدها السماوية تحت يديه، ثمّ الجنس والجنس والجنس، الجنس الصيفي المبلّل بالعرق دون غطاء أو شرشف فوقهما بينما يتقلّبان على فراش غرفتها وطقطقة المروحة العتيقة، إذ تحرّك الهواء قليلاً دون تبريد، الرعشات والتّنهّدات، العواء والأنين، في داخلها، فوقها، تحتها، إلى جانبها، الضحكات العميقة حبيسة حَنْجَرَتها، هجمات الدغدغة المفاجئة، النتف اللحظية من أغاني البوب أيّام طفولتهما، التهويدات، القصائد الفكاهية الماجنة، قصائد الأمّ إوزّة، وإيمي الغاضبة تضيّق عينيها في إحدى حالات حردها، إيمي السعيدة ترشف قطع الثلج والبيرة الباردة، تأكل بسرعة، تلتهم الطعام *مثل عتّال سفن نهم*، شخرات الضحك بينما تشاهد فيلدز والأخوة M. - *ليس من جملة عاقلة، يا آرتشي!* - والـ*آه*. الساحرة التي زفرتها ذات مساء حين ناولها ترجمته لقصيدة مبكّرة من رينيه شار، قصيدة قصيرة للغاية من ستّ كلمات، ومضة وجيزة عنوانها يدُ لاسينير، التي كانت إشارة إلى الشاعر - القاتل في القرن التاسع العشر الذي ظهر فيما بعد كشخصية في فيلم *أولاد الفردوس*:

عوالم من بيانٍ آلتْ إلى الزوال.

لن تنتهي أبداً. علقت الشمس في السماء، فُقدت صفحة من الكتاب، وسيبقى هناك صيف طالما أنهما لا يلهثان بشدّة أو يطلبان أكثر ممّا يجب، أبداً الصيف عندما كانا في التاسعة عشرة، وكانا أخيراً، ما يقرب الـ أخيراً، أخيراً ربّما أظنّ ما يقرب شفا حافّة القولِ وداعاً للحظة عندما كان كلّ شيء لا يزال أمامهما.

5.2

5.3

في السابع من تشرين الثاني، 1965، رجع فيرغسون إلى الكتاب السادس عشر من أوديسة هوميروس. كان يجلس إلى طاولة في غرفة صغيرة مخصّصة للخادمة في الطابق السادس من بناء شقق سكنية في الدائرة السابعة من باريس، التي كانت مأواه على مدى الأسابيع الثلاثة الفائتة، والآن وقد بدأ أوديسيوس طريق عودته إلى إيثاكا بعد رحلته الطويلة من طروادة، كانت رمادية العينين آثينا قد جعلته يتخفّى في كسوة وجسد متشرّد عجوز أعجف، وحين يجلس رجلُ الحيَلِ العديدة مع أومايوس مربّي الخنازير داخل كوخ جبليّ في ضواحي المدينة، تليماخوس المعتمد على العكّازات، ابن أوديسيوس، الذي كان لم يزل طفلاً رضيعاً حين بدأ والده رحلته إلى طروادة منذ عشرين عاماً، ولا يعلم شيئاً عن عودة أبيه، وكان للتّوّ قد رجع من رحلة طويلة ومحفوفة بالمخاطر، ومع مغادرة أومايوس الكوخ متوجّهاً نحو القصر ليبلغ بينيلوبي، والدة الشّاب، أن تليماخوس قد عاد إلى إيثاكا سالماً، الأب والابن معاً للمرّة الأولى، بينما الأب في وعي كامل أنه ينظر إلى ابنه، والابن لا يعرف شيئاً.

ثمّ تظهر آثينا على هيئة امرأة إيثاكية رشيقة وجميلة، ولا يراها إلا أوديسيوس، وبذلك ليست مرئية لابنه، وحين تشير إلى الأب أن يخطو إلى الخارج للحظة، تخبره أن وقت التّخفّي قد انتهى، وأن عليه كشف نفسه أمام تليماخوس الآن. "وقائلاً لا مزيد" (كما جاء في مقدّمة ترجمة فيتزجيرالد المنشورة حديثاً، والتي استقرّت على طاولة فيرغسون) "مسّتْ بعصاها الذهبية رأس الرجل،/ لتجعل عباءته ناصعة البياض، والسترة المنسوجة/ جديدة حوله. رشيقاً وشابّاً جعلته،/ متورّداً بضوء الشمس، أما صفّا أسنانه، فنقيّان، واللحية/ لم تعد رمادية أعلى الذقن."

لم يكن هناك من إله، بقي فيرغسون يردّد في نفسه. لم يكن من قبلُ، ولن يكون هناك إله واحد، لكنْ، هناك آلهة، العديد من الآلهة من عديد الأماكن وأنحاء العالم كلها، من بينها الآلهة الإغريقية التي عاشت على جبل الأولمب، آثينا، زيوس، أبولو، والآخرون ممّنْ لا يحصون وقد تراكضوا عبر الـ 295 صفحة الأولى من *الأوديسة*، وما تمتّعت به الآلهة أكثر من أي شيء آخر كان التّدخّل في شؤون الرجال. لم تستطع السيطرة على سلوكها بكل بساطة، وكأنها وُلدت كي

تفعل ذلك. بالطريقة نفسها التي لم تستطع بها القنادس الكفّ عن صنع السدود، كما افترض فيرغسون - أو القطط عن تعذيب الفئران. كائنات خالدة، نعم، لكنها كائنات بكثير الأزمنة مرّت على أيديها، ما يعني أن لا شيء يمكن أن يوقِفها عن تذوّق ملذّاتها الطّيّبة، وغالباً الشنيعة.

عندما يدخل أوديسيوس الكوخ من جديد، يُصعَق تليماخوس لتحوُّل العجوز إلى ما ظنَّه إلهاً. لكن أوديسيوس، على حافّة الانفجار بالبكاء، بالكاد ينطق بالكلمات من فمه، يقول بهدوء: "لا إله. لمَ تأخذني على أني إله؟ لا، لا./ أنا ذاك الأب الذي فقدته طفولتكَ/ وعانت لفقده الآلام. أنا هو."

تلك كانت الطعنة الأولى، رأس النصل يخرق جلد فيرغسون في بقعة مكشوفة لا عظام فيها بين القفص الصدري والعانة، إذ إن قراءة جواب أوديسيوس الوجيز ولّدت لديه الأثر المتولّد نفسه حين قراءة هذه الأسطر: سيكون *يوماً بارداً، يا آرتشي، تذكّر أن تلبس لفاعكَ حين تذهب إلى المدرسة.*

ثمّ يوغِل النصل كاملاً: "ملقياً/ ذراعيه حول هذا الإعجاز الذي هو الأب/ يبدأ تليماخوس بالبكاء. دموع مالحة/ اصّاعدت من آبار التوق في كلا الرجلين،/ وانبجس البكاء من كليهما وقّاداً راعشاً/ كما تلك المخالب العظيمة للصقر،/ الذي أخذَ فراخَه المزارعون قبل أن يطير./ كذلك بكيا لا حول ولا قوّة، ذارفَين الدمعَ/ ولعلّهما استمرّا في البكاء حتّى المغيب."

كانت المرّة الأولى التي بكى فيها فيرغسون بسبب كتاب. ذرف الكثير من الدموع في ظلام دور السينما الفارغة والمكتظّة، أحياناً، أحياناً للقمامة الأكثر سخفاً واستدراراً للعواطف، وخنقته الدموع أكثر من مرّة وهو يستمع إلى *وجدِ القدّيس ماثيو* مع جيل، خصوصاً في ذلك الموضع على الوجه الأوّل من الأسطوانة عندما يسير صوت التينور فجأةً مع الدفق العاطفي، لكن الكُتُب لم تسبّب ذلك له، ولا حتّى أكثرها حزناً، أكثر الكُتُب استثارة للعواطف، ومع ذلك، في ضوء تشرين الثاني الباريسي الشحيح تنهمر الدموع الآن على الصفحة 296 على طبعة التجليد العادي بسعر دولار وخمسة وأربعين سنتاً من *الأوديسة*، وحين أشاح عن القصيدة، وحاول النظر عبر نافذة الغرفة الصغيرة، حجبتِ الغشاوةُ كلَّ ما في الغرفة.

كانت *الأوديسة* هي الكتاب الثاني على قائمة القراءة التي اقترحها جيل. وقبله كانت *الألياذة*، وبعد أن شقّ طريقه عبر ملحمتين غنائيتين، خطّهما نظّامٌ أو نظّامون أُطلق عليهم اسم هوميروس، تعهّد فيرغسون بأن يقرأ ثمانية وتسعين كتاباً على مدى السنتين القادمتين، من ضمنها

التراجيديات والكوميديات الإغريقية، فرجيل وأوفيد، أجزاء من العهد القديم (طبعة الملك جايمس)، *الاعترافات* لـ أوغسطين، *الجحيم* لـ دانتي، ما يعادل نصف *المقالات* لـ مونتين، لا أقلّ من أربع تراجيديات وثلاث كوميديات لـ شكسبير، *الفردوس المفقود* لـ ميلتون، مختارات من أفلاطون وأرسطو وديكارت وهيوم وكانط وكتاب *أكسفورد للشِّعْر الإنكليزي*، *أنطولوجيا الشِّعْر الأميركي* لـ نورتون، بالإضافة إلى الروايات البريطانية والأميركية والفرنسية والروسية لروائيين مثل فيلدينغ، شتيرن، أوستن، هاوثورن، ميلفل، توين، بلزاك، ستاندال، فلوبير، وغوغول، تولستوي، دوستويفسكي. جيل ووالدة فيرغسون تمنّيا لابنهما الـ F-4، لصّ الكُتُب السابق أن يغيّر رأيه بشأن الذهاب إلى الجامعة خلال سنة أو سنتين، لكنْ، إذا أصرّ فيرغسون على التّهرّب من الدراسة المتعارف عليها، على الأقلّ ستقدّم له هذه العناوين الـ 150 بعض المعرفة من بعض الكُتُب التي ينبغي على كلّ متعلّم أن يكون قد قرأها.

كان فيرغسون يعتزم الالتزام بوعده، لأنه أراد قراءة تلك الكُتُب، وامتلك التصميم كله لقراءة كل كتاب منها. لم يشأ أن يمضي في درب الحياة كجاهل همجي غير مدرَّب، ببساطة لم يحبّ الذهاب إلى الجامعة، ورغم ذلك كان مستعدّاً لأن يحضر دروساً، كلّ منها لمدّة ساعتين لخمسة أيّام في الأسبوع في الـ *ألاينس فرانسيه*، لأن أحد طموحاته في الحياة أن يصبح متمكّناً من الفرنسية، لا رغبة لديه لأن يجلس لحضور دروس في أي مكان آخر، وآخرها الجامعة، التي لن تكون أفضل من المؤسّسات الأخرى الأكثر أماناً التي كان سجينها منذ سنّ الخامسة - ولا شكّ أنها أكثر سوءاً. السبب الوحيد في أن يضيق المرء الخناق على مُثلِه، وينخرط في واحدة من أمكنة السنوات الأربع تلك أن يحصل على تمديد من الجيش، الذي سيجنّبه ورطة الذهاب إلى فيتنام أو الجهر بـ لا لفيتنام، الذي سيشكّل بدوره الورطة الثانية بالسجن الفيدرالي أو الترحيل الدائم من الولايات المتّحدة، كل شيء مؤجّل حتّى تُنهي عقوبة سنواتك الأربع، لكن فيرغسون حلّ المسألة بوسائل أخرى، والآن وقد رفضه الجيش، فباستطاعته رفض الجامعة دون الحاجة أبداً لمواجهة أيٍّ من هذه الورطات مرّة أخرى.

أدرك كم كان محظوظاً. ليس لأنه أُعفي من الحرب ومن الخيارات الكريهة كلِّها التي أفرزتها الحرب وحسب، الأصوات المؤيّدة والمعارضة لها التي يجب على كلّ أميركي ذكَر خرّيج ثانوية أو خرّيج كلّيّة جامعية أن يتصدّى لها، ما دامت حرب الشرور مستمرّة، بل لأن أهله لم يقفوا ضدّه، وذلك كان حاسماً، لم يكن هناك ما هو أهمّ لآفاق بقائه على المدى الطويل أكثر من حقيقة أن جيل وأمّه قد سامحاه على هفوة سنته الأخيرة، ورغم أنهما لا يزالان *يقلقان عليه*، ويشكّكان في استقراره الذهني والعاطفي، إلا أنهما لم يُرغماه على البدء باستشارة طبيب مختصّ بالعلاج

النفسي، اقترحه جيل، لعلّه يقدّم إليه *قدراً كبيراً من الفائدة*. الذي ناقشهم فيرغسون بشأنه على أنه ليس ضرورياً، ذلك أنه نال حصّته من *أخطاء المراهقة الغبية*، لكنه كان على ما يرام، وأن تبديدهم للمال بناء على افتراض ضبابي، سيجعله يشعر بالذنب. سلّما بما قال. لطالما سلّما كلّما تحدّث إليهما بنبرة صوت راشدة وعاقلة، لأنه عندما يكون فيرغسون فوق نفسه، وليس تحت نفسه، وذلك ما كان عليه نصفَ الوقت، سيكون القلائل من البشر بعذوبته نفسها، وبمحبّته نفسها، تلك العذوبة والمحبّة الشّفّافة النابعتان من عينيه حتّى إن قلّةً تستطيع مقاومته، وليس مَنْ هو أكثر درايةً من أمّه وزوج أمّه بأن فيرغسون يستطيع أن يمتلك أشياء أخرى، بالإضافة إلى العذوبة، لكنهما، مع ذلك، وجدا نفسيهما عاجزين عن المقاومة.

أمران كانا نتاج الحظّ، ومن ثمّ أمر ثالث وصله في الدقيقة الأخيرة، الفرصة بأن يعيش في باريس لبعض الوقت، وربّما لوقت طويل، الذي لم يبدُ ممكناً في البداية، ليس بوجود أمّه التي تُقلقها المسافة المهولة التي ستقف بينهما وجيل القلق على تخطيط المغامرة وتنفيذها وعشرات الصعوبات العملية التي ستتمخّض عنها، لكنْ، لاحقاً، بعد أسبوعين من وصول تصنيف فيرغسون كـ 4-F إلى صندوق بريد العائلة، كتب جيل إلى فيفيان شريبر في باريس طالباً نصيحتها، وكان الردّ السّارّ أنها في رسالة الجواب وضعت حدّاً لقلق جيل، وقوّضت دعائم حذر أمّه. "أرسلوا آرتشي إليّ،" كتبتْ فيفيان. "غرفة الخادمة في الطابق السادس التي تتبع شقّتي فارغة الآن، منذ أن سافر ابن أخي عائداً إلى أميركا لإكمال سنته الأخيرة في بيركلي، ولم أُتعب نفسي بالبحث عن ساكن جديد، الذي يعني أنه يمكن لـ آرتشي أن يعيش فيها، إذا لم يمانع فكرة السَّكَن في مساحة ضيّقة. بالطبع لا بدّل إيجار. والآن وقد نُشر كتابي عن شاردان في لندن ونيويورك، فأنا أمضي جلّ وقتي في ترجمته إلى الفرنسية لصالح ناشري الفرنسي، عمل مملّ، لكنه لحسن الحظّ قارب على النهاية، وحيث إنه لا مشاريع جديدة تنتظر في الأفق القريب، سأكون سعيدة بأن أتكفّل بمهمّة إرشاد آرتشي وهو يشقّ طريقه في الكُتُب الرائعة على قائمتكَ، التي سيكون عليّ قراءتها أنا الأخرى بالتأكيد، ويجب أن أعترف بأن فكرة الانغماس في تلك الأشياء الجيّدة كلّها مرّة أخرى هي أمر يسرّني إلى أبعد الحدود. وبشأن مقالات آرتشي السينمائية التي ضمّنتَها رسالتكَ تبرهن على أن آرتشي شابّ قدير وذكي. إذا لم يقبل طُرُقي التدريسية، فبإمكاننا البحث عن أحد آخر. لكنني مستعدّة للمحاولة.

كان فيرغسون مبتهجاً. ليست باريس وحسب، بل باريس وتحت سقف واحد مع فيفيان شريبر، باريس تحت العناية الخيّرة للتّجلّي الأكثر بهاءً للجنس اللطيف، باريس على شارع الجامعة في الدائرة السابعة، لِفْتْ بانك باريس برفاهيات الحيّ الغنيّ الهادئ كلها، مجرّد مشوار قصير

إلى كافيه سان جرمان، مجرّد مشوار قصير عبر النهر إلى سينماثيك على بالا دي شايو، والأكثر أهمّيّة من كل شيء، للمرّة الأولى في حياته، *حياته بمفرده*.

كان من المؤلم الاضطرار لقول كلمات الوداع لوالدته ولـ جيل، على وجه الخصوص والدته، التي بكت قليلاً في نهاية عشائهم الأخير المطبوخ في المنزل معاً في ليلة من ليالي منتصف تشرين الأوّل، التي كادت تجعله يبكي هو الآخر، لكنه تجنّب الارتباك المحتمل بأن حدّثهم عن الكتاب الذي بدأ بكتابته في الأيّام التي تلت الفحص الطّبّيّ العسكري، في اللحظة التي لم يكن متأكّداً فيها ماذا سيحصل له، وكان حينها يشعر بالضياع المطبق، كتاب صغير يحمل الآن عنواناً كان حاضراً ويصعب تغييره، *كيف أنقذ لوريل وهاردي حياتي*؟ الذي كان في الأساس كتاباً عن والدته، قال، والسنوات الصعبة التي عاشوها معاً بين ليلة حريق نيوارك ونهار زواجها من جيل، كتاب يقسم إلى ثلاثة أجزاء، "السلوان المجيد" وهو الأوّل، عبارة عن عرض بالأفلام كلها التي شاهدوها معاً خلال *الفراغ الحكومي الغريب* والأشهر التي جاءت بعده، أهمّيّة تلك الأفلام بالنسبة إليهم، أفلام الاستديوهات السخيفة تلك التي كانت طاقة إنقاذ الحياة، شاهدناها معاً على شرفات مسارح وست سايد بينما كانت والدته تنفّخ سجائر الشسترفيلد وفيرغسون يحلم بأنه في داخل الفيلم على الشاشات ثنائية الأبعاد أمامه، ثمّ الجزء الثاني واسمه "ستان وأولي،" تاريخ تعلّقه بهذين الأبلهين، وكم لا يزال يحبّهما، ومن ثمّ القسم الأخير، الذي لم يُنجَز بشكل كامل بعد، شيء يحمل عنواناً يشبه "فنّ وقمامة" أو "هذا مقابل ذاك،" الذي سيتبيّن أفلام قمامة هوليوود والتحَف القادمة من بلدان أخرى، ويجادل بقوّة في مسألة قيمة هذه القمامة حتّى لو حمت تلك التحف، وربّما كان لصالحه أن يسافر بعيداً، قال، بعيداً عن أمّه كما هي الآن كي يكتب عنها كما كانت في ذلك الحين، كي يحيا لفترة في فضاءات الذاكرة الشاسعة وكثيفة الازدحام دون مقاطعة من الحاضر، لا شيء يلهيه عن العيش في الماضي طالما أنه يحبّ البقاء فيه.

ابتسمت له أمّه من خلال دموعها. سحقت لفافة نصف مدخّنة بيدها اليسرى، ومدّت يمناها لـ فيرغسون، جذبت ابنها نحوها، وقبّلت جبينه. نهض جيل عن الطاولة، اقترب من حيث كان يجلس فيرغسون، وقبّله بدوره. قبّل فيرغسون كلاً منهما، ثمّ قبّل جيل أمّه، وتبادل الجميع تحية المساء. مع مساء اليوم التالي، تحوّلت الـ *ليلة سعيدة إلى الوداع*، وبعد دقيقة من ذلك، كان فيرغسون يصعد إلى الطائرة، ثمّ يغيب.

لقد كبرتْ قليلاً منذ أن رآها في المرّة الأخيرة، أو بدت أكثر عمراً ممّا كانت في خياله على

مدى السنوات الثلاث الماضية، لكنها كانت في الواحدة والأربعين الآن، وتطرق أبواب الثانية والأربعين، أي أصغر من والدته بسنتين ، رغم أن والدته الجميلة قد كبرت قليلاً في السنوات الثلاث الأخيرة هي الأخرى، ودون أدنى شكّ كانت فيفيان شريبر لا تزال فيفيان الجميلة ذاتها، إلا أنها أكبر قليلاً، هذا كل ما في الأمر، وحتّى لو كانت موضوعياً أقلّ جمالاً من أمّه، فإنها لا تزال بذلك التّوهّج، التّوهّج الفتّان المغري بالقوّة والثقة اللذين لم تمتلكهما والدته، لم تتعب والدته الفنّانة المنهمكة بالعمل نفسها بالاهتمام بمظهرها حين كانت تلتقي بالعالم الخارجي، في حين أن فيفيان شريبر ألّفت الكُتُب عن الفنّانين، وكانت دائماً حاضرة في العالم، أرملة ثرية بلا أولاد، وكثيرة *الأصدقاء*، على حدّ تعبير جيل، امرأة تشرب وتقصف مع الفنّانين والكتّاب والصحفيين والناشرين وأصحاب صالات العرض ومديري المتاحف، بينما والدة فيرغسون أقرب إلى الأمّ خافتة الوهج التي كانت منطوية في عملها دون أواصر حميمة تتجاوز زوجها وابنها.

على المقعد الخلفي من سيّارة الأجرة التي أقلّتهما من المطار إلى المدينة، سألته فيفيان (وليس السّيّدة أو مدام شريبر، كما أوصته في المطار، ليس إلا فيفيان أو فيف) مائة سؤال عنه وعن خططه وعن ما يأمل إنجازه بالعيش في باريس، التي أجاب عليها بالتّحدّث عن الكتاب الذي بدأه في الصيف، عن تصميمه على تطوير لغته الفرنسية، إلى درجة التّحدّث بها كما يتحدّث الإنكليزية، عن توقه للانغماس في القائمة التي اقترحها جيل للقراءة والتّبلّل بكل كلمة من تلك الكُتُب المائة، عن مشاهدة أقصى ما يمكنه من الأفلام وتدوين ملاحظاته في المصنّف ذي الحلقات المعدنية الثلاث الذي يضمّ أوراقه المنفصلة، عن طموحه بكتابة مقالات عن الأفلام ونشرها في مجلات بريطانية أو أميركية أو فرنسية ناطقة بالإنكليزية، إذا قبلها محرّرو تلك الدوريات، عن رغبته بلعب كرة السّلّة في مكان ما، والانضمام إلى دَوريٍّ ما إن كان هناك ما يشبه بطولات السّلّة للهواة في باريس، عن احتمال أن يعلّم الأولاد الفرنسيين الإنكليزية، ليدعم مصروفه الذي سيُرسله أهله إليه كلَّ شهر، كنوع من (شغل تحت الطاولة) يقبض بدله نقداً، حيث لن يُسمح له بالعمل في فرنسا، وهكذا مضى فيرغسون المنهك إثر رحلة الطيران بالحديث مجيباً على أسئلة فيفيان شريبر، لم يعد يشعر بالرهبة إزاءها كما عندما كان في الخامسة عشرة، بل بات قادراً على التفكير الصريح ما يكفي الآن لأن ينظر إليها على أنها أمّ أخرى، بل على أنها من المعارف الراشدين وصديقة محتملة، إذ لم يكن هناك من سبب يفترضه لتقديمها غرفة له في مبناها، يتجاوز الباعث الأمومي الهاجع (امرأة بلا أولاد تسعى لأن تعتني بالولد الذي كان من المحتمل أن تحظى به عندما كانت في بداية العشرين من عمرها)، لا، الأمومة بالوكالة ليست القضية هنا، هناك سبب آخر، سبب لا يزال غير معروف استمرّ في إرباكه، ولذلك، حين يفرغ

من الإجابة عن أسئلتها، فسيكون لديه سؤال واحد يوجّهه إليها، السؤال ذاته الذي كان يجول في خاطره منذ تلقّى جيل رسالتها: لماذا تقدّم هذه الخدمة؟ ذلك لا يعني عدم امتنانه، قال فيرغسون، لا يعني أنه لم يكن متشوّقاً للعودة إلى باريس، لكنْ، بالكاد عرف كلّ منهما الآخر، ولماذا تبذل جهداً كهذا لشخص بالكاد تعرفه؟

إنه سؤال وجيه، قالت. أتمنّى لو أعرف الإجابة عنه.

لا تعرفين؟

ليس تماماً.

هل للأمر علاقة بـ جيل؟ كأن تشكريه لما فعله من أجله خلال الحرب، ربّما؟

ربّما. لكنْ، ليس ذلك وحسب. أظنّ الأمر أقرب إلى فقدان الحيلة والسيطرة على الأشياء. استغرقت الكتابة عن شاردان خمس عشرة سنة، والآن وقد انتهى، فإن الشيء المحرّك في حياتي الذي كان الكتاب قد أصبح مكاناً فارغاً.

خمس عشرة سنة. أكاد لا أصدّق خمس عشرة *سنة*.

ابتسمت فيفيان، نوعاً من ابتسامة مكفهرّة، علّق فيرغسون، مع ذلك هي ابتسامة. قالت: أنا بطيئة الاستجابة، يا حبيبي.

لا أزال عاجزاً عن الفهم. ما علاقة المكان الفارغ بي؟

قد تكونُ الصورةَ.

أيّة صورة؟

الصورة التي التقطتها لكَ أمّكَ عندما كنتَ ولداً صغيراً. اشتريتها، ألا تتذكّر؟ وخلال السنوات الثلاث الماضية كانت معلّقةً على حائط الغرفة، حيث أنهيتُ الكتابة عن *شاردان*. لقد نظرتُ إلى الصورة آلاف المرّات. الولد الصغير وظهره إلى الكاميرا، عموده الفقري يبرز والقميص المخطّط يلامس الفقرات، يده اليمينية النحيلة ممدودة، يده منفرشة على السّجّادة، ولوريل وهاردي على الشاشة في المدى، وهو المدى ذاته أمامكَ الذي ابتعدت به الكاميرا عن ظهركَ. النّسَبُ تامة الاكتمال - مهيبة. وهناك كنتَ، بتوحّدكَ كله على الأرضية، ذاهلاً عن ذينك المدَيَيْن. التّجلّي الطفوليّ. توحّد الطفولة. عزلة طفولتكَ *أنتَ*. ولا حاجة للقول إني كلّما نظرتُ إلى الصورة، أفكّر بكَ، بالصبي الذي التقيتُه في باريس منذ ثلاث سنوات، الصبي نفسه الذي كان صبياً صغيراً في الصورة، وبعد التفكير بكَ مطوّلاً، صعبَ عليَّ ألا أفكّرَ بنا كأصدقاء. لذلك عندما راسلني جيل قائلاً إنكَ تريد المجيء إلى هنا، قلتُ لنفسي، رائع، الآن يمكننا أن نكون أصدقاء

حقيقيين. أعرف أن ذلك يبدو سخيفاً بعض الشيء، لكن هذا هو الأمر. أظنّنا سنمضي وقتاً ممتعاً معاً، يا آرتشي.

كانت شقّة الطابق الثاني فسيحة، غرفة الخادمة في الطابق السادس لم تكن كذلك. سبع غرف كبيرة في الأسفل، غرفة ضيّقة في الأعلى، وكلٌّ من الغرف السبع كانت مكتظّة بالمفروشات، مصابيح عمودية، سجّاد فارسيّ، لوحات زيتية، رسومات، صور، وكُتُب تنتشر في كل مكان، في غرفة النوم الرئيسة والمكتب، وعلى امتداد حائط واحد في غرفة الجلوس، شقّة واسعة الأرجاء بسقف مرتفع وحاجة طفيفة للترتيب لأن الغرف كانت كثيرة ما يكفي لأن تستوعب الأشياء داخلها دون أن تعيق حركة المرء، شعور مريح بالـ *هكذا بالضبط ما يجب أن تكون* وليست *صغيرة للغاية* أو *كبيرة أكثر ممّا* يجب، وكم كان فيرغسون مأخوذاً بالمطبخ الضخم، كامل البياض، عتيق الطراز ببلاط الأرضية الأبيض والأسود، وبالأبواب مزدوجة المرايا التي فصلت ما بين غرفة الجلوس وغرفة الطعام، بمقابض الأبواب الفرنسية الرفيعة مقابلَ أكرات الأبواب الثخينة المستعملة في أميركا، والنوافذ المزدوجة الكبيرة في غرفة الجلوس، وقد كُسيَت بستائر مَثنيّة من موسلين رقيق، يكاد يكون شفّافاً، ما أتاح للضوء أن يرشح عبرها طوال ساعات الصباح والظهيرة وغالباً حتّى حلول الغسق. ثمّة نعيم بورجوازي في الشّقّة السفلى، لكن غرفة الخادمة في الطابق السادس، التي كانت فنّيّاً في الطابق السابع من البناء، إذ لا يعدّ الفرنسيون الطابق الأرضي الطابقَ الأوّل، بل الـ *rez-de-chaussée*، لا شيء في الغرفة سوى الجدران العارية والسقف المائل، ومساحة تكفي لسرير ومكتبة ضيّقة من خمسة رفوف، طاولة مكتب صغيرة وكرسي مجْدول يُصدر الصرير، وخزانة أدراج مسبّقة الصنع تحت السرير، ومجلى ماء بارد. تواليت مشترك في الردهة؛ لا رشّاش ولا حمّام. طابق يمكن الوصول إليه بركوب بالمصعد حتّى الطابق الخامس، ثمّ تستخدم الأدراج إلى الطابق الأعلى، وهناك ممرّ خشبي طويل شمل الواجهة الشمالية من البناء، تنتظم صفّاً واحداً على جانبه ستّة أبواب بنّيّة متشابهة، كلّ منها يعود لمالك من ملاك الشقق بدءاً من الطابق رَقْم صفر وحتّى الخامس، كان باب غرفة فيرغسون هو الثاني بينها، في حين شغلتِ الغرفَ الأخرى خادمات إسبانيات وبرتغاليات، اشتغلنَ لدى أصحاب الشقق في الأسفل. كانت صومعة راهب صغيرة كئيبة كما أحسّ فيرغسون، عندما دخلها مع فيفيان صباحَ يومه الأوّل في باريس، لم تكن ما توقّعه على الإطلاق، إنها المكان الأصغر الذي سيسكنه أبداً منذ بداية حياته، إنها حجرة بلا شكّ سيستغرق المرء زمناً حتّى يألفها قبل أن يتعلّم كيف يقطنها دون أن يشعر بأنه يكاد يختنق،

لكنْ، هناك شبابيك، أو شبّاك واحد من جزأين، شبّاك طولاني مزدوج في الحائط الشمالي، وشرفة قزمة محمية بحاجز معدني من جهاتها الثلاث، ومساحتها مناسبة لاستيعاب حجم إحدى عشر قدماً ونصف القدم، ومن تلك الشرفة أو من خلال ذلك الشّبّاك المزدوج، استطاع أن ينظر إلى الشمال، ويبحث عن احتمال رؤية شارع كاي دورسيه، السين، والغراند بالي على الجهة الأخرى من النهر، وعلى امتداد الضّفّة اليمينية وصولاً إلى القبّة العاجية البعيدة لـ Sacré- Coeur في مونمارتر، وإذا أدار رأسه إلى اليسار، واستند إلى حاجز الشرفة، فهناك الـ Champs de Mars وبرج إيفل. ليس سيّئاً. ليس سيّئاً على الإطلاق، أخيراً، لأنه لم يكن هناك من جدال بأنه سيمضي وقته كله داخل تلك الغرفة، التي تفيد في أن تكون مكاناً يكتب ويدرس وينام فيه، لكن المكان الذي سيأكل ويستحمّ ويتحدّث فيه كان شقّة فيفيان في الطابق السفليّ، حيث الطّبّاخة سيلستين تعطيه الطعام كلّما طلب، الأطباق الشهية من القهوة والـ tartines beurrées للفطور في الصباح، والوجبات الساخنة عندما لا يكون قد تناول الشطائر في كافيه صغيرة على بوليفار سان جرمان، والعشاء مع فيفيان أو بدونها في البيت أو العشاء مع فيفيان في المطاعم أو مع فيفيان وأناس آخرين في المطاعم أو حفلات العشاء في شقّة فيفيان أو شقّة الناس الآخرين، وبينما بدأت فيفيان تقديمه ببطء إلى العالم الباريسي المعقّد الذي تنتمي إليه، بدأ فيرغسون يشعر بالاستقرار.

على مدى الأشهر الخمسة الأولى، كان إيقاع روتينه اليومي كالتالي: العمل في كتابه كل صباح من التاسعة إلى الثانية عشرة، الغداء من الظهر وحتّى الواحدة، قراءة الكُتُب وفق قائمة جيل من الواحدة وحتّى الثانية والنصف، وقضاء الساعة والنصف التالية في مكتب فيفيان، يتحدّث إليها عن الكُتُب، التّنزّه لمدّة ساعة في مناطق تجاور ضفّة النهر اليسرى (معظمها في سان جرمان، الحيّ اللاتيني، ومونبارناس)، ثمّ على بوليفار راسبال لحضور دروسه من الاثنين وحتّى الجمعة في الـ أليانس فرانسيه. وإلى أن فرغ من كتابه (الذي حدث بعد أيّام من عيد ميلاده التاسع عشر في آذار)، وإلى أن شعر أن لغته الفرنسية أصبحت متينة ما يكفي لأن يُقلع عن دراستها (أيضاً في آذار)، فقد تقيّد بصلابة بتلك النشاطات الأساسية الثلاثة: الكتابة والقراءة والدراسة، لدرجة استبعاد كل ما سواها، الذي كان يعني في تلك الفترة أنه لم يمتلك الوقت لمشاهدة الأفلام إلا يومي السبت والأحد مساءً وليالٍ متفرّقة من نهاية الأسبوع، لا وقت لكرة السّلّة، ولا وقت لأن يبدأ تدريس الإنكليزية للأولاد الفرنسيين. لم يحدث من قبل أن أبدى فيرغسون مثل هذا الإخلاص والصلابة في تحقيق الغاية، ومثل هذا الالتزام الدؤوب بالمهامّ التي أخذها على عاتقه، لكنْ، أيضاً لم يحدث من قبل أن شعر بهذا القدر من الهدوء

والركون عندما كان الضوء يتسرّب من شبّاكه في الصباح، السعادة الكاملة أن يكون حيث هو، حتّى في تلك الصباحات حين كان يشعر بآثار الثمل أو أنه ليس بكامل عافيته.

كان الكتاب كلّ شيء بالنسبة إليه. الكتاب هو الفرق بين البقاء على قيد الحياة أو عدم البقاء على قيد الحياة، ورغم أن فيرغسون لم يزل شابّاً، لا شكّ أنه شابّ مكتمل ما يكفي لأن يباشر بمشروع كهذا، ميزة أن يبدأ كتاباً في عمر الثامنة عشرة أنه لم يزل قريباً من عمر الصبا، وأنه يتذكّره بشكل جيّد، وبسبب السّيّد دونبار وال *ريفرسايد ريبل* كان قد مضى الآن على شروعه بالكتابة سنوات عديدة، ولم يعد مبتدئاً بكل معنى الكلمة، فقد نشر سبعاً وعشرين مقالة في صحيفة السّيّد دونبار (إحداها كانت قصيرة بحجم صفحتين ونصف على الآلة الكاتبة، وأخرى طويلة بحجم إحدى عشر صفحة على الآلة الكاتبة)، وبعد أن بدأ بتسجيل انطباعاته عن الأفلام ضمن مصنّف الأوراق المتفرّقة، اكتسب عادة الكتابة كل يوم تقريباً، حيث إنه تجمّع لديه أكثر من مائة وستين صفحة في المصنّف الآن، والقفز من *كلّ يوم تقريباً* إلى *كلّ يوم، ولو حلّ جحيم أو طوفان* لم يكن قفزة بقدر ما كان خطوة طبيعية للأمام. وعلى رأس مساهماته خلال السنوات الثلاث الأخيرة كانت النقاشات المطوّلة مع جيل، الدروس المستخلصة من جيل عن كيفية بلوغ الإيجاز والكياسة والوضوح في كل جملة كتبها، كيف يربط جملة بجملة بأخرى، كي يبني فقرة مشدودة الأواصر، وكيف يبدأ الفقرة التالية بجملة إمّا تؤازر أو تناقض صياغات الفقرة السابقة (ذلك يعتمد على حجّتكَ أو غرضكَ)، وقد أصغى فيرغسون إلى زوج أمّه، وتشرب هذه الدروس بشكل جيّد، الذي كان يعني أنه حتّى لو أنه للتوّ أنهى دراسته الثانوية عندما بدأ بالعمل على كتابه، إلا أنه كان، بطبيعة الحال، قد أقسم على الولاء للكلمة المكتوبة.

خطرت له الفكرة بعد إذلال الفحص الطّبّيّ العسكري في الثاني من آب. ليس لأنه كان مجبراً على كشف العلامة السوداء على اسمه الموسوم بكلمتي *سجلّ إجرامي*، بل بسبب الطبيب الذي ضغط عليه للتّحدّث عن الخصوصيات أيضاً، ليس لأنه قُبض عليه وهو يسرق الكُتُب يومَ خبطت يدُ جورج تايلور كتفه، بل كم من مرّات أخرى سرق كُتُباً دون أن يُقبَض عليه، ولأن فيرغسون شعر بالانقباض والخوف من الجلوس في هذا المبنى الحكومي على شارع وايتهول وهو يتحدّث إلى طبيب لدى الجيش الأميركي، فقد قال للرجل الحقيقة كاملة، قال له *عدّة مرّات* ردّاً على سؤاله، لكنْ، ما وراء إذلال إجباره على التنقيب في النشاطات اللصوصية خلال سنته الثانوية الأخيرة؟ كان هناك الإذلال الأكبر باضطراره إلى الاعتراف بـ *رغباته الجنسية غير الطبيعية*، الانجذاب إلى الصبيان بالإضافة إلى البنات، ومن ثمّ طلب الرجل، الذي كان اسمه د. مارك ورثينغتون، من فيرغسون أن يوافيه بالخصوصيات المتعلّقة بذلك الشأن أيضاً، وبينما أدرك فيرغسون أن قول

الحقيقة سيضمن عدم خدمته في الجيش أو البقاء في سجن فيدرالي لمدّة تتراوح بين سنتين وخمس سنوات لرفضه الالتحاق بالجيش، كان من الصعب قول الحقيقة، بسبب الاشمئزاز الذي رآه في عيني الدكتور ورثينغتون، التّقزّز الذي تجلّى بزمّ شفتيه وإطباق فكّيه، لكن الرجل أراد أن يعرف التفاصيل، ولم يكن لـ فيرغسون الخيار إلا أن يقولها، لذلك واحداً إثر آخر استطرد في سرد الممارسات الجسدية التي قام بها في علاقته العاطفية مع الجميل برايان ميشيفسكي منذ بدايات الربيع إلى اليوم الذي غادر فيه برايان نيويورك في بدايات الصيف، ونعم، يا سيّدي، قال فيرغسون، ناما معاً في الفراش عدّة مرّات دون ملابس، هذا ما حصل، كلاهما كان عارياً تماماً، ونعم، يا سيّدي، قال فيرغسون، قبّل كلّ فمَ الآخر المفتوح، وأولج لسانه في فم الآخر المفتوح، ونعم، يا سيّدي، وضع كل منهما عضوه المنتصب في فم الآخر، ونعم، يا سيّدي، كلّ قذفَ في فم الآخر، ونعم، يا سيّدي، قذف كلّ منهما في أو على فردتي الطيز اللتين تحيطان الشرج أو في وجه الآخر أو بطنه، وكلّما قال فيرغسون المزيد، ازدادت علائم الاشمئزاز على وجه الطبيب، وإلى أن وصلت المقابلة إلى نهايتها، كان فيرغسون الذي لن يُجنّد أبداً يرتجف بأطرافه الأربعة مع غثيان حلّ به للكلمات التي اندفعت من فمه، ليس لأنه شعر بالخجل ممّا فعل، بل لأن عينَي الطبيب قد أدانتاه، تطلّع إليه وكأنه منحطٌ أخلاقياً، وتهديد لاستقرار الحياة الأميركية، الأمر الذي سرّب شعوراً إلى فيرغسون بأن حياته قد بُصِقَ عليها من قِبَل حكومة الولايات المتّحدة الأميركية، التي كانت بلاده في نهاية الأمر، شاء أم أبى، وعلى سبيل الانتقام، قال في سرّه وهو يخرج من ذلك المبنى إلى هواء صيف نيويورك الحارّ، إنه سيكتب كتاباً صغيراً عن السنوات المظلمة بعد حريق نيوارك، كتاباً خارقاً وذكياً ومشبَعاً للغاية في حقائق ماذا يعنيه أن يكون المرء حيّاً، لدرجة أن ما من أميركي سيريد أن يبصق عليه مرّة أخرى.

كنتُ في السابعة من عمري عندما احترق والدي حتّى الموت بنار مفتعلي إشعال الحرائق. وُضعت بقاياه المترمّدة في صندوق خشبي، وبعد أن أودعنا، أمّي وأنا، الصندوق في الأرض، بدأت الأرض التي مشينا عليها تميد من تحت أقدامنا. كنتُ مجرّد ولد. كان أبي الأبَ الوحيد لي، وكانت أمّي زوجته الوحيدة. والآن هي زوجة لا أحد، وأنا صبي بلا أب، ابن امرأة، لكنْ، دون وجود رجل.

عشنا في بلدة صغيرة من جرسي، تتاخم نيويورك، لكنْ، بعد ستّة أسابيع من ليلة الحرائق، غادرتْ أمّي وأنا تلك البلدة، وانتقلنا إلى المدينة، حيث لذنا مؤقّتاً بشقّة والدَي أمّي على غربي الشارع الثامن والخمسين. عرّفَ جدّي ذلك بـ "الفراغ الحكومي الغريب." كان يعني بذلك زمنَ الـ لا عنوان ثابتاً ولا مدرسة، وفي الأشهر التي تلتْ، أشهر الشتاء الباردة من أواخر كانون الأوّل

1954 وبدايات 1955، حين كانت أمّي وأنا نجوب شوارع مانهاتن بحثاً عن مكان جديد نعيش فيه ومدرسة جديدة أدرسُ فيها، وغالباً ما احتمينا في ظلام دُور السينما ...

المسوّدة الأولى من القسم الأوّل قبل أن يغادر فيرغسون نيويورك في أواسط تشرين الأوّل. اثنتان وسبعون صفحة مطبوعة كُتبت خلال شهرين ونصف الشهر، بين الفحص الطّبّيّ العسكري والطيران عبر الأطلسي، ما يعادل صفحة واحدة في اليوم، ما كان الهدف الذي نشدَه فيرغسون لنفسه، صفحة واحدة لائقة في اليوم، وما يزيد عن ذلك سيُعدّ معجزة. لم تأته الجرأة لعرض ذلك القسم غير المُراجَع على جيل أو أمّه، ضمن تصميمه على أن يقدّم لهما النسخة النهائية فقط عندما تصبح أفضل حالاً ومكتملة بكل معنى الكلمة، لكن معظم الأفلام التي شاهدها برفقة والدته خلال فترة الفراغ الحكومي الغريب قد نوقشتْ في تلك الصفحات، جنباً إلى جنب مع الفراغ الحكومي الغريب ذاته، ثمّ بداية عمله في هيليارد، حربه مع الله وبرنامجُ الفشل المرغوب مدمِّرُ الذات، الغزوات التي لا حصر لها إلى شرفات دُور السينما لمشاهدة المزيد من أفلام هوليوود مع أمّه خلال عهد السلوان المجيد، تبعَ ذلك عمل أمّه كمصوّرة فوتوغرافية، وتحويل غرفة ألعابه الزاهية ذات يوم إلى الغرفة المظلمة التي كانت تحمّض صورها فيها، أحد عشراً ونصف الشهر من حياته المبكّرة ابتداءً بصباح الثالث من تشرين الثاني 1954، عندما أخبرته أمّه أن والده قد احترق حتّى الموت في حريق نيوارك، وانتهاءً بظهيرة تشرين الأوّل 1955 عندما فتح فيرغسون التلفاز في شقّة الطابق الثالث وتنقّل بين أُغنيّة كوكوز وبطاقات الائتمان إيذاناً بحضور أوّل فيلم شاهده لـ لوريل وهاردي.

استغرقه الأمر أسبوعين حتّى تكيّفَ مع الأشياء المحيطة به، وتصالح مع صغَر غرفته، لكنْ، في الأوّل من تشرين الثاني عاد إلى الكتاب من جديد، وقد تهيّأ لجزء "ستان وأوليّ" بإنشاء قائمة كاملة لأفلامهم حين كانوا لا يزالون في نيويورك ثمّ، بمعونة من زوج الأمّ، والتنسيق مع كليمنت ناولز، مدير قسم السينما في متحف الفنّ الحديث، لحضور أفلام لوريل وهاردي كافّة ضمن مجموعتهم، وغالباً وحده مع جهاز العرض الـ مافيولا، أحياناً عُرضت له على شاشات كبيرة، ولأن فيرغسون دوّن وصفاً لكل فيلم شاهده، كانت الأفلام لا تزال جديدة في ذهنه عندما بدأ الكتابة عنها في باريس. الجدير بالذِّكْر، أن كتاباً واحداً قد أُلِّف بالإنكليزية عن لوريل وهاردي، بيوغرافيا بـ 240 صفحة من القياس المزدوج بقلم جون ماكابي، ونُشر في 1961، وسوى ذلك لا شيء، وليس من كتاب آخر بحسب علم فيرغسون. مات أولي في 1957، وستان العجوز إلى درجة غير مفزعة (في الرابعة والسبعين) مات في شباط 1965، ليس قبل ستّة أشهر من تصوُّر فيرغسون لمخطّطه بالكتابة كيف أنهما أنقذا حياته منذ عشرة أعوام، وحين بدأ كتابة هذا القسم

من الكتاب، لم يستطع التّوقّف عن التفكير بالفرصة التي أضاعها، فلم يكن هناك ما يُسعده أكثر من إرسال مخطوط كتابه إلى ستان عندما تنتهي المسوّدة الأولى. كما الحال مع المقالات التي كتبها حين كان طالباً في نيويورك، كانت مقاربة فيرغسون تتركّز على الأفلام نفسها، الأفلام كما شاهدها لأوّل مرّة كولد في عمر الثامنة أو التاسعة، دون معلومات تتعلّق بالسيرة الذاتية عن أصدقائه معتمري قبّعات البولينغ، لا معلومات تاريخية عن كيفية تشكّل الفريق في 1926 من قِبَل المخرج ليو ماكاري في استوديو هال روتش، ولا شيء عن زيجات أولي الثلاث وزيجات ستان السّتّ (ثلاث منها من المرأة نفسها!). بعيداً عن كتابة كتابه، وإلى درجة كبيرة بأهمّيّة كتابة الكتاب نفسها، فإن الموضوع الأكثر إلحاحاً الذي تملّكَ أفكار فيرغسون كان الجنس، ولغاية الآن، في عمر الثامنة عشرة المتقدّم، وجد أنه يكاد يكون من المستحيل تخيّل ستان لوريل يمارس الجنس مع شخص آخر، ناهيكَ عن زوجاته السّتّ، وثلاث منهنّ كنَّ المرأة ذاتها.

واصل العمل في خلال تشرين الثاني وكانون الأوّل وحتّى منتصف كانون الثاني، مختتماً القسم الثاني من الكتاب بسرد وقائع زيارة جَدّيه المفاجئة إلى الشّقّة على غربي سنترال بارك في ديسيمبر، مثقلَين بالهدايا الكبيرة من شاشة عرض قابلة للطّيّ، وجهاز عرض أفلام 16 مللمتر، وعشرة علب من أفلام لوريل وهاردي القصيرة، القسم الذي كان لسبب غير مفهوم بطول الأوّل نفسه بالضبط، اثنتين وسبعين صفحة، الذي جاء في فقرته الأخيرة: *الأمر البسيط أنه تمّ شراء جهاز عرض مستعمَل - كان يعمل. أمر بسيط أن الأفلام كانت مخدوشة، والصوت بدا أنه يأتي من عمق مغطس الحمّام - كانت الأفلام صالحة للمشاهدة. ومع الأفلام جاءت مجموعة جديدة مكتملة من الكلمات إليّ، كي أروّضها - "sprocket"، مثلاً، التي تبيّن أنها كلمة أرفع شأناً، كي تضعها في الاعتبار من "scorched".*

ثمّ يتوه فيرغسون. القسم الثالث من الكتاب الذي تغيّر عنوانه في الأشهر التي طرأت إلى "خردوات(*) وعباقرة،" وكان يرمي إلى استكشاف الفروق بين الأفلام عالية الفنّيّة والأفلام التجارية، ومعظمها الفروق بين أفلام هوليوود وبقية العالم، وقد أولى فيرغسون اهتماماً مكثّفاً لصنّاعَ الأفلام التي اختار الكتابة عنها، ثلاثة من *رجال خردوات* هوليوود برعوا في إنجاز منتجات تجارية جيّدة في نطاق واسع من الأنواع والأساليب (ميرفن ليروي، جون فورد، هاوارد هوكس) وثلاثة عباقرة من الخارج (إزنشتين، جان رينوار وساتياجيت راي)، لكنْ، بعد قضاء أسبوعين ونصف أسبوع قلقين في محاولة نقل أفكاره إلى الورقة، فهم فيرغسون أن الموضوع الذي يكتب عنه لا علاقة له ببقية الكتاب، ذلك أنه يكتب كتاباً آخر أو مقالاً آخر، وذلك أنه لا مجال ضمن كتابه

(*) Junkyards، مقابر السّيّارات التالفة.

الذي يتحدّث عن الآباء الميتين والأرامل المكافحات والأولاد الصغار المسحوقين لتخمينات من هذا النوع. كانت صدمة أن يدرك إلى أي مدى أساء في التفكير بمشروعه، لكنْ، الآن، بتأثير تلك الانعطافة الخاطئة، أحسّ بأنه عرف كيف يصلح الضرر. وضع العشرين صفحة عن "خردوات وعباقرة" جانباً، وعاد إلى القسم الأوّل، الذي قسمه الآن إلى شطرين، "فراغ حكومي غريب،" الذي غطّى أيّامه ما بعد الحريق، وهيليارد في نيويورك، وأنهاه بالكلمات التي قالتها والدته لبائعة التذاكر في دار سينما على غربيّ الشطر الشماليّ - *حلّي عنّي، يا سيّدة. فقط أعطني بقية نقودي (الفراطة)* - و"السلوان المجيد"، الذي بدأ في بقعة أخرى الآن، وفيرغسون يدخل هيليارد في يومه المدرسي الأوّل هناك، لكنْ، مع ذلك، انتهى بالتلفاز وفيلمه الأوّل لـ لوريل وهاردي. في القسم الثالث، أضاف بعض الفقرات عن ردّة فعل أمّه تجاه المغفّلين، وراجع دعابة *الواجبات اليومية* بشكل أكثر عناية، مع ذلك، ينتهي الفصل بكلمة *scorched* . ثمّ أضاف شطراً رابعاً، "*عشاء على الشرفة*،" الذي فهمه الآن على أنه الخلاصة المنطقية للكتاب، اللّبّ العاطفي للكتاب، وكيف أنه كان أعمى للغاية وأبله للغاية، لدرجة أنه تجاهل المشهد مع أمّه في غرفة الجلوس، أنه راعى تركه خارج الكتاب رغم أن كل شيء في الكتاب كان في واقع الأمر يسير باتّجاه تلك اللحظة، ولذلك، على مدى ثلاثة صباحات من منتصف شباط، ثلاثة صباحات من الخراب والعمل تامّ التركيز، مستشعِراً المزيد من الحياة في الكلمات التي كان يكتبها أكثر من أي مقطع آخر ورد في الكتاب، كتبَ فيرغسون الصفحات العشر التي احتاج تدوينها حول الانهيار العصبي والاعتراف لأمّه، عن فيض الدمع الذي ذرفاه، وهما يجلسان على سجّادة غرفة الجلوس، عن إعادة قولبة الإله - لا - إله - ضدّ - الإله الصامت، وسبب علاماته المتدنّية في المدرسة، ومن ثمّ، بعد أن جفّفا دموعهما، واستجمعا نفسيهما، طبعاً! - ذهبا لمشاهدة فيلم على تقاطع الشارع الخامس والتسعين وبرودواي، حيث أكلا الهوت دوغ في الشرفة، وأردفا ما تناولاه بـ*كوكاكولا غير باردة خَمَدَ فيها الغاز*، وأشعلت هي سيجارة تشسترفيلد جديدة، وشاهدا دوريس داي تغنّي واحدة من أسوأ الأُغنيّات التي كُتبت، *Que Sera، Sera ما سيقع، واقعٌ*، في نسخة هيتشكوك التكنيكولور من *الرجل الذي عرف أكثر ممّا* يجب.

الكتابة عن نفسه لأكثر من ستّة أشهر استغرقته، كي ينهي كتابه الصغير ذي الـ 157 صفحة قد أوصلت فيرغسون إلى علاقة جديدة بنفسه. شعر أنه أكثر حميمية في الانتماء إلى مشاعره، وفي الوقت نفسه أكثر بُعداً عنها، بل يكاد يكون منفصلاً ولا مبالياً، وكأنه خلال كتابة الكتاب قد أصبح بشكل متناقض شخصاً أكثر دفئاً وأكثر برودةً، أكثر دفئاً لحقيقة أنه فتح عوالمه الداخلية وكشفَها للعالم، أكثر برودة لحقيقة أنه استطاع النظر إلى تلك العوالم الداخلية على أنها تنتمي

إلى شخص آخر، غريب، امرئ ما مجهول، وفيما إذا كان هذا التفاعل الجديد مع نفسه الكاتبة أمراً جيّداً أم سيّئاً بالنسبة إليه، أفضل بالنسبة إليه أو أسوأ بالنسبة إليه، فهذا ما لم يستطع قوله. كلّ ما كان يعرفه أن كتابة الكتاب قد أنهكته، ولم يكن متأكّداً إذا كان سيمتلك الجرأة للكتابة عن نفسه مرّة أخرى. عن الأفلام، نعم، وربّما عن أشياء أخرى أيضاً ذات يوم، لكن السيرة الذاتية كانت موجِعة للغاية، الحاجة لأن تكون دافئاً وبارداً كانت عسيرة، والآن وقد أعاد اكتشاف والدته كما كانت في *ذلك الحين*، وجد نفسه يحنّ إليها كما هي *الآن*، يحنّ إليهما هي وجيل معاً، وال *هيرالد تريبيون* على شفا الانهيار، تمنّى أن يزوروه في باريس في أسرع وقت، فرغم أن فيرغسون يكاد يصبح رجلاً، إلا أن هناك الكثير في داخله ممّا لا يزال ولداً، وحيث إنه سكنَ في داخل طفولته للأشهر السّتّة الأخيرة، فليس من السهولة التّملّص منها.

في تلك الظهيرة، نزل من الغرفة، ليذهب إلى حصّة الخميس الدراسية وفيفيان تحمل الصفحات غير المجلّدة من كيف أنقذ لوريل وهاردي حياتي بدلاً من نسخته من هاملت. هاملت يجب أن ينتظر كما قرّر فيرغسون. هاملت الذي لم يفعل شيئاً إلا الانتظار، سيستمرّ في الانتظار قليلاً من الوقت، لأن فيرغسون، والكتاب قد انتهى، كان يستميت لأن يقرأه أحد ما، حيث إنه نفسه ليس مؤهّلاً لأن يقيّم ما كتبه، ولا يعلم ما إذا صادفَ، وكان كتاباً حقيقياً أم كتاباً فاشلاً، إن كانت الحديقة مليئة بالبنفسج والورود أو بحمولة شاحنة من السماد العضويّ. وبوجود جيل على الطرف الآخر من المحيط، كانت فيفيان هي الخيار الأمثل، الخيار الحتميّ، وفيرغسون يعرف أنه يمكن الثقة بها في أن تخصّ عملَه بقراءةٍ عادلة وموضوعية، إذ إنها بطبيعة الحال قد أثبتت نفسها كمعلّمة ممتازة، أبداً حادّة الذهن بشكل مذهل ومستعدّة بدأبٍ لدرسيهما الأسبوعيين، وبما لا يُعدّ من الأشياء التي سيقولانها عن الأعمال التي استغرقا معاً في قراءتها (قراءات متأنّية، طريقة ***explication de texte*** *شرح النّصّ* في مقاطع محدّدة شائكة، كما تجلّى ضمن الفصل الذي يحكي عن جرح أوديسيوس في *المحاكاة* لـ أورباخ)، بل أيضاً حول الأعمال وما وراء الأعمال، الأحوال الاجتماعية والسياسية في روما القديمة، على سبيل المثال، منفى أوفيد، إبعاد دانتي، أو البوح بأن أوغسطين كان من شمال أفريقيا، وبالتالي رجلاً أسود أو أسمر، الدائم الذّكْر في كُتُب المراجع، كُتُب التاريخ، والدراسات النقدية التي يمكن البحث فيها ضمن أيّة مكتبة أميركية ومكتبة المجلس الثقافي البريطاني الأكثر بُعداً، وكان فيرغسون متأثّراً ومستمتعاً في الآن نفسه بأن مدام شريبر الدنيوية mondaine بامتياز، وغالباً العابثة (كيف تضحك في الحفلات؟ وكيف تفرقع بالضحك للنكات الماجنة؟) كانت في الوقت ذاته مثقّفة وجامعية مكرّسة، متخرّجة بدرجة شرف في

سوارثمور، دكتوراه في تاريخ الفنّ جامعة تشير إليها مازحةً بـ Sore Bone (العظم المتقرّح)/ في باريس (أطروحة عن شاردان - محاولتها الأولى في المادّة التي غالباً ما ستصبح كتابَها)، وكاتبة حقيقية ومتدفّقة (كان فيرغسون قد قرأ أجزاءً من ذلك الكتاب)، وبالإضافة إلى إرشاده كيف يقرأ ويفكّر بالأعمال الأدبية على لائحة جيل، كانت تتكبّد عناء توجيه فيرغسون كيف ينظر ويفكّر بالأعمال الفنّيّة في زيارات السبت إلى اللوفر، وإلى، Jeu de Paume ،Musée de l'Art Moderne وGalerie Maeght ، ورغم أن فيرغسون كان لا يزال يجد صعوبة في فهم سبب اضطرارها لتخصيص الكثير من وقتها من أجل تعليمه، فهمَ أن ذهنه ينمو باطّراد بسببها، لكنْ، لماذا؟ يتساءل، لماذا تفعلين ذلك كلّه من أجلي؟ والغامضة فيف ستبتسم دائماً وتقول: لأنني أتمتّع بذلك، يا آرتشي. لأنني أتعلّم الكثير من الأشياء.

في الوقت الذي نزل فيه فيرغسون الأدراج وبيده مخطوطه في تلك الظهيرة من أواسط فبراير، كان قد أكمل أربعة أشهر من إقامته في باريس، وأصبح هو وفيفيان شريبر أصدقاء، أصدقاء مقرّبين، بل ربمّا (فكّرَ فيرغسون أحياناً) في شيء من الحبّ المتبادل بينهما، أو على الأقلّ كان يحبّها، ولم تتوانَ عن كشف أيّ شيء باستثناء الميل الأكثر دفئاً والأكثر تواطؤاً، وعندما نقر على باب مكتبها حسب موعد الساعتين ونصف الساعة بينهما، لم ينتظر حتّى تأذن له بالدخول، لأن ذلك لم يكن ما اعتادا عليه، كل ما كان عليه أن يفعله أن يقرع الباب، ويُعلمها بوصوله، ثمّ يدخل، وهكذا دخل، ووجدها تجلس في مكانها المعتاد على الكنبة الجلدية السوداء بنظّارات القراءة ولفافة مارلبورو مشتعلة بين إصبعيها الثانية والثالثة (لا تزال تدخّن التبغ الأميركي بعد إحدى وعشرين سنة في فرنسا) ونسخة من *هاملت* بالتجليد العادي في يدها اليمنى، النّصّ مفتوح في موضع ما من منتصف الكتاب، وكما أبداً، صورته على الحائط وراء رأسها بالضبط، *آرتشي*، الصورة التي التقطتها له أمّه منذ أكثر من عشرة أعوام، التي أدرك فجأة أنها يجب أن تكون على غلاف الكتاب، إذا أراد أحدهم أن ينشره (حظّاً سعيداً!)، وحين أشاحت فيفيان بنظرها عن الكتاب، وابتسمت لـ فيرغسون، عبرَ فيرغسون الغرفة دون أن يقول كلمة، وأودَعَ المخطوط عند قدميها.

أنهيتَه بشكل كامل؟ سألتْه.

أنهيتُه بشكل كامل، قال.

عظيم، يا آرتشي. برافو.

أتساءل إذا كان يمكننا تجاوز هاملت لهذه الظهيرة، وبذلك ستتمكّنين من إلقاء نظرة عليه بدلاً من ذلك. إنه قصير. أشكّ في أنكِ ستحتاجين لأكثر من ساعتين أو ثلاث لإنهائه.

لا، يا آرتشي، سأحتاج وقتاً أطول من ذلك. أفترضُ أنكَ تريد رأياً حقيقياً، صحيح؟

بالتأكيد. وكلّما تفتّق ذهنكِ بشيء ما، لكِ مطلق الحُرّيّة في أن تدوّنيه. الكتاب ليس النسخة النهائية، ختمتُه كي أُحضره معي الآن. لذلك اقرئيه والقلم بيدكِ. اقترحي التعديل، التحسين، الحذف، وكلّ ما يخطر لكِ. أشعر بالنفور منه، لا أستطيع النظر إليه أكثر من ذلك.

هذا ما سوف أفعله. قالت فيفيان. سأبقى هنا، ويمكنكَ أن تخرج في نزهة، للعشاء، لمشاهدة فيلم، لأي شيء قديم تريده، وحين تعود إلى البيت، اصعدْ مباشرةً إلى غرفتكَ.

تتخلّصين منّي، هاه؟

لا أريدكَ بالجوار وأنا أقرأ كتابكَ. سيكون هناك الكثير من التشويش الذهنيّ. *Tu comprends*? أتفْهم؟

نعم، بالتأكيد *Oui، bien sûr*.

سنلتقي في المطبخ صباح الغد، الساعة الثامنة والنصف. ذلك سيفسح لي بقية الظهيرة والمساء كله، والليل إذا اقتضى الأمر.

وماذا عن عشائكِ مع جاك وكزيستين؟ أليس من المفترض أن تلتقي بهما في الثامنة؟

سألغي العشاء. كتابكَ هو الأهمّ.

في حال كان جيّداً. إذا كان سيّئاً، ستصبّين لعناتكِ عليَّ لإضاعة فرصة العشاء.

لا أتوقّع أنه سيكون سيّئاً، يا آرتشي، لكنْ، حتّى لو كان كذلك، يبقى كتابكَ أهمّ من العشاء.

كيف يمكنكِ أن تقولي ذلك؟

لأنه كتابكَ، *كتابكَ الأوّل*، ولا يهمّ كم كتاباً ستكتبه في المستقبل، فلن تكتب كتابكَ الأوّل مرّة أخرى.

بمعنى آخر، أني فقدتُ بتولتي.

ذلك هو الأمر. لقد فقدتَ بتولتكَ. وسواء أتممتَ الأمر بنَيْكٍ جيّد أو نَيْكٍ سيّئ، فلن تعود بتولاً من جديد.

في الصباح التالي، دخل فيرغسون المطبخ قبل الثامنة بدقائق، آملاً أن يشجّع نفسه بكوب أو اثنين من الـ café au lait قبل أن تأتي فيفيان، وتنطق حكمها على ادّعائه البائس أنه كتاب، وترمي به في صفيحة قمامة التاريخ، شيء إنساني مهشّم آخر ليتعفّن وسطَ ملايين الآخرين. بالأحوال كلها، على الرغم من حساباته، كانت فيفيان قد استبَقَتْه، فعندما دخل فيرغسون

كانت تجلس في المطبخ الأبيض إلى طاولة مطلية بميناء أبيض ترتدي برنس حمّامها الصباحي الأبيض مع صفحات مخطوطه البيضاء والسوداء، وقد استقرّت ضمن رزمة قرب فنجانها الـ *café au lait* الأبيض الذي أعدّته سيلستين.

Bonjour، Monsieur Archie، قالت سيلستين. *Vous vous levez tôt ce matin*، لقد استيقظتَ باكراً هذا الصباح، مخاطبة فيرغسون بـ *vous* الرسمية التي يستعملها الخدم بدل الـ Tu للمألوفين من العامّة، هوس اللغة الذي لا يزال يزعج أذنه الأميركية.

كانت سيلستين امرأة نشيطة صغيرة الجسم في حوالي الخمسين من عمرها، متحفّظة ووقورة، لكنها لطيفة إلى حدّ بعيد، كما شعر فيرغسون دائماً، ورغم أنها أصرّت على مناداته بـ vous، إلا أنه أحبّ الطريقة التي لفظت بها اسمه بالفرنسية، بتلطيفها الـ ch الثقيلة إلى الأخفّ sh، الذي جعله Ar-shee، الذي جعله بدوره وبدون تردّد يتذكّر الكلمة الفرنسية archive، ar-sheeve. وبينما لا يزال في شبابه، أصبح الآن archive آرشيفاً، ما يعني أنه شخص سيُحتَفَظ به للأجيال - حتّى لو انتمى كتابه إلى صفيحة قمامة التاريخ.

Parce que j'ai bien dormi لأنني نمتُ جيّداً، قال لها فيرغسون. الذي كان من الواضح أنه ليس صحيحاً، فبلمحة سريعة إلى شَعْره الأشعث وعينيه البارزتين سيعلم المرء بأنه شرب زجاجة نبيذ أحمر في الليلة الماضية، وبالكاد استطاع النوم.

نهضت فيفيان، وقبّلته قبلة على كلّ وجنة من وجنتيه، تحيّتهما الصباحية النموذجية، لكنها بعد هنيهة، خلافاً للطقس اليومي، أحاطته بذراعيها، وقبّلته على كلّ وجنة من وجنتيه مرّة أخرى، بَوسَتان busses شديدتان هذه المرّة، قبلتان ارتدّت بعدهما، ودفعتْه إلى الوراء بشكل مفاجئ، أمسكته من ذراعيه، وسألتْه: ماذا حلّ بكَ؟ لا تبدو على ما يرام.

أنا متوتّر.

لا تتوتّرْ، يا آرتشي.

أنا على وشك التّبرّز في بنطالي.

لا تفعل ذلك أيضاً.

وماذا إذا لم أستطع ضبط نفسي؟

اجلسْ، يا غبي، وأصغِ إليّ.

جلس فيرغسون. بعد وهلة، جلست فيفيان هي الأخرى. انحنت إلى الأمام، نظرت في عينَي فيرغسون، وقالت: لا قلق، يا ولد. *Tu piges*؟(هل فهمتَ؟)، *Tu me suis bien*؟

(أتابع ما أقول؟) إنه كتاب جميل، مأساويّ، وأنا أرتعد خوفاً لفكرة أن أحداً ما في عمركَ استطاع أن يكتب شيئاً بهذه الروعة. إذا لم تغيّر كلمة، فإنه قويّ ما يكفي لأن يُنشَر كما هو. بالمقابل، يبقى غير مكتمل، ولأنكَ قلتَ لي أن أمضي وأُدوِّن ما أشاء، فقد وضعتُ خطوطاً في بعض المواضع. حوالي ستّ أو سبع صفحات مقترحة للحذف، أودّ أن أقول، إلى جانب خمسين أو ستين جملة تحتاج إلى أن تُعيد الاشتغال عليها. برأيي. وليس عليكَ اتّباع رأيي بالطبع، لكنْ، هذا هو المخطوط (وهي *تدفعه نحو فيرغسون عبر الطاولة*)، وإلى أن تقرّر ما تريد عمله، لن أقول كلمة. هناك اقتراحات فقط، تذكّرْ، لكنْ، *برأيي*، أظنّ أن التعديلات ستجعل منه كتاباً أفضل.

كيف أشكركِ؟

لا تشكرني، يا آرتشي. اشكرْ أمّكَ الرائعة.

بعد حين، في ذلك الصباح، رجع فيرغسون إلى صفحات مخطوطه، وبدأ يعمل مراعياً ملاحظات فيفيان، التي كان معظمها مركّزاً على الهدف، كما شعر، بين ثمانين إلى تسعين بالمائة من الملاحظات كانت جيّدة، بأي حال، كانت نسبة مئوية كبيرة، الكثير منها صغيرة، لكنها حاسمة ودقيقة، عبارة هنا، صفة هناك، تشذيبٌ حاذق، لكنه قاسٍ، يهدف إلى رفع طاقة النثر، ثمّ الجمل السمجة، وهناك الكثير منها، وليعترف أنه كان يشعر بالخجل، البقع العمياء التي لم يستطع رؤيتها بعد عشرات القراءات، وعلى مدى الأيّام العشرة هاجم فيرغسون تلك الهفوات الأسلوبية والتكرارات المزعجة، حيناً غيّر الأجزاء الصغيرة التي تركتْها فيفيان دون خطّ تحتها، وأحياناً يتراجع عن تلك التغييرات، ويعود إلى الأصل، لكن الشيء الأساسي كان أن فيفيان لم تمسّ هيكل الكتاب، وقلمها لم يبدّل بين الفقرات أو الأقسام، فلم يكن هناك ترميم جدّيّ أو مقاطع مطموسة، وحالما أنهى فيرغسون إدخال التنقيحات إلى مخطوطه المطبوع الملغى، والذي بالكاد يُقرَأ، أعاد طباعة الكتاب من جديد، هذه المرّة بطباعة كربون ثلاثية (مع استعمال ورقَتي كربون)، الذي نتج عنه عمل شيطاني، بسبب نزوعه لنقر المفاتيح الخطأ، لكنْ، عندما يحلّ عيد ميلاده التاسع عشر في الثالث من آذار، سيكون قد قاربَ الانتهاء من ذلك، وبعد ستّة أيّام أخرى، سيكون قد أتمّ العمل.

في تلك الأثناء، كانت فيفيان تتواصل مع العديد من الناس، تستفسر من أصدقائها البريطانيين عن ناشرين محتملين لكتاب فيرغسون، تاركة الأولوية للندن بدل نيويورك، لأن علاقاتها هناك أفضل، وفيرغسون الذي كان جاهلاً عن تلك الأمور المتعلّقة بالنشر كلّها، إن كان في لندن أو في أميركا، ترك الأمر كلّه على عاتق فيفيان، وأسرع في طباعته على الآلة الكاتبة، وكان قد بدأ بالتفكير بمقالته غير المكتملة بعنوان "خردوات وعباقرة،" التي قد تكون أو لا تكون

بذرة لكتاب ثانٍ، ويوشك على إعادة قراءة بعض مقالاته الفرنسية الطويلة بنيّة إعادة تأهيلها (إذا وجدها تستحقّ العناء)، ثمّ نشرها في المجلات، لكنْ، حتّى بعد أن حصرت فيفيان الاحتمالات البريطانية بدارين أدبيتين صغيرتين، بسيطتين، لكنهما مندفعتان تجاه الشؤون المتعلّقة بنشر ما أسمتْه موهبة جديدة، وقد تمنّى فيرغسون ألا تقبل أيّ منهما الكتاب.

أنتَ تقرّر إلى أين سترسله أوّلاً، قالت له فيفيان، وهما جالسان في المطبخ صباحَ عيد ميلاده التاسع عشر، وحين أخبرته أن اسمَي الدارين هما Io Books وLtd، and Thunder Road.

قال فيرغسون بشكل تلقائي Io، ليس لأنه يعرف مَنْ تكون هذه الـ Io بل لأن كلمة Thunder/ الرعد بدت عدوانية بالنسبة إلى كتاب، يحمل اسمَي لوريل وهاردي ضمن عنوانه.

بدأ مهنة النشر منذ أربعة أعوام، قال فيفيان، نوع من الانهماك في عمل يدرّ مالاً، شابّ ثلاثيني اسمه أوبري هال، ناشر للشعراء في المقام الأوّل، يقولون لي، مع بعض القصّ وغير القصّ، جيّد التصميم والطباعة، ورق جيّد، لكنهم ينشرون بين اثني عشر وخمسة عشر كتاباً في السنة فقط، في حين تنشر "ثندر رود" بحدود خمسة وعشرين. ألا تزال تريد Io؟

لماذا لا؟ سوف يرفضونه بالأحوال كلها. وحين نرسله إلى أصحاب ثندر رود سيرفضونه أيضاً.

حسناً، يا سيّد سلبيّ، سؤال أخير. صفحة العنوان. الكتاب سيكون الكتاب بين أيديهم في وقت ما من الأسبوع المقبل، فما الاسم الذي تريد أن تستخدمه لنفسكَ؟

ما الاسم؟ اسمي طبعاً.

أعني آرشيبالد أو آرتشي، أو أ.، أو أ. مع الحرف الأوّل من اسمكَ الأوسط.

تقول كلّ من شهادة ميلادي وجواز سفري إني آرشيبالد، لكنْ، لم ينادني أحد بذلك أبداً. آرشيبالد إسحاق. لم أكن آرشيبالد أبداً، ولم أكن إسحاق أبداً. أنا آرتشي. كنتُ دائماً آرتشي، وسأبقى أبداً آرتشي وحتّى النهاية. ذلك هو اسمي، آرتشي فيرغسون، وهو الاسم الذي سأستعمله لتوقيع عملي. ليس أنه يشكّل فرقاً الآن، بالطبع، من حيث أن لا ناشر يمتلك صحّة عقلية سيتمنّى نشر كتاب غريب صغير كهذا، لكنْ، من المستحسن أن نفكّر بأمر الاسم الآن من أجل المستقبل.

•

هذا ما كان يجري في ساعات نهار فيرغسون خلال الأشهر الأولى في باريس، الرضا بالدراسة الكثيفة والعمل الشّاقّ على كتابه، التّقدّم المتسارع في لغته الفرنسية بعد برنامج صيف كامل في فيرمونت، والدروس في أليانس فرانسيه، العشاء الذي يُحكى بأكمله بالفرنسية مع أصدقاء فيفيان الباريسيين، المحادثات اليومية مع سيلستين، أضف إلى ذلك الأحاديث الطويلة مع

الغرباء في أثناء الوقوف في البار أو تناول شطائر الـ هام خلال وقت غدائه في المقاهي، ما جعله يتحوّل إلى ثنائي اللغة، الأميركي الذي يعيش في فرنسا، قد أصبح مستغرقاً للغاية في لغته الثانية، حيث إن دراسته لم تكن بالإنكليزية، كتابته بالإنكليزية، وكلّ تفاعله مع فيفيان، فلعلّ إنكليزيته قد بدأت بالضمور. غالباً ما كان يحلم بالفرنسية الآن (ذات مرّة، وبشكل مضحك، مع العناوين الفرعية تمرّ تحت الوقائع)، وكان رأسه يطنّ دائماً بتوريات غريبة، وغالباً داعرة ثنائية اللغة، مثل تحويل التعبير الفرنسي الشائع au contraire (على العكس) إلى جناس إنكليزي يقصد إثارة انشداه العامّة: O cunt rare كسٌّ نادر.

كانت الأكساس في باله، بالأحوال كلها، كما الأيور، جنباً إلى جنب مع الأجساد المتخيّلة والمستعادة لنساء ورجال عراة من الحاضر والماضي، فما إن تغرب الشمس في المساء، وتميل المدينة إلى الظلام، حتّى تتداعى عزلته النهارية النشطة إلى نوع خانق من الوحدة في الليل. كانت الأشهر الأولى هي الأقسى عليه، الفترة الأولى حين كان يُقدَّم إلى العديد من الناس، لكنه لم يحبّ أحداً بشكل خاصّ، لا أحد حتّى من بين مليون كما أحبّ فيفيان، وسيلفظ ساعات آخر الليل الخاوية تلك في غرفته الصغيرة القاتلة بالقيام بشيء من بين عدّة أشياء، كي يلهي نفسه عن الوحدة: القراءة (تكاد تكون مستحيلة)، الاستماع إلى الموسيقا الكلاسيكية على راديو الترانزستور الجيبيّ (ممكن أكثر بقليل، لكنْ، ليس لأكثر من عشرين أو ثلاثين دقيقة كحدّ أقصى)، القيام بجزء من عمله على كتابه (صعب، لكنه أحياناً مثمر، وأحياناً عقيم)، الخروج بغرض استعراض الأفلام في الصالات خلف وحولَ بوليفار سان ميشيل (ممتع في أغلب الأحيان، حتّى لو كان الفيلم أقلّ من جيّد، لكنه حينها سيعود إلى غرفته في الثانية عشرة والنصف، وستكون الوحدة بانتظاره)، التجوال في شوارع Les Halles بحثاً عن مومس عندما تحتدم مشكلة الكسّ - الأير، وتصبح خارج السيطرة (غمغمة العانة حين عبور عاهرات الرصيف كلهنّ، تخفّف الرغبة مؤقّتاً، لكن الجنس كان جافّاً ومشؤوماً، نيكاً متجرّداً من الاعتبارات كلّها، الذي ملأه حتماً بالذكريات الموجِعة عن جولي في أثناء مشاويره الطويلة في الليل، وبمصروف أسبوعي، لا يتجاوز الثمانين دولاراً من أمّه وجيل، فإن سقطات العشرة والعشرين دولاراً تلك يجب أن تبقى بالحدّ الأدنى). كان الحلّ الأخير في الكحول، الذي قد يكون جزءاً من الحلول الأخرى أيضاً، الشرب والقراءة، الشرب والاستماع إلى الموسيقا، الشرب بعد العودة من السينما أو عاهرة جديدة حزينة العينين - الحلّ الوحيد الذي يحلّ أيّ شيء متى أصبحت الوحدة طاغية عليه. ولأنه أقسم على الإقلاع عن الويسكي بعد واحدة من عدّة مرّات من الغيبوبة وفقدان الوعي في نيويورك، تحوّل فيرغسون إلى النبيذ الأحمر كدواء اختاره لنفسه، وبلترٍ من vin ordinaire يُباع بسعر زهيد، مقابل فرنك

واحد، في بعض محلات البقالة القريبة من مكان تناوله الغداء (عشرين سنتاً للزجاجة المجرّدة من أيّة علامة تجارية في المتاجر ستتبدّد في نزهة ضمن الدائرة السادسة)، كان لدى فيرغسون دائماً واحدة أو اثنتين من تلك الزجاجات المخبّأة في غرفته، وسواء خرج أو بقي في ليلة ما، فإن نبيذ الفرنك الواحد كان البلسم الشافي لتعجيل النعاس والاستغراق السريع في النوم، رغم أن تلك الخمور الرديئة التي لا تحمل اسماً قد تكون قاسيةً على جسده، فغالباً ما وجد نفسه مشوّشاً، ويغالب القشعريرة، والصداع عندما يستيقظ في الصباح.

بصورة وسطية، كان يتناول العشاء وحيداً مع فيفيان في الشقّة مرّة أو اثنتين في الأسبوع، طعام تقليدي في الطقس البارد مثل cassoulet، pot au feu وboeuf bourguignon، تعدّه وتطهوه سيلستين، التي لا زوج لها ولا عائلة في باريس، وكانت دائماً عند الطلب الهاتفي لأي خدمة إضافية حين تُطلَب منها، تلك الوجبات طيّبة المذاق التي قلّما قاومَ الجائعُ الأبدي فيرغسون الدفعة الثانية وأحياناً الثالثة من الطبق الرئيس، وكان ذلك خلال مرّات العشاء الهادئة التي ضمّت شخصين، ذلك أنه وفيفيان أصبحا صديقين، أو رسّخا الصداقة التي نشأت بينهما منذ البداية، كل منها يشارك الآخر قصص حياته، وأكثر ما عرفه ولم يكن يتوقّعه عنها: وُلدت ونشأت في شطر فلاتبوش من بروكلن، مثلاً، القسم نفسه من البلدة الذي عاش فيه آرتشي الأصليّ، يهودية على الرغم من اسم العائلة غرانت (الذي حثّ فيرغسون على سرد قصّة كيف، في يوم واحد، انتقل جدّه من اسم ريزنيكوف إلى روكفلر إلى فيرغسون)، ابنة طبيب ومعلّمة مدرسة درجة خامسة، أصغر بأربع سنوات من أخيها العالم المتألّق، دوغلاس، صديق جيل المقرّب في فترة الحرب، ثمّ، حتّى قبل تخرّجها في الثانوية، الرحلة إلى فرنسا في 1939 في عمر الخامسة عشرة لزيارة أقرباء بعيدين في ليون، حيث التقت بـ جان - بيير شريبر، وهو الآخر قريب أبعد، ربّما ابن عمّ من الدرجة الرابعة أو الخامسة، ورغم أنه كان للتّوّ قد احتفل بعيد ميلاده الخامس والثلاثين الذي جعله بسنّ أكبر بكثير منها، *شيء ما حدث*، قالت فيفيان، ومضتْ *شرارة بينهما*، *وارتبطت بـ جان بيير بعلاقة*، أرمل مسؤول في شركة تصدير فرنسية معروفة، وهي للتّوّ بدأت سنتها الثانوية الثانية في مدرسة إيراسموس الثانوية ببروكلن، علاقة لا شكّ ستصدم معظم الغرباء على أن هناك شيئاً من *الانحراف*، لكنه لم يبدُ كذلك لـ فيفيان، التي رأت أنها ناضجة على الرغم من عمرها، وعندما عبَر الألمان الحدود إلى بولونيا في أيلول، لم تعد هناك من فرصة لأن يلتقيا من جديد حتّى تنتهي الحرب، لكن جان - بيير كان سالماً في لوزان، وخلال السنوات الخمس التي استغرقتها فيفيان لإكمال الثانوية والتّخرّج في الجامعة، كانت قد *تبادلت مع جان - بيير مائتين وأربع*

وأربعين *رسالة*، وتعهّدا بالزواج حالما ينجح جيل بحلّ مشكلة دخولها إلى فرنسا بعد تحرير باريس مباشرة في آب 1944.

كان من السارّ الاستماع إلى قصص فيفيان، لأنها بدت مسرورة بسردها، حتّى ولو أنه ربّما *كان* في الأمر شيء من الانحراف أن يقع رجل في الخامسة والثلاثين من عمره في حبّ بنت في الخامسة عشرة، لكن فيرغسون لم يستطع منع نفسه من التعليق أنه هو الآخر كان في الخامسة عشرة عندما جاء للمرّة الأولى إلى فرنسا، حيث التقى من خلال النوع نفسه من الروابط العائلية بـ فيفيان شريبر، التي لم تكن تكبره بعشرين سنة وحسب، بل بثلاث وعشرين سنة، أيضاً لماذا يُقلِق نفسه بحساب السّنّ عندما يُثبَت أن شخصاً كان أصغر من نصف عمر الآخر، وعلى مدى أشهر الوحدة الأولى في باريس كان فيرغسون يشعر بالتوق إلى فيفيان، ويتمنّى أن ينتهي بهما المطاف إلى الفراش معاً، نظراً لأن حياتها العاطفية وزواجها قد ارتهن بمشاكل العمر، كان من الممكن أن يتساءل ما إذا كانت مستعدّة لتجريب الاتّجاه المعاكس معه، أن تكون الأكبر عمراً هذه المرّة، ويحتلّ هو الموقع السابق كالأصغر عمراً في ما لا بدّ أنها ستكون مغامرة مُسْكِرة في الانحراف الجسدي. كان يراها جميلة، في المحصّلة، كبيرة مقارنةً به، لكنها ليست كبيرة في المنظور الشمولي للأشياء، امرأة لا تزال تومض بالإحساس والإغراء، ولم يكن هناك من شكّ يعتريه أنها وجدتْه جذّاباً، إذ طالما أُشيرَ إليه أنه وسيم ورائع للغاية عندما كانا يذهبان للعشاء، وماذا إذا كان السبب الحقيقي والسّرّيّ لدعوتها له كي يعيش معها - أنها كانت تحلم بجسده، وأنها كانت تريد اقتحام جسده الشّابّ؟ ذلك سيتبدّى عن سخاء لا يفسّر تجاهه، الإيجار المجّاني والطعام المجّاني، التدريس المجّاني، الملابس التي اشترتها له خلال تسوّقهما الأوّل السريع في سوق لو بون أواسطَ تشرين الثاني، القمصان والأحذية والبلوزات الغالية كلها التي نبعَتْ في ذلك اليوم، السراويل الثلاثة القصيرة، السترة الرياضية مع الفتحتين السفليين من الخلف، المعطف الشتوي واللفحة الصوفية الحمراء، أفخر أنواع الملابس الفرنسية، الملابس ذات الموضة الحديثة التي تسرّ النفس لارتدائها، ولماذا تفعل هذه الأشياء كلها إذا لم تكن تشعر بالتوق إليه، بالتوق المحموم نفسه الذي يشعره تجاهها؟ دمية الجنس. هذا هو التعبير الذي يصف الحالة، وبالتأكيد، سيكون بكل سعادة دمية الجنس لها إذا كان ذلك ما تضمره، لكنْ، رغم أنها نظرت إليه وكأن ذلك بالضبط ما تضمره (نظرات الرغبة العميقةُ المسلّطة إلى وجهه، عيناها تتفحّصان أدقَّ ملامحه)، لم يكن في وضع يسمح له بالتّصرّف، بما أنه الطرف الأصغر عمراً، لا حقّ له بأن يقوم بالخطوة الأولى، الأمر يتوقّف على فيفيان بأن تمدّ اليد له، لكنْ، ليس بقدر ما يتوق إليها، لأن تضمّه بذراعيها وتقبّل شفتيه، أو أن تلمس وجهه برؤوس أصابعها، ولم تفعل.

كان يراها بشكل يوميّ تقريباً، لكن تفاصيل حياتها الخاصّة لغز بالنسبة إليه. هل لديها عشيق؟ تساءل فيرغسون، أو عدّة عشّاق، أو سلسلة من العشّاق، أو لا عشيق بالمرّة؟ أكانت المرّات التي نهضت فيها عن عشائهما الثنائي العاشرةَ ليلاً، وغادرت دليلاً على أنها كانت في الطريق إلى موعد في فراش رجل في مكان ما ضمن المدينة، أو كانت فقط ذاهبة لتناول مشروب آخر الليل مع أصدقائها؟ وماذا عن خروجها المتقطّع في عطلة نهاية الأسبوع، بمعدّل مرّة أو مرّتين في الشهر، معظمها إلى أمستردام، كما قالت، حيث بدا من المعقول أن يفكّر المرء بأن رجلاً قد يكون بانتظارها، لكنْ، علاوة على ذلك، وقد نُشر كتابها عن شاردان، ربمّا تبحث عن موضوع جديد، لتكتب عنه، فاختارت رامبرانت أو فيرمير أو فنّان هولندي آخر، يمكن العثور على عمله في هولندا. أسئلة لا سبيل إلى إجابات عنها، ولأن فيفيان تحدّثت بحرّيّة عن الماضي، وليس عن الحاضر، على الأقلّ ليس عن الشؤون الشخصية في الحاضر، الروح الوحيدة التي شعر فيرغسون نحوها برابطة في باريس كلها، الإنسان الذي يحبّه، كان أيضاً غريباً بالنسبة إليه.

عشاء أو اثنان لشخصين مرّة واحدة خلال الأسبوع في الشّقّة، عشاءان أو ثلاثة خلال الأسبوع في المطاعم، غالباً مع أناس آخرين، أصدقاء فيفيان، شلّتها من أصدقاء باريس القدامى من عوالم الفنّ والأدب المتشعّبة، لكنْ، المتداخلة، رسّامون ونحّاتون، أساتذة جامعات في تاريخ الفنّ، فنّانون كتبوا عن الفنّ، أصحاب صالات عرض وزوجاتهم، وجميعهم متقدّمون للغاية في مجالات عملهم، الذي يعني أن فيرغسون كان دائماً الشخص الأصغر عمراً بين مَن يجلسون إلى الطاولة، الذي يُظنّ أنه دمية فيفيان الجنسية، كما أدرك، حتّى لو كانت ظنونهم خاطئة، وبينما تقدّمه فيفيان على أنه *ابن زوجة أحد أعزّ أصدقائها الأميركيين*، إلا أن عدداً لا بأس به من الناس في وجبات عشاء المطاعم لأربعة أو ستّة أو ثمانية أشخاص كانوا يتجاهلونه ببساطة (لا يمكن أن يكون هناك أكثر برودة وغرابة من الفرنسيين، كما اكتشف فيرغسون)، في حين كان آخرون يميلون، ليُصبحوا أقربَ إليه، ليتاح لهم معرفة كلّ شيء عنه (لا أحد يمكن أن يكون أكثر دفئاً وديمقراطيةً من الفرنسيين، كما اكتشف أيضاً)، لكنْ، حتّى في الليالي التي كان يُتجاهل فيها، كانت هناك متعة التواجد في المطاعم، المشاركة في الحياة الطّيّبة التي تقدّمها أماكن كهذه، ليس فقط الجمع الكبير في La Coupole، الذي جاء إليه منذ ثلاث سنوات، ولا يزال يمثّل له تجسّدَ الفروقات كلّها بين باريس ونيويورك، باستثناء المطاعم الأخرى التي تقدّم المشروب مثل Fouquet's ، Bofi nger،وBalzar، ومحال القرن التاسع عشر والحانات الصغيرة المكسوة بجدران من ألواح الخشب والأعمدة المحاطة بالمرايا التي تزقزق مع صلصلة الأطباق وهدير دمدمة خمسين أو مائتي وخمسين صوتاً آدمياً، باستثناء الأماكن الأكثر رثاثة في الدائرة الخامسة،

حيث أكل الكسكس والمرقاز للمرّة الأولى في مطاعم تونسية ومغربية تحت الأرض، وكان قد انضمّ إلى متذوّقي كزبرة المطعم الفييتنامي، طعام ألدّ أعداء أميركا، ولمرّتين أو ثلاث في ذلك الخريف عندما تبيّن أن دعوات العشاء نابضة بالحياة بشكل استثنائي، والساعة تندفع باتّجاه منتصف الليل، حين تخرج شلّة الأربعة أو الخمسة أو السّتّة أو السبعة بأكملها للتّسكّع باتّجاه Les Halles طلباً لحساء البصل في Pied de Cocho، المطعم المكتظّ بالزبائن في الساعة الواحدة أو الثانية أو الثالثة فجراً، الشّطّار المتطفّلين على الفنّ وسكارى آخر الليل يجلسون إلى الطاولات بينما عاهرات الجوار يقفنَ إلى البار، يشربنَ الـ *ballons de rouge* قرب الجزّارين غليظي الجسم في صدرياتهم ومآزرهم الملطّخة بالدم، التمازج بين الانفصال المُغالي والتناغم بعيد المنال حتّى إن فيرغسون تساءل في سرّه إن كان يمكن أن يوجد مشهد كهذا في أي مكان من العالم.

الكثير من العشاء، لكنْ، لا جنس، لا جنس من النوع الذي لم يدفع مقابله، ثمّ الندم في النهاية، وما وراء الندم المتكرّر ثمّة غياب الملامسة الجسدية مع أي امرئ باستثناء قبلات وجنتيه الصباحية من فيفيان. كان قد أُعيد انتخاب ديغول رئيساً للجمهورية الفرنسية في التاسع عشر من كانون الأوّل، وكان جياكوميتي يحتضر في سويسرا، بسبب مرض قلب اسمه الشُّغاف - التهاب غلاف القلب، (قتله في الحادي عشر من كانون الثاني)، وكلّما كان فيرغسون يعود ليلاً إلى الغرفة عقب إحدى جولاتِ ما بعد العشاء، كان يُوقَف من قِبَل الشرطة، ويُطلَب منه إبراز أوراقه. في الثاني عشر من كانون الثاني، استهلّ القسم الثالث الضبابي من كتابه، الذي سبّب له الكثير من الصعوبات والعديد من ساعات العمل بلا طائل، إلى أن هجره أخيراً، وقرّر خاتمة جديدة أكثر جدارة. في العشرين من كانون الثاني، وهو لا يزال في خضمّ ذلك الاضطراب المتعلّق بكتابه، تلقّى رسالة من برايان ميشيفسكي، الذي باشر سنته الأولى في كورنيل، وما إن أنهى فيرغسون قراءة أربع فقرات من رسالة صديقه، شعر وكأن البناء قد سقط على رأسه. ليس فقط أن أهل برايان السّيّئين نكثوا بوعدهم أن يدفعوا تكاليف رحلة ابنهم إلى باريس في الربيع، الرحلة التي كان فيرغسون يتطلّع إليها بترقّبٍ مسعور، بل إن برايان نفسه فكّر بأن ذلك ربّما كان لصالحه بالأحوال كله، حيث إن لديه صديقة الآن، والمتعة ترقى إلى ما لا يقلّ عن *أشياء الأولاد*، حقّاً، وأن برايان قد كبُرَ على *ذلك*، إذ إنه بعد أن استقرّ في *الجامعة*، ألقى *بذلك* كله وراءه إلى الأبد، ورغم ذلك، فإن فيرغسون لا يزال *صديقه رَقْم واحد طوال الحياة*، وصداقتهما ستكون *صداقة عادية من الآن فصاعداً*.

عادية. ماذا تعني *عادية*؟ تساءل فيرغسون، ولماذا لم يكن *عادياً* بالنسبة إليه أن يشعر بالطريقة

التي شعر بها فيما يتعلّق برغبته بتقبيل الصبيان الآخرين، وممارسة الجنس معهم، ممارسة الجنس عن طريق مضاجعة الجنسِ الواحد كان *عادياً* تماماً وطبيعياً، كما الجنس عن طريق مضاجعة الجنسين، بل ربّما أكثر *عاديةً* وأكثر طبيعيةً، لأن أيره كان شيئاً فهمَه الصبيان أفضل ممّا فهمته البنات، وبذلك كان أكثر سهولة أن يعرف ما أراده الشخص الآخر دون أن يخمّن، دون حاجة لأن يقوم بألاعيب المغازلة والإغواء التي يمكن أن تجعل الجنس عن طريق مضاجعة الجنسين مربكاً، ولماذا يحجب نصفاً واحداً من الإنسانية باسم الـ*عادي* أو *الطبيعي*، في حين أن الحقيقة تقول إن كلّ امرئٍ كان الجنسين معاً، والناس والمجتمع والقوانين والأديان والبشر في مجتمعات مختلفة كانوا خائفين للغاية من الاعتراف به. كما قالت له راعية البقر في كاليفورنيا منذ ثلاث سنوات ونصف السنة: *أؤمن بحياتي، يا آرتشي، ولا أريد أن أكون خائفة من الأمر.* كان برايان خائفاً. كان معظم الناس خائفين، لكنْ، *'خائف'* هي طريقة غبية للعيش، كما شعر فيرغسون، طريقة مخادعة ومثبطة للعيش، حياة طريقها مسدود، حياة ميتة.

لأيّام عديدة ستأتي، سيتمشّى في الجوار وهو يشعر بالخراب لرسالة قبلة الوداع من متشيفسكي - من إيثاكا، نيويورك، من بين الأماكن كلّها (إيثاكا!) - وكادت الليالي تكون أمرَّ من أن يحتملها في وحدته، استهلك من النبيذ الأحمر ضعفي الكمّيّة المعتادة، وفي ليلتين متعاقبتين تقيّأ في المجلى. فيفيان، التي حظيتْ في رأسها بزوج أعينٍ صالحتين لأن تتوافقا مع عقل متوقّد يقظٍ، تفحّصته باهتمام خلال عشائهما الثنائي الأوّل منذ وصول رسالة برايان، تردّدت لبرهتين، ثمّ سألته ما الأمر؟ قرّر فيرغسون، الذي شعر بالاطمئنان أنها لن تخذله كما فعلت سيدني ميلبانكس في زيارته الكارثية لـ بالو ألتو، أن يقول لها الحقيقة، من حيث إنه كان يحتاج إلى التّحدّث مع أحد ما، وليس هناك من أحد آخر سوى فيفيان.

أصبتُ بخيبة، قال.

أستطيع أن أرى ذلك، قالت فيفيان.

نعم، طنٌّ من الألم هبط عليَّ في الأيّام الأخيرة، لا أزال أحاول التّخلّص منه.

أيّ نوع من الألم؟

ألم حبّ. على شكل رسالة من شخص أهتمّ به للغاية.

أمرٌ قاسٍ.

قاسٍ إلى أبعد الحدود. ليس أنني رُميتُ، بل قيل لي إني لستُ عادياً.

ماذا تعني *عادي*؟

في حالتي، اهتمام شامل بأنواع الناس كلهم.

أفهمكَ.

أتفهميني حقّاً؟

أفترضُ أنكَ تتحدّث عن الفتيات من الناس والصبيان من الناس، أنا مخطئة؟

نعم، أصبتِ.

عرفتُ أنكَ ذلك منذ فترة بعيدة، يا آرتشي. من المرّة الأولى التي التقينا فيها خلال افتتاح معرض أمّكَ.

كيف استطعتِ تبيّن ذلك؟

من الطريقة التي كنتَ تنظر بها إلى الشّابّ الذي يقدّم المشروبات. ومن طريقة نظراتكَ إليّ، من الطريقة التي لا تزال تنظر بها إليّ.

أهي واضحة للغاية؟

ليس تماماً. لكنْ، لديّ إحساس جيّد بهذه الأشياء - من خلال التجربة الطويلة.

تقولين إنّ لديكِ حاسّة بالناس من ذوي الطريقتين؟

كنتُ متزوّجة من أحدهم.

آه. لم أكن أعلم ذلك.

أنتَ تشبه جان - بيير إلى أقصى الدرجات، يا آرتشي. ربّما لهذا السبب أردتُكَ أن تأتي إلى هنا، وتعيش معي. لأنكَ تُذكّرني به جدّاً ... جدّاً.

تفتقدينه؟

بشكل رهيب.

رغم أنه لا بدّ أنه أدّى إلى زواج معقّد. أعني، إذا استمرّيتُ على طريقتي نفسها، لا أظنّني سأتزوّج من أحد ما.

إلا إذا كان الزواج بشخص من ذوي الطريقتين.

آه. لم أفكّر بذلك من قبل.

نعم، قد يكون الأمر معقّداً أحياناً، لكنه يستحقّ الجهد.

أأنتِ تقولين لي إنكِ وأنا متشابهان؟

هذا صحيح. لكننا مختلفان أيضاً، بالتأكيد، إذ إنني، والأمر ليس بيدي، امرأة، وأنتَ، يا صبيَّ الغالي، رجل.

ضحك فيرغسون.

ثمّ ضحكت فيفيان لضحكته، الذي حرضَ فيرغسون على الضحك من جديد، وحين ضحك فيرغسون مرّة أخرة، استجابت فيفيان له مرّة أخرى، وسرعان ما بدأ الاثنان الضحك معاً.

***

في السبت التالي، التاسع والعشرين من كانون الثاني، حضر ضيفان للعشاء في الشّقّة، كلاهما أميركيان، كلاهما صديقان قديمان لـ فيفيان، رجل بحدود الخمسين، اسمه أندرو فليمينغ، الذي كان أستاذ فيفيان الجامعي في التاريخ الأميركي ويدرّس الآن في كولومبيا، وامرأة شابّة بحدود الثلاثين، اسمها ليزا بيرغمان، من لا هويا، كاليفورنيا، التي انتقلت مؤخّراً إلى باريس، لتعمل في مكتب محاماة أميركي، والتي كانت ابنة عمّها الكبرى متزوّجة من أخ فيفيان. بعد حديث فيرغسون مع فيفيان في بداية الأسبوع، والذي أوصلَ إلى اعتراف مزدوج مذهل عن ميولهما نحو الجنسين المتساوية، لكنْ، المتعارضة، تساءل فيرغسون إن كانت ليزا بيرغمان هي مُوقدة نارِ فيفيان الحالية، وإذا كان ذلك، هل يعني أن حضورها إلى العشاء في ذلك المساء كان إشارة بأن فيفيان قد شقّت الباب قليلاً، وأنها كانت تفسح له أن يتلصّص على حياتها الخاصّة؟ أما بالنسبة إلى فليمينغ، الذي كان في باريس كمتفرّغ لفصل دراسي واحد، كي ينهي مسوّدة كتابه النهائية عن ما أسماه *الفتيان الكبار* الأميركيون في فرنسا (فرانكلين، آدامز، جيفرسون)، ومن الواضح جدّاً أنه ليس رجلاً قُدَّ كي يكون لامرأة، من الواضح جدّاً أنه رجل مهتمّ بالرجال فقط، ذلك أنه بعد عشرين أو ثلاثين دقيقة ومض في ذهن فيرغسون أنه كان يشارك في عشائه الكامل منذ تلك الليلة المريعة في بالو ألتو غير أنه في هذه المرّة، كان يعيش حالة من المرح.

بدا جميلاً أن تكون مع أميركيين من جديد، مريحٌ وطليق للغاية، ويبعث أقصى السرور أن يجلس مع أناس تشاركوا التلميحات نفسها، وضحكوا للطرائف نفسها، الأربعة جميعاً مختلفون بالغَ الاختلاف عن بعضهم البعض، ومع ذلك يتجاذبون أطراف الحديث، وكأنهم أصدقاء منذ سنوات، وكلّما تمعن فيرغسون بالطريقة التي تنظر بها فيفيان إلى ليزا، وكلّما تمعّن بالطريقة التي تنظر بها ليزا إلى فيف، أيقن أكثر بأن حدسَه كان صائباً، ذلك أن كلاً منهما كانت *في الغرام*، وذلك ما جعل فيرغسون يشعر بالسعادة لـ فيفيان، حيث إنه كان يريدها أن تحصل على أيّ

شيء وكلّ شيء يرغبه قلبها الطّيّب، وهذه الـ ليزا بيرغمان، كما الاسم الأخير لـ إنغريد وإنغمار، بيرغمان سويدية معاكسة لـ بيرغمان الألمانية واليهودية، لم تكن إلا شخصية ساحرة، قريناً مرحاً ومشرقاً لـ فيف التي تستحقّ الأجمل.

كبيرة. ذلك كان الشيء الأوّل الذي لحظتَه أنتَ فيها، كِبَر الجسد، خمس أقدام وعشر بوصات وضخمة الجثّة، فتاة قوية دون أثر للسمنة، متماسكة وعريضة الكتفين، غليظة، قوية، ذات صدر كبير، وشَعْر أشقر جدّاً، شقراء من جنوب كاليفورنيا، بوجهها المدوّر الجميل، وجفنيها الشاحبين اللذين كادا أن يكونا لا مرئيين، من نوع المرأة التي قد يتخيّلها فيرغسون وهي تُقَلَّد الميداليات في رمي الكرة الحديدية أو قذف القرص المعدني في ألعاب الصيف الأولمبية، أمازونية سويدية - أميركية بدت أنها ترجّلت عن صفحات مجلّة للعراة، لا تعتريها شائبة، عري يراعي الصّحّة، بطلة الإناث في رفع الأثقال على سائر المستوطنات عبر العالم المتحضّر، كما أنها مرحة، مرحة وغير متكلّفة إلى أبعد الحدود، تضحك بين جملة وأخرى تقولها، جملٌ أميركية لذيذة منكّهة بكلمات، جعلت فيرغسون يدرك كم اشتاق لسماعها منذ غادر نيويورك، وقفاتٌ بين مقطع لفظي وآخر مثل dinky، dorky، grotty، snaz-zy، goofy، snooty، crummy، cruddy، crappy، gunky، وwicked، كما في *wonderful* أو *marvelous*، وأي جانب من القانون كانت ليزا تتدرّب عليه في باريس، لم تجب بكلمة واحدة حول الأمر.

على العكس، كان فليمينغ متوسّط العمر قصيراً وبديناً، لا يزيد عن خمس أقدام، مع نوع من مشية متبخترة وكرش كبيرة، تنتأ وراء بلوزته ذات فتحة الـ V التي ارتداها تحت سترته، ويدين صغيرتين مكتنزتين، ووجه مترهّل بلا ذقن، ونظّارتي بومة غير اعتياديتين، بإطار مصنوع من قرن الحيوان، تربّعتا فوق أنفه. بروفيسور شابّ، ودّع الشباب فجأة وإلى غير رجعة. أكاديمي مخضرم مع بعض تأتأة، ورأس يتناقص شَعْره الرمادي الواهي، لكنه حَيّ ومتيقّظ للثلاثة الآخرين الجالسين إلى الطاولة، رجل قرأ الكثير وعرف الكثير، لكنه لم يتحدّث عن نفسه أو عمله هو الآخر، كانت تلك لعبة يلعبونها في تلك الليلة، ليزا المحامية التي لا تتحدّث عن المحاماة، فيفيان الكاتبة في الشأن الفنّيّ لا تتحدّث عن الفنّ، فيرغسون كاتب المذكّرات لا يتحدّث عن ذكرياته، فليمينغ المؤرّخ لا يتحدّث عن الفتيان الأميركيين الكبار في باريس، وعلى الرغم من الزلات المتفرّقة في أثناء التأتأة، عبّر فليمينغ عن نفسه بجمل نقية، لُفظت بجلاء، شارك بشكل فاعل في الحوار العامّ حول الأشياء واللا أشياء كلها، سياسة أوّلاً، *bien sûr*، الحرب في فييتنام وحركة مناهضة الحرب داخل الوطن (كان فيرغسون يتلقّى تقارير نصف شهرية عنها من

ابنة عمّه إيمي في ماديسون)، ديغول والانتخابات الأميركية، انتحار حديث العهد لرجل اسمه جورج فيغون قبيل اعتقاله بتهمة خطف المهدي بن بركة، السياسي المغربي الذي لا يزال مكان وجوده مجهولاً، بل أيضاً استطرادات عديمة الأهمّيّة في مسائل مثل محاولة تذكّر اسم الممثّلة في فيلم بعنوانٍ، لم يستطع أحد أن يتذكّره أو - ليزا برعت في هذه - تلاوة أُغنيّات من البوب الحزين منذ فترة الخمسينيات.

تثاقلت وتيرة العشاء ببطء ومتعة، ثلاث ساعات كسولة من الطعام والحديث وكمّيّات النبيذ الكبيرة، تحوّلوا بعدها إلى الكونياك، وبينما رفع فيرغسون وفليمينغ كأسيهما لشرب الأنخاب، قالت فيفيان شيئاً ما لـ ليزا يفيد بأنها تريد أن تريَها شيئاً ما في مكان ما في الشّقّة (كان فيرغسون قد توقّف عن الإصغاء حينذاك، لكنه تمنّى أنهما ذهبتا لتتعانقا في المكتب أو في غرفة نوم فيفيان)، وبلمح البصر، اختفت المرأتان، الذي تركَ فيرغسون وحيداً إلى الطاولة مع فليمينغ، وبعد وهلة محرجة، لم ينبس أيّ منهما خلالها بكلمة، لأن أيّاً منهما لم يعرف ماذا يقول، اقترح فليمينغ أن يصعدا لزيارة غرفة فيرغسون، التي كان فيرغسون قد وصفها في بداية المساء بـ *الغرفة الأصغر في العالم*، ورغم أن فيرغسون ضحك وعلّق بشكل سخيف أن ليس ثمّة ما يمكن مشاهدته هناك ما وراء الطاولة الغارقة في الفوضى والسرير غير المرتّب، قال فليمينغ إن ذلك لا يهمّ، وإنه ببساطة فضولي لمعرفة كيف تبدو أصغر غرفة في العالم.

لو كان مَن طلب رؤية الغرفة أي شخص آخر غير فليمينغ، لربمّا رفضَ فيرغسون، لكنه كان قد بدأ يألف البروفيسور على جلسة المساء، ويشعر بأنه يميل إليه للُّطف الذي رآه في عينيه، شيء ما رقيق ومتعاطف وحزين، ألم معاناة سببه ما تخيّل فيرغسون أنه قد يكون الإلحاح الداخليّ الدائم لإخفاء حقيقته عن أعين هذا العالم، رجل من جيل رجال الخزانة الذي سلخ الثلاثين سنة الماضية متسلّلاً إلى الأركان الظليلة، ومتفادياً النظرات المريبة لزملائه وطلابه، وكلّهم بالتأكيد ودائماً أسهموا في الحطّ من قدره، بسبب خنوثته، لكنْ، طالما أنه كان يعبّر عن نفسه، ويُبقي يديه بعيدتين عن الأبرياء والمطمئنّين، فسوف يتركونه على مضض يتابع العناية بالعشب في ناديهم الريفي المسمّى رابطة اللبلاب، وطوال العشاء، وبينما فيرغسون جالس هناك يتأمل بكآبة حياة كهذه، بدأ يشعر بالأسى حيال فليمينغ، ربمّا بالشفقة عليه، وهذا ما كان سبب موافقته على صعود الأدراج بدل الرفض، حتّى ولو كانت بداية منحه إحساس أندي كوهن القديم بأن يكون مع شخص قال شيئاً، وعنى شيئاً آخر، ولكنْ، بحقّ الجحيم، فكّرَ فيرغسون، أنه صبي كبير الآن، وليس مضطرّاً لأن يؤوي شخصاً لا يريده، على الأقلّ ليس الرجل العذب، كبير العمر الذي لم يشعر تجاهه بانجذاب جسديّ على الإطلاق.

***

يا إلهي، قال فليمينغ، عندما فتح فيرغسون الباب، وأضاء الغرفة. إنها حقّاً صغيرة جدّاً جدّاً، يا آرتشي.

سحب فيرغسون اللحاف بسرعة فوق الشرشف التحتي البادي للعيان على السرير، وأشار إلى فليمينغ بالجلوس وهو يدير كرسي المكتب، وجلس هو الآخر، وجهه مقابل وجه فليمينغ، قريب منه للغاية في الغرفة المكتظّة حتّى تكاد ركبتاهما تتلامسان. عرض فيرغسون على فليمينغ سيجارة غولواز، لكن البروفيسور هزّ رأسه، وامتنع، ثمّ فجأة بدا متوتّراً ومشتّتاً، ليس واثقاً من نفسه على الإطلاق، كأنه كان يريد قول شيء ما، لكنه لم يعرف كيف يقوله بالضبط. أشعل فيرغسون سيجارة لنفسه، وسأله: أكلّ شيء على ما يرام؟

كنتُ أتساءل ... كنتُ أتساءل كم ... كم ستريد؟

أريد؟ لا أفهم، أريد ماذا؟

كم من ... النقود؟

نقود؟ عمَّ تتحدّث؟

فيفيان تقول لي إنكَ ... تقول لي إنكَ تعاني من نقص للمال النقديّ، أنتَ تعيـ... تعيش على ميزانية شحيحة.

لا أزال عاجزاً عن الفهم. هل تقول إنكَ تريد إعطائي مالاً؟

نعم. سيسعدكَ ... أن ... أن تكون ظريفاً معي.

ظريف؟

أنا رجل وحيد، يا آرتشي. أريدُ أن أُلمَسَ.

الآن فهم فيرغسون. لم يصعد فليمينغ وفي ذهنه خطّة أو أمل بإغوائه، لكنه سيكون مستعدّاً لأن يدفع لقاء الجنس، إذا كان فيرغسون مستعدّاً للمبادرة، يدفع لقاءه، لأنه يعرف أن ما من شابّ سيرغب بلمسه دون أن يتقاضى لقاء ذلك، ولقاء متعة أن يُلمَسَ من قِبَل شابّ مرغوب به، فإن فليمينغ مستعدٌّ إلى تحويل ذلك الشّابّ إلى عاهر، جولي مذكرة تنيكه في طيزه، على الرغم من أنه لم يكن يفكّر بتعابير فظّة كتلك، إذ لن يكون عاهراً أو وكيلَ جنس مجهولَ الاسم باستثناء الجنس بين شخصين، يعرفان بعضهما مسبّقاً، الذي سيحوِّل العملية إلى لفتة عطاء، والرجل الأكبر يعطي الرجل الأصغر بعض المال الذي يحتاجه بشدّة، الذي سيقبض الرجل الأكبر لقاءَه نوعاً مختلفاً من العطاء، وبينما كانت أفكار فيرغسون تدور في رأسه، بين أخذ وردٍّ عن

أن مصروفه الضئيل لا يمكن أن يُعَدّ ضائقةً بسبب الإيجار المجّاني والطعام المجّاني واللباس المجّاني الذي أتى كلّه من العيش تحت حماية مُحسنَته الموسرة، مع ذلك، فإن العيش على ما يبلغ عشرة دولارات في اليوم للاحتياجات الأخرى كلها لم يكن سهلاً، ليس يكون هناك الكثير من الكُتُب السينمائية التي يريد شراءها، ولا يستطيع تأمين ثمنها، ليس عندما يتوق لجهاز تسجيل ومجموعة أشرطة يستمع إليها في الليل بدلاً ممّا تبثّه إذاعة فرانس موزيك المملّة، المزيد من المال سيساعده على الانطلاق، المزيد من المال سيجعل الحياة أفضل بعشرات السُّبُل المختلفة، لكنْ، هل هو على استعداد لأن يفعل ما يريده فليمينغ أن يفعله بغرض أن يكسب بعض المال؟ وماذا سيشعر به حين يمارس الجنس مع شخص منفِّر جسدياً له؟ كيف سيكون *طعم الإحساس بذلك*؟ وحين سأل فيرغسون نفسه ذلك السؤال، فجأةً تخيّل نفسه كم يمكن أن يصبح غنياً بالانغماس في ممارسات كهذه كمهنة جانبية، مضاجعة السّيّاح الأميركيين متوسّطي العمر الذين يعانون من العزلة مقابل المال، شاب فحل تحت طلب الرجال، عشيق ساحرٌ للسّيّدات المُسنّات، ورغم ذلك كان هناك شيء خطأ من الناحية الأخلاقية يكتنف الأمر، افترض فيرغسون، شيئاً ما قذراً، كي يستخدم الكلمة التي استخدمتها ليزا مرّات عديدة في ذلك المساء، كان مسألةَ جنس، الذي لم يكن خطأً أبداً عندما يريد شخصان ممارسته، وإلى جانب المال، سيكون هناك مكافأة إضافية في أن يعيش عدّة رعشات بينما يعمل من أجل ذلك المال، الذي يكاد يكون مضحكاً عندما تتوقّف وتفكّر بالأمر لهنيهة، من حيث إن الرعشة كانت بلا جدال الشيء الوحيد الجميل في العالم الذي لم يستطع المال شراءه.

مال فيرغسون للأمام، وقال: لماذا قالت لكَ فيفيان إني في عوز إلى المال؟

لا أعرف، أجاب فليمينغ. كانت فقط تتحدّث إليّ عنكَ و... و... ذكَرتْ أنكَ تعيش ... ماذا كانت الكلمات ... جارح بحق... بحقيقيّتكَ.

وما الذي جعلكَ تشعر بأنني سأهتمّ بأن أكون *ظريفاً* معكَ؟

لا شيء، فقط أُمنيّة. مجرّد ... إحساس.

ما المال الذي في ذهنكَ؟

لا أعرف. خمسمائة فرنك؟ ألف فرنك؟ أنتَ قلْ لي، يا آرتشي.

ماذا عن ألف وخمسمائة؟

أعتـ... أعتقد أن بإمكاني أن أفعل ذلك. دعني أُلقِ نظرة.

وبينما راقب فيرغسون فليمينغ يدسّ يده إلى جيب صدرٍ داخلي في سترته، ويسحب حافظة

نقوده، فهمَ أنه ماضٍ واقعياً في الجنس، ذلك أنه مقابل المبلغ المالي نفسه الذي سيستلمه من أهله كمصروف شهريّ سيخلع ملابسه أمام هذا الرجل السمين والأصلع، ويمارس الجنس معه، وبينما بدأ فليمينغ عَدّ أوراقه النقدية وهي في الحافظة، أيقن فيرغسون أنه كان خائفاً، *خائفاً حتّى الموت*، خائفاً بطريقة خوفه نفسها حين كان يسرق الكُتُب من 'عالم الكُتُب' في نيويورك، حرارة تحت الجلد تسبّبتْ بما وصفه لنفسه بـ*أذن الخوف*، الحرق الآخذ بالانتشار عبر جسده بسرعة خاطفة حتّى إن الطَّرْق داخلَ رأسه تاخمَ الإثارة، نعم، هذا هو الأمر، الخوف وإثارة عبور حافّة ما هو متاح، ورغم أن فيرغسون وُجد مذنباً، وكان من الممكن قضاء ستّة أشهر في السجن، الذي كان من المفترض أن يعلّمه نظرياً ألا يدنو من الحافّة مرّة أخرى، كان لا يزال يستحثّ ساخراً الـ لا - الله/ الله - الدّجّال الذي تكرّس في طفولته، كي ينزل من علاه، ويصفعه، إن كان الله يجرؤ، والآن وقد استخرج فليمينغ اثني عشرة ورقة نقدية من فئة المائة فرنك وستّ ورقات من فئة الخمسين فرنكاً من حافظته، وأعادها إلى جيبه، كان فيرغسون غاضباً جدّاً من نفسه، مشمئزّاً جدّاً من ضعفه، ذلك أنه صدمه سماع القسوة في صوته عندما تحدّث إلى فليمينغ.

ضع النقود على الطاولة، يا أندرو، وأطفئ الضوء.

شكراً، يا آرتشي. لا .... لا أعرف كيف أشكرك.

لم يكن يريد أن ينظر إلى فليمينغ. بل لم يكن يريد رؤيته، وبعدم النظر إليه وعدم رؤيته كان يأمل بالتّوصّل إلى الإحساس بأن فليمينغ لم يكن موجوداً، أنه كان أحداً آخر صعد معه إلى الغرفة، وأن فليمينغ نفسه لم يكن حاضراً على العشاء في تلك الليلة، ولم يلتقِ به فيرغسون أبداً، بل لم يعرف أبداً أن رجلاً كأندرو فليمينغ قد وُجد في أيّ مكان على وجه الأرض.

يجب أن تُنجَز العملية في الظلام أو لا تُنجز بالمرّة - وبالتالي أُصدر أمر إطفاء الضوء - لكنْ، الآن وقد نهض فيرغسون عن الكرسيّ، وبدأ يخلع ملابسه، أضيء النورُ في الردهة، الـ***minuterie*** (ضوء لدقيقة واحدة) الذي كان يُضاء مرّة إثر الأخرى من قِبَل أناس مختلفين على مرّ اليوم، ولأنه كان هناك فرجات بين إطار الباب وحوافّ الباب غير الملائمة لذلك الإطار، كان الضوء يتسرّب إلى الداخل، ما يكفي من الضوء لأن يجعل المكان غير مظلم كما يريد، إذ تتكيّف عيناه مع العتمة، ما يكفي من الضوء بالنسبة إليه، كي يتبيّن سطوح جسد فليمينغ المتكتّل العاري الآن، ونتيجة لذلك نظر فيرغسون إلى الأرض، وهو يرفع نفسه إلى هيكل السرير الخشبي المرتفع ذي الأدراج العميقة مسبّقة الصنع تحت فرشته، ومن ثمّ، لحظة استقرّ على الفراش، رفع عينيه إلى الأعلى، وهو ينظر إلى الجدار بينما بدأ فليمينغ بتقبيل صدره العاري، وسَلَّ يده نحو عضوه الآخذ بالانتصاب ببطء، الذي، بعد مداعبة مكثّفة الانفعال، أُدخلَ في فم فليمينغ. بالإضافة

إلى ذلك، عندما وجد فيرغسون اللا مقاوِم نفسه على ظهره، ولم يعد قادراً على النظر إلى الجدار، توجّه بأنظاره إلى النافذة بدلاً عن ذلك، وهو يفكّر بأن المنظر في الخارج قد يساعده على نسيان ما في الداخل، حبيس غرفته متناهية الصغر، لكنْ، حينذاك تماماً أُضيء النور من جديد، ليحيل النافذة إلى مرآة، عكستْ فقط ما في الداخل، وهناك كان فليمينغ على السرير، أو بالأحرى كان فليمينغ هناك فوقه وهو فوق السرير، وطيز الرجل المسطّحة، المترهّلة، مشرعة في الجوّ، ولحظةَ رأى فيرغسون تلك الصورة في النافذة التي باتت مرآة، أغلقَ عينيه.

كان أبداً يمارس الحبّ وعيناه مفتوحتان، أبداً وعيناه مفتوحتان على اتّساعهما، لأنه أحبّ التّطلّع إلى الشخص الذي كان معه، وباستبعاد أندي كوهن وبعض مومسات Les Halles، أبداً لم يعاشر أحداً دون أن يشعر بانجذاب عاتٍ تجاهه، فمتعة أن تَلمسَ وتُلمَس من قِبَل شخص تهتمّ له كانت تتعزّز بالنظر إلى ذلك الشخص أيضاً، للأعين دور كبير في المتعة كأيّ جزء آخر من الجسد، حتّى الجلد، لكنْ، الآن وللمرّة الأولى منذ استطاع أن يتذكّر وجوده مع أحد آخر، كان فيرغسون يمضي في الأمر على عماه، الذي فصله عن الغرفة واللحظة الراهنة، ورغم أن فليمينغ كان يسأل فيرغسون أن يُمسك عضوه، ويبصق عليه، إلا أن فيرغسون لم يعد حاضراً بكلّيّته، كان ذهنه يتفصّد عن أخيلةٍ، لا علاقة لها بما يجري الآن على الفراش الذي استقرّ في غرفته الكائنة في الطابق الأعلى المطلّة على شارع l'Université، كان أوديسيوس وتليماخوس يبكيان متعانقَين، كان فيرغسون يمسح بيده على طيز برايان ميشيفسكي الجميلة الغنية بالعضلات نصف القمرية، التي لن يراها ويلمسها بعد الآن، وجولي المسكينة، التي لم يعرف اسمها الأخير أبداً، تتمدّد ميتة على فرشة عارية داخل غرفتها فيHôtel des Morts فندق الموتى.

الآن يطلب فليمينغ من فيرغسون أن يلجَهُ، من فضلكَ، قال، نعم، إذا أحببتَ، شكراً لكَ، عميقاً فيه، فيه حتّى نهايته، وحين أتاح فيرغسون الساكن في عماه لعضوه المنتصب الدخول في الفتحة الواسعة، نخرَ البروفيسور، وبدأ يئنّ، ثمّ مضى في الأنين وعضو فيرغسون يتحرّك في داخله، دفقة أصوات مُحشرجةٍ، لم يكن من سبيل إلى كتمها، لأن فيرغسون لم يكن مهيّأً لها، خلافاً للحالات المرئية، التي يكون قد تهيّأ لها، ونجح في طمسها، ولكنه حتّى لو سدّ أذنيه، ستبقى الأصوات مسموعة، لا شيء يوقفها أبداً، ومن ثمّ انتهى كل شيء فجأةً، كان انتصاب فيرغسون يلين وينكمش، لم يعد الاستمرار ممكناً، ولا الانتصاب، ولا كلّ ما كان يفعله، كلّ شيء انتهى الآن، كان ينسلّ خارجاً، وقد انقضى الأمر دون أن ينقضي، لكنه انقضى بما يتعلّق بذلك كله، انقضى للأبد.

آسف، قال. لا أستطيع الاستمرار بذلك.

استقام فيرغسون في جلوسه على السرير، وظهره إلى فليمينغ، ودفعة واحدة ملأ دفقُ هواء رئتيه، ملأه حتّى الاختناق، ومن ثمّ كان الهواء يندفع منه على شكل نشيج مديد متّصل، صوت محاولة إقياء كان صاخباً كما السعال الصاخب، صاخباً كما نباح كلب، عواء مُقطّع اندلع من قصبته الهوائية، وانفجر في الجوّ المحيط به، وتركه يلهفُ للهواء.

لم يكن ثمّة إحساس أسوأ من هذا الإحساس. لا عار أكثر منه روعاً.

وبينما بكى فيرغسون بهدوء بين يديه، ربّت فليمينغ على كتفه، وقال إنه آسف، لم يكن يجب أن يصعد إلى الغرفة، ويطلب منه أن يفعل ذلك، كان خطأً، لم يعرف كيف أمكنَ أن يحدث، لكنْ، أرجوكَ، قال، يجب ألا تترك الأمر يُحبطكَ، إنه بسيط، كانا قد تناولا الكثير من المشروبات، ولم يكونا بكامل اتزانهما الذهني، كان غلطةً، خذ ألف فرنك أخرى، قال، خذ هذه الألف وخمسمائة فرنك الإضافية، ومن فضلكَ، يا آرتشي، اذهبْ، وأنفقْها على شيء جميل لكَ، شيء يسعدك.

نزل فيرغسون عن السرير، والتقط النقود عن الطاولة. لا أريد مالكَ كريه الرائحة، قال وهو يجعّد الأوراق النقدية في قبضته. ولا حتّى فرنكاً ملطّخاً واحداً منها.

ثمّ، ولم يزل عارياً، اتّجه إلى طرف الغرفة الشمالي، فتح كلاً من درفتَي النافذة المزدوجة، خرج إلى الشرفة، وقذف بكدسة الأوراق المالية في هواء ليل كانون الثاني البارد.



5.4

كان عمره ثمانية عشرة عاماً، وكانت في السادسة عشرة. كان على وشك البدء بدراسته الجامعية، وكانت في بداية السنة الأولى من المدرسة الثانوية، ولكنه قبلَ أن يضيع المزيد من الوقت بالتفكير بها، وقبل أن يستغرق لثانية أخرى في تخيّل المستقبل الممكن الذي ربمّا قُدِّر لهما أن يتشاركاه يوماً ما، قرّر أن اللحظة قد حانت كي يضعها تحت الاختبار. كانت ليندا فلاغ قد أخفقت في ذلك الامتحان قبل ثلاث سنوات، بيد أن كلاً من إيمي شنايدرمان ودانا روزنبلوم قد نجحتا في تجاوزه. كانتا الفتاتين الوحيدتين اللتين وقع في حبّهما يوماً، وعلى الرغم من أنه مازال يحبّ كلاً منهما على اختلاف سُبُلهما، إلا أن إيمي الآن أخته غير الشقيقة، ولن تحبّه أبداً مثلما يحبّها، ومع أن دانا قد أحبّتهُ حبّاً يفوق بكثير ما يستحقّه من أي إنسان، لكنها رحلَت، وتقيمُ في بلد آخر الآن، وخرجت من حياته إلى الأبد.

كان يعلم أن ثمّة شيئاً طائشاً بصدد هذا الأمر برمّته، منطقاً مائجاً في فكرة أن باستطاعته إبطال لعنة وفاة آرتي من خلال الوقوع في حبّ شقيقة صديقه المتوفى، بيد أن الأمر ينطوي على ما هو أكبر من ذلك، قال في نفسه، انجذاب حقيقي نحو سيليا الجميلة دائماً وأبداً، تلك التي ترعى والدها الهزيل، وليس لديها أي شبه وراثي بوالدتها البدينة، لكنْ، بقدر ما كانت سيليا تزداد جمالاً، بقدر ما كانت عقلها يزداد ذكاءً بكل تأكيد، إلا أنه لم ينفرد بها أبداً، ومنذ يوم الجنازة، لم يتحدّث إليها ولا مرّة واحدة دون أن يتحدّث مع أبويها في الوقت نفسه، ومازال جوهرها غامضاً بالنسبة إليه؛ ما إذا كانت الفتاة الرزينة المطيعة من الطبقة الوسطى، والتي تجلسُ بهدوء إلى طاولة العشاء خلال زيارات فيرغسون إلى نيو روتشيل، أو أنها فتاة مُتّقدة الروح؛ فتاة تمتلك أشياء تدفعهُ إلى السعي وراءها عندما يحين الوقت المناسب.

أطلقَ عليه اسم امتحان الدخول إلى هورن وهاردارت.

في حال شعرَت بالسرور بصدد زيارتها الأولى للمطعم الآلي مثلما حدث معه، ومثلما شعرَت حبيبتاه من المدرسة الثانوية عندما كانتا في مثل سنّها تقريباً، فسيبقى الباب مفتوحاً، وسيواصل التفكير بسيليا، وانتظارها حتّى تكبر.

أما إذا جرى العكس، فسيُغلَق الباب، وسيتخلّى عن خيالاته الحمقاء بصدد محاولة إصلاح أخطاء العالم، ولن يفكّر في فتح الباب مرّة أخرى أبداً.

اتّصل بهاتف المنزل في نيو روتشيل في يوم الخميس عقب عيد العمّال. لم يكن في نيّته الذهاب إلى برينستون قبل مضي أسبوعين آخرين، لكن المدارس العامّة كانت قد افتُتِحت بالفعل، وكان يأملُ أن تكون مُتفرّغة للقاء بعد ظهيرة يوم السبت هذا، أو، في حال لم تكن كذلك، ففي يوم السبت المقبل.

عندما رفعت سيليا سمّاعة الهاتف، وسمِعَت صوته، افترضَت أنه يودّ التّحدّث إلى والدتها بشأن ترتيب عشاء آخر في المنزل. وكانت على وشك أن تضع سمّاعة الهاتف جانباً قبل أن تتسنّى له فرصة أن يقول لها لا، وإنها الشخص الذي يودّ التّحدّث إليه، وبعد أن سألها عن شعورها بالعودة إلى المدرسة (بين بين)، وما إذا كانت تدرُس علم الأحياء أو الفيزياء أو الكيمياء هذه السنة (الفيزياء)، سألها إذا ما كانت راغبة باللقاء به في مانهاتن يوم السبت هذا، أو الذي يليه، لتناول طعام الغداء والذهاب إلى السينما، أو زيارة متحف ما، أو أي شيء آخر تودّ أن تفعله.

أنتَ تمزح، بالطبع، قالت.

ولماذا أمزح؟

الأمر فقط أن ... حسناً، لا عليكَ، ليس مهمّاً.

إذاً؟

أجل، أنا مُتفرّغة. ظهيرة هذا السبت، والمقبل أيضاً.

فلنقل هذا السبت.

تمام، يا آرتشي، هذا السبت.

التقى بها في محطّة غراند سنترال، وبما أنه لم يرها خلال الشهرين والنصف الماضيين، فقد شجّعه ما شاهده من جمالها، بشرتها الملساء كشراب القيقب أغمق بدرجة من شمس الصيف في نيو روتشيل، حيثُ كانت تعمل كمستشارة مبتدئة ومدرّبة سباحة في مخيّم نهاري للأطفال الصغار، ما جعل أسنانها وبياض عينيها يلمع بصفاء ثابت، وكان قميصها الأبيض البسيط وتنّورتها اللازوردية الفضفاضة مناسبين تماماً أيضاً، برأيه، وكذلك الأمر بالنسبة إلى أحمر الشفاه الوردي الذي كانت تضعه، والذي أضاف قدراً ضئيلاً من اللون إلى الصورة الكلّيّة إلى الأبيض والأزرق والبنّي، ولأنه كان يوماً دافئاً، فقد جمعَت شَعْرها الغامق الطويل حدّ الكتفين في عقدة راقصة، ما كشف عن مؤخّرة رقبتها الطويلة الرشيقة، ولشدّة ما انبهر فيرغسون بتلك الصورة كلها وهي

تسيرُ باتّجاهه، وتصافحه، فقد كان عليه أن يذكّر نفسه بأنها كانت لا تزال صغيرة جدّاً بالنسبة إليه، وأن هذا ليس سوى لقاءٍ ودّيّ بينهما، وأنه عدا هذه المصافحة الأولى، وتلك اللاحقة في نهاية اللقاء، فإنه لا يجوز له، تحت أي ظرف كان، أن يفكّر مجرّد التفكير بأنه يضع يده عليها.

هأنذا، قالت. والآن، أخبِرني، لما أنا هنا.

وبينما سارا في وسط المدينة، من غربي الشارع الثاني والأربعين باتّجاه الكتلة ما بين الجادّتين السادسة والسابعة في غربي الشارع السابع والخمسين، حاول فيرغسون أن يشرح السبب الذي دفعه للاتّصال بها على هذا النحو المفاجئ، بيد أن سيليا كانت مرتابة، وغير مقتنعة بما أخبرها به من قصص عن سبب رغبته برؤيتها، وكانت تهزّ رأسها عندما كان يأتي بأشياء لا معنى لها؛ سأذهب إلى الجامعة قريباً، ولن يكون هناك العديد من الفرص كي نرى بعضنا هذا الخريف، الذي أجابت عليه بالقول: ومنذ متى أصبح لقاؤنا مهمّاً بالنسبة إليكَ؟ ومثل، نحنُ أصدقاء، ألسنا كذلك؟ أليس هذا كافياً؟ وكان جوابها: هل نحن أصدقاء؟ أنتَ ووالدي أصدقاء، ربّما، أو نوعاً ما، لكن المجموع الإجمالي لما تحدّثتَه معي من كلمات في السنوات الأربع الماضية لا يتجاوز مئة كلمة، فلماذا تريدُ أن تقضي وقتكَ مع شخص بالكاد تعرف أنه على قيد الحياة؟

لهذه الفتاة شخصية قوية، قال فيرغسون لنفسه، ذلك واضح إلى حدّ كبير؛ ثابت إلى حدّ كبير. لقد تطوّرَت إلى فتاة ذكية ذات كبرياء، ولا خشية لديها من أن تجاهر برأيها، لكنها، مع هذا الإصرار المستجدّ، اكتسبَت، كذلك، موهبةَ طرح الأسئلة التي لا جواب لها، أو على الأقلّ، تلك التي لا يستطيع أن يجيب عنها دون أن يبدو مثل شخص مجنون. وأيّاً كان الأمر، فعليه أن يُبقي آرتي خارج النقاش، ولكنه بما أنها تحدّت دوافعه، فقد أدركَ أنه سيتعيّن عليه أن يقدّم إجابات أفضل من تلك الضعيفة التي قدّمها حتّى الآن، إجابات صادقة، الحقيقة الكاملة بصدد الأشياء كلها عدا شقيقها، لذا، بدأ مجدّداً بالقول إنه اتّصل بها تلك الليلة، لأنه أراد بكل صراحة أن يراها، وهذا ما كان عليه الأمر في الواقع، وسبب رغبته في رؤيتها وحدها يعود إلى شعوره بأن الوقت قد حان كي يؤسّسا لعلاقة صداقة، تجمع بينهما، على نحوٍ مستقلّ عن والديها والمنزل في نيو روتشيل. وبينما كانت لا تزال عازفة عن قُبول أيّ من عباراته كحقيقة ممكنة، سألتهُ سيليا بشأن عن ما يدفعه لأن يهتمّ بذلك، عن سبب رغبته بقضاء لحظة واحدة من وقته معها، مع مجرّد فتاة في المدرسة الثانوية، في الوقت الذي كان فيه في طريقه إلى برينستون بالفعل، ومرّة أخرى، أجابَها فيرغسون إجابةً بسيطة وصادقة: لأنها صارتَ كبيرة الآن، قال، وأضحى كل شيء مختلفاً، وسيظلّ مختلفاً من الآن فصاعداً. كانت قد أوقعَت نفسها في سلوك خاطئ بالنظر إليه كشخص أكبر منها سنّاً بكثير، لكن التقويم يقول بأن الفارق بينهما سنتان فقط، وقريباً لن

يكون لهذا أي معنى، وسيكونان في العمر نفسه. ولكي يعطيها مثالاً على هذا، بدأ فيرغسون بالحديث عن أخيه غير الشقيق جيم الذي كان أكبر منه بأربع سنوات، وواحداً من أصدقائه المقرّبين برغم ذلك، شخصاً ينظر إليه على قدم المساواة تماماً، وبما أن جيم قد فشل الآن في الجهوزية الجسدية للجيش، بسبب تشخيص خاطئ لنفخة قلبية، واختار ممارسة عمله الأكاديمي في برينستون، وهذا من شأنه أن يضعهما معاً في الحرم الجامعي نفسه، وفي الوقت نفسه - ويا لهُ من حظّ - فإنهما كانا يخطّطان لرؤية بعضها البعض قدر المستطاع، بل أنهما كانا يدبّران للذهاب في رحلة معاً خلال الربيع أو في أوائل الصيف - من برينستون إلى كيب كود سيراً على الأقدام، على طول الخطّ إلى أقصى شمال الخليج دون أن يركبا في سيّارة أو قطار أو حافلة، أو حتّى أن يفكّر بركوب الدّرّاجة.

بدأت سيليا تلين، لكنها، مع ذلك، قالت: جيم هو أخوكَ. هذا ما يجعل الأمر مختلفاً.

أخي غير الشقيق، قال فيرغسون. في السنتين الأخيرتين فقط.

حسناً، يا آرتشي، أصدّقُكَ. لكنْ، إذا كنت تريدُ أن تصبح صديقي الآن، فعليكَ أن تتوقّف عن التّصرّف وكأنكَ أخي الكبير، أخي الكبير المزعوم. أتفهم هذا؟

بالطبع أفهم.

لا مزيد من هراء الأخ الوهمي، لا مزيد من هراء آرتي، لأنني لا أحبّ ذلك، ولم أحبّه يوماً قطّ. إنه أمر سخيف وغبي، ولن يصنع خيراً لأي منّا.

موافق، قال فيرغسون. لا مزيد من ذلك. أبداً.

كانا قد انعطفا للتّوّ غرباً عن جادّة ماديسون، وبدآ بالسير في الشارع السابع والخمسين. بعد خمس عشرة كتلة سكنية من الشّكّ والارتباك والمماحكات، اتّفق الاثنان على هدنة، وصارت سيليا مبتسمة الآن، وكانت تستمعُ إلى أسئلة فيرغسون، وأخبرته أنها بالطبع تعرف ما هو المطعم الآلي، وبالطبع سمِعَت من قِبَل بهورن وهاردارت، لكنْ، لا، اعترفَت، بقدر ما أسعفتها ذاكرتها، فإن قدميها لم تطآ هذا المكان من قبل، ولا حتّى عندما كانت طفلة صغيرة. ثمّ سألَت: كيف هذا المكان؟ ولماذا نحن ذاهبان إليه؟

سترين، أجاب فيرغسون.

كان راغباً بتبرئتها من شكوكه الآن، لأنه أرادَ لها أن تتجاوز الامتحان، لدرجة تجاوز القواعد والسماح بأعلى درجات اللامبالاة، الحماس العاطفي. من شأن النفور أو الازدراء فقط أن يُبعداها، قال لنفسه، شيء ما يعادلُ الاشمئزاز الذي رآه في عيني ليندا فلاغ عندما جالت ببصرها في

المكان، ورأت تلك المرأة السوداء ذات الثلاثمائة رطل وهي تُتمتمُ لنفسها عن الطفل الميت يسوع، لكنْ، بعد ذلك، وقبل أن يتمكّن من تحميل تلك الفكرة أبعاداً أخرى، كانا قد وصلا بالفعل إلى المطعم الآلي، ودخلا إلى ذلك الصندوق الغريب البرّاق من الكْروم والزجاج، ووضعَت الكلمات الأولى التي نطقَت بها سيليا نهايةً لمخاوفه حتّى قبل أن يتاح لهما تحويل دولاراتهما إلى نقود معدنية. يا للعجب! قالت. يا له من مكان عجيب وأنيق.

جلسا، وشطائرهما على الطاولة، وتحدّثا، وكان الحديث في معظمه عن فصل الصيف، والذي كان بالنسبة إلى فيرغسون قد انقضى في نقل الأثاث بصحبة ريتشارد برينكرستاف، والسفر إلى المقابر لدفن جَدّته وجَدّ جيم وآيمي، وكتابة قصّته الملحمية القصيرة، رحلات موليغان، التي ستكون في أربعة وعشرين جزءاً في المجمل، قال، وكل جزء منها بطول خمس صفحات أو ستّ، وسيكون مخصّصاً لرحلة بحرية إلى بلد مُتخيّل مختلف، وتقاريرُ موليغان الأنثروبولوجية لصالح المُجمّع الأميركي للأرواح المُهجّرة، وبعد أن فرغ الآن من كتابة اثني عشر جزءاً، كان يأملُ بأن العمل في الجامعة لن يكون كثيراً جدّاً بالنسبة إليه، وذلك من أجل أن يواصل الكتابة بعد انتقاله إلى برينستون. أما بالنسبة إلى سيليا، فلم تكن تتسكّع في برك السباحة برفقة الأطفال خلال النهار وحسب، بل كانت تأخذ دروساً مسائية في كلّيّة نيو روتشيل في علم المثلّثات واللغة الفرنسية، والآن، بعد أن حصلت على تلك النقاط الإضافية، سيكون بمقدورها أن تُنهي المدرسة الثانوية بعد سنتها الأولى، وذلك من خلال حضور دورة إضافية لفصل دراسي واحد، ما يعني أن بوسعها مُباشرةَ دراستها الجامعية في فصل الخريف المقبل، وعندما سألها فيرغسون *ما سبب هذا الاندفاع الكبير*؟ قالت له بأنها سئمَت الحياة في تلك *المدينة الريفية الصغيرة*، وتريدُ الخروج والانتقال إلى نيويورك، إما كلّيّة بارنارد أو جامعة نيويورك، فلم تكن تمانع أيّاً منهما، وبينما استمع فيرغسون إليها وهي تسردُ الدوافع وراء *فرارها المبكّر*، انتابهُ شعور مدوّخ مفاجئ بأنه يصغي إلى نفسه، إذا بدا له أن ما كانت تقوله وتفكّر به حول حياتها مطابق تقريباً لما كان يقوله ويفكّر به لسنوات.

وبدلاً من أن يثني عليها لكونها أذكى تلميذات العالم وأكثرهن طموحاً؛ الحديث الذي كان سيفضي بلا شكّ إلى بعض الكلام عن درجات آرتي المرتفعة، وكيف يبدو أن تلك الدرجات تسير في العائلة، سألَها عمّا تريد أن تفعل بعد الغداء؟ ثمّة عروض لبعض الأفلام هذه الظهيرة، قال، ومن بينها ذلك الشيء الجديد مع فرقة البيتلز (*هيلب!*)، وأحدث أعمال غودار، ألفافيل، والذي كان جيم قد شاهده بالفعل، ولم يستطع التّوقّف عن الحديث عنه، لكن سيليا شعرَت بأنه سيكون من الممتع أكثر أن يزورا متحفاً أو معرضاً فنّيّاً، حيثُ سيكون بوسعهما مواصلة حديثهما

بدلاً من الجلوس في العتمة لساعتين، والاستماع إلى حديث أشخاص آخرين. أومأ فيرغسون برأسه، وقال، وجهة نظر جيّدة. بإمكانهما أن يسيرا إلى الجادّة الخامسة، والتّوجّه نحو معرض فريك الفنّيّ، ثمّ قضاء فترة الظهيرة بمشاهدة لوحات فيرمير، ورامبرانت، وشاردان. جيّد؟ أجل، كان هذا أكثر من جيّد. لكنْ، أوّلاً، أضافَ، فنجان آخر من القهوة قبل أن يمضيا، ثمّ سرعان ما نهض عن كرسيه حاملاً الفنجانين، وتوارى عن الأنظار.

كان قد ذهب لمدّة دقيقة واحدة فقط، لكنْ، في ذلك الوقت، لاحظت سيليا رجلاً جالساً إلى الطاولة بجانبهما؛ رجل عجوز ضئيل الحجم خارج نطاق رؤيتها وراء كتف فيرغسون، وعندما عاد الأخير بكوبي القهوة اللذين أعاد ملأهما وبعبوتين من الكريمة، رأى أن سيليا كانت تنظر إلى ذلك الرجل، تنظرُ إليه بعينين ملؤهما الكرب، لدرجة أن فيرغسون سألها إذا كان ثمّة خطب ما.

أشعرُ بأسفٍ شديد إزاءه، قالت. أراهنكَ بأنه لم يأكل شيئاً طوال اليوم. إنه يجلس هناك فقط، يُحدّق في فنجان قهوته، كما لو كان يخشى أن يحتسيه، لأنه بمجرّد أن تنتهي القهوة، فلن يكون لديه ما يكفي من مال، كي يبتاع فنجاناً آخر، وسيضطرّ إلى المغادرة.

لم يشعر فيرغسون، الذي لمحَ الرجل العجوز في أثناء سيره عائداً إلى الطاولة، بأنه من اللائق أن يلتفت وينظر إليه مرّة أخرى، لكنْ، أجل، صدمَهُ ذلك الرجلُ الذي بدا عليه أنه مدمنُ كحول، وحيد ومفلس، وأشعث، بأظفار متّسخة ووجه جنّيّ حزين، وكانت سيليا محقّة على الأرجح في أنه قد أنفق للتّوّ آخر ما بحوزته من نقود.

أعتقدُ أنه ينبغي علينا أن نعطيه شيئاً، قالت.

علينا ذلك، قال فيرغسون، لكنْ، علينا أن نتذكّر بأنه لم يطلب منّا ذلك، وإذا ما سرنا إليه، وأعطيناه بعض النقود، لأننا شعرنا بالأسف تجاهه، فقد يشعُر بالإهانة، ومن ثمّ لن تتسبّب نوايانا الحسنة إلا بأن يشعر بسوء أكثر ممّا هو عليه الآن.

من الممكن أن تكون محقّاً، قالت سيليا، بينما رفعَت فنجانها، وقرّبته من فمها، لكنْ، من الممكن أن تكون على خطأ أيضاً.

فرِغ الاثنان، ونهضا عن كرسييهما. فتحت سيليا محفظتها، وبينما كانا يسيران نحو الرجل العجوز الذي يجلس إلى الطاولة المجاورة، مدّت يدها إلى المحفظة، وسحبَت منها دولاراً، ووضعتهُ أمامه.

من فضلكَ، يا سيّدي، قالت، اذهبْ، واشترِ لنفسكَ شيئاً تأكله، فأخذ الرجل العجوز الدولار، ووضعه في جيبه، ثمّ نظر إليها، وقال، شكراً لكِ، يا آنسة. بارك الرّبّ فيكِ.

في وقت لاحق، يعني في وقت لاحق؛ ما من شكّ بأنه سيكون وقتاً لاحقاً مُرضياً ومثيراً للاهتمام إلى حدّ بعيد؛ وقت لاحق بالمزيد من الأُمسيّات، وربمّا الليالي حتّى مع سيليا الفاتنة الفتيّة، لكنْ، الآن هو الآن، وفي الوقت الراهن، تحرّك العالم إلى السبخات الضاربة للحمرة والأغوار المستنقعية في وسط نيو جيرسي، وفي الوقت الراهن، كان العالم بأسره يدور حول كونه واحداً من بين ثمانمائة من القادمين الجدد، يحاولُ أن يتكيّف مع ظروفه الجديدة. كان يفهم نفسه بما يكفي، لكي يعرف بأنه لن يتآلفَ على الأرجح، وأنه ستكون هناك أشياء لن تعجبه بما يتعلّق بالمكان، لكن، في الوقت نفسه، كان مصمّماً على الاستفادة القصوى من الأشياء التي ستعجبه، ومن أجل هذا الغرض، كان قد أقرّ بالفعل خمس وصايا شخصية قبل انتقاله إلى برينستون، خمس قوانين كان عازماً على التّمسّك بها طوال المدّة:

عطلات نهاية الأسبوع في نيويورك، غالباً ومتى كان ممكناً. بعد الوفاة المفاجئة والكارثية لجَدّته في شهر تمّوز (بسبب فشل القلب الاحتقاني)، كان جَدّه الأرمل قد أعطاه الآن مفتاحاً لشقّة في غربي الشارع الثامن والخمسين، فضلاً عن استخدامٍ غير مُقيّد لغرفة النوم الإضافية، ما عنى أنه سيكون هناك دائماً ثمّة مكان لقضاء الليل. مثّلَ وجود تلك الغرفة في الأفق حالة فريدة من الرغبة والفرص الملازمة، إذ سيكون في مقدور فيرغسون، خلال معظم أُمسيّات أيّام الجمع، أن يغادر الحرم الجامعي، ويستقلّ قطار المسافات القريبة بالعربة الواحدة، من برينستون إلى محطّة برينستون (والمعروفة باسم الصغيرة، كما في *المدينة الريفية الصغيرة*)، ثمّ الانتقال إلى قطار أكبر وأسرع، والذي ينطلق شمالاً إلى وسط مانهاتن، إلى محطّة بنسلفانيا الجديدة والقميئة بخلاف المحطّة القديمة والجميلة، والتي كانت قد هُدّمت في سنة 1963، لكنْ، بغضّ النظر عن الأخطاء المعمارية الفادحة، فقد كانت تلك لا تزال نيويورك، وأسباب الذهاب إليها كثيرة ومتنوّعة. كان السبب السلبي في أنها تسمحُ له بالهرب من الاختناق في برينستون، كي يلتقط بضعة أنفاسٍ عرَضية من الهواء النقي (حتّى لو لم يكن الهواء نقياً في نيويورك)، ومن شأن هذا أن يجعلَه قادراً أكثر على احتمال الاختناق، بل وربمّا يُلطّفُه (على طريقته الخاصّة من الاختناق) خلال الوقت الذي يقضيه في الحرم الجامعي. وكان السببُ الإيجابي السبب القديم نفسه من الماضي: الكثافة، والاتّساع، والتعقيد. كان ثمّة سبب إيجابي آخر، وهو فرصة قضاء وقت بصحبة جَدّه، والحفاظ على صداقته مع نوح؛ والتي كانت في غاية الأهمّيّة بالنسبة إليه. أمِلَ فيرغسون أن يلتقي بأصدقاء في الجامعة، وأراد أن يلتقي بأصدقاء، وتوقّع أن يلتقي بأصدقاء، لكنْ، هل سيكون أيٌّ من أولئك الأصدقاء يوماً على قدر من الأهمّيّة بالنسبة إليه بقدر نوح؟

لا دروس في الكتابة الإبداعية. قرار صعب، بيد أن فيرغسون كان يهدف إلى التّمسّك به حتّى النهاية. كان صعباً لأن برنامج برينستون الجامعي أحدُ أقدم البرامج في البلاد، ممّا يعني أنه كان قادراً على اكتساب بعض النقاط الجامعية للقيام بما يقوم به بالفعل، وبالنسبة إليه، أن يُكافأ على اجتهاده في المواظبة على كتابه، عنى ذلك بدوره أن منهاجه الدراسي سينقصُ مقرّراً واحداً كل فصل، ممّا سيمنحه المزيد من الوقت؛ ليس للكتابة فحسب، وإنما أيضاً للقراءة، ومشاهدة الأفلام، والاستماع إلى الموسيقى، والشرب، وملاحقة الفتيات، والذهاب إلى نيويورك، لكن فيرغسون كان معارضاً لتعلّم الكتابة الإبداعية من حيث المبدأ، إذ كان مقتنعاً بأن الكتابة التخييلية ليسَت مادّة يمكن تعليمها، وأنه على كل كاتب مستقبلي أن يتعلّم ذلك بنفسه، وعلاوة على ذلك، بناءً على المعلومات التي تلقّاها عن ما يسمّى بورشات العمل التي كانت تجري (جعلته هذه الكلمة يفكّر حتماً بغرفة مكتظّة بشبّان مبتدئين ينشرون ألواحاً خشبية، ويدقّون المسامير في الطاولات)، كان الطلاب يتلقّون تشجيعاً من أجل التعليق على أعمال بعضهم البعض، وقد صعقه ذلك لشدّة سخافته (الأعمى يقود أعمى!)، وما الذي من شأنه يدفعه للاشتراك من أجل أن يُقدّم عمله لأحمق ما لم يتخرّج بعد؛ عَملُه العجيب غير القابل للقياس، والذي كان سيتلقّى عبوساً ورفضاً، كما لو أنه *قمامة تجريبية*. لم يكن ذلك من منطلق معارضته لعرض قصصه على أشخاص أكبر سنّاً وأغنى تجربة، من أجل النقد والمناقشة من شخص إلى آخر، لكن فكرة المجموعة كان تُفزعه، وسواء أكان ذلك الفزع بسبب الغرور أو الخوف (من اللكمة الرهيبة)، فإنه كان أقلّ أهمّيّة من حقيقة أن لم يك مهتمّاً على الإطلاق بعمل أي شخص إلّاه، ولماذا يُكلّف نفسه عناء التظاهر بالاهتمام في حين أنه ليس كذلك؟ كان لا يزال على تواصل مع السّيّدة مونرو (والتي كانت قد قرأت الأجزاء الاثني عشر الأولى من رحلات موليغان، ما أفضى إلى اثنتي عشرة قُبلة دون أي لكمات، بالإضافة إلى بعض التعليقات المفيدة)، وأحياناً، عندما تكون مشغولة، كان ثمّة قائمة من القرّاء الموثوقين، على غرار العمّ 'دون'، والخالة ميلدرد، ونوح، وإيمي، وإذا ما وجد نفسه في مأزق، ولم يتمكّن من الوصول إلى أي من أولئك الثقاة، فسيتّجه إلى مكتب الأستاذ روبرت نيغل؛ *الدماغ الأدبي الأفضل في برينستون كلها*، وسيطلبُ منه المساعدة بتواضع.

ما من نادٍ لتناول الطعام. سينتهي الأمر بثلاثة أرباع زملائه في الفصل بالانضمام إلى واحد من تلك الأندية، غير أن فيرغسون ليس مَعنياً. على غرار الأخويّات، لكنها ليست مُطابقة تماماً لها، حيثُ تُستخدم كلمة *نقاش* بدلاً ممّا يُسمّى في أماكن أخرى *بالجدال*، فإنهم صُفِعوا بقوّة من قِبَل الأشياء العتيقة كلها ذات النظرة الرجعية حول برينستون، والتي كانت تُشعره بالفتور،

ومن خلال الابتعاد عن الأندية والبقاء "مُستقلاً"، فسيكون بمقدوره أن يتجنّب واحداً من أكثر المظاهر رسمّية في ذاك المكان الخانق، وبالتالي، أن يكون أكثر سعادةً بشأن تواجده هناك.

سيستمرّ حظر لعبة البيسبول؛ أمرٌ قضائي من شأنه أن يشمل الأشكال المستلهمة كلها من اللعبة أيضاً: السوفتبول، والويفلبول، والستيكبول، وممارسة لعبة الالتقاط مع أي شخص، وفي أي وقت، ولو كانت كرة تنس أو كرة مطّاطيّة وردية اللون، أو زوجاً مَطوياً من الجوارب. لقد شعرَ بأن من شأن وجوده خارج المدرسة الثانوية أن يساعده على ترك الصعاب وراء ظهره، والسبب أنه لن يظلّ على اتّصال مع أصدقائه القدامى من لعبة البيسبول الذين يتذكّرون كم كان لاعباً جيّداً وواعداً، ولأنهم شعروا بالحيرة جرّاء قراره التّوقّف عن اللعب، ولم يستطيعوا أن يفهموا الأعذار الكاذبة التي قدّمها حول تخلّيه عن اللعبة، وواصلوا استجوابه بشأن ذلك كلّه طيلة فترة وجوده في الثانوية. ومن رحمة السماء، أن تلك الأسئلة ستنتهي الآن. ومن ناحية أخرى، وبعد هروبه الآن من القاعات والفصول الدراسية في ثانوية كولومبيا، فإنه على وشك الذهاب إلى واحدة من أكثر الجامعات هوساً بالرياضة في البلاد؛ الجامعة التي ألحقت الهزيمة بفريق جامعة روتجرز في أوّل مُباراة كرة قدم بين الجامعات في سنة 1869؛ الكلّيّة التي وصلَت، قبيل ستّة أشهر فقط، إلى الدوري نصف النهائي، وحلّت في المرتبة الثالثة في بطولة الرابطة الوطنية لرياضة الجامعات في كرة السّلّة، وهي أفضلُ مرتبة على الإطلاق لفريق من فِرَق رابطة اللبلاب، وذلك في الوقت الذي كانت فيه المعاركُ ما بين بين بيل برادلي وكازي راسيل تتصدّرُ العناوين في البلاد برمّتها، وذلك عقب النقاط الثمانية والخمسين المذهلة التي سجّلها برادلي عندما انتصرَت برينستون في مباراة الترضية، وما من شكّ أن الموجودين كلّهم في الحرم الجامعي لا يزالون يستذكرون تلك المآثر عندما وصل فيرغسون. سيكون الرياضيون في كلّ مكان، وقد يرغب فيرغسون بصورة طبيعية بأن يشارك في ألعاب مُتنوّعة، لكنْ، لا بدّ أن تقتصر على أشياء لعب كرة سلّة نصف الملعب وكرة القدم اللمسية، ومن أجل أن يحمي نفسه من أيّ إغراءات مستقبلية تتعلّق بالمُشاركة في الرياضات التي أقسم أن يتجنّبها كذكرى لشقيق سيليا المُتوفىّ، وكان قد تخلّى عن معدّات البيسبول خاصّته في نهاية شهر آب، ومصادفَةً، أعطى مضربين وزوجاً من الأحذية الرياضية، وقفّازاً من الطراز نفسه الذي كان يرتديه لويس أباريسيو، والذي ظلّ مركوناً على رفٍّ في غرفته طيلة السنوات الأربع الماضية، لتشارلي باسنجر؛ الطفل النحيل ذي السنوات التسع الذي كان يعيش بجواره في وودهول كريسنت. خُذها، قال فيرغسون لتشارلي، لستُ بحاجة إلى هذه الأشياء بعد الآن. أما باسنجر الصغير الذي لم يكن مدرِكاً ما كان يتحدّث عنه جاره الجامعي

الذي يحترمه إلى حدّ كبير، فقد نظرَ إلى فيرغسون، وسألَهَ: أتقصدُ أن أحتفظَ بها، يا آرتشي؟ هذا صحيح، أجاب فيرغسون. احتفِظْ بها.

ما من مفاتحات من قِبَل والده. في حال فاتحَه والده في أمر ما، فسيكون عليه التفكير بعناية فيما إذا كان سيجيب أم لا، لكنه لم يكن يتوقّع حدوث ذلك. كان آخرُ اتّصال بينهما المذكّرةَ القصيرة التي كتبها فيرغسون شاكراً والده على هدية التّخرّج في المدرسة الثانوية في شهر حزيران، ولأن شعوراً استثنائياً بالمرارة واليأس كان يعتريه عند تلك الظهيرة حينما وصل الطرد البريدي (كانت دانا قد سافرَت إلى *إسرائيل* في وقت مبكّر من ذلك اليوم)، فقد أخبر والده عن خطّته بصدد التّبرّع بنصف المال إلى لجنة التنسيق الطلابية اللاعنفية، وبالنصف الآخر إلى منظّمة صنع السلام. لم يكن ذلك ليُشعِر والده بالسعادة على الأرجح.

هواجس ونُذُر شؤم، وتوتّر والمزيد من التّوتّر، ولولا التواجد المهدّئ لكل من والدته وجيم، حيث كان كلاهما في الشاحنة الصغيرة صباحاً برفقة فيرغسون حينما مضى في طريقه نحو مستنقعات الحياة الجامعية، لكان من الممكن أن ينسى فطوره، ويترنّح على مروج برينستون النّديّة، حيث نصف طعام الفطور ذاك على قميصه.

كان نهاراً محموماً بالنسبة إلى أفراد العائلة كلهم. كان كل من دان وإيمي في سيّارة أخرى، مسافرَين شمالاً إلى برانديز، ويسافر فيرغسون ومرافقوه جنوباً في شاحنة شفروليه صغيرة من شاحنات آرني فريزر، إذ كان آرني لطيفاً بما يكفي للسماح لهم باستعارتها مجّاناً، وانطلقوا على امتداد الطريق الرئيس لنيوجيرسي عند ذلك الصباح خفيف المطر، بينما تولّى جيم القيادة، وإلى جانبه كلّ من فيرغسون ووالدته، محشورين في المقعد الأمامي، وامتلأت المساحة كلها في الخلف حتّى السقف بممتلكات الأخوين غير الشقيقين، والخليط المعهود من الشراشف والوسائد والمناشف والملابس والكُتُب والأسطوانات ومشغّلات الأسطوانات والراديوهات والآلات الكاتبة، وبما أن فيرغسون قد فرغ للتّوّ من قراءة الوصايا الثلاث الأولى من أصل خمس، كان جيم يهزّ رأسه ويبتسمُ ابتسامته الشنايدرمانية الغامضة، والتي كانت ابتسامة تفكير وتأمّل، بدلاً من ابتسامة أدنى، أو توحي حتّى، بالضحك.

استرخِ، يا آرتشي، قال. أنتَ تتعامل مع هذا بجدّيّة أكثر بكثير ممّا ينبغي. أجل، يا آرتشي، أضافَت والدته موافقة. ما خطبكَ هذا الصباح؟ أنتَ لم تصِل إلى هناك بعد، وتفكّر منذ الآن في طريقة للهرب.

أنا خائف، هذا كل ما في الأمر، قال فيرغسون. أخشى أنني على وشك الضياع في دَيماس من الرجعة ومعاداة السامية، ولن أتمكّن من الخروج حيّاً.

الآن، ضحكَ أخوه.

فكِّرْ بآينشتاين، قال جيم. فكِّرْ بريتشارد.فاينمان. إنهم لا يقتلون اليهود في برينستون، يا آرتشي، هم فقط يجعلونهم يتجوّلون والنجومُ الصفراء على أكمامهم.

الآن، ضحك فيرغسون.

يا جيم، قالت والدته، لا تمزحْ بمثل هذه الأمور، حقّاً، لا تفعلْ - لكنها، بعد لحظات، ضَحكت أيضاً.

قرابة عشرة بالمئة، قال جيم. هذا ما قيلَ لي. وهو رَقْم أعلى بكثير من النسبة الوطنية لـ... لِماذا؟ اثنان بالمئة، ثلاثة بالمئة؟

تتراوح كولومبيا في مكانٍ ما، بينَ عشرين وخمس وعشرين بالمئة، قال فيرغسون.

ربّما، أجاب جيم، لكن كولومبيا لم تعطكَ المنحة الدراسية.

براون هول، وجناحٌ من غرفتَي نوم في الطابق الثالث، واسع بما يكفي لاستيعاب أربعة طلاب جدد، مع غرفة مشتركة وحمّام. براون هول، وزميلُ سَكَن يُدعى سمول، هاوارد سمول؛ رفيقٌ قصير مكتنز صلب البنية، ذو نظرة صافية، وهالة من الثقة بالنفس؛ شخصٌ يستقرّ مرتاحاً في مكانه من الأرض، داخِل نفسه. كانت قبضته متينة، لكنْ، ليست صلبة أو محطّمة للعظام، عندما تصافحا للمرّة الأولى، وبعدها بلحظات، اقترب هاوارد متفحّصاً وجه فيرغسون، وكان هذا أمراً مُستغرَباً، كما فكّر فيرغسون، بيدَ أن هاوارد سأله سؤالاً أحال الأمر الغريب إلى شيء لم يكن كذلك على الإطلاق.

لم يحدُث أن ذهبتَ إلى ثانوية كولومبيا، أليس كذلك؟ سألَ هاوارد.

كلا، قال فيرغسون، بل في واقع الأمر، ذهبتُ.

آه. وعندما كنتَ في كولومبيا، لم يحدُث أن لعبتَ في فريق كرة السّلّة، أليس كذلك؟

لعِبتُ. في السنة الثانية فقط.

كنتُ أعرف أنني رأيتُكَ في مكان ما من قبل. كنتَ تلعب في المقدّمة، صحيح؟

يسار. يسار متقدّم. لكنكَ على حقّ. ليسَ لأنني أعرف لماذا أنتَ على حقّ، لكنكَ كذلك.

كنتُ لاعِباً احتياطياً في فريق ويست أورانج في تلك السنة.

يعني هذا ... يا للعجب! ... أنه قد سبق وتقاطعَت دورينا مرّتين بالفعل.

مرّتين، دون حتّى أن ندري. مرّة في لعبة الذهاب، وأخرى في لعبة الإياب. ومثلكَ أيضاً، توقّفتُ عن اللعب بعد ذلك الموسم. لكنني كنتُ أحمق بلا موهبة، مروّعاً وغير ملائم أبداً. في حين أنكَ كنتَ جيّداً جدّاً، كما أذكُر، بل حتّى أكثر من ذلك.

لم أكن سيّئاً. لكن المهمّ كان: هل أريدُ الاستمرار بالتفكير في أحزمة الوقاية، أم أن أحوّل اهتمامي إلى السراويل النسائية الداخلية وحمّالات الصدر؟

ابتسم كلاهما.

ليس خياراً صعباً، إذاً.

كلا، لم يكن مؤلماً على الإطلاق.

سار هاوارد نحو النافذة، وأشار إلى حرم الجامعة. انظر إلى هذا المكان، قال. إنه يذكّرني بالمعتزل الريفي لدوق إيرل، أو بإحدى مستشفيات الأمراض النفسية الخاصّة بالأثرياء. يا برينستون العظيمة، شكراً لكِ لأنكِ سمحتِ لي بالتواجد هنا، وشكراً على هذه الأراضي الفخمة. لكنْ، فَسِّرْ لي شيئاً من فضلكَ. لماذا هناك الكثير من السناجب السوداء التي تتبختر في الأرجاء؟ وفقاً لتجربتي، لطالما كانت السناجب رمادية اللون، لكنْ، هُنا في برينستون، كلها سوداء.

لأنها جزء من تخطيط المكان، قال فيرغسون. أنتَ تتذكّرُ ألوان برينستون، أليس كذلك؟

برتقالي ... وأسود.

هذا صحيح، برتقالي وأسود. بمجرّد أن نرى بعض السناجب البرتقالية، فسندري سبب وجود السناجب السوداء.

ضحك هاوارد من نكتة فيرغسون الظريفة والغبية نوعاً ما، ولأنه ضحك، فقد بدأت العقدة العصبية في معدة فيرغسون بالارتخاء قليلاً. فحتّى لو تحوّلت برينستون إلى مكان عدائي أو مخيّب للآمال، فسيكون لديه صديق فيها، أو هذا ما بدا له عندما سمع زميله في السَّكَن يضحك، وكم كان محظوظاً أن التقى بهذا الصديق في الدقائق الأولى، من الساعة الأولى، في يومه الأوّل.

وبينما انطلق كل منهما يُفرِغ حمولته من الرزم والصناديق والحقائب، علم فيرغسون أن هاوارد قد بدأ حياته في شمال غرب مانهاتن، ثمّ انتقل إلى الريف حينما بلغ الحادية عشرة من عمره، وذلك عندما عُيِّن والده عميداً للطلاب في جامعة الولاية في مونتكلير، وكم كان مثيراً

للفضول أن يعلم الاثنان أنهما قد أمضيا السنوات السبع الأخيرة وهما يعيشان على بُعد بضعة أميال من بعضهما، ومع ذلك لم تتقاطع طُرُقهما إلا في تلك المرّتين العابرتين على الأرضيات الخشبية للصالات الرياضية في الثانوية. على غرار طريقة اختبار الغرباء للغرباء عندما يُزَجّون في الزنزانة نفسها على نحوٍ اعتباطي، سرعان ما وجد الاثنان أنهما يتشاركان العديد من الأشياء المحبّبة والمنفّرة، لكنْ، ليس كلها أو حتّى أكثرها، كِلاهما يُفضّلان فريق الميتز أكثر من اليانكيز، على سبيل المثال، لكنْ، صار هاوارد نباتياً شرساً منذ سنتين (كان يعارضُ لأسباب أخلاقية ذبح الحيوانات)، بينما كان فيرغسون لاحِماً شديداً غير مبال، ومع أن هاوارد كان يتساهل مع تدخين السجائر من وقت إلى آخر، إلا أن فيرغسون كان يستهلكُ على نحوٍ منتظم ما بين عشر سجائر إلى عشرين سيجارة كاملة في اليوم الواحد. كانت الكُتُب والكتّاب في كلّ مكان (كان هاوارد قد قرأ القليل من الشِّعْر الأمريكي المعاصر أو الأدب الأوروبي؛ وكان فيرغسون يزداد استغراقاً في كليهما)، لكن ذوقهما في الأفلام كان مُتوافقاً على نحوٍ عجيب، وعندما قيَّم كلاهما فيلمه الكوميدي المفضّل في الخمسينيات وهو "البعض يفضّلونها ساخنة"، وفيلم الإثارة المفضّل الذي كان "الرجل الثالث"، اندفع هاوارد فجأة وقال بحماسة، جاك ليمون وهاري لايم! وخلال لحظات، جلسَ إلى طاولته، وسحب قلَماً، ورسم صورة كاريكاتورية لمباراة تنس ما بين ليمون ولايم. راقب فيرغسون في عجب بينما كان رفيقه المذهل يرسمُ المخطّط على عجل - تلعبُ الليمونة الصفراء الأكثر تعرّجاً وطولاً، بأيدٍ وأرجل ومضرب التنس في يدها اليمنى، ضدّ الليمونة الخضراء الأكثر استدارة وصغراً، بأيدٍ وأرجل ومضرب التنس، ووجها الليمونتين يشابهان وجهي ليمون ولايم الأصليين (جاك ليمون وأورسن ويلز)، ثمّ أضافَ هاوارد شبكةً، وكرة تسبحُ في الهواء، وبذلك انتهى الكاريكاتور. نظرَ فيرغسون إلى ساعته. ثلاث دقائق ما بين أوّل جرّة قلم وحتّى النهاية. ليس أكثر من ثلاث دقائق، وربّما اثنتين.

يا إلهي! قال فيرغسون. أنتَ تستطيع الرسم حقّاً، ألستَ كذلك؟

ليمون ضدّ لايم، قال هاوارد، متجاهلاً الإطراء. هذا مضحك، ألا تعتقد ذلك؟

ليس مضحِكاً فقط، بل مضحِك جدّاً.

ربّما لدينا شيء ما هُنا.

بلا أدنى شكّ، قال فيرغسون، وكان ينقرُ بأصبعه قبالة قلم هاوارد، وقال: ويليام بين، ثمّ نقر بأصبعه قبالة الكاريكاتور، وقال: ضدّ باتي بيج.

آه، بالطبع! ما من نهاية لهذا، صحيح؟

استمرّ الاثنان في ذلك لعدّة ساعات تالية؛ طيلة فترة تفريغ الأمتعة والترتيب؛ طيلة فترة الغداء وفي قاعة الطعام؛ طيلة فترة ما بعد الظهر في أثناء تجوالهما في حرم الجامعة معاً، وحتّى فترة العشاء، وبحلول ذلك الوقت، كانا قد جاءا بأربعين أو خمسين زوجاً إضافية. من البداية إلى النهاية، لم يتوقّفا عن الضحك أبداً، وكانا يضحكان بشدّة، ولفترات طويلة أحياناً، لدرجة أن سأل فيرغسون نفسه عمّا إذا كان قد ضحك بشدّة هكذا على أي شيء منذ اليوم الذي وُلد فيه. ضحك حتّى الدموع. ضحك حتّى الاختناق. وكم كانت رياضةً جيّدة للتّغلّب على مخاوف المسافر الشّابّ وارتعاشه، والذي كان للتّوّ قد غادر منزله، ووجد نفسه يقف عند معبرٍ، ويقطع الحدود ما بين الماضي المكتوب والمستقبل الذي لم يُدوَّن بعد.

فكِّرْ بأجزاء الجسم، قال هاوارد. وبعد لحظات، أجاب فيرغسون: ليغز دايموند ضدّ ليرند هاند. وعَقِب ذلك ببرهة، ردّ هاوارد بحماسة، قائلاً: إديث هيد ضدّ مايكل فوت.

فكِّرْ بأجسام رطبة، قال فيرغسون؛ الماءُ بأي حال من أحواله المختلفة، وأجاب هاوارد: جون فورد ضدّ لاري ريفرز، وكلاود رينز ضدّ مادي ووترز. بعد فترة قصيرة من التفكير المكثّف، ماثلَ فيرغسون الزوجين بآخرَين من عنده: بينيت سيرف ضدّ توتس شور، وفيرونيكا ليك ضدّ ديك دايفر.

أيمكنُ احتساب الشخصيات الخيالية؟ سأل هاوارد.

لِم لا؟ ما دمنا نعرفهم، فهم حقيقيون تماماً مثل الأشخاص الحقيقيين. على أي حال، منذ متى لم يعد هاري لايم شخصية خيالية؟

عفواً! نسيتُ شأن هاري العجوز. في هذه الحالة، دعني أقدّم لكَ سي. بي. سنو ضدّ أوريا هيب.

أو سيّدَين إنكليزيين آخرَين: كريستوفر رن ضدّ كريستوفر روبن.

مُذهل! والآن، فكِّرْ بملوك وملكات، قال هاوارد. وبعد وقفة طويلة، أجاب فيرغسون: ويليام الهولندي ضدّ روبرت بيل. وفي الوقت نفسه تقريباً، جاءَ هاوارد بـ: فلاد المخوزق ضدّ تشارلز البدين.

فكِّرْ بأميركيين، قال فيرغسون. وعلى مدى الساعة والنصف التالية، جاء الاثنان بـ:

كوتن ميذر ضدّ وليام تويد.

ناثان هيل ضدّ أوليفر هاردي.

ستان لوريل ضدّ جودي غارلاند.

دبليو. سي. فيلدز ضدّ أودري ميدوز.

لوريتا يونغ ضدّ فيكتور ميشر.

والاس بيري ضدّ ريكس ستاوت.

هال روتش ضدّ باغز موران.

تشارلز بيرد ضدّ تافتس.

مايلز ستانديش ضدّ سيتينغ بول.

استمرّت اللعبة، وواكبها اللاعبان، لكنْ، عندما عادا في نهاية المطاف إلى الغرفة بعد العشاء، وجلسا ليضعا قائمة من الأزواج، وجدا أن أكثر من نصف ما توصّلا إليه قد طار من رأسيهما بالفعل.

سيكون علينا أن نحتفظ بأرقام أفضل من ذلك، قال هاوارد. وإن لم نتعلّم شيئاً واحداً، فقد عرفنا أن الأفكار الرائعة تنمو من موادّ شديدة الاشتعال، وما لم نتجوّل وبحوزتنا قلم حبر أو رصاص طيلة الوقت، فمن المؤكّد أننا سننسى معظم ما توصّلنا إليه.

مقابل كل زوج نسيناه، قال فيرغسون، سنكون قادرين دوماً على الإتيان بشي آخر. فكِّرْ بالقشريات، على سبيل المثال، وألقِ شباكَكَ لوقت قصير، وستجدُ فجأة باستر كراب ضدّ جان شريمبتون.

جميل.

أو الأصوات. زقزقة عذبة في غابة، وهدير صاخب في أدغال، ويأتيكَ هنا ليونيل تريلينغ ضدّ سول بيلو.

أو محاربو الجريمة، مع أصدقاء وحبيبات تتوافق أسماؤهم مع العناوين.

لم أفهم.

فكِّرْ ببيري ماسون ضدّ سوبرمان، وما ستحصل عليه من ديلا ستريت ضدّ لويس لين.

جيّد. جيّد للغاية. لكنْ، تَنزَّهْ على الشاطئ بعدئذ، وقبل أن تدرك الأمر، فستجد جورج ساند ... ضدّ لورنا دون.

سيكونُ رسمُ هذا ممتعاً. ساعة رملية تلعب التنس مع كعكة صغيرة.

أجل. لكنْ، ماذا عن فيرونيكا ليك ضدّ ديك دايفر؟ فكِّرْ بالاحتمالات.

لذيذ. إنه مثير جدّاً، يكادُ أن يكون فاحشاً.

كان نيغل مُرشِدَه في الكلّيّة. ونيغل هو الأستاذ الذي يُدرّسُه الأدب الكلاسيكي في الترجمة؛ المادّة التي كانت تؤدّي غرضاً كبيراً فيما يتعلّق بتطوّر عقل فيرغسون أكثر من أي مادّة أخرى يدرسها. ومن شبه المؤكّد أن نيغل كان الشخص الذي جادلَ بكل جدّ من أجل أن يحصل فيرغسون على المنحة، وعلى الرغم من أن نيغل لم يتحدّث أبداً عن ما فعله، إلا أن فيرغسون كان يشعر بأن نيغل يرى فيه شيئاً في المستقبل، وأنه كان يولي اهتماماً خاصّاً بتقدُّمه، وكان ذلك في غاية الأهمّيّة فيما يتعلّق بالتوازن الداخلي لفيرغسون، وذلك خلال فترة الانتقال والفوضى المحتملة، فشكّلَت آمالُ نيغل الفارقَ بين الشعور بالانفصال، والشعور بأنه ربّما ينتمي إلى المكان، وعندما سلّمهُ أولى أوراق الفصل الدراسي، وكانت عبارة عن خمس صفحات عن مشهد لَمِّ الشمل بين أوديسيوس وتليماخوس في الجزء السادس عشر من *الأوديسّة*، أعادها نيغل إليه بعد أن كتبَ عليها بعجالة ملاحظة مُبهمة في ذيل الصفحة الأخيرة: *ليس سيّئاً، استمرّ، يا فيرغسون*، وفهم الأخير أن هذه هي الطريقة المُقتضبة لأستاذه، كي يخبره بأنه قدّم عملاً جيّداً؛ ليس عملاً مذهلاً ربّما، لكنه عملٌ جيّد في نهاية المطاف.

طوال الفصل الدراسي الأوّل، مرّة كلّ أسبوعين، في يوم الأربعاء، اعتاد نيغل وزوجته، سوزان، أن يستضيفا في منزلهما الصغير في شارع ألكسندر الطلابَ المستجدّين السّتّة الذي كان نيغل مسؤولاً عنهم، كي يحتسوا الشاي في فترة ما بعد الظهر. كانت السّيّدة نيغل سمراء قصيرة مستديرة الجسد، تُدرِّسُ التاريخ القديم في جامعة روتجرز، ويصل رأسها إلى كتفي زوجها النحيل طويل الوجه. عندما تصبّ الشاي، يقدّم نيغل الشطائر، أو عندما يصبّ نيغل الشاي، تُقدِّمُ زوجته الشطائر، وعندما يجلسُ نيغل على أريكة يُدخّن السجائر ويتحدّث أو يستمع إلى بعض طلابه، تجلسُ السّيّدة نيغل على أريكة وتتحدّث وتستمعُ إلى طلابه الآخرين، وكان السّيّد والسّيّدة نيغل يتعاملان بغاية اللطف والتهذيب مع بعضهما، لدرجة أن فيرغسون كان يتساءل أحياناً عمّا إذا كان الاثنان يتواصلان باللغة اليونانية القديمة إذا ما أرادا ألا تسمع ابنتهما الصغيرة باربرا ذات السنوات الثماني حديثهما. بالنسبة إلى فيرغسون، لطالما كانت فكرة الدعوات الرسمية لاحتساء الشاي أشدّ العادات الاجتماعية مللاً (لم يسبقْ له أن حضر دعوة منها من قبل)، لكنه، في واقع الأمر، كان يستمتعُ بحفلات نيغل التي تستمرّ تسعين دقيقة، ويحاولُ ألا يتغيّب عنها، لأنها كانت تمنحه الفرصة كي يرى أستاذه في العمل مرّة أخرى، وعرفَ منها أن نيغل أكثر ممّا يبدو عليه في الصّفّ أو في مكتبه، إذ لم يكن يتحدّث مطلقاً عن السياسة أو الحرب أو القضايا الحالية، لكنه هنا، في منزله، مرّة كلّ أسبوعين، ظهيرة يوم الأربعاء، يُرحّب بتلاميذه السّتّة المستجدّين، والذين كانوا طالبين يهوديين، وطالبين أجنبيين، وطالبين من أصحاب البشرة السوداء، وعلى ذِكر الأمر،

فإنه لم يكن هناك سوى اثني عشر طالباً مُستجدّاً في فصل كامل، يضمُّ ثمانمائة طالب (اثنا عشر فقط!) وما لا يتجاوز الخمسين أو السّتّين من اليهود، وربّما نصف ذاك العدد أو ثلثه من الأجانب، وبدا جلياً لفيرغسون أن نيغل أخذ على عاتقه بصمتٍ مهمّة الاعتناء بالغرباء، والتّأكُّد من أنهم لن يغرقوا في ذلك المكان البغيض البعيد، وبغضّ النظر عمّا إذا كان مدفوعاً بمعتقداته السياسية، أو بحبّه لبرينستون، أو بعطف إنساني خالص، فقد كان روبرت نيغل يفعل ما بوسعه من أجل أن يُشعِر أولئك المهمّشين وكأنهم في منازلهم.

نيغل وهاوارد وجيم - في الشهر الأوّل من حياة فيرغسون الجديدة كفتى مُنزعج حاصل على منحة دراسية؛ فتى سبق له أن ظنّ نفسه رجلاً، وها هو يرتدُّ الآن في شكوك مضطربة من عالم الطفولة، كانوا هم مَنْ حافظَ على تماسُكِه. كان هاوارد أكثر من مجرّد رسّام كاريكاتور عفريت وساخرٍ خفيف الظّلّ مرتفع الطاقة، بل كان أيضاً مفكّراً راسخاً وطالباً واعياً يخطّط للاختصاص بالفلسفة، ولأنه كان متفهّماً ومستقلاً بنفسه وغير مُتطلّب لاهتمام فيرغسون، كان بإمكان الأخير أن يتشارك الغرفة معه دون أن يشعر باعتداء على خصوصيّته. كان ذلك أحد أعظم مخاوف فيرغسون، أن يضطرّ للعيش في غرفة غير كبيرة مع شخص آخر؛ الأمر الذي لم يحدث معه من قبل إلا في كامب بارادايس، حيثُ باتَ في حجرة مع مُستشارَين وسبعة صبية آخرين، لكنه كان دائماً قادراً في منزله على الانكفاء إلى الجدران الأربعة لملاذه الشخصي، حتّى في المنزل الجديد في وودهول كريسنت، عندما كانت إيمي في الغرفة المجاورة تغلق الأبواب بعنف وتُشغّل الموسيقى الصاخبة، فيصبح قلقاً ما إذا كان سيتمكّن من القراءة أو الكتابة، أو حتّى التفكير بشخص آخر يستلقي على سرير، أو يجلس إلى مكتب، على بُعد ستّة أو سبعة أقدام منه.

وكما حدث، فقد كان هاوارد قلقاً حيال المشاكل القريبة نفسها، لأنه لطالما كانت لديه غرفته الخاصّة أيضاً في فترة نشأته، وفي محادثة صريحة في اليوم الثالث من أسبوع توجيه الطلاب الجدد، اعترفَ كلّ منهما خلالها بمخاوفه بشأن عدم توفّر العزلة وأنه ثمّة أكثر ممّا ينبغي من الزفير في مكان واحد، وبيَّن كل منهما ما يأمله تجاه ما من شأنه أن يكون أسلوب عيش مقبول. بالنسبة إلى زملائهما في السَّكَن، كان الأوّل طالباً سابقاً في كلّيّة الطّبّ من فيرمونت، ويُدعى ويل نويز، والثاني طالب متفوّق من آيوا واسمه دودلي كرانتزنبرغر، واتّفق فيرغسون وهاوارد على أنه حينما تكون الغرفة المشتركة فارغة، أي عندما يكون كلّ من نويز وكرانتزنبرغر في غرف نومهما أو خارج المبنى، فإن واحداً منهما (فيرغسون أو هاوارد) سيقرأ ويكتب ويفكّر ويدرُس ويرسم في غرفة النوم، والثاني في الغرفة المشتركة، وعندما يكون أي من نويز أو كرانتزنبرغر، أو كلاهما، في الغرفة المشتركة، فسيتناوب فيرغسون وهاوارد على الذهاب إلى المكتبة، بينما يظلُّ الآخر

في غرفة النوم. تصافحَ الاثنان موافقةً على ذلك، بيد أن الفصل الدراسي بدأ يأخذ منحى جدّيّاً بعدئذٍ، وبعد بضعة أسابيع، صار كلاهما مرتاحاً في حضور الآخر حتّى لم تعد تلك القواعد الاحترازية سارية المفعول. كانا يأتيان ويذهبان مثلما يحلو لهما، وإذا ما قرّر كلاهما البقاء في السَّكَن في الوقت نفسه، فقد اكتشفا أنهما يستطيعان الجلوس في الغرفة معاً لفترات طويلة من العمل الصامت، دون أن يكسر أي منهما سلسلة أفكار الآخر، أو يُفسد الهواء الذي كانا يتنفّسانه. أحياناً، تتحوّل المشاكل المحتملة إلى حقيقية، ولا يحدث ذلك في أحيان أخرى. لم تحدث مشكلات هُنا. وبحلول الأوّل من شهر تشرين الأوّل، تمكّن ساكنا الطابق الثالث في براون هول من اختلاق إحدى وثمانين مباراة تنس.

أما بالنسبة إلى جيم، فقد كان بصدد التّكيّف مع مجموعة جديدة من الظروف أيضاً، مُستكشِفاً طريقه كطالب جامعي في السنة الأولى في قسم الفيزياء الذي يتّسم بتنافسية شديدة، ويكيّف نفسه على الحياة مع رفيق سكن في شقّة خارج الحرم الجامعي، ولم يكن أقلّ إرهاقاً من أخيه غير الشقيق خلال الفترة الأولى في جنّة السناجب السوداء، بيد أن الاثنين تمكّنا من تناول العشاء معاً كل ليلة ثلاثاء؛ إما السباغيتي في الشّقّة مع رفيق جيم الذي يدرُس في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، ليسر باتيل من نيودلهي، أو الهامبرغر في مكان صغير مزدحم في شارع ناسّاو يُدعى ′بَد′، فضلاً عن ساعة ونصف الساعة من كرة السّلّة الفردية في صالة ديلون مرّة كل عشرين يوماً، حيثُ يخسر فيرغسون دائماً أمام الشنايدرمان الآخر الذي كان أطول منه قليلاً، وأكثر موهبة بفارق ضئيل، غير أن النتيجة لم تكن مُحرِجة كي تمنع الأوّل من تكرار المحاولة. في إحدى الأُمسيّات، بعد قرابة أسبوعين من بداية الحصص الدراسية، جاء جيم إلى براون هول في زيارة عفوية لفيرغسون وهاوارد، وعندما أخرجَ الأخيرُ قائمة مباريات التنس التي عملا عليها حتّى الآن، وعرضَ على جيم بعض الرسومات التي طلعا بها (كلاود رينز على أحد جوانب الشبكة كأنه كتلة من القطرات المنفصلة، ومادي ووترز على الجانب الآخر غارقاً حتّى خصره بسائل لزج)، فانفجر جيم ضاحكاً مثلما ضحك فيرغسون وهاوارد في صباح اليوم الذي اخترعا به اللعبة، وبالنسبة إلى فيرغسون، فإن رؤية جيم يضحك بشدّة هكذا إنما دلّت على أن ثمّة شيئاً جيّداً بخصوص شخصية جيم، تماماً مثلما دلّ تجاوز امتحان الدخول إلى هورن وهاردارت على أن ثمّة شيئاً جيّداً في شخصية سيليا، ففي كلتا الحالتين، أثبتَ ردُّ الفعل أن للشخص المَعني روحاً استثنائية وقريبة؛ أنه شخص يُقدّر التناقضات الحمقاء نفسها، والروابط غير المتوقّعة لما يعجب فيرغسون وما لا يعجبه، فالحقيقة غير السّارّة أنّه ليس الأشخاص كلهم عاشقين لهورن وهاردارت، أو للفخامة الشاعرية للمطعم الآلي، ولا يضحكُ الجميع أو

حتّى يتسمون لمباريات التنس، مثلما لاحظ فيرغسون وهاوارد على نويز وكرانتزبرغر اللذين نظرا إلى الأزواج واحداً تلو الآخر بوجه خالٍ من التعابير، دون أن يُدركا أنها من المفترض أن تكون مضحكة، وغير قادرين على استيعاب الثنائية الطريفة التي حدثت عندما حلّت كلمة تدلّ على شيء، محلّ كلمة تدلّ على اسم، وأن وضعَ كلمتين من تلك الكلمات معاً قد يأخذ المرء إلى عالَمٍ من المرَح المُفاجئ، لكنْ، كلا ، لقد فشلَت المغامرة كلها بسبب رصانة الزميلَين حَرفيَي التفكير، في حين كان جيم في حالة هيجان وابتهاج صاخب، ممسكاً أضلاعه بقوّة، قائلاً بأنه لم يضحك بهذه الشّدّة منذ سنوات، ومرّة أخرى، وجد فيرغسون نفسه يفكّر في مشكلةِ ثُنائية الغضب والرغبة القديمة، والتي بدت مستعصية على الحلّ، لأن الشيء لا يمكن أن يتحدّث عن نفسه إلا من خلال كونه نفسه، وبناءً عليه، سيكون دوماً تحت رحمة الشخص، وبالنظر إلى أنه لطالما كان هناك شيء واحد فقط والكثير من الأشخاص، فسيكون أولئك حتماً أصحاب الكلمة الأخيرة، حتّى عندما يخطئون في أحكامهم، ليس فيما يتعلّق بالأشياء الكبيرة مثل الكُتُب وتصميم المباني المكوّنة من ثمانين طبقة، بل بما يتعلّق بأشياء صغيرة مثل قائمة عشوائية من النكات السخيفة غير المؤذية.

لم تكن المقرّرات الدراسية التي لا يتولّى نيغل تدريسها ممتعة مثل مادّة الأدب الكلاسيكي في الترجمة، لكنها كانت جيّدة بما يكفي، وما بين العمل على الاستقرار في محيطه الجديد، والعمل على تلك المقرّرات التي تضمّنَت مُقدّمة في علم العروض والتأليف، فضلاً عن مقدّمة في الأدب الفرنسي مع لافارج، والرواية الأوروبية ما بين عامي 1857 و1922 مع بيكر، والتاريخ الأميركي الفصل الأوّل مع ماكدويل، لم يتسنَّ له في الشهر الأوّل سوى القليل من الوقت كي يفكّر بموليغان المسكين، ويتبدّد ما تبقّى في رحلات إلى نيويورك.

كان جَدّه قد سافر إلى فلوريدا لقضاء فصلَي الخريف والشتاء، ما منح فيرغسون حرّيّة الوصول إلى الشّقّة في أي وقت يشاء، ومع الشّقّة، تأتي رفاهية البقاء وحيداً تماماً وبكل معنى الكلمة. كما وفّرَت له الشّقّة التي تقع غربيَّ الشارع الثامن والخمسين تساهلاً أكبر في إجراء مكالمات هاتفية مجّانية، وذلك لأن جَدّه قد أخبره بكل وضوح بأن يستخدم الهاتف *كلّما حكَّهُ فمه راغباً بالكلام*، وألا يقلق بشأن التكلفة. انطوى العرضُ ضمناً على درجة من الاعتدال، بطبيعة الحال، وتفاهماً بألا يفقد فيرغسون السيطرة على نفسه، ويُثقل كاهل جَدّه بمصاريف الاتّصالات الخارجية الباهظة، ممّا ألغى إمكانية الاتّصال بدانا في إسرائيل، على سبيل المثال (وهو أمر كان سيفعله على أي حال، لو كان يعرف رَقْم هاتفها)، لكنه تمكّن من البقاء على تواصل مع

أشخاص آخرين محلّيّين، وجميعهن كنَّ نساءً؛ النساء اللواتي يحبّهنّ، أو سبقَ له أن أحبّهنّ، أو قد يحبّهنّ لاحقاً أو قريباً أو الآن.

كانت أخته غير الشقيقة، إيمي، قد انخرطت في الحركة المناهضة للحرب في براندِيز؛ *الحركةُ التي جذبَت الأشخاص الأكثر إثارة للاهتمام كلهم في الجامعة*، كما قالت، ومن بينهم طالب أكبر سنّاً يُدعى مايكل موريس، والذي كان واحداً من متطوّعي صيف الحُرّيّة في ميسيسيبي خلال السنة الفائتة، ولم يكن بوسع فيرغسون سوى أن يأمل أن يكون هذا الشخص أفضل من ذاك الأحمق الذي منحَتهُ قلبها في المدرسة الثانوية، لوب المحتال ذو الخدع العديدة والوعود الكاذبة. هل كان ذلك خطأً ساذجاً من قِبَل إيمي؟ تساءلَ، أو، بعد أن رفضَت أخاها غير الشقيق المستقبلي في ليلة اليراعات في الفناء الخلفي للمنزل القديم، هل كان مصيرُها أن تُحبَّ الرجل الخطأ مراراً وتكراراً؟ كوني حذرة، قال لها. يبدو موريس هذا رفيقاً جيّداً، لكنْ، لا تنغمسي في الأمر قبل أن تعرفي معدنه الحقيقي. نصَّبَ فيرغسون نفسه، دون طلبٍ من أحد، في مكان السيّدة وحيدة القلب، وصار يسدي النصح في مسائل لا يعرف عنها شيئاً. ضربٌ مُتقن من ضروب الانتقام اللاشعوري، ربّما، فبقدر ما كان يهتمّ بشأن إيمي، إلا أن حرقة رفضها القديم له ما زالت تلسعه من وقت لآخر، ولم يتمكّن أبداً أن يخبرها بمدى الضرر الذي ألحقَتهُ به.

كانت والدته قد حصلَت على عمل في شركة هاموند ماب في ميبلوود؛ وظيفة طويلة الأجل من التقاط الصور لسلسلة من الأجندات والمفكّرات الخاصّة بنيو جيرسي، والتي كان مخطّطاً أن تُنشَر في سنة 1967، أي بعد سنة من الآن، خريف سنة 1966، لمشاهير نيو جيرسي، ومناظرها الطبيعية، ومواقعها التاريخية، وطبعتين لفنّ العمارة فيها (واحدة للمباني العامّة، وأخرى للمنازل الخاصّة)، وحازت على هذه الوظيفة عن طريق تدخُّل أحد عملاء دان التجاريين، وشعر فيرغسون بأن هذه الأخبار ممتازة لعدّة أسباب، فقبل كل شيء، بسبب المال الإضافي الذي سيدخل إلى المنزل (وكان مبعثَ قلق على الدوام)، لكن الأهمّ من ذلك أنه أراد لوالدته أن تنشغل بشيء مرّة أخرى بعد أن رفعَ والده، بتهوّرٍ، الدعم عن الاستوديو الخاصّ بها، وفي ظلّ عدم وجود أطفال في المنزل كي تعتني بهم، فلِم لا تفعلُ هذا؟ فهو لا بدّ عمل مُرضٍ بالنسبة إليها، وباعثاً للحياة في أيّامها، مهما بدا مفهوم المفكّرات ومذكّرات الأسابيع في نيو جيرسي شيئاً متكلَّفاً.

كانت المُدرِّسة التي ناداها سابقاً باسم الآنسة مونرو، وصار يخاطبها الآن باسم إيفي، اختصاراً لإيفيلين مثلما يعرفُها أصدقاؤها، قد عادَت إلى ثانوية كولومبيا لتمارس ما اعتادت أن تفعله أمام فصول اللغة الإنكليزية التي كانت تتولّى تعليمها، والإشراف على المحرّرين الصغار المسؤولين عن مجلّة الطلاب الأدبية، بيد أن الأمور أخذَت منحى قاسياً بالنسبة إليها في أوائل شهر أيلول

عندما أنهى حبيبها لطيلة السنوات الثلاث الماضية، وهو صحفي سياسي في صحيفة ستار ليدجر ويُدعى إد ساوثغيت، علاقتهما على حين غرّة، وعاد إلى زوجته، فكانت إيفي مُحبَطة، وشعرَت بألم شديد بما حلّ بها، وأمضت الساعات الأخيرة من عطلة نهاية الأسبوع مع كأس من السكوتش في يدها، وتستمعُ إلى أغاني بلوز كئيبة لبيسي سميث ولايتنين هوبكِنز، واللعنة، ظلّ فيرغسون يفكّر في نفسه، بينما غيّرت الأشجار ألوانها، وبدأت أوراق الشجر تتساقط على الأرض، كيف يمكن للروح الكبيرة لتلك المرأة أن تبتئس؟! كلّما اتّصل بها، حاول ما استطاع أن يُخرِجها من حالة الغمّ، ويُبعِد تفكيرها عن 'إد' الذي رحل، إذ لم تكن هناك فائدة تُرجى من التفكير في الماضي بعد الآن، كما شعر، لا شيء إلا أن يحاول دفعها خارج حفرة الإفراط في الشرب من خلال السخرية من إد، والموت، واليأس، ويُخبرها بألا تقلق لأنه، أي فيرغسون، تلميذها السابق، آتٍ لإنقاذها، وحتّى لو لم تُرِد ذلك، فإن عليها أن تغلق أبواب منزلها أو تخرُج من المدينة، لأنه قادم، سواء أعجبها ذلك أم لا، وفجأةً، يضحكُ الاثنان، وتنجلي السحابة لفترة كافية، كي تبدأ بالحديث عن أشياء أخرى غير الجلوس وحيدةً في حجرة الجلوس بالطابق السفلي بصحبة زجاجة سكوتش، والليالي الخاوية من الحبّ في النصف خاصّتها من المنزل المخصّص لعائلتين، حيثُ كانت تعيش إلى جانب كتلة ضخمة من الأشجار الطويلة متموّجة الظلال في مدينة إيست أورانج؛ نصف المنزل الذي زاره فيرغسون ثماني أو عشر مرّات خلال الصيف، وعرفَ تماماً أنه أحد الأماكن القليلة في العالم التي شعر فيها بنفسه حقّاً، وكان كلّما اتّصل بها، فكّر بتلك الزيارات الصيفية، والليلة الوحيدة التي أفرطا فيها في الشراب، وكانا على وشك أن يذهبا معاً إلى السرير، عندما رنّ طفلٌ صغير جرس الباب، سائلاً عمّا إذا كان بالإمكان أن تستعيرَ والدتهُ كوباً من السُّكَّر؟

كانت هُناك سيليا أيضاً؛ مكالمة هاتفية مساء كل يوم جمعة، أو ظهيرة كل سبت، مع صديقته الجديدة، وما من غرض آخر سوى إثبات مدى جدّيّته بصدد وظيفته كصديق لها، واستمرّ بالاتّصال لأنها كانت تبدو سعيدة دائماً عندما يفعل ذلك. كانت محادثاتهما الأولى أميل إلى المرور على العديد من المواضيع غير المترابطة، لكنها نادراً ما فترَت، واستمتع فيرغسون بالإصغاء إلى صوتها الجدّيّ الدّالّ على الذكاء بينما كانا يتعرّجان في الحديث من علم الاجتماع، تجمّعات المدرسة الثانوية، إلى الحرب في فيتنام، ومن شكواها القلقة بصدد والديها الضعيفين الخدرين، إلى التّأمّلات الحزينة عن إمكانية وجود سناجب برتقالية، لكنْ، سرعان ما أخذت تتحدّث أكثر وأكثر عن استعداداتها لاختبارات القبول الجامعي، ممّا تسبّب في إلغاء نزهات أيّام السبت في الوقت الحاضر، ثمّ، في أواخر شهر أيلول، أعلنَت أنها بدأت تواعدُ فتى يُدعى بروس، وكان

واضحاً أنه على وشك التّحوّل إلى شيء أشبه بحبيب، فتلقّى فيرغسون ضربة موجِعة عندما أخبرَتْهُ بالأمر، وظلّ كذلك ليوم أو اثنين بعد ذلك، لكنْ، بمجرّد أن هدأت أعصابه، أدرك أن هذا الوضع سيكون أفضل على الأرجح، فبما أنها قد شكّلت انطباعاً قوياً عنه خلال اليوم الذي أمضياه معاً في نيويورك، وفي ظلّ عدم وجود فتيات أخريات في أي مكان من المشهد الآن، فمن المُحتمل أن يأتيَ باندفاعة طائشة في المرّة التالية التي يكونان فيها معاً، شيء قد يندمُ عليه، شيء من شأنه أن يُدمّر أي فرصة لهما في المستقبل، لذا من الأفضل أن يقف بروس هذا بينهما الآن، إذ نادراً ما تستمرّ رومانسيات المدرسة الثانوية بعد نهاية المدرسة الثانوية، وهي بدورها ستلتحقُ بالجامعة في السنة المقبلة، إذا ما سارت الأمور مثلما خُطّط لها، ولا شكّ في هذا، وبعدئذٍ، سيكون الوضع كله مُختلفاً مرّة من جديد.

في تلك الأثناء، داخل كُتل وسط المدينة المحيطة بميدان واشنطن، كان نوح غارقاً حتّى النخاع في ملذّات حياته المستقلّة الجديدة؛ انعتاقه من الحدود الخانقة لشقّة والدته في جادّة ويست إند، وسلسلة السلام والشجار بصدد الزواج المجنون لوالده من امرأة مريضة بالوهن العصبي. ومثلما وصفَ ذلك لفيرغسون ذات يوم عندما كان يريه غرفته الصغيرة، بأن ذلك ثاني أفضل شيء حدث معه بعد التخييم في براري مونتانا. *لم أعُد محاصَراً بعد الآن، يا آرتشي*، قال، *أشعرُ كما لو أنني عبدٌ أُعتِق ويُسرّحُ في الأرجاء على عجل*، وعلى الرغم من شعور فيرغسون بالقلق لأن نوحاً يُدخّن الكثير جدّاً من السجائر (قرابة علبتين في اليوم)، إلا أن عينيه كانتا صافيتين، وبدا عليه أن بخير عموماً، حتّى عندما كان يتعامل مع خسارته لحبيبته، كارول، التي هجرَتهُ قبل أن تنصرفَ للعيش تحت السماوات الواسعة في يلو سبرينغز، أوهايو.

بعد مرور أسبوعين من الفصل الدراسي الأوّل، أفاد نوح بأن جامعة نيويورك أقلّ تطلّباً بكثير من فيلدستون، وأن في مقدوره أن يؤدّي مهمّاته اليومية في الوقت نفسه تقريباً الذي يتطلّبه *تناول عشاءٍ من خمسة أطباق*. تساءل فيرغسون متعجّباً عن آخر مرّة تناول فيها نوح عشاءً من خمسة أطباق، لكنه فهم مقصده، ولم يستطع إلا أن يُعجَبَ بقريبه المُرتاحِ جدّاً إزاء شؤون الكلّيّة، ففي حالته، تكادُ هذا الأمور أن تفضي به إلى مرحلة الانهيار العصبي. وهكذا، ها هو السّيّد الشّابّ ماركس؛ رجل جديد في محيطه القديم، يمشي الهوينا على الأزقّة المرصوفة بالحصى في روضته بويست فيليج، ويذهبُ إلى نوادي الجاز والأفلام في سينما شارع بليكر، ويكتبُ أفكاراً قصصية للأفلام في أثناء جلوسه في مقهى ريجيو، ويحتسي فنجانه السادس من الإسبرسّو في ذلك اليوم، وها هو يُكوّن صداقات مع شعراء ورسّامين شباب من لور إيست سايد، وعندما شرع نوح بتقديم فيرغسون إلى بعض من هؤلاء الأشخاص، تمدّدَ عالَم الأخير بطُرُق من شأنها

أن تعيد تشكيل المشهد الطبيعي في حياته بصورة جوهرية، إذ شكّلت تلك اللقاءات العابرة المبكّرة الخطوات الأولى باتّجاه اكتشاف نوع الحياة التي يمكن أن تكون في المستقبل، ومرّة أخرى، كما العادة، كان نوح مَنْ شكرَهُ لتوجيهه في الاتّجاه الصحيح. وعلى الرغم من مُعارضتِه لورشات العمل في برينستون، إلا أن فيرغسون أدرك أنه ثمّة الكثير جدّاً ممّا يمكن اكتسابه من التّحدّث إلى الكتّاب والفنّانين الآخرين، ولأن مُعظم فراخ وسط المدينة الذين التقى بهم عبر نوح كانوا يكبرونه بثلاث وأربع وخمس سنوات، فإنهم كانوا بالفعل بصدد نشر أعمالهم في مجلات صغيرة، وتنظيم عروض جماعية في عليّات ومستودعات مهلهلة، ودلّ ذلك على أنهم كانوا يسبقونه بأشواط في تلك المرحلة، ولهذا السبب، أصغى فيرغسون بعناية إلى ما قالوه. في النهاية، علّمَهُ معظمهم شيئاً، حتّى أولئك الذين لم يأخذهم على محمل الجدّ، لكنْ، اتّضحَ أن الأكثر ذكاءً بينهم، في رأيه، كان الشخص ذاته الذي أعجبه أكثر من غيره؛ شاعر يُدعى رون بيرسون، جاء إلى نيويورك من مدينة تولسا، أوكلاهوما، قبل أربع سنوات، وتخرّج في جامعة كولومبيا في شهر حزيران. وذات مساءٍ، في شقّة رون الضّيّقة التي تقع بالقرب من السكة الحديدية في شارع ريفينغتون، حيثُ كان فيرغسون ونوح وشخصان أو ثلاثة آخرون جالسين على الأرض برفقة رون وزوجته، بيغ (كان متزوّجاً بالفعل!)، تنوّع الحديث من الدادائية إلى الفوضوية، ومن موسيقى الاثني عشر لحناً إلى القصص الإباحية المُصوَّرة نانسي وسلاغو، ومن الأنماط التقليدية في الشِّعْر والفنّ إلى دور الصدفة في الفنّ، وفجأةً، ذُكِر اسمُ جون كيج، وكان اسماً بالكاد يمكن تمييزه بالنسبة إلى فيرغسون، وعندما علِم رون بأن صديقهم الجديد الوافد من سبخات نيو جيرسي لم يقرأ أي كلمة من كتابات كيج، قفز منتصباً على قدميه، وسار باتّجاه خزانة الكُتُب، وسحب نسخة من كتاب *الصمت*. عليكَ أن تقرأ هذا، يا آرتشي، قال، وإلا فإنكَ لن تعرف أبداً كيف تفكّر في شيء عدا ما يريدُك الآخرون أن تعتقده.

شكرَه فيرغسون، ووعده بإعادة الكتاب في أقرب وقت ممكن، لكن رون لوّح بيده نافياً، وقال له، احتفِظْ به. لديّ نسختان غير هذه، لذا، فهي لكَ من الآن فصاعداً.

فتحَ فيرغسون الكتاب، وقلّبَ في صفحاته لوقت قصير، ثمّ وقعت عيناه على هذه الجملة في الصفحة السادسة والتسعين: "العالَمُ مزدحم: يمكنُ لأيّ شيء أن يحدُث".

كان يوم الجمعة، الخامس عشر من شهر تشرين الأوّل لسنة 1965، ومضى شهر واحد منذ أن صار فيرغسون طالباً في برينستون، شهرٌ من أشدّ الشهور إرهاقاً وتعباً في حياته، بيد أنه كان على مشارف الانقضاء، كما شعر، وأن ثمّة شيئاً ما يُغيّره مرّة أخرى، وكان قضاء تلك الساعات مع نوح ورون والآخرين يساعده على الابتعاد عن أشياء ضعيفة وغاضبة ومحبوسة في داخله،

والآن، صار لديه كتاب، نسخة من كتاب *الصمت* لجون كيج، وعندما انتهَت الحفلة الصغيرة وغادر الجميع، أخبرَ نوحاً بأنه يشعر بالتعب، ويريدُ يعود إلى شقّة جَدّه شمال المدينة، ولم يكن ذلك صحيحاً في واقع الأمر، إذ لم يكن مُتعَباً أبداً، بل أرادَ أن يكون وحده فحسب.

في مرّتين سابقتين، حدثَ أن قلبَ كتابٌ أحواله وغيّر في شخصيته، أن نَسفَ افتراضاته عن العالم، وألقى به إلى أرض جديدة حيثُ بدا كلُّ شيء في العالم مختلفاً على حين غرّة - وسيظلّ مُختلفاً ما بقي من الزمن، وذلك ما دام يعيش في الزمن ويَشغَلُ مساحة من العالم. كان كتابُ دوستويفسكي عن المشاعر والتناقضات في الروح البشرية، وكتاب ثورو دليلين إرشادياً عن كيفية العيش، واكتشفَ فيرغسون الآن كتاباً قال رون عنه إنه عن *كيفية التفكير*، وعندما جلسَ في شقّة جَدّه يقرأ "الصفحة الثانية، 122 كلمة عن الموسيقى والرقص"، و"محاضرة عن اللا شيء"، و"45 من أجل مُتحدّث"، و"اللا حتمية"، شعرَ كما لو أن ريحاً مطهِّرة شديدة تعصفُ في دماغه، وترمي خارجاً ما تراكم فيه من نفايات، وأنه كان في حضرة رجلٍ لا يخشى أن يطرح الأسئلة الأولى، وأن يبدأ من جديد تماماً ويسير في درب لم يَسلُكه أحد من قبل، وأخيراً، عندما وضع فيرغسون الكتاب جانباً عند الساعة الثالثة والنصف فجراً، شعرَ بهيجان وانفعال ممّا كان قد قرأه، لدرجة أن أدرك أن النوم ليس وارداً، وأنه لن يكون قادراً على إغماض عينيه لما تبقّى من الليل.

العالمُ مزدحم: يمكن لأي شيء أن يحدُث.

كان قد خطّط للقاء نوح ظهر اليوم التالي، والسير معاً إلى الجادّة الخامسة في أوّل مظاهرة لهما ضدّ الحرب، أوّل احتجاج واسع النطاق في نيويورك ضدّ تعزيز تواجد القوّات الأميركية في فيتنام، حدثٌ من شأنه بالتأكيد أن يجذب عشرات الآلاف من الناس، إن لم نقل مئة ألف أو مائتي ألف، ولم يكن بإمكان أيّ شيء أن يمنع فيرغسون من المشاركة، حتّى لو كان في قمّة التعب، واضطرّ إلى جرّ نفسه إلى الجادّة الخامسة مثل مسرنم مخمور، بيد أن الوقت كان مبكّراً جدّاً للتفكير بفترة الظهيرة، وللمرّة الأولى مذ وطأت قدماه أرض براون هول في الشهر الفائت، كان مستعدّاً للبدء في الكتابة من جديد، ولم يكن هناك شيء ليمنعه عن فعل ذلك أيضاً.

أخذَت الرحلات الاثنا عشر الأولى موليغان إلى بلاد تعيشُ في حالة حرب دائمة، وبلاد يسودها تطرّف ديني شديد، لدرجة أنها تُعاقِب مواطنيها، إذا ما راودتهُم أفكار بذيئة، وبلاد كُرِّسَت ثقافاتها للسعي وراء المتعة الجنسية، وبلاد لا يفكّر سكّانها بشيء سوى الطعام، وبلاد تحكمها النساء، ويعمل فيها الرجالُ خدماً متزلّفين بأجور زهيدة، وبلاد مُكرّسة لصنع الفنّ والموسيقى، وبلاد تَحكُمُها قوانين عنصرية أشبه بالنازية، وأخرى لا يُميّزُ الناس فيها بين ألوان البشرة المختلفة، وبلاد يَخدعُ فيها التّجّارُ ورجالُ الأعمال العامّة كمسألة من الواجب المدني،

وبلاد مُنظّمة حول مسابقات رياضية دائمة، وبلاد تُحاصِرها الزلازل والبراكين المشتعلة والطقس السّيّئ المتواصل، وبلاد استوائية لا يرتدي الناس فيها أيّة ملابس، وبلاد تافهة بسكّان مهووسين بالفراء، وبلاد بدائية، وأخرى متقدّمة تكنولوجياً، وبلاد يبدو أنها تنتمي إلى الماضي، وأخرى يبدو أنها تنتمي إلى الحاضر أو المستقبل البعيد. كان فيرغسون قد رسم خريطة تقريبية للرحلات الأربع والعشرين قبل أن يبدأ بالمشروع، لكنه وجدَ أن الطريقة الأفضل للدخول في فصل جديد هي أن يكتب على نحوٍ عشوائي، أن يُدوّن كل ما يتدفّق في رأسه بينما ينسابُ من جملة إلى أخرى، ومن ثمّ، عندما يفرغُ من المسوّدة الأولى الجامحة، فسيعود إلى البداية، ويبدأ بترويضها على مهل، وغالباً ما كان يخرج بخمس أو ستّ مسوّدات إضافية قبل أن يصل إلى الصيغة النهائية السليمة، المزيج الغامض الذي يبحثُ عنه من الرشاقة والثقل، النغمة التي تجمعُ بين الجدّ والهزل، والتي كانت ضرورية لإنجاز مثل هذا السرد الغريب، *اللا معقولية المنطقية* لِما كان يُسمّيه *إطلاق العنان للهراء*. نظرَ إلى كتابه الصغير على سبيل التجربة؛ تدريبٌ من شأنه أن يسمح له بتحريك بعض العضلات الكتابية الجديدة، وعندما انتهى من كتابة الفصل الأخير، كان قد خطّط لإحراق المخطوط، أو في حال لم يحرقه، أن يدفنَ الكتاب في مكانٍ لا يمكن أن يجده فيه لأحد.

في تلك الليلة، في غرفة النوم الإضافية في شقّة جَدّه، والتي كانت ذات يوم الغرفة التي تشاركَتها والدته مع شقيقتها ميلدرد، ومُتشبّعاً بإحساس الحُرّيّة الذي منحه إيّاه كتاب كيج، عاقداً العزم مبتهجاً، ومفعماً بفكرة أنه قد حانت نهايةُ صمتِهُ الذي طال شهراً، كتبَ المسوّدتَين الأولى والثانية ممّا كان بلا شكّ أقصى جهوده غريبة الأطوار حتّى الآن.

الدرونز

كان الدرونز في غاية السعادة عندما يشتكون من حالة أرضهم. يحسد سكّانُ الجبال الناس الذين يعيشون في الوديان، ويتطّلعُ سكّان الوديان إلى الهجرة نحو الجبال. المزارعون غير راضين عن غلّة محاصيلهم، ويتذمّر الصّيّادون من صيدهم اليومي، ومع ذلك، فلم يتّخذ أيّ من المزارعين أو الفلاحين خطوة إلى الأمام، ويتحمّل مسؤولية فشله. كانوا يفضّلون إلقاء اللوم على الأرض والبحر، بدلاً من الاعتراف بأنهم أقلّ من أن يوصفوا بالمزارعين أو الصّيّادين الجيّدين، وأن معارفهم القديمة قد ضاعت تدريجياً، وما عادوا ماهرين فيما يفعلونه، بل أمسوا مبتدئين عديمي الخبرة.

لأوّل مرّة خلال رحلاتي، أصادِفُ ما يُمكن أن أُطلق عليهم اسم أناس كسالى.

لقد ضاعَ أملُ النساء بالمستقبل، ولم يعدنَ مهتمّات بإنجاب الأطفال. ويقضي الأثرياء أيّامهم متمدّدين عراةً على ألواح ملساء من الصخور، يغفون في دفء أشعّة الشمس. أما الرجال، الذين يبدو أنهم يفضّلون التجوال بين النتوءات الصخرية المتعرّجة والمناطق شديدة الانحدار، فكانوا يشعرون بالغيظ بسبب لا مبالاة نسائهم تجاههم، لكنهم لا يفعلون الكثير في هذا الصدد، وليست لديهم أي خطّة واضحة من أجل تغيير الوضع. وبين حين وآخر، يشنّون هجوماً واهياً ويلقون الحجارة على النساء المضطجعات، لكنْ، عادةً ما تسقط تلك الحجارة دون أن تحقّق الهدف منها.

لمدّة طويلة الآن، صاروا يُغرقون كل مولود جديد عند الولادة.

عند وصولي إلى القصر، استقبلَتني الأميرة بونز وحاشيتها. قادَتني بعيداً عن المشادّات الكلامية العاجلة إلى الحديقة، حيثُ قدّمت لي زبدية من التّفّاح، وتحدّثت عن تطلّعات شعبها. ما التّحدّي الجديد الذي يُعدّونه ضدّ أمناء الفضيلة؟ سألَت. على الرغم من أنها كانت تتكلّم عن مسائل خطيرة، إلا أنها لم تبدُ مرتبِكة أو شديدة الحذر. ضحِكَت في أحيانٍ كثيرة، كما لو كانت تضحكُ على بعض النكات الخاصّة، وظّلت طيلة محادثتنا تُهّوي نفسها بمروحة من الخيزران، أعطاها إيّاها سفير الصين عندما كانت صغيرة، كما قالت. في الصباح، زوّدتني بالمؤن من أجل رحلتي.

ثمّة العديد من القرى، تحيطُ كلها بالبرج في سلسلة من ثماني دوائر متّحدة المركز. ومن الشاطئ، تبدو الجبال الجليدية في الأفق دائماً.

يُقال بأن البرج أقدمُ بناءٍ على الجزيرة، وأنه مبني منذ زمن سحيق، لا يمكن تذكّره. لم يعد يسكنه أحد، لكنْ، تقول الأسطورة بأنه كان ذات يوم مكاناً للعبادة، وإن الكهنة الذين بَعثتهُم العرافّة بوتانا كانوا يحكمون الدرونز إبّان عصرهم الذهبي.

امتطيتُ صهوة حصاني، وقرّرتُ أن أتّجه إلى المناطق النائية البعيدة عن الساحل. بعد ثلاثة أيّام وثلاث ليال، وصلتُ إلى قرية الفلوم، حيثُ، بحسب ما قيل لي، اجتاحَت طائفة أخيلة الناس، وتُهدّد الآن بتدميرها. ووفقاً لمصدَري (وهو نَسّاخٌ في القصر)، فقد وصلَت عدوى كراهية الذات التي تنتشرُ بين مواطني فلوم إلى حجم كبير، لدرجة أنهم انقلبوا على أجسادهم، وصاروا يعملون على إضعافها أو تشويهها أو جعلها عديمة الفائدة، وذلك فيما وصفَهُ النّسّاخ بـ مجون تقطيع الأوصال.

ليسَت مجون بالكلمة المناسبة لوصف ذلك. يوحي المجون باللّذّة وسرور النشوة، بيد أنه

ما من سرور بين الناس في فلوم. فكانوا يقومون بشؤونهم بالهدوء الشديد للمتعصّبين دينياً.

ذات يوم، كان هُناك احتفال يُعرَف باحتفال التّحمُّل، وتجري طقوسه في الساحة المركزية للقرية. يلفُّ المشاركون أنفسهم بإحكام بالشاش من الرأس حتّى أخمص القدم، تاركين فقط ثقباً صغيراً لفتحتَي الأنف منعاً للاختناق، ثمّ يُطلب من أربعة من تلك الأجساد الشبيهة بالمومياوات يَشدّوا أطراف سيّدهم أو عشيقتهم، أن يشدّوا بكل ما أوتوا من قوّة، ولأطول فترة ممكنة. الاختبار هو مقاومة التعذيب. وفي حال كان من المفترَض أن يُنزَع طرفٌ ما من مكانه في أثناء العملية، فسيصيحُ الحشد صيحة مُدوّية من التعظيم. يتحوّلُ الآن طقس التّحمّل إلى ما يُعرَف بـ التجاوز. وتُحفظُ الأطراف المبتورة في صندوق زجاجي في قاعة المدينة، ويتعبّدها الناس بِعَدِّها أشياء مقدّسة. ويُمنَحُ مبتورو الأطراف امتيازات الملكيّة.

تعكسُ القوانين الجديدة كلها التي أقرّتها الحكومة البلدية مبادئ التجاوز. فمكافأةُ الخدمات المجتمعية بترٌ غير مؤلِم، بينما يُجبَرُ المجرمون المدانون على الخضوع لعملية طويلة، تجري خلالها خياطة أطراف جسدية إضافية في أجسادهم. للجريمة الأولى، جرت العادة أن تُخاطَ يدٌ في المنطقة المحيطة بالمعدة. غير أنه ثمّة عقوبات أشدّ إذلالاً أُعدَّت لأصحاب الجرائم المتكرّرة. رأيتُ ذات مرّة رجلاً خيطَ رأس فتاة صغيرة في ظهره. وآخر نبتت قدما طفلٍ من راحتيه. بل هناك مَنْ يبدو أنهم يحملون جسداً آخر بأكمله.

في حياتهم اليومية، يحاول سكّان الفلوم أن يبدّدوا الخوف الذي قد يساور المرء بصدد وجودهم غير المستقرّ. هُم لا يميلون إلى النسيان - إذ تستمرّ معاناتهم حتّى لو لم تظهر أي علامة على ذلك للعين المجرّدة. ولهذا السبب، اختاروا أن يوجّهوا الأمر، وبتلك الطريقة، أن يتغلّبوا على العقبات التي حالتَ دون معرفتهم أنفسهم. ولم يُقدّموا أي عذر بشأن تحويل ذاتويّتهم إلى صنم مُقدّس.

إنهم لا يرغبون في التّغلّب على أجسادهم فحسب، بل على شعورهم بالانفصال عن بعضهم البعض. وكما وصفَ لي أحدهم ذلك: "لا يبدو أننا قادرون على إيجاد أرضية مشتركة. يعيش كلٌّ منّا في عالمه الخاصّ، والذي نادراً ما يتقاطع مع عالم أي شخص آخر. ومن خلال تقليص أحجام أجسادنا، نأمل أن نقلّل المسافات التي تفصلُ بيننا. ومن المثير للإعجاب، أن من الحقائق المؤكّدة أن مبتوري الأطراف أكثرُ ميلاً للمشاركة في حيوات الآخرين إذا ما قارنتهم بمعظم الفلوميين كاملي الأطراف. استطاعَ بعضهم أن يتزوّج. ربّما عندما ننكمشُ إلى اللا شيء تقريباً، سيجد أحدنا الآخر في نهاية المطاف. فالحياة، بعد كل شيء، صعبة للغاية. هُنا، يموت معظمنا لأننا ننسى أن نتنفّس، ببساطة".

فضلاً عن الوقت الذي أمضاه بالتّجوّل في الغرفة في أثناء كتابة المقاطع، إلى جانب الدقائق التي ضيّعها خلال إعداد فنجان من القهوة سريعة التحضير، والبحث عن علبة سجائر Cam-el جديدة في حقيبته، استغرق الأمر من فيرغسون أقلّ من ساعتين بقليل، لكي يكتب هذه المُسوّدة البدائية. عندما فرغ منها، وضع قلم الرصاص جانباً، وقرأ ما كتبه بعناية، جلس في كرسي، توقّف لبرهة من أجل أن يُدخّن سيجارة ويحكّ جلده ويُفكّر، ثمّ حمل قلم الرصاص، وشرع بكتابة الفصل من جديد. وبعدَ ستّ مسوّدات، وتسعة أيّام، لم يبقَ من المسوّدة الأصلية سوى أربع جُمل فقط.

في يوم الأربعاء، قبل عيد الشُّكْر، عادَ فيرغسون إلى منزله للمرّة الأولى منذ ما يزيد عن شهرين، حيثُ سافر مع جيم إلى المنزل في وودهول كريسنت، بينما كانت إيمي موشكة على رحلة مُشابهة من بوسطن، وهُناك كانوا مرّة أخرى؛ الخمسة كلّهم معاً من أجل قضاء عطلة نهاية أسبوع طويلة، لكنْ، فيما عدا الجلوس إلى مائدة الديك الرومي السنوية بعد ظهر يوم الخميس، لم يمضِ فيرغسون في المنزل إلا قليلاً من الوقت. كان دان ووالدة فيرغسون قد تآلفا في زواجهما بحلول ذلك الوقت، وبدأ كلّ منهما يشبه الآخر، كما ظنّ، بيد أن إيمي قد أحلّتْ بهم مزاجاً مزعجاً ومضطرباً، وعندما حاول فيرغسون أن يرفع معنوياتها في أثناء عشاء يوم العطلة من خلال الحديث عن عشرات الثنائيات الجديدة مباريات التنس التي ابتكرها بصحبة هاوارد (آرثر دوف ضدّ والتر بيدجن، وجون لوك ضدّ فرانسيس سكوت كي، وتشارلز لام ضدّ جورج بولِت، وروبرت بيرد ضدّ جون كيج)، ضحِكَ البقية، ومن بينهم جيم الذي سبق أن سمع معظم هذه الثنائيات مرّتين من قبل، بيد أن إيمي أطلقت تنهيدة طويلة، ثمّ انتفضَت في وجهه لإضاعته وقتَه على ما وصفتُه بـ *دعابة صبيانية تافهة وفي غاية الغباء*. أمَا كان يدري أن أميركا تخوض حرباً غير شرعية وغير أخلاقية؟ ألم يعلم أن السودَ يُلاحَقون بالرصاص ويُقتَلون في أنحاء البلاد جميعها؟ ومَنْ أعطاه الحقّ، للسّيّد برينستون المُدلّل الذي يعرف كل شيء، بأن يتجاهل تلك المظالم كلّها، ويُبذِّر وقت تعليمه من خلال الانغماس في *نكات حمقاء وغبية*؟

استشّفَ فيرغسون أنّ قصّة إيمي الرومانسية مع بطل صيف الحُرّيّة مايكل موريس لم تسر على ما يُرام، أو ربمّا لم تحدُث أبداً، لكنه امتنع عن سؤالها عن حياتها العاطفية، وقال ببساطة: أجل، يا إيمي، أتّفقُ معكِ. العالمُ بلّاعة من الخراء والألم والرعب، لكنْ، إذا كنتِ تقولين لي بأنكِ تريدين إنشاء بلاد تمنعُ قوانينها الضحك، فأعتقدُ أنني سأفضّلُ العيش في مكان آخر.

أنتَ لا تستمعُ إليّ، قالت إيمي. مؤكّدٌ أننا بحاجة إلى الضحك. إن لم نضحَك، فسنموت

جميعنا في غضون سنة على الأرجح. الأمر فقط أن مُباريات التنس خاصّتكَ غير ظَريفة - ولا تجعلُني أضحك.

طلب دان من ابنته أن *تهدأ وتأخذ الأمور بروّية*. وقال جيم لأخته أن تتناول *حبّة مضادّ للنكد*، ثمّ سرعان ما عدّل الكلمة إلى *حبة مضادّ لحبوب الدواء*، وسألَت والدة فيرغسون إيمي إن كان هناك شيء يشغل تفكيرها؟ وهو سؤالٌ أجابَت إيمي عليه بالنظر أسفل إلى منديل المائدة، وعضّ شفتها السفلى، ومنذئذٍ وحتّى نهاية العشاء، لم ينبس فيرغسون ببنت شفة تقريباً. بعد الانتهاء من فطيرة اليقطين، ذهب الجميع إلى المطبخ لغسل الأطباق وتنظيف الأواني والمقالي، ثمّ دخل دان وجيم إلى غرفة المعيشة لمشاهدة الأخبار ونتائج مباريات كرة القدم في عيد الشُّكْر، في حين جلسَت إيمي ووالدة فيرغسون إلى طاولة المطبخ من أجلِ ما افترضَ فيرغسون أنه حديث جدّيّ من القلب إلى القلب بصدد ما يَشغلُ ذهن إيمي (لا شكّ أنه مايكل موريس). كانت الساعة قد تجاوزَت السادسة بقليل. صعد فيرغسون إلى الطابق العلوي كي يستخدم الهاتف في غرفة النوم الرئيسة؛ إذ كان الهاتف الوحيد في المنزل، والذي من شأنه أن يمنحه خصوصية الحديث دون أي يسمعَهُ أحد بالصدفة. أخبرتهُ إيفي خلال عطلة نهاية الأسبوع الفائتة بأنها ستقضي أُمسيّة عيد الشُّكْر مع عائلة كابلان؛ الزوجان اللذان يعيشان بجوار منزلها، وكانا أفضل أصدقائها في الحيّ، لكنْ، بناءً على فرصة ضعيفة بأن تكون الحفلة قد انتهت باكراً، اتّصلَ بمنزلها أوّلاً. لم يُجب أحد. ما يعني أن عليه الاتّصال بمنزل عائلة كابلان، ممّا سيضطرّه إلى التّحدّث لفترة طويلة مع فرد العائلة الذي سيلتقط سمّاعة الهاتف؛ إمّا جورج أو نانسي، أو ابن من ابنيهما اللذين بلغا سنّ الجامعة؛ بوب أو إيلين، وكانوا جميعاً أصدقاء لفيرغسون، وعادةً ما كان ليَسرّه التّحدّث إليهم، لكنه في تلك الليلة بالذات، كان يريد أن يتحدّث مع إيفي وحسب.

كانت بعض أحلى ذكريات نشأتِه مرتبطةً بمنزل عائلة كابلان، والذي زارهُ مرّات عديدة خلال سنوات دراسته في المدرسة الثانوية، حيثُ كان يحضر تجمُّعات ليالي الجمعة والسبت في ذلك المبنى الخشبي المضعضع المكوّن من طابقين، غالباً مع دانا، وغالباً أيضاً مع مايك لوب وإيمي، وفي معظم تلك الأُمسيّات، يكون هُناك حشد صغير من اثني عشر أو ستّة عشر شخصاً؛ هم مزيج غير معهود من البالغين والمراهقين معاً، وحتّى مزيج أكثر غرابة من المراهقين البيض والسود معاً، لكن تلك المنطقة من إيست أورانج كانت تقريباً نصف بيضاء ونصف سوداء في ذلك الوقت، ولأن عائلة كابلان وإيفي مونرو كانوا من اليساريين المندمجين والداعمين لحركة نزع السلاح النووي، وبلا مالٍ أو نيّة للهرب، ولأنّ الحاضرين كانوا سريعي البديهة بما يكفي للسخرية من اسم جورج، ووصفِه بـ الرجل الذي لم يكن موجوداً (في إشارة إلى الاسم الوهمي الذي أُعطي

لكاري غرانت في فيلم *شمالاً إلى الشمال الغربي* - جورج كابلان)، فقد اعتقدَ فيرغسون أحياناً أن ذلك المنزل هو آخر معقلٍ للعقل في أميركا كلّها.

كان بوب مَنْ رفَع سمّاعة الهاتف، وهذا أمر جيّد بالنسبة إلى فيرغسون، إذ كان بوب الفرد الأقلّ ثرثرة في العائلة، وغالباً ما كان يفكّر بالكثير من الأشياء في وقت واحد، لذا، عقب محادثة قصيرة عن إيجابيات الكلّيّة وسلبياتها، *والفوضى اللعينة في فيتنام* (كما قال بوب)، أُعطيَت سمّاعة الهاتف إلى إيفي.

ما الأمر، يا آرتشي؟ سألتْ.

لا شيء. أريد رؤيتكِ فحسب.

سنبدأ بتناول الحلوى في غضون عشر دقائق. لِم لا تقفز إلى سيّارتكَ وتأتي إلى هُنا؟

أنتِ فقط. وحدكِ.

أثمة خطب ما؟

ليس حقّاً. حاجةٌ مفاجئة للهواء. إيمي في واحدة من نوبات غضبها، والشباب يتحدّثون عن كرة القدم، وأنا أتوق إلى رؤيتكِ.

لطيف، تتوق.

لا أظنّ أنني استخدمتُ هذه المفردة من قبل، ولا مرّة في حياتي كلها.

تشعرُ نانسي بالصداع، ويبدو أن جورج سيصاب بالإنفلونزا، لذا أشكّ في أن هذه الأُمسيّة ستستمرّ لمدّة أطول. سأكون في المنزل في غضون ساعة تقريباً.

هل لديكِ مشكلة؟

كلا، بالطبع لا. أحبُّ أن أراكَ.

جيّد. سأكون في منزلكِ بعد ساعة.

لم يكن سرّاً أنهما كانا مولعَين ببعضهما، وأن فيرغسون ذو الثمانية عشر عاماً، وإيفي مونرو ذات الواحد والثلاثين عاماً، قد تجاوزا شكليات العلاقة التي تربط بين التلميذ ومُدرّسته في الصّفّ منذ زمن طويل. كانا صديقين الآن، صديقين مقرّبين، وربّما أقرب صديقين، لكنْ، إلى جانب صداقتهما، ثمّة انجذاب جسدي أخذ ينمو لدى الاثنين، وقد ظلّ سرّاً على الجميع، حتّى عليهما في البداية؛ تلك الأفكار الشهوانية التي تحلّ دونما دعوة، والتي لم يكن أيّ منهما على استعداد للسعي خلفها، خوفاً أو حياءً، لكنْ، بعد ذلك، جاء الأثر المُليّن الناجم عن شرب

مستقبله في قسم الفيزياء ببرينستون، وبعد أشهر من الشّكّ والمعاناة الداخلية، قرّر على نحوٍ ما أن يتوقّف بعد الحصول على شهادة الماجستير، ويصير مُدرّساً للعلوم في المدرسة الثانوية. أنا لستُ الخبير البارع الذي كنتُ أحسب، قال، ولا أريد أن أقضي حياتي كمساعد من الدرجة الثانية في مختبر شخص آخر. وإلى جانب ذلك، أراد الزواج من حبيبته نانسي، وعنى هذا أنه سيضطرّ إلى العثور على وظيفة حقيقية، براتب حقيقي، وأن يصير فرداً كامل العضوية في العالم الحقيقي. أرجأ فيرغسون وجيم خطّتهما بشأن المشي إلى كيب كود، لكنْ، عندما اقتربت عطلة عيد الفصح في شهر نيسان، ذهبا في رحلة شاقّة من برينستون إلى وودهول كريسنت سيراً على الأقدام، قرابة خمسة وثلاثين ميلاً على خطّ مستقيم بحسب الخريطة، لكنْ، ما يزيد عن أربعين ميلاً بحسب مقياس خطوات جيم. فقط لمعرفة ما إذا كانا قادرين على ذلك. وبالطبع، أمطرَت في ذلك اليوم، وبالطبع، كان الاثنان قد تشبّعا بللاً بحلول الوقت الذي وصلا فيه المنزل، ورنّا الجرس.

انضمّت إيمي إلى منظّمة طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي، ووجدَت لنفسها حبيباً جديداً؛ زميل مُستجدّ من جامعة برانديز، صادف أن جاء من نيويورك، وصادف أيضاً أنه أسود البشرة. لوثر بوند. يا له من اسم جيّد! فكّرَ فيرغسون عندما أخبرته إيمي عبر الهاتف، لكنْ، ماذا عن والدِك؟ سأل، أيعلم أي شيء عن هذا الأمر؟ كلا، بالطبع لا، قالت إيمي، هل تمزح؟ لا تقلقي، قال فيرغسون، ليس دان هكذا، لن يهتمّ. نخرَت إيمي. لا تراهن على ذلك، قالت. ومتى أستطيع أن أقابله؟ سألَ فيرغسون. في أي وقتٍ تشاء، قالت إيمي، وفي أي مكان تشاء، طالما أن هذا المكان ليس وودهول كريسنت.

عادَ جَدّه من فلوريدا بسمرة غامقة، وعشرة باوندات إضافية حول خصره، ونظرة جنونية في عينيه، ممّا دفع فيرغسون إلى التساؤل عن الأشياء البذيئة التي كانت تشغل الرجل العجوز مع أولئك الحالمين في ولاية الشمس المشرقة. لم يكن هناك شيء يريد سماعه، كان مُتأكّداً من هذا، ولأن جَدّه كان ضمن قائمة الأقارب الذين ينبغي أن يظلّوا في الظلام عندما يتعلّق الأمر بعلاقته بإيفي، فإنه في اللحظة التي عاد فيها بينجي إدلر إلى شقّته في نيويورك، وصلَت قصيدتهما الملحمية في نيويورك إلى خاتمتها. أصبح الشارع الثامن والخمسون غربي خارج الحدود الآن، ومع عدم توفّر أي شقّة بديلة لهما في أي مكان من المدينة، كان الحلّ الوحيد أن ينسيا أمر نيويورك، ويقضيا تلك الأيّام والليالي في نصف منزل إيفي في إيست أورنج. كانت مُداراة صعبة. لا مزيد من المسرحيات أو الأفلام أو وجبات العشاء مع الأصدقاء؛ الاثنان معاً فقط، لمدّة خمسين ساعة متواصلة في نهاية كل أسبوع، لكنْ، ما الخيارات الأخرى التي أمامهما؟

كان من المحتمل أنه لم يعد يفكّر بوضوح، لكنه الأمر لم يبدُ كذلك بالنسبة إلى فيرغسون. كانت عيناه مفتوحتين، والعالَمُ حولَه زاخراً.

وانقضَت شهور.

كتبَ الفصل الرابع والعشرين من *رحلات موليغان*، والذي يروي رحلة موليغان العسيرة إلى المنزل من بلد في خضمّ حرب أهلية بين ثلاثة أطراف. انتهى فيرغسون من كتابة كتابه، بصفحاته المئة والواحدة والثلاثين صفحة بتباعد مزدوج، لكنْ، بدلاً من إحراق المخطوط مثلما كان يخطّط أن يفعل، نبشَ في مُدّخراته، وسحب منها مُرغَماً مبلغاً غير منطقي من مئة وخمسين دولاراً، من أجل توظيف كاتب آلة حاسبة مُحترف، كي يُنجز له ثلاث نسخ من الكتاب (نسخة أصلية، بالإضافة إلى نسختين من ورق الكربون)، والتي قدّمهَا بدوره كهدايا لإيفي وهاوارد ونوح. أقرّوا جميعاً بإعجابهم بما كتب. طَمأنَ هذا فيرغسون، لكنه كان قد سئم موليغان بحلول ذلك الوقت، وكان بالفعل يحلم بمشروعه التالي؛ مغامرة محفوفة بالمخاطر تُدعى *دفتر المُذكَّرة القرمِزيّة*.

قُبِلَت سيليا فيدرمان في كلّيّة بارنارد وجامعة نيويورك، وستبدأ الدراسة في بارنارد في فصل الخريف، وفي نيتها أن تتخصّص في علم الأحياء. أرسل فيرغسون إليها باقة من الورود البيضاء. مازالا يتحدّثان عبر الهاتف من وقت لآخر، لكنْ، بعد أن دخل بروس وإيفي إلى حياتهما، لم يعد هناك المزيد من أيّام السبت في نيويورك.

قرّر كلّ من هاوارد وفيرغسون مواصلة العيش معاً حتّى نهاية دراستهما في الكلّيّة. في السنة التالية، سيأخذان وجباتهما في نادي وودرو ويلسون، والذي لم يكن نادياً للطعام، بل نادياً ضدّ الطعام للطلاب الذين لم يرغبوا بالانضمام إلى ناد. اعتاد بعضٌ من أذكى الطلاب الجامعيين أن يتناولوا وجباتهم في ذلك المكان. كان في قاعة الطعام المريحة قرابة عشرين طاولة صغيرة تتّسع كل منها لأربعة أشخاص، ما جعل من المكان مقصفاً ضدّ المقصف، وكان أحد الأشياء الجيّدة في ذلك أنه كثيراً ما يأتي الأساتذة لتبادل أحاديث غير رسمية بعد تناول الحلوى. كان هاوارد وفيرغسون يخطّطان لدعوة نيغل من أجل مناقشة واحدة من أكثر النبذات التي يحبّانها لهرقليطس: *إن لم تكن تأمَل، فلن تتعثّر أبداً بما لا تأمل، ذلك أنّه مختوم وعَصيّ على الاختراق*.

أخبرَه نوح أنه يخطّط لقضاء الصيف في العمل على فكرته المؤجّلة منذ فترة طويلة بصدد تطويع قصّة *رفيقا النعل* إلى فيلم قصير بالأبيض والأسود. وعندما قال فيرغسون له بأنه لن يُضيّع وقته على هذا الحدث العفِن، قال نوح، تأخّرتَ جدّاً، يا آرشيبالد، لقد كتبتُ النّصّ بالفعل، واستعرتُ الكاميرا بعدسة 16 ملم دون أي مقابل. كان جيم بصدد إعادة التفكير في

شخص تستطيع أن تحبّه دون أن تخشى في الوقت ذاته لحظة الصدمة، بسبب حبٍّ أقوى أو أكثر من اللازم. لا، يا آرتشي، قالت، أنتَ لستَ كأيّ شخص آخر. أنتَ أوّل رجل لا يخافني. هذا أمر رائع، حقّاً، وأنا أحاول أعيشه كاملاً قدر ما استطعتَ، لأنكَ، في أعماقكَ، تدري، وأدري، أنه لن يستمرّ.

لن يستمرّ؟ قال فيرغسون. كيف يمكنكِ أن تقولي ذلك؟

لأنه غير ممكن. لأنه لن يحدث. لأنكَ مازلت صغيراً جدّاً، وعاجلاً أم آجلاً، لن نعود مناسبين لبعضنا.

كان ذلك جوهر الأمر، أدركَ فيرغسون، توقُّع الوقت الذي لن يكونا فيه معاً، وقت مستقبلي يختفي فيه كل ما يحدث الآن، ويتحوّلان إلى شَبحَي ذاكرة يعيشان في عقل كل واحد منهما، كائنين خياليين دون جلد أو عظام أو قلوب، ولهذا كانت تفكّر في الأطفال الآن، وتريدُ أن تنجب - بسببه، لأنها أرادَت منه أن يكون الأب، الأبُ الشبَحي الذي سيُورِث جسده لولده، ويستمرّ بالحياة معها إلى الأبد.

هذا منطقي. ثمّ، مرّة أخرى، ليس منطقياً على الإطلاق.

ليس أمراً مستعجلاً، قالت، ولم يكن شيئاً تريده أن يفكّر فيه لأوقات كثيرة، ببساطة، صارَت الإمكانية قائمة الآن، شيء يدفنانه في أعماق رأسيهما، ثمّ يواصلان كما مِن قبل، وكلا، لم تكن بصدد أن تطلب منه أن يتحمّل أي مسؤولية، حتّى إنه لن يكون مضطرّاً للتوقيع على شهادة الميلاد، في حال لم يرغب بذلك، ستكون تلك مهمّتها، لا مهمّته، والحمد لله أنه ليس على النساء أن يكنّ متزوّجات، لكي ينجبنَ أطفالاً، قالت، ثمّ بدأت تضحك، أطلقت ضحكة كبيرة لشخص قد حسم أمره، وما عاد خائفاً من أي شيء.

استمرّا كما كانا من قبل. الفارق الوحيد هو أن إيفي تركت مانع الحمل في المنزل، وتوقّف فيرغسون عن شراء الواقيات الذكرية.

لم يكن منزعجاً من فكرة أن يصير أباً، تماماً مثلما لم ينزعج من فكرة أن يصير زوجاً عندما تقدّم لدانا. كانت فكرة خسارة إيفي ما أزعجه. الآن، وبعد أن أعلنَت بيانها التشاؤمي النهاية الحتمية لعلاقتهما، أصبح مُصمِّماً على إثبات خطئها. ومع ذلك، في حال أثبت الزمن أنها على حقّ، فعليه أن يحذو حذوها، ويحاول الاستفادة من الوقت كلّه الذي لا يزالان فيه معاً *بأن يعيشه كاملاً قدر المستطاع*.

أحمل، أو، على الأقلّ، لم أعتقد أنني لا أزال قادرة على ذلك، وأتصوّرُ أن عمليّتَي الإجهاض تُثبتان ذلك - الأولى عندما كنتُ طالبة في السنة الثانية في كلّيّة فاسار، والثانية بعد سنة تقريباً من زواجي ببوبي. لكنْ، الآن، وأقصدُ بالآن يوم الثلاثاء، قبل أربعة أيّام، بعد أن تأخّرت دورتي ليومين، فإنني، للمرّة الأولى في حياتي، لا أشعر بالقلق. ماذا لو كنتُ حبلى؟ سألتُ نفسي. هل سيكون ذلك مهمّاً؟ لا، قلتُ لنفسي، لن يكون مهمّاً. سيكون عظيماً للغاية. لم يَحدُث في حياتي من قبل، يا آرتشي - لم يَحدُث أبداً أن فكّرتُ بهذه الطريقة أو قلتُ هذه الكلمات لنفسي. يوم الأربعاء. ما من دم بعد. لم تختفِ مشاعر القلق فحسب، بل شعرتُ أيضاً بأنني في قمّة العالم.

ثمّ؟ سألَ فيرغسون.

وانتهى ذلك في يوم الخميس. انسكبَ العالمُ كله منّي، ومازلتُ أنزف كما لو أنني طُعنت في بطني. أعني، أنتَ تفهم ما أقصد. لقد نمتَ معي الليلة الماضية.

أجل، كان ثمّة الكثير من الدماء. أكثر من المعتاد. لكنني لم أهتمّ، بطبيعة الحال.

ولم أكن مهتمّة أيضاً. لكن الشيء المهمّ هنا، يا آرتشي، أن شيئاً حدث لي. أنا مختلفة الآن.

هل أنتِ واثقة؟

أجل، بكل تأكيد. أريدُ أن أنجب طفلاً.

استغرق الأمر من فيرغسون بعض الوقت حتّى يفهم ما كانت تتحدّث عنه؛ جبل من التفاصيل غير المُفسّرة والأسئلة الشّاقّة على غرار مَنْ سيكون والد ذلك الطفل؟ وكيف اقترحَت أن تصير أمّاً بدون زواج؟ و، في حال لم تكن متزوّجة أو تعيش مع شخص آخر، فكيف سيكون بمقدورها أن تستمرّ في التدريس وتكون أمّاً في الوقت ذاته، إذا لم يكن لديها المال الكافي كي تدفع أجراً لمربّية أو جليسة أطفال؟

صرفَت إيفي تلك الأسئلة عنه من خلال جولة قصيرة في عالمها الداخلي، مع تأكيد شديد على جانب الحبّ والجنس في تلك الحياة، الفتية والرجال الذين وقعت في غرامهم خلال السنوات ما بين صباها والآن، والقرارات الجيّدة والسّيّئة التي اتّخذتها، والمداعبات العابرة والالتزامات المديدة التي لم يُفضِ أي منها إلى شيء في النهاية، وكان زواجها المبكّر من بوبي مونرو أسوأ أخطائها، والذي دام سنتين ونصف سنة، والأمرُ المفاجئ بصدد تلك المشاعر والآمال والخيبات، قالت إيفي، أنها لم تجعلها تشعر بالسعادة أكثرَ ممّا يفعلُ هو، رَجلُها الفتى آرتشي، آرتشي الذي لا بديل له، وللمرّة الأولى في حياتها، شعرَت بأنها مع شخص تستطيع الوثوق به،

صديق لفيرغسون، بل قريباً عن طريق الزواج، وعلى الرغم من أنه بدا من غير المُحتمل أن يكون لدى نوح أي سبب للحديث مع والده عن الحياة العاطفية لقريبه، إلا أنه ثمّة دائماً فرصة لزلّة لسان في لحظة غير محسوبة، وأن يتصادف ذلك مع وجود ميلدرد تسترق السمع في الغرفة المجاورة، بيد أن فيرغسون كان مستعداً للتعايش مع هذا الاحتمال، فكّر فيرغسون، فصداقة نوح مهمّة جداً بالنسبة إليه، وكان واثقاً بنوح بما يكفي للاعتماد على صمته إذا ما طلبَ منه ذلك، وهذا ما فعله نوح، توّاً ودون أي تردّد، وبينما رفع ماركس الشّابّ ذراعه اليُمنى، وأقسمَ على نحوٍ رصين بأن *يُبقي فمه مغلقاً*، فقد هنّأ فيرغسون على فوزه بعواطف امرأة تكبره سنّاً. عندما عرّفهما فيرغسون ببعضهما للمرّة الأولى، صافح نوح إيفي، وقال لها: السّيّدة مونرو الشهيرة، أخيراً. لطالما تحدّث آرتشي عنكِ منذ سنوات، والآن أدري ما السبب. يُفتَن بعض الرجال بمارلين، على الرغم من أنها لم تعد على قيد الحياة، لكنْ، بالنسبة إلى آرتشي، فلطالما كانت إيفلين، ومَنْ ذا الذي يستطيعُ أن يلومه على افتتانه بكِ؟

ومَنْ يستطيع أن يلومني على افتتاني بآرتشي؟ قال إيفي. إذاً، كلّ شيء يسيرُ على ما يرام، أليس كذلك؟

بعد أسبوعين من تلك الليلة، فتحَت إيفي باب روحها وسمحَت لفيرغسون بالدخول.

كان يوم سبت آخر، يوماً آخر من أيّام السبت الجيّدة في منتصف عطلة نهاية أسبوع أخرى من عطلهما الجيّدة في نيويورك، وكانا قد عادا للتوّ إلى شقّة غربيّ الشارع الثامن والخمسين بعد مأدبة عشاء صغيرة مع عدد من أصدقاء إيفي الموسيقيين. وبدلاً من الذهاب مباشرة إلى السرير، كما يفعلان عادة بعد نزهات أُمسيّات السبت، أخذت إيفي فيرغسون من يده، وسارت به إلى غرفة المعيشة، حيثُ قالت بأن هناك أمراً تريدُ أن تتحدّث معه فيه أوّلاً، وبناءً عليه، جلسا على الأريكة معاً، أشعل فيرغسون سيجارة Camel، وأعطاها إلى إيفي التي أخذت منها سحبة واحدة، وأعادتها إلى فيرغسون، ثمّ قالت:

حدثَ لي شيء، يا آرتشي. شيء كبير. كان من المفترض أن موعد دورتي الشهرية في يوم الاثنين، لكنها لم تحدث. في معظم الأوقات، تحدث بموعدها المحدّد بالضبط، لكنْ، بين الحين والآخر، تتأخّر، أو تتقدّم، يوماً أو نصف يوم، لذلك لم أفكّر كثيراً بهذا الأمر، على فرض أنها ستحدث في يوم الثلاثاء، لكنْ، لم يحدث أي شيء في الثلاثاء أيضاً. هذا استثنائي. غير مسبوق تقريباً. غريب للغاية. في الماضي، كان هذا هو الوقت المناسب لكي أشعر بالذعر، وأتساءل عما إذا كنتُ حبلى أم لا، وأقلّب الاحتمالات الكئيبة في رأسي، لأنني لم أرِد يوماً أن

ترافقه إيفي بالسّيّارة إلى محطّة بن. كان ذلك دائماً أسوأ ما في الأمر - الوداع، ثمّ رحلة القطار إلى برينستون مساء يوم الأحد. ومهما بلغ عدد رحلات القطار تلك، إلا أنه لم يعتد عليها أبداً.

كانت الإنسانة الوحيدة التي قرأت القصص كلها التي كتبها خلال السنوات الثلاث الفائتة. كانت الإنسانة الوحيدة التي صارحَها بشأن القيود الذاتية التي فرضها على نفسه بعد وفاة أرتي فيدرمان. كانت الإنسانة الوحيدة التي فهِمت عمق المرارة التي شعر بها إزاء والده. كانت الإنسانة الوحيدة التي أدركَت تماماً طبيعة الخراب الذي يعكّر صفو نفسه، والتّشوّش المتناقض للأحكام القاسية التي لا ترحم والازدراء الشديد للجشع الأميركي تجاه الدولار، والذي يرافقه لطف عظيم في الروح، وحبٌ غير محدود للناس الذين يهتمّ بأمرهم، واستقامة نشأته الجيّدة، وحماقته فيما يتعلّق بقلبه. عرفَتهُ إيفي أفضل من أيّ شخص آخر. عرفَت كم كان غريباً على نحوٍ استثنائي، وكم يبدو، بالرغم من ذلك، طبيعياً بصورة مذهلة، كما لو كان كائناً ذكياً من خارج الأرض قد هبطَ للتّوّ بصحنه الطائر، مثلما قالت له ذات ليلة من شهر تمّوز (قبل حادثة جرس الباب، وقبل حتّى أن يراودهما الظّنّ بأن ينتهي بهما المطاف إلى الفراش معاً)، رجلٌ من الفضاء الخارجي، يرتدي ملابس كتلك التي يرتديها أيٌّ من سكّان الأرض في القرن العشرين، *أخطرُ جاسوس في الكون*، وكان الشخص الغريب على نحوٍ استثنائي، بمظهره الخارجي العادي، مرتاحاً بغرابة إلى كلماتها، إذ كان ذلك بالتحديد ما أراد أن يراه في نفسه، وكان من الممتع بالنسبة إليه الاعتقاد بأنها الوحيدة التي تعرفه.

مع ذلك، لم يكونا شجاعين بقدر ما توقّع. أشارَ الجميع، كلّ مَنْ يهمّهم الأمر، إلى أن علاقتهما لن تنجح دون استثناءات معيّنة، لأنه سرعان ما بدا واضحاً أنه ينبغي لبعض الأشخاص أن يبقوا في العتم من أجل مصلحتهم - ومصلحة فيرغسون وإيفي أيضاً. فيما يتعلّق بفيرغسون، عنى ذلك والدته، وبسبب والدته، فقد عنى كذلك دان وإيمي وجيم. وفيما يتعلّق بإيفي، عنى ذلك والدتها في برونكس، وشقيقها وزوجته في كوينز، وشقيقتها وزوجها في مانهاتن. سيشعُر أقاربها كلهم بخزي *الفضيحة*، كما قالت إيفي، وفي حين لم يعتقد فيرغسون أن ردَّ والدته سيكون بالقوّة نفسها، إلا أنها كانت ستغضب حتماً، أو تقلق، أو تضطرب، ولا يستحقّ الأمر عناء أن يفسّر تصرّفاتها لها، فعلى الأرجح، لن تزيدها تبريراتُه كلها إلا المزيد من الغضب، أو القلق، أو الاضطراب. ومن ناحية أخرى، مع وجود أصدقاء إيفي في مانهاتن، فلن تكون هناك معوقات أمام الكشف الكامل. كانوا ممثّلين، وموسيقيي جاز، وصحفيين، وكانوا جميعاً من الرقي بما يكفي كي لا يهتمّوا. وينطبق الأمر نفسه على المجموعة الأصغر من معارف فيرغسون في نيويورك (لماذا قد يهتمّ رون بيرسون؟)، لكنْ، كان نوح حجر عثرة محتملاً، ذلك لأنه كان أكثر من مجرّد

كل شيء عن الجنس كان غريباً. هذا أوّلاً قبل كلّ شيء، لكنْ، لم يعد كذلك في شيء إطلاقاً. رابطة الأجساد. أجساد خافتة وأجساد ضعيفة، وأجساد دافئة وأجساد ساخنة، وأجساد أرداف، وأجساد رطبة، وأجساد أعضاء ذكرية وأنثوية، وأجساد رقبة وأجساد كتف، وأجساد أصبع وأجساد إثارة بالأصبع، وأجساد يدٍ وشفة، وأجساد لعق، ودائماً وأبداً أجساد وجه، وجهاهما إلى بعضهما فوق السرير وخارجه، وكلا، لم يكنُ وجه إيفي جميلاً، وهذا إذا لم نقل حتّى بأنه كان بالكاد جذّاباً وفقاً للمعايير التي كانت سارية في تلك السنة؛ أنف أكبر من اللازم، ووجه إيطالي بارز العظام كثير الزوايا، لكنْ، يا لهما من عينين لتنظر إليهما! عينيان بنّيّتان غامقتان تخترقانه بكل سهولة، ولا تجفلان أبداً أو تصطنعان شعوراً ليس موجوداً، والسِّحْر في ضاحكيها المحدّبين قليلاً، إذ كانا يضفيان عليها مسحة ضئيلة جدّاً من تراكب العضّة، فتستحيلُ فمها إلى الفم الأكثر إثارة في أميركا كلّها، وأفضلُ ما في الأمر أن باستطاعته قضاء الليل معها، ولم يكن هذا متاحاً مع دانا أكثر من مرّتين أو ثلاث مرّات، لكنه يحدث الآن كل يوم، وقد ساعدَته فكرة إمكانية الاستيقاظ في صباح اليوم التالي بجانب إيفي بأن يحظى بأكثر ما حظي به في حياته من هنيء النوم وأشدّه عمقاً.

كانا يريان بعضهما في عطلة نهاية الأسبوع، كلّ نهاية أسبوع في نيويورك، إلى أن عاد جَدّه من فلوريدا في أوائل شهر نيسان، وكان فيرغسون يقضي حياته، المقسّمة بالفعل، بالقفز عبر فراغٍ دائم الاتّساع بين المدينة والحرم الجامعي، خمسُ ليالٍ في الأسبوع في مكان واحد، وليلتان في الأسبوع في مكان آخر، الدروس والواجبات الدراسية من يوم الاثنين وحتّى صباح الجمعة، ولا وقت لموليغان، لأنه كان متخصّصاً في والت ويتمان، وغير مسموح له باللهو، وبالتالي، كان لزاماً عليه أن ينتهي من التزامات برينستون كلها قبل أن يغادر المدينة ظهيرة يوم الجمعة (أن يقرأ الواجبات، والأوراق، ويدرس من أجل الاختبارات، ويُناقش زينون الإيلي وهرقليطس مع هاوارد)، ومن ثمّ سيكون في وسعه العودة إلى النصف الثاني من حياته المزدوجة في نيويورك، ويعني هذا إيفي من اللحظة التي تدقّ فيها جرس الباب في يوم الجمعة بين السادسة والسابعة، وموليغان خلال ساعات يوم الجمعة قبل أن تصِل، موليغان لأربع ساعات في صباحات أيّام السبت والأحد، بينما إيفي تصحّح الأوراق، وتقرأ الكُتُب، وتُحضّر من أجل فصولها الدراسية خلال الأسبوع، ثمّ تناول طعام الغداء والخروج إلى المدينة معاً، يلي ذلك قضاء ليالي أيّام السبت بصحبة أصدقائه أو أصدقائها، أو الاثنين فقط في مشاهدة الأفلام أو المسرحيات أو الحفلات الموسيقية، أو التّقلّب على طول السرير وعرضه في الشّقّة، ويقضيان النصف الثاني من أيّام الأحد البتراء بالعودة إلى هدوء غرفة النوم بعد وجبة فطور متأخّرة، ويتحدّثان ويصمتان حتّى الرابعة أو الخامسة أو السادسة، عندما يجبران نفسيهما أخيراً على ارتداء ملابسهما، ثمّ

كؤوس كثيرة من السكوتش ذات أُمسيّة يوم خميس في منتصف شهر آب، وبين لحظةٍ والثانية، انفجرَ اللهيب الكامن لانجذابهما المشترك إلى حفلة هائجة من عناق وتقبيل على الأريكة في صالة الطابق السفلي، لكن جرس الباب قاطعَ حفلة الحبّ في منتصفها، كان حدثاً بارزاً، ليس لشدّة ضراوته وحسب، بل لأنه حدث في زمن 'إد'، وإن كان على مشارف نهاية زمن 'إد'، والآن، بعد أن رحل إد، ورحلَت دانا روزنبلوم، ولم تعُد سيليا فيدرمان سوى مجرّد نسج خيال في الأفق البعيد، ولم يقترب فيرغسون أو إيفي من أي شخص منذ فترة أطول ممّا يتذكّران، بدا وكأنه لا مفرّ لهما من التّقرّب إلى بعضهما مرّة أخرى في ليلة عيد الشُّكْر الباردة تلك. لم يكُن الكحول ضرورياً هذه المرّة. إذ أعادهُما استخدام فيرغسون غير المتوقّع لكلمة *أتوق* إلى ذكرى أُمسيّة الخميس تلك من شهر آب، عندما لم ينتهِ الشيء الذي كانا قد بدآه، وهذا ما جرى عندما وصل فيرغسون إلى منزل إيفي في ميدان وارينغتون، حيثُ صعدا معاً إلى غرفة النوم، وخلعا ملابسهما تدريجياً، وأمضيا أخيراً ليلة سعيدة طويلة كإكمال لما بدآه.

كان الأمر جدّيّاً. ليست نزوة لمرّة واحدة تُنسَى في الصباح - بل بداية لشيء ما، الخطوة الأولى من خطوات عديدة ستأتي تباعاً. لم يبالِ فيرغسون أنها أكبر منه، ولم يكن يبالي إذا ما عرف أحد ما بعلاقتهما، ولم يهتمّ إذا ما تحدّث الناس. ومهما بدا أنه من غير *الملائم* لامرأة عمرها واحد وثلاثون عاماً أن تكون على علاقة بفتى في الثامنة عشر، إلا أنه لم يكُن بوسع القانون أن يفعل شيئاً إزاء ذلك، ففيرغسون بلغ سنّ الرضا، وبمقدوره أن تكون العلاقة جهاراً دون أن يتعرّضا لأي أذى. وإذا نظرَ المجتمع إلى ما يفعلانه على أنه خطأ، فليواصل النظر إليهما، ويشرب البحر.

لم يكن بسبب الجنس فقط، على الرغم من أن للجنس دوراً بارزاً في الأمر، بالقدر نفسه بالنسبة إلى إيفي التي مازالت شابّة ولفيرغسون المحروم من الجنس أيضاً، والذي كان يتجوّل بانتصاب دائم مثل الشباب كلّهم الذين لا يكتفون أبداً، كان كلاهُما محاصرَين بالحاجة إلى معانقة بعضهما ومشابكة ذراعيهما ورجليهما في اندفاعات محمومة من السلوان الجسدي والجنس المتورّد الذي ينضح بالعاطفة، والذي يفرغهُما ويتركهما لاهثَين للهواء، أو في تهيُّج طويل وبطيء من ملامسة الجلد بأكبر قدر ممكن من الهدوء والرّقّة، والانتظار حتّى لا يعود بإمكانهما الانتظار أكثر، السخاء في كلّ شيء، العذوبة والعنف المتناوبان في كل شيء، ولأن تاريخ فيرغسون الجنسي كان مقتصراً على شريك واحد فقط حتّى الآن، دانا المرهفة بيضاء البشرة، بثدييها الصغيرين ووركيها الضّيّقين، قد قدَّمَت له إيفي، الضخمة والأكثر متانة، نموذجاً جديداً من الأنوثة التي كانت مثيرة وغريبة معاً في البداية، ثمّ مثيرة وغير غريبة، ثمّ غريبة مرّة أخرى، لأن

تحدّثا عن استئجار شقّة صغيرة من غرفة واحدة في مكان ما وسط المدينة، مكان رخيص يعيدُ إليهما المدينة دون الحاجة إلى الاعتماد على أجداد صعبي المراس أو أي شخص آخر، لكنهما لم يكونا قادرين حتّى على تحمّل تكلفة شقّة رخيصة.

الدورة الشهرية المتأخّرة في كانون الأوّل، يليها تدفّق للدم على مدار الساعة في كانون الثاني، وشباط، وآذار، ونيسان. كانت إيفي قد أخبرَت فيرغسون بألا يفكّر في الأمر كثيراً، لكنه كان يظّن بأنها مَنْ يفكّر في ذلك كثيراً جداً، بما يصل إلى خمسين أو ستّين مرّة في اليوم، وبعد أربعة أشهر من عدم الحمل، من عدم ربط خلية منوية نفسها ببويضة، من عدم تعشيش بويضّة مُخصّبة أو أريمة أو مضغة في جسم إيفي، بدأت علامات الإحباط تظهر عليها. أخبرها فيرّغسون بألا تقلق، وأن هذه الأشياء تأخذ وقتاً في العادة، ومن أجل أن يؤكّد على هذه النقطة، أشارَ إلى السنتين الطويلتين اللتين انتظرتهُما والدته قبل أن تحبل به. كان يحاول المساعدة فقط، بيد أن فكرة *السنتين* تلك كانت أكبر من قدرة إيفي على الاحتمال، فصاحت فيه قائلة: هل جُننتَ، يا آرتشي؟ ما الذي يجعلكَ تظنّ أن لدينا سنتين؟ ربّما ليس لدينا شهرين!

بعد أربعة أيّام، ذهبَت لرؤية الطبيب النسائي لإجراء فحص شامل لأعضائها التناسلية، وسحب دم من أجل اختبارات تفصيلية تتعلّق بأجهزتها الأخرى أيضاً. عندما ظهرَت النتائج في يوم الخميس، اتّصلَت بفيرغسون في برينستون، وقالت له: أنا بصحّة جيّدة، كفتاة في الثامنة عشر من عمرها.

أثار هذا سؤالاً ثانياً: هل كان فيرغسون ذو السنوات الثمانية عشر بصحّة جيّدة كفتى في الثامنة عشر من عمره؟

لا يمكن أن أكون أنا، قال. هذا مستحيل.

مع ذلك، أقنعَته إيفي برؤية طبيب - *تحسّباً*.

كان فيرغسون خائفاً. وعلى الأرجح، كانت فكرة أن يحاول زرع طفل داخل إيفي فكرة حمقاء، كما اعترف لنفسه، تصرّف نابع من حبّ دونما تفكير، وإساءة فهم لكبرياء ذكوري من شأنه أن يفضي إلى أنواع النتائج التعيسة كلها على المدى الطويل، لكنْ، لم تكن فكرة نجاحه، أو فشله، من إنجاب طفل مع إيفي ما كان يقلقه حينها. كانت حياته الخاصّة، حياته الخاصّة ومستقبله الخاصّ، على المحكّ. منذ أن كان صبياً صغيراً، منذ اللحظة التي فهِمَت فيها ذاته الفتية الحقيقةَ الغامضة بصدد أنه مخلوق انتقالي، وقدره أن يكبر ويصير رجلاً، حسِبَ أنه سيصير أباً

ذات يوم، أنه سينتجُ في نهاية المطاف فيرغسونات صغار، وسيكبرون بدورهم، ليصبحوا رجالاً ونساء، حلم اليقظة الذي لطالما عَدّه أمراً مسلّماً به كحقيقة مستقبليّة، لأن العالم يسيرُ على هذا النحو، يتطوّر الأشخاص الصغار إلى أشخاص كبار، ويجلب هؤلاء بدورهم المزيد من الأشخاص الصغار إلى العالم، وبمجرّد أن تصير كبيراً ما يكفي لكي تفعل هذا، فإن هذا ما تفعله. وحتّى ذلك الوقت، وبوصفه فيلسوفاً مُثقَلاً بهموم العالم في التاسعة عشر من عمره، ومُدافعاً عن الكُتُب المغمورة، كان ذلك شيئاً لا يزال يتطلّع إليه بمتعة كبيرة.

لم يكُن الاستمناء أقلّ لذّة من اليوم الذي ذهبَ فيه إلى عيادة الطبيب برولير في إحدى ضواحي برينستون، ليُلقي ببذاره في وعاء مُعقّم، ثمّ يتمنّى أن يكون هُناك الملايين من الأطفال المُحتملين يرقصون الفالس في تلك المادّة اللزجة. كم بحّاراً ثملاً يستطيعُ الرقص على رأس دبوس؟ كم تحتاجُ من الدبابيس حتّى تسيطرَ على نفسِكَ؟

حَدّدَت الممرّضة موعد المراجعة في الأسبوع التالي.

عندما حضر في اليوم المحدّد، قال الطبيب بروليرله: دعنا نحاول مرّة أخرى، فقط كي نتأكّد من أننا نعرفُ ما نبحث عنه.

في الأسبوع التالي، عندما ذهب فيرغسون إلى عيادة الطبيب بروليرللمرّة الثالثة، أخبرَه الأخير بأن لديه حالة لا تُصيبُ سوى سبعة بالمئة فقط من الذكور، وعندما يكون عدد الحيوانات المنوية أقلّ من المعتاد، فإنه يؤثّر بصورة خطيرة على قدرة الرجل في أن يصير والداً لطفل، أقلّ من خمسة عشر مليون حيوان منوي في كل مليلتر من المني، أو مجموعاً يقلّ عن تسعة وثلاثين مليوناً في كل دفق، وكانت أرقام فيرغسون أقلّ بكثير من ذلك.

هل هناك ما يمكن فعله؟ سأل فيرغسون.

لا، أخشى أنه لا يوجد، قال الطبيب بروليرز.

بعبارة أخرى، أنا عقيم.

بمعنى عدم القدرة على إنجاب الأطفال، أجل.

حان وقت ذهاب فيرغسون، لكن جسدَهُ صار ثقيلاً جدّاً بالنسبة إليه، لدرجة أنه علِم أنه سيكون من المستحيل أن يجرّ نفسه خارج الباب. نظر إلى أعلى، وألقى ابتسامة شاحبة إلى الطبيب بروليرز، كما لو كان يعتذر عن عدم قدرته على الحركة.

لا تقلقْ، قال الطبيب. أنتَ في حالة ممتازة من النواحي الأخرى جميعها.

كانت حياته قد بدأت للتّوّ فحسب، قال فيرغسون لنفسه، حياته لم تبدأ بعد، والجزء الأكثر أهمّيّة فيه ميت بالفعل.

سقوط عائلة فيرغسون.

لا أحد، لا أحد على الإطلاق كي يأتي بعده، لا أحد الآن، ولا في أي وقت آخر، حتّى نهاية الوقت.

سقوط إلى منزلة هامش في *كتاب حياة الأرضي*، رجل سيُعرَفُ فيما بعد وإلى الأبد بـ *فيرغسون الأخير*.



6.1

في وقت لاحق، لنقل بعد سنة أو سنتين أو ثلاث سنوات، وكلّما نظر فيرغسون إلى الوراء، وفكّرَ بالأشياء التي حدثت بين خريف سنة 1966 وتخرُّج إيمي في بداية شهر حزيران من سنة 1968، سيطرَت عدّة أحداث على ذكرياته، وبرزت بوضوح شديد على الرغم من الوقت الذي مرّ، في حين أن أحداثاً أخرى، إن لم نقل معظم الأحداث، قد استحالَت ظلالاً: لوحة عَقليّة مكوّنة من عدّة مناطق مغمورة بضوء شديد وواضح، وأخرى حبيسة شخصيات مُعتمة، لا شكل لها، تقفُ في زوايا بنّيّة غامقة من القماش، وبين هنا وهناك، ثمّة لطخات من العدم كليّ السواد، التلاشي المُعتِم لغرفة المصعد السوداء.

لم يكن للأشخاص الثلاثة الآخرين الذين تشاركوا الشّقّة معه، على سبيل المثال، طلاب زملاء، ميلاني وفريد وستو خلال السنة الأولى، وأليس وأليكس وفريد خلال السنة الثانية، أي دور في القصّة. جاؤوا ورحلوا، قرأوا كُتبهم، وحَضّروا طعامهم، ناموا في أسِرَّتهم، وقالوا مرحباً كلّما خرجوا من الحمّام فجأة في الصباح، لكن فيرغسون بالكاد لاحظهم، وكان يجد صعوبة في تذكّر وجوههم بين يوم وآخر. أو الاشتراط العلمي المرعب في السنة الثانية، والذي بدأ أخيراً بمعالجته كطالب جامعي في السنة الثانية من دراسته، حيثُ التحق بدورة أطلقَ عليها ساخراً اسم الفيزياء للشعراء، وتجاوزَ الصفوف كلها تقريباً، مُستكمِلاً تقاريره المخبرية المزيّفة باندفاع جنوني في عطلة نهاية أسبوع، وذلك بمساعدة أحد أصدقاء إيمي في الرياضيات من بارنارد - وهو أمر لا أهمّيّة له. حتّى إن قرارهُ بعدم الانضمام إلى مجلس إدارة *السبيكتاتور* لم يؤثّر كثيراً في الحكاية. كانت مسألة ساعات، وليس أكثر من ذلك، مسألة لا علاقة لها بنقص الاهتمام، لكنْ، كان فريدمان، ومنزل مول، وبرانش، والآخرون قد خصّصوا خمساً وخمسين ساعة للصحيفة، وكان هذا أكثر بكثير ممّا كان فيرغسون مستعدّاً لإلزام نفسه به. لم يكن لأحدٍ من أعضاء المجلس حبيبة - لا وقت للحبّ. لم يكن أي منهم يكتب أو يترجم الشِّعْر - لا وقت للأدب. لم يكن أي منهم على رأس فصله الدراسي - لا وقت للدراسة. كان فيرغسون قد قرّر مواصلة العمل الصحفي بعد التّخرّج من الكلّيّة، لكنه كان الآن بحاجة إلى إيمي وشعرائه وحلقاته الدراسية عن مونتين وميلتون، لذلك

ساومَ من خلال البقاء كمراسل وعضو مُشارك في المجلس، حيثُ عمل على إعداد الكثير من التقارير خلال تلك السنوات، وأداء مناوبته مرّة كل أسبوع كموظّف ليلي، وتضمّن هذا الذهاب إلى المكتب في مبنى فيريس بوث، وتأليف العناوين الرئيسة للمقالات التي سُتنشَر في الصحيفة صباح اليوم التالي، وإرسال المقالات المنتهية إلى آنجيلو، منضّد الحروف المطبعية في الطابق الرابع، ومراجعة أعمدة الكتابة، ولصق الإصدار على ألواح، ثمّ الركوب في سيّارة أجرة، والذهاب إلى بروكلن في قرابة الساعة الثانية صباحاً من أجل تسليم الألواح إلى المطبعة، والتي ستُصدِرُ بدورها عشرين ألف نسخة، تُسلَّم إلى الحرم الجامعي لكولومبيا بحلول منتصف النهار. كان مُمتعاً بالنسبة إلى فيرغسون أن يكون جزءاً من هذه العملية، لكنْ، لم يكن ذلك، أو قراره بعدم الانضمام إلى المجلس، ذا أي أهمّيّة على المدى الطويل.

من ناحية أخرى، كان مهمّاً بالنسبة إليه أن جَدّيه توفّيا خلال تلك السنوات؛ جَدّه في كانون الأوّل من سنة 1966 (بنوبة قلبية)، وجَدّته في كانون الأوّل من سنة 1967 (بسكتة دماغية).

ما كان مهمّاً أيضاً حرب الأيّام السّتّة (حزيران سنة 1967)، لكنها بدأت وانتهت على نحوٍ أسرع بكثير ممّا يسمح بصبّ اهتمام كبير عليها، بينما اندلعَت الاضطرابات العِرْقية في نيوآرك في الشهر التالي، والتي لم تستمرّ لمدّة أطول من حرب الشرق الأوسط، وغيّرت كل شيء إلى الأبد. في دقيقة، كان والداه يحتفلان بانتصار اليهود الضئيلين البواسل على أعدائهم الضخام، وفي الدقيقة التالية، حدث سطو على متجر سام براونشتاين في جادّة سبرينغفيلد، وسُرقَت محتوياته، وطوى والدا فيرغسون خيمتهما، وفرّا إلى الصحراء؛ لم يتركا نيوآرك ونيو جيرسي وراءهما فحسب، بل قطعا الطريق كله وصولاً إلى جنوب فلوريدا، بحلول نهاية السنة.

نقطة مُضيئة أخرى في اللوحة: شهر نيسان من سنة 1968 والانفجار في كولومبيا، والثورة في كولومبيا، و*الأيّام الثمانية التي هزّت العالم*.

سطع كلّ ما تبقّى من ضوء في اللوحة حوْل إيمي. ظلامٌ فوقها وأسفلها، وظلامٌ خلفها، وظلامٌ على كلا جانبيها، بيد أن إيمي كانت مُغلّفة بالضوء؛ ضوءٌ قوي جدّاً، لدرجة أنه جعلها غير مرئية تقريباً.

خريف سنة 1966. بعد حضور ما يزيد عن عشر اجتماعات في منظّمة طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي، وبعد المشاركة في إضراب عن الطعام لمدّة ثلاثة أيّام، على درجات مكتبة الحقوق في أوائل شهر تشرين الثاني، احتجاجاً على القتل في فيتنام، بعد أن حاولت الحصول على

النقاط عبر العديد من المحادثات مع زملائها في ويست إند، ومتجر المعجّنات الهنغارية، وكوليج إن، كان ظنّ إيمي قد خاب. إنهم لا يستمعون إليّ، قالت لفيرغسون، بينما كانا ينظّفان أسنانهما قبل ليلة من الذهاب إلى النوم. أقف لأدلي برأيي، وسيُطرقون بأنظارهم إلى الأرض، أو قد يقاطعونني، ولن يسمحوا لي بأن أُكمل كلامي، أو سيسمحون لي بمواصلة الحديث، ولن يقولوا شيئاً بعد ذلك، ومن ثمّ، بعد خمس عشرة دقيقة، سيقف أحدهم ويقول ما قلته بالضبط، باستخدام الكلمات نفسها أحياناً، وسيصفّق الجميع. إنهم متنمّرون، يا آرتشي.

كلّهم؟

كلا، ليس الجميع. أصدقائي من آي. سي. في. لطيفون، ومع ذلك، كنتُ أتمنّى لو أنهم قدّموا لي المزيد من الدعم، أما بالنسبة إلى أولئك الذين من فصيل بي. إل، فإنهم لا يُطاقون. وبخاصّة مايك لوب، قائد القطيع. إنه لا يتوقّف عن مقاطعتي، والصراخ في وجهي، وإهانتي. يعتقدُ أن النساء في الحركة ينبغي أن يصنعنَ القهوة للرجال، أو يوزّعنَ المنشورات في الأيّام المُمطِرة، لكنْ، بخلاف ذلك، علينا أن نُبقي أفواهنا مغلقة.

مايك لوب. لقد كان موجوداً في عدد من الصفوف التي حضرتُها. صبي آخر من ضواحي جيرسي، ويؤسفني قولُ ذلك. واحد من أولئك العباقرة الممسوحين ذاتياً بالزيت، والذين يمتلكون إجابة لكل شيء. السّيّد واثق، بقميصه مربّع النقش كالحطّاب. ثقيل دم.

المضحك في الأمر أنه درس في المدرسة الثانوية ذاتها التي درسَ فيها مارك رود. والآن، كلاهما معاً في *طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي*، وبالكاد يتحدّثان إلى بعضهما.

لأن مارك مثالي، ومايك مُتعصّب.

يعتقدُ أن الثورة ستأتي خلال السنوات الخمس القادمة.

نجوم السماء أقرب من ذلك.

المشكلة أن الرجال يفوقون النساء عدداً، بنحو واحدة من كل اثني عشر. نحن قليلات جدّاً، ومن السهل إهمالنا.

لِمَ لا تنفصلين عنهم وتشكّلين مجموعتكِ الخاصّة؟

أتقصد أن أترك *طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي*؟

ليس عليكِ أن تتركيهم. توقّفي عن حضور الاجتماعات فحسب.

ثمّ؟

وستصبحين أوّل رئيسة لـ *نساء بارنارد من أجل السلام والعدالة*.

يا لها من فكرة!

ألا تُعجبكِ؟

سيُهمِّشوننا. القضايا الكبرى هي القضايا الجامعية، والقضايا الوطنية، والقضايا العالمية كلها، ولن تُترك عشرون فتاة، يتظاهرنَ عاريات الصدر بلافتات مناهضة الحرب، أثراً كبيراً.

ماذا لو كان هناك مئة منكنّ؟

لا يوجد. نحنُ لا نمتلك عدداً يكفي لكي يُلاحظنا أحد. بغضّ النظر عن النتيجة، أعتقدُ أنني عالقة.

كانون الأوّل، 1966. لم تكن النوبة القلبية التي أودت بحياة جَدّ فيرغسون غير متوقّعة فحسب (كانت مخطّطاته القلبية مستقرّة لسنوات، وضغط دمه طبيعياً)، لكن ظرف موته شكّل إحراجاً لكل شخص في العائلة، ووصمة عار. لم يكن أن زوجته أو بناته أو أصهرته أو حفيده غير مدركين لولعه في ملاحقة النساء، وانجذابه القوي لمغامرات الإثارة خارج الزواج، لكنْ، لم يشكّ أحد منهم بأن بيجي إدلر، ذا الأعوام الثلاثة والسبعين، سيمضي بعيداً في هذا، لدرجة أن يستأجر شقّة لامرأة تصغره بأكثر من نصف عمره، ويتّخذ منها عشيقة مقيمة بدوام كامل. كانت ديدي براينت في الرابعة والثلاثين من عمرها فقط. وكانت تعمل كسكرتيرة في جيرش وإدلر وبوميرانتز في سنة 1962، وبعد أن عمِلت هناك لمدّة ثمانية أشهر، قرّر جَدّ فيرغسون أنه يحبّها، قرّر أنه مهما كانت التكلفة، فإنه لا بدّ أن يمتلِكها، وعندما أخبرَته ديدي براينت الجميلة، مُمتلئة الخصر والمولودة في نبراسكا، بأنها قابلة للامتلاك، شملت التكلفة الإيجار الشهري لشقّة بغرفة نوم واحدة في الشارع الثالث والستّين غربي، بين ليكسينغتون والحديقة، وستّة عشر زوجاً من الأحذية، وسبعة وعشرين فستاناً، وستّة معاطف، وسواراً من الألماس، وسواراً ذهبياً، وقلادة من اللؤلؤ، وثمانية أزواج من الأقراط، ودثاراً من فرو المنك. استمرّت العلاقة قرابة ثلاث سنوات (بسعادة تامّة، وفقاً لديدي براينت)، ثمّ، ذات ظهيرة فاترة في أوائل شهر كانون الأوّل، في ساعة كان من المفترض فيها أن يكون جَدّ فيرغسون في مكتبه في غربي الشارع السابع والخمسين، جاء إلى شقّة ديدي في شرقيّ الشارع السادس والثلاثين، وذهبا إلى السرير معاً، وعانى من احتشاء شديد في الشريان التاجي، ممّا أدّى إلى موته في اللحظة ذاتها التي قذف فيها لآخر مرّة في حياته العفوية، والحافلة بالأحداث،

والممتعة في أغلبها. *الموتُ الصغير والموت الكبير*، وبينهما عشر ثوان - أن تأتي وتمضي في مكانٍ من ثلاثة أنفاس.

كان هذا، بكل تأكيد، حدثاً غريباً، حدثاً مُعقّداً. كانت ديدي المذعورة عالقة تحت ثقل عشيقها البدين، تُحدّقُ بقمّة رأسه الأصلع والقليل من الشَّعْر المُتبقّي حول صدغيه، وكان مصبوغاً باللون البنّيّ (حيلة الرجال المُسنّين)، ثمّ تحرّرَت من تحت الجثّة، واتّصلَت بالإسعاف، وبدورهم نقلوها مع الجثّة المغلّفة لجَدّ فيرغسون إلى مستشفى لينوكس هيل، حيثُ، في الساعة الثالثة واثنتين وخمسين دقيقة، أعلِن عن وفاة بينجامين إدلر عند الوصول إلى المستشفى، ثمّ اضطرّت ديدي المسكينة المرتجفة إلى الاتّصال بجَدّة فيرغسون التي لم تكن تدري شيئاً عن وجود تلك الشّابّة، وأخبرتها بأن تأتي إلى المستشفى على الفور، لأن *حادثاً* قد وقع.

اقتصرَت الجنازة على العائلة المباشرة فقط. لم يُدعَ أيّ من عائلة جيرش، أو بوميرانتز، أو الأصدقاء، أو شركاء العمل، ولا حتّى الخالة الكبرى أو العمّ الأكبر من كاليفورنيا (الشقيق الأكبر لجَدّته، سول، وزوجته الأسكتلندية، مارغوري). كان لا بدّ من إخماد الفضيحة، وسيكون من الصعب جداً على جَدّته أن تتعامل مع حشد كبير من الجمهور، لذا، لم يقطع الرحلة إلى المقبرة في وودبريدج، في نيوجيرسي، سوى ثمانية أشخاص فقط، كي يحضروا دفن جَدّه: فيرغسون ووالداه، وإيمي، والعمّة الكبرى بيرل، والخالة ميلدرد والعمّ هنري (اللذان طارا من بيركلي في اليوم السابق)، وجَدّة فيرغسون. أنصَتوا إلى الحَبر الذي تلا صلاة القاديش، وألقوا التراب الصندوق الصَّنَوْبَريّ في القبر، ثمّ عادوا إلى الشّقّة في الشارع الثامن والخمسين غربي لتناول طعام الغداء، وذلك بعد أن جهّزوا غرفة المعيشة، وجلسوا في ثلاث مجموعات منفصلة، واستمرّت ثلاث محادثات منفصلة، إلى أن حلّ الظلام: إيمي على الأريكة مع الخالة ميلدرد والعمّ هنري، ووالد فيرغسون والعمّة الكبرى بيرل على الكراسي إلى جانب الأريكة، وفيرغسون عند الطاولة الصغيرة في القنطرة قرب النوافذ مع والدته وجَدّته. ولأول مرّة، تولّت جَدّتهُ مُعظم الحديث. بعد تلك السنوات كُلّها من الجلوس في صمت، بينما كان زوجها ممسكاً بزمام الكلام بنكاته التي لا تتوقّف وقصصه غير المترابطة، كما لو أنها كانت تُطالب أخيراً بحقّها بالكلام عن نفسها، وما قالته في تلك الظهيرة أذهلَ فيرغسون، ليس لأن الكلمات بحدّ ذاتها كانت مذهلة فحسب، بل لأنه كان من المذهل أن يعرف كم أخطأ كثيراً في تقديرها طوال حياته.

أوّل شيء مذهل أنها لم تحمل أي ضغينة ضدّ ديدي براينت، حيثُ وصفَتها بـ *تلك الفتاة الجميلة حتّى في بكائها*. وكم كان تصرّفاً شجاعاً منها، قالت جَدّته، إنها لم تهرب وتختفِ في *الليل*، كما يفعل معظم الناس في مثل حالتها، لكنْ، كانت هذه الفتاة مختلفة، إذ بقيَت في

ردهة المستشفى إلى أن جاءت الزوجة، ولم تشعر بالإحراج بصدد التّحدّث إليها عن علاقتها ببنجي، وكم كانت مغرمة به، وكم كان مُحزناً جدّاً ما حدث. وبدلاً من لوم ديدي على وفاة بنجي، أشفقَت جَدّة فيرغسون على حالها، ووصفتها بأنها *إنسانة صالحة*، وفي مرحلة ما، عندما انهارَت ديدي، وبدأت بالنشيج (وكان هذا الشيءَ المذهل الثاني)، قالت جَدّته لها: *لا تبكِ، يا عزيزتي. أنا على يقينٍ من أنكِ أسعدتِهِ، وكان بنجي رجلاً بحاجة إلى السعادة.*

شعرَ فيرغسون بأنه ثمّة شيء بطولي في تلك الاستجابة؛ عمقٌ من الفهم الإنساني، قَلبَ كل شيء فكّر فيه من قبل بصدد جَدّته حتّى تلك اللحظة. ثمّ تحرّكت في كرسيها قليلاً، ونظرَت مباشرة إلى والدته، كانت عيناها تدمعان لأوّل مرّة في ذلك اليوم، وبعد برهة، شرعت بالحديث عن أشياء، لم يسبق لأحد من جيلها أن تحدّث عنها من قبل، مُؤكِّدة على نحوٍ قاطع أنها خذلَت زوجها، أنها كانت زوجة سيئة، لأن الجزء الماديّ من الزواج لم يكن مهمّاً بالنسبة إليها قطّ، كانت تعدّ أن العلاقات الجنسية مؤلمة وبغيضة، وبعد أن أنجبَت الفتيات، أخبرَت بنجي بأنها لم تعد قادرة على ممارستها بعد الآن، أو فقط بين الحين والآخر كخدمة له، وماذا يمكن أن تتوقّعي؟ سألَت والدة فيرغسون، طاردَ بنجي نساء أخريات بالطبع، كان رجلاً بشهية كبيرة، وكيف بإمكانها أن تمنعه بعد أن خذلَتهُ وكان عملُها في غاية السوء فيما يتعلّق بالسرير؟ لقد أحبّتهُ بالأشكال الأخرى كلها، وكان الرجل الوحيد في حياتها لسبعين سنة، *وصَدّقيني، يا روز، لم أشعر قطّ، ولو لدقيقة واحدة، بأنه لم يكن يبادلني الحبّ أيضاً.*

حزيران، 1967. وصل كلُّ شيء في النهاية إلى مسألة المال. عندما أخبرَت والدة فيرغسون ابنها في أواخر شهر كانون الثاني بأن والده كان يغطّي مصاريف الدراسة في كولومبيا، والشّقّة، والطعام، والكُتُب، والبدَلات الإضافية عن طريق صرف حصص من بوليصة التأمين على حياته كل ستّة أشهر. أدركَ فيرغسون أنه سيتعيّن عليه البدء بالمساهمة بشيء أكثر من الفُتات، الحدّ الأدنى للأجر، الذي كان يتقاضاهُ كموظّف في متجر كُتُب خلال الصيف الماضي، وأنه يدين لوالديه بأي مبالغ إضافية، يمكن أن يكسبها، وذلك كبادرة حسن نيّة، وتعبير عن الامتنان.

كانت إيمي تنتظرُ عملها بالفعل خلال فصل الصيف. وفي مأدبة غداء ما بعد الجنازة في شقّة جَدّه، أمضت عدّة ساعات في التّحدّث إلى الخالة ميلدرد والعمّ هنري. انسجمَ كل من هنري، المؤرِّخ، وإيمي، طالبة التاريخ، مع بعضهما على نحوٍ جيّد جدّاً، وعندما أخبرها عم فيرغسون عن المشروع الذي كان يخطّط للبدء فيه في شهر حزيران (دراسة عن الحركة العمّالية الأميركية)، شاركَت إيمي بالعديد من *الأسئلة المثيرة للاهتمام* (بحسب هنري)، وفجأة عثرَت

لنفسها على عمل صيفي كباحثة مساعدة. كان مقرّ العمل في بيركلي، بالطبع، والآن، مع فكرة مغادرة إيمي إلى هناك مع نهاية الفصل الدراسي الربيعي، تلا ذلك، بطبيعة الحال، أن يغادر فيرغسون معها. طوال فترة الشتاء وأوائل الربيع، كان يتحدّثان عن *مغامرتهما الأجنبية* الكبيرة التالية - فرنسا ثانية، لكنهما سيسافران هذه المرّة داخل البلاد. بالقطار، أو الطائرة، أو الحافلة، أو بسيّارة الإمبالا القديمة، أو بإيقاف السّيّارات، أو ركوباً بواحدة من السّيّارات التي تنقل سيّارة شخص ما إلى مدينة أخرى: تلك كانت الخيارات المتاحة أمامهما، والحيلة في معرفة أيّ منها سيكون أقلّ تكلفة. مع ذلك، كان من الضروري أن يجد عملاً في بيركلي قبل وصوله إليها، وكان المشروع بأكمله مشروطاً بحصوله على عمل، ولم يكن بإمكانه تحمّل إضاعة الوقت في البحث عن عملٍ بعد وصوله. وعدَته الخالة ميلدرد بالمساعدة، وأكّدت له أن ثمّة وفرة في الوظائف، ولن تكون هناك مشكلة، لكنْ، عندما كتب إليها في نهاية شهر آذار، ومرّة ثانية في أواسط شهر نيسان، كانت إجاباتها غامضة للغاية، ومُجرّدة من التفاصيل، لذلك كان شبه متأكّد من أنها نسيَت أمره، أو أنها لم تبدأ البحث بعد، أو ليسَت لديها النّيّة في البحث إلى أن يشقّ طريقه إلى كاليفورنيا. ثمّ، دون سابق إنذار، جاءت إليه فرصة في نيويورك، فرصة جيّدة، وعلى الرغم من خيبة الأمل التي تسبّبَت بها، إلا أنه شعر بأنه لا يستطيع رفضها دون أن يُخاطِر بقضاء صيف دون عمل على الإطلاق. وعلى نحوٍ غريب، كانت الفرصة عملاً مطابقاً تقريباً لعمل إيمي، ما زاد من سوء الأمر بطريقة أو بأخرى، كما لو أنّه أضحى في مؤخّرة فكرة مشوّهة لشخص ما عن كيفية قول نكتة سيّئة. كان أحد أساتذة فيرغسون قد تلقّى تكليفاً، خلال فترة الربيع، بكتابة مستند تاريخي لكولومبيا، منذ تأسيسها وحتّى الاحتفال بمناسبة مرور مائتي عام على ذلك (1754-1954)، وكان يبحث عن باحث مساعد كي يساعده على *تحقيق هذا المشروع*. لم يكن فيرغسون مضطرّاً للتّقدّم إلى هذا الشاغر. عرضَ أندرو فليمنغ هذه الوظيفةَ عليه، لأنه كان مُعجَباً بعمل هذا الفتى ذي العشرين عاماً في صفّه الدراسي، وبقدرته على الكتابة - ليس أوراقه الأكاديمية فحسب، بل المقالات الأخبارية وترجمة الشِّعْر أيضاً. أشعرَت تعليقاتُه الطّيّبة فيرغسون بالإطراء، لكن الأجر حسم الأمر بقوّة، مئتا دولار في الأسبوع الواحد (بتمويل من منحة جامعية)، ممّا يعني أنه سيجمعُ ألفي دولار بحلول موعد بدء فصل الخريف، وهكذا فقط، فإنه لن يذهب إلى كاليفورنيا بعد الآن. لم يكن يهمّه كثيراً أن فليمنغ القصير البدين، البالغ من العمر اثنتين وخمسين سنة، أعزب أبد الدهر، ولديه اهتمام كبير بالشباب الصغار. لم يشكّ فيرغسون أبداً بصدد أن الأستاذ معجَب به - لكنْ، لم يكن بمقدوره فعل شيء إزاء ذلك، ولن يمنعه شيء عن قبول الوظيفة.

كتبَ إلى الخالة ميلدرد مرّة أخيرة في أوائل شهر أيّار، على أمل أن يستجدّ أمر ما في بيركلي، ويتسنّى له التراجع عن اتّفاقه الشفوي مع فليمنغ قبل أن يباشر العمل، لكنْ، بعد مرور أسبوعين دون إجابة، وبعد أن أنفقَ أخيراً مبلغاً كبيراً على مكالمة بعيدة المدى إلى كاليفورنيا، زعمَت عمّته أنها لم تتلقّ الرسالة. شكّ فيرغسون بأنها كانت تكذب، بيد أنه لم يكن قادراً على البوح بذلك دون دليل، وما الفارق الذي سيُحدِثه على أي حال؟ لم يكن في نيّة ميلدرد أن تُخرّب خطّته، كانت كسولة، وهذا كل ما في الأمر، سمحَت للموقف أن يخرج من يدها، وفات الأوان الآن لفعل أي شيء بصدد ذلك، وهكذا، خذلَتهُ عمّته التي طالما كانت شغوفة بوحيدها الأقرب إلى قلبها، آرتشي.

كانت إيمي تعيسة. كان فيرغسون يائساً. كانت فكرة انفصالهما عن بعضهما لمدّة شهرين ونصف الشهر أكثر فظاعة من أن يتحدّثا عنها، ومع ذلك، لم يتمكّن أي منهما من إيجاد طريقة لحلّ المشكلة. قالت إيمي بأنها معجبة به، لأنه تصرّف *مثل راشدٍ* (حتّى لو شعر بأنها كانت غاضبة قليلاً منه أيضاً)، ومع أن فيرغسون كان يريد بشدّة أن يطلب منها إلغاء الرحلة والبقاء في نيويورك، إلا أنه عرف أن من الجور والخطأ أن يفعل ذلك، لذا، لم ينبس ببنت شفة. اندلعَت حرب الأيّام السّتّة في الخامس من شهر حزيران، وبعد انتهائها بيوم واحد، سافرَت إيمي وحدها إلى بيركلي. كان والداها قد أعطياها المال لشراء تذكرة طائرة، وذهب فيرغسون معهم إلى المطار في الصباح الذي غادرت فيه. كان وداعاً غريباً وحزيناً. لا دموع أو انفعالات كبيرة، بل احتضان طويل ومهيب، تلاه وعد بالكتابة إلى بعضهما قدر المستطاع. وعندما عاد فيرغسون إلى غرفته في غربيّ الشارع المئة وأحد عشر، جلسَ على السرير، ونظر إلى الحائط أمامه. سمع بكاءَ رضيع في الشّقّة المجاورة، سمع صوت رجل يصيح *اللعنة* في وجه رجل آخر على الرصيف تحته بخمسة طوابق، وأدركَ فجأة أنه ارتكب أسوأ خطأ في حياته. بعمل أو بدون عمل - كان يجب أن يذهب معها، ويتحمّل الأمر مهما كانت الظروف. كان يُفترض بكَ أن تعيش هكذا، كان هذا نوع الحياة التي أرادها لنفسه، *حياة ترقص*، لكنّه فضّل الواجب على المغامرة، مسؤوليته تجاه والديه على حبّه لإيمي، وكرِهَ نفسه بسبب هذا الحذر، وبسبب قلبه الرجعي الكادح. المال. المال دائماً. مال أقلّ دائماً ممّا يكفي. وللمرّة الأولى في حياته، تساءل عن ما ستكون عليه الحال لو أنه وُلِدَ بثراء فاحش.

صيف آخر في نيويورك الحارّة مع الناس المجانين والإذاعات، أستمعُ إلى شخير مستأجر غرفة إيمي المجاورة وضراطه، حينما يستلقي ليلاً في سريره، ويتعرّق، يتعرّق عبر قميصه وجواربه كل يوم في وقت الظهر، ويجوب الشوارع بقبضتيه المضمومتين، الآن، يحدث في الحيّ، كل ساعة، سطو

تحت تهديد السلاح الأبيض، وتعرّضت أربع نساء للاغتصاب في مصاعد مبانيهن، كنْ حذراً، أبقِ عينيكَ مفتوحتين، وحاول ألا تتنفّس في أثناء سيرك بجانب براميل النفايات. الأيّام طويلة في مكتبة بتلر ذات المليون كتاب، والنسخة طبق الأصل عن معبد البارثينون، أُدوّن الملاحظات عن كولومبيا ما قبل الثورة، حينما كانت تُعرَف بكلّيّة الملك، والظروف المعيشية في نيويورك أواسط القرن الثامن عشر (تتجوّل الخنازير في الشوارع، وروث الخيول في كل مكان)، أوّل جامعة في الولاية، خامس جامعة في البلاد، جون غاي، ألكسندر هاميلتون، غوفرنير موريس، روبرت ليفينغستون، أوّل رئيس للمحكمة العليا، أوّل وزير للخزانة الأميركية، مؤلّف المسوّدة النهائية لدستور الولايات المتّحدة، عضو من لجنة الأعضاء الخمسة التي وضعَت المسوّدة الأُولى لإعلان الاستقلال، الآباء المؤسّسون عندما كانوا شباباً، وفتياناً، وأطفالاً صغاراً يجوبون الشوارع مع الخنازير والخيول، ثمّ أعود إلى المنزل بعد خمس أو ستّ ساعات في عفن بتلر، كي أدوّن الملاحظات لفليمنغ الذي يقابله مرّتين في الأسبوع ويست إند المُكيّفة، دائماً هُناك، وليس في مكتب فليمنغ أو شقّته على الإطلاق، فعلى الرغم من أن المؤرِّخ، اللطيف اللبق شديد الذكاء، لم يلمس فيرغسون ولا مرّة واحدة، إلا أن عينيه كانتا تبحثان دون توقّف عن إشارة تشجيع أو بريق من التوق المتبادل، وكان هذا كافياً للمتابعة، كما شعر فيرغسون، لأنّه كان معجباً بفليمنغ، وليس في وسعه إلا أن يشعر بالأسف تجاهه.

في تلك الأثناء، كانت إيمي في الأرض الهبيّة، على بُعد ثلاثة آلاف ميل غرباً، كانت إيمي في جنّة عدن، كانت إيمي تتجوّل جادّة التلغراف في بيركلي خلال صيف الحبّ، وقرأ فيرغسون رسائلها مراراً وتكراراً قدر ما استطاع، من أجل أن يستمرّ في سماع صوتها، وكان يحملها معه إلى المكتبة في كلّ صباح، كي يستخدمها كحبوب لمنع الملل كلّما هدّدهُ العمل بأن يَضعهُ في غيبوبة، وكانت الرسائل التي أرسلها إليها خفيفة وسريعة ومُسلّية قدر المستطاع، ودون حديث عن الحرب، أو الروائح الزنخة في الشوارع، أو اغتصاب النساء في المصاعد، أو الكآبة التي استوطنَت قلبه. *يبدو أنكِ تعيشين وقتاً من أجمل الأوقات في حياتِك*، كتبَ إليها في إحدى الرسائل الاثنتين وأربعين التي أرسلها ذلك الصيف. *هُنا، في نيويورك، أعيشُ حيواتِ أوقاتي.*

تمّوز، *1967*. برأي فيرغسون، كان الجزء الأكثر حزناً من أعمال الشغب المؤسفة في نيوآرك عدم وجود أي شيء قادر على منعها من الحدوث. فبخلاف معظم الأحداث الكبيرة التي حدثت في العالم، والتي ربمّا كانت لن تحدث لو أن الناس كانوا يفكّرون بوضوح أكبر (فيتنام،

على سبيل المثال)، لم يكن ثمّة مفرّ من أحداث نيوآرك. ليس فقط لأنه قُتل ستّة وعشرون شخصاً، ربمّا، أو جُرح سبعة آلاف شخص، أو اعتُقل ألف وخمسمائة شخص، أو دُمِّرت تسعمائة منشأة تجارية، أو تضرّرت ممتلكات بقيمة عشرة ملايين دولار، لكنْ، كان كل شيء يسير على نحوٍ خاطئ في نيوآرك لسنوات، وكانت أيّام العنف السّتّة التي بدأت في الثاني عشر من تمّوز نتيجة منطقية للحالة التي لا مجال للتعامل معها إلا عبر شكل من أشكال العنف. أما أن تكون الحرب اندلعَت عندما اعتُقِل سائق سيّارة أجرة أسود اسمه جون سميث بعد أن تجاوز سيّارة لدورية شرطة بصورة غير قانونية، ثمّ ضربَه اثنان من رجال الشرطة البيض بالهراوات، فليس هذا سبباً بقدر ما كان أثراً. لو لم يكن سميث، لكان جونز. ولو لم يكن جونز، لكان براون أو وايت أو غراي. في تلك الحالة، كان سميث، وعندما سحبَهُ الشرطيان جون دي سيمون وفيتو بونتريللي إلى مركز شرطة المنطقة الرابعة، سرعان ما انتشرَت شائعة بين قاطني مشروع الإسكان العامّ الكبير عبر الشارع الذي قُتل فيه سميث. لم تكن صحيحة، كما اتّضح فيما بعد، لكن الحقيقة الأعمق أن أكثر من نصف سكّان نيوآرك وقتئذٍ كانوا من السود، وكان معظم هؤلاء المئتين وعشرين ألف شخص من الفقراء. كانت نيوآرك الأعلى نسبة في البلاد من حيث الإسكان دون المستوى، وثاني أعلى مُعدّل للجريمة، وثاني أعلى معدّل وفيات للرّضّع، وبمعدّل بطالة يعادل ضعف المعدّل الوطني. كانت حكومة البلديّة كلها من البيض، وفي قسم الشرطة، كان البيض بمعدّل تسعين بالمئة، وتُمنح عقود البناء كلها تقريباً لشركات تسيطر عليها المافيا، والتي كانت تُعبّر عن شكرها لمسؤولي المدينة الذين يساعدونها برشاوى سخية، وكانوا يرفضون توظيف العمّال السود، بحجّة أنهم غير مُسجّلين في النقابات - التي تضمّ البيض فقط. كان النظام فاسداً للغاية، لدرجة أنه كان يُشار عموماً إلى قاعة المدينة بقاعة شؤون السرقات.

في سالف الأيّام، كانت نيوآرك مدينة يصنع الناس فيها أشياء، مدينة من المصانع والمهن اليدوية، وكانت أغراض الأرض كلها تُصنع فيها، من ساعات اليد إلى المكانس الكهربائية والأنابيب الرصاصية، من الزجاجات إلى فراشي الزجاجات والأزرار، من الخبز إلى قطع الحلوى والسلامي الإيطالية الطويلة. أما الآن، فقد انهارَت المنازل الخشبية، وأُغلِقت المصانع، وصار أبناء الطبقة الوسطى من البيض ينتقلون إلى الضواحي. كان والدا فيرغسون قد انتقلا منذ 1950، وبحسب معرفته، فقد كانا الوحيدين اللذين عادا، مع العلم أن فيكويش لم تكن نيوآرك حقّاً، بل كانت مدينة يهودية في الطرف الجنوبي الغربي لنيوآرك المُتخيّلة، وكان كل شيء فيها هادئاً منذ بداية الزمان. سبعون ألف يهودي ويهودية في مكان واحد، وحديقة رائعة الجمال بمساحة تبلغ ثلاثمئة

وأحد عشر فدّاناً من تصميم أولمستيد، ومدرسة ثانوية خرّجت من حملة شهادة الدكتوراه أكثر ممّا فعلته أي ثانوية أخرى في البلاد.

كان فيرغسون يشرب البيرة في ويست إند، في مساء اليوم الثاني عشر، وعندما عاد إلى شقّته عند الساعة الواحدة وبضع دقائق، رنّ هاتفه. رفعَ السّمّاعة، وسمع صوت والده يصيح: أين، بحقّ الجحيم، كنتَ، يا آرتشي؟ نيوآرك تحترق! لقد حطّموا النوافذ، ونهبوا المتاجر! تُطلق الشرطة النيران، ووالدتكَ في الخارج هناك، في جادّة سبرينغفيلد، تلتقط الصور لصحيفتها الملعونة! لقد طوّقوا الشوارع، ولا أستطيع الوصول إليها! تعال إلى المنزل، يا آرتشي! أنا بحاجة إليكَ هُنا، ولا تنسَ إحضار بطاقتكَ الصحفية!

كان قد فات الأوان للتفكير بالذهاب إلى وسط المدينة للّحاق بالحافلة من محطّة بورت أوثوريتي، لذا استوقف فيرغسون سيّارة أجرة في برودواي، وأخبر السائق بأن ينطلق بسرعة، وهي عبارة سمعها عشرات المرّات في الأفلام، لكنْ، لم يسبق له أن لفظها بنفسه قطّ. ومع أن الرحلة لم تكلّفه سوى دولارين من أصل الدولارات الأربعة والثلاثين في محفظته، إلا أنه وصل إلى الشّقّة في فان فيلسور بالاس في أقلّ من ساعة. لحسن الحظّ، كانت شوارع الحيّ هادئة. بدأت أعمال الشغب في الحيّ المركزي، ثمّ توسّعت رقعتها لاحقاً، لتشمل أجزاء من وسط المدينة، لكن الحيّ الجنوبي مازال هادئاً. زاد من طمأنينته أن والدته وصلت للتّوّ إلى المنزل، وبدأ والده المنفعِل شبه المخبول يستعيد رباطة جأشه من جديد.

لم أرَ شيئاً كهذا في حياتي من قبل، قالت والدته. قنابل مولوتوف، مخازن مخفيّة، رجال شرطة قد سحبوا أسلحتهم، حرائق، أشخاص مسعورون يركضون في كل مكان - فوضى خالصة.

انتهى أمر متجر سام، قال والده. اتّصل بي قبل ساعة، وأخبرني بأنه لم يبقَ شيء فيه. حيوانات برّيّة مجنونة، هكذا هُم. تخيّل أن تحرق شارعكَ. هذا أغبى ما سمعتُ به في حياتي.

سأخلد إلى النوم، قالت والدته. أنا مُنهكَة من التعب، ويجب أن أكون في الـ ليدجر صباح الغد قبل أي شيء آخر.

لا مزيد من هذا، يا روز، قال والده.

لا مزيد من ماذا، يا ستانلي؟

لا مزيد من التصوير الحربي.

هذا عملي. لا بدّ من القيام به. أصبح أحد أفراد العائلة بلا عمل بسبب ما حدث الليلة، ولن يمنعني عن عملي أي شيء.

سوف تتسبّبين بمقتلك.

لا، لن أفعل. أعتقدُ أن الأمر شارف على نهايته الآن. كان الجميع في طريقهم إلى منازلهم حينما غادرتُ. انتهَت الحفلة.

أو هكذا ظنَّت، وهكذا ظنّ كثيرون أيضاً، حتّى العمدة، هيو أدونيزيو، الذي تجاهلَ الاضطراب، كما لو أنه ليس أكثر من بضع زجاجات مكسورة، لكنْ، عندما بدأت أعمال الشغب مرّة أخرى في الليلة التالية، عادَت والدته إلى الشوارع تحمل كاميرتها، وكان فيرغسون معها هذه المرّة، حاملاً بطاقتيه الصحفيتين من مونت *كلير تايمز* و*كولومبيا سبيكتاتور*، وذلك في حال أوقفَته الشرطة، وطلبوا منه إثباتاً لهويته. أمضى والده اليوم مع سام براونشتاين في مؤسّسته، المُحطّمة، الخاصّة ببيع اللوازم الرياضية، حيث عاينا الأضرار، وغطّيا ما كان من قبلُ نافذة أمامية بألواحٍ من خشب الأبلكاش، وأنقذا ما تبقّى من أشياء قليلة، وكان لا يزال مع سام عندما اتّجه فيرغسون بصحبة والدته إلى جادّة سبرينغفيلد بعد غروب الشمس. في ذهن والده، كان فيرغسون هناك كي يحمي والدته، لكنْ، في ذهن فيرغسون، فإنه كان هناك لأنه أراد أن يكون هناك، إذ لم تكن والدته بحاجة إلى الحماية عندما كانت تمارس عملها في التقاط الصور، وكانت تعمل بهدوء وانضباط بارزين، كما شعرَ، كانت شديدة التوازن والتركيز في عملها، لدرجة أنه لم يمضِ وقت طويل قبل أن يُدرك أنها كانت في الحقيقة مَنْ يحميه. كانت هناك مجموعة كبيرة من الصحفيين والمصوّرين الذين تجمّعوا في الحيّ المركزي في تلك الليلة، أشخاص من صحف نيوآرك، ومن صحف نيويورك، ومجلّة لايف، وتايمز ونيوزويك، وأسوشيتد برس، ورويترز، والصحافة السّرّيّة، والصحافة السوداء، وطواقم الإذاعة والتلفزيون، وكانوا، في الغالب، ملتصقين ببعضهم في أثناء مشاهدة انفجار أحداث الشغب على طول جادّة سبرينغفيلد. كانت مشاهدة ذلك أمراً مزعجاً، واعترفَ فيرغسون لنفسه صراحةً أنه كان على حافّة الهاوية، وحتّى خائفاً في بعض الأحيان، لكنه كان حائراً ومندهشاً أيضاً، وغير مستعدّ أبداً لانفجارات القوّة الهادرة عبر الشارع، مزيج العواطف الجيّاشة والحركة الطائشة، والذي بدا وكأنه يدمج الغضب والمتعة في شعور لم يسبق له أن اختبرَه في أي مكان آخر من قبل، شعور جديد لم يُسمَّ بعد، ولم يكن جنوناً، مثلما قال والده، ولا غباء أيضاً، إذ كانت مافيا السود تترصّد، بطريقة منهجية، المنشآت التجارية التي يمتلكها البيض، وكان العديد منهم من اليهود البيض، وكانوا في الوقت ذاته يتسامحون مع المنشآت التجارية المملوكة من قِبَل السود، واجهات المحال التي كُتب عليها عبارة *أخوة الروح*، وبتلك الطريقة، كانوا يقولون للرجل الأبيض بأنهم يعدّونه عدوّاً غازياً، وحان الوقت لكي يرحل عن بلادهم. لم يعنِ هذا أن فيرغسون عدّها فكرة جيّدة، لكنها ذات مغزى على الأقلّ.

مرّة أخرى، توقّفت أعمال الشغب في نهاية المطاف، ومرّة أخرى، عاد الجميع إلى منازلهم، وبدا هذه المرّة أنها انتهت دون رجعة. الليلة الثانية من حفلة الدمار وإطلاق الفوضى التي استمرّت لليلتين، لكنْ، كان الحشد المغادر عاجزاً عن معرفة أنه في تمام الساعة الثانية والعشرين دقيقة صباحاً، اتّصل العمدة أدونيزيو بحاكم الولاية ريتشارد هيوز، وطلب منه إرسال الحرس الوطني وشرطة ولاية نيو جيرسي. وبحلول الفجر، وصل ثلاثة آلاف حارس إلى المدينة بالدّبّابات، وتمركز خمسمائة فارس من شرطة الولاية المدجّجين بالسلاح في مواقعهم في شوارع الحيّ المركزي، وخلال الأيّام الثلاثة التالية، عادت حرب فيتنام إلى نيوآرك، وحتّى لو لم ينادِ الفيتكونغ محمّد علي بـ nigger أبداً، إلا أن السود في نيوآرك تحوّلوا إلى فيتكونغ.

الحاكم هيوز: "هذا تمرُّد إجرامي من قِبَل أشخاص يقولون بأنهم يكرهون البيض، لكنهم، في الحقيقة، يكرهون أميركا".

نقاط تفتيش بأسلاك شائكة. حظر تجوّل للسّيّارات ابتداءً من العاشرة مساءً، ولجميع مَنْ في الشوارع ابتداءً من الساعة الحادية عشرة. توقّفت عمليات النهب، وتطوّر نشاطُ الليلتين الأُوْلَيين إلى حرب مُدُن، معركة شاملة أسلحتُها البنادق والرّشّاشات والنيران. قُتِل مايكل موران، قائد قسم مُكافحة الحرائق، أب لستّة أطفال، عمره ثمانية وثلاثون عاماً، بالرصاص، في أثناء وقوفه على سلّم، بينما كان يفحص نظام الإنذار في الجادّة المركزية، ومنذ تلك اللحظة، صار الحرس وشرطة الولاية يتصرّفون على افتراض أن المدينة موبوءة بالقنّاصين السود الذين يفترشون أسطح المنازل، بهدف إسقاط أي أبيض يرونه. اتّضح لاحقاً أن أربعة وعشرين شخصاً، من أصل ستّة وعشرين من السود الذين قُتلوا في تلك الأيّام، أثبتوا بطلان ذلك الافتراض، لكنه سمح للحرس وشرطة الولاية بإطلاق ثلاثة عشر ألف طلقة، وإطلاق النار مُباشرةً على شقّة في الطابق الثاني لسيّدة تُدعى ريبيكا براون، على سبيل المثال، وقتلِها فيما وصفَتهُ صحيفة *ستار ليدجر* بأنه "وابل من الرصاص"، وإطلاق ثلاث وعشرين رصاصة أخرى في جسد جيمي روتليدج، وقتل بيلي فور، البالغ من العمر أربعة وعشرين عاماً، وجريمته أنه أخذ علبة صودا باردة من متجر منهوب بالفعل، وأعطاها لمصوّر عطشان من طاقم مجلّة *لايف*.

خلال ذلك كله، فعلَت والدة فيرغسون كل ما في وسعها كي تستمرّ بالتقاط الصور، لكنها كانت مضطرّة إلى العمل بصورة يومية، حيثُ صوّرَت الدّبّابات والجنود ومنشآت السود التجارية التي تدمّرت الآن في الحيّ المركزي كله، مئات الصور التي توثّق جوانب الحريق الهائل كافّة التي عدّتها ذات مغزى، وبسبب دخول والد فيرغسون في نوبة ذعر بصدد سلامة روز، فقد أصرّ على مرافقتها أينما ذهبت، وتضمّن ذلك، خلال تلك الأيّام الثلاثة، الجلوس معها في المقعد

الخلفي لسيّارة الإمبالا القديمة، بينما يقود فيرغسون السّيّارة حول المدينة، ثمّ، ومع اقتراب حظر التّجوّل، يوصلون شرائط فيلم مازال قيد التصوير إلى مبنى ستار ليدجر، قبل العودة إلى الشّقّة في حيّ فان فلسور بالاس الهادئ. ظلّ إعجاب فيرغسون بوالدته يكبر طوال رعب تلك الأيّام. إن تلك السّيّدة ذات السنوات الخمس والأربعين، والتي أمضَت حياتها كمصوّرة في استوديو، وبدأت عملها الصحفي بالتقاط الصور لحفلات حدائق الضواحي، واستطاعَت أن تخرج وتفعل ما تفعله، صدمَتهُ بِعَدِّها واحداً من أكثر التّحوّلات البشرية غير المتوقّعة التي شهدها في حياته. كان ذلك عزاءه الوحيد، لأن كل شيء آخر مرتبط بتلك الفترة أصابه بالمرض، مرض في القلب، مرض في المعدة، مرض تجاه العالم الذي يعيشُ فيه، ولم يُساعدهُ تبجُّح والده كل ليلة عن *أولئك، العبيد* الزنوج الملاعين ومدى كراهيتهم *لنا*، نحن اليهود، وهذه هي النهاية، كما قال، سيبادلهم الكراهية بمثلها منذ هذه اللحظة وإلى الأبد، سيكرههم بشدّة في كل دقيقة حتّى يوم مماته، وخلال واحدة من جولات اللغو تلك، شعر فيرغسون باشمئزاز شديد، لدرجة أنه فقد السيطرة على أعصابه، وقال لوالده بأن يصمت، وهذا ما لم يفعلهُ من قبل في حياته.

انسحبَت القوّات في اليوم السابع عشر، وفي الوقت الذي غادرَت فيه الدّبّابة الأخيرة من المدينة، انتهَت الحرب.

انتهى كلّ شيء آخر أيضاً، على الأقلّ بالنسبة إلى يهود فيكويش الذين بدا أنهم يوافقون رأي والد فيرغسون بشأن ما حدث، وفي غضون ستّة أشهر تقريباً، رحلت العائلات كلها تقريباً عن المنطقة، انتقل البعض إلى بلدة إليزابيث المجاورة، واتّجه آخرون إلى الضواحي في مقاطعتَي إسِكس وموريس، والحيّ الذي كان ذات يومٍ يهودياً بالكامل، أضحى خالياً من أي منهم. كم كان غريباً أن معظم آباء السّكّان السود الذين عاشوا في نيوآرك وأجدادهم قد قدِموا من الجنوب خلال الهجرة العظيمة بين الحروب، والآن، لأن صورَ والدته عن أعمال الشغب تركت علامة مؤكّدة في العالم، ولأنها تلقّت عرضاً جديداً للعمل في صحيفة *ميامي هيرالد*، تبادَل والداه الأماكن مع جيرانهم السود، واتّجها بنفسيهما إلى الجنوب.

كان مشهدُ رحيلهم مروّعاً.

خريف سنة 1967. شيء ما له علاقة ضوء الشمس، أو لمعان النجوم، أو أشعّة القمر في كاليفورنيا قد أدّى إلى تفتيح لون شعر إيمي وتكحيل لون بشرتها، فعادَت إلى نيويورك بحاجبين وأهداب أكثر شحوباً وشقاراً، وتوهّجاً أسمر ضارباً إلى الصفار في خدّيها وذراعيها وساقيها، اللون البنّيّ الذهبي لفطيرة طازجة أو شريحة دافئة من الخبز المحمّص المشبع بالزبدة. أرادَ فيرغسون أن

يلتهمها كلها. بعد شهرين ونصف الشهر من لوعة العازب، لم يستطع أن يحصل كفايته منها، ولأنها أيضاً جوّعَت نفسها طيلة الصيف، ولعَبَت ما وصفَتهُ بدَور *الراهبة الكئيبة*، كانت بحالة مُشرِقة على نحوٍ استثنائي، ومُستعدّة لمنحِه قدر ما هو مُستعدّ لمنحه لها، وبالنسبة إلى فيرغسون، الذي أدركَ الآن أنّه ورِث معظم *الشهية الكبيرة لجَدّه*، إن لم تكن كلها، فقد كان مستعداً لإعطائها كل ما لديه، وهذا ما فعله، وما فعلَتهُ إيمي كذلك بكل ما لديها أيضاً، وعلى مدى ثلاثة أيّام متتالية، بعد أن عادَت إلى الشّقّة في غربي الشارع 111، خيّما على سرير مزدوج في غرفتها، وأعادا التّعرّف إلى بعضهما تحت تأثير القوّة المجهولة التي جمعَتهما معاً.

وبالرغم من ذلك، تغيّرَت بعض الأشياء، ولم تكن كلها ممّا يُعجب فيرغسون. فمن ناحية، وقعَت إيمي في هوى كاليفورنيا، أو الجزء الذي تقع فيه منطقة الخليج على الأقلّ، وصارت الفتاةُ التي لم تغادر قطّ نيويورك تفكّر بجدّيّة فيما إذا كان عليها التّقدّم لكلّيّة الحقوق في بيركلي في السنة القادمة. لم تكن المسألة دراسة الحقوق. كان فيرغسون يتمنّى لها أن تصير مُحامية، وهو أمر تناقشا فيه بضع مرّات من قبل، محامية للفقراء، ناشطة حقوقية، مهنة ستسمحُ لها بفعل المزيد من الخير في العالم أكثر من شخصٍ يُنظّم المظاهرات المناهضة للحرب، أو تقود الإضرابات ضدّ ملّاك الأراضي الجشعين غير المسؤولين، وبما أن الحرب ستنتهي ذات يوم بلا ريب (كما تتمنّى)، سيكون مُرضياً للغاية أن ترجّ ملّاك الأراضي الجشعين في السجن بدلاً من ترجّيهم من أجل أن يُشغّلوا نظام التدفئة أو يقضوا على الجرذان أو يتخلّصوا من الطلاء الرصاصي. ستصير محامية مهما كلّف الأمر - لكنْ، كاليفورنيا؟ عمّ كانت تتحدّث؟ ألم تتذكّر أنه سيظلّ في نيويورك خلال السنة القادمة؟ كان البُعد خلال فصل الصيف سيّئاً بما فيه الكفاية، بيد أن سنة كاملة ستؤدّي إلى جنونه. وما الذي دفعها للافتراض بأنه سيرغب في اللحاق بها إلى كاليفورنيا بعد تخرّجه؟ أليس باستطاعتها أن تذهب إلى كلّيّة حقوق معقولة مثل كولومبيا أو نيويورك أو فورهام والبقاء معه في الشّقّة؟ لماذا تجعلُ الأمور كلها في غاية التعقيد؟

آرتشي، يا آرتشي، لا تنجرف. في هذه المرحلة، هي تكهّنات فحسب.

لقد ذُهِلتُ لمجرّد تفكيركِ بهذا الطريقة.

أنتَ لا تدري كيف الحال هناك. بعد أسبوعين، توقّفتُ عن التفكير بنيويورك، وكنتُ سعيدة جدّاً بذلك. شعرتُ كما لو أنني كنتُ في المنزل.

ليسَ هذا ما اعتدتِ أن تقوليه. إنها نيويورك، ألا تذكرين؟

كان عمري ستّ عشرة سنة عندما قلتُ ذلك، ولم أكن قد ذهبتُ من قبل إلى بيركلي أو

سان فرانسيسكو أبداً. الآن، وقد صرتُ في العشرين من عمري، غيّرتُ رأيي. نيويورك مكان قذر. بالتأكيد. لكنْ، ليست كلها كذلك. بوسعكِ دوماً الانتقال إلى حيٍّ آخر.

شمالُ كاليفورنيا أجملُ منطقة في أميركا. جميلة مثل فرنسا، يا آرتشي. لا تُصدّق كلامي إن لم ترد ذلك. تعال وشاهدْ بنفسكَ.

أنا مشغول في هذه الفترة.

في عطلة الميلاد. بإمكاننا أن نذهب إلى هناك خلال عطلة الشتاء.

حسناً! لكنْ، حتّى لو ظننتِ أنّها أفضل مكان في العالم، فإن المشكلة لم تُحلّ بعد.

أي مشكلة؟

مشكلة البُعد لمدّة سنة.

سنتجاوزها. لن تكون صعبة كثيراً.

لقد مَررتُ للتّوّ بهذه الوحدة، وكان الصيف الأسوأ في حياتي. كانت صعبة، يا آيمي، صعبة جدّاً، في غاية الصعوبة، لدرجة أنني بالكاد احتملتُها. إن سنة كاملة ستُدمّرني على الأرجح.

صحيح، كانت قاسية. لكنني أعتقدُ أيضاً أنها كانت في صالحنا. أن نكون بعيدين، أن ننام وحيدين، أن يشتاق واحدنا إلى الآخر، ونكتب الرسائل - أعتقدُ أنها زادت من قوّة علاقتنا.

ها.

أنا أحبّكَ حقّاً، يا آرتشي.

أدري ذلك. لكنني أظنّ أحياناً أنكِ تحبّين مُستقبلكِ أكثر ممّا تحبّين فكرة الوجود معي.

كانون الأوّل، 1967. لم يُسافرا إلى كاليفورنيا ذلك الشتاء، بسبب وفاة جَدّة فيرغسون، والتي ماتت لتعرّضها لنوع الاحتشاء الداخلي الحادّ نفسه الذي أودى بحياة جَدّه قبل سنة، وكان لا بدّ من إلغاء الرحلة، كي يتسنّى لهما حضور مراسم دفن ثانية في وودبريدج - نيو جيرسي. تلا ذلك أسبوع محموم، شاركَت فيه أيادٍ كثيرة في التّخلّص من ممتلكات جَدّته وتنظيف شقّتها، وكان من الضروري إنجاز ذلك ضمن وقت قياسي، لأن والدي فيرغسون على مشارف الانتقال إلى فلوريدا، لذا تعاون الجميع من أجل المساعدة، فيرغسون بالطبع وإيمي أيضاً، واللذان عملا أكثر ممّا فعل أي شخص آخر، ونانسي سولومون وزوجها، ماكس، وبوبي جورج الذي أُعفي من الخدمة العسكرية، وعاد إلى مونتكلير، وأخذ يستعيد لياقته من أجل التدريب الربيعي، وحتّى

ديدي براينت التي كانت قد كوّنَت صداقة مع جَدّة فيرغسون بعد وفاة جَدّه، وبكَت عليها بشدّة، بقدر ما بكَت عليه (مَن صاحب العقل الذي سيجادل في أن الحياة منطقية؟)، واحتاجَت والدة فيرغسون إلى المساعدة، لأنها كانت شديدة الانفعال، وذرفَت في ذلك الأسبوع دموعاً أكثر من مجموع الدموع كلها التي رآها تذرفها منذ طفولة فيرغسون حتّى الآن، وشعرَ فيرغسون أيضاً بحزن طاغٍ يسيطرُ عليها، ليس لأنه فقد جَدّته فحسب، وكان محزناً بما فيه الكفاية، لكنْ، أيضاً لأنه كره رؤية ما كان يحدث في الشّقّة، التفكيك البطيء للغرف، حيثُ تُلفُّ الأغراض واحداً تلو الآخر بورق الجرائد، وتُوضَع في صناديق كرتونية، الأشياء كلها التي كانت جزءاً من حياته منذ مرحلة ما قبل الذاكرة، التُّحف الصغيرة الرخيصة التي اعتادَ أن يلعب بها على يديه وركبتيه عندما كان طفلاً، والفيلة العاجية لجَدّته، وفرس النهر الأخضر الزجاجي، ومفرش الطاولة المطرّز الأصفر تحت الهاتف في الردهة، وغلاوين جَدّه وحافظاتها الفارغة، والتي كانت يُحبّ أن يحشر أنفه داخلها، كي يستنشق بعمقٍ رائحة التبغ اللاذعة التي يُخلّفها السيجار، غابَ ذلك كله الآن، غاب إلى الأبد، وأسوأ ما في الأمر أن جَدّته كانت تُخطّط للسفر إلى فلوريدا بصحبة والديه، والانتقال معهم إلى الشّقّة الجديدة في ميامي بيتش، وعلى الرغم من زعمها بأنها تتطلّع إلى ذلك (*سوف تزورني، يا آرتشي، وسنخرج معاً لتناول طعام الفطور في مطعم وولفي في جادّة كولينز، بيض مخفوق مع السلمون المدخّن والبصل*)، لكنه كان يشكُّ بأنها ستشعر بالرعب من فكرة رحيلها عن الشّقّة بعد تلك السنوات كلها، وربّما كانت تريد هذه الجلطة، لأنها، ببساطة، لم تكن قادرة على مواجهة الرحيل.

كان المال آخر ما يشغل تفكير فيرغسون؛ الشخص الذي من النادر أن يتوقّف عن التفكير أو القلق بصدد المال في حياته اليومية، أهملَ التفكير بمسألة الممتلكات والعواقب المالية المترتّبة على وفاة شخص ما، بيد أن جَدّهُ كسِب أموالاً طائلة خلال سنواته الطويلة في جيرش وإدلر وبومرانتيز، وعلى الرغم من أنه بدّدَ الكثير من تلك الأموال على ديدي براينت وسابقاتها، ورِثت جَدّة فيرغسون ما يزيد عن نصف مليون دولار بعد وفاة زوجها، والآن، بعد أن توفّيت هي أيضاً، انتقلَت تلك الأموال إلى ابنتيها، ميلدرد وروز، حيثُ حصلت كلّ منهما على نصيبها بحسب ما ورد في الوصية، وبمجرّد أن دُفِعت ضريبة الإرث، صارت خالة فيرغسون ووالدته أغنى بمئتي ألف دولار ممّا كانتا عليه قبل الجلطة المميتة التي حلّت بوالدتهما. مئتا ألف دولار! كان مبلغاً خيالياً، لدرجة أن فيرغسون ضحِكَ عندما اتّصلَت به والدته من فلوريدا في أواخر كانون الثاني كي تُخبره بالأمر، ثمّ ضحك أكثر حين أعلنت أنها ستمنحه نصف نصيبها.

فكّرنا أنا ووالدكَ ملياً بهذا، قالت، ونعتقدُ أنه من العدل أن تحصل على شيء الآن. توصّلنا

إلى رَقْم، وهو عشرون ألفاً. أمّا الثمانون ألفاً الأخرى، فنستثمرها لصالحكَ، لذا، بوسعكَ الحصول على جزء منها متى شئتَ، لأن الثمانين ستكون أكثر من ثمانين. أنتَ فتى راشد الآن، يا آرتشي، ونعتقدُ أن العشرين ألفاً ستكون كافية لإعانتكَ خلال الفصول الدراسية الثلاثة الأخيرة من الكلّيّة، وسيبقى منها مبلغ كافٍ لبداية حياتكَ الفعلية، ستّة آلاف أو ثمانية آلاف دولار، وستكون كفيلة بمنحكَ فرصة العثور على العمل الذي تريده حقّاً، بدلاً من أن تشعُر بأنكَ مُجبر على قبول عمل ما لأنكَ بمساس الحاجة إلى المال. إلى جانب ذلك، ستصير الأمور أسهل بالنسبة إلينا، الزوجان المسنّان في ميامي بيتش. لن يعود والدك مُضطرّاً إلى إرسال المال إليكَ شهرياً من أجل الإيجار والمصاريف، ولن يعود مُضطرّاً إلى التفكير بدفع الرسوم الدراسية، سيصبح كل شيء أبسط بالنسبة إلينا جميعاً، ومنذ الآن فصاعداً، ستتحمّلُ المسؤولية.

ماذا فعلتُ لأستحقّ هذا؟ سأل فيرغسون.

لا شيء. لكنْ، ماذا فعلتُ لأستحقّ هذه الأموال في الأصل؟ لا شيء. هكذا تجري الأمور فحسب، يا آرتشي. يموتُ الناس، ويستمرّ العالم، ونفعلُ ما في وسعنا كي نساعد بعضنا بعضاً، أليس كذلك؟

كانون الثاني، 1968. لأن إيمي كانت شخصاً لا يتراجع أبداً إذا ما قرّرَت شيئاً ما، فقد تمسّكت برأيها، وأرسلَت طلباً إلى كلّيّة الحقوق في بيركلي، ولأن فيرغسون يعرف بأنها ستلتزم وستذهب إلى هناك في حال وافقوا على طلبها، على الرغم من أنها قد تنال قبولاً في كولومبيا وهارفارد، حاول أن يُعزّي نفسه من خلال التفكير بالمال، والذي من شأنه أن يسمح له بالسفر لزيارتها عدّة مرّات قصيرة في كاليفورنيا، وأحياناً لفترات طويلة، في حال اختارت ألا تعود إلى نيويورك لقضاء عطلة الميلاد و/ أو عطلة الربيع، وبهذه الطريقة، من الممكن أن يتجاوز فترة السنة دون أن يَتشظّى في غيابها. غير ممكن، فكّر، بيد أن المال سيمنحه الفرصة الآن على الأقلّ، في حين أنّه بلا أملٍ أبداً قبل المال.

وأكثر من ذلك، كان الشيء المثير للاهتمام المتعلّق بالمال أنه لم يؤثّر كثيراً على الظروف الخارجية لحياته. صار أقلّ تردّداً الآن بشأن شراء الكُتُب والسجلات التي أرادها، وأميلَ إلى استبدال الملابس والأحذية البالية على نحوٍ أسرع قليلاً من قبل، وكلّما أراد أن يفاجئ إيمي بهدية (أزهار في أغلب الأحيان، ولكنْ، أيضاً كُتُب وسجلات وأقراط)، كان بوسعه أن يلبّي هذا الدافع دون أن يفكّر كثيراً. بخلاف ذلك، لم يتغيّر الكثير. استمرّ في الذهاب إلى دروسه وكتابة المقالات لـ *سبيكتاتور*، وترجمة القصائد الفرنسية، وواصل التردّد إلى الأماكن الرخيصة التي اعتاد

زيارتها - وست إند، وغرين تي، وتشوك فُل أو نتس- لكنْ، في داخله، في أعماق حجرته العقلية المغمورة، حيثُ يعيشُ فيرغسون وحيداً في تواصل صامت مع وعيه، شيء واحد اختلفَ على نحوٍ واسع الآن. ثمّة آلاف الدولارات في حسابه في *ذا فيرست ناشيونال سيتي بنك*، عند ناصية غربيّ الشارع 110 وبرودواي، وكانت مجرّد معرفة ذلك، حتّى لو لم تكن لديه رغبة خاصّة بإنفاقها، أعفتْه من واجب التفكير بالمال لسبعمائة وستّ وأربعين مرّة في اليوم الواحد، وفي النهاية، كان هذا سيّئاً بقدر عدم امتلاك أي مال، إن لم يكن أسوأ، لأنه يمكن تلك الأفكار أن تكون شديدة الإيلام، وحتّى قاتلة، وكانت نعمة ألا يضطرّ للتفكير بها بعد الآن. تلك كانت الميزة الحقيقية الوحيدة لامتلاك المال مقابل عدم امتلاكه، كما أقرَّ - لا أن تكون قادراً على شراء المزيد من الأشياء، بل ألا تعود مضطراً للتّجوّل وفقاعة تلك الفكرة الجهنّميّة مُسلّطة على عنقكَ.

أوائل سنة 1968. رأى فيرغسون الوضع كسلسلة من الدوائر متّحدة المركز. كانت الحربُ الدائرة الخارجية، وكل شيء آخر دار في داخلها: جنود أميركيون في فيتنام، ومقاتلون أعداء من الشمال والجنوب (الفيتكونغ)، وهُوْ تْشيْ مِنْهْ، والحكومة في سايغون، وليندون جونسون ومجلس وزرائه، والسياسة الخارجية للولايات المتّحدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وقوائم الضحايا، والنابالم، وإحراق القرى، والقلوب والعقول، والتصعيد، والتهدئة، والسلام المُشرّف. مثّلَت الدائرة الثانية أميركا، مئتا مليون على الجبهة الداخلية: الإعلام (صحف، ومجلات، وإذاعة، وتلفزيون)، والحركة المناهضة للحرب، والحركة المؤيّدة للحرب، وحركة القوّة السوداء، وحركة الثقافة المضادّة (الهيبيز واليبيز، والماريوانا والـ إل. إس. دي.، وموسيقى الروك آند رول، والصحافة السّريّة، وزاب كوميكس، وميري برانكسترز، والملاعين)، والقبّعات القاسية وجمهور *اقبَلْها أو اتْرُكها*، والهواء الفارغ الذي يَشغَله ما يُدعى بجيل الفجوة ما بين آباء من الطبقة الوسطى وأبنائهم، والحشود الغفيرة من المواطنين المجهولين الذين سيُعرفون لاحقاً بالأغلبية الصامتة. كانت نيويورك الدائرةَ الثالثة، وكانت مُتطابقة تقريباً مع الدائرة الثانية، لكنها كانت أكثر فوريّة، أكثر سطوعاً؛ مُختبراً مليئاً بنماذج عن التّيّارات الاجتماعية المذكورة آنفاً، والتي كان بوسع فيرغسون أن يلاحظها بعينيه مُباشرة بدلاً من تحليل الكلمات المكتوبة أو الصور المنشورة، مع أخذ خصوصيات نيويورك نفسها وفوارقها الدقيقة بعين الاعتبار، حيثُ كانت مختلفة عن المُدُن الأخرى جميعها في الولايات المتّحدة، وخاصّة بسبب الفجوة الشاسعة ما بين الأغنياء والفقراء. كانت كولومبيا الدائرةَ الرابعة، مسكن فيرغسون المؤقّت، العالم القريب والصغير حوله وحول زملائه الطلاب، الأرض الشاملة التي تُحيط بمؤسّسة لم تعُد معزولة عن العالم الكبير خارجها، لأن الجدران سقطَت، ولم يعد من

الممكن الآن تمييز الخارج من الداخل. كان الفردُ الدائرةَ الخامسة، كلّ فردٍ في أيّ من الدوائر الأربع الأخرى، ولكنْ، بالنسبة إلى فيرغسون، الأفراد الأهمّ هم الذين يعرفهم بصورة شخصية، وفوق كل شيء، الأصدقاء الذين تشارك معهم حياته في كولومبيا، وقبل هؤلاء جميعاً، بطبيعة الحال، فردُ الأفراد، النقطة في مركز أصغر دائرة من الدوائر الخمس، هو نفسه.

خمسة عوالم، خمس وقائع منفصلة، بيد أن كلاً منها متّصل بالآخر، ممّا يعني أنه عندما يحدث شيء ما في الدائرة الخارجية (الحرب)، فستسري آثاره عبر أميركا كلها، ونيويورك، وكولومبيا، وإلى كلّ نقطة في الدائرة الداخلية للحياة الفردية الخاصّة. عندما زادت حدّة الحرب في ربيع سنة 1967، على سبيل المثال، تظاهرَ نصف مليون شخص في شوارع نيويورك في الخامس عشر من نيسان، لإدانة الحرب والدعوة إلى الانسحاب الفوري للقوّات الأميركية من فيتنام. وبعد ذلك بخمسة أيّام، على أرض جامعة كولومبيا، تواجدَ ثلاثمائة طالب من منظّمة طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي في قاعة جون غاي "ليطرحوا بعض الأسئلة" على ضبّاط التعيين في البحرية، والذين وضعوا طاولاتهم في الممرّ، قبل أن تهاجمهم عصابة من خمسين فتى من الرياضيين والمتدرّبين، ممّا أدّى إلى عراك دموي بقضبات وأنوف مهشّمة، ولم يكن ليتوقّف دون تدخّل الشرطة. بعد ظهر اليوم التالي، خرجَت مظاهرة في كولومبيا، الأكبر حجماً منذ ثلاثين سنة، في باحة الكلّيّة فان آم، بين قاعتي جون غاي وهاميلتون، حيثُ أعلن ثمانمائة عضو ومؤيّد من طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي معارضتهم التجنيد البحري في حرم الجامعة، في الوقت الذي قام فيه خمسمائة مُؤيّد للبحرية برميهم بالبيض من خلف السياج في ساوث فيلد في أثناء مظاهرتهم المضادّة. كان فيرغسون وإيمي من المشاركين في هذا المشهد المحموم؛ كانت مشارِكة، وكان مراسلاً صحفياً، وعندما أخبرها في تلك الليلة في ويست إند عن نظريته بصدد الدوائر متّحدة المركز، ابتسمت له وقالت، بالتأكيد، يا عزيزي هولمز، يا لكَ من ذكي!

الفكرّة أن أحداً لم يكن سعيداً على كلا الجانبين. ازداد شعور مؤيّدي الحرب بالإحباط أكثر فأكثر، نتيجة فشل جونسون في الفوز بالحرب، كما ازداد شعور مناهضي الحرب بالإحباط أكثر فأكثر، نتيجة فشلهم في إجبار جونسون على إنهاء الحرب. في تلك الأثناء، تعالَت نيران الحرب، خمسمائة ألف جندي، خمسمائة وخمسون ألف جندي، وكلّما تعاظمَت، ازداد ضغط الدائرة الخارجية على الدوائر الأخرى، وصارت تعصرها بشدّة أكثر من أي وقت مضى، وخلال فترة قصيرة، تقلّصَت المسافات بين الدوائر إلى مجرّد شظايا صغيرة جدّاً من الهواء، ممّا جعل من الصعب جدّاً على الأشخاص الوحيدين المحاصرين في المركز أن يتنفّسوا، وعندما لا يقدر المرء على التّنفّس، فإنه يشعر بالذعر، والذعر شيء قريب من الجنون، شعور بأنكَ فقدتَ

عقلكَ وتوشِك على الموت، ومع أوائل سنة 1968، نمَا شعور لدى فيرغسون بأنه قد جُنّ جنون الجميع، جنّوا بقدر جنون المجانين الذين يتحدّثون إلى أنفسهم بصوت عالٍ في برودواي، وشيئاً فشيئاً، صار مجنوناً مثل الآخرين.

ثمّ، خلال تلك الأشهر الأولى من السنة الجديدة، بدأ كل شيء بالانفجار. أثبتَت الهجمات الصادمة التي شنّتْها فِرَق مغاوير الفيتكونغ، خلال هجوم التيت، على أكثر من مئة مدينة وبلدة في فيتنام الجنوبية، في اليوم الثلاثين من كانون الثاني، أنه ليس بوسع أميركا أن تنتصر في الحرب أبداً، على الرغم من أن القوّات الأميركية قاتلت وانتصرَت على العدوّ في كلّ معركة من الهجوم، حيثُ قُتِل سبعة وثلاثون ألفاً من مقاتلي الفيتكونغ، في حين سقط ألفان من طرف الولايات المتّحدة، فضلاً عن عشرات الآلاف من مقاتلي الفيتكونغ الآخرين بين جريح وأسير، وتحوّل نصف مليون فيتنامي جنوبي إلى لاجئين مشرّدين. كانت الرسالة إلى الجمهور الأميركي أن الفيتناميين الشماليين لن يستسلموا أبداً، أنهم سيواصلون القتال حتّى آخر شخص في بلادهم، وكم سيتطلّب الأمر من المزيد من الجنود الأميركيين الآخرين من أجل تدمير تلك البلاد، هل على الخمسمائة ألف الموجودين هناك بالفعل أن يصيروا مليوناً، مليونين، ثلاثة ملايين؟ وإذا كان ذلك، ألن يعني دمار فيتنام الشمالية دمار أميركا أيضاً؟ بعد شهرين، ظهر جونسون على شاشة التلفاز، وأعلن أنه لن يعيد ترشيح نفسه في الخريف. كان اعترافاً بالفشل، إقراراً بأن الدعم الشعبي قد تآكل إلى درجة أن سياسته أصبحت مرفوضة، وبالنسبة إلى فيرغسون الذي كان مُعجباً بجونسون الصالح وحربه على الفقر، وقانون الحقوق المدنية، وقانون حقوق التصويت، ومُحتقراً لجونسون الطالح في فيتنام، وجد نفسه في موقف غير مريح، لأنه شعر بالأسف على رئيس الولايات المتّحدة، لدقيقة أو دقيقتين على الأقلّ، وذلك عندما حاول أن يضع نفسه في مكان ليندون جونسون، ويُجرّب المعاناة التي لا بدّ أنه شعر بها عندما قرّر التّخلّي عن عرشه، ثمّ شعر فيرغسون بالابتهاج، بالابتهاج والراحة معاً، لأن ليندون بينز جونسون سيرحلُ عمّا قريب.

بعد خمسة أيّام، اغتيلَ مارتن لوثر كينغ في ممفيس. رصاصة أخرى أطلقَها نكرة أميركي، ضربة أخرى للجهاز العصبي الجمعي، وخرجَ مئات الآلاف من الناس إلى الشوارع، وراحوا يكسّرون النوافذ، ويُضرمون النيران في المباني.

مئة وثمانية وعشرون نيوآرتشياً.

اندمجت الدوائر الخمس متّحدة المركز في أسطوانة سوداء واحدة.

كانت أسطوانة من طراز إل. بي.، أما الأُغنيّة التي تواصل تشغيلها، فكانت أُغنيّة بلوز قديمة، عنوانها "*لم أعد قادراً على التّحمّل أكثر، يا حبيبتي، لأن قلبي يؤلمني بشدّة*".

ربيع سنة *1968* (1). قلّما تواجدت إيمي في الأرجاء الآن. كانت في فصلها الدراسي الأخير في بارنارد، ولأنها استوفَت بالفعل متطلّباتها الأكاديمية، ولديها تقريباً ما يكفي من نقاط للتّخرّج، كان حجم دراستها خفيفاً على نحوٍ استثنائي ذلك الربيع، ممّا سمح لها بقضاء معظم وقتها في نشاطات سياسية مع *طلاب من أجل مجتمع ديمقراطي*. حتّى ذلك الوقت، كانت كلّيّة الحقوق في بيركلي أكبرَ مخاوف فيرغسون (والتي وافقَت على طلبها في أوائل شهر نيسان، بعد أيّام قليلة من مقتل كينغ في ممفيس)، لكنه صار يخشى الآن أن يخسرها قبل بداية فصل الصيف. أصبحَت مواقفها أشدّ صلابة خلال الأشهر المجنونة، أوائل سنة 1968، ممّا دفعها عميقاً إلى أكثر في حالة من التّشدّد المتطرّف والحماسة المناهضة للرأسمالية، ولم يعد بإمكانها الضحك على خلافاتهما الصغيرة في الرأي، ولم تعد تفهم سبب عدم موافقته لها في آرائها كلها.

إذا رضيتَ بتحليلي، قالت له ذات يوم، فلا بدّ، إذاً، أن ترضى بنتائجي.

كلا، ليس كذلك، أجاب فيرغسون. فقط لأن الرأسمالية هي المشكلة، لا يعني ذلك أن منظّمة *طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي* ستؤدّي إلى اختفاء الرأسمالية. أحاول العيش في العالم الحقيقي، يا إيمي، وأنتِ تحلمين بأشياء لن تتحقّق أبداً.

مثال: الآن، بعد انسحاب جونسون، ترشّح كلّ من يوجين مكارثي وروبرت كينيدي للانتخابات الرئاسية عن الحزب الديموقراطي. كان فيرغسون غير مهتمّ بلا ريب، ولم يدعم أيّاً منهما، لكنه أولى اهتماماً كبيراً لحملتيهما - وخاصّة كينيدي، حيث كان من الواضح أنه لم تكن هناك فرصة لمكارثي - وحتّى لو كان فاتراً تجاه عضو مجلس الشيوخ عن نيويورك، لكنه شعر بأن روبرت فرانسيس كينيدي خيار أفضل من همفري سيّئ السمعة، أيُّ ديموقراطي أجدر بالتفضيل من نيكسون، أو حتّى الأكثر إقلاقاً، رونالد ريغان، حاكم الدولة المستقبلية لإيمي، والذي كان أبعد عن الصواب من غولدووتر. لم يكن الأمر أن فيرغسون شعر بأي حماسة للديموقراطيين، لكنْ، من المهمّ أن نُميّز، قال لنفسه، من المهمّ نعترف بأنه ثمّة أشياء سيّئة في هذا العالم الفاسد، لكنْ، هُناك أيضاً أشياء أسوأ، وعندما يتعلّق الأمر بتصويت في انتخابات، فمن الأفضل أن تدعم السّيّئ ضدّ الأسوأ. رفضَت إيمي أن تجري مثل تلك الأنواع من التمييز بعد الآن. كلّ ما كان يهمّها أن الديموقراطيين جميعاً متشابهون، كل واحد منهم *ليبرالي خائن*، ولم تكن تريد أي شيء منهم، كانوا المسؤولين عن فيتنام والفظائع الأخرى كلها التي أنزلتها أميركا بالعالم، وأنهم، وما يؤمنون به، مقرفون، وفي حال فاز الجمهوريون، حسناً، ربمّا سيكون ذلك أفضل للبلاد على المدى الطويل، لأن أميركا ستتحوّل إلى دولة بوليسية فاشية، وفي نهاية المطاف، سيثور الناس ضدّها، كما لو أن الناس الذين انتخبوا الجمهوريين للتوّ سيُسقطونهم بمجرّد تولّيهم السلطة،

كما لو أن الناس الذين قد لا يفضّلون العيش في دولة بوليسية فاشية سيعتقلون المتطرّفين المناهضين لأميركا على غرارها.

الفتاة التي ذرفَت الدمع لمقتل جون كينيدي في سنة 1963، ترى الآن شقيقه روبرت أداةً للقمع الرأسمالي. كان فيرغسون على استعداد للتغاضي عن مثل هذه التصريحات، على اعتبارها شططاً من الحماس الأيديولوجي، لكنْ، بحلول أوائل شهر نيسان، صار أيضاً عرضة للهجوم، وتحوّل السياسي فجأة إلى شخصي، شخصي جداً، الكثير جداً عنه، بدلاً من الأفكار التي كانا يناقشانها. تساءل فيرغسون عمّا إذا كانت إيمي على علاقة سرّيّة بأحد رفاقها في المنظّمة، أو أنها تستكشفُ، مع رفيقتها في بارنارد، باتسي دوغان، أسرار الحبّ المِثْليّ (كانت تتحدّث عن باتسي كثيراً في تلك الأيّام)، أو أنها لا تزال منزعجة منه، لأنه لم يذهب معها إلى كاليفورنيا الصيف الماضي. كلا، مستحيل، فكّر، ليس أي من تلك الاحتمالات مُمكناً على الإطلاق، حيث لم يكن من طبيعة إيمي أن تفعل أشياء من دون علمه، ولو أنها وقعت في هوى شخص آخر، لأخبرَته بذلك، وإذا كانت لا تزال مُستاءة منه بسبب الصيف الماضي، لكان استياؤها متعمّداً، إذ مضت أشهر على ذلك، وفي الأشهر التي تلته، قضيا أوقاتاً طيّبة طويلة معاً، ناهيكَ عن مدى تألّقها في الأيّام الحزينة عقب وفاة جَدّته، نظراً لركود والدته التي كانت شبه متجمّدة في مكانها، والتنسيق لتنظيف الشّقّة بالسرعة والدّقّة ذاتها لكرة سريعة لساندي كوفاكس. مع ذلك، حدث شيء ما منذ ذلك الوقت، وإذا لم يكُن نتيجة لأي من الأسباب المعتادة، فيبدو من المستحيل أيضاً أن تكون ناتجاً عن خلاف تافه في السياسة. لطالما اختلفا في الرأي. وكان أحد ملذّات العيش معها أنه برغم المدى الذي يصل إليه اختلافهما، إلا أنهما ظلّا يحبّان بعضهما. كانت معاركهما فكرية دائماً، لا شخصية أبداً، لكنْ، صارت إيمي الآن تتعرّض إليه بسبب أفكاره التي لا تنسجم مع أفكارها، لأنه لم يكن مستعدّاً للقفز معها إلى داخل البركان الثوري، وبناءً على ذلك، أصبح ليبرالياً رجعياً متخلّفاً، وتشاؤمياً، وتهكّمياً، وفتى نادم الضمير (يعني هذا، بحسب تقديره، أنه كان مولعاً للغاية بجويس والأشياء الأدبية كلها)، ومُتفرّجاً، وهاوياً، ومُحافِظاً، وكتلة من الخراء.

من وجهة نظر فيرغسون، كل هذا نتيجة لفارق جوهري وحيد: كانت إيمي مؤمنة، وكان لا أدرياً.

ذات ليلة، عندما تأخّرت في الخارج مع أصدقائها، ولا شكّ كانت تُجادل مايك لوب في كشك في ويست إند، أو تتآمر مع باتسي دوغان بشأن خطّة لزيادة عدد العضوات الإناث في *طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي*، زحف فيرغسون إلى السرير في غرفة إيمي، السرير ذاته الذي نام عليه طيلة الجزء الأفضل من السنتين الماضيتين، ولأنه كان مُتعَباً جداً تلك الليلة،

نام قبل أن تعود إيمي. عندما استيقظ في صباح اليوم التالي، لم تكن إيمي في السرير بجانبه، وبعدما تفحّص مستوى انتفاخ وسادتها، استنتج أن إيمي لم تعد إلى المنزل، وأمضت الليلة في مكان آخر. اتضّح فيما بعد أن المكان الآخر كان السرير في غرفة فيرغسون المجاورة، وعندما دخل إلى تلك الغرفة، بحثاً عن مجموعة جديدة من الجوارب والملابس الداخلية، تسبّب صرير الأرض الخشبية في إيقاظها.

ماذا تفعلين هُنا؟ سأل فيرغسون.

شعرتُ برغبة بالنوم وحدي، قالت.

أوه؟

شعرتُ أنه سيكون من الجيّد أن أنام وحدي من باب التغيير.

وهل كان كذلك؟

أجل، جيّد جدّاً. أعتقدُ أنه ينبغي لنا فعل ذلك لفترة من الوقت، يا آرتشي. أنتَ في سريركَ، وأنا في سريري. في وسعكَ أن تسمّي هذا بفترة تهدئة.

إذا كانت تلك رغبتكِ. ليس لأن الجوّ كان دافئاً جدّاً في الآونة الأخيرة عندما نمنا معاً على السرير ذاته.

شكراً لكَ، يا آرتشي.

عفواً، يا إيمي.

وهكذا، بدأ ما يُدعى بفترة التهدئة. وخلال الليالي السّتّ التالية، نام فيرغسون وإيمي وحيدين، كلّ في سريره في غرفته، ولم يكن أي منهما متأكّداً بصدد ما إذا وصلا إلى النهاية، أو أنها مجرّد استراحة قصيرة فحسب، وفي صباح اليوم السابع، في اليوم الثالث والعشرين من شهر نيسان، وبعد ساعات قليلة من خروجهما من سريريهما المنفصلين، ثمّ المضي في طريقيهما المنفصلين خارج الشّقّة، بدأت الثورة.

ربيع سنة 1968 (2). في الرابع عشر من شهر آذار، انتخب فيرغسون ورفاقه في *سبيكتاتور* روبرت فريدمان، ليكون رئيس التحرير الجديد، وفي اليوم نفسه، صوّتت إيمي ورفاقها في *طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي* لصالح مارك رود كرئيس جديد لهم، وبين لحظة وأخرى، تغيّرت كلا المنظّمتين. استمرّت الصحيفة في نشر الأخبار كما يحدث عادة، لكنْ، صارَت افتتاحياتها أكثر صرامة وصراحة، وكان فيرغسون مسروراً بأن أصبحت قضايا مثل فيتنام، وعلاقات السود والبيض،

ودور كولومبيا في إطالة عمر الحرب، تُناقَش علناً، وبحدّة في أغلب الأحيان، كمسائل السياسة والقناعات. وبالنسبة إلى *طلاب من أجل* مجتمع ديمو*قراطي*، كان التّحوّل في التكتيكات أكثر إدهاشاً. كانت القيادة الوطنية قد دعَت لانتقال من "احتجاج من أجل المقاومة"، وفي كولومبيا، استُبدِل بما كان يسمّى فرقة براكسيس أكسيس أخرى أكثر مجابهة تُدعى أكشن فاكشن. في السنة الماضية، كان الهدفُ التعليمَ والتوعية، اللفتة الخجولة نحو الاقتراب من ضبّاط التجنيد البحري من أجل "طرح بعض الأسئلة"، في حين أضحى الهدف الآن الاستفزاز، إحداث البلبلة، إثارة الاضطراب كلّما أمكن ذلك.

بعد أسبوع من تولّي رود منصب الرئيس، جاء مدير مَقرّ نظام الخدمة الانتقائية في نيويورك، العقيد بول بي. أكست، إلى كولومبيا لإلقاء محاضرة في قاعة إيرل عن التعديلات الأخيرة على مسوّدة القوانين. حضرَ مئة وخمسون شخصاً، وعندما تقدّم أكست كي يبدأ حديثه (وكان رجلاً قصيراً بديناً، يرتدي زياً عسكرياً كاملاً)، اندلع شغب في مؤخّرة القاعة. بدأ العديد من الطلاب الذين كانوا يرتدون ملابس سخرة عسكرية بعزف "يانكي دودل داندي" على الناي والطبل، بينما لوّح آخرون بألعاب على شكل أسلحة. وبردّ فعل لا إرادي، قفزت مجموعة من الشباب كي تقمع، وتتصدّى، وتطرد مثيري الفوضى، وعندما تحوّل انتباه الجميع إلى المشاحنات في الخلف، وقف أحد الجالسين في الصّفّ الأمامي، ورمى كعكة ليمون بالكريمة في وجه العقيد أكست. ومثلما يحدث في الأفلام الهزلية كلها، كانت إصابة مُحقّقة. وبحلولِ الوقت الذي استدار فيه الجمهور ثانية، فُتِح باب جانبي بصورة غامضة، وهرب كلّ من رامي الكعكة وشريكه.

في تلك الليلة، أخبرَت إيمي فيرغسون بأن مغوار الحلويات كان عضواً في *طلاب من أجل* مجتمع ديمو*قراطي*، وأنه استُقدِم من بيركلي، وكان مارك رود شريكه. كان فيرغسون مستمتعاً بشدّة. كان ذلك مؤسفاً بالنسبة إلى العقيد، برأيه، لكنْ، لم يتأذّ أحد، وخاصّة إذا ما قورن الأمر بالأذى الكبير الذي تُحدِثه الحرب، مجرّد دعابة صغيرة جداً. لم تكن فرقة البراكسيس آكسيس لتحلم أبداً بتنفيذ عمل بمثل هذه الجرأة (تافه جدّاً)، لكنْ، يبدو أن أكشن فاكشن لا تمانع استخدام الطيش كأداة للتعبير عن وجهات نظرها السياسية. كانت الإدارة غاضبة، بطبيعة الحال، وتوعّدت بإنزال عقاب شديد على المتسبّب بالفوضى، في حال تبيّن أنه لم يكن من طلاب كولومبيا، وبإيقافه في حال كان طالباً، لكنْ، بعد أسبوع، وجدَت الجامعة نفسها أمام تحدٍّ أخطر مَن كعكة ليمون بالكريمة، ولم تُكشَف هوية الفاعل قطّ.

في تلك المرحلة المبكّرة من الدراما، ركّزت *طلاب من أجل* مجتمع ديمو*قراطي* أنشطتها على قضيتين رئيستين: معهد أبحاث الدفاع، والحظر ضدّ التظاهر و/ أو الاعتصام داخل المباني

الجامعية، سياسة جديدة أطلقها رئيس الجامعة غرايسون كيرك في الخريف. أنشأ البنتاغون المعهد في سنة 1956، كقناة لتجنيد مساعدة علماء الجامعة في أبحاث الأسلحة لصالح الحكومة، بيد أن أحداً لم يدرك ارتباط كولومبيا بالبرنامج حتّى سنة 1967، عندما عثر عضوان من طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي في المكتبة على وثائق تشيرُ إلى عضوية كولومبيا في المعهد الذي ضمّ اثنتي عشرة جامعة، والآن، بعد أن أصدرت لجان الكلّيّات في برينستون وشيكاغو مُقترحاتها لرؤساء جامعاتها بالانسحاب من البرنامج، طالبَ طلاب كولومبيا وأعضاء هيئة تدريسها جامعتهم بفعل الشيء نفسه، برغم أن كيرك كان عضواً في المجلس على مدى السنوات التسع الفائتة، لكنْ، كيف لا يشعر المرء بالاشمئزاز إزاء حقيقة أن أبحاث المعهد أدّت إلى تطوير مبيدات أعشاب كيميائية، مثل العامل البرتقالي، والتي استُخدِمت في تعرية غابات فيتنام، أو أن ذلك التكتيك اللعين المعروف بـ "القصف البساطي" كان نتيجة لعمل المعهد على تكتيكات مكافحة التّمرّد؟ وبعبارة أخرى، كانت كولومبيا شريكاً في الحرب، *وبأيدٍ مُلطّخة* (مثلما تقول إيمي عادةً)، وكان الإجراءُ المنطقي الوحيد إجبارها على التّوقّف. لا يعني ذلك أن الحرب ستتوقّف، لكن إرغام كولومبيا على التّوقّف سيُعدّ نصراً صغيراً بعد العديد من الهزائم الكبيرة والصغيرة. أما بالنسبة إلى حظر المظاهرات الداخلية، فقد جادل الطلاب بأن في ذلك انتهاكاً للحقوق التي نصّ عليها التعديل الأوّل للدستور، سلوك غير دستوري ضدّ مبدأ حرّيّة التعبير، وبالتالي، كان قرار كيرك باطلاً.

خلال الأسابيع القليلة الماضية، نشرَت طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي عريضة في أنحاء الجامعة كافّة من أجل الانسحاب من المعهد، وبعد أن وقّع عليها مئة وخمسون طالباً ومُدرِّساً (ومن ضمنهم فيرغسون وإيمي)، قرّرت المنظّمة أن تواجه القضيتين معاً في عمل واحد في السابع والعشرين من آذار، بعد أسبوعٍ من مزحة رمي الكعكة التي أضحَت طيّ النسيان. دخلَت مجموعة من مئة طالب إلى مكتبة لو، المبنى ذي القبّة البيضاء على غرار البانثيون الروماني، والتي كانت بمثابة المركز الإداري للجامعة، وتحدّوا الأمر القضائي ضدّ الاعتصامات والمظاهرات الداخلية، وذلك برفع لافتات كُتبت عليها عبارة يسقط معهد الدفاع! كانت إيمي هناك مع المتظاهرين، وكان فيرغسون هناك بصفته مراسلاً صحفياً، وخلال نصف ساعة تقريباً، جاب الطلاب القاعات مردّدين الشعارات (واستخدموا مكبّر الصوت مرّة واحدة)، وبعد ذلك، صعدوا إلى الطابق الثاني، وسلّموا العريضة لمسؤول جامعي رفيع المستوى، وأكّد لهم الأخيرُ أنه سيمرّرها إلى الرئيس كيرك. ثمّ خرجت المجموعة من المبنى، وفي اليوم التالي، اختير ستّة طلاب، كي يخضعوا لإجراءات تأديبية، كان رود على رأس القائمة، بالإضافة إلى أربعة طلاب آخرين من لجنة

التوجيه في المنظّمة، ستّة فقط من المئة الذين شاركوا، والسبب، كما أوضحَ العمداء، أنهم الوحيدون الذين أمكَن تحديد هويّاتهم. خلال الأسبوعين التاليين، رفض السّتّة مُقابلة العميد، الإجراء التقليدي لحلّ المسائل التأديبية (مُناقشة خاصّة، ثمّ ما يُفترَض أن يكون مجرّد عقوبة - كما هي الحال في معظم المحاكم الصورية)، وأصرّوا، بدلاً من ذلك، على أن يُنظَر في قضيتهم في جلسة مفتوحة. كان جواب العميد بأنه سيُوقِفهم جميعاً، إذا لم يأتوا إلى مكتبه. وفي الثاني والعشرين من شهر نيسان، ذهبوا أخيراً لرؤيته، لكنهم لم يُناقشوا مشاركتهم في مظاهرة معهد أبحاث الدفاع. وبعد أن غادروا المكتب، وُضِعوا جميعاً تحت المراقبة التأديبية.

في ذلك الوقت، قُتِل مارتن لوثر كينغ. وجرى في حيّ هارلم ما جرى في نيوآرك قبل سنة، لكنْ، لم يكن ليندسي أدونيزيو، ولم يُستدعَ الحرس الوطني أو شرطة الولاية لإطلاق النار على المتظاهرين، واحترق هارلم وصولاً إلى كولومبيا، وتصاعد الجنون في الهواء المجنون بالفعل في مرتفعات مورنينغسايد، فيما شعر فيرغسون بأنه حلم محموم في أوجه. في التاسع من شهر نيسان، أغلقَت الجامعة أبوابها تقديراً لكينغ. كان من المقرّر إقامة حدث واحد فقط - حفل تأبين في كنيسة القدّيس بولس، على مقربة من مركز الجامعة، حضرَهُ ألف ومئة شخص - وعندما كان نائب رئيس الجامعة، ديفيد ترومان، على وشك إلقاء كلمة وداع بالنيابة عن إدارة كولومبيا، نهضَ طالبٌ يرتدي سترة وربطة عنق عن مقعده في أحد الصفوف الأمامية، وسار ببطء باتّجاه المنبر. مارك رود - من جديد. أُوقِفَ مُكبّر الصوت على الفور.

بدون ملاحظات مكتوبة، دون إسهاب، دون أن يعرف عدد الأشخاص الذين يستطيعون سماعه، خاطبَ رود الحشد بصوت مكبوت. "إن الدكتور ترومان والرئيس كيرك يرتكبان انتهاكاً أخلاقياً ضدّ ذكرى الدكتور كينغ"، قال. "كيف يُمكن لقادة الجامعة أن يُثنوا على رجلٍ مات في أثناء مُحاولته توحيد صفوف عمّال الصرف الصّحّيّ في نقابة، بينما قاتلوا لسنوات، ضدّ تأسيس نقابات لعمّال الجامعة من السود والبورتوريكيين؟ كيف يمكن لهؤلاء الأشخاص أن يشيدوا برجل حارب من أجل كرامة الإنسان، بينما يسرقون الأراضي من سكّان هارلم؟ وكيف يمكن لهؤلاء المسؤولين أن يشيدوا برجل يُبشِّر بالعصيان المدني اللاعنفي، بينما يعاقبون طلّابهم على التظاهر السِّلْميّ؟" توقّفَ لبرهة، ثمّ كرّر جملته الافتتاحية. "إن الدكتور ترومان والرئيس كيرك يرتكبان انتهاكاً أخلاقياً ضدّ ذكرى الدكتور كينغ. لذا، سنحتجُّ على هذا العمل المشين". ثمّ، بصحبة أربعين أو خمسين مُتظاهراً (من السود والبيض، ومن الطلاب وغير ذلك)، خرج رود من الكنيسة. أمّا بالنسبة إلى فيرغسون الذي كان يجلس في أحد الصفوف الوسطى، فقد صفّق بصمتٍ لما حدث. أحسنتَ، يا مارك، قال في نفسه، ومرحى لكَ، لأنكَ تمتلك الجرأة للوقوف والتّحدّث.

قبل اغتيال مارتن لوثر كينغ، كانت هُناك مجموعة واحدة (طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي)، وقضيتان (معهد أبحاث الدفاع والتأديب)، لشحن النشاط السياسي اليساري في الجامعة. ثمّ حضرت إلى المشهد مجموعة ثانية (منظّمة الطلاب الأفرو - أميركيين)، وقضية ثالثة (الصالة الرياضية)، وبعد حفل تأبين كينغ بأسبوعين، حدث الشيء الكبير الذي لم يتوقّع أحد حدوثه، الذي لم يتخيّل أحد حدوثه قطّ، بالطُرُق غير المتوقّعة وغير المعقولة كلها التي ترافق الأحداث الكبيرة في العادة.

كان من المُقرّر بناء الصالة الرياضية في كولومبيا، والتي كانت معروفة أيضاً باسم جيم كرو، على قطعة الأرض ذاتها في هارلم، والتي اتّهم رود الجامعة بسرقتها، أرض عامّة في هذه الحالة، حديقة مورنينغسايد الخطرة، والمتهدّمة، والتي لم يسبق أن استخدمها البيض من قبل، جرف شديد الانحدار من الصخور والأشجار الميتة، بدايتها في قمّة كولومبيافيل، ونهايتها في سفح هارلمفيل. لم يكن هناك شكّ بأن الجامعة بحاجة إلى صالة رياضية جديدة. كان فريق كرة السّلّة في كولومبيا قد فاز لتوّه ببطولة رابطة اللبلاب، ووصل إلى المرتبة الرابعة في بطولة الرابطة الوطنية لرياضة الجامعات في كرة السّلّة، وكان عمر الصالة الرياضية الحالية أكثر من ستين سنة، صغيرة جدّاً، بالية جدّاً، وغير قابلة للاستمرار، بيد أن العقد الذي تفاوضَت عليه الإدارة مع المدينة في أواخر الخمسينيات وأوائل السّتّينيّات كان غير مسبوق. سيتمّ تأجير فدانين من الحديقة للجامعة مقابل مبلغ رمزي، قدره ثلاثة آلاف دولار في السنة، وستصبحُ كولومبيا المُنشأة الخاصّة الأولى في تاريخ نيويورك التي تشيد بناءً على أرض عامّة، وتضعها للاستخدام الخاصّ. عند نهاية الحديقة من جهة هارلم، سيكون هناك مدخل خلفي للمجموعة، يفضي إلى قاعة رياضية منفصلة داخل الصالة، والتي ستشغلُ اثني عشر ونصفاً بالمئة من المساحة الإجمالية. ونتيجة ضغط الناشطين المحلّيّين، وافقت كولومبيا على زيادة حصّة هارلم إلى خمسة عشر بالمائة - مع حوض سباحة وغرفة تبديل ملابس. وعندما وصل إتش. راب براون إلى نيويورك لحضور اجتماع أهلي في شهر كانون الأوّل من سنة 1967، قال رئيس *لجنة التنسيق الطلابية اللاعنفية*: "إذا بنوا الطابق الأوّل، انسفوه. إذا تسلّلوا ليلاً، وبنوا ثلاثة طوابق، أخرقوها. وإذا بنوا تسعة طوابق، فإنهم لكم. خذوها، وربّما ستسمحون لهم بالدخول في عطل نهاية الأسبوع". في التاسع عشر من شباط، سنة 1968، انطلقت كولومبيا، وباشرت العمل في المشروع. وفي اليوم التالي، ذهب عشرون شخصاً إلى حديقة مورنينغسايد، ووضعوا أجسادهم أمام الجرّافات وشاحنات التفريغ، من أجل إيقاف العمل في موقع البناء. أُلقي القبض على ستّة طلاب من كولومبيا، وستّة أفراد من سكّان الحيّ، وبعد أسبوع، عندما خرج حشد من مئة وخمسين شخصاً، كي

يتظاهروا ضدّ بناء الصالة الرياضية، اعتُقِل اثنا عشر طالباً آخرين من كولومبيا. لم يكن من بينهم أي عضو من *طلاب من أجل* مجتمع ديموقراطي. حتّى ذلك الوقت، لم تكن الصالة الرياضية قضية من قضايا المنظّمة، لكنْ، الآن، بعد أن رفضت الإدارة إعادة النظر في خططها أو حتّى مناقشة إعادة النظر فيها، سرعان ما صارت قضيّة، ليس بالنسبة إلى المنظّمة فحسب، بل وللطلاب السود في الجامعة أيضاً.

كان عدد أعضاء جماعة الطلاب الأميركيين الأفارقة أكثر من ألف عضو، لكنها لم تشارك في أي نشاط سياسي علني قبل اغتيال كينغ، وركّزت بدلاً من ذلك على زيادة تسجيل السود في الجامعات، والحديث مع العمداء ورؤساء الأقسام بشأن إضافة مقرّرات دراسية عن تاريخ السود وثقافتهم إلى مناهج المرحلة الجامعية. كما هي حال أيّ كلّيّة نخبوية أخرى في أميركا في ذلك الوقت، كان عدد السود في كولومبيا صغيراً جدّاً، في غاية الضآلة، لدرجة أنه لم يكن لدى فيرغسون سوى صديقين فقط من السود في الجامعة، ولم يكونا صديقين مقرّبين، وينطبق هذا على معظم أقرانه من البيض، والذين بدا أنه ليس لديهم أصدقاء مقرّبون من السود أيضاً. كان الطلاب السود معزولين بسبب أعدادهم، ومعزولين بصورة مضاعفة بسبب بقائهم مع بعضهم، تائهين وممتعضين في تلك المقاطعة البيضاء من التقاليد والسلطة، وكان يُنظَر إليهم كغرباء في أحيان كثيرة، حتّى من قِبَل حرّاس الأمن السود في الجامعة، والذين كانوا يستوقفونهم، ويطلبون رؤية هوياتهم الشخصية، لأنه لا يمكن للشباب ذوي الوجود السوداء أن يكونوا طلاباً في كولومبيا، وبالتالي، ما من سبب لتواجدهم فيها. بعد مقتل كينغ، انتخبَت الجماعة مجلساً جديداً من القادة المتطرّفين، بعضهم من الأذكياء، وبعضهم من الغاضبين، وبعضهم أذكياء وغاضبون في الوقت ذاته، وكانوا جميعاً جريئين مثل رود، أي لديهم من الثقة بأنفسهم ما يكفي للقدرة على الوقوف ومخاطبة ألف عضو بسهولة، كما لو كانوا يتحدّثون إلى شخص واحد، وبالنسبة إليهم، كانت القضية الأكبر علاقة كولومبيا مع هارلم، ما عنى أن معهد أبحاث الدفاع والتأديب يعود للبيض، بينما كانت الصالة الرياضية قضيتهم.

بعد يومين من حفل تأبين كينغ، ذهب غرايسون كيرك إلى جامعة فيرجينيا لإلقاء خطاب بمناسبة مرور مئتين وخمس وعشرين سنة على ولادة توماس جيفرسون (كان يوماً عاصفاً، مثلما كانت تلك الأيّام)، وكان هناك عالِم السياسة السابق الذي سبق أن عُيّن في مجالس إدارة العديد من الشركات والمؤسّسات المالية، ومن بينها موبيل وآي بي إم وكون إديسون، رئيس جامعة كولومبيا الذي خلِف دوايت أيزنهاور بعد أن ترك اللواء كولومبيا، ليصير رئيساً للولايات المتّحدة، هُناك، للمرّة الأولى، وقف غرايسون كيرك ضدّ الحرب في فيتنام، ليس لأن الحرب خاطئة أو

غير جديرة بالاحترام، قال، لكنْ، بسبب الضرر الذي كانت تُلحِقُه داخل الولايات المتّحدة، ثمّ لفظَ الجُمل التي سرعان ما عادت إلى أرض جامعة كولومبيا، وأضافَ جرعة إضافية من الوقود إلى النيران المضطرمة بالفعل هناك. "يبدو أن شبابنا، وبأعداد مثيرة للقلق، يرفضون أشكال السلطة كلها، مهما كانت مصدرها، وقد لجؤوا إلى العدميّة العنيفة غير المكتملة، والتي ليس لها أي أهداف سوى التدمير. لا أعرف في تاريخنا زمناً وصلَت فيه الفجوة بين الأجيال إلى هذا الاتّساع أو الخطورة المُحتملة".

في الثاني والعشرين من شهر نيسان، اليوم نفسه الذي وُضِع فيه الطلاب السّتّة تحت المراقبة، نشرَت منظّمة *طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي* ملحقاً صحفياً من أربع صفحات بعنوان *عالياً ضدّ الحصار*! وذلك قبل الاجتماع الحاشد المقرّر في ظهيرة اليوم التالي، والذي كان من المفترض أن يُتوَّج بمظاهرة داخلية أخرى في مكتبة لو Low Library، حيثُ سيأتي العشرات أو المئات أو الآلاف لدعم الطلاب السّتّة، وذلك من خلال كسر القاعدة نفسها التي أوقَعت السّتّة في مشكلة. كتب رود إحدى المقالات، رسالة من ثمانمائة وخمسين كلمة موجّهة إلى غرايسون كيرك، ردّاً على تعليقات الأخير في جامعة فيرجينيا. أنهى رسالتهُ بالفقرات الثلاث التالية:

يا غاريسون، أشّك بأن ستفهم أيّاً من هذا، لأن أوهامَكَ حجبت تفكيرَكَ عن العالم الحقيقي. يقول نائب الرئيس ترومان بأن المجتمع سليم في الأصل؛ وأنتَ تقول بأن الحرب في فيتنام حادثة بنِيّة حسنة. نحن، الشباب، الذين تخشونَهم حقّاً، نقول بأن المجتمع مريض، وأنتَ ورأسماليّتكَ المرض.

أنتَ تدعو إلى النظام واحترام السلطة؛ نحنُ ندعو إلى العدالة، والحرّيّة، والاشتراكية.

لم يبقَ إلا أن أقول شيئاً واحداً. قد يبدو عدمياً بالنسبة إليكَ، لأنها الطلقة الأولى في حرب التحرير. سأستعيرُ كلمات لليروي جونز، وأنا على ثقة بأنه لا يعجبكَ كثيراً: "عالياً ضدّ الحصار، أيّها الأوغاد، واقفون".

شعر فيرغسون بالفزع. بعد الخطاب البليغ الذي ألقاه رود في حفل تأبين كينغ، لم يكن منطقياً أن يرتكب مثل هذا الخطأ الفادح. لا يعني هذا أن مضمون الرسالة يفتقر إلى التّميّز، لكنْ، كانت النبرة بغيضة، وفي حال كانت منظّمة طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي تسعى لزيادة دعمها بين الطلاب، فإن خطاباً كهذا لن يؤدّي إلا لابتعادهم عنها. كانت المقالة مثالاً على حديث المنظّمة إلى نفسها، بدلاً من التواصل مع الآخرين، وبالنسبة إلى فيرغسون الذي كان يريد فوز المنظّمة، على الرغم من بعض التّحفّظات بصدد ما يمكن، وما ليس ممكناً، فقد

وقف وراء المجموعة، وآمنَ بقضيتها، بيد أن القضية النبيلة تتطلّبُ سلوكاً نبيلاً من دُعاتها، شيئاً أفضل وأكثر انضباطاً من شتائم تافهة وضربات طائشة ورخيصة. كانوا أصدقاء منذ أن بدأت دراستهم الجامعية (زملاء من نيو جيرسي بخلفيات متطابقة تقريباً)، وكان مارك رود مثيراً للإعجاب حتّى الآن، ومذهلاً لدرجة أن فيرغسون لم يعد قادراً أبداً على التفكير بأنه يمكن لرود ارتكاب الأخطاء، والآن، بعد أن انزلق إلى عبارات مثل *عزيزي غرايسون* و*أعمال قذرة*، شعر فيرغسون بالخذلان، وبأنه محصور في موقف حرج بأن يقف ضدّ أولئك الذين كانوا ضدّاً، وكان هذا مكاناً وحيداً لشخصٍ كان مع أولئك الذين كانوا ضدّاً أيضاً.

من اللافت أن إيمي لم تخالفه الرأي. كانا لا يزالان في فترة التهدئة والسريرين، ولم يريا بعضهما كثيراً خلال الأيّام القليلة الماضية، لكنْ، عندما عادت إيمي إلى المنزل عقب اجتماع المنظّمة مساء اليوم الثاني والعشرين، كانت تشعر بالخذلان أيضاً، ليس بسبب المقالة فحسب، والتي أقرّت بأنها كانت *فظّة* و*طفولية* على حدّ سواء، لكنْ، بسبب أنه لم يَحضُر الاجتماع الأخير للسنة الدراسية في قاعة فايرويذر سوى أربعين أو خمسين شخصاً فقط، في حين أن معظم التّجمّعات، خلال الشهرين الفائتين، كانت تستقطب مئتي شخص أو يزيد، وكانت تخشى من أن المنظّمة تخسر قاعدتها على الأرض، وأنه قد ضاع كل شبر تقريباً من الأرض التي فازت بها، وأن الأمور تُنذر بكارثة في الغد، كما قالت، موقف ضعيف أخير سينتهي بالفشل، وبإغلاق المُنظمة في كولومبيا إلى الأبد.

كانت على خطأ.

ربيع سنة *1968* (3). لم يحدث من قبل في تاريخها قطّ. لم يحدث كثيراً من قبل مثلما يظنّ المرء. الدوّامة الآخذة بالاتّساع، والتي أصبح الجميع فجأة في داخلها. لم ينثنِ أحد بسبب تشنّجات المعدة، الغائط. قفز محموم، هيئة بجسد أسد ورأس إنسان، حشد. كيف ومَنْ، مَنْ وماذا، ويسأله الجميع على حين غرّة: لماذا الظلام والغموضِ في كلماتكَ وقوانينكَ كلها؟ لم يَقدر المركز، لم تَقدر الأشياء، لم يَقدر الحشد أبداً على فعل ما فعلَته، لكنْ، لم تكن الفوضى ما استشرى، بل كان العالم ما تهلهل، لبعض الوقت على الأقلّ، وهكذا، بدأ الاحتجاج الطلّابي الأضخم والأكثر ثباتاً في التاريخ الأميركي.

قرابة ألف في صباح ذلك اليوم. اجتمع ثلثا المعارضين حول ساحة السندايل ووسط الحرم الجامعي، ووقف الثلث الباقي على درجات مكتبة لو، بزعم حماية المبنى من أي اعتداء، لكنْ، للتحطيم والسحق أيضاً في حال وصلت الأمور إلى ذلك. سبق وأن نشروا التحذيرات، واستدعى

التهديدُ، بحدوث اشتباكات، مَفرزةً من الأساتذة الشباب في الجامعة من أجل التّدخّل، إذا ما لزم الأمر. البداية بالخطابات، واحد تلو آخر، الأشياء المعتادة، مجموعة *طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي*، بيد أن جماعة *الطلاب الأميركيون الأفارقة* كانت هناك أيضاً، في أوّل تجمّع سياسي متكامل في كولومبيا على الإطلاق، وعندما اعتلى سيسرو ويلسون ساحة الساندايل، كي يُخاطب الحشد، بدأ الرئيس المنتخب حديثاً لجماعة *الطلاب الأميركيون الأفارقة* بالحديث عن هارلم والصالة الرياضية، لكنْ، بعد لحظات (وكان فيرغسون مصدوماً)، بدأ يهاجم الطلاب البيض. "إذا أردتُم أن تعرفوا عمّن يتحدّثون"، قال، ويقصد العنصريين، "فاذهبوا وانظروا إلى المرآة - لأنكم لا تعرفون شيئاً عن السود".

قاطعَتهُ إيمي التي كانت تقف في المقدّمة، وصاحت: "ما الذي يجعلكَ تعتقدُ بأنه ليس هناك بيض في صفّكَ؟ ما الذي يجعلكَ تعتقد بأننا لسنا جميعاً معاً في هذا الأمر؟ نحنُ إخوة وأخوات، يا صاح، وسنكون أقوى بكثير جدّاً، إذا ما وقفتُم معنا عندما نقف معكم".

بداية سيّئة. رُفعت القبّعات لإيمي وكلماتها، لكنها بداية مُهلهَلة، واستمرّ الارتباك لبعض الوقت. كانت مكتبة لو حصينة. الأبواب مقفلة، ولم يكن أحد على استعداد لكسرها أو بدء مشاجرة مع الحرّاس. وبالعودة إلى السندايل التي كانت مزيّنة بنقش كتابي باللاتينية (انتظِر الساعة، سوف تأتي)، لكنْ، هل أتت الساعة حقّاً، أم انهارَ اليوم الثالث والعشرون من نيسان، ولم يعدُ كونه أكثر من فرصة ضائعة أخرى؟ جولة ثانية من الخطابات، بيد أن الأشياء كلها اصطدمت بالسندايل، وتبخّرت عزيمة الجمهور. مع ذلك، وفي اللحظة التي بدا فيها أن التّجمّع الحاشد اقترب من نهايته، صاحَ أحدهم، إلى موقع الصالة الرياضية! ضربَت الكلماتُ بقوّة صفعة على الوجه، وفجأة، صار هُناك ثلاثمائة طالب يركضون شرقاً عبر ممرّ الكلّيّة باتّجاه حديقة مورنينغسايد.

كانت إيمي قد استخفّت بحجم السخط، بوباء التعاسة الذي استشرى في صفوف الأغلبية في الجامعة ممّنْ لم يكونوا أعضاء في *طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي*، والذين بدا أن معظمهم على مشارف انهيار عصبي عندما أرعدَت الحرب التي لا يمكن فوزها، وواصلَت جموع *النوبودادي* في البيت الأبيض ومكتبة لو الحديث بكلمات مظلمة، وإصدار قوانين غامضة، وبينما كان فيرغسون يركض مع الحشد نحو الحديقة، أدركَ أن الطلاب كانوا ممسوسين، أن مَزيج الغضب والسعادة ذاته الذي شَهِده من قبلُ في شوارع نيوآرك في الصيف الفائت قد سيطر على أرواحهم، وطالما أنه ليس هناك رصاص، فلن يستطيع أحد السيطرة على حشد كهذا. كان ثمّة رجال شرطة في الحديقة، لكنْ، ليس ما يكفي لمنع مجموعة من الطلاب من تحطيم أربعين قدماً

من حاجز الأسلاك الشائكة الذي أحاط بموقع البناء، في الوقت الذي اشتبك فيه طلاب آخرون مع الحرّاس المعزولين، وكان هناك ديفيد زيمر، كما لاحظ فيرغسون، وكان هناك صديق زيمر، ماركو فوغ، كان زيمر الدمث، وفوغ الأكثر دماثة، من ضمن المجموعة التي هاجمَت الحاجز، ولبرهة، حسدَهم فيرغسون، متمنّياً الانضمام إليهم، وفِعْل ما يفعلونه، ثمّ زال الشعور، وبقي في مكانه.

مَعركةٌ تقريباً، لكنْ، ليس تماماً. مناوشات، غليان، جولات تدافُع، شرطة ضدّ طلاب، طلاب ضدّ شرطة، طلاب يقفزون فوق الشرطة، طلاب يركلون الشرطة، ويدفعونهم إلى الأرض، اعتُقِل طالب من كولومبيا في خضمّ ذلك (أبيض، من خارج منظّمة *طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي*)، واتُّهِم بالاعتداء الجنائي، والإيذاء الإجرامي، ومقاومة الاعتقال، وعندما بدأ المزيد من الشرطة بالتوافد إلى الحديقة بهراواتهم الغليظة، ترك الطلاب الموقع، وعادوا أدراجهم إلى الحرم الجامعي. في هذه الأثناء، كان الحشد الآخر من الطلاب - أولئك الذين ظلّوا في مكانهم - في طريقهم نحو الحديقة. التقت المجموعتان، المتقدّمة والمنسحبة، في وسط مورنينغسايد درايف، وعندما أخبر المنسحبون المتقدّمين بأن مهمّتهم في الحديقة قد انتهت، عادَت المجموعتان إلى الجامعة، وتجمّعتا من جديد في السنذايل. عند تلك المرحلة، كان هناك قرابة خمسمائة منهم، ولم يكن أحد يعرف ماذا سيحدث بعد ذلك. قبل ساعة ونصف، كانتِ هُناك خطّة، لكن الأحداث تفوّقت عليها، وأيّاً كان ما سيحدث لاحقاً، فلا بدّ أن يكون مُرتجلاً. وبحسب ما يستطيع فيرغسون قوله، كان هناك حقيقة واحدة واضحة فقط: مازال الجمهور مَمسوساً - ومستعدّاً لفعل أي شيء تقريباً.

بعد دقائق، كان معظمهم في الطريق إلى قاعة هاملتون، حيثُ اندلق المئات في ممرّ الطابق الأرضي، كتلة من الأجساد تنحشرُ في تلك المساحة الصغيرة، بينما اندفع المؤيّدون كي يُبعدوا السيل مع تدفّق المزيد من الأجساد، كان الجميع مشحونين ومرتبكين، مرتبكين جداً، لدرجة أن أوّل عمل من تمرّد الجامعة كان خطأً مضلّلاً وانهزامياً، حيثُ حبسوا عميد الطلاب غير المتخرّجين في مكتبه، واحتجزوه كرهينة (خطأ أُعيدَ تصحيحه بعد ظهر اليوم التالي، عندما أُطْلِق سراح هنري كولمان)، لكنْ، لا تزال لدى الطلاب المشارِكين في الاستيلاء على المبنى القدرة على تشكيل لجنة توجيه، تضمّ ثلاثة أعضاء من *طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي*، وثلاثة من جماعة *الطلاب الأميركيون الأفارقة*، واثنان من *مجلس مواطنة الجامعة*، ومُتعاطِف مُستَقل، ووضعوا قائمة بالمطالب التي تُحدِّد أهداف الاجتماع:

تعليق الإجراءات التأديبية الآن، والإنهاء الفوري للعقوبات المفروضة بالفعل على الطلاب السّتّة، ومنح عفو عامّ للطلاب المشارِكين في هذه المظاهرة.

إلغاء الحظر الذي فرضه الرئيس كيرك على المظاهرات داخل مباني الجامعة.

الإيقاف الفوري لبناء صالة كولومبيا الرياضية في حديقة مورنينغسايد.

تُحلّ الإجراءات التأديبية المُستقبلية كافّة التي تُتّخذ ضدّ طلاب الجامعة من خلال جلسة استماع مفتوحة أمام الطلاب وأعضاء هيئة التدريس، والتي تلتزم بمعايير ضمان الحقوق.

تنفصِل جامعة كولومبيا، في الواقع، وليس على الورق فقط، عن معهد أبحاث الدفاع؛ ويستقيلُ كلّ من الرئيس كيرك والنائب ويليام إيه. إم. من منصبيهما في مجلس أمناء معهد أبحاث الدفاع ومجلسه التنفيذي.

تستخدم جامعة كولومبيا مساعيها الحميدة في إلغاء التُّهم الموجّهة إلى المشآرتشين في المظاهرات في موقع بناء الصالة الرياضية في الحديقة.

بقيتْ أبواب المبنى مفتوحة. كان فترة الظهيرة من يوم دراسي عادي، وبحسبْ ما قاله رود لفيرغسون لاحقاً، فقد شعرَت منظّمة *طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي* بأنها لا تستطيع تحمُّل تنفير الطلاب غير المنتسبين، من خلال منعهم من الوصول إلى الفصول الدراسية التي كانت لا تزال مستمرّة في الطوابق العلوية. أرادوا أن يكسبوا أولئك الطلاب إلى جانبهم، ولن يكون من المنطقي فعل شيء من شأنه أن يقلب الأغلبية ضدّهم. لم يكن المبنى "مُتحلاً" في تلك المرحلة، وبعد ذلك، حدث اعتصام داخل المبنى، ومع مرور الوقت وانتشار الخبر بصدد ما كان يجري في قاعة هاملتون، بدأ عشرات الأشخاص الذين لم يكونوا على صلة بالجامعة بالمجيء؛ أعضاء من منظّمة طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي من جامعات أخرى، وأعضاء لجنة التنسيق الطلابية اللاعنفية ومؤتمر المساواة العِرْقية، وممثّلون عن العديد من منظّمات السلام الآن، ومع وصول أولئك الأشخاص لتقديم دعمهم، وصل الطعام والبطّانيّات وغيرها من اللوازم العملية للأشخاص الذين سيقضون الليلة في المبنى. كانت إيمي من بين أولئك الأشخاص، لكنْ، كان فيرغسون مشغولاً بتسجيل الملاحظات، ولم يتسنّ له الوقت للتّحدّث معها. بدلاً من ذلك، أرسل إليها قبلة في الهواء. ابتسمت ولوّحت له (واحدة من الابتسامات النادرة التي ابتسمَتها له خلال الأسابيع القليلة الفائتة)، ثمّ انطلق مُسرعاً نحو مكتب *السبيكتاتور* في قاعة فيريس بوث، كي يكتب مقالته.

في تلك الليلة، انهار التحالف الهشّ قصير الأجل ما بين *طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي* وجماعة *الطلاب الأميركيين الأفارقة*. أراد الطلاب السود سدّ الأبواب بمتاريس، ومنع الدخول إلى هاملتون حتّى تتحقّق المطالب السّتّة. كانوا جاهزين لاتّخاذ موقف، كما قالوا، ومع الحديث

الذي انتشرَ في القاعات بصدد أنه ثمّة تهريب أسلحة إلى داخل المبنى، فقد يكون المعنى الضمني للموقف الذي تحدّثوا عنه عنيفاً. عند هذه النقطة، كانت الساعة الخامسة فجراً، وأفضَت ساعات من النقاش إلى طريق مسدود، فلم يكن هناك حلّ لنزاع فتح الباب من إغلاقه، واقترحَت جماعة *الطلاب الأميركيين الأفارقة* بلطف على طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي مغادرة المبنى، واحتلال مبنى آخر. فهِم فيرغسون موقف الطلاب الأميركيين الأفارقة، لكنه، في الوقت نفسه، وجد أن الانقسام مُحزِن ومُضعِف للمعنويات، وفهِم السبب وراء شعور *طلاب من أجل* مجتمع *ديموقراطي* بأذى شديد نتيجة الانفصال. كان الأمر كما لو أن روندا وليامز تقول لا من جديد، وكما لو أن والدُه يقول تلك الأشياء البغيضة كلها بعد أعمال الشغب في نيوآرك. كان هذا ما وصل العالم إليه.

كانت المفارقة أنه لو لم تُطرَد منظّمة *طلاب من أجل* مجتمع *ديموقراطي* في ذلك الصباح، لما انتشرَ التّمرُّد في كولومبيا إلى ما بعد قاعة هاملتون، ولكانت قصّة الأسابيع السّتّة التالية مُختلفة، قصّة أقصر بكثير، ولما كان الشيء الكبير الذي حدث في النهاية كبيراً بما يكفي لأنْ ينتبه إليه أحد.

في الدقائق التي سبقَت الفجر في الرابع والعشرين من نيسان، اقتحمَ أعضاء المنظّمة المنفية مكتبة لُوْ، وتحصّنوا داخل الجناح المكتبي للرئيس كيرك. بعد مرور ستّ عشرة ساعة، سيطر مئة طالب من كلّيّة هندسة العمارة على قاعة أفيري. بعد ذلك بأربع ساعات، في الساعة الثانية من صباح اليوم الخامس والعشرين، حبسَ مئتا طالب متخرّج أنفسهم داخل قاعة فايرويذر. في الساعة الواحدة من صباح اليوم السادس والعشرين، سيطرَت مجموعة فائضة من مكتبة لو على قاعة الرياضيات، وفي غضون ساعات، سيطر مئتان من الطلاب وغير الطلاب من المُتعصّبين على مبنى خامس. وفي الليلة ذاتها، أعلنَت كولومبيا أنها بصدد الاستجابة لطلب العمدة ليندسي من أجل تعليق البناء في الصالة الرياضية.

أُغلقت الجامعة، ولم تعد هُناك نشاطات في الحرم الجامعي، عدا النشاط السياسي. ولم تعد مكتبة لو، وقاعة أفيري، وقاعة فايرويذر، وقاعة الرياضيات، مكتبةً وثلاث قاعات، بل صارت أربعة كومونات. وأُعيدَت تسمية قاعة هاملتون، لتصبحَ جامعة مالكوم إكس.

كان أطفالُ نوبودادي يقولون لا، ومازال الجميع لا يعرفون ما سيحدثُ بعد ذلك.

كان فيرغسون مُجهداً. صارَت الصحيفة تصدُر سبعة أيّام في الأسبوع بدلاً من خمسة، وكانت هناك مقالات ليكتبها، وأماكن ليذهب إليها، وأشخاص ليتحدّث معهم، واجتماعات ليحضرها، وهذا كله مع نوم قليل أو دون نوم، بالكاد ساعتان أو ثلاث كل ليلة، وهذا كله بلا طعام، وإنما

شطائر سلامي، وقهوة، قهوة وألف سيجارة، لكنْ، كان الإجهاد جيّداً بالنسبة إليه، كما أدرك، ولكونه مشغولاً جدّاً ومُنهكاً جدّاً أثر مضاعف في إبقائه مُستيقظاً وخدِراً في الوقت نفسه، وكان بحاجة للاستيقاظ، كي يرى الأشياء التي كانت تحدّث حوله والكتابة عن تلك الأحداث بالسرعة والدّقّة اللازمة، وكانت بحاجة للخدر، كي لا يفكّر بإيمي التي كان قد خسرها الآن، وعلى الرغم من أنه ما انفكّ يقول لنفسه بأنه سيقاتل حتّى يفوز بها مجدّداً، سيفعل كي شيء ليمنع ما لا يُمكن تصوّره من الحدوث، عرفَ أنّه أيّاً كان ما جمع بينهما في الماضي، فقد صار مختلفاً الآن.

كانت في مجموعة لو، مع المتشدّدين. وبعد ظهر اليوم السادس والعشرين، وبينما كان فيرغسون يركض مسرعاً عبر الحرم الجامعي، في طريقه إلى قاعة الرياضيات، لمحَها واقفة في زاوية الطابق الثاني، تماماً خارج نافذة مكتب كيرك. كانت تقفُ وإلى يمينها لِس غوتسمان، والذي لم يعد في الكلّيّة، بل طالباً في قسم اللغة الإنكليزية للدراسات العليا، وإلى يسارها هيلتون أوبنزينغر؛ وهو صديق مقرّب لـ لِس، وكان صديقاً أيضاً لفيرغسون، وواحداً من الأشاوس في *كولومبيا ريفيو*، وكانت إيمي هناك، تقفُ بين لِس وهيلتون، وتسطعُ الشمس على وجهها، شمس في غاية الإشراق، لدرجة أن بدا شَعْرها غير الممشّط متّقداً في ضوء ما بعد الظهر، وبدَت سعيدة، كما اعتقد فيرغسون، سعيدة جدّاً، لدرجة أن أراد أن يبكي.

ربيع سنة *1968* (4). كان يَنظرُ إلى ما كانت ثورة مُصغّرة، كما قرّر فيرغسون، ثورة في بيت دُمى. كان غرضُ *طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي* فرض مواجهة حاسمة مع كولومبيا، وبالتالي أن تكشف أن الإدارة مُطابقة تماماً لما تزعمه المنظّمة (عنيدة، غير متّصلة بالواقع، جزء صغير من المشهد الأميركي الكبير عن العنصرية والإمبريالية)، وبمجرّد إثبات المنظّمة ذلك أمام بقية الطلاب في الجامعة، سينضمّ أولئك الذين يقفون في المنتصف إلى صفّها. كان هذا هو الهدف: القضاء على الوسط، وخَلْق حالة من شأنها حشر الجميع في معسكر أو آخر، المؤيّدون والمعارضون، مع عدم وجود مساحة في المنتصف للهذر أو الاعتدال. كان *التّطرُّف* المصطلحَ الذي استخدمَتْهُ المنظّمة، ومن أجل تحقيق ذلك الهدف، كان عليهم أن يتصرّفوا بالعناد نفسه الذي تنتهجه الإدارة، وألا يتخلّوا عن شبر واحد. كان هناك تعنّت من قِبَل الطرفين، لكنْ، لأن الطلاب كانوا ضعفاء في كولومبيا، فقد أعطى تعنّت المنظّمة انطباعاً بالقوّة، بينما أعطى تعنّت الإدارة، التي تمسكُ بالقوّة كلها، انطباعاً بالضعف. كانت المنظّمة تحثّ كيرك على استخدام القوّة لإخلاء المباني، الشيء الوحيد الذي أراد كل شخص آخر أن يتجنّبه، بيد أن مشهد اقتحام مئات رجال الشرطة للحرم الجامعي كان أيضاً الشيء الوحيد الذي من شأنه أن يثير الرعب والاشمئزاز لدى

أولئك الذين كانوا لا يزالون في الوسط، ويوجِّهَهم إلى قضية الطلاب، وسقطَت الإدارة المغفّلة (التي اتّضح فيها بعد أنها أكثر غباوة ممّا كان يظنّه فيرغسون) مباشرة في ذلك الفخّ.

تَمَسّكَت الإدارة بتعصُّبها، لأن كيرك عَدّ كولومبيا نموذجاً للجامعات الأخرى كلها في البلاد، وفي حال استجاب للمطالب غير المنطقية للطلاب، فماذا سيحدث في مكان آخر؟ كانت نظرية الدومينو وثيقة رسمية صغيرة، النظرية نفسها التي زجّت بنصف مليون جندي أميركي في فييتنام، لكنْ، بحسب ما اكتشفه فيرغسون خلال أيّامه الأولى في نيويورك، كانت الدومينو لعبةً يُمارسها البورتوريكيون فوق صناديق الحليب والطاولات القابلة للطّي، على أرصفة الحيّ الإسباني في هارلم، ولا علاقة لها بالسياسة أو بإدارة الجامعات.

من جهة أخرى، فيما يتعلّق بمنظّمة طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي، فقد كانت تواكب الأمر على نحوٍ متواصل. كانت الأيّام كلها مليئة بتطوّرات غير متوقّعة، وكل ساعة أطول من يوم بأكمله، ويتطلّبُ فعلُ ما ينبغي فعله تركيزاً مطلقاً، بالإضافة إلى انفتاح في الروح لا يوجد إلا لدى أفضل موسيقيي الجاز. وكرئيسٍ للمنظّمة، أصبح مارك رود موسيقي الجاز، وكلّما طالت فترة احتلال المباني، ازداد فيرغسون اندهاشاً بمدى ليونة رود في التأقلم مع كل ظرف جديد، بمدى سرعته في التفكير، بمدى رغبته في الحديث عن أساليب بديلة لكل أزمة حين ظهورها. كان كيرك جامداً، لكنْ، كان رود ليّناً ومرحاً في أغلب الأوقات، كان كيرك قائد فرقة عسكرية، يديرُ أعداد جون فيليب سوسا، لكنْ، كان رود على خشبة المسرح يعزف البيبوب مع تشارلي باركر، وشكّ فيرغسون في أنه يمكن لأي شخص آخر من المنظّمة تقديم أداء أفضل كمتحدّث باسم المجموعة. في مساء اليوم الثالث والعشرين من نيسان، كان فيرغسون قد سامح مارك على إخفاقه في *عزيزي غرايسون - اللعين*، والذي، بالمناسبة، لم يثر حفيظة الناس على النحو الذي كان يتوقّعه - الناس الطلاب، أي، مؤيّدو المنظّمة والطلاب المناهضون للإدارة - ممّا دفع فيرغسون ليسأل نفسه عن مدى معرفته بمثل هذه الأشياء على أي حال، لأن الكلمات لم تُزعِج الناس، وإنما صارت من ضمن الشعارات السياسية للحراك. وليس الأمر أن فيرغسون لم يشعر بالسعادة عندما سمع جموع الطلاب تهتف بعبارة *الظهر إلى الحائط، أيّها الوغد!*، لكنْ، كان واضحاً بالنسبة إليه أن لدى مارك إحساساً أفضل منه بما كان يحدث، وهذا يُفسِّر السبب في أن رود يقود ثورة، في حين أن فيرغسون يراقبها ويكتب عنها.

أسراب من الناس في الحرم الجامعي في الأوقات جميعها، حتّى في منتصف الليل، أسراب على مدار الساعة لمدّة أسبوع كامل، ثمّ أسراب متناوبة خلال الشهر التالي، وكلّما فكّر فيرغسون بتلك الفترة لاحقاً، بالفوضى التي بدأت في الثالث والعشرين من نيسان، واستمرّت حتّى يوم

حفلة التّخرّج في الرابع من حزيران، كانت الأسراب أوّل ما يخطر في باله دائماً. أسراب من الطلاب والأساتذة، يرتدون أشرطة أذرع مختلفة الألوان: بيضاء لهيئة التدريس (الذين كانوا يحاولون الحفاظ على السلام)، وحمراء للمحافظين، وخضراء لمؤيّدي المحافظين والمطالب السّتّة، وزرقاء لليمينيين ومؤيّدي الإدارة، والذين أطلقوا على أنفسهم اسم *ائتلاف الأغلبية*، وخرجوا بمظاهرات غضب صاخبة استنكاراً للمظاهرات الأخرى، وشنّوا هجوماً على قاعة فايرويذر ذات ليلة لطرد المحتلّين (أُبعِدوا عقبَ الكثير من الدفع والتدافع)، وطبّقوا حصاراً ناجحاً حول مكتبة لو في اليوم الأخير من الاعتصامات، وذلك لمنع دخول الطعام إلى المبنى، ممّا أدّى إلى المزيد من التدافع واللكم وبعض النزيف في فروات الرؤوس. ومثلما كان متوقّعاً من جامعة بحجم جامعة كولومبيا (بعدد طلاب يصل إلى 17،500 طالباً، موزّعين على أقسام الدراسة الجامعية والدراسات العليا كافّة)، انقسمَت الهيئة التدريسية إلى فصائل متعدّدة، تتراوح ما بينْ الدعم الكامل للإدارة إلى الدعم الكامل للطلاب. قُدِّمَت اقتراحات مختلفة، وشُكِّلت لجان متنوّعة، ونهج جديد للإجراءات التأديبية، على سبيل المثال، اللجنة الثلاثية التي دعمَت تحكيماً مشتركاً يضمّ أعضاء متساوين من الإدارة وهيئة التدريس والطلاب، واللجة الثنائية التي دعمت هيئة تضمّ أعضاء من الهيئة التدريسية والطلاب فقط، مع عدم وجود أي عضو من الإدارة، بيد أن اللجنة الأكثر نشاطاً كانت تلك التي أطلقت على نفسها اسم مجموعة *هيئة تدريس المؤقّتة*، والتي كانت مؤلّفة في معظمها من أساتذة أصغر سنّاً، وعقدَت اجتماعات طويلة ومحمومة خلال الأيّام التالية، بحثاً عن حلّ سِلْميّ يحقّق للطلاب معظم ما كانوا يريدونه، ويُخرجهم من المبنى دون الحاجة إلى الاتّصال بالشرطة. لكنْ، فشلت جهود الجميع. لم يحدث ذلك لأنهم لم يأتوا ببعض الأفكار الجيّدة، لكنْ، لأن الإدارة سدّت الطريق أمام أي فكرة منها، حيثُ رفضَت التفاوض أو التراجع عن أي من المطالب التأديبية، وهكذا، عرف أعضاء هيئة التدريس أنهم عاجزون بقدر عجز الطلاب، أن كولومبيا كانت ديكتاتورية، تهدفُ للخير حتّى الآن، لكنها تنحرف دون توقّف باتّجاه الشمولية المطلقة، ودون أدنى اهتمام بإصلاح نفسها نحو أي شيء يشبه الديموقراطية. في النهاية، يأتي طلاب ويذهبون، وتأتي هيئة تدريس وتذهب، لكنْ، تبقى الإدارة ومجلس الأمناء أبد الدهر.

لن تتردّد كولومبيا في استدعاء رجال الشرطة لسحب الطلاب البيض خارج المباني، إذا لزم الأمر، لكنْ، كان الطلاب السود في قاعة هاملتون يشكّلون أزمة أكثر حساسية، وربمّا أكثر خطورة. في حال هاجمهم رجال الشرطة أو تعاملوا معهم بعنف في أثناء اعتقالهم، فإنه بمقدور مشهد وحشية البيض ضدّ السود أن يُشعل الناس في هارلم، ويدفعهم سريعاً نحو الجامعة

من أجل الثأر، ثمّ ستجد كولومبيا نفسها في حرب ضدّ حشود السود التوّاقة للانتقام، والعازمة على تدمير الجامعة وحرق مكتبة لو عن بكرة أبيها. وبالنظر إلى الغضب الذي ساد هارلم عقب مقتل مارتن لوثر كينغ، فلم يكن العنف والتدمير على نطاق هائل مجرّد خوف غير عقلاني، بل احتمالاً جلياً. وُضِعت خطّة لتحرُّك الشرطة من أجل طرد المعتدين من المباني الخمسة في ليلة اليوم الخامس والعشرين/ السادس والعشرين (الليلة نفسها التي تمّت فيها السيطرة على قاعة الرياضيات)، لكنْ، عندما بدأ رجال الشرطة المتخفّين في ثياب مدنية بالضرب بهراواتهم على رؤوس الأساتذة ذوي الأربطة البيضاء، المتجمّعين أمام مكتبة لو لحماية المتظاهرين في الداخل، تراجعت كولومبيا، وألغت العملية. إذا كان هذا ما ستفعله قوّة التّدخّل التكتيكية ضدّ البيض، فما الذي لم يكونوا على استعداد لفعله ضدّ السود؟ كانت الإدارة بحاجة إلى المزيد من الوقت للتفاوض مع قادة الطلاب الأميركيين الأفارقة في هاملتون، لربّما يتسنّى لمبعوثيها من هيئة التدريس التّوصّل إلى سلام مستقلّ، من شأنه أن يحمي الجامعة من غزو هارلم.

أمّا بالنسبة إلى الطلاب البيض، فقد كان الشعور العامّ في مكتب *السبيكتاتور* أن منظّمة طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي قد انتصرَت بالفعل في القضيتين الرئيستين، واللتين انطلقت الاحتجاجات من أجلهما، إذ صار من المؤكّد الآن أن الجامعة ستفصل نفسها عن معهد أبحاث الدفاع، وأن الصالة الرياضية لن ترى النور أبداً. في تلك المرحلة، كان بوسع الطلاب في المباني المحتلّة أن يخرجوا دون أذى، ويعلنوا انتصارهم، بيد أن المطالب الأربعة الأخرى لا تزال على الطاولة، ورفضت المنظّمة أن تتزحزح قبل الوفاء بها جميعاً. كان البندُ الأكثر إثارة للجدل هو الذي يخصّ العفو (*أنه يجب منح عفو عامّ للطلاب المشآرتشين في المظاهرة*)، واتّضح أنه يُشكِّل مشكلة مُحيّرة بالنسبة إلى معظم الطلاب في الحرم الجامعي، وحتّى لأعضاء فريق *السبيكتاتور* الذين كانوا جميعاً مُتعاطفين مع المحتلّين في المباني، لأن الجامعة، كما ادّعت المنظّمة، سلطة غير شرعية، ولا تملك الحقّ في معاقبتهم، فكيف يمكن أن يتوقّعوا من السلطة غير الشرعية نفسها تبرئة المتظاهرين؟ مثلما صاغ مولهاوس ذلك لفيرغسون، في فترة ما بعد الظهر، بلهجة رعاة بقر مُصطنعة، إنها مشكلة صغيرة لعينة حقّاً، أليس كذلك، يا آرش؟ حكّ فيرغسون رأسه ردّاً، وابتسم. أنتَ محقّ تماماً، قال، وما لم أكن مخطئاً، فهذا بالضبط ما يريدونه. منطقهم سخيف، لكنْ، من خلال التّمسّك بنقطة يعرفون أنهم لا يستطيعون الفوز فيها، فإنهم يُجبِرون الإدارة على فعل ما لا تريد.

ماذا تقصد بذلك؟ سأل مولهاوس.

أن تستدعي الشرطة.

يستحيل أن تكون جاداً. لا يمكن لأحد أن يكون بهذه الأنانية.

ليسَت أنانية، يا غريغ. إنها استراتيجية.

سواء أصاب فيرغسون أم كان خطأ، استُدعيَت الشرطة أخيراً في نهاية اليوم السابع من الاحتلال، وفي الساعة الثانية والنصف من صباح اليوم الثلاثين من شهر نيسان - ساعةٌ، كما أشار أحدهم، ينامُ فيها سكّان هارلم - بدأت المُباغتة. انتشرَ ألف جندي مُخوّذ الرأس، من شرطة مُكافحة الشغب في مدينة نيويورك، في أنحاء الحرم الجامعي، بينما وقف ألف مُتفرّج في البرد وكآبة الليلة الأشدّ غرابة ورعباً من الليالي السوداء، في حين تجمّع آخرون، وصوّتوا وصرخوا بعبارة *لا للعنف!* في وجه الشرطة الذين هتفت لهم فِرَق الأربطة الزرقاء، وحاولت فِرَق الأربطة البيضاء والخضراء منع قوّة التّدخّل التكتيكية من دخول المباني، وكان أوّل ما لاحظه فيرغسون العداء الموجود بين الشرطة والطلاب، سخط مُتبادل لا علاقة له بخصومات البيض والسود التي كان الجميع يخشاها، بل بكراهية طبقية بيضاء - بيضاء، الطلاب ذوو الامتيازات والشرطة في أسفل القاع، والذين كانوا ينظرون إلى فتيان كولومبيا وفتياتها بِعَدِّهم أغنياء، ومُدللين، وأشقياء هبّيين مُعادين لأميركا، وأن الأساتذة الذين يدعمونهم ليسوا أفضل منهم، وإنما كانوا مثقّفين متطرّفين مُتشدّقين يُناهضون الحرب، ويساريين، يبثّون السموم زنخة الرائحة في عقول الصغار، لذا، حرصوا في البداية على إخلاء هاملتون وإخراج السود بسلاسة قدر المستطاع، ولأنه لم تكن هناك مقاومة من الطلاب المتغطرسين مُحكَمي التنظيم في جامعة مالكوم إكس، والذين صوّتوا بعدم المقاومة، والسماح للشرطة بمرافقتهم بهدوء عبر الأنفاق تحت المبنى إلى سيّارات الشرطة المركونة في الخارج، فلم يتلقَّ أي منهم لكمة واحدة، ولم تهوِ أي هراوة غليظة على جماجمهم، واستطاعت كولومبيا، دون بذل أي جهد، أن تهرب من غضب هارلم. بحلول ذلك الوقت، مُنِع الإمداد المائي عن المباني الأخرى، وواحدة تلو أخرى، شرعت قوّة التّدخّل التكتيكية وعملاؤها السّرّيّون في الملابس المدنية بإخلاء قاعات أفيري، وفايرويذر، والرياضيات، حيثُ كان الطلاب المحتلّون يُعزّزون في عجالة الحواجز التي كانوا قد نصبوها وراء الأبواب، لكنْ، كان لكل مبنى كتيبته الخاصّة من الفِرَق البيضاء والخضراء أمامه، وكانوا هم مَنْ تلقّوا أسوأ الضربات، أولئك الذين تعرّضوا للضرب بالهراوات واللكم والركل عندما عبر رجال الشرطة من خلالهم بالعتلات، كي يكسروا الأقفال، ثمّ يجمعوا صفوفهم ويهاجموا الحواجز ويعتقوا الطلاب في الداخل. كلا، ليست نيوآرك، هكذا ظلّ فيرغسون يقول لنفسه بينما شاهد رجال الشرطة ينفّذون خطّتهم، لم تُطلق أي رصاصة، وبالتالي، لن يُقتَل أحد، لكنْ، لمجرّد أن الحدث ليس بسوء ما جرى في نيوآرك، فلا يعني ذلك أنه لم يكن بشعاً، فكان هُناك ألكسندر بلات، العميد

المساعد في الكلّيّة، يتلقّى لكمات في صدره من قِبَل شرطي، وكان هناك الفيلسوف سيدني مورغنبيسر، بحذائه الرياضي الأبيض وقميصه الصوفي الكاشف ونُكاته الوجودية المُنشّطة، يُضرب على رأسه بهراوة في أثناء حراسته المدخل الخلفي لقاعة فايرويذر، وكان هناك مراسل شابّ من *نيويورك تايمز*، روبرت ماك جي. توماس جونيور، يُظهِر بطاقته الصحفية في أثناء صعوده أدراج قاعة أفيري، ثمّ يتلقّى أمراً بمغادرة المبنى، قبل أن يضربَه شرطي على رأسه بزوج من الأصفاد كبرجمية نحاسية، ثمّ يُدفَع على الدرج، ويُضرَب بعشرات الهراوات في أثناء تشقلبه إلى الأسفل، وكان هناك ستيف شابيرو، وهو مُصوّر من مجلّة لايف، والذي لكمَهُ شرطي في عينه بينما حطّم آخر كاميرته، وكان هناك طبيب من متطوّعي فريق الإسعافات الأوّليّة، يرتدي مريول الأطبّاء الأبيض، والذي رُمي على الأرض، ورُكِل وجُرّ إلى عربة شرطة، وكان هناك عشرات الطلاب والطالبات الذين هوجِموا من قِبَل رجال الشرطة المتخفّين في ثياب مدنية، الذين كانوا يختبئون بين الشجيرات، ويضربون رؤوسهم بالهراوات والعصي وأعقاب المسدّسات، عشرات الطلاب المترنّحين الذين تنزف الدماء من فروات رؤوسهم وجباههم وحواجبهم، وبعد ذلك، بعد أن أُخرِج المتظاهرون جميعاً، وطُرِدوا من المباني، شرعَت كتيبة من جنود قوّة التّدخّل التكتيكية بالتّحرّك جيئة وذهاباً بصورة منتظمة عبر ساوث فيلد لإخلاء الحرم الجامعي من المئات الذين مازالوا موجودين، حيث اقتحمت حشود الطلاب العزّل، وضربتهم حتّى سقطوا على الأرض، وكان هناك خيّالة الشرطة في برودواي، والذين انطلقوا بأقصى سرعتهم وراء أولئك المحظوظين الذين نجوا من ضربات الهراوات في هجوم الحرم الجامعي، وكان هناك فيرغسون، يحاول أن يؤدّي عمله كمراسل لجريدته الطلابية المتواضعة، قبل أن يَضربَه على مؤخّرة رأسه بهراوة شرطي مُتخفّ، يبدو مثل طالب، الرأس نفسه الذي خيطَ في أحد عشر موضعاً قبل أربع سنوات ونصف، وعندما سقط فيرغسون على الأرض من أثر الضربة، داسَ شخص آخر على يده اليسرى بكعب جزمة أو حذاء، اليد نفسها التي خسرَت من قبل إبهامها وثُلثي سبّابتها، وعندما رُفِعت تلك القدم من فوق يده، شعر بأنها مكسورة، واتّضح لاحقاً أنها ليست كذلك، لكنْ، يا لشدّة ألمها! ويا لسُرعة تورّمها! ويا لشدّة احتقاره للشرطة منذ تلك اللحظة فصاعداً!

اعتُقِل سبعمائة وعشرون شخصاً. أُبلِغ عن قرابة مئة وخمسين إصابة، فضلاً عن أعداد لا تُحصى من الإصابات التي لم يُبلّغ عنها، ومن بينها الضربات العنيفة التي تلقّاها فيرغسون في رأسه ويده.

لم تكن هُناك كلمات في افتتاحية *السبيكتاتور* لذلك اليوم - فقط الترويسة الرئيسة، متبوعة بعمودين فارغين مُحدّدين باللون الأسود.

ربيع سنة *1968* (5). في يوم السبت، الرابع من شهر أيّار، جلس فيرغسون وإيمي أخيراً، وتحدّثا. كان فيرغسون مَنْ أصرّ على ذلك، وأوضح لها أنه لا يريدُ للمحادثة أن تدور حول جروحه أو اعتقال إيمي مع زملائها المحتلّين في لو، ولا أن يتناقشا بشأن الإضراب العام ضدّ كولومبيا، والذي أُعلِن عنه في مساء اليوم الثلاثين من نيسان من قِبَل ائتلاف من الفِرَق الحمراء والخضراء والمعتدلين (نجحت استراتيجية منظّمة *طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي*)، ولا أن يفكّر للحظة واحدة بالأشياء الكبيرة التي بدأت بالحدوث في معشوقتهما باريس، كلا، قال، لليلة واحدة، سينسيان شأن السياسة، ويتحدّثان عن نفسيهما، ووافقَت إيمي على مضض، برغم أنها لم تكن في حينها قادرة على التفكير إلا بالحراك، ما أسمَتهُ *نشوة النضال*، *والنهضة المشحونة* التي غيّرتها بعد ستّة أيّام من المعيشة الجماعية في لو.

من أجل تجنّب جولة صراخ محتملة في الشّقّة، اقترح فيرغسون الذهاب إلى مكان محايد، مكان عامّ، حيثُ يمكن لتواجد الغرباء أن يمنعهما من فقدان السيطرة على نفسيهما، ولأنهما لم يذهبا منذ أكثر من شهرين إلى غرين تري، قرّرا العودة إلى مطعم يَم سيتي، لتناول ما افترضَ فيرغسون أنها ستكون آخر وجبة لهما معاً لبقية حياتهما. وكم كان السّيّد والسّيّد مولنار سعيدين برؤية الثنائي المفضّل لديهما يدخلان من باب المطعم، وكم كانا مضيافين عندما طلب فيرغسون طاولة في الزاوية البعيدة في الغرفة الخلفية، الغرفة الأصغر والمرتفعة قليلاً، والتي تضمّ عدداً أقلّ من الطاولات، وكم كانا لطيفين عندما قدّما زجاجة مجّانية من نبيذ بوردو مع العشاء، وكم شعر فيرغسون بالتعاسة عندما جلس مع إيمي لتناول عشائهما الأخير في الأوقات كلها، ولاحظَ كم كان مناسباً تماماً أن تجلس إيمي دون تفكير على الكرسي وظهرها إلى الحائط، ممّا يعني أنها قادرة على النظر خارجاً ورؤية الأشخاص الموجودين في المطعم، بينما يجلس فيرغسون دون تفكير على الكرسي وظهره إلى أولئك الآخرين، ممّا يعني أنه لا يستطيع رؤية أحد سوى إيمي، إيمي والحائط ورائها، لأنهما كانا على هذا النحو، قال في نفسه، لطالما كانا كذلك على مدى السنوات الأربع والأشهر الثمانية الماضية؛ تنظرُ إيمي إلى الآخرين، وينظرُ إلى إيمي وحسب.

أمضيا ساعة ونصف هناك، وربّما ساعة وثلاثة أرباع الساعة، لم يكن متأكّداً أبداً من ذلك الوقت، وبينما تناولت إيمي، شديدة الجوع كالعادة، طعامها، بلقيمات صغيرة، ودون متعة، وصبّ فيرغسون الكأس تلو الأخرى من النبيذ الأحمر، حيث أجهز على معظم الزجاجة الأولى بمفرده، ثمّ طلب أخرى، تحدّثا وصمتا، ثمّ تحدّثا وصمتا مرّة أخرى، ثمّ تحدّثا وتحدّثا وتحدّثا، ثمّ سرعان ما قيل لفيرغسون بأن العلاقة انتهت، وبأنهما يتجاوزان بعضهما، وبأنهما يتحرّكان في اتّجاهات مختلفة الآن، وبالتالي، يجب أن يتوقّفا عن العيش معاً، وكلا، قالت إيمي، لم يكن

خطأ أحد، ليس خطأ فيرغسون على الأقلّ، فيرغسون الذي أحبّها حبّاً جمّاً، منذ قبلتهما الأولى على مقعد في حديقة مونتكلير، كلا، كان الأمر ببساطة أنها لم تعد قادرة على تحمّل الحدود الخانقة للعلاقة الثنائية، ويجب أن تتحرّر، وتواصل السير وحدها، وأن تذهب إلى كاليفورنيا غير مثقلة أو مرتبطة بأي أحد أو أي شيء، وأن تتابع العمل في الحراك، صارت تلك حياتها، ولا مكان لفيرغسون فيها بعد الآن، وعلى آرتشي الرائع خاصّتها، صاحب الروح الكبيرة والقلب اللطيف، أن يتدبّر أمره من دونها، وأنها كانت آسفة، آسفة جدّاً، آسفة إلى أبعد الحدود، لكنْ، هكذا تجْري الأمور الآن، وليس هناك شيء، أي شيء في العالم كله، قادر على تغييرها.

بكَت إيمي في ذلك الوقت، وكان ثمّة خطّان من الدموع على وجهها، بينما كانت تصلّب ابن روز وستانلي فيرغسون بلطف، لكن فيرغسون نفسه، الذي كان لديه من أسباب البكاء أكثر بكثير ممّا لديها، كان مخموراً جدّاً أكثر من أن يبكي، ليس في حالة سُكْر، ولكنه مخمور ما يكفي لئلا يشعر بدافع لفتح سدّادات المياه المالحة، وكان هذا من حسن حظّه، كما شعر، لأنه لم يشأ أن يكون انطباعها الأخير عنه كرجل مُحطَّم، يذرف أحشاءه أمامها، ومن أجل ذلك الغرض، استجمع كل ذرّة من القوّة التي مازالت لديه، وقال:

آه، يا إيمي، يا حبيبتي، يا إيمي الرائعة بشَعْركِ غير الممشّط، وعينيكِ الساطعتين، يا معشوقتي لألف ليلة عارية فوق الحدود كلها، يا إيمي المشرقة بفمكِ وجسدكِ اللذين فعلا العجائب بفمي وجسدي على مرّ السنين، الفتاة الوحيدة التي نامت معي، الفتاة الوحيدة التي لطالما رغبتُ بالنوم معها، لن أشتاق فقط إلى جسدكِ في كل يوم لبقية حياتي، لكنني سأشتاق أيضاً، بصورة استثنائية، لتلك الأجزاء من جسدكِ التي تخصّني وحدي، تلك التي تخصّ عيني ويدي والتي لا تعرفينها أنتِ نفسكِ، أجزاؤكِ التي لم تُشاهديها قطّ، الأجزاء الخلفية التي ليست المرئية بالنسبة إليكِ، مثلما هي أجزائي بالنسبة إلي، وتماماً مثل الأجزاء الخلفية لكل شخص لديه جسد، بدءاً من مؤخّرتكِ، بالطبع، مؤخّرتكِ المتناسقة شهيّة الاستدارة، والوجهين الخلفيين لساقيكِ، بتلك النقاط البنّيّة الصغيرة التي عبدتُها زمناً طويلاً، والخيوط المنقوشة في جلدكِ خلف رُكبتيكِ تماماً، في المكان الذي تنحني فيه ساقاكِ، كم ذُهلتُ لجمال هذين الخطّين، ثمّ النصف المخفي من عنقكِ والنتوءات في عمودكِ الفقري عندما تنحنين، والتّقوّس الفاتن في آخر ظهركِ، والذي كان ملكاً لي وحدي فقط طوال هذه السنوات، ومعظم لوحي كتفيكِ، يا عزيزتي إيمي، البروز في لوحي كتفيكِ، والذي لطالما ذكّرني بأجنحة البجع، أو بالأجنحة التي تبرزُ من ظهر الفتاة على غلاف مشروب الصخرة البيضاء، والتي كانت أوّل فتاة أحبّها في حياتي.

أرجوكَ، يا آرتشي. قالت إيمي. توقّفْ، أرجوكَ.

لكنني لم أنتهِ.

كلا، يا آرتشي، من فضلكَ. لا أستطيع الاحتمال.

كان فيرغسون على وشك أن يتكلّم من جديد، لكنْ، قبل أن يتمكّن من وضع لسانه في المكان المناسب، نهضت إيمي من كرسيها، ومسحت دموعها بمنديل، وخرجت من المطعم.

أيّار وحزيران، 1968. في صباح اليوم التالي، وضّبتْ إيمي أغراضها، وتركتْها لدى والديها في غربيّ الشارع الخامس والسبعين، ثمّ أمضَت شهرها الأخير كطالبة في بارنارد على الأريكة، في غرفة المعيشة في شقّة باتسي دوغان، في جادّة كليرمونت.

كان فيرغسون الآن أكثر من مُرهَق، أكثر من خدر، كان قد عاد إلى غرفة المصعد المظلمة في أثناء الانقطاع الكهربائي الشامل لسنة 1965، والذي لم يعد من الممكن التمييز بينه وبين انقطاع الكهرباء بين 1947-1946، عندما كان ما يزال في رحم أمّه. كان في الحادية والعشرين من عمره، وإذا كان في نيّته أن تكون لديه أي حياة في المستقبل، فلا بدّ له أن يُولَد من جديد - وليداً صارخاً، يُسحبُ من العتمة، ليحصل على فرصة أخرى لإيجاد طريقه في بريق العالم ولمعانه.

في الثالث عشر من شهر أيّار، خرج مليون شخص في مظاهرة عبر شوارع باريس. كانت فرنسا كلها في حالة ثورة، وإلى أين بحقّ السماء اتّجه ديغول؟ كُتِب على إحدى اللافتات: كولومبيا - باريس.

في اليوم الحادي والعشرين، احتُلّت قاعة هاملتون مرّة أخرى، وألقيَ القبض على مئة وثمانية وثلاثين شخصاً. في تلك الليلة، كانت المعركة في حرم جامعة كولومبيا، بين الشرطة والطلاب، أكبر، وأكثر دموية، وحتّى أكثر وحشية من تلك الليلة الواحدة التي سقط فيها سبعمائة شخص.

بعد عدد اليوم الثاني والعشرين من أيّار، توقّفت *السبيكتاتور* عن الصدور حتّى العدد النهائي للفصل الدراسي في الثالث من حزيران. في ذلك اليوم نفسه، غادر فيرغسون نيويورك، ليقضي شهراً مع والديه في فلوريدا.

بينما كان في طريقه جنوباً، أُطلِق الرصاص على آندي وارهول، وكاد أن يُقتَل، على يد امرأة تُدعى فاليري سولاناس، والتي كانت قد كتبت بياناً بعنوان سكَم (مجتمع لتقطيع الرجال)، ومسرحية بعنوان *في مؤخّرتكَ*.

بعد يومين من الحادثة، أطلَق رجلٌ يُدعى سرحان سرحان الرصاصَ على روبرت كينيدي في لوس أنجلس، وقتله في سنّ الثانية والأربعين.

كان فيرغسون يسير على الشاطئ كل مساء ساعة الغسق، ويلعب التنس مع والده معظم الصباح، ويأكل السلمون المدخّن والبيض في وولفي على شرف جَدّته، وقضى الجزء الأكبر من وقته في الشّقّة المُكيَّفة بالعمل على ترجماته للقصائد الفرنسية. وفي اليوم السادس عشر من شهر حزيران، ودون أن يعرف مكان إيمي، وضع إحدى تلك القصائد في ظرف، وأرسلها إليها عن طريق والديها في نيويورك. لم يستطع أن يكتب إليها رسالة، ولن يكتب إليها رسالة، لكنْ، استطاعت القصيدة بطريقة أو بأخرى أن تقول معظم الأشياء التي لم يعد قادراً على قولها بنفسه لها.

الصهباءُ الجميلة
قصيدة لغيوم أبولينير

هُنا، أقف أمامكِ، رجلاً كامل الإحساس
أعرفُ الحياة والكثير عن الموت، بقدر ما يعرفه شخص حيّ
بعد أن تذوّق أحزان الحبّ وأفراحه
بعد أن عرف، أحياناً، كيف يفهمُ أفكاره
بعد أن تعلّم عدّة لغات
بعد أن قدّم نصيبه العادل من السفر
بعد أن رأى الحرب في المدفعية والمشاة
وجُرِحَ في ثقب الجمجمة تحت الكلوروفورم
وبعد أن خسر أعزّ أصدقائه في كابوس المعركة
أعرفُ بقدر ما يمكن لرجل واحد أن يعرفه عن القديم والجديد على حدّ سواء
ودون أن أُزعج نفسي بحرب اليوم
بيننا ولأجلنا، يا أصدقائي
أحكُمُ بهذا الخلاف الطويل ما بين التقليد والخيال
كنزاع بين النظام والمغامرة

أنتَ، يا مَنْ صُنع فمه على صورة فم الله

فم هو النظام نفسه

كُن لطيفاً عندما تُقارِننا

بأولئك الذين يجسّدون الكمال في النظام

نحنُ الذين نبحث عن مغامرة في أي مكان

لسنا أعداءك

نريدُ أن نعطيك ممالك شاسعة وغريبة

حيثُ يمكن لأي شخص أن يقطف أزهار الغموض

في تلك الأماكن، ثمّة للنيران ألوان جديدة لا مثيل لها

فوضى ألف وهم بصري

والتي لا بدّ أن تصير حقيقة

نريدُ أن نستكشف لطف البلاد الواسعة، حيثُ كل شيء صامت

وكذلك الوقت الذي يمكن مطاردته أو استعادته

أشفِقْ علينا، نحنُ الذين نقاتل دوماً عند حدود اللانهاية والمستقبل

أشفِقْ على أخطائنا، وأشفِقْ على خطايانا

الصيفُ بيننا الآن موسم العنف

وشبابي ميت مثل الربيع

يا شمسُ، هذا أوان إحراق العقل

وأنا في الانتظار

كي تَتبَعَ التكوين العذبَ والنبيل

ترحلُ دائماً، لذا وحدي أنا مَنْ يمكن أن يحبّها

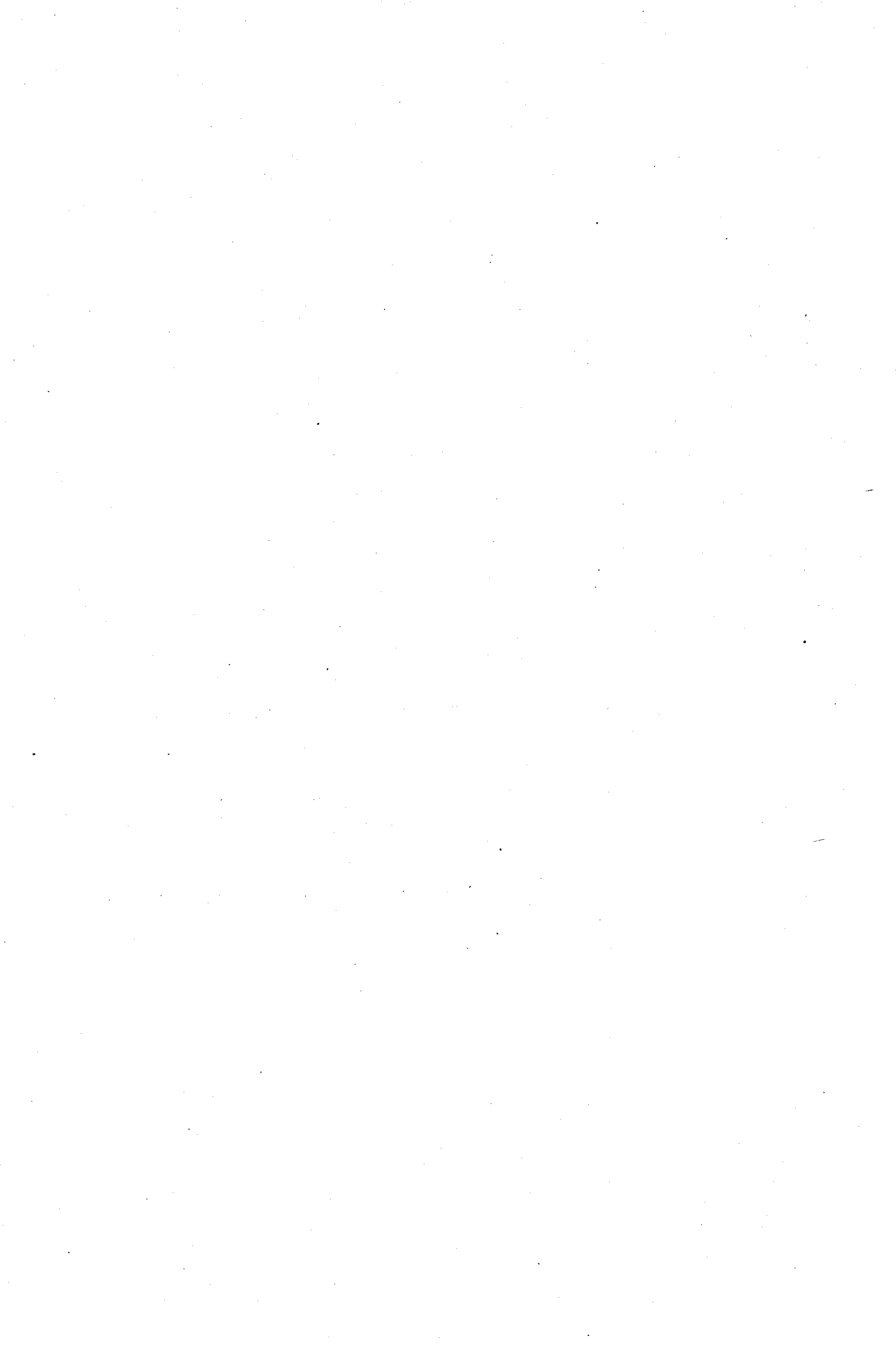
تأتي وتجذبني إليها، مثل برادة حديد ومغناطيس

لديها نظرة ساحرة
لصهباء جديرة بالعشق

يبدو شَعْرُها مصنوعاً من الذهب
ومضة جميلة من البرق تلمع دون توقّف
أو أن تلك النيران ترقص الفالز حولها
عندما تذبل ورود الشاي

لكنْ، اضحكي، اضحكي عليّ
رجال من العالم كله، وخاصّة الأشخاص من هُنا
لأنه ثمّة أشياء كثيرة جدّاً لا أجرؤ على إخباركِ بها
أشياء كثيرة جداً لم تسمحي لي بقولها
أشفقِي عليّ

(ترجمها آ. آي. فيرغسون).



6.2

6.3

بعد تسعة وثلاثين يوماً من رميه لأموال فيلمنغ من النافذة، كتب فيرغسون الصفحات الأخيرة من النسخة النهائية لكتابه. كان يحسبُ أنه سرعان ما سيشعر بأشياء جيّدة إزاء نفسه عند تلك اللحظة، لكنْ، بعد فورة وجيزة من الغبطة، عندما كان يلفّ الصفحات الخمس الأخيرة من الورق والكربون خارج الآلة الكاتبة، تلاشت تلك المشاعر سريعاً، وحتّى ما يُفترَض بأن يكون شعوراً طيّباً أبداً حيال إثباته لنفسه قدرته على كتابة كتاب، وأنه شخص أنهى ما بدأه، وليس واحداً من أولئك المُدّعين ضعيفي الإرادة الذين يحلمون أحلاماً كبيرة، لكنهم لا يتمكّنون من تحقيقها أبداً، جودة بشرية تتعلّق بما هو أبعد بكثير من مجرّد تأليف الكُتُب، لكنْ، بعد قرابة ساعة، لم يعد فيرغسون يشعر بشيء سوى بعض الحزن المُرهِق، وبحلول الوقت الذي نزل فيه إلى الطابق السفلي لاحتساء شراب ما قبل العشاء مع فيفيان وليزا، في الساعة السادسة والنصف، كانت دواخله قد تخدّرَت.

فراغ. هذه هي الكلمة المناسبة، قال لنفسه، وجلس على الأريكة، وأخذ رشفته الأولى من النبيذ، *المساحة الفارغة* نفسها التي تحدّثت عنها فيفيان عندما كانت تصف مشاعرها بعد أن فرغت من كتابها. ليس فراغاً بمعنى الوقوف وحيداً في غرفة خالية من الأثاث - لكنه فراغ بمعنى الشعور بالتّجوُّف. أجل، هكذا، تَجوُّف مثل تجويف المرأة بعد الولادة. لكن المولود ميت في هذه حالة، وليد لن يتغيّر أو يكبر أو يتعلّم المشي، لأن الكُتُب تعيشُ بداخلكَ طالما أنكَ تكتبها، ولكنْ، بمجرّد خروجها منكَ، تصبح مُستهلَكَة تماماً وميتة.

كم يستمرّ هذا الشعور؟ سألَ فيفيان، مُستفسراً عمّا إذا كانت مجرّد أزمة مؤقّتة، أم البداية لانغماس في ملنخوليا كاملة؟ لكنْ، قبل أن يتسنّى لفيفان أن تجيبه، تدخّلَت ليزا النشيطة وقالت، ليس كثيراً، يا آرتشي. قرابة مئة سنة فقط. صحيح، يا فيف؟

ثمّة حلّ سريع واحد، قالت فيفيان، مُبتسمةً لفكرة السنوات المئة تلك. ابدأ بتأليف كتاب آخر.

كتاب آخر؟ قال فيرغسون. أشعرُ بإرهاق شديد جدّاً الآن، ولستُ مُتأكّداً من أنني سأكون قادراً على قراءة كتاب آخر على الإطلاق.

ومع ذلك، شربَت فيفيان وليزا نخب فيرغسون على إنجابه لطفله، والذي ربّما ليس حيّاً بالنسبة إليه، قالتا، لكنه كان حيّاً جدّاً بالنسبة إليهما، لدرجة، أضافت ليزا (التي لم تقرأ بعدُ صفحة واحدة من الكتاب)، أنها على استعداد للتّخلّي عن عملها في مجال القانون في حال وعد فيرغسون بتوظيفها كمربّية أطفال. هكذا كان حسّ الدعابة لدى ليزا - حسّ دعابة أخرق - لكنه أميل إلى الظرافة، لأنها نفسها كانت ظريفة، وضحك فيرغسون. ثمّ تخيّل ليزا تتجوّلُ في باريس، وتجرُّ عربة لطفل ميت، وضحك مرّة أخرى.

في الصباح التالي، سار فيرغسون وفيفيان إلى مكتب البريد في بوليفار راسبيل، الفرع المحليّ لشركة بي. تي. تي. الحكومية (البريد والبرقيات والهواتف)، والمعرفة في بفرنسا باسم بيه – تيه – تيه -، الأحرف الثلاثية الأولى التي علقت على لسان فيرغسون برخامة، لدرجة أنه لم يتعب من تكرارها، وبمجرّد أن دخلا إلى ذلك الصرح العظيم لخدمات الاتّصالات التي تصل إلى كل مواطني الجمهورية الفرنسية، فضلاً عن الآخرين كلهم الذين يسافرون عبر فرنسا أو يعيشون فيها، أرسلا نسخة من مخطوط فيرغسون إلى لندن عبر البريد الجوّيّ. لم يكن المظروف موجّهاً إلى أوبري هول في دار إيو للنشر، بل إلى سيّدة امرأة نورما ستايلز، والتي كانت تعمل كمحرّرة رئيسة في دار النشر البريطانية التي تنشر لديها فيفيان (ثيمز أند هدسون)، وصادف أنها صديقة لزميلها الشّابّ جيوفري بورنهام، والذي صادف بدوره أنه صديق مقرّب لهول. هكذا كانت الطريقة التي اختارتها فيفيان لتسليم المخطوط - عبر تدخّل صديقتها التي أكّدت لها أنها ستتسلّم المخطوط في *الحال*، ثمّ تمرّره إلى بورنهام، والذي سيمرّره بعدها إلى هول. ألم يكن ذلك تعقيداً بلا داع؟ سأل فيرغسون فيفيان عندما اقترحت فكرتها عليه، ألن يكون من الأسرع والأبسط أن نرسل المخطوط إلى هول مباشرة فحسب؟

أسرع، أجل، قالت فيفيان، وأبسط، أيضاً، لكنْ، ستكون احتمالات قبوله أقرب إلى الصفر، لأنه عادة ما ينتهي المطاف *بالطلبات المُرسَلة دون إشعار مُسبّق* إلى كومة *النصوص المجهولة* - (كان المصطلحان الجديدان غير مألوفين بالنسبة إلى فيرغسون) - وغالباً ما تُرفَضُ دون قراءة مناسبة. كلا، يا آرتشي، الطريق الطويل هو الأفضل في هذه الحالة، هو الطريق الوحيد.

بعبارة أخرى، قال فيرغسون، لا بدّ أن يُعجَب شخصان بالكتاب قبل أن يصل إلى الشخص الوحيد الذي يؤخذ برأيه.

أخشى أنه كذلك. لحسن الحظّ، ليسا شخصين أحمقين. بمقدورنا الاعتماد عليهما. هول مكمن المعضلة. لكنْ، على الأقلّ هُناك فرصة بنسبة ثمانية وتسعين بالمئة بأنه سيقرأ المخطوط.

كانا هُناك في صباح اليوم العاشر من شهر آخر لسنة 1966، يقفان في طابور في فرع بيه. تيه. تيه في الدائرة السابعة في باريس، وعندما حان دورهما، تعجّب فيرغسون من مدى سرعة الرجل الضئيل وراء الشّبّاك وفعاليته عندما وزن الطرد على ميزانه المعدني الرمادي، ومدى حرصه عندما وضع رسوم البريد على المظروف البنّيّ الكبير، ثمّ تابع ضرب تلك المستطيلات الحمراء والخضراء بختمه المطّاطي، مُلغياً الوجوه المتعدّدة لماريان في غضون برهة من حياتها، وفجأة، بدأ فيرغسون بالتفكير بالمشهد الجامح في فيلم مونكي بزنس، عندما شرع هاربو بختم كل شيء يراه بجنون، حتّى الرؤوس الصلعاء لموظّفي الجمارك، وسرعان ما صار غارقاً بحبّ الأشياء الفرنسية كلها، حتّى أشدُّها غباوة، أكثرها سخفاً، وللمرّة الأولى خلال عدّة أسابيع، حدّثَ نفسه عن كونه من الجيّد أن يعيش في باريس، وأنه ثمّة أشياء جيّدة كثيرة بانتظاره، بدءاً من معرفة فيفيان، وكسبها كصديقة.

كانت كلفة طوابع البريد الجوّيّ باهظة الثمن، ما يزيد عن تسعين فرنكاً فرنسياً عند إضافة التأمين وإيصال إثبات التسليم المعتمد (ما يعادلُ عشرين دولاراً تقريباً، أو رُبع راتبه الأسبوعي)، لكنْ، عندما مدّت فيفيان يدها إلى محفظتها، لتُخرِج نقوداً، وتدفع للموظّف، أمسكَ فيرغسون بمعصمها، وطلب منها ألا تفعل.

ليس هذه المرّة، قال. طفلي الميت هناك، وأنا مَنْ سيدفع.

لكنْ، يا آرتشي، إنه مبلغ كبير جدّاً ...

سأدفع، يا فيف. في الـ بيه. تيه. تيه.، أنا مَنْ سيدفع.

حسناً، يا سيّد فيرغسون، كما تريد. لكنْ، بما أن كتابكَ على وشك السفر إلى لندن الآن، عدني أن تتوقّف عن التفكير به. إلى أن يكون هناك سبب يدعو للتفكير به مرّة أخرى، على الأقلّ. اتفقنا؟

سأبذل قصارى جهدي، لكنني لن أقدّم أي وعود.

***

بدأت المرحلة الثانية من حياته في باريس؛ ومع عدم وجود كتاب للعمل عليه، وعدم الحاجة إلى مواصلة حضور دروس اللغة في الأليانس فرانسيه، لم يعد فيرغسون مُلزَماً بالجدول الجامد لساعات النهار للأشهر الخمسة الماضية. وباستثناء دراسته مع فيفيان، كان حرّاً بأن يفعل ما يريد، ممّا يعني، في المقام الأوّل، أن لديه الوقت للذهاب إلى السينما في فترة ما بعد الظهر

من أيّام الأسبوع، وكتابة رسائل أطول وأكثر تواتراً إلى أهمّ الأشخاص في حياته (والدته وغيل، وإيمي وجينم)، والبحث عن ملعب داخلي أو خارجي، من أجل يلعب كرة السّلّة مرّة أخرى، والاستفسار عن طريقة جمع بعض الطلاب المُحتملين من أجل إعطاء دورس خصوصية باللغة الإنكليزية. لم يجد حلاً لمسألة كرة السّلّة حتّى أوائل شهر أيّار، ولم يتمكّن من إيجاد أي طالب، لكنه أرسل سيلاً ثابتاً من الرسائل، وشاهدَ عدداً مذهلاً من الأفلام، وبقدر ما كانت نيويورك مكاناً جيّداً لمشاهدة الأفلام، كانت باريس أفضل، وخلال الشهرين التاليين، أضاف مئة وثلاثين ورقة إلى مصنّف حفظ الأوراق، الكثير جداً من الصفحات الجديدة، لدرجة أنه صار لدى المصنّف الأصلي النيويوركي شقيق فرنسي.

كانت تلك الكتابة الوحيدة التي مارسها طوال الجزء الأوّل من الربيع - رسائل، ورسائل جوّيّة، وبطاقات بريدية إلى أميركا، وكومة مُتزايدة من المُلخّصات، بصفحة أو صفحتين، وملاحظات موجزة عن الأفلام. في أثناء عمله على المراجعات النهائية لكتابه، كان يفكّر أيضاً بالمقالات والنصوص التي سيكتبها بعد ذلك، لكنه أدرك الآن أن تلك الأفكار كانت مُدعّمة بالأدرينالين الذي دفعه لإنهاء الكتاب، وبمجرّد انتهاء الكتاب، ذهب الأدرينالين، وتعطّلَ دماغه. كان بحاجة إلى وقفة قصيرة قبل الانطلاق مجدّداً، وبناءً على ذلك، اكتفى طيلة الأسابيع الأولى من الربيع بتدوين الأفكار في دفتر ملاحظات للجيب الذي كان يحمله معه في أثناء المشي، وبرسم مخطّطات لجدالات مُمكنة وجدالات مُضادّة بشأن مواضيع مختلفة وقت جلوسه أمام المكتب في غرفته، وبالتفكير بالمزيد من الأمثلة من أجل المقالة التي أراد أن يكتبها عن الأطفال في السينما، صورة الطفولة في السينما، بدءاً بالضربات المفصلية اللاذعة التي تلقّاها فريدي بارثولوميو على يد باسيل راثبون في فيلم *ديفيد كوبرفيلد*، إلى بيغي آن غارنر التي دخلت إلى صالون حلاقة، كي تستعيد عدّة حلاقة الذقن الخاصّة بوالدها الميت في فيلم *شجرة تنبت في بروكلن*، ومن الضربة القاسية التي تلقّاها جان بيير ليو على رأسه في فيلم *400 ضربة*، إلى آبو وشقيقته اللذين يجلسان في البداية في حقل من القصب لمشاهدة القطار، ثمّ يجثمان في جوف شجرة بينما ينهمر المطر عليهما في فيلم *باثر بانتشالي*؛ أبرع صور الأطفال وأشدّها قسوة بين كل ما شاهده فيرغسون في الأفلام، صورة صارخة جدّاً، وفي غاية الكثافة في المعنى، لدرجة أن عليه أن يمنع نفسه عن البكاء كلّما فكّر فيها، لكنْ، كانت تلك المقالة وغيرها من المقالات قيد التأجيل في الوقت الحاضر، لأنه كان خائر القوى بسبب العمل على كتابه الصغير البائس، ونادراً ما كانت لديه الطاقة للحفاظ على سلسلة من الأفكار لأكثر من عشرين أو ثلاثين ثانية دون أن ينسى الفكرة الأولى بحلول وقت وصول الفكرة الثالثة.

على الرغم من مزاحه بشأن أنه غير متأكّد من قدرته على قراءة أي كتاب على الإطلاق، قرأ فيرغسون كُتُباً عديدة في ذلك الربيع، كُتُباً أكثر ممّا قرأ في حياته من قبل، ومع تقدُّم دراساته مع فيفيان، شعر أكثر وأكثر بالمشاركة بما كانا يعملان عليه معاً، بصورة أكثر شمولاً، لأن فيفيان نفسها بدت أكثر ثقة، وأكثر ارتياحاً في دورها كمُدرّسة. لذا، تقدّما في ستّة مسرحيات إضافية، واحدة تلو الأخرى، لشكسبير، فضلاً عن مسرحيات لراسين وموليير، وكالديرون دي لا باركا، ثمّ استعرضا مقالات مونتين، بينما عرّفَته فيفيان على كلمة *باراتاكسيس*، وتناقشا في قوّة النثر وسرعته، وبحثا في عقل الرجل الذي اكتشف أو كشف أو اخترع ما تُطلق عليه فيفيان اسم *العقل الحديث*، ثمّ وصلا إلى الأسابيع الثلاثة الصعبة مع فارس الظّلّ الحزين، والذي فعل بفيرغسون في سنّ التاسعة عشر ما فعلَه به لوريل وهاردي عندما كان صبياً؛ غزا قلبَهُ بحبّ شامل لكائن خيالي، الرجل الحالم المجنون المتخبّط من أوائل القرن السابع عشر، والذي، على غرار مهرّجي الأفلام الذين كتب عنهم فيرغسون في كتابه، *لم يستسلم أبداً*: "...، ولفترة طويلة من الوقت، تعثُّر هُنا، وسقوط هُناك، ونزول في مكان ونهوض في آخر، نَفّذتُ جزءاً عظيماً من خطّتي ...".

الكُتُب في قائمة غيل، بالإضافة إلى كُتُب عن الأفلام والتاريخ والمختارات الأدبية بالإنكليزية والفرنسية، ومقالات ومناظرات لأندريه بازين، ولوتّه آيزنر، ومخرجي الموجة الجديدة قبل أن يبدؤوا بصناعة أفلامهم الخاصّة، والمقالات الأولى لغودار، وتروفو، وشابرول، وإعادة قراءة كتابَي آيزنشتاين، وتأمّلات باركر، وتايلر، وماني فاربر، وجيمس إيج، ودراسات وتأمّلات للحكماء القدامى، على غرار سيغفريد كراكاور، ورودلف أرنهايم، وبيلا بالاش، وأعداد مجلّة *كاييه دو سينما* كلها من الغلاف إلى الغلاف، ويجلس في مكتبة المجلس الثقافي البريطاني ليقرأ مجلّة *سايت آند ساوند*، في انتظار وصول نُسَخ اشتراكه في مَجلّتَي *فيلم كالتشر* و*فيلم* كومنت من نيويورك، ثمّ، بعد قراءة الصباح من الثامنة والنصف إلى الثانية عشرة، يذهب في نزهات ما بعد الظهر إلى مكتبة السينما عبر النهر، بفرنك واحد فقط للتذكرة باستخدام بطاقته الطلابيَة القديمة من أكاديمية ريفرسايد، والتي لم يفكّر مُفتّش البطاقات يوماً بأن يُلقي نظرة ليتأكّد ما إذا كانت ما تزال سارية المفعول، الأرشيف السينمائي الأوّل والأكبر والأفضل في العالم، والذي أسَّسه هنري لانجلوا السمين الموسوس شبيه دون كيخوته، السينمائي الأفضل بين السينمائيين كلهم، وكم كان مثيراً للفضول أن يُشاهد أفلاماً بريطانية نادرة بترجمات سويدية أو أفلاماً صامتة بلا موسيقى تصويرية، لكنْ، كان هذا قانون لانجلوا، بدون موسيقى، وبرغم أن فيرغسون استغرق بعض الوقت للتكيّف مع عرض صامت كلّيّاً ومسرح بلا أصوات عدا سُعال الجمهور وعطساته،

والطقطقة العرَضية لجهاز العرض، إلا أنه صار يُقدِّرُ قوّة ذلك الصمت، لأنه غالباً ما صادف أن سمع أشياء في أثناء مشاهدة تلك الأفلام كإغلاق باب سيّارة أو وضع كأس من الماء على طاولة أو انفجار قنبلة في معركة، وبدا أن صمت الأفلام الصامتة يُنتجُ نوبة من الهلوسات السمعية، والتي تُخبر شيئاً عن الإدراك البشري، كما افترض، وكيف يختبر الناس الأشياء عندما يكونون متورّطين عاطفياً في التجربة، وفي الأوقات التي لا يذهب فيها إلى مكتبة السينما، يتّجه إلى لا باغود، أو شامبليون، أو أحد المسارح في شارع مسيو لو برينس، أو وسَطَ، أو وراء بولفارد سان ميشيل قرب شارع دي زيكول، ثمّ، من أجل تحقيق فائدة أكبر في تعزيز تعليمه، كان هناك الاكتشاف المفاجئ لأكسون لافاييت، وأكسون ريبوبليك، وأكسون كريستين؛ دُور العرض الثلاثة التي لم تكن تعرض سوى الأفلام الهوليودية القديمة، أفلام الأبيض والأسود الناجحة لأميركا القديمة التي لم يعد يتذكّرها الآن سوى القلائل، أفلام الكوميديا، وقصص الجريمة، والدراما الكئيبة، والملاكمة، وأفلام الحروب من الثلاثينيات، والأربعينيات، وأوائل الخمسينيات التي شاهد الآلاف عروضها الافتتاحية، وكانت الخيارات أمام فيرغسون كثيرة جدّاً، لدرجة أن ازدادت معرفته بالسينما الأميركية بصورة كبيرة بعد انتقاله إلى باريس - مثلما وُلِدَ حبُّه للأفلام القديمة على مسرح ثاليا ومتحف الفنّ الحديث في نيويورك.

في تلك الأثناء، كان فيلمنغ يُطارده، كان فيلمنغ يستميت للاعتذار، كان فيلمنغ يفعل المستحيل لإصلاح ليلة المال والدموع، وعلى مدى أيّام عديدة بعد تلك الليلة، كان يتّصل بشقّة فيفيان مرّة في اليوم، على الأقلّ، كي يتحدّث إلى فيرغسون، لكنْ، عندما دسَّت سلستين الرسائل تحت باب غرفة فيرغسون، مزّقها الأخير، ولم يعاود الاتّصال. أسبوعان متتاليان من المكالمات التي لم يردّ عليها، ثمّ توقّفت المكالمات، وبدأت الرسائل والملاحظات. من فضلكَ، يا آرتشي، دعني أثبت لكَ أنني لستُ الشخص الذي تظنّه. من فضلكَ، يا آرتشي، اسمح لكَ أن أكون صديقكَ. من فضلكَ، يا آرتشي، لقد التقيتُ هُنا في باريس بعدد كبير من الطلاب المثيرين للاهتمام، وأرغب بأن أعرّفهم بكَ من أجل أن تتمكّن من تكوين صداقات مع أشخاص بمثل عمركَ. ثلاثة أسابيع متتالية، بمعدّل رسالة أو اثنتين في الأسبوع، دون أي إجابة، مُزِّقت جميعاً، ورُميَت بعيداً، ثمّ، أخيراً، توقّفت الرسائل أيضاً. تضّرع فيرغسون من أجل أن تكون تلك هي النهاية، لكنْ، ثمّة احتمال دائماً بأن يلتقي مصادفة بفيلمنغ في عشاء آخر في مكان ما، أو في الشارع، وبناء على ذلك، لن تنتهي القصّة رسمياً قبل عودة فيلمنغ إلى أميركا في شهر آب؛ أي بعد أشهر عديدة.

استمرّت الليالي على نحوٍ شنيع، دون شريك في السرير أو رفيق قُبل من أي من الجنسين،

ليُخرجه من عُزلته، لكنْ، أن يكون وحيداً دون أن يلمسه أحد أفضل من أن يلمسه رجل مثل فيلمنغ، قال لنفسه، حتّى لو لم يكن ذنب فيلمنغ أنه هكذا، ثمّ يُطفِئ فيرغسون الضوء، ويضع رأسه على الوسادة، ويستلقي في العتمة مُتذكِّراً.

كانت شركة بيه. تيه. الفعّالة والكفوءة، والتي تمارس في فرنسا العمل نفسه الذي كان مقسّماً على ثلاثة شركات في أميركا (مكتب البريد الأميركي، ووسترن يونيون، ما بيل)، تتأكّد من تسليم البريد مرّتين يومياً، مرّة في الصباح، وأخرى في فترة بعد الظهر، ولأن عنوان فيرغسون كان عنوان فيفيان نفسه، كانت رسائله وطروده تصل في البداية إلى الشّقّة في الطابق السفلي. وبمجرّد وصولها، تحملُها سلستين الطّيّبة إلى الطابق العلوي، حيث الرسائل تحت باب غرفة فيرغسون أو تطرق الباب وتُسلّمه الأشياء التي كانت أكبر من أن تمرّ عبر تلك المساحة الضّيّقة - مجلات السينما الأميركية، على سبيل المثال، أو الكُتُب التي يرسلها جيل وإيمي بين حين وآخر. وفي الساعة التاسعة وعشر دقائق من صباح اليوم الحادي عشر من شهر نيسان، وبينما كان فيرغسون جالساً في غرفته، يقرأ مسرحية *الحياة حلم* لكالديرون دي لا باركا، سمعَ الصوت المألوف لدعسات سلستين الخفيفة على الدرج، ثمّ صرير ألواح الأرضية في الممرّ في أثناء اقترابها من غرفته، وبعد برهة، كان ثمّة مظروف أبيض رقيق على الأرض، على بُعد إنشات من قدميه. بريد بريطاني. مظروف لشركة، وقد طُبعَ عليه عنوان الإرجاع في الزاوية العلوية اليسرى: دار إيو للنشر. مُتوقِّعاً أنباء سيّئة، انحنى فيرغسون، والتقط الرسالة، ثمّ أجَّل فتحَها قرابة ستّ أو سبع دقائق، فترة تكفي ليسأل نفسه عن سبب خوفه لهذه الدرجة من شيء كان قد أخبرَ نفسه عنه من قبل بأنه ليس مهمّاً.

استغرق ثلاثين أو أربعين ثانية أخرى قبل أن يفهم أن الأنباء السّيّئة التي توقّعها كانت في الواقع أخباراً جيّدة؛ مُقابل أربعمائة جنيه أسترليني مُقدّماً للحقوق الأدبية، تُبدي دار إيو للنشر حماسها لنشر كتاب *كيف أنقذ لوريل وهاردي حياتي* خلال الفترة ما بين شهر آذار ونيسان من السنة القادمة، لكنْ، حتّى الرّدّ الإيجابي من أوبري هول لم يكن قادراً على إقناعه بأن أحداً يريد حقّاً أن يقبل كتابَه، ولهذا السبب، اخترع فيرغسون قصّة كي يُفسّر الرسالة من خلال اتّهام خفي لفيفيان بأنها دسّت المال من أجل أن تدفع أجور النشر بنفسها، ولا شكّ أنها أقنعت هول بصفقة في غرفة خلفية مشؤومة، تتضمّنُ كتابة شيك آخر بآلاف الجنيهات لشراء المزيد من كُتُب إيو في المستقبل. لم يَحدُث أبداً منذ انتقاله إلى باريس أن غضِب من فيفيان، لم يحدُث أبداً أن نطق أمامها بكلمة قاسية أو شكّ بأنها ليست سوى صادقة ولطيفة، لكنْ، كان

هذا يتجاوز اللطف إلى حدّ بعيد جدّاً، قال لنفسه، يُحوّل اللطف إلى شكل من أشكال الإذلال، وفوق ذلك كله، كان تضليلاً شديداً ومثيراً للاشمئزاز.

في التاسعة والنصف، نزل إلى شقّة فيفيان في الطابق السفلي، ودفع إليها برسالة هول، وطالبها بالاعتراف بما اقترفَت يداها. لم ترَ فيفيان فيرغسون بمثل هذا الهيجان من قبل. كان الشّابّ يشتعل غضباً، وتتصاعد منه خيالات ارتيابية فظيعة عن مؤامرة شرّيرة ومكر خسيس، ومثلما أخبرَته فيفيان لاحقاً، لم يخطر في بالها سوى إجابتين محتملتين بينما كانت تقف هُناك وتشاهد انهيارَه: إمّا أن تصفعه على وجهه، أو أن تضحك. اختارَت أن تضحك. كان الضحكُ أبطأ الحلّين، لكنْ، في غضون عشر دقائق، تمكّنت من إقناع فيرغسون، الذي كان متغطرساً ومفرط الحساسية وعديم الثقة بالنفس على نحوٍ مَرَضي، بأنه ليس لها أي دور في الموافقة على كتابه، لم تُرسِل إلى هول بنساً أو قرشاً أو ملّيماً واحداً.

ثِق بنفسكَ، يا آرتشي، قالت. أظهِرْ بعض الغرور. وبحقّ الآلهة، لا تتّهمني أبداً بشيء مثل هذا مرّة أخرى.

وعدها فيرغسون بألا يفعل. شعر بخجل شديد من نفسه، كما قال، وبإهانة شديدة من نوبة غضبه التي لا تُغتفَر، وأسوأ ما في الأمر أنه ليست لديه أي فكرة عن ما جرى في داخله. جنون، هذا ما جرى، جنون محض، وإذا ما حدث هذا مرّة أخرى، فيجب أن تنسى شأن الضحك، وتصفعَهُ في وجهه.

قبِلَت فيفيان اعتذاره. تصالحا. مرّت العاصفة، وبعد وقت قصير، دخلا معاً إلى المطبخ للاحتفال بالأخبار الجيّدة، وذلك بتناول وجبة فطور ثانية من الميموزا ورقائق البسكويت المغطّاة بالكافيار، لكنْ، على الرغم من أن فيرغسون بدأ يشعر بالتّحسّن بسبب الأخبار الجيّدة في رسالة هول، إلا أنه ظلّ مضطرباً نتيجة هيجانه الجنوني، وتساءل عمّا إذا كانت ثورة غضبه على فيفيان علامةَ إنذار مبكّر من انهيار محتوم.

للمرّة الأولى في حياته، بدأ يشعر بالخوف قليلاً من نفسه.

في اليوم الخامس عشر، وصلَت رسالة ثانية من هول، مُعلناً فيها أنه سيأتي إلى باريس في اليوم الثلاثاء، التاسع عشر من الشهر. اعتذر الرجل بصدد رحلته التي حانت في آخر لحظة، لكنْ، في حال صادف أن فيرغسون غير مشغول في تلك الظهيرة، فإنه يُرحّب بفرصة الالتقاء به. اقترح تناول الغداء في الثانية عشرة والنصف في مطعم فوكيت، حيث سيكون في وسعهما

مناقشة الخطط من أجل الكتاب، وإذا كانت هناك حاجة لتمديد المحادثة إلى ما بعد الغداء، فإنه يمكث في فندق قريب من الشانزليزيه، وبإمكانهما الذهاب إلى هناك ومواصلة الحديث. وعلى أي حال، بمقدور فيرغسون أن يقبل الدعوة أو يرفضها من خلال إخبار البوّاب في فندق جورج الخامس. أطيب الأماني، وإلى آخره.

وفقاً لما عرفَته فيفيان من صديقتها نورما ستايلز، والتي استندَت بدورها في معلوماتها على ما عرَفته من زميلها في العمل جيوفري بورنهام، اقتصرَت معلومات فيرغسون عن أوبري هول على الحقائق التالية: في الثلاثين من عمره، ومتزوّج من امرأة تُدعى فيونا وأب لطفلين صغيرين (واحد في سنّ الرابعة، وآخر عمره سنة واحدة)، ومُتخرّج في كلّيّة باليول في جامعة أوكسفورد (حيثُ التقى ببورنهام)، وابن لصاحب مصنع ثري للشوكولا والبسكويت، ومُتكلّف يحبّ التّجوّل في الدوائر الفنّيّة، ومُتذوّق جيّد للأدب بالفطرة، وناشر جدّيّ، لكنه معروف أيضاً بكونه *مُحبّاً للحفلات*، وغريب *الأطوار* إلى حدّ ما.

قادَت ضبابية تلك الصورة فيرغسون إلى تخيُّل هول كواحد من أولئك السادة البريطانيين المغرورين الذين كثيراً ما يظهرون في الأفلام الأميركية، الرجل الأشِر المتكبّر بوجه مُتورِّد ولَع بإطلاق التعليقات الهازئة همساً، والتي يُفترَض بأن تكون مسلّية، لكنها ليست كذلك أبداً. ربّما شاهد فيرغسون الكثير جدّاً من الأفلام، أو ربّما كان خوفه الغريزي من المجهول ما علّمَهُ أن يتوقّع الأسوأ في المواقف كافّة، لكن لم تكن الحقيقة أن وجه أوبري هول مُتورّد، أو أنه أشِر السلوك، بل اتّضح لاحقاً أنه من أكثر الأشخاص حناناً، وأقربهم إلى النفس بين كل مَنْ عرفهم فيرغسون في حياته.

صغير جدّاً، إنسانٌ مُصغّر للغاية، خمسة أقدام وثلاث بوصات فقط، وكل ما فيه مُصغَّر بالتناسب أيضاً: رأس صغير، ووجه صغير، ويدان صغيرتان، وفم صغير، وأطراف صغيرة. عينان زرقاوان لامعتان. بشرة بلون أبيض كريمي لشخص يعيش في بلد عديمة الشمس وغارقة بالأمطار، وتاج من الشَّعْر المُجعّد بلون بين الأحمر والأشقر على سلّم الألوان؛ كان فيرغسون قد سمع أحدهم ذات مرّة يطلق على درجة لون الشَّعْر تلك اسم *لون الزنجبيل*. في غياب الكلمات عندما تصافحا وجلسا لتناول الغداء في بوكيت، بعد ظهر اليوم التاسع عشر، أجبرَ فيرغسون نفسه على مُحاولة إجراء محادثة، وذلك بحديث غبي، مفادُه أنها المرّة الأولى التي يلتقي فيها بشخص يُدعى أوبري. ابتسمَ هول، وسأل فيرغسون عمّا إذا كان يعرف معنى هذا الاسم. كلا، قال فيرغسون، لم تكن لديه أي فكرة. *حاكمُ الجان الأقزام*، قال هول، وكان جواباً هزلياً وغير متوقّع إلى أبعد الحدود، لدرجة أنه كان على فيرغسون أن يُقاوم لكبت الضحك الذي تجمّع

في رئتيه، ضَحكٌ قد يُساء فهمه على أنه إهانة، كما أدرك، وما الذي سيدفعه للمخاطرة بإهانة الرجل الذي وافق على كتابه، خلال أوّل دقيقتين من اجتماعهما الأوّل؟ ومع ذلك - كم كان اسماً مناسباً، وكم كان ملائماً تماماً لهذا الرجل الضئيل أن يكون حاكماً للجان الأقزام! كان ذلك كما لو أن الآلهة مشَت إلى منزل أوبري في الليلة التي سبقت ولادته، وأوحت إلى والديه بأن يمنحاه هذا الاسم، والآن، بعد أن امتلأ رأس فيرغسون بصور الجان الأقزام والآلهة، نظرَ إلى الوجه الصغير الجميل لناشره، وتساءل عمّا إذا كان جالساً في حضرة كائن أسطوري.

حتّى ذلك اليوم، لم يكن فيرغسون يعرف أي شيء عن كيفية عمل دور النشر، أو الآليات التي تتبعها لترويج لكُتُبها. وفيما عدا تصميم الكُتُب وطباعتها، كان يحسب أن المهمّة الأساسية نشرُ أكبر عدد مُمكن من المراجعات بصدد تلك الكُتُب في الصحف والمجلات. إذا كانت المُراجعات جيّدة، سيحقّق الكتاب نجاحاً عظيماً. إذا كانت المراجعات سيّئة، سيُلاقي الكتاب فشلاً ذريعاً. والآن يُخبره أوبري بأن المراجعات عنصر واحد من العملية فحسب، ومع إسهاب حاكم الجان الأقزام في الحديث عن بعض العناصر الأخرى، ازداد اهتمام فيرغسون أكثر فأكثر، وتصاعدَت مُتعته بصدد ما يمكن أن يحدث معه عندما يُنشَر كتابُه. من بين ذلك، رحلة إلى لندن. مقابلات مع الصحافة اليومية والأسبوعية، ومقابلات مع مراسلي هيئة الإذاعة البريطانية، وربّما سيظهر في برنامج تلفزيوني مباشر. أُمسيّة في مسرح صغير، حيثُ يقرأ فيرغسون مقاطع من كتابه أمام الجمهور، ثمّ يجلس لإجراء محادثة عن الكتاب مع صحفي لطيف أو زميل كاتب. و- مازال ينبغي العمل على الأمر، لكنْ، كم سيكون رائعاً لو تحقّق - ليلة لوريل وهاردي في صالة السينما الوطنية أو في صالة أخرى، وفيرغسون على المسرح لتقديم الفيلم.

فيرغسون تحت الأضواء. صورة فيرغسون في الصحيفة. صوت فيرغسون في الراديو. فيرغسون على خشبة المسرح، يقرأ أمام جمهور صمت من المعجبين المخلصين.

كيف لأي شخصٍ ألا يرغب بهذا؟

المغزى، قال أوبري، إن كتابك جيّد جداً، لدرجة أنه يستحقّ هذه المعاملة كلها. لا يفترض بأحد أن يؤلّف كُتُباً في سنّ التاسعة عشر. لم يَسمع أحد بذلك، ورهاني أنه سيُجنّ جنون الناس لهذا الأمر، مثلما حدث لي بالضبط، مثلما حدث لفيونا بالضبط، مثلما حدث لكل شخص من أفراد فريقي.

فلنأمل ذلك، قال فيرغسون مُحاولاً كتم حَماسته، لئلا ينجرف بكلمات أوبري، ثمّ ينتهي به المطاف، ويظهر بمظهر غبي. لكنْ، كم بدأ يشعر بالتّحسّن الآن! كانت الأبواب مفتوحة. واحداً تلو آخر، كان أوبري يفتح الأبواب له، وواحدة تلو أخرى، ستكون هناك غرف جديدة، ليدخلها،

وغمرته فكرة ما سيجده في تلك الغرف بالسعادة - سعادة تفوق ما شعر به خلال أشهر.

لا أريدُ المبالغة، قال أوبري (وعلى الأرجح أنه فعل)، لكنْ، حتّى لو سقطتَ ميتاً غداً، سيعيشُ كتابُ *كيف أنقذ لوريل وهاردي حياتي* إلى الأبد.

يا لها من جملة غريبة! قال فيرغسون. قد تكون أغرب جملة سمعتُها على الإطلاق.

أجل، كانت غريبة نوعاً ما، أليس كذلك؟

أموت في بادئ الأمر، ثمّ أنقذُ حياتي، ثمّ أعيشُ إلى الأبد، على الرغم من أنه يُفترَض أن أكون ميتاً.

غريبة جدّاً بالفعل. لكنها خرجَت من القلب، وما قصدتُ بها إلا إطراء صادقاً.

نظرا إلى بعضهما، وضحِكا. شيءٌ ما بدأ يطفو على السطح، شيء قوي بما يكفي ليدفع فيرغسون إلى الشّكّ بأن أوبري مُنجَذب إليه، وأن رفيقَه المرِح ذا الرأس الزتجبيلي كان مِثله؛ شخصاً مهتمّاً بالجنسين، وأنه مرّ بهذا الموقف مرّات عديدة من قبل. تساءل عمّا إذا كان قضيب أوبري صغيراً كباقي جسده أيضاً، ثمّ راح يفكّر بقضيبه نفسه، وسأل نفسه عمّا إذا كانت ستتسنّى له الفرصة يوماً لمعرفة ذلك.

أتدري، يا آرتشي، تابع أوبري، لقد توصّلتُ إلى استنتاج مفاده أنكَ شخص مختلف عن معظم الأشخاص الآخرين، شخص مميّز. شعرتُ بهذا عندما قرأتُ مخطوطكَ، لكنْ، بعد أن التقيتُ بكَ وجهاً لوجه، صرتُ مُقتنعاً بالأمر. أنتَ رجلُ نفسِكَ، ولهذا السبب، فإنه من المشوّق التواجد بصُحبتكَ، لكنْ، لهذا السبب أيضاً، لن تنسجمَ في أي مكان، وهذا أمر جيّد، بحسب ما أعتقِد، لأنكَ ستكون قادراً على مواصلة البقاء رجلَ نفسِكَ، والرجل الذي يكون رجلَ نفسِه أفضل من مُعظم الرجال، حتّى لو لم ينسجم.

في الواقع، قال فيرغسون، بينما رسم أكبرَ وأفضل ابتسامة له بعد أن انغمس في لعبة الإغواء التي يبدو أن أوبري قد بدأها، أحاول أن أنسجِم في أي مكان ... مع أيّ كان.

ردّ أوبري بابتسامة عريضة بعد ذلك الجواب الفاحش، وتشجَّع لمعرفته بأن فيرغسون قد فهم أدقّ التلميحات في ذلك الموقف. هذا ما قصدتُهُ، قال. أنتَ مُنفتح على التجارب كلها.

أجل، قال فيرغسون، مُنفتح جدّاً. على كل شيء.

في هذه الحالة، قصدَ بكلّ شيءٍ الشخصَ الجالس قبالته في مطعم فوكيت الفاخر شديد الصخب؛ أوبري هول بجاذبيته المطلقة، رجلٌ خرج من العدم، وسيفعل كل ما في وسعه لتبديل حياة فيرغسون من خلال تحويل كتابه إلى نجاح، المُغازِل الساحر أوبري هول، من

نوعية الرجال الأشدّ إيقاظاً للشهوة والسُّكْر، بفمه الصغير الجميل الذي رغب فيرغسون بشدّة أن يُقبّله، ثمّ، بعد أن شرب أوبري كأساً أو اثنتين من النبيذ، بدأ مَن يُفترَض بأنه غريب أطوار يُنادي فيرغسون بالفتى الوسيم، والشّابّ المحبوب، والفتى الجيّد، والفتى الجميل، ولم يكن ذلك غريباً بقدر ما كان مُحبّباً ومُثيراً، وبحلول الوقت الذي فرغا فيه من تناول الغداء، بات كل شيء واضحاً، دون ألغاز أخرى للتفكير بها، أو أسئلة تُطرَح.

جلس فيرغسون على السرير في غرفة في الطابق الخامس من فندق جورج الخامس، وشاهدَ أوبري يخلعُ سترته وربطة عنقه. لقد مرّ زمن طويل جدّاً منذ أن كان برفقة شخص يهتمّ بأمره، منذ أن لمسَه شخص أو رغِب بأن يلمسَ شخصاً دون الحديث عن المال أوّلاً، لذا، عندما سار حاكم الجان الأقزام إلى السرير، وصعد إلى حجره، ووضع ذراعيه حول جذع فيرغسون الذي كان لايزال مرتدياً ثيابه كلها، ارتعش جسدُ فيرغسون. ثمّ أخذ يُقبّل الفم الصغير الجميل، ويرتجفُ من رأسه إلى أخمص قدمه، وعندما التقى لساناهُما، واشتدَّ العناق، تذكّرَ فيرغسون الكلمات التي قالها لنفسه قبل سنوات عندما كان في الحافلة متّجهاً إلى بوسطن لرؤية محبوبه جيم: *بوّابات الجنّة*. أجل، هذا ما كان يشعر به، وبعد الغرف التي زارها في ذهنه في أثناء تناول الغداء؛ الغرفُ التي دخلَها بينما كان أوبري هُناك يفتح له الأبواب واحداً تلو آخر، فُتِح له باب جديد الآن، وسارَ مع أوبري عبرَه إلى الغرفة. رجال راسخون. سرير في فندق باريسي، يحمل اسم ملك إنكليزي. إنكليزي وأميركي على ذلك السرير، بجسديهما العاريين الراسخين. *أودولا*. المرادف الفرنسي لما بعد الحياة. ويولد العالم الآخر داخلهما الآن في هذا المكان.

كان القضيب صغيراً مثلما تخيّله من قبل، لكنْ، كما هي حال بقية أوبري، كان مُتناسباً مع هيئته المصغّرة، وليس أقلّ جمالاً من فمه الصغير الجميل أو أي جزء آخر من جسده. الشي المهمّ هو أن أوبري عرف ما يفعل بما يملك. في سنّ الثلاثين، كان أكثر خبرة بكثير بشؤون الجسد والفراش من الفتية الذين نام فيرغسون معهم في الماضي، ولأنه كان حبيباً لطيفاً، دون أيّ ميول غريبة أو بغيضة، ودون شعور بالذنب إزاء شغفه بممارسة الجنس بكلا الاتّجاهين، فقد كان أكثر رقّة وشراسة في الوقت نفسه من آندي كوهين وبرايان ميتشيفسكي، أكثر ثقة بنفسه وأكثر سخاء، شخص مُحبّب يستمتع بما يفعل بقدر ما يستمتع بما يُفعل به، وبكل تأكيد، كانت تلك الساعات التي قضاها بصحبة فيرغسون، ظهيرة ذلك اليوم ومساءه، أفضلَ الساعات وأمتعها في حياة فيرغسون في باريس حتّى الآن. قبل أسبوع، كان فيرغسون يخشى من أنه كان متّجهاً نحو الانهيار. أما الآن، فدماغه امتلأت بألف فكرة جديدة، وجسدُه في حالة استرخاء.

بعد مرور عشرة أيّام على السفر إلى العالم الآخر بين ذراعي ناشره الإنكليزي، لفّ فيرغسون ذراعيه حول والدته، وطلب منها أن تسامحه. كانت قد وصلَت للتوّ إلى باريس بصحبة جيل. كانت صحيفة نيويورك *هيرالد تريبيون* قد أُغلِقت نهائياً في الرابع والعشرين من شهر نيسان، وبما أن جيل عاطل عن العمل مؤقّتاً حتّى الخريف، موعد بدء مهنته الجديدة كأستاذ في كلّيّة مانس للموسيقى، قرّرت والدة فيرغسون وزوجُها قضاء شهر العسل الذي لم يقضياه بعد، وذلك عقب ستّ سنوات ونصف من زواجهما. أسبوع في باريس، كبداية. ثمّ أمستردام، وفلورنسا، وروما، وبرلين الغربية التي زارها جيل آخر مرّة بعد ستّة أشهر من انتهاء الحرب في أواخر سنة 1945. كانا يخطّطان لقضاء وقتهما في مشاهدة الفنّ الإيطالي والهولندي، ثمّ سيأخذ جيل والدة فيرغسون لزيارة الأماكن التي أمضى فيها طفولته.

أنهى فيرغسون طباعة النسخ الثلاث من كتابه في اليوم التاسع من شهر آذار. أصبحَت هناك نسخة على الرّفّ العلوي من خزانة الكُتُب في غرفته في باريس، ونسخة ثانية على مكتب أوبري في لندن، وثالثة في طريقها إلى شقّة والديه في ريفرسايد درايف في نيويورك. بعد أسبوعين من سفر المخطوط عبر المحيط، تلقّى فيرغسون رسالة من جيل. كان ذلك طبيعياً، لأن والدته لم تكن كاتبة رسائل جيّدة، وكان جيل مَنْ أجاب وحده على تسعة أعشار الرسائل التي بعثها إليهما معاً، أحياناً مع هامش صغير من والدته في النهاية (*اشتقتُ إليكَ كثيراً، يا آرتشي!* أو *ألفُ قبلة من ماما!*) وأحياناً لا. كانت الفقرات الأولى من رسالة جيل مليئة بتعليقات إيجابية عن الكتاب والعمل الرائع الذي أنجزه في تحقيق التوازن بين *المضمون العاطفي للقصّة والمُعطيات المادّيّة والظاهراتية*، ومدى إعجابه بسرعة *تطوّر فيرغسون وتحسّنه ككاتب*. مع ذلك، في الفقرة الرابعة، بدأت نبرة الرسالة تتغيّر. *لكنْ، يا عزيزي آرتشي*، كتب غيل، *لا بدّ أن تستوعب مدى الاضطراب العميق الذي أحدثه كتابكَ لدى والدتكَ، وكم صعباً عليها أن تقرأه. إن إعادة إحياء أيّام عصيبة من الماضي كهذه لهو أمر صعب على أي شخص، بالطبع، ولا ألومكَ لأنكَ أبكيتَها (أنا نفسي ذرفتُ بعض الدموع)، لكنْ، أخشى أنه كانت هناك بعض المواضع التي كنتَ فيها ربّما أكثر صراحة من اللازم بقليل، وكانت مذهولة بشخصيّة التفاصيل التي كشفتَها عنها. وبالنظر إلى مخطوطكَ مرّة أخرى، أودّ أن أخبركَ بأن أبغض المقاطع يقع في الصفحتين 47-46، في منتصف الجزء الذي يدور حول الصيف المقيت الذي قضيتُماه على شاطئ جيرسي، حبيسَي ذلك المنزل الصغير معاً، تشاهدان التلفاز من الصباح الباكر حتّى آخر الليل، وبالكاد تضعان قدماً على الشاطئ. من باب إنعاش الذاكرة فقط: "لطالما دخّنت والدتي، لكنها تدخّن الآن دون انقطاع، وتستهلك أربعة أو خمسة علب تشسترفيلد في اليوم الواحد، وأصبح من النادر أن تزعج نفسها*

باستخدام الولاعات أو عيدان الثقاب، لأنه كان أبسط، وأكثر فعالية، أن تُشعِل السيجارة بالعقب المحترق لسابقتها. على حدّ علمي، كانت نادراً ما تشرب الكحول في الماضي، لكنها تشربُ الآن ستّة أو سبعة أقداح من الفودكا الصرفة كل مساء، وبحلول الوقت الذي تحملني فيه إلى السرير ليلاً، كان كلامها ملعثماً وجفناها نصف مغمضين على عينيها اللتين لم تعودا تحتملان النظر إلى العالم. في ذلك الوقت، كان قد مضى على وفاة والدي ثمانية أشهر، وفي كل ليلة من ذلك الصيف، أندسُّ تحت الملاءة المجعّدة الدافئة لسريري، وأصلّي لأجل أن تبقى إيمي حيّة في الصباح". هذا قاسٍ، يا آرتشي. ربّما ينبغي أن تفكّر بحذف هذا المقطع من النسخة النهائية، أو تُعدّله إلى درجة ما على الأقلّ - كي تُجنِّب والدتكَ الألم الذي سينجُم عن عرض تلك الفترة البائسة من حياتها على الملأ. توقّفْ، وفكِّرْ بهذا للحظة، وستفهم لماذا أطلب من فعل هذا ... ثمّ يأتي المقطع الأخير: الأخبار الجيّدة هي أن التريبيون على وشك الموت، وعاجلاً ما سأكون بلا عمل. بمجرّد أن يحدث هذا، سأسافر مع والدتكَ إلى أوروبا - في نهاية شهر نيسان على الأرجح. بإمكاننا أن نتحدّث عن ذلك لاحقاً.

لكنْ، لم يشأ فيرغسون أن ينتظر حتّى ذلك الوقت. كان الأمر مزعجاً لدرجة لا تحتمل أن يُؤجّل إلى نهاية شهر نيسان. فالآن، بعد أن أخذ جيل تلك الجُمل من الكتاب وعزَلها عن سياقها، أدرك فيرغسون أنه كان قاسياً جدّاً، وأنه استحقّ التوبيخ الذي تلقاّه من زوج أمّه. ليس أن المقطع لم يكن صحيحاً، على الأقلّ من وجهة نظره عندما كان في الثامنة من عمره كما تذكّرَها في أثناء كتابته للكتاب. كانت والدته تدّخن كثيراً في ذلك الصيف، وكانت تشرب أقداحاً من الفودكا الصرفة، ولم تكن تعتني بالمنزل، وكان خائفاً من الكسل والسلبية اللذين استحوذا عليها، بل حتّى مذعوراً في بعض الأحيان من إحجامِها الخدر عنه عندما كان يجلس على الشاطئ ليبني قلاعاً رملية، في حين كانت تنظر بعيداً إلى الأمواج. صَوّرَت الجُمل التي دوّنها جيل في رسالته والدة فيرغسون في أقصى كآبتها، في قعر سقوطها في الأسى والارتباك، لكنْ، كان المغزى كله أن يُقارن ذلك الصيف الضائع بما حدث معها بعد عودتها إلى نيويورك، والتي حدّدَت علامة مميّزة لعودتها إلى التصوير والبدء بحياة جديدة؛ إبداع روز إدلر. مع ذلك، بدا أن فيرغسون قد صنع أكثر من التباين أكثر ممّا ينبغي، إذ سَكب مَخاوف الطفل الصغير وسوء فهمِه لسلوك الكبار في موقف كان أقلّ خطورة ممّا تخيّل (كان ثمّة فودكا، بحسب ما قالته والدته لـ جيل، لكنْ، لم يتجاوز الأمر الزجاجتين على مدار الأيّام السّتّة والأربعين التي أمضياها في بلمار)، وبناءً على ذلك، جلس فيرغسون بعد أن انتهى من الرسالة، وكتبَ رسالتَي ندمٍ في صفحة واحدة إلى كلّ من والدته وزوجها، مُعتذراً عن أي إزعاج قد سبّبه، مع وعدٍ بحذف المقطع الجارح من الكتاب.

وهكذا، كان هُناك في صباح اليوم التاسع والعشرين من شهر نيسان، يقف في بهو فندق بونت رويال بينما يداه تلفّان والدته المصابة بإرهاق بعد السفر، ويطلبُ منها أن تُسامحه. في الخارج، كانت الأمطار تنهمر على الشوارع، وعندما وضع فيرغسون ذقنه على كتف والدته، نظرَ عبر النافذة الأمامية للفندق، وشاهد مظّلة تطير من يد امرأة.

لا، يا آرتشي، قالت والدته، ليس هناك شيء لأسامحكَ عليه. أنتَ مَنْ عليه أن يُسامحني.

كان جيل واقفاً في الطابور أمام مكتب الاستقبال، بانتظار أن يحين دوره ليُسلّم جوازات السفر، ويوقّع سجلّ الدخول، ويُثبّت حجز الفندق، وبينما مضى في تلك المهمّة المضجِرة، قاد فيرغسون والدته إلى مقعد في زاوية البهو. بدا أنها كانت مُنهَكَة من الرحلة، وإذا ما أرادت مواصلة الحديث معه كما كان يظنّ، فسيكون من الأسهل بالنسبة إليها أن تفعل ذلك وهي جالسة. مُنهكَة، قال لنفسه، لكنْ، ليس أكثر من أي حال شخص آخر بعد رحلة لاثنتي عشرة أو ثلاث عشرة ساعة متواصلة، وتبدو على ما يُرام، فكّرَ، فبالكاد ثمّة ذرّةُ فرقٍ ما بين الآن وآخر مرّة رآها فيها، قبل ستّة أشهر ونصف. والدته الجميلة. والدته الجميلة المُنهكَة بعض الشيء، وكم كان شعوراً جيّداً أن ينظر إلى وجهها مرّة أخرى.

افتقدتُكَ حقّاً، يا آرتشي، قالت. أعرف أنكَ صرتَ كبيراً الآن، ولكَ الحقّ كله في أن تعيش أينما تريد، لكن هذه أطول مدّة نبتعد فيها عن بعضنا، وسيستغرق الأمر وقتاً قبل أن أعتاد عليه.

أعلم، قال فيرغسون. أشعر بالشيء ذاته.

لكنكَ سعيد هنا، أليس كذلك؟

أجل، معظم الوقت. أعتقدُ أنني كذلك على الأقلّ. ليست الحياة مثالية، كما تعلمين. ولا حتّى في باريس.

تعليق جيّد. ولا حتّى في باريس. ولا حتّى في نيويورك أيضاً، إن شئتَ.

أخبريني، يا ماما. لماذا قُلتِ ما قُلته قبل لحظات - قبل أن نأتي إلى هنا ونجلس؟

لأنه صحيح، هذا هو السبب. لأنه كان خطأً منّي أن أثير مثل هذه الجلبة.

لا أوافقكِ. ما كتبتُه كانت قاسياً ومُجحفاً.

ليس بالضرورة. ليس من المكان الذي كنتَ تجلس فيه كصبي في الثامنة من عمره. لقد تمكّنتُ من البقاء مُتماسكةً عندما كنتَ تذهب إلى المدرسة، لكنْ، جاء وقت العطلة بعد ذلك، ولم أعد أعرف ماذا سأفعل مع نفسي. فوضى، يا آرتشي، هكذا كانت حالي، فوضى صارخة، ولا بدّ أن التواجد بالقرب منّي كان مخيفاً بعض الشيء بالنسبة إليكَ.

ليس هذا ما قصدتُه.

كلا، أنتَ مخطئ. هذا هو المقصد. أنتَ تذكر *العرس اليهودي*، أليس كذلك؟

بالطبع أذكر. تقصدين ابنة العمّ شارلوت وزوجها الأصلع قصير البصر، السيّد ماذا كان اسمه؟

ناثان بيرنباوم، طبيب الأسنان.

مرّ على ذلك قرابة عشر سنوات، أليس كذلك؟

إحدى عشرة سنة تقريباً. ولم أتحدّث إليهم مرّة أخرى في ذلك الوقت كله. أنتَ تفهم السبب، صحيح؟ (*هزّ فيرغسون رأسه*). لأنهم فعلوا بي ما فعلتُهُ بكَ تقريباً.

لم أفهم.

التقطتُ لهما صوراً لم تُعجِبهما. صور جيّدة جدّاً، كما أظنّ. ليست أكثر الصور إغراء في العالم، لكنها كانت صوراً جيّدة، صوراً مثيرة للاهتمام، وعندما رفضا السماح لي بنشرها، أخرجتُ شارلوت وناثان من حياتي، لأنني اعتقدتُ أنهما كانا مجرّد أحمقين.

وما علاقة ذلك *بلوريل وهاردي*؟

ألم تُدرك الأمر؟ لقد التقطت صورة لي في كتابكَ. الكثير من الصور، في الواقع، العشرات والعشرات من الصور، وكانت في معظمها رائعة جدّاً، وبعضها في غاية السِّحْر، لدرجة أنني كنتُ محرجة بعض الشيء من قراءة تلك الأشياء عن نفسي، لكنْ، إلى جانب تلك الصور الجميلة كلها، ثمّة صورة أو اثنتان تُظهِرانني بضوء مختلف، ضوء غير محبّب، وعندما قرأتُ تلك الأجزاء من كتابكَ، شعرتُ بأذى وغضب شديدين، فتحدّثتُ إلى جيل بهذا الصدد، وكان ينبغي ألا أفعل ذلك، ثمّ بعث إليكَ تلك الرسالة، والتي جعلَتكَ تشعر بالسوء، لأنني أعرفُ أن آخر ما يمكن أن تفعله على الإطلاق هو أن تجرح مشاعري، وعندما أرسلتَ إلينا تلك الرسائل، شعرتُ بأنني أخطأت في حقّكَ. كتابُكَ صادق، يا آرتشي. لقد قُلتَ الحقيقة في كل جملة منه، ولا أريد منكَ أن تُعدِّل أي شيء أو تحذِف أي شيء من أجلي. هل تسمعني، يا آرتشي؟ *لا تُغيِّر أيّ كلمة*.

مرّ الأسبوع سريعاً. علّقَت فيفيان جلساتهما الدراسية طوال مدّة الزيارة، وعلى الرغم من أن فيرغسون ظلّ يقضي عدّة ساعات من القراءة في الصباح، كان يلتقي بوالدته وجيل كل يوم بعد الظهر لتناول الغداء، ثمّ يبقى معهما حتّى وقت العودة إلى المنزل والذهاب إلى السرير. تغيّرَت أشياء كثيرة منذ أن غادر نيويورك، ومع ذلك، بقيَت الأشياء الأساسية كلها على حالها. أنهى جيل كتابه عن بيتهوفن بعد سبع سنوات من العمل، وبدا غير نادم بصدد التّخلّي عن ضغوطات المراجعات والصحافة لصالح حياة أكثر هدوءاً في تعليم تاريخ الموسيقى في مانس.

تابَعت والدة فيرغسون عملها في التقاط الصور الفنّيّة لوجوه المشاهير لصالح المجلات، وكانت تعمل ببطء على تجميع كتاب جديد عن الحركة المناهضة للحرب في الوطن (كانت مؤيّدة شرسة للحركة). كانت تحمل معها كاميرتها اللايكا الصغيرة وعدّة بكرات أفلام في الأماكن كلها التي زاراها خلال تلك الأيّام، وتلتقطُ صورة تلو أخرى للافتات الاحتجاج التي ملأت شوارع باريس (فلتخرُج أميركا من فيتنام، فليرجع الأميركيون إلى بيوتهم، تسقط أميركا، فيتنام للفيتناميين)، فضلاً عن عدد كبير من الصور لشوارع باريس، وبعض الصور لفيرغسون وغيل، معاً وكلّ وحده. تأمّل ثلاثتهم اللوحات في متحفَي اللوفر وجو دو بوم، وذهبوا إلى سالي بليل لحضور أوبرا *فوضى في زمن الحرب* لهايدن (اعتقد كلّ من فيرغسون ووالدته بأنها كانت رائعة على نحو استثنائي، بيد أن جيل ردّ على حماستهما بابتسامة امتعاض، ممّا عنى أنها لم تكن بالمستوى المعهود بالنسبة إليه)، وذات ليلة، بعد تناول العشاء، أقنعهما فيرغسون بالذهاب إلى أكسون لافاييت في الساعة العاشرة لحضور عرض لفيلم *حصاد عشوائي* الذين أخرجه ميرفين لوروا، وقد وافق على الثلاثة على أن في الفيلم من الهراء ما يكفي لملء أربعة إسطبلات، لكنْ، كما أشارت والدة فيرغسون، كم كان مُمتعاً مشاهدة غرير غارسون ورونالد كولمان يدّعيان أنهما واقعان في الحبّ.

لا حاجة لذكر أن فيرغسون أخبرهما عن الرسالة التي تلقّاها من دار نشر إيو. ولا حاجة لذكر أن والدته قالت بأنها سيُسعدها أن تتبرّع بصورة سالبة لغلاف *آرتشي*. ولا حاجة لذكر أن فيرغسون أخذهما إلى الطابق العلوي، حيثُ شاهدا غرفته في الطابق السادس. ولا حاجة لذكر أن والدته وجيل تصرّفا على نحوٍ مختلف إزاء ما شاهداه. انبهرَت والدته، وقالت: أوه، يا آرتشي، هل هذا ممكن حقّاً؟ أما جيل، من ناحية أخرى، فقد ربّت على كتفه، وقال: يحظى كل مَنْ يستطيع تحقيق النجاح هُنا باحترامي الكامل والدائم.

مع ذلك، لم تكن بعض الأمور الأخرى بمثل تلك السهولة أو المُتعة بالنسبة إلى فيرغسون، وفي عدّة مرّات خلال الأسبوع، وجد نفسه في موقف غير مريح اضطرّه إلى إخفاء بعض الأشياء عنهما، أو قول الأكاذيب. عندما سألتْه والدته عمّا إذا كان قد التقى *بفتيات لطيفات*، على سبيل المثال، اختلق قصّة عن علاقة غرامية قصيرة غير جدّيّة مع طالبة إيطالية جذّابة تُدعى جيوفانا، والتي كانت تدرس معه في صفّ اللغة في أليانس فرانسيز. كان صحيحاً أن جيوفانا كانت معه في الصّفّ، لكنْ، فيما عدا مُحادثتين، من نصف ساعة، في المقهى عند زاوية المدرسة، فإنه لم يتطوّر أي شيء بينهما. وكذلك الأمر بالنسبة إلى علاقته ببياتريس، الفتاة الفرنسية *شديد الذكاء*، والتي كانت تعمل كمُساعِدة في غاليري ماغي، ويُفترَضُ أنه على علاقة بها *لشهر أو اثنين*. أجل، عمِلَت بياتريس في المعرض، وجلَسا بجانب بعضهما خلال عشاء عرض *خاصّ*

في ماغي في شهر كانون الأوّل، وكانت مغازلتهما لطيفة وبدون تركيز، لكنْ، عندما اتّصل بها فيرغسون ليدعوها إلى الخروج برفقته، رفضَت ذلك بحجّة أنها مخطوبة وعلى وشك الزواج؛ شيءٌ لم تكلّف نفسها عناء ذكره خلال العشاء. كلا، لم يستطع أن يُخبر والدته عن الفتيات، لأنه لم تكن هناك أي فتيات، باستثناء خمس عاهرات سمينات ونحيلات، كان قد وجدَهُنّ في شوارع سوق ليزآل، ولم يكن ليتحدّث مع والدته عنهنّ، ولن يكسر قلبها كذلك بالحديث عن أوبري، وكم كان مُثاراً عندما أقحم حاكمُ الجان الأقزام قضيبه المتيبس عميقاً مؤخّرته. من المستحيل أن تعرف أشياء كهذه عنه. كانت في حياته مناطق لا بدّ أن يُبعدها تماماً عن ناظريهما، وأن يحرُسها بمنتهى الحذر، ولهذا السبب، يجبُ ألا يكونا قريبَين منه أبداً مثلما كانا من قبل، مثلما مازال يريدهما أن يكونا. لا يعني هذا أنه لم يكذب عليها في الماضي، لكنها بات أكبر سنّاً الآن، وتغيّرت الظروف، ومع ذلك، حين تجوّل مع والدته في باريس، وابتهجَ للسعادة التي بدَت عليها، سعدَ بمدى الدعم الذي مازالت تُقدّمه له، إلا أن تلك الأيّام كانت مُخضّبة بالحزن أيضاً؛ شعور بأن جزءاً جوهرياً منه يوشك على التلاشي والاختفاء من حياته إلى الأبد.

كانت هناك ثلاثة عشاءات مع فيفيان مع ذلك الأسبوع؛ عشاءان في مطعمَين، وآخر في الشّقّة في شارع الجامعة، عشاء صغير لأربعتهم فقط، دون ضيوف آخرين، ولا حتّى ليزا التي عادةً ما تأتي إلى حفلات فيفيان كلها. كان فيرغسون متفاجئاً قليلاً عندما قيل له بأن ليزا لن تنضمّ إليهم، لكنه فكّر بالأمر بعد ذلك لبضع دقائق، وأدرك أن فيفيان كانت تحمي نفسها، وكان هذا بالضبط ما سيفعله لو كان في مكانها. على غراره، كان لديها سرّ فاحش لتخفيه عن العالم، وعلى الرغم من أن جيل كان صديقاً قديماً، لكنْ، من الواضح أنه لم يكن يدري شيئاً عن زواجها المُعقّد بجان بيير، ولا شيء عن أخبارها منذ وفاة جان بيير، وبالتالي، لم يكن وارداً أن يخضع لمشهد العشاء مع شريكة سرير فيفيان الجديدة. ظلالٌ للخالة ميلدرد وراعية البقر في مدينة ألتو بالو قبل أربع سنوات، قال فيرغسون لنفسه، لكنْ، مع الاختلاف الجوهري التالي: حتّى في سنّ الخامسة عشرة، لم يُبالِ أو يُصَبْ بصدمة، أما بالنسبة إلى جيل الذي كان في الثانية والخمسين من عمره، فقد يظنّ أنه لن يُبالي، لكنه سيُصاب بالصدمة بالتأكيد.

عندما جلس أربعتهم حول طاولة غرفة الطعام في ذلك المساء، كان فيرغسون مرتاحاً لرؤية مدى الانسجام بين والدته وفيفيان، وكم تحوّلتا بسرعة إلى صديقتين بعد بضع لقاءات عَرَضية فقط، لكن المرأتين ارتبطتا الآن بسبب جيل، وإعجابهما ببعضهما (كم مرّة تحدّثت فيفيان عن روعة *الصور* التي تلتقطها والدته؟)، وبسببه أيضاً، ابنها المشرّد الذي يعيش الآن تحت سقف فيفيان، ومراراً وتكراراً، منذ أن وصلَت والدته إلى باريس، كانت تُخبره كم هي ممتنّة لفيفيان،

لأنها تهتمّ به، وتدرس معه، وتمنحه *الكثير من الأشياء*، وفي عشاء تلك الليلة، كانت تقول الأشياء نفسها أمام فيفيان مباشرة، وتشكرُها على الاعتناء *بابنها الشّقيّ*، *وأجل*، قالت فيفيان، *عفريتكِ الصغير هذا عنيد في بعض الأحيان*، كانتا تُضايقانه لمعرفتهنّ أنه لن ينزعج منهنّ، والحقيقة أنه لم يكن غير منزعج فحسب، بل كان مُستمتعاً، وفي خِضمّ هذا الماراثون من السخرية الظريفة من آرتشي، تبادر إلى ذهنه أن فيفيان تفهم شخصيته الآن على نحوٍ أفضل من والدته. لم يقتصر الأمر على أنها عملَت معه على مخطوط كتابه، ولم يقتصر كذلك على أنهما كانا يشقّان طريقهما معاً عبر أهمّ مئة عمل في الأدب الأوروبي، لكنها عرفَت كل شيء عن نفسه المُنقسمة إلى نصفين، وكانت، من غير شكّ، أكثر إنسانة مؤتمنة على الأسرار في حياته. أمّ ثانية؟ لا، ليست كذلك. لا حاجة لمزيد من الأمّهات في هذا الوقت المتأخّر. لكنْ، ماذا كانت؟ أكثر من صديقة، وأقلّ من أمّ. توأمه الأنثوي، ربمّا. الشخص الذي سيكون عليه لو أنه وُلِد كأنثى.

في اليوم الأخير، ذهب إلى فندق بونت رويال كي يراهما. كانت المدنية في أبهى حلّتها وأجملها في ذلك الصباح، سماء زرقاء ساطعة، تُغطّي هواءً دافئاً مُشبعاً بالروائح الطّيّبة الزكية التي تنبعث من *مخابز* الحيّ، وفتيات جميلات في الشوارع، وأصوات أبواق سيّارات، وفرقعات درّاجات بخاريّة، كاملُ الإبهار العظيم لعرض *وقت الربيع في باريس* لجورج غريشوين، باريس؛ مدينة مئة أُغنيّة معسولة وفيلم مُلوّن، لكنْ، الحقيقة أنها كانت رائعة ومُلهمة بالفعل، كانت حقّاً أفضل مكان على وجه الأرض، ومع ذلك، بينما سار فيرغسون من الشّقّة في شارع الجامعة إلى الفندق في شارع مونتالامبير، وبرغم أنه لاحظ السماء والروائح والفتيات، إلا أنه كان يُصارع ضدّ العبء الهائل الذي وقع على عاتقه في ذلك الصباح، الفزع الأحمق والطفولي من وداع والدته. لم يُردْها أن تذهب. أسبوعٌ واحد لا يكفي، حتّى لو كان جزءٌ منه يعلم بأنه سيكون أفضل حالاً برحيلها، وأنّهُ في كلّ مرّة يكون معها، يعود طفلاً مرّة أخرى رويداً رويداً، لكنْ، الآن تحوّلَ الحزن العادي لوداع آخر إلى هاجسٍ بأنه لن يراها مرّة أخرى أبداً، أن شيئاً ما سيحدث لها قبل أن تتسنّى لهما فرصة ثانية للقاء، وأن هذا الوداع سيكون الأخير. فكرة سخيفة، قال لنفسه، خيالات رومانسية بلهاء، فورة من قلق المراهقين بأكثر أشكالها إحراجاً، بيد أن الفكرة صارت في داخله الآن، ولم يعرف طريقة للتّخلّص منها.

عندما وصل إلى الفندق، وجَدّ والدته بحالة مضطربة من الصخب والحماسة، مأخوذة باللحظة دون وقت للحديث عن الهواجس الغامضة للأمراض القاتلة والحوادث المميتة، لأنها في ذلك الصباح بالذات، كانت ستذهب إلى محطّة الشمال، ستذهب إلى أمستردام، كانت في طريقها لمغادرة باريس إلى مدينة أخرى، بلد آخر، مغامرة أخرى على وشك البدء، ولا بدّ

من وضع المحافظ والحقائب في صندوق سيّارة الأجرة، وإلقاء نظرات مُختَلسة في آخر لحظة إلى حقيبة يدها للتّأكّد من أنها تحملُ أدوية المعدة الخاصّة بـ جيل، ودفع بقشيش وتوديع وشُكر للبوّابين وعمّال الفندق، وبعد أن ودّعَت ابنها بعناق بهيج وسريع، اتّجهت إلى سيّارة الأجرة، لكنْ، عندما فتح لها جيل الباب، وأوشكَت على الركوب في المقعد الخلفي، التفتَت، وأرسلَت في الهواء قبلةً كبيرة باسمة إلى فيرغسون. كُن ولداً جيّداً، يا آرتشي، قالت، وفجأةً، اختفى الشعور السّيّئ الذي كان يحمله معه منذ الصباح الباكر.

بينما كان يُراقب سيّارة الأجرة تختفي عند الزاوية، قرّر فيرغسون أنه سيتجاهلُ رغبات والدته، وسيحذفُ المقطع من الكتاب.

اختفى الشعور السّيّئ تماماً، لكنْ، كما أثبتت الأحداث بعد عشرة أشهر، لم يكن هاجس فيرغسون خاطئاً. كان عناقُ الوداع الذي تبادله مع والدته في اليوم السادس من شهر أيّار آخرَ مرّة يلمسان فيها بعضهما، وبمجرّد أن صعدت إلى المقعد الخلفي في سيّارة الأجرة، وأغلق جيل الباب خلفها، لم يرها فيرغسون مرّة أخرى. تحدّثا معاً عبر الهاتف، مكالمة واحدة في ليلة عيد ميلاده العشرين في آذار من سنة 1967، لكنْ، بعد أن أغلق فيرغسون السّمّاعة، لم يسمع صوتها مرّة أخرى. لم يكن هاجسه خاطئاً، لكنه لم يكن دقيقاً تماماً أيضاً. لم يقع الحادث المميت، أو المرض القاتل، اللذان تخيّل فيرغسون حدوثهما لأمّه، وإنما له نفسه، وفي حالتِه، كان حادثاً مرورياً وقع في أثناء زيارته للندن للاحتفال بنشر كتابه، وعنى ذلك أنه بعد وادع والدته في السادس من أيّار لسنة 1967، بقي مدّة ثلاثمائة يوم وأربعة أيّام على قيد الحياة.

لحسن الحظّ، لم يكن على علم بالخطّة القاسية التي دبّرتها له الآلهة. ولحسن الحظّ، لم يعرف أنه كان مُقيّضاً له مثل هذا الدخول القصير إلى *كتاب الحياة الأرضية*، ولهذا السبب، استمرّ في حياتِه، كما لو كان أمامه الألوف من أيّام الغد، بدلاً من ثلاثمائة وأربعة فقط.

بعد يومين من سفر والدته وجيل إلى أمستردام، تراجع فيرغسون عن الذهاب إلى حفلة بصحبة فيفيان وليزا عندما علِم أن فيلمنغ مَدعوّ إليها. مرّ أكثر من ثلاثة أشهر منذ ليلة المال والدموع، وكان قد بَرّأ فيلمنغ، منذ مدّة طويلة، من أي لوم على دوره في سوء الفهم. كانت الذكرى، بصدد ما سمحَ لنفسه أن يفعله مع فيلمنغ، ما استمرّ بمطاردته، والاعتقاد بأنه كان خطأه، ولأن فيلمنغ لم يُجبره على فعل أيّ شيء، لم يقل بأنه كان مستعداً لفعله، فكيف بإمكانه أن يُحمّل فيلمنغ مسؤولية ما حدث؟ لم يكن فيلمنغ، بل كان هو نفسه، عارُه الشخصي، كانت ذكرى جشعِه وانحطاطِه ما يحثّه على تمزيق رسائل فيلمنغ وعدم الرّدّ على اتّصالاته، لكنْ، حتّى

لو كان لا يحمل الآن أي ضغينة لفيلمنغ، فأيُّ سببٍ سيجعله يرغب برؤيته مرّة أخرى؟

صباح اليوم التالي، في أثناء تناول الفطور في المطبخ، أخبرته فيفيان عن شخص التقَت به في الحفلة التي أُقيمَت في حديقة ساحة الريد هول؛ فرع جامعة كولومبيا في باريس، شابٌ في الخامسة والعشرين أو السادسة والعشرين من عمره، وترك لديها انطباعاً قوياً، قالت، شخصٌ اعتقدَت أن فيرغسون سيُعجَب به بقدر ما أعجبَت به. كندي من مونتريال لأمّ من الكيبك وأب أميركي أسود من نيو أورليانز في الأصل، شخصٌ اسمهُ ألبرت دوفرسن (أل-بِر دو - فرِن)، خرّيج جامعة هوارد في واشنطن، وكان فيها لاعباً في فريق *كرة السّلّة* (ظنّت فيفيان أن المعلومة ستُثير اهتمام فيرغسون، وهذا ما حدث)، وانتقل إلى باريس بعد وفاة والده، عندما كان يعمل على كتابة *روايته الأولى* (معلومة أخرى ظنّت فيفيان أنها ستثير اهتمام فيرغسون، وهذا ما حدث)، والآن بعد أن استحوذَت على انتباهه، طلب منها أن تُخبره بالمزيد.

مثل ماذا؟

مثلاً، شخصيته؟

انفعالي. ذكي. متّقد الذهن. جذّاب. بدون حسّ دعابة عال، يؤسفني قول ذلك. لكنه نشيط جداً. آسِر. واحد من أولئك الشباب المتوهّجين الذين يريدون قلب العالم رأساً على عقب، وإعادة اختراعه.

خلافاً لي، على سبيل المثال.

أنتَ لا تريدُ إعادة اختراع العالم، يا آرتشي، أنتَ تريدُ أن تفهم العالم من أجل أن تجد طريقة للعيش فيه.

وما الذي يجعلكِ تعتقدين بأنني سأنسجم مع هذا الشخص؟

زميل في الكتابة، وزميل في *كرة السّلّة*، وزميل بهوية أميركية شمالية، وزميل بكونه وحيداً لأهله، وعلى الرغم من أن والده توفيّ قبل بضع سنوات فقط، إلا أنه زميل في اليُتم، لأن والدَه كان قد فرّ سرّاً عندما كان ألبرت في السادسة، وعاد إلى العيش في نيو أورلينز.

ماذا كانت مهنة والده؟

كان عازف جاز مُتخصّصاً بالبوق، ووفقاً لابنه، كان سكّيراً مُسرفاً، ومُتعصّباً، ونذلاً طوال حياته.

وماذا عن والدته؟

كانت مُعلّمة مدرسة في الصّفّ الخامس. مثل والدتي تماماً.

لا بدّ أنّكما تحدثتُما عن أشياء كثيرة.

ينبغي أن أذكُر أيضاً أن السّيّد دوفرسن يتمتّع بمظهر جميل، مظهر استثنائي للغاية.

وكيف ذلك؟

طويل. قرابة ستّة أقدام وبوصة أو بوصتين. بارز العضلات، كما أظنّ، على الرغم من أنه كان يقف هناك مرتديلاً كامل ملابسه، بطبيعة الحال، لذا لا يمكنني أن أكون أكثر دقّة. لكنه بدا مثل رياضي سابق تمكّن من الحفاظ على لياقته. يقول بأنه ما يزال يلعب كرة السّلّة كلّما استطاع.

جيّد. لكنني لم أنجح برؤية ما هو استثنائي بهذا الصدد.

إنه وجهُه، كما أعتقد، الصفات المدهشة لوجهه. لم يكن والده أسود فحسب، بل كانت دماء قبيلة التشوكتاو تجري في عروقه أيضاً، كما أخبرني، وعندما تخلط ذلك مع جينات والدته البيضاء، فستجدُه شخصاً أسود ببشرة فاتحة وملامح آسيوية بعض الشيء، ملامح أوراسية. لون بشرة لافت للنظر، برأيي، بملامح نحاسية متوهّجة، بشرة ليسَت غامقة ولا شاحبة، *مثالية تماماً* كما تقول غولديلوك، إذا فهمتَ ما أقصده، بشرة في غاية الروعة، لدرجة أنني ظللتُ أرغب بلمس وجهه عندما كنتُ أتحدّث إليه.

وسيم؟

كلا، ليس إلى هذه الدرجة. لكنه لطيف المظهر. وجهُ ترغب بالنظر إليه.

وماذا عن ... ميوله الداخلية؟

لستُ متأكّدة. في العادة، أستطيعُ أن أعرف على الفور، لكن ألبرت هذا أُحجيّة إلى حدّ ما. رجل لرجال آخرين، كما أظنّ، بيد أنه من النوع الرجولي الذي يذيع على الملأ انجذابَه إلى رجال آخرين.

شاذّ مفتول العضلات.

ربمّا. لكنه جاء على ذكر جيمس بالدوين بضع مرّات، إذا كان هذا يعني شيئاً. يُفضِّل بالدوين عن الكتّاب الأميركيين كلهم. ولهذا السبب، جاء إلى باريس، كما قال، لأنه أراد أن يسير *على خطى جيمي*.

أنا أحبّ بالدوين، أيضاً، وأوافق على أنه أفضل كاتب أميركي، لكنْ، لمجرّد أنه كان يميل إلى الرجال، فلا يدلّ هذا على أي شيء بخصوص الرجال الذين يحبّون كُتُبه.

بالضبط. على أي حال، تحدّثتُ عنكَ قليلاً، وبدا ألبرت معجباً بشدّة بصنيعكَ عندما حدّثتُه

عن كتابكَ، وربّما حتّى حسوداً بعض الشيء. في التاسعة عشر، ظلّ يقول. في التاسعة عشر، وكتابه على وشك النشر بالفعل، بينما كان في أواسط العشرينيات من عمره، ومازال يكدَحُ في النصف الأوّل من روايته الأولى.

أتمنّى أنكِ أخبرتِه بأنه كتاب قصير.

فعلتُ. كتاب قصير جدّاً. ذكرتُ أيضاً أنكَ تتوق جدّاً للعب كرة السّلّة. وصدِّق أو لا تُصدِّق، يعيشُ في شارع ديكارت في الدائرة الخامسة، وتماماً عبر الشارع، من المبنى الذي يسكنه، ثمّة ملعب خارجي. يقول بأن الحاجز مغلق طيلة الوقت، لكنْ، من السهل تسلُّقه، ولم يحدُث أن واجهَتهُ مُشكلة مع أحد بصدد الدخول واللعب هناك.

مررتُ بجانب ذلك الملعب عشرات المرّات، لكن الفرنسيين صارمون جدّاً عندما يتعلّق الأمر بالأقفال والمفاتيح والقوانين، فافترضتُ أنني سأُطرَدُ من البلاد في حال دخلتُ إليه.

قال بأنه يرغب بلقائكَ. هل أنتَ مهتمّ؟

بالطبع. فلنتناول العشاء معه هذا المساء. هناك ذلك المطعم المغربي الذي تحبّينه كثيراً، ذاك الذي بجانب ساحة كونترسكارب، مطعم القصبة، ومن هناك، يكون شارع ديكارت في أعلى التلّ مباشرة. إذا لم تكن لديه خطط أخرى، فربّما بإمكانه الانضمام إلينا وتناوُل صحن كبير من *الكسكس الملكي*.

كان عشاء تلك الليلة في مطعم القصبة مع فيفيان، وليزا، والغريب الذي حضر متأخّراً خمس عشرة دقيقة، والذين بدا كما وصفته فيفيان بالضبط، ببشرته المميّزة وسلوكه الانفعالي الدّالّ على ثقة بالنفس. وكلا، لم يكن ميالاً إلى اللغو أو إطلاق النكات، لكنه كان قادراً على الابتسام، بل والضحك، حينما يشعر بأن هناك ما يدعو إلى ذلك، وكانت الرّقّة في صوته، والفضول في عينيه، يُخفّفان أيّ شيء قاسٍ، يحبِسُه في داخله. كان فيرغسون يجلس قبالته تماماً. وكان قادراً على رؤية ملامح وجهه بالكامل، وفي حين كانت فيفان مُحقّة في حديثها على الأرجح حول أنه يمتلك وجهاً أقلّ من وسيم، إلا أن فيرغسون رآه جميلاً. لا، شكراً لكَ، قال ألبرت عندما حاول النادل أن يسكب له بعض النبيذ في كأسه، ثمّ نظر إلى فيرغسون، وأوضح أنه كان *متوقّفاً عن الكحول في الوقت الراهن*، ممّا بدا أنه يشير إلى أنه كان مواظباً عليه من قبل، أكثر ممّا ينبغي من دون شكّ، اعترافٌ بالضعف، ربمّا، من شخص مُتحفّظ ومتّزن مثل ألبرت دوفرسن، رحّب فيرغسون بذلك كدليل على أن الرجل كان إنساناً، في نهاية المطاف. ومرّة أخرى، الصوتُ الرقيق،

والمنضبط باعتدال، والذي ذكّر فيرغسون بمدى استمتاعه بالإنصات إلى صوت والده عندما كان صبياً، ومع ألبرت ثنائي اللغة الذي كان يتحدّث بأثر طفيف من اللهجة الكندية عندما يتحدّث الفرنسية، وبأثر طفيف من اللهجة الفرنسية عندما يتحدّث الإنكليزية الأميركية الاصطلاحية، وجدَ فيرغسون نفسه يختبر نوعاً مُشابهاً، إن لم يكن مطابقاً تماماً، من المتعة.

كانت مُحادثة ممطوطة على مدار ساعتين، ولم يرَ فيرغسون ليزا بمثل هذا الخفوت من قبل، إذ لم تشارك سوى ببضع مُداخلات مُضحِكة بدلاً من مئة، كما لو كانت تحت تعويذة الغريب، وفهمَت أن تصرّفاتها الطائشة ستترك لديه انطباعاً خاطئاً، لكنْ، كم بدا ألبرت مسترخياً مع فيفيان، والتي كان لها ذلك التأثير على معظم الناس، بطبيعة الحال، على الرغم من تأثيرها كان أعلى ربّما في هذه الحالة، لأنه كان ثمّة شيء لديها يُذكّر ببعض صفات والدته التي كانت قريبة جدّاً منه، كما قال، الأمّ البيضاء لهذا الرجل الأسود، باحتقاره الشديد لوالد أسود ميت، لا بدّ أن ذلك كان في غاية التعقيد، كما فهم فيرغسون، وكم كان حِملاً ثقيلاً ذاك الذي يحمله ألبرت، ثمّ تحدّثوا عن نيويورك والسنة والنصف سنة التي قضاها في هارلم بعد تخرّجه في الكلّيّة، أعقبَها قرار السفر إلى فرنسا لأن أميركا كانت *مقبرة جماعية* لكل شخص أسود يعيشُ فيها، وخصوصاً إذا كان مثله (هل يقصدُ شخصاً مِثْلِيّاً مثله، تساءلَ فيرغسون، أم كان يشير إلى شيء آخر؟)، بعد ذلك، كانوا جميعاً يتحدّثون عن التاريخ الطويل للكُتّاب والفنّانين الأميركيين السود الذين جاؤوا للعيش في باريس؛ *العارية والمقدّسة* جوزفين بيكر، مثلما وصفَها ألبرت، وريتشارد رايت، وتشيستر هايمز، وكونتي كولين، ومايلز ديفيس بين ذراعي جولييت غريكو، ونانسي كونارد في أحضان هنري كرودر، وبطلُ ألبرت، جيمي، والذي تعرّض لإهانة شديدة عندما لم يُطلَب منه أن يتحدّث خلال الزحف إلى واشنطن قبل ثلاث سنوات، كما قال، لكنْ، في ظلّ وجود بايارد رستين ضمن قائمة المُتحدّثين بالفعل، *ظنّوا على الأرجح أنه يكفي وجود شاذٍّ أسود واحد* (كان الدليل يتصاعد)، ثمّ تدخّل فيرغسون، وشرع يتحدّث عن رواية *غرفة جيوفاني*، والتي كانت، برأيه *الصادق والمتواضع*، واحدة من أشجع الكُتُب التي قرأها في حياته وأروعها (ردّ ألبرت على هذا التعليق بإيماءة موافقة)، وبعد لحظات، مثلما يحدثُ كثيراً في محادثات العشاء، انتقلوا إلى موضوع آخر، وتحدّث الاثنان هذه المرّة عن كرة السّلّة؛ نادي بوسطن سلتكس، وبيل راسل، ممّا قاد فيرغسون إلى سؤال ألبرت السؤال نفسه الذي طرحَهُ على جيم قبل سنوات عديدة، لماذا راسل هو الأفضل مع أنه ليس جيّداً حتّى؟ وأجاب ألبرت: لكنه جيّد، يا آرتشي. بإمكان راسل أن يُسجّل خمساً وعشرين نقطة في مباراة واحدة إذا ما أراد ذلك. القصّة فقط أن أورباخ لا يحتاج منه أن يفعل ذلك. يريد منه أن يكون مايسترو الفريق، وكما نعلمُ جميعاً، لا يعزف المايسترو

على آلة. يقف هُناك، ويقود الأوركسترا بعصاه، وعلى الرغم من أن ذلك يبدو بسيطاً، إلا أنه لو لم يكن هناك مايسترو لأداء هذه المهمّة، لتاه الموسيقيون، وأخطؤوا في عزف العلامات كلها.

انتهَت الأُمسيّة بدعوة. في حال لم يكن فيرغسون مشغولاً بعد ظهر غد، فبإمكانه أن يمرّ بشقّة ألبرت، قرابة الساعة الرابعة والنصف، للعب مباراة ثنائية وديّة في "ملعبه الخاصّ" عبر الشارع الذي يسكن فيه، شارع ديكارت. قال فيرغسون لألبرت بأنه لم يلعب منذ شهور، ولا بدّ أنه صدئ، لكنْ، أجل، قال، يسعدني ذلك.

وهكذا، دخل ألبرت دوفرسن حياة فيرغسون. وهكذا، انضمّ الرجل الذي سيُعرَف لاحقاً بـ ألبر، أو السّيّد بِر، إلى الكتيبة كرفيق لفيرغسون في السلاح في معركته القادمة من حرب الضجر اللانهائية ضدّ آلام الوجود البشري، لأنه، بخلاف أوبري هول ثنائي الاتّجاه، والذي كان قانعاً بزواجه من فيونا أحادية الاتّجاه، وأباً عطوفاً لطفليه الصغيرين، كان ألبر الأعزب أحادي الاتّجاه، بميوله الداخلية الأقرب إلى أشباه أوبري في هذا العالم بدلاً من شبيهات فيونا، مُتاحاً لمعركة بدوام كامل، ولأنه كان يسكن في المدينة نفسها التي يسكنها فيرغسون، فإن الدوام الكامل يعني كل يوم تقريباً، ما دامت المعركة مستمرّة على الأقلّ.

التّطوّرات غير المتُوقّعة لأوّل وقت ظهيرة أمضياها معاً، ابتداءً من المباريات الفردية الشرسة والعنيفة، عندما استحوذَ القائدُ السابق، الذي لم يتدرّب منذ وقت طويل، على الكرات المرتدّة من أمام لاعب المحور السابق والرشيق السّيّد بِر، كان جسداهما يصطدمان ببعضهما في أثناء الصراع على الكرات، ومحاولة إعاقة التسديدات، ثلاث مباريات بنتائج متقاربة جدّاً بعشرين أو ثلاثين خطأً لكل منهما، وكان من المثير للضحك أن الفتى الأبيض فيرغسون كان قادراً على القفز أعلى من الفتى الأسود دوفرن، وعلى الرغم من خسارة فيرغسون في المباريات الثلاث كلها في نهاية المطاف، لأن تسديداته الخارجية كانت في غاية السوء، كان من الواضح أنهما متكافئان نوعاً ما، وعندما يستعيد فيرغسون لياقته مرّة أخرى، سيضطرّ ألبر لبذل قصارى جهده، كي يتمكّن من مجاراته.

عندما تسلّقا السياج بعد ذلك، كانا مُنهكَين، ويتنفّسان بصعوبة، وغارقين بعَرَق دبق ومالح، ثمّ عبرا الشارع باتّجاه شقّة ألبر التي كانت في الطابق الثالث. غرفتان مرتّبتان ونظيفتان، وجدار من أربعمائة كتاب في الغرفة الكبرى، فضلاً عن سرير وخزانة كبيرة، ومكتب وآلة كاتبة من طراز ريمنغتون في الغرفة الصغرى، حيثُ تتكوّم صفحات الرواية التي مازال يكتبها ألبر في رزمة أنيقة، يدخل الضوء عبر نوافذ المطبخ النظيف بطاولته الخشبية وكراسيه الخشبية الأربعة، ويأتي المزيد من الضوء عبر نوافذ الحمّام المفروش بالبلاط الأبيض. لم يكن الدّشّ مشابهاً للأنواع الموجودة

كلها في أميركا، لكنه من النوع المُعلَّق المنتشر في فرنسا، حيث يقف المرء أو يجلس في حوض الاستحمام، ويرشُّ نفسه بما أسماه فيرغسون بـ *سمّاعة الهاتف*، ولأن فيرغسون كان الضيف، طلب منه ألبر بلطف أن يكون أوّل مَنْ يستحمّ، وهكذا، دخل فيرغسون إلى الحمّام، حيثُ خلع حذاءه الرياضي، وجوربيه وسرواله القصير وقميصه، والتي كانت جميعاً مبلّلة وكريهة الرائحة، ثمّ فتح الماء، ودخل إلى الحوض العميق مربّع الشكل. كان مغموراً بالماء، يمسك سمّاعة الهاتف بيده اليمنى، ويرشّ الماء على رأسه، ومع ضجيج الماء في أذنيه، وعينيه المغلقتين، ليحمي نفسه من الأسهم السائلة الحارّة، لم يسمع صوت ألبر الذي كان يدقّ على الباب، ولم يرَه عندما دخل إلى الحمّام بعد لحظات.

يَدٌ لمسَته في مؤخّرة عنقه. أرخى فيرغسون ذراعه، وأفلَت الدّشّ من يده، وفتح عينيه.

كان ألبرت لايزال مرتدياً سرواله القصير، بيد أن شيئاً آخر قد سقط.

أحسَب أنه لا مشكلة لديكَ مع هذا، قال لفيرغسون، بينما سارت يده إلى أسفل ظهر الأخير، واستقرّ على مؤخّرته.

على الإطلاق، قال فيرغسون. لو لم يحدث هذا، لخرجتُ من هنا نزيلاً حزيناً خائب الأمل.

لفّ ألبر يده الأخرى حول خصر فيرغسون، وسحب جسده نحوه. يا لكَ من فتى رائع، يا آرتشي، قال، ومن المؤكّد أنني لا أريدكَ أن تغادر خائباً. في الحقيقة، سيكون بقاؤكَ أفضل بكثير بالنسبة إلى كلينا، ألا تعتقد ذلك؟

صارت الظهيرة مساء، وصار المساء ليلاً، وصار الليل صباحاً، وصار الصباح ظهيرة أخرى. وبالنسبة إلى فيرغسون، فإن هذا ما كان يبحث عنه، الحبّ السرمدي العظيم، وعلى مدى مئتين وستّة وثمانين يوماً، عاش في بلاد أخرى، مكان ليس بفرنسا أو أميركا أو أي مكان آخر، بلاد جديدة بلا اسم، وبلا حدود، وبلا مُدُن أو بلدات، بلدان يسكنها اثنان فحسب.

لا يعني هذا أن الانسجام مع السّيّد بر كان سهلاً، أو أن فيرغسون لم يمرّ ببعض الأوقات الصعبة خلال تلك الأشهر الثمانية من الجنس، والصداقة الحميمة، والخلاف، إذ كان صديقه الجديد يحمل عبئاً ثقيلاً عليه حقّاً، وبقدر ما بدا ألبر شابّاً أو ذكياً أو واثقاً من نفسه عندما خرج إلى العالم، كانت روحه عجوزاً ومرهَقة، ويمكن أن تكون الأرواح العجوز والمرهقة مريرة في بعض الأحيان، وغاضبة في بعض الأحيان، وخاصّة إزاء أرواح أولئك الذين لم يشعروا بالمرارة والغضب نفسيهما. كان ألبر مُحبّاً في معظم الأيّام، بدفء وحنان في كثير من الأحيان، لدرجة تغمر فيرغسون، وتجعله يعتقد بأنه ليس في العالم أفضل من شخص دافئ ورقيق يستلقي

في السرير إلى جانبه، كان ألبر أيضاً متفاخراً وتنافسياً وميالاً إلى إطلاق أحكام أخلاقية قاسية بصدد الآخرين، ولم يُغيّر شيئاً أن كتاب الأصغر سنّاً في طريقه إلى النشر، في حين لايزال الأكبر سنّاً يعمل على كتابه، ولم يغيّر شيئاً أن حسّ الدعابة الصبياني لدى فيرغسون كان مُخالفاً في أحيان كثيرة لاستقامة ألبر الفظّة، التبذير الأرعن للأفكار الجنونية التي تتدفّق داخل رأسه في لحظات هناء ما بعد الجنس، على غرار ذلك الاقتراح بأن يحلق الاثنان الشَّعْر كله على جسديهما، ويشتريا شَعْراً مستعاراً وملابس نسائية، ثمّ يذهبا إلى مطعم أو حفلة من أجل معرفة ما إذا كانت الحيلة ستنطلي على الآخرين، وسيعتقدون أنهما امرأتان حقيقيتان. *آرتشي*، قال فيرغسون مُقلّداً طريقة نطق سلستين لاسمه، *ألن يكون مثيراً للاهتمام أن أصير حقّاً أنثى لليلة واحدة؟* أجاب ألبر بانفعال: *لا تكن غبياً*، قال. *أنتَ رجل. كنْ فخوراً بأنكَ رجل، ودعكَ من هراء الممثّلين الذين يرتدون ملابس نسائية هذا. إذا كنتَ ترغب في تغيير هويتكَ، جرِّبْ أن تكون شخصاً أسود البشرة ليوم أو اثنين، وانظر ماذا سيحدث لكَ حينها*. وغير ذلك، بعد جلسة استثنائية في السرير، اقترح فيرغسون أن يدخلا معاً مجال العمل في الصور العارية لصالح المجلات الإباحية للمِثْلِيّيْن، وستُنشر لهما صور كبيرة ملوّنة وهما يقبّلان بعضهما، أو يداعبان بعضهما، أو يمارسان الجنس معاً، مع لقطات قريبة في أثناء القذف، أليس هذا جنونياً؟ قال فيرغسون، ثمّ فكّر فقط بالمال الذي يمكن أن يجنياه.

أين كرامتكَ؟ صاح ألبر في وجهه، وفشل مرّة أخرى بإدراك أن فيرغسون كان يمزح. ولماذا هذا الحديث كله عن المال؟ ربّما لا تحصل على الكثير من والديكَ، بيد أن فيفيان تعتني بكَ على نحوٍ جيّد جدّاً، كما يبدو لي، فلماذا تتحدّث عن إذلال نفسكَ مقابل حفنة صغيرة من الفرنكات؟

هذا كل ما في الأمر، قال فيرغسون، تاركاً وراءه خيالاته الجنسية الغريبة ليُعالج شيئاً حقيقياً، شيئاً يستحوذ على تفكيره منذ شهرين. تعتني فيفيان بي بصورة ممتازة، وبدأتُ أشعر بأنني طفيلي، ولا يعجبني هذا الشعور، لم يعد يعجبني على الأقلّ. ثمّة خطب ما بصدد أخذ الكثير منها، بيد أنه لا يُسمَح لي بالعمل في هذه البلاد، مثلما تعلم، فماذا يُفترَض بي أن أفعل؟

بإمكانكَ دوماً أن تؤجّر مؤخّرتكَ في حانات الشّواذّ، قال ألبر. حينها، ستعرف حقّاً معنى أن تعيش في القمامة.

سبق وأن فكّرتُ بالأمر، أجاب فيرغسون، متذكّراً ليلة المال والدموع. لستُ مهتمّاً.

بِعَدِّه أصغر سنّاً بسبع سنوات، كان فيرغسون الشريك الثاني في العلاقة، الصغير الذي يتبع خطى الكبير، وقد بدا له هذه الدور مناسباً، إذ لم يكن ثمّة شيء أفضل بالنسبة إليه من الشعور بأنه يعيش تحت حماية ألبر، وألا يكون المسؤول أو الشخص الذي يُفترَض به معرفة كل

شيء، وفي العموم، وفّر ألبر الحماية، وفي العموم، اعتنى به بصورة ممتازة. كان ألبر أوّل شخص في حياته يشاركه شغفه المزدوج الموحَّد للعقلي والماديّ، والجنس أوّلاً عندما يتعلّق الأمر بالماديّ، أولوية الجنس أمام النشاطات البشرية الأخرى جميعها، وكذلك كرة السّلّة والتمارين الرياضية والجري أيضاً، الجري في حديقة النباتات، وتمارين الضغط، والمعدة، والقرفصاء، والقفز في الملعب أو الشّقّة، والمباريات الفردية القوية الساخنة في كرة السّلّة، والتي كانت مليئة بمشاعر التّحدّي والإنجاز بحدّ ذاتها، ولكنها عملَت أيضاً كنوع مدروس من المداعبات المثيرة، لأنه، بعد أن أصبحت معرفته بجسد ألبر جيّدة جدّاً، صار من الصعب ألا يفكّر بالجسد العاري الذي يختبئ تحت قميص ألبر وسرواله القصير في أثناء تحرّكه في الملعب، التفاصيل الرائعة التي يعشقها في جسد السّيّد بر، ولم يكن الجانب العقلي مقتصراً فقط على وظائف الدماغ وجهوده المعرفية، بل أيضاً دراسة الكُتُب، والأفلام، والأعمال الفنّيّة، والحاجة إلى الكتابة، والعمل الوجودي بصدد محاولة فهم العالم أو إعادة اختراعه، والالتزام بالتفكير بالنفس وعلاقتها مع الآخرين ورفض إغراء العيش لمجرّد الفرد نفسه فقط، وعندما اكتشف فيرغسون أن ألبر يهتمّ بالسينما مثلما يهتمّ بالكُتُب، وأن هذا الاهتمام يُعادل اهتمامَه نفسه بالكُتُب، صارت لديهما عادة الذهاب إلى السينما في معظم الأُمسيّات، وحضور أنواع الأفلام كلها، بسبب الأذواق الانتقائية لفيرغسون، ورغبة ألبر بالذهاب معه إلى أي دار عرض يختارها، لكنْ، من بين الأفلام العديدة التي شاهداها، لم يكن ثمّة أهمّ بالنسبة إليهما من الفيلم الجديد لبريسون، *أو هازار بالتازار*، والذي كان عرضه الافتتاحي في باريس في الخامس والعشرين من أيّار، حيثُ شاهداه من البداية إلى النهاية على مدى أربع ليال متتالية، وكان فيلماً زأر في قلبيهما ورأسيهما بصرخة غضب من وحي إلهي، لقد تحوّلت رواية أبله دوستويفسكي إلى قصّة عن حمار في ريف فرنسي، الاضطهاد والمعاملة الوحشية لبالتازار، رمز المعاناة الإنسانية وصبر القدّيسين، ولم يشبع فيرغسون أو ألبر من الفيلم، لأن كلاً منهما رأى قصّة حياته في حكاية بالتازار، وشعرَ كل واحد منهما بأنه كان بالتازار نفسه خلال عرض الفيلم، ولهذا السبب، عادا إلى الصالة ثلاث مرّات بعد المرّة الأولى، ومع نهاية العرض الأخير، عَلّم فيرغسون نفسه على تقليد الأصوات الحادّة غير المتناغمة التي كانت تصدر من فم الحمار في لحظات مصيرية من الفيلم، العويل المربوء لمخلوق ضحيّة يُصارع من أجل النَّفَس التالي، صوت فظيع، صوت يُفجِع القلب، ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، وكلّما أراد فيرغسون أن يُخبر ألبر بأنه مكتئب أو موجوع من الظلم الذي رآه في العالم، فإنه يستغني عن الكلمات، ويُقلِّد الزعقة المختنقة المزدوجة لبالتازار، *نهيق القادم من الجحيم*، كما يُسمّيها ألبر، ولأن الأخير كان عاجزاً عن إطلاق العنان لنفسه إلى هذا الحدّ، لم

يكن قادراً على المشاركة، وفي كل مرّة يصير فيها فيرغسون الحمارَ المعذَّب، يشعر بأنه يفعل ذلك بالنيابة عن كليهما.

أذواق متشابهة إزاء معظم الأشياء، استجابات متشابهة إزاء الكُتُب والأفلام والأشخاص (يعشق ألبر فيفيان)، لكنْ، بقدر ما واصلا الكتابة، بقدر ما وقعا في المواجهة، لأن أيّاً منهما لم يكن يمتلك الشجاعة لعرض عمله على الآخر. أراد فيرغسون أن يقرأ ألبر كتابه، لكنه كرِه أن يجبرَه على فعل ذلك، وبما أن ألبر لم يطلب رؤية الكتاب قطّ، تراجع فيرغسون، ولم يقل شيئاً، وكذلك لم يشاركه بأي خبر عن المخطوط المُنقّح الذي أرسله أوبري من لندن، أو قراره باستخدام صورة والدته على الغلاف، أو اختيار عشر لقطات ثابتة من لوريل وهاردي، وعشر لقطات ثابتة أخرى من أفلام صدرت في أواخر سنة 1954 وسنة 1955 (من بينها لقطة لمارلين مونرو في فيلم *لا عمل مثل عمل الاستعراض*، ولقطة لدين مارتن وجيري لويس في فيلم *فنّانون وعارضات*، ولقطة لكيم نوفاك ووليام هولدن في فيلم *نزهة*، ولقطة لمارلون براندو وجين سيمونز في فيلم *رجال ودمى*، ولقطة لجين تيرني وهمفري بوغارت في فيلم *اليد اليسرى للربّ*). ولم يقُل كلمة واحدة عن ألواح الطباعة الأولى، أو عن ألواح الطباعة الثانية، أو عن ألواح الطباعة المُعتمدة بعد ظهورها في أوائل تمّوز، وأواخر تمّوز، وأوائل أيلول، ولم يُشِر حتّى مرّة واحدة إلى الرسالة التي تلقّاها من أوبري، والتي يخبره الأخير فيها أن بول ساندلر من دار نشر راندوم هاوس في نيويورك (بول، العمّ السابق لفيرغسون) يرغب بالمساهمة في نشر نسخة أميركية من الكتاب، وذلك بعد شهر من صدوره في إنكلترا.

عندما سأل فيرغسون ألبر عمّا إذا كان في وسعه إلقاء نظرة على النصف الأوّل من روايته التي مازالت قيد الكتابة (قرابة مئتي صفحة، مثلما يبدو)، قال ألبر بأنها لا تزال *بدائية جدّاً*، وأنه لا يستطيع أن يعرضها على أحد قبل أن يفرغ منها. أخبره فيرغسون بأنه يفهم ذلك، وكان هذا صحيحاً في الواقع، لأنه أيضاً لم يعرض كتابه على أحد قبل نهايته، لكنْ، ربّما يستطيع أن يُخبره بعنوان الكتاب على الأقلّ. هزّ ألبر رأسه، وزعم أنه ليس للكتاب عنوان حتّى الآن، أو بالأحرى أنه كان يفكّر بثلاثة احتمالات مختلفة، ولم يستقرّ بعد على أي منها، وكان جواباً يحتمل الصّحّة، أو قد يكون تهرُّباً مُؤدّباً. في المرّة الأولى التي دخل فيها فيرغسون إلى حجرة دراسة ألبر، كان المخطوط على المكتب بالقرب من الآلة الكاتبة، لكنْ، بعد ذلك اليوم، اختفى المخطوط، ولا شكّ بأن كان في أحد أدراج المكتب الخشبي الكبير. وفي عدّة مناسبات خلال الفترة التي أمضياها معاً، وجد فيرغسون نفسه وحيداً في الشّقّة بينما ألبر في الخارج لقضاء أمر ما في الحيّ، ممّا يعني أنه كان باستطاعته الذهاب إلى حجرة الدراسة وسحب المخطوط من الدرج الذي يختبئ

فيه، بيد أن فيرغسون لم يفعل ذلك قطّ، لأنه لم يُرِد أن يكون ذلك الشخص الذي يفعل أشياء مثل هذه، ذلك الذي يخون ثقة الآخرين وينكث الوعود، ويتصرّف بخبث سرّاً عندما لا يراقبه أحد، وبالنسبة إليه، كان النظر إلى مخطوط ألبر يعادل سرقته أو إحراقه؛ خيانة بغيضة لا تُغتفَر.

أبقى ألبر كتابَه سرّاً، لكنه كان مكشوفاً بطريقة مذهلة من نواحٍ أخرى، وحتّى متلهّفاً للحديث عن نفسه في بعض الأحيان، وخلال الأسابيع الأولى لهما معاً، عرف فيرغسون أشياء عديدة عن ماضيه. هجرَه والدُه عندما كان في السادسة من عمره، مثلما أخبر فيفيان في الليلة لقائهما في الريد هول، لكنْ، بعد سبع عشرة سنة من انقطاع التواصل، تذكّره والده في وصيته، تذكّرَه بقرابة ستّين ألف دولار، ما يكفي للعيش في باريس لخمس سنوات دون أن يقلق بصدد أي شيء عدا روايته. قربُه من والدته التي نبذَتها عائلتُها الكاثوليكية المتزمّتة بعد أن تزوّجت من رجل أسود، وحتّى بعد رحيل الرجل الأسود، ورغبةِ العائلة بالصفح والنسيان، أبقَت الأمّ القوية المفعمة بالحياة نفسها منبوذة عن قصدٍ، لأنها لم ترد أن تصفح أو تنسى. مونتريال، مدينة لا تخلو من السود والأعراق المُختلطة، مدينة كبُرَ فيها ألبر كطفل جميل، كصبي متفوّق في الرياضة، كصبي متفوّق في المدرسة، لكنْ، في منتصف المراهقة، ازدادت معرفته بأنه كان *مُختلفاً* عن معظم الفتية، سواء كانوا من السود أم البيض أم المختلطين، والخوف من أن تكتشف والدته الأمر الذي كان من شأنه أن يُدمّرها، ولهذا السبب، رحل عن مونتريال في السابعة عشرة من عمره للدراسة في أميركا، في جامعة هوارد التي كان طلابها جميعهم من السود، في واشنطن التي كانت سوداء في معظمها، جامعة جيّدة، لكنْ، في مكان فاسد، وشيئاً فشيئاً، خلال سنته الأولى هناك، أصابه الفساد. الخمر أوّلاً، ثمّ الكوكايين، فالهيروين، الانهيار العظيم في ارتباك متلبّد الإحساس ويقين ساخط، مزيج قاتل جعلَهُ يعرُج عائداً مونتريال، إلى حضن والدته، لكنْ، أن يكون ابناً مدمناً للمخدّرات أفضل من أن يكون ابناً شاذّاً، فكّر في نفسه، لكنها جرّتهُ بعد ذلك إلى جبال لورنتيال في الصيف، وحبسَته في حظيرة من أجل ما أطلقَت عليه اسم علاج مايلز ديفيس، أربع ليال مُتتالية من التّقيّؤ والتّغوّط والصراخ، تناقضات الارتعاد والعويل في مراكز معالجة الإدمان، المواجهة الوحشية مع عدميتِه المزرية والإله الضئيل الذي يرفض الاعتناء به، ثمّ أخرجَته والدته من الحظيرة، وظلّت تجلس معه بهدوء خلال الشهرين التاليين، حيث تعلم تناول الطعام من جديد، والتفكير من جديد، وتوقّف عن الشعور بالشفقة على نفسه. عاد إلى هوارد في الخريف، ومنذ ذلك اليوم فصاعداً، لم يشرب قطرة من نبيذ أو بيرة أو أي خمر، ولم يُدخّن نفحة من الحشيش أو شمّة من الكوكايين، ومع أنه كان نظيفاً طوال السنوات الثماني الفائتة، إلا أنه لا يزال في رعب شديد من أن قدمه قد تزلّ، وسيموت بجرعة زائدة، وعندما قال

ألبر لفيرغسون هذه القصّة في اليوم الثالث لهما معاً، عزم فيرغسون على التّوقّف عن شرب الكحول في حضور ألبر، فيرغسون الذي كان يستلذّ بالكحول، ويستمتع بشرب النبيذ بقدر ما يستمتع بالجنس تقريباً، لم يعد يشرب مع السّيّد بر العزيز، وكلا، لم يكن ذلك مُمتعاً، لم يكن ممتعاً على الإطلاق، لكنه كان ضرورياً.

بعد عشرة أيّام من ذلك اليوم الثالث، بدأ فيرغسون بالكتابة من جديد. كانت خطّته الأصلية أن يعود إليها رويداً رويداً من خلال استعراض بعض مقالاته القديمة من المدرسة الثانوية لرؤية إذا ما كان يمكن إنقاذ أي منها، لكنْ، بعد فحص دقيق لمقالته عن أفلام جون فورد التي لا تحكي عن الغرب الأميركي، والتي كان يشعر بأنها أفضل مقالة كتبها، وجَدها فجّة وناقصة، ولا تستحقّ المزيد من التفكير. كان قد تطوَّر كثيراً من ذلك الوقت، فلماذا العودة إلى المرحلة التي يتحرّق فيها للانطلاق إلى الأمام؟ لقد كدّس ما يكفي من الأمثلة الجيدة للبدء بكتابة مقال عن صورة الطفولة في الأفلام، ومنح التّطوّر المستمرّ لـ "خردة وعباقرة" عنواناً أبسط وأكثر مباشرة "للسينما والأفلام"، تمييزٌ سيسمحُ له باستكشاف الخطّ الضبابي في معظم الأحيان بين الفنّ والترفيه، لكنْ، في خضمّ تأمّلاته بصدد أي المقالات سيكتب أوّلاً، طرأ شيء جديد، شيء كبير بما يكفي، ليشمل كلا الفكرتين، وكان فيرغسون مُستعدّاً للبحث فيه.

أرسلَ جيل رسالة من أمستردام، فضلاً عن مجموعة من الكُتُب والكرّاسات والبطاقات البريدية، من منزل آن فرانك في برينسينغراخت 263، والذي كان قد زاره مع والدة فيرغسون في آخر يوم لهما في المدينة. صار متحفاً الآن، كتبَ غيل، وبإمكان الزّوّار أن يصعدوا السلالم إلى المُلحَق السّرّيّ، ويقفوا في الغرفة التي كتبَت فيها آن فرانك الصغيرة مذكّراتها، ولأنه تذكّر كم كان فيرغسون مأخوذاً بذلك الكتاب عندما قرأه في مادّة اللغة الإنكليزي للصف الثامن في ريفرسايد أكاديمي، *واستحوذ عليكَ، لدرجة اعترفتَ بأنكَ تكنّ "إعجاباً عظيماً" بآن فرانك، وذهبتَ ذات مرّة بعيداً في القول بأنكَ "تحبّها بجنون"، أعتقدُ أن مرفقات الرسالة ستثير اهتمامكَ. أدري بأنه ثمّة شيء غير لائق بصدد اشتهاء هذه الفتاة المسكينة، تابع غيل. بعد الكتاب الأكثر مبيعاً، وبعد المسرحية والفيلم، تحوّلت آن فرانك إلى صورة شعبوية عن الهولوكوست في نظر الجمهور غير اليهودي في أميركا وغيرها، لكنْ، لا يمكن للمرء أن يلوم آن فرانك على هذا، آن فرانك ميتة، والكتابُ الذي كتبَتْه عمل فنّيّ رائع، عملُ كاتبة ناشئة بموهبة أصيلة، ولا بدّ من القول بأنني ووالدتكَ تأثّرنا بشدّة بزيارة ذلك المنزل. بعد أن أخبرتنا عن المقالة التي تخطّط لكتابتها عن الأطفال في الأفلام، لم يسعني سوى أن أفكّر بكَ عندما نظرتُ إلى الصور التي علّقتها آن على*

جدار المُلحق السّرّي، قصاصات من صحف ومجلات لنجوم هوليوود - جنجر روجرز، وغريتا غاربو، وراي ميلاند، والأخوات لين - ما قادني إلى أن أشتري لكَ الكتاب لكتاباتها غير ذات *الصلة باليوميات، حكايات من المنزل المجاور. ألقِ نظرة على قصّة "أحلام نجومية الأفلام"، قصّة خيالية من إشباع الرغبة عن فتاة أوروبية في السابعة عشرة من عمرها، واسمها آن فرانكلين (لم تصل آن فرانك إلى السابعة عشرة)، والتي تكتب إلى بريسيلا لين في هوليوود، ثمّ تتلقّى أخيراً دعوة لقضاء إجازة الصيف مع عائلة لين. رحلة طويلة بالجوّ عبر المحيط، ثمّ عبر القارّة الأميركية، وبمجرّد الوصول إلى كاليفورنيا، تأخذها بريسيلا إلى استوديو وارنر برادرز، حيثُ تُصوَّر الفتاة وتُختبَر - وينتهي بها المطاف بالعمل كعارضة لملابس لعبة التنس. يا له من هَذيان! وتذكّر، أيضاً، يا آرتشي، الصورة التي ألصقَتها آن فرانك على دفتر مذكّراتها مع عنوان توضيحي يقول: "هذه صورةٌ لي تمثّل كيف أتمنّى أن أبدو طوال الوقت. بعدها، قد أحظى بفرصة للدخول إلى هوليوود". مذبحة الملايين، نهاية الحضارة، وثمّة فتاة هولندية صغيرة تحلُم بهوليوود، وقُدِّر لها أن تموت في مخيّم. ربّما ترغبُ بالتفكير في هذا.*

أصبح هذا مشروعَ فيرغسون التالي، مقال بطولٍ غير محدّد بعد، وبعنوان "آن فرانك في هوليوود". لن يكتب عن الأطفال في الأفلام فقط، بل عن تأثير الأفلام على الأطفال، وخاصّة أفلام هوليوود، وليس على الأطفال الأميركيين فحسب، بل الأطفال حول العالم، لأنه تذكّر أن قرأ في مكان ما عن الفتى الهندي ساتياجيت راي الذي كتبَ رسالة إعجاب إلى النجمة الشّابّة دينا دوربن في كاليفورنيا، ومن خلال الاستعانة براي وآن فرانك كمثالين أساسيين، سيكون قادراً أيضاً على استعراض فجوة الفنّ - الترفيه التي كان يفكّر بها منذ أن بدأ يفكّر بالأفلام. الإغراء في الدخول إلى عالم موازٍ من السِّحْر والحرّيّة، الرغبة في دعم المرء نفسه بقصص آخرين أكبر من الحقيقة، وأفضل من الواقع، النفسُ التي تسبح في الهواء خارج نفسِها، وتترك الأرض وراءها. ليس موضوعاً تافهاً، وفي حالة آن فرانك، كان مسألة حياة وموت. السينما والأفلام. آن التي كانت محبوبته ذات يوم، آن التي لاتزال محبوبته، تُحاصَرُ في الملحق السّرّيّ، وتتوق إلى الذهاب إلى هوليوود، تموت في الخامسة عشرة، تُقتَل في بيرغن بيلسن في سنّ الخامسة عشرة، ثمّ تصنع هوليوود فيلماً عن السنوات الأخيرة من حياتها، وتحوِّلُها إلى نجمة.

ليس لديكَ أي فكرة عن مدى أهمّيّة هذه الأشياء بالنسبة إليّ، كتبَ فيرغسون إلى زوج والدته، شاكراً إيّاه على الرسالة والكُتُب. *لقد بلورَت أفكاري ومنحَتني مدخلاً جديداً إلى ما أريدُ الكتابة عنه. حقّاً. بفضلكَ، ارتفع مضمون هذا الأمر إلى مستوى جديد من الجدّيّة، ولا يسعني إلا أن آمل بأن يكون بمقدوري العمل عليه بإنصاف. ملابس رياضة التنس. قُرى بأسلاك*

شائكة، تحرسُها رشّاشات آلية. غريتا غاربو تضحكُ لأوّل مرّة. مَرحٌ على شواطئ كاليفورنيا، بينما يتفاقم وباء التيفوئيد في عاصمة الطين. حان وقتُ الكوكتيلات! حان وقت مناجم الكلس، يا أطفالي الصغار الجوعى الذين توشكون على الموت! كيف يمكن لأحدنا أن يحبّ الآخر بعد ذلك؟ كيف يمكننا أن نواصل التفكير بأفكارنا الأنانية بعد ذلك؟ كُنتَ هُناك، يا جيل، ورأيتَ ذلك بأمّ عينكَ، وتنفّستَ الروائح، ومع ذلك، وهبتَ حياتَكَ للموسيقى. من المستحيل أن أخبرَك كم أحترِمكَ! وكم أحبّكَ!

إن التواجد مع ألبر يعني عدم التواجد مع ألبر خلال الجزء الأكبر من ساعات النهار. ألبر في شارع ديكارت، يُضيفُ الكلمات إلى روايته، وفيرغسون في عليّته، يقرأ كُتُباً من قائمة جيل، ويعمل على مقالته، ثمّ، قرابة الساعة الخامسة، يضعُ فيرغسون قلمَه جانباً، ويسير باتّجاه منزل ألبر، أحياناً يلعبان كرة السّلّة، وأحياناً لا، وبناء على ذلك، يتجوّلان بعدها في السوق المفعم بالضجيج في شارع موفتار، ويتسوّقان من أجل إعداد العشاء، أو لا يتسوّقان لإعداد العشاء، ويذهبان إلى مطعم، ولأن فيرغسون لا يستطيع تحمّل تكاليف الأكل في المطاعم، يدفعُ ألبر ثمن وجبته (لطالما كان كريماً بالمال، ويُخبر فيرغسون في كل مرّة بأن *يتناول الطعام*، وينسى *الأمر*)، ثمّ، بعد الذهاب، أو عدم الذهاب، إلى السينما (الذهاب عادةً)، يعودان إلى الشّقّة في الطابق الثالث مقابل ملعب كرة السّلّة، ويتقدّمان ببطء إلى السرير، ما عدا الأُمسيّات التي يذهب فيها ألبر لتناول العشاء في شقّة فيفيان، حيثُ يقضي الليل في غرفة فيرغسون الصغيرة في الطابق السادس.

تخيّل فيرغسون أن هذه الحال ستستمرّ إلى الأبد، وإن لم يكن للأبد، فلفترة طويلة، لأشهر عديدة، ولسنوات مديدة، لكنْ، بعد مئتين وستّة وخمسين يوماً من العيش في ذلك الروتين الآسِر، حدث الشيءُ الذي أفزعَهُ بصدد والدته، في الصباح الذي ودّعَها فيه في أيّار، على نحوٍ غريب ومفاجئ لوالدة ألبر. وصلَت برقيّة في الساعة السابعة صباحاً من الحادي والعشرين من كانون الثاني، بينما كان الاثنان نياماً في سرير ألبر في شارع ديكارت، طرق البوّاب بقوّة باب المنزل، وقال: *سيّد دوفرن، برقيّة عاجلة لكَ*، وفجأة قفز الاثنان من السرير، وارتديا ثيابهما، ثمّ قرأ ألبر البرقيّة، البرقية الزرقاء بالأنباء السوداء بصدد أن والدته قد تعثّرَت وسقطَت على الدرج في منزلها في مونتريال، وتوفّيت في السّتّين من عمرها. لم يقل ألبر شيئاً. أعطى البرقية لفيرغسون، وواصل الصمت، وبحلول الوقت الذي انتهى فيه فيرغسون من قراءة البرقية، والتي انتهَت بعبارة عُدْ إلى المنزل فوراً، بدأ ألبر بالعويل.

سافرَ إلى كندا في الساعة الواحدة من ظهر اليوم نفسه، وبسبب العديد من القضايا العائلية المعقّدة والمسائل المالية التي ينبغي أن يحضرها في أثناء تواجده هناك، ولأنه قرّر الذهاب إلى نيو أورليانز بعد دفن والدته *لمعرفة المزيد عن حياة والده*، بحسب ما كتبه لفيرغسون في إحدى الرسائل، انتهى به المطاف بقضاء شهرين في الجانب الآخر من العالم، ولأنه لم يكن قد تبقّى من حياة فيرغسون سوى ثلاثة وأربعين يوماً، بدءاً من اليوم الذي رحل فيه ألبر عن باريس، فإنهما لن يريا بعضهما مرّة أخرى.

كان فيرغسون هادئاً. كان يعلم أن ألبر سيعود في وقتٍ ما، وفي هذه الفترة، سينكبّ على عمله، ويستفيد من غياب ألبر بالعودة إلى عادته القديمة بشرب الكحول، كأساً تلو أخرى من النبيذ المُسكِر إذا لزِم الأمر، فعلى الرغم من هدوئه، إلا أنه كان قلقاً أيضاً بشأن ألبر الذي صعقَتهُ البرقيّة، وبدا شبه ممسوس عندما ودّعا بعضهما في المطار، وماذا لو لم يعد قادراً على التّحمُّل، وزلّت قدمه نحو التعاطي مرّة أخرى؟ حافِظ على هدوئكَ، قال لنفسه، وأخذ كأساً أخرى من النبيذ، حافِظْ على هدوئكَ، وواصل المضي قُدماً. كانت مقالة آن فرانك بطولٍ يزيد عن مئة صفحة حتّى الآن، وتطوّرت إلى كتاب، كتاب آخر سيتطلّب سنة على الأقلّ حتّى ينتهي، لكنْ، لم يعد ذلك في كانون الثاني، بل صار في شباط، ولم يبقَ على موعد نشر *لوريل وهاردي* سوى شهر واحد فقط، وبدأ يجد صعوبة في التركيز.

لم يعد أوبري إلى باريس منذ زيارته القصيرة في نيسان، لكنه تبادلَ مع فيرغسون عشرات الرسائل على مدى الأشهر العشرة الماضية. كثيرٌ من التفاصيل الكبيرة والصغيرة عن الكتاب، لكنْ، أيضاً تلميحات ودودة وهزلية عن الساعات التي أمضياها معاً في غرفة في الطابق الخامس من فندق جورج الخامس، وعلى الرغم من أن فيرغسون كتبَ بأنه يعيش تقريباً مع أحدهم في باريس، ظلّ حاكم الجان الأقزام مِقداماً، وكان على أتمّ استعداد لإعادة الفعالية، أو عدّة فعاليات أخرى، خلال زيارته القادمة كمؤلِّف إلى لندن. بدا أن الأمور تجري هكذا في العالم الخالي من النساء الذي يسافر فيه فيرغسون الآن. ومثلما أوضح له ألبر ذات مرّة، فإن قواعد الإخلاص المعمول بها بين النساء والرجال لا تنطبق على الرجال والرجال، وإذا كان ثمّة ميزة بأن تكون شاذّاً خارجاً عن القانون مقابل أن تكون مواطناً متزوّجاً ومطيعاً للقوانين، فهي الحُرّيّة بأن تضاجع بإرادتكَ أي شخص ترغب به في أي وقت تشاء - طالما أنكَ لم تؤذِ مشاعر شريككَ الأوّل. لكنْ، ماذا يعني هذا بالضبط؟ ألا تُخبِر شريككَ الأوّل بأنكَ كنتَ مع شخص آخر، افترضَ فيرغسون، وفي حال كان ألبر مع شخص أو عدّة أشخاص في أثناء رحلاته

عبر أميركا الشمالية، فلن يرغب فيرغسون بمعرفة ذلك، ولن يقول شيئاً لألبر إذا ما انتهى به المطاف بمضاجعة أوبري في لندن. كلا، ليس *إذا*، قال لنفسه، بل *عندما*، متى وأين وكم مرّة خلال الأيّام العشرة التي سيقضيها في إنكلترا، فعلى الرغم من أنه أحبَّ ألبر، إلا أنه رأى أوبري شخصاً لا يُقاوَم.

كانت الخطّة بأن يصدر الكتاب في السادس من آذار، يوم الاثنين. سيحتفل فيرغسون بعيد ميلاده العشرين في باريس، في اليوم الثالث، ثمّ سيستقلّ قطاراً من محطّة الشمال في ليلة اليوم الرابع، ويصل إلى محطّة فيكتوريا في صباح اليوم الخامس. في معظم رسائله الأخيرة، أكّدَ أوبري أنه ثمّة مقابلات وفعاليات بانتظاره مثلما وعده، بما في ذلك أُمسيّة لوريل وهاردي في صالة السينما الوطنية؛ برنامج من الأفلام القصيرة من شأنه أن يجمع أفلام بيغ بيزنس بطول عشرين دقيقة، وتو *تارز* بطول إحدى وعشرين دقيقة، و*بلوتو* بطول ستّ وعشرين دقيقة، وأكثر فيلم مضحك في القرن، *صندوق الموسيقى*، بطول ثلاثين دقيقة، وبمجرّد أن وصلَ إليه قرار صالة السينما الوطنية، أمضى فيرغسون أسبوعاً كاملاً في كتابة تقديمات من صفحة واحدة لكل فيلم من الأفلام الأربعة، مذعوراً من فكرة أن يتجمّد أمام الجمهور إذا ما حاول أن يسترسل على المسرح بدون ورقة ملاحظات، ولأنه أراد أن تكون نصوصه القصيرة ساحرة وظريفة ومفيدة، تطلّب الأمر ساعات عديدة من الكتابة وإعادة الكتابة قبل حتّى أن يرضى نسبياً عن النتائج. لكنْ، كم كانت ممتعة تلك الليلة! - وكم كان مدروساً وسخياً هذا الشيء الذي فعله أوبري من أجله! - ثمّ، بعد أربع وعشرين ساعة فقط على انتهائه من كتابة التقديمات، وصلَت نسختان سلفاً من الكتاب بالبريد في ظهيرة يوم الأربعاء، الخامس عشر من شباط، وللمرّة الأولى في تجربة فيرغسون مع العالم، صار الماضي، والمستقبل، والحاضر واحداً. كتبَ الكتاب، وانتظرَ الكتاب، والآن، صار الكتاب بين يديه.

أعطى فيفيان نسخة، وعندما طلبَت من أن يوقّعها، ضحكَ فيرغسون وقال: لم أفعل هذا من قبل قطّ، كما تعلمين. أين يُفترَض بي أن أوقّع، وماذا يُفترض بي أن أكتب؟

صفحة العنوان هي المكان التقليدي، قالت فيفيان. وبإمكانكَ أن تكتب ما تريد. إذا لم تستطع التفكير بأي شيء، فما عليكَ سوى أن توقّع باسمكَ فقط.

كلا، لن يفي هذا بالغرض. يجب أن أكتب شيئاً. أمهليني دقيقة واحدة، اتّفقنا؟

كانا في غرفة المعيشة. كانت فيفيان تجلس على الأريكة والكتابُ في حجرها، لكنْ، بدلاً من الجلوس بجانبها، راح فيرغسون يمشي أمامها ذهاباً وإياباً، وبعد لحظات، ترك المنطقة حول الأريكة، وسار إلى الجدار الأبعد في الغرفة، ثمّ استدار يميناً، وسار نحو الجدار المجاور، ثمّ

استدار يميناً مرّة أخرى، وسار نحو الجدار المجاور، ثمّ استدار، وعاد إلى الأريكة، حيثُ جلس أخيراً بجوار فيفيان.

حسناً، قال، أنا جاهز. أعطني الكتاب، وسأوقّعه لكِ.

قالت فيفيان: أعتقدُ أنكَ أغرب شخص وأطرفه قابلتُهُ في حياتي، يا آرتشي.

أجل، هذا أنا. مُشاغِب ساخر أصيل. السّيّد مُضحِك بملابس مهرّج أرجوانية. والآن، أعطني الكتاب.

أعطتْهُ فيفيان الكتاب.

فتح فيرغسون على صفحة العنوان، ومدّ يده إلى جيبه ليسحب قلماً، لكنْ، ما إن أوشك على الكتابة، توقّف لبرهة، والتفت إلى فيفيان، وقال: سيكونُ قصيراً. آمل ألا يزعجكَ ذلك.

كلا، يا آرتشي، لا مشكلة على الإطلاق.

كتب فيرغسون: *إلى فيفيان، صديقة أثيرة ومُخلِّصة - آرتشي*.

دارَت الأرض ستّ عشرة مرّة أخرى، وفي مساء اليوم الثالث من آذار، كانوا يحتفلون بعيد ميلاده العشرين بعشاء صغير في الشّقّة. عرضَت فيفيان أن يدعو مَنْ يشاء، لكن فيرغسون رفض ذلك، شاكراً لها، إذ أراد أن يظلّ *هذا محصوراً على العائلة*، وعنى هذا الاثنين، فضلاً عن ليزا وألبر الغائب الذي كان يطوف جنوب الولايات المتّحدة مُحاولاً أن يقتفي آثار أفراد من عائلة والده، ومع أن فيرغسون أدرك سخافة الأمر، إلا أنه طلب من فيفيان أن تُخصِّص مكاناً لألبر، بالروح نفسها عندما تُرِك مكانٌ لإلايجا على مائدة عيد الفصح، وطلبَت فيفيان، التي لم ترَ هذا سخيفاً، من سلستين إعداد طاولة لأربعة أشخاص. بعد لحظات، قرّرت أن ترفع العدد إلى ستّة، كي تتّسع الطاولة لوالدة فيرغسون وزوجها أيضاً.

تبقّى له يومان من حياته، وكانت هذه آخر مرّة يتحدّث فيها إليهم، لكنْ، كانت المكالمة الهاتفية مُرتّبة سلفاً، وقبل ساعة من جلوسه لتناول العشاء مع فيفيان وليزا في ليلة اليوم الثالث، اتّصلَت والدتُه وجيل من نيويورك كي يتمنّيا له عيد ميلاد سعيداً وحظّاً طيّباً في رحلته إلى لندن. قال فيرغسون لجيل بأنه سيأخذ معه *صديقهما المشترك* (الكتاب الحادي والتسعين من القائمة)، والذي سيؤنسه في رحلتيه الطويلتين عبر نفق المانش (إحدى عشرة ساعة لكل رحلة)، لكنه يشكّ بأن يتسنّى له الوقت للقراءة في لندن، لأن جدوله صار مزدحماً جدّاً هناك. على أي حال، لن يتبقّى سوى تسعة كُتُب بعد هذا الكتاب، وكان وفيفيان يخطّطان للانتهاء من قراءتها جميعاً بحلول نهاية شهر أيّار، لكنْ، يا لها من متعة أن يعيش المرء داخل *الدماغ* المزدحم

لذلك الرجل الإنكليزي! قال مُعلِّقاً، وبعد أن يفرغ مع الأستاذة فيفيان من الكتاب المئة، يريدُ أن يلتفت إلى روايات ديكنز كلها التي لم يقرأها بعد.

ثمّ جاءت والدته وبدأت تتحدّث معه عن الطقس. إنكلترا مكان مبلّل، قالت، وينبغي أن يتذكّر أن يحمل معه مظلّة طيلة الوقت، ويرتدي معطفه المطري، وربّما أن يشتري جزمة مطّاطيّة لحماية حذائه وقدميه. في أي يوم آخر، كان فيرغسون سيشعر بالانزعاج. كانت تتحدّث إليه، كما لو كان طفلاً في السابعة من عمره، وعادةً ما كان يصدّها بتذمّر، أو يضحك عليها ببعض التعليقات الساخرة أو اللاذعة، لكنْ، في هذا اليوم تحديداً، لم يشعر بالانزعاج، بل كان مستمتعاً، دافئاً ومستمتعاً بالأمومة السرمدية التي لا تزال متأجّجة في داخلها. بالطبع لا، يا ماما، قال. لن أذهب إلى أي مكان دون أن أحمل مظلّتي. أعدكِ.

لكنْ، حدث أن ترك فيرغسون مظلّته في القطار لدى وصوله إلى لندن في صباح اليوم الخامس. لم يتقصّد أن يفقدها، لكنْ، في خضمّ التزاحم لجمع أغراضه، والخروج إلى رصيف المحطّة للبحث عن أوبري، نسيَ المظلّة. وأجل، كان المطر يهطل في المدينة في ذلك الصباح، على غرار ما توقّعته والدته بالضبط، لأن إنكلترا مكان مبلّل حقّاً، وكانت الروائح أوّل ما صدم فيرغسون، هجوم الروائح الجديدة التي دخلت إلى جسده في اللحظة التي زفر فيها هواء مقصورته، وتنفّس هواء المحطّة، روائح مخالفة تماماً لتلك الروائح في باريس ونيويورك، هواءٌ أقسى وأشدّ وَخزاً، مليء بانبعاثات مخلوطة من السِّتَر الصوفية الرطبة، والفحم المحترق، والجدران الحجرية المخضّلة، ودخان سجائر بلاير بتبغ فيرجينا ذي الحلاوة المفرطة، على النقيض من رائحة الغولواز الجافّة والروائح الدافئة لسجائر اللاكي والجمل. عالم مُختلف. كل شيء مختلف تماماً، ولأن الوقت كان لا يزال في أوائل آذار، ولم يأتِ الربيع بعد، كان ثمّة نوع جديد من البرد في العظام.

بعد ذلك، كان هناك أوبري الذي ابتسم ورمى ذراعيه الصغيرتين حول جسد فيرغسون، مُعلناً وصول الفتى الجميل أخيراً، وأنه ثمّة أسبوعاً جيّداً جدّاً بانتظارهما. انطلقا إلى موقف سيّارات الأجرة في الخارج، حيثُ حُشِرا معاً تحت قبّة مظلّة أوبري السوداء، وانتظرا دورهما. تحدّثا في البداية عن سعادتهما البالغة برؤية بعضهما مرّة أخرى، لكنْ، بعد بضع دقائق، كان الناشر أوبري يُخبر المؤلّف فيرغسون بأن المراجعات الأولى للكتاب قد بدأت بالوصول خلال الأيّام الماضية، وأنها كانت جميعاً جيّدة، باستثناء واحدة، مقالة ممتازة في *نيو ستيتسمان*، وإطراء في *الأوبزرفر*، كانت كل شيء جيّداً بالنسبة إلى الآخرين أيضاً بخلاف الهراء القذر في مجلّة *البانش*. كم هذا لطيف! قال فيرغسون، مُدركاً مدى أهمّيّة تلك الآراء بالنسبة إلى أوبري،

لكنه كان يشعر في داخله بأنه هذه المراجعات لا تعنيه على الإطلاق، كما لو أنها كُتِبَت بصدد كتاب شخص آخر، شخص يشارك الاسم نفسه، ربمّا، لكنْ، ليس الشخص الذي يستقلّ سيّارة أجرة لندنية للمرّة الأولى، واحدة من تلك السّيّارات السوداء الأسطورية الأشبه بالفيَلة، والتي شاهدها في الكثير من الأفلام على مرّ السنين، واتّضح أنها أكبر حجماً ممّا كان يتصوّر، شيء بريطاني آخر مختلف عن الأشياء الأميركية والفرنسية، وكم كان ممتعاً أن يجلس في المقصورة الخلفية الواسعة، ويُنصت إلى ثرثرة أوبري بصدد أسماء محرّري المجلات وكُتّاب المراجعات الذين لم يكن يعرف منهم أحداً، والذين لم يكونوا في نظره أكثر واقعية من شخصيات ثانوية صامتة في مسرحية من القرن الثامن عشر. ثمّ انطلقت سيّارة الأجرة باتّجاه الفندق، وفجأة لم تعُد ممتعة، وإنما مُقلِقة وحتّى مخيفة بعض الشيء. كانت عجلة القيادة على الجانب الخطأ من السّيّارة، وكان السائق يقود على الجانب الخطأ من الطريق! كان فيرغسون يعلم تماماً أن الإنكليز يقودون بهذه الطريقة، لكنه لم يختبرها بنفسه من قبل قطّ، وبحكم العادة الطويلة، وحياة كاملة من ردود الفعل الانعكاسية المُدمجة، جَعلتْه رحلته الأولى في شوارع لندن يجفل في كل مرّة ينعطف فيها السائق أو تقتربُ منهم سيّارة أخرى من الاتّجاه المعاكس، واضطرّ مرّات ومرّات إلى إغلاق عينيه خوفاً من حدوث اصطدام.

وصلا بأمان إلى فندق دورانتس في 26 شارع جورج؛ مكان ليس ببعيد عن صالة عرض والاس وكنيسة سانت جيمس الرومانية الكاثوليكية. أخبره أوبري بأنه اختار هذا الفندق لفيرغسون، لأنه بريطاني ومرموق على نحوٍ مثالي، لا يُمثّل لندن العصرية، بل مثال على ما أسماه لندن المُتثاقلة، بحانة مكسوّة بالخشب في الطابق الأرضي، والتي كانت مُحافِظة وسرّيّة بصورة مدهشة، لدرجة أن سي. أوبري سميث كان زبوناً دائماً فيها، على الرغم من أنه توفيّ قبل عشرين سنة.

وإلى جانب ذلك، تابعَ حاكم الجان الأقزام حديثَه، الأسِرَّة مريحة جدّاً.

أنتَ وعقلكَ القذر، قال فيرغسون. لا عجب أننا ننسجم إلى هذا الدرجة.

إن الطيور على أشكالها تقع، يا صديقي الأميركي الشّابّ. بعبثِ جذّاب في سراويلنا، وزوج من المهور الجميلة، لتحملنا إلى المدينة.

ساعد أوبري فيرغسون بتثبيت حجز الفندق، لكنه كان مضطرّاً للعودة سريعاً إلى المنزل بعد ذلك. كان يوم أحد، يوم عطلة المربّية، وكان قد وعد بالبقاء مع فيونا والأطفال حتّى وقت شاي ما بعد الظهيرة، حيثُ سيعود إلى الفندق لركوب المهرَ، ثمّ سيصطحب فيرغسون لتناول العشاء في الخارج.

فيونا تتوق شوقاً لمقابلتكَ، قال، لكن هذا لن يحدث قبل الغد، للأسف.

أما أنا، فأتوق شوقاً لعودتكَ هذه الظهيرة. بالمناسبة، متى وقت شاي بعد الظهيرة؟

فيما يتعلّق بنا، في أيّ وقت ما بين الرابعة والسادسة. بإمكانكَ أن تستريح حتّى ذلك الحين. بمقدور رحلات المانش تلك أن تكون شديدة القسوة بالنسبة إليكَ، ولا بدّ أنكَ تشعر بأنكَ مَقليّ - أو مُحمّص على الأقلّ.

صدِّق أو لا تصدِّق، تمكّنتُ من النوم في القطار، لذا أشعر أنني بخير. نيء، إن جاز القول. نيء وطازج ومتشوّق للانطلاق.

بعد أن أفرغ فيرغسون أمتعته، عاد إلى الطابق الأرضي، وذهب إلى غرفة الطعام لتناول الفطور الذي كان لا يزال يُقدَّم في الساعة العاشرة، وللمرّة الأولى، تذوّق المطبخ الإنكليزي، طبق كبير يحتوي بيضة مقلية من وجه واحد فقط (كثيرة الدسم، لكنْ، لذيذ)، وشريحتين غير مطبوختين جيّداً من لحم الخنزير المقدّد (مُنفِّرتان بعض الشيء، لكنْ، لذيذتان)، وقطعتين من نقانق الخنزير، وحبّة طماطم مطبوخة بشدّة، وقطعتين سميكتين من الخبز الأبيض المنزلي المدهون بزبدة ديفونشاير التي كانت أفضل من أي زبدة تذوّقها في حياته. كانت القهوة غير صالحة للشرب، لذا استبدل بها إبريقاً من الشاي، ولا شكّ أنه كان الشاي الأقوى في العالم المسيحي برمّته، لدرجة أنه اضطرّ إلى تخفيفه بماء ساخن قبل أن يتمكّن من شربه، ثمّ شكر النادل، ونهض عن كرسيه، وهرول مسرعاً نحو دورة المياه لقضاء جلسة طويلة غير سارّة مع أمعائه المقرقرة.

أراد أن يتمشّى في الخارج، لكن المطر الخفيف الذي كان يتساقط صباحاً أصبح غزيراً، وبدلاً من أن يحبس نفسه في غرفته، قرّر زيارة الحانة الخشبية الشهيرة، والبحث عن شبح سي. أوبري سميث.

كانت الحانة خالية في تلك الساعة، لكن أحداً لم يُمانع عندما سأل عمّا إذا كان في وسعه الجلوس هناك لمدّة من الوقت بانتظار أن يتحسّن الطقس (كان من المتوقّع أن يصير الجوّ مشمساً في فترة ما بعد الظهيرة)، ولأن الحمّال كان ودوداً جدّاً عندما سأله فيرغسون، قرّر الأخير أنه معجب بالإنكليز، ووجد أنهم أناس نبلاء وكرماء، غير مُتخشّبين كما قد يكون الفرنسيون، وغير محتدّين كما قد يكون الأميركيون، بل لطفاء وهادئون، أناس متسامحون يقبلون نواقص الآخرين، ولا يتدخّلون بشؤونكَ أو يبغضونكَ، إذا ما تكلّمتَ بلهجة خاطئة.

وهكذا، جلس فيرغسون في الخانة الخشبية الخاوية، واستغرق بالتفكير بالإنكليز لبعض الوقت، ولا سيّما بصدد سي. أوبري سميث والحقيقة اللطيفة، ولكنْ، غير المهمّة بشأن أن

الرجل الأكثر إنكليزية بين الإنكليز كلّهم، التجسيد الكبير لإنكلترا أمام الجمهور الأميركي في عدد لا يُحصى من الأفلام الأميركية، كان حاكماً آخر للجان الأقزام، وفي هذه الحالة، كانوا الجان الأقزام في أرض الأفلام، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن يُخرِج فيرغسون دفتر ملاحظاته الصغير الذي يحمله في جيب سترته، ويشرع بكتابة أسماء الممثّلين البريطانيين الذين عملوا في كاليفورنيا، وساهَموا، لدرجة لم يُدرِكها فيرغسون من قبل حتّى ذلك الصباح، في خلقِ ما يَعدّه العالم الآن *أفلاماً أميركية*. أسماء كثيرة جدّاً، وأفلام كثيرة جدّاً تحملُ تلك الأسماء على قوائم المشآرتشين في صناعتها، وبينما انكبّ فيرغسون على كتابة تلك الأسماء من رأسه، أو بالأحرى قَطفِها من داخل رأسه، كلٌّ على حدة، ضَمّن عناوين الأفلام التي شاهد فيها أولئك الممثّلين، وكان مذهولاً بالعدد، تَيهورٌ من الأفلام، والمزيد من الأفلام، والمزيد من الأفلام، أفلام كثيرة للغاية، وأخيراً، عدد هائل من الأفلام، ولا شكّ بأن هناك المزيد من الأفلام الأخرى التي نسيها أيضاً.

ولنبدأ بالاسم الأوّل في قائمته، ستان الذي لا مفرّ منه، شريك أولي، وِلدَ آرثر ستانلي جيفرسون في مدينة أولفرستون في سنة 1890، ثمّ أُخِذ إلى أميركا في سنة 1910 مع شركة فريد كارنو كبديل جاهز لشارلي تشابلن، شارك ستان لوريل في أكثر من ثمانين فيلماً، ما يزيد عن خمسين فيلماً مع شابلن، وعشرين فيلماً على الأقلّ مع سي. أوبري سميث (بمَنْ فيها *الملكة كريستينا*، و*الإمبراطورة القِرْمِزيّة*، و*حياة الرماح البنغالية*، و*بحور الصين*، و*اللورد الصغير فونتلروي*، و*سجين زندا*)، ومئات الأفلام الأخرى مع رونالد كولمان، وباسيل راثبون، وفريدي بارثولوميو، وغرير غارسون، وكاري غرانت، وجيمس ماسون، وبوريس كارلوف، وراي ميلاند، وديفيد نيفن، ولورنس أوليفيه، ورالف ريتشاردسون، وفيفيان لي، وديبورا كير، وإدموند غوين، وجورج ساندرز، ولورنس هارفي، ومايكل ريدغريف، وفانيسا ريدغريف، ولين ريدغريف، وروبرت دونات، وليو جي. كارول، ورولاند يونغ، ونيغل بروس، وغلاديس كوبر، وكلود رنيس، ودونالد كريسب، وروبرت مورلي، وإدنا ماي أوليفر، وألبرت فيني، وجولي كريستي، وآلان بيتس، وروبرت شاو، وتوم كورتيناي، وبيتر سلرز، وهربرت مارشال، ورودي ماكدويل، وإلسا لانتشستر، وتشارلز لوتون، وويلفريد هايد - وايت، وآلان موبراي، وإريك بلور، وهنري ستيفنسون، وبيتر أوستينوف، وهنري ترافرز، وفينلاي كوري، وهنري دانيال، ووينـدي هيلر، وأنجيلا لانسبري، وليونيل أتويل، وبيتر فينش، وريتشارد برتون، وتيرينس ستامب، وركس هاريسون، وجولي آندروز، وجورج أرليس، وليزلي هوارد، وتريفور هوارد، وسيدرك هاردويك، وجون غيلغد، وجون ميلز، وهايلي ميلز، وآليك غينيس، وريجنالد أوين، وستيوارت غرانغر، وجين سايمونز، ومايكل كين، وشون كونري، وإليزابيث تايلور.

توقّف المطر عند الساعة الثانية، لكنْ، لم تخرج الشمس. بدلاً من ذلك، امتلأت السماء

الغائمة بالمزيد من الغيوم، غيوم في غاية السماكة والضخامة، لدرجة أنها بدأت تنخفض، أخذَت تنزل ببطء من مكانها المعتاد في السماء حتّى لامست الأرض، وعندما خرج فيرغسون أخيراً من الفندق، كي يتمشّى قليلاً في الجوار، كانت الشوارع متاهة من الضباب. لم يسبقْ أن كان لديه وقت قصير كهذا، ممّا يُفترَض بأنه وضح النهار، واحتار كيف يمكن للإنكليز أن يمارسوا أعمالهم في هذا الضباب المخضّل، لكنْ، مرّة أخرى، قال لنفسه، من المرجّح أن الإنكليز يألفون الغيوم، فمن بين الأشياء التي عرفها من ديكنز، أن الغيوم في السماء فوق لندن تنزل بين الناس في زيارات مُتكرّرة الحدوث، وفي يوم مثل هذا، بدا وكأنها جلبت معها فراشي أسنانها، وكانت تخطّط لقضاء الليلة.

كانت الساعة الثالثة وبضع دقائق. قرّر فيرغسون العودة إلى الفندق، كي يجهّز نفسه لعودة أوبري، والتي قد تكون في وقت مبكّر كالرابعة، أو متأخّر كالسادسة، لكنه أراد أن يكون جاهزاً عند الرابعة على أمل أن يتمكّن أوبري من التّملّص من عائلته باكراً، وليس في وقت متأخّر. سيستحمّ في بادئ الأمر، ثمّ يرتدي هدايا عيد ميلاده التي اشترتها فيفيان من باريس في الأسبوع الفائت، سروال جديد وقميص جديد وسترة جديدة، والتي ستجعله يبدو *آية في الجمال*، كما قالت فيفيان، وكان يرغب بأن يبدو آية في الجمال بملابسه الجديدة من أجل أوبري، ثمّ ستُخلَعُ الملابس، وسيذهبان إلى السرير، ليفعلا ما فعلاه في فندق جورج الخامس، وكلا، لن يشعر بالذنب لذلك السبب، قال لنفسه، سوف يستمتع، وبقدر ما كان يعنيه ألبر، فسيعزّي نفسه بأن يتخيّل السّيّد بر يفعل الشيء ذاته مع شخص آخر، ويستمتع به مثلما كان يفعل تماماً، وبينما استغرق بالتفكير في أوبري وألبر وما بينهما من فوارق، ليس بالفوارق الجسدية بين فاتح وغامق وكبير وصغير فقط، بل بالفوارق الذهنية والفوارق الاجتماعية والفوارق ما بين تطلّعاتهما إلى الحياة، الأعماق البائسة لقلب ألبر على عكس الابتهاج الممتع الجامح لدى أوبري، سار فيرغسون عائداً باتّجاه الفندق، وتحوّلت أفكاره فجأة إلى المقابلة التي سيجريها معه صحفي من *التلغراف* في صباح الغد عند الساعة العاشرة، أوّل مقابلة له في حياته، وعلى الرغم من أن أوبري أخبره بألا يقلق، وأن يسترخي، ويكون *على سجيته فحسب*، إلا أنه لم يستطع منع نفسه من القلق بعض الشيء، وما المقصود بأن يكون على سجيته بطبيعة الحال؟ تساءل، كان ثمّة سجايا عدّة في داخله، بل سجايا عديدة، نَفْسٌ قوية ونَفْس ضعيفة، ونَفْس رزينة، ونَفْس متهوّرة، ونَفْس سخية، ونَفْس أنانية، أنفس مختلفة عديدة، لدرجة أنه كان في النهاية كبيراً، كأنه الكل، وصغيراً كأنه لا أحد، وإذا كان هذا صحيحاً بالنسبة إليه، فلا بدّ أن يكون صحيحاً للآخرين كلهم أيضاً، بمعنى أن كل شخص هو الكل واللا أحد في الوقت نفسه، ومع تلك الفكرة التي تتأرجح

في رأسه، وصل إلى تقاطع شارعي ماريلبون هاي وبلاندفورد، عند النقطة التي يتحوّل فيها ماريلبون إلى ثاير، تماماً عند الزاوية على مقربة من الفندق في شارع جورج، ومع أن الضباب كان يلتفّ حوله ويغطّيه، استطاع فيرغسون بصعوبة أن يرى الضوء الأحمر للإشارة الضوئية يومض في الضباب، ضوء أحمر وامض يُعادل علامة للتّوقُّف، لذا توقّفَ فيرغسون، وانتظرَ مرور سيّارة، لكنْ، لأنه كان تائهاً في أفكاره الحالمة عن الكل واللا أحد، أدار رأسه، ونظر إلى اليسار، أي أنه فعل ما يفعله دائماً عند عبور الشوارع طوال حياته، النظرة التلقائية الانعكاسية نحو اليسار، كي يتأكّد من خلو الشارع من السّيّارات، ناسياً أنه كان في لندن، وأنه يُفترَض في المُدُن والبلدات الإنكليزية أن ينظر إلى اليمين، وليس إلى اليسار، ولهذا السبب، لم يرَ سيّارة الفورد البريطانية الكستنائية التي كانت تقترب بسرعة عند منعطف شارع بلاندفورد، لذا نزل عن الرصيف، وبدأ بعبور الشارع، دون أن يفهم أن أولوية المرور كانت للسّيّارة التي لم يرها، وعندما اصطدمت السّيّارة بجسد فيرغسون، كانت الضربة قوية جدّاً، لدرجة أنه طار في الهواء، كما لو كان قذيفة بشريّة مُجوقلة أُطلِقت في الفضاء، شابّ في طريقه إلى القمر والنجوم وراءه، ثمّ بلغَ ذروة مساره، وبدأ بالهبوط، وعندما لامس الأرض، حطّ رأسه على حافّة الرصيف، وشقّ جمجمته، ومنذ تلك اللحظة فصاعداً، مُسِح كلُّ ما كان سيُولَد في المستقبل، داخل تلك الجمجمة، من أفكار وكلمات ومشاعر.

نظرَت الآلهة في جبالها إلى الأسفل، وتجاهلت ما حدث.

6.4

المكّار المُستهتر، نوح ماركس، الذي وعد بألا يعرض مخطوط كتاب *رحلات موليغان* على أحد سوى والده وزوجة والده، أخلف وعده ذاك عندما أعار نسخته لبيلي بيست ذي الأربع والعشرين سنة، وهو كاتب قصّة وطالب مُتسرّب من جامعة كولومبيا، والذي كان يكسبُ قوت يومه من العمل كمراقب لمبنى من أربعة طوابق، بدون مصعد، في غربي شارع 89 بين الجادّتين الأولى والثانية؛ شطر للطبقة العاملة في يوركفيل، ويُعرَف باسم منطقة رينلاندر. قبل سنتين، أسّس بيلي دار نشر صغيرة للكُتُب المستنسخة، أسماها غيزمو بريس، كانت عبارة عن عمل غير تجاري، مُناهض للتجارة، وأصدرت قرابة عشر كُتُب حتّى الآن، من بينها مجلّدات شِعْرِيّة لآن ويكسلر، ولويس تاركوفسكي، وابن مدينة تلسا رون بيرسون الذي أعطى مؤلّفَ رحلات *موليغان* نسخة من كتاب *الصمت* لجون كيج في شهر تشرين الأوّل. في تلك الأيّام التي سبقَت ظهور طباعة الأوفست الرخيصة، كانت النُّسخُ الشكلَ الوحيد المتاحَ أمام الكُتّابِ المفلسين الشباب في نيويورك لإنتاج الكُتُب والمجلات، وبعيداً عن كونها علامة على عدم الشهرة أو طريقاً باتّجاه واحد إلى تجاهُلٍ نهائي، فإنه يُنظَرُ إلى عملكَ المنشور في نسخة من قِبَل دار نشر مثل غيزمو بريس على أنه وسام شرف. تأتي الطبعة الواحدة في مئتي نسخة تقريباً. تُرسَم العناوين والرسوم التوضيحية بالأبيض والأسود على أغلفة من الورق المقوّى من قِبَل أصدقاء فنّانين لبيلي من وسط المدينة (غالباً سيرج غريمان أو بو غاينارد؛ رسّامون مبدعون ورشيقون، وساهمت أعمالهم في الأغلفة على تعميم النمط السائد لتصميم الغرافيك في منتصف السّتّينيّات، أسلوب اللحظة، والذي كان جريئاً، ويحاول ألا يتعامل بجدّيّة كبيرة)، ومع أنه كان ثمّة شيء رثّ وارتجالي بصدد الكُتُب التي تُطبَع على ورق بقياس 8.5 × 11 بوصة، كان المحتوى نظيفاً وقابلاً للقراءة، وبقدر وضوح أي كتاب مطبوع بالأوفست أو بمطبعة الكبس. كانت زوجة بيلي، جوانا، تُجهّز المرسام على آلتها الكاتبة من طراز ريمنغتون، والتي كانت كبيرة بحجم مكتب، في أحرف مطبعية أحادية المسافة، بهوامش يمينية لا مبرّر لها، عندما يكون العمل نثرياً، ثمّ يوضَع المرسام داخل آلة النسخ في غرفة عمل بيلي، ويُفرّغ من الطرفين الأيمن والأيسر لكل صفحة، يعمل أصدقاء ومتطوّعون

على ترتيب الصفحات، ثمّ تُخاط معاً بواسطة سلك غلاف (مشبَك). تُوزَّع معظم النُّسخ مجّاناً، من خلال إرسالها أو تسليمها للكُتّاب والفنّانين الزملاء، أما فيما يتعلّق بالنُّسخ الخمسين المتبقّية تقريباً، فكانت تُوزَّع على عدد قليل من بائعي الكُتُب في مانهاتن، الذين يؤمنون بالجيل القادم من الحداثة الأميركية، وعندما يتجوّل شابٌ في سوق غوثام للكتاب، أو في محلات بيع الكُتُب في الشارع الثامن، ويرى كتابَه المنسوخ في قسم العروض الحديثة للشِّعْر والأدب، فسيُدرك أن وجودَه ككاتبٍ قد بدأ.

كان يُفترَض بفيرغسون أن يغضبَ من قريبه الذي سمح لشخصٍ آخر أن يطّلع على الكتاب دون علمه أو إذن منه، لكنه لم يكن كذلك. كان نوح قد التقى مصادفة ببيلي بيست في أحد تجمّعات لور إيست سايد في منتصف شهر أيّار، بعد شهرٍ واحد من انتهاء فيرغسون من المخطوط، وأسبوعٍ واحد من زيارته الثالثة والأخيرة للطبيب برولير. بدأ نوح يُحدِّث بيلي عن عمل قريبه، وعبّر بيلي عن رغبته بالاطّلاع على الكتاب، وفي الأسبوع الأخير من أيّار، كان نوح يتحدّث إلى فيرغسون عبر الهاتف عندما أفشى السّرّ دون قصد. أعتذر، أعتذر، قال، وكان يعلم أنه لم يكن من المفترض أن يعرض المخطوط على أحد، لكنه فعلها على أي حال، وبما أن بيلي أُعجب كثيراً بـ *رحلات موليغان*، وأراد أن ينشرها، فلم يكن فيرغسون أحمق، لدرجة أن يمنع حدوث ذلك، صحيح؟ كلا، قال فيرغسون، بل كان موافقاً تماماً، ثمّ شكر نوحاً على مساعدته، ودخلا في محادثة استمرّت لنصف ساعة تقريباً، وبعد أن انتهت المكالمة، فهِم فيرغسون أنه ليس مهمّاً، إذا ما كان يظنّ بأنه ينبغي حرق الكتاب ونسيانه، كان بحاجة إلى الكتاب الآن، لأن حياتَه قد انتهت، وربّما سيكون نشر الكتاب طريقةً ليخدع نفسه بفكرة أنه لا يزال لديه مستقبل، حتّى لو لم يكن فيرغسون جزءاً من ذلك المستقبل، وكم كان مُلائماً أنه اختار نشر عمله تحت اسم رجل مقتول، جَدُّه من جهة أبيه، إسحاق الذي سقط صريعاً برصاصتين في مخزن للبضائع الجلدية في شيكاغو في سنة 1923، الرجل الذي كان يُفترَض بأن ينتهي اسمه بـ روكفلر، لكنه صار فيرغسون في نهاية المطاف، أبٌ لأبٍ اختفى من حياة ابنه، وجَدٌّ لحفيدٍ لن يعيش ليصير أباً.

أصبح بيلي بيست صديقاً جيّداً وناشِراً مُخلصاً لكُتُب فيرغسون الأولى، لكنْ، كان نوح ماركس الرجلَ الأفضل، وكلّما حاول فيرغسون أن يتخيّل نفسه بدونه، تعطّل دماغه، ورفض أن يعطيه جواباً.

تمكّنت جوانا الماهرة من تحويل صفحات المخطوط الإحدى والثلاثين بعد المئة مزدوجة المسافة إلى تسع وخمسين صفحة أحادية المسافة، وذلك عبر إزالة الفراغات التي سبقَت عنوان

كل فصل من رحلات موليغان الأربعة والعشرين، وبدأت بالرحلات الجديدة على صفحات القديمة نفسها، ممّا خفَّضَ الجزء الأفضل من عمل سنة كاملة إلى ثلاثين ورقة - بسماكة تكفي لشبكِه دون صعوبة. وبدلاً من الاستعانة ببو غاينارد أو سيرج غريمان لتصميم الغلاف، سأل فيرغسون بيلي إن كان يمكن تولّي هاوارد سمول هذه المهمّة، ولأن الأخير رسم العديد من الرسومات الجيّدة (موليغان جالساً أمام مكتب، يكتبُ أحد تقاريره في غرفة تغصّ بقطع أثرية وتذكارات من مغامراته)، صار أيضاً فرداً من عائلة غيزمو، وظلّ يُساهم بالأغلفة والرسوم التوضيحية، إلى أن أُغلقت الدار في 1970. تسعة وخمسون صفحة على ثلاثين ورقة - ما يعني أن الصفحة الأخيرة في الكتاب فارغة. سأل بيلي فيرغسون عمّا إذا كان يرغب بكتابة حاشية شخصية عن نفسه، كي يملأ ذلك الفراغ، وبعد تفكير بالأمر لمدّة أسبوع تقريباً، قدّمَ فيرغسون العبارتين التاليتين:

في كثير من الأحيان، في وسعكَ أن تجد إسحاق فيرغسون ذي التسعة عشر عاماً يتجوّل في شوارع نيويورك. إنه يعيش في مكان آخر.

لا مزيد من إيفي. لا مزيد من الزيارات إلى المنزل في إيست أورنج بعد الزيارة الأخيرة لمكتب الطبيب برولير في برينستون. لمْ يعُد بمقدور فيرغسون أن يحمل نفسَه على مواجهتها. لقد خذلَها وحطّم آمالها، ولم يكن يمتلك الشجاعة لينظر في عينيها ويُخبرها بأنه لن يكون أبداً الأب الشبحي للطفل الوهمي الذي اخترعَتْهُ، لتبقيهما معاً في مستقبل مُتخيَّل عندما تفضي الظروف إلى انفصالهما في نهاية المطاف. كم كانت حالة متشابكة! كم خَدعا بشدّة نفسيهما! والآن، بعد أن وضعَت كلمات الطبيب حدّاً لطموحاتهما الزائفة، التقط فيرغسون سمّاعة الهاتف، وأعلن تلك النهاية مثلما يفعل أي جبان آخر، حتّى إنه لم يجرؤ على الجلوس معها والتّحدّث بوجودها، وربّما التّوصّل إلى نتيجة مفادها بأن ليس الحدث الأكثر مأساوية في العالم، وأن بإمكانهما المضي قدماً على الرغم من ذلك. كانت إيفي مصدومة بقسوته. هذا سيّئ للغاية، قالت، وأشعر حقّاً بالأسف تجاهكَ، يا آرتشي، لكنْ، ما علاقة ذلك بنا؟

كل شيء، قال.

كلا، أنتَ مخطئ، أجابتْ، ليس هناك أيّ فرق، وإذا كنتَ لا تفهم ما أقوله لكَ الآن، فأنتَ لستَ الشخص الذي كنتُ أظنّ.

على الطرف الآخر من المُكالمة، كان فيرغسون يغالب الدموع في عينيه.

لم نكن سنستمرّ لفترة أطول، تابعَت إيفي كلامها، وربّما كنتُ حمقاء عندما أقحمتُكَ في

هذا الحديث عن الحمل، لكنْ، تبّاً، يا آرتشي، لقد أعطيتُكَ كلّ ما لديّ، وأنتَ مدين لي على الأقلّ بأدبِ الوداع الشخصي.

لا أستطيع، قال فيرغسون. إذا جئتُ لرؤيتكِ، فسأنهار وأبكي، ولا أريد أن تري بكائي.

هل سيكون فظيعاً إلى هذا الحدّ؟

إنه كذلك بالنسبة إليّ. أسوأ من أي شيء آخر.

انضَجْ، يا آرتشي. حاول أن تتصرّفْ كرجل.

أحاول ذلك.

ليس بما فيه الكفاية.

سأحاول أكثر، أعدكِ. الشيء المهمّ هو أنني لن أتوقّف عن حبّكِ أبداً.

توقّفتَ بالفعل. سئمتَ من علاقتنا، ولا تريد حتّى أن تنظر في وجهي.

ليس صحيحاً.

توقّفْ عن الكذب، أرجوكَ. وفي أثناء ذلك، يا آرتشي، رجاءً، من صميم قلبي، اذهبْ وضاجعْ نفسكَ، أيضاً.

في يوم الأربعاء، الخامس والعشرين من أيّار، بعد أسبوعين من تلك المحادثة الجهنّميّة مع إيفي، اتّصل نوح وفي جعبته خبر بأن بيلي بيست يرغب بنشر *رحلات موليغان*. تحدّث فيرغسون إلى بيلي في اليوم الخامس والعشرين، ورتبّا للقاءٍ يجمعهما يوم السبت، الثامن والعشرين، وبناءً على ذلك، لم يقضِ فيرغسون نهاية ذلك الأسبوع في برينستون للدراسة مع هاوارد من أجل الامتحانات النهائية مثلما كانت خطّته، بل ذهب إلى نيويورك في يوم الجمعة كالمُعتاد، لكنْ، بما أنه سبق وأخبر جَدّه بأنه لن يأتي في نهاية الأسبوع، ومن ثمّ نسيَ أن يُخبره بقدومه، فقد فاجأ بحضوره جَدَّه، لكنّ مفاجأة الأخير لم تكن سوى واحد بالمئة فقط من المفاجأة التي حدثت له نفسه.

على حدّ علمه، كان الشخصَ الآخرَ الوحيد الذي يحملُ نسخة من مفتاح الشّقّة. ومنذ انفصاله عن إيفي، عاد فيرغسون إلى الشّقّة مرّتين لقضاء عطلتَي نهاية أسبوع بمفرده في غرفة نوم جَدّه الإضافية، وفي كلتا الظهيرتين التي دخل فيهما إلى الشّقّة الهادئة، وجدَ جَدّه جالساً على الأريكة في غرفة المعيشة، يقرأ الصفحات الرياضية من *الواشنطن بوست*، لكنْ، عندما

أدخل مفتاحه في القفل، وفتح الباب هذه المرّة، سمعَ أصواتاً من غرفة المعيشة، ربمّا صوتان أو ثلاثة، لم يستطع أن يُحدّد العدد، لكنْ، لم يكن صوت جَدّه من بينها، وبمجرّد أن دخل إلى الشّقّة، كان أوّل ما سمِعَه بوضوحِ صوتَ رجُل يقول: ممتاز، *يا آل، أدخِلْ أيرِكَ فيها الآن*، ثمّ صوتَ *رجلٍ آخر يقول: وبمجرّد أن يفعل ذلك، يا جورجيا، تذكّري أن تُمسكي أير إد المنتصب، وتضعيه في فمكِ.*

كان ثمّة ممرّ قصير بين باب الشّقّة ومدخل غرفة المعيشة، وعندما مشى فيرغسون على رؤوس أصابعه بجوار الباب المُغلق لغرفة النوم الإضافية إلى يمينه، ثمّ بجانب المطبخ الصغير الضّيّق الذي كان إلى يمينه أيضاً، وصل إلى نهاية الجدار، وكان واقفاً على حافّة غرفة المعيشة، ومِن هُناك، رأى جَدّه جالساً بجوار رجلٍ يُدير كاميرا 16 ملم، وثلاث منصّات ضوئية شديدة السطوع بما لا يقلّ بالتأكيد عن ثلاثة آلاف واط لكل منها، ورجلاً آخر في وسط الغرفة يحملُ لوحاً تحت ذراعه، وثلاثة أشخاص عراة على الأريكة؛ امرأة ورجلان؛ امرأة بعينين فارغتين من أيّ تعبير، في قرابة الثلاثين من عمرها، بشَعْر أشقر مبيض، وصدر عارم، ومعدة ناتئة مترهّلة، ورجلان لا يمكن التمييز بينهما تقريباً (ربمّا كانا توأمين)، وحشان مكتنزان كثيفا الشَّعْر، بقضيبين منتفخين ومؤخّرتين زغبتين، وكانوا ينفّذون تعليمات المخرج والمصوّر.

كان جَدّ فيرغسون يبتسم. كان ذلك العنصرَ الأكثر نشازاً في تلك الصورة القذرة كلها - الابتسامة المرسومة على وجه جَدّه بينما يتفرّج الرجل العجوز على المرأة والرجلين الذين كانوا يلعقون بعضهم، ويتضاجعون على الأريكة.

كان المخرجُ أوّل مَنْ رآه، شابّ تافه ضئيل الحجم في أواسط العشرينيات من عمره، يرتدي سروالاً من الجينز وكنزة رمادية، الشخص نفسه الذي كان يتحدّث خلال العمل، لأنهم لم يكونوا يُسجّلون الصوت، سيُضاف لاحقاً بلا شكّ كسلسلة من الأنين والتّأوّه المُصطنع في أثناء عمليات ما بعد إنتاج هذه المحاولة السينمائية الأرخص على الإطلاق، وعندما لمح المخرجُ الشّابّ فيرغسون واقفاً في الممرّ خارج غرفة المعيشة مباشرة، قال: مَنْ أنتَ، بحقّ الجحيم؟

كلا، قال فيرغسون، مَنْ *أنتَ*، بحقّ الجحيم، وماذا تظنّ نفسكَ فاعلاً؟

آرتشي! صاح جَدُّه، بينما زالت الابتسامة، وتحوّلت إلى نظرة خوف. قلتَ لي بأنكَ لن تأتي هذا الأسبوع!

حسناً، غيّرتُ خططي، قال فيرغسون، وأعتقد الآن أنه يجب طرد هؤلاء الأشخاص من هذه الشّقّة.

اهدأ، يا شابّ، قال المخرج. السّيّد إدلر مُنتِجُنا. هو مَنْ دعانا إلى هنا، ولن نُغادر قبل الانتهاء من تصوير الفيلم.

أنا آسف، قال فيرغسون بينما كان يسير باتّجاه الأشخاص العراة على الأريكة، لكن حفلة اليوم انتهت. ارتدوا ثيابكم، وانصرفوا.

عندما أمسكَ بيد المرأة كي يجبرها على الوقوف، اندفع المخرج نحوه من الخلف، ولفّ ذراعيه حول جذع فيرغسون، فشبكَ ذراعيه على جانبيه. بعد ذلك، قفز أحد التوأمين العاريين عن الأريكة، ولكمَ بقبضته اليمنى معدة فيرغسون، كانت ضربةً مؤلمة، وأثارَت غيظ فيرغسون المُحاصَر، لدرجة أنه فكّ نفسه من المخرج الضئيل، وطرحَهُ أرضاً. قالت المرأة: اللعنة عليكم، أيّها الحمقى! أوقفوا هذا الهراء، ودعونا نُتابع.

قبل أن يتطوّر الأمر إلى عراك حقيقي، تدخَّل جَدّ فيرغسون، وقال للمخرج: هذا مؤسف جدّاً، يا آدم، لكنْ، أعتقد أننا يجب أن نتوقّف عن العمل اليوم. هذا الفتى حفيدي، وأنا بحاجة إلى الحديث معه. اتّصل بي غداً، وسنتّفق بشأن الخطوة التالية.

في غضون عشر دقائق، غادر المخرج، والمصوّر، والممثّلون الثلاثة. في ذلك الوقت، كان فيرغسون وجَدّه في المطبخ، جالسين في زاويتين متقابلتين من الطاولة، وما إن سمع فيرغسون صوت إغلاق الباب حتّى قال: أيّها العجوز الغبي! أنا مشمئزٌّ جدّاً منكَ، لا أريدُ أن أراكَ مرّة أخرى أبداً.

مسحَ جَدّه عينيه بمنديل، ونكسَ بصره باتّجاه الطاولة. يجبُ ألا تعرفَ البِنتان شيئاً، قال، وكان يعني بذلك ابنتيه. إذا عرفتا ما حدث يوماً، فستموتان بسبب ذلك.

تقصد أنه ذلك سيميتكَ، قال حفيده.

لا تنبس ببنت شفة، يا آرتشي. عدني بذلك.

وبالنسبة إلى فيرغسون، الذي حتّى لم يخطر على باله أن يُخبِر والدته أو الخالة ميلدرد بما رآه في ذلك اليوم، فقد رفضَ إعطاء أي وعد، على الرغم من معرفته بأنه لن يخبر أحداً على الإطلاق.

أنا وحيد جدّاً، قال جَدُّه. كلُّ ما أردته القليل من اللهو.

بعض اللهو. أن تبدّد أموالكَ على فيلم إباحي من الدرجة الثالثة. ما مُشكِلتُكَ، على أي حال؟

ليس هناك ضرر. لم يتأذّ أحد. يقضي الجميع وقتاً طيّباً. ما المشكلة في ذلك؟

إذا كنتَ بحاجة إلى طرح هذا السؤال، فإنه لا أمل منكَ.

أنتَ قاسٍ جدّاً، يا آرتشي. كيف تراكَ أصبحتَ بهذه القسوة؟

لستُ قاسياً. مصدوم فقط، وأشعرُ بالغثيان قليلاً.

لا يُمكن أن تعرِفا أبداً. إذا وعدتَني بألا تخبرهما، سأفعلُ أي شيء تريده.

توقَّفْ فقط، هذا كلّ شيء. أوقِف الفيلم، ولا تعُد لمثل هذا أبداً.

اسمعْ، يا آرتشي، ماذا لو أعطيتُكَ بعض المال؟ هل سينفعُ ذلك؟ أدري أنكَ لم تعد تريد البقاء هنا معي، لكنْ، إذا كان لديكَ بعض المال، فسيكون في مقدوركَ أن تخرج وتجد لنفسكَ شقّة أخرى في نيويورك. هذا مناسب، صحيح؟

هل تُحاول رشوتي؟

سمِّها ما شئتَ. لكنْ، في حال أعطيتُكَ خمسة ... ستّة ... كلا، فلنقل ... عشرة آلاف دولار ... فسيساعدكَ هذا المبلغ كثيراً، أليس كذلك؟ بإمكانكَ أن تستأجر شقّة صغيرة في مكان ما، وتقضي الصيف بالكتابة، بدلاً من ذلك العمل الذي أخبرتني عنه. ماذا كان مرّة أخرى؟

إزالة المُخلّفات.

إزالة المُخلّفات. يا لها من مضيعة للوقت والطاقة!

لكنني لا أريدُ مالكَ.

بل تريده بالطبع. كل شخص يريد المال. كل شخص بحاجة إلى المال. عُدَّ هذا المبلغ بمثابة هدية.

بمثابة رشوة، تقصد.

لا، بمثابة هدية.

أخذ فيرغسون المال. وافق على عرض جَدّه بضمير مرتاح، لأنه في الحقيقة لم يكن رشوة، بل هدية، وذلك لأنه لم يكن لينطق بكلمة واحدة أمام والدته أو خالته بطبيعة الحال، وإذا كان جَدّه غنياً جداً، لدرجة أن بإمكانه تحمُّل كتابة شيك بعشرة آلاف دولار، فمن الأفضل أن يذهب المال إلى حفيده بدلاً من تمويل فيلم إباحي بائس آخر. لكنْ، كم كانت صدمة شديدة بأن يقع صدفة على ذلك المشهد الشّاذ! وكم بلغ جنون جَدّه وانحرافه في شيخوخته! أرمل ووحيد ودون أي قيود على الإطلاق، حرّ بالانغماس في أي نزوة فاجرة تأسرُ خيالَه، وماذا سيكون الإحراج التالي الذي سيجلبه الغد؟ كان فيرغسون لا يزال يحبّ جَدّه، لكنه خسر كل احترام يُكنّه له، وربّما صار

يحتقره الآن، ما يكفي لئلا يرغب بالتواجد معه في الشّقّة مرّة أخرى، ومع ذلك، ليس بنصف احتقاره لوالده الذي كان خرج كلّيّاً من حياته في ذلك الوقت، خرجَ لأسبابٍ تتعلّق إلى حدّ كبير بالمال، وها هو ذا يقبلُ مال جَدّه بسرور، ويصافحُه، ويشكرُه على ذلك. حالة معقّدة أخرى، مُفترقٌ مُروّع آخر في الطريق، ومثلما اكتشف لازلو فلوت في قصّة *يمين أو يسار أو إلى الأمام مباشرة*؟ فإنه أيّاً كان خيارُه، فسيكون لا بدّ خاطئاً.

بالرغم من ذلك، كانت العشرة آلاف دولار مبلغاً هائلاً في سنة 1966، مبلغاً يتجاوز الخيال. ومع وجود شقق صغيرة في أحياء نيويورك الفقيرة بإيجارات أقلّ من مئة دولار في الشهر، وأحياناً بما لا يزيد عن خمسين أو ستّين دولاراً، سيكون في وسع فيرغسون إيجاد مَهرَب من برينستون، وسيظلّ لديه ما يكفي من المال، كي يواصل حياته خلال فصول الصيف دون الحاجة إلى إيجاد وظائف صيفية. لم يكن ذلك خوفاً من احتمال إزالة المخلّفات في الفترة الفاصلة بين سنتي دراسته الأولى والثانية. كان يعلم، منذ فصول الصيف التي قضاها عندما كان في المدرسة الثانوية مع إيمي فريزر وريتشارد برينكرستاف، أن للعمل الوضيع الكثير من المزايا المُرضية، وأن بإمكان المرء أن يتلقّى دروساً نفيسة عن الحياة في أثناء ذلك، لكنْ، لا تزال أمامه سنوات عديدة من هذا النوع من العمل، وكانت فرصة التّوقّف المؤقّت عن الأحمال الثقيلة خلال فترة وجوده في الجامعة بمثابة استراحة محظوظة غير متوقّعة. هذا كلّه لأنه دخل على جَدّه صدفة، وقبض عليه متلبّساً. اكتشافٌ مقزّز، أجل، لكنْ، كيف لِمرء ألا يضحك على ذلك في الوقت نفسه؟ وهو، الذي سيُبقي فمَهُ مُغلقاً عن هذا الأمر حتّى خروج آخر أنفاس جسده من رئتيه، كان يتدحرج في كومة مال هو ثمنِ سُكوته. إذا لم تستطع أن تضحك على ذلك، فثمّة مشكلة ما لديكَ، شيء ليس على ما يرام في رأسكَ.

خرج فيرغسون لتناول عشاء من البيتزا والبيرة برفقة نوح في مطعم القرية، ثمّ أمضى الليلة على أرضية الغرفة الجامعية لقريبه في جامعة نيويورك، وفي اليوم التالي، عندما ذهب إلى شمال المدينة للقاء بيلي بيست، حدث معه المزيد من الأشياء المفاجِئة. كان بيلي مسترخياً وودوداً إلى حدّ كبير، وعاطفياً جدّاً في ثنائه على كتاب فيرغسون، والذي وصفه بأنه *أغربُ هراءٍ لعين* يقرؤه منذ زمن طويل، ومرّة أخرى، شكر المؤلّفُ الشّابّ بصمتٍ قريبَه، لأنه وضعه على تواصل مع هذا الشخص الذي لا يشبهُ أي أحدٍ آخر يعرفه. كان بيلي عاملاً فظّاً من الطبقة العاملة، وكاتباً رياديّاً رفيع الثقافة في الوقت ذاته، وُلِد ونشأ في المبنى الذي لا يزال يعيش فيه، وكان مُشرفاً على المبنى، لأنه ورث العمل عن أبيه، ابنٌ محلّيّ يتمتّع بذكاء الشارع، ويرعى الحيّ كما يفعل عمدةٌ في أفلام الغرب الأميركي الهوليودية، لكنه أيضاً مؤلّف لرواية هذيانيّة مُعقّدة، تقع أحداثها

خلال الحروب الفرنسية والهندية، بعنوان *رؤوس مُحطّمة* (أحبَّ فيرغسون العنوان جدّاً)، وأشعرَهُ الاستماعُ إلى صوت ناشره بطبقة التينور الشجية النيويوركية الأيرلندية - الأميركية، كما لو أن كلَّ طوب المباني في شرقي الشارع التاسع والثمانين تهتزُّ مع الكلمات. علاوة على ذلك، كانت زوجة بيلي الحامل، جوانا، تتحدّث بمثل صوته، كانت عَمليّة ومضيافة، سكرتيرة قانونية في النهار، وضاربة آلة كاتبة ومرسام في غيزمو بريس في الليل، كانت مَنْ ستتولّى العمل على كتاب فيرغسون بينما ينمو طفلها في داخلها، ستجلبُ طفل فيرغسون إلى الحياة، حتّى لو كان مجرّد كتاب، ولن تكون له أي علاقة أبداً بإنجاب أطفال حقيقيين، وعندما طلبَت منه جوانا وبيلي البقاء وتناول العشاء في أوّل ليلة سبت من صداقتهم الجديدة، أشارَ فيرغسون إلى أنه سيبحثُ عن شقّة في الأيّام المقبلة، وذلك بمجرّد أن يُصرَف الشيك الموجود داخل محفظته، ولأن بيلي وجوانا كانا يعرفان كل ما يحدث في حَيّهما الصغير، فقد أطلعاه على معلومة سرّيّة بصدد شقّة داخل المُجمع السَّكَني على بُعد ستّة مباني، استوديو من غرفة واحدة سيكون متاحاً للإيجار بعد أيّام قليلة من وجبتهم الأولى معاً، وبناءً على ذلك، انتهى المطاف بفيرغسون باستئجار شقّته في الطابق الثالث في شرقي الشارع التاسع والثمانين مقابل سبعة وسبعين دولاراً وخمسين سنتاً في الشهر.

كانت سنته الدراسية الأولى في برينستون قد شارفت على نهايتها. سيغادر هاوارد خلال الصيف للعمل في مزرعة الألبان التي يمتلكها عمّه وعمّته في جنوب فيرمونت، وعلى الرغم من أن فيرغسون دُعي للانضمام إليه في هذه المغامرة الريفية، إلا أن الحبيب السابق شبه المُحطَّم لإيفي مونرو، والذي صار في الوقت نفسه مؤلّفاً شبه مبعوث من الموت لكتاب *رحلات موليغان* الذي سيُنشَر قريباً، كان قد انسحب بالفعل من وظيفة إزالة المخلّفات، ويخطّط لقضاء الصيف في العمل على مشروعه الكتابي الجديد، *المُذكَّرة القِرمِزيّة*. ستأتي إيمي إلى المدينة خلال تلك الأشهر أيضاً (للعمل كمُساعدة تحرير في مجلّة تجارية تُدعى نيرسيس دايجست)، وكذلك حبيبي الجديد، لوثر بوند، الذي وجد وظيفة في قسم الأحداث الجارية في صحيفة *ذا فيليج فويس*. من جهة أخرى، فيما يتعلّق بسيليا فريدمان، فستكون في مكان بعيد جدّاً، مُستفيدة من المكافأة التي حصلَت عليها من والديها لقاء انتهائها من الدراسة الثانوية في وقت مبكّر: ستذهبُ إلى أوروبا في رحلة لمدّة شهرين برفقة قريبتها إيميلي ذات العشرين سنة. ومثلما توقّع، كان حبيبها بروس، المعروف أيضاً بالمنطقة العازلة البشرية، شيئاً من الماضي. وعدَت سيليا فيرغسون بأن تكتب له أربعاً وعشرين رسالة بالضبط، وطلبَت منه أن يحفظ تلك الرسائل في صندوق خاصّ تحت اسم *رحلات فريدمان*.

سيسافرُ نوح أيضاً، على نحوٍ مُفاجِئ في اللحظة الأخيرة، إلى شمال ماساتشوستس للمشاركة في مهرجان ويليامتاون المسرحي، وكان قد سعى إليه بسبب نزوة، لأن الفتاة التي كان يُلاحِقها أرادت المشاركة، لكنْ، بينما رُفِضَت الفتاة دون أي مقابلة، لم يحدث ذلك لنوح، وسوف يشارك في مسرحيتين مختلفتين خلال الصيف (*كلّهم أبنائي*، وفي *انتظار غودو*)، وهكذا، عادت خُطّته لصناعة نسخة ثانية من فيلم *سول مِتس* إلى الرّفّ مرّة أخرى. شعر فيرغسون بالارتياح. وأكثر من ذلك، كان سعيداً لنوح الذي كان دائماً أفضل ممثّلٍ يراه على خشبة المسرح، وقد حدث في سبع أو ثماني مناسبات على مرّ السنين، وعلى الرغم من أن نوحاً أراد بشدّة أن يصير صانع أفلام، أنِ اقتنع فيرغسون بأنه لديه ما يلزم ليصبح ممثّلاً من طراز رفيع، ليس في الأفلام الكوميدية فحسب، والتي كان ممتازاً فيها بالفعل، بل في الدراما أيضاً، لكنْ، ربّما ليس في أفلام التراجيديا، على الأقلّ ليس في كلاسيكيات الخمسينيات، حيثُ يَقتلعُ الرجال أعينهم، وتَسلُق الأمّهات أطفالهنّ، ويدُخل الأميرُ بينما تُزاح الستار ببطء عن مجزرة من الجثث الدامية. شعرَ فيرغسون أيضاً بأن نوحاً سيُضحك الناس بشدّة، لدرجة التّبوّل في سراويلهم، إذا ما قرّر القيام بعرض هزلي واقفاً، لكنْ، كلّما اقترح عليه ذلك، قطب نوح حاجبيه، وقال، *لستُ مهتمّاً*. لكنه كان مُخطئاً، اعتقدَ فيرغسون، مخطئاً تماماً في رفضِه، وفي إحدى الليالي، تكبّد فيرغسون عناء الجلوس لكتابة بعض النكات لنوح، كي يحثّه على البدء فقط، لكنْ، كانت النكات صعبة، صعبة جدّاً، لدرجة أنها لا تُحتمَل تقريباً، وبخلاف بعض مباريات التنس التي نظّمها مع هاوارد في وقت سابق من السنة، بدا أنه لا يمتلك أي موهبة بهذا الصدد. إن كتابة الجُمَل الطريفة في قصّة شيءٌ بحدّ ذاته، لكن الخروجَ بقفشات ضاربة لا تُنسى يتطلّبُ دماغاً من نوع مختلف عن ذاك المزروع في جمجمة فيرغسون.

ارتبطَت إيمي بلوثر منذ بداية شهر أيّار. الآن جاء حزيران، وبحسب آخر مكالمة هاتفية بينها وبين فيرغسون، لم تجد أخته غير الشقيقة والقوية الشرسة الجرأةَ بعدُ لإخبار والدها أو زوجة والدها عن الرجل الجديد في حياتها. خيّب هذا أمل فيرغسون الذي لطالما كان مُعجباً بشجاعة إيمي، على الرغم من أنه رغِبَ بعض المرّات بتقييدها أيضاً، أما السبب الوحيد الذي خطر في باله لتبرير تردّدها، فليس لأن حبيبها كان أسود البشرة، بل لأنه كان ميليشيوياً أسود البشرة، عضواً من حركة القوّة السوداء، ومتعصّباً إلى اليسار أكثر حتّى من إيمي، شخصاً مُخيفاً وضخماً بسترة جلدية سوداء وقبّعة بيريه سوداء فوق شَعْرِه الأفرو - تماماً من طينة الرجال الذي يُخيفون والد إيمي اللطيف المُسالم إلى حدّ الدخول في نوبة هلع لمدّة شهر كامل.

ثمّ غادرَ الاثنان بوسطن، وانتقلا إلى شقّتهما المستأجرة الصيفية في مرتفعات مورنينغسايد.

في مساء اليوم نفسه، التقيا بفيرغسون لاحتساء الشراب في حانة ويست إند، وعندما صافح فيرغسون يد لوثر بوند للمرّة الأولى، انفجرَ الكاريكاتور الذي رسمَه في رأسه إلى ألف قطعة عديمة القيمة. أجل، كان لوثر بوند أسود البشرة، وأجل، تدلُّ يده المتينة على رجل قوي جسدياً، وأجل، ثمّة نوع من العزم العنيد في عينيه، لكنْ، عندما نظرت تلك العينان إلى عيني فيرغسون، فهِمَ الأخيرُ أنهما لم تكونا تنظران إلى عدوّ، بل إلى صديقٍ مُحتمَل، إلى شخص يأملُ بصدقٍ أن ينال إعجابه، وإذا لم يكُن لوثر الإرهابيَ المليء بالكراهية والمولع بالقتال، كما في الكاريكاتور، فما مشكلة إيمي إذاً؟ ولماذا يا ترى لم تُخبِر والديها عنه؟

سيتحدّث إليها لاحقاً على انفراد بهذا الصدد، وسيفعل ما بوسعه لإقناعها بمنطقية الأمر، لكنه سيركّز في الوقت الحالي على السيّد بوند نفسه، من أجل معرفة أي نوع من الأشخاص كان. لم يكن شخصاً ضخماً، هذا ما كان واضحاً، لكنه شخص متوسّط القامة، بطول إيمي نفسه تقريباً، وإذا كان الشَّعْرُ مؤشّراً على معتقدات المرء السياسية، فإن الشَّعْر الأفرو المعتدل للوثر يشير إلى أنه يساري، لكنْ، في أقصى اليسار، بخلاف الشَّعْر الأفرو الكثيف لأعضاء *"الأسود جميل"*، وفيما يتعلّق بوجهه، حسناً، كان وسيماً إلى أبعد الحدود، فكّرَ فيرغسون، جميلاً جدّاً، لدرجة أن يكون *جذّاباً*، إذا كان من الممكن استخدام هذه الكلمة في وصف الرجال، وعندما كان فيرغسون يتفصّحُ ذلك الوجه، أدرك السبب وراء انجذاب إيمي إلى لوثر، وأنها لا تزال منجذبة إليه بعد ستّة أسابيع من الحديث والجنس المطّرد، لكنْ، إذا وضعنا تلك الأشياء الظاهرية جانباً لفترة قصيرة، التفاصيل العَرَضية بصدد طول قامته وشَعْره وتقاطيع وجهه اللطيفة، كان الشيء الأهمّ الذي اكتشفه فيرغسون بشأن لوثر أن الأخير يتمتّع بحسّ دعابة عالٍ، وكان هذا شيئاً يُقدّره فيرغسون في الأشخاص، لأنه كان نفسه محروماً من الظرافة في اللفظ، وهذا ما كان يجذبه إلى أشخاص مثل نوح ماركس وهاوارد سمول وريتشارد برينكرستاف، إذ كانوا جميعاً يتحدّثون بطريقة أفضل منه، وعندما أخبر لوثر فيرغسون أن زميله في السَّكَن في جامعة برانديز كان طالباً في السنة الأولى يُدعى تيموثي سوير، تيم سوير بعبارة أخرى، ضحكَ فيرغسون، وسألَ لوثر عمّا إذا كان ثمّة تشابه بين تيم وتوم، بيد أن لوثر نفى ذلك، وقال بأنّهُ يُذكّره أكثر بشخصية أخرى من كتاب مورك توانغ؛ هيك فانّ.

كان ذلك مُضحكاً، والنكتةُ المتعلّقة بمورك توانغ وهيك فون ظريفة حقّاً، من النوع نفسه، نكتتان بواحدة، التي كان يقولها هاوارد من غير تفكير في لحظات إلهامه، وحقيقةُ أنها أضحكَت إيمي، جعلت منها أكثر ظرافة، أكثر ظرافة بكثير دون ريب، إذا دلّ حجمُ ضحكتها على أنها تفاجأت، وأثبت ذلك أنها لم تسمع لوثر يقول أشياء كهذه من قبلُ قطّ، ممّا أشار بدوره إلى

أن لوثر لم يخترع هذه النسخة المُحرَّفة عن مارك توين وهاك فانّ قبل شهر أو سنة، وأخذ يكرّرها في الأرجاء بين أصدقائه، كلا، لقد اخترعَ الطرفةَ من فوره، هُنا تماماً في حانة وست إند، وأعجِبَ فيرغسون بعقلٍ سريع البديهة بما يكفي، وفطِن بما يكفي، لكي يخرج بمثل هاتين *التوريتين اللذيذتين*، أو، مثلما أراد أن يقول بصوت عالٍ، لكنه لم يستطع، مثل هاتين التوريتين اللاذعتين. بدلاً من ذلك، ضَحِك مع أختِه الناخرة غير الشقيقة، ثمّ سألا السّيّد بوند عمّا إذا كان يرغب بكأسٍ ثانية من البيرة.

كان قد سبق لفيرغسون أن حصل على بعض المعلومات عن خلفية لوثر والدرب العجيب الذي قطعَهُ من قلب مدينة نيوآرك في نيو جيرسي، إلى جامعة برانديز في نيو إنغلاند، أشياء أخبرتَه بها إيمي عبر الهاتف على غرار السنوات السبع التي أمضاها لوثر في أكاديمية نيوآرك، إحدى أفضل المدارس الخاصّة في المنطقة، والتي لم يدفَع أيٌّ من والده سائق سيّارة الأجرة أو والدته الخادمة أجورَ الدراسة فيها، بل تولىّ ذلك أربابُ عمل والدتِه، سِيد وإدنا واكسمان؛ زوجان ثريان من ساوث أورنج كان قد قُتِل ابنهما الوحيد في معركة الثغرة، ثُنائي غير مألوف من روحين حزينتين وقعتا في هوى لوثر عندما كان ولداً صغيراً، والآن، بعد أن فاز لوثر بمنحة برانديز، يفعلُ الزوجان واكسمان الأمر ذاته مع شقيقه الأصغر، سبتيموس (سيبي)، وماذا بصدد اختلافاتهم؟ قالت إيمي لفيرغسون عبر الهاتف، عائلة يهودية ثريّة، وعائلة سوداء مُكافِحة، مُتّحِدتان إلى الأبد في الولايات المنفصلة الأمريكية - ها!

بناءً على ذلك، كان فيرغسون على دراية بحقيقة أن حبيب إيمي درسَ في أكاديمية نيوآرك عندما جلس ثلاثتهم لاحتساء الشراب في ويست إند، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن يصل الحديث إلى نيوآرك نفسها، ثمّ إلى نيوآرك وكرة السّلّة؛ الرياضة التي كان قد مارسها كل من لوثر وفيرغسون في المدرسة الثانوية، ولأنه صادَف أن وردَت كلمتا *نيوآرك* و*كرة السّلّة* في الجملة نفسها بصورة غير متوقّعة، استحضرَ فيرغسون الصالة الرياضية في نيوآرك، حيثُ لعبَ في المباراة التي انتهت بعد *ثلاثة أشواط إضافية* عندما كان في الرابعة عشرة من عمره، وفي اللحظة التي ذكرَ فيها الكلمات ثلاثة أشواط إضافية، مالَ لوثر إلى الأمام، وأصدرَ صوت شخشخة صامتة غير مفهومة من مكان ما في مؤخّرة حلقهِ، وقال: لقد كنتُ هناك.

إذاً، تتذكّرُ ما حدث؟ قال فيرغسون.

لن أنسى ذلك أبداً.

هل شاركتَ في المباراة؟

لا، كنتُ جالساً في المُدرّجات بانتظار انتهاء مباراتكم، لكي تبدأ مباراتي.

رأيتَ التسديدة من نصف الملعب.

أبعَد رمية نظيفة على الإطلاق. مع طنين الجرس بالضبط.

وما جرى بعدها؟

أجل، رأيتُ ذلك أيضاً. كما لو كان بالأمس.

انسكبَ الأولاد من المدرّجات، وتلقّيتُ لكمةً قوية عندما هربتُ من الصالة، كانت قوية جدّاً، لدرجة أنها جعلتني أتألمُ لساعات.

كان هذا أنا على الأرجح.

أنتَ؟

لقد لكَمتُ شخصاً، لكنني لا أعرفُ مَنْ كان. البيض كلُّهم متشابهون، أليس كذلك؟

كنتُ الشخصَ الوحيد الذي تلقّى لكمةً في الفريق. يجبُ أن يكون أنا. وإذا كنتُ أنا، فلابُدّ أنكَ أنتَ منْ فعلها.

قالت إيمي: الأرضُ، التي كانت مُستقرَّة ذات يوم، تترنّحُ خارج مَدارها. تتدافعُ الأمواج بين المدّ والجزر عبر البحار السبعة، وتطمسُ البراكين المُدُن. أو أنا مَنْ تتخيّلُ الأشياء فحسب؟

ابتسمَ فيرغسون بإيجازٍ في وجه إيمي، ثمّ التفت إلى لوثر مرّة أخرى. لماذا فعلتَ ذلك؟ سأله.

لا أدري. لم أدرِ حينئذٍ، ومازلتُ عاجزاً عن التفسير الآن.

لقد ذُهِلتُ، قال فيرغسون. ليس باللكمة، لكنْ، بالسبب وراء اللكمة. الجنون في الصالة الرياضية، الكراهية.

تراكمَ ذلك تدريجياً، لكنْ، مع التعادُل الثالث في الأشواط الإضافية، أخذت الأمور منحى سيّئاً هُناك. ثمّ جاءت تلك الرمية، وانفجرَ الجميع.

حتّى ذلك الصباح، كنتُ فتاكُم الأميركي العادي البليد. شخصٌ يؤمن بالتّقدُّم *والسعي نحو غد أفضل*. لقد عالجنا شلل الأطفال، أليس كذلك؟ وكان من المفروض أن يأتي دور العنصرية بعدَه. كانت حركةُ الحقوق المدنية حبّةَ الدواء السِّحْرية التي ستُحوّل أميركا إلى مجتمع مصاب بعمى الألوان. بعد تلك اللكمة، بعد أن لكمتَني، صِرتُ فجأة أشدَّ ذكاء بصدد أشياء كثيرة. أنا ذكيٌّ جدّاً الآن، لا أستطيع التفكير بالمستقبل دون الشعور بالسّقم. لقد غيّرتَ حياتي، يا لوثر.

إذا كان الأمر يستحقّ، قال لوثر، فقد غيّرَت تلك اللكمة حياتي، أيضاً. في ذلك الصباح، تغلغلَت مشاعر الجمهور إلى داخلي، وأصبحَ غضبُ الجمهور غضَبي. لم أعد أفكّرُ بنفسي بعد ذلك، تركتُ الجمهورَ يفكّر بالنيابة عنّي، لذا فقدتُ السيطرة عندما فقدها الجمهور، فركضتُ إلى الملعب، وفعلتُ تلك الفعلة الحمقاء. لن أعود لمثلها أبداً، قلتُ لنفسي. من الآن فصاعداً، أنا المسؤولُ عنّي. يا إلهي! كان الذين أدخلوني إلى المدرسة من البيض، أليس كذلك؟ ماذا كنتُ أحملُ ضدّ البيض؟

على رسلكَ قليلاً، قالت إيمي. أنتَ محظوظ إلى الآن.

أعلم، أجاب لوثر. الخطّة أ: أن أجتهِد كي أصير محامياً مثل ثورغود مارشال، أن أجتهد كي أصير أوّل عمدة أسود لنيوآرك، أن أجتهد كي أصير أوّل عضو أسود في مجلس الشيوخ عن نيو جيرسي. لكنْ، إذا لم يحدث ذلك، فثمّة دائماً خطّة ب: أن أشتري بندقية آلية، وأتبَعَ كلمات مالكوم. *بأي وسيلة لازمة*. لا يفوتُ الأوانُ أبداً، صحيح؟

لنأمل ذلك، قال فيرغسون، بينما رفع كأسه، وأومأ موافقاً.

ضحِك لوثر. لقد أُعجبتُ بأخيكَ غير الشقيق هذا، قال لإيمي. إنه يُضحِكُني - ويعرفُ كيف يتلقّى لكمة. ربّما آلمَتْه ذراعُه ذلك اليوم، لكنْ، ماذا عن يدي؟ لقد ظننتُ أن مفاصل أصابعي كُسرت.

سيكون العمل كتاب *المُذكَّرة القِرْمِزيّة* صعباً، الأكثر تحدّياً بمراحل بالنسبة إلى مُحاولاته كلّها، وساورَت فيرغسون شكوك جدّيّة فيما إذا كان سيتوقّف عن تأليفه. كتابٌ عن كتاب، كتابٌ يمكن للمرء أن يقرأه ويكتب فيه أيضاً، كتاب بوسع المرء أن يَدخُل إليه كما لو كان حيّزاً مادّيّاً ثلاثي الأبعاد، كتابٌ هو العالمُ، ولكنه لا يزال في العقل، أُحجيّة، منظر طبيعي مفعم بالجمال والمخاطِر، وشيئاً فشيئاً، تتطوّرُ في داخِله قصّة من شأنها أن تُقحِم المؤلِّف الوهمي 'إف'. في مواجهة مع العناصر الأشدّ قتامة في نفسه. كتابُ أحلام. كتابٌ عن الحقائق المباشرة أمام أنف إف. كتاب مستحيل، لا يُمكن كتابته، وسيتطوّر بالتأكيد إلى فوضى من كِسَر عشوائية غير مُترابطة، إلى كومة من اللا معنى. لماذا يُحاول فعل شيء كهذا؟ لِما لا يختَرِع ببساطة قصّة أخرى، ويرويها مثلما يفعل أي كاتب آخر؟ لأن فيرغسون أراد فعل شيء مختلف. لأن فيرغسون لم يعد مهتمّاً بسرد المزيد من القصص. لأن فيرغسون أرادَ اختبار نفسه ضدّ المجهول، كي يرى ما إذا سينجو من الصراع.

المدخل الأوّل. في المُذكَّرة القِرمِزيّة، ثمّة الكلمات كلها التي تُنطَق بعد، وسنوات حياتي كلّها قبل أن أشتريَ المُذكَّرة القِرمِزيّة.

المدخل الثاني. ليست المذكّرة القِرمِزيّة مُتخيّلة. إنها مُذكّرة حقيقية، وليست أقلّ واقعيّة من القلم في يدي أو القميص الذي أرتديه، وهي الآن مُلقاة على مكتبي أمام ناظري. اشتريتُها قبل ثلاثة أيّام من متجر قرطاسية في جادّة ليكسينغتون بمدينة نيويورك. كان هناك العديد من المذكّرات الأخرى المعروضة للبيع في المتجر - مذكّرات زرقاء، ومذكّرات خضراء، ومذكّرات صفراء، ومذكّرات بنّيّة - لكنْ، عندما وقعَت عيناي على المذكّرات الحمراء، سمعت صوتها يناديني، وينطق اسمي. كانت شديدة الحمرة، لدرجة أنها كانت في الواقع قِرمِزيّة، لأنها سطعَت بمثل بهاء حرف الـ A على رداء هستر برين. الصفحاتُ داخل المذكّرة القِرمِزيّة بيضاء بالطبع، وهناك الكثير منها، صفحات أكثر ممّا يمكن لشخص أن يُحصيه في الساعات ما بين فجر يومٍ صيفي طويل وغسَقِه.

المدخل الرابع. عندما أفتح المذكّرة القِرمِزيّة، أرى النافذة التي أطلّ منها على عقلي. أرى المدينة على الطرف الآخر من النافذة. أرى امرأة عجوزاً تُنزِّه كلبَها، وأسمع عبر مذياع الشّقّة المجاورة أصواتاً من لعبة بيسبول. كُرتين، ضربتين، لاعبين إلى الخارج. حان وقت الرمية.

المدخل السابع. عندما أقلّبُ صفحات المذكّرة القِرمِزيّة، غالباً ما أرى أشياء ظننتُ أنني نسيتُها، وفجأة أجدُ نفسي عائداً إلى الماضي. أتذكّرُ أرقام هواتف قديمة لأصدقاء مُندثرين. أتذكّرُ الفستان الذي ارتدتْه إيمي يوم أنهيتُ المدرسة الابتدائية. أتذكّر تاريخ توقيع الماغنا كارتا. حتّى إنني أتذكّرُ أوّل مذكرة قِرمِزيّة اشتريتُها في حياتي. كان ذلك في ميبلوود، نيو جيرسي، قبل سنوات عديدة.

المدخل التاسع. في المذكّرة القِرمِزيّة، ثمّة طيور كاردينال، وشحارير حمراء الجناح، وطيور أبي الحنّاء. ثمّة بوسطن ريد سوكس وسينسيناتي ريدز. ثمّة ورود، وتوليب، وخشخاش. ثمّة صورة للثور الجالس. ثمّة لحية إريك الأحمر. ثمّة كرّاسات سياسية يسارية، وشمندر مسلوق، وقطع كبيرة من شرائح اللحم النيئة. ثمّة نار. ثمّة دماء. وفيها أيضاً رواية الأحمر والأسود، وحقبة الذعر الأحمر، وقصة قناع الموت الأحمر. ليسَت هذه سوى قائمة جزئية.

المدخل الثاني عشر. هُناك أيّام يتوجّب فيها على الشخص الذي يحمل المذكّرة القِرْمِزيّة ألا يفعل شيئاً عدا قراءتها. في أيّام أخرى، من الضروري بالنسبة إليه أن يكتُب فيها. يمكن أن يكون هذا مُزعِجاً، وفي بعض الصباحات، عندما أجلسُ كي أعمل، لا أكون على يقين أيّ النشاطين هو الصواب. يبدو أن الأمر يعتمد على الصفحة التي وصلتَ إليها في تلك اللحظة، لكنْ، بما أن الصفحات غير مُرقّمة، فمن الصعب أن تعرفَ مُسبّقاً. ذلك ما يُفسِّرُ أنني قضيتُ الكثير من الساعات العقيمة مُحدّقاً في الصفحات الفارغة. أشعرُ بأنه من المفترض أن أجد صورة هُناك، لكنْ، عندما لا يتجسّدُ أي شيء بعد جهودي، فغالباً ما يتملّكني الذعر. في إحدى المرّات، كانت الوقيعة شديدة جدّاً عليّ، لدرجة أنني خفتُ أن أفقد عقلي. اتّصلتُ بصديقي دبليو.، الذي يمتلك مذكّرة قِرْمِزيّة أيضاً، وأخبرتُه بمدى يأسي. "تلك هي مخاطر اقتناءِ مذكّرة قِرْمِزيّة"، قال. "إما أن تستسلم ليأسكَ وتنتظرَ انقضاءه، أو تحرق مذكّرتكَ القِرْمِزيّة، وتنسى أنكَ اقتنيتَها يوماً". ربّما كان دبليو. محقّاً، لكنني لا أستطيع فعل ذلك أبداً. أيّاً بلغ مقدار الألم الذي تسبّبُه لي، وبغضّ النظر عن مدى ضياعي في بعض الأوقات، فإنني لن أعيش بلا مذكّرتي القِرْمِزيّة أبداً.

المدخل الرابع عشر. على الصفحات اليمنى من المذكّرة القِرْمِزيّة، هناك ضوءٌ شفَقي مُسكِّن يظهَرُ في لحظات شتّى خلال اليوم، ضوء مُشابه لذاك الذي يسقط على حقول القمح والشعير ساعة الغسق في أواخر الصيف، لكنه أكثر توهُّجاً بطريقة ما، أكثر أثيرية، أكثر راحة للعين، في حين أن الصفحات اليسرى تُطلق ضوءاً، يجعل المرء يفكّر بظهيرةٍ باردةٍ في شتاء.

المدخل السابع عشر. الاكتشاف المذهل في الأسبوع الماضي عن إمكان الدخول إلى المذكّرة القِرْمِزيّة، أو بالأحرى أن المذكّرة القِرْمِزيّة أداة لدخول فضاءات مُتخيَّلة، ملموسة وحقيقية جدّاً، لدرجة أنها يمكن أن تتّخذ شكل الواقع. ليسَت فقط مجموعة لقراءة الكلمات وكتابتها، إذنْ، إنها مُعتزَلٌ موضعيّ، شقٌّ طوليّ مجهريّ في الكون قادر على التّمدّد، كي يسمح للشخص بالعبور في حال ضغطَت المذكّرة القِرْمِزيّة على وجهه، وتنفّس روائح أوراقها، مُغمض العينين. حذّرَني صديقي دبليو. من مدى الخطر الذي قد ينطوي عليه الذهاب في تلك الرحلات المُرتَجلة، لكنْ، بعد أن حقّقتُ اكتشافي، كيف بمقدوري أن أقاوم الرغبة المُلحّة في الانزلاق إلى تلك الفضاءات الأخرى بين الحين والآخر؟ أحضّر غداءً خفيفاً، وأرمي بعض الأشياء في حقيبة صغيرة (سترة، ومظلّة قابلة للطّيّ، وبوصلة)، ثمّ أتّصلُ بدبليو. لأخبره بأنني على وشك الانطلاق. يقلقُ بشأني باستمرار، أنا خائف، لكن دبليو. أكبر مني سنّاً بكثير (في عيد ميلاده الأخير، بلغ السبعين

من عمره)، ولعلّهُ فقدَ إحساسه بالمغامرة. حظّاً طيّباً، يقول لي، أيّها الأحمق، ثمّ أضحكُ عبر الهاتف، وأنهي المكالمة. حتّى الآن، لم أذهب لأكثر من ساعتين أو ثلاث ساعات متواصلة.

المدخل العشرون. يُسعِدني أن أُبلِغكم أن في المذكّرة القِرْمِزيّة لعنةً شعواء ضدّ كل شخصٍ أخطأ بحقّي.

المدخل الثالث والعشرون. لا تبدو الأشياء كلُها في المذكّرة القِرْمِزيّة على صورتها في الواقع. لا تتوافق نيويورك التي تسكُن في داخلِها، على سبيل المثال، مع نيويورك حياتي اليقِظة في الأوقات كافّة. حدث لي مرّة أنني كنتُ أسير في شرقيّ الشارع التاسع والثمانين، وانعطفتُ عند الزاوية إلى ما كنتُ أتوقّع أنه الجادّة الثانية، فوجدتُ نفسي في جنوب سنترال بارك على مقربة من دوار كولومبوس. لعلّ هذا حدث، لأنني أعرفُ تلك الشوارع بحميمية أكثر من أي شوارع أخرى في المدينة، بعد أن استقرّيتُ للتوّ في شقّة شرقيَّ الشارع التاسع والثمانين مع بداية الصيف، وبعد أن زرتُ جنوب سنترال بارك مئات المرّات منذ بداية حياتي في زيارة جَدّي الذي تقع شقّته غربيَّ الشارع الثامن والخمسين، ولمبناها مدخل آخر من جنوب سنترال بارك. يوحي هذا التشابك الجغرافي بأن المذكّرة القِرْمِزيّة أداة شخصية إلى أبعد الحدود بالنسبة إلى كل شخص يمتلكها، وأنه لا وجود لمذكّرتين قِرْمِزيتين مُتشابهتين، حتّى لو بدَت أغلفتُها جميعاً متطابقة. الذكرياتُ غير مُتواصلة؛ تحومُ من مكان إلى آخر، وتقفز فوق مروج واسعة من الزمن، مع وجود فجوات عديدة فيما بينها، وبسبب ما يُطلقُ عليه أخي غير الشقيق اسم الأثر الكمومي، فإن القصص المضاعفة، والمُتناقضة عادَة، التي توجد في المذكّرة القِرْمِزيّة لا تُشكّل سردية مُتواصلة. بدلاً من ذلك، تميلُ إلى التّجلّي كما يحدث في الأحلام - أي بمنطقٍ لا يبدو واضحاً بسهولةٍ في الأوقات كلها.

المدخل الخامس والعشرون. في كلّ صفحة من المذكّرة القِرْمِزيّة، ثمّة مكتب، والأشياء الأخرى كلها في الغرفة، حيثُ أجلس الآن. وعلى الرغم من أنه غالباً ما تعتريني رغبة بأخذ المذكّرة القِرْمِزيّة معي في نزهاتي عبر المدينة، إلا أنني لم أجد الشجاعة بعدُ كي أحملها عن مكتبي. من ناحية أخرى، عندما أتمشّى داخل المُذكّرة القِرْمِزيّة نفسها، يبدو لي دائماً أنني أحملُ المذكّرة القِرْمِزيّة معي.

وهكذا، بدأ فيرغسون سباحتَهُ الثانية عبر البحيرة، مُعتزَله الأشبه ببحيرة والدن، حيثُ يعمل ويعمل، ويقضي ما بين سبع إلى عشر ساعات وراء مكتبه يومياً. سيتحوّل الأمر إلى دفقة فوضوية طويلة، بغمرات متكرّرة وأطرافٍ، لم يسبق أن أصابها هكذا إرهاق من قبل، لكنْ، كان فيرغسون موهبة فطرية بالقفز في المياه العميقة المحفوفة بالمخاطر عندما لا يتواجدُ مُنقذو السباحة في الأرجاء، ونظراً لأن هذا الكتابَ لم يُكتَب من قبل أو حتّى يحلم به أحد من قبلِه، كان على فيرغسون أن يُعلِّمَ نفسهُ كيف يفعل ما يفعله في أثناء سير العملية. بدا أن الأمر يسير على هذا النحو بصدد كلّ ما كتبَه الآن، إذ حذفَ من الموادّ أكثر ممّا أبقى، مُقلِّصاً عدد المدخلات التي ألّفها ما بين أوائل حزيران وأواسط أيلول من 365 إلى 174، والتي مَلأت مئة وإحدى عشرة صفحة ثنائية التباعُد مطبوعة على الآلة الكاتبة من المسوّدة النهائية، ممّا جعل ثانيَ كُتُبِه بطول رواية قصيرة أقصر بقليلٍ من كتابه الأوّل، وعندما اختُصِر أكثر على مرسام غيزمو أحادي التباعُد، جاء النّصّ في أربع وخمسين صفحة؛ رَقْم زوجي يعفي فيرغسون من المسؤولية المرهِقة بصدد كتابة ملاحظة ذاتية أخرى.

كان مُستمتعاً بالعيش في شقّته الصغيرة التي استأجرها من مال الرشوة، وخلال صيفه الأوّل فيها في سنة 1966، وبينما كانت جوانا تعمل على طباعة *رحلات موليغان*، ويُرهق فيرغسون نفسه بالعمل على صفحات *المذكّرة القِرْمِزيّة*، ظلّ يفكّر في العشرة آلاف دولار، وكم كان جَدّه ماكراً ومتكتّماً عندما فسّرَ "الهدية" لابنته روز، حيثُ اتّصل بها في اليوم التالي مباشرة، اليوم ذاته الذي التقى فيه فيرغسون بجوانا وبيلي بيست لأوّل مرّة، كي يُخبرها أنه أطلَق المُعادِل غير الرسمي لمؤسّسة روكفلر؛ مؤسّسة إدلر للرقي بالفنون، وأنه قدّمَ من فوره مكافأة بعشرة آلاف دولار لحفيده، من أجل تشجيعه على مواصلة عمله ككاتب. يا لها من أكمة ضخمة من الهراء! فكّرَ فيرغسون، لكنْ، كم هو مثير للاهتمام أن الرجل الذي كان غارقاً في خزيه حدّ البكاء، وكتب شيكاً ليستر ذنوبه، قد انقلبت حاله في اليوم التالي، وبدأ يتبجّحُ بما فعلَه. عجوز أحمق مجنون، لكنْ، عندما تحدّث فيرغسون إلى والدته من برينستون في يوم الاثنين التالي، اضطرّ إلى كبت ضحكته عندما أبلغَتْهُ بما أخبرها والدها به، التزييف الأكثر إذهالاً على الإطلاق، التفاخُر الشخصي المبالغُ حدّ إفراط بسخائه الفريد، وعندما قالت والدته، فكِّرْ فقط، يا آرتشي - أوّلاً، منحة والت ويتمان، والآن هذه الهدية الرائعة من جَدّكَ - أجابها فيرغسون، أعلم، أعلم، أنا الإنسان الأوفر حظّاً على وجه الأرض، وكرّرَ مُتعمّداً الكلمات التي قالها لو غيرغ في ملعب اليانكي بعد أن اكتشف أنه يُحتضر بسبب المرض الذي سُمّي باسم اللاعب نفسه في نهاية المطاف. عيشة

رغد، قالت والدة فيرغسون. أجل، هذه هي، عيشة رغد، وكم كان عالماً عظيماً وجميلاً إذا لم تتوقّف عن إجالة النظر فيه بانتباهٍ شديد.

مَرتبةٌ على الأرض، كرسيٌّ ومكتب وُجِدا على رصيف قريب، وسُحِبا إلى الغرفة بمساعدة بيلي، قدورٌ ومقالٍ اشتراها بثمن بخس من متجر غودويل ميشن المحلّيّ، ملاءات ومناشف وأغطية للسرير هدايا من أمّه ودان *بمناسبة الانتقال إلى بيت جديد*، آلة كاتبة ثانية مُستعملة من متجر أونسر للآلات الكاتبة في جادّة أمستردام، كي يتجنّب عبء نقل آلته من برينستون إلى نيويورك، ثمّ العودة بالعكس في كل جمعة وأحد، كانت من طِراز أوليمبيا، وصُنعَت في ألمانيا الغربية في سنة 1960 تقريباً، وأفضل، وأسرع، من محبوبته الموثوقة التي كانت من طراز سميث كورونا. أعشية مُتكرّرة مع الزوجين بيست، أعشية متكرّرة مع إيمي ولوثر، لقاءات عرَضيّة مع رون بيرسون وزوجته، بيج، رحلات فردية لأعشية مبكّرة في آيديال لانش كاونتر في الشارع السادس والثمانين شرقي؛ كوّة الطعام التي عُلّقَت فوق مدخلها لافتة كُتِبَ فيها: نُقدِّم الطعام الألماني منذ سنة 1932 (تاريخ مميّز، لكنْ، تبيّن أنه لا يمتّ *بأي صلة* بما حدث في ألمانيا في السنة التالية)، وكم كان فيرغسون يحبّ التهامَ تلك الأطباق الثقيلة التي تُنهِك المعدة، كرات لحم كونيغسبرغ وفيني شنيتزل، وسماع صوت النادلة الضخمة بارزة العضلات التي تصيح بلهجتها الثقيلة إلى المطبخ من وراء طاولة الاستقبال، *فان شنيتزل!*، والتي لم تفشل يوماً باستحضار ذكريات دان وجيل عن والدهما الميت، الجَدّ المجنون الآخر في العشيرة، الجَدّ المعتوه المشاكس لجيم وإيمي. كان الرجل الأوفر حظّاً على وجه الأرض محظوظاً أيضاً بلقاء ماري دونوهيو في ذلك الصيف، الشقيقة الصغرى لجوانا، ذات السنوات الإحدى والعشرون، والتي قضَت تلك الأشهر مع الزوجين بيست وفي العمل في مكتب، قبل أن تعود إلى آن آربر للبدء في سنتها الدراسية الأخير، ولأن ماري، الظريفة ممتلئة الجسد والمجنونة بالجنس، ارتاحت لفيرغسون من أوّل لقاء، فإنها كثيراً ما جاءت إلى شقّته ليلاً، وشاركَتهُ فِراشَه، ممّا ساعده على إضعاف الشوق المستمرّ الذي كان ما يزال يشعر به نحو إيفي، وأزاح تفكيره عن الفعل الوضيع الذي اقترفَه بحقّها عندما أنهى العلاقة دون وداعٍ مُناسب. جسدُ ماري الناعم العامر - مكان جيّد كي يغرقَ وينسى نفسه، أن يتخلّص من عبء كونه نفسه - وكان الجنس جيّداً، لأنه كان بسيطاً وعابراً، جنس دون شرط أو قيد، دون أوهام، دون أمل في أي شيء أكثرَ دواماً منه.

كانت خطّة فيرغسون المبدئية أن يُقحم نفسه ويحلّ مشكلة إيمي ولوثر بنفسه، أن يتصرّف بدون علمهما مثلما فعل نوح مع مخطوطه، ويتّصل بوالدته، كي يخبرها بما كان يحدث ويسألها

عمّا تظنُّهُ بصدد الطريقة التي سيتعامل بها دان مع الأخبار. ثمّ أعاد النظر في ذلك الأسلوب، وخلُص إلى أنه ليس لديه الحقّ في خداع أخته غير الشقيقة، أو التّصرّف دون موافقتها، ولهذا السبب، وذات مساء في أواسط حزيران، بينما كان فيرغسون وبوند وشنايدرمان في ويست إند، يدخّنون ويشربون جولة أخرى من السجائر والبيرة، سألَ ابنُ روز أختَه غير الشقيقة عمّا إذا كانت تسمحُ له بالتّحدّث إلى والدته بالنيابة عنها، من *أجل يُنهي هذا الهراء*. قبل أن تتمكّن إيمي من الإجابة، مالَ لوثر إلى الأمام، وقال، أشكركَ، يا آرتشي، وعقب ذلك ببرهة، قالت إيمي الشيء نفسه تقريباً، شكراً لكَ، يا آرتش.

في الصباح التالي، اتّصلَ فيرغسون بوالدته، وعندما أخبرها عن سبب اتّصاله، ضحكَت.

نحن على علمٍ بهذا من قبل، قالت.

تعلمون؟ كيف يمُكن لكم أن تعلموا؟

من الزوجين واكسمان. ومن جيم أيضاً.

جيم؟

أجل، جيم.

وكيف يشعر جيم إزاء ذلك؟

ليس مهتمّاً. أو مهتمّ بالأحرى، لأنه معجب جدّاً بلوثر.

وماذا عن دان؟

كان مصدوماً قليلاً في بادئ الأمر، إن جاز القول. لكنني أعتقد أنه تخطّى ذلك الآن. أعني، لا تخطّط إيمي ولوثر للزواج، أليس كذلك؟

ليس لديّ أي فكرة.

سيكون الزواج قاسياً. قاسياً بالنسبة إليهما، طريقاً قاسياً إذا ما قرّرا أن يفعلا ذلك، فضلاً عن أنه سيكون قاسياً بالنسبة إلى والدي لوثر أيضاً، خاصّة وأنهما لا يشعران بسرور كبير تجاه هذه العلاقة الصغيرة منذ بدايتها.

هل تحدّثتِ إلى الزوجين بوند؟

كلا، لكنْ، تقولُ إدنا واكسمان بأنهما قلقان على ابنهما. يعتقدان أنه قريبٌ من البيض أكثر ممّا ينبغي، أنّه فقدَ إحساسه إزاء بشرته السوداء. أكاديمية نيوآرك، وبرانديز الآن، ودائماً محبوب من قِبَل الجميع، محبوب من قِبَل البيض. دمث وليّن العريكة أكثر ممّا يجب، كما يقولان، وغيرُ

مُتمسِّك *بما* يؤمن به *في داخله*، ومع ذلك، في الوقت نفسه، هُما فخوران جدّاً به، وممتنّان كثيراً لما يُقدّمه الزوجان واكسمان من مساعدة للعائلة. إنه عالمٌ مُعقّد، أليس كذلك، يا آرتشي؟ وكيف تشعُرين إزاء هذا كله؟

ما يزال عقلي منفتحاً. لن أعرف بماذا أفكّر قبل أن تُتاح لي فرصة اللقاء بلوثر. قُل لإيمي بأن تتّصل بي، اتفقنا؟

سأفعل. ولا تقلقي. لوثر شابٌ جيّد، وأخبري إدنا واكسمان بأن تُخبِر الزوجين بوند بألا يقلقا أيضاً. ابنهما مُتمسِّك بما يؤمن به في داخله، لكنه ليس مُتطرِّفاً، وهذا كلُّ ما في الأمر. إنه متمسّكٌ بالمستوى المناسب، إن جاز القول، بمستوى يناسبه تماماً.

بعد شهر وأسبوع، كان فيرغسون، وماري دونوهيو، وإيمي، ولوثر، في الطريق شمالاً في البونتياك القديمة، متّجهين إلى المزرعة في جنوب فيرمونت، حيثُ كان هاوارد سمول يقضي فصل الصيف، وفي يوم الجمعة نفسه، في سيّارة أخرى، كانت والدة فيرغسون، ووالد إيمي، بالإضافة إلى خالة فيرغسون وشقيق زوج والدته، متّجهين إلى وليامرتاون في ماساتشوستس، حيثُ سينضمّ إليهم الطلاب الجامعيون الخمسة خلال المساء لمشاهدة أداء نوح الذي يُجسِّد دور لاكي في مسرحية *في انتظار* غودو. خنازير وأبقار ودجاج، والرائحة النتنة للروث في الحظيرة، وريحٌ تندفع إلى التلال الخضراء، وتدوِّم عبر الوادي، ويتمشّى هاوارد عريض الكتفين مُتثاقلاً إلى جانب الرباعي النيويورك الذي يتجوّل في أراضي عمّته وعمّه، والتي تبلغ مساحتها ستّين فدّاناً، وتمتدّ حتّى مشارف نيوفان. شعر فيرغسون بسعادة كبيرة عندما رأى صديقه من الجامعة مرّة أخرى، وكان من الجيّد أنه لم يكن لدى عمّته وعمّه أي هواجس من تأنيب الضمير بصدد ترتيبات نوم الطالِبات (ربمّا أصرّ هاوارد، وأجبرهما على الموافقة - أو شيء غير ذلك)، والآن بعد أن حُلّت المسألة ما بين إيمي ووالدها بشأن لوثر، كان الجميع مُرتاحين في تلك العطلة، بعيداً عن الإسمنت الحارّ والأبخرة المُتصاعدة في نيويورك، حيثُ تعدو إيمي بالقرب من مَرحٍ على صهوة حصانٍ كستنائي؛ الصورة المشهودة التي سيواصلُ فيرغسون تذوُّقها لسنوات بعد ذلك، لم يكن ثمّة شيءُ أهمّ وأكثر دواماً في الذاكرة من العرض المسرحي في مساء السبت في وليامرتاون، على بُعد خمسين ميلاً فقط المزرعة، المسرحية التي قرأها فيرغسون عندما كان في المدرسة الثانوية، لكنه لم يشاهدها على خشبة مسرح من قبل، ممّا دفعه إلى إعادة قراءتها في وقت مبكّر من ذلك الأسبوع، كي يُجهّز نفسه، لكنْ، اتّضحَ فيما بعد أنه ما من شيء بإمكانه أن يجعله جاهزاً لما رآه تلك الليلة، نوح بشَعْره المستعار الأبيض الطويل، يتدلّى تحت قبّعته المستديرة، وبالحبل الملفوف حول عنقه، العبدُ المُهانُ وحامل الأوزار، الأبله، المهرّج الصامت

الذي يسقط ويترنّح ويتعثّر، بخطوات رقصةٍ مُصمّمة بمنتهى الروعة، التثاقُل، الخدر، الاندفاعات العنيفة إلى الأمام والوراء، الدوخات وهو واقف على قدميه، الركلة غير المتوقّعة التي وجّهَها إلى ساق إستراغون، الدموع غير المتوقّعة التي انهمرَت على وجهه، الرقصة الشجية المعوجّة التي نفّذها عندما أُمِر بالرقص، السوط والحقائب التي رفعها وأنزلها مراراً وتكراراً، طيُّ كرسي بوزو وفتحُه مراراً وتكراراً، لم يبدُ معقولاً أن نوحاً قادر على فعل أشياء كهذه، ثمّ، في الفصل الأوّل، الخطاب الشهير، خطابُ بانتشر وواتمان، خطابُ الـ كواكواكوا، الخطبة الرّنّانة الطويلة من الرطانة المتبحِّرة عديمة التنسيق، وحلّق نوح فيها كما لو كان مغشياً عليه، عَرْضٌ مستحيل من التّحكّم بالأنفاس والإيقاع اللفظي المُعقّد، ويا إلهي، قال فيرغسون لنفسه، يا إلهي الملعون، بينما كانت الكلمات تتطاير من فم قريبه، ثمّ قفز الثلاثة الآخرون الواقفون على المسرح فوقَهُ، وضربوه بقسوة، وداسوا بأقدامهم قبّعته، ولوّحَ بوزو بالسوط مُهدِّداً مرّة أخرى، وقال له من جديد *قِفْ! يا خنزير!*، ثمّ يبتعدون، ويخرجون المسرح بينما لاكي شبه غائب عن الوعي.

بعد التهليل والتصفيق، أخذ فيرغسون نوحاً بين ذراعيه، واحتضه بشدّة، لدرجة أنه كاد يكسر أضلاعه. وبمجرّد أن صار نوح قادراً على التّنفّس من جديد، قال: يسرّني جدّاً أن العرض أعجبكَ، يا آرتشي، لكنني أعتقدُ أنني قدّمتُ أداء أفضل في معظم العروض الأخرى. معرفتي بأنكَ بين الجمهور، ووالدي، وميلدرد، وإيمي، ووالدتك - حسناً، وصلَتكَ الفكرة. ضغط، يا رجل. ضغط حقيقي.

عاد رُباعي نيويورك إلى المدينة ليلة الأحد، وفي الصباح التالي، الخامس والعشرين من تمّوز، دهسَت سيّارة رياضية الشاعر فرانك أوهارا على شاطئ في جزيرة النار، وقُتِل في سنّ الأربعين. ومع انتشار خبر الحادثة بين الكُتّاب والرّسّامين والموسيقيين في نيويورك، اجتاح رثاء عظيم أرجاء المدينة، وواحداً تلو آخر، بدأ شعراء وسط المدينة الشباب، الذين كانوا يعبدون أوهارا، بالانهيار والبكاء. بكى رون بيرسون، وبكت آن ويكسلر. بكى لويس تاركوفسكي. وفي الجزء الشمالي من المدينة، في شرقي الشارع التاسع والثمانين، لكمَ بيلي بيست جداراً بقوّة كبيرة، لدرجة أن قبضته اخترقت لوح الجصّ. لم يلتقِ فيرغسون بأوهارا قطّ، لكنه عرفَ أعماله، وكان مُعجباً بها لِما فيها من فوران وحرّيّة، ومع أنه لم ينهر أو يخرق جداراً بقبضته، إلا أنه أمضى اليوم التالي في إعادة قراءة كتابيَ أوهارا اللذين كان يمتلكهما: *قصائد على الغَداء*، و*تأمّلات في غرفة طوارئ*.

أنا الأقلّ صعوبةً بين الرجال، كتب أوهارا في سنة 1954. *كلّ ما أريدُه، حبٌّ بلا حدود.*

للوفاء بكلماتها، أرسلَت سيليا إلى فيرغسون أربعاً وعشرين رسالة بالضبط خلال الشهرين الذي

قضَتهُما خارج البلاد. رسائل جيّدة، شعرَ فيرغسون، رسائل مُتقنة الكتابة، تتضمّن العديد من الملاحظات الذكية عن تجاربها في دبلن، وكورك، ولندن، وباريس، ونيس، وفلورنسا، وروما، ولم تكن تختلف عن شقيقها، آرتي، فكانت تجيد النظر إلى الأشياء بعناية، بمزيد من الصبر والفضول أكثر ممّا يفعله معظم الأشخاص، مثلما يبرُز في هذه العبارة عن الريف الأيرلندي في إحدى رسائلها الأولى، والتي ستضبطُ إيقاع كل ما سيأتي بعدها: *أرض خضراء عديمة الأشجار، مُرقّطة بأحجار رمادية، وغدفان تحوم في السماء، سُكونٌ في قلب الأشياء كلها، حتّى عندما ينبضُ القلب، وتهبّ الرياح*. ليس سيّئاً بالنسبة إلى عالِمة أحياء مستقبلية، فكّرَ فيرغسون، لكنْ، بقدر ما كانت الرسائلُ ودّيّةً، لم يكن فيها أي حميمية أو بوح فيما يتعلّق به، وعندما عادَت سيليا إلى نيويورك في اليوم الثالث والعشرين من آب، بعد أن قبّلَتهُ ماري دونوهيو قبلة الوداع، وعادت إلى آن آربر بيوم واحد، لم يكن لدى فيرغسون أي فكرة عن مكانه بالنسبة إليها. كان ينوي أن يكتشف ذلك في أسرع وقت ممكن، لكنْ، بما أن سيليا بلغت السابعة عشرة والنصف من عمرها، فقد رُفع الحظرُ المفروض على الاتّصال الجسدي. بالنتيجة، الحبّ رياضة تواصلية، وكان فيرغسون يبحث وقتئذٍ عن الحبّ، كان *جاهزاً للحبّ*، لاستخدام كلمات من *فلنغنِّ للمطر*، وللأسباب القديمة والجديدة كلها أيضاً، كان يأمل أن يجد الحبّ بين ذراعي سيليا فيدرمان. في حال قبِلَت به.

صَعقَتْها شقّته العارية عندما جاءت لزيارته في اليوم السابع والعشرين من الشهر. كان المكتب جيّداً، كانت المرتبة جيّدة، لكنْ، كيف بإمكانه أن يُبقي ملابسه في صندوق كرتوني في الخزانة دون أن تكون لديه حقيبة أو سلّة للملابس المتّسخة، وأن يكتفي برمي جواربه وملابسه الداخلية على أرض الحمّام؟ ولماذا لا يحظى بخزانة للكُتُب بدلاً من تكديسها بجانب الجدار؟ ولماذا لا توجد لوحات؟ ولماذا يأكل على مكتبه علماً أنه ثمّة مُتّسع لطاولة مطبخ صغيرة في الزاوية؟ لأنه أراد أشياء قليلة قدر الإمكان، قال فيرغسون، ولأنه لا يهتمّ. أجل، أجل، قالت سيليا، وكانت تتصّرفُ مثل امرأة في منتصف العمر من الضواحي، وكان صدره يضيق، كما لو أنه مارق بوهيمي في أدغال مانهاتن، فهِمَت الأمر كله، ولم يكن ذلك يعنيها، لكنْ، ألا يريدُ أن يجعل المكان ألطف بقليل فقط؟

كانا يقفان في وسط الغرفة وضوءُ الشمس ينسكب عليهما، ينسكبُ عبر النوافذ، وعلى وجه سيليا، الوجهُ المُضاء لفتاة بعمر السابعة عشرة، وبجمالٍ أخّاذ، أذهل فيرغسون لمرآها، أذهلَه حدّ الصمت والمهابة والحَيْرة الخافقة، وعندما واصلَ النظر إليها، ينظرُ وينظرُ إليها، لأنه لم يكن قادراً على النظر إلى أي شيء آخر، ابتسمَت سيليا، وقالت، ما المشكلة، يا آرتشي؟ لماذا تُحدِّقُ بي بهذه الطريقة؟

أعتذِر، قال. لم أستطع أن أمنع نفسي. الأمر فقط أنكِ جميلة جدّاً، يا سيليا، جميلة إلى حدّ مدهش، وبدأتُ أتساءل عمّا إذا كنتِ حقيقية.

ضحِكَت سيليا. لا تكنْ سخيفاً، قالت. أنا لستُ حتّى حلوة. أنا فتاتُكَ العادية فحسب.

مَن الذي ملأكِ بهذا الهذر؟ أنتِ إلهة، مَلكةُ الأرضِ بأسرها، ومُدُن الجنّة كلها.

حسناً، لطيفٌ أنكَ تعتقدُ ذلك، لكنْ، ربّما ينبغي عليكَ أن تفحص عينيكَ، يا آرتشي، وتحصل على نظّارة.

غيّرَت الشمس موضعها في السماء، أو مرّت سحابة أمامها، أو بدأ فيرغسون يشعر بالإحراج بعد تصريحاته الجيّاشة، لكنْ، بعد أن قالت سيليا تلك الكلمات بأربع ثوانٍ، لم يعد الغرض الذي كانت تنظُر إليه موضوع النقاش، وعاد الموضوع مرّة أخرى إلى الطاولة التي لا يمتلكها فيرغسون، وإلى خزانة الكُتُب التي لا يمتلكها، وإلى خزانة الدروج التي لا يمتلكها، وإذا كان هذا يعني لها الكثير، قال، فربّما بإمكانهما استعارة عربة بيلي اليدوية، والخروج للبحث عن أثاث في الشوارع، وكان هذا الأسلوب المجربّ والفعّال لتأثيث الشقق في مانهاتن، ومع وجود الأثرياء في شمال شرق الضاحية الذين يتخلّصون من أشياء جيّدة بصورة يومية، فكل ما عليهما فعله أن يسيرا ضمن بضع كتل سكنية إلى الجنوب، ومثلها إلى الغرب، حيثُ لا بدّ أنهما سيعثران على الأرصفة على شيء ما ينالُ استحسانها.

أنا جاهزة، إذا كنتَ كذلك، قال سيليا.

كان فيرغسون جاهزاً، لكنْ، قبل المغادرة، كانت هناك بعض الأشياء التي أراد أن يريها إيّاها، ثمّ اصطحب سيليا إلى مكتبه، حيثُ أشار إلى صندوق خشبي صغير، كُتبَت عليه كلمات رحلات *فيدرمان*، وبمجرّد أن استوعبَت أهمّيّة ذلك الصندوق وما يُبرِزُه بصدد الوفاء لصداقتهما، فتح فيرغسون الدرج الأيمن السفلي للمكتب، وسحبَ نسخةً من طبعة دار نشر غيزمو لكتاب رحلات *موليغان*، وأعطاها لها.

كتابُكَ! قالت سيليا. لقد نُشِرا!

نظَرَت إلى الغلاف الذي رسمَه هاوارد، ومرّرت يدها برفق فوق رسم موليغان، وقلّبت لوقت قصير في صفحات الكتاب المنسوخ، ومن ثمّ، على نحوٍ لا يمكن توضيحه، تركت الكتاب يسقُط على الأرض.

لماذا فعلتِ هذا؟ سأل فيرغسون.

لأنني أريدُ أن أقبِّلكَ، قالت.

بعد برهة، لفَّت ذراعيها حوله، وضغطَت فمها على فمه، وفجأة، أحاط ذراعاه بها، وكان لسان كلٍّ منهما في فم الآخر.

كانت قبلتهما الأولى.

وكانت قبلة حقيقية، ممّا أدخل بهجة عظيمة إلى قلب فيرغسون، ليس فقط لأن القبلة وَعدَت بمزيد من القُبل في الأيّام المقبلة، بل لأنها أثبتَت أيضاً أن سيليا حقيقية.

كان التواصل منقطعاً بينه وبين والده منذ أكثر من سنة. ونادراً ما يفكّر به فيرغسون الآن، وكلّما حدث ذلك، يُلاحظ أن ما كان يشعُر به من غضَبٍ تجاه والده قد هَمدَ إلى نوع مملّ من اللامبالاة، أو ربّما إلى لا شيء، فراغ في رأسه. ليس لديه أب. تلاشى الرجلُ الذي كان متزوّجاً فيما مضى من والدته، وتحوّل إلى ظلال من عالَم رديف، لا يتقاطعُ مع العالم الذي يعيشُ فيه ابنه، وحتّى لو كان موت الرجل مازال غير مؤكّد، فقد نُسيَ منذ زمن طويل، ولن يُعثرَ عليه في المستقبل أبداً.

على الرغم من ذلك، قبل ثلاثة أيّام من انطلاقه إلى برينستون للبدء بسنته الدراسية الثانية، وبينما كان فيرغسون جالساً في غرفة المعيشة في الشّقّة في وودهول كريسنت يُشاهد مباراة لنيويورك ميتس مع أخيه غير الشقيق، جيم، وخطيبة جيم، نانسي، ظهرَ نبيّ الأرباح على الشاشة بغتةً خلال الفقرة الدعائية ما بين الأشواط. رجل رياضي بسالفين سميكين، تتخلّلهما لمسة من اللون الرمادي، يرتدي برّة عصريّة أنيقة (كان اللون مجهولاً، لأن التلفاز كان بالأبيض والأسود)، كان يُعلن عن افتتاح متجر فيرغسون جديد في فلورهام بارك، ويرشّ *الأسعار الرخيصة، الأرخص، أرخصُ أسعارٍ يمكن أن تدفعها*، ويدعو الناس للمجيء ومشاهدة التلفزيونات الملوّنة الجديدة التي تُنتجها مؤسّسة البثّ الأميركية، والعروض الصاعقة التي ستكون متاحة مع عطلة نهاية الأسبوع القادم عندما يباشر المتجر عمله.

كم كان بارعاً وواثقاً في أداء تلك الفقرة! قال فيرغسون لنفسه، مؤكّداً على أن الحياة الرتيبة البائسة للجمهور ستتحسّنُ عند التّسوّق في متجر فيرغسون، وبالنسبة إلى رجل *لم يتعلّم يوماً كيف يتحدّث*، كما قالت والدته ذات مرّة، فإنه أدّى عملاً رائعاً عندما تحدّث الآن، وكم بدا مُسترخياً ومرتاحاً أمام الكاميرا، ومُسروراً من نفسه، وبارزاً في تلك اللحظة، وعندما كان يُلوّح بذراعه ويبتسم، مشيراً إلى الجماهير الخفية بأن تأتي وتوفّر *قدراً كبيراً من المال*، سمع في الخلفية صوتاً منفرداً بطبقة سوبرانو، وأصواتاً بطبقة تينور، يُردّدون ببهجةٍ: *أخفضُ الأسعار/ أعلى المعنويات/ في متجر فيرغسون، فيرغسون، فير - غ - سون!*

بعد انتهاء الإعلان، ظهرَت في رأس فيرغسون فكرتان، وكانت إحداهما قد لمعَت مباشرة بعد سابقتها، لدرجة أنهما كانتا متزامنتين تقريباً:

أنه يجب أن يتوقّف عن مشاهدة مباراة البيسبول على شاشة التلفزيون، و2) أن أباه لا يزال يحوم حول حوافّ حياته، لم يُمحَ تماماً بعد، لا يزال هُناك على الرغم من المسافة بينهما، وربّما لا يزال يتعيّن كتابة فصل آخر من القصّة قبل أن يُغلَق الكتاب أخيراً.

•

ما لم يلتحق بدورة دراسية مكثّفة في اللغة اليونانية القديمة، ويتعلّمها في سنة أكاديمية واحدة، فلن يكون هناك المزيد من الفصول الدراسية مع نيغل. لكن نيغل مازال مستشارَهُ الدراسي، ولأسبابٍ تتعلّق كلها بوالده، أو ربّما لا علاقة لها بوالده على الإطلاق، ظلّ فيرغسون يتطلّع إلى نيغل من أجل التقييم والتشجيع، كان راغباً بترك أثر لدى الرجل الأكبر سنّاً من خلال تحقيق أداء رفيع المستوى في فصوله الدراسية، وذلك عبر تقديم دليل على أصالة الشخصية المطلوبة من المشارتشين في برنامج 'باحثو والت ويتمان'، وأبرز ما في الأمر أن يحظى بدعم الأستاذ الجامعي بصدد المادّة الأدبية التي يعمل على كتابتها،كمؤشّر على أنه يفي بالوعد الذي رآه نيغل فيه بعد قراءة *إحدى عشرة لحظة من حياة غريغور فلام*. خلال لقائهما الشخصي الأوّل في فصل الخريف، أعطى فيرغسون نيغل نسخةً من كتاب *رحلات موليغان* بطبعة دار نشر غيزمو، كان متردّداً وخائفاً من أنه قفزَ إلى عالم النشر في وقت مبكّر أكثر ممّا ينبغي، وقلِقاً من أن ينظرَ نيغل إلى كتابه المنسوخ على أنه عمل مفرطُ الطموحِ لكاتب شاب ليس جاهزاً للنشر، وقلقاً على نحوٍ مضاعف بشأن أن نيغل سيقرأ ويجدُه مريعاً، مُوجِّهاً بذلك ضربة أخرى من الضربات التي تُفزِعُ فيرغسون بشدّة في الوقت الذي يتوق فيه إلى قُبلات من الأشخاص الذين يُكنّ لهم الاحترام، بيد أن نيغل تقبّل الكتاب في تلك الظهيرة بإيماءة ودّيّة وبضع كلمات من التهنئة، دون أن يدري شيئاً عن المُحتوى، بطبيعة الحال، لكنه، على الأقلّ، لم يستنكر على فيرغسون استعجاله إلى النشر السابق لأوانه، وما سيأتي لاحقاً من ندم وإحراج حتميَّين بسبب هذا الاستعراض غير المدروس من العنجهية، وبينما كان نيغل ممسكاً بالكتاب بيديه، يمعن النظر في الرسم الأبيض والأسود على الغلاف، أشادَ بمدِى جودة الرسم. مَنْ هو إتش. إس.؟ سأل، مُشيراً إلى التوقيع المختصر في الزاوية السفلية اليمنى، وعندما أخبره فيرغسون بأنه هاوارد سمول، زميله في السَّكَن في برينستون، ارتسمَت على سحنة نيغل الجدّيّة ابتسامة غير مُعتادة. هاوارد سمول المُجتهِد، قال. إنه طالبٌ جيّد، لكنْ، لم تكن لديّ أي فكرة في أنه يُتقن الرسم بهذا المستوى. أنتُما ثنائي ممتاز، أليس كذلك؟

خلال لقائهما الثاني في مكتب الأستاذ عقب ثلاثة أيّام، عندما كان من المفترض أن يقرّرا الفصول الدراسية التي سيلتحق بها فيرغسون في ذلك الفصل، بدأ نيغل النطق بحكمه على رحلات *موليغان*. لم يكن مهمّاً أن بيلي، ورون، ونوحاً تقبّلوا الكتاب بحفاوة وحرارة، ولم يكن مهمّاً أيضاً أن إيمي، ولوثر، وسيليا رَدّوا بقبلات مفعمة بالحماس (في حالة سيليا، كانت قبلات مادّيّة أصيلة)، وبغضّ النظر عن أن العمّ 'دون' والخالة ميلدرد تكبّدا عناء الاتّصال عبر الهاتف، كي يُمطراهُ بعبارات الإطراء لقرابة ساعة من الزمن، أو أن دان، ووالدته، والراحلة إيفي مونرو، والراحلة ماري دونهيو، عبّروا له عن مدى إعجابهم بالكتاب، فقد كان رأيُ نيغل الأكثرَ أهمّيّة، لأنه المراقِب الموضوعي الوحيد، الشخص الوحيد الذي لا تربطه بفيرغسون صداقة أو حبّ أو أواصر قربى، وستكون أيُّ كلمة سلبية منه كفيلةً بتقويض، وربّما حتّى دَحض، أكوام العبارات الإيجابية التي أغدقهما الآخرون عليه.

لا بأس فيه، قال، مُستخدِماً العبارة التي يميلُ إليها عندما يُعجبه شيء إلى حدّ ما، لكنْ، مع بعض التّحفّظات. تطوُّرٌ بالمقارنة بعملك السابق، تابعَ القول، مكتوب بإحكام، ثمّة موسيقى جميلة ورقيقة في الجُمَل، يشدُّ القارئ، لكنه هذيان تامّ، بالطبع، رحلة إبداعية على تخوم منطقة الانهيار العقلي، ومع ذلك، وبسبب كل ما سبق، كانت النصوص طريفة عندما تقصّدتَ أن تكون ذلك، ودرامية عندما تقصّدتَ أن تكون ذلك أيضاً، ومن الواضح تماماً أنكَ قرأتَ بورخيس، وتعلّمتَ بعض الدروس منه، بما يتعلّق بالحفاظ على التوازن بين ما أسميّه نثراً أدبياً وتأمّليّاً. أخشى أنه ثمّة بعض الأفكار الساذجة من السنة الدراسية الثانية، لكنْ، هذا ما أنتَ عليه، يا فيرغسون، طالب في السنة الثانية، لذا لن نتطرّق إلى مواطن الضعف في الكتاب. إذا كان هذا كل شيء، فقد أقنعتَني بأنكَ تحقّقُ تقدُّماً، ممّا يشير إلى أنكَ ستواصل تحقيق المزيد من التّقدّم مع مرور الوقت.

شكراً لكَ، قال فيرغسون، بالكاد أعرفُ ما أقول.

لا تتوقّف عن الكلام الآن، يا فيرغسون. ما يزال علينا أن نناقش خططكَ الدراسية لهذا الفصل. ممّا يُعيدني إلى السؤال الذي أردتُ أن أطرحه عليكَ. هل غيّرتَ رأيكَ بصدد التسجيل في إحدى ورشات عمل الكتابة الإبداعية؟

كلا، لم أفعل.

إنه برنامج جيّد، كما تعلم. أحد أفضل البرامج في كل مكان.

أنا واثق من أنكَ على حقّ. كلُّ ما في الأمر أنني سأكون أكثر سعادة إذا ما تكبّدتُ عناء تحقيق ذلك بنفسي.

أفهمُ تحفّظاتكَ، لكنني أعتقدُ في الوقت ذاته أنها ستكون عوناً لكَ. فضلاً عن مسألة برينستون، أن تكون جزءاً من مجتمع برينستون. لماذا، على سبيل المثال، لم تُقدِّم أيّاً من أعمالِكَ إلى مجلّة *ناساو الأدبية*؟

لا أدري. لم يخطر في بالي.

هل لديكَ شيء ما ضدّ برينستون؟

كلا، على الإطلاق. أنا أحبّ المكان هُنا.

ما مِن شُكوك، إذنْ؟

لا، أبداً. أشعر أنني محظوظ.

بينما واصلَ بالحديث إلى نيغل، ووضعَ الاثنان خطّته الدراسية لذاك الفصل، كان هاوارد في الغرفة الجامعية يقرأ *المذكّرة القِرمِزيّة* التي أُعلن فيرغسون عن وفاتها حين الولادة قبل أسبوع واحد، جثّةٌ أخرى *تُلفَظُ* من *دماغي الموبوء بالخراء*، كما قال لهاوارد عندما أعطاه المخطوط، بيد أن هاوارد كان قد اعتاد عذابات فيرغسون وشكوكه بذاته بحلول ذلك الوقت، ولم يولِ الأمر أي اهتمام، واثقاً بصلابة عقله وقدرته على الوصول إلى نتائجه المستقلّة، وفي الوقت الذي دخل فيه فيرغسون إلى الغرفة بعد لقائه بنيغل، كان هاوارد قد انتهى من قراءة الكتاب.

آرتشي، قال. هل قرأتَ يوماً لفيتغنشتاين؟

لا، لم أفعل بعد. إنه واحد من بين العديد على قائمة، *لم أفعل* بعد.

جيّد. أو بالأحرى، ضَعهُ على قائمة *أولوياتكَ*، يا سيّدي.

التقط هاوارد كتاباً أزرق، يحمل اسم فيتغنشتاين على غلافه، وفتحه على الصفحة التي كان يبحث عنها، ثمّ قرأ لفيرغسون بصوتٍ عالٍ: *ومن المهمّ أيضاً الحديثُ عن "العيش في صفحات كتاب"*.

صحيح تماماً، صحيح تماماً، قال فيرغسون. ثمّ أخذ وضعية الاستعداد، وقدَّم تحيّة عسكرية متينة، وأضاف: شكراً، يا لودفيغ!

أنتَ تُدرِكُ ما أقصده من وراء هذا، صحيح؟

ليس تماماً.

المذكّرة القِرمِزيّة. لقد انتهيتُ للتوّ من قراءتها، قُبيل عشر دقائق تقريباً.

"كيف قضيتُ عُطلتي الصيفية؟" أتذكرُ تلك الأشياء التي كان علينا كتابتها عندما كنّا أولاداً؟

حسناً، هكذا قضيتُ عطلتي الصيفية. بالعيش في صفحات تلك الفظاعة ... في ذلك الكتاب الجهيض.

أنتَ تدري كم أحببتُ *موليغان*، أليس كذلك؟ هذا الكتاب أعمق وأفضل وأكثر أصالة. نقطة تحوّل. وأتمنّى من الربّ أن تسمح لي بالعمل على غلافه.

ما الذي يجعلكَ تظنّ بأن بيلي سيرغب بنشره؟

لا تكن أحمقاً. بالطبع سيرغب بنشره. لقد اكتشفكَ بيلي، ويعتقدُ بأنكَ عبقري، عبقريه الصغير لامع العينين، وأينما ذهبتَ، سيذهبُ إلى المكان نفسه أيضاً.

والآن أخبِرني، قال فيرغسون، وبدأ يكشف عن ابتسامة. لقد سمعتُ للتوّ رأياً مجرّداً لنيغل. بين بين. ممتع، لكنْ، غير ناضج. كتبَهُ رجل مجنون يجب أن يُقيّدَ بسترة المجانين. خطوة إلى الأمام، لكنْ، ما يزال الدرب طويلاً. وأنا أتّفق معه.

يجب ألا تُصغي إلى نيغل، يا آرتشي. إنه أستاذ بارع - للُّغة اليونانية. كلانا نحبّه، لكنه غير مؤهّل للحكم على عملكَ. هو ما يزال عالقاً هُناك، وأنتَ ما سيحدُثُ لاحقاً. ليس غداً ربّما، لكنْ، بعد غد بلا ريب.

وهكذا بدأ فيرغسون سنته الدراسية الثانية في جنّة السناجب السوداء، بكلمات حماسية من زميله في السَّكَن، هاوارد سمول، والذي كان عزيزاً عليه كصديق، بقدر ما كان نوح وجيم جزءاً لا غنى عنه ممّا كان يُبقيه على قيد الحياة، ومهما بلغَت تعليقات هاوارد بشأن عمله من مبالغة، فقد كان على صواب عندما افترض أن بيلي سيرغبُ بنشر كتابه الجديد، ولأن جوانا كانت حاملاً في شهرها السابع والنصف، أقرب بكثير إلى ولادة طفلها من العمل على المرسام، فقد فعل بيلي ذلك بنفسه، لذا، وقبل أسبوع واحد من وصول مولي بيست الصغيرة إلى العالم في التاسع من تشرين الثاني، كان الكتاب الصغير الثاني لفيرغسون قيد الطبع.

كانت سنة أفضل من سالفتها، بمخاوف وزلّات داخلية أقلّ، بمزيد من الإحساس الراسخ بالانتماء إلى المكان الذي شاء له القدر أن يكون فيه، وسنة القصائد الأنجلوسكسونية وتشوسر والأبيات المتجانسة رائعة الجمال للسير توماس وايات (... *لا تكفُّ عن الهرب/ وأتبَعُها* سدى ...)، وسنة الاحتجاج على حرب فيتنام من خلال الانضمام إلى المظاهرات ضدّ داو كيميكال، في ساحة الهندسة مُضلَّعة الشكل، مع هاوارد وأصدقائه الآخرين من نادي وودرو ويلسون، لشجب مُصنّعي النابالم، وسنة الاستقرار في شقّة أفضل ترتيباً لعطل نهاية الأسبوع في نيويورك وتوطيد أواصر الصداقة مع بيلي، وجوانا، ورون، وبو غاينارد، وسنة الظهور ككومبارس في الفيلم الأوّل

لنوح، فيلم قصير من سبع دقائق بعنوان *مانهاتن كونفيدنشال*، وفيه يُلمَحُ فيرغسون إلى طاولة خلفية في حانة حقيرة، ويقرأ سبينوزا بالإسبانية، وسنة العمل على *أرواح الأشياء الجامدة*، وهي سلسلة مُتعاقبة من ثلاثة عشر تأملاً بصدد الأغراض في شقّته، وانتهى منها مع نهاية شهر أيّار. كانت أيضاً السنة التي مات فيها جَدُّه تلك الميتة المشينة الغريبة التي لم يُرد أحد من العائلة أن يتحدّث عنها؛ تتويج لأسبوع كامل من حفلات القمار في لاس فيغاس، حيثُ خسرَ ما يزيد عن تسعين ألف دولار على لعبة الروليت، ثمّ عانى من نوبة قلبية عندما كان يمارس الجنس (أو يُحاول ممارسة الجنس) مع عاهرتين بعمر العشرين في غرفته. في الأشهر السبعة عشر التي أعقبَت وفاة زوجته، بدّدَ بينجي إدلر مبلغاً يفوق ثلاثمائة وخمسين ألف دولار، ووُضِعَ في قبرِه كمعوز من قِبل جمعية الدفن اليهودية التي تُديرها دائرة العمّال، وكانت منظّمة انضمّ إليها في سنة 1936؛ في الأيّام الخوالي عندما كان يقرأ روايات جاك لندن، ويعدّ نفسه لايزال اشتراكياً.

ثمّ كانت هُناك سيليا، أوّلاً وأخيراً كانت سيليا، وكانت تلك السنة التي أصابَ العشقُ فيها فيرغسون، والشيءُ الأكثر إرباكاً أن أحداً لم يرَ في سيليا ما كان يراهُ، عدا والدته. كان رأي روز أنها *فتاة مذهلة*، لكن الآخرين جميعاً كانوا حائرين. أسماها نوح بـ *سويقة خرقاء* من ويستتشستر، النسخة الأنثوية لأخيها الشبح، لكنْ، ببشرة أغمق، ووجه أكثر جاذبية، مَهووسةٌ بارنارد التي ستقضي حياتها بمعطف مخبري أبيض، تَدرسُ الجرذان. رأى جيم أنها حسنة المظهر، لكنها صغيرة جدّاً بالنسبة إلى فيرغسون، ولم تنضجْ تماماً بعد. أُعجِبَ هاوارد بذكائها، لكنه تساءل عمّا إذا كانت غير تقليدية جدّاً بالنسبة إلى فيرغسون، فتاةٌ بورجوازية مُتكلّفة، لن تفهمَ يوماً أنه لا يهتمّ بما يهتمّ به الآخرون. تكبّدَت إيمي عناء المُشاركة بكلمة واحدة فقط: لماذا؟ أما لوثر، فقد أسماها عملاً قيد الإنجاز، في حين قال بيلي: آرتشي، ماذا تفعل؟

هل كان يدري ما كان يفعل؟ ظنَّ ذلك. ظنَّ ذلك عندما وضعَت ورقة الدولار أمام الرجل العجوز في مطعم هورن وهاردارت. ظنّ ذلك عندما أصرَّت على أنه لا مزيد من حديث *الأخ المُزَيَّف* عندما كان يسيران في الطريق من غراند سنترال إلى المطعم الآلي. وظنَّ ذلك عندما أسقطَت كتابَه على الأرض، وأعلنت رغبتها بتقبيله.

كم قبلة تلَت تلك القبلة الأولى على مدار الأشهر اللاحقة؟ مئات القبل. آلاف القبل. والاكتشاف غير المتوقّع في الليلة الثانية والعشرين من تشرين الأوّل، عندما هبطا إلى المرتبة في غرفة فيرغسون، ومارسا الجنس لأوّل مرّة، وذلك أن سيليا لم تكن عذراء. كان هناك بروس سالف الذكر خلال ربيع سنتها الدراسية الأخيرة في الثانوية، ومُسافران أميركيان خلال جولتها

في أوروبا مع قريبتها إيميلي؛ واحد من أوهايو في كورك، وآخر من كاليفورنيا في باريس. لكنْ، بدلاً من الشعور بخيبة الأمل بشأن معرفته أنه لم يكن الأوّل، ارتاح فيرغسون، شَجّعَهُ أنها مُغامِرة، وغير متحفّظة، ولديها شهوة جنسية قوية بما يكفي كي تدفعَها إلى الدخول في المُخاطرة.

أحبَّ جسدَها. وجدَ أن جسدها العاري جميل جدّاً، لدرجة أنه بالكاد كان قادراً على الكلام عندما خلعَت ثيابها، واستلقت إلى جانبه لأوّل مرّة. بشرتها ذات النعومة والدفء اللذين لا مثيل لهما، وأطرافُها الهيفاء، والأليتان المتقوّستان لمؤخّرتها المستديرة القوية، وثدياها المنتصبان الصغيران والحلمتان الغامقتان المدبّبتان، لم يسبق له أن عرف أحداً بجمالها على الإطلاق، ولم يكن الآخرون قادرين على فهم مدى سعادته بأن يكون معها، أن يمُرِّر يديه على جسد الإنسانة التي يحبّها الآن أكثر من أي أخرى أحبّها فيما مضى. إن لم يكن بمقدور الآخرين أن يدركوا هذا، فإنه من سوء حظّهم، لكنه لم يكُن ليطلُبَ من العازفين المتجوّلين أن يُخرجوا كماناتهم من بيوتها، ويُبالغوا في عزف قطعة موسيقية عاطفية. كمان واحد يكفي، وطالما أن فيرغسون قادر على سماع الموسيقى التي يعزفها، فسيواصل الاستماع إليها وحدَه.

إن الحقيقة البسيطة بصدد أنهما معاً كانت أكثر أهمّيّة من الآخرين، أو ممّا كان يعتقده الآخرون، والآن بعد أن تقدّما إلى المرحلة التالية، كانت هناك حاجة أكثر من أي وقت مضى لفهم ما يحدث بالضبط. هل ما يزال حبُّه النمّاء لسيليا مرتبطاً بموت آرتي، سألَ نفسه، أم سقط أخوها أخيراً من المعادلة؟ في المحصّلة، هكذا بدأ الأمر، بالعودة إلى تلك الأيّام والأعشية في نيو روتشيل، عندما انقسمَ العالمُ إلى نصفين، وزوّدَتهُ حساباتُ الآلهة بصيغة كي يلتصقا معاً مرّة أخرى: الوقوع في حبّ شقيقة صديقه الميت، ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، واصلَت الأرضُ دورانها حول الشمس. الحسابات المجنونة لعقلٍ مراهق محموم، لعقل غاضبٍ محزون، لكنْ، بغضّ النظر عن لا معقولية الأرقام، كان يأمل أن يقع في حبّها في نهاية المطاف، وفي حال حدث ذلك، وعندما حدث ذلك، كان يأمل أيضاً أن تقع في هواه. والآن، بعد أن تحقّقت الغايتان، لم يعد يريدُ أن يكون آرتي مَعنياً بالأمر، لأن ما حدث قد حدث من تلقاء نفسه في المقام الأوّل، بدءاً من ذلك اليوم في نيويورك عندما رأى فتاة عطوفة تُخرِجُ من محفظتها دولاراً، وتعطيه لرجل عجوز بائس، الفتاة نفسها التي كانت وقفَت بعد سنة تحت أضواء شقّته، وسحقَتهُ بقوّة جمالها، مع أربع وعشرين رسالة من بلدان أجنبية، خبّأها في صندوق خشبي، مع فتاة متحمّسة تُسقِطُ كتابه على الأرض وترغب بتقبيله، لا شيء ممّا سبق له علاقة بآرتي، ومع ذلك، بعد أن أحبّا بعضهما، كان على فيرغسون أن يعترف بشعوره بالرضا والصواب بأنها هي نفسُها ولا أحد سواها، حتّى لو أن شيئاً في داخله انكمش خوفاً

من فكرة *الرضا والصواب* تلك، لأنه الآن أحبَّ سيليا، وأدركَ مدى السقم في رغبته بها في المقام الأوّل، أن يتطلّع إلى إنسانة على قيد الحياة، ويُحوّلها إلى رمزٍ لحملته لتصويب المظالم في العالم، بماذا كان يفكّر، بحقّ السماء؟ وكم سيكون أفضل بكثيرٍ إذا خرج آرتي من المسألة دون رجعة! لا مزيد من الأشباح، قال فيرغسون لنفسه. جمعَهُ الفتى الميت مع سيليا، لكنْ، بعد أن أنهى مهمّته، فقد حان الوقت كي يرحل بعيداً.

لم يُحدِّثها بكلمة ممّا سبق على الإطلاق، وبين سنتي 1966 و1967، كان لافتاً للنظر أنهما لم يتحدّثا عن شقيقها إلا نذراً يسيراً، وكم كان كل منهما عازماً على تجنّبِ الموضوع والمضي بعلاقتهما كاثنين فقط، كي لا يقف الثالث غير المرئي بينهما أو يطوف فوقهما، ومع مرور الأشهر، واشتداد تواصلهما، وبدء أصدقاء فيرغسون بتقبُّلِها تدريجياً كجزء دائم في المشهد، أدركَ أنه ما زال أمامه عمل ضروري واحد قبل أن يُبطِل التعويذة. كان الربيع حينها، وبعد أن احتفلا بعيد ميلاد مضاعف في شهر آذار، في اليومين الثالث والسادس من الشهر، صار فيرغسون من العشرين من عمره، وصارَت في الثامنة عشرة، وذات ظهيرة يوم سبت من أواسط أيّار، بعد أسبوعٍ من كتابة فيرغسون للمقطع الأخير من *أرواح الأشياء الجامدة*، غادرَ المدينة إلى مرتفعات مورنينغسايد، حيثُ كانت سيليا محتجبة في غرفته الجامعية في بروكس هال، تعملُ على ورقتين خاصّتين بنهاية السنة الدراسية، ممّا عنى أن عطلة الأسبوع تلك ستكون مختلفة عن معظم عطل نهاية الأسبوع الأخرى، ولن تتضمّن المُعتادَ من نزهات، وأحاديث، واستكشافات ليلية على سرير فيرغسون، لكنه كان قد اتّصل بسيليا في الساعة العاشرة من صباحِ ذلك اليوم، وسألها عمّا إذا كان في وسعه أن "*يستعيرَها*" لنصف ساعة أو أربعين دقيقة في وقت لاحق من اليوم، وكلا، قال، ليس *لذاك السبب*، مع أنه كان يتمنّى كثيراً أن يكون *لذاك السبب*، لكنْ، من أجل أن تفعلِ له شيئاً بسيطاً ويسيراً، ومع ذلك، في الوقت نفسه، ذا أهمّيّة قصوى يختصّ بسعادتهما المستقبلية معاً. عندما سألتْه عن ذلك الأمر، قال بأنه سيُخبرها لاحقاً.

لماذا هذا الغموض كله، يا آرتشي؟

لأنه، قال. فقط لأنه، هذا هو السبب.

عندما سار على امتداد الطريق المحاذية للسنترال بارك في الباص الذي يعبر المدينة، كانت يده اليُمنى في جيب سترته الربيعية، وكانت أصابع تلك اليد مُلتفّة حول كرة مطّاطية زهرية، وكان قد اشتراها في صباح ذلك اليوم من متجر لبيع الحلوى والسجائر في الجادّة الأولى، كرةٌ مطّاطية زهرية عادية من تصنيع شركة سبالدينغ، ومعروفة على نطاق واسع في نيويورك باسم كرة *سبالدين*. تلك كانت مهمّة فيرغسون في تلك الظهيرة الوهّاجة من أواسط شهر أيّار: أن

يتمشّى في حديقة ريفرسايد برفقة سيليا، ويطمئنّ على أحوالها، وينبذَ العهد الذي قطعه في الأعماق الصامتة من شقائه قبل ستّ سنوات، وأنه انتهى من هاجسه أخيراً.

ابتسمَت سيليا عندما أخبرها بالأمر ذي الأهمّيّة القصوى، ونظرَت إليه بطريقة توحي بأنها كانت على علم بأن كان ثمّة مزحة ما، أو أن هناك شيئاً آخر في جعبته وما يزال يخفيه عنها، لكنها كانت سعيدة بالتّحرّر من غرفتها، قالت، وهل هُناك ما هو أفضل من جولة في الحديقة لقضاء الوقت؟ كانت سيليا جاهزة تماماً، لأنها كانت فتاة رياضية، وسبّاحة ماهرة، ولاعبة تنس لائقة، وراميةً لا بأس بها في كرة السّلّة، وبعد أن راقبَها في ملعب التنس بضع مرّات، علِم فيرغسون أن بإمكانها صدّ الكرات، وأنها لا ترمي كما تفعلُ الفتياتُ عادة، بذراع مائلة عند الكوع، بل كما يفعل الفتية تقريباً، بدفعة قوية من كتف الذراع الممدودة تماماً. ضغطَ شفتيه على وجهها، وشكرها للمجيء. وعلى الرغم من أنه أراد بشدّة أن يخبرَها، إلا أن لم يستطع أبداً أن يقول حرفاً عمّا دفعه للقيام بذلك.

عندما اتّجها إلى الحديقة، أخذت دفقات غامضة من العرَق تتصبّب من مسامّ فيرغسون، وبدأت معدته بالاضطراب، وصار من الصعب أكثر فأكثر أن يملأ رئتيه بالهواء. دوار. دوار شديد، لدرجة أنه أمسك بذراع سيليا كي يحافظ على توازنه في أثناء سيرهما على المنحدر الحادّ عند غربيّ الشارع المئة والسادس عشر، وانعطافهما نحو ريفرسايد درايف. دوار وهلع. كان قد قطع وعداً على نفسه عندما كان لا يزال صبياً، ومنذ ذلك الحين، صار الوعد من بين القوى الحارقة في حياته، اختبار للإرادة والقوّة الداخلية والتضحية من أجل قضية مُقدَّسة، تضامُنٌ عبر الصدع بين الأحياء والموتى، تكريم للميت عبر رفض شيء جميل من هذا العالم، ولم يكُن نكثُ هذا الوعد سهلاً بالنسبة إليه، كان صعباً، أصعب من أي شيء خطر في باله، لكنْ، لا بدّ من فعل ذلك، لا بدّ من فعله الآن، لأنه بقدر ما كانت تضحيته نبيلة، كانت جنونية أيضاً، ولم يعد يريد أن يكون مجنوناً بعد الآن.

عبَرا ريفرسايد درايف، وبمجرّد أن لمسَت الأقدام عشبَ الحديقة، أخرج فيرغسون الكرة من جيبه.

ابتعدي قليلاً، يا سيليا، قال لها، وبعد أن رجعت سيليا المبتسمة إلى الوراء، إلى أن صار بينهما مسافة اثنتي عشرة قدماً، رفع فيرغسون ذراعه، ورمى الكرة إليها.

كان الصيف يعد بأشياء عظيمة لكل شخص ضمن دائرته. أو هكذا بدا الأمر عندما بدأ الصيف،

ولماذا التفكير بالكوارث في تمّوز وآب في حين أن التسلسل الزمني يستدعي آمالاً كبيرة لحزيران الذي يأتي أوّلاً في الترتيب؟ بالنسبة إلى فيرغسون وأصدقائه، كان وقتاً بدا فيه الجميعُ مندفعين في الاتّجاه نفسه، واقفين على شفا القيام بشيء غير مسبوق، شيء استثنائي لم يتصوّر أي منهم أن يكون ممكن الحدوث على الإطلاق. في كاليفورنيا البعيدة، أعلن عن صيف سنة 1967 كصيف الحبّ. وفي مسقط الرأس على الساحل الشرقي، بدأ ما سُمّي بصيف التعظيم.

كان نوح عائداً إلى ويليامزتاون لموسم جديد من التمثيل (تشيخوف، وبنتر)، ويعمل بجدّ على سيناريو فيلمه القصير الثاني، والذي سيكون أقصر بقليل من فيلمه الأوّل، فيلم من السينما الناطقة بطول ستّ دقائق، وعنوانه الأوّلي دغدغ قَدَمَيّ. علاوة على ذلك، كان قد وجد لنفسه حبيبة جديدة بشَعْر مجعّد ونهدين كبيرين، فيكي تيرمين، زميلة من جامعة نيويورك، تحفظُ أكثر من مئة قصيدة لإيميلي ديكنسون عن ظهر قلب، وتدخّن الحشيش مثلما يدخّن الآخرون السجائر، وتطمَح لأن تصير أوّل امرأة تقطعُ الكتل السَّكَنيّة السّتّ والعشرين بين ميدان واشنطن ومبنى الإمباير ستيت سيراً على الأيدي. أو هذا ما قالته. قالت أيضاً بأنها تعرَّضَت للاغتصاب عدّة مرّات من قِبَل ليندون جونسون، خلال السنوات الأربع الماضية، وأن مارلين مونرو لم تكن لتنتحر لو أنها تزوّجت من هنري ميلر بدلاً من آرثر ميلر. كانت فيكي فتاة ذات حسّ دعابة خصب، ووعي متّقد بالأشياء اللا معقولة في الحياة، وكان نوح مشدوهاً بها، لدرجة أن ساقيه ترتجفان كلّما اقتربَت منه.

لن يأتي كل من إيمي ولوثر إلى نيويورك مرّة أخرى. كانا قد وجدا شقّة في سومرفيل، وفي الوقت الذي كان فيه لوثر يدرس فصولاً تكميلية في هارفارد، ستقضي إيمي الشهرين والنصف اللاحقين كعاملة على خطّ تجميع في مصنع نيكو في كامبريدج. تذكَّرَ فيرغسون بسكويت نيكو الرقيق من أيّام طفولته، وخاصّة عندما كان يستخدمها خلال معارك الطقس السّيّئ في كامب بارادايس، حيثُ كان الصبية المحبوسون كلّهم في المقصورة يتقاذفون ألواح الحلوى القاسية تلك على بعضهم البعض، بينما ينهمر المطر على السقف، لكنْ، بعد أن أُصيبَ روزنبرج بلوح في أسفل عينه تماماً، حُرِّمَت حروب بسكويت نيكو. خيار مثير للاهتمام، قال فيرغسون لإيمي عبر الهاتف، لكنْ، لماذا العمل في المصنع؟ ما السبب وراء هذا كله؟ السياسة، قالت. طُلِب من أعضاء منظّمة طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي إيجاد وظائف في المصانع خلال ذلك الصيف، للمساعدة على انتشار الحركة المُناهِضة للحرب في صفوف الطبقة العاملة التي كانت لا تزال في معظمها مؤيّدة للحرب في تلك المرحلة. سألَها فيرغسون عمّا إذا كانت تعتقد بأنه ستأتي نتيجة طيّبة من ذلك؟ لم تكن تدري، لكنْ، حتّى لو لم يُحقّق التحريض السياسي الداخلي

نجاحاً، فسيكون تجربة جيّدة بالنسبة إليها، فرصة لتعلّم شيء ما عن العمّال وظروف العمل في أميركا. كانت قد قرأت مئة كتاب عن الموضوع، بيد أن صيف مصنع نيكو سيعلّمها أشياء كثيرة بالتأكيد. انغماس كامل. معرفة عملية مباشرة. تشمير عن الساعدين واقتحام. صحيح؟

صحيح، قال فيرغسون، لكنْ، عديني بشيء واحد.

بماذا؟

بألا تأكلي الكثير من بسكويت نيكو.

ها؟ وما السبب؟

لأنها مضرّة بأسنانكِ. ولا ترميها على لوثر. إذا ما صوّبتِ جيّداً، فبإمكانها أن تتحوّل إلى أسلحة فتّاكة، وصحّة لوثر مهمّة جدّاً بالنسبة إليّ، لأنني سأذهب معه إلى مباراة بيسبول خلال هذا الصيف.

حسناً، يا آرتشي. لن آكلها، ولن أرميها. سأصنعها فحسب.

حصل جيم على درجة الماجستير في الفيزياء من برينستون، وسيتزوّج من نانسي هامرشتاين في مطلع شهر حزيران. وكان سبق أن وقّعا عقد إيجار لشقّة من غرفتَي نوم في ساوث أورانج، شقّة في الطابق الثالث من المبنى الذي يقع على ناصية جادّة ساوث أورانج وطريق ريدجوود، واحد من أندر المباني السَّكَنيّة في مدينة مكوّنة بمعظمها من منازل عائلية، وسينتقلان إليها بعد عودتهما من رحلة تخييم، كشهر عسل، في البيركشايرس. حصل جيم على عمل كمُدرّس للفيزياء في ثانوية ويست أورانج، وستُدرِّس نانسي مادّة التاريخ في ثانوية مونتكلير، لكنهما اختارا العيش في ساوث أورنج، لأنه كان لا يزال لدى جيم العديد من الأصدقاء هناك، ومع وجود أطفال في المدى غير البعيد، كان من المنطقي أن يتواجدا في المدينة نفسها كجَدَّين مستقبليَّين لأولئك الأطفال. يا لها من فكرة! قال فيرغسون لنفسه: هو عمٌّ، وإيمي عمّة، ووالدته ووالدها يهزّان زوجاً من الأحفاد على رُكبتيهما.

كان هاوارد عائداً إلى المزرعة في فيرمونت، ليس لحلْب الأبقار وإصلاح الأسوار ذات الأسلاك الشائكة كما اعتاد أن يفعل في الماضي، لكنْ، كي يستفيد من فصوله الدراسية الأربعة في اللغة اليونانية القديمة في ترجمة النبذات والأقوال المدوّنة لديموقريطس وهرقليطس إلى الإنكليزية؛ المُفكّران السابقان لسقراط، اللذان يشار إليهما عادةً بالفيلسوف الضاحك والفيلسوف الباكي. اكتشف هاوارد فقرةً طريفة في نصّ مبكّر لجون دون، وكان يخطّط لأن يُضيفَه كعبارة منقوشة إلى المشروع: *والآن من بين حُكمائنا، لا أشكّ بأن كثيرين سيضحكون على بكائيات هرقليطس، لكن*

أحداً لن يبكي على ضحك ديموقريطس. لكنْ، في الوقت الذي كدَّ فيه هاوارد على ترجماته لديموقريطس (*يبدأ العمل بالجرأة: يحكُم القدرُ في النهاية*)، وهرقليطس (*طريقا الصعود والنزول هما الطريق نفسه*)، واصل العمل على مشروع مباريات التنس أيضاً، العمل على رسم أفضل ستين مباراة تنس من بين المباريات التي اخترعها مع فيرغسون على مدى السنتين السابقتين، لأن هاوارد كان واحداً من المحظوظين ذوي المعرفة الوثيقة بالكلمات والصور على حدّ سواء، وكان أسعد عندما يعيش في كلا المملكتين في الوقت نفسه، وفضلاً عن مهامّ الترجمة والرسم تلك، كان هدفه الرئيس ذلك الصيف أن يقضي قدر ما استطاع من ساعات بصحبة مونا فيلتري، صديقة طفولته من براتلبورو، والتي ارتقت خلال الأشهر الأخيرة إلى مرتبة حبيبة، وعشيقة، ورفيقة فكريّة، وزوجة مستقبلية مُحتمَلة. وقبل أن يودّعا بعضهما في برينستون، في اليوم اللاحق لآخر يوم من الامتحانات النهائية، انتزع هاوارد عهداً من فيرغسون بأن يأتي الأخير إلى فيرمونت لزيارتين طويلتين في ذلك الصيف، وربّما حتّى ثلاث.

كان بيلي على مشارف الانتهاء من روايته الطويلة، من أربعمائة صفحة، وكان يخطّط لإصدار *أرواح الأشياء الجامدة* في منتصف شهر آب. كان رون وبيغ بيرسون ينتظران مولودهما الأوّل، ووجدَ كلٌّ من رون، وآن، ولويس، الذين ظلّوا يتحدّثون عن الفكرة لأكثر من سنة، في طليقة الزوج الأوّل لوالدة آن داعمةً ثريّة، لتساعدهم على إطلاق دار نشر جديدة، تومولت للكُتُب، دار صغيرة تُصدر ستّة أو سبعة كُتُب كل سنة؛ كُتُب ذات أبعاد قياسية بملازم مخيطة، وأسلوب طباعة تقليدية باستخدام المطابع نفسها التي تقذفُ كُتُبَ الناشرين الآخرين في نيويورك. كانت الطباعة بآلات النسخ لا تزال في أوجِها، بيد أن الحلول البديلة أصبحَت مُتاحة شيئاً فشيئاً، لأن بعض الكُتّاب المُعدمين من وسط مانهاتن عرفوا أين توجدُ الأموال.

وأما ما يتعلّق بسيليا، فقد كانت تريد السفر أيضاً لقضاء الصيف في ماساتشوستس مع نوح، وإيمي، ولوثر، ليس معهم بالمعنى الحرفي للكلمة، لكنها كانت ملتزمة بالذهاب إلى القرية في وودز هول على طرف شبه جزيرة كيب كود، وذلك للعمل كمُتدرّبة في مختبر الأحياء البحريّة. ليس الجرذان، كما تكهّن نوح خلال فصل الخريف، بل الرخويات والعوالق، وعلى الرغم من أن سيليا كانت صغيرة جدّاً من الناحية الفنية لمثل هذا العمل، إلا أن أستاذها في علم الأحياء في بارنارد، ألكسندر ميستروفيتش، كان معجباً جدّاً بذكائها وإحساسها الفطري إزاء الفوارق المجهرية للحياة الخلوية، لدرجة أنه حثّها على مرافقته إلى ماساتشوستس من أجل مشروع البحث الجيني الذي سيشاركُ فيه هناك، مُتمنّياً أن تساعدها هذه الفرصة بصدد مراقبة الأستاذة وطلاب الدراسات العليا قيد العمل على التأقلم مع صعوبات العمل المخبري، ومن

شأن هذا أن يُساهِم في تجهيزها لمستقبل في المجال العلمي. تردّدت سيليا في الذهاب. كانت ترغب بإيجاد عمل في المدينة والعيش مع فيرغسون خلال الصيف، وكان هذا ما يريده بالضبط أيضاً. لكنْ، لا، قال، ينبغي ألا ترفض عرض ميستروفيتش، كانت دعوته شرفاً عظيم الأهمّيّة، وأنها إن لم تذهب، فستندم على ذلك طوال حياتها، ولا تخافي، قال لها، ثمّة سيّارة متاحة، وسيقضي معظم الوقت في فيرمونت وماساتشوستس خلال الأشهر القادمة، حيثُ سيزور هاوارد، ونوحاً، وإيمي، ولوثر في نيوفان، وويليامزتاون، وسومرفيل، وستكون وودز هول الوجهة الرئيسة ضمن رحلاته القصيرة جميعها شمالاً، وسوف يزورُها بقدر ما تستطيع احتماله، ورجاءً، قال لها، لا تكوني سخيفة، يجب أن توافقي، وهكذا وافقَت، وفي صبيحة يوم في منتصف حرب الأيّام السّتّة، قَبّلَت فيرغسون مُودّعة، وغادرَت.

كانت هناك مشكلة صغيرة تتعلّق بأنه سيكون وحيداً، لكنها لن تكون وحدةً من النوع الذي لا يُطاق، كما شعر، ليس بوجود فرصة لرؤيتها عدّة مرّات في كل شهر، ليس بوجود الزيارات الطويلة إلى مزرعة هاوارد، والآن بعد أن صار كتابه الصغير وراء ظهره، أضحى سجلّ أعماله فارغاً مرّة أخرى. كان قد أمضى ما يزيد عن ثمانية أشهر مُستغرقاً بتلك التّأمّلات العجيبة بصدد الأغراض المنزلية وحيواتها المتُخيّلة قبل أن يلتقطها من الشارع، الاستطراد الغرائبي عن آلة تحميص الخبز المكسورة، وما إذا ممكناً أن يظلّ اسمُها كذلك، على الرغم من أنها لن تعود قادرة على تأدية وظيفتها كآلة تحميص للخبز، وإن لم يكن كذلك، فماذا ينبغي أن يصير اسمها؟ تأمّلات بالمصابيح، والمرايا، والسّجّاد، ومنافض السجائر، إلى جانب قصص عن الأشخاص المتُخيّلين الذين كانوا يمتلكون تلك الأشياء ويستخدمونها قبل أن ينتهي بها المطاف إلى شقّته، كم كان عملاً شاقّاً، إن لم نقل عبثياً! والآن، صار لدى بيلي كتاب صغير آخر، ليصنع منه مئتي نسخة، ويوزّعها على أصدقائهما. الفصلُ الأخير من حقبة غيزمو، كما سيصفُها فيرغسون لاحقاً، ثلاثة أعمال بقيمة مشكوك فيها، ناقصة وغير ناضجة بلا ريب، لكنْ، ليست باهتة أو مُتوقّعة على الإطلاق، بل حتّى متألّقة في بعض الأحيان، لذا لعلّها لم تكن فشلاً ذريعاً مثلما كان يراها عادةً، ولأن بيلي والآخرين كانوا وراء ما فعله، فربّما كانت جيّدة بما يكفي لتكريسه كشخصٍ له مستقبل، إمكانية وجود مستقبل، على أي حال، وبعد أن أمضى السنتين الفائتتين في تأليف تلك الثلاثية من تدريبات الإحماء المحمومة، فهِمَ فيرغسون أن المرحلة الأولى من فترة تدريبه المهني قد وصلت إلى نهايتها، وأنه بحاجة إلى المضي قدماً في شيء آخر الآن. وفوق كل شيء، قال لنفسه، عليه أن يتمهّل، ويبدأ في سرد القصص من جديد، أن يشقّ طريق عودته إلى عالَمٍ تَسكنُه عقولٌ أخرى غير عقله.

لم يكتُب شيئاً خلال الأسابيع الثلاثة الأولى من العطلة الصيفية. كان هناك حفل زفاف جيم ونانسي في بروكلن في العاشر من حزيران، كانت هناك أيّام رائعة بصحبة سيليا في وودز هول بين اليومين السادس عشر والثامن عشر من الشهر، لكنه كان يبدّد الوقت في التّجوّل بالمدينة معظم الأوقات، ويبذل جهداً لإبقاء عينيه مثبّتتين على الأشياء التي أمامه، بينما تقبعُ داخلَ جيبه رسالةٌ، لم يُكتَب جوابها بعد، من دانا روزنبلوم. كانت نيويورك تتقوَّض. المباني، والأرصفة، والمقاعد، وخزّانات تجميع مياه الأمطار، وأعمدة الإنارة، ولافتات الشوارع؛ كانت كلها متشقّقة أو محطّمة أو متداعية، كان مئات الآلاف من الشباب يقاتلون في فيتنام، كان الفتية من جيل فيرغسون يُشحَنون كي يُقتلوا لأسباب لم يُبرِّرها أحدٌ، لقد أفلتت الحقيقة من أيدي كبار السّنّ من المسؤولين، وصار الأكاذيبُ العملةَ المتداولة في أحاديث السياسة الأميركية، وعلى نافذة كل مقهى حقير مليء بالصراصير، على امتداد مانهاتن، لافتة ضوئية كُتِبَ فيها: أفضل فنجان قهوة في العالم.

كانت دانا مُتزوّجة، وحاملاً في الشهر السادس، وسعيدة *راضية* بحسب رسالتها. كان فيرغسون مسروراً لأجلها. وبعد أن عرف ما عرفه عن نفسه، صار واضحاً أنها أحسنت الصنع عندما تجنّبت الزواج من رجل عاجز عن إنجاب الأطفال، لكنْ، بقدر ما أراد أن يكتب إليها مُهنِّئاً، أزعجته أجزاء أخرى من رسالتها، وكان لا يزال يبحث عن طريقة للرّدّ عليها. نبرة النشوة في تعليقاتها عن الحرب، القناعات المتعجرفة عن الاحتلال العسكري، قَبليّة المحاربين اليهود الذين يسحقون أعداءهم الذين لا حصر لهم. الضّفّة الغربية، وسيناء، والقدس الشرقية؛ كلها تحت سيطرة إسرائيل الآن، وأجل، كان نصراً جارفاً ومفاجئاً، وكانوا بالطبع يشعرون بالفخر بأنفسهم، بيد أنه لن يأتي أي خير من هذا إذا ما واصلت إسرائيل احتلال تلك المناطق، شَعرَ فيرغسون، وأن ذلك لن يفضي إلا إلى المزيد من المتاعب على المدى الطويل، لكنْ، لم تكن دانا قادرة على رؤية ذلك، لا يستطيع أحد في إسرائيل أن ينظر إلى الوضع منَ الخارج، كانوا مُحاصَرين داخل خوفهم لفترة طويلة، والآن يرقصون داخل قوّتهم التي انتصرت حديثاً، ولأن فيرغسون لم يرد أن يُزعِج دانا بآرائه التي قد تكون خاطئة برمّتها بحسب علمه، فقد استمرّ بتأجيل الرسالة التي أراد أن يكتبها(*).

بعد ستّة أيّام من عودته إلى وودز هول، خرجَ في جولة أخرى من جولاته عبر المدينة، وعندما تجاوزَ قطعة أرض تناثرَت فيها ثلاجات تخلّص منها أصحابها، ودمى مقطوعة الرؤوس، وكراسي أطفال مُحطّمة، انبثقت في رأسه عبارةٌ دون سابق إنذار، كلمتان جاءتاه من اللامكان، وظلّتا

*) ليس الأمر أن "فيرغسون لم يرد أن يُزعج دانا بآرائه التي قد تكون خاطئة"، بل إن أوستر لم يرد أن يعترف بعدوانية ولا شرعية إسرائيل، واكتفى بالعتب. (م).

تتكرّران في أثناء سيره؛ *عاصمة الحُطام*، وكلّما فكّر بهاتين الكلمتين، ازداد اقتناعاً بأنهما ستكونان عنوان عمله القادم، رواية هذه المرّة، المحاولة الأولى لتأليف رواية، كتاب خطير وقاسٍ عن البلاد المحطّمة التي كان يعيش فيها، انحدار إلى سجلٍّ أشدّ ظلمة من كلّ ما سبقه، وفي أثناء سيره على الرصيف في تلك الظهيرة، بدأ الكتاب يتشكّلُ في داخله، قصّة طبيب يُدعى هنري نويس، والذي سُرِق اسمه من الطالب السابق في الطّبّ ويليام نويس؛ زميل سابق لفيرغسون في جناح السَّكَن الجامعي في براون هول خلال السنة الدراسية الأولى، بيد أنه اسم يُلفَظُ مثل كلمة نويز [ضجيج]، ومع ذلك، إذا قسمنا الكلمة إلى نصفين، فسيكون لدينا الخيار الحتمي، نو [لا] ويس [نعم]، الخيارُ الوحيد الذي يُلبّي احتياجات القصّة. *عاصمة الحُطام*. سيستغرقُ الأمر سنتين، كي ينتهي فيرغسون من تلك الرواية ذات المئتين وستّ وأربعين صفحة، لكنْ، قبل يوم واحد من انطلاقه إلى مزرعة هاوارد في فيرمونت، في اليوم الثلاثين من حزيران لسنة 1967، كتبَ أوّل مسودة من أوّل مقطع ممّا سيعدّهُ لاحقاً أوّل كتاب حقيقي له.

تذكّرَ بدايات تفشّي تلك الموجة قبل خمس وثلاثين سنة، الموجة الجارفة من حالات الانتحار متعذّرة التفسير التي صعقَت مدينة R. خلال فصلي الشتاء والربيع من سنة 1931، تلك الأشهر البطيئة المروّعة عندما وضعَ ما يقاربُ العشرين فتى وفتاة، أعمارهم ما بين الخمس عشرة والعشرين سنة، نهاية لحياتهم. كان فتى آنذاك أيضاً، في الرابعة عشرة من عمره فقط، طالباً مستجدّاً في المدرسة الثانوية، ولن ينسى أبداً كيف سمع الأخبار بصدد موت بيلي نولان، ولن ينسى أبداً الدموع التي ذرفَها عندما علِم بأن أليس مورغان الجميلة قد شنقت نفسها في عليّة منزلها. معظمهم شنقوا أنفسهم قبل خمس وثلاثين سنة، دون أن يتركوا وراءهم ملاحظة أو تفسيراً، والآن، بدأ الأمر من جديد، أربع وفيات في شهر آذار وحده، لكنْ، هذه المرّة، كانوا يقتلون أنفسهم خنقاً، يُسمِّمون أنفسهم بالغاز حتّى الموت في أثناء جلوسهم داخل سيّارات مركونة على وضع اللا تعشيق داخل مرائب مغلقة. كان يدري أنه ستحدث المزيد من الوفيات، أنه سيهلك المزيد من الفتية قبل أن ينتهي الوباء، وكان يأخذ تلك الكوارث على محمل شخصي، لأنه صار طبيباً، الطبيب العامّ هنري ج. نويس، ومن بين الأطفال الأربعة المتوفّين حديثاً، كان ثلاثة مرضى لديه؛ إيدي بريكمان، وليندا رايان، وروث ماريانو، وكان قد حملهم جميعاً بيديه عندما جاؤوا إلى العالم.

كان من المفترض أن يحضروا جميعاً إلى مزرعة هاوارد بين الساعة الخامسة والسادسة من

يوم السبت، الأوّل من تمّوز. ستأتي سيليا من وودز هول بسيّارة الشيفروليه إمبالا المستعملة التي اشتراها والداها لها في شهر أيّار، وسيأتي كل من شنايدرمان وبوند من سومرفيل بسيّارة السكايلارك من طراز سنة 1961 التي قدّمها الزوجان واكسمان إلى لوثر كهدية وداع عندما انطلق للبدء بسنته الدراسية الأولى في الكلّيّة، وسيأتي فيرغسون من المنزل في وودهول كريسنت، حيثُ اضطرّ للذهاب إلى هناك في وقت مبكّر من صباح ذلك اليوم، كي يأخذ سيّارة البونتياك القديمة. كانوا يخطّطون لقضاء ليلة السبت في المزرعة، وتناول طعام الفطور هناك في صباح اليوم التالي، ثمّ القيادة إلى ويليامزتاون لمشاهدة نوح يتبختر على الخشبة عندما يؤدّي دور قسطنطين في أثناء عرض مسرحية *النورس* في نهار يوم الأحد. بعد ذلك، ستعود سيليا إلى وودز هول، وإيمي ولوثر إلى سومرفيل، وفيرغسون وهاوارد ومونا فيلتري إلى المزرعة. كانت لدى فيرغسون دعوة مفتوحة للبقاء هناك قدر ما يحبّ. تصوّرَ أنه سيظلُّ هناك قرابة أسبوعين، لكنْ، لا شيء مؤكّداً، وربمّا سيُخيّمُ هناك لبقية الشهر، ويزور وودز هول في نهاية كل أسبوع.

وصلوا جميعاً إلى فيرمونت في الساعة المحدّدة، ولأن عمّة هاوارد وعمّه كانا يزوران أصدقاء في برلينغتون في ذلك المساء، ولأنه لم يكن لدى أي منهم مزاج للطبخ، قرّر الأزواج الثلاثة أن يخرجوا لتناول طعام العشاء في مكان يُدعى مشرب ومطعم شواء توم، حُفرة شرب بائسة على الطريق الثلاثين، على بُعد ثلاثة أرباع ميل من مركز براتلبورو. انحشر السّتّة داخل سيّارة هاوارد الطويلة بعد أن شربوا جولتين من البيرة في المزرعة، أسرفوا قليلاً في الشرب في المطبخ، لأن السّنّ القانونية لشرب الكحول في فيرمونت كانت إحدى وعشرين سنة، ولن يُسمحَ لهم بالحصول على البيرة في حانة توم، ولأن جولة واحدة لا تكفي، لم يخرجوا حتّى الساعة التاسعة تقريباً، وفي ذلك الوقت من ليلة السبت، عادةً ما تكون الحالة في حانة توم أقرب إلى الفوضى، حيث تنفجر الموسيقى الريفية الصاخبة من جهاز التشغيل، ويطلب الزوّار جولتهم الأخيرة من المرطّبات المنعشة.

كان حشداً خشناً من العمّال والفلاحين، ولا شكّ أنه في معظمه من اليمينيين المؤيّدين للحرب، وعندما دخل فيرغسون مع فرقته الصغيرة من الأصدقاء الجامعيين اليساريين، فهم على الفور أنهم جاؤوا إلى المكان الخطأ. كان ثمّة خطب ما بصدد الرجال والنساء في الحانة، كما شعرَ، شيء ما يوحي بمشكلة، وكان من المؤسف أنه اضطرّ مع أصدقائه إلى الجلوس قريباً من المشرب، لأنه لم تكن هناك طاولات شاغرة في الغرفة الخلفية. ماذا هناك، ظلّ يسأل نفسه، بينما أتت نادلة لطيفة لتُسجِّل طلباتهم (مرحباً، يا أولاد.. ماذا تريدون؟)، مُتسائلاً عمّا إذا كانت هناك علاقة بين تلك النظرات المتجهّمة الموجّهة باتّجاههم وشَعْره الطويل قليلاً،

وشَعْر هاوارد الطويل إلى حدّ ما، أو الشَّعْر الأفرو المعتدل للوثر، أو لوثر نفسه، لأنه كان الأسود الوحيد في المكان، أو جمال الفتيات الراقيات الأنيقات الثلاث؟ مع أن إيمي كانت تعمل في مصنع ذلك الصيف، ومن الممكن أن يكون والدا مونا على إحدى الطاولات في الغرفة الأخرى ذلك المساء، وبعد ذلك، عندما تفحّص فيرغسون الناس في الحانة عن كثب، أدار البعض ظهورهم باتّجاههم، أدركَ أخيراً أن معظم النظرات تأتي من رجلَين؛ كانا يجلسان بالقرب من اللوح الخشبي اليميني للمشرب ثلاثي الألواح، ولا عوائق تحجب رؤيتهما لطاولتهم، رجلان في أواخر العشرينيات أو أوائل الثلاثينيات، يمكن أن يكونا حطّابين، أو ميكانيكيين، أو أستاذين في الفلسفة بحسب معرفة فيرغسون، والتي لم تكن أي شيء على الإطلاق، بخلاف الحقيقة الواضحة بصدد أنهما يبدوان مستاءين، ثمّ فعلت إيمي شيئاً لا بدّ أنها فعلته مئات المرّات خلال السنة الفائتة، احتضَنت لوثر، وقبّلته على وجنته، وأدركَ فيرغسون فجأةً ما كان يُغضِبُ الفيلسوفَين، ليس لأن شابّاً أسود قد دخلَ إلى ميدانهما كامل البياض، لكنْ، لأنّ فتاة بيضاء تلمسُ شابّاً أسودِ في العلن، *وتحضنه*، *وتقبّلُه*، ومع الأخذ بالاعتبار كافّة العوامل الأخرى التي كانا يواجهانها تلك الليلة، الفتية الجامعيون ذوو الشعور الطويلة، وفتيات الجامعة النضرات بأرجلهنّ الطويلة وأسنانهنّ الجميلة، حارقو الأعلام وبطاقات الخدمة العسكرية مع الفرقة كلها من المُخاط الهيبي المناهض للحرب، ويضاف إلى ما سبق عدد زجاجات البيرة التي شربهاالرجلان خلال ساعات جلوسهما في الحانة، ما لا يقلّ عن ستّ زجاجات، وربمّا حتّى عشر، لكل منهما، فلم يكن غريباً أو حتّى مفاجئاً أن يحمل الأضخم من بين أستاذَي الفلسفة نفسه من على مقعده، ويسير إلى طاولتهم، ويقول لأخت فيرغسون غير الشقيقة:

أوقِفي هذا، يا فتاة. لا نسمح هُنا بأشياء من هذا القبيل.

وقبل أن تجمع إيمي أفكارها، كي تُجيبه، قال لوثر: لا تحشرْ مؤخّرتكَ، يا سيّد. اغربْ عن وجهي.

أنا لا أتحدّث إليكَ، أيّها الزير، أجاب الفيلسوف. أنا أتحدّث *إليها*.

كي يؤكّد وجهة نظره، أشار بأصبعه إلى إيمي.

زيرا! قال لوثر بقهقهة مسرحية صاخبة. نكتة جيّدة. أنتَ الزير، يا سيّد، وليس أنا. السّيّد الزير بنفسه.

قرّر فيرغسون، الذي كان كرسيه الأقرب إلى مكان وقوف الفيلسوف، أن ينهض، ويعطيه درساً في الجغرافيا.

أظنّ أنكَ مخطئ بعض الشيء، قال. نحنُ لسنا في ميسيسيبي، نحنُ في فيرمونت.

نحنُ في *أميركا*، استدرك الفيلسوف، وحوّل انتباهه إلى فيرغسون. أرض الأحرار وموطن الشجعان!

حرّة بالنسبة إليكَ، لكنْ، ليس له، صحيح؟ قال فيرغسون.

تماماً، يا زير، قال الفيلسوف. ليس بالنسبة إليهم إذا ما أرادوا أن يفعلوا أموراً كهذه في العلن.

مثل ماذا؟ قال فيرغسون بنبرة تهكّميّة في صوته، ممّا جعل الكلمتين *مثل ماذا* تبدوان وكأنه يقول له *انقلع*.

مثل هذا، أيّها الأحمق، قال الفيلسوف.

ثمّ لكمَ فيرغسون في وجهه، وبدأت المعركة.

كان الأمر غبياً برمّته. عراك حانات مع عنصري ثمل متحمّس للقتال، لكنْ، بعد اللكمة الأولى، ماذا كان بإمكان فيرغسون أن يفعل سوى أن يردّ اللكمة؟ لحسن الحظّ، لم يتدخّل صديق الفيلسوف، ومع أن هاوارد ولوثر حاولا فضّ المعركة، إلا أنهما لم يكونا سريعين بما يكفي لمنع توم من الاتّصال بالشرطة، وللمرّة الأولى في حياته، اعتُقل فيرغسون، وقُيّدت يداه، واقتيد إلى مركز الشرطة، حيث أوقِف، وأُخذت بصماته، وصوِّر من ثلاث زوايا مختلفة. أصدر قاضي المحكمة الليلي كفالة مقدارها ألف دولار (مئة دولار نقداً)، والتي سدّدها فيرغسون بمساعدة هاوارد، وسيليا، ولوثر، وإيمي.

جروح فوق العينين، الطرف الخارجي لحاجب عينه اليمنى اختفى إلى الأبد، ألم في الفك، دم يقطر من وجنتيه، لكنْ، دون كسور، أما بالنسبة إلى الرجل الذي هاجمَه، وكان سبّاكاً اسمه تشيت جونسون وعمره اثنتان وثلاثون سنة، فقد خرج من القتال بأنف مكسور، وأمضى الليلة في مُستشفى براتلبورو التذكاري. وخلال جلسة الادّعاء في صباح يوم الاثنين، اتهم الاثنان بالاعتداء، والسلوك المخلّ بالآداب العامّة، وتحطيم منشأة خاصّة (كُسِر كرسي وبعض الزجاجات في أثناء الشجار)، وحُدِّد موعد للمحكمة في يوم الثلاثاء، الخامس والعشرين من شهر تمّوز.

قبل جلسة الادّعاء يوم الاثنين، كان الأحد المشؤوم في المزرعة بعد أن نُسيَت مسرحية نوح، وكان الجميع جالسين في غرفة المعيشة يتناقشون فيما حدث خلال الليلة الفائتة. لام هاوارد نفسه. ما كان عليه أبداً أن يجرّهم إلى حانة توم، قال، ودعمَتهُ مونا مؤكّدة على أنها تشاركه هذا الذنب، بقولها: كان حَرياً بي أن أعرف أكثر بدلاً من السماح لكم بالذهاب إلى عقر دار الرِّدْنِك

Redneck المجانين ذاك. تحدّثت سيليا بإسهاب عمّا وصفَتهُ بـ*الشجاعة المذهلة* لفيرغسون - وكذلك عن مدى خوفها عندما بدأ القتال، العنف الرهيب لتلك اللكمة الأولى. لامَت إيمي نفسها بشدّة، ولعنت نفسها، لأنها لم تقف في وجه ذاك *القذِر المُتعصّب القبيح*، وكانت مغتاظة بسبب الذعر الذي شعرَت به عندما مدّ يده، ووجّه أصبعه إليها، ثمّ، على عكس إيمي التي يعرفها فيرغسون منذ سنوات عديدة، وضعت يديها على وجهها، وأجهشت بالبكاء. كان لوثر الأشدّ غضباً بين الحاضرين، وأشدّهم مرارة، وأشدّهم سخطاً من المواجهة، فقد جلدَ نفسه بشدّة، لأنه ترك آرتشي يتحمّل عبء الأمر، بدلاً من أن يدفع الرجل بعيداً، ويستخدم قبضته السوداء في لكم ذلك النغل في فمه. وبالنسبة إلى عمّ هاوارد وعمّته، فقد كانا يفكّران بالفعل بالخطوة التالية، وتحدّثا عن إيجاد محام جيّد، كي يتولّى قضية فيرغسون. وبحلول الظهيرة، استعادت إيمي الجسورة ما يكفي من صفاء الذهن، كي تتّصل بالمنزل في وودهول كريسنت، وتخبرَ والدها عن *الفوضى* التي وقع فيها آرتشي. أعطَت سمّاعة الهاتف إلى فيرغسون، وعندما ردّت والدتُه القلقة الحائرة، أخبرها بألا تقلق، وأن الوضع تحت السيطرة، وأنه ما من داعٍ لقدومهما إلى فيرمونت. لكنْ، كيف في وسعه أن يكون متأكّداً من أي شيء، سأل نفسه بينما كان ينطق تلك الكلمات، وماذا سيحدث له، يا ترى؟

مرّت أيّام. سيدافع عنه محامٍ شابّ، يُفترض بأنه جيّد، من براتلبورو، يُدعى دينيس ماكبرايد. ستعود سيليا إلى المزرعة في نهاية كل أسبوع، لأنه لم يكن مسموحاً لفيرغسون أن يغادر ولاية فيرمونت حتّى انتهاء المحاكمة، على فرض أنها لن تنتهي بقرار يقضي بسجنه شهراً أو ثلاثة أشهر أو سنة واحدة عندما تهوي مطرقة القاضي عليه. ستُدفَع صنوف المال كلها من أجل ألا يحدث ذلك، المزيد من الدولارات من الرزمة المتناقصة من أصل عشرة آلاف دولار أعطاه إيّاها جَدّه في السنة الفائتة، لكنْ، على الأقلّ كان لديه المال، ولم يضطرّ لطلب المساعدة من دان أو والدته. ثمّ جاء اليوم الثاني عشر من شهر تمّوز، وعندما كان يصغي إلى والدته التي تنقل إليه الأخبار عبر الهاتف، وجد أنه من الصعب تخيُّل ما كانت تتحدّث عنه. في خضمّ محنته الشخصية الصغيرة، انتشر كابوس شعبي خطير عبر شوارع نيوآرك، وكانت المدينة التي أمضى فيها السنوات الأولى من حياته تحترقُ عن بكرة أبيها.

حرب عِرْقيّة. ليست أعمال شغب عِرْقيّة، كما كانت الصحف تخبرُ الجميع، بل حرب بين الأعراق. يُطلِقُ جنود الحرس الوطني وفرسان ولاية نيوجيرسي النيران للقتل، ستّة وعشرون قتيلاً خلال أيّام الخراب وسفك الدماء تلك، أربعة وعشرون من لون واحد واثنان من لون آخر، ناهيكَ عن المئات، إن لم نقل الآلاف، الذين تعرّضوا للضرب والجرح، ومن بينهم الشاعر والكاتب

المسرحي ليروي جونز؛ أحد سكّان نيوآرك، وصديق مقرّب سابق للراحل فرانك أوهارا، حيثُ جُرَّ من سيّارته عندما كان في جولة لتفقّد الخراب في سنترال وارد، واقتيدَ إلى مبنى تجاري محليّ، وحُبِس في إحدى الغرف، وضربَهُ شرطي أبيض بقسوة شديدة جدّاً، لدرجة أن جونز ظنّ أنه سيموت. كان الشرطي الذي ضربَه صديقاً له في المدرسة الثانوية.

وفقاً لإيمي، لم يتعرّض أحد بسوء لأي من عائلة بوند. كان لوثر قد أبعِد عن الحرب في سومرفيل، كان أميركياً في السادسة عشرة من العمر، يتجوّل في أوروبا برفقة عائلة واكسمان، وتمكّن كل من السّيّدة والسّيّد بوند من تجنّب الرصاصات والهراوات الثخينة والقبضات. خبرٌ مفرح واحد من بين ألف طامّة تغصّ بالأسى والرعب والاشمئزاز. أصبحَ مسقط رأس فيرغسون عاصمة للحُطام، لكنْ، كان أفراد عائلة بوند الأربعة جميعاً على قيد الحياة.

كان يختبرُ ذلك كله في أثناء استعداده للدفاع عن حياته أمام المحكمة. كان قد تبقّى على موعد المحاكمة ثمانية أيّام عندما انتهت الحرب في نيوآرك، حرب أيّام ستّة أخرى تُضافُ إلى حرب الأيّام السّتّة في إسرائيل دانا، وسواء فهم المتحاربون الأمر أم لم يفهموه، فقد خسر كلا الجانبين، وعندما عاود فيرغسون رحلاته اليومية إلى براتلبورو كي يستشير محاميه، ويُجهّزا القضية، تساءل عمّا إذا كان على وشك خسارة كل شيء أيضاً، تساءلَ وقلِقَ، لدرجة أن ما بداخله بدا وكأنه يشفّ، وأخذت الأنابيب المُلتفّة لأمعائه وأحشائه تنحلّ، وعاجلاً أم آجلاً، ستنفجر في معدته، وستنتشر البقع على طول الشارع الرئيس في براتلبورو، حيثُ سيأتي كلب جائع، ليلعقها، ثمّ يَشكُرَ ربّ الكلاب العظيم على نعمائه وبركاته.

كان ماكبرايد متيناً وهادئاً وحذِرَ *التفاؤل*، ومع معرفته بأن موكله لم يكن المعتدي في تلك الليلة، ومع وجود خمسة شهود لدعم قصّته، الشهود *الخمسة الموثوقين* الذين كانوا جميعاً طلاباً في جامعات وكلّيّات رائدة، كان لزاماً أن تتفوّق شهادتهم على الشهادة الزائفة المحتملة للصديق المخمور لتشيت جونسون، روبرت آلن غاردينر.

قيل لفيرغسون بأن القاضي الذي سيترأسُ المحكمة التي ستنظر في قضيته كان خرّيجاً من برينستون من دفعة سنة 1936، ممّا عنى أن ويليام تي. بوردوك كان زميلاً في الدراسة، وربّما صديقاً لمموّل منحة فيرغسون، غوردون ديويت. كان من المستحيل أن يعرف ما إذا كان هذا جيّداً أم سيّئاً. وبالنظر إلى أنه لن يُبتّ بالقضية من قِبَل هيئة محلفين، وأن القرار كاملاً للقاضي بوردوك، فقد أمِل فيرغسون بأن يكون ثمّة خير في ذلك.

في ليلة اليوم الثاني والعشرين، قبل ثلاثة أيّام من الموعد المقرّر لبدء المحاكمة، اتّصل لوثر بالمزرعة، وطلبَ التّحدّث إلى *آرتشي*. وعندما أعطَت عمّة هاوارد السّمّاعة إلى فيرغسون، سرت

موجة طازجة من الخوف في أنحاء جسده. ماذا الآن؟ قال لنفسه. هل اتّصل لوثر كي يُخبره بأنه لن يتمكّن من حضور المحاكمة في يوم الثلاثاء؟

لا شيء من هذا القبيل، قال لوثر. سأدلي بشهادتي، بالتأكيد. أنا شاهدكَ الرئيس، أليس كذلك؟

أرسل فيرغسون زفرة عبر الهاتف. أعتمدُ عليكَ، قال.

صمت لوثر لحظة على الطرف الآخر من الخطّ. ثمّ تحوّلت إلى لحظة طويلة، أطول ممّا كان يتوقّعه فيرغسون. صدى جامد عبر الأسلاك، وكأن صمت لوثر لم يكن صمتاً، بل لغطاً من الأفكار التي تعصف داخل رأسه. ثمّ قال أخيراً: هل تذكر الخطّة أ. والخطّة ب.؟

نعم، أذكُر. الخطّة A: العب مع المجموعة. الخطّة B.: لا تلعب مع المجموعة.

صحيح - بوجيز العبارة. والآن، اخترعتُ الخطّة C.

هل تقول لي بأنه ثمّة بديل آخر؟

أخشى ذلك. بديل الوداع والحظّ الطّيّب.

ماذا تقصد؟

إنني أتّصل بكَ الآن من شقّة والدي في نيوآرك. هل لديكَ أي فكرة عن حال نيوآرك في هذه في الأيّام؟

رأيتُ الصور. كتل سكنية مدمّرة بالكامل. مبانٍ محترقة عن بكرة أبيها. نهاية جزء من العالم.

إنهم يُحاولون قتلنا، يا آرتشي. لا يريدون حبسنا فحسب، بل يريدوننا قتلى.

ليس الجميع، يا لوثر. السّيّئون فقط.

أرباب السلطة. رؤساء البلديات، وحكّام الولايات، والجنرالات. يريدون القضاء علينا.

وما علاقة ذلك بالخطّة C.؟

حتّى الآن، كنتُ راغباً باللعب مع المجموعة، لكنْ، بعد ما حدث في الأسبوع الماضي، فلا أظنّني قادر على مواصلة ذلك. ثمّ أنظُر إلى الخطّة B. وتنقطعُ أنفاسي. أصبحَ الفهود السود قوّة الآن، وهم يفعلون بالضبط ما فكّرتُ بفعله في حال فشل الخطّة A. يشترون الأسلحة، كي يدافعوا عن أنفسهم، ويتصرّفوا. يبدو أنهم أقوياء الآن، لكنهم ليسوا كذلك. لن تؤيّد أميركا البيضاء ما يفعلونه، وسيُحصَدون واحداً تلو آخر، ويُقتَلون. يا لها من طريقة غبية للموت، يا آرتشي - من أجل لا شيء! لذا، سننسى الخطّة B.

وماذا عن الخطّة C؟

سوف أرحل. سأحزم أغراضي وأرحل، كما يقولونها في أفلام رعاة البقر القديمة. سآتي بالسّيّارة إلى فيرمونت لحضور محاكمتكَ يوم الثلاثاء، وعندما تنتهي المحاكمة، لن أتّجه جنوباً إلى ماساتشوستس، بل شمالاً إلى كندا.

كندا. لماذا كندا؟

أوّلاً، لأنها ليست الولايات المتّحدة. وثانياً، لأن لديّ أقارب لا بأس بهم في مونتريال. وثالثاً، لأن في وسعي إنهاء دراستي في جامعة ماكغيل. لقد حصلتُ على قبول فيها بعد المدرسة الثانوية، كما تعلم. وأنا على ثقة بأنهم سيرحّبون بي مرّة أخرى.

سيفعلون ذلك بالتأكيد، لكنْ، يتطلّب الانتقال وقتاً، وإذا تركتَ الدراسة في فصل الخريف، فستُقتاد إلى الخدمة العسكرية.

ربّما، أين الأهمّيّة في ذلك في حال لم أعُد أبداً؟

أبداً؟

أبداً.

وماذا عن إيمي؟

طلبتُ منها أن تأتي معي، لكنها رفضت.

أنتَ تفهم السبب، أليس كذلك؟ ليس للأمر أي علاقة بكَ.

على الأرجح لا. لكن بقاءها هنا لا يعني أنها لا تستطيع أن تزورني. في النتيجة، هذه ليست نهاية العالم.

كلا، لكنها على الأرجح النهاية لما بينكَ وبين إيمي.

ربّما ليس هذا سيّئاً للغاية. لم نكن لنستمرّ على المدى الطويل. على المدى القصير، أظنّ أننا كنّا نحاول إثبات وجهة نظر. إن لم يكن أمام أنفسنا، فأمام الآخرين جميعاً. ثمّ سار ذلك المعتوه إلى طاولتنا في تلك الليلة، وهدّدنا. لقد أثبتنا وجهة نظرنا، لكنْ، مَنْ يُريدُ أن يعيش في عالم يُجبرِكَ على مواجهة الكارهين الذي يقضون حياتهم محدقين بكَ؟ الحياة بحدّ ذاتها صعبة بما فيه الكفاية، وأنا مُنهَك، يا آرتشي، ولم أعد قادراً على الاحتمال.

كان ثمّة جزآن بخصوص ما حدث لاحقاً؛ الجزء الأوّل الجيّد والجزء الثاني الأقلّ من جيّد. كانت

المحاكمة الجزء الأوّل، والتي سارَت مثلما توقّع ماكبرايد نوعاً ما. لا يعني هذا أن فيرغسون لم يكن خائفاً خلال معظم المرافعات، أو أن أمعاءه لم تهدّد بالانكشاف مرّة أخرى خلال الساعتين ونصف الساعة التي قضاها في قاعة المحكمة، لكنْ، ساعده وجود والدته وزوجها هناك طيلة الوقت، فضلاً عن نوح، والخالة ميلدرد، والعمّ 'دون'، وساعده وجود أصدقائه الذين كانوا شهوداً دقيقين منضبطين، أوّلاً هاوارد، ثمّ مونا، وسيليا، فلوثر، وأخيراً إيمي، والتي قدّمت شهادة قوية عندما تحدّثت عن مدى رعبها بسبب كلمات جونسون المتوعّدة وإيماءاته قبل أن يرسل اللكمة الأولى، وساعده أيضاً أن جونسون اعتلى المنصّة، واعترف علانية بأنه كان مخموراً في ليلة الأوّل من تمّوز، وغير قادر على تذكّر ما فعل أو لم يفعل. ومع ذلك، شعر فيرغسون بأن ماكبرايد قد ارتكبَ خطأً تكتيكياً عندما جعله يتحدّث لوقت طويل عن الجامعة في أثناء شهادته، لم يكتفِ بالسؤال عمّا يفعله في حياته (طالِب)، بل أين يدرس (برينستون)، وفي ظلّ أي ظرف (كحاصل على منحة والت ويتمان)، وماذا كان معدّل درجاته الدراسية (ثلاثة، وسبعة من العشرة)، فحتّى لو تركت تلك الأجوبة انطباعاً ملحوظاً لدى القاضي بوردوك، فإنها لم تكن ذات صلة بالقضية قيد النظر، وكان من الممكن عَدّها كضغط غير عادل عليه. في المحصّلة، وجد بوردوك جونسون مذنباً بتهمة إثارة الشجار، وحكم عليه بدفع غرامة كبيرة، مقدارها ألف دولار، أما بالنسبة إلى فيرغسون الموقوف للمرّة الأولى، فقد نال البراءة من تهمة الاعتداء، وحُكِم عليه بدفع خمسين دولاراً كتعويض لتوماس غريسوولد، صاحب مطعم وحانة توم، لتغطية تكاليف كرسي جديد وستّ كؤوس شراب جديدة. كانت أفضل نتيجة ممكنة، الإزالة المطلقة والدائمة للعبء الذي كان يحمله على ظهره، وعندما اجتمع أصدقاء فيرغسون وأسرته حوله للاحتفالْ بالنصر، شكرَ ماكبرايد لحسن صنيعه. ربّما كان الرجل يدري ما كان يفعل في نهاية المطاف. أخوية برينستون. إذا كانت الأسطورة صحيحة، فإن كل رجل من برينستون مرتبط بباقي رجال برينستون عبر الأجيال، في الموت وفي الحياة أيضاً، وإذا كان فيرغسون رجلاً من برينستون، مثلما كان يحسَبُ حينئذ، فمن في وسعه المجادلة في مسألة أن اللعب في نادي الجامعة قد أنقذه؟

بعد وقت ليس بطويل من مغادرة قاعة المحكمة، وبينما كانوا جميعاً يتمشّون باتّجاه المكان الذي ركنوا فيه سيّاراتهم، أقبل لوثر من وراء فيرغسون، ووضع يده على كتفه، وقال: اعتنِ بنفسكَ جيّداً، يا آرتشي. إنني مغادر.

قبل أن يتمكّن فيرغسون من الردّ، استدار لوثر على عجل، وشرع يسير في الاتّجاه المعاكس، يحثّ الخطى نحو سيّارته البويك الخضراء، والتي كانت مركونة بالقرب من مخرَج المرأَب. قال فيرغسون لنفسه: إذاً، هكذا تفعلُها. بلا دموع، بلا إيماءات كبيرة، بلا عناق وداع حنون. فقط

ستضعُ مؤخّرتكَ في سيّارتكَ، وتقود بعيداً، على أمل الحصول على حياة أفضل في البلد المجاور. هذا مثير للإعجاب. لكنْ، مرّة أخرى، كيف بإمكانكَ أن تقول وداعاً لبلد لم تعد موجودة بالنسبة إليكَ؟ سيبدو هذا وكأنكَ تحاول مصافحة رجل ميت.

بينما رأى فيرغسون النسخةَ الراشدة من الصبي ذي اللكمة والسنوات الأربع عشرة يركب السّيّارة، ظهرَت إيمي بسرعة قصوى في المشهد. دار المُحرِّك، وفي الثانية الأخيرة، تماماً عندما استعدَّ لوثر للانطلاق بالسكايلارك، جذبَت باب الراكب بعنفٍ، وركبَت معه.

انطلقا معاً.

لم يكن هذا يعني أنها كانت تنوي البقاء معه في كندا. كان يعني أن الانفصال صعب فحسب، صعب جدّاً في الوقت الحالي.

كان للجزء الثاني ممّا حدث لاحقاً علاقة كاملة بغوردون ديويت وأسطورة أخوية برينستون. يُقام حفل الغداء الخاصّ بمنحة وولت ويتمان في كل سنة خلال الأسبوع الأوّل من الفصل الدراسي الأوّل، وقد حضره فيرغسون مرّتين حتّى الآن، مرّة كطالب في السنة الأولى، وأخرى كطالب في السنة الثانية. نهض مرّة لينحني أمام الحضور بِعَدِّه واحداً من الطلاب الأربعة الأوائل في السنة الأولى، وكذلك فعل مرّة ثانية عندما توسَّعَ الترتيب، ليشمل ثمانية طلاب في السنة الثانية، وجبة غداء من ثلاثة أطباق من الدجاج في غرفةِ الطعام بنادي الكلّيّة، تتخلّلها كلمات موجزة لرئيس الجامعة روبرت إف. غوين، ومسؤولين آخرين في برينستون، تعليقات مثالية مفعمة بالأمل عن الرجولة الأميركية الفتية ومستقبل البلاد، تماماً ما يتوقّع المرء سماعه في مثل هذه الاجتماعات، لكنْ، كان فيرغسون معجباً ببعض الأمور التي قالها ديويت عند افتتاح تلك المناسبات، أو على الأقلّ بالطريقة الغريبة والصادقة التي كان يتحدّث بها، ليس فقط بصدد كم كان مؤمناً بأن *كل فتى يستحقّ فرصة، بغضّ النظر عن مدى تواضع خلفيته*، لكنْ، أيضاً فيما يتعلّق بذكرياته الشخصية عندما أتى إلى برينستون كطالب من مدرسة ثانوية عامّة وأسرة فقيرة، وكيف شعر بعدم الانتماء في البداية، ممّا نقَرَ على وتر حسّاس لدى فيرغسون الذي ما زال يشعر بعدم الانتماء، خاصّة وأنه لم يكن قد أمضى في الحرم الجامعي سوى ثلاثة أيّام فقط عندما سمع تلك الكلمات. في السنة التالية، نهض ديويت، وألقى خطاباً مطابقاً تقريباً - لكنْ، مع إضافة أساسية واحدة. أشار إلى الحرب في فيتنام، مؤكّداً واجب الأميركيين جميعاً بأن يتعاونوا في الجهود المبذولة *لدحر الموجة الشيوعية*، والهجمات الشرسة التي تشنّها الأعداد المتزايدة من *اليساريين الشباب المضلّلين المناهضين لأميركا*، والذين كانوا

ضدّ الحرب. وقف ديويت في صفّ الصقور، لكنْ، ماذا في وسع المرء أن يتوقّع من قنّاص وول ستريت الذي جعل الملايين يخدمون في خنادق الرأسمالية الأميركية؟ وعلاوة على ذلك، كان خرّيج الجامعة نفسها التي درسَ فيها جون فوستر دالاس وشقيقه آلِن؛ الرجلان اللذان اخترعا الحرب الباردة عندما كان الأوّل وزيراً للخارجية، والثاني مديراً لوكالة الاستخبارات المركزية، في عهد أيزنهاور، ولو لم يصنع هذان ما صنعاه في الخمسينيات، لما اضطرّت أميركا للقتال ضدّ شمال فيتنام في السّتّينيّات.

ومع ذلك كله، كان فيرغسون سعيداً بقبول أموال ديويت، وبالرغم من اختلافاتهما السياسية، فقد كان يحبّ الرجل نفسه. قصير مكتنز، بحاجبين ثخينين، وعينين بنّيّتين صافيتين، وفك مُربّع المظهر، وكان قد صافح فيرغسون بقوّة عند أوّل لقاء لهما، وتمنّى له *الحظّ كله في العالم* عندما شرع بـ *مُغامرته الجامعية*، وفي المرّة الثانية، عندما أصبح أداء فيرغسون خلال السنة الأولى محطّ تقدير أمام الملأ، ناداهُ ديويت باسمه الأوّل. *واصل العمل الجيّد، يا آرتشي*، قال، *أنا فخور جدّاً بكَ*. كان فيرغسون واحداً من فتيانه في ذلك الوقت، وكان ديويت يولي اهتماماً شديداً بفتيانه، ويتابعُ تقدّمهم عن كثب.

في صباح اليوم الذي تلا المحاكمة، ودّعَ فيرغسون أصدقاءه في فيرمونت، وعاد بالسّيّارة إلى نيويورك. كانت توتّرات الأسابيع الثلاثة الماضية قد أرهقتْه، وشغلت باله بأشياء كثيرة. المشهد العنيف في الحانة، والعنف في نيوآرك، وآثار الأصفاد القوية التي كانت تضغطُ على معصميه، والألم في معدته في أثناء المحاكمة، وقرار لوثر المفاجئ، لكنْ، غير المتهوّر، بشأن إيجاد حياة جديدة لنفسه في مونتريال، وإيمي، إيمي المُحطّمة البائسة التي اندفعت بجنون نحو السّيّارة. كان عليه أن يفكّر بكتابه أيضاً، الكتاب الذي كان يأملُ أن يتمكّن من كتابته، وشيئاً فشيئاً، استقرّ مرّة أخرى، وبدأ يرتاح في غرفته ومكتبه ومحادثاته المطوّلة عبر الهاتف مع سيليا خلال الليل. وفي الحادي عشر من شهر آب، اتّصلت به والدته، كي تخبرَهُ بوصول رسالة في البريد من برنامج منحة والت ويتمان ظهيرة ذلك اليوم. هل كان يريد منها أن تقرأها له عبر الهاتف، أم أن ترسلها إلى عنوانه في الشارع التاسع والثمانين شرقي؟ مُفترِضاً أنها لم تكن ذات أهمّيّة، على الأرجح رسالة من السّيّدة توماسيني، سكرتيرة البرنامج، بمعلومات عن موعد حفل الغداء في شهر أيلول المقبل، طلب فيرغسون من والدته بألا تهدِرَ أنفاسها في القراءة، وأنه ترسلها إليه عندما تذهب في المرّة القادمة إلى مكتب البريد. مرّ أسبوع كامل قبل وصول الرسالة إلى نيويورك، في صباح يوم وصولها، الجمعة، الثامن عشر من شهر آب، سافر فيرغسون إلى وودز هول بالحافلة (كانت سيّارة البونتياك في ورشة الصيانة لبعض الإصلاحات الطفيفة)، وبالتالي، لم يتسنّ لفيرغسون أن

يفتح المظروف قبل عودته من زيارته لسيليا، في يوم الاثنين الحادي والعشرين، ويتلقّى اللكمة الثانية في وجهه ذلك الصيف.

لم تكن الرسالة من السّيّدة توماسيني، بل من غوردون ديويت، رسالة من فقرة واحدة من مؤسّس برنامج منحة والت ويتمان، ورد فيها أن عدداً من الحقائق الأليمة قد لفتت انتباهه (انتباه ديويت) عن طريق زميل سابق من برينستون، القاضي ويليام تي. بوردوك من براتلبورو، فيرمونت، بخصوص عراك في حانة، حيثُ كان (فيرغسون) مسؤولاً عن كسر أنف رجل، وعلى الرغم من أنه نال البراءة قانونياً بعد اعتبار ما جرى دفاعاً عن النفس، إلا أنه، على الصعيد الأخلاقي، تصرّف بأسلوب مستهجن للغاية، خاصّة وأنه ليس ثمّة ما يبرّر دخوله إلى مثل تلك المنشأة البغيضة في المقام الأوّل، وإن الحقيقة المجرّدة بشأن وجوده هناك تثيرُ شكوكاً بصدد قدرته على تقدير الصواب من الخطأ. وكما كان فيرغسون يدري جيّداً، فإنه كان على المشآرتشين جميعهم في برنامج منحة والت ويتمان أن يُوقّعوا على قَسَم شخصي، يتعهّدون فيه بالتّصرّف كسادة محترمين في المواقف كافّة، وأن يأخذوا على عاتقهم أن يصبحوا نماذج للسلوك الحسن والفضيلة المدنية، ولأن فيرغسون فشل في الوفاء بالعهد الذي قطعه، كان من واجبه المؤسف (الواجب المؤسف لديويت) أن يُعلِمَهُ بأن منحته قد ألغيَت. في وسع فيرغسون البقاء في برينستون كطالب في وضع جيّد، إذا ما شاء ذلك، لكن البرنامج سيتوقّف عن تمويل رسومه الجامعية ونفقات دراسته. مع الأسف، وخالص التقدير ...

رفع فيرغسون سمّاعة الهاتف، واتّصل بمكتب ديويت في وول ستريت. المعذرة، قالت السكرتيرة، السّيّد ديويت مسافر في جولة آسيوية، ولن يعود قبل العاشر من شهر أيلول.

لا جدوى من الاتّصال بنيغل. كان نيغل في اليونان برفقة زوجته.

هل كان من الممكن أن يغطّي التكاليف بنفسه؟ كلا، لم يكن ممكناً. كان قد حرّر شيكاً لماكبرايد بقيمة خمسة آلاف دولار، ولم يبقَ في حسابه المصرفي سوى ألفي دولار تقريباً. ليس مبلغاً كافياً.

هل يطلب من والدته ودان أن يدفعا عنه؟ لا، لم يطاوعه قلبه على فعل ذلك. كانت والدته قد انتهَت من مشروع التقويم والمفكّرة في ذلك الوقت، أما فيل كوستانزا، مُعاوِن دان على مدى السنوات السّتّ عشرة الماضية، فقد انهار بعد أن أصيب بسكتة دماغية، وعلى الأرجح لن يعمل مرّة أخرى. ليسَت أوقاتاً مناسبة لطلب الخدمات.

أن يدفع دولاراته الألفين، ويطلب منهم تعويض الفارق؟ ربمّا. لكنْ، ماذا بخصوص السنة المقبلة، بعد أن ينتهي ماله؟

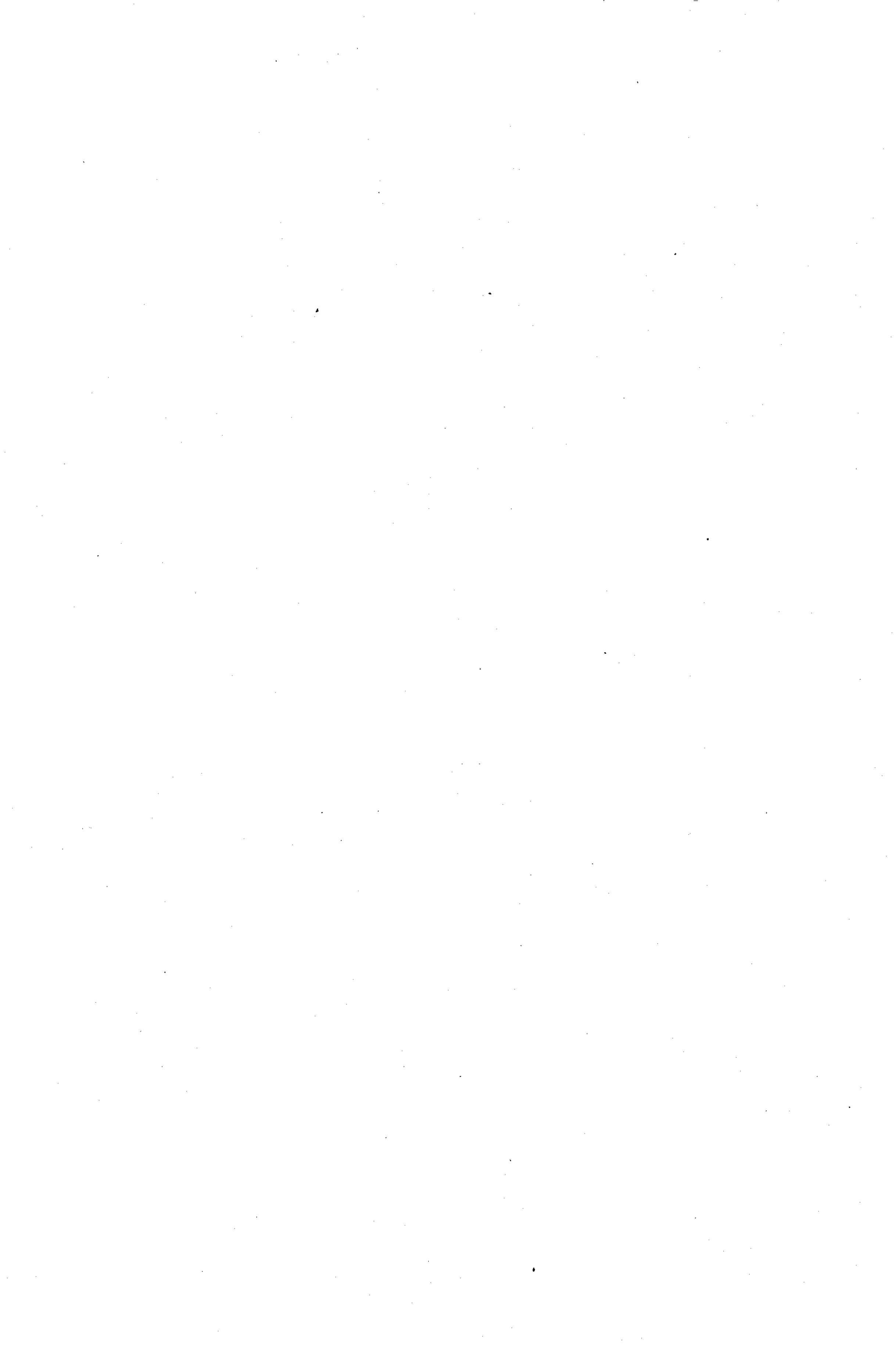
إن دفع الألفي دولار يعني أيضاً أن يتخلّى عن الشّقّة. فكرة شنيعة: لا مزيد من نيويورك.

ومع ذلك، إذا لم يعد إلى برينستون، فسيخسر تأجيله الدراسي. يعني هذا التجنيد في الخدمة العسكرية، ولأنه سيرفضُ الخدمة في حال استدعائه، فسيعني التجنيدُ السجنَ.

كلّيّة أخرى؟ كلّيّة أقلّ تكلفة؟ لكنْ، أي كلّيّة، وكيف سيتمكّن من تأمين انتقالٍ، ولم يبق من الوقت إلا القليل جدّاً؟

لم تكن لديه أدنى فكرة عن ما سيفعله.

كان ثمّة شيء مؤكّد واحد فقط: لم يعودوا راغبين به. قرّروا أنه ليس مُفيداً، ولا بدّ من طرده.



7.1

بعد عودته من فلوريدا، حزم أغراضه، وانتقل أربعة مبانٍ جنوباً، إلى شقّة في الشارع 117 غربي، بين برودواي وجادّة أمستردام. غرفتان ومطبخ مقابل مبلغ باهظ، لكنْ، مقبول تماماً، مئة وثلاثون دولاراً في الشهر (كانت هناك فوائد من إيداع المال في المصرف)، لكنْ، على الرغم من أنه كان يفضّل العيش دون زملاء في السَّكَن، وكان مسروراً بترك تلك الممرّات المسكونة في غربي الشارع 111 وراء ظهره (تصرُّف ضروري)، كان نومه وحيداً أمراً صعباً. الوسادة العليا قاسية جدّاً، أو ليّنة جدّاً، والوسادة السفلية مسطّحة جدّاً، أو متكتّلة جدّاً، كما تخدشُ الأغطية ذراعيه كل يوم، أو تلتفُّ حول ساقيه، ودون وجود إيمي إلى جانبه، كي تُهدّئه حتّى يشعر بالنعاس بالحركات الوديعة لأنفاسها، فإن عضلاته لم تسترخِ، ورفضت رئتاه أن تُبطئا، ولم يستطع أن يمنع عقله من الدوران بسرعة تكفي لتوليد اثنتين وخمسين فكرة في الدقيقة، فكرة لكل ورقة من ورق اللعب. كم سيجارة دخّنَ في الساعة الثانية والنصف صباحاً؟ كم كأساً من النبيذ الأحمر احتسى بعد منتصف الليل، كي يُهدّئ ثورانه، ويحثّ عينيه على الانغلاق؟ آلام رقبة في صباح كل يوم تقريباً. تشنّجات معدة في الظهيرة. ضيق تنفّس في المساء. وفي الصباح، والظهيرة، والمساء: قلب ينبضُ بسرعة كبيرة.

لم يعد الأمر يتعلّق بإيمي. لقد أمضى الصيف يتصالح مع نفسه بشأن حقيقة انفصالهما، حتمية انفصالهما إلى الأبد، وما عاد يلومها أو حتّى يلوم نفسه. كانا يتنقّلان في اتّجاهات متعاكسة على مدى سنة تقريباً، وعاجلاً أم آجلاً، لا بدّ أن تنقطع الشعيرة التي كانت تجمعهما معاً. وانقطعت، وكان انقطاعاً ضخماً وقوياً، لدرجة أنه رماها بعيداً عبر البلاد. إلى كاليفورنيا. طامّة كاليفورنيا البعيدة، ومنذ بداية شهر أيّار، لم يسمع أي كلمة منها أو عنها - صفر ضخم، بحجم ثقب في السماء.

في أقوى لحظاته، كان قادراً على إخبار نفسه بأن ما جرى كان لصالحهما، وأن إيمي لم تعد هي نفسها التي يمكنه العيش معها، أو التي يرغب بالعيش معها، ولهذا السبب، ينبغي ألا يندم على شيء. في أضعف لحظاته، كان يشتاق إليها، يشتاق إليها مثلما يشتاق لأصبعيه

المقطوعتين بعد الحادثة، والآن، بعد رحيلها، غالباً ما يشعر وكأن جزءاً آخر من جسده قد سُرِق منه. وعندما وقف في الوسط بين الأقوى والأضعف، كان يصلّي كي يأتي شخص آخر ليشغَل النصف الفارغ من سريره، ويداوي أرقَه.

تنقيب جديد، حلم بحبّ جديد، الصيف الطويل من العمل على ترجماته التي استمرّت طوال الخريف، والشتاء، والربيع، المشاكل الجسدية الناجمة عن خسارة حبّه القديم و/ أو حالته الذهنية الراهنة التي أودت به في نهاية المطاف إلى غرفة الطوارئ في مستشفى سانت لوك، بسبع وعشرين خنجراً في بطنه (لم يكن انفجاراً في الزائدة الدودية مثلما ظنّ، بل هجمة التهاب في المعدة)، الفوضى العنيفة المستمرّة في فيتنام، مقرونة بالهزّات العديدة الأخرى التي حدثت على امتداد النصف الثاني من سنة 1968 والنصف الأوّل من سنة 1969- كانت كلّها أجزاء من قصّة فيرغسون- لكنْ، لا بدّ الآن من توجيه الانتباه إلى الحرب التي كان يخوضها ضدّ الشخصية الرمزيّة للا أحد؛ الشخصية التي اخترعها وليم بليك الحاضر في عقل فيرغسون كممثّل للرجال غير العقلانيين الذين كانوا مسؤولين عن إدارة شؤون العالم. بحلول منتصف شهر أيلول، عندما عاد إلى كولومبيا للبدء بسنته الدراسية الأخيرة في الكلّيّة، كان يشعر بالمرارة وخيبة الأمل تجاه معظم الأشياء، بما فيها الأشياء التي اكتشفها عن التلاعب في الصحافة الأميركية، وصار يعيد النظر فيما إذا كان راغباً بالانضمام إلى صفوف تلك الأخويّة بعد ترك الكلّيّة، وما إذا كان القرار الذي اتّخذه عندما كان في المدرسة الثانوية المتعلّق بأن يصير صحفياً محترفاً ما زال يستحقّ بذل الجهد في ظلّ الفساد والتضليل اللذين شهدهما بأمّ عينه خلال أيّام ثورة كولومبيا في الربيع الفائت. كذبَت *النيويورك تايمز*. الصحيفة التي يُزعَم بأنها موثوقة والمعقل المفترَض للتغطية الأخلاقية غير المتحيّزة، زوّرت قصّتها حول تدخُّل الشرطة في اليوم الثلاثين من شهر نيسان، ونشرَت تقريراً مُفصّلاً عن الأحداث *كان قد كُتِبَ قبل* وقوع *تلك الأحداث*. كان إيه. إم. روزنثال، نائب مدير تحرير *صحيفة التايمز*، قد تلقّى بلاغاً من شخص في إدارة كولومبيا بشأن المداهمة الوشيكة قبل عدّة ساعات من وصول الشرطة إلى الحيّ، ومع معرفتهم بأنه سوف تُستدعى فرقة من ألف شرطي، أعلنت القصّة الرئيسة على الصفحة الأولى، من صحيفة صباح اليوم الثلاثين من نيسان، أن أولئك الشرطة الألف قد طهّروا المباني التي احتلّها الطلاب المتظاهرون، وألقوا القبض على سبعمائة منهم بتهمة التّعدّي الجنائي (أُضيفَ هذا الرَّقْم في اللحظة الأخيرة، بعد كتابة المقالة)، لكنْ، دون ذكر كلمة واحدة ممّا حدث حقّاً، ولا أي كلمة عن العنف وإراقة الدماء، ولا أي كلمة عن الطلاب والأساتذة الذين تعرّضوا للاعتداء، ولا أي كلمة عن استخدام الشرطة للأصفاد والهراوات الثخينة في ضربِ مُراسل *صحيفة التايمز* في قاعة أفيري. في صحيفة صباح

اليوم التالي، أهملَت الصفحة الأولى مرّة أخرى الإشارة إلى إفراط الشرطة في استخدام القوّة خلال المداهمة التي حدثت في الحرم الجامعي، على الرغم من وجود قصّة مُتواضِعة بصدد ما يُزعَمُ أنها أعمال وحشية من قِبل الشرطة، وكانت مخبّأة في الصفحة الخامسة والثلاثين: ليندسي يطلُب تقريراً عن الشرطة. ادّعى المقطع الثالث من المقالة أنه "من الصعب تحديد وحشية الشرطة في حالة مثل هذه، كما توحي تصريحات العشرات من طلاب كولومبيا. وبالنسبة إلى متظاهِر متمرّس في مناهضة الحرب، أو الحقوق المدنية، فقد كان أداء الشرطة صباح الأمس في حرم كولومبيا، في معظمه، معتدلاً نسبياً". أما فيما يتعلّق بالضرب السادي التي تَعرّض له مراسل *التايمز* روبرت ماك جي. توماس جونيور، فلم يُشَر إليه حتّى المقطع الحادي عشر.

عشرات *الطلاب*. لكنْ، أيُّ طلاب، أراد فيرغسون أن يعرف، وماذا كانت أسماؤهم؟ ومَنْ هم المُحاربون القدامى والخبراء في الحقوق المدنية ومناهضة الحرب الذين تعاملت معهم الشرطة بخشونة في مظاهرات سابقة؟ لم يكن لأي طالب غير مُتخرِّج يعمل في صحيفة *كولومبيا ديلي سبيكتاتور* أن يسمح بنشر مقالة كهذه، ليس بدون اقتباسات مُباشرة إلى جانب هويات الطلاب الذين أدلوا بتلك التعليقات، على فرض أنّ هُناك تعليقات حقّاً. هل كانت هذه قصّة إخبارية، سأل فيرغسون نفسه، أم خدعة تحريرية كقصّة إخبارية؟ وماذا كان تعريف كلمة "معتدل"، يا ترى؟

في الأوّل من شهر أيّار، كَتب روزنثال بنفسه مقالاً رئيساً آخر، مزيجاً مُشوَّشاً ومفكّكاً إلى حدّ غريب، من الأحزان، والانطباعات، والتشكيك الغاضب. "كانت الساعة الرابعة والنصف صباحاً"، يبدأ المقطع الأوّل، "ورئيس الجامعة متّكئ على جدار في الغرفة. كانت تلك الغرفة مكتبَه. مرّر يده على وجهه. 'يا إلهي!' قال، 'كيف بإمكان البشر أن يفعلوا شيئاً مثل هذا؟' ... تجوّل في الغرفة. كانت شبه فارغة من الأثاث. كانت المكاتب والكراسي مُحطّمة، ومهشّمة، ومحشورة في الغرف المجاورة من قِبَل الطلاب المحتلّين...".

في الصفحة السادسة والثلاثين من عدد ذلك الصباح، تحدّثت مقالة أخرى عن الأضرار التي لحقت بالعديد من الغرف والمكاتب من قبل مُحتلّي قاعة الرياضيات. نوافذ مُحطّمة، خزائن مقلوبة من بطاقات فهرس المكتبة، مكاتب وكراسٍ مُخلّعة، حروق سجائر في السّجّاد، خزائن ملفّات مقلوبة، أبواب مُحطّمة. "أما السكرتيرة التي عادَت إلى المبنى للمرّة الأولى منذ أن استُولي عليه في مساء الخميس، فقد تأمّلت حولها بقرف، 'إنهم مجرّد خنازير'، قالت".

مع ذلك، لم يكن الخنازير الطلابَ الذين احتلّوا المباني، بل عناصر الشرطة الذين دخلوها بعد المداهمة. كانوا هم مَنْ حطّم المكاتب والكراسي، وكانوا هم مَنْ سكبوا جداول من الحبر الأسود الذي كان يقطر على الجدران، ومَنْ مزّق أكياس الأرز والسّكّر، ونشروا محتوياتها حول المكاتب

وقاعات الدراسة، وألقوا الجرّات المُكسّرة من معجون الطماطم على الأرضيات والمكاتب وخزائن الملفّات، وكانوا هم مَنْ حطَّم النوافذ بهراواتهم. إذا كانوا يهدفون إلى تشويه سمعة الطلاب، فقد نجحت خطّتهم، لأنهم خلال ساعات هيجان الشرطة الثاني، التقطوا صوراً تُوثِّق مدى الأضرار التي تتناقل البلاد أخبارها (كان خبر الجدران المرشوقة بالحبر يحظى بشعبية خاصّة)، وتحوّل المتمرّدون الشباب إلى قطيع همجي من المشاغبين وقطاع الطُرُق، عصابة من البرابرة، هدفها الوحيد أن تُدمِّر أكثر المؤسّسات قدسية في الحياة الأميركية.

عرف فيرغسون القصّة الحقيقية، لأنه كان أحد مراسلي *السبيكتاتور* المكلّفين بالتحقيق في تُهَم التخريب المتعمّد للممتلكات ضدّ الطلاب المُحتلّين، وقد اكتشفَ بصحبة زملائه الصحفيين - عبر شهادات موثّقة من أعضاء في هيئة التدريس - أنه لم يكن هناك أي حبر على الجدران عندما تجوّلت فرقة من الأساتذة في مبنى الرياضيات الفارغ عند الساعة السابعة من صباح اليوم الثلاثين من شهر نيسان. بعد مُغادرتهم، لم يسمح سوى للشرطة والمصوّرين الصحفيين بدخول المبنى، وعندما عاد الأساتذة في وقت لاحق من ذلك اليوم، وجدوا الجدران مغطّاة بالحبر. كذلك الأمر بالنسبة إلى المكاتب، والكراسي، وخزائن الملفّات، والنوافذ، وصناديق الطعام. كانت في حالة جيّدة حتّى الساعة السابعة صباحاً، ومنهوبة ومُدمّرة بحلول الظهر.

لم يُغيّر شيئاً أن ناشر *صحيفة النيويورك تايمز*، آرثر أوكس سالزبيرغر، كان عضواً في مجلس أمناء جامعة كولومبيا. وكذلك الأمر بالنسبة إلى ويليام إس. بالي، رئيس شبكة تلفزيون سي بي إس، وفرانك هوغان، المدّعي العامّ في مقاطعة مانهاتن، اللذين كانا ضمن المجلس أيضاً. على عكس العديد من أصدقائه، لم يكن من عادات فيرغسون البحث عن مؤامرات تتعلّق بعمليات سرّيّة لأتباع النوبودادي، لكنْ، كيف لا يتساءل في أمر أن الصحيفة الأكثر تأثيراً في أميركا قد شوّهت عن قصد تغطيتها للأحداث في كولومبيا، وأن شبكة التلفزيون الأكثر تأثيراً قد وجّهت دعوة لرئيس جامعة كولومبيا، غرايسون كيرك، للظهور في برنامج فيس *ذا نيشن*، لكنْ، دون أن يُطلَب أبداً من أيّ من قادة الطلاب أن يتحدّث عن الجانب الآخر من القصّة. أما فيما يتعلّق بمسألة إحقاق القانون، فقد كان فيرغسون وزملاؤه الطلاب في مرتفعات مورنينغسايد، على علم تماماً بما فعلته الشرطة خلال المداهمة وبعدها، لكنْ، لم يبدُ أن أحداً آخر يهتمّ بشدّة.

أُغلقِت القضية.

في شهر أيلول ذاك، عاد فيرغسون إلى الحرم الجامعي في كولومبيا كسير القلب مثبّط العزيمة. في حالة من الاستنزاف والنضوب بينما ظلّت فظائع شهر آب تتردّد في داخله، دبّابات سوفيتية

تدخل إلى تشيكوسلوفاكيا للقضاء على ربيع براغ، ودالي يقول عن ريبيكوف بأنه يهودي قذر لعين في أثناء المؤتمر الديمقراطي في شيكاغو، وذلك في الوقت الذي أطلقَ فيه ثلاثة وعشرون ألف شرطي محليّ، وإقليمي، واتّحادي، الغاز على المتظاهرين الشباب والصحفيين، وضربوهم، في غرانت بارك، كان الحشدُ يبكي في انسجام، *والعالم كله يتفرّج*! ثمّ بدأ فيرغسون سنته الدراسية الأخيرة في نيويورك بأزمة أخرى، المشهد المحموم لمُعلّمي المدراس العامّة الذين خرجوا في إضراب لتحدّي سيطرة المجتمع على مجلس إدارة المدرسة في أوشن هيل - براونزفيل، اشتباك جديد آخر بين البيض والسود، كراهيّة عُنصريّة بأقبح صورها وأكثرها انتحارية، سود ضدّ يهود، يهود ضدّ سود، سموم إضافية تملأ الهواء بينما يُحوّل العالم ناظريه نحو الألعاب الأولمبية التي كانت على وشك البدء في مدينة مكسيكو، حيثُ تُقاتل الشرطةُ حشداً من ثلاثين ألف مُتظاهر من طلاب وعمّال، حيثُ قتلَت ثلاثة وعشرين منهم، واعتقلَت الآلاف، ثمّ، في أوائل شهر تشرين الثاني، صَوّتَ فيرغسون ذو الإحدى والعشرين سنة للمرّة الأولى، واختارَت أميركا ريتشارد نيكسون رئيساً جديداً لها.

حدث هذا كله خلال الأشهر السّتّة الأولى من سنته الدراسية الأخيرة، وشعر كما لو أنه مُحاصر داخل جسد غريب، وليس قادراً على تمييز نفسه كلّما نظر إلى وجهه في المرآة، وكان هذا صحيحاً أيضاً بالنسبة إلى الأفكار التي تشغله كلّما بحث داخل رأسه، إذ كانت في معظمها أفكار شخص غريب أيضاً: أفكار تهكّميّة، أفكار سوداوية، أفكار مُشمئزّة، لا علاقة لها بالشخص الذي كان عليه من قبل. أخيراً، سيأتي رجل من الشمال، وسيساعد على شفائه من مرارته، لكن ذلك لن يحدث حتّى اليوم الأوّل من الربيع، وكان الخريف والشتاء قاسيين على فيرغسون، قاسيين جدّاً، لدرجة أن جسده انهار، وانتهى به المطاف في غرفة الطوارئ.

إن لم يكن في طريقه لأن يصبح صحفياً، فليس من المنطقي أن يستمرّ في إعداد التقارير لصالح *السبيكتاتور*. وللمرّة الأولى منذ سنوات، سيكون قادراً على الخروج من صومعته الزجاجية، والاختلاط مع العالم مرّة أخرى، ليس كموثّق للأحداث التي يصنعها الآخرون، بل كبطل لحياته الخاصّة، مهما كانت تلك الحياة مضطربة وفوضوية. لا مزيد من التقارير، لكنْ، ليس هناك ما هو شديد القسوة أكثر من العطالة الكلّيّة، خاصّة أنه كان يحبّ الأشخاص الذين عمل معهم هناك (إذا كان يحترمُ أيّ صحفي في أميركا الآن، فسيكون فريدمان وفتية *السبيكتاتور* الآخرون)، لذا بدلاً من قطع العلاقات كافّة مع الصحيفة، تنازل عن منصبه كعضو مشارك في مجلس الإدارة، وحوّل نفسه إلى مُراجِع غير ثابت للكُتُب والأفلام، ممّا عنى أنه كان يُسلّمُ تقريباً مقالة مطوّلة قليلاً كل شهر، تأمّلات بصدد مواضيع متشعّبة على غرار

قصائد كريستوفر سمارت التي نُشِرَت بعد وفاته، وأحدث أفلام غودار، *ويك إند*، حيثُ ناقش فيرغسون بأنه النموذج التسجيلي الأوّل لما أُطلق عليه اسم *السريالية العامّة*، كنقيض *للسريالية الخاصّة* لدى بريتون وزملائه، حيث يشار عادةً إلى فترة اليومين ونصف اليوم، ما بين ظهيرة الجمعة ومساء الأحد، باسم *ويك إند*، وتُشكِّلُ تقريباً ثلث الأسبوع في المجتمعات الصناعية وما بعد الصناعية على غرار أميركا وفرنسا، تماماً مثلما تُشكّلُ الساعات السبع أو الثماني التي يقضيها الفرد في السرير كل ليلة ثلث حياته تقريباً، فترة أحلام الأفراد من الرجال والنساء بالتوازي مع فترة أحلام المجتمع الذي يعيشون فيه، ولم يكن فيلم غودار الفوضوي الدموي، بما فيه من سيّارات محطّمة وجنس افتراسي، سوى استكشاف لكابوس جماعي؛ تماماً من ضمن الأشياء ذاتها التي تخاطب أعماق فيرغسون الآن.

عُيِّن كل من هيلتون أوبنزينغر ودان كوين كرئيس تحرير جديدين لمجلّة *كولومبيا ريفيو*، وديفيد زيمر وجيم فريمان كمحرّرين مساعدين جديدين، وأصبح فيرغسون واحداً من أصل تسعة أعضاء في المجلس الأدبي. عددان في السنة كما في السابق، لكنْ، ارتفعت المخصّصات المالية ما يكفي لإطلاق شيء يُدعى مطبوعات مراجعات كولومبيا، والتي ستسمحُ لهم بنشر أربعة كُتُب صغيرة فضلاً عن العددين. عندما التقى الثلاثة عشر في اجتماعهم الافتتاحي في قاعة فيريس بوث في منتصف شهر أيلول، كان هناك جدال طفيف بصدد العناوين الثلاثة الأولى على القائمة. قصائد لزيمر، وقصائد لكوين، ومجموعة من القصص لبيلي بيست الذي كان طالباً سابقاً في كولومبيا، ومع أنه ترك الدراسة قبل خمس سنوات، لكنه ما زال على تواصل مع العديد من أعضاء الـ *ريفيو*. خلقَ الكتاب الرابع مشكلة، اعتذرَ كلٌّ من جيم وهيلتون، قائلين بأنهما لا يمتلكان عملاً قوياً بما يكفي لملء أربع وستّين صفحة، وربمّا ما لا يكفي حتّى لثمان وأربعين صفحة، ثمّ، خلال استراحة قصيرة في أثناء المناقشة، فتحَ طرداً بوزن رطل واحد من اللحم البقري المفروم، وضغطه في يده، ثمّ نهض عن كرسيه، وقذفه بقوّة شديدة إلى الجدار، وصاح بكلمة *لحم*! بينما اصطدم الطرد بالجدار، والتصق به لبضع ثوان، قبل أن ينزلق إلى الأرض. هكذا كانت روح هيلتون الدادائية الشجاعة، وهكذا كانت روح تلك السنة، عندما أدركَت أفضل العقول في الحرم الجامعي أنه لا يمكن الإجابة على أكثر المسائل أهمّيّة إلا *باستنباطات صارخة لا تتّفق مع المقدّمات*، على النقيض من تكتيكات *الطريق المسدود* كما حدث في الربيع المنصرم، وعندما صفّقَ الجميعُ لهيلتون بعد درسه عن النقاط الأفضل في المنطق، نظرَ جيم فريمان إلى فيرغسون، وقال: ماذا عن ترجماتكَ، يا آرتشي؟ هل لديكَ منها ما يكفي لتشكيل كتاب؟

ليس تماماً، قال فيرغسون، لكنني عملتُ كثيراً طوال الصيف. هل بإمكاننا الانتظار حتّى فصل الربيع؟

بعد تصويت بالإجماع، تقرّرَ أن تكون مجموعة صغيرة من مُختارات فيرغسون من الشعراء الفرنسيين في القرن العشرين الكتابَ الرابع والأخير الذي سيُنشر في تلك السنة. عندما ذكّرَهم فيرغسون بأنه من غير القانوني نشر الترجمات دون شراء حقوق نسخها الأصلية، لم يبدُ له أن أحداً يبالي بذلك. أشار كوين إلى أن ذلك الإصدار سيقتصر على خمسمائة نسخة، وستوزّعُ معظمها مجّاناً، وإذا حدث أن جاء ناشر فرنسي إلى نيويورك، ورأى مصادفة كتاب فيرغسون على رفّ في سوق غوثام للكتاب، فماذا في وسعه أن يفعل بهذا الصدد؟ ستكون كلها مباعة بحلول ذلك الوقت، ومتناثرة في أنحاء البلاد جميعها، ولا ريب ستصل إلى بلدان أخرى أيضاً، فلماذا سيكلّف أحدهم نفسه عناء مطاردة النسخ من أجل بضع مئات من الدولارات؟

أنا مع دان، قال زيمر. اللعنة على المال.

وللمرّة الأولى منذ أسابيع، إن لم تكن أشهر، ضحك فيرغسون.

ثمّ صوّتوا مرّة أخرى، فقط كي يجعلوا الأمر رسمياً، ثمّ واحداً تلو آخر، ردّد كل من الأعضاء الثلاثة عشر لمجلس *كولومبيا ريفيو* كلمات زيمر: *اللعنة على المال.*

حدّد كل من جيم وهيلتون الأوّل من نيسان كموعد نهائي لتسليم المخطوط النهائي، ممّا سيمنحهما ما يكفي من الوقت، كي يطبعا الكتاب قبل أن يتخرّجوا جميعاً في شهر حزيران، وبينما مرّت الأشهر سريعاً، تساءل فيرغسون في أحيان كثيرة عن ما كان سيحدث له لو أن جيم فريمان لم يسأله ذلك السؤال، لأنه مع مرور كل شهر، أصبح من الواضح أكثر فأكثر بالنسبة إليه أن الموعد النهائي كان يُنقذُ حياته.

كانت تلك القصائد مَلجأه، جزيرة الرشد الصغيرة حيثُ لا يشعر بالانفصال عن نفسه، أو بالتناقض مع كل شيء كان، وعلى الرغم من أنه أنهى ترجمات عديدة، تفوق بكثير ما طُلِبَ منه خلال الاجتماع، ما لا يقلّ عن مئة صفحة حتّى الآن، وربّما مئة وعشرون، إلا أنه واصل العمل على إصداراته من أبولينير، وديسنوس، وسندرار، وإيلوار، وريفيردي، وتزارا، وآخرين، حيثُ أراد أن يُراكم مادّة غزيرة، ليعمل عليها عندما يحين وقت تخفيض المجموعة إلى الصفحات الخمسين أو السّتّين التي تستطيع دار نشر تحمّل تكاليف طباعتها، كتاب غير متناغم يتراوح بين البكائيات مكسورة الفؤاد في قصيدة *الصهباء الجميلة*، إلى البهلوانيات الموسيقية الهائجة في قصيدة *الرجل التقريبي* لتزارا، وبين الإيقاعات الاستطرادية في قصيدة فصح في نيويورك لسندرار، إلى الزخرفة الغنائية لبول إيلوار:

هل نصل إلى البحر والساعات
في جيوبنا، وضجيج البحر
في البحر، أم نحنُ مَنْ نحملُ
ماء أنقى وأكثر صمتاً؟

تحتكّ المياه بأيدينا، تشحذها كسكاكين.
وجدَ المقاتلون أسلحتهم في الأمواج
وصوتُ ضرباتِهم مثل الصخور
تُحطِّمُ القوارب في الليل.

إنها العاصفة والرعد. لماذا ليس صمت الطوفان،
لأننا حلمنا في داخلنا بالصمت الأعظم،
وتنفّسنا مثل الريح فوق البحار المخيفة، مثل الريح

التي تنسلّ ببطء فوق كل أفق.

إذاً، كانت لدى فيرغسون أعمال غير اعتيادية من الترجمة والمراجعة، وكان كل منها على حدة، ومعاً في غالب الأحيان، يشكّل مشقّة ومتعة بالنسبة إليه، مُتعة المشقّة من أجل إنجازها على النحو الصحيح، والإحباطات نتيجة عدم إنجازها على نحوٍ أفضل ممّا يريد، القصائدُ التي هزمَتهُ، ولم يستطع تقديمها بلغة إنكليزية مقبولة بعد عشرات التعديلات، الفشلُ في مقاله عن أثر الاستماع إلى أنواع مختلفة من الموسيقى، تُغنّيها أصوات نسائية مختلفة (جانيت بيكر، وبيلي هوليداي، وآريثا فرانكلين)، لأنه في نهاية المطاف، تستحيل الكتابة عن الموسيقى، كما قرّر، تستحيل بالنسبة إليه على الأقلّ، لكنه نجح برغم ذلك في كتابة بعض المقالات التي كانت أقلّ فظاعة بما يكفي كي يرسلها للنشر، ومازالت كومة الترجمات تزداد حجماً، وفي خضمّ ذلك كله، كانت هناك فصوله الدراسية أيضاً، وكانت في معظمها حلقات دراسية في الأدبين الإنكليزي والفرنسي في تلك المرحلة، لأنه أنجز مقرّراته الأكاديمية كلّها إلا واحداً، العلوم، مقرّر

العلوم البغيض الذي يستغرق سنتين، والذي كان تبديداً مطلقة للوقت والجهد في رأيه، لكنه اكتشف أنه هناك مقرّراً تعليمياً مُصمَّماً للمغفّلين من أمثاله، مقدّمة إلى علم الفلك، وبدا أنه لم يرسب به أحد، لأن الأستاذ كان ضدّ رسوب الطلاب غير المهتمّين بالعلوم في مقرّره، وحتّى لو لم تأتِ إلى أي محاضرة أبداً. فكل ما عليكَ فعله أن تأخذ امتحاناً متعدّد الاختيارات في نهاية السنة، اختبار لا يمكن أن تفشل فيه حتّى لو فشلت في التّغلّب على تخمين الاحتمالات، ولم تحقّق سوى عشرة في المئة، لهذا السبب، التحق فيرغسون في مقرّر المغفّلين ذاك الخاصّ بالميكانيكا السماوية، لكنْ، لأنه كان يعيش في جسد غريب، ولم يعد يعرف نفسه، ولأنه لا يشعر بشيء عدا الازدراء تجاه قواعد كولومبيا والمقرّرات التافهة التي كانوا يُجبرونه على دراستها، فقد ذهب إلى مكتبة الكلّيّة في أوائل الفصل الأوّل، وسرقَ الكتاب الدراسي لمادّة علم الفلك؛ الشخص الذي لم يسبق له أن سرق شيئاً في حياته، الشخص الذي عمل في متجر عالم الكُتُب خلال الصيف بعد سنته الدراسية الأولى، وأمسك ستّة طلاب أو سبعة وهم يسرقون الكُتُب، ورمى بهم خارج المتجر، صار الآن نفسه لصّ كُتُب، يضع خلسة تحت سترته كتاباً يزن عشرة باوندات، ويمشي بهدوء نحو المَخرَج، ويخرج تحت إشراقة شمس صيف هندي، صار الآن يفعل أشياء، لم يكن ليفعلها في الماضي، ويتصرّف *كما لو أنه لم يعد نفسه*، لكنْ، مرّة أخرى، ربّما كان هذا ما صار عليه الآن، لأن الحقيقة أنه لم يشعر بالذنب إزاء سرقة الكتاب - لم يشعر بأي شيء بشأن ذلك على الإطلاق.

كثير من الليالي في ويست إند، كثير من ليالي السُّكْر بصحبة زيمر وفوغ، لكنْ، كان فيرغسون توّاقاً إلى المجالسة والحديث، وفي الليالي التي ذهب فيها إلى الحانة وحيداً، كان هناك احتمال بعيد دائماً أن يلتقي بفتاة وحيدة مثله تماماً. احتمال بعيد أكثر من أن يكون صدفة، لأنه كان عديم الخبرة إلى حدّ عظيم عندما يتعلّق الأمر بمثل هذه المسائل، ذلك أنه أمضى خمس سنوات من صباه وأوائل شبابه مع فتاة واحدة، إيمي شنايدرمان التي رحلت إلى الأبد، والتي أحبّتهُ، ثمّ لم تعد تحبّه، ثمّ قذفته بعيداً، وكان عليه الآن أن يبدأ من القاع مرّة أخرى، كمبتدئ في فنّ الغزو الغرامي، لا يعلم شيئاً تقريباً عن كيفية الاقتراب من شخص ما والبدء في محادثة، بيد أن فيرغسون الثمل كان أكثر جاذبية من فيرغسون الرزين، وفي ثلاث مرّات خلال الأشهر الثلاثة الأولى منذ عودته إلى كاليفورنيا، عندما ارتشف من الخمر ما يكفي ليهزم خجله، لكنْ، دون أن يفقد السيطرة على أفكاره، انتهى به المطاف مع امرأة في السرير، مرّة لساعة، ومرّة لبضع ساعات، ومرّة لليلة كاملة. كانت تلك النسوة أكبر منه سنّاً، وفي مناسبتين من أصل ثلاث، بادرنَ بالتّقرّب إليه، وليس العكس.

كانت المُناسبة الأولى كارثة. كان مشاركاً في ندوة لطلاب الدراسات العليا عن الرواية الفرنسية، الطالب اللا متخرّج الوحيد في القاعة مع خرّيجَين آخرَين وستّ خريجات، وعندما جاءت إحداهنّ إلى ويست إند في الأسبوع الثالث من شهر أيلول، سار إليها، وقال مرحباً. كانت أليس دوتسون في الرابعة والعشرين من عمرها، أو الخامسة والعشرين، لم تكن غير جذّابة أو كارهة، بل ممتلئة وغريبة، وربّما لم تعتد مراسم الجنس العَرَضي، بل ربّما كانت أكثر خجلاً منه، وعندما وجدَ نفسه بين ذراعيها في وقت لاحق من تلك الليلة، بدا جسدها مُختلفاً جدّاً عن جسد إيمي، لدرجة أنه صُدِم بغرابة كلّ شيء، ثمّ، ليزداد ارتباكه، كانت أكثر سلبية في السرير بكثير من إيمي المتوهّجة والمفعمة بالحيوية، وعندما شرع فيرغسون في محاولة مضاجعتها، ظلّ عقله تائهاً عن المهمّة المطروحة، وعلى الرغم من أن أليس كانت مستمتعة على نحوٍ معتدل وغامض، إلا أنه لم يستطع إنهاء ما بدأه؛ وهو أمر لم يحدث له أبداً طوال السنوات التي قضاها مع إيمي، وتحوّلَت المواقعة الممتعة التي كان يتطلّع إليها إلى ساعة بائسة من العنة والخزي. لم يُسمَح له بنسيان تلك الضربة التي تلقّاها في فخره الذكوري على الإطلاق، لأن الفصل كان ينعقدُ لمدّة ساعتين في كل يومي اثنين وخميس، ولمرّتين في الأسبوع لبقية السنة الدراسية، ظلّت أليس دوتسون تجلس مع الطلاب الآخرين حول الطاولة، وتبذل قصارى جهدها كي تتجاهله.

لم تُخلّف المناسبة الثانية أيّ ندبة، بل علّمتهُ دَرساً قيّماً. سكرتيرة، في الحادية والثلاثين من عمرها، لطيفة لكنْ، عادية المظهر، دخلت إلى ويست إند ذات ليلة بغرض جليّ هو التقاط طالب. أطلقَت على نفسها اسم زوي (لم تذكر اسمها الأخير أبداً)، وعندما ثبّتَت عينيها على فيرغسون الوحيد، جلسَت بقربه في الحانة، وطلبَت كأس مانهاتن، وبدأت بالحديث عن نهائيات كأس العالم الجارية حالياً بين فريق الكاردينالز وفريق التايغرز (كانت تشجّع سانت لويس، لأنها نشأت في جوبلن، ميزوري). وبعد ثلاث أو أربع رشفات من شرابها، اختبرَت الحالة بأن وضعَت يدها على فخذ فيرغسون، ولأنه كان سريع التّأثّر بمثل هذه التّحرّشات، استجابَ بأن قبّلَها على ظهر عنقها. أنهَت زوي ما تبقّى من كأس المانهاتن، وبلع فيرغسون ما تبقّى من بيرة في كأسه، ثمّ ركبا في سيّارة أجرة، واتّجها إلى منزلها غربيَّ الشارع الرابع والثمانين، دون أن يتبادلا أكثر من ستّ أو سبع كلمات في الوقت الذي كانا يتعانقان فيه، ويقبّلان بعضهما في المقعد الخلفي. كان كل شيء مُجرّداً، كما افترض، لكنْ، كان جسدها الرشيق يتحرّك بطُرُق أثارَت فيرغسون، وبعد وصولهما إلى الشّقّة، لم يواجه العضو الحزين الذي خذلَهُ بقسوة شديدة مع أليس دوتسون أي مشاكل في إنهاء ما بدأه مع زوي مجهولة اللقب. وكانت العلاقة الغرامية العابرة الأولى. امتدّتْ لليلة تقريباً، فقد كانت هناك جولة أولى، وأعقبتها جولة ثانية، لكنْ، بعد نهاية الجولة الثانية

عند الساعة الثانية، طلبَت زوي من فيرغسون أن يغادر، مؤكّدة له أن حالهما ستكون أفضل في الصباح، إذا لم يُمضيا ما تبقّى من الليل معاً. لم يكن يعرف بماذا يفكّر. الأمر ممتع بقدر استمراريته، قال لنفسه، لكنْ، للجنس بلا مشاعر حدوده المُقرَّرة، وعندما سار عائداً إلى شقّته في تلك الليلة الخريفية العاصفة، أدرك أن الأمر لم يكن يستحقّ هذا العناء كله.

كانت المناسبة الثالثة جديرة بالذكر، الشيء الجيّد الوحيد الذي حدث له خلال تلك الأشهر الطويلة الفارغة. على الرغم من أن ويست إند كانت في الأساس مُستراحاً للطلاب، كان هناك عدد من الزبائن المنتظمين الذين لم يعودوا طلاباً، أو لم يكونوا طلاباً في الأصل، الغرباء الحالمون والسُّكارى الذين يجلسون وحيدين في الحجرات، ويحيكون المؤامرات للإطاحة بحكومات خيالية، أو يأخذون جولة شراب أخيرة قبل الذهاب إلى حانة أخرى، أو يستغرقون في ذكريات الأيّام الخوالي عندما اعتاد ديلان توماس أن يجلس في الحانة، ويقرأ قصائده بصوت عال. ومن بين أولئك الزبائن المنتظمين، ثمّة امرأة شابّة كان فيرغسون قد التقى بها منذ زمن عندما بدأ سنته الدراسية الأولى، جميلةٌ مرهفة طويلة الساقين من لوبوك، تكساس، واسمها نورا كوفاكس، ولطالما شعر بالانجذاب إليها، لكنْ، لم يتودّد إليها قطّ بسبب إيمي، كانت الفتاة الأكثر استثنائية التي قصدت الشمال للدراسة في بارنارد في سنة 1961، وقد تركت الدراسة في منتصف فصلها الدراسي الأوّل، وظلّت في الحيّ منذ ذلك الوقت، نورا المغرورة الشبقة سليطة اللسان، والتي كانت قد انجرفت إلى مهنة خلع ملابسها أمام الغرباء، فنّانة تعرٍّ تجوب المواقع الأمامية النائية للصناعة الأميركية، من أجل تحسين حياة المحرومين من النساء، الذين يعملون في حقول النفط، وأحواض بناء السفن، والمطاحن، وكانت مؤدّية ذات أجر سخي، تختفي من نيويورك لبضعة أشهر للذهاب إلى ألاسكا أو ساحل الخليج في تكساس، لكنها تعود دوماً، لتطالب بمقعدها في الحانة في ويست إند، حيثُ تذهب كل ليلة تقريباً للحديث مع أي شخص يجلس بجوارها، تتحدّث عن مغامراتها على الطريق، وتشكو بحدّة من الوحوش الأشرار المعتوهين الذين يُدمّرون الكون. لم يكن فيرغسون يعرفها جيّداً، لكنهما تحدّثا إلى بعضهما لخمس أو ستّ مرّات خلال تلك السنوات، ولأن فيرغسون ساعدها ذات مرّة في مسألة ذات أهمّيّة كبيرة، فقد كان هناك رابط مميّز بينهما، حتّى لو لم يكونا صديقين مقرّبين. يعود ذلك إلى ليلة من سنته الدراسية الأولى، عندما ذهب إلى ويست إند بدون إيمي، وأمضى أربع ساعات بالحديث إلى نورا في حجرة جانبية. كانت على وشك الانطلاق في أوّل جولة تعرٍّ لها، كما أخبرتْه، وكانت بحاجة إلى اختراع اسم مسرحي خاصّ بها، حيث كانت متأكّدة تماماً بأنها لن تعرض بضاعتها تحت اسم نورا كوفاكس. وفي وميض مفاجئ من الإلهام، قال فيرغسون: *ستار*

بولت. اللعنة، قالت نورا، اللعنة، يا آرتشي، أنتَ عبقري، ولعلّه كان عبقرياً في تلك اللحظة، لأن اسم *ستار بولت* يشعّ فتنة، وحرّيّة، وقوّة جنسية؛ الصفات الأساسية التي تحتاجُها كل متعرّية، كي تصل إلى القمّة، وكلّما صادف نورا على مدى السنوات التي أعقبت تلك الحادثة، كانت تشكُرُه على تحويلها إلى ما أسمته على نحوٍ لعوب بـ *ملكة المناطق النائية*.

كان فيرغسون معجباً بنورا، لأنها كانت تجذبه، أو كان منجذباً إلى نورا، لأنها كانت تعجبه، لكنه فهم أيضاً أن نورا كانت ضرباً من الفوضى، وأنها تشرب الكثير جدّاً من الكحول، وتتعاطى الكثير جدّاً من المخدّرات، وأنها تطوّرَت إلى ما يُطلق عليه حرّاسُ الفضيلة اسم فاجرة أو عاهرة، امرأة شابّة تسافر في طريق سريع نحو الخراب والفناء، صريحة جدّاً عندما يتعلّق الأمر بشؤونها الخاصّة، مرتاحة جدّاً في جسدها الفاتن الذي وهبها الرّبّ إيّاه دون أي غاية سوى اختبار أخلاق الرجال الضعفاء والخطّائين الحائرين، امرأة تنام مع مَنْ تشاء، وتتحدّث علناً عن فرجها، وبظرها، واللّذّة التي تحصل عليها عندما ينغرز قضيب منتصب في مؤخّرتها، لكنْ، في الوقت نفسه، كان فيرغسون يعدّها واحدة من أكثر الأعضاء ذكاءً في طاقم ويست إند، فتاة بقلب دافئ ونوازع لطيفة، وعلى الرغم من أنه كان يشكّ بأنها ستعيش حتّى الثلاثين أو الخامسة والثلاثين من عمرها، إلا أنه لم يشعر تجاهها إلا بالمودّة.

لم يكن قد رآها منذ أشهر، وربّما منذ نصف سنة، لكنها حضرت ذات ليلة من أوائل شهر تشرين الثاني، بعد بضعة أيّام فقط من هزيمة همفري أمام نيكسون، والتي زادت من كآبة المزاج القاتم الذي كان يُغلّف فيرغسون بالفعل في ذلك الخريف، وعندما جلس بجوارها في الحانة، ضحكَت نورا ضحكة كبيرة، وزرعت قبلة على خدّه الأيسر.

تحدّثا لمدّة ساعة تقريباً، حيثُ مرّا على عدد من الموضوعات الحياتية، على غرار اعتقال حبيب نورا السابق بسبب بيع المخدّرات، والخروج النهائي لإيمي من حياة فيرغسون، والخبر المخيّب للآمال (بالنسبة إلى فيرغسون) عن سفر نورا إلى أريزونا في صباح اليوم التالي، والحقيقة الطريفة عن أنه بينما كانت نورا *تهزهز ثدييها* في نوم - ألاسكا (عبارة أقسمَ بألا ينساها أبداً)، تمكّنَت من مواكبة ما كان يحدث في كولومبيا خلال الربيع الفائت، عن طريق قراءة أعداد من *السبيكتاتور*، والتي كان مولي وجاك يرسلانها إليها كل يوم من نيويورك. ونتيجة لذلك، قرأت مقالات فيرغسون كلها عن احتلال المباني، وإنزال الشرطة، والإضراب، وكل شيء آخر.

ربّما كان وصول الأخبار بطيئاً إلى الاسكا، لكنْ، كانت مقالاته *جيّدة جدّاً*، كما قالت له، في *غاية العظمة، يا آرتشي*، وبعد أن شكرَها على الإطراء، أخبرها بأنه اعتزل كتابة التقارير. ربّما دائماً، قال، ربّما مؤقّتاً، لم يكن متأكّداً بعد، لكنه كان متأكّداً من شيء واحد فقط؛ أنه

لا يدري بماذا يفكّر، وأن دماغه قد استُنزف حتّى آخره، وأن خراء (شكراً لك، يا سال مارتينو) كان في كل مكان.

قالت نورا بأنها لم تره في حالة انحدار إلى هذه الدرجة من قبل قطّ.

أنا أكثر انحداراً من الانحدار، أجاب فيرغسون. لقد وصلتُ للتوّ إلى الطابق الثالث والتسعين تحت الأرض، ومازال المصعد مستمرّاً بالنزول.

ثمّة حلّ واحد فقط، قالت نورا.

حلّ؟ هاتِه - رجاءً - حالاً.

حمّام.

حمّام؟

حمّام دافئ، نكون فيه نحن الاثنان معاً.

لم يسبق له أن تلقّى عرضاً في غاية اللطافة مثل هذا، ولم يحدُث أن كان مسروراً بالموافقة بقدر ما كان هذه المرّة.

بعد خمس وعشرين دقيقة، عندما فتحت نورا صنابير حوض الاستحمام في شقّتها في جادّة كليرمونت، أخبرها فيرغسون بأن الرّبّ أعطاها بالفعل جسداً فاتناً، لكن الأهمّ من ذلك أنه أعطاها أيضاً حسّ دعابة، وعلى الرغم من أنها ستسافر إلى أريزونا في الصباح، تمنّى فيرغسون أن يستطيع الزواج بها الآن، ومع أنه يعرف أنه لن يتزوّجها الآن، أو في وقت في المستقبل، إلا أنه أراد أن يقضي كل دقيقة من الساعات الإحدى عشرة القادمة بجانبها، أن يكون معها في كل ثانية حتّى تدخل إلى الطائرة، والآن بعد أن كانت لطيفة معه، أراد لها أن تعرف كم أحبَّها لأجل ذلك، وأنّهُ سيظلّ يحبّها حتّى آخر يوم في حياته، حتّى لو لم يرها مرّة أخرى.

هيّا، يا آرتشي، قالت نورا. ارمِ ثيابكَ عند الزاوية، وادخُلْ إلى الحوض. لقد صار ممتلئاً، ولا نريد للماء أن يبرد، أليس كذلك؟

تشرين الثاني. كانون الأوّل. كانون الثاني. شباط.

كان لا يزال في الكلّيّة، لكنه انتهى منها بشكل فعلي، ويشقّ طريقه بصعوبة نحو النهاية بينما يفكّر ملياً بما سيفعله بعد أن يتسلّمَ شهادته. قبل كل شيء، ثمّة مسألة السماح لوحش شرّير بالتحديق في شرجه وفحص خصيتيه، وإخراج السعال الإجباري، وأخذ تقرير مكتوب لإثبات ما

إذا كان ذكياً بما يكفي للموت في سبيل بلاده. سيستدعيه مجلسُ التجنيد لاختبار جاهزيته الجسدية للالتحاق بالجيش في وقت ما بين حزيران وتمّوز، لكنه لم يكن قلقاً بشأن ذلك، بسبب أصبعيه المفقودين، والآن بعد أن جاء الكويكر/ الصاحبي المؤيّد للحرب بخطّة سرّيّة لإنهاء الحرب، فجلسَ على عرشه، وأخذ يتحدّث عن *تخفيض عدد القوّات*، شكّ فيرغسون بأن يكون الجيش بائساً بما يكفي، لكي يبدأ بملء أفواجِه بجنود ذوي إبهام واحد. كلا، لم تكن المشكلة الجيش، بل كانت بما سيفعله بعد أن يرفضه الجيش، وكان الالتحاق بكلّيّة للدراسات العليا من بين عشرات الأشياء التي قرّر بالفعل ألا يفعلها. كان قد نظر في الأمر لثلاث أو أربع دقائق خلال عطلة عيد الميلاد التي قضاها مع والديه في فلوريدا، بيد أن مجرّد النطق بالكلمات بصوت عالٍ، جعلهُ يفهم مدى عمق فكرة قضاء يوم إضافي آخر من حياته في جامعة تشمئزّ منه، والآن بعد أن أوشكَ شهر شباط على نهايته، انتهى الموعد النهائي لإرسال الطلبات. كانت كلّيّة التعليم خياراً آخر. لقد بُذِلَت جهود لإدراج خرّيجي الجامعات الجدد في تعليم الأحياء الفقيرة حول المدينة، الأحياء الفقيرة للسود واللاتينيين في المنطقتين الشمالية والجنوبية من مانهاتن، الأحياء المتداعية في الضواحي الخارجية، وعلى الأقلّ سيكون ثمّة شيء مشرّف بصدد مزاولة هذه المهنة لبضع سنوات، قال لنفسه، أن يُحاول تعليم الأولاد في تلك الأحياء الإسبانية المُهمّشة، ولا ريب بأنه سيتعلّم منهم الكثير بقدر ما سيتعلّموه من السّيّد الفتى الأبيض الذي يمارس دوره الصغير، ليجعل الأمور أفضل بدلاً من أن يزيدها سوءاً، لكنه سيعود بعد ذلك إلى كوكب الأرض، وسيفكّر بعجزه عن الحديث أمام الناس عندما يكون هناك أكثر خمسة أو ستّة غرباء في الغرفة، الوعي الذاتي المشلول الذي يجعل النهوض والتّحدّث علناً تعذيباً بالنسبة إليه، وكيف سيتمكّنُ من إدارة صفّ دراسي، من ثلاثين أو خمسة وثلاثين ولداً بعمر العاشرة، إذا لم تخرج أي كلمات من فمه؟ لن يكون مؤهّلاً للقيام بذلك. حتّى لو كانت تلك رغبته، إلا أن ذلك سيكون مستحيلاً بالنسبة إليه.

كان قد سبق وأن صرف النظر عن الصحافة، لكنْ، في وقت ما بين الأسبوعين الثاني والثالث من شباط، بدأ يتساءل عمّا إذا كان قد تسرّع في قراره أكثر ممّا ينبغي؛ فحتّى لو لم تعد المؤسّسات الصحفية الكبرى تستحقّ عناء التفكير، هُناك فروع أخرى للصحافة يمكن أن تؤخذ بعين الاعتبار. الصحافة المناهضة للمؤسّسات، المعروفة أيضاً باسم الصحافة البديلة أو الصحافة السّرّيّة، والتي أصبحت أكثر قوّة خلال السنة الفائتة أو نحو ذلك، ومع وجود *إيست فيليج أذر*، وليبريشن نيوز سيرفس، و*رات*، ناهيكَ عن عشرات الأسبوعيات المستقلّة في مُدُن خارج نيويورك، والتي كانت ساخرة على نحوٍ جامح وغير تقليدي، لدرجة أنها جعلت مجلّة *فيليج* فويس تبدو

متيبّسة على غرار صحيفة *هيرالد تريبيون* القديمة، ولعلّه ثمّة ما يستحقّ التفكير به بصدد العمل في أحد تلك الأماكن. على الأقلّ، كانت تقف ضدّ كل ما يقف فيرغسون ضدّه، ومع كثير من الأشياء التي يقف معها، لكنْ، كان هناك عدد من العقبات التي ينبغي دراستها أيضاً، بما في ذلك مشكلة الأجر المنخفض (كان يريد أن يعيل نفسه من عمله، وألا يضطرّ إلى الاعتماد كثيراً على أموال جَدّته)، فضلاً عن مشكلة أعظم تتعلّق بالكتابة الحصرية لأشخاص ينتمون إلى اليسار (كان يأمل دائماً أن يُغيّر تفكير الناس، وليس أن يؤكّد فقط ما يفكّرون به بالفعل)، ممّا سيضعه بالكاد في موقف المفرط بالتفاؤل بشأن العيش في أفضل العوالم المتاحة، لكنْ، في عالمٍ نادراً ما تظهرُ فيه كلمتا *أفضل* و*مُتاح* في جملة واحدة، فإن عملاً مُتاحاً يؤمّن له قوت يومه دون أن يشعر بالتلف سيكون أفضل بالتأكيد من عدم وجود عمل على الإطلاق.

آرشيبالد إسحاق فيرغسون، مُراسل ماهر لـ *ويكلي بلاست*؛ الكتاب المقدّس الأميركي للساخطين والفاوستيين الفاسدين، الصحيفة الموثوقة للقلّة المُختارة.

بغضّ النظر عن أي شيء آخر، كان موضوعاً يتطلّبُ بعض التفكير الدقيق.

وهكذا، استمرّ فيرغسون بالتفكير على مدى الأيّام الخمسة عشر أو العشرين اللاحقة، ثمّ جاءت *ليلة الخناجر*، والتي وقعت تماماً بعد منتصف الليل في العاشر من شباط لسنة 1969، عقب أسبوع واحد من عيد ميلاده الثاني والعشرين، وأربعة أيّام من ذهابه إلى شقّة جيم فريمان غربيَّ الشارع 108 كي يُسلّمه المخطوطَ النهائي من *الصهباء الجميلة وقصائد أخرى من الفرنسية*، كانت مجموعة مختارات أكبر ممّا ينبغي، وقال لجيم بأن يُقلّصها بالطريقة التي يراها مناسبة، وبينما كان فيرغسون يتجوّل في غرف شقّته في ليلة اليوم العاشر، يكتب في رأسه رسالة عميقة مطوّلة إلى نورا كوفاكس، شعر فجأة بوخزة حادّة في الجزء السفلي من بطنه، واحدة من بين العديد من الوخزات التي كانت تُعذّبه خلال الأشهر الأخيرة. لكنْ، بدلاً من أن تهمدَ بعد عشر ثوان أو اثنتي عشرة ثانية كما يحدث عادة، أعقبَت تلك الوخزة أخرى أشدّ قوّة، وكانت مؤلمة جدّاً، لدرجة أنه لم يعد من الممكن تصنيفها كوخزة، وإنما كألم حقيقي، وبعد لحظات من تلك الطعنة الثانية، بدأت الهجمة، الخناجر في الأحشاء، الرماح السبعة والعشرون التي تركتهُ يتلوّى على السرير قرابة ساعتين، وكلّما طالت مدّة الألم، ازداد الاحتمال بأن زائدته الدودية، أو أي عضو آخر، تتمزّقُ داخل جسده، وأفزعَهُ ذلك جدّاً لدرجة أنه أجبر نفسه على النهوض، ووضع معطفه، وخرج مترنّحاً نحو غرفة طوارئ مستشفى سانت لوك على بعد سبع كتل سكنية ونصف، كان فيرغسون يقبضُ على بطنه، وينخرُ بصوت عالٍ، ويتطوّح إلى الأمام في الليل، يتوقّف كثيراً، كي يتشبّث بعمود الإنارة عندما يشعر بخطر السقوط على الأرض، وعلى الرغم من ذلك كله، لم

يبدُ أن أحداً في جادّة أمستردام قد انتبه إلى وجوده، لم يُكلّف أحد نفسه عناء الاقتراب منه ومَدّ يد المساعدة، ومن بين ثمانية ملايين إنسان في نيويورك، لم يكن هناك أدنى اهتمام بما إذا كان حَيّاً أو ميتاً، ثمّ انتظر دوره لساعة ونصف قبل أن يُستدعى إلى الغرفة، حيثُ أمضى طبيب شابٌ خمس عشرة دقيقة في طرح الأسئلة عليه وجَسّ بطنه، ثمّ طُلِب من فيرغسون أن يعود إلى غرفة الانتظار، وجلس فيها لساعتين إضافيتين، وعندما بات من الواضح أن زائدته الدودية لن تنفجر في تلك الليلة، رآه الطبيب مرّة أخرى، ووصف له بعض الأدوية، وطلب منه الابتعاد عن الأطعمة الغنية بالتوابل، وتجنّب الويسكي والمشروبات القوية الأخرى والليمون الهندي، والالتزام بنظام غذائي مقبول لمدّة أسبوعين أو ثلاثة، وفي حال حدوث هجمة أخرى خلال ذلك الوقت، فسيكون من الأفضل أن يرافقه شخص آخر إلى المستشفى، وبينما أومأ فيرغسون إلى تعليمات الطبيب المفيدة والمطمئنّة، سألَ نفسه: لكنْ، أيُّ شخص، ومَنْ، يا ترى، سيكون هناك لأجله في المرّة القادمة التي يعتقد فيها أنه على وشك الموت؟

ظلّ في السرير لأربعة أيّام، يشرب شاياً خفيفاً، ويقضم قطعاً من البسكويت الرقيق وشرائح من الخبز المحمّص الجافّ، وبعد سبعة أيّام، تحسّنت حاله بما يكفي ليخرج مرّة أخرى. جاء رجل يُدعى كارل ماكمانوس من شمال نيويورك، كي يتحدّث إلى الأعضاء المغادرين من طاقم عمل *السبيكتاتور*. كانت هيئة التحرير التي تضمّ فريدمان، وبرانتش، ومولهاوس، وآخرين قد أنهت بالفعل مدّتها التي كانت لسنة واحدة، من آذار إلى آذار، وسلّمَت الصحيفة إلى هيئة جديدة، وبالنسبة إلى فيرغسون، الناقد المستقلّ، فقد سبق وأن فرغ من كتابة آخر مقالة سينشرها في *السبيكتاتور*، مراجعة إيجابية كئيبة لأحدث مجموعة شعرية لجورج أوبن، *أن تكون عديداً*، والتي كانت قد صدرَت في السابع من شباط، قبل ثلاثة أيّام من *ليلة الخناجر*. كانت المفارقة أنه الوحيد من بين الأعضاء الأساسيين الذي مازال يفكّر بالعمل في مجال الصحافة. كان فريدمان المُنهَكُ ومُجهَد الذهن يُخطّط لقضاء سباته الشتوي في إحدى وظائف التدريس في المدارس العامّة التي أرعبَت فيرغسون، أما برانتش، فسيلتحق بكلّيّة الطّبّ في هارفارد، في حين سيبقى مولهاوس في كولومبيا، ليعمل في قسم الدراسات العليا في التاريخ، لكنهم جاؤوا جميعاً إلى الاجتماع، لأن ماكمانوس كان قد بعث رسالة إلى فريدمان في الربيع الفائت، أثنى فيها على عمل طاقم *السبيكتاتور* في أثناء "المشاكل"، وكان ثناء كارل ماكمانوس يعني شيئاً بالنسبة إليهم. كان المحرّر التنفيذي لصحيفة *روتشستر تايمز يونيون* رئيساً لتحرير *السبيكتاتور* في سنة 1934، ومنذ ذهابه إلى إسبانيا لتغطية الحرب الأهلية الإسبانية قبل ثلاثين سنة ونيف، سافر إلى آسيا

لتغطية جبهة المحيط الهادئ في أثناء الحرب العالمية الثانية، ثمّ بقي في الوطن لتغطية حقبة الذعر الأحمر في أواخر الأربعينيات، وحركة الحقوق المدنية في الخمسينيات وأوائل السّتّينيّات. بعد ذلك، عمل لفترة طويلة في مجال التحرير مع *الواشنطن بوست*، والآن، منذ سنة ونصف، يترأس صحيفة *التايمز يونيون*؛ المكان الذي حصل فيه على عمله الأوّل بعد تخرّجه في كولومبيا في الثلاثينيات. ليس أسطورة بمعنى الكلمة (لم يسبقْ له أن نشرَ كتاباً، ونادراً ما كان يظهر في لقاءات تلفزيونية أو إذاعية)، لكنه شخصية بارزة، رجل ذو صيت كبير بما يكفي لرفع معنويات طاقم *السبيكتاتور* المُنهَك عندما وصلت رسالته في أوائل شهر أيّار.

بلكنة أهالي بروكلن، ووجه أيرلندي عريض وأذنين بارزتين، وجسد كان يمكن أن يكون لظهير سابق أو مَلّاح، وعينين زرقاوين يقظتين، ومسحة من الشيب في شَعْره الطويل والضارب إلى الحمرة ما يكفي ليوحي بأنه صاحبه مهتمّ بمواكبة العصر، أو أنه قد نسي الذهاب إلى صالون الحلاقة في الموعد الأخير. غير رسمي. مرتاح مع نفسه أكثر من معظم الرجال، وصاحب ضحكة رنّانة جميلة، والتي خرجَت عندما اقترح مولهاوس بأن ينزلوا جميعاً إلى عرين *الأسد* في الطابق الأوّل، وكان مقصفاً طلابياً يُقدِّمُ، وفقاً لعبارة مولهاوس النيويوركية المعهودة، *أسوأ فنجان قهوة في العالم*.

جلسَ السبعة حول طاولة بنّيّة من الفورميكا، ستّة طلاب في أوائل العشرينيات من أعمارهم، ورجل مسنّ من روتشستر في سنّ السادسة والخمسين، والذي دخل مباشرة في صلب الموضوع، وأخبرهم بأنه عاد إلى كولومبيا بحثاً عن مُنتسبين جدد. ثمّة عدد من الوظائف الجديدة في صحيفته، وأراد أن يملأها بما أسماه *بالدم الشّابّ، الأولاد الجوعى الذين سيُرهقون مؤخّراتهم من أجله*، وسيُحوّلون المنشأة العادية إلى منشأة جيّدة، إلى منشأة أفضل، ولأنه كان على دراية مسبّقة بعملهم، ويعرف قدراتهم، فقد رغب بتوظيف ثلاثة منهم على الفور. هذا في حال، أضافَ، كان أيّ منهم مجنوناً بما يكفي ليرغب بالانتقال إلى روتشستر في نيويورك، حيثُ بإمكان الرياح التي تعصف فوق بحيرة أونتاريو في الشتاء أن *تُجمِّد المخاط في أنفك، وتُحوِّلَ ساقيكَ إلى عودَي مصّاصة مُثلّجة*.

سألَهُ مايك أرونسون عن السبب الذي دعاه إلى الحديث إليهم، وليس إلى أي شخص آخر من كلّيّة الصحافة، وما إذا كان يخطّط الذهاب إلى هناك، أيضاً؟

لأن الخبرة المكتسبة بعد أربع سنوات من العمل في *السبيكتاتور*، قال ماكمانوس، أعلى قيمة من الدراسة لسنة واحدة في قسم الدراسات العليا. كانت القصّة التي غطّيتموها عملاً مُعقّداً وضخماً، إحدى أكبر القصص الجامعية منذ سنوات، ولقد أدّى كلّ فرد منكم عملاً جيّداً، بل

عملاً رائعاً في بعض الحالات. كنتُم تحت الخطر، اختُبِرتُم جميعاً، وأعرفُ ما سأحصل عليه إذا ما قرّر أي منكم الانضمام إليّ.

ثمّ أثار برانتش القضية ذات الأهمّيّة الكبرى، والتي تتعلّق بصحفية *النيويورك تايمز*. ما رأي ماكمانوس بتغطيتها لأحداث كولومبيا في الربيع المنصرم، ولماذا سيرغب أي منهم في يوم من الأيّام بالعمل لصالح الصحافة السائدة التي لم تفعل شئياً سوى نشر الأكاذيب؟

لقد خرقوا القواعد، قال ماكمانوس، وأشعرُ بالغضب مثلكَ تماماً، يا سيّد برانتش. كان ما فعلوه أقرب إلى الوحشية؛ فعل لا يُغتفَر.

بعد حين، عندما تسنّت لفيرغسون الفرصة كي يفكّر ملياً بما حدث في تلك الظهيرة، ليُفكِّر في السبب الذي دفعه لفعل ما فعله، وليسأل نفسه عن عواقب عدم فعل ذلك، أدرَك أن كل شيء يتعلّق بكلمة وحشية. كان من الممكن لرجل أقلّ شأناً وأكثر حكمةً أن يستخدم تعبيراً غير مسؤول، أو *زائفاً*، أو مخيّباً *للآمال*، ولن يترك أي منها أقلّ أثرٍ على فيرغسون، بيد أن كلمة وحشية وحدها ما تُعبّر عن النقمة المطلقة الذي كانت في داخله خلال الأشهر الفائتة، نقمة يتشاركها مع ماكمانوس كما يبدو، وإذا كان الاثنان يشعران بالشيء نفسه تجاه أمر واحد، فلابد أنهما يشعران بالشيء نفسه تجاه أمور أخرى أيضاً، وإذا كان فيرغسون ما زال مهتمّاً بالعمل في صحيفة يومية، أو بمعرفة ما إذا كانت الصحافة هي الحلّ بالنسبة إليه أم لا، فربّما لن يكون من السّيّئ أن يتحدّى رياح الشمال المتجمّد، ويوافقَ على عرض ماكمانوس. في المحصّلة، كان مجرّد عمل. وإذا لم ينجح الأمر، فبمقدوره دائماً أن يمضي قدماً، ويجرّب حظّه في شيء آخر.

عدَّني موافقاً، قال فيرغسون. أعتقدُ أنني مستعدّ لهذه التجربة.

لم يكن هناك راغبون آخرون. وواحداً تلو آخر، تراجع أصدقاء فيرغسون، واحداً تلو آخر، صافحوا جميعاً السّيّد ماكمانوس مودّعين، ولم يبقَ إلاهما؛ فيرغسون ومديره المستقبلي، ولأن طائرة ماكمانوس لن تقلع قبل الساعة السابعة، قرّر فيرغسون ألا يحضر حصّة الشِّعْر الرومانسي الإنكليزي، واقترح أن يقطعا الشارع إلى ويست إند، حيثُ بإمكانهما مواصلة الحديث في مكان أكثر متعة.

عثرا على مكان في إحدى الحجرات الأمامية، وطلبا زجاجتين من بيرة غينيس، وبعد حديث مقتضب عن كولومبيا *ذلك الوقت* وكولومبيا *الآن*، بدأ ماكمانوس يُطلعه على جغرافيا المكان الذي سيذهب إليه، ويتحدّث بفظاظة ممتعة عن العالم الذي يحتضر في شمال غرب نيويورك، الجزء الوحيد من البلاد الذي يتضاءل فيه عدد السّكّان، قال، ما من مكان أشدّ صرامة من بوفالو التي خسرت قرابة مئة ألف شخص خلال العقد الماضي، *بوفالو المجيدة سابقاً*، بحسب

تعبيره الذي لم يخلُ من نبرة تملّق زائفة في صوته، جوهرة القناة القديمة وثقافة النقل البحري، والتي أضحت الآن قفراً نصف فارغ من المصانع الخربة والمهجورة، والبيوت المنسية، والمباني المتداعية، مدينة مقصوفة بلا قنابل أو حرب. بعد ذلك، بعيداً عن بوفالو الكئيبة، اصطحب فيرغسون في جولة قصيرة إلى بعض المُدُن الأخرى في المنطقة، واختار الصفات بعناية عندما تحدّث عن سيراكيوز المُتذمّرة، وإلميرا المصابة بفقر الدم، وأوتيكا القبيحة، وبينغامتون المنحوسة، ورومي الرّثّة التي لم تكن يوماً عاصمة لأي إمبراطورية.

أنتَ تجعلُ الأمر يبدو ... مغرياً جدّاً، قال فيرغسون. لكنْ، ماذا عن روتشستر؟

روتشستر مختلفة بعض الشيء، قال ماكمانوس، طراز أفضل للانحدار، مكان يتداعى على نحوٍ أبطأ من الأماكن الأخرى، وبالتالي، لا يزال صامداً إلى حدّ ما، إلى الآن على الأقلّ. مدينة من ثلاثمائة ألف نسمة، في منطقة متروبوليتانية بالنسبة إلى مليون ومئتي ألف نسمة تقريباً، ويُفسِّرُ هذا تداول مئتين وخمسين ألف نسخة يومياً من *التايمز يونيون*. مدينة اتّحاديّة صغيرة، بطبيعة الحال، لكنها ليست مدينة اتّحاديّة صغيرة تافهة، بوجود فريق ريد وينغز الممتاز في دوري البيسبول الثانوي، والذي يُغذّي فريق بالتيمور أوريولز بجرعة عالية من اللاعبين على غرار بوغ باول، وجيم بالمرز، وبول بلاريس، موطن لشركات إيستمان كوداك، وباوتش آند لومب، وزيروكس، وللخردل الفرنسي الذي لا غنى عنه؛ رفيقُ شطائر النقانق الأميركية كلها منذ سنة 1904، ممّا جعلها مدينة، يعمل معظم سكّانها في منشآت لا نيّة لديها للتوجّه جنوباً أو خارج البلاد. وعلى صعيد آخر، وبغضّ النظر عن المراكب الشراعية والنوادي الريفية، ثمّة أرشيف أفلام مدهش وأوركسترا فيلهارمونية محترمة، وجامعة جيّدة ومدرسة موسيقى عالية، والتي كانت إحدى أفضل المدارس في العالم، هُناك قمار، ودعارة، وأعمال كسب غير مشروع، يُديرها فرانك فالنتي وعصابته، بالإضافة إلى مساحات شاسعة من الفقر والجريمة، أحياء السود الفقيرة التي يسكنها ما بين خمسة عشر وعشرين في المئة من السّكّان، ومعظم أولئك الأشخاص من المكافحين أو العاطلين عن العمل أو متعاطي المخدّرات، وفي حال نسيَ فيرغسون (لم ينسَ فيرغسون)، كانت هناك ثلاثة أيّام من أعمال الشغب في صيف سنة 1964، بعد أسبوع من أعمال الشغب في هارلم، وقد قُتِل خلالها ثلاثة أشخاص، وتعرّض مئتا متجر للسلب والتخريب، واعتُقِل ألف شخص، قبل أن يطلب روكفلر من الحرس الوطني وضع حدّ لذلك، وكانت المرّة الأولى في التاريخ التي يخرق فيها الحرس أسوار مدينة شمالية.

عند تلك النقطة، تحدّث فيرغسون عن نيوآرك؛ نيوآرك في صيف سنة 1967، وكيف كانت مشاعره عندما وقفَ مع والدته في جادّة سبرينغفيلد خلال ليلة الزجاج المكسور.

إذاً، أنتَ تعرف عن ما أتحدّث، قال ماكمانوس.

أخشى أنني أعرف، أجاب فيرغسون.

فصول ربيع باردة، تابع ماكمانوس، وفصول صيف رائعة، وفصول خريف مقبولة، وفصول شتاء مريرة. سوف ترى اسم جورج إيستمان أينما ولّيتَ وجهكَ، لكنْ، تذكَّر أن فريدريك دوغلاس وسوزان بي. أنتوني كانا يعيشان في روتشستر، أيضاً، وحتّى إن إيما غولدمان قضت هناك بعض الوقت في تنظيم عمّال المنشآت المرهقة في نهاية القرن الماضي. أيضاً - وهذا مهمّ جدّاً - كلّما أصابتكَ الكآبة، وشعرتَ بأنكَ قد ترغب بقتل نفسكَ، تنزَّهْ في ماونت هوب. هي إحدى أضخم المقابر العامّة وأقدمها في أميركا كلها، ولا تزال أجمل بقعة في المدينة. كثيراً ما أذهب إليها، خاصّة عندما تتملّكني رغبة الاستغراق في أفكار عميقة وتدخين السيجار الثخين الطويل. لم يفشل ذاك المكان قطّ بتهدئة أفكاري، بل وتوضيحها في بعض الأحيان. الأرض التي ترقد فيها ثلاثمائة ألف روح راحلة.

ثلاثمائة ألف إنسان فوق الأرض في روتشستر، قال فيرغسون، وثلاثمائة ألف تحتها. لعلّ هذا ما أسماهُ صديقنا الطّيّب *بالتناظر المخيف*.

أو زواج الجنّة والجحيم.

وهكذا بدأ المحادثة الأولى بين فيرغسون وكارل ماكمانوس، في ساعتي الإحماء اللتين أمضياها معاً في ويست إند، حيثُ ناقشا طبيعة الموادّ التي سيكتبها في الصحيفة، والفترة الابتدائية من إعداد التقارير المحلّيّة، والتي ستفضي به في نهاية المطاف إلى أحداث إقليمية ووطنية في حال أثبت نجاحه، وبدا أن ماكمانوس كان مسروراً بقبول ذلك كنتيجة مفروغ منها، الأجر الذي سيتقاضاه في البداية (زهيد، لكنْ، ليس لدرجة الكفاح الرهيب أو البؤس الشديد)، معلومات مفصّلة عن طاقم العمل وآليات إدارة الجريدة، وكلّما تحدّثا أكثر، كبر سرور فيرغسون بشأن القرار الذي اتّخذه، كانت عبارته الغريزية عدَّني *موافقاً* ردّاً على كلمة وحشية، والآن بعد ازدياد معرفته بمكمانوس بعض الشيء، فهِم أنه سيتعلّم الكثير من خلال العمل لصالح هذا الرجل، وأن روتشستر المُستبعَدة كانت، في الواقع، حركة جيّدة ومقبولة، وعندما رفع يده اليسرى أمام ماكمانوس (الذي كان أوّل شخص غريب يسأله كيف فقد أصبعيه على الإطلاق)، قال: آمل أن يُبقيَ هذا شعبة التجنيد بعيدة عنّي، كي أتمكّن من مزاولة هذه الوظيفة.

لا تقلقْ بشأن شعبة التجنيد، قال ماكمانوس. لقد وقّعتَ معي بالفعل، ولا يمكن لأي رجل أن يخدم في جيشين في الوقت نفسه.

***

شيئاً فشيئاً، تباطأ قلبه في ذلك الربيع، وانسحبت الخناجر من بطنه. اشترى لنفسه زوجاً جديداً من الوسائد السفلية، وواظب على تجنّب الليمون الهندي، واستحمَّ ثلاث مرّات أخرى مع نورا. صحّح التجارب الطباعية لكتابه. سجّلَ اشتراكاً لثلاثة أشهر في صحيفة *التايمز يونيون*، وبدأ بمتابعة الحياة اليومية في روتشستر. وعندما طُلِبَ منه الانضمام إلى تشكيل جديد غريب الاسم، *فريق قصيدة كولومبيا*، سافرَ إلى جامعتَي سارة لورانس وييل بصحبة أوبنزينغر، وكوين، وفريمان، وزيمر لتقديم قراءات مشتركة أمام الطلاب (كان التّحدّث علناً أمراً مستحيلاً بالنسبة إليه، لكن قراءة ترجماته المطبوعة لم تكن كذلك)، فعاليّات بطاقة عالية، أعقبها الكثير من الشرب والضحك و(في سارة لورانس) محادثة لمدّة تسعين دقيقة مع طالبة مذهلة تُدعى ديليا برنز، والتي أراد بشدّة أن يُقبّلها، لكنه لم يفعل. كتبَ الأوراق الأخيرة لحلقاته الدراسية الأدبية، واستطاع ألا يستغرق في النوم في صباح امتحان علم الفلك. كان هناك مائة سؤال، مع خمس إجابات لكل منها، وبما أن فيرغسون لم يحضر سوى محاضرة واحدة، ولم يسبق له أن فتح كتاب المادّة مطلقاً، فقد اختار الإجابات كلها بصورة عشوائية، وكم شعر بالارتياح عندما حقّق نتيجة ثمانية عشر في المئة، والتي كانت تكفي لكسب الحدّ الأدنى من درجة النجاح. وبعد ذلك، من أجل وضع نهاية لفعله الثوري الصغير غير المرئي تقريباً، عاد إلى مكتبة الكلّيّة، وباعَهمُ الكتاب، وهكذا يكون قد خوزقَهُم مرّتين. وقد دفعوا له ستّة دولارات وخمسين سنتاً مقابل ذلك. بعد عشر دقائق، بينما كان يسير في شارع برودواي باتّجاه شقّته في الشارع 107 غربي، اقترب منه مُتسوّل وطلب عشرة سنتات. وبدلاً من إعطائه عشرة سنتات، دفع فيرغسون الدولارات السّتّة والسنتات الخمسين كلها في كفّ الرجل المفتوحة، وقال: تفضّل، يا سيّدي. هذه هدية من القيّمين على جامعة كولومبيا. مع تحيّاتي.

صدرَ كتابُه في اليوم الثاني عشر من أيّار، بطبعة جميلة ذات غلاف كرتوني، وباثنتين وسبعين صفحة، وكان مستمتعاً جدّاً بالنظر إليها وإبقائها بين يديه لساعات بعد أن أخرجها من الصندوق في مكتب *الريفيو*، وفي غضون أسبوع، لم يبقَ لديه سوى خمس نسخ من أصل نُسَخ المؤلّف العشرين التي وزّعها على أصدقائه وأقاربه. كانت صورة الغلاف استنساخاً للصورة المشهورة لأبولينير من الحرب العالمية الأولى؛ الصورة التي تُظهِر رأس فيلهلم أبولينياري دي كوستروفيسكي ملفوفاً بالضمادات بعد عملية لإغلاق جرح شظية أصابت صدغه: الشاعرُ شَهيداً، العصرُ الحديث المولود في وحل الخنادق، فرنسا في سنة 1916، وأميركا في سنة 1969؛ المُحاصرتان بحروب أبدية تفترسُ صغارهما. أودِعَت ثلاث نسخ في سوق غوثام للكتاب، ومثلها في متجر

الكُتُب في الشارع الثامن، وستّ نسخ في وكر كُتَب الجيب في الحرم الجامعي. كتبَ زيمر الثمين، أقربُ أصدقاء فيرغسون وأكثرهم تقديراً بين جميع مَنْ كانوا في صفه الدراسي، مراجعةً للكتاب لصالح *السبيكتاتور*، ولم يذكر إلا أشياءً لطيفة عنه، أشياء مفرطة في اللطف. "لا ينبغي النظر إلى الأعمال التي تضمُّها مجموعة القصائد المترجمة عن الفرنسية هذه على أنها مجرّد ترجمات، وإنما كقصائد إنكليزية في حدّ ذاتها، وكمُساهَمة قيّمة في أدبنا نحن. لدى السّيّد فيرغسون أذن شاعر حقيقي وقلبَه، وبالنسبة إلي، فسأعاود قراءة هذه الأعمال المذهلة مراراً وتكراراً على مرّ السنين".

مفرط في اللطف. ويا له من شخص كان ديفيد زيمر الشّابّ! وقريباً، سيكون على موعد مع السؤال الكبير الذي ينتظرهم جميعاً في اللحظة التي يغادرون فيها مرتفعات مورنينغسايد. في حالة زيمر، كانت المعضلة على النحو الآتي: ييل أو السجن. زمالة لمدّة أربع سنوات لإجراء أعمال خاصّة بالدراسات العليا في الأدب في جامعة ييل، أو سجن لمدّة تتراوح ما بين سنتين وخمس سنوات إذا ما سيقَ إلى الخدمة العسكرية. ييل أو السجن. يا له من خيار مُقتضب وأنيق! ويا لهيئة هذا العالم الذي جبلَهُ النوبودادي!

لن يكون من الصعب وداع كولومبيا التي كانت تعيش جولة أخرى من الاحتجاجات والمظاهرات في ربيع سنة 1969، أحداث أرغم فيرغسون نفسه على تجاهلها لأسباب تتعلّق بغزيرة الحفاظ على النفس، لكنه سيفتقد أصدقاءه وبعضاً من أساتذته، وسيفتقدُ مواصلة الدروس التي تلقّاها على يد نورا في الليالي القليلة التي قضياها معاً، وسيفتقد الصبي المفعم بالأمل، والذي جاء إلى هذا المكان في خريف سنة 1965؛ الصبي الذي اختفى ببطء على مدى السنوات الأربع الماضية، ولن يُعثَر عليه أبداً.

في الصباح نفسه في منتصف شهر حزيران، عندما سعل فيرغسون، وأجرى الامتحان الكتابي في مبنى شعبة التجنيد في شارع وايتهول، كان بوبي جورج ومارغريت أومارا يعقدان رباط الزواج المقدّس في كنيسة القدّيس توما الإكويني الكاثوليكية في دالاس - تكساس، حيثُ كان بوبي اللاعب الملتقِط الأوّل في نادي بالتيمور في دوري الدرجة الثانية، وصادف أنه اليوم نفسه (وفقاً لرسالة تلقّاها فيرغسون من خالته ميلدرد) الذي حضرَت فيه إيمي، الصامتة دائمة الترحال، المؤتمرَ الوطني لمنظّمة *طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي* في شيكاغو؛ اجتماعٌ موسوم بالحقد، تطوّر إلى اشتباكٍ غاضب بصدد التكتيكات والأيديولوجيا ما بين فصيل العمل التّقدّميّ والمجموعة التي ستُعرَف لاحقاً باسم ويذرمِن، ممّا أدّى إلى انفراط بمثابة الانهيار

المفاجئ والصادم لـ *طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي* كمنظّمة سياسية. أبقى العمّ هنري والخالة ميلدرد اتّصالاً متقطّعاً مع إيمي خلال سنتها الأولى في كلّيّة الحقوق، وكتبَت ميلدرد إلى عزيزها الأوّل والوحيد كي تخبرَهُ بأن إيمي قرّرت *أن تدير ظهرها إلى أوهام النشاط الثوري، وتكرّس نفسها لقضية أكثر واقعية تتعلّق بحقوق المرأة*. حدثَت لحظة التّجلّي هذه عندما انبرى رجل يُدعى تشاكا ويلز، وكان نائب رئيس قسم الإعلام في حزب *الفهود السود* في شيكاغو، كي يُهاجم *فصيل العمل التّقدّمي*، ودون أي سبب واضح، شرعَ بالحديث عن النساء في *طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي*، مستخدماً عبارات على غرار "نفوذ الأكساس"، وقائلاً بأن "سوبرمان كان مُغفّلاً، لأنه لم يحاول قطّ أن يضاجع لويس لين"؛ وجهةُ نظر ردّدها فهد أسود آخر بعد بضع دقائق، جويل كوك، والذي أعلن أنه مؤيّد لـ "نفوذ الأكساس" أيضاً، وأن "ما قصد الأخ قولَه إن لدى الأخوات موقعاً استراتيجياً في الثورة: وضعية الرامي منبطحاً". كانت نكتة قديمة وبالية في ذلك الوقت، وكانت إيمي قد سمعتها عشرات المرّات خلال السنوات الماضية، لكنها قرّرت في ذلك اليوم أنها سمعت بما فيه الكفاية، وبدلاً من الانضمام إلى مجموعة ويذرمِن؛ الفصيل المنشقّ الذي ضمَّ طلاباً سابقين من كولومبيا على غرار مايك لوب، وتيد غولد، ومارك رود، وآخرين، والذين طُردوا جميعاً من كولومبيا في نهاية الفصل الدراسي الثاني من السنة الفائتة، نهضَت عن مقعدها، وخرجَت من قاعة المؤتمرات. وبحسب كلمات الخالة ميلدرد في نهاية رسالتها، والتي تحوّلَت إلى نبرة التسامح التي عادة ما تلجأ إليها عندما تتحدّث عن أشخاص آخرين: *أظنّ أنكَ ينبغي أن تعرف هذا، يا آرتشي، حتّى لو لم تعودا معاً. يبدو لي أن إيمي بدأت تنضج أخيراً.*

قال بوبي جورج: *أوافِق*. رفع فيرغسون يده اليسرى ليعرضها أمام طبيب في الجيش الأميركي. غادرَت إيمي مسرح شيكاغو، وتركت الحركة إلى الأبد. هل كان من الممكن أن تحدُث تلك الأمور كلها في اللحظة نفسها؟ رغِبَ فيرغسون أن يعتقد ذلك.

الشيء الأكثر إثارة للاهتمام: في الوقت الذي انتقل فيه فيرغسون إلى روتشستر في مطلع شهر تمّوز، كان بوبي قد ترقّى إلى فريق ريد وينغز الأوّل في الدوري الدولي. وفي مدينة لا يعرف فيها فيرغسون أحداً على الإطلاق، كم كانت بعيدة إمكانية أن يكون صديقه الأقدم معه في المكان نفسه، ليس لفترة طويلة، ربّما، لكنْ، على الأقلّ حتّى نهاية الصيف وانتهاء دوري البيسبول، الأشهرُ الأولى من التّكيّف والاستقرار، بوبي وزوجته مارغريت، شخصان يعرفهما منذ زمن بعيد، ماغي أومارا الجميلة، بفساتينها القصيرة المزيّنة بالأزهار وجواربها القصيرة المنسدلة، تُخرِجُ لسانها في وجه بوبي جورج الفوضوي مُنقطِع الأنفاس في روضة الأطفال في صفّ السّيّدة كانوبيو في

مونتكلير، والآن لا تزال مارغريت جميلة، لكنها أكثر تطوّراً وعناداً في سنّ الثانية والعشرين بعد أن تخرّجت في كلّيّة إدارة الأعمال في روتجرز، ويتسلّقُ بوبي النشيط والودود دائماً سُلّماً إلى الدوريات الرئيسة، اتّحاد غير مألوف، كما شعر فيرغسون، ليس شيئاً بإمكانه أن يتنبّأ به، لكنْ، لا بدّ أن الحقيقة المُجرّدة بصدد أن بوبي أقنع مارغريت بالزواج منه تقتضي بأنه بعد سنتين من الخدمة العسكرية، وسنة ونصف كلاعب مُحترف، بدأ ينضج أخيراً أيضاً.

أما بالنسبة إلى إيمي، فلم يكن يتدخّل في شؤونها، ممّا عنى أنه لم يكن ينبغي له الاهتمام بما كانت تفعله أو لا تفعله، بيد أن فيرغسون كان مهتمّاً، ولم يستطع أبداً أن يجبر نفسه على عدم الاهتمام، ومع مرور الشهور، شعرَ بالارتياح أكثر فأكثر إزاء قرارها بعدم الانضمام إلى الويذرمِن في شيكاغو. لقد جُنّ جنون أصدقائهما القدامى من كولومبيا. لقد أحبطَت القوّة المُستعصية للفرد الكبير الذاهل دوافعَهم المثاليةَ، وسحقَت قُدرتَهم على التفكير العقلاني، ومن خلال سلسلة طويلة من الافتراضات الخاطئة والنتائج الخاطئة استناداً إلى تلك الافتراضات الخاطئة والنتائج الخاطئة، فقد حشروا أنفسهم في زاوية، حيثُ لم يبقَ أمامهم أي خيار عدا الإيمان بأن في وسع جيش من مئة أو مئتي طالب سابق من الطبقة الوسطى، بدون أتباع أو دعم في أي مكان في البلاد، أن يقود ثورة، من شأنها إسقاط الحكومة الأميركية. كانت تلك الحكومة تُدمّرُ شبابها من خلال شَحنِ أفقرهم وأقلّهم تعليماً إلى جبهات القتال في الحرب التي كان من المفترض أنها أوشكَت على نهايتها، لكنها لم تكن تنتهي، وذلك في الوقت الذي يُدمِّرُ فيه الشباب المتميّزون أنفسهم. بعد انسحاب إيمي من مؤتمر شيكاغو بثمانية أشهر ونصف، قُتِل صديقها القديم من فرع كولومبيا لـ *طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي*، تيد غولد، ورفيقاهُ من ويذرمِن، تيري روبنز وديانا أوغتون، بانفجارٍ في منزل كبير في غربيّ الشارع الحادي عشر في نيويورك، وذلك عندما وصلَ أحدُهم السلكَ الخاطئ لقنبلة أنبوبية كانوا يصنعونها في القبو. اندثرَ جسد أوغتون تماماً، لدرجة أن الوسيلة الوحيدة لتحديد هويتها كانت عبر بصمة لأصبع مقطوع عُثِر عليه تحت الأنقاض. لم يبقَ شيء من روبنز. ذابَ جلده وعظامه في الحريق الذي نجمَ عن انفجار أنابيب الغاز، ولم يُوَثَّق مَقتلُه حتّى أعلنَت جماعة ويذرمِن بأنه كان موجوداً في المنزل مع الاثنين الآخرين.

قاد فيرغسون سيّارته الإمبالا القديمة إلى روتشستر في مطلع تمّوز، بيد أن عملَهُ في *التايمز* يونيون لن يبدأ حتّى الرابع من آب. خمسة أسابيع، كي يتأقلم مع محيطه الجديد، ويبحث عن شقّة، وينقل أمواله إلى مصرف محليّ، ويتسكّع مع بوبي ومارغريت، وينتظرَ تصنيفَهُ الجديد من

شعبة التجنيد، ويشهدَ الوفاء بوعد كينيدي عندما شاهد رائدي فضاء أميركيين يسيران على سطح القمر، ويواصل العمل على المشروع الذي بدأه في نيويورك بصدد ترجمة قصائد فرانسوا فيلون، ويَطرُدَ نيويورك من نظامه. كانت الشّقّة الأكبر والأقلّ تكلفة خلال بحثه في حيّ قديم يُدعى ساوث ويدج، وكان عبارة عن تجمّع من المباني السَّكَنيّة في الجانب الشرقي من مدينة ليست ببعيدة عن نهر غينيس. أما ماونت هوب، المكان الذي يعشقه ماكمانوس، فقد كان على خطوات قليلة فقط، وكذلك الأمر بالنسبة إلى جامعة روتشستر وبقعة معشوشبة شاسعة تُدعى هايلاند بارك، حيثُ يُقام مهرجان الليلك السنوي في كلّ ربيع. كانت الأسعار منخفضة في ذلك الجزء من العالم، ومقابل سبعة وثمانين دولاراً في الشهر، استحوذ على الطابق العلوي برُمّته، في منزل خشبي مكوّن من ثلاثة طوابق، في شارع كروفورد.

لم يكن المنزل نفسه مثيراً للانتباه، بأسقفه المتصدّعة وأدراجه المتهالكة، بمزاريبه المسدودة والطلاء الأصفر الذي يتقشّر على واجهته، لكنْ، كان لدى فيرغسون ثلاث غرف مفروشة ومطبخ وحده، وكان الضوء الذي ينسكب عبر النوافذ في فترة الظهيرة أفضل بكثير لسلامته العقلية من العتمة في غربيّ الشارع 107، لدرجة أنه كان على استعداد للتغاضي عن عيوب المنزل. عاش أصحاب المنزل في الطابق الأرضي، وعلى الرغم من أن ضعف السّيّد والسّيّدة كرولي أمام الفودكا كان يفضي بهما إلى الشجار ليلاً في أغلب الأوقات، إلا أنهما كانا في غاية الودّ مع فيرغسون، والأمر نفسه بالنسبة إلى الشقيق الأصغر غير المتزوّج للسّيّدة كرولي، تشارلي فينسنت، الجندي المُحنّك من الحرب العالمية الثانية، والذي كان يشغل الشّقّة في الطابق الثاني، ويعيشُ على المعونة الشهرية لذوي الاحتياجات الخاصّة، من النوع المقبول الذي بدا أنه لا يفعل شيئاً سوى التدخين، والسعال، ومشاهدة التلفاز، فضلاً عن المعاناة خلال ليالٍ سيّئة عَرَضيّة عندما يصيح في نومه، ويصرخ *ستيوارت! ستيوارت!* بأعلى صوته؛ صوت عالٍ ومذعور للغاية، لدرجة أن فيرغسون كان قادراً على سماعه عبر ألواح الأرضية في الطابق العلوي، لكنْ، مَنْ بإمكانه أن يلوم تشارلي على استحضار ماضيه بين كل حين وآخر كلّما أغفل دفاعاته، وكيف لا يُشفِقُ على الفتى المراهق الذي أُرسِلَ للقتال في المحيط الهادئ قبل ستّ وعشرين سنة، وعاد إلى منزله في روتشستر برأس مليءٍ بالكوابيس؟

كما تبيّن لاحقاً، اضطرّ بوبي ومارغريت لمغادرة المدينة قبل أن يتسنّى لهما التّسكّع كثيراً معاً. تناول فيرغسون وجبة عشاء واحدة معهما، وتمكّن من مشاهدة بوبي يلعب مباراة واحدة للريد وينغز، بيد أن الفريق كان في جولة عندما وصل في الأوّل من تموز، وبعد أربعة أيّام من عودة بوبي إلى روتشستر في العاشر من الشهر، كُسِرَت يدُ ملتقط الكرات في فريق أوريولز في صِدام مع أحد

لاعبي نيويورك يانكيز عند صفيحة الملعب. وبعد أن حقّق .327 كمعدّل ضربات ناجحة خلال أسابيعه الثلاثة الأولى مع النادي الممتاز، وُضِعَ بوبي ضمن لائحة اللاعبين الأساسيين لبالتيمور، وفي حال استطاع المحافظة على مستواه في الدوري الأميركي، فسيكون من المستبعد أن يعود يوماً للعب مع الأندية الثانوية. كان من المستحيل ألا يشعر بالسعادة لأجله، من المستحيل ألا يبتهج لترقيته - ومع ذلك، وبقدر ما كان من الصعب على فيرغسون أن يعترف لنفسه، إلا أنه كان من المستحيل ألا يشعر بالسرور، لأنهما على وشك الرحيل.

لم يكن للأمر أيّ علاقة ببوبي. كان بوبي لا يزال بوبي القديم نفسه، أكبر سنّاً، وأكثر خبرة، وأعمق تفكيراً، لكنه بقي الفتى ذا القلب الكبير الذي يعجز عن التفكير بسوء تجاه أي شخص، الصديق الأكثر استمرارية وودّاً بالنسبة إلى فيرغسون، الصديق الذي أحبَّهُ أكثر من أي شخص آخر، بما في ذلك إيمي، وخصوصاً إيمي، وكم كان بوبي مفعماً بالحياة في تلك الليلة التي تناولوا فيها العشاء معاً في روتشستر في فندق كريسنت بيتش، حيثُ كان يعانق مارغريت كل أربع عشرة ثانية، ويتحدّث عن الأيّام الخوالي في مونتكلير، الأيّام المجيدة من سنتهم الدراسية الأولى، عندما كانت يد فيرغسون لا تزال سليمة، ويلعبان في معاً في فريق واحد، النجمان الأصغر سنّاً في ذلك الفريق الفائز، الفريق الذي اكتسح اللعبة. وبطبيعة الحال، كان على بوبي أن يتحدّث عن تلك المباراة، لأنه لا يملُّ أبداً من الحديث عنها، وعندما طلب منه فيرغسون أن يحكي القصّة مرّة أخرى لمارغريت، ابتسم بوبي، وقبّل زوجته على وجنتها، وشرع يسرد ذكرياته عن تلك الظهيرة من شهر أيّار، قبل ستّ سنوات. هذا ما جرى، قال. نحن خاسرون بلا شيء مقابل نقطة لصالح بلومفيلد في الجولة الأخيرة. خرجَ رجل، ودخل اثنان، آرتشي عند القاعدة الثالثة وكالب عند الثانية، كالب وليامز؛ الشقيق الأكبر لروندا، ثمّ جاء فورتوناتو، وأعطى المدرّبُ مارتينو الإشارة لضرب الكرة؛ نقرتان على طرف قبّعته، ثمّ خلع القبّعة، وحكَّ رأسَه، تلك كانت الإشارة، المرّة الوحيدة التي أعطى فيها تلك الإشارة على الإطلاق، لم تكن مجرّد ضربة في لعبة ضغط لتحقيق تقدُّم إلى قاعدة واحدة، بل لعبة ضغط مزدوجة لتحقيق تقدّم إلى قاعدتين. لم يخطر على بال أحد في التاريخ أن يلعب هذه الخطّة، بيد أن سال مارتينو اخترعها، لأنه كان عبقرياً في لعبة البيسبول. كانت لعبة صعبة التنفيذ، لأنها بحاجة إلى وجود عدّاء سريع عند القاعدة الثانية، لكنْ، كان كالب سريعاً جدّاً، العدّاء الأسرع في الفريق، وهكذا ضُرِبَت الكرة، وردَّها فورتوناتو على نحوٍ جيّد، كرة لولبية بطيئة إلى يمين الهضبة الصغيرة. وعندما وصل الرامي إليها، كان قد سبق لـ آرتشي أن تجاوز الصفيحة مُعادلاً النتيجة بذلك. عندما أدركَ أن لا شيء آخر يفعلَهُ، رمي الرامي الكرة إلى القاعدة الأولى، وكان فورتوناتو خارجاً على بعد ثلاث أو أربع خطوات. بيد أن الرامي لم يُدرِك أن كالب بدأ في

الجري في الوقت نفسه الذي انطلق فيه آرتشي، تماماً عندما أوشك على أخذ وضعية إنهاء اللعبة، وفي الوقت الذي أمسكَ فيه رجل القاعدة الأوّل الكرة، كان كالب قد قطع ثلاثة أرباع طريق العودة. كان الجميع في بلومفيلد يصيحون إلى رجل القاعدة الأوّل: *ارمِ الكرة! ارمِ الكرة!* لذا رمى الكرة، لكنها كانت رمية متأخّرة، رمية قوية إلى قفّاز الملتقط تماماً، لكنها تأخّرت بضع ثوان أكثر ممّا ينبغي، وانزلقَ كالب مُختتماً جولة فائزة. غيمة من الغبار، ويقفزُ كالب على قدميه وذراعاه في الهواء. انتصار بعد خسارة، نصر كبير من رمية قصيرة وضعيفة. لم أرَ في حياتي مثل هذا قطّ. لقد لعبتُ في مئات المباريات منذ ذلك الحين، لكنْ، كانت تلك أفضل الأشياء وأكثرها إثارة بين كل ما رأيتُهُ في ملعب البيسبول، لحظتي المفضّلة على مرّ الزمان. جولتان، أيّها الفتية والفتيات، ولم تبتعد الكرة أكثر من ثلاثين قدماً.

كلا، لم تكن المشكلة بوبي الذي كان في قمّة ألقه في ذلك الوقت، كانت المشكلة مارغريت، مارغريت نفسها التي كانت معجبة بفيرغسون عندما كان عمرها سبع سنوات، والتي كتبَت إليه رسالة حبّ بلا توقيع عندما كانت في الثانية عشرة، والتي ثبّتت عينيها عليه طوال فترة الدراسة الثانوية، وابتهجَت بشدّة لعودة آن ماري دوْمارتن إلى بلجيكا، والتي كانت الفتاة الوحيدة التي أغوتْه بعد أن سافرَت إيمي لأربعة أشهر ونصف خلال فصلهم الدراسي الأخير، والتي كانت الوحيدة التي سيدُخل لسانه إلى فمها، لولا ولع بوبي بها، والتي سخِرَت منه على غرار سيرانو عندما حاول أن يتوسّط لصالح بوبي، مارغريت المملّة الذكية شديدة الجاذبية، والتي أضحَت الآن، لأسباب لم يفهمها تماماً، زوجة لصديقه الأقدم، إذ كان فيرغسون مذهولاً تماماً بقلّة الاهتمام الذي أولَتهُ لحديث بوبي عن لعبة الضغط المزدوجة الانتحارية، وكيف ظلّت تنظُر إليه عبر الطاولة، وليس إلى زوجها الذي كان يتحدّث، *كانت تفترسه بعينيها*، كما لو كانت تقول له، أجل، مضى على زواجي من هذا الأحمق اللطيف محدود التفكير شهر الآن، لكنني مازلتُ أحلم بكَ، يا آرتشي، وكيف كان في وسعكَ أن تصدّني تلك السنوات كلها مع أن الحقيقة أننا خُلقنا لبعضنا منذ البداية، وها أنا ذا، خذني، ولتذهب العواقب إلى الجحيم، لأنني لم أرغب بأحد يوماً سواك. أو هكذا استنتجَ فيرغسون من نظراتها إليه في مطعم فندق كريسنت بيتش، والحقيقة أنها كانت تُثيرُه، وذلك بعَدِّه عازباً وحيداً، يبحث عن حبّ كغريب في مدينة جديدة، كيف يمكن ألا يُستثار بنظراتها إليه؟! ومَنْ يدري أنه لن يكفّ عن مقاومتها في ذلك الصيف، في حال لم ترحل مع بوبي إلى بالتيمور؟! خصوصاً وأنه ستكون هناك فرص لا حصر لها، كي يلتقيا على انفراد، الليالي كلها التي سيسافرُ فيها بوبي من أجل مباريات في أماكن بعيدة مثل لويفيل، وكولومبوس، وريتشموند، وكم مرّة سيقبلُ دعواتها لتناول العشاء في شقّتها، وكم زجاجة

نبيذ سيشربان معاً، من المؤكّد أن مقاومته ستضعف في وقتٍ ما، أجل، هذا ما كانت عيناها تقولانه له عندما كانا جالسين قبالة بعضهما في مطعم الفندق، *استسلِمْ، يا آرتشي! أرجوكَ، استسلِمْ!* ولأن فيرغسون أدركَ أنه ربمّا لن يكون قوياً بما يكفي لإبقاء يديه بعيداً عنها إذا ما بقيت، فقد كان سعيداً جدّاً برحيلها.

في السنة الفائتة، اندمجَت الدوائر أحادية المركز في قرص أسود سميك، قرص فونوغراف لأُغنيّة كئيبة واحدة على الوجه الأوّل. والآن، بعد أن انقلب القرص، كانت الأُغنيّة على الوجه الثاني مرثيّة تُدعى *أيّها الرّبّ، اسمُكَ الموت*. دخل اللحن رأس فيرغسون بعد أيّام قليلة فقط من بدء عمله في *التايمز يونيون*، وعندما طافَ الفاصل الموسيقي الأوّل مع *كلمات تشارلز مانسن وجرائم قتل تيت - لابيانكا*، لم يمضِ وقت طويل قبل أن يتعدّل الصوت إلى انتحار مارشال بلوم في ليلة الهالوين، وكان أحد مؤسّسي ليبريشن نيوز سرفيس التي كان فيرغسون يفكّر جدّيّاً بالانضمام إليها بعد الجامعة مباشرة، ثمّ تحوّلَت النغمة في منتصف الخريف إلى مقطع شِعْري عن الملازم وليام كالي ومذبحة ماي لاي في فيتنام الجنوبية، وبعد ذلك، عندما وصلَت السنة الأخيرة من ستّينيّات القرن إلى شهرها الأخير، ضربَت شرطة شيكاغو لازمة متقطّعة مُدوّية عندما أطلقَت الرصاص على الفهد الأسود فريد هامبتون، وأردَتْهُ قتيلاً بينما كان نائماً في سريره، وبعد ذلك بيومين، عندما اعتلَت فرقة الرولينج ستونز خشبة المسرح في ألتامونت، كي تكمل بقية الأُغنيّة، قفزَ أفراد من عصابة *ملائكة الجحيم* على شابّ أسود، يلوّح بسلاح في وجه الجمهور، وطعنوه حتّى الموت.

مهرجان وودستوك الثاني. أطفال الزُّهرة والفضائيون. وانظُرْ للسرعة التي ذاب فيها النهار إلى ليل.

رُبِط بوبي سيل إلى كرسي، ووُضِعَت في فمه كمامة، بأمر من القاضي يوليوس هوفمان، عندما أصبح الثمانية الأصليون سبعة.

شنَّت مجموعة ويذرمِن هجوماً انتحارياً على ألفين من عناصر شرطة شيكاغو خلال أيّام الغضب في شهر تشرين الأوّل، ارتدى أصدقاء فيرغسون القدامى خوذ كرة القدم والنّظّارات الواقية، وتدلّت الأحزمة الرياضية خارج سراويلهم، وذلك استعداداً لمعركة مع السلاسل، والمواسير، والهراوات. أُطلِق الرصاص على ستّة منهم، واعتُقِل المئات داخل عربات الشرطة. وماذا كان السبب؟ "كي يجلبوا الحرب إلى الوطن؟" هكذا كانوا يصيحون. لكنْ، منذ متى لم تكن الحرب في الوطن؟

بعد ذلك بأربعة أيّام: يوم تعليق الحرب في فيتنام. قال ملايين الأميركيين نعم، وطوال أربع وعشرين ساعة، توقّف كل شيء تقريباً في أميركا.

بعد شهر ويوم من ذلك اليوم: خرج سبعمائة وخمسين ألف شخص في مظاهرة في واشنطن لإنهاء الحرب؛ أكبر مظاهرة سياسية شهدها العالم الجديد على الإطلاق. شاهدَ نيكسون مباراة كرة قدم في تلك الظهيرة، وأخبر البلاد بأن ذلك لن يُحدث أي فرق.

خلال اجتماع ويذرمِن في شهر كانون الأوّل ذاك بمدينة فلينت في ميتشغان، أشادَت برناردين دورن بقتل تشارلز مانسن لـ "أولئك الخنازير"، وكانت تشير إلى شارون تيت الحبلى والآخرين الذين قُتلوا معها في المنزل. نهض أحد الأصدقاء القدامى لفيرغسون من كولومبيا، وقال: "نحنُ ضدّ كل شيء جيّد ومحترم في أميركا البيضاء. سنحرقُ وننهبُ ونُدمّر. نحنُ فراخُ كوابيس أمّهاتكم".

ثمّ اختفوا، ولم يظهروا علانية مرّة أخرى.

وكان هُناك فيرغسون، عوداً إلى دوره بِعَدِّه النقطة الأصغر في مركز الدائرة الأصغر، لم يعد محاطاً بكولومبيا ونيويورك، وإنما *بالتايمز يونيون* وروتشستر. وبقدر ما يمكنه القول، فقد كانت صفقة منصفة تماماً، والآن بعد أن تأكّد من سلامة وضعه (وصلَت مذكّرة شعبة التجنيد قبل أن يباشر العمل بثلاثة أيّام)، فإن الوظيفة له، طالما أنه يثبت أنه يستحقّها.

كانت هناك صحيفتان يوميتان في روتشستر. كلاهما ملك لشركة جانيت للنشر، لكنْ، لكلّ منهما غرض مختلف، وعقيدة تحريرية مختلفة، ونظرة مختلفة إلى الحياة. وعلى الرغم من اسمها، كانت صحيفة *ديموكرات أند كرونيكل* الصباحية جمهوريةً ومؤيّدة للشركات، في حين كانت صحيفة *تايمز يونيون* المسائية أقرب إلى المعسكر الليبرالي، وخاصّة بعد أن تولّى ماكمانوس مسؤولية إدارتها. الليبرالي أفضل من المُحافِظ، بطبيعة الحال، حتّى لو كان في النهاية مجرّد مصطلح آخر للوسطي؛ المكان الذي نادراً ما يقف فيه فيرغسون عندما يتعلّق الأمر بأي قضية سياسية راهنة، لكنْ، في الوقت الحالي، كان راضياً بمكانه، يكتب الموادّ الصحفية لصالح ماكمانوس، وليس لـ *إيست فيلج* أذر، أو الـ *رات*، أو الـ *ليبريشن نيوز سيرفيس*، والتي عصف بها انشقاق عنيف، أفضى إلى انقسامها إلى منظّمتين منفصلتين؛ منظّمة *ماركسيون في مدينة نيويورك* المتشدّدة، وحالمو الثقافة المضادّة في مزرعة غربيّ ماساتشوستس؛ حيثُ قتل مارشال بلوم نفسه، كان بعمر الخامسة والعشرين فقط، والآن صار ميتاً متسمّماً بغاز أوّل أكسيد الكربون، ومع ذلك الموت، بدأ فيرغسون يفقد إيمانه بالعالم السّرّيّ للصحافة اليسارية المتطرّفة، والتي بدت في بعض الأحيان مختلّة العقل، بقدر المجموعات المنشقّة عن منظّمة *طلاب من أجل* مجتمع *ديموقراطي* البائدة، وبعد أن أصبحت

صحيفة *لوس أنجلس فري برس* تنشر عموداً دورياً لتشارلز مانسن، لم يعد فيرغسون يرغب بأن يكون جزءاً من ذلك العالم بعد الآن. كان يكره اليمين، كان يكره الحكومة، لكنه صار الآن يكره الثورة الزائفة لليسار المتطرّف أيضاً، وإذا كان ذلك يعني العمل لصالح صحيفة وسطية على غرار *روتشستر تايمز يونيون*، فليكن. كان عليه أن يبدأ في مكان ما، وقد وعدَ ماكمانوس بأن يعطيه فرصة حقيقية - بمجرّد أن يُثبِتَ نفسه.

كانت بداية قاسية. عُيِّن في مكتب المدينة، وكان الأصغر بين العديد من المراسلين الذين يعملون تحت إدارة رجل يُدعى جو دونلاب، والذي، ربّما كان مصيباً، وربّما لا، عندما عدّ فيرغسون الفتى المدلّل لماكمانوس تلميذَهُ المفضّل من رابطة اللبلاب، المصطفى من بين الوافدين الجدد إلى الفريق، وكنتيجة لذلك، قرّر دونلاب أن يقسو على فيرغسون، وصار من النادر أن يُسلّم فيرغسون مقالة دون أن تخضع لإعادة صياغة مفرطة، ليس على صعيد العناوين الرئيسة والملاحظات فقط، بل الكلمات نفسها في كثير من الأحيان، ودائماً على حساب جودة المقالة كلها، كما شعر فيرغسون، إذ كان يجعل المقالات أسوأ بدلاً من تحسينها، كما لو كانت فأس دونلاب التحريرية أداةً لتقطيع الأشجار لا تقليمها. كان ماكمانوس قد حذّرَهُ من ذلك خلال لقائهما الأوّل في ويست إند، وطلب منه ألا يحتجّ أبداً. كان دونلاب رقيباً صارماً في معسكر الإعداد، وتحطيم المعنويات مهمّته، في حين كان فيرغسون جندياً غرّاً مهمّته أن يفعلَ ما يُطلب منه، ويُبقيَ فمه مغلقاً، وألا يسمح لمعنوياته بالانهيار، مهما شعر بالإغراء بصدد لَكْم دونلاب في وجهه.

كان العمل أقلّ صعوبة مع أشخاص آخرين، وكان في الحقيقة ممتعاً تماماً مع البعض، أشخاص بدأ تدريجياً يعدّهم أصدقاء له، ومن بينهم توم جيانيللي؛ المصوّر المُكتنز شبه الأصلع من برونكس، والذي غالباً ما كان يغطّي قصصاً بصحبة فيرغسون، ويستطيع تقليد أصوات أكثر من عشرين ممثّلاً وممثّلة من هوليوود بإتقان شبه تامّ (كان مذهلاً في تقليد بيت ديفيس)، ونانسي سبيرون، وكانت خرّيجة حديثة من جامعة روتشستر، استقرّت على الفور في صفحة المرأة، وتجتهدُ للحصول على شهادة عليا في مُغازلات ما بعد العمل؛ ساعده هذا على تجاوز فترة التأقلم الأولى بدون أن ينام وحيداً كل ليلة، وهناك فيك هوسر من قسم الرياضة، والذي كان يرصد تقدُّم بوبي مع الأوريولز، ولم يكن أقلّ سعادة من فيرغسون عندما حقّق بوبي أداءً ممتازاً في دوري نهائيات كأس العالم ضدّ الميتس، وبعيداً عن الأشخاص الذين سيتعرّف عليهم، وسيعجبونه في الصحيفة، هناك الصحيفة نفسها؛ المبنى الضخم ومئات الموظّفين الذي يعملون فيه كل يوم، محرّرون ونقّاد سينمائيون، وموظّفو استقبال ومشغّلو هواتف، وكُتّاب

النعي وأعمدة صيد السمك، والمراسلون الذين يكتبون القصص على مكاتبهم، وعمّال النسخ الذين يركضون من طابق إلى آخر، والمطبعة الضخمة الثابتة في الأسفل، تطرحُ صحيفة جديدة في كل صباح، لتغزو الشوارع في الظهيرة، وبغضّ النظر عن الجزّار النكِد دونلاب الذي برز وكأنه الظهور الثاني لإدوارد إيمهوف، فقد استمتع فيرغسون بكونه جزءاً من ذلك السرب المعقّد من الأجساد الصاخبة، ولم يندم على القرار الذي اتّخذه أبداً.

بلا ندم، لكنْ، على الرغم من أن نانسي سبيرون كانت امرأة عزباء غير مُثقلة بشيء، على عكس المغوية بعيدة المنال مارغريت أومارا جورج، عرف فيرغسون منذ البداية أنها لم تكن الحلّ. ومع ذلك، ظلّ يخرجُ معها، وينام معها، خلال الأشهر التسعة الأولى له في روتشستر، وكانت تلك أوّل مرّة يدخل فيها في حياته علاقة متقطّعة أقلّ من غرامية مع امرأة، كان مولعاً بها، لكنْ، لم يستطع إجبار نفسه على حبّها قطّ. طافت به نانسي، ابنة روتشستر، في أرجاء المدينة، وعرَّفتهُ على واحد من أشهر أطباق السمك المقلي في أُمسيّات أيّام الجمعة في روتشستر، واصطحبتْه إلى مطعم يُدعى نيك تاهو هوتس من أجل الاستمتاع بطبق آخر من روتشستر يُدعى غاربيج بليت (تجربةٌ أقسمَ فيرغسون بأنه لن يعيدها أبداً طوال حياته)، وشاهدا معاً العديد من الأفلام القديمة في آرتشيف إيستمان هاوس، ومن بينها *هروب رجل* لبريسون، و*شجرة تنبت في بروكلن* لكازان، والذي دفع كلاً منهما إلى ذرف محيطات من دموع النحيب غير المنطقية.

كانت نانسي متألّقة وأنيسة، وقارئة جادّة للكُتُب، وصحفية موهوبة انضمّت إلى *التايمز يونيون* كفرد آخر من *الموجة الجديدة لأولاد ماكمانوس*، سمراء بعينين غامقتين وشَعْر قصير ووجه كبير مستدير (وجهها المميّز الصغير، كما اعتادت القول)، سمينة بعض الشيء، ربمّا، لكنْ، مثيرة بما يكفي لتجعل فيرغسون يشتاق إلى جسدها كلّما ابتعدا لأكثر من أسبوع أو عشرةِ أيّام. لم يكن ذنب نانسي أنه لم يستطع أن يحبّها، لكنْ، لم يكن ذنب فيرغسون أيضاً أن نانسي تبحث عن زوج ولا اهتمام لديه بالبحث عن زوجة. في منتصف شهر كانون الأوّل، عندما ذهب إلى فلوريدا لقضاء عطلة نهاية أسبوع مع والديه، أدركَ أن علاقته بنانسي لن تتطوّر أكثر من ذلك، لكنهما بقيا يخرجان معاً لأربعة أشهر بعد عودته، يتخبّطان كما في السابق، إلى أن وجدت نانسي لنفسها رجلاً جديداً يرغب بالزواج بها، وكان هذا أمراً جيّداً، كما رأى فيرغسون، لأنه طوال الأشهر كلّها التي لم يكن قادراً فيها على حبّ نانسي سبيرون، كان لديه إدراك متزايد بأنه بعد سنة كاملة، وجزءٍ كبير من سنة أخرى، على غياب شنايدرمان عن المشهد، فإنه لم يتعافَ بعدُ من خسارة إيمي. لم يزل حزيناً على غيابها - كما لو كان مُعلّقاً في أعقاب حادثة طلاق، وربمّا حتّى موت، وليس في وسعه فعل أي شيء سوى البقاء مُعلّقاً إلى أن تنتهي تلك المشاعر تماماً.

مضت سنة تقريباً منذ أن زار والديه آخر مرّة، والآن بعد أن استقرّا تماماً في العالم الغريب لجنوب فلوريدا، تحوّلا إلى مخلوقين شمسيين؛ شماليين سابقين سليمي البنية، ملفوحين بالشمس، يعيشان ويعملان في الأرض التي لا ينزل فيها الثلج، مُناصران للنزهات الطويلة سيراً على الأقدام على مساحات تغطّيها الرمال (والدته)، ولعب التنس كل صباح على مدار السنة (والده)، ونعم، كان فيرغسون مسروراً لرؤيتهما مرّة أخرى، لكنهما كانا قد تغيّرا خلال فترة انقطاع الزيارات، وكانت تلك التّغيّرات أوّل ما لاحظه فيرغسون عندما اصطحباه من المطار في وقت مبكّر من مساء يوم الجمعة. ربّما ليس كثيراً بالنسبة إلى والدته التي كانت لا تزال تعمل بالتصوير في الـ *هيرالد*، ولا تحبُّ شيئاً أكثر من الحديث عن الصحف مع ابنها، لكنها تحاول الإقلاع عن التدخين منذ ستّة أشهر، وازداد وزنها، عشرة أرطال أو اثني عشر، ممّا جعلها تبدو مختلفة نوعاً ما، مُسنّة وشابّة في الوقت نفسه، إذا كان مثل هذا مُمكِناً. أما بالنسبة إلى والده الذي كان يقترب من عامه السادس والخمسين، ولا يزال قوياً بفضل روتينه اليومي من لعب التنس، فقد صُدم فيرغسون بأنه تضاءل قليلاً، وخفّ شَعْرُه، وازداد شيبه، فضلاً عن وجود عرجة طفيفة عندما يضطرّ إلى المشي لأكثر من خمسين أو مئة ياردة (عضلة مشدودة، أو ألم دائم في القدم)، ولم يعد السّيّد مانيت الصامت الخَدِر يكدح فوق طاولته، وإنما صار موظّفاً في قسم الإعلانات المبوّبة في الـ *هيرالد*، وظيفة زعم بأنه مستمتع بها، بل ويحبّها، لكنها انحدرَت به إلى نموذج مُتواضع من بوب كراتشيت، ولم يستطع فيرغسون منع نفسه من التفكير بالسقوط الكبير البطيء من عالم مفروشات الأخوة الثلاثة إلى هذه المرحلة.

أفضل أيّام تلك العطلة القصيرة كان يومها الأخير، عندما خرجوا لتناول وجبة فطور متأخّر على مهل في مطعم وولفي في جادّة كولينز، الروائح الجميلة لشرائح البصل الطازجة والسمك المدخّن التي طافت الغرفة عندما تناول ثلاثتهم السلمون المدخن والبيض على شرف جَدّة فيرغسون التي تحدّثوا عنها مطوّلاً، فضلاً عن جَدّ فيرغسون وديدي براينت التي غابت نهائياً آنذاك، بيد أن والدته كانت تسأله في الغالب عن روتشستر و*التايمز يونيون*، حيثُ *أرادت أن تعرف كل شيء عن كل شيء*، وأخبرهما فيرغسون بكل ما كان يعرفه تقريباً، إلا أنه أهمل الحديث عن علاقته بنانسي سبيرون، لأن ذلك لن يعجب والده على الأرجح، فمجرّد التفكير بأن ولده يحوم حول فتاة إيطالية كاثوليكية سوف يُغضِبه، ممّا سيفضي إلى بعض التعليقات القطبية المريرة بصدد الشفارتز [الزنجي] والشيكسا [الأنثى غير اليهودية] (كلمتان يكرههما فيرغسون، اثنتان من أشنع الكلمات في المعجم اليديشي)، لذا ترك نانسي خارج النقاش، وتحدّث بدلاً من ذلك عن ماكمانوس ودونلاب، وعن بوبي جورج الذي حقق أوّل فوز كبير له في بوسطن في

شهر تمّوز المنصرم، وكيف أنه سيصير أباً بعد أربعة أشهر، وعن بعض المقالات التي كتبها، والشّقّة المتهالكة الرخيصة التي يعيش فيها، الأمر الذي دفع والدته لتسأله السؤال الذي تسأله الأمّهات كلهنّ لأولادهن؛ سواء أكان أولئك الأولاد أطفالاً صغاراً، أم خرّيجي جامعات في الثانية والعشرين من أعمارهم:

هل أنتَ بخير، يا آرتشي؟

أتساءلُ أحياناً عن ما أفعلُه هناك، قال فيرغسون، لكنْ، أظنّ أنني على ما يرام، مازلتُ أتقدّم ببطء وحذر، بخير نوعاً ما، سعيدٌ بعملي نوعاً ما، لكنْ، ثمّة شيء واضح، شيء في وسعكِ أن تكوني متأكّدة تماماً منه: لن أقضي ما تبقّى من حياتي في روتشستر، نيويورك.

حرائق من الدرجة الثالثة. الذكرى السنوية العشرون لجريمة قتل، لم تُحلّ بعد. نشاط مناهض للحرب في كلّيّات محلّيّة وجامعات محلّيّة. تفكّك عصابة من خاطفي الكلاب. حادث مرور مميت في بارك أفنيو. تأسيس جمعية إيجار جديدة في أحياء السود في الجانب الغربي من المدينة. لخمسة أشهر، عمل فيرغسون بجدّ كمُراسل ثانوي متواضع تحت نظرات جو دونلاب المفعمة بالشّكّ، ثمّ سحبه ماكمانوس خارج جحيم المدينة، وأوكله شيئاً كبيراً. على ما يبدو، اجتاز فيرغسون الاختبار. لا يعني هذا أنه عرفَ على وجه الدّقّة طبيعة الاختبار أو المعايير التي اعتمدها ماكمانوس في الحكم عليه، لكنْ، بما أن ذلك حدث على أي حال، فليس في وسع المرء إلا أن يستنتج أن المدير يشعر الآن بأنه نجح إلى المستوى التالي.

في صباح اليوم التالي لعيد الميلاد، استدعى ماكمانوس فيرغسون إلى مكتبه، وأخبره عن فكرته كانت تدور في ذهنه مؤخّراً. العقد السّتّين من القرن على وشك الانتهاء، قال، ولم يبقَ سوى أقلّ من أسبوع قبل تنتهي السنة، وما رأي فيرغسون بصدد كتابة سلسلة من المقالات عن السنوات العشر المنصرمة؟ وكيف أثّرَت على الحياة الأميركية؟ ليسَت مقاربة مرتّبة زمنياً، أو مُلخّصاً زمنياً للأحداث الكبرى، بل شيء أكثر أهمّيّة من ذلك، سلسلة قصص، من ألفين وخمسمائة كلمة لكل منها، عن مواضيع جوهرية؛ الحرب في فيتنام، حركة الحقوق المدنية، نموّ الثقافة المضادّة، التّطوّرات في الفنّ، والموسيقى، والأدب، والسينما، برنامج الفضاء، التناقضات الأساسية ما بين إدارات كل من أيزنهاور، وكينيدي، وجونسون، ونيكسون، الاغتيالات الكابوسيّة لشخصيات عامّة بارزة، الصراع العنصري وإحراق أحياء الأقلّيّات في المُدُن الأميركية، الرياضة، الموضة، التلفاز، صعود اليسار الجديد وسقوطه، السقوط والصعود للجمهورياتية اليمينية وغضب جماعات القبّعات الصلبة، تطوّر حركة القوّة السوداء وثورة حبوب منع الحمل،

كل شيء، من السياسة إلى الروك أند رول، إلى التّغيّرات في اللغة الأميركية الدارجة، صورة شخصية لعقدٍ شديد الكثافة والاضطراب، لدرجة أنه قدَّم للبلاد مالكوم إكس وجورج والاس، وصوت الموسيقى وجيمي هندريكس، والأخوة بيريغان ورونالد ريغان. كلا، لن يكون تقريراً من النوع المعتاد، تابع ماكمانوس حديثه، سيكون نظرة إلى الوراء، طريقة لتذكير قرّاء *التايمز* يونيون أين كانوا قبل عشر سنوات، وأين أصبحوا الآن. تلك إحدى مزايا العمل في صحيفة مسائية. المزيد من مساحة المناورة، المزيد من الوقت للتنقيب والبحث، المزيد من فرص العمل على قصص طويلة. لكنْ، لا يمكن أن تكون مجرّد إعادة قولبة جافّة. لم يكن يبحث عن تاريخ أكاديمي، بل عن مقالات لاذعة، ومقابل كل كتابٍ، أو عدد سابق من مجلّة، قرأه فيرغسون من أجل بحثه، أراد منه ماكمانوس أن يتحدّث إلى خمس أشخاص. إن لم يستطع التواصل مع محمّد علي، فسيتعين عليه أن يتقفّى أثر مدرّبه، أنجيلو دندي، وإن لم يستطع الوصول إلى آندي وارهول، فعليه أن يتّصل بروي ليختنشتاين، أو ليو كاستيلي. مصادر رئيسة. الأشخاص الذين صنعوا الحدث أو كانوا قريبين عند حدوثه. هل كان ذلك واضحاً؟

أجل، واضح.

وماذا كان رأي فيرغسون؟

أنا مستعدٌ تماماً، قال فيرغسون. لكنْ، كم عدد المقالات التي تريدها؟ وكم لديّ من الوقت حتّى أكتبها؟

ثمانية إلى عشرة تقريباً، كما أظنّ. أسبوعان لكتابة كل مقالة، تنقص أو تزيد. هل هذا كافٍ؟

إذا تخلّيتُ عن النوم لبعض الوقت، فسيكون ذلك كافياً. هل أسلّمُها إلى السّيّد دونلاب؟

لا، لقد انتهى عملكَ مع دونلاب. ستعمل معي مباشرة على هذا المشروع.

وأين أبدأ؟ وكيف؟

عُد إلى مكتبكَ، وجهِّزْ خمس عشرة فكرة أو عشرين. مواضيع، عناوين، تأمّلات، أي شيء يبدو عاجلاً بالنسبة إليكَ، ثمّ سنضع خطّة شاملة.

لا أستطيع أن أخبركَ كم هذا مهمّ بالنسبة إلي.

إنّه عملٌ لشخص شابّ، يا آرتشي، وأنتَ أصغر مَنْ لديّ. فلنرَ ماذا سيحدث.

بذل فيرغسون قصارى جهده في كتابة تلك المقالات، لأن مستقبله في الصحيفة يعتمد كلّيّاً عليها. كتبَ وأعاد الكتابة، واستعرضَ في عجالة ما يزيد عن مئة كتاب وألف صحيفة ومجلّة، ولم يتحدّث عبر الهاتف إلى أنجيلو دندي، وروي ليختنشتاين، وليو كاستيلي فقط، بل

إلى عشرات الأشخاص الآخرين أيضاً، مُكوّناً جوقة من الأصوات لتُرافِق النصوص التي كتبَها عن السّرّاء والضّرّاء في الأيّام التي أمست قريباً من الخوالي، ثماني مقالات، ألفان وخمسمائة كلمة للمقال الواحد، عن السياسة، والرؤساء، وصخب الاعتراض الاجتماعي، فضلاً عن رحلات في عالم الموسيقى الشعرية لقصائد *الأغاني الحالمة* لجون بيريمان، والمذبحة بطيئة الحركة في نهاية بوني وكلايد، ومشهد نصف مليون طفل أميركي يرقصون في الوحل في عطلة نهاية أسبوع بمزرعة في ولاية نيويورك، فقط على بُعد مئتي وخمسين ميلاً جنوب روتشستر. عموماً، كان ماكمانوس راضياً عن النتائج، ولم يُحرّر من المقالات إلا النذر اليسير، وكان هذا أكثر جزء مبهج من تدريب فيرغسون، لكنْ، كان المدير مسروراً أيضاً بأن المقالات استدرَّت عشرات الرسائل من القرّاء، وكانت إيجابية في معظمها، بتعليقات على غرار "بالغ الشُّكْر لـ إيه. أي. فيرغسون لاصطحابنا في نزهة في طريق الذكريات"، لكنْ، لم يخلُ الأمر من تعليقات سلبية أيضاً، على الرغم من أنه كان يتوقّع أسوأ من ذلك. أما ما لم يتوقّعه، فكان كم العدائية التي شعر بها لدى بعض المراسلين الشباب في الفريق، لكنْ، هكذا تجري الأمور، كما افترض، يتصرّف كلّ لاعب وحده عندما يقفز الجميع لالتقاط الكرة، وكما كانت نانسي تُذكِّره في كل مرّة ينشر فيها مقالة، فإن الامتعاض ليس إلا دليلاً على أنه يؤدّي عمله بصورة جيّدة.

كان من المفترض أن يكتُب عشر مقالات من السلسلة، لكن اضطرّ فيرغسون للتوقّف عندما كان على وشك البدء بالمقالة التاسعة (عن الشَّعْر الطويل، والتنانير القصيرة، وقلائد الخرز، والجزمات الجلدية البيضاء - أحدث صيحات الموضة في أواسط عقد السّتّينيّات وأواخره) عندما حدثت ضربة قاصمة أخرى في البعيد. كانت الحركة المناهضة للحرب هادئة نسبياً خلال الأشهر الأخيرة. لقد ساهم الانسحاب التدريجي للقوّات الأميركية، وما أُطلق عليه اسم فَتْنَمَة الحرب، ونظام التجنيد الجديد في تهدئة النشاط، لكنْ، بعد ذلك، في الأيّام الأخيرة من شهر نيسان لسنة 1970، وسّع نيكسون وكيسنجر رقعة الحرب بغتةً من خلال غزو كمبوديا. كان الرأي العامّ الأميركي لا يزال منقسماً إلى نصفين، نصف مؤيّد ونصف معارض، ممّا عنى أن نصف البلاد مؤيّد للعملية، في حين أن النصف الآخر، أولئك الذين كانوا يتظاهرون ضدّ الحرب على مدى السنوات الخمس الماضية، عدّوا أن هذا *التّوغّل الاستراتيجي* نهاية لكل أمل. خرج مئات الآلاف إلى الشوارع، ونُظّمَت مظاهرات ضخمة في الجامعات والكلّيّات، وفي إحدى تلك الجامعات في أوهايو، أطلقَ حارسٌ وطني عصبي سيّئ التدريب الرصاصَ الحيّ على الطلاب، صلية رصاص مدّتها ثلاث ثوان أسفرت عن مقتل أربعة وجَرْح تسعة، وكان معظم الأميركيين مروّعين للغاية بما حدث في جامعة كينت، لدرجة أنهم فتحوا أفواههم

عفوياً، وأطلقوا صرخة جماعية انتشرَت في أنحاء البلاد جميعها. وفي وقت مبكّر من صباح اليوم التالي، في الخامس من أيّار، أوفدَ ماكمانوس فيرغسون وشريكَه المصوِّر توم جيانيللي إلى جامعة بوفالو لإعداد تقرير عن المظاهرات هناك، وعلى نحوٍ مفاجئ، لم يعد يحقّق في الماضي القريب، بل يعيش الحاضر مرّة أخرى.

كان الجامعة قد مرّت بأسابيع من الصراع العنيد ما بين أواخر شباط وأوائل آذار، بيد أن الثوران المفاجئ إثر أحداث جامعة كينت كان أكثر وحشية من أي شيء شهدَهُ فيرغسون في كولومبيا، وخصوصاً في اليوم الثاني من وصوله إلى هناك؛ يوم ماطر في بوفالو في أواسط الربيع، الثلوج لا تزال على الأرض، وتعصفُ رياح متجمّدة قبالة بحيرة إري. لم تكن هُناك مَبانٍ مُحتلّة، لكنْ، كان الشعور العامّ أكثر شحناً، وربّما أشدّ خطورة عندما تعرّض قرابة ألفي طالب وأستاذ لهجوم من قِبَل عناصر شرطة مكافحة الشغب الذين كان يرتدون الخوذ، ويحملون الأسلحة، والهراوات، وبنادق الغاز المسيّل للدموع. أُلقيَت حجارة، أُلقي طوب، تحطّمَت نوافذ سيّارات الشرطة ومباني الجامعة، سُحِقَت رؤوس وأجساد، ومجدّداً، وجد فيرغسون لنفسه موقعاً وسطاً بين الحشدَين المتحاربين، غير أن الأمر كان أكثر رعباً هذه المرّة، لأن طلاب بوفالو كانوا أكثر استعداداً للقتال من طلاب كولومبيا، وكان البعض منهم ساخطين وخارجين عن السيطرة تماماً، لدرجة أن فيرغسون شعر بأنهم كانوا مستعدّين للموت. وسواء أكان صحفياً أم لا، فقد كان مُعرّضاً للخطر مثلهم تماماً، وبقدر ما طالَه قبل سنتين من ضرب على رأسه ويديه، وفي هذه المرّة، تعرّض للغاز المسيّل للدموع مثل ما حدث للآخرين جميعاً، وبينما كان يضغط منديلاً على عينيه المتورّمتين، ويتقيّأ طعام غدائه على الرصيف، أمسكَ جيانيللي بذراعه، وسحبه بعيداً للبحث عن بقعة فيها هواء أصلح للتّنفّس، وبعد بضع دقائق، عندما وصلا إلى ملتقى طُرُق شارع ماين وجادّة مينيسوتا خارج الحرم الجامعي تماماً، أزاحَ فيرغسون المنديل عن وجهه، وفتح عينيه، ورأى شابّاً يرمي طوبة عبر نافذة مصرف.

وفي غضون يوم أو اثنين، أعلنَت ثلاثة أرباع الكلّيّات والجامعات في أميركا إضراباً. انضمّ ما يزيد عن أربعة ملايين طالب إلى الاحتجاج، وواحدة تلو أخرى، أغلقَت جامعات روتشستر وكلّيّاتها أبوابها لبقية السنة الدراسية.

بعد أن قدّم فيرغسون تقريره عن أحداث بوفالو بيوم واحد، أجرى محادثة مقتضبة مع ماكمانوس عند المدخل الرئيس لمبنى *التايمز يونيون*. وبينما كانا يحدّقان في الشارع ويُدخّنان السجائر، أقرَّ كلٌّ منهما على مَضض بصدد أنه لن يكون هناك جدوى من نشر أي مقالات أخرى عن حقبة السّتّينيّات. ثماني مقالات تكفي، ولم تعد هناك ضرورة للتاسعة والعاشرة.

بعد أن عثرَت نانسي سيبرون على رجلها الجديد في الأيّام الأولى من الإضراب الطلابي، أهدرَ فيرغسون الأشهر السّتّة التالية في السعي وراء امرأتين مختلفتين، لم تكونا تستحقّان الجهد المبذول في السعي وراءهما، وستبقيان بلا أسماء، لأنهما لا تستحقّان جهد التسمية. بدأ صدر فيرغسون يضيق، وشعر بأنه ربمّا اكتفى من روتشستر بعد سنة ونصف في تلك المدينة الاتّحاديّة الصغيرة، متسائلاً عمّا إذا كان ينبغي عليه أن يُجرّب حظّه في مكان آخر مع صحيفة أخرى، أو ربمّا أن يعتزل الصحافة تماماً، ويحاول كسب رزقه كمُترجم، إذ على الرغم من أنه لا يزال يستمتع بضغوطات التأليف فائق السرعة، إلا أن الصراع مع اللغة الفرنسيّة لفيلون من القرن الخامس عشر كان أكثر إرضاءً له بكثير، وعلى الرغم من أن الوقت كان شحيحاً، إلا أنه أنجزَ مسوّدة أولى، لا بأس بها من *الأسطورة*، وقطع نصف الطريق في العمل على نسخة أوّليّة من *الوصية*، لا يعني هذا أنه يستطيع إطعام نفسه من ترجمة الشِّعْر، على أي حال، لكنْ، بمقدور كتاب سميك من النثر بين كل حين وآخر أن يساعده على دفع الفواتير، وفي حال لم يستجدّ أي شيء، وحتّى لو بقي في روتشستر لفترة أطول، أليس من المنطقي أن يترك الوكر الرخيص القذر في شارع كروفورد، وينتقل إلى مكان أفضل؟

كانون الثاني وشباط من سنة 1971، أحلكُ أيّام السنة وأبردُها في تلك البقعة الشتوية الكالحة، وقتٌ لا يمكن أن تتوقّع فيه إلا حدوث أشياء كئيبة، وقت لخيالات الموت وأحلام اليقظة عن الحياة في المناطق الاستوائية، لكنْ، بمجرّد شروع فيرغسون بالتفكير بأن عليه دفن نفسه تحت كومة من اللحف والبقاء في السرير خلال الأشهر الثلاثة التالية، عاد التشويق إلى وظيفته في *التايمز يونيون* مرّة أخرى. عادَ السيرك إلى المدينة. كانت الأسود والنمور تزأر وتُزمجر، وتجمهر حشد تحت الخيمة الكبيرة، وارتدى فيرغسون في عجالة زيّ البهلوان، وهرولَ على السّلّم، كي يأخذ مكانه على المنصّة.

بعد حادثة إطلاق النار في جامعة كينت، نُقِل إلى المكتب الوطني، وصار يعمل تحت إدارة رجل يُدعى أليكس بيتمان؛ مُحرّر شابّ يتمتّع بمواهب جيّدة وطباع مقبولة نوعاً ما بالمقارنة مع دونلاب. كان فيرغسون قد سلّم عشرات المقالات إلى بيتمان على مدى الأسابيع الطويلة ما بين أيّار وشباط، لكنْ، لم يكن هُناك شيء بقوّة القصّتين الطويلتين اللتين حدثتا في النصف الأوّل من السنة الجديدة، قبل أن يتّضح لاحقاً، على نحوٍ غريب بما يكفي، أنهما نسختان للقصّة نفسها: إنهاء لأعمال غير مُنتهية من الخمسينيات والسّتّينيّات، لأن شخصاً ما كان شجاعاً بما يكفي لسرقة وثائق حكومية سرّيّة، ونشرها على الملأ، ممّا عنى أنه على الرغم من انتهاء السّتّينيّات على الصعيد الزمني، إلا أنها لم تنتهِ تماماً، وإنما قد بدأت للتّوّ في واقع الأمر - من البداية مرّة

أخرى. في اليوم الثامن من شهر آذار، اقتحمَت مجموعة مجهولة من النشطاء الخفيين، تُطلِق على نفسها اسم *مُفوّضيّة المواطنين للتحقيق في شؤون مكتب التحقيقات الفيدرالي*، المكتبَ الحكومي الصغير الذي يتّسع لشخصين في المدينة ذات الاسم الغريب، ميديا، في ولاية بنسلفانيا، وسرقَت قرابة ألف وثيقة سرّيّة. بحلول اليوم التالي، كانت تلك الوثائق قد أرسِلَت إلى مؤسّسات إخبارية شتّى في أنحاء البلاد جميعها، كاشفةً عن عملية التّجسّس السّرّيّة *كوينتلبرو* (برنامج مكافحة التّجسّس)، التابعة لمكتب التحقيقات الفيدرالي، والتي أطلقها جون إدغار هوفر في سنة 1956 للتضييق على الشيوعيين الأربعة عشر أو السّتّة والعشرين الذين لا يزالون في أميركا، ثمّ توسّعَ نطاقها، لتشمل أعضاء في منظّمات الحقوق المدنية السوداء، والمنظّمات المناهضة للحرب في فيتنام، ومنظّمات القوّة السوداء، والمنظّمات النسوية، وقرابة مائتي منظّمة من اليسار الجديد، ومن ضمنها *طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي* *وويذرمِن*. لم تكن عملية للتّجسّس فحسب، بل تسلّلوا إلى صفوف تلك المنظّمات بمخبرين ومُحرِّضين من أجل إيقاع الفوضى في صفوفها، وتشويه سمعتها، وهكذا تبيّنَ أن المخاوف الجنونية لنشطاء السّتّينيّات حقيقية، وأن الأخ الأكبر يُراقِب حقّاً، وكان الجندي الأكثرُ جنوناً وولاءً للإله الشّرّير خلف ذلك كلّه؛ القصير البدين جون إدغار هوفر، الذي جمع قوّة هائلة خلال السنوات السبع والأربعين التي قضاها في منصبه، لدرجة أن الرؤساء كانوا يرتعدون كلّما طُرِق بابهم. كشفَت الوثائق عن مئات الجرائم، وعن مئات الأعمال المشينة التي ارتُكبَت من أجل تشويه سمعة أشخاص أبرياء، لكنْ، لم يكن ثمّة ما هو أكثر دناءة من الفعل الذي اقترفَهُ بحقّ فيولا ليوزو، والتي كانت موضوع إحدى مقالات فيرغسون؛ كانت فيولا ربة منزل من ديترويت، وأماً لخمسة أطفال، وقد ذهبت إلى ألاباما للمشاركة في مُظاهرة سِلْما - مونتغمري، ولمجرّد أنها فتحَت باب سيّارتها كي تُقلَّ رجلاً أسود، تعرّضَت للقتل على يد مجموعة محلّيّة من عصابة الكلان، وكان أحدُ القتلة، ويُدعى غاري توماس رو، "مُخبِراً رسمياً لصالح مكتب التحقيقات الفيدرالي"، وبعد ذلك، امتلكَ هوفر من الوقاحة ما يكفي لكتابة رسالة إلى جونسون، كي يخبرَهُ بأن السّيّدة ليوزو كانت عضوة في الحزب الشيوعي، وأنها هجرَت أطفالها من أجل مُمارسة الجنس مع رجالٍ سود من حركة الحقوق المدنية؛ اتّهام باطل يوحي بأنها عدوّة للشعب، وبالتالي، كانت شخصاً يستحقّ الموت.

بعد ثلاثة أشهر من فضيحة الكوينتلبرو، نُشرت *أوراق البنتاغون* في صحيفة *نيويورك تايمز*، وعمِلَ فيرغسون على تلك القصّة أيضاً، بما في ذلك القصّة وراء تهريب دانيال إلسبيرغ للوثائق من المبنى، وإعطائها لمراسل *التايمز* نيل شيهان، وكفّرت نيويورك تايمز، المقيتة فيما مضى، عن الأكاذيب التي نشرَتها في سنة 1968، وذلك عبر المخاطرة بنشر وثائق سرّيّة على الملأ؛ لحظةٌ

مُشرقة في تاريخ الصحافة الأميركية، برأي كلّ من بيتمان وماكمانوس وفيرغسون، وفجأةً، أضحَت أكاذيب الحكومة الأميركية مكشوفةً على مرأى ومسمع العالم بأسره؛ الأشياء التي لم يُكتَب عنها في الصحافة من قبل قطّ، التفجيرات السّرّيّة في كمبوديا ولاوس، الغارات الساحلية على فيتنام الشمالية، لكنْ، قبل كلّ شيء، وفوق كلّ شيء، كانت تلك الوثائق تُصوِّر بدقّة العملية التدريجية لإحالة شيء بدا منطقياً ذات يوم، إلى آخرَ لا معنى له على الإطلاق.

ثمّ غادر السيركُ المدينة مرّة أخرى، وسقطَ فيرغسون في أحضان هالي دويل؛ طالبة في الحادية والعشرين من عمرها، من كلّيّة ماونت هوليوك، وتعمل بوظيفة صيفية في الصحيفة، أوّل فتاة يلتقيها، منذ انتقاله إلى الشمال، وقد تمتلكُ القدرة على إبطال تعويذة إيمي أخيراً، شخصية متّقدة الذكاء والبصيرة، نشأت في الكنسية الكاثوليكية الرومانية، لكنها لم تعد جزءاً منها، إذ لم تكن تؤمن بأن في وسع العذارى أن يكُنَّ أمّهات، أو أن بمقدور الرجال الميتين الخروج من قبورهم، ومع ذلك، كانت تعيش يقيناً داخلياً بأن الودعاء سيرثون الأرض، والفضيلةَ ثوابُها الخاصّ، ويجب ألا تعامل الآخرين بما لا تحبّ أن يُعاملوك به؛ طريقة أكثر منطقية لتعيش حياتكَ بدلاً من الكفاح من أجل اتّباع أخلاقيات القاعدة الذهبية، والتي أجبرَت البشرَ على تحويل أنفسهم إلى قدّيسين، ولم تفضِ إلى شيء عدا الذنب واليأس الذي لا ينتهي.

إنسانة عاقلة، وربّما حتّى حكيمة. صغيرة، لكنها ليست ضئيلة، وذات جسد نحيل رشيق، بزوج من النّظّارات فوق أنفها، وشعر شديد الصفرة، شقراء جدّاً، لدرجة إضفاء انطباع بأنها غولديلوك ناضجة، لكنها جذّابة بقدر جاذبية ذلك الشَّعْر الذهبي إلى فيرغسون، كان اللغز في وجه هالي، والذي كان عادياً وجميلاً في الوقت نفسه، باهتاً ومتلألئاً بالتناوب، وجه يُغيّرُ ملامحه مع أصغر التفاتة أو إمالة رأس؛ حيناً بملامح غولديلوكية، وحيناً كمغنّية روك بيضاء فاتنة، وحيناً مملّة وشبه عديمة الشكل، وحيناً مُشعّة ولافتة للنظر، وجه أيرلندي عادي يستطيع، في طرفة عين، أن يُحوّل نفسه إلى الطلعة الأكثر فتنة على شاشات السينما. ماذا عليه أن يفعل كي يحلّ هذا اللغز؟ لا شيء، قرّر فيرغسون، لا شيء إطلاقاً، إذ كانت الإجابة الوحيدة أن يواصل النظر إليها، من أجل أن يشعرَ بإحساس البهجة المتزايد من البقاء غير متوازن طيلة الوقت.

كانت قد نشأت في روتشستر، وعادت إلى المدينة في الصيف لبيع منزل عائلتها في إيست أفنيو، والذي أصبح فائضاً عن الحاجة بعد انتقال والديها، اللذين يعملان في مجال الكتابة العلمية، إلى سان فرانسيسكو في وقت سابق من السنة. أما عن العمل في *التايمز يونيون*، فقد

حصلت عليه عن طريق صديق قديم للعائلة، ولم يكن سوى طريقة أكثر فعالية لقتل الوقت من عدم فعل أي شيء - فضلاً عن أنه فرصة لكسب بعض المال الإضافي.

كانت تعمل كمُساعدة مؤقّتة في غرفة الأخبار خلال الصيف، لكنْ، في حياتها الفعلية، كانت طالبة في اختصاصين، اللغة الإنكليزية وعلم الأحياء، وستبدأ السنة الأخيرة من دراستها في فصل الخريف. شاعرة ناشئة، تُخطّط للالتحاق بكلّيّة الطّبّ على المدى البعيد، ثمّ مواصلة التّقدّم إلى أن تصبح طبيبة نفسية، وأن تتدرّب في نهاية المطاف كمحلّلة نفسية، وكان كل ما سبق مثيراً للإعجاب، بيد أن ما أذهل فيرغسون أكثر من ذلك، هو كيف قضت عُطلَتَي الصيف اللتين سبقتا هذه: كانت تعيش في نيويورك، وتردُّ على الهواتف الأرضية في خطٌ ساخن للوقاية من الانتحار في الشارع الرابع شرقي والجادة A.

بعبارة أخرى، قال لنفسه، في الوقت الذي كان يستمع فيه إلى التسجيل الرهيب الصارخ، للشطر المثبّط من *أيها الرّبّ، اسمكَ الموت*، كانت هالي تعمل لإنقاذ الأرواح. ليس الجميع في الوقت نفسه، مثلما آمنَت إيمي وآخرون كُثُر، بل واحدة تلو أخرى. تتحدّث إلى رجل عبر الهاتف، وتُقنِعُه تدريجياً بألا يضغط على زناد البندقية التي يُصوِّبها إلى رأسه. وفي الليلة التالية، تتحدّث إلى امرأة، وتُقنعُها ببطء بألا تبلع علبة حبوب الدواء التي تمسكها بإحكام في يدها. دون دوافع لإعادة اختراع العالم من القاع إلى القمّة، ودون أعمال ثورية، لكنْ، بالتزام بفعل الخير في العالم المتصدّع الذي تنتمي إليه، خطّة لقضاء حياتها في مساعدة الآخرين، ولم يكن هذا فعلاً سياسياً، بقدر ما دينياً، دين بلا دين أو دوغمائية، إيمان بقيمة الإنسان والإنسان والإنسان، رحلة ستبدأ من كلّيّة الطّبّ، وستستمرّ طويلاً، إلى أن تُنهي تدريبها كمحلّلة نفسية، وفي الوقت الذي تجادل فيه إيمي وحشد كبير من الآخرين بصدد أن الناس مرضى، لأن المجتمع مريض، وأن مُساعدتهم على التّكيّف مع مُجتمع مريض لن تؤدّي إلا إلى المزيد من السوء، ستجيبُ هالي بالقول: رجاءً، اذهبوا وحَسِّنوا المجتمع، إذا ما استطعتُم، لكنْ، في هذه الأثناء، ثمّة أناس يُعانون، ولديّ عمل كي أفعله.

ليس أن فيرغسون عثر على *التالية* فحسب، لكنْ، مع مرور الصيف، أخذ يسأل نفسه عمّا إذا كان قد وجد *المُختارة* التي ستَمحقُ الأخريات كلهنّ لبقية أيّامه على هذه الأرض الجميلة التعيسة.

في أوائل شهر تمّوز، انتقلت إلى الشّقّة البائسة في شارع كروفورد للعيش معه، ولأن الصيف كان حارّاً على نحوٍ استثنائي في تلك السنة، كانا يُسدلان ستائر النوافذ، ويتحوّلان إلى عاريين طالما أنهما داخل المنزل. أما في الخارج، في ليالي أيّام العمل، وفي عطل نهاية الأسبوع، فقد شاهدا معاً اثني عشر فيلماً، وستّ مباريات للريد وينغز، ولعبا التنس أربع مرّات (وفي كلّ مرّة،

كانت هالي الرياضية المتفوّقة تهزمه بمجموعتين مقابل واحدة)، وتنزّها في مقبرة ماونت هوب، وجلسا في هايلاند بارك، حيثُ قرآ قصائدهما وترجماتهما لبعضهما، إلى أن ضجّت هالي بالبكاء في ظهيرة يوم أحد، وقالت بأن أعمالها ليست جيّدة (لا، ليس كذلك، قال لها فيرغسون، بل *قيد التطوير*، على الرغم من وجود بعض الشّكّ بصدد أن يكون مستقبلها واعداً في الطّبّ أكثر منه في الأدب)، وحضرا أربع حفلات موسيقية كلاسيكية في مدرسة إيستمان للموسيقى؛ باخ، وموزارت، وباخ، ووبرن، وتشاركا عدداً لا حصر له من وجبات العشاء في شتّى أنواع المطاعم اللائقة والشنيعة على حدّ سواء، بيد أن العشاء الأبرز كان في مطعم أنطونيو في ليك آفنيو، حيثُ رافق الوجبة عزف متواصل لرجل يُدعى لو بلانديسي، والذي وصفَ نفسه بعازف الأكورديون الحنطي من *ليتل إيتالي*، وبدا أنه يعرفُ كلّ ما كُتِب من أُغنيّات، من موسيقى البوب الأميركي التقليدي، إلى الأهازيج الأيرلندية، وموسيقى الكليزمر من الساحل الشرقي لأيرلندا.

الأهمّ من ذلك: بحلول الأيّام الأولى من شهر آب، كان كل منهما قد نطق الكلمتين الحاسمتين لعشرات المرّات، الكلمتان اللتان تُبرمان الصفقة، وتعلنان أنه لا رجعة عنها، وبحلول نهاية الشهر، كان الاثنان قد بدآ بالتفكير بأفكار دائمة بعيدة المدى بشأن المستقبل. ثمّ حان الوداع المحتوم، وفي الوقت الذي أُجبِرَ فيه فيرغسون على التّوقّف عن حبّها لصالح سنتها الدراسية الأخيرة في الكلّيّة بساوث هادلي في ماساتشوستس، تساءل عمّا إذا كان سيستطيع البقاء حيّاً بدونها.

اليوم الثامن من أيلول. رحل الصيف تماماً. عاد الأطفال إلى الصراخ تحت نافذة غرفه نومه في الصباح الباكر من جديد، أما في الليل، فقد أخذ الهواء الطابع الجديد المفعم بالحيوية لأقلام الرصاص المبريّة للتّوّ والأحذية القاسية الجديدة - رائحة الطفولة، الذكريات السحيقة لزمن غابر. عاد السّيّد الوحيد الحزين، الذي كان يصبو إلى هالي الغائبة كل ساعة طوال الأيّام العشرة الفائتة، إلى شقّته في الساعة الرابعة والنصف من عصر ذلك اليوم، وبُعيد دقيقة من وصوله، وقبل أن يتمكّن من إفراغ الكيس الورقي البنّيّ الذي يحتوي مكوّنات عشائه، رنّ الهاتف. يتّصل بيتمان من مكتبه في *التايمز* يونيون. هناك نبرة إلحاح في صوت بيتمان. يقول له بيتمان: "ثمّة شيء يتخمّرُ في أتيكا"، السجن الذي يَبعُدُ خمسين ميلاً جنوب غرب روتشستر، وأوكلَ إلى فيرغسون وجيانيللي مهمّة الذهاب إلى هناك في وقت مبكّر من صباح الغد، وذلك للحديث إلى فينسنت مانكوسي، مدير السجن، "لمعرفة ما يحدث". كان موعد المقابلة قد رُتّب سلفاً عند الساعة التاسعة، وسيأتي جيانيللي لاصطحابه عند الساعة السابعة، ومع أن الأمر ليس سوى فوضى صغيرة حتّى اللحظة، لكنْ، قد يتّضح أنه حدث كبير، لذا "أبقِ عينيكَ وأذنيكَ مفتوحتين، يا آرتشي، وابتعِدْ عن المشاكل".

خلال السنة الفائتة، وقعَت حادثتا شغب كبيرتان في سجون نيويورك؛ واحدة في سجن أوبورن شمال الولاية، والثانية في سجن التومبز في مانهاتن، مواجهات جسدية حامية بين السجناء والحرّاس، أدّت إلى صدور العديد من لوائح الاتّهام والعقوبات الإضافية. نُقِلَت قيادات من الانتفاضتَين - معظمهم من السود، وجميعهم ملتزمون بشكل من أشكال السياسة الثورية - إلى سجن أتيكا من باب "التّخلّص من مثيري الشغب"، والآن بعد مقتل الفهد الأسود جورج جاكسون بالرصاص في سجن سان كوينتن في كاليفورنيا خلال محاولة فرار مزعومة *باستخدام مُسدّس مُخبّأ داخل الشَّعْر الأفرو المستعار الذي كان يرتديه* (صدَّقَ بعض الناس ذلك حقّاً)، عاد السجناء في سجون نيويورك المكتظّة إلى إصدار الضجيج مرّة أخرى. كان ستون في المئة من أصل 2250 سجيناً في أتيكا من السود، ومئة في المئة من الحرّاس من البيض، ولم يكن فيرغسون غير مُتحمّس فحسب، بصدد زيارته الأولى لمنشأة إصلاحية بحماية قصوى، بل كان خائفاً. كان مسروراً بأن جيانيللي سيرافقه، إذ ستكون الرحلة لمدّة ساعة بالسّيّارة ممتعةً بما يكفي عندما يتحدّث إليه توم بصوتيَ كاري غرانت وجين هارلو، ويفقد أعصابه بشأن الراية مثلّثة الشكل للدوري الوطني، لكنْ، بمجرّد الوصول إلى هناك وعبور بوّابة السجن، فسيكونان بمواجهة الدخول إلى الجحيم.

لم يعد فيرغسون يريد ذلك بعد الآن. كان مُنهَكاً ومستعدّاً للاستسلام، وبعد أن أخبر نفسه، قرابة عشر مرّات خلال الأشهر الثمانية أو التسعة الماضية، بأنه نال كفايته، ثمّ لم يحرّك ساكناً حيال ذلك، فإنه لم يكن سيتراجع في هذه المرّة. لقد بلغ أقصى قدرته على التّحمُّل. لا مزيد من روتشستر، لا مزيد من الصحيفة، لا مزيد من العيش بعينين مثبّتتين دائماً على العالم المظلم للحروب العبثية، والحكومات الكاذبة، وعناصر الشرطة الجواسيس، والرجال اليائسين الغاضبين المُحاصرين داخل الزنازين التي أنشأتها ولاية نيويورك. لم يعد يتعلّم أي شيء من ذلك. كان يتعلّم الدرس نفسه مراراً وتكراراً، وصار الآن يعرف القصّة عن ظهر قلب، حتّى قبل أن يجلس ليكتبها. لا مزيد من *الرهانات*، على غرار ما يُقال للمقامرين في مونت كارلو عندما توشك العجلة على الدوران مرّة أخرى. لا مزيد من الرهانات. لقد وضع أمواله كلها على الرَّقْم صفر، وخسَر، وحان الآن وقت المغادرة.

سيذهب إلى السجن برفقة جيانيللي في الصباح، وسيجري مقابلة مع آمر السجن الذي سيُخبره على الأرجح بأن كل شيء *تحت السيطرة*، وإذا ما طلب أن يُلقي نظرة على المكان، ويتحدّث ربمّا إلى سجين أو اثنين، فسيُرفَضُ طلبه بلا شكّ *لدواعٍ أمنية*. ثمّ سيكتبُ القصّة أيّاً كانت، ويسلّمها إلى بيتمان. لكنها ستكون الأخيرة. سيُخبر بيتمان بأنه فرغ من العمل،

ويُصافحه مودّعاً. بعد ذلك، سيذهب إلى مكتب ماكمانوس، ويشكره على منحه فرصة العمل في الصحيفة، وسيُصافحه ويشكر القدر الذي عرّفه عليه، لكنه لم يعد قادراً على هذا النوع من العمل، سيقول إن العمل يقتله، وإنه مرهق إلى أقصى حدّ، ثمّ سيشكُر مديره مرّة أخرى، لكونه رجلاً صالحاً، وسيخرجُ من المبنى للمرّة الأخيرة.

الساعة الخامسة. رفع سمّاعة الهاتف، واتّصل بهالي بماساتشوستس، لكن أحداً لم يُجب بعد أربع عشرة رنّة، ولا حتّى رفيقة هالي في السَّكَن، كي تخبره بأن هالي قد خرجت هذا المساء، ولن تعود قبل الحادية عشرة أو الثانية عشرة.

تنظرُ إليه هالي بعينيها الزرقاوين، بينما ينظر إليها وهي تزحف نحوه على السرير. يلتصق الجسد الأبيض الصغير المشدود لهالي إلى جسده. أخبرني عن بعض الأشياء التي تُفضِّلها، قالت له ذات مرّة، فأجابها بنكتة تورية سخيفة: *الفقمات* [ذا سيلز] في *سنترال بارك*، *والسقف* [ذا سيلينغ] في محطّة *غراند سنترال*، *والراحة في استخدام الظروف ذاتية الختم* [سِلف - سيلينغ]. سي، سي، سي، كانت تُجيب. أو لعلّها كانت تقول: *انظرْ* [سي]، *انظرْ* [سي]، *انظرْ* [سي].

أحياناً، كانت تضحك بشدّة حتّى يحمرّ وجهها.

إذا كان لا يريد العيش في روتشستر بعد الآن، فإلى أين أراد الذهاب؟ إلى ماساتشوستس في بادئ الأمر. إلى ساوث هادلي في ماساتشوستس، من أجل أن يتناقشا ويتّفقا على خطّة ما. ربمّا استئجار شقّة في مكان قريب، والعمل على ترجمة فيلون، وذلك خلال دراستها في الكلّيّة. أو أن يفعل ذلك لفترة قصيرة إلى أن يسترخي ويتعلّم كيف يصبح إنساناً من جديد، ثمّ السفر معها إلى باريس لقضاء عطلة عيد الميلاد. أو أن يتجوّل في أوروبا بمفرده، ويشاهِدَ قدر ما يستطيع خلال شهر أو اثنين أو أربعة. كلا، ليس لمدّة أربعة أشهر. سيكون ذلك طويلاً جدّاً، ولن يقوى على الاحتمال. شقّة صغيرة في إيميرست أو مدينة قريبة أخرى. قد يكون هذا حلاً جيّداً في الوقت الراهن، وبعدها يسافران معاً إلى أوروبا لبضعة أشهر عقب تخرُّجِها في حزيران. كان كل شيء ممكناً. مع اللجوء قليلاً إلى تركة جَدّته كلّما استدعت الحاجة، ستكون الأشياء كلها ممكنة هذه السنة.

الساعة السادسة. بيض مخفوق، ولحم خنزير مُدخّن، وشريحتان من الخبز المحمّص المدهون بالزبدة للعشاء - فضلاً عن أربع كؤوس من النبيذ الأحمر.

Luy qui buvoit du meilleur et plus chier

Et ne deust il avoir vaillant ung pigne

الساعة السابعة. كان جالساً بالقرب من مكتبِه، ينظرُ إلى هذين الشطرين من قصيدة الوصية لفيلون. معناهما تقريباً: مَنْ يشرب أفضل النبيذ وأغلاه/ وليس لديه ما يكفي لشراء مشط. أو: ولا يستطيع أن يتحمّل ثمن مشط. أو: ولا يملك مالاً كافياً لشراء مشط. أو: ويفتقر الدراهم ليشتري مشطاً. أو: ومفلس أكثر ممّا ينبغي ليحُضِر مشطاً. أو: وليس لديه كسرة خبز، كي ينفق على مشط.

الساعة التاسعة. اتّصل بماساتشوستس مرّة أخرى. عشرون رنّة هذه المرّة، لكنْ، لم يردّ أحد أيضاً.

لم يكن مجرّد حبّ جديد، بل نوعاً جديداً من الحبّ؛ بل طريقة جديدة لأن أن يكون بقرب إحداهنّ، وتعني طريقة جديدة لأن يكون قريباً من نفسه، طريقة أفضل لسبب ما، وماذا وكيف كانت عندما تتواجد معه؟ كيف يكون نفسه التي كانت يصبو إليها دائماً، لكنه لم يستطع يوماً أن يبلغها في الماضي؟ لا مزيد من نوبات التّأمّل الكئيبة، لا مزيد من الرحلات في مستنقعات جَلْد الذات العميقة، لا مزيد من التّنكّر للذّات، وكان ذلك نقطة ضعف، تجعله دائماً أقلّ ممّا ينبغي أن يكون عليه. *تمنحُك غينيس القوّة*، تقولُ اللافتات على جدران الحانات. منحَتهُ هالي القوّة. غينيس *مناسبة لكَ*، تقول اللافتات على جدران الحانات. لم يكن هناك شكّ بأن هالي دويل مناسبة له.

الحادية عشرة إلا ربع. ذهب فيرغسون إلى غرفة النوم، دوّر ساعته، وضبط المنبّه على الساعة السادسة صباحاً. ثمّ عاد إلى غرفة المعيشة، ورفع سمّاعة الهاتف، واتّصل بهالي مرّة أخرى.

لم يُجبْ أحد.

في الشّقّة التي تقع تحت شقّة فيرغسون مباشرة، أطفأ تشارلي فينسنت التلفاز، ومطّ ذراعيه، ونهض عن الأريكة. كان المستأجر في الطابق العلوي يأوي إلى فراشه، الفتى الوسيم الذي كان ينام مع جميلة شقراء طوال الصيف، كم كانا ولدين لطيفين ودودين! ولطالما كانا يتبادلان الكلمات الطّيّبة على الدرج أو أمام صناديق البريد، بيد أن الفتاة رحلَت الآن، وعاد الفتى لينام بمفرده من جديد، وكان هذا سيّئاً للغاية، لأنه كان يستمتعُ بالإصغاء إلى اهتزاز السرير في الطابق العلوي، وسماع نخير الفتى وتأوّهات الفتاة وتنهيداتها، كم كانت أصواتاً جميلة! كان مُرضية جدّاً لأذنيه وكل عضو آخر منه، وكان يتمنّى دائماً أن يكون في الطابق العلوي على السرير معهما، ليس بوضعه الحالي، لكنْ، بجسده القديم حينما كان نفسه شابّاً جميلاً أيضاً، السنون، السنون، كم

سنة طويلة مضت منذ ذلك الحين، وحتّى لو لم يكن قادراً على الصعود إلى الطابق العلوي، كي يكون معهما أو يتفرّج عليهما من على كرسي في زاوية غرفتهما، فقد كان الاستماع إليهما وتخيّلهما كان جيّداً بالقدر نفسه تقريباً، والآن بعد أن أضحى الفتى وحيداً، فهناك شيء جيّد بخصوص ذلك، أيضاً، كم كان فتى جميلاً بكتفيه العريضتين وعينيه العطوفتين! لو استطاع لفعل أيّ شيء، كي يحضن ذلك الفتى العاري بين ذراعيه، ويغطّي جسده بالقبل، وهكذا أطفأ تشارلي فينسنت التلفاز، وجرّ قدميه من غرفة المعيشة إلى غرفة النوم، من أجل أن يصغي إلى صرير السرير عندما يتقلّبُ الفتى على فراشه، ويهدأ للنوم. كانت الغرفة مُظلمة. خلع تشارلي فينسنت ثيابه، واستلقى على السرير، وفكَّر بالصبي بينما كان يُداعب نفسه، إلى أن قَصُرَت أنفاسه، وعمَّ الدفء جسده، وأُنجزَت المهمّة. ثمّ، وللمرّة الثالثة والخمسين منذ ذلك الصباح، أشعلَ إحدى سجائره البول مول الطويلة عديمة الفلتر، وبدأ ينفث ...



7.2

7.3

7.4

أنقذتهُ الخالة ميلدرد من الأسوأ. استخدَمت نفوذها، وأكّدت على سلطتها كرئيسة لقسم اللغة الإنكليزية، ولفّت البكرة تلو الأخرى من الشريط الأحمر، وهدّدَت بالاستقالة في حال لم يستجب المدير إلى طلباتها، وجادلَت في قضيتها خلال اجتماعين، مدّة ساعتين لكل اجتماع، مع رئيس الجامعة المُعيّن حديثاً، والمناهض للحرب، فرانسيس إف. كيلكوين، المعروف بتعاطفه ومبادئه الأخلاقية الرفيعة، وذلك من أجل أن تضمن الأستاذةُ إدلر مكاناً لفيرغسون كطالبٍ مقبول تماماً في جامعة بروكلن قبل أسبوع واحد من بداية الفصل الأوّل من سنته الدراسية الأولى.

عندما سألها فيرغسون كيف تمكّنَت إنجاز هذا العمل المدهش، أجابَت ميلدرد: أخبرتُهم الحقيقة، يا آرتشي.

والحقيقة أنه انبرى للدفاع عن صديق أسود، كان يتعرّض للتهديد من قِبَل متعصّب أبيض، وأعلنت المحكمة براءته من التُّهم الموجّهة إليه، ممّا يشير إلى أن منحة والت ويتمان في برينستون قد أُلغيَت جوراً، وأنه يستحقّ مكاناً في بروكلن، ليس فقط لأن مُعدّل درجاته الدراسية يضعه ضمن أفضل عشرة في المئة من دفعته، بل لأن إلغاء المنحة سيحرمه من مواصلة دراسته في برينستون بسبب نقص التمويل، وفي حال لم ينلْ قبولاً في جامعة أخرى قبل بداية الفصل الدراسي الأوّل، فسيخسر تأجيله الدراسي، ناهيكَ عن منحته، وسيكون عرضة للتجنيد الإلزامي. وبِعَدِّه مُناهِضاً للحرب في فيتنام، فسيرفض الالتحاق بالجيش في حال استُدعيَ للخدمة، ممّا سيُفضي على الأرجح إلى عقوبة بالسجن نتيجة رفض قوانين الخدمة الانتقائية، وبناء عليه، أليسَ من واجب جامعة بروكلن أن تُنقِذ الشباب الواعدين من مصير مظلم وعبثي كهذا؟

لم يخطر في باله يوماً أن خالته قد تتّخذ موقفاً بهذه القوّة بصدد أي شيء، على الأقلّ عندما يتعلّق الأمر به أو بأي فرد آخر من العائلة، لكنْ، في اليوم الحادي والعشرين من شهر آب، بعد أقلّ من ساعة من اتّصاله بمكتب ديويت ومعرفته بأن الرجل العظيم مسافر خارج البلاد، لجأ إلى الخالة ميلدرد نتيجة اليأس - ليس لأنه لم يكن يتوقّع منها فعل شيء من أجله، بل لأنه كان بحاجة إلى نصيحة، وفي غياب نيغل الذي كان في جزيرة متوسّطية يمحّص كِسَراً فخّارية من

الحقبة ما قبل الهلنستية، فقد كانت الوحيد التي في وسعها أن تسديه النصح. في ذلك اليوم، رفع العمّ 'دون' سمّاعة الهاتف عند الرّنّة الرابعة. كانت الخالة ميلدرد خارج المنزل تُنجز بعض المهمّات، كما قال، ولم يتوقّع عودتها قبل ساعة أخرى تقريباً، لكنْ، لم يكن في وسع فيرغسون أن ينتظر لمدّة ساعة، واكتنف الفزع وانعدام الثقة داخله بينما واصل استيعاب الكلمات من رسالة ديويت، لذا شرح الأمر برمّته للعمّ دون، والذي كان مصدوماً ومغتاظاً ومحتدّاً بما يكفي لكي يقول لفيرغيسون بأن ديويت يستحقّ السحل والتمزيق بسبب ما اقترفته يداه، لكنْ، حتّى خلال تلك اللحظات الأولى من الأزمة، عندما كان فيرغسون في حالة لا تسمح له بالتفكير بعد، كان دون يشقّ طريقه نحو حلّ، مُتسائلاً عن كيفية إيجاد ثغرة تسمحُ لفيرغسون بالدراسة في كلّيّة أخرى قبل انتهاء وقت التسجيل، ممّا يعني أنها كانت فكرته في بادئ الأمر، لكنْ، بمجرّد أن عادت الخالة ميلدرد إلى الشّقّة، وتحدّثت مع دون، فسرعان ما أصبحت فكرتها أيضاً، وعندما اتّصلَت بفيرغسون بعد خمس وأربعين دقيقة، طلبَت منه ألا يقلق، وأنها *ستُعالج الموضوع برمّته*.

اختلفَ كلّ شيء مع وجودها في صفّه. الخالة ميلدرد المزاجية، الخالة ميلدرد اللطيفة والقاسية، الشقيقة غير الودودة في الغالب لشقيقتها روز، زوجة الأب المُشجِّعة بعض الشيء، والحائرة في معظم الأحيان لنوح بن دون، الخالة العطوفة وثيقة القرب لابن شقيقتها الوحيد، والتي بدا الآن أنها تقول له بأنها تهتمُّ لأمره أكثر بكثير ممّا كان يتوقّع. أخبرَت فيرغسون كيف استطاعت الحصول على مقعد له في كلّيّة بروكلن، لكنْ، عندما سألها عن السبب الذي جعلها تتكبّد ذلك العناء كله من أجله في المقام الأوّل، قد أذهلته الضراوة في جوابها: لديّ إيمان عظيم بكَ، يا آرتشي. أؤمِنُ بمستقبلكَ، ومادام فيّ عِرْق ينبض، فلن أسمح لأيّ كان بأن يسرق ذلك المستقبل منكَ. فليَغرُب غوردون ديويت من هنا! نحنُ أهلُ الكتاب، ويجب أن يتضامن أهل الكتاب مع بعضهم البعض.

الملكة إستير. *الأمّ شُجاعة*. الأمّ جونز. الأخت كيني. الخالة ميلدرد.

أوّل وأهمُّ ما يقال عن الذهاب إلى كلّيّة بروكلن أن الدراسة كانت مجّانية. في مشهد نادر للحكمة السياسية، قرّر مُؤسِّسو نيويورك أنه يحقّ للفتية والفتيات من المناطق الإدارية الخمسة التابعة للمدينة الحصول على التعليم مجّاناً، ولم يُساعد هذا فقط على تعزيز مبادئ الديمقراطية وإثبات أن الخير الأعمّ يتحقّق عندما تتواجد عائدات ضرائب البلدية في الأيادي المناسبة، بل مَنح أيضاً عشرات الآلاف، ومئات الآلاف، والملايين على مرّ السنين، من فتية نيويورك وفتياتها الفرصة لتلقّي التعليم الذي لم يكن معظمهم قادرين على تحمّل تكاليفه، وبالنسبة إلى فيرغسون الذي لم يعد في وسعه دفع الأقساط الباهظة في برينستون، فقد كان يشكُر أولئك المؤسّسين

الذين ماتوا منذ زمن بعيد في كلّ مرّة يصعد فيها الدرجات الإسمنتية لمحطّة قطار الأنفاق في جادّة فلاتبوش، ويدخل الحرم الجامعي في ميدوود. علاوة عن ذلك، كانت كلّيّة جيّدة، بل كلّيّة ممتازة. كان الحدّ الأدنى للقبول أن يكون الطالب قد حقّق مُعدّل 87 في المئة خلال الدراسة الثانوية، بالإضافة إلى اجتياز اختبار دخول صارم، ممّا عنى أنه لم يكن في فصله طلاب بمعدّلات أقلّ من B+، وبما أن معظمهم قد حقّقوا معدّلات تتراوح ما بين 92 و96 في المئة، فقد كان فيرغسون محاطاً بأشخاص مُتّقدي الذكاء، وكان العديد منهم مُتميّزين بما يكفي، لكي يُوصَفوا بالعبقرية. كان لبرينستون نصيبها من الطلاب العباقرة كذلك، لكنْ، أيضاً نسبة معينة من الفتية المتُوارثين غير المفيدين، في حين كانت بروكلن تضمّ فتية وفتيات (لحسن الحظّ) ودون أيّ أغصان ميتة. كان الجميع من المدينة، بطبيعة الحال، وبعدد يناهز ضعف عدد طلاب برينستون، حيثُ يأتي الطلاب الجامعيون من كل جزء من البلاد، لكنْ، كان فيرغسون الآن نيويوركياً مُتعنّتاً ومناصراً شديداً للمدينة، وبقدر ما كان يتلذّذ بصحبة أصدقائه النيويوركيين في كامب بارادايس عندما كان صبياً، كان مُستمتعاً بالتواجد مع زملائه النيويوركيين النزقين المجادلين في كلّيّة بروكلن، وعلى الرغم من أن الطلاب كانوا أقلّ تنوّعاً من الناحية الجغرافية مقارنة ببرينستون، لكنهم كانوا أكثر تنوّعاً على الصعيد البشري بخليطهم الزاخر بالخلفيات العِرْقية والثقافية، بحشود من الكاثوليكيين واليهود، وعدد جيّد من الوجوه السوداء والآسيوية، وبما أن معظمَهم كانوا أحفاداً لمُهاجري جزيرة إيليس، فكان ثمّة احتمال كبير بصدد أنهم أوّل الطلاب الجامعيين على صعيد عائلاتهم. وفضلاً عن ذلك، كان الحرم الجامعي نموذجاً للتصميم المعماري السليم، بعكس ما توقّعه فيرغسون تماماً، بمساحة مريحة من ستّة وعشرين فدّاناً مقارنة بخمسمائة فدّان لبرينستون، وكانت جذّابة بالنسبة إليه بالقدر نفسه، بمبانيها الجورجية الأنيقة التي تملأ المشهدَ بدلاً من الأبراج القوطية المهيبة، والمربّعات العشبية المرصّعة بأشجار الدردار، وحديقة ببركة من الزنبق للزيارة في أوقات الراحة بين الدروس، دون مساكن للطلاب، ودون نوادٍ للأكل، ودون جنون كرة القدم. كانت طريقة مختلفة تماماً من الدراسة في الكلّيّة، حيثُ تحلُّ سياسة مناهضة الحرب محلّ الرياضة كهاجس رئيس لدى الطلاب، ولا تتركُ متطلّباتُ العمل الأكاديمي أيَّ فرص للتسلية خارج أوقات الدراسة، والأفضل من ذلك كلّه، أنه كانت لديه فرصة الذهاب إلى شقّته في الشارع التاسع والثمانين شرقي عندما يفرغ من واجباته اليومية.

كانت رحلات قطار الأنفاق من يوركفيل في مانهاتن إلى ميدوود في بروكلن، ثمّ العودة مرّة أخرى، من الاثنين إلى الخميس، طويلة جدّاً لدرجة أن فيرغسون تمكّن من دراسة معظم مقرّراته في أثناء جلوسه في القطار. لم يُسجِّل في صفّ الخالة ميلدرد عن الرواية في العصر الفيكتوري،

لأنه ظنّ أن وجوده في الغرفة سيشكّل عبئاً عليها، لكنْ، عندما عاد العمّ ′دون′ في فصل الربيع كمُحاضِرٍ زائر لإعطاء مادّة فنّ السيرة الذاتية، وكان يُدرِّس هذه المادّة لفصل واحد كل سنتين، التحقَ فيرغسون بهذا الفصل. كان ′دون′ يلقي مُحاضرة قصيرة وكثيفة في بداية كل درس، ثمّ يفتح المجال للنقاش العامّ، نوع مُشتَّت، وغريب إلى حدّ ما، مِن الأساتذة، كما افترضَ فيرغسون، لكنْ، ليس مملاً أو أخرقَ، ودائماً على مستوى التّحدّي، مَرِح وهادئ في الوقت ذاته، على غرار ما كان عليه في معظم الظروف الأخرى، ويا لها من مَجموعة كُتُبٍ تلك التي طلب منهم قراءتها خلال ذلك الفصل! بلوتارخس، وسويتونيوس، وأوغسطينوس، وفازاري، ودي مونتين، وروسو، والرفيقُ الشبِق العجيب للدكتور جونسون؛ جيمس بوزويل، الذي اعترفَ في دفتر يومياته بأنه كان يوقِف نفسه عن الكتابة في مُنتصف الجملة من أجل الخروج إلى شوارع لندن ومُمارسة الجنس قدر المستطاع، مع ثلاث عاهرات مختلفات في كل مرّة، طوال الليل، بيد أن الجزء الأكثر إثارة في ذلك الفصل بالنسبة إلى فيرغسون، أنه سيقرأ دي مونتين للمرّة الأولى أخيراً، والآن بعد أن صار على تماس مع الجُمَل الصاعقة المستعصية لذلك الرجل الفرنسي، وجدَ مُعلّماً جديداً لمرافقته في رحلاته إلى أرض الحبر.

إذاً، كان ذلك شيئاً تحوّل من سيّئ إلى جيّد. ضربة قاضية من غوردون ديويت كان من المفترض أن تقضي عليه، لكنْ بمجرّد أن بدأ فيرغسون بالسقوط، قفز عشرات الأشخاص إلى الحلبة، وأمسكوه بأياديهم قبل أن يرتطم جسده بالأرض، وكانت الخالة ميلدرد أوّل الملتقطين وأقواهم، لكنْ، أيضاً العمّ ′دون′ سريع البديهة، وواحداً تلو آخر، احتشد الآخرون جميعاً حوله عندما علِموا بالضربة؛ سيليا، ووالدته ودان، ونوح، وجيم، ونانسي، وبيلي وجوانا، ورون، وبيغ، وهاوارد، الذي تحدّث إلى نيغل في الصباح التالي بعد عودة المستشار الأكاديمي السابق لفيرغسون إلى برينستون، وأيضاً نيغل نفسه، الذي كتب إليه رسالة دافئة غير مُعتادة بعد أن أطلعَه هاوارد على *الأنباء المزعجة* بصدد المنحة، وعرضَ فيها المساعدة بأي طريقة ممكنة، مشيراً إلى أن سوزان قد تكون قادرة على تصويب شيء ما في روتجرز، وعنَت تلك الرسالة الكثير إلى فيرغسون؛ أن يتواصل نيغل معه كصديق، ويقف إلى جانبه ضدّ ديويت، وهناك أيضاً المحادثة الهاتفية الطويلة التي أجراها مع إيمي ولوثر في مونتريال، فضلاً عن التّحوّل المزعج الذي أدّى إلى انفصال هاوارد عن مونا فيلتري؛ كانت مُشاحنة كلامية بغيضة بصدد مَنْ كان مسؤولاً بينهما عن اصطحاب المجموعة إلى مطعم توم وحانته، وظلّ كلّ منهما يلوم الآخر إلى أن فقدا السيطرة على أعصابهما، ومات حبّهما الكبير كما تموتُ زهرة مريضة مع أوّل موجة صقيع، وبُعيدَ مرور أيّام قليلة على ذلك، وضع لوثر نهاية مفاجئة لعلاقته بإيمي أيضاً،

حيثُ دفعها خارج الباب، وطلبَ منها العودة إلى أميركا، وهناك، كانت أختُ فيرغسون، الدائخة الحزينة، تُخبِرُهُ بأن لوثر فعل ذلك من *أجل مصلحتها*، ورجاءً، يا آرتشي، قالت، يا عزيزي، يا أخي المجنون، لا تأتِ بأيّ تصرُّف غبي مثل السفر إلى كندا، فقط ابقَ في مكانكَ، واحبِسْ أنفاسكَ، وصلِّ لحدوث شيء جيّد، وكان هذا بالضبط ما حدث بفضل ميلدرد، *الأمّ شُجاعة*(*)، وعلى الرغم من الفوضى التي عاشَها خلال أيّام الشّكّ تلك، شعرَ فيرغسون بأنّه محبوب للغاية من قِبَل الأشخاص الذين كان يحبّهم، واتضّح له أن الفوز بمنحة والت ويتمان كان أقلّ تأثيراً على معنوياته من خسارتها.

كان العالمُ مُضطرباً. كانت الأشياء كلّها في تغيّر مستمرّ في كلّ مكان. كانت الحربُ تغلي في دمه، وكانت نيوآرك مدينة ميتة على الجانب الآخر من النهر، وأضحَت أحلام العشّاق هباءً، والآن بعد أن حصل فيرغسون على تأجيله الدراسي، عاد إلى باطن كتابه عن الطبيب نويس والأولاد الموتى من مدينة R؛ ساعتان، ابتداءً من السادسة، في كلّ صباح من الاثنين إلى الخميس، ثمّ بقدر ما يستطيع من الجمعة إلى الأحد، وذلك على الرغم من الأعباء الدراسية المتزايدة التي كان يجب أن يُنجزها بجدٍّ من أجل أن يردّ دينه لميلدرد التي ستصابُ بخيبة أمل إذا ما أهمل واجباته، وفشل بتحقيق نتيجة جيّدة. دي مونتين؛ لايبنتس؛ ليوباردي؛ الطبيب نويس. كان العالم يتهاوى، وكانت الطريقة الوحيدة كي لا يتهاوى معه أن يُبقي عقله مركّزاً على عمله - أن ينهض عن السرير كل صباح، وينكبّ على عمله، سواء أقرَّرَت الشمسُ أن تشرق في ذلك اليوم أم لا.

كانت الدراسة المجّانية نعمةً، لكنْ، لا يزال هناك عدد من المشاكل المالية التي ينبغي إيجاد حلول لها، وخلال الأسابيع الأولى من الفصل الدراسي الأوّل، عانى فيرغسون من أجل وضع خطّة لا تشمل الحصول على المساعدة من والدته وزوجها. كانت المنحة تغطّي تكاليف المسكن والمأكل، بالإضافة إلى أقساط الجامعة، ممّا كان يسمح له بتناول الطعام مجّاناً لثلاث مرّات في اليوم لخمسة أيّام في الأسبوع، وكان يمكن للأيّام الخمسة أن تكون سبعة، لولا أنه أصرّ على قضاء اليومين الآخرين في نيويورك، لكنْ، بعد انتقاله للعيش فيها، صار لزاماً عليه أن يدفع لشراء وجباته وحاجياته، ولكنه لم يعد قادراً على تحمّل هذه النفقات، ليس بعد أن دفع خمسة آلاف دولار إلى المحامي القادم من براتلبورو، ولم يبقَ في حسابه المصرفي سوى ألفي دولار. اكتشف أن بإمكانه العيش على الكفاف بقرابة أربعة آلاف دولار في السنة، والتي ستؤمِّنُ له ما يكفي من الفتات للبقاء حيّاً، بيد أن الألفين ليست أربعة آلاف، ومازال يملك

---

*) لعلّ أوستر قصدَ مسرحية لـ برتولت بريشت بعنوان (الأم شُجاعة وأبناؤها) Mother Courage and Her Children. (م)

نصف ما يحتاج إليه فقط. وبحسب ما كان متوقّعاً، عرضَ دان أن يُعوّض الفرق ببدل شهري، ووافق فيرغسون على ذلك كارهاً، لأنه لم يكن لديه أيّ خيار آخر في نهاية المطاف، لمعرفته بأن البديل الوحيد أمامه كان العمل بدوام جزئي في مكان ما (على فرض أنه سيستطيع إيجاد هكذا عمل)، وبالتالي، سيكون من المستحيل أن يواصل العمل على كتابه. وافق لأنه كان مضطرّاً للموافقة، ولمجرّد أنه كان شاكراً لـ دان تقديمه الدولارات المئتين في الشهر، فلا يتطلّبُ منه ذلك أن يشعر بالسعادة لهذه التسوية.

في أوائل شهر تشرين الثاني، وصلَت المساعدةُ عن طريق مصدرٍ مجهول، واستطاع أن يسندها بصورة مباشرة أو غير مباشرة إلى ماضيه الشخصي، لكنْ، في الوقت ذاته، لم يكن لها أي علاقة به. كان ثمّة آخرون مسؤولون عن إعطائه الأموال الذي كان بحاجتها، أموال لم يكسبها، لكنه، مع ذلك، عمل لتحقيقها دون أي نيّة للكسب، فبقدر ما لا يسع كاتب معرفة إذا كانت أعمالُه ستُنتقد بخشونة أم تُستقبَل بحفاوة، فإنه لم يكن يدري ما إذا كانت الساعات التي أمضاها وراء مكتبه ستفضي إلى نتيجة ما أم لا. وطوال الوقت، افترض فيرغسون أنها لن تُفضي إلى شيء، وبناءً على ذلك، لم ينطق الكلمتين *كتابة* و*مال* في جملة واحدة قطّ، ظنّاً منه أنهم وحدهم الكتّاب عديمو المبادئ والفاشلون في غراب ستريت مَنْ يحلم بالمال في أثناء الكتابة، ومُعتقداً أنه ينبغي أن يأتي المال دائماً من مصادر أخرى، فيُلبّي دافعه الذي لا يُقاوم في ملء المستطيلات البيضاء سطراً بعد آخر بعلامات سوداء مائلة، لكنْ، في سنّ العشرين، بصورة غير معقولة، تعلّمَ فيرغسون أن *دائماً* لا تعني *دائماً*، بل في *معظم الأوقات* فقط، وفي تلك الأوقات النادرة، عندما يُثبَت خطأ التّوقّعات الكئيبة لـ *دائماً*، تكون الاستجابةُ الوحيدة أن يشكرَ الآلهة على إحسانها العشوائي، ثمّ يعود إلى التّوقّعات الكئيبة لـ *دائماً*، حتّى لو حفرَ اللقاء الأوّل مع مبدأ في *معظم الأوقات* داخل العظام بقوّة المباركة المقدّسة.

أصدرَت *تومولت للكُتُب*؛ وهي دار النشر القانونية التي أسّسها رون ولويس وآن خلال الربيع، دفعتها الأولى من المنشورات في اليوم الرابع من شهر تشرين الثاني: مجموعتان شِعْريتان (واحدة للويس، وأخرى لـ آن)، وترجمات رون لبيير ريفيردي، ورواية بيلي الملحمية، *رؤوس محطّمة*، في ثلاثمائة واثنتين وسبعين صفحة. أما مَلاكُ المشروع، طليقة الزوج الأوّل لوالدة آن، فكانت سيّدة عاطفية في منتصف الأربعينيات من عمرها، تُدعى تريكسي دافنبورت، وقد نظّمَت حفلة كبيرة في منزلها ذي الطابقين في جادّة ليكسينغتون للاحتفال بالمناسبة، ودُعيَ فيرغسون، فضلاً عن معظم معارفه، للحضور في ليلة السبت. لم يشعر يوماً بالارتياح بين الحشود، إذ يُصيبُه تطاحُن الكثير من الأجساد المحشورة في مساحات مغلقة بالدوار والبكم، لكنْ، كانت تلك الليلة مختلفة

لسبب ما، ربّما لأنه كان سعيداً جداً لبيلي بعد السنوات التي أمضاها في تأليف كتابِه، أو ربّما لأنه وجد متعة في النظر إلى الفقراء والبائسين من شعراء ورسّامي وسط المدينة يختلطون بالشخصيات البارزة الأنيقة من الشطر الشرقي، لكنْ، سواء أكان لذلك لسبب أم لآخر أو للاثنين معاً، فقد سُرَّ بالتواجد هناك تلك الليلة، واقفاً إلى جوار سيليا الجميلة، والرهيبة إلى حدّ ما، والتي لم تكن شخصية تُفضّل الاختلاط أيضاً، وعندما التفتَ فيرغسون ومسحَ تفاصيل ذلك المشهد المكتظّ الصاخب، رأى جون آشبري وحيداً في زاوية يُدخّن سيجارة جيتان، وأليكس كاتز يرشفُ من كأس نبيذ أبيض، وهاري ماثيوز يصافحُ صهباء فارعة، ترتدي فستاناً أزرق، ونورمان بلوم يضحكُ بينما يمازح أحدهم بحركة مصارعة زائفة، وكان هناك نوح الأنيق بشَعْره المجعّد، يقف بجوار فيكي ترمين الشبقة مجعّدة الشَّعْر، وكان هناك هاوارد يتحدّث إلى إيمي شنايدرمان التي جاءت إلى نيويورك لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، وبعد عشر دقائق من وصول فيرغسون، توجّه رون بيرسون نحوه، وبعد لحظات، وضع رون ذراعه على كتف فيرغسون، واصطحبه إلى الغرفة، لأنه *أراد التّحدّث معه بخصوص أمر ما*.

صعدا إلى الطابق العلوي، وسارا إلى آخر الممرّ، ثمّ استدارا يساراً إلى ممرّ آخر، ودخلا إلى غرفة فارغة، تحتوي على بضعة آلاف كتاب، وستّ أو سبع لوحات معلّقة على الجدران. اتّضح أن هذا الأمر كان عرضاً تجارياً، في حال جاز وصف استثمارٍ على غرار تومولت للكُتُب بالتجاري. وبحسب رون، فقد صوّتَ المسؤولون الثلاثة عن إدارة الدار على إدراج اسم فيرغسون ضمن لائحة السنة المقبلة، وذلك من خلال جمع كُتُبه الثلاثة التي صدرَت عن دار غيزمو، وطباعتها في كتاب واحد. ووفقاً لحساباتهم، سيتراوح عدد الصفحات ما بين مئتين وخمسين صفحة ومئتين وخمساً وسبعين، وسيكون جاهزاً في وقت ما بين ثمانية أشهر إلى اثني عشر شهراً. فما رأيه بذلك؟

لا أعلم، قال فيرغسون. هل تظنّ أن تلك الكُتُب جيّدة بما فيه الكفاية؟

ما كنّا لنقدِّم العرض لو كنّا نظنّ أنها سيّئة، قال رون. بالطبع جيّدة بما فيه الكفاية.

وماذا عن بيلي؟ أليس من المفروض أن يوافق؟

لقد وافق بالفعل. بيلي وراء هذا كله. إنه معنا الآن، ويريدُكَ أن تكون معنا، أيضاً.

يا له من رجل! *أصارعُ أعدائي، وأطلق النار على الرجال الخانعين والمشعوذين ببندقيتي القصيرة المؤتمنة*. لم يسبقْ لأحد أن كتب جملة أكثر إنعاشاً من هذه.

ينبغي أيضاً أن أشير إلى المال.

أيّ مال؟

نحنُ نحاول أن نتصرّف كناشرين حقيقيين، يا آرتشي.

لم أفهم.

عقد، دفعة مُقدّمة، حقوق نشر. من المؤكّد أنكَ سمعتَ عن هذه الأشياء.

على نحو مُبهم. في عالمٍ آخر لا أعيشُ فيه.

ثلاثة كُتُب في كتاب واحد، في طبعة من ثلاثة آلاف نسخة. ونظنّ بأن دفعة مقدّمة من ألفي دولار ستكون لطيفة كبداية.

لا تمزحْ، يا رون. سيُنقذني مبلغ ألفي دولار. لا مزيد من التّسوّل في زوايا الشوارع، لا مزيد من الصدقات من أشخاص يعيشون على الكفاف، لا مزيد من الكدح في منتصف الليل. من فضلكَ، أخبرني بأنكَ لا تسخر مني.

ابتسم رون ابتسامة صغيرة، وجلس على كرسي. يقتضي الإجراء المعتاد بأن تحصل على نصف المبلغ حين توقيع العقد، تابع الحديث، والنصف الآخر حين نشر الكتاب، لكنْ، إذا كنتَ بحاجة إلى المبلغ كاملاً مُقدّماً، فأنا واثق أنه يمكن تدبّر ذلك.

كيف لكَ أن تكون واثقاً؟

لأنّ، قال رون وأشار إلى لوحة لموندريان على الجدار المقابل، بمقدور تريكسي أن تفعل ما تشاء.

أجل، قال فيرغسون بينما التفتَ ونظر إلى اللوحة، أعتقدُ أنها تستطيع ذلك.

ثمّة شيء أخير للنقاش. عنوان، عنوان شامل للكُتُب الثلاثة. ما من داعٍ للاستعجال، لكنْ، اقترحَت آن عنواناً خلال الاجتماع، واعتقدنا جميعاً أنه هزلي جدّاً. هزلي لأنكَ لا تزال صغيراً وحديثاً جدّاً في هذا العالم إلى حدّ صادم، لدرجة أننا نسألُ أنفسنا أحياناً عمّا إذا كنتَ ماتزال ترتدي الحفّاضات.

في الليل فقط، لكنني لم أعد بحاجة إليها خلال ساعات النهار.

صار *السّيّد ذو اللباس التحتي المتّسخ* يتجوّل في الأرجاء بملابس داخلية نظيفة الآن.

معظم الوقت، على أي حال. وماذا اقترحَت آن؟

مُختارات.

أوه! أجل، عنوان هزلي جدّاً بالفعل، لكنْ، أيضاً ... ما الكلمة التي أبحثُ عنها؟ ... جنائزي

قليلاً. كما لو أنني مُصبَّر، وعلى وشك الانطلاق في رحلة باتّجاه واحد في الزمن الماضي. أعتقدُ أنني أفضّلُ شيئاً أكثر تفاؤلاً.

إنّهُ كتابُكَ. أنتَ مَنْ يقرّر.

ماذا عن *استهلالات*؟

على غرار الأعمال الأولى لميلتون؟

صحيح. "مؤلَّف أدبي ذو طبيعة تمهيدية أو تحضيرية".

نحنُ نعرف معنى الكلمة، لكنْ، هل يعرفها الآخرون؟

إن لم يعرفوها، فبإمكانهم البحث عنها.

أزاح رون نظّارتَه، وفرك العدسات بمنديل، ثمّ ارتداها مرّة أخرى. وبعد لحظات، هزّ كتفيه، وقال: أنا معكَ، يا آرتشي. دعْهم يبحثون عنها.

عاد فيرغسون إلى الحفلة مرّة أخرى، وكان يشعر بالذهول وانعدام الوزن، كما لو أن رأسه لم يعد موصولاً بجسده. وعندما حاول أن يخبر سيليا بالخبر السّارّ، كان لغط الأصوات التي تدور حولهما شديداً للغاية، لدرجة أنها لم تستطع سماع أي كلمة ممّا قاله لها. لا بأس، قال فيرغسون، وشدّ على يدها، وطبع قبلة على عنقها، سأخبركِ لاحقاً. ثمّ نظر إلى حشد من الناس الواقفين في الغرفة، ورأى أن هاوارد وإيمي ما زالا يتحدّثان معاً، كانا واقفين في ركن هادئ هذه المرّة، كل منهما مائل باتّجاه الآخر، ومستغرقَين تماماً في محادثتهما، وعندما كان يشاهد أخته غير الشقيقة وزميله السابق في السَّكَن ينظران إلى بعضهما، أدركَ فيرغسون للمرّة الأولى بأنه يمكن أن يتطوّر شيء ما بينهما، فبعد رحيل مونا ولوثر إلى الأبد بلا شكّ، من المنطقي أن يستعرض كلّ من إيمي وهاوارد ما لديهما من خيارات، وكم سيكون طريفاً أن يُضيفَ هاوارد نفسه إلى القبيلة المختلطة المتشابكة من عشائر وذرّيّات مختلفة، ويصبح عضواً فخرياً في فريق شنايدرمان – إدلر – فيرغسون - ماركس للمسرح الهزلي الجوّال، وبالتالي، سيتحوّل صديقه إلى نسيب غير مباشر، وسيكون ذلك شرفاً عظيماً، قال فيرغسون لنفسه، ورحّب بهاوارد إلى الدائرة الداخلية، وأسداه نصيحة مفادُها الانحناء عندما تبدأ إيمي برمي بسكويت نيكو نحو رأسه، إيمي شنايدرمان الاستثنائية، الفتاة التي كان يرغب بها بشدّة، لدرجة أنه مازال يتألّم لمجرّد التفكير فيما كان يمكن أن يحدث، لكنه لم يحدث قطّ.

كان لديه مال يكفيه لسنة كاملة، وخلال الأشهر الخمسة الأولى من تلك السنة، استطاع فيرغسون

التماسُك من خلال الالتزام بخطّته. لم يكن مهتمّاً الآن إلا بأربعة أشياء فقط: العمل على كِتابه، وحُبّ سيليا، وحُبّ أصدقائه، والذهاب إلى كلّيّة بروكلن. لا يعني هذا أنه لم يعد يبالي بما يحدث في العالم، لكنْ، لم يعد العالم يتهاوى فحسب، كان العالم يشتعل، وكان السؤال: ماذا ستفعل، أو لن تفعل، عندما يحترقُ العالم، وليست لديكَ الأدوات التي تُطفِئ النيران، عندما تكون النار في داخلكَ بقدر ما هي حولكَ، وبغضّ النظر عن ما ستفعله، أو لن تفعله، فإن تصرّفاتكَ لن تُغيّر شيئاً؟ التزِمْ بالخطّة من خلال العمل على الكتاب. كان ذلك الجواب الوحيد الذي استطاع فيرغسون الإتيان به. اعمَل على كتابِكَ عبر استبدال النار الحقيقية أخرى خيالية، وتمَنَّ أن يُضاف المجهود إلى شيء أكبر من اللا شيء. وبالنسبة إلى هجوم التيت في جنوب فيتنام، وبالنسبة إلى تخلّي ليندون جونسون عن الحكم، وبالنسبة إلى اغتيال مارتن لوثر كينغ: راقبْ هذه الأحداث بعناية قدر المستطاع، تشرّبها عميقاً قدر المستطاع، لكنْ، بخلاف ذلك، لا تفعلْ شيئاً. ما كان ليقاتِلَ من خلف المتاريس، لكنه سيهلّل لأولئك الذين يفعلون، ثمّ سيرجع إلى غرفته، ويعمل على كتابه.

كان يعلم مدى الهشاشة في موقفه؛ مدى عنجهيته؛ مدى أنانيته؛ الخلل بصدد *الفنّ فوق كل شيء آخر* في تفكيره، لكنْ، إن لم يتمسّك بحجّته (والتي على الأرجح لم تكن حجّة بقدر ما كانت استجابة غريزية)، فسيستسلم للحجّة المضادّة التي تفترضُ وجود عالم، لم تعد الكُتُب ضرورية فيه، وأيّ زمن سيكون أهمّ لتأليف كتاب أكثر من سنة يحترق فيها العالم - وأنتَ تحترقُ معه؟

ثمّ وقعت الكارثة الأولى من أصل الكارثتين اللتين سحقتاه في ذلك الربيع.

في الساعة التاسعة من مساء اليوم السادس من نيسان، بعد يومين من مقتل مارتن لوثر كينغ، عندما كانت الحرائق الحقيقية مُتّقدة في نصف مُدُن أميركا، رنّ الهاتف في شقّة فيرغسون في الشارع التاسع والثمانين شرقي. أرادَ شخصُ يُدعى ألِن بلومنثال التّحدّث إلى آرتشي فيرغسون، هل أتحدثُّ إلى آرتشي فيرغسون؟ أجل، قال فيرغسون مُحاولاً أن يتذكّر أين سمع اسم ألِن بلومنثال، والذي بدا اسماً مألوفاً من رُكن قصيّ ما في ذاكرته ... بلومنثال ... بلومنثال ... ثمّ جاءت هزّة التمييز أخيراً: ألِن بلومنثال؛ ابن إثيل بلومنثال، السّيّدة التي كانت والده مُتزوّجاً بها خلال السنوات الثلاث الماضية، الأخ غير الشقيق المجهول لفيرغسون، كان في السادسة عشرة في وقت الزفاف، وبالتالي، صار في التاسعة عشرة من عمره الآن، أصغر من فيرغسون بسنتين - بعمر سيليا.

أنتَ تعرفُ مَنْ أنا، أليس كذلك؟ سألَ بلومنثال.

إذا كنتَ ألِن بلومنثال نفسه، قال فيرغسون، فأنتَ إذاً أخي. (*لحظةُ صمتٍ حتّى يتضاءل حجم الكلمة*). أهلاً، يا أخي.

لم يضحك بلومنثال على نكتة فيرغسون الدمثة، كما أنه لم يضيّع أي وقت قبل الدخول في صلب الحديث. في الساعة السابعة من صباح ذلك اليوم، عندما كان يلعب جولة من التنس قبل العمل في ملعب مغلق، في مركز ساوث ماونتِن للتنس، مع صديق طفولته سام براونشتاين، انهارَ والد فيرغسون، ومات بنوبة قلبية. ستُعقَد مراسم الجنازة بعد يومين في كنيس بناي أبراهام في نيوآرك، وكان بلومنثال يتّصل بالنيابة عن والدته، كي يدعو فيرغسون للمشاركة في الصلاة التي سيتولاها الحاخام برينز، ثمّ مرافقة العائلة إلى المقبرة في وودبريدج من أجل الدفن، وبعد ذلك (في حال كان فيرغسون قادراً) بإمكانه الانضمام إليهما في منزل ميبلوود. بماذا يجيبُ بلومنثال والدتَه؟ نعم أو لا؟

نعم، قال فيرغسون، سأحضر بالتأكيد.

كان ستانلي شخصاً في غاية الروعة، قال الأخ المجهول، وبدأ صوته يرتعش إلى طبقة أخرى. لستُ قادراً على تصديق أن هذا قد حدث.

سمع فيرغسون الهواءَ يعلقُ في حلق بلومنثال، وفجأة، كان الفتى ينتحب ... مع ذلك، لم يبكِ فيرغسون. وبعد فترة طويلة من انتهاء المكالمة، لم يشعر بأي شيء عدا بثِقَل هائل يُرهق رأسه؛ حجر بوزن عشرة أطنان يشلّ حركته حتّى كاحليه وباطن قدميه، ثمّ شيئاً فشيئاً، صار الثقل باطنياً، وحلّ محلّه رعب، رعبٌ يدبُّ في جسده، ويطنّ في أورِدَته، وبعد الرعب، ظلام يجتاحه، ظلام في داخله وحوله، وصوت في رأسه يقول له بأن العالم لم يعد حقيقياً.

أربعٌ وخمسون. ودون أن يَلمحه حتّى مرّة واحدة منذ ذلك الإعلان التلفزيوني العجيب قبل ثمانية عشر شهراً. أخفَضُ الأسعار، أعلى المعنويات. تخيّل: الموت في الرابعة والخمسين من العمر.

لم يحدث حتّى مرّة واحدة على الإطلاق، خلال سنوات معاناتهما وانقطاعهما كلّها، أن تمنّى فيرغسون حدوث، أو حتّى تخيّل حدوث شيء من هذا القبيل. كان من المُفترض أن يحيا والدُهُ، قويُّ البنية سليم البدن، غير المدخّن وغير الكحولي، حياةً مديدة، وعلى نحوٍ أو آخر، في وقتٍ ما خلال العقود اللاحقة، سيجدُ الاثنان طريقة لإزالة الحقد الذي نشأ بينهما، لكنْ، أن هذا الافتراض كان مبنياً على اليقين بأنه ثمّة سنوات طويلة لا تزال أمامها، والآن لم تعد هناك أيّة سنوات، لم يعد هناك حتّى يوم أو ساعة أو أصغر جزء من ثانية.

ثلاث سنوات من الصمت المتواصل. كانت تلك أسوأ ما في الأمر الآن، تلك السنوات الثلاث وضياع الفرصة لإلغاء ذلك الصمت، دون كلمات وداع على فراش الموت، دون مرض تحذيري، كي يُجهّزه للكارثة، وكم كان غريباً أنه منذ توقيع عقد كتابه، صار فيرغسون يفكّر مرّة أخرى أكثر وأكثر بوالده! (بسبب المال، مثلما كان يعتقد، كإثبات على أنه ثمّة أشخاص في العالم مُستعدّون لإعطائه المال مقابل العمل غير المهمّ في كتابة القصص المُتخيّلة)، وفي الشهر الماضي أو نحو ذلك، فكّرَ فيرغسون ملياً بإرسال نسخة من كتابه *استهلالات* إلى والده حين صدوره، وذلك كي يُثبت أنه يتدبّر أموره، ويحقّق تقدّماً وفقَ شُروطه، وأيضاً (ربّما) كمبادرة تمهيدية، قد تفضي في النهاية إلى مصالحة مستقبلية، وتساءلَ عمّا إذا كان والده سيستجيب أم لا؛ سيُمزّق الكتابَ أم سيجلس ويكتب إليه رسالة، وفي حال استجابَ، فسيردُّ على رسالته، ويرتّبا موعداً للقاء في مكان ما لتسوية الأمور نهائياً، وعلى نحوٍ حاسم؛ أن يكونا صادقين وصريحين مع بعضهما للمرّة الأولى، ولا شكّ أنهما سيصرخان ويلعنان بعضهما في معظم اللقاء، وكلّما تخيّل فيرغسون ذلك المشهد، كان ينتهي عموماً بعراك دامٍ بالأيدي، يضربُ فيه الاثنان بعضهما إلى أن يُنهكا، ولا يعود بمقدورهما أن يرفعا ذراعيهما. كان من الممكن أيضاً ألا يُرسِلَ الكتاب في نهاية الأمر، لكنه كان يفكّر في ذلك على الأقلّ، ومن المؤكّد أن هذا كان يعني شيئاً، ومن المؤكّد أنه كان إشارة على وجود أمل، إذ ستكون اللكمات أفضل من الانقطاع المطلق على مدى السنوات الثلاث الماضية.

الذهاب إلى الكنيس. الذهاب إلى المقبرة. الذهاب إلى المنزل في ميبلوود. العبثية واللا جدوى في ذلك كله: الالتقاء بإيثل وأولادها للمرّة الأولى، واكتشافُ أنهم كانوا أشخاصاً حقيقيين بذراعين ورجلين ووجه ويدين لكل منهم، الأرملةُ الذاهلة التي تفعل ما بوسعها للبقاء صامدة خلال المصيبة، لم تكن المرأة الباردة من صورة حفل الزفاف في ستار - ليدجر، وإنما سيّدة بسيطة رزينة وقعَت في غرام والده، وتزوّجته، وشبه مؤكّد أنها كانت زوجة حليمة معطاء، وربّما زوجة أفضل بصورة أو أخرى من زوجته المستقلّة النشيطة الأولى، روز، وبعد أن قبّلَتهُ أرملة أبيه على وجنته، صافحَ ألِن وستيفاني، اللذين بدا واضحاً أنهما كان يحبّان ستانلي أكثر ممّا كان يحبّه ابنه البيولوجي، كان ألِن على وشك الانتهاء من سنته الدراسية الأولى في روتجرز، وينوي التّخصّص في الاقتصاد، ولا بدّ أن هذا كان مُفرحاً لوالده؛ فتى عاقل يصبّ تركيزه على العالم الحقيقي، على عكس ولده الحقيقي المخيّب للآمال، والذي يسكن في معظم الأوقات على سطح القمر، وبالإضافة إلى عائلة والده الثانية، وجدَ فيرغسون نفسه بصحبة أفرادٍ من عائلته الأولى أيضاً؛ العمّات والأعمام من كاليفورنيا، جون وميلي، وأرنولد ولو، والذين لم يُشاهَدوا منذ الأيّام الأولى من طفولة فيرغسون، وأما أكثر ما صدمَهُ بشأن أولئك الأقارب التائهين منذ زمن

بعيد، فقد كانت الحقيقة المثيرة للفضول التي تتعلّق بالأشقّاء، فعلى الرغم من أنهم لم يكونوا مُتشابهين إلى حدّ بعيد، إلا أن كلاً منهم يحمل على نحوٍ ما شبهاً كبيراً بوالده.

لسبب ما، ظلّ فيرغسون في المنزل لفترة أطول ممّا ينبغي، قلعة الصمت القديمة، حيثُ كان سجيناً لسبع سنوات، وكتبَ القصّة عن الأحذية، وفي معظم الوقت، كان واقفاً بمفرده في إحدى زوايا غرفة المعيشة، ودون أن يتحدّث كثيراً إلى عشرات الغرباء الذين كانوا هناك، ودون رغبة بالبقاء وحيداً أو بمغادرة المكان، تقبّلَ التعازي من رجال ونساء كُثُر بعد أن قِيل لهم بأنه كان ابن ستانلي، وأومأ شاكراً، وصافح العديدين، لكنه كان لا يزال مشدوهاً أكثر من أن يفعل أيّ شيء سوى الاتّفاق معهم بصدد كم كانوا متفاجئين ومذهولين بوفاة والده الصادمة المباغتة. غادرَ أعمامه وعمّاته في وقت مبكّر، وتوجّه سام براونشتاين المنهك المنتحب، وزوجته بيغي، نحو الباب، وأوشك معظم الضيوف الآخرين على الرحيل، لم يكن فيرغسون مستعدّاً بعدُ للاتّصال بـ 'دان' كي يُقلّه (كان يخطّط لقضاء الليلة في المنزل في وودهول كريسنت)، لأن السبب الذي جعله يبقى لفترة طويلة جدّاً معرفته أنه سيحظى بفرصة للحديث مع إيثل على انفراد، وعندما مشت باتّجاهه بعد بضع دقائق، وطلبَت منه الذهاب معها إلى مكان آخر، كي يتحدّثا على انفراد، شعر بالارتياح لمعرفة أنها كانت تفكّر بمثل ما كان يفكّر أيضاً.

كانت محادثة حزينة؛ إحدى أتعس المحادثات في تاريخ حياته حتّى الآن، جلسَ مع زوجة أبيه المجهولة في ركن مشاهدة التلفزيون في القبو المرمّم حديثاً، وتشاركا ما كانا يعرفانه عن الشخصية الغامضة لستانلي فيرغسون، حيثُ اعترفَت إيثل بأنه كان بعيد المنال بالنسبة إليها، وكم شعر فيرغسون بالأسف لتلك المرأة وهو يشاهدها تذرف دموعاً غزيرة، ثمّ تتمالك أعصابها لبرهة، ثمّ تنهارُ مجدّداً. صدمةُ الفاجعة، ظلّت تقول، صدمةُ وفاة رجل في الرابعة والخمسين من عمره، ثاني زوج تدفنه خلال السنوات التسع الماضية، إيثل بلومبيرغ، إيثل بلومنثال، إيثل فيرغسون؛ مُدرِّسة للصّفّ السادس على مدى عقدين من الزمن في المدارس العامّة في ليفينغستون، وأمّ لألِن وستيفاني، وأجل، قالت، كان منطقياً تماماً أن يعشقا ستانلي، لأنه كان طيّباً على نحو مفرط معهما، وبعد دراسة معمّقة لماهية ستانلي فيرغسون، توصّلَت إلى نتيجة مفادها أنه كان كريماً وعطوفاً مع الغرباء، لكنْ، عصياً وغامضاً مع الأشخاص الذين يُفترض أن يكونوا الأقرب بالنسبة إليه، زوجته وأولاده، وفي هذه الحالة، كان ولدَه الوحيد، آرتشي، بما أن ألِن وستيفاني لم يكونا سوى غريبَين غير وثيقي القرابة بالنسبة إليه؛ ولدان بمثابة ابن وبنت لابن عمّ من الدرجة الثالثة، أو للرجل الذي يغسل سيّارته، فصار أسهل بالنسبة إليه أن يكون لطيفاً

وكريماً معهما، لكنْ، ماذا عنكَ أنتَ، يا آرتشي؟ سألَت إيثل. ولماذا تراكمَ هذا السخط كله بينكما على مرّ السنين؛ الكثير جداً من المرارة، لدرجة أن ستانلي لم يسمح لي بلقائكَ، ومنعكَ من حضور حفل زفافنا، على الرغم من أنه ظلّ يقول بأنه *ليس لديه أي شيء ضدّكَ* - بحسب كلماته - وأنه *مُرتاح لإنهاء الأمر*.

أرادَ فيرغسون أن يشرح لها، لكنه كان يدرك مدى صعوبة الخوض في التفاصيل الألف الدقيقة لتلك *المعاناة المُظلمة الطويلة* التي امتدّت طوال جزء كبير من حياته، لذا اختصرَ ذلك بعبارة بسيطة ومفهومة واحدة:

انتظرتُ أن يتواصلَ معي، وانتظرَ أن أتواصلَ معه، وقبل أن يستعدّ أيّ منّا للتزحزح، نفد الوقت.

أحمقان عنيدان، قالت إيثل.

بالضبط. أحمقان محبوسان في عنادهما.

ليس بمقدورنا أن نُغيّر ما حدث، يا آرتشي. انتهى الأمر الآن، وكل ما بوسعي قوله هو أنني أتمنّى ألا تستمرّ بتعذيب نفسكَ بهذا الأمر أكثر من ذلك. كان والدكَ رجلاً غريباً، لكنه لم يكن قاسياً أو انتقامياً، وعلى الرغم من أنه صعَّبَ الأمور عليكَ، إلا أنني أؤمن بأنه كان في صفّكَ.

كيف لكِ أن تعرفي ذلك؟

لأنه لم يحرمكَ من وصيته. وعلى حدّ علمي، كان ينبغي أن يكون المبلغ أكبر بكثير، لكنْ، وفقاً لما أخبرني به والدكَ، فأنتَ لستَ مهتماً بأن تصير شريكاً مالكاً لسلسلة من سبعة متاجر لبيع الأجهزة المنزلية. هل هذا صحيح؟

إطلاقاً.

مازلتُ مُقتنعة بأنه كان ينبغي أن يترك لكَ ما هو أكثر بكثير، بيد أن مبلغ مئة ألف دولار ليس سيّئاً إلى هذا الحدّ، أليس كذلك؟

لم يجد فيرغسون ما يقوله، لذا ظلّ جالساً في كرسيه، ولم ينبس ببنت شفة، مُجيباً على سؤال إيثل بهزّة رأس، بمعنى أجل، مبلغ مئة ألف دولار ليس سيّئاً إلى هذا الحدّ، على الرغم من أنه لم يكن واثقاً في ذلك الوقت بصدد ما كان يريد قبول ذلك المال أم لا. لم يبقَ ما يُقال، لذا عادت إيثل وفيرغسون إلى الطابق العلوي، حيثُ اتّصل بزوج والدته، وأخبره بأنه جاهز للمغادرة. عندما ظهرَت سيّارة دان أمام المنزل بعد خمس عشرة دقيقة، صافح فيرغسون ألِن وستيفاني، وودّعهما، وبينما رافقته إيثل إلى الباب، أخبرَتْهُ بأن يتوقّع مُكالمة هاتفية من المحامي كامينسكي في غضون أسبوع أو اثنين بخصوص ميراثه، ثمّ عانقا بعضهما عناقَ وداع شديد من

التضامن والمودّة، ووعد كل منهما الآخر بأن يبقى على اتّصال من الآن فصاعداً، على الرغم من أنهما كانا يعرفان أن هذا لن يحدث أبداً.

في السّيّارة، أشعلَ فيرغسون سيجارته الرابعة عشرة لذلك اليوم، وفتح النافذة قليلاً، والتفت إلى دان. *كيف حال والدته*؟ كان هذا أوّل سؤال له في أثناء عودتهما إلى وودهول كريسنت، السؤالُ الغريب، لكنْ، الضروري، عن الحالة الذهنية لوالدته بعد معرفتها بأن زوجها السابق، وشريكها لثماني عشرة سنة، ووالد ابنِها، قد غادر العالم بغتةً، وبغضّ النظر عن طلاقهما الذي ساده الغضب، والصمت المتواصل الذي استمرّ بينهما منذ الطلاق، لا بدّ أن ما حدث كان هزّة عنيفة بالنسبة إليها، بقدر ما كان بالنسبة إليه.

هزّة عنيفة بالفعل، أجاب دان. هذا ما يُفسِّر الدموع، باعتقادي، والذهول، والأسى. لكنْ، كان ذلك قبل يومين، وقد تصالحَت الآن نوعاً ما مع الأمر. أنتَ تدري، يا آرتشي. عندما يموت شخص ما، فإنكَ تبدأ بالشعور بأشياء مختلفة بشأنه، بصرف النظر عن المتاعب التي ربّما حدثت في الماضي. إذاً، تقولُ بأنها على ما يرام.

لا تقلقْ. قبل أن أغادر، طلبَت مني أن أسألَكَ عمّا إذا عرفتَ أي شيء بخصوص وصية والدكَ. عاد دماغها للعمل مُجدّداً، ممّا يعني أن الدموع انتهت. *(أبعدَ عينيه عن الطريق لبرهة، كي ينظرَ إلى فيرغسون)*. إنها قلقة عليكَ أكثر من قلقها على نفسها. وأنا كذلك، بطبيعة الحال.

وبدلاً من الحديث عن الشلل والارتباك في دماغه، أخبرَ فيرغسون دان عن المئة ألف دولار. كان يحسَبُ أن مبلغاً من ستّة أرقام سيُثير إعجابه، لكنْ، بدا أن دان شنايدرمان، المسترخي والمستهتر عادةً، غير مرتاح على نحوٍ واضح. بالنسبة إلى رجل بثروة ستانلي فيرغسون، قال، فإن الحدّ الأدنى مئة ألف دولار، وأي مبلغ أقلّ من هذا سيكون *شنيعاً*.

ومع ذلك، ردّ فيرغسون مُحتجّاً، فهو مبلغ ضخم جدّاً من المال.

أجل، أجاب دان موافقاً، إنه جبل حقيقي.

بعد ذلك، أوضحَ فيرغسون أنه لم يتّخذ قراراً بعد حيال ذلك المال؛ أن يقبّله أو يتخلّى عنه، وريثما يُقلِّب الأمر في رأسه، فإنه يريد من دان ووالدته إبقاء ذلك المال بحوزتهما، وإذا شعرا في أي وقت بأنهما بحاجة إلى استخدام بعضه لنفسيهما، فلهما حرّيّة التّصرّف مثلما يشاءان، وبمباركته.

لا تكن أحمقَ، قال دان. هذا المال لكَ، يا آرتشي. ضعهُ في حسابكَ، وأنفِقهُ على نفسكَ - كيفما تشاء. لقد انتهت حربكَ مع والدكَ، وليس عليكَ أن تواصل القتال بعد موته.

قد تكون على حقّ. لكنْ، يجب أن أتّخذ هذا القرار بنفسي، وأنا لم أتّخذه بعد. في هذه الأثناء، ستحصلُ أنتَ ووالدتي على المال، كي تُبقياه في الحفظ والصون.

حسناً، أعطِنا المال. وعندما نحصلُ عليه، فإن أوّل ما سأفعله سيكون إعطاءكَ شيكاً بمبلغ خمسة آلاف دولار.

لماذا خمسة آلاف؟

لأن هذا ما ستحتاج إليه خلال الصيف والسنة الأخيرة من دراستكَ في الكلّيّة. في العادة، كان هذا الرَّقْم أربعة آلاف، لكنه صار الآن خمسة. لقد سمعتَ بالتّضخّم الاقتصادي، أليس كذلك؟ لا تقتلُ الحربُ البشرَ فحسب، بل شرعَت بقتل الاقتصاد أيضاً.

لكنْ، في حال قرّرتُ ألا أحتفظَ بالمال، فلن يكون المبلغ مئة ألف، بل خمسة وتسعين ألفاً.

ليس بعد سنة. في هذه الأيّام، تعطي المصارف فائدة بمقدار ستّة في المئة. وبحلول تخرّجكَ من الكلّيّة، ستصير الخمسة والتسعون ألفاً مئة ألف من جديد. هذا ما نُسمّيه *بالمال غير المرئي*.

لم أدرِ من قبل أنكَ مُدبِّر مُكائد بارع إلى هذا الحدّ.

لستُ كذلك. أنتَ مُدبِّر المكائد، يا آرتشي، لكنْ، ما لم أضع بعض الخطط بنفسي، فلن أكون قادراً على مجاراتكَ.

أما الكارثة الثانية في ذلك الربيع، فكانت خسارة سيليا.

السبب الأوّل: بحلول الوقت الذي أخرجَت فيه الخالةُ ميلدرد فيرغسون من المنزل المحترق، وعثرت له على ملجأ جديد في كلّيّة بروكلن، كانت قد مرّت سنةٌ منذ أن عانق سيليا، وغامرا بقبلتهما الأولى. أعقبَ حبُّ القبلةَ، حبٌّ كبير قَزَّمَ كلّ ما سبقَه من الماضي، لكنْ، في تلك السنة، عَلمَ أيضاً كم يمكن أن يكون حبّ سيليا مُعقّداً. عندما كان الاثنان معاً وحدهما، كان فيرغسون يشعرُ بأنهما منسجمان في الغالب، وقادران، في معظم الوقت، على التّغلّب على ما ينشب بينهما من اختلافات في بعض الأحيان، وذلك بخلع ملابسهما، والزحف إلى السرير، وقد أبقاهما رابط المُضاجعة الشبقة الفيّاضة مُتّحِدَين حتّى في ظلّ خلافاتهما بصدد طريقة العيش أو ما يتخيّلان أنهما يعيشان من أجله. كان لدى كلّ من فيرغسون وسيليا آراء حادّة بشأن المسائل الأكثر أهمّيّة بالنسبة إليهما، لكنْ، كانت تلك المسائل مختلفة غالباً، إذ كان فيرغسون يُعِدّ نفسه لمستقبل في الفنّ، وسيليا تعدّ نفسها لمستقبل في العلوم، وعلى الرغم من زَعمِ كلّ منهما الإعجاب بصنيع الآخر (لم يكن لدى فيرغسون أدنى شكّ بحماسة سيليا تجاه عمله، ولم

يكن لدى سيليا أدنى شكّ بأن فيرغسون مذهول *بدماغها الأكاديمي الراجح*)، لم يكن بمقدورهما إرضاء بعضهما في كل شيء طوال الوقت.

النقض: ثمّة فجوة بينهما، لكنها ليست واسعة بما يكفي لإحباط جهودهما لرأبِها. كانت سيليا تقرأ الكُتُب، وتسمع الموسيقى، وتهرول بمرح لمشاهدة الأفلام والمسرحيات مع فيرغسون، وكان الأخير نفسه يدرُس علم الأحياء في تلك السنة، إذ كان بحاجة إلى مُقرَّر علمي آخر، من أجل تحقيق مُتطلّباته، لكنه اختار أن يكون مُقرّراً في علم الأحياء بسببها، من أجل أن يُتقِن أساسيات اللغة التي تتحدّث بها، وكما أوضح لسيليا، كِي يغمر نفسه عميقاً في كتابه، حيثُ أدركَا أنه لا يمكن كتابته دون اختراق مملكة نويس من الأجساد الماديّة؛ العظام والأنسجة، في الأجساد المريضة والسليمة، والتي كان رجُله يتعامل معها لأكثر من عشرين سنة، بوصفه طبيباً. وعلاوة على مُساعدته في واجباته بصفّ علم الأحياء، أخذت سيليا على عاتقها ترتيب مقابلات له مع طلاب يَدرُسون الطّبّ في بارنارد وكولومبيا، وأطباء متمرّنين من مستشفيات سانت لوك، ولينوكس هيل، وكولومبيا بريسبيتريان، ولقاءً لا يُقدّر بثمن لمدّة أربع ساعات مع طبيب أسرتها منذ طفولتها، غوردون إيدلمان من نيو روتشيل؛ الرجل المكتنز الذي اصطحب فيرغسون في جولة متروّية عبر تاريخ مهنته، وروتينها اليومي، والحالات المؤثّرة التي واجهها على مرّ السنين، حتّى إنه تحدّث لفترة قصيرة عن الوفاة المبكّرة لشقيق سيليا، موضّحاً أنه *لم تظهَر* على أرتي أيّ من أعراض تمدّد الأوعية الدموية، وبناءً على ذلك، فإنه لم يخضع لإجراء التصوير الوعائي الخطير، والذي كان الطريقة الوحيدة لفحص دماغ حيّ في سنة 1961، على عكس الإجراء الأكثر موثوقية الذي يقتضي فحصاً دقيقاً وشاملاً لدماغ ميت في أثناء تشريح جثّة. *لم تظهَر*. وبعبارة أخرى، لم يكن بمقدور أحد فعل أي شيء، ثمّ جاء اليوم الذي انفجر فيه الوعاء الدموي، وتغيّرَت كلمات الطبيب إلى أخرى: *لم يعد على قيد الحياة*.

بسبب روايته، كان فيرغسون يذهب في رحلات كئيبة، لكنْ، ضرورية، في أدب الانتحار، ومن أجل أن تُجاريَه، قرأت سيليا بعضاً من تلك الكُتُب أيضاً، بدءاً بمقالات ودراسات فلسفية، واجتماعية، ونفسية، لهيوم، وشوبنهاور، ودوركهايم، ومانينغر، ثمّ العديد من الكتابات من الماضي السحيق والحاضر القريب؛ إيمبيدوكليس وقفزته الأسطورية في فوهة بركان جبل النار، وسقراط (بالشوكران)، وماركوس أنطونيوس (بالسيف)، والانتحار الجماعي لمتمرّدي اليهود في مَسعدة، ووصف بلوتارخس لانتحار كاتو في كتابه *حياة عظماء اليونان والرومان* (انتزعَ أحشاءهُ أمام ابنه، وطبيبه، وخَدَمِه)، والفتى العبقري الموصوم بالعار توماس تشاترتون (بالزرنيخ)، والشاعرة الروسية مارينا تسيفتاييفا (شنقاً)، وهارت كرين (قفزَ من على متن سفينة في خليج المكسيك)، وجورج

إيستمان (برصاصة إلى القلب)، وهيرمان غورينغ (بالسيانيد)، والأكثر صلة بالموضوع بين كل سبق، الجُمل الافتتاحية من *أسطورة سيزيف*: "ليس هناك إلا مُشكلة فلسفية مهمّة حقيقية واحدة فقط، ألا وهي الانتحار. ويُعادلُ الحكم على الحياة، بصدد ما إذا كانت تستحقّ أن تُعاش أم لا، الإجابةَ على السؤال الأساسي في الفلسفة".

فيرغسون: ما رأيكِ، يا سيليا؟ هل أصاب كامو أم أخطأ؟

سيليا: أصاب على الأرجح. لكنْ، مرّة أخرى ...

فيرغسون: أتّفقُ معكِ. أصاب على الأرجح، لكنْ، ليس بالضرورة.

ليس الأشياء كلّها طوال الوقت، لكنْ، أكثر ممّا يكفي للاستمرار لفترة لائقة، وربّما لفترة رائعة ودائمة، لكنهما كانا لا يزالان في الثامنة عشرة والعشرين من العمر عندما بدأت السنة الدراسية، وكان من بين الأشياء الجيّدة التي تشاركاها الاقتناع المُتبادل بأن العمل مُقدَّم على المتعة، وأنه ليس لديهما أيّ استعداد للحياة المنزلية. وعلى الرغم من أن شقّة فيرغسون في الشارع التاسع والثمانين شرقي تتّسع لشخصين، فإنهما لن يفكّرا يوماً بالعيش معاً، ليس لأنهما أصغر سنّاً بكثير من اللازم لمكابدة صرامة التعايش المستقرّ، لكنْ، لأن ملاً منهما كان انعزالياً في نهاية المطاف، وبحاجة لقضاء فترات طويلة بمفرده من أجل إنجاز عمله. بالنسبة إلى سيليا، عَنى ذلك دراستَها في بارنارد، حيثُ لم تكن مُتفوّقة في العلوم والرياضيات فحسب، بل في موادّها جميعها، ممّا زجَّ بها في معسكر صرير الأسنان؛ صرير قهري على مدار الساعة، وقد انضمّت إليه، برفقة أربع فتيات أخريات بالحالة نفسها من بارنارد، خلال سنتها الدراسية الثانية، وانتقلَت للعيش في شقّة موحِشة كبيرة في غربيّ الشارع 111، والتي اعتادَت أن تصفها بدَيْر السكون الأبدي. بالنسبة إلى فيرغسون، لم تكن ضرورات العمل أقلّ إلحاحاً، الضريبة المضاعفة لبذله قصارى جهده في كلّيّة بروكلن في أثناء محاولته كتابة روايته، والتي كانت تتقدّم ببطء بسبب ذلك، لكنْ، كان ثمّة شيء إضافي آخر بشأن شخصية سيليا الوسواسية، ألا وهو تناغمهما العميق مع هواجسه، وخلال مرّات عديدة في تلك السنة، في أيّام الجمعة والسبت والأحد، عندما كانا يخطّطان لرؤية بعضهما، ثمّ يجدُ فيرغسون نفسه غارقاً في عمله فجأة، لم تشعُر بالاستياء عندما كان يتّصل بها في اللحظة الأخيرة، ليلغي الموعد، وإنما كانت تقول له بأن *يواصل العمل* ويكتُب *قدر المستطاع*، وألا *يقلق*. كان ذلك جوهر الأمر، كما أدركَ، الروح الأنيسة التي تميّزُها عن الآخرين جميعاً، فلا ريب أنها كانت تشعر بخيبة أمل بعد مُكالمات اللحظة الأخيرة تلك، لكنها كانت تمتلكُ الشجاعة (قوّة الشخصيّة) للتظاهر بأنها ليست كذلك.

السبب الثاني: اجتماع شبه متناغم للعقول والأجساد عندما يكونان معاً وحدهما، لكنْ، في

كلّ مرّة يخرجان فيها إلى العالم، ويخالطان أشخاصاً آخرين، تصبح الحياة إشكاليّة. فضلاً عن الفتيات الأربع اللواتي كنّ يشاركنها الشّقّة، لم يكن لدى سيليا سوى بضعة أصدقاء مُقرّبين، وربّما لم يكن هناك أصدقاء مقرّبون، وبناء على ذلك، كانت معظم فعالياتهما الاجتماعية النادرة تدور في عالم فيرغسون، والذي كان، في الغالب، عالماً غريباً بالنسبة إلى سيليا، عالمٌ حاولَت أن تفهمه، لكنها لم تستطع. لم تكن لديها أيّ صعوبات مع الجيل الأكبر سنّاً، وشعرَت بدفء مُعاملة والدة فيرغسون وزوجها، واستمتعت خلال الأُمسيّتين اللتين قضتْهما في منزل الخالة ميلدرد والعمّ 'دون'، لكنها انزعجت من نوح وهاوارد، إذ كان الأوّل يعدّها لاذعة ودائمة التهريج وغير مُحتمَلة، أما الثاني، فقد أشعرها بالإساءة بسبب لامبالاته المؤدّبة بها. انسجمَت مع إيمي وزوجة جيم، نانسي، بيد أن دائرة أصدقاء فيرغسون دائمة التّوسّع من شعراء ورسّامين قد أضجرَتها ونفّرَتها بالقدر نفسه، وكان فيرغسون يشعر بالحزن بسبب التعاسة الواضحة على ملامحها كلّما أمضيا أُمسيّة مع بيلي وجوانا، واللذين كانا مُقرّبين منه في ذلك الوقت وكأنهما قريبان بالدم، وكان ذلك الحزن يتحوّل إلى استياءٍ وشعور بالذنب على حدّ سواء عندما كان يشاهدها تخوض في محادثة أخرى من محادثاتها الملتوية المطوّلة عن الشعراء والكتّاب مع رون، أو لويس، أو آن، وكانت أقلَّ تفهُّماً للمتعة الكبيرة التي يجدها حبيبها النبيل ذو التفكير العميق بمشاهدة أفلام جوان كراوفورد الرديئة، بصحبة بو جينارد وصديقه جاك إلبري، الصبيين النحيلين المخبولين اللذين يُقبّلان بعضهما أحياناً في عتمة الشرفة، ولا يتوقّفان عن الضحك، كان الجميع يضحكون أكثر من اللازم، قالت، لا يأخذ أحد في تلك المجموعة أيّ شيء على محمل الجدّ، إنهم زمرة من المُعدَمين المهمَلين، والمتخبّطين، والمتراخين، ليس لديهم أي هدف في الحياة عدا التّجوّل في هوامشها، وتقديم الفنّ الذي لا يريدُ أحد أن يشاهده أو يشتريه، وأجل، أقرّ فيرغسون، ربّما كان ذلك صحيحاً، لكنهم أصدقاؤه وصديقاته، رفاقُه الشّهام اللطيفون، ولأنهم ليسوا منسجمين مع هذا العالم، فإن بعض القهقهة بين حين وآخر تُبيّن أنهم يبذلون قصارى جهدهم في ظلّ هذه الظروف.

النقض: بحلول مطلع السنة الجديدة (1968)، أدركَ فيرغسون أنه لم يعد بمقدوره إكراه سيليا على تقبّل أصدقائه الأخسّاء، كان بعضهم مِثليّين وقحين، وآخرون مدمنين وسِكّيرين، وآخرون مُشوَّهين عاطفياً تحت الرعاية النفسية، وحتّى لو كان بعضهم آباء لأطفال صغار وأمّهات، ومهما بذل من جهد لضمّها إلى ذلك المجتمع الصغير من المُختلّين ذوي الهوس الأحادي، فإنها كانت تمانع على الدوام، وبدلاً من الاستمرار في معاقبتها على خطيئتها التي كانت رغبتها بصحبته عندما كان يسعى لصحبة أناس آخرين، فإنه سيعفيها من التزام التواجد مع الأشخاص

الذين لا يعجبونها. كان يُدرِك أنها خطوة في الاتّجاه الخاطئ، أن إبعادها عن ذلك الجزء من حياته سيخلق فراغاً دائماً بينهما، لكنه لم يُرِد المخاطرة بفقدان سيليا، وهل من طريقة أخرى لإبقائها غير تحريرها من تلك الأُمسيّات التعيسة مع أصدقائه؟

في المرّة التالية التي نامت فيها في شقّته، انتقد شيئاً قالتْهُ، ثمّ تابع الحديث عن الموضوع بسلاسة قدر المستطاع. كانا مستلقيين على السرير معاً، يتشاركان سيجارة واحدة بعد ساعة مُرضية جدّاً تحت الملاءات وفوقها وتحت اللحاف، ويتحدّثان عن أشياء غير مهمّة، أو ربّما لم يتحدّثا أبداً (لم يستطع أن يتذكّر)، لعلّهما كانا ينظران إلى بعضهما فحسب، مثلما يفضّلان عادةً في لحظات كهذه، عندما يمتلئ كلٌّ منهما بالآخر، ومع ذلك يطيلان أمد اللحظة بتمرير يدي كلٍّ منهما صعوداً ونزولاً على جسد الآخر العاري، دون كلام، عدا فيرغسون الذي كان يخبرها كم هي جميلة، إن كان بالفعل يقول ذلك، لكنه تذكّرَ أن عيني سيليا كانتا مغمضتين، وكانت تُهمهم مع نفسها؛ صوتٌ رقيق ضعيف بلا نغمة، يُمثّل خرخرة سيليا كقطة برّيّة متراخية وطويلة الأطراف، تستلقي على جانبها، وتهمسُ في أذنه بصوت مبحوح: أحبُّ أن نكون هكذا، يا آرتشي. نحنُ الاثنان فقط على جزيرتنا، وأمواجُ المدينة تتكسّرُ في الخارج.

أنا أيضاً، قال فيرغسون. ولهذا السبب، أقترحُ فترة تعليق؛ حظرٌ على أي تواصل مع الخارج.

هل تقصد أننا يجب أن نُقفل باب الغرفة على أنفسنا، ولا نغادرها أبداً؟

كلا، بإمكاننا الخروج. لكنْ، نحن الاثنان فقط. لا مزيد من التّسكّع مع أشخاص آخرين.

هذا يُناسبني. وهل يعنيني الآخرون في شيء؟!

ثمّة مشكلة واحدة فقط. *(صمت لبرهة، كي ينفث الدخان، ويفكّر بطريقة لقول ذلك دون أن يُزعجها)*. سيكون علينا أن نُقلّل من لقاءاتنا بعض الشيء.

وما السبب في ذلك؟

لأن الأشخاص الذين لا يهمّونكَ ليسوا أشخاصاً، لا يهمّونني.

ومَنْ تقصد بهؤلاء الأشخاص؟

أولئك الذين أكرهتُكِ على تقبُّلهم. بيلي بيست، وهاوارد سمول، ونوح ماركس، وبو جينارد - المجموعة كلها من غير المقبولين.

أنا لستُ ضدّهم، يا آرتشي.

ربّما لستِ كذلك، لكنكِ لستِ في صفّهم أيضاً، ولا أرى سبباً يُجبركِ على تحمّلهم بعد الآن.

أتقولُ هذا من أجلي أم من أجلكَ؟

من أجلنا نحن الاثنان. يؤلمني أن أراكِ تنزوين في كآبتك كلّ مرّة.

أعلمُ أنك تحاول أن تكون لطيفاً، لكنكَ تعتقد أنني بلهاء، أليس كذلك؟ جاهلة بورجوازية حادّة المزاج.

صحيح. إن فتاةً بدرجات مُمتازة في مُقرّراتها كلها، ودعوة إلى وودز هول لقضاء الصيف، لا بدّ أن تكون بلهاء وجاهلة.

لكنهم أصدقاؤكَ، ولا أريدُ أن أخذلكَ.

إنهم أصدقائي، لكنْ، ليس هناك ما ينصّ بأنهم يجب أن يصيروا أصدقاء لكِ.

هذا مُحزن نوعاً ما، ألا تعتقد ذلك؟

ليس تماماً. إنها مجرّد تسوية جديدة، هذا كل ما في الأمر.

أتحدّث عن *التقليل*، عن تقليل لقاءاتنا بعض الشيء.

إذا كانت تلك اللقاءات القليلة أفضل جودةً من الكثيرة الحالية، فستُعوّضُ كلّ الساعات البائسة التي قضيتُها وأنا أشاهدكِ تُعانين مع أولئك الأشخاص، وسيفوز القليل على الكثير في نهاية المطاف، وفي الواقع، سيكون القليل كثيراً.

استقرًّا على تواتر جديد في عطل نهاية الأسبوع فقط؛ ظهيرتان متأخّرتان، وأُمسيّتان، وليلتان في عطلة نهاية كل أسبوع، إمّا الجمعة والسبت، أو الجمعة والأحد، أو السبت والأحد، باستثناء أيّام الجمعة، أو السبت، أو الأحد نادرة الحدوث، التي يضطرّ فيها فيرغسون إلى إلغاء اللقاء في اللحظة الأخيرة، ممّا يترك له حرّيّة الانضمام إلى واحد أو أكثر من غير المقبولين، وذلك في الليلة التي لا يقضيها مع سيليا، ناهيكَ عن ليالي أيّام الأسبوع التي لا يكون فيها مُثقلاً بأعباء الدراسة، والتي كان يقضي منها ليلة في شقّة بيلي وجوانا في آخر الشارع؛ يتناولون العشاء، ويتحدّثون عن الكُتّاب، والسياسة، والسينما، والرّسّامين، والشعراء، ويحملون مولي الصغيرة ذات السنة، ويلاعبونها، الأخُ الأكبر بيلي بيست الذين آمنَ بفيرغسون قبل أيّ شخص آخر، وكان صديقه الوحيد من كُتّاب النثر داخل حوض الشعراء الذين كان يسبحُ فيه حينها، كان الوحيد الذي يتذوّقُ النثر، ويستطيعُ مجاراة السجال في الأسباب التي تجعلُ كلاً من فلانري أوكونور وغرايس بيلي أكثر جرأة وإبداعاً في الأسلوب من بيلو، أو أبدايك، أو أي رجل أميركي آخر باستثناء بالدوين ربّما، وبتلك الطريقة، استطاع فيرغسون ألا يخسر تواصله مع الزوجين بيست، أو نوح، أو هاوارد، أو ثُلاثي تومولت، أو أيٍّ من الأشخاص الضروريين الآخرين الذين

كانوا يُبقونه راسياً في العالم. أجل، كان ذلك مُحزناً بعض الشيء، مثلما قالت سيليا، لكنْ، بعد مرور شهر، ثمّ شهر آخر، على التسوية الجديدة، شعر بأن علاقتهما بدأت بالتّحسّن، وصار لهاثهما أقلّ بعد أن تقلّصَ ما كان يعترضهما من إلهاءات وسخط، ومع ذلك، علِم فيرغسون أن هناك الكثير من العمل الذي يتعيّن إنجازه بعد، وأن تلك المشكلة الصغيرة، التي وجد حلاً لها، لم تكن شيئاً إذا ما قورنت بالمشكلة الكبيرة بصدد إخفاء قدر كبير ممّا في داخله عنها، وما لم يجد الشجاعة لمصارحة سيليا وإخبارها بكل ما ينبغي أن تعرفه عنه، فسيتسبّب بدمار مستقبلهما في نهاية المطاف.

السبب الثالث: من الممكن القول بأن تلك العلاقة برمّتها بُنِيَت على فرضية خاطئة. لا يعني هذا أن فيرغسون كذب على سيليا، لكنه استمرّ في حجب الحقيقة عنها بصدد أسبقيّة وفاة أرتي في معادلة *الحبّ يساوي العدالة الإلهية*، وعلى الرغم من أنه شعر بأنه تغلّب على تلك المشكلة إلى حدّ بعيد عن طريق لعبة الالتقاط في حديقة ريفرسايد خلال الربيع المنصرم، والتي تطوّرَت تدريجياً إلى مُباريات فردية مع سيليا في لعبة الويفلبول طوال الصيف، في وودز هول والمزرعة في فيرمونت، وخصوصاً خلال الأسابيع الكالحة التي سبقَت مُحاكمتَه، عندما كانت تلك المُباريات المُضحكة تزيحُ تفكيرَه لوقت قصير عن يومه الموعود في المحكمة، لكنه لم يتحدّث إليها عن أي من ذلك بعد. لقد وصل تعلُّقُه الجنوني الذي دام ستّ سنوات إلى نهايته، لكنْ، إذا كان قد شُفي الآن، أو حتّى استعادَ عافيته جزئياً، فلماذا لم يستجمع الشجاعة ليخبر سيليا عن التضحيات التي فرضها على نفسه تكريماً لتوأمِه المتوفّى أرتي فيدرمان؟ لأنه كان مذعوراً. لأنه خاف أن تعدّهُ مجنوناً، وتقطع كل علاقةٍ به.

الأسوأ من ذلك، عَجزُه عن إخبارها بشأن حالتِه، والكشفِ عن سرِّ ولادته غير الطبيعية، بوصفه سليلاً لحمار وفَرَس؛ الحمارُ الناهق الذي رَكِب الرمكة الجميلة في ليلة من صيف سنة 1946 داخل إسطبل في نيوجيرسي، ولقّحَها ببغل؛ البغل الناطق فيرغسون، والذي كان مخلوقاً غير قادر على الإنجاب، وبناءً على ذلك، أُدرج ضمن فئة الفشل الجيني، وكان وقع تلك الحقيقة ساحقاً للغاية على فيرغسون، ومُتلفاً تماماً لليقينيات القضيبية لذكورته، لدرجة أنه لم يستطع أبداً أن يُجبر نفسه على إخبار سيليا بالأمر، ممّا عنى أنه تركها تمضي قدماً بالإجراء غير اللازم في اتّخاذ احتياطات منع الحمل في كل مرّة يذهبان فيها إلى السرير معاً، ولم يخبرها يوماً بأنه لا جدوى من إدخال العازل الأنثوي، لأن هناك ضماناً، كي لا تقلق إطلاقاً بشأن الحمل في أثناء ممارسة الجنس معه.

خطأ لا يُغتفَر. جُبن عظيم حوّلَهُ إلى الشيء الوحيد الذي أقسم ألا يصير عليه: شخصاً مُشيناً.

النقض: ليس هناك نقض. لكنْ، برأي فيرغسون، ظلّت إمكانية أن يكون الطبيب برولر قد أخطأ في التشخيص تمنحه أملاً. وإلى حين استشارة طبيب آخر، فسيبقى الخطأ الذي لا يُغتفَرُ مُبرَّراً، لأن ثمّة احتمالاً ضئيلاً دائماً بأن يكون العازِلُ ضرورياً، ولم يُرِد أن تعرف سيليا الحقيقةَ المخزية عن حالته قبل أن يتأكّد منها بنسبة مئة في المئة. كل ما كان عليه فعله هو الذهاب إلى طبيب آخر وإجراء الفحوصات - لكنه كان خائفاً جدّاً من الذهاب، وخائفاً جدّاً من النتيجة، ولهذا ظلّ يماطل في الأمر.

النتيجة: بعد وفاة والده بأسبوعين ونصف، عندما نشرَ حريقُ اللحظة ألسنةَ لهبه في حرم جامعة كولومبيا، وضعَت سيليا شارة خضراء على ذراعها، وساهمت في القضّية عبر إعداد الشطائر للطلاب داخل المباني، بعَدِّها واحدة من عشرات المتطوّعين والمتطوّعات في فرقة تشاو، في قاعة فيريس بوث. ليست شارة الذراع الحمراء التي يضعها الناشطون، بل خضراء للمتعاطفين والمؤيّدين؛ موقف معقول لفتاة لم تشارك في الأحداث السياسية الجامعية، وكرّست طاقاتها كلّها لدراسة مُقرّراتها، لكنْ، كانت لدى سيليا آراء سياسية، ومع أنها لم تكن في المقدّمة خلال نصب المتاريس، واحتلال المباني الجامعية، إلا أن آراءها تلك كانت قوية بما يكفي لأن تضعها في صفّ الطلاب ضدّ الإدارة، على الرغم من هواجسها بصدد تكتيكات الطلاب، أو عدد المرّات التي انكمَشت فيها خوفاً عندما سمعت مئة صوت، أو خمسمائة صوت، يصيحون: *عالياً ضدّ الحصار، أيّها الأوغاد!* ومثلما رأى فيرغسون الأمر، كانت سيليا تتصرّف على نحوٍ يتناغم والمبادئ الرئيسة لوثيقة حقوق فيدرمان؛ الدافع ذاته الذي حثّها على وضع دولار أمام الرجل العجوز عند المطعم الآلي عندما كانت في السادسة عشرة من عمرها، والآن، بعد أن صارت في التاسعة عشرة، لم يتغيّر شيء. كان في شقّته عندما اتّصلت به في ليلة اليوم الثالث والعشرين، وبينما كان فيرغسون يصغي إليها وهي تصفُ ما حدث في كولومبيا في ذلك اليوم؛ الاجتماع الحاشد وقت الظهيرة عند ساحة الساندايل في منتصف الحرم الجامعي، والهجوم على موقع بناء الصالة الرياضية في حديقة مورنينغسايد، ثمّ احتلال قاعة هاميلتون من قِبَل ائتلاف بين منظّمة *طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي* و*جماعة الطلاب الأميركيين الأفارقة*، طلاب بيض وسود يعملون معاً لإغلاق الجامعة، بدأ يضحك - بسبب الدهشة إلى حدّ ما، كما كان تصوّر، لكنْ، بسبب السعادة عموماً. عندما أغلق سمّاعة الهاتف، أدرك أنها كانت أوّل ضحكة حقيقية له منذ ما قبل المساء الذي رفع فيه سمّاعة الهاتف نفسها، وتحدّث إلى ألِن بلومنثال.

في الساعة الواحدة من ظهيرة يوم الجمعة (السادس والعشرين)، قرّر التوقّف مؤقّتاً عن العمل على روايته لبقية اليوم، والذهاب إلى كولومبيا للاطّلاع على ما كان يحدث. كان قد فات

الأوان على الاتّصال بسيليا التي كانت بالتأكيد مع زملائها من صانعي الشطائر في غرفة تشاو في قاعة فيريس بوث، لكنْ، لم يكن من الصعب العثور عليها، وبمجرّد أن يتمكّن من إبعادها عن صحاف لحم الخنزير المدخّن، والسجق الإيطالي، والشرائح المُقطّعة سلفاً من الخبز، سيكون باستطاعتهما التّجوّل في الحرم الجامعي معاً ورؤية ما كان يجري. وبينما سارت حافلة المدينة عبر جادّة ماديسون، دخل في المحادثة ذاتها التي يبدو أنه يخوضها مع نفسه كلّما توجَّه إلى مورنينغسايد هايتس: ماذا لو أنه التحق بكولومبيا بدلاً من برينستون؟ ولو حدث ذلك، فكيف كانت حياته ستختلفُ عن هذه التي يعيشها الآن؟ ما كان ليلتحق بكلّيّة بروكلن. ما كان ليسكن شرقيّ الشارع التاسع والثمانين. ما كان ليعلم بفيلم جَدّه الإباحي. ما كان ليحصل على عشرة آلاف دولار، وما كان ليعرف نيغل، أو هاوارد سمول - أي ما كان ليخوض شجار حانات في فيرمونت، لا مُحاكمة، ولا إنقاذ عجائبي من قِبَل الخالة ميلدرد، ولا مباريات تنس مُتخيّلة، ولا قصّة رومانسية بين هاوارد وإيمي؛ والتي تحوّلَت إلى علاقة غرامية قوية ودون أي علامات لفتورها في أي وقت قريب. مع ذلك، الكُتُب الثلاثة نفسها صادرة عن دار غيزمو، على الرغم من أن الكتابَين الثاني والثالث سيكونان مُختلفين بعض الشيء. والأدوار نفسها بالنسبة إلى ماري دونوهيو، وإيفي مونرو، وسيليا. لكنْ، لو أنه التحق بكولومبيا، فهل سيكون الآن في أحد المباني المُحتلّة مع الطلاب المحتجّين، أم كانت حياته ستضعه في حافلة المدينة نفسها التي تسير على طول الطرف الشمالي للسنترال بارك في طريقها إلى مورنينغسايد هايتس؟

تبدّل الوضع منذ اليوم الثالث والعشرين. انهارَ تحالف البيض والسود، لكنْ، احتلّ الطلاب أربعة مبانٍ أخرى، وصادَف أن رئيس منظّمة *طلاب من أجل مجتمع ديموقراطي*، القائد الرسمي للتّمرّد، كان أحد أصدقاء فيرغسون القدامى من المدرسة الثانوية، مارك رود. أجل، كان مايك لوب جزءاً من الحدث أيضاً - مُعذِّب إيمي السابق، وصديق سابق لفيرغسون لهذا السبب - لكنْ، وفقاً لما سمعته سيليا، كان لوب مجرّد عضو من أعضاء المنظّمة الذين يشاركون في اجتماعات في قاعة الرياضيات، بينما كان رود في موقع المسؤولية، المتحدّث باسم المنظّمة ومدير التحريض، وكان الأخيرُ وفيرغسون ينسجمان دائماً، إذ كانا يحضران الحصص نفسها من الإنكليزية، والفرنسية، والتاريخ معاً، ويخرُجان في مواعيد مزدوجة مع فتاتين، تحملان اسمين متطابقين تقريباً، دانا وديانا، وقد تغيّبا معاً عن المدرسة في أحد الأيّام، كي يذهبا إلى نيويورك، حيثُ زارا سوق الأسهم الأميركية في وول ستريت من أجل رؤية الرأسمالية في أثناء العمل، وكم كان مُناسباً ومضحكاً على نحو غريبٍ أن يكون مارك نفسه، الذي علّمَهُ قيادة السّيّارة في فصل الربيع من سنتهم الدراسية الثالثة في الثانوية، ممّا سمح لفيرغسون بالعمل على الشاحنة الصغيرة

من طراز شيفروليه التي كان يمتلكها آرني فريزر، وقضاء صيف آخر في نقل الأغراض الثقيلة كبيرة الحجم، يقود الآن تمرّداً طلابياً وتُطبَع صورته في الصحف كل يوم.

وفقاً لما جرى، لم يتمكّن فيرغسون من الوصول تماماً إلى كولومبيا في تلك الظهيرة. سارَت الحافلة رَقْم 4 من إيست سايد إلى ويست سايد على طول الشارع رَقْم 111، المعروف باسم كاثيدرال باركواي في الكتل السَّكَنيّة ما بين سنترال بارك ويست وريفرسايد درايف، وعندما وصلت الحافلة إلى تقاطع برودواي والشارع 110، نزل فيرغسون، وبدأ يمشي شمالاً باتّجاه الحرم الجامعي في الشارع 116، لكنْ، من أجل الوصول إلى وجهته، كان عليه أوّلاً أن يقطع الكتلة السَّكَنيّة، حيثُ تقيم سيليا، غربيّ الشارع 111 بين برودواي وأمستردام، وعلى نحوٍ غريب، بينما عبر الشارع 111 وواصل طريقه باتّجاه التقاطع الآخر، لمحَ سيليا نفسها على نحوٍ غير مُتوقّع، بتنّورة زرقاء وقميص قَرَنْفُليّ اللون، على بُعد نصف كتلة سكنية أمامه، كانت تمشي شمالاً أيضاً، ولا شكّ أنها كانت في طريقها إلى غرفة تشاو في قاعة فيريس بوث. لم ينزعج لحقيقة أن سيليا لم تكن بمفردها، على الرغم من أنها لم تكن بصحبة إحدى زميلاتها في السَّكَن من بارنارد، بل كان رجلاً، وفي هذه الحالة، رجلاً في الثانية والعشرين من عمره ويُدعى ريتشارد سمولِن، وقد عرفَهُ فيرغسون، لأنه كان واحداً من طلاب كلّيّة الطّبّ في كولومبيا الذين تحدّث إليهم في شهر تشرين الأوّل، عندما كانت سيليا تُرتِّب له المقابلات، كي تُساعده على كتابة روايته، ولأن سمولِن كان من نيو روتشيل، وشاركَ آرتي في اللعب لفرق كرة سلّة وبيسبول عندما كان صبياً، كانت سيليا تعرفه طوال حياتها، ولماذا قد يشعر فيرغسون بأدنى ذرّة من الحسد أو التّوجُّس بصدد اكتشاف أن سيليا كانت تسير باتّجاه شمال المدينة برفقة صديق قديم؟ أسْرَعَ خطاه من أجل اللحاق بهما، لكنْ، قبل أن يصل إلى مسافة تسمحُ له بالمناداة، توقّفَت سيليا وريتشارد سمولِن على قارعة الطريق، وتعانقا، وبدآ يقبّلان بعضهما. كانت قبلة مُتّقدة، قبلة طويلة، قبلة شبقة برغبة خالصة، لا يمكن التّحكّم بها، ووفقاً لكّل ما استوعبه فيرغسون بينما كان واقفاً على بُعد لا يتجاوز عشرين قدماً من مكان عناقهما، كانت قبلة حُبّ.

إذا كان حُبّاً، فليس بمقدور المرء إلا أن يفترض أنهما قد خرجا للتّوّ من شقّة سيليا، حيثُ أمضيا الساعات العديدة الماضية يتقلّبان على سريرها، والآن، بعد أن ارتديا ملابسهما مرّة أخرى، وانطلقا شمالاً باتّجاه كولومبيا لإعداد الشطائر للطلاب في المباني المحتلّة، كان شَفق احتفالهما الشهواني مُتّقداً بشدّة، لدرجة أنهما لم يستطيعا منع أيديهما عن بعضهما، ومازالا توّاقين للمزيد.

استدارَ فيرغسون، وبدأ بالمشي جنوباً.

الخاتمة: لم يتّصل، ولم تتّصل حتّى يوم الاثنين - كي تُخبرَه عن سمولِن (وكان خبراً قديماً بالنسبة إليه في ذلك الوقت)، وتنهي علاقتهما. نهاية أسبوعٍ صامتة، خلص خلالها إلى أنه المُلام عن الكارثة، وأن سمولِن لم يكن سبباً لمتاعبه، بقدر ما كان دلالة عليها، ولأنه لم يكن صادقاً معها منذ البداية، فقد استحقّ الهجر. سيليا الجميلة. سيليا والهذيانات المتنوّعة للمس سيليا وطَيّ جسدها على جسده. لكنْ، لم يكن الجنس كافياً. كان يبدو محالاً الوصول إلى تلك الفكرة، لكنْ، لم يكن الجنس كافياً، وكان كل شيء آخر تقريباً على خطأ. لقد أجبر نفسه على حبها، لكنه لم يحبّ أيّ شيء غير فكرة حبّها، ولم يكن هذا حبّاً، بل شكلاً من الغباء الجسيم الذي لا يُغتفَر، لذا دعها تنصرف مع فتاها الوسيم من كلّيّة الطّبّ، قال لنفسه، دعْها تمشي بصحبةِ اختصاصي قلبِها المستقبلي، حبيب قلبها الحالي، إلى الزوبعة في كولومبيا، فمازال الحريق ينتشر، وحان الوقت كي يتركها فيرغسون تعصف بعيداً عن حياته، وتذهب إلى المكان التالي بدونه.

في الأشهر التي أعقبت ما حدث، لم تحدُث وفيات أخرى لشخصيات مركزية من *حكاية فيرغسون* في ملاعب تنس أو في أي مكان آخر، ولا مزيد من الحبّ، أو الفقد، أو حتّى الاستغراق في التفكير. كان صيفاً كئيباً بطيئاً مع روايته عندما شرع بكتابة الجزء الثاني من أصل جزءين، حبيساً في شقّته لمعظم اليوم دون أن يراه أحد في الليل، باستثناء بيلي وجوانا القريبَين، ونوح الذي كان يعمل في المدينة كممثّل في أوّل فيلم احترافي له، بيد أن الأخير كان مشغولاً ومُنهكاً، ولا يملك إلا القليل من الوقت لرؤية فيرغسون خارج عطلة نهاية الأسبوع. رحل الجميع بخلاف هؤلاء، إمّا للتخييم في أكواخ عائلاتهم، أو استئجار عرازيل في شمال نيويورك ونيو إنغلاند، أو ركوب القطارات الرخيصة التي تجوب المُدُن والأرياف في أوروبا الغربية. وكما هي الحال دائماً، كان هاوارد في مزرعة عمّه وعمّته في فيرمونت، لكنْ، كانت معه إيمي هذه المرّة، وكان الاثنان يناقشان بالفعل خططهما للحياة ما بعد الدراسة في الكلّيّة، والتي ستبدأ في غضون سنة واحدة فقط، وفيما لو تمكّنَ هاوارد من تجنُّب الخدمة العسكرية الإلزامية، فسيفكّران بالمضي في الدراسات العليا، الفلسفة لهاوارد، والتاريخ الأميركي لإيمي، وكانت كولومبيا الاختيار المثالي، حيثُ سيكون بمقدورهما العيش معاً في شقّة في مورنينغسايد هايتس، وأن يصبحا مواطنَين من نيويورك. ومراراً وتكراراً، كان هاوارد وإيمي يطلبان من فيرغسون زيارتهما في فيرمونت، ومراراً وتكراراً، كان فيرغسون يختلق أعذاراً لعدم القيام بالرحلة. بالنسبة إليه، كانت فيرمونت مكاناً مسكوناً، قال، ومازال لا يدري ما إذا كان جاهزاً للعودة إلى هناك، أو أنه كان غارقاً في روايته أكثر من اللازم للتفكير بمغادرة نيويورك، أو أنه يعاني من برد الصيف، وليس قادراً على السفر،

لكنْ، على الرغم من قوله تلك الأشياء (والتي كانت صحيحة نسبياً)، كانت الحقيقة الأكبر الآن أنه بعد خسارة سيليا، عادَت إيمي إلى أفكارِه مرّة أخرى، إيمي المحبوبة المفقودة إلى الأبد، والتي لم ترغَب به من قبلُ، ولن تفعل أبداً، ولم يكن بمقدوره في ذلك الوقت أن يُعرّض نفسه لمشهد سعادتها مع نسيبه غير المباشر. لا يعني هذا أنه توقّف عن التفكير بسيليا في ذلك الصيف، لكنها كانت تخطر على باله على نحو أقلّ ممّا كان يتخيّل. ومع تحوّل الشهر الحارّ الأوّل إلى الشهر الحارّ الثاني، بدأ يشعر بالسرور نوعاً ما، لأنهما لم يعودا معاً، كما لو أن تعويذة قد أُبطِلَت، وعاد ليكون نفسه، وليس نسخة مُختلقة أو مضلّلة عن نفسه، في حين كان أرتي معه مرّة أخرى في حرارة الصيف، وفاة أرتي ووفاة والده، تلك كانت الذكريات التي سكنَته في الغالب في أثناء جلوسه في غرفته الصغيرة، لينزفَ كلمات كتابه، وبمجرّد أن سُوّيت مسألة ميراثه في نهاية شهر نيسان (لم يكن توريثاً عادياً، كما تبيّن لاحقاً، بل أموالاً من بوليصة تأمين على الحياة لإبطال الحاجة لدفع أي ضرائب على الإرث)، أخذ خمسة آلاف دولار من دان، وراقبَ بتعجُّبٍ مَرَضيّ، شهراً تلو آخر، كيف عادت الآلاف الخمسة والتسعون تدريجياً إلى المئة ألف الأصلية. مال غير مرئي، قال دان ذات مرّة. وأطلق عليه فيرغسون اسم *مالٍ خَفيّ*.

كان يُؤلّف كتاباً عن الموت، وفي بعض الأيّام، شعر أن الكتابَ يحاولُ قتله. كانت كل جملة معاناة، وكان يمكن لكل كلمة من كل جملة أن تكون كلمة مختلفة، وكما هي الحال دائماً مع الأشياء الأخرى كلها التي كتبها على مدى السنوات الثلاث المنصرمة، كان يُمزّق أربع صفحات تقريباً مقابل كلّ صفحة يبقيها. بالمحصّلة، كانت لديه مئة واثنتان وعشرون صفحة منتهية بحلول مطلع الصيف، وقد فرغ من سرد نصف الحكاية. وباءٌ من الانتحار شارفَ الآن على نهاية شهره الثالث، وخلال تلك المدّة، دفنَت مدينة R. واحداً وعشرين من أولادها؛ رَقْمٌ مرعب بالنسبة إلى مدينة ريفية بعدد سكّان، يبلغ أربعة وتسعين ألف نسمة، وكان الطبيب نويس في خضمّ الحدث منذ البداية، يعمل برفقة عشرين من زملائه الأطبّاء، وعشرة أطبّاء نفسيين، وقرابة ثلاثين كاهناً وقسّيساً، لدرء الانتحار التالي، لكنْ، على الرغم من جهودهم الجماعية المكثّفة، والتي تضمّنت مقابلات مُطوّلة وجلسات استشارية مع كل شابّ وفتاة في المدينة، لم يُقدّم أيّ ممّا فعلوه أدنى ذرّة من المساعدة، وأضحى الطبيب يتساءل الآن عمّا إذا كانت الساعات العديدة التي خصّصوها، لوضع حدّ للبلاء، لم تقدّم شيئاً سوى إطالة أمدِه، وما إذا كان عَزلُ المشكلة وإخفاؤها عن الرأي العامّ شهراً تلو آخر يُبقيها قائمة بدلاً من حلّها، ممّا يُغري الضعفاء بحلّ مشاكلهم الخاصّة بالطُّرُق التي ربّما لم يجدوها بأنفسهم، وهكذا يستمرّ أولاد مدينة R. بقتل أنفسهم كما في السابق، وشيئاً فشيئاً، يصبح الطبيب الصامد نويس مشوَّشاً. توقّف فيرغسون

عن الكتابة هنا لإجراء امتحاناته النهائية وكتابة أوراقه الدراسية الخاصّة بنهاية الفصل في شهر حزيران، وعندما بدأ يشقّ طريق العودة إلى القصّة خلال الأسابيع الأولى من الصيف، كان يدري مُسبّقاً كيف ستكون النهاية، لكنْ، بقدر ما كان ذلك مفيداً، فإن المعرفة لا تعني الإنجاز، ولن يكون للوصول إلى النهاية معنى ما لم يتمكّن من سلوك الطريق الصحيح. كانت المشاكل التي تواجه الصغار في مدينة الطبيب نويس أزليةً ولحظيّة، مزيج من القدر البيولوجي والحقائق التاريخية العَرضيّة. الفوران المراهق للحبّ الأوّل وانكسار القلب الأوّل، والخوف اليومي من التّعرُّض للطرد من قِبَل القطيع، والخوف من الحمل، وصدمة الحمل الحقيقي والأمومة المبكّرة جدّاً، والإثارات المفرطة (القيادة بسرعة عالية، الإفراط في شرب الكحول)، والسأم، وازدراء الآباء، والبالغين، وكل مَنْ في موقع السلطة، والابتئاس، والوحشة، وألم العالم (الحزن والتفكير في شرور العالم) الذي يضغطُ على القلب حتّى عندما ينسكب ضوء الشمس عليهما - العذابات الأبدية القديمة للمراهقة - لكنْ، بالنسبة إلى الأشخاص الأكثر عرضة للخطر، الفتية في السابعة عشرة والثامنة عشرة من أعمارهم، يلوح خطر فيتنام في الأفق أمامهم لحظة مغادرتهم المدرسة، الحقيقة التي لا تقبلُ الجدل في اللحظة الأميركية، لأن القليل من الطلاب الذين ينتهون من دراستهم الثانوية كانوا يلتحقون بالجامعة في مدينة R العُماليّة، حيثُ تعني نهايةُ المدرسة الثانوية بدايةَ الحياة الراشدة، وبعد أن شُحِن أربعة وستّون تابوتاً إلى أرض الوطن، تحتوي جثث جنود أميركيين مقتولين، ودُفنوا في المقابر المحلّيّة خلال السنوات الثلاث الماضية، ونُقِلَ الأخوة الكبار لأولئك الفتية، والذين عادوا بلا أطراف أو أعين، إلى مستشفى في. إيه. في مدينة دبليو.، تحوّل الحماسة الوطنية التي اجتاحت مدينة R. في صيف سنة 1965 إلى اشمئزاز وفزع بحلول ربيع سنة 1968، ولم يعد لدى أولئك الفتية أي رغبة بالمشاركة في الحرب التي تخوضها الحكومة الأميركية على الطرف الآخر من العالم. وبدا أن الموت هباءً، مثلما حدث لأخوتهم، وأبناء عمومتهم، وأصدقاء أخوتهم، يسخرُ من مبادئ الحياة نفسها، ولماذا وُلِدوا؟ سألوا أنفسهُم، وماذا يفعلون على هذه الأرض إذا كانت الغاية فقط أن يتركوا حيواتهم تروح هباءً قبل حتّى أن يشرعوا بالعيش؟ كان البعض يشوّهون أنفسهم بإطلاق الرصاص على أصابع أيديهم وأرجلهم من أجل الرسوب في امتحان الكفاءة الجسدية العسكرية، لكنْ، كان هناك آخرون يفضّلون حلاً أقلّ دموية، ألا وهو تسميم أنفسهم بالغاز حتّى الموت في سيّارات مركونة على وضع اللا تعشيق داخل مرائب آبائهم المُغلقة، وفي أحيان كثيرة، إذا صادف أن كان للفتى حبيبة، فسيكونان معاً في السّيّارة يحضنان بعضهما، بينما يمضي الدخان في إنجاز مهمّته تدريجياً. في البداية، كان نويس مروّعاً بتلك الميتات غير المنطقية، وبذل جهده كله لإيقافها، لكنْ، مع مرور الوقت، بدأت أفكاره

تأخذ منحى مختلفاً، وبحلول اليوم الرابع أو الخامس من الشهر، أُصيبَ نفسه بالعدوى. كان في نيّة فيرغسون بعد ذلك أن يُلاحقَ نويس عبر المراحل العديدة التي ستقوده إلى إنهاء حياته في نهاية الكتاب؛ التعاطفُ الهائل الذي تطوّر في داخله إزاء المراهقين الذين كان مسؤولاً عنهم، المحادثاتُ التي خاضها مع ما يزيد عن مئتي فتى وفتاة، والتي أقنعَتهُ بأن المدينة لا تعاني من أزمة طبّيّة، بل من أزمة روحية، وأن السؤال لم يكن عن الموت أو الرغبة بالموت، بل عن فقدان الأمل بالمستقبل، وبمجرّد أن يفهم نويس أنهم جميعاً يعيشون في عالم بلا أمل، كان فيرغسون يُخطّط لترتيب علاقة بين نويس وإحدى الفتيات اللواتي كُنّ يستشرنَه خلال الأشهر الماضية، فتاة في السابعة عشرة من عمرها تُدعى ليلي ماكنامرا، والتي كان شقيقها التوأم هارولد قد قتلَ نفسه في الماضي، وسيصطحب الطبيب نويس، الأبتر والعازب، ليلي إلى منزله لأسبوع أو شهر أو نصف سنة، من أجل إقناع الفتاة البسيطة العنيدة العاجزة عن الإفصاح بالعدول عن أفكارها الانتحارية. سيكون هذا صموده الأخير؛ جهدٌ أخير لدرء رَغبته بالاستسلام، وعندما يفشل في إرجاعها إلى الحياة، سيَتبعُها إلى المَرأب، ويغلق الأبواب والنوافذ، ثمّ يصعد إلى السّيّارة معها، ويدير المحرّك ...

أربع وسبعون صفحة مَكتوبةً بتروٍّ لأكثر من مرّة ما بين منتصف حزيران ومنتصف أيلول، وبعد أسبوعين من عودته إلى رحلاته ذهاباً وإياباً إلى بروكلن، أصدرَت *تومولت للكُتُب* أعماله المختارة. وبعد ذلك الصيف القاسي، برزَ كتاب *استهلالات* على وجه الأرض بغتةً مثل الزعفرانة الأولى في مطلع الربيع. وميضٌ من الأرجواني يطفحُ عبر الوحل والثلج المسودّ على الأرض الباردة؛ رمحٌ لوني جميل في عالمِ عديم اللون، إذ كان قميصُ غلاف *استهلالات* أرجوانياً بالفعل، درجة من الأرجواني تُدعى بالبنفسجي؛ اللون الذي اختاره فيرغسون ورون من بين العديد من الألوان المتاحة، غلافٌ طباعي مُصمَّم بعناية، يحملُ اسمه وعنوان الكتاب باللون الأسود، داخل مُستطيل أبيض رفيع الأطراف، يُذكّرُ قليلاً بأغلفة كُتُب غاليمار في فرنسا، أنيق، غاية في الأناقة، برأي فيرغسون، وعندما حمل نسخة من الكتاب لأوّل مرّة، اختبر شيئاً لم يكن مُستعدّاً له: صاعقةٌ من فرط السعادة. لم تكن مُختلفة عن السعادة المفرطة التي شعر بها عندما فاز بمنحة والت ويتمان، كما أدرك، لكنْ، مع الاختلاف التالي: كانت المنحة قد أُبطِلَت عنه، لكن الكتاب سيبقى له دائماً، حتّى لو لم يقرأه أكثر من سبعة عشر شخصاً.

كانت هُناك مراجعات. للمرّة الأولى في حياته، أصبح عُرضةً للإشادة والنقد على العلن، ثلاث عشرة مرّة على مدى الأشهر الأربعة التالية، من خلال مراجعات متنوّعة، طويلة ومتوسّطة وقصيرة، في الصحف والمجلات والفصليات الأدبية؛ خمسة قبلات فرنسية مُرضية، وتربيتة ودودةٌ

على الكتف، وثلاث لكمات على الوجه، وضربة ركبة في الخصيتين، وإعدام رمياً بالرصاص، وهزّتا كتف تعبيراً عن الاستهجان. كان فيرغسون عبقرياً وغبياً معاً، وفتى مدهشاً وأبله متعجّرفاً، وأفضل ما حدث خلال السنة وأسوأ ما حدث خلالها، وطافحاً بالموهبة ومُجرَّداً منها تماماً. لم يتغيّر شيء منذ صخب هانك - فرانك مع السّيّدة بالدوين، والآراء المنكرة للخالة ميلدرد والعمّ ′دون′ قبل نصف قرن، الدفع والسحب من الإيجابية والسلبية، المواجهة الأبدية في قاعات المحكمة، لكنه حاول كما في العادة أن يتجاهل كلاً من الجيّد والسّيّئ الذي قيل عنه، كان على فيرغسون الاعتراف بأن اللسعات ظلّت تتوالى لوقت طويل بعد انتهاء القبلات، وأنه صَعُبَ عليه نسيان التّعرّض للهجوم، بوصفه "مسعوراً، هيبياً خارجاً عن السيطرة، لا يؤمن بالهدف، ويسعى إلى تدميره" أكثر من تذكُّره الإشادة بِعَدِّه "وافداً جديداً مُتألّقاً". عليكم اللعنة، قال لنفسه بينما كان يضع المراجعات في الدرج السفلي من مكتبه. إذا ما قرّر يوماً ما نشر كتاب آخر، فسيصمّ أذنيه بالشمع، ويغطّي عينيه بعصبة، ويربط جسده إلى سارية سفينة، ثمّ يركب العاصفة إلى أن تتوقّف السيرينات عن لمسه.

بعد فترة ليست بطويلة من صدور الكتاب، عادَت ماري دونوهيو إلى المشهد. كانت قد مضى على رحيل سيليا خمسة أشهر، وكان فيرغسون الوحيدُ المتعطّش للجنس أكثر من مهتمّ عندما سمع من جوانا أن شقيقتها انفصلَت مؤخّراً عن حبيبها بعد علاقة استمرّت ثمانية عشر شهراً، وإذا كان لدى فيرغسون أي رغبة برؤية ماري مرّة أخرى، فستكون جوانا أكثر من سعيدة بدعوة كليهما لتناول العشاء خلال الأيّام أو الأسابيع المقبلة. كان ماري قد أنهت أمورها تماماً في ميتشغان، وعادت إلى نيويورك لدراسة الحقوق في الجامعة، وقد نقُص وزنها ما بين خمسة عشر وعشرين رطلاً، وفقاً لجوانا، والتي كانت تسألُه عن رأيه، لأن ماري سألَتها، وإذا كان فيرغسون راغباً، فمن الواضح أن ماري ستكون راغبة أيضاً. وهكذا عاد فيرغسون وماري لرؤية بعضهما مرّة أخرى، وهذا كان يعني النوم معاً من جديد، كما في الأيّام السالفة من صيف سنة 1966، وأيضاً لا، لم يكن حبّاً، ولن يكون حبّاً على الإطلاق، لكنه كان في بعض النواحي أفضل من الحبّ؛ صداقة، صداقة محضة وبسيطة، مع قدرٍ هائلٍ من الإعجاب المتبادل، وشعرَ بفيرغسون بثقة عميقة في ماري بحلول الشهر الثاني من علاقتهما الثانية، لدرجة أنه اختارها وحدها، كي يكشف لها عن مكنونات صدره بصدد سيليا، تحدّث بصراحة للمرّة الأولى عن أرتي، والبيسبول، والعازل الأنثوي المخزي، وأخبرها بما لم يكن قادراً على إخباره لأحد غيرها، وعندما أوشك على نهاية ذلك الحديث البائس من الصمت والخداع، التفتَ بعيداً عنها، ونظر إلى الجدار، وقال: ما مُشكلَتي؟

أنكَ فتى، أجابَت ماري. تلك هي مشكلتكَ الوحيدة فقط. أنتَ فتى، وتدورُ في رأسِكَ أفكار فتى غير ناضج ذو قلب كبير وحالة مفرطة التّطوّر من مثالية الشباب. أما الآن، فلم تعد فتى، فقد توقّفتَ عن التفكير بتلك الطريقة.

أهذا كلُّ شيء؟

هذا كلّ شيء. باستثناء الشيء الآخر، والذي ليس له علاقة بكونكَ فتى. كان ينبغي أن تُخبرها، يا آرتشي. ما فعلتَهُ كان ... كيف بإمكاني قول ذلك دون أن أجرح مشاعركَ ...؟

يستحقّ اللوم.

أجل، هذا ما كنتُ أبحث عنه. يستحقّ اللوم.

أردتُ أن أتزوّجها، كما ترين، أو على الأقلّ ظننتُ أنني أردتُ أن أتزوّجها، ولو أخبرتُها أننا لن تكون قادرين أبداً على إنجاب الأطفال، فسترفضُني على الأرجح.

وإن يكُن. كان خطأ ألا تقول شيئاً عن ذلك.

حسناً، لقد أخبرتُكِ، أليس كذلك؟

الأمر مختلف بالنسبة إليّ.

لماذا، يا ترى؟

لأنكَ لا تريد الزواج بي.

مَنْ يدري إذا ما كنتُ أريد أم لا؟ مَنْ يدري إذا ما كنتِ تريدين أم لا؟ مَنْ يدري أي شيء؟

ضحكَت ماري.

على الأقلّ، صرتِ تستطيعين الآن التّوقّف عن تناول حبوب منع الحمل، قال فيرغسون.

لستَ الرجلَ الوحيد في نيويورك، كما تعلم. ماذا سيحدث لو تعثّرتُ ذات ليلة بشابّ لاتيني وسيم؟

لا تخبريني فحسب، هذا كلُّ ما أطلبه.

في هذه الأثناء، يا آرتشي، ينبغي أن تزور طبيباً آخر - للتّأكّد فقط.

أعلم، قال فيرغسون، أعلمُ أنه ينبغي ذلك، وسأفعل، قريباً، سأذهب بالتأكيد، قريباً، أعدكِ.

تسعة وتسعون وتسعمائة وألف؛ سنة الأحاجي السبع، والقنابل الثمانية، ورسائل الرفض الأربعة عشر، والعظمتين المكسورتين، والرَّقْم مئتين وثلاث وستّين، والنكتة التي تُغيّرُ الحياة إلى الأبد.

بعد أربعة أيّام من تنصيب ريتشارد نيكسون بوصفه الرئيس السابع والثلاثين للولايات المتّحدة، كتبَ فيرغسون الجملة الأخيرة من *عاصمة الحطام*. انتهى من المسوّدة الأولى؛ المسوّدة الأولى الطويلة المُجهِدة، والتي كانت خضعت للكثير جدّاً من التنقيحات بحلول ذلك الوقت، لدرجة أنه يمكن عدّها المسوّدة التاسعة أو العاشرة على الأرجح، لكنْ، كان فيرغسون لا يزال غير راضٍ بعد عن المخطوط، غير راضٍ تماماً على أي حال، إذ كان يشعر بأنه ثمّة الكثير من العمل، كي يُنجزه قبل أن يتمكّن من الإعلان عن الانتهاء، لذا واصل العمل على الكتاب لأربعة أشهر أخرى، يُصلّح ويُنقّح، ويحذف ويضيف، ويستبدل كلمات، ويشحذ جُمَلاً، وعندما جلس لطباعة النسخة النهائية في مطلع حزيران، كان في خضمّ امتحاناته النهائية في كلّيّة بروكلن، وجاهزاً تقريباً للتّخرّج.

كان فيرغسون يعرف ناشراً واحداً فقط؛ ناشراً واحداً فقط يريد أن ينشر لديه، والآن بعد أن أكملَ روايته، فكم سيكون لطيفاً أن يُسلّم المخطوطِ لأصدقائه في *تومولت للكُتُب*، والذين أخبروه مراراً وتكراراً بأن يواصل نشر أعماله *إلى الأبد*. بيد أن الأمور تغيّرت خلال الأشهر العديدة الماضية، وكانت الشركة الناشئة التي أصدرَت اثني عشر كتاباً منذ تأسيسها في صيف سنة 1967 على حافّة الزوال. كانت تريكسي دافنبورت، المتزوّجة مرّتين في السابق، والداعمة المالية الوحيدة لدار النشر الصغيرة، قد تزوّجت لمرّة ثالثة في شهر نيسان، ولم يكن زوجها الجديد فيكتور كرانتز، والذي بدا أنه لا يمتلك أي مهنة باستثناء إدارة استثمارات تريكسي، محبّاً للفنّ (باستثناء الفنّ الذي أبدَعهُ رسامون موتى على غرار موندريان وكاندينسكي)، ونصحَ ملاك تومولت بالتّوقّف عن إهدار أموالها على "قضايا عديمة الجدوى" على غرار *تومولت للكُتُب*. وهكذا سُحب القابس. أُلغيَت عقود الكُتُب المستقبلية جميعها، وبيعَت النسخ التي لم تجد طريقها إلى متاجر الكُتُب أو مخازن الموزّعين بسعرٍ زهيد، أما تلك التي لم تُبع، فمُزّقَت. خلال تسعة أشهر من صدور كتاب استهلالات، بيع منه 806 نسخ. ليس الكثير، ربّما، لكنْ، وفقاً لمقاييس تومولت، فقد حقّق أداءً لائقاً، حيثُ احتلَّ المرتبة الرابعة في قائمة الكُتُب الأكثر مبيعاً بعد مجموعة *آن من الشِّعْر الإباحي* (1486)، ورواية بيلي *رؤوس محطّمة* (1141)، ومُذكّرات بو غير المحتشمة عن حياة شواذّ وسط المدينة بعد هبوط الظلام (966). في أواخر شهر أيّار، اشترى فيرغسون مئة نسخة من كتابه مقابل دولارين لكل نسخة، ووضعها داخل صناديق في قبو المنزل في وودهول كريسنت، ثمّ عاد إلى نيويورك في المساء ذاته لحضور حفلة مزدحمة في شقّة بيلي، حيث اجتمع الذين عملوا كلّهم في تومولت للكُتُب، ونشروا فيها، برفقة زوجاتهم، أو أزواجهنّ، أو عشيقاتهم، أو عشّاقهنّ، كي يسكروا، ويلعنوا اسم فيكتور كرانتز. ثمّة ما كان حتّى أكثر إثارة للحزن؛ بعد أن أصبحت جوانا حاملاً مرّة أخرى، وصار بيلي يعمل كناقل مفروشات لكسب المزيد من المال

للمنزل، حانت تلك اللحظة الحتمية عندما نهض بيلي عن كرسي في وسط الحفلة، وأعلنَ نهاية دار غيزمو، لكنْ، على الأقلّ، قال بيلي الذي كان يصيحُ بثمالة وقد تورّمت الأوردة في رقبته، على الأقلّ، سأواصلُ العملَ إلى أن أنشر الكُتُب والكرّاسات كلها التي وعدتُ بنشرها، *لأنني شخصٌ يفي بتعهّداته!* كانت إشارة ثاقبة إلى المقابس المسحوبة في تومولت، وصفّق الجميع لبيلي، وأشادوا بكونه رجلاً يحترم كلمته، بينما كانت جوانا واقفة إلى جانبه، والدمع ينسكب على وجنتيها، وإلى جانبها ماري التي كانت تلفّ ذراعها على كتف شقيقتها، ثمّ أخرجت ماري منديلاً، وبدأت تكفكف الدمع عن وجه جوانا، أما فيرغسون الذي كان يقف في مكان قريب، ويراقبُ المشهد بعناية، فقد أحبّ ما فعلتُه ماري.

بناءً على نصيحة بيلي، وجدَ فيرغسون لنفسه وكيلة أدبية للتعامل مع مسألة العثور على ناشر جديد. كان اسمها لين إبرهاردت، وما من داعٍ للقول بأنها كانت وكيلة بيلي أيضاً (ليس بسبب انتهاء بيلي من تأليف كتاب آخر، لكنْ، لأنها كانت تأمل أن توقّع عقداً لكتاب رؤوس محطّمة مع إحدى دور نشر الكُتُب ذات الأغلفة الورقية بعد إغلاق تومولت)، وقد شجّعَ رأيها في *عاصمة الحطام* فيرغسون، حيثُ وصفتها بأنها *رواية عبقرية ضدّ الحرب*، وذلك في الرسالة التي أرسلتها إليه، كي تخبره بقبولها كعميل، ثمّ بعد يومين، عبر الهاتف، وصفَتها بأنها *فيلم لبرغمان، أُعيد غرسه في أميركا، وتحويله إلى كلمات*. كانت لدى فيرغسون مشاعر مختلطة إزاء أفلام برغمان (أحبَّ بعضاً، ولم يُحبَّ أخرى)، لكنه فهم أن لين تعدّ ذلك إطراءً رفيعاً، فشكرها على تعليقها الكريم. كانت لين شابّة ومُتحمّسة؛ فتاة جميلة ضئيلة الحجم بشَعْر أشقر وشفتين ورديتين مُتألّقتين، وكان قد التقى بها صدفة قبل سنة تقريباً، وبعَدِّها وكيلة مُستقلّة شابّة، وبدون عملاء سابقين في خزينتها، فقد كانت في مهمّة للعثور على أفضل الكتّاب الشباب الجدد، وفي سنّ الثانية والعشرين وثلاثة أشهر من عمره، كان فيرغسون مثالياً. ثمّ شرعت بإرسال المخطوط إلى ناشري نيويورك الذين كانوا ضمن قائمتها، وواحدة تلو أخرى، توالَت رسائل الرفض. لم يعدّ أيٌّ من أولئك الناشرين أنّ كتاب فيرغسون سيّئ أو لا يستحقّ النشر، أو لا يُظهِر أيّ علامات على ما وصفه أحدهم بـ "الموهبة الرائعة"، لكنّهم أجمعوا على أن *عاصمة الحطام* غير *تجارية* إلى أبعد الحدود، لدرجة أنهم حتّى لو دفعوا خمسين دولاراً مُقدّماً، أو لم يدفعوا أي شيئاً مقدّماً على الإطلاق، فسيواجهون صعوبة في تعويض تكاليف طباعة الكتاب. بحلول نهاية السنة، وبعد أن سافرَ عبرَ مكاتب، وغرف بريد، أربع عشرة مؤسّسة نشر، تلقّى المخطوط أربع عشرة رسالة رفض.

أربع عشرة لكمة مستقيمة، وأوجعتْه كلٌّ منها.

لا تقلقْ، قالت لين. سأفكّر في حلّ.

تخرّجَ الأفراد الأربعة الأصغر سنّاً في العشيرة المتشابكة من جامعاتهم وكلّيّاتهم في أوائل حزيران؛ إيمي من برانديز، وهاوارد من برينستون، ونوح من جامعة نيويورك، وفيرغسون من مُعتزله الريفي بالقرب من محطّة مترو فلاتبوش في ميدوود، وبعد انتهاء حفلات التّخرّج، بدأ الأربعة رحلاتهم في المستقبل.

بعد أن أمضى الجزء الأكبر من مراهقته، وفتوّته كلها، بالاستعداد لحياة في عالم الأفلام، صدمَ نوح فيرغسون والآخرين عندما عكسَ مسارَهُ، وأعلن نيّته البقاء في المسرح من الآن فصاعداً. كان التمثيل في الأفلام بمثابة نشاط بلا فائدة، قال، خدعة آلية من التّوقّف والبداية لا يمكن مُقارنتها بالخدعة الحقيقية للأداء أمام جمهور مباشر بلا لقطات معادة، أو مقصّ محرّر ينقذكَ. كان قد أخرجَ ثلاثة أفلام قصيرة على حسابه الخاصّ، ومثّل في ثلاثة أخرى، لكنّه كان يودّع الآن شريط الفيلم، وينطلق لدراسة التمثيل والإخراج ثلاثي الأبعاد في كلّيّة ييل للدراما. لماذا المزيد من الدراسة؟ سأله فيرغسون. لأنني بحاجة إلى المزيد من التدريب، قال نوح، لكنْ، إذا تبيّن أنني لستُ كذلك، فسأترك الدراسة، وأعود إلى نيويورك، وأنتقل للعيش معكَ. هذه شقّة صغيرة للغاية، قال فيرغسون. أعلم ذلك، أجاب نوح، لكنكَ لن تُمانع النوم على الأرض، صحيح؟

المزيد من الدراسة لنوح، بعكس ما كان متوقّعاً، والمزيد من الدراسة لإيمي وهاوارد، كما وعَدا وخطّطا في السابق. سيلتحقان بجامعة كولومبيا، وعلاوة عن ملذّات الحياة العاطفية، ستعمل إيمي للحصول على درجة الدكتوراه في التاريخ الأميركي، بيد أن هاوارد عدل عن الفلسفة، وسيدرُس في قسم الأدب الكلاسيكي، حيثُ سيكون في وسعه التّعمّق إلى أبعد الحدود في الأقوال المأثورة من حقبة ما قبل سقراط، ولن يضطرّ لإضاعة وقته في التحليلات الأنجلو - أميركية البليدة السائدة حالياً. واشنطن، أجل، لكنْ، كان كوين يتسبّب له بالصداع، كما قال، وقراءة ستراوسن أشبه بمضغ الزجاج. كان فيرغسون يدرك مدى عشق هاوارد ليونانييه القدماء (أصبح تأثير نيغل أعمق وأكثر استدامة على هاوارد ممّا كان عليه)، لكنْ، لم يستطع فيرغسون إلا أن يشعر بشيء من خيبة الأمل إزاء قرار صديقه، إذ بدا له أن هاوارد مؤهّل للفنّ أكثر من البحث الأدبي، وكان يريد له أن يمضي قُدماً إلى أبعد الحدود مع أقلام الحبر والرصاص، ويسعى إلى تحقيق نجاح فيما يتعلّق برسوماته، ويطلق العنان لليد التي كانت أكثر براعة بالفعل من اليد الماهرة لوالد إيمي، وبعد أغلفة الكُتُب التي رسمها لبيلي، والرسوم الكاريكاتورية التي نشرها في برينستون *تايغر*، ومباريات التنس المضحكة للغاية، وعشرات الأعاجيب التي صنعها على مرّ السنين، وفي النهاية، واجهَ فيرغسون هاوارد، وسأله عن سبب التحاقه بقسم الكلاسيكيات، وليس الفنّ؟ قال زميله السابق في السَّكَن، لأنّ الفنّ سهل جدّاً بالنسبة إليّ، ومن المستحيل

أن أصير أفضل ممّا أنا عليه الآن. إنني أبحث عن شيء قادرٍ على اختباري؛ فرغٌ معرفي يدفعُني إلى مكان أبعد ممّا يمكن أن أصل إليه. هل تفهم ما أقصد، يا آرتشي؟ أجل، مفهوم، وربّما كان منطقياً للغاية، لكنْ، كان فيرغسون لا يزال خائب الأمل.

أما بالنسبة إلى فيرغسون نفسه، فلم يكن هناك أي أسئلة بصدد المزيد من الدراسة. كفى تعني كفى، كما أعلن أمام الأفراد الآخرين من العشيرة، وفي وقت متأخّر من ذلك الربيع، وجد لنفسه عملاً، وكان بالضبط من قبيل الأعمال التي يستنكرها والده؛ عمل من شأنه بلا شكٍّ أن يجعله يتقلّب في قبره، بيد أن والد فريتز مانجيني، الذي كان الأذكى والأكثر موثوقية بين أصدقاء فيرغسون في كلّيّة بروكلن، كان مديراً لشركة مقاولات، وكان طلاءُ الشقق من ضمن الخدمات التي تقدّمها تلك الشركة، وعندما أخبر فريتز فيرغسون بأن والده يبحث عن دهّان آخر لضمّه إلى الفريق في ذلك الصيف، التقى فيرغسون السّيّد مانجيني في مكتبه بشارع ديسبروسيس جنوبيّ مانهاتن، ووافق الأخير على توظيفه. لم يكن عملاً مُنتظماً بمعدّل خمسة أيّام في الأسبوع على غرار مُعظم الأعمال، لكنْ، بالمياومة، ومع فترات استراحة قصيرة بين الورشات، وسيكون ذلك مُناسباً تماماً لغاياته، كما فكّر، أن يعمل لأسبوع أو اثنين، ثمّ يتوقّف لأسبوع أو اثنين، وسيجني من فترات العمل مالاً يكفي لمصاريف طعامه وسكنه خلال فترات التّوقّف. والآن بعد تخرّجه في الكلّيّة، صار كاتباً ودهّاناً في الوقت ذاته، لكنْ، لأنه كان قد فرغ مؤخّراً من روايته الأولى ولم يكن مُستعدّاً بعدُ للبدء بشيء جديد (كان دماغه منهَكاً وفارغاً من الأفكار)، فقد كان دهّاناً في المقام الأوّل.

ستمضي إيمي قدماً دون مواجهة أي عراقيل في طريقها، لكنْ، كانت خطط الثلاثة الآخرين متوقّفة على ما حدث معهم خلال اختبار الكفاءة الجسدية العسكرية وبعدَه، والذي كان موعده مقرّراً في ذلك الصيف؛ اختبار هاوارد في أواسط تمّوز، ونوح في أوائل آب، وفيرغسون في أواخر آب. في حال وقع استدعاؤهم للخدمة العسكرية، سيقرّر هاوارد ونوح السير على خُطى لوثر بوند والذهاب شمالاً إلى كندا، بيد أن فيرغسون، الذي كان أكثر عناداً وتهوّراً ممّا كانا عليه، قرّر المخاطرة بالذهاب إلى السجن. كانت لدى الفصيل المؤيّد للحرب ألقاب للأشخاص من أمثالهم - *فارّون من الخدمة العسكرية، جبناء، خونة لبلادهم* - لكنْ، لم يكن الأصدقاء الثلاثة ليعارضوا القتال من أجل أميركا في حرب يشعرون أنها عادلة، وبما أن أيّاً منهم لم يكن داعية سلام مُعادياً للحروب كلها، كانوا مُعارضين لهذه الحرب فقط، حيثُ عدّوا أنها غير مُبرّرة على الصعيد الأخلاقي، وليست مجرّد خطأ سياسي فادح، بل عملاً جنونياً إجرامياً، فقد حتّمَ عليهم واجبهم الوطني أن يرفضوا المشاركة فيها. والد هاوارد، ووالد نوح،

وزوج والدة فيرغسون؛ كانوا جميعاً جنوداً في الحرب العالمية الثانية، وكان الابنان والربيب معجبين بهم، لأنهم قاتلوا في المعركة ضدّ الفاشية، وعدّوا أنها حرب عادلة، بيد أن فييتنام كانت شيئاً مختلفاً، وكم كان مُريحاً بالنسبة إلى أفراد العشيرة الكبيرة المُتشابكة جميعهم معرفة أنّ المحاربين القدامى الثلاثة في تلك الحرب واقفون في صفّ الابنين والربيب ضدّ هذه الحرب.

معركة تلّ الهامبرغر، وعملية ثلج الأباتشي في وادي شاو، ومعركة البينها با في مقاطعة بوكو توي. كانت تلك بعض الأسماء والأماكن التي وردَت من فييتنام في الأسابيع التي سبقَت تخرّج الثلاثة، وأعقبَتْه، وبينما كانوا يُعدّون أنفسهم لزياراتهم إلى شعبتي التجنيد في نيوآرك (هاوارد)، وشارع وايتهول في مانهاتن (نوح وفيرغسون)، استشار هاوارد ونوح عدداً من الأطبّاء بصدد أمراض وهمية، كانا يأملان أن تُكسبَهما أحدَ تصنيفَين؛ 4-F (غير لائق للخدمة العسكرية)، أو 1-Y (لائق للخدمة العسكرية، لكنْ، فقط في حالات الضرورة القصوى)، ممّا من شأنه أن يُجنّبهما مشقّة الانتقال إلى كندا. عانى هاوارد من الحساسية تجاه الغبار، والعشب، وعشبة الخنازير، وعصا الذهب، وأنواع أخرى من غبار الطلع الذي ينتقل جوّاً خلال الربيع والصيف (حمّى القشّ)، بيد أن طبيبه العطوف المناهض للحرب كتبَ رسالة أكّد فيها أنه أيضاً يعاني من الربو؛ مرض مزمن، قد يضمن لهاوارد إعفاءً طبّيّاً. ذهب نوح مُسلّحاً برسالة أيضاً؛ تقرير من المُحلّل النفسي المناهض للحرب، والذي كان يزوره مرّتين في الأسبوع على مدى الأشهر السّتّة الماضية، يوثّق فيه الخوف العصابي لدى مريضه من المساحات المفتوحة (رهاب الساح)، والذي يتطوّر في أوقات الإجهاد المُفرط إلى جنون ارتياب تامّ، والذي، عند اقترانه بميوله المِثْليّة الكامنة، يجعل من المستحيل بالنسبة إليه العمل بصورة طبيعية في بيئات ذكورية. عندما أخرج نوح الرسالة، وعرضها على فيرغسون، هزّ رأسه، وضحك. انظرْ إليّ، يا آرتشي، قال. أنا خطر على المجتمع. أنا معتوه إلى أقصى درجة.

هل تظنّ أن الطبيب يُصدّق أيّاً من هذا الهراء؟ سأل فيرغسون.

مَنْ يدري؟ أجاب نوح. ثمّ، بعد صمت قصير، أطلقَ ضحكة أخرى، وقال: على الأرجح.

لتحقيق أفضل النتائج، افترضَ فيرغسون أن عليه الذهاب إلى طبيب بنفسه، وفعل شيء مشابه لما فعله هاوارد ونوح، لكنْ، بحسب ما أدركَه القارئ حتّى الآن، لم يكن فيرغسون يتصرّف دائماً بما يحقّق له أفضل النتائج. في صباح يوم الاثنين، الخامس والعشرين من شهر آب، ظهرَ في المركز التعريفي في شارع وايتهول دون رسالة يُقدّمها إلى الطاقم الطّبّيّ العسكري عن أي أمراض عقلية أو جسدية، حقيقية أو زائفة. كان صحيحاً أنه عانى من حمّى القشّ عندما كان

طفلاً، لكنْ، بدا أنه شُفي منها في السنوات الأخيرة، ولم يكن للحالة الوحيدة التي كانت لديه، تلك التي وضعَتهُ في منزلة بغل ناطق، أي علاقة بالمشكلة الراهنة.

تجوَّلَ في المبنى بسرواله التّحتيّ الأبيض، مصحوباً بحشد من الشباب الآخرين الذين كانوا يتجوّلون بسراويلهم التّحتيّة البيضاء. شباب بيض، وشباب بنّيّون، وشباب سود، وشباب صفر - جميعهم يواجهون المشكلة نفسها. أجرى الامتحان الكتابي، وأخذوا مقاسات جسدِه، ووزنوه، وفحصوه بدقّة، ثمّ عاد إلى منزله متسائلاً عن ما سيحدث له لاحقاً.

توفيّ هو شي منه في الثاني من أيلول عن عمرٍ ناهز التاسعة والسبعين سنة. سمع فيرغسون، الذي كان في ورشته الرابعة لصالح السّيّد مانجيني منذ بداية الصيف الخبر عبر المذياع بينما كان واقفاً على سلّم يدهن سقف مطبخ شقّة من ثلاث غرف نوم في غرب سنترال بارك ما بين الشارعينَ الثالث والثمانين والرابع والثمانين. مات العمّ 'هُوْ'، لكنْ، لن يتغيّر شيء بسبب ذلك، وستستمرّ الحرب إلى أن يُخضِع الشمالُ الجنوبَ، ويُطردَ الأميركيون. كان هذا مؤكّداً، قال لنفسه بينما غمس فرشاته في علبة الدهان من أجل جولة طلاء أخرى للسقف، بيد أن أموراً عديدة أخرى ليست كذلك. لماذا وصلَت الرسالة التي تحمل موعد اختباره الجسدي بعد شهر كامل من وصول رسالتَي هاوارد ونوح، على سبيل المثال؟ أو لماذا حصل هاوارد على تصنيفه الجديد من شعبة التجنيد في نيوآرك (Y-1) لكنْ، بعد فترة زمنية مساوية، ما يزال نوح لم يسمع أي خبر من الشعبة في مانهاتن؟ كان كلّ شيء تعسّفياً للغاية، كما بدا، نظامٌ يعملُ بيدين مُستقلّتين، كلّ منهما غير مُدرِكة لما تفعله الأخرى بينما تنفّذان مهمّات مُنفصلة، وبعد أن كان الاختبار الجسدي أمامه، لم يكن واضحاً كم سينتظر من وقت.

كان يُعدُّ نفسه للأسوأ، وطوال الصيف وأوائل الخريف، لم يتوقّف عن التفكير بالسجن، وبأن يُحبَس ضدّ إرادته، ويُجبرَ على الخضوع إلى القواعد والأوامر المتقلّبة لسجّانيه، وبخطر التّعرّض للاغتصاب من قِبَل واحد أو أكثر من زملائه السجناء، وعن تقاسم زنزانة مع مجرم خطير عنيف، يقضي عقوبة سجن لمدّة سبع سنوات بتهمة سطو مسلّح، أو مئة سنة بتهمة قتل. ثمّ سينجرف عقله بعيداً عن الحاضر، وسيشرع بالتفكير في *الكونت دي مونت كريستو*، الكتاب الذي قرأه عندما كان صبياً في الثانية عشرة من عمره؛ إدموند دانتيس الذي سُجِن لمدّة أربع عشرة سنة في قلعة إف، بسبب تهمة باطلة، أو عتمة في *الظهيرة*؛ الرواية التي قرأها عندما كان في الصّفّ الثامن، والتي يتبادلُ فيها رجلان سجينان في زنزانتين متجاورتين رسائل مشفّرة عبر جدار، أو العدد الهائل من أفلام السجون التي شاهدها على مرّ السنين، ومن بينها *الوهم الكبير*، وهروب رجل، *وأنا طريد العدالة* ومن *سلسلة عصابات*، ودريفوس في جزيرة الشيطان في *حياة إيميل*

زولا، وشغب في عنبر السجن 11، و*البيت الكبير*، وعشرون *ألف سنة في سينغ سينغ*، و*الرجل ذو القناع الحديدي*، والذي كان مقتبساً عن رواية أخرى لدوماس، يتعرّض فيها الأخ التوأم الشّرّير للخنق من لحيته حتّى الموت.

فقسَت أفكار مُتخبّطة عصبيّة داخل جهازي تفريخ مزدوجَين من الريبة والهلع المتزايد باطّراد.

لطالما كان الصيف فترة مُكثّفة بالنسبة إليه، لكنْ، لم يُنجز فيرغسون في ذلك الصيف سوى القليل باستثناء قراءة رسائل الرفض الأربع الأولى التي وصلَت بخصوص *عاصمة الحطام*. بعد شهر من وفاة هو شي منه، كان العدد قد ارتفع إلى سبع.

طوال صيف تلك السنة وخريفها، بينما كرّس فيرغسون وقته للسّيّد مانجيني، وتفكّر ملياً بالمستقبل الغامض الذي ينتظرُه، كان ثمّة رجل يُفجّر القنابل في أرجاء نيويورك. كان سام ملفيل، أو صامويل ملفيل، قد وُلِد في غروسمان في سنة 1934، لكنه غيّرَ اسمه تكريماً لذكرى الرجل الذين كتب *موبي ديك*، أو تكريماً للمخرج الفرنسي جان بيير ملفيل، والذي كان اسمُه منذ الولادة جان بيير غرومباخ، أو بلا تكريم لأحد وبلا أي سبب على الإطلاق، باستثناء فصل اسمه ربّما عن اسم والده. ماركسي مستقلّ مُتحالف مع ويذرمن والفهود السود، لكنْ، يعمل بمفرده بصورة رئيسة (أحياناً مع شريك أو اثنين، لكنْ، في معظم الأحيان يعمل وحيداً)، زرعَ ملفيل قنبلته الأولى في السابع والعشرين من تمّوز، وألحقَت أضراراً بغرايس بيير على الواجهة المائية لنيويورك، والتي كانت مُنشأة تملكها شركة يونايتد فروتس؛ المستغلّة القديمة للمزارعين المسحوقين من أميركا الوسطى والجنوبية. في العشرين من آب، هاجمَ مبنى مصرف مارين ميدلاند؛ وفي التاسع عشر من أيلول، مكاتب وزارة التجارة والمفتّش العامّ للجيش في مبنى المكتب الفيدرالي في الجزء الأدنى من برودواي. وشملت الأهداف اللاحقة كلاً من مكاتب ستاندرد أويل في مبنى RCA، والمقرّ الرئيس لمصرف تشيس مانهاتن، وفي الحادي عشر من تشرين الثاني، مبنى جنرال موتورز في الجادّة الخامسة، لكنْ، في اليوم التالي، عندما تهيّأ ملفيل لتفجير مبنى المحاكم الجنائية في شارع المركز، حيثُ كانت تُعقَد محاكمة الفهود الأحد عشر، ارتكب خطأ عندما اختار مُخبِراً لمكتب التحقيقات الفيدرالي كشريك له، وقُبِضَ عليه مُتلبِّساً. زُجّ في سجن التومبز في نيسان من سنة 1970، حيثُ نظّم إضراباً بين السجناء، ممّا أدّى إلى نقله إلى سينغ سينغ في تمّوز، حيثُ نظّم إضراباً آخر في السجن، ممّا أدّى إلى نقله مرّة أخرى في أيلول إلى منشأة أتيكا الإصلاحية بحماية قصوى في الجزء الشمالي من نيويورك.

وفقاً لكل ما كُتب وقيل، كانت التّطرُّف المتنامي لدى ملفيل مدفوعاً بأحداث كولومبيا في ربيع سنة 1968. خلال ليلة المداهمة التي جرت في الثلاثين من نيسان، ظهرَ مُصمّم السباكة

السابق ذو الأربع والثلاثين سنة في الحرم الجامعي، كي يمدّ يد العون إلى الطلاب، وفي خضمّ الفوضى العنيفة لحشد من ألف شرطي، وسبع مائة طالب مُعتقَل، واعتداءات لا حصر لها على أصحاب الشارات الخضراء والبيضاء، حثّ ملفيل الطلاب على المقاومة ومحاربة الشرطة. وبمساعدة عصابة صغيرة من المتظاهرين، بدأ بجرّ حاويات القمامة الكبيرة الصلبة المصنوعة من الفولاذ المطليّ بالكبريت إلى سقف مكتبة *لو*، ليرميها على الشرطة في الأسفل. كان الطلاب الشباب خائفين، غير مستعدّين إطلاقاً للمشاركة في مثل هذا العمل المتهوّر، وتفرّقوا في جنح الظلام. ثمّ سرعان ما اكتشف عناصر الشرطة ملفيل، واقتادوه إلى مبنى آخر، حيثُ ضُربوا بشدّة بالهراوات، وتركوه مربوطاً إلى كرسي. وبعد بضعة أيّام من ذلك، انضمّ إلى لجنة العمل المجتمعي المحلّيّة؛ وكانت مجموعة تعارض سياسة كولومبيا بصدد طرد المستأجرين الفقراء من المباني التي تملكها الجامعة، وفي إحدى مظاهرات اللجنة أمام سانت ماركس آرمز في غربيّ الشارع 112، قُبِضَ عليه مع العديد من الأعضاء الآخرين في المجموعة.

كانت كولومبيا قد أضرمَت النار في داخله، وبحلول السنة التالية، بدأ حملتَه التفجيرية في أنحاء المدينة جميعها. أنجزَ الهجمات الأولى بإتقان فائق، لدرجة أنه ظلّ طليقاً لثلاثة أشهر ونصف، غير مُكتشَف أو قابل للتّعقُّب. أطلقت عليه الصحف الشعبية لقب المُفجِّر المجنون.

لم يلتقِ فيرغسون بسام ملفيل قطّ، ولم تكن لديه أي فكرة عنه قبل اعتقاله في الثاني عشر من تشرين الثاني، لكنْ، تقاطعت قصّتاهما عند التفجير الرابع والأكثر تدميراً من أصل التفجيرات الثمانية، تقاطعَت بطريقة غيّرت مجرى حياة فيرغسون؛ إذ كان من المؤكّد أن الخرّيج الجامعي اللائق المعافى سيحصل على تصنيف 1-A من قِبَل شعبة التجنيد، ممّا كان سيفتحُ الطريق لمحاكمة في محكمة فيدرالية وعقوبة في سجن فيدرالي، لكنْ، عندما فجّرَ ملفيل المركز التعريفي للجيش في شارع وايتهول في أوائل تشرين الأوّل، كان فيرغسون لم يتلقّ بعدُ أي شيء بشأن تصنيفه، وعندما لم يصل أي شيء لبقية الشهر، ولا أي شيء طوال تشرين الثاني، طوّر فيرغسون بحذر نظريةً مفادها أن سجلات الجيش قد دُمِّرت بفعل قنبلة ملفيل؛ أي أنّه، كما كان يُحبُّ أن يقول لنفسه، *أصبح خارج الدفاتر*.

بعبارة أخرى، إذا كان فيرغسون خارج الدفاتر حقّاً، فقد أنقذ سام ملفيل حياته. لقد أنقذ الملقّبُ بالمفجّر المجنون حياتَه وحياة مئات، إن لم يكن آلافاً، من الآخرين، ثمّ ضحّى ملفيل بحياته عندما ذهب إلى السجن من *أجلهم*.

أو هكذا تخيّل فيرغسون، أو هكذا أمِل، أو صلّى لأجل أن يكون هذا حقيقياً، لكنْ، سواء أكان خارج الدفاتر أم لا، فإنه ثمّة جسراً واحداً بعد ينبغي قطعه قبل أن تُحلّ المسألة. غيّرَ نيكسون

القانون. لم يعد نظام الخدمة الانتقائية قائماً على المجموعة الكاملة من الرجال الأميركيين الذين تتراوح أعمارهم ما بين الثامنة عشرة والسادسة والعشرين لملء صفوف الجيش، لكنْ، على البعض منهم فقط؛ أولئك الذين سيحقّقون الأرقام الأدنى في قرعة التجنيد الجديدة، والتي ستُجرى في يوم الاثنين، الأوّل من كانون الأوّل. ثلاثمائة وستّة وستون رَقْماً مُحتملاً؛ رَقْم لكل يوم من أيّام السنة، بما في ذلك السنة الكبيسة؛ رَقْم لميلاد لكل شابّ في الولايات المتّحدة، قرعة عمياء للأرقام تُخبرُكَ ما إذا كنتَ حرّاً أم لا، وما إذا كنتَ ستسافر للقتال أم ستبقى في الوطن، وما إذا كنتَ ستذهب إلى السجن أم لن تذهب إلى السجن، ستُنحَتُ الصورةُ الكاملة لحياتكَ المستقبلية على أيدي الجنرال حظٌ مَحض؛ قائدُ التوابيت، وجّرات حفظ رماد الموتى، والمقابر الوطنية كلها.

عَبَث.

تحوّلَت البلاد إلى كازينو، ولم يكن حتّى مَسموحاً لكَ برمي نردكَ بنفسكَ. سترميه الحكومة من أجلكَ. سيكون أيّ رَقْم أقلّ من ثمانين أو مئة خطراً. أما أي شيء فوق ذلك، فسيكون: شكراً، *يا مولاي*.

كان رَقْمُ الثالثِ من آذار مئتين وثلاثة وستّون.

لا رفعة هذه المرّة، لا صاعقة أو تيّاراً كهربائياً في أوردته، لا زعفرانة أرجوانية تبرزُ عبر الثلج المسودّ، ولكنْ، شعور مفاجئ بالهدوء، ربمّا حتّى الاستسلام، ربمّا حتّى الحزن. لقد كان مستعدّاً لفعل الشيء الجريء الذي وعدَ به، ولم يعد مضطرّاً إلى فعله الآن. لم يعد حتّى مضطرّاً إلى التفكير به. انهَضْ وتنفّسْ، انهَضْ وتحرّكْ، انهَضْ وافهَمِ العالم، وبينما نهض فيرغسون وتنفّس وتحرّك وفهم العالم، أدرك أنه كان يعيش في حالة الشلل على مدى الأشهر الخمسة الماضية.

يا أبي، قال لنفسه، يا أبي الغريب المتوفىّ، لن يعيش ابنكَ وراء القضبان. ابنكَ حرّ بالذهاب أينما يشاء. صلِّ لأجل ابنكَ، يا أبي، مثلما يُصليّ لأجلكَ تماماً.

جلس فيرغسون من جديد وراء مكتبه، وبحث في الصحيفة عن السادس عشر من حزيران؛ يوم ميلاد نوح.

رَقْم 274.

ثمّ هاوارد، في الثاني والعشرين من كانون الثاني.

رَقْم 337.

في وقت متأخّر من ظهيرة اليوم التالي، غادر نوح نيو هيفن، والتقى في الساعة السابعة

بفيرغسون وهاوارد في ويست إند، وبدؤوا المساء بجولة من المشروبات، الخروج لتناول عشاء صيني احتفالي في مون بالاس، على بُعد كتلتين سكنيتين إلى جنوب برودواي. لكنْ، لأنهم شعروا بالارتياح في حجرتهم الأمامية، قرّروا البقاء في ويست إند، وعدم الذهاب إلى المطعم، وتناولوا في حانتهم المفضّلة عشاءً كريهاً من اللحم البقري المطبوخ والمكرونة، وظلّوا حتّى الساعة الثانية والنصف صباحاً بينما أفرطوا في شرب كمّيّات كبيرة من الكحول من أنواع مختلفة؛ السكوتش عموماً بالنسبة إلى فيرغسون، سكوتش ممزوج متوسّط الجودة أفضى به إلى رحلة وعرة في أدنى درجات السُّكْر، لكنْ، بعد تحرُّره من خدَره الطيني المصحوب برؤية مزدوجة، ثمّ جَرِّه من قِبَل رفيقيه الثملين إلى شقّة هاوارد وإيمي في الشارع 113 غربي، حيثُ قضى الساعات الأولى من الصباح مغمياً عليه على الأريكة، تذكَّر أن هاوارد ونوحاً اجتمعا ضدّه في مرحلة ما، وانتقداه في أشياء كثيرة، وكان ما يزال قادراً على تذكّر بعضها، وغير قادر على تذكّر بعضه آخر، لكنْ، من بين ما استطاع تذكّره كان الآتي:

كان مُغفّلاً عندما لم يضع يده على المال الذي تركه والدُه.

بمساعدة المال الذي لم يضع يده عليه بعد، في وسعه أن يودّع أميركا، ويسافر عبر الأطلسي، ويقضي سنة على الأقلّ في أوروبا. لقد فعل الكثير في حياته القصيرة البائسة، وعليه أن يبدأ بالسفر *الآن*.

نسيانُ أن ماري دونوهيو قد وجدت لنفسها شابّها الوسيم، وحديثها عن الزواج، فعلى الرغم من أن ماري كانت فتاة رائعة، وأبقَت فيرغسون مُتماسكاً في أحلك الأوقات، إلا أنه ليس ثمّة مستقبل لهما معاً، إذ لم يكن مَنْ كانت تريدُه أو تحتاجه، وليس لديه أي شيء، كي يقدّمه إليها.

إن رسائل الرفض الاثنتي عشرة التي تلقّاها من الناشرين في نيويورك لا تستحقّ القلق، وحتّى لو تلقّى مثلها من ناشرين آخرين، فإن شخصاً ما سينشر الكتاب في نهاية المطاف، والشيء الوحيد المهمّ الآن أن يبدأ التفكير بكتابه التالي ...

وبحسب ما تذكَّرهُ فيرغسون، فقد وافقهما على ملاحظاتهما جميعها.

لأنه كان موظّفاً ذا ضمير حيّ، ولأنه لم يُرد أن يخذل زملاءه في فريق العمل بالوصول متأخّراً، وصل فيرغسون إلى العمل عند الساعة التاسعة تماماً من صباح اليوم التالي. كان قد نام لأربع ساعات ونصف على أريكة هاوارد وإيمي، وبعد شرب ثلاثة فناجين من القهوة السادة في مطعم توم عند تقاطع برودواي والشارع 112، مشى إلى موقع العمل في ريفرسايد درايف بين الشارعين الثامن والثمانين والتاسع والثمانين؛ كانت شقّة ضخمة من أربع غرف نوم، وكان قد باشر العمل

على طلائها قبل أيّام قليلة برفقة خوان، وفيليكس، وهاري. كان الهواء متجمّداً في ذلك الصباح، وكان فيرغسون يعاني من خُمار سيّئ للغاية، بعينين محتقنتين بالدم، وصداع في الرأس، وأمعاء منتفخة، ويمشي بخطوات مضطربة وسط المدينة ووجهه داخل وشاحه، والذي بدأت تصدُر منه رائحة الكحول الكريهة التي لا تزال ترافق أنفاسه. قال خوان: ماذا جرى لكَ، يا رجل؟ وقال فيليكس: تبدو مُنهَكاً، يا فتى. وقال هاري: لِمَ لا تعود إلى المنزل وتنال قسطاً من الراحة؟ لكن فيرغسون لم يرد العودة إلى المنزل ونيل قسط من الراحة، كان على ما يرام، وعاد إلى العمل، لكنْ، بعد ساعة، بينما كان واقفاً على سلّم طويل قابل للتّمدُّد، ويطلي سقف مطبخ آخر، فقدَ توازنه، وسقطَ على الأرض، فانكسر كاحله الأيسر ورسغ يده اليسرى. طلبَ هاري سيّارة إسعاف، وبعد أن جبَّر الطبيب في مستشفى روزفلت عظمتي الرسغ والكاحل، نظرَ إلى صنيعه، وعلّق: سقطة قاسية، أيّها الفتى الشّابّ. من حسن حظّكَ أنكَ لم تسقط على رأسكَ.

أمضى فيرغسون الأسابيع السّتّة التالية في المنزل في وودهول كريسنت، مُتخِماً نفسه بطبخ والدته اللذيذ، إلى أن التأمَت عظمتاه مرّة أخرى، ولعب الكونكان مع دان في الأُمسيّات بعد تناول العشاء، وجلس في غرفة المعيشة مع الرجُلَين شنايدرمان لمشاهدة مباريات النيكس على شاشة التلفاز، بينما تخرج والدته ونانسي الحبلى إلى المطبخ لتتحدّثا عن أسرار الأنوثة، والحياة المنزلية، ومسرّة التواجد في المنزل لبعض الوقت حتّى يأخذ *استراحته الإجباريّة* (كلماتُ دان) أو *يُجري جَرداً* (كلماتُ والدته) أو يفكّر بما سيفعله لاحقاً.

رحلت ماري، وستتزوّج قريباً من شابّ ذكي أميركي لاتيني يُدعى بوب ستانتون؛ من كوينز، وفي الحادية والثلاثين من عمره، ويعمل كمساعد للنائب العامّ، شخص أكثر استقراراً بكثير من فيرغسون، وليس قراراً طائشاً، كما شعر، غير أنها لذعة سيستغرق شفاؤها وقتاً أطول من اللازم لالتئام عظمتيه، ومع رحيل ماري، لم يعد هناك ما يجعله يتمسّك بالبقاء في نيويورك، ولا شيء يُجبره على مواصلة العمل كدهّان منازل لدى السّيّد مانجيني، إذ تحدّث نوح وهاوارد أخيراً ببعض المنطق في ليلة سُكرهم المفرط، وكان قد عَكسَ منحى تفكيره بصدد أموال والده، ووافق معهما على مضض بأن عدم قبولها سيكون بمثابة إهانة. كان والده ميتاً، وليس بمقدور الموتى أن يدافعوا عن أنفسهم. وبغضّ النظر عن حجم الغضب الذي نما بينهما على مرّ السنين، فإن والده أدرجه في وصيته، ممّا عنى أنه كان يريد لفيرغسون أخذ مئة ألف دولار، واستخدامها بأي طريقها تناسبه، مع معرفته بأن كلمة "تُناسبه" تعني في هذه الحالة العيش على المال من أجل الاستمرار في الكتابة، من المؤكّد أن والده كان يعلم ذلك، فكّرَ فيرغسون مُبرِّراً، والحقيقة أنه ما يزال هناك بعض الغضب في داخله، لكنْ، كلّما مضى وقت أطول على وفاة والده، تضاءل

الغضب الذي كان يشعر به، وصارَ الحيِّزُ الذي كان يَسكنُهُ الغضب في السابق طافحاً بالأسى والارتباك، الأسى والارتباك والندم.

كان مالاً كثيراً، مالاً يكفي للعيش لسنوات، إذا ما أنفقَه بعناية، وقد فعل هاوارد ونوح خيراً عندما شدّدا على أهمّيّة ذلك المال، وكانا حكيمَين عندما نصحا بالصبر بصدد مسألة رواية فيرغسون المرفوضة (وجدَت لين إبرهاردت مكاناً أخيراً، وذلك في أوائل شباط، عندما أرسلت المخطوط إلى منشورات كولومبوس؛ وكانت دار نشر صغيرة جريئة ومتميّزة، مقرّها في سان فرانسيسكو، وتُصدر الكُتُب منذ الخمسينيات)، لكن الأهمّ من ذلك أنهما جَعلاهُ يفهم أن المال سيسمحُ له باتّخاذ الخطوة الأكثر جدوى في ظلّ الظروف الراهنة، وبينما كان مُسترخياً في المنزل في وودهول كريسنت، يبحث في ضباب من الإمكانيات التي سيوفّرها المال له، فتحَ عينيه تدريجياً على وجهة نظر صديقيه: لقد حان وقت الخروج من أميركا ورؤيةِ العالم بعض الشيء؛ أن يتركَ الحريقَ وراء ظهره، ويذهبَ إلى مكان آخر - أيّ مكان آخر.

على مدى الأسبوعين التاليين، فكّر فيرغسون ملياً، وبحثَ طويلاً، وواحداً تلو آخر، خفّضَ العدد الهائل من الأماكن إلى خمسة، فثلاثة، ثمّ واحد. كانت اللغةُ كلمةَ الفصل، لكنْ، على الرغم من أن السّكّان يتحدّثون الإنكليزية في إنكلترا وأيرلندا، لم يكن واثقاً من أنه سيعيش بسعادة في أي من هاتين الدولتين الرطبَتين الماطرتين. كانت باريس مطيرة أيضاً، بطبيعة الحال، بيد أن الفرنسية كانت اللغة الوحيدة الأخرى التي يستطيعُ تحدّثها وقراءتها بطلاقة مقبولة، وبما أنه لم يسمع يوماً أحداً يتفوّه بكلمة سلبية واحدة عن باريس، قرّر أن يُجرِّب حظّه هناك. ومن باب الإحماء، سيذهبُ إلى مونتريال في زيارة قصيرة للوثر بوند الذي كان بخير وعافية في بلده الجديد، حيثُ بدأ دراسته في ماكجيل، في الوقت نفسه تقريباً الذي التحقَ فيه فيرغسون بكلّيّة بروكلن، وبعد تخرُّجه، كان يعمل مُراسلاً مُتدرِّباً في صحيفة *مونتريال غازيت*، ويعيش مع حبيبته الجديدة، كلير، كلير سيمبسون أو سامبسون (كان من الصعب فكّ تشفير خطّ يد لوثر في الكثير من الأحيان)، وكان فيرغسون يتحرّق شوقاً إلى الذهاب شمالاً، ويتحرّق شوقاً إلى الذهاب شرقاً، ويتحرّق شوقاً إلى الرحيل.

علِم أنه سيكون قادراً على المشي مرّة أخرى على كاحله بحلول نهاية كانون الثاني، وكانت تلك مدّة أكثر من كافية لإخلاء الشّقّة في شرقي الشارع التاسع والثمانين، وتجهيز نفسه للخطوة الكبيرة.

ثمّ، في الأوّل من كانون الثاني، وبينما كان فيرغسون على وشك تناول اللقمة الأولى من فطوره الأوّل في العقد الجديد، أخبرتْه والدته نكتة.

من الواضح أنها كانت نكتة قديمة، نكتة تدور في غرف المعيشة اليهودية منذ سنين طويلة، لكنها، لسبب مجهول ما، كانت غائبة عن مسامع فيرغسون، وبطريقة أو بأخرى، لم يسبق له أن كان حاضراً في أي من غرف المعيشة تلك عندما قالها أحدهم، لكنْ، في صباح اليوم الأوّل من السنة الجديدة، 1970، أخبرَتْهُ والدتُه أخيراً بها في المطبخ: القصّة الكلاسيكية عن الشّابّ الروسي اليهودي ذي الاسم الطويل العَصيّ على اللفظ، والذي يصل إلى جزيرة إيليس، ويبدأ الحديث مع يهودي شرق أوروبي أكبر سنّاً وأكثر خبرة، وعندما يُخبر الشّابّ الرجلَ الأكبر سنّاً باسمه، يقطب الأخير حاجبيه، ويقول بأن الاسم الطويل الذي لا يُلفَظ لن يكون مُفيداً لحياته الجديدة في أميركا، وأنه بحاجة إلى استبداله آخر أقصر ذي رنّة أميركية لطيفة. ماذا تقترح؟ يسألُ الشّابّ. أخبِرْهُم أن لقبَك روكفِلر، يقولُ الكبير، يجبُ ألا تُخفِق في ذلك. تمرّ ساعتان، وعندما يجلسُ الشّابّ الروسي من أجل أن يُقابلَهُ موظّف الهجرة، فإنه لا يعود قادراً على نطق الاسم الذي نصحه الكبير باستخدامه. اسمُكَ؟ يسأل الموظّف. يصفعُ الشّابّ رأسه من الخيبة، ثمّ يقولُ باللغة اليديشية بلا تفكير: *إيخا هوب فارغيسِن (وتعني: لقد نَسيتُ)!* وهكذا، يَنزعُ موظّف الهجرة في جزيرة إيليس الغطاء عن قلمه، وبكل مهنية، يُدوِّن الاسم في سجلّه الرسمي: إتشابود فيرغسون.

أحبّ فيرغسون النكتة، وضحك بشدّة عندما سمعها في مطبخ والدته في ذلك الصباح، لكنْ، عندما عرجَ إلى غرفته في الطابق العلوي بعد ذلك، وجد نفسه غير قادر على التّوقّف عن التفكير بها، ولأنه ما من شيء آخر كي يُشتّت انتباهه، ظلّ يفكّر بالمهاجر المسكين لبقية الصباح ووقت مبكّر من الظهيرة، وعند تلك المرحلة، تحرّرت القصّة من نطاق النكات، وأصبحت حكاية رمزية عن مصير الإنسان، والسُّبُل المتشعّبة اللانهائية التي لا بدّ ستقابل المرء خلال رحلته في الحياة. لقد تمزّق شابّ فجأة إلى ثلاثة شباب آخرين؛ كل منهم مُطابق للآخر، لكنهم بأسماء مختلفة: روكفلر، وفيرغسون، وx الطويل العَصيّ على اللفظ، والذي سافرَ معه من روسيا إلى جزيرة إيليس. في النكتة، ينتهي به الأمر بحمل اسم فيرغسون، لأن موظّف الهجرة لم يفهم اللغة التي كان يتحدّث بها. كان ذلك مثيراً للاهتمام ما يكفي - أن تُجبر على اسمٍ بسبب خطأ بيروقراطي لشخص ما، ثمّ تُواصِل حملَ ذلك الاسم لبقية حياتكَ. مثير للاهتمام؛ بمعنى عجيب *أو مضحك أو مأساوي*. تحوّلَ يهودي روسي إلى مَشْيَخي إسكوتلندي بخمس عشرة جرّة قلم بيد رجل آخر. وإذا عُدّ اليهوديُ بروتستانتياً في أميركا البروتستانتية البيضاء؛ إذا افترضَ كلُّ من يُصادِفونه تلقائياً أنه شخص آخر غير ما هو عليه، فكيف سيؤثّر ذلك على حياته المستقبلية في أميركا؟ من المستحيل تحديدُ ذلك، لكنْ، بمقدور المرء افتراض أنه سيُحدِث فرقاً، ولن تكون

الحياةُ التي يعيشها بِعَدِّه فيرغسون هيَ نفسها التي كان سيعيشها بِعَدِّه الشّابّ اليهودي ×. من جهة أخرى، لم يُعارِض الشّابّ × تغيير اسمه إلى روكفلر. لقد قبِلَ نصيحة مواطنه الأكبر سنّاً بشأن ضرورة اختيار اسم آخر، فماذا لو أنه تذكّرَ ذلك الاسم بدلاً من تركه يتسرّب خارج عقله؟ كان سوف يصبح روكفلر، ومنذ ذلك اليوم فصاعداً، سيفترضُ الناس أنه فرد من العائلة الأكثر ثراء في أميركا. ما كانت لكنته اليديشية لتنطلي على أحد، لكنْ، كيف سيمنعُ ذلك الناسَ من افتراض أنه ينتمي إلى فرع آخر من العائلة؛ فرع أجنبي بعيد، يمكن أن يعود في النسب مباشرة إلى جون د. ووارثيه؟ ولو تذكّر للشّابّ × أن يطلق على نفسه اسم روكفلر، فكيف كان ذلك سيؤثّر على حياته المستقبلية في أميركا؟ هل ستكون حياته هي نفسها أم أنها ستختلف؟ لا شكّ أنها ستختلف، قال فيرغسون لنفسه، لكنْ، كان من المستحيل معرفة أي طريق ستسلُك.

اكتشفَ فيرغسون، الذي لم يكن لقبه فيرغسون، أن من المثير للفضول تخيُّل نفسه وقد وُلد بلقب فيرغسون أو روكفلر؛ شخص بلقب مختلف عن × الذي ارتبط به عندما سُحِب من رحم والدته في الثالث من شهر نيسان لسنة 1947. في الحقيقة، لم يُمنَح والدُ والدِه اسماً آخر عندما وصل إلى جزيرة إيليس في الأوّل من شهر كانون الثاني لسنة -1900 لكنْ، ماذا لو حدث ذلك؟

مِن هذا السؤال، وُلِدَ كتابُ فيرغسون التالي.

ليس شخصاً واحداً بثلاثة أسماء، قال فيرغسون لنفسه في تلك الظهيرة، وصادفَ أن حدث ذلك في اليوم الأوّل من سنة 1970؛ الذكرى السبعون لوصول جَدّه إلى أميركا (في حال صَدقَت أسطورة العائلة)، الرجلُ الذي لم يصبح فيرغسون ولا روكفلر، وقُتِل بالرصاص داخل مخزن للبضائع الجلدية في شيكاغو في سنة 1923، لكنْ، لمُقتَضيات القصّة، سيبدأ فيرغسون بجَدّه والنكتة، وبمجرّد أن يحكي النكتة في المقطع الأوّل، لن يعود جَدُّه شابّاً بثلاث أسماء مُحتملة، لكنْ، سيحمل اسماً واحداً، ليس × أو روكفلر، بل فيرغسون، ثمّ، بعد أن يفرغ من سرد قصّة لقاء والديه، وزواجهما، ومجيئه إلى الحياة (وذلك كله مَبني على نوادر كان قد سَمعها من والدته على مرّ السنين)، سيُقلّبُ فيرغسون المسألة في رأسه، وبدلاً من السعي وراء مفهوم الشخص الواحد ذي الأسماء الثلاثة، سيخترعُ ثلاث نُسخ أخرى من نفسه، ويروي قصصها إلى جانب قصّته (تقريباً قصّتُه، لأنه سيتحوّل أيضاً إلى شخصية مُتخيّلة منه)، وسيؤلّف كتاباً عن أربع أشخاص متطابقين، لكنْ، مختلفين، يحملون الاسم نفسه: فيرغسون.

اسمٌ وُلِدَ من نكتة عن الأسماء. الكلمة الأخيرة من نكتة عن اليهود البولنديين والروس الذين ركبوا البحر، وجاؤوا إلى أمريكا. نكتةٌ لا شكّ يهودية عن أميركا - والتمثال الضخم الذي ينتصب في ميناء نيويورك.

أمُّ المنفيين.

أبو الخِلاف.

واهب الأسماء المشوّهة.

كان لا يزال مُسافراً في الطريقين اللذين تخيّلهما عندما كان صبياً في الرابعة عشرة من عمره، لا يزال يتمشّى على الطُّرُقات الثلاثة بصحبة لازلو فلوت، وطوال الوقت، منذ بداية حياته الواعية، مع الشعور المتواصل بأن كلّ مفارق الطُّرُق والطُّرُق المحاذية التي سلكها أو لم يسلُكها كانت معبراً للأشخاص نفسهم في الوقت نفسه، الأشخاص المرئيين والأشخاص الخفيين، وأن العالم بصورته الحالية ليس إلا جزءاً ضئيلاً من العالم، وأن ذلك الطريق ليس أفضل أو أسوأ من أيّ طريق آخر، بيد أن عذاب العيش في جسد واحد، يُحتّم عليكَ التواجدَ في أيّ لحظة على طريق واحد، مع أنكَ قد تكون على طريق آخر، مسافراً إلى مكان مختلف كلّيّاً.

متطابقون، لكنْ، مختلفين، أي أربع فتية للأبوين نفسيهما، وبالأجساد نفسها، والموادّ الوراثية نفسها، لكنْ، يعيشُ كلّ منهم في منزل مختلف، في مدينة مختلفة، في ظلّ مجموعة ظروفه الخاصّة. يتنقّلون بين هذا الطريق وذاك بتأثير تلك الظروف، ومع تقدُّم الكتاب، يبدأ الفتية بالافتراق؛ يزحفون أو يسيرون أو يركضون عبر الطفولة، والمراهقة، والرجولة المبكّرة، كشخصيات أكثر وأكثر اختلافاً، كلٌّ منهم على دربه المنفصل، ومع ذلك، ما يزالون جميعاً الشخص نفسه، ثلاث نُسخٍ مُتخيّلةٍ منه، ثمّ يظهرُ نفسُه بِعَدِّه الشخصية الرابعة، مؤلّف الكتاب، لكنْ، كانت تفاصيل الكتاب لا تزال مجهولة بالنسبة إليه عند تلك المرحلة، لن يفهم ما كان يحاولُ فعلَه قبل البدء فيه، لكنْ، كان الشيء الحتمي أن يُحبَّ أولئك الفتية الآخرين كما لو كانوا حقيقيين، أن يُحبّهم بقدر ما أحبّ نفسه، بقدر ما أحبّ الفتى الذي سقط ميتاً أمام ناظريه في فترة ظهيرة من صيف سنة 1961، وبعد وفاة والده أيضاً، كان لازماً أن يؤلّف هذا الكتاب - من أجلهم.

لم يكن الله في أيّ مكان، قال لنفسه، لكنْ، كانت الحياة في كلّ مكان، والموت في كلّ مكان، وكان الأحياء والموتى متّصلين.

كان ثمّة شيء مؤكّد واحد فقط: واحدة تلو أخرى، ستموتُ نسخ فيرغسون المُتخيّلة، مثلما مات أرتي فيدرمان، لكنْ، فقط بعد أن تعلّم أن يحبّهم كما لو كانوا حقيقيين، فقط بعد أن أصبحت مُشاهدةُ موتِهم لا تُطاق بالنسبة إليه، وبعد ذلك، سيعود وحيداً مع نفسه مرّة أخرى، آخِر الصامدين.

ومن هُنا جاء عنوان الكتاب: *4 3 2 1*.

***

وهكذا ينتهي الكتاب - بانطلاق فيرغسون لتأليف الكتاب. مُحمّلاً بحقيبتين ثقيلتين وحقيبة ظهر، غادرَ نيويورك في الثالث من شباط، وركب الحافلة إلى مونتريال، حيثُ أمضى أسبوعاً بصحبة لوثر بوند، ثمّ سافر على متن طائرة عبر المحيط إلى باريس. وعلى مدى السنوات الخمس والنصف التالية، عاش في شقّة من غرفتين، في شارع ديكارت، في الدائرة الخامسة، وعمِل باطّرادٍ على روايته عن نسخ فيرغسون الأربع، والتي تعاظمَت، لتصبح كتاباً أكبر بكثير ممّا كان يتخيّله، وعندما كتب الكلمة الأخيرة في الخامس والعشرين من شهر آب لسنة 1975، بلغ عدد صفحات المخطوط ألفاً ومئة وثلاثاً وثلاثين صفحة مزدوجة التباعد.

كانت المقاطع الأكثر صعوبة بالنسبة إليه تلك التي سرَدَت وفاة فتيتِه المحبوبين. كم كان قاسياً استحضار العاصفة التي قتلَت الفتى طَلق المحيا الذي كان في الثالثة عشرة من عمره، وكم شعرَ بالألم بينما كتب تفاصيل حادث السير الذي أنهى حياة فيرغسون الثالث في العشرين من عمره، وبعد هاتين الميتتين المروّعتين الضروريتين، لم يحدُث أن شعر بألمٍ أشدّ من ذاك الذي اجتاحه عندما سرد وفاة فيرغسون الأوّل في ليلة الثامن من أيلول لسنة 1971، وكان قد أرجأ كتابة هذا المقطع حتّى الوصول إلى الصفحات الأخيرة من الكتاب، تفاصيلُ الحريق الذي التهم المنزل في روتشستر، نيويورك، عندما نام تشارلي فينسنت، جارُ فيرغسون الأوّل، بينما كان يُدخّن سيجارة بول مول على السرير، واشتعل مع الأغطية والبطّانيّات التي كانت تغطّيه، وبينما اجتاحت ألسنة اللهب الغرفة، ارتفَعت أخيراً، ولامسَت السقف، ولأن الخشب في ذلك المنزل القديم كان جافّاً ومُتفتّتاً، اندفعت النيران عبر السقف، وأشعلَت اللهب في أرضَ غرفة النوم في الطابق العلوي، وتقدّمت النيران بسرعة هائلة نحو الصحفي، والمترجم، وعاشق هالي دويل الذي كان نائماً، وكان في الرابعة والعشرين من عمره حينها، لدرجة أن الغرفة احترقت برمّتها قبل أن تُتاح له الفرصة، كي يقفز عن سريره، ويزحف خارج النافذة.

أخذ فيرغسون استراحة. نهض عن مكتبه، وسحبَ سيجارة من جيب قميصه، وتمشّى جيئة وذهاباً بين غرفتي الشّقّة الصغيرة، وبمجرّد أن شعر بأن عقله كان رائقاً ما يكفي للبدء من جديد، عاد إلى مكتبه، جلس على الكرسي، وكتبَ الفقرات الأخيرة من الكتاب:

لو نجا فيرغسون الأوّل في تلك الليلة، لاستيقظ في صباح اليوم التالي، وذهب إلى

أتيكا بصحبة جيانيللي، وخلال الأيّام الخمسة التالية، سيكتب مقالات عن انتفاضة السجن، والاستيلاء الجماعي الذي نفّذه ما يزيد عن ألف رجل، وتسبّب في تعطيل المنشأة بينما أخذ المضربون تسعة وثلاثين حارساً كرهائن من أجل تحقيق مطالبهم بالإصلاح. كان هناك القليل من الشّكّ في أن فيرغسون الأوّل سيشعر بالشجاعة إزاء تضامُن السجناء. لقد تعاون الجميع تقريباً معاً في ذلك السجن المنقسم عِرْقياً دعماً للمطالب، وللمرّة الأولى منذ زمن أبعد ممّا يمكن تذكُّره، وقف السجناء السود، والسجناء البيض، والسجناء اللاتينيون، في صفٍّ واحد. تراجع الجانب الآخر قليلاً، لكنْ، ليس ما يكفي لإعطاء أي أمل. رفضوا مطلب العفو العامّ، ورفضوا مطلب استبدال مدير السجن، ورفضوا المطلب المستحيل باعتراف الجميع بتأمين ممرّ آمن للمتمرّدين إلى خارج البلاد، حتّى بعد أن وعدت الحكومة الجزائرية باستقبالهم جميعاً. أربعة أيّام من المفاوضات الطاحنة الفاشلة بين السجناء ومُفوَّض قسم شؤون الإصلاحيات راسل أوزوالد، وأربعة أيّام من رفض حاكم الولاية روكفلر المتواصل الذهابَ إلى السجن ومساعدة الطرفين على التّوصّل إلى تسوية. ثمّ، في الثالث عشر من أيلول، أمر روكفلر على نحوٍ مُحيّر باستعادة السيطرة على السجن باستخدام القوّة. في الساعة 9:46 صباحاً، قامت كتيبة ضبّاط الإصلاحيات وقوّات شرطة ولاية نيويورك، والذين تمركزوا على الأسوار الخارجية للسجن بإطلاق النار على الرجال في الباحة، ممّا أسفر عن مقتل عشرة رهائن وتسعة وعشرين سجيناً، ومن بينهم سام ملفيل، حيثُ طاردوه، وأعدموه من مسافة قصيرة بعد دقائق من توقُّف وابل نيران البنادق. بالإضافة إلى تلك الوفيات التسع والثلاثين، جُرِح ثلاثة رهائن وخمسة وثمانون سجيناً. كانت أرض باحة السجن مغمورة بالدماء.

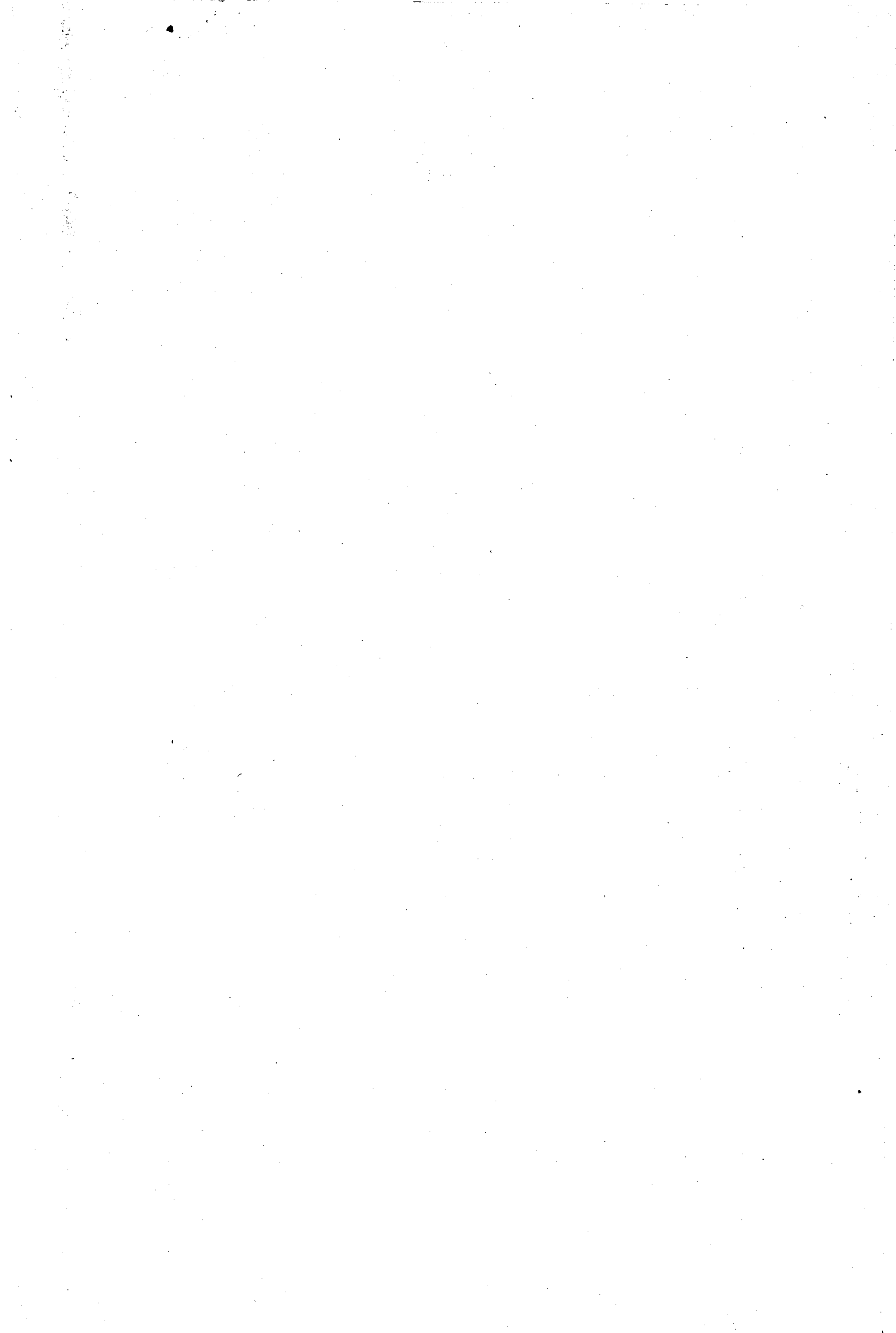
بعد الهجوم مُباشرة، انتشر خبر مفاده أن السجناء كانوا قد شقّوا حناجر عشرة من الأسرى القتلى، لكنْ، في اليوم التالي في روتشستر، عندما فحصَ الطبيب الشرعي القادم من مقاطعة مونرو جثثَ الحرّاس العشرة، أكّد أنّ أيّاً منهم لم يُقتَل نتيجة جروح بالسّكّين. كان زملاؤهم الضّبّاط هم الذين أطلقوا الرصاص عليهم جميعاً. وفي تقريرٍ أعدّهُ جوزف ليليفيلد ونشرَته *النيويورك تايمز* في اليوم الخامس عشر، ورد أن أحد أقارب الحرّاس المذبوحين، كارل فالون، شاهد الجثّة، ثمّ قال لاحقاً: "لم يكن هناك أيّ شقّ. لم يمسَّ أحد كارل. لقد قُتِلَ برصاصة، تحملُ اسم روكفلر".

مثّلَ نيلسون روكفلر الجناح الليبرالي للحزب الجمهوري، وقبل مجزرة أتيكا، كان يُنظَر إليه دائماً بِعَدِّه رجل الاعتدال والمنطق السليم، لكنْ، في شهر أيّار من سنة 1973، أربكَ العالم

مرّة أخرى عندما دفع بمجموعة قوانين إلى المجلس التشريعي في نيويورك، تنصُّ على حدّ أدنى من عقوبات، تتراوح بين خمس عشرة سنة إلى السجن المؤبّد مقابل بيع أوقيتين أو أكثر من الهيروين، أو المورفين، أو الأفيون، أو الكوكايين، أو الحشيش، أو حيازة أربع أوقيات أو أكثر من الموادّ المخدّرة المذكورة نفسها. كانت الحزمة المعروفة باسم قوانين مخدّرات روكفلر الأشدَّ تأديبيةً على الإطلاق مقارنة بأي ولاية في البلاد.

ربمّا كان لا يزال يحلم بأن يصبح رئيساً، وأرادَ إظهار مدى صرامته أمام معسكر الجمهور الأميركي صارم الانضباط بالقانون والنظام، لكنْ، رغم أنه تاق أبداً لأن يصبح قائداً للعالم الحرّ، إلا أنه فشلَ بالفوز بترشيح حزبه بعد أن خاض سباق رئاسته لـ 1960/ 1964، و1968، حيثُ خسر أمام نيكسون، وغولدووتر، ونيكسون مرّة أخرى، لكنْ، عندما استقال نيسكون المجلّل بالعار من منصب الرئاسة في سنة 1974، تولىّ نائبه جيرالد فورد، الذي عُيِّن بعد استقالة سبيرو أغنيو المجلّل بالعار هو الآخر، منصبَ الرئيس الجديد، وحدّد نيلسون روكفلر ليصبح نائباً للرئيس، ممّا جعلهما الرجلين الوحيدين في التاريخ الأميركي اللذين يتولّيان مناصبهما دون أن ينتخبهما الشعب الأميركي، وهكذا، في التاسع عشر من كانون الأوّل لسنة 1974، وبعد 287 مقابل 128 صوتاً في مجلس النوّاب، و90 مقابل 7 أصوات في مجلس الشيوخ، أقسم نيلسون روكفلر اليمين الدستورية بِعَدِّه نائب رئيس الولايات المتّحدة الحادي والأربعين.

كان متزوّجاً من امرأة اسمُها **هابيّ** [سعيدة].



كيف كانت ستكون حياتنا لو أننا اخترنا خياراً آخرَ بدل الذي اخترناه؟ أي نوع من الناس كنّا سنكون اليوم، لو لم يفتنا ذلك القطار، لو أننا قبلنا دعوة أحدهم للغداء، لو أننا خرجنا من باب آخر لمركز التسوق، لو، لو، لو ...

في ٣ مارس ١٩٤٧، في نيوارك بولاية نيوجيرسي، ولد آرتشيبالد إسحاق فيرغسون، الولد الوحيد لكل من روز وستانلي فيرغسون. منذ الولادة، يسلك آرتشي أربعة مسارات مختلفة تؤدي إلى أربع حيوات مختلفة ومتشابهة كلّ على حدة، بطل رياضي، صحفي مضطرب، ناشط، كاتب صعلوك، كما لو أنها أربعة كتب في مجلد واحد.

كلّ فرد يحتفظ بداخله، مثل المسافرين خلسة على متن باخرة ليلية، بظلال جميع الأشخاص الآخرين الذي كان يمكن أن يصبحهم. لطالما استكشف الأدب "الحياة الافتراضية"، ليس حياة الحواسيب، بل المصائر البديلة، التي قرّرتها الصدفة أو التاريخ. بول أوستر هنا يأخذ على عاتقه حرفياً هذه المهمة التي منحها الأدب لنفسه فيكتب تحفته هذه. ١٢٣٤ هي رواية كلّ حيوات آرتشي فيرغسون، التي عاشها، والتي كان يمكن له أن يعيشها. يكتب بول أوستر هنا سيمفونية مهيبة عازفاً على مفاتيح القدر والصدفة. كتاب يجمع بورخيس وديكنز معاً. إنها مغامرة مذهلة وجنونية، فريدة ومتعدّدة مثل حياة كل فرد.

ثمّة الكثير في ١٢٣٤: هناك اكتشاف الجنس والشعر، وهناك احتجاجات لنيل الحقوق المدنية واغتيال كنيدي، وهناك الرياضة ومظاهرات ١٩٦٨، هناك باريس ونيويورك، هناك كل أعمال أوستر، كنضج متوازن، وهناك كل الكتّاب الكبار الذين ألهموه، هناك الموت والرغبة.

منشورات المتوسط

تعد رواية أوستر المذهلة التي تتجاوز الـ ٨٠٠ صفحة، والتي تشبه روايات القرن السابع عشر الضخمة، وفقاً للكثيرين أعظم رواياته على الإطلاق. في هذه النظرة البانورامية الواسعة والطموحة على الحياة الأمريكية بين ١٩٤٧ و ١٩٧١، نتتبع حياة أرتشي فيرغسون، الطفل الذكي من نيوجرزي، من خلال أربعة أقدار ومصائر بديلة. رواية صعبة وجامحة وغامرة.

(فايننشال تايمز)

هذه رواية بول أوستر الأولى منذ سبعة أعوام. تعد هذه الرواية العمل الأعظم والأكثر ألماً واستفزازاً وجمالاً. قصة تخطف الأنفاس حول الحق الطبيعي المكتسب بالحياة وإمكانية الحب والامتلاء بالحياة نفسها. إنها «تحفته الفنية».

(صحيفة سان فرانسيسكو كرونيكل)

بول أوستر «سيد الأساطير الأمريكية الحديثة»

(الإندبندنت)

